المعهد الملكي للدراسات الدينية

عيسى ومريم في القرآن والتفاسير

تحرير

رياض أبو وندي — علاء رشق

حسن البطوش — عوّاد علي

بإشراف

يوسف قزما خوري



1996

تأسس المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمان سنة ١٩٩٤ وهو يهدف إلى تعميق الفهم المتبادل بين الإسلام والمسيحية عن طريق الأبحاث والحوار العلمي

العنوان : صندوق بريد ٨٣٠٥٦٢ عمان ١١١٨٣
فاكس : ٦١٨٠٥٣ - ٦ - ٩٦٢ / المملكة الأردنية الهاشمية



1996

الناشر

■ دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس: ٦١٠٠٦٥
ص.ب.: ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠ عمان - الأردن

■ دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله - فلسطين

التوزيع

■ المركز العربي للمطبوعات ش.م.م.
ص.ب.: ٥٦٨٧ / ١٣ تلفاكس: ٨٦٢٩٩٤ بيروت - لبنان

■ التنضيد القرآني والصف والماكيت: المركز العربي للمطبوعات

■ الطباعة والتجليد: مطبعة العلوم

■ رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٤٣٦ / ٣ / ١٩٩٦)

رقم التصنيف: ٢٢٨
المؤلف ومن هو في حكمه : المعهد الملكي للدراسات الدينية
عنوان المصنف : عيسى ومريم في القرآن والتفاسير
الموضوع الرئيسي : ١ـ الديانات
٢ـ القرآن الكريم ـ قصص
رقم الايداع: (٤٣٦ / ٣ / ١٩٩٦)
بيانات النشر: عمان ـ دار الشروق
* تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

المحتويات

الصفحة

التمهيد

يضم هذا الكتاب ١٢٠ آية من القرآن الكريم تأتي على ذكر موضوع «المسيح عيسى ابن مريم» و «مريم ابنة عمران»، تمثل حوالي اثنين بالمئة من مجموع آياته. يتبادر إلى ذهن القارىء، بادىء ذي بدء، السؤال عن الكيفية التي أتى بها القرآن على ذكر الموضوع. لذلك نورد هنا، على سبيل المثال لا الحصر، نماذج ست منها:

١ ـ ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة، ٨٧ و ٢٥٣).

٢ ـ ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (آل عمران، ٤٥ ـ ٤٦).

٣ ـ ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ (النساء، ١٧١ ـ ١٧٢).

٤ ـ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ (المؤمنون، ٥٠).

٥ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (آل عمران، ٤٢).

٦ ـ ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء، ٩١).

علماً أنه ورد اسم «عيسى» في ٢٥ آية، واسم «المسيح» في ١١ آية، واسم «مريم» في ٣٤ آية، موزعين على النحو التالي: «عيسى» ٩ مرات، و «عيسى ابن مريم» ١٣ مرة، و «المسيح» ٣ مرات، و «المسيح ابن مريم» ٥ مرات، و «المسيح عيسى ابن مريم» ٣ مرات، و «ابن مريم» مرتان؛ و «مريم» ١٠ مرات، و «مريم ابنة عمران» مرة واحدة.

لقد ذكرت الآية أولاً ثم تلتها تفاسيرها في عدد مختار من كتب التفاسير. إن الغرض من علم التفسير، على حد تعريف حاجي خليفة صاحب كتاب **كشف الظنون**، هو «معرفة نظم القرآن، وفائدته حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة، وموضوعه كلام الله سبحانه وتعالى الذي هو منبع كل حكمة ومعدن كل فضيلة... ولا بد للمفسر من التبحر في كل العلوم» (عمود ٤٢٧). نورد هنا ما جاء في هذا الكتاب القيّم، الذي يعد من أهم المراجع في تعريف المصنفات العربية، لثلاثة من كتب التفاسير المعتمدة:

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري: «وكتابه أجلّ التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين (عمود ٤٣٧).

٢ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل** للزمخشري: «ثم جاءت فرقة أصحاب النظر في علوم البلاغة التي بها يدرك وجه الإعجاز، وصاحب **الكشاف** هو سلطان هذه الطريقة، فلذا طار كتابه في أقصى المشرق والمغرب» (عمود ١٤٧٦).

٣ ـ **أنوار التنزيل** للبيضاوي: «وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن، غني عن البيان، لخّص فيه من **الكشاف** [للزمخشري] ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن **التفسير الكبير** [للرازي] ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن **تفسير الراغب** [أبو القاسم الحسين الراغب الأصفهاني] ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الاشارات، وضم إليه ما وري زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة، فجلا رين الشك عن السريرة وزاد في العلم بسطة وبصيرة» (عمود ١٨٧). هذا غيض من فيض مما قيل في أهمية كتب التفاسير.

ونظراً لاتساع مادة التفاسير، التي تزيد على ثلاث مجلدات كبيرة الحجم، وتجنباً للتكرار، اقتصر على ايراد الأصول من هذه التفاسير واستبعدت الفقرات المنقولة حرفياً بحذافيرها، كما اقتصر في الأحاديث «المعنعنة» على ذكر السند الأول والسند الأخير فقط. راجين أن يسهم هذا الكتاب بمساعدة الباحثين بإلقاء بعض الضوء على دراسة موضوع «الديانات المقارنة» بالعمق المتوخى.

٣٠ آذار ١٩٩٦

يوسف قزما خوري

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٨٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١	ص ٣١٩ ـ ٣٢١	ابن كثير	ج ١	ص ١٢٢ ـ ١٢٣
الزمخشري	ج ١	ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥	الجلالان		ص ١٧
الرازي	ج ٣	ص ١٧٥ ـ ١٧٨	الشوكاني	ج ١	ص ١١٠ ـ ١١٢
الطبرسي	ج ١	ص ٣٤٦ ـ ٣٤٩	الآلوسي	ج ١	ص ٣١٦ ـ ٣١٨
ابن عربي	ج ١	ص ٧١ ـ ٧٣	القاسمي	ج ٢	ص ١٨٥ ـ ١٨٦
البيضاوي	ج ١	ص ١٦٨ ـ ١٦٩	محمد عبده	ج ١	ص ٣٧٦ ـ ٣٧٨
الخازن	ج ١	ص ٨٠ ـ ٨١	الطباطبائي	ج ١	ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣
البغوي	ج ١	ص ٥٧ ـ ٥٨	جوهري	ج ١	ص ٩٦
الماوردي	ج ١	ص ١٥٥ ـ ١٥٦	المراغي	ج ١	ص ١٦٣ ـ ١٦٥
القرطبي	ج ٢	ص ٢٣ ـ ٢٥	سيد قطب	ج ١	ص ٨٨ ـ ٨٩
أبو حيان الأندلسي	ج ١	ص ٢٩٨ ـ ٣٠١			

الطبري ج ١ ص ٢١٩ ـ ٢٢١

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه آتينا موسى الكتاب أنزلناه إليه وقد بينا أن معنى الإيتاء الاعطاء فيما مضى قبل والكتاب الذي آتاه الله موسى عليه السلام هو التوراة وأما قوله ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ فإنه يعني وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض كما يقفو الرجل الرجل إذا سار في أثره من ورائه وأصله من القفا يقال منه قفوت فلاناً إذا صرت خلف قفاه كما يقال دبرته إذا صرت في دبره ويعني بقوله ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعد موسى ويعني بالرسل الأنبياء وهم جمع رسول يقال هو رسول وهم رسل كما يقال هو صبور وهم قوم صبر وهو رجل شكور وهم قوم شكر وإنما يعني جل ثناؤه بقوله ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا بعضهم بعضاً على منهاج واحد وشريعة واحدة لأن كل من بعثه الله نبياً بعد موسى ﷺ إلى زمان عيسى ابن مريم فإنما بعثه يأمر بني اسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها فلذلك قيل وقفينا من بعده بالرسل يعني على منهاجه وشريعته والعمل بما كان يعمل به.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني بقوله ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ التي آتاه الله إياها ما أظهر على يديه من الحجج والدلالة على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه ونحو ذلك من الآيات التي أبانت منزلته من الله ودلت على صدقه وصحة نبوته كما حدثنا ابن حميد. . . عن ابن عباس ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب مما يدخرون في بيوتهم وما ردّ عليهم من التوراة مع الإنجيل الذي أحدث الله إليه.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أما معنى قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ فإنه قويناه فأعناه كما حدثني المثنى. . . عن الضحاك ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ يقول نصرناه يقال منه أيدك الله أي قواك وهو رجل ذو أيد وذو آد يراد ذو قوة

ومنه قول العجاج من أن تبدلت بآدي آدا يعني بشبابي قوة المشيب ومنه قول الآخر:

إن القداح إذا اجتمعن فرامها
بالكسر ذو جلد وبطش أيد

يعني بالأيد القوي ثم اختلف في تأويل قوله ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ فقال بعضهم روح القدس الذي أخبر الله تعالى ذكره أنه أيد عيسى به هو جبريل عليه السلام ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال هو جبريل حدثني موسى بن هرون... عن السدي قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال هو جبريل عليه السلام حدثني المثنى... عن الضحاك في قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال روح القدس جبريل حدثت عن عمار... عن الربيع ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال أيد عيسى بجبريل وهو روح القدس وقال ابن حميد حدثنا سلمة... عن شهر بن حوشب الأشعري أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا أخبرنا عن الروح قال أنشدكم بالله وبأيامه عند بني اسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو يأتيني قالوا نعم. وقال آخرون الروح الذي أيد الله به عيسى هو الإنجيل ذكر من قال ذلك حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً كلاهما روح الله كما قال الله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقال آخرون هو الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى ذكر من قال ذلك حدثت عن المنجاب.. عن ابن عباس ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال هو الاسم الذي كان يحيي عيسى به الموتى وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال الروح في هذا الموضع جبريل لأن الله جل ثناؤه اخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] فلو كان الروح الذي أيده الله به هو الإنجيل لكان قوله إذا أيدتك بروح القدس وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل تكرير قول لا معنى له وذلك أنه على تأويل قول من قال معنى إذ أيدتك بالإنجيل وإذ علمتك الانجيل وهو لا يكون به مؤيداً إلا وهو معلمه فذلك تكرير كلام واحد من غيرزيادة معنى في أحدهما على الآخر وذلك خلف من الكلام والله تعالى ذكره يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة وإذا كان ذلك كذلك فبين فساد قول من زعم أن الروح في هذا الموضع الإنجيل وإن كان جميع كتب الله التي أوحاها رسله روحاً منه لأنها تحيا بها القلوب الميتة وتنتعش بها النفوس المولية وتهتدي بها الأحلام الضالة وإنما سمى الله تعالى جبريل روحاً وأضافه إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له روحاً من عنده من غير ولادة والد ولده فسماه بذلك روحاً وأضافه إلى القدس والقدس هو الطهر كما سمى عيسى به مريم روحاً له من أجل تكوينه له وروحاً من عنده من غير ولادة والد ولده. وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا أن معنى التقديس التطهير والقدس الطهر من ذلك وقد اختلف أهل التأويل في معناه في هذا الموضع نحو اختلافهم في الموضع الذي ذكرناه. حدثني موسى... عن السدي قال القدس البركة حدثت عن عمار قال ثنا ابن أبي جعفر.. عن أبيه قال القدس هو الرب تعالى ذكره حدثني يونس... عن ابن زيد ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قال الله القدس وأيد عيسى بروحه قال نعت الله القدس وقرأ قول الله جل ثناؤه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] قال القدس والقدّوس واحد. حدثني يونس... عن عطاء بن يسار قال قال كعب الله القدس.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ اليهود من بني اسرائيل حدثني بذلك محمد بن عمرو عن أبو جعفر يقول الله جل ثناؤه لهم: يا معشر يهود بني اسرائيل لقد آتينا موسى التوراة وتابعنا من بعده بالرسل اليكم وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجيج إذ بعثناه إليكم وقويناه بروح القدس وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم تجبروا بغيا استكبار أمامكم ابليس فكذبتم بعضاً منهم وقتلتم بعضاً فهذا فعلكم أبدا برسلي. وقوله ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ وإن كان خرج مخرج التقرير في الخطاب فهو بمعنى الخبر.

الزمخشري ج ١ ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة آتاه إياها جملة واحدة ويقال قفاه إذا اتبعه من القفا نحو ذنبه من الذنب، وقفاه به أتبعه إياه. يعني وأرسلنا على أثره الكثير من الرسل كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون:٤٤] وهم يوشع واشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم، وقيل ﴿عِيسَى﴾ بالسريانية يشوع، و﴿مَرْيَمَ﴾ بمعنى الخادم، وقيل المريم بالعربية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة. «قلت لزير لم تصله مريمه». ووزن مريم عند النحويين مفعل لأن فعيلا بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عتير وعليب ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات والحجج كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات، وقرىء وآيدناه، ومنه آجده بالجيم إذا قواه، يقال الحمد لله الذي آجدني بعد ضعف وأوجدني بعد فقر ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة كما تقول: حاتم الجود ورجل صدق. ووصفها بالقدس كما قال وروح منه فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة. وقيل لأنه لم تضعه الأصلاب ولا أرحام طوامث، وقيل بجبريل، وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢] وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره، والمعنى: ولقد آتينا يا بني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناهم ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ منهم بالحق ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجيب من شأنهم، ويجوز أن يريد: ولقد آتيناهم ما آتيناهم ففعلتم ما فعلتم ثم وبخهم على ذلك، ودخول الفاء لعطفه على المقدر. فإن قلت: هلا قيل وفريقاً قتلتم؟ قلت: هو على وجهين أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع، فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. وقال ﷺ عند موته «مازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري». . .

الرازي ج ٣ ص ١٧٥ ـ ١٧٨

. . . اعلم أن هذا نوع آخر من النعم التي أفاضها الله عليهم ثم إنهم قابلوه بالكفر والأفعال القبيحة وذلك لأنه تعالى لما وصف حال اليهود من قبل بأنهم يخالفون أمر الله تعالى في قتل أنفسهم إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وبين أنهم بهذا الصنيع اشتروا الدنيا بالآخرة زاد في تبكيتهم بما ذكره في هذه الآية. أما الكتاب فهو التوراة آتاه الله إياها جملة واحدة، روي عن ابن عباس أن التوراة لما نزلت أمر الله تعالى موسى بحملها فلم يطق ذلك، فبعث الله لكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله على موسى فحملها.

وأما قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قفينا أتبعنا مأخوذ من الشيء يأتي في قفاه الشيء أي بعد نحو ذنبه من الذنب، ونظيره قوله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

المسألة الثانية: روى أن بعد موسى عليه السلام إلى أيام عيسى عليه السلام كانت الرسل تتواتر ويظهر بعضهم في أثر بعض والشريعة واحدة إلى أيام عيسى عليه السلام فإنه صلوات الله عليه جاء بشريعة مجددة، واستدلوا على صحة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ فإنه يقتضي أنهم على حد واحد في الشريعة يتبع بعضهم بعضاً فيها، قال القاضي إن الرسول الثاني لا يجوز أن يكون على شريعة الأول حتى لا يؤدي إلا تلك الشريعة بعينها من غير زيادة ولا نقصان مع أن تلك الشريعة محفوظة يمكن معرفتها بالتواتر عن الأول لأن الرسول إذا كان هذا حاله لم يمكن أن يعلم من جهة إلا ما كان قد علم من قبل أو يمكن أن يعلم من قبل فكما لا يجوز أن يبعث الله تعالى رسولاً لا شريعة معه أصلاً، تبين العقليات لهذه العلة، فكذا القول في مسألتنا فثبت أنه لا بد في الرسل الذين جاؤا من بعد موسى عليه السلام أن يكونوا قد أتوا بشريعة جديدة إن كانت

الأولى محفوظة أو محيية لبعض ما اندرس من الشريعة الأولى. والجواب: لم لا يجوز أن يكون المقصود من بعثة هؤلاء الرسل تنفيذ تلك الشريعة السالفة على الأمة أو نوع آخر من الألطاف لا يعلمها إلا الله، وبالجملة فالقاضي ما أتى في هذه الدلالة إلا بإعادة الدعوى، فلما قال إنه لا يجوز بعث هؤلاء الرسل إلا لشريعة جديدة أو لإحياء شريعة اندرست وهل النزاع وقع إلا في هذا؟.

المسألة الثالثة: هؤلاء الرسل هم: يوشع، وشمويل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعياء، وأرمياء، وعزير، وحزقيل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم.

أما قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: السبب في أن الله تعالى أجمل ذكر الرسول ثم فصل ذكر عيسى لأن من قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى فكانوا متبعين له، وليس كذلك عيسى لأن شرعه نسخ أكثر شرع موسى عليه السلام.

المسألة الثانية: قيل عيسى بالسريانية أيشوع، ومريم بمعنى الخادم وقيل مريم بالعبرانية من النساء كزير من الرجال، وبه فسر قول رؤبة:

«قلت لزير لم تصله مريمه»

المسألة الثالثة: في البينات وجوه. أحدها: المعجزات من إحياء الموتى ونحوها عن ابن عباس، وثانيها: أنها الإنجيل. وثالثها: وهو الأقوى أن الكل يدخل فيه، لأن المعجز يبين صحة نبوته كما أن الإنجيل يبين كيفية شريعته فلا يكون للتخصيص معنى.

أما قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ففيه مسائل.

ـ **المسألة الأولى** ـ قرىء وأيدناه قرأ ابن كثير «القدس» بالتخفيف والباقون بالتثقيل وهما لغتان مثل رعب ورعب.

ـ **المسألة الثانية**: اختلفوا في الروح على وجوه. أحدها: أنه جبريل عليه السلام وإنما سمى بذلك لوجوه، الأول: أن المراد من الروح القدس الروح المقدسة كما يقال حاتم الجود ورجل صدق فوصف جبريل بذلك تشريفاً له وبياناً لعلو مرتبته عند الله تعالى. الثاني: سمي جبريل عليه السلام بذلك لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح فإنه هو المتولى لإنزال الوحي إلى الأنبياء والمكلفون في ذلك يحيون في دينهم. الثالث: أن الغالب عليه الروحانية وكذلك سائر الملائكة غير أن روحانيته أتم وأكمل. الرابع: سمى جبريل عليه السلام روحاً لأنه ما ضمته أصلاب الفحول وأرحام الأمهات، وثانيها: المراد بروح القدس الإنجيل كما قال في القرآن ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وسمي به لأن الدين يحيا به ومصالح الدنيا تنتظم لأجله. وثالثها: أنه الاسم الذي كان يحيي به عليه السلام الموتى، عن ابن عباس وسعيد بن جبير، ورابعها: أنه الروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى فنسب روح عيسى عليه السلام إلى نفسه تعظيماً له وتشريفاً، كما يقال: بيت الله وناقة الله، عن الربيع، وعلى هذا المراد به الروح الذي يحيا به الإنسان.

واعلم أن اطلاق اسم الروح على جبريل وعلى الإنجيل وعلى الاسم الأعظم مجاز لأن الروح هو الريح المتردد في مخارق الإنسان ومنافذه ومعلوم أن هذه الثلاثة ما كانت كذلك إلا أنه سمى كل واحد من هذه الثلاثة بالروح على سبيل التشبيه من حيث أن الروح كما أنه سبب لحياة الرجل فكذلك جبريل عليه السلام سبب لحياة القلوب بالعلوم، والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها والاسم الأعظم سبب لأن يتوسل به إلى تحصيل الأغراض إلا أن المشابهة بين مسمى الروح وبين جبريل أتم لوجوه أحدها: لأن جبريل عليه السلام مخلوق من هواء نورا، لطيف فكانت المشابهة أتم فكان إطلاق اسم الروح على جبريل أولى، وثانيها: أن هذه التسمية فيه أظهر منها فيما عداه، وثالثها أن قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني قويناه والمراد من هذه التقوية الإعانة وإسناد الإعانة إلى جبريل عليه السلام حقيقة وإسنادها إلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز فكان ذلك أولى، ورابعها: وهو أن اختصاص عيسى بجبريل عليهما السلام من آكد وجوه الاختصاص بحيث لم يكن لأحد من الأنبياء عليهم السلام مثل ذلك لأنه هو الذي بشر مريم بولادتها وإنما ولد عيسى عليه السلام من نفخة جبريل عليه السلام وهو الذي رباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حين صعد إلى السماء.

أما قوله تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فهو نهاية الذم لهم لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه وإن تهيأ لهم قتله قتلوه. وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والترؤس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم.

أما قوله تعالى ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ فلقائل أن يقول: هلا قيل وفريقاً قتلتم؟ وجوابه من وجهين: أحدهما أن يراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب. الثاني: أن يراد فريقاً تقتلونهم بعد لأنكم حاولتم قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. وقال عليه السلام عند موته «مازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري» والله أعلم.

الطبرسي ج ١ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٩

. . . ثم ذكر سبحانه أنعامه عليهم بإرسال رسله إليهم وما قابلوه به من تكذيبهم فقال ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ أي أعطيناه التوراة وأنزلناه إليه ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي أتبعنا من بعد موسى ﴿ بِٱلرُّسُلِ ﴾ رسولاً بعد رسول يتبع الآخر الأول في الدعاء إلى وحدانية الله تعالى والقيام بشرائعه على منهاج واحد، لأن كل من بعثه الله تعالى نبياً بعد موسى إلى زمن عيسى عليهما السلام فإنما بعثه بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ذلك ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي أعطيناه المعجزات والدلالات على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته. وقال بعضهم أراد بالبينات الإنجيل وما فيه من الأحكام والآيات الفاصلة بين الحلال والحرام ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي قويناه واعناه بجبريل (ع). . عن قتادة والسدي والضحاك والربيع. واختلف في سبب تسمية جبرائيل عليه السلام روحاً على وجوه:

أحدها: أنه يحيي بما يأتي به من البينات الأديان كما يحيا بالأرواح الأبدان.

وثانيها: أنه سمي بذلك لأن الغالب عليه الروحانية، وكذلك سائر الملائكة. وإنما خص بهذا الاسم تشريفاً له.

وثالثها: أنه سمي به وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله تعالى إياه روحاً من عنده من غير ولادة والد ولده. وقال ابن زيد: المراد بروح القدس الإنجيل كما سمى الله تعالى القرآن روحاً فقال: وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، فكذلك سمي الإنجيل روحاً. وروى الضحاك عن ابن عباس أن الروح الاسم الذي كان عيسى (ع) يحيي به الموتى. وقال الربيع: هو الروح الذي نفخ فيه فأضافه إلى نفسه تشريفاً كما قال: بيت الله، وناقة الله. وأقوى الأقوال والوجوه قول من قال هو جبرائيل (ع) وإذا قيل لم خص عيسى (ع) من بين الأنبياء بأنه مؤيد بجبرائيل، وكل نبي مؤيد به فالقول فيه إنه إنما خص بذلك لثبوت اختصاصه به من صغره إلى كبره، فكان يسير معه حيث سار. ولما هَمَّ اليهود بقتله لم يفارقه حتى صعد به إلى السماء، وكان تمثل لمريم عند حملها به وبشرها به ونفخ فيها. واختلف في معنى القدس فقيل هو الطهر وقيل هو البركة. . عن السدي. وحكى قطرب أنهم يقولون قدس عليه الأنبياء أي بركوا. وعلى هذا فإنه كدعاء إبراهيم (ع) للحرم: رب اجعل هذا بلداً آمنا، وكقول زكريا: واجعله رب رضيا. وقيل القدس هو الله تعالى. . عن الحسن والربيع وابن زيد، وقالوا القدوس والقدس واحد وقوله ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ خطاب لليهود فكأنه قال يا معشر يهود بني إسرائيل! أكلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه أنفسكم تعظمتم وتجبرتم وانفتم من قبول قوله ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ أي فكذبتم منهم بعضاً ممن لم تقدروا على قتله مثل عيسى (ع) ومحمد ﷺ وقتلتم بعضاً مثل يحيى وزكريا وغيرهما. وظاهر الخطاب وإن خرج مخرج التقرير فهو بمعنى الخبر. وإنما أضاف هذا الفعل إليهم وإن لم يباشروه بنفوسهم لأنهم رضوا بفعل أسلافهم فأضيف الفعل إليهم وإن فعله أسلافهم.

البيضاوي ج ١ ص ١٦٨ ـ ١٦٩

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل كقوله سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون ٤٤] يقال قفاه إذا تبعه وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا نحو ذنبه من الذنب ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأخبار بالمغيبات أو الإنجيل وعيسى بالعبرية أيشوع ومريم بمعنى الخادم وهو بالعربية من النساء كالزير من الرجال قال رؤبة «قلت لزير لم تصله مريمه» ووزنه مفعل إذا لم يثبت فعيل ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ وقويناه وقرىء آيدناه بالمد ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة كقولك حاتم الجود ورجل صدق وأراد به جبريل وقيل روح عيسى عليه الصلاة والسلام ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان أو لكرامته على الله سبحانه وتعالى ولذلك أضافه إلى نفسه تعالى أو لأنه لم تضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث أو الإنجيل أو اسم الله الأعظم الذي كان يحيي به الموتى وقرأ ابن كثير القدس بالاسكان في جميع القرآن ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ﴾ بما لا تحبه يقال هوى بالكسر هوى إذا أحب وهوى بالفتح هويا بالضم إذا سقط وسطت الهمزة بين الفاء وما تعلقت به توبيخاً لهم على تعقيبهم ذاك بهذا وتعجيباً من شأنهم ويحتمل أن يكون استئنافاً والفاء للعطف على مقدر ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام والفاء للسببية أو للتفصيل ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس فإن الأمر فظيع أو مراعاة للفواصل أو للدلالة على أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة.

الخازن ج ١ ص ٨٠ ـ ٨١

قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ أي أعطينا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة جملة واحدة ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي وأتبعنا من التقفية وهو أن يقفو أثر الآخر ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يعني رسولاً بعد رسول وكانت الرسل بعد موسى إلى زمن عيسى عليهم السلام متواترة يظهر بعضهم في أثر بعض والشريعة واحدة: قيل إن الرسل بعد موسى يوشع بن نون وأشمويل وداود وسليمان وأرمياء وحزقيل وإلياس ويونس وزكرياء ويحيى وغيرهم وكانوا يحكمون بشريعة موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فجاءهم بشريعة جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله تعالى ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الدلالات الواضحات وهي المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وقيل هي الإنجيل. واسم عيسى بالسريانية أيشوع ومريم بمعنى الخادم وقيل هو اسم علم لها كزير من الرجال ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ أي وقويناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قيل أراد بالروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى وأضاف روح عيسى إليه تشريفاً وتكريماً وتخصيصا له كما تقول عبدالله وأمة الله وبيت الله وناقة الله وقال ابن عباس هو اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى وقيل هو الإنجيل لأنه حياة القلوب سماه روحاً كما سمى القرآن روحاً وقيل هو جبريل ووصف بالقدس وهو الطهارة لأنه لم يقترف ذنباً قط وقيل القدس هو الله تعالى والروح جبريل كما تقول عبدالله، سمي جبريل روحاً للطافته لأنه روحاني خلق من النور وقيل سمي روحاً لمكانه من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب وحمل روح القدس هنا على جبريل أولى لأنه تعالى قال وأيدناه أي قويناه بجبريل وذلك أنه أمر أن يكون مع عيسى ويسير معه حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به إلى السماء فلما سمعت اليهود بذكر عيسى قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما يقص علينا من أخبار

الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقاً قال الله تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ يعني يا معشر اليهود ﴿ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ ﴾ تقبل ﴿ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ أي تعظمتم عن الإيمان به ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ يعني مثل عيسى ومحمد صلـى الله عليهمـا وسلـم ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ يعنـي مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوه، وذلك أن اليهود كانوا إذا جاءهم رسول بما لا يهوون كذبوه فإن تهيأ لهم قتله قتلوه وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الدنيا وطلب الرياسة.

القرطبي ج ٢ ص ٢٣ ـ ٢٥

قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة. ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنـا. والتَّقْفِيـة: الإتبـاع والإرداف، مأخوذ من إتباع القفَا وهو مؤخر العنق. تقول أستقفيته إذا جئت من خلفه؛ ومنه سُمِّيت قافية الشعر؛ لأنها تتلو سائر الكلام. والقافية: القفا؛ ومنه الحديث: «يَعقِد الشيطان على قافية رأسِ أحدِكم». والقَفِي والقفاوة: ما يدّخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه. وقفوت الرجل: قذفته بفجور. وفلانٌ قِفْوَتي أي تُهَمَتي. وقِفوتي أي خيرتي. قال ابن دريد كأنه من الأضداد. قال العلماء: وهذه الآية مثل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون: ٤٤]. وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر/ بلزومها إلى عيسى عليه السلام. ويقال: رُسُل ورُسْل لغتان؛ الأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم؛ وسواء كان مُضافاً أو غير مضاف. وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف إلى حرفين، ويثقل إذا أضاف إلى حرف واحد.

قوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ أي الحجج والدّلالات؛ وهي التي ذكرها الله في «آل عمران» و«المائدة»؛ قاله ابن عباس. ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ ﴾ أي قوّيناه،. وقرأ مجاهد وابن مُحَيْصِن «آيدناه» بالمدّ، وهما لغتان. ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ روى أبو مالك وأبو صالح عن ابن عباس ومَعْمر عن قتادة قالا: جبريل عليه السلام. وقال حسان:

وجبـــريـــلٌ رســـولُ اللّـــه فِينـــا
ورُوح القُـــدْس ليـــس بـــه خَفـــاءُ

قـال النحـاس: وسُمّـي جبـريـل روحـاً وأضيـف إلـى القدس؛ لأنه كان بتكوين الله عز وجل له رُوحاً من غير ولادة والد ولده؛ وكذلك سُمّي عيسى روحاً لهذا. وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال: القدس هو الله عز وجـل. وكـذا قـال الحسـن: القـدس هـو الله، وروحـه جبريل. وروى أبو رَوْق عن الضحاك عن ابن عباس: «بِروحِ الْقُدُسِ» قال: هو الاسم الذي كان يحيي به عيسى الموتى؛ وقاله سعيد بن جبير وعبيد بن عمير، وهو إسم الله الأعظـم. وقيـل: المـراد الإنجيـل؛ سمّاه روحـاً كمـا سمى الله القرآن روحاً في قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. والأول أظهر، والله تعالى أعلم. والقدس: الطهارة. وقد تقدّم.

قوله تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ﴾ أي بما لا يوافقها ويلائمها؛ وحُذفت الهاء لطول الاسم؛ أي بمـا لا تهـواه. ﴿ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عـن إجـابتـه احتقـاراً للرسل، واستبعاداً للرّسالة. وأصل الهوى الميل إلى الشيء؛ ويجمع أهواء، كما جاء في التنزيل، ولا يجمع أهوية؛ على أنهم قد قالوا في نَدًى أَندِية؛ قال الشاعر:

فـي ليلـةٍ مـن جُمـادَى ذاتِ أَنْـديـةٍ
لا يُبصر الكلبُ في ظلْمائها الطُّنُبَا

قال الجوهري: وهو شاذ. وسُمّيَ الهَوَى هَوَى لأنه يهوِي بصاحبه إلى النار؛ ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه؛ وهذه الآية من ذلك. وقد يستعمل في الحق، ومنه قول عمر رضي الله عنه في أساري بَدْر: فَهوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت. وقالت عائشة للنبيّ ﷺ في صحيح الحديث: والله ما أرَى ربّك إلاّ يُسارِع في هواك. أخرجهما مسلم.

قوله تعالى ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ ﴿ فَفَرِيقًا﴾ منصوب بـ ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾، وكذا ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام، وممن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام.

أبو حيان الأندلسي ج ١ ص ٢٩٨ - ٣٠١

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ ﴾ تقدّم الكلام في هذه اللام ويحتمل أن تكون للتأكيد وأن تكون جواب قسم ومناسبة هذا لما قبله أن إيتاء موسى الكتاب هو نعمة لهم إذ فيه أحكامهم وشرائعهم ثم قابلوا تلك النعمة بالكفران وذلك جرى على ما سبق من عادتهم إذ قد أمروا بأشياء ونهوا عن أشياء فخالفوا أمر الله ونهيه فناسب ذكر هذه الآية ما قبلها والإيتاء الإعطاء فيحتمل أن يراد به الإنزال لأنه أنزله عليه جملة واحدة ويحتمل أن يراد آتيناه أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود والأحكام والأنباء والقصص وغير ذلك مما فيه فيكون على حذف مضاف آتينا موسى علم الكتاب أو فهم الكتاب وموسى هو نبي الله موسى بن عمران صلى الله على نبينا وعليه وسلم. والكتاب هنا التوراة في قول الجمهور والألف واللام فيه للعهد إذ قرن بموسى وانتصابه على أنه مفعول ثان لآتينا. وقد تقدم أنه مفعول أول عند السهيلي وموسى هو الثاني عنده ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ هذه الياء أصلها الواو إلا إنها متى وقعت رابعة أبدلت ياء كما تقول غزيت من الغزو والتضعيف الذي في قفينا ليس للتعدية إذ لو كان للتعدية لكان يتعدى إلى اثنين لأن قفوت يتعدّى إلى واحد تقول قفوت زيداً أي تبعته فلو جاء على التعدية لكان وقفيناه من بعده الرسل وكونه لم يجيء كذلك في القرآن يبعد أن تكون الباء زائدة في المفعول الأول ويكون المفعول الثاني جاء محذوفاً ألا ترى إلى قوله ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم ولكنه ضمن معنى جئنا كأنه قال وجئنا من بعده بالرسل يقفو بعضهم بعضا ومن في ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ لابتداء الغاية وهو ظاهر لأنه يحكى أن موسى لم يمت حتى نبيء يوشع ﴿ بِالرُّسُلِ ﴾ أرسل الله على أثر موسى رسلاً وهم يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم والباء في بالرسل متعلقة بقفينا والألف واللام يحتمل أن تكون للجنس الخاص ويحتمل أن تكون للعهد لما استفيد من القرآن وغيره إن هؤلاء بعثوا من بعده ويحتمل أن تكون التقفية معنوية وهي كونهم يتبعونه في العمل بالتوراة وأحكامها ويأمرون باتباعها والبقاء على التزامها. وقرأ الجمهور بالرسل بضم السين. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر بتسكينها وقد تقدم أنهما لغتان ووافقهما أبو عمر وإن أضيف إلى ضمير جمع نحو رسلهم ورسلكم ورسلنا استثقل توالي أربع متحركات فسكن تخفيفاً ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ أضاف عيسى إلى أمه رداً على اليهود فيما أضافوه إليه ﴿ الْبَيِّنَٰتِ ﴾ وهي الحجج الواضحة الدالة على نبوّته فيشمل كل معجزة أوتيها عيسى عليه السلام وهذا هو الظاهر. وقيل الإنجيل. وقيل الحجج التي أقامها الله على اليهود. وقيل إبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات وإحياء الموتى وهم أربعة سام بن نوح والعازر وابن العجوز وبنت العشار ومن الطير الخفاش فقيل لم يكن من قبل عيسى بل هو صوره والله نفخ فيه الروح. وقيل كان قبله فوضع عيسى على مثاله قالوا وإنما اختص هذا النوع من الطير لأنه ليس شيء من الطير أشد خلقاً منه لأنه لحم كله وأجمل الله ذكر الرسل وفصل ذكر عيسى لأن من قبله كانوا متبعين شريعة موسى وأما عيسى فنسخ شرعه كثيراً من شرع موسى ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ قرأه الجمهور على وزن فعلناه. وقرأ مجاهد والأعرج وحميد وابن محيصن وحسين عن أبي عمرو آأيدناه على وزن أفعلناه وتقدم الكلام على ذلك في المفردات وفرق بعضهم بينهما فقال إما المد فمعناه القوة وأما القصر فالتأييد والنصر والأصح أنهما بمعنى قويناه وكلاهما من الأيد وهو القوة ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ قراءة الجمهور بضم القاف والدّال. وقرأ مجاهد وابن كثير بسكون الدال حيث وقع وفيه لغة فتحها. وقرأ أبو حيوة القدوس بواو. والروح هنا اسم الله الأعظم الذي كان به عيسى عليه السلام يحيي الموتى قاله ابن عباس أو الإنجيل كما سمى الله القرآن روحاً قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾[الشورى: ٥٢] قاله ابن زيد أو الروح التي نفخها تعالى في عيسى عليه السلام أو جبريل عليه السلام قاله قتادة والسدّي والضحاك والربيع ونسب هذا القول لابن عباس قاله ابن عطية وهذا أصح الأقوال وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت أهج قريشاً وروح

االقدس معك ومرة قال له وجبريل معك انتهى كلامه قالوا ويقوى ذلك قوله تعالى إذ أيدتك بروح القدس. وقال حسان:

وجبـــريـــل رســـول الله فينـــا
وروح القـــدس ليـــس لـــه كفـــاء

وتسمية جبريل بذلك لأن الغالب على جسمه الروحانية وكذلك سائر الملائكة أو لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح فإنه هو المتولي لإنزال الوحي أو لتكوينه روحاً من غير ولادة وتأييد الله عيسى بجبريل عليهما السلام لإظهار حجته وأمر دينه أو لدفع اليهود عنه إذ أرادوا قتله أو في جميع أحواله واختار الزمخشري أن معناه بالروح المقدسة قال كما يقال حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال وروح منه فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة انتهى كلامه وقد تقدّم معنى القدس إنه الطهارة أو البركة. وقال مجاهد والربيع القدس من أسماء الله تعالى كالقدّوس قالوا واطلاق الرّوح على جبريل وعلى الإنجيل وعلى اسم الله الأعظم مجاز لأن الرّوح هو الريح المتردد في مخارق الإنسان في منافذه ومعلوم أن هذه الثلاثة ما كانت كذلك إلا أن كلاً منها أطلق الرّوح عليه على سبيل التشبيه من حيث أن الرّوح سبب للحياة فجبريل هو سبب لحياة القلوب بالعلوم والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها والاسم الأعظم سبب لأن يتوصل به إلى تحصيل الأغراض والمشابهة بين جبريل والرّوح أتم ولأن هذه التسمية فيه أظهر ولأن المراد من أيدناه قوّيناه وأعناه واسنادها إلى جبريل حقيقة وإلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز ولأن اختصاص عيسى بجبريل من آكد وجوه الاختصاص إذا لم يكن لأحد من الأنبياء مثل ذلك لأنه هو الذي بشر مريم بولادته وتولد عيسى بنفخه ورباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حيث صعد إلى السماء ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الهمزة أصلها للاستفهام وهي هنا للتوبيخ والتقريع والفاء لعطف الجملة على ما قبلها واعتنى بحرف الاستفهام فقدم والأصل فأكلما ويحتمل أن لا يقدر قبلها محذوف بل يكون العطف على الجمل التي قبلها كأنه قال ولقد آتينا يا بني إسرائيل آتيناكم ما آتيناكم فكلما جاءكم رسول

ويحتمل أن يقدر قبلها محذوف أي فعلتم ما فعلتم من تكذيب فريق وقتل فريق وقد تقدم الكلام على كلما في قوله تعالى ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا﴾ [البقرة: ٢٥] فأغنى عن إعادته والناصب لها قوله استكبرتم والخطاب في جاءكم يجوز أن يكون عاماً لجميع بني إسرائيل إذ كانوا على طبع واحد من سوء الأخلاق وتكذيب الرسل وكثرة سؤالهم لأنبيائهم والشك والارتياب فيما أتوهم به أو يكون عائداً إلى أسلافهم الذين فعلوا ذلك وسياق الآيات يدل عليه أو إلى من بحضرة رسول الله ﷺ من أبنائهم لأنهم راضون بفعلهم والراضي كالفاعل وقد كذبوا رسول الله ﷺ فيما جاء به وسقوه السم ليقتلوه وسحروه. وبما متعلق بقوله جاءكم وما موصولة والعائد محذوف أي لا تهواه وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بحق ومنه هذه الآية وأسند الهوى إلى النفس ولم يسند إلى ضمير المخاطب فكان يكون بما لا تهوون اشعاراً بأن النفس يسند إليها غالباً الأفعال السيئة ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠] ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾[يوسف: ١٨]. استكبرتم استفعل هنا بمعنى تفعل وهو أحد معاني استفعل وفسر رسول الله ﷺ الكبر بأنه سفه الحق وغمط الناس والمعنى قيل استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول أو استبعاداً للرسالة وفي ذلك ما كانوا عليه من طبيعة الاستكبار الذي هو محل النقائص ونتيجة الإعجاب وهو نتيجة الجهل بالنفس المقارن للجهل بالخالق وإن ذلك كان يتكرر منهم بتكرر مجيء الرسل إليهم وهو كما ذكرنا استكبار بمعنى التكبر وهو مشعر بالتكلف والتفعل لذلك لا أنهم يصيرون بذلك كبراء عظماء بل يتفعلون ذلك ولا يبلغون حقيقته لأن الكبرياء إنما هي لله تعالى فمحال أن يتصف بها غيره حقيقة ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ ظاهره أنه معطوف على قوله استكبرتم فنشأ عن الاستكبار مبادرة فريق من الرسل بالتكذيب فقط حيث لا يقدرون على قتله وفريق بالقتل إذا قدروا على قتله وتهيأ لهم ذلك ويضمن أن من قتلوه فقد كذبوه واستغنى عن التصريح بتكذيبه للعلم بذلك فذكر أقبح أفعالهم معه وهو قتله وأجاز أبو القاسم الراغب أن يكون ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ معطوفاً على قوله وأيدناه ويكون قوله

أفكلما مع ما بعده فصلا بينهما على سبيل الإنكار والأظهر في ترتيب الكلام الأول وهذا أيضاً محتمل وأخر العامل وقدّم المفعول ليتواخى رؤوس الآي وثم محذوف تقديره ففريقاً منهم كذبتم وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر ولأنه المشترك بين الفريقين المكذب والمقتول ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وأتى بفعل القتل مضارعاً إما لكونه حكيت به الحال الماضية إن كانت أريدت فاستحضرت في النفوس وصور حتى كأنه ملتبس به مشروع فيه ولما فيه من مناسبة رؤوس الآي التي هي فواصل وأما لكونه مستقبلاً لأنهم يرومون قتل رسول الله ﷺ ولذلك سحروه وسمموه وقال ﷺ عند موته «مازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري» وكان في ذلك على هذا الوجه تنبيه على أن عادتهم قتل أنبيائهم لأن هذا النبي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وقد أمروا بالإيمان به والنصر له يرومون قتله فكيف من لم يكن فيه تقدم عهد من الله فقتله عندهم أولى قال ابن عطية عن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي ثم تقوم سوقهم آخر النهار. وروي سبعين نبياً ثم تقوم سوق نقلهم آخر النهار.

ابن كثير ج ١ ص ١٢٢ ـ ١٢٣

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم إنما يتبعون أهواءهم فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذي يحكمون بشريعته كما قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ولهذا قال تعالى ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ قال السدى عن أبي مالك: أتبعنا. وقال غيره. أردفنا. والكل قريب كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات. قال ابن عباس من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ـ ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾.

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب واسماعيل بن خالد والسدى والربيع بن أنس وعطية العوفى وقتادة مع قوله تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤] ما قال البخاري. قال ابن أبي الزناد... عن عائشة أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك» فهذا من البخاري تعليقاً وقد رواه أبو داود في سننه... عن عائشة به قال الترمذي حسن صحيح وهو حديث أبي الزناد وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة... عن أبي هريرة أن عمر ابن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبي هريرة فقال أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول «أجب عني اللهم أيده بروح القدس» فقال اللهم نعم وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان «اهجهم ـ أو هاجهم ـ وجبريل معك» وفي شعر حسان قوله:

وجبريل رسول الله فينا
وروح القدس ليس به خفاء

وقال محمد بن اسحق... عن شهر بن حوشب الأشعري أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله ﷺ قالوا أخبرنا عن الروح فقال «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه جبرائيل وهو الذي يأتيني؟» قالوا نعم: وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «إن روح القدس نفث في روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب». أقوال أخر ـ قال ابن أبي حاتم... عن ابن عباس ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وقال ابن جرير حدثت عن المنجاب فذكره وقال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضاً قال: وهو الاسم الأعظم. وقال ابن أبي نجيح: الروح هو حفظة على الملائكة وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس. القدس هو الرب تبارك وتعالى. وهو قول كعب وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا. القدس هو الله تعالى وروحه جبريل. فعلى هذا يكون القول الأول وقال السدى: القدس البركة. وقال العوفي عن ابن عباس القدس الطهر وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً كلاهما روح الله كما قال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال الروح في هذا الموضع جبرائيل فإن الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] الآية فذكر أنه أيده به فلو كان الروح الذي أيده به هو الإنجيل لكان قوله ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ... وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] تكرير قول لا معنى له والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به (قلت) ومن الدليل على أنه جبرائيل ما تقدم من أول السياق ولله الحمد، وقال الزمخشري ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة كما تقول حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة وقيل لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره فتضمن كلامه قولاً آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة وقال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر وقد قال عليه السلام في مرض موته «مازالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري» (قلت) وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره.

الجلالان ص ١٧

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة أي الروح المقدسة جبريل لطهارته يسير معه حيث سار فلم تستقيموا ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ﴾ تحب ﴿أَنفُسُكُمُ﴾ من الحق ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن اتباعه جواب كلما وهو محل الاستفهام، والمراد به التوبيخ ﴿فَفَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كعيسى ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية: أي قتلتم كزكريا ويحيى.

الشوكاني ج ١ ص ١١٠ ـ ١١٢

الكتاب: التوراة، والتقفية: الإتباع والإرداف، مأخوذة من القفا وهو مؤخر العنق، تقول: استقفيته: إذا جئت من خلفه، ومنه سميت قافية الشعر لأنها تتلو سائر الكلام. والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلاً جعلهم تابعين له وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثون من بعده. و﴿ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ الأدلة التي ذكرها الله في آل عمران والمائدة. والتأيد: التقوية. وقرأ مجاهد وابن محيصن (وَآيَدْنَاهُ) بالمدّ وهما لغتان. وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة: أي الروح المقدّسة. والقدس: الطهارة، والمقدّس: المطهر ـ وقيل هو جبريل أيد الله به عيسى، ومنه قول حسان:

وجبريل أمين الله فينا
وروح القدس ليس به خفاء

قال النحاس: وسمى جبريل روحاً وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة ـ وقيل القدس هو الله عز وجل، وروحه جبريل وقيل المراد بروح القدس: الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى؛ وقيل المراد به الإنجيل؛ وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه، أيده الله به لما فيه من القوّة. وقوله ﴿ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ﴾ أي بما لا يوافقها ويلائمها، وأصل الهوى: الميل إلى الشيء. قال الجوهري: وسمى الهوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار. وبخهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمزة التوبيخ فقال ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ ﴾ منكم ﴿ بِمَا لَا ﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسل واستبعاداً للرسالة، والفاء في قوله ﴿ أَفَكُلَّمَا ﴾ للعطف على مقدّر أي آتيناكم يا بني إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ ﴾ وفريقاً منصوب بالفعل الذي بعده والفاء للتفصيل، ومن الفريق المكذبين عيسى ومحمد، ومن الفريق المقتولين يحيى وزكريا . . .

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ يعني به التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ يعني رسولاً يدعى اشمويل من بابل، ورسولاً يدعى منشابيل، ورسولاً يدعى شعياء، ورسولاً يدعى حزقيل، ورسولا يدعى أرمياء وهو الخضر، ورسولاً يدعى داود وهو أبو سليمان ورسولاً يدعى المسيح عيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله وانتخبهم من الأمة بعد موسى فأخذنا عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ وصفة أمته. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ قال: هي الآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير، وإبراء الأسقام. والخبر بكثير من الغيوب، وما ورد عليهم من التوراة والإنجيل الذي أحدث الله إليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ قال: قوّيناه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال: روح من القدس الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: القدس الله تعالى. وأخرج عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عن ابن عباس قال: القدس الطهر. وأخرج عن السدّى قال: القدس البركة. وأخرج عن إسماعيل بن أبي خالد أن روح القدس جبريل. وأخرج عن ابن مسعود مثله وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن جابر عن النبي ﷺ قال: روح القدس جبريل. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اللهم أيد حسان بروح القدس» وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ فَفَرِيقًا ﴾ قال: طائفة.

الآلوسي ج ١ ص ٣١٦ ـ ٣٢٥

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ شروع في بيان بعض آخر من جناياتهم وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به، و ـ الإيتاء ـ الإعطاء، و﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة في قول الجمهور وهو مفعول ثان ـ لآتينا ـ وعند السهيلي مفعول أول، والمراد بإتيانها له إنزالها عليه. وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن التوراة نزلت جملة واحدة فأمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق فبعث بكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله

تعالى لموسى عليه السلام فحملها، وقيل: يحتمل أن يكون ـ آتينا ـ إلخ أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود والأحكام والأنباء والقصص وغير ذلك مما فيه، والكلام على حذف مضاف أي علم ـ الكتاب ـ أو فهمه وليس بالظاهر ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ يقال ـ قفاه ـ إذا اتبعه ـ وقفاه ـ به إذا أتبعه إياه من ـ القفا ـ وأصل هذه الياء واو لأنها متى وقعت رابعة أبدلت كما تقول عريت من العرو أي أرسلناهم على أثره كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] وكانوا إلى زمن عيسى عليه السلام أربعة آلاف، وقيل: سبعين ألفاً وكلهم على شريعته عليه السلام منهم يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعياء وأرمياء وعزير وحزقيل والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى. وغيرهم عليهم الصلاة والسلام. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر ـ بالرسل ـ بتسكين السين، وهو لغة أهل الحجاز والتحريك لغة تميم ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي الحجج الواضحة الدالة على نبوته فتشمل كل معجزة ـ أوتيها ـ عليه السلام وهو الظاهر، وقيل: الإنجيل، وعيسى أصله بالعبرانية أيشوع بهمزة ممالة بين بين، أو مكسورة ـ ومعناه السيد ـ وقيل: المبارك فعرب والنسبة إليه عيسى وعيسوي وجمعه عيسون بفتح السين ـ وقد تضم ـ وأفرده عن الرسل عليه السلام لتميزه عنهم لكونه من أولي العزم وصاحب كتاب، وقيل: لأنه ليس متبعاً لشريعة موسى عليه السلام حيث نسخ كثيراً من شريعته. وأضافه إلى أمه رداً على اليهود إذ زعموا أن له أباً، ومريم بالعبرية الخادم وسميت أم عيسى به لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس، وقيل: العابدة. وبالعربية من النساء من تحب محادثة الرجال فهي كالزير من الرجال، وهو الذي يحب محادثة النساء، قيل: ولا يناسب مريم أن يكون عربياً لأنها كانت برية عن محبة محادثة الرجال اللهم إلا أن يقال سميت بذلك تمليحاً كما يسمى الأسود كافوراً. وقال بعض المحققين: لا مانع من تسميتها بذلك بناء على أن شأن من تخدم من النساء ذلك، وفي القاموس هي التي تحب محادثة الرجال ولا تفجر ـ وعليه لا بأس بالتسمية كما ذكره المولى عصام ـ والأولى عندي أن التسمية وقعت بالعبري لا بالعربي بل يكاد يتعين ذلك كما لا يخفى على المنصف؛ وعن الأزهري المريم المرأة التي لا تحب مجالسة الرجال وكأنه قيل لها ذلك تشبيهاً لها بمريم البتول ووزنه عربياً مفعل لا فعيلا لأنه لم يثبت في الأبنية على المشهور، وأثبته الصاغاني في الذيل، وقال: إنه مما فات سيبويه، ومنه عثير للغبار، وضهيد ـ بالمهملة والمعجمة ـ للصلب واسم موضع، ومدين على القول بأصالة ميمه، وضهي بالقصر وهي المرأة التي لا تحيض أو لا ثدي لها من المضاهاة كأنها أطلق عليها ذلك لمشابهتها الرجل؛ وابن جني يقول: إن ضهيد وعثير مصنوعان فلا دلالة فيهما على إثبات فعيل، وذكر الساليكوتي أن عثير بمعنى الغبار ـ بكسر العين ـ وإذا كان مفعلا فهو أيضاً على خلاف القياس إذ القياس إعلاله بنقل حركة الياء إلى الراء وقلبها ألفاً نحو مباع لكنه شذ كما شذ مدين، ومزيد، وإذا كان من رام يريم إذا فارق وبرح فالقياس كسر يائه أيضاً ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي قويناه بجبريل عليه السلام وإطلاق (روح القدس) عليه شائع فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال ﷺ لحسان رضي الله تعالى عنه «اهجهم وروح القدس معك» ومرة قال له: «وجبريل معك» وقال حسان:

وجبريل وروح القدس فينا
وروح القدس ليس له كفاء

و﴿ٱلْقُدُسِ﴾ الطهارة والبركة، أو ـ التقديس ـ ومعناه التطهير. والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة في الاختصاص، وهي معنوية بمعنى ـ اللام ـ فإذا أضيف العلم كذلك يكون مؤلاً بواحد من المسمين به. وقال مجاهد والربيع: ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ من أسماء الله تعالى ـ كالقدوس ـ وزعم بعضهم أن إطلاق الروح على جبريل مجاز لأنه الريح المتردد في مخارق الإنسان ـ ومعلوم أن جبريل ليس كذلك ـ لكنه أطلق عليه على سبيل التشبيه من حيث إن ـ الروح ـ سبب الحياة الجسمانية، وجبريل سبب الحياة المعنوية بالعلوم، وكأن هذا الزعم نشأ من كثافة روح الزاعم وعدم تغذيها بشيء من العلوم، وخص عيسى عليه السلام بذكر التأييد بـ(روح القدس) لأنه تعالى خصه

به من وقت صباه إلى حال كبره، كما قال تعالى ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠] ولأنه حفظه حتى لم يدن منه الشيطان، ولأنه بالغ إثنا عشر ألف يهودي لقتله، فدخل عيسى بيتاً فرفعه عليه السلام مكاناً علياً. وقيل: ـ الروح ـ هنا اسم الله تعالى الأعظم الذي كان يحيي به الموتى ـ وروي ذلك كالأول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ وقال ابن زيد: الإنجيل ـ كما جاء في شأن القرآن ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وذلك لأنه سبب للحياة الأبدية والتحلي بالعلوم والمعارف التي هي حياة القلوب وانتظام المعاش الذي هو سبب الحياة الدنيوية، وقيل: روح عيسى عليه السلام نفسه، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان، أو لكرامته عليه تعالى ـ ولذلك أضافها إلى نفسه ـ أو لأنه لم يضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث، بل حصل من نفخ جبريل عليه السلام في درع أمه فدخلت النفخة في جوفها. وقرأ ابن كثير ﴿ٱلْقُدْسِ﴾ ـ بسكون الدال ـ حيث وقع، وأبو حيوة (القدوس) بواو.

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾

مسبب عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ بحيث لا يتم الكلام السابق بدونه كالشرط بدون الجزاء، وقد أدخلت ـ الهمزة ـ بين السبب والمسبب للتوبيخ على تعقيبهم ذلك بهذا، والتعجيب من شأنهم على معنى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وأنعمنا عليكم بكذا وكذا لتشكروا بالتلقي بالقبول ـ فعكستم بأن كذبتم ـ ويحتمل أن يكون ابتداء كلام ـ والفاء ـ للعطف على مقدر كأنه قيل: أفعلتم ما فعلتم ـ فكلما جاءكم ـ ثم المقدر يجوز أن يكون عباره كما وقع بعد ـ الفاء ـ فيكون العطف للتفسير، وأن يكون غيره مثل (أكفرتم النعمة واتبعتم الهوى) فيكون لحقيقة التعقيب، وضعف هذا الاحتمال بما ذكره الرضي أنه لو كان كذلك لجاز وقوع ـ الهمزة ـ في الكلام قبل أن يتقدمه ما كان معطوفاً عليه ـ ولم تجيء إلا مبنية على كلام متقدم، وفي كون الهمزة الداخلة على جملة معطوفة ـ بالواو، أو الفاء، أو ثم ـ في محلها الأصلي، أو مقدمة من تأخير حيث إن محلها بعد العاطف خلاف مشهور بين أهل العربية، وبعض المحققين يحملها في بعض المواضع ـ على هذا ـ وفي البعض ـ على ذلك ـ بحسب مقتضى المقام ومساق الكلام ـ والقلب يميل إليه ـ قيل: ولا يلزم بطلان صدارة ـ الهمزة ـ إذ لم يتقدمها شيء من الكلام الذي دخلت هي عليه، وتعلق معناها بمضمونه غاية الأمر أنها توسطت بين كلامين لإفادة إنكار جمع الثاني مع الأول، أو لوقوعه بعده متراخياً أو غير متراخ، وهذا مراد من قال: إنها مقحمة مزيدة لتقرير معنى الإنكار أو التقرير، أي مقحمة على المعطوف مزيدة بعد اعتبار عطفه، ولم يرد أنها صلة و(تهوى) من ـ هوي ـ بالكسر إذا أحب، ومصدره ـ هوى ـ بالقصر، وأما ـ هوى ـ بالفتح فبمعنى سقط، ومصدره ـ هوى ـ بالضم وأصله فعول فأعل. وقال المرزوقي: ـ هوى ـ انقض انقضاض النجم والطائر، والأصمعي يقول: هوت العقاب إذا انقضت لغير الصيد. وأهوت إذا انقضت للصيد، وحكى بعضهم أنه يقال: هوى يهوى هوياً ـ بفتح الهاء ـ إذا كان القصد من أعلى إلى أسفل، وهو يهوى هوياً بالضم إذا كان من أسفل إلى أعلى ـ وما ذكرناه أولاً هو المشهور ـ والهوى ـ يكون في الحق وغيره، وإذا أضيف إلى النفس فالمراد به الثاني في الأكثر، ومنه هذه الآية. وعبر عن المحبة بذلك للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيء آخر، ومتعلق ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ محذوف أي عن الإيمان بما جاء به مثلاً، واستفعل هنا بمعنى تفعل. ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ الظاهر أنه عطف على ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ والفاء للسببية إن كان التكذيب والقتل مرتبين على الاستكبار، وللتفصيل إن كانا نوعين منه، وجوّز الراغب أن يكون عطفاً على ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ ويكون ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ مع ما بعده فصلا بينهما على سبيل الانكار، وقدم (فريقاً) في الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر، وثمّ محذوف أي (فريقاً) منهم. وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر ولأنه المشترك بين المكذب والمقتول، ونسب القتل إليهم مع أن القاتل آباؤهم لرضاهم به ولحوق

مذمته بهم، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية واستحضاراً لصورتها لفظاعتها واستعظامها، أو مشاكلة للأفعال المضارعة الواقعة في الفواصل فيما قبل، أو للدلالة على أنكم الآن فيه فإنكم حول قتل محمد ﷺ ولولا أني أعصمه لقتلتموه ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. فالمضارع للحال ولا ينافيه قتل البعض. والمراد من القتل مباشرة الأسباب الموجبة لزوال الحياة سواء ترتب عليه أولاً، وقيل: لا حاجة إلى التعميم لأنه ﷺ قتل حقيقة بالسم الذي ناولوه على ما وقع في الصحيح بلفظ «وهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم» وفيه أنه لم يتحقق منهم القتل زمان نزول الآية بل مباشرة الأسباب فلا بد من التعميم.

القاسمي ج ٢ ص ١٨٥ ـ ١٨٦

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ شروع في بيان بعضٍ آخر من جناياتهم. وتصديرُه بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به. والمراد بالكتاب التوراة. ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ يقال: قفَّاه به أتبعه إياها، من التقفية وهي متابعة شيء شيئاً. كأنه يتلو قفاه، وقفا الصورة منها، خلفها المقابل للوجه. والمعنى لم نقتصر على الضبط بالكتاب الذي تركه فيكم موسى، بل أرسلنا من بعده الرسل تترا، ليجددوا لكم أمر الدين ويؤكدوا عليكم العهود. ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ﴾ اسم معرّب أصله يسوع. لفظة يونانية بمعنى مخلص. ومثله يشوع، بالمعجمة، في اللغة العبرانية. ﴿ ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ المعجزات الواضحات التي لا مرية فيها لذي عقل. كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ ﴾ أي قويناه على ذلك كله ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ بالروح المقدسة كما تقول: حاتم الجودِ ورجلُ صدقٍ. وهي الروح الطاهرة التي نفخها الله فيه وميزه بها عن غيره ممن خلق. قال تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١] ولذا كان له، عليه الصلاة والسلام، بالروح مزيد اختصاص لكثرة ما أحيى من الموتى. وعن الحسن البصريّ: القدس هو الله. وروحه جبريل. والإضافة للتشريف. والمعنى: أعَنَّاه بجبريل. قال الرّازي: والذي يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾ [النحل: ١٠٢] والله أعلم.

وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لحسم مادة اعتقادهم الباطل في حقه عليه السلام، ببيان حقيقة وإظهار نهاية قبح ما فعلوا به عليه السلام ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ﴾ من الحق، أي لا تحبه. ومن هوي كفرح، إذا أحب ﴿ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عندالله تعالى ﴿ فَفَرِيقًا ﴾ منهم ﴿ كَذَّبْتُمْ ﴾ إذ لم تنل أيديكم مَضرّته ﴿ وَفَرِيقًا ﴾ آخر منهم ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ غير مكتفين بتكذيبهم.

محمد عبده ج ١ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٨

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾ فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرون وينهون كأنه يقول اعلموا يا بني إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يد في تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع، وكان في ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين، فإن ذلك لا يتناولكم، فإن الرسل قد جاءتكم تترا ثم كان من أمركم معهم ما كان.

ذكر رسل بني إسرائيل بالإجمال لبيان ما ذكر، ثم خص بالذكر المسيح عليه السلام فقال ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ فأما البينات فهي ما يتبين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة. وقال الأستاذ الإمام: المراد بها ما دعا إليه من أحكام التوراة. وأما روح القدس فهو روح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم؛ وهو هو المراد بقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢]. ويطلق عليه روح القدس لأن التعليم الذي يكون به مقدس أو لأنه يقدس النفوس كما

يطلق عليه «الروح الأمين» لأن النبي الموحى إليه يكون على بينة من ربه فيه يأمن معها التلبيس فيما يلقى إليه، قال تعالى في القرآن ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤].

(ثم قال الأستاذ): ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك المسمى بجبريل الذي ينزل على الأنبياء، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى وهو على حد قولهم «حاتم الجود» وذكر بعضهم وجهاً آخر وهو أن المراد بها روح عيسى نفسه، ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعاذته من الشيطان أن يكون له حظ فيه، أو لأنه أنزل عليه الإنجيل بالتعاليم التي تقدس النفوس، بل قال بعضهم: إن روح القدس هو الإنجيل، والمراد من الكل واحد، وهو أن الله تعالى أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى وأعطاه ما لم يعط كل رسول من أولئك الرسل من الوحي أو من قوة الروح، وزكاء النفس ومكارم الأخلاق، ونسخ بعض الأحكام، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ سابقيه الذين لم يؤتوا من المواهب مثل ما أوتي.

ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني إسرائيل؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخي في قوله ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات، وعصيتم الرسل واحتميتم عليهم أن أنذروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوىء ثم يوبخون عليها، ولكن طواها في الخطاب وأدمجها في الاستفهام لتفاجىء النفوس بقوة التشنيع والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ، وفي ذلك الإيماء إلى أن هذه المعاملة السوءى مما لا يخفى خبرها، ولا تغيب عن الإنكار صورها، فلا ينبغي الإلماع إليها، إلا في سياق تقريع مجترحيها، وهذا من إيجاز القرآن، الذي لا يعرج إليه فكر الإنسان، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يمثلها في الخيال، وإن مرت عليها القرون والأحوال لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها، ودماء لا تطير رغوتها، وإن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به، فيكون له من التأثير ما يناسبه.

قتلوا من الأنبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام، ويروى أنهم قتلوا في يوم واحد مائة وخمسين نبياً، فإن صح هذا فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة في الدعوة إلى إقامة التوراة، ودليلها محصوراً في الإنباء ببعض المغيبات وكان هذا الفريق منتشراً في أسباط بني إسرائيل وكثيراً بكثرتهم.

وفي هذه الآية حجتان للنبي ﷺ ـ حجة على بني إسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به وإجابتهم دعوته، وبيان أن المجاحدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شنشنتهم، وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الإيمان به، والاهتداء بكتابه، بعد تقرير الدعوة، وإقامة الحجة.

جوهري ج ١ ص ٩٦

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أتبعنا ﴿ مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ من بعده بالرسل ﴾ المعجزات الواضحة ﴿ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي الروح المقدّسة، قيل جبريل أو الإنجيل ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ ﴾ بما لا تحب ﴿ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ تعظمتم عن قبوله ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ كزكريا ويحيى.

المراغي ج ١ ص ١٦٣ ـ ١٦٥

جرت سنة الله في البشر أنه إذا طال عليهم الأمد بعد أن تأتيهم الرسل تقسو منهم القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، ويفسقون عن أمر ربهم، ويحرفون ما جاءهم من الشرائع بضروب من التأويل، وينسَوْن ما أُنْذِرُوا به من قبل، يرشد إلى هذا قوله تعالى ﴿ ۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]

من أجل هذا كان سبحانه يرسل الرسل بعضهم إثر بعض حتى لا يطول الإنذار فتقسو القلوب، وقد كان الشعب الإسرائيلي أكثر الشعوب حظاً في عدد الرسل الذين أُرسلوا إليهم، فليس لهم من العذر ما يسوّغ نسيان الشرائع أو تحريفها وتأويلها، ولكن كانوا يطيعون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم، ويعصون رسلهم، فمنهم من كذّبوه، ومنهم من قتلوه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي ولقد أعطينا موسى الكتاب المقدس وهي التوراة، ثم أتبعنا من بعده رسولاً بعد رسول مقتفين أثره، فلم يمض زمن إلا كان فيه نبيّ أو أنبياء يأمرون وينهون، فلا عذر لهم في نسيان الشرائع أو تحريفها وتغيير أوضاعها.

ثم خصّ من أولئك الرسل عيسى عليه السلام فقال:

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي وأعطينا عيسى المعجزات الباهرة التي تدل على صدق نبوته وأنه موحى إليه من ربه، وأيدناه بروح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وأرسلناه بعد ظهوره كثير من الرسل ولم يكن حظه بينهم أحسن من حظ سابقيه.

ثم بيّن ماذا كان حظ الرسل من بني إسرائيل فقال:

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي أبلغ الأمر بكم أنكم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهوى نفوسكم استكبرتم عليه تجبراً وبغياً في الأرض؟

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي فبعضاً منهم تكذبون كعيسى ومحمد عليهما السلام، وبعضاً تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام، فلا عجب بعد هذا إن لم تؤمنوا بدعوة محمد ﷺ فإن العناد والجحود من طبعكم، وسجية عرفت عنكم. ولا غرابة في صدور ما صدر منكم.

سيد قطب ج ١ ص ٨٨ ـ ٨٩

ثم يمضي السياق يواجه بني إسرائيل بمواقفهم تجاه النبوات وتجاه الأنبياء.. أنبيائهم هم. وما كان من سوء صنيعهم معهم كلما جاءوهم بالحق، الذي لا يخضع للأهواء.

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم ووصاياهم.. فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم. ويثبت أنهم هم هم كلما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم.

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ وقد آتاه الله الكتاب. ويزيد هنا أن رسلهم توالت تترا، يقفو بعضهم بعضاً، وكان آخرهم عيسى بن مريم. وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده بروح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ فكيف كان استقبالهم لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام؟ كان هذا الذي يستنكره عليهم، والذي لا يملكون هم إنكاره، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾!

ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارىء والنزوة المتقلبة. ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت ـ غير المصدر الإنساني المتقلب ـ مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى!

ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا - فريقاً. ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة. . إلا أن يستجيبوا لله ورسله، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون.

٢ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ١١٦)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١	ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤	ابن كثير	ج ١	ص ١٦٠
الزمخشري	ج ١	ص ٣٠٧	الجلالان		ص ٢٣
الرازي	ج ٤	ص ٢٢ ـ ٢٥	الشوكاني	ج ١	ص ١٣٢ ـ ١٣٥
الطبرسي	ج ١	ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤	الآلوسي	ج ١	ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧
ابن عربي	ج ١	ص ٨٠ ـ ٨١	القاسمي	ج ٢	ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤
البيضاوي	ج ١	ص ١٨٢ ـ ١٨٣	محمد عبده	ج ١	ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧
الخازن	ج ١	ص ٩٩ ـ ١٠٠	الطباطبائي	ج ١	ص ٢٦٣ ـ ٢٦٥
البغوي	ج ١	ص ٧١	جوهري	ج ١	ص ١١٤
الماوردي	ج ١	ص ١٧٧ ـ ١٧٨	المراغي	ج ١	ص ١٨٩ ـ ١٩٢
القرطبي	ج ٢	ص ٨٤ ـ ٨٦	سيد قطب	ج ١	ص ١٠٥ ـ ١٠٦
أبو حيان الأندلسي	ج ١	ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤			

الطبري ج ١ ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴿وَقَالُوا﴾ معطوف على قوله ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤] وتأويل الآية ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها وقالوا اتخذ الله ولدا وهم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله فقال الله جل ثناؤه مكذباً قيلهم ما قالوا من ذلك ومنفياً ما نحلوه وأضافوا إليه بكذبهم وفريتهم ﴿سُبْحَانَهُ﴾ يعني بها تنزيهاً وتبريئاً من أن يكون له ولد وعلواً وارتفاعاً عن ذلك وقد دللنا فيما مضى على معنى قول القائل (سبحان الله) بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع ثم أخبر جل ثناؤه أن له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً ومعنى ذلك وكيف يكون المسيح لله ولداً وهو لا يخلو إما أن يكون في بعض هذه الأماكن إما في السموات وإما في الأرض ولله ملك ما فيهما ولو كان المسيح ابنا كما زعمتم لم يكن كسائر ما في السموات والأرض من خلقه وعبيده في ظهور آيات الصنعة فيه.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معنى ذلك مطيعون ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ مطيعون. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله عز وجل ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال مطيعون قال طاعة الكافر في سجود ظله. حدثني... المثنى عن مجاهد بمثله إلا أنه زاد بسجود ظله وهو كاره. حدثنا موسى... عن السدى ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ يقول كل له مطيعون يوم القيامة. حدثني المثنى... عن عكرمة ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال الطاعة. حدثت عن المنجاب بن الحرث... عن ابن عباس ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون. وقال آخرون معنى ذلك كل له مقرّون بالعبودية ذكر من قال ذلك. حدثنا ابن حميد... عن عكرمة ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ كل مقر له بالعبودية. وقال آخرون بماحدثني به المثنى... عن الربيع قوله ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ قال كل له قائم يوم القيامة. وللقنوت في كلام العرب معان أحدها الطاعة والآخر القيام والثالث الكف عن الكلام

والإمساك عنه وأولى معاني القنوت في قوله ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ الطاعة والإقرار لله عز وجل بالعبودية بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة والدلالة على وحدانية الله عز وجل وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أن لله ولداً بقوله ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ثم أخبر عن جميع ما في السموات والأرض أنها مقرة بدلالتها على ربها وخالقها وأن الله تعالى بارئها وصانعها وإن جحد ذلك بعضهم فألسنتهم مذعنة له بالطاعة بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها بذلك وأن المسيح أحدهم فإنى يكون لله ولداً وهذه صفته! وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وجهته أن قوله ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ خاصة لأهل الطاعة وليست بعامة وغير جائز ادعاء خصوص في آية عام ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها لما قد بينا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام». وهذا خبر من الله جل وعز عن أن المسيح الذي زعمت النصارى أنه ابن الله مكذبهم هو والسموات والأرض وما فيها إما باللسان وإما بالدلالة. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن جميعهم بطاعتهم إياه وإقرارهم له بالعبودية عقيب قوله ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فدل ذلك على صحة ما قلنا.

الزمخشري ج ١ ص ٣٠٧

﴿وَقَالُوا﴾ وقرىء بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله والملائكة بنات الله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو خالقه ومالكه ومن جملته الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيئته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد والتنوين في كل عوض من المضاف إليه: أي كل ما في السموات والأرض، ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولداً له قانتون مطيعون عابدون مقرّون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم. فإن قلت: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله قانتون؟ قلت: هو كقوله سبحان ما سخركن لنا، وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] يقال بدع الشيء فهو بديع كقولك: بزع الرجل فهو بزيع.

الرازي ج ٤ ص ٢٢ ـ ٢٥

... اعلم أن هذا هو النوع العاشر من مقابح أفعال اليهود والنصارى والمشركين، واعلم أن الظاهر قوله تعالى ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ أن يكون راجعاً إلا قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] وقد ذكرنا أن منهم من تأوله على النصارى ومنهم من تأوله على مشركي العرب، ونحن قد تأولناه على اليهود وكل هؤلاء أثبتوا الولد لله تعالى، لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله فلا جرم صحت هذه الحكاية على جميع التقديرات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ووهب بن يهودا فإنهم جعلوا عزيراً بن الله، أما قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ فهو كلمة تنزيه ينزه بها نفسه عما قالوه، كما قال تعالى في موضع آخر ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فمرة أظهره، ومرة اقتصر عليه لدلالة الكلام عليه، واحتج على هذا التنزيه بقوله ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧١] ووجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه (الأول) أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لا يكون ولداً، أما بيان أن ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، فلأنه لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لاشتركا في وجوب الوجود، ولامتاز كل واحد منهما عن الآخر بما به التعين، وما به المشاركة، غير ما به الممايزة، ويلزم تركب كل واحد

منهما من قيدين، وكل مركب فإنه مفتقر إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من اجزائه من غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته فكل واحد من الموجودين الواجبين لذاهما ممكن لذاته، هذا خلف، ثم نقول: إن كان كل واحد من ذينك الجزءين واجباً عاد التقسيم المذكور فيه، ويقضي إلى كونه مركباً من أجزاء غير متناهية، وذلك محال، ومع تسليم أنه غير محال فالمقصود حاصل، لأن كل كثرة فلا بد فيها من الواحد، فتلك الآحاد إن كانت واجبة لذواتها كانت مركبة على ما ثبت، فالبسيط مركب هذا خلف، وإن كانت ممكنة كان المركب المفتقر إليها أولى بالإمكان، فثبت بهذا البرهان أن كل ما عدا الموجود الوجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محتاج إلى المؤثر، وتأثير ذلك المؤثر فيه إما أن يكون حال عدمه أو حال وجوده فإن كان الأول فذلك الممكن محدث وإن كان الثاني فاحتياج ذلك الموجود إلى المؤثر إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه والأول محال لأنه يقتضي إيجاد الوجود فتعين الثاني وذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثاً فثبت أن كل ما سوى الله محدث مسبوق بالعدم وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه فثبت أن كل ما سواه فهو عبده وملكه فيستحل أن يكون شيء مما سواه ولداً له، وهذا البرهان إنما استفدناه من قوله ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع (والثاني) أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده إما أن يكون قديماً أزلياً أو محدثاً، فإن كان أزلياً لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والآخر والداً أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرداً من غير دليل وإن كان الولد حادثاً كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له فلا يكون ولداً له (الثالث) أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولداً لكان مشاركاً له من بعض الوجوه، وممتازاً عنه من وجه آخر، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركباً ومحدثاً وذلك محال فإذن المجانسة ممتنعة فالولدية ممتنعة (الرابع) أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً، واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٣٤] وقال أيضاً في آخر هذه السورة ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٣] فإن قيل: ما الحكمة في أنه تعالى استدل في هذه الآية بكونه مالكاً لما في السموات والأرض، وفي سورة مريم بكونه مالكاً لمن في السموات والأرض على ما قال ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] قلنا: قوله تعالى في هذه السورة ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أتم، لأن كلمة (ما) تتناول جميع الأشياء، وأما قوله تعالى ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى ـ القنوت: أصله الدوام، ثم يستعمل على أربعة أوجه: الطاعة، كقوله تعالى ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾ [آل عمران: ٤٣] وطول القيام، كقوله عليه السلام لما سئل: أي الصلاة أفضل؟ قال «طول القنوت» وبمعنى السكون، كما قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى ﴿ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فأمسكنا عن الكلام. ويكون بمعنى الدوام، إذا عرفت هذا فنقول: قال بعض المفسرين ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي كل ما في السماوات والأرض قانطون مطيعون، والتنوين في كل عوض عن المضاف إليه وهو قول مجاهد وابن عباس، فقيل لهؤلاء الكفار: ليسوا مطيعين، فعند هذا قال آخرون: المعنى أنهم يطيعون يوم القيامة، وهو قول السدي، فقيل لهؤلاء: هذه صفة المكلفين، وقوله ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ في السموات ﴾ يتناول من لا يكون مكلفاً فعند

هذا فسروا القنوت بوجوه أخر (الأول) بكونها شاهدة على وجود الخالق سبحانه بما فيها من آثار الصنعة وأمارات الحدوث والدلالة على الربوبية (الثاني) كون جميعها في ملكه وقهره يتصرف فيها كيف يشاء، وهو قول أبي مسلم، وعلى هذين الوجهين الآية عامة (الثالث) أراد به الملائكة وعزيراً والمسيح، أي كل من هؤلاء الذين حكموا عليهم بالولد أنهم قانتون له، يحكى عن علي بن أبي طالب قال لبعض النصارى لولا تمرد عيسى عن عبادة الله لصرت على دينه، فقال النصراني: كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جده في طاعة الله، فقال علي رضي الله عنه: فإن كان عيسى إلهاً فالإله كيف يعبد غيره إنما العبد هو الذي يليق به العبادة، فانقطع النصراني.

المسألة الثانية ـ لما كان القنوت في أصل اللغة عبارة عن الدوام كان معنى الآية أن دوام الممكنات وبقاءها به سبحانه ولأجله وهذا يقتضي أن العالم حال بقائه واستمراره محتاج إليه سبحانه وتعالى، فثبت أن الممكن يقتضي أن لا تنقطع حاجته عن المؤثر لا حال حدوثه ولا حال بقائه.

المسألة الثالثة ـ يقال كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله ﴿قَـٰنِتُونَ﴾ جوابه: كأنه جاء بما دون من تحقيراً لشأنهم.

الطبرسي ج ١ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤

. . . لما حكى الله سبحانه قول اليهود في أمر القبلة ورد عليهم قولهم ذكر مقالتهم في التوحيد راداً عليهم قال ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي إجلالاً له عن اتخاذ الولد وتنزيهاً عن القبائح والسوء والصفات التي لا تليق به. وروي عن طلحة به عبيدالله أنه سأل النبي ﷺ عن معنى قوله سبحانه فقال: تنزيهاً لله عن كل سوء بل له ما في السموات والأرض هذا رد عليهم قولهم اتخذ الله ولداً أي ليس الأمر كما زعموا ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً والولد لا يكون ملكاً للأب لأن البنوة والملك لا يجتمعان فكيف يكون الملائكة الذين هم في السماء والمسيح الذي هو في الأرض ولداً له، فنبه بذلك على أن المسيح وغيره عبيد له مخلوقون مملوكون فهم بمنزلة سائر الخلق، وقيل معناه بل له ما في السماوات والأرض فعلاً والفعل لا يكون من جنس الفاعل، والولد لا يكون إلاّ من جنس أبيه، فإن من تبنى إنساناً فالذي تبناه لا بد من أن يكون من جنسه وقوله ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد معناه مطيعون . . . وقال الحسن كل له قائم بالشهادة أنه عبده، وقال الجبائي كل دائم على حال واحد بالشهادة بما فيه من آثار الصنعة والدلالة على الربوبية. وقال أبو مسلم: كل في ملكه وقهره يتصرف فيه كيف يشاء لا يمتنع عليه.

ابن عربي ج ١ ص ٨٠ ـ ٨١

. . . ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ أي أوجد موجوداً مستقلاً بذاته، مخصوصاً دونه، سبحانه، تنزهه عن أن يكون غيره شيء فضلاً عما يجانسه، بل له ما في السموات والأرض، أي له عالم الأرواح والأجساد، وهي باطنه وظاهره، كما تقول: له الذات، والوجه، والصفات، وأمثال ذلك.

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ موجودون بوجوده، فاعلون بفعله، معدومون بذواتهم، وهو غاية الطاعة، والقيام بحقه إذ هو الوجود المطلق، فلا يوجد بدونه شيء، والوجودات المعينة صفاته وأسماؤه، لامتيازها بتعيّناتها، التي هي أمور إمكانية عدمية، ليست عينه بالاعتبار العقليّ الذي يقسمها إلى الوجود والماهية، التي هي بدون الوجود ليست شيئاً في الخارج، لكن في العقل والعقليات باطنه، فهي في الحقيقة ليست غيره، فلا يكون غيره موجوداً حتى يكون ولداً، أي معلولاً، أو مخلوقاً، أو ما شئت فسمه.

أبو حيان الأندلسي ج١ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤

﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ نزلت في اليهود إذ قالوا عزير ابن الله أو في النصارى إذ قالوا المسيح ابن الله أو في المشركين إذ قالوا الملائكة بنات الله أو في النصارى والمشركين أقوال أربعة والأخير قاله الزجاج ولاختلافهم في سبب النزول اختلفوا في الضمير في وقالوا على من يعود فقيل هو عائد على الجميع من غير تخصيص فإن كلاً منهم قد جعل لله ولداً قاله ابن اسحق والجمهور على قراءة وقالوا بالواو وهو آكد في الربط فيكون عطف جملة خبرية على جملة مثلها. وقيل هو عطف على قوله ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾ [البقرة: ١١٤] فيكون معطوفاً على معطوف على الصلة وفصل بينهما بالجمل الكثيرة وهذا بعيد جداً ينزه القرآن عن مثله. وقرأ ابن عباس، وابن عامر، وغيرهما قالوا بغير واو ويكون على استئناف الكلام أو ملحوظاً فيه معنى العطف واكتفى بالضمير والربط به عن الربط بالواو، وقال الفارسي وبغير واو هي في مصاحف أهل الشام تقدم أن اتخذ، افتعل من الأخذ وأنها تارة تتعدى إلى واحد نحو قوله ﴿اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] قالوا معناه صنعت وعملت وإلى اثنين فتكون بمعنى صير وكلا الوجهين يحتمل هنا وكل من الوجهين يقتضي تصوره باستحالة الولد لأن الولد يكون من جنس الوالد. فإن جعلت اتخذ بمعنى عمل وصنع استحال ذلك لأن الباري تعالى منزه عن الحدوث قديم لا أولية لقدمه وما عمله محدث فاستحال أن يكون ولد له وإن جعلت اتخذ بمعنى صير استحال أيضاً لأن التصيير هو نقل من حال إلى حال وهذا لا يكون إلا فيما يقبل التغيير وفرضية الولد به تقتضي أن يكون من جنس الوالد لا تقتضي التغيير فقد استحال ذلك وإذا جعلت اتخذ بمعنى صير كان أحد المفعولين محذوفاً التقدير وقالوا اتخذ بعض الموجودات ولدا والذي جاء في القرآن إنما ظاهره التعدي إلى واحد قال تعالى ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩١ ـ ٩٢]. وقال القشيري أتى بالولد وهو إحدى الذات لا جزء لذاته ولا تجوز الشهوة في صفاته انتهى. ولما كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة أتى باللفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على الله تعالى قبل أن يضرب عن مقالتهم ويستدل على بطلان دعواهم وكان ذكر التنزيه أسبق لأن فيه ردعا لمدعى ذلك وأنهم ادعوا أمرا تنزه الله عنه وتقدس ثم أخذ فـي إبطال تلك المقالة فقال ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي جميع ذلك مملوك له ومن جملتهم من ادعوا أنه ولد الله والولادة تتنافى الملكية لأن الوالد لا يملك ولده وقد ذكر بعض المفسرين هنا مسألة من اشترى والده أو ولده أو أحداً من ذوي رحمه وموضوعها علم الفقه ولما ذكر أن الكل مملوك لله تعالى ذكر أنهم كلهم قانتون له أي مطيعون خانعون له، وهذه عادة المملوك أن يكون طائعاً لمالكه ممتثلاً لما يريده منه واستدل بنتيجة الطواعية على ثبوت الملكية ومن كان بهذه الصفة لم يجانس الوالد إذ الولد يكون من جنس الوالد وأتى بلفظ ما في قوله ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإن كانت لما لا يعقل لأن ما لا يعقل إذا اختلط بمن يعقل جاز أن يعبر عن الجميع بما ولذلك قال سيبويه وأما ما فإنها مبهمة تقع على كل شيء ويدل على اندراج من يعقل تحت مدلول ما جمع الخبر بالواو والنون التي هي حقيقة فيما يعقل واندرج فيه ما لا يعقل على حكم تغليب من يعقل فحين ذكر الملك أتى بلفظة ما وحين ذكر القنوت أتى بجمع ما يعقل فدل على أن ذلك شامل لمن يعقل وما لا يعقل. قال الزمخشري فان قلت كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله ﴿قَٰنِتُونَ﴾ قلت هو كقوله سبحان «ما سخركن لنا» وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم كقوله ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] انتهى كلامه، وهو جنوح منه إلى أن ما وقعت على من يعلم ولذلك جعله كقوله «ما سخركنّ لنا» يريد أن المعنى سبحان من سخركن لنا لأنها يراد بها الله تعالى وما عندنا لا يقع إلا لما لا يعقل إلا إذا اختلط بمن يعقل فيقع عليهما كما ذكرناه أو كان واقعاً على صفات من يعقل فيعبر عنها بما وأما أن يقع لمن يعقل خاصة حالة إفراده أو غير إفراده فلا. وقد أجاز ذلك بعض النحويين وهو مذهب لا يقوم عليه دليل إذ جميع ما احتج به لهذا المذهب محتمل وقد يؤول فيؤول قوله سبحان «ما سخركن» على أن سبحان

غير مضاف وأنه علم لمعنى التسبيح. . .

وما ظرفية مصدرية أي مدت تسخيركن لنا والفاعل بسخر مضمر يفسره المعنى وسياق الكلام إذ معلوم أن مسخرهن هو الله تعالى وقول الزمخشري وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم ليست ما هنا مختصة بمن يعقل فتقول عبر عنهم بما التي لما لا يعقل تحقيراً لهم وإنما هي عامة لمن يعقل ولما لا يعقل ومعنى قانتون: قائمون بالشهادة قاله الحسن، أو في القيامة للعرض قاله الربيع أو مطيعون قاله قتادة أو مقرون بالعبودية قاله عكرمة وقيل قائمون بالله. وأورد على من يقول القنوط القيام لله بالشهادة والعبودية أنه كيف عم بهذا القول وكثير ليس بمطيع. وأجيب أن ظاهره العموم والمعنى الخصوص أي أهل كل طاعة له قانتون وبان الكفار يسجد ظلالهم وبظهور أثر الصنعة فيه وجرى أحكام الله عليه وذلك دليل على تذلله لله تعالى ذكره ابن الأنباري ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ ﴾ مرفوع بالابتداء والمضاف إليه محذوف وهو عبارة عن من في السموات والأرض أي كل من في السموات والأرض وهو المحكوم عليهم بالملكية. . . ﴿ قَـٰنِتُونَ ﴾ خبر عن كل وجمع حملاً على المعنى وكلّ إذا حذف ما تضاف إليه جاز فيها مراعاة المعنى فتجمع ومراعاة اللفظ فتفرد وإنما حسنت مراعاة الجمع هنا لأنها فاصلة رأس آية ولأن الأكثر في لسانهم أنه إذا قطعت عن الإضافة كان مراعاة المعنى أكثر وأحسن قال تعالى ﴿ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٤] ﴿ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٧] ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٣] وقد جاء أفراد الخبر كقوله قلّ كلّ يعمل على شاكلته. . .

ابن كثير ج ١ ص ١٦٠

. . . ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهنّ وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ . . . وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا . لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾[مريم: ٨٨ ـ ٩٤] وقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ . ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الاخلاص ١ ـ ٤] فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟ . . . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» وقوله ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾ قال ابن أبي حاتم. . . عن ابن عباس قال (قانتين) مصلين. . . وقال سعيد بن جبير ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾ يقول الاخلاص. . . وقال خصيف عن مجاهد ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾ قال مطيعون كن إنساناً فكان، وقال ابن ابي نجيح عن مجاهد ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴾ مطيعون قال طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره وقال كن حماراً فكان، وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو إن القنوت والطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقدري كما قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَـٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ۩ ﴾ [الرعد: ١٥]. . .

الآلوسي ج ١ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧

. . . ﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إبطال لما زعموه وإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من التشبيه بالمحدثات في التناسل والتوالد، والحاجة إلى الولد في القيام بما يحتاج الوالد إليه، وسرعة الفناء لأنه لازم للتركيب اللازم للحاجة، وكل محقق قريب سريع، ولأن الحكمة في التوالد هو أن يبقى النوع محفوظاً بتوارد الأمثال فيما لا سبيل إلى بقاء الشخص بعينه مدة بقاء الدهر. وكل ذلك يمتنع على الله تعالى فإنه الأبدي الدائم والغني المطلق المنزه عن مشابهة المخلوقات. واللام في (له) قيل للملك. وقيل: إنها كالتي في قولك لزيد ـ ضرب تفيد نسبة الأثر إلى المؤثر، وقيل: للاختصاص بأي وجه كان، وهو الأظهر، والمعنى ليس الأمر كما افتروا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها ما زعموه ولداً، والخالق لكل موجود لا حاجة له إلى الولد إذ هو يوجد ما يشاء منزهاً عن الاحتياج إلى التوالد ﴿ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي كل ما فيهما كائناً ما كان جميعاً منقادون له لا يستعصي شيء منهم على مشيئته وتكوينه إيجاداً وإعداماً وتغيراً من حال إلى حال، وهذا يستلزم الحدوث والإمكان المنافي للوجوب الذاتي فكل من كان متصفاً بهذه الصفة لا يكون والداً لأن من حق الولد أن يشارك والده في الجنس لكونه بعضاً منه، وإن لم يماثله، وكان الظاهر كلمة من مع ﴿ قَٰنِتُونَ ﴾ كيلا يلزم اعتبار التغليب فيه، ويكون موافقاً لسوق الكلام فإن الكلام في العزير والمسيح والملائكة وهم عقلاء إلا أنه جاء بكلمة (ما) المختصة بغير أولي العلم كما قاله بعضهم: محتجاً بقصة الزبعري مخالفاً لما عليه الرضى من أنها في الغالب لما لا يعلم، ولما عليه الأكثرون من عمومها كما في التلويح، واعتبر التغليب في ﴿ قَٰنِتُونَ ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الذين جعلوهم ولد الله تعالى سبحانه وتعالى في جنب عظمته جمادات مستوية الأقدام معها في عدم الصلاحية لاتخاذ الولد، وقيل: أتى بما في الأول لأنه إشارة إلى مقام الألوهية، والعقلاء فيه بمنزلة الجمادات، ويجمع العقلاء في الثاني لأنه إشارة إلى مقام العبودية، والجمادات فيه بمنزلة العقلاء.

ويحتمل أن يقدر المضاف إليه كل ما جعلوه ولداً لدلالة المقول لا عاماً لدلالة مبطله، ويراد بالقنوت الانقياد لأمر التكليف كما أنه على العموم الانقياد لأمر التكوين، وحينئذ لا تغليب في ﴿ قَٰنِتُونَ ﴾ وتكون الجملة إلزاماً بأن ما زعموه ولداً مطيع لله تعالى مقر بعبوديته بعد إقامة الحجة عليهم بما سبق، وترك العطف للتنبيه على استقلال كل منهما في الدلالة على الفساد واختلافهما في كون أحدهما حجة والآخر إلزاماً، وعلى الأول يكون الأخير مقرراً لما قبله، وذكر الجصاص إن في هذه الآية دلالة على أن ملك الإنسان لا يبقى على ولده لأنه نفى الولد باثبات الملك باعتبار أن اللام له فمتى ملك ولده عتق عليه، وقد حكم صلى الله تعالى عليه وسلم بمثل ذلك في الوالد إذا ملكه ولده؛ ولا يخفى أن هذا بعيد عما قصد بالآية لا سيما إذا كان الأظهر الاختصاص كما علمت.

القاسمي ج ٢ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤

. . . وكلمة «بَلْ» للإضراب عما تقتضيه مقالتهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات. أي ليس الأمر كما زعموا، بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزير والمسيح والملائكة، والتنوين في «كُلٌّ» عوضٌ عن المضاف إليه. أي كل ما فيهما، كائناً ما كان من أولي العلم وغيرهم. . .

قال الراغب في تفسيره: نبه على أقوى حجة على نفي ذلك. وبيانها: هو أن لكل موجود في العالم، مخلوقاً طبيعياً، أو معمولاً صناعياً، غرضاً وكمالا أوجد لأجله. وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض، كاليد للبطش، والرجل للمشي، والسكين لقطع مخصوص، والمنشار للنشر، وإن كانت اليد قد تصلح للمشي في

حالٍ، والرِّجلْ للتناول، لكن ليس على التمام. والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه، وجزء منه، لَمَّا لم يجعل الله له سبيلاً إلى بقائه بشخصه، فجعل له بذراً لحفظ نوعه. ويقوى ذلك، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخلافاً، لَمّا لم يجعل لها فناء النبات والحيوان. ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم، بلا ابتداء ولا انتهاء، لم يكن لاتخاذه الولد لنفسه معنى. ولهذا قال ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ ﴾ [النساء: ١٧١] أي هو منزه عن السبب المقتضى للولد ثم لما كان اقتناء الولد لفقرٍ ما، وذلك لما تقدم، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه ـ بيّن تعالى بقوله: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ أنه لا يتوهم له فقر، فيحتاج إلى اتخاذ ما هوسدٌ لفقره، فصار في قوله ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾ دلالة ثانية. ثم زاد حجة بقوله ﴿ قَٰنِتُونَ ﴾ وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرته كما قال ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ ﴾ [النحل: ٧٢] بيّن أن كل ما في السموات والأرض، مع كونه ملكاً له، قانت أيضاً، إما طائعاً، وإما كارهاً، وإما مسخراً. كقوله ﴿ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ [الرعد: ١٥] وقوله ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة.

ثم قال الراغب: إن قيل من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلى الله تعالى؟ قيل قد ذكر في الشرائع المتقدمة: كانوا يطلقون على البارىء تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله، حتى إنهم قالوا: إن الأب هو الرب الأصغر وإن الله هو الأب الأكبر، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان، وإن الأب هو السبب الأخير في وجوده وإن الأب هو معبود الابن من وجهٍ أي مخدومه. وكانوا يقولون للملائكة: آلهة. كما قالت العرب للشمس: إلاهة. وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علماؤنا بقولهم: الله محب ومحبوب، ومريد ومراد ونحو ذلك من الألفاظ. كما يقال للسلطان: الملك. وقول الناس: رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف. ويقوي ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله، وأن عيسى كان يقول: أنا ذاهب إلى أبي. ونحو ذلك من الألفاظ. ثم تصور الجهلة منهم، بآخرة، معنى الولادة الطبيعية. فصار ذلك مهيا عن التفوه به في شرعنا، تنزهاً عن هذا الاعتقاد، حتى صار إطلاقه، وإن قصد به ما قصده هؤلاء، قرين الكفر، اهـ كلام الراغب رحمه الله.

محمد عبده ج ١ ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧

ثم عاد الكتاب إلى النسق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركين بعدما ذكر من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين أنه يعبد في كل مكان، فقال جل وعز ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ ﴾ فهذا عطف على قوله تعال ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ ﴾ [البقرة: ١١١] وقوله ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ ﴾ [البقرة: ١١٣] إلخ ويصح أن ينسب هذا إلى اليهود والنصارى والذين لا يعلمون جميعاً، وإلى فرقة واحدة منهم. . . ولا فرق في الأحكام التي تسند إلى الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فإن مثل هذا الإسناد منبىء بتكافل الأمم كما تقدم غير مرة. وقد نقل أن كلمة: عزير ابن الله: قالها بعض اليهود لا كلهم، وكذلك اعتقاد كون الملائكة بنات الله لم يكن عاماً في مشركي العرب، وإنما عرف عن بعضهم. ثم رد على مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ نزه تعالى نفسه بكلمة ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥۖ ﴾ التي تفيد التنزيه، مع التعجب مما ينافيه، كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر عنه مثل هذا القول الذي يشعر بأن له تعالى جنساً يماثله، فإن قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى وإنما يكون زاعماً فيه المزاعم وظاناً فيه الظنون، أي تنزيهاً له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء الجاهلون الظانون بالله غير الحق، فإنه لا جنس له فيكون له ولد منه؛ وهذا الولد الذي نسبوه إليه تعالى لا بد أن يكون من العالم العلوي وهو السماء،

أو من العالم السفلي وهو الأرض، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانساً له عز وجل، لأن جميع ما في السموات والأرض ملك له، قانت لعزته وجلاله، أي خاضع لقهره مسخر لمشيئته، فإذا كانوا سوءاً في كونهم مسخرين له بفطرتهم، منقادين لإرادته بطبيعتهم واستعدادهم، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولداً مجانساً له ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣] نعم إن له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحي ولكن هذا التخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلى مرتبة الخالق، ولا يعرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب، وإنما يودع سبحانه في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه ﴿ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلاً من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله.

وقد غلب في الملكية ما لا يعقل فقال ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ إلخ لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره، ويستوي في التسخير الطبيعي العاقل وغيره، ولكنه في غير العاقل أظهر. ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقلاء لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به. وجملة القول: أن الآية ناطقة بأن ما في السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره. فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالباً في غير العاقل وهي كلمة (ما) لأن المعهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لأنه من أعمالهم، ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفاً. وهذا كما ترى من أدق التعبير وألطفه، وأعلى البيان وأشرفه.

سيد قطب ج ١ ص ١٠٥ ـ ١٠٦

. . . بعد ذلك يستعرض السياق ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية، وانحرافهم عن التوحيد الذي هو قاعدة دين الله، وأساس التصور الصحيح في كل رسالة. ويقرن تصورهم المنحرف إلى تصورات الجاهلية عن ذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته. ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب، ويصحح للجميع انحرافهم إلى الشرك، ويوضح لهم قاعدة التصور الإيماني الصحيح:

. . . وهذه المقولة الفاسدة: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾.

ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح، فهي كذلك مقولة اليهود في العزير. كما كانت مقولة المشركين في الملائكة ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة ـ ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماماً، ممثلة في الصهيونية العالمية والصليبية العالمية، والشيوعية العالمية، وهي أشد كفراً من المشركين في ذلك الحين! ـ ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون؛ وها هم أولاء يستوون مع المشركين!

وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله ـ سبحانه ـ يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾. . .

هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلقه، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعاً.. لقد صدر الكون عن خالقه، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده

بوجود هذا الكائن، على الصورة المقدرة له، بدون وسيط من قوة أو مادة.. أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها، بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه. وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها.. وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى.. ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هذه الأسرار؛ وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلاً بأدوات المعرفة فيه والارتياد. فتجيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها. مضحكة إلى حد يحير الإنسان: كيف يصدر هذا عن «فيلسوف»! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه؛ بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله. وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة، الخاطئة المنهج ابتداء. فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية ـ على وجه خاص ـ أن يتطاولوا إلى ذلك المرتقى، باءوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته، وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته.. وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه..

والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق. وأن الخالق ليس كمثله شيء.. ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة: «وحدة الوجود» على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح ـ أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة ـ أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده.. أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس.. والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر: وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع:

﴿ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ ..

فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما في السماوات والأرض ولداً.. فالكل من خلقه بدرجة واحدة، وبأداة واحدة...

٣ ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ١٣٦)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١	ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣	ابن كثير	ج ١	ص ١٨٦ ـ ١٨٧
الزمخشري	ج ١	ص ٣١٤ ـ ٣١٥	الجلالان	ج	ص ٢٦
الرازي	ج ٤	ص ٨٢ ـ ٨٣	الشوكاني	ج ١	ص ١٤٥ ـ ١٤٩
الطبرسي	ج ١	ص ٤٨٨ ـ ٤٩٠	الآلوسي	ج ١	ص ٣٥٢ ـ ٣٥٤
ابن عربي	ج ١	ص ٨٨ ـ ٩٠	القاسمي	ج ٢	ص ٢٧٠ ـ ٢٧١
البيضاوي	ج ١	ص ١٩٢ ـ ١٩٣	محمد عبده	ج ١	ص ٤٨٢ ـ ٤٨٤
الخازن	ج ١	ص ١١٤ ـ ١١٥	الطباطبائي	ج ١	ص ٣١٣ ـ ٣١٨
البغوي	ج ١	ص ٨٠ ـ ٨١	جوهري	ج ١	ص ١٢٦
الماوردي	ج ١	ص ١٩٤ ـ ١٩٥	المراغي	ج ١	ص ٢١٤ ـ ٢١٨
القرطبي	ج ٢	ص ١٣٩ ـ ١٤١	سيد قطب	ج ١	ص ١١٨
ابو حيان الاندلسي	ج ١	ص ٣٩٧ ـ ٤١١			

الطبري ج ١ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣

قوله تعالى ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ ﴾ [البقرة: ١٣٥] أي صدّقنا ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ وقد دللنا فيما مضى أن معنى الإيمان التصديق بما أغنى عن إعادته. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ يقول أيضاً صدقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبينا محمد ﷺ فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم إذ كانوا متبعيه ومأمورين منهيين به فكان وإن كان تنزيلاً إلى رسول الله ﷺ بمعنى التنزيل إليهم للذي لهم فيه من المعاني التي وصفت. ويعني بقوله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ ﴾ صدّقنا أيضاً وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ ﴾ وهم الأنبياء من ولد يعقوب. وقوله ﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ يعني وآمنا أيضاً بالتوراة التي آتاها الله موسى وبالإنجيل الذي آتاه الله عيسى والكتب التي آتى النبيين كلهم وأقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور من عند الله وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى يصدّق بعضهم بعضاً على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله والعمل بطاعته ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ يقول لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ونتبرأ من بعض ونتولى بعضاً كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرّت بغيرهما من الأنبياء وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقرّت بغيره من الأنبياء بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبياءه بعثوا بالحق والهدى. وأما قوله ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره ونحن له خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية. فذكر أن نبي الله ﷺ قال ذلك لليهود فكفروا بعيسى وبمن يؤمن به كما حدثنا أبو كريب... عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وعازر، وخالد، وزيد، وازار بن أبي ازار، وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب

والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به فأنزل الله فيهم ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٥٩]. حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قال أتى رسول الله ﷺ فذكر نحوه إلا أنه قال ونافع بن أبي نافع مكان رافع. بن أبي رافع وقال قتادة أنزلت هذه الآية أمراً من الله تعالى ذكره للمؤمنين بتصديق رسله كلهم كما حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأنبيائه ورسله كلهم ولا يفرقوا بين أحد منهم. وأما الأسباط الذين ذكرهم فهم اثنا عشر رجلاً من ولد يعقوب بن اسحق بن إبراهيم. ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا أسباطاً كما حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة قال الأسباط يوسف وإخوته بنو يعقوب ولد اثني عشر رجلاً فولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا أسباطاً. حدثني موسى... عن السدي أما الأسباط فهم بنو يعقوب يوسف وبنيامين وروبيل ويهوذا وشمعون ولاوي ودان وقهاث. حدثني المثنى... عن الربيع قال الأسباط يوسف وأخوته بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً فولد لكل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط حدثنا ابن حميد... عن محمد بن اسحق قال نكح يعقوب بن اسحق وهو اسرائيل ابنة خاله ليا ابنة ليان بن توبيل بن الياس فولدت له روبيل بن يعقوب وكان أكبر ولده وشمعون بن يعقوب ولاوى بن يعقوب ويهوذا ابن يعقوب وريالون بن يعقوب ويشجر بن يعقوب ودينة بنت يعقوب ثم توفيت ليا بنت ليان فخلف يعقوب على أختها راحيل بنت ليان بن توبيل بن الياس فولدت له يوسف بن يعقوب وبنيامين وهو بالعربية أسد وولد له من سرّيتين له اسم أحداهما زلفة واسم الأخرى بلهية أربعة نفر: دان بن يعقوب ونفثالي بن يعقوب وجاد بن يعقوب واشرب بن يعقوب فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً نشر الله منهم اثني عشر سبطاً لا يحصى عددهم ولا يعلم أنسابهم إلا الله يقول الله تعالى ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

الرازي ج ٤ ص ٨٢ ـ ٨٣

... اعلم أنه تعالى لما أجاب بالجواب الجدلي أولاً، ذكر بعده جواباً برهانياً في هذه الآية وهو: أن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء عليهم السلام ظهور المعجز عليهم، ولما ظهر المعجز على يد محمد ﷺ وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة في الدليل وأنه ممتنع عقلاً، فهذا هو المراد من قوله ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ إلى آخر الآية، وهذا هو الغرض الأصلي من ذكر هذه الآية، فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة. قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود والنصارى لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يده، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق، ثم نقول في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن الله تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا ﴿ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١٣٥] ذكروا في مقابلته للرسول عليه السلام ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ ﴾ [البقرة: ١٣٥] ثم قال لأمته ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ وهذا قول الحسن وقال القاضي قوله ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ يتناول جميع المكلفين، أعني النبي عليه السلام وأمته، والدليل عليه وجهان: (أحدهما) أن قوله ﴿ قُولُوٓاْ ﴾ خطاب عام فيتناول الكل (الثاني) أن قوله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ لا يليق إلا به ﷺ، فلا أقل من أن يكون هو داخلاً فيه، واحتج الحسن على قوله بوجهين (الأول) أنه عليه السلام أمر من قبل بقوله ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ﴾ (الثاني) أنه في نهاية الشرف، والظاهر إفراده بالخطاب.

(والجواب) أن هذه القرائن وإن كانت محتملة إلا أنها

لا تبلغ في القوة إلى حيث تقتضي تخصيص عموم قوله ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أما قوله ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فإنما قدمه لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالشرائع، فمن لا يعرف الله استحال أن يعرف نبياً أو كتاباً. وهذا يدل على فساد مذهب التعليمية والمقلدة القائلين بأن طريق معرفة الله تعالى: الكتاب والسنة.

أما قوله ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ قال الخليل: السبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، وقال صاحب الكشاف السبط، الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ، والأسباط: الحفدة وهم حفدة يعقوب عليه السلام وذراري أبنائه الاثني عشر.

أما قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ ففيه وجهان (الأول) إنا لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإنا لو فعلنا ذلك كانت المناقضة لازمة على الدليل وذلك غير جائز. (الثاني) لا نفرق بين أحد منهم، أي لا نقول: إنهم متفرقون في أصول الديانات، بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، كما قال الله تعالى ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣] (والوجه الأول) أليق بسياق الآية.

أما قوله ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ فالمعنى إن إسلامنا لأجل طاعة الله تعالى لا لأجل الهوى، وإذا كان كذلك فهو يقتضي أنه متى ظهر المعجز وجب الإيمان به، فأما تخصيص بعض أصحاب المعجزات بالقبول، والبعض بالرد، فذلك يدل على أن المقصود من ذلك الإيمان ليس طاعة الله والانقياد له، بل اتباع الهوى والميل.

محمد عبده ج ١ ص ٤٨٢ ـ ٤٨٤

. . . أي لا تكن دعوتكم إلى شيء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذي لا خلاف فيه ولا نزاع، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين، مع الاسلام لرب العالمين، لا نعبد إلا الله، ولا نفرق بين أحد من رسل الله. والأسباط أولاد يعقوب.

والفرق أو الشعوب الاثني عشر المتشعبة منهم. قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ﴾ [الاعراف: ١٦٠] وقد ورد أن أولاد يعقوب كانوا أنبياء ولم يرد أنهم كانوا مرسلين فإن صح هذا كما يفهم من إطلاق الأستاذ الإمام في الدرس فالمراد بالأسباط الاطلاق الأول وإلا كان في الكلام تقدير مضاف أي أنبياء الأسباط، كأنه قال: وسائر أنبياء بني إسرائيل وهو المختار، ولم يصح في نبوة غير يوسف من أبناء يعقوب شيء.

﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ قال الأستاذ الإمام وههنا نقطة دقيقة في اختلاف التعبير عن الوحي الذي منحه الله الأنبياء إذ عبر بأنزل تارة وبأوتي تارة أخرى، وهي أن التعبير بأنزل ذكر هنا في جانب الأنبياء الذين ليس لهم كتب تؤثر، ولا صحف تنقل، وذلك أن إنزال الوحي على نبي لا يستلزم إعطاءه كتاباً يؤثر عنه، وهذا ظاهر إذا كان النبي غير مرسل فإن الوحي إليه يكون خاصاً به، ويكون إرشاده للناس أن يعملوا بشرع رسول آخر إن كان بعث فيهم رسول وإلا كان قدوة في الخير ومعداً للنفوس لبعثة نبي مرسل، وأما النبي المرسل فقد يؤمر بالتبليغ الشفاهي ولا يعطى كتاباً باقياً وقد يكتب ما يوحى إليه في عصره فيضيع من بعده، فهؤلاء الرسل الكرام الذين عبر عنهم بقوله ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ لا يؤثر عن أحد منهم كتاب مسند صحيح ولا غير صحيح، وإننا نؤمن بأنهم كانوا أنبياء. وأن ما نزل عليهم هو دين الله الحق، وأنه موافق في جوهره وأصوله لما أنزل على من بعدهم. وما ذكر الله من ملة إبراهيم بالنص هو روح ذلك الوحي كله. وقد جاء في سورة النجم وسورة الأعلى ذكر صحف لإبراهيم. وقال الجلال هنا: إنها عشر. فنؤمن أنه كان له صحف ولا نزيد على ما ورد شيئاً، وأما اسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط فلم يثبت أن لهم صحفاً ولا كتباً، فنؤمن بما أنزل إليهم بالإجمال ونعتقد أنه عين ملة إبراهيم وجاء التعبير عن وحي الذين كان لهم كتب تؤثر بقوله

﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ فهو يشير بالإيتاء إلى أن ما أوحي إليهم له وجود يمكن الرجوع إليه والنظر فيه فإن أقوامهم يأثرون عنهم كتباً.

وأقول الآن: إن المراد الإيمان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين والمرسلين إجمالاً، وأنه كان وحياً من الله فلا نكذب أحداً منهم بما ادعاه ودعا إليه في عصره، بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعض. فإن ذلك لا يضرنا، لأن الإيمان التفصيلي والعمل مقصور على أما أنزل إلينا، . . . روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن معقل بن يسار مرفوعاً «آمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وليسعكم القرآن» وأما ما ذكره شيخنا من نقطة اختلاف التعبير فيشكل بقوله في أول الآية ﴿ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ أي معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعد ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ ﴾ ولم يعلم أنه كان لغير داود منهم كتاب منزل. على أن عدم العلم بكتب أنزلت على إبراهيم وإسماعيل وإسحق لا يدل على عدم تلك الكتب. ولعل نقطة اختلاف التعبير أن يشمل ما أوتى موسى وعيسى تلك الآيات التي أيدهما بها كما قال ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١] وقال ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [البقرة: ٨٧] ثم قال ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ ليدل على أن ذلك لم يكن خاصاً بموسى وعيسى والله أعلم. وقال بعد ما ذكر الفريقين ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ أي سواء منهم من له كتاب يؤثر ومن ليس له ذلك، نؤمن بالجميع إجمالاً ونأخذ التفصيل عن خاتمهم الذي بين لنا أصل ملتهم التي كانوا عليها وزادنا من الحكم والأحكام. ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان، والعمدة في الدين على إسلام القلب لله تعالى ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أي مذعنون منقادون كما يقتضي الإيمان الصحيح ولستم كذلك أهل الكتاب وإنما أنتم متبعون لأهوائكم وتقاليدكم لا تحولون عنها.

سيد قطب ج ١ ص ١١٨

. . . تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائرة في الدرب على هدى ونور. والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد. والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام. . .

٤

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٢٥٣)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٣	ص ٢ ـ ٣	ابن كثير	ج ١	ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤
الزمخشري	ج ١	ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤	الجلالان	ج	ص ٥٢ ـ ٥٣
الرازي	ج ٦	ص ١٩٤ ـ ٢٠٥	الشوكاني	ج ١	ص ٢٦٨ ـ ٢٧٠
الطبرسي	ج ٢	ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦	الآلوسي	ج ٣	ص ٢ ـ ٤
ابن عربي	ج ١	ص ١٤٠ ـ ١٤٢	القاسمي	ج ٣	ص ٦٥٤ ـ ٦٥٦
البيضاوي	ج ١	ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧	محمد عبده	ج ٣	ص ٢ ـ ١٥
الخازن	ج ١	ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧	الطباطبائي	ج ٢	ص ٣٢٤ ـ ٣٤٤
البغوي	ج ١	ص ١٧٧ ـ ١٧٨	جوهري	ج ١	ص ٢٣٢ ـ ٢٥٨
الماوردي	ج ١	ص ٣٢١ ـ ٣٢٢	المراغي	ج ٣	ص ٣ ـ ٨
القرطبي	ج ٣	ص ٢٦١ ـ ٢٦٥	سيد قطب	ج ١	ص ٢٧٧ ـ ٢٩٦
أبو حيان الأندلسي	ج ٢	ص ٢٧١ ـ ٢٧٥			

الطبري ج ٣ ص ٢ ـ ٣

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ تعالى ذكره بذلك ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ وآتينا عيسى بن مريم الحجج والأدلة على نبوته من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وما أشبه ذلك مع الإنجيل الذي أنزلته إليه فبينت فيه ما فرضت عليه. ويعني تعالى ذكره بقوله وأيدناه وقوّيناه وأعناه ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ يعني بروح الله وهو جبريل وقد ذكرنا اختلاف أهل العلم في معنى روح القدس والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك فيما مضى قبل فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك ولو أراد الله ﴿ ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ يعني من بعد الرسل الذين وصفهم بأنه فضل ﴿ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ وبعد عيسى ابن مريم وقد جاءهم من الآيات بما فيه مزدجر لمن هداه الله ووفقه. ويعني بقوله ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ يعني من بعدما جاءهم من آيات الله ما أبان لهم الحق وأوضح لهم السبيل. وقد قيل إن الهاء والميم في قوله ﴿ مِنۢ بَعْدِهِم ﴾ من ذكر موسى وعيسى. ذكر من قال ذلك حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ يقول من بعد موسى وعيسى. حدثت عن عمار... عن الربيع قوله ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ يقول من بعد موسى وعيسى. القول في تأويل قوله ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك ولكن اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل لما لم يشأ الله منهم تعالى ذكره أن لا يقتتلوا فاقتتلوا ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ من عند ربهم بتحريم

الاقتتال والاختلاف وبعد ثبوت الحجة عليهم بوحدانية الله ورسالة رسله ووحي كتابه فكفر بالله وبآياته بعضهم وآمن بذلك بعضهم فأخبر تعالى ذكره أنهم أتوا ما أتوا من الكفر والمعاصي بعد علمهم بقيام الحجة عليهم بأنهم على خطأ تعمداً منهم للكفر بالله وآياته. ثم قال تعالى ذكره لعباده ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ يقول ولو أراد الله أن يحجزهم بعصمته وتوفيقه إياهم عن معصيته فلا يقتتلوا ما اقتتلوا ولا اختلفوا ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بأن يوفق هذا لطاعته والإيمان به فيؤمن به ويطيعه ويخذل هذا فيكفر به ويعصيه.

الرازي ج ٦ ص ١٩٤ ـ ٢٠٤

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: (تلك) ابتداء، وإنما قال (تلك) ولم يقل أولئك الرسل، لأنه ذهب إلى الجماعة، كأنه قيل: تلك الجماعة الرسل بالرفع، لأنه صفة لتلك وخبر الابتداء ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

المسألة الثانية: في قوله ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ . . . الذين أرسلهم الله لدفع الفساد، الذين إليهم الإشارة بقوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

المسألة الثالثة: وجه تعليق هذه الآية بما قبلها ما ذكره أبو مسلم وهو أنه تعالى أنبأ محمداً ﷺ من أخبار المتقدمين مع قومهم، كسؤال قوم موسى ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وقولهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الاعراف: ١٣٨] وكقوم عيسى بعد أن شاهدوا منه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله فكذبوه وراموا قتله، ثم أقام فريق على الكفر به وهم اليهود، وفريق زعموا أنهم أولياؤه وادعت على اليهود من قتله وصلبه ما كذبهم الله تعالى فيه كالملأ من بني إسرائيل حسدوا طالوت ودفعوا ملكه بعد المسألة، وكذلك ما جرى من أمر النهر، فعزى الله رسوله عما رأى من قومه من التكذيب والحسد، فقال: هؤلاء الرسل الذين كلم الله تعالى بعضهم، ورفع الباقين درجات وأيد عيسى بروح القدس، قد نالهم من قومهم ما ذكرناه بعد مشاهدة المعجزات، وأنت رسول مثلهم فلا تحزن على ما ترى من قومك، فلو شاء الله لم تختلفوا أنتم وأولئك، ولكن ما قضى الله فهو كائن، وما قدره فهو واقع وبالجملة فالمقصود من هذا الكلام تسلية الرسول ﷺ على إيذاء قومه له.

المسألة الرابعة: أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمداً ﷺ أفضل من الكل، ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

الحجة الثانية: قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فقيل فيه لأنه قرن ذكر محمد بذكره في كلمة الشهادة وفي الأذان وفي التشهد ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك.

الحجة الثالثة: أنه تعالى قرن طاعته بطاعته، فقال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وبيعته ببيعته فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وعزته بعزته فقال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨] ورضاه برضاه فقال ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وإجابته بإجابته فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

الحجة الرابعة: أن الله تعالى أمر محمداً بأن يتحدى بكل سورة من القرآن فقال ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وأقصر السور سورة الكوثر وهي ثلاث آيات، وكان الله تحداهم بكل ثلاث آيات من القرآن، ولما كان كل القرآن ستة آلاف آية، وكذا آية، لزم أن لا يكون معجز

القرآن معجزاً واحداً بل يكون ألفي معجزة وأزيد.

وإذا ثبت هذا فنقول: إن الله سبحانه ذكر تشريف موسى بتسع آيات بينات، فلأن يحصل التشريف لمحمد بهذه الآيات الكثيرة كان أولى.

الحجة الخامسة: أن معجزة رسولنا ﷺ أفضل من معجزات سائر الأنبياء فوجب أن يكون رسولنا أفضل من سائر الأنبياء.

بيان الأول قوله عليه السلام «القرآن في الكلام كآدم في الموجودات».

بيان الثاني أن الخلعة كلما كانت أشرف كان صاحبها أكرم عند الملك.

الحجة السادسة: أن معجزته عليه السلام هي القرآن وهي من جنس الحروف والأصوات وهي أعراض غير باقية وسائر معجزات سائر الأنبياء من جنس الأمور الباقية ثم أنه سبحانه جعل معجزة محمد ﷺ باقية إلى آخر الدهر، ومعجزات سائر الأنبياء فانية منقضية.

الحجة السابعة: أنه تعالى بعدما حكى أحوال الأنبياء عليهم السلام قال ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] فأمر محمداً ﷺ بالإقتداء بمن قبله، فأما أن يقال: إنه كان مأموراً بالإقتداء بهم في أصول الدين وهو غير جائز لأنه تقليد، أو في فروع الدين وهو غير جائز، لأنه شرعه نسخ سائر الشرائع، فلم يبق إلا أن يكون المراد محاسن الأخلاق، فكأنه سبحانه قال: إنا أطلعناك على أحوالهم وسيرهم، فاختر أنت منها أجودها وأحسنها وكن مقتدياً بهم في كلها، وهذا يقتضي أنه اجتمع فيه من الخصال المرضية ما كان متفرقاً فيهم، فوجب أن يكون أفضل منهم.

الحجة الثامنة: أنه عليه السلام بعث إلى كل الخلق وذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر، فوجب أن يكون أفضل، أما إنه بعث إلى كل الخلق فلقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨] وأما أن ذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر فلأنه كان إنساناً فرداً من غير مال ولا أعوان وأنصار، فإذا قال لجميع العالمين ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١] صار الكل أعداء له، وحينئذ يصير خائفاً من الكل، فكانت المشقة عظيمة، وكذلك فإن موسى عليه السلام لما بعث إلى بني إسرائيل فهو ما كان يخاف أحداً إلا من فرعون وقومه، وأما محمد عليه السلام فالكل كانوا أعداء له، يبين ذلك أن إنساناً لو قيل له: هذا البلد الخالي عن الصديق والرفيق فيه رجل واحد ذو قوة وسلاح فاذهب إليه اليوم وحيداً وبلغ إليه خبراً يوحشه ويؤذيه، فإنه قلما سمحت نفسه بذلك، مع أنه إنسان واحد، ولو قيل له: اذهب إلى بادية بعيدة ليس فيها أنيس ولا صديق، وبلغ إلى صاحب البادية كذا وكذا من الأخبار الموحشة لشق ذلك على الإنسان، أما النبي ﷺ فإنه كان مأموراً بأن يذهب طول ليله ونهاره في كل عمره إلى الجن والإنس الذين لا عهد له بهم، بل المعتاد منهم أنهم يعادونه ويؤذونه ويستخفونه، ثم إنه عليه السلام لم يمل من هذه الحالة ولم يتلكأ، بل سارع إليها سامعاً مطيعاً، فهذا يقتضي أنه تحمل في إظهار دين الله أعظم المشاق، ولهذا قال تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ [الحديد: ١٠] ومعلوم أن ذلك البلاء كان على الرسول ﷺ، فإذا عظم فضل الصحابة بسبب تلك الشدة فما ظنك بالرسول، وإذا ثبت أن مشقته أعظم من مشقة غيره وجب أن يكون فضله أكثر من فضل غيره لقوله عليه السلام «أفضل العبادات أحمزها».

الحجة التاسعة: أن دين محمد عليه السلام أفضل الأديان، فيلزم أن يكون محمد ﷺ أفضل الأنبياء، بيان الأول أنه تعالى جعل الإسلام ناسخاً لسائر الأديان، والناسخ يجب أن يكون أفضل لقوله عليه السلام «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» فلما كان هذا الدين أفضل وأكثر ثواباً، كان واضعه أكثر ثواباً من واضعي سائر الأديان، فيلزم أن يكون محمد عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء.

الحجة العاشرة: أمة محمد ﷺ أفضل الأمم، فوجب أن يكون محمد أفضل الأنبياء، بيان الأول قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] بيان الثاني أن هذه الأمة إنما نالت هذه الفضيلة لمتابعة محمد ﷺ، قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ

ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع، وأيضاً أن محمداً ﷺ أكثر ثواباً لأنه مبعوث إلى الجن والإنس، فوجب أن يكون ثوابه أكثر، لأن لكثرة المستجيبين أثراً في علو شأن المتبوع.

الحجة الحادية عشرة: أنه عليه السلام خاتم الرسل، فوجب أن يكون أفضل، لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح في المعقول.

الحجة الثانية عشرة: أن تفضيل بعض الأنبياء على بعض يكون لأمور منها: كثرة المعجزات التي هي دالة على صدقهم وموجبة لتشريفهم، وقد حصل في حق نبينا عليه السلام ما يفضل على ثلاثة آلاف، وهي بالجملة على أقسام، منها ما يتعلق بالقدرة، كإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، وإروائهم من الماء القليل، ومنها ما يتعلق بالعلوم كالإخبار عن الغيوب، وفصاحة القرآن، ومنها اختصاصه في ذاته بالفضائل، نحو كونه أشرف نسباً من أشراف العرب، وأيضاً كان في غاية الشجاعة، كما روي أنه قال بعد محاربة علي رضي الله عنه لعمرو بن ود: كيف وجدت نفسك يا علي، قال: وجدتها لو كان كل أهل المدينة في جانب وأنا في جانب لقدرت عليهم فقال: تأهب فإنه يخرج من هذا الوادي فتى يقاتلك، الحديث إلى آخره وهو مشهور، ومنها في خلقه وحلمه ووفائه وفصاحته وسخائه، وكتب الحديث ناطقة بتفصيل هذه الأبواب.

الحجة الثالثة عشرة: قوله عليه السلام «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة» وذلك يدل على أنه أفضل من آدم ومن كل أولاده، وقال عليه السلام «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». وقال عليه السلام «لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا، ولا يدخلها أحد من الأمم حتى تدخلها أمتي» وروى أنس قال ﷺ «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» وعن ابن عباس قال: جلس ناس من الصحابة يتذاكرون فسمع رسول الله ﷺ حديثهم فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمته تكليما، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله فخرج رسول الله ﷺ وقال: قد سمعت كلامكم وحجتكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجي الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح لي فأدخلها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر.

الحجة الرابعة عشرة: روى البيهقي في فضائل الصحابة أنه ظهر علي بن أبي طالب من بعيد فقال عليه السلام: هذا سيد العرب فقالت عائشة: ألست أنت سيد العرب؟ فقال أنا سيد العالمين وهو سيد العرب، وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء عليهم السلام.

الحجة الخامسة عشرة: روى مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ولا فخر، بعثت إلى الأحمر والأسود وكان النبي قبلي يبعث إلى قومه، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر، وأُحلت لي الغنائم ولم تكن لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتي، فهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئاً» وجه الاستدلال أنه صريح في أن الله فضله بهذه الفضائل على غيره.

الحجة السادسة عشرة: قال محمد بن عيسى الحكيم الترمذي في تقرير هذا المعنى: إن كل أمير فإنه تكون مؤنته على قدر رعيته، فالأمير الذي تكون أمارته على قرية تكون مؤنته بقدر تلك القرية، ومن ملك الشرق والغرب احتاج إلى أموال وذخائر أكثر من أموال أمير تلك القرية فكذلك كل رسول بعث إلى قومه فأعطي من كنوز التوحيد وجواهر المعرفة على قدر ما حمل من الرسالة، فالمرسل إلى قومه في طرف مخصوص من الأرض إنما يعطى من هذه الكنوز الروحانية بقدر ذلك الموضع، والمرسل إلى كل أهل الشرق والغرب إنسهم وجنهم لا بد وأن يعطى من

المعرفة بقدر ما يمكنه أن يقوم بسعيه بأمور أهل الشرق والغرب، وإذا كان كذلك كانت نسبة نبوة محمد ﷺ إلى نبوة سائر الأنبياء كنسبة كل المشارق والمغارب إلى ملك بعض البلاد المخصوصة، ولما كان كذلك لا جرم أعطي من كنوز الحكمة والعلم ما لم يعط أحد قبله، فلا جرم بلغ في العلم إلى الحد الذي لم يبلغه أحد من البشر قال تعالى في حقه ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ١٠] وفي الفصاحة إلى أن قال «أوتيت جوامع الكلم» وصار كتابه مهيمناً على الكتب وصارت أمته خير الأمم.

الحجة السابعة عشرة: روى محمد بن الحكيم الترمذي رحمه الله في كتاب النوادر: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وموسى نجياً، واتخذني حبيباً ثم قال وعزتي وجلالي لأوثرن حبيبي على خليلي ونجيي».

الحجة الثامنة عشرة: في الصحيحين عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنيان فيقولون: ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك؟ فقال محمد: كنت أنا تلك اللبنة».

الحجة التاسعة عشرة: أن الله تعالى كلما نادى نبياً في القرآن ناداه باسمه ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الصافات: ١٠٤]، ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ . إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ [طه: ١١ ـ ١٢]، وأما النبي عليه السلام فإنه ناداه بقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [المائدة: ٤١] وذلك يفيد الفضل.

واحتج المخالف بوجوه: (الأول) أن معجزات الأنبياء كانت أعظم من معجزاته، فإن آدم عليه السلام كان مسجوداً للملائكة، وما كان محمد عليه السلام كذلك، وإن إبراهيم عليه السلام ألقي في النيران العظيمة فانقلبت روحاً وريحاناً عليه، وأن موسى عليه السلام أوتي تلك المعجزات العظيمة، ومحمد ما كان له مثلها، وداود لان له الحديد في يده، وسليمان كان الجن والإنس والطير والوحش والرياح مسخرين له، وما كان ذلك حاصلاً لمحمد ﷺ، وعيسى أنطقه الله في الطفولية وأقدره على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وما كان ذلك حاصلاً لمحمد ﷺ.

الحجة الثانية: أنه تعالى سمى إبراهيم في كتابه خليلاً، فقال ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] وقال في موسى عليه السلام ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤] وقال في عيسى عليه السلام ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] وشيء من ذلك لم يقله في حق محمد عليه السلام.

الحجة الثالثة: قوله عليه السلام «لا تفضلوني على يونس بن متى» وقال ﷺ «لا تخيروا بين الأنبياء».

الحجة الرابعة: روى عن ابن عباس قال: كنا في المسجد نتذاكر فضل الأنبياء فذكرنا نوحاً بطول عبادته، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله تعالى إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا رسول الله أفضل منهم، بعث إلى الناس كافة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو خاتم الأنبياء، فدخل رسول الله فقال: فيم أنتم؟ فذكرنا له فقال «لا ينبغي لأحد أن يكون خيراً من يحيى ابن زكريا» وذلك أنه لم يعمل سيئة قط ولم يهم بها.

والجواب: أن كون آدم عليه السلام مسجوداً للملائكة لا يوجب أن يكون أفضل من محمد عليه السلام، بدليل قوله ﷺ «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة» وقال «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» ونقل أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد ﷺ ليلة المعراج، وهذا أعظم من السجود، وأيضاً أنه تعالى صلى بنفسه على محمد، وأمر الملائكة والمؤمنين بالصلاة عليه، وذلك أفضل من سجود الملائكة، ويدل عليه وجوه: (الأول) أنه تعالى أمر الملائكة بسجود آدم تأديباً، وأمرهم بالصلاة على محمد ﷺ: تقريباً، (والثاني) أن الصلاة على محمد عليه السلام دائمة إلى يوم القيامة، وأما سجود الملائكة لآدم عليه السلام ما كان إلا مرة واحدة، (الثالث) أن السجود لآدم إنما تولاه الملائكة، وأما الصلاة على محمد ﷺ فإنما تولاها رب العالمين ثم أمر بها الملائكة والمؤمنين، (والرابع) أن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور

محمد عليه السلام في جبهة آدم.

فإن قيل: إنه تعالى خص آدم بالعلم، فقال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وأما محمد عليه السلام فقال في حقه ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] وأيضاً فمعلم آدم هو الله تعالى، قال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ ومعلم محمد عليه السلام جبريل عليه السلام لقوله ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

(والجواب): أنه تعالى قال في علم محمد ﷺ ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣] وقال عليه السلام «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقال تعالى ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ . عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٢] وكان عليه السلام يقول «أرنا الأشياء كما هي» وقال تعالى لمحمد عليه السلام ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وأما الجمع بينه وبين قوله تعالى ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥] فذاك بحسب التلقين، وأما التعليم فمن الله تعالى، كما أنه تعالى قال ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١] ثم قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

فإن قيل: قال نوح عليه السلام ﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤] وقال الله تعالى لمحمد عليه السلام ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الأنعام: ٥٢] وهذا يدل على أن خلق نوح أحسن.

قلنا: إنه تعالى قال ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] فكان أول أمره العذاب، وأما محمد عليه السلام فقيل فيه ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] فكان عاقبة نوح أن قال ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وعاقبة محمد عليه السلام الشفاعة ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وأما سائر المعجزات فقد ذكر في كتب دلائل النبوة في مقابلة كل واحد منها معجزة أفضل منها لمحمد ﷺ، وهذا الكتاب لا يحتمل أكثر مما ذكرناه، والله أعلم.

وأما قوله تعالى ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد منه من كلمة الله تعالى، والهاء تحذف كثيراً كقوله تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

المسألة الثانية: قرىء ﴿ كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ بالنصب، والقراءة الأولى أدل على الفضل، لأن كل مؤمن فإنه يكلم الله على ما قال عليه السلام «المصلي مناج ربه» إنما الشرف في أن يكلمه الله تعالى، وقرأ اليماني «كالم الله» من المكالمة، ويدل عليه قولهم: كليم الله بمعنى مكالمه.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن من كلمه الله فالمسموع هو الكلام القديم الأزلي، الذي ليس بحرف ولا صوت أم غيره؟ فقال الأشعري وأتباعه: المسموع هو ذلك فإنه لما لم يمتنع رؤية ما ليس بمكيف، فكذا لا يستبعد سماع ما ليس بمكيف، وقال الماتريدي: سماع ذلك الكلام محال، وإنما المسموع هو الحرف والصوت.

المسألة الرابعة: ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ قالوا وقد سمع من قوم موسى السبعون المختارون وهم الذين أرادهم الله بقوله ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وهل سمعه محمد ﷺ ليلة المعراج؟ اختلفوا فيه منهم من قال: نعم بدليل قوله ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

فإن قيل: إن قوله تعالى ﴿ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ المقصود منه بيان غاية منقبة أولئك الأنبياء الذين كلم الله تعالى، ولهذا السبب لما بالغ في تعظيم موسى عليه السلام، قال ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ثم جاء في القرآن مكالمة بين الله وبين إبليس، حيث قال ﴿ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ . قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦ ـ ٣٨] إلى آخر هذه الآيات وظاهر هذه الآيات يدل على مكالمة كثيرة بين الله وبين إبليس فإن كان ذلك يوجب غاية الشرف فكيف حصل لإبليس الذم وإن لم يوجب شرفاً فكيف ذكره في معرض التشريف لموسى عليه السلام حيث قال ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؟

(والجواب): أن قصة إبليس ليس فيها ما يدل على أنه

تعالى قال تلك الجوابات معه من غير واسطة فلعل الواسطة كانت موجودة.

أما قوله تعالى ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ ففيه قولان (الأول) أن المراد منه بيان أن مراتب الرسل متفاوتة، وذلك لأنه تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يؤت أحداً مثله هذه الفضيلة، وجمع لداود الملك والنبوة ولم يحصل هذا لغيره، وسخر لسليمان الإنس والجن والطير والريح، ولم يكن هذا حاصلاً لأبيه داود عليه السلام، ومحمد عليه السلام مخصوص بأنه مبعوث إلى الجن والإنس وبأن شرعه ناسخ لكل الشرائع، وهذا إن حملنا الدرجات على المناصب والمراتب، أما إذا حملناها على المعجزات ففيه أيضاً وجه، لأن كل واحد من الأنبياء أوتي نوعاً آخر من المعجزة لائقاً بزمانه فمعجزات موسى عليه السلام، وهي قلب العصا حية، واليد البيضاء، وفلق البحر، كان كالشبيه بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه وهو السحر، ومعجزات عيسى عليه السلام وهي إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، كانت كالشبيه بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه، وهو الطب، ومعجزة محمد عليه السلام، وهي القرآن كانت من جنس البلاغة والفصاحة والخطب والأشعار، وبالجملة فالمعجزات متفاوتة بالقلة والكثرة، وبالبقاء وعدم البقاء، وبالقوة وعدم القوة، وفيه وجه ثالث، وهو أن يكون المراد بتفاوت الدرجات ما يتعلق بالدنيا، وهو كثرة الأمة والصحابة وقوة الدولة، فإذا تأملت الوجوه الثلاثة علمت أن محمداً ﷺ كان مستجمعاً للكل فمنصبه أعلى ومعجزاته أبقى وأقوى وقومه أكثر ودولته أعظم وأوفر.

القول الثاني: أن المراد بهذه الآية محمد عليه السلام، لأنه هو المفضل على الكل، وإنما قال ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ على سبيل التنبيه والرمز كمن فعل فعلاً عظيماً فيقال له: من فعل هذا فيقول: أحدكم أو بعضكم ويريد به نفسه، ويكون ذلك أفخم من التصريح به، وسئل الحطيئة عن أشعر الناس، فذكر زهيراً والنابغة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يبق فيه فخامة.

فإن قيل: المفهوم من قوله ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ هو المفهوم من قوله ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فما الفائدة في التكرير؟ وأيضاً قوله ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ كلام كلي، وقوله بعد ذلك ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ شروع في تفصيل تلك الجملة، وقوله بعد ذلك ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ إعادة لذلك الكلي، ومعلوم أن إعادة الكلام بعد الشروع في تفصيل جزئياته يكون مستدركاً.

(والجواب): أن قوله ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يدل على إثبات تفضيل البعض على البعض، فأما أن يدل على أن ذلك التفضيل حصل بدرجات كثيرة أو بدرجات قليلة فليس فيه دلالة عليه فكان قوله ﴿وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ فيه فائدة زائدة فلم يكن تكريراً.

أما قوله تعالى ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ ففيه سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى قال في أول الآية ﴿فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ ثم عدل عن هذا النوع من الكلام إلى المغايبة فقال ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ﴾ ثم عدل من المغايبة إلى النوع الأول فقال ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فما الفائدة في العدول عن المخاطبة إلى المغايبة ثم عنها إلى المخاطبة مرة أخرى؟.

(والجواب): أن قوله ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ أهيب وأكثر وقعاً من أن يقال: منهم من كلمنا، ولذلك قال ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] فلهذا المقصود اختار لفظة الغيبة.

وأما قوله ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فإنما اختار لفظ المخاطبة، لأن الضمير في قوله ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾ ضمير التعظيم وتعظيم المؤتى يدل على عظمة الإيتاء.

السؤال الثاني: لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ وهل يدل ذلك على أنهما أفضل من غيرهما؟.

(والجواب): سبب التخصيص أن معجزاتهما أبهر وأقوى من معجزات غيرهما وأيضاً فأمتهما موجودون حاضرون في هذا الزمان وأمم سائر الأنبياء ليسوا موجودين فتخصيصهما بالذكر تنبيه على الطعن في

أمتهما، كأنه قيل: هذان الرسولان مع علو درجتهما وكثرة معجزاتهما لم يحصل الانقياد من أمتهما، بل نازعوا وخالفوا، وعن الواجب عليهم في طاعتهما أعرضوا.

السؤال الثالث: تخصيص عيسى ابن مريم بإيتاء البينات، يدل أو يوهم أن إيتاء البينات ما حصل في غيره، ومعلوم أن ذلك غير جائز فإن قلتم: إنما خصهما بالذكر لأن تلك البينات أقوى؟ فنقول: إن بينات موسى عليه السلام كانت أقوى من بينات عيسى عليه السلام، فإن لم تكن أقوى فلا أقل من المساواة.

(الجواب): المقصود منه التنبيه على قبح أفعال اليهود، حيث أنكروا نبوة عيسى عليه السلام مع ما ظهر على يديه من البينات اللائحة.

السؤال الرابع: البينات جمع قلة، وذلك لا يليق بهذا المقام.

قلنا: لا نسلم أنه جمع قلة، والله أعلم.

أما قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: القدس تثقله أهل الحجاز وتخففه تميم.

المسألة الثانية: في تفسيره أقوال: (الأول) والمعنى أعناه بجبريل عليه السلام في أول أمره وفي وسطه وفي آخره، أما في أول الأمر فلقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وأما في وسطه فلأن جبريل عليه السلام علمه العلوم، وحفظه من الأعداء، وأما في آخر الأمر فحين أرادت اليهود قتله أعانه جبريل عليه السلام ورفعه إلى السماء. والذي يدل على أن روح القدس جبريل عليه السلام قوله تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

والقول الثاني: وهو المنقول عن ابن عباس أن روح القدس هو الاسم الذي كان يحيى به عيسى عليه السلام الموتى.

والقول الثالث: وهو قول أبي مسلم: أن روح القدس أيد به يجوز أن يكون الروح الطاهرة التي نفخها الله تعالى فيه، وأبانه بها عن غيره ممن خلق من اجتماع نطفتي الذكر والأنثى.

ثم قال تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعلق هذه بما قبلها هو أن الرسل بعدما جاءتهم البينات، ووضحت لهم الدلائل والبراهين، اختلفت أقوامهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وبسبب ذلك الاختلاف تقاتلوا وتحاربوا.

المسألة الثانية: احتج القائلون بأن كل الحوادث بقضاء الله وقدره بهذه الآية. . . والمعنى أن عدم الاقتتال لازم لمشيئة عدم الاقتتال، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فحيث وجد الاقتتال علمنا أن مشيئة عدم الاقتتال مفقودة، بل كان الحاصل هو مشيئة الاقتتال، ولا شك أن ذلك الاقتتال معصية، فدل ذلك على أن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان بقضاء الله وقدره ومشيئته، وعلى أن قتل الكفار وقتالهم للمؤمنين بإرادة الله تعالى.

وأما المعتزلة فقد أجابوا عن الإستدلال، وقالوا: المقصود من الآية بيان أن الكفار إذا قتلوا فليس ذلك بغلبة منهم لله تعالى وهذا المقصود يحصل بأن يقال: إنه تعالى لو شاء لأهلكهم وأبادهم أو يقال: لو شاء لسلب القوى والقدر منهم أو يقال: لو شاء لمنعهم من القتال جبراً أو قسراً وإذا كان كذلك فقوله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ المراد منه هذه الأنواع من المشيئة، وهذا كما يقال: لو شاء الإمام لم يعبد المجوس النار في مملكته، ولم تشرب النصارىٰ الخمر، والمراد منه المشيئة التي ذكرناها، وكذا ههنا، ثم أكد القاضي هذه الأجوبة وقال: إذا كانت المشيئة تقع على وجوه وتنتفي على وجوه لم يكن في الظاهر دلالة على الوجه المخصوص، لا سيما وهذه الأنواع من المشيئة متباينة متنافية.

(والجواب): أن أنواع المشيئة وإن اختلفت وتباينت إلا أنها مشتركة في عموم كونها مشيئة، والمذكور في الآية في معرض الشرط هو المشيئة من حيث إنها مشيئة، لا من حيث إنها مشيئة خاصة، فوجب أن يكون هذا المسمى حاصلاً، وتخصيص المشيئة بمشيئة خاصة، وهي إما مشيئة الهلاك، أو مشيئة سلب القوى والقدر، أو مشيئة القهر والإجبار، تتقيد للمطلق وهو غير جائز، وكما أن

هذا التخصيص على خلاف ظاهر اللفظ فهو على خلاف الدليل القاطع، وذلك لأن الله تعالى إذا كان عالماً بوقوع الاقتتال، والعلم بوقوع الاقتتال حال عدم وقوع الاقتتال جمع بين النفي والإثبات، وبين السلب والإيجاب، فحال حصول العلم بوجود الاقتتال لو أراد عدم الاقتتال لكان قد أراد الجمع بين النفي والإثبات وذلك محال، فثبت أن ظاهر الآية على ضد قولهم، والبرهان القاطع على ضد قولهم وبالله التوفيق.

ثم قال ﴿ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ فقد ذكرنا في أول الآية أن المعنى: ولو شاء لم يختلفوا، وإذا لم يختلفوا لم يقتتلوا، وإذا اختلفوا فلا جرم اقتتلوا، وهذه الآية دالة على أن الفعل لا يقع إلا بعد حصول الداعي، لأنه بين أن الاختلاف يستلزم التقاتل، والمعنى أن اختلافهم في الدين يدعوهم إلى المقاتلة، وذلك يدل على أن المقاتلة لا تقع إلا لهذا الداعي، وعلى أنه متى حصل هذا الداعي وقعت المقاتلة، فمن هذا الوجه يدل على أن الفعل ممتنع الوقوع عند عدم الداعي، وواجب عند حصول الداعي، ومتى ثبت ذلك ظهر أن الكل بقضاء الله وقدره، لأن الدواعي تستند لا محالة إلى داعية يخلقها الله في العبد دفعاً للتسلسل، فكانت الآية دالة أيضاً من هذا الوجه على صحة مذهبنا.

ثم قال ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ فإن قيل: فما الفائدة في التكرير؟.

قلنا: قال الواحدي رحمه الله تعالى: إنما كرره تأكيداً للكلام وتكذيباً لمن زعم أنهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم ولم يجر به قضاء ولا قدر من الله تعالى.

ثم قال ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء ويخذل من يشاء لا اعتراض عليه في فعله.

واحتجّ الأصحاب بهذه الآية على أنه تعالى هو الخالق لإيمان المؤمنين، وقالوا: لأن الخصم يساعد على أنه تعالى يريد الإيمان من المؤمن، ودلت الآية على أنه يفعل كل ما يريد، فوجب أن يكون الفاعل لإيمان المؤمن هو الله تعالى، وأيضاً لما دل على أنه يفعل كل ما يريد فلو كان يريد الإيمان من الكفار لفعل فيهم الإيمان، ولكانوا مؤمنين، ولما لم يكن كذلك دل على أنه تعالى لا يريد الإيمان منهم، فكانت هذه الآية دالة علىٰ مسألة خلق الأعمال وعلى مسألة إرادة الكائنات، والمعتزلة يقيدون المطلق ويقولون: المراد يفعل كل ما يريد من أفعال نفسه، وهذا ضعيف لوجوه. أحدها: أنه تقييد للمطلق. والثاني: أنه على هذا التقييد تصير الآية بياناً للواضحات فإنه يصير معنى الآية أنه يفعل ما يفعله، الثالث: أن كل أحد كذلك فلا يكون في وصف الله تعالى بذلك دليلاً على كمال قدرته وعلو مرتبته والله أعلم.

محمد عبده ج ٣ ص ٢ ـ ١٥

... ثم قال تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ البينات هي ما يتبين به الحق من الآيات والدلائل كما قال في هذه السورة ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [البقرة: ٩٢] وروح القدس هو روح الوحي الذي يؤيد الله به رسله كما قال لنبينا ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال له في سورة النحل ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال أبو مسلم: إن روح القدس عبارة عن الروح الطيبة المقدسة التي أيد بها عيسى عليه السلام. وقد سبقت هذه العبارة في آية «٨٧» من هذه السورة فلا نطيل في إعادة تفسيرها ولعل النقطة في ذكر اسم عيسى عليه الصلاة والسلام: أن ما آتاه إياه لما كان مشتركاً كان ذكره بالإبهام غير صريح في كونه ممن فضل به أو الرد على الذين غلوا فيه، فزعموا أنه إله لا رسول مؤيد بآيات الله ظهر لي هذا عند الكتابة، ثم راجعت تفسير أبي السعود فإذا هو يقول: وافراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط...

٥

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٣٥ ـ ٣٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٣	ص ١٥٧ ـ ١٦٧
الزمخشري	ج ١	ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧
الرازي	ج ٨	ص ٢٣ ـ ٣٢
الطبرسي	ج ٣	ص ٦٣ ـ ٦٩
ابن عربي	ج ١	ص ١٨١ ـ ١٨٢
البيضاوي	ج ٢	ص ١٤ ـ ١٧
الخازن	ج ١	ص ٣٣٩ ـ ٣٤٢
البغوي	ج ١	ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩
الماوردي	ج ١	ص ٣٨٧ ـ ٣٨٩
القرطبي	ج ٤	ص ٦٤ ـ ٧٢
ابو حيان الاندلسي	ج ٢	ص ٤٣٢ ـ ٤٤٤
ابن كثير	ج ١	ص ٣٥٨ ـ ٣٦٠
الجلالان		ص ٦٨
الشوكاني	ج ١	ص ٣٣٤ ـ ٣٣٦
الآلوسي	ج ٢	ص ١٣٣ ـ ١٤٤
القاسمي	ج ٤	ص ٨٣١ ـ ٨٣٧
محمد عبده	ج ٣	ص ٢٨٦ ـ ٣٤١
الطباطبائي	ج ٣	ص ١٨٣ ـ ٢٠٢
جوهري	ج ٢	ص ١٠١ ـ ١٠٣
المراغي	ج ٣	ص ١٣٧ ـ ١٤٢
سيد قطب	ج ١	ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤

الطبري ج ٣ ص ١٥٦ ـ ١٦٧

القول في تأويل قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني فـ ﴿ إِذْ ﴾ من صلة سميع. وأما ﴿ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ فهي أم مريم ابنة عمران أم عيسى ابن مريم صلوات الله عليه وكان اسمها فيما ذكر لنا حنة ابنة فاقوذ بن قبيل كذلك: حدثنا به محمد بن حميد. . . عن ابن اسحق في نسبه. وقال غير ابن حميد ابنة فاقود بالدال ابن قبيل فأما زوجها ﴿ عِمْرَٰنَ ﴾ فإنه عمران بن ياشهم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن احزيق بن يوثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن احزيهو بن يازم بن يهفاشاط بن اسابربن أبيا بن رحبعم بن سليمان بن داود بن ايشا، كذلك: حدثنا ابن حميد عن ابن اسحق في نسبه. وأما قوله ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ فإن معناه إني جعلت لك يا رب نذراً أن لك الذي في بطني محرراً لعبادتك يعني بذلك: حبسته على خدمتك وخدمة قدسك في الكنيسة عتيقة من خدمة كل شيء سواك مفرغة لك خاصة. ونصب ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ على الحال من ما في الصفة من ذكر الذي. ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ﴾ أي: فتقبل مني ما نذرت لك يا رب ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يعني أنك أنت يا رب ﴿ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لما أقول وأدعو ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لما أنوي في نفسي وأريد لا يخفى عليك سر أمري وعلانيته. وكان سبب نذر حنة ابنة فاقوذ امرأة عمران الذي ذكره الله في هذه الآية فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد. . . عن محمد بن اسحق قال تزوج زكريا وعمران أختين فكانت أم يحيى عند زكريا وكانت أم مريم عند عمران فهلك عمران وأم مريم حامل بمريم فهي جنين في بطنها قال وكانت فيما يزعمون قد أمسك عنها الولد حتى أسنت وكانوا أهل بيت من الله جل

ثناؤه بمكان فبينا هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم فرخا له فتحركت نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها ولداً فحملت بمريم وهلك عمران فلما عرفت أن في بطنها جنيناً جعلته لله نذيرة والنذيرة أن تعبده لله فتجعله حبساً في الكنيسة لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا. حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير قال ثم ذكر امرأة عمران وقولها ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ أي نذرته تقول جعلته عتيقاً لعبادة الله لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ حدثني عبد الرحمن بن الأسود الطفاوي. . . عن مجاهد في قوله ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ قال خادماً للبيعة. حدثنا أبو كريب. . . عن مجاهد قال خادماً للكنيسة. حدثنا أبو كريب. . . عن الشعبي في قوله ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال فرّغته للعبادة. حدثني يعقوب بن إبراهيم. . . عن الشعبي في قوله ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال جعلته في الكنيسة وفرّغته للعبادة. حدثني المثنى. . . عن الشعبي نحوه. حدثني محمد بن عمرو. . . عن مجاهد في قوله ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال للكنيسة يخدمها. حدثني المثنى. . . عن مجاهد مثله. حدثنا ابن وكيع. . . عن مجاهد ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال خالصاً لا يخالطه شيء من أمر الدنيا. حدثنا ابن حميد. . . عن سعيد بن جبير ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال للبيعة والكنيسة. حدثني المثنى. . . عن سعيد ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال محرراً للعبادة. حدثنا بشر. . . عن قتادة قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ الآية كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها وكانوا إنما يحررون الذكور وكان المحرر إذا حرر جعل في الكنيسة لا يبرحها يقوم عليها ويكنسها. حدثنا الحسن بن يحيى. . . عن قتادة في قوله ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال نذرت ولدها للكنيسة. حدثني موسى. . . عن السدي ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ قال وذلك أن امرأة عمران حملت فظنت أن ما في بطنها غلام فوهبته لله محرراً لا يعمل في الدنيا. حدثني المثنى. . . عن الربيع قال كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها قال وكانوا إنما يحررون الذكور فكان المحرّر إذا حرر جعل في الكنيسة لا يبرحها يقوم عليها ويكنسها. حدثت عن الحسين بن الفرج. . . عن الضحاك في قوله ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ قال جعلت ولدها لله وللذين يدرسون الكتاب ويتعلمونه. . . حدثنا القاسم. . . عن عكرمة وأبي بكر عن عكرمة أن امرأة عمران كانت عجوزاً عاقراً تسمى حنة وكانت لا تلد فجعلت تغبط النساء لأولادهن فقالت اللهم إن عليّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدامه قال وقوله ﴿ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ إنها للحرة ابنة الحرائر ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ للكنيسة يخدمها. حدثني محمد بن سنان. . . عن الحسن في قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ الآية كلها قال نذرت ما في بطنها ثم سيبتها. القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ فلما وضعت حنة النذيرة ولذلك أُنث. ولو كانت الهاء عائدة على ما التي في قوله ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ لكان الكلام فلما وضعته قالت رب إني وضعته أنثى ومعنى قوله ﴿ وَضَعَتْهَا ﴾ ولدتها يقال منه «وضعت المرأة تضع وضعاً» ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ أي ولدت النذيرة أنثى ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ واختلف القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة القراء ﴿ وَضَعَتْ ﴾ خبراً من الله عز وجل عن نفسه أنه العالم ﴿ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ من غير قيلها ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ وقرأ ذلك بعض المتقدمين والله أعلم ﴿ بِمَا وَضَعْتُ ﴾ على وجه الخبر بذلك عن أم مريم أنها هي القائلة والله أعلم بما ولدت مني وأولى القراءتين بالصواب ما نقلته الحجة مستفيضة فيها قراءته بينها لا يتدافعون صحتها وذلك قراءة من قرأ والله أعلم ﴿ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ ولا يعترض بالشاذ عنها عليها. فتأويل الكلام إذا والله أعلم من كل خلقه بما وضعت ثم رجع جل ذكره إلى الخبر عن قولها وأنها قالت اعتذاراً إلى ربها مما كانت نذرت في حملها فحررته لخدمة ربها ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم

بها وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعتريها من الحيض والنفاس ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ كما حدثني ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ أي لما جعلتها له محررةً نذيرة. حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ لأن الذكر هو أقوى على ذلك من الأنثى. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ كانت المرأة لا تستطيع أن يصنع بها ذلك يعني أن تحرر للكنيسة فتجعل فيها تقوم عليها وتكنسها فلا تبرحها مما يصيبها من الحيض والأذى فعند ذلك قالت ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ وإنما كانوا يحررون الغلمان ـ ال ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ حدثني المثنى... عن الربيع قال كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها وكانت على رجاء أن يهب لها غلاماً لأن المرأة لا تستطيع ذلك يعني القيام على الكنيسة لا تبرحها وتكنسها لما يصيبها من الأذى. حدثني موسى... عن السدي أن امرأة عمران ظنت أن ما في بطنها غلام فوهبته لله فلما وضعت إذا هي جارية فقالت تعتذر إلى الله ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ تقول إنما يحرر الغلمان يقول الله ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ فقالت ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ حدثنا القاسم... عن عكرمة وأبي بكر عن عكرمة ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ يعني في المحيض ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال أمها تقول ذلك. القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ تعين بقولها ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ وإني أجعل معاذها ومعاذ ذريتها من الشيطان الرجيم بك وأصل المعاذ الموئل والملجأ والمعقل فاستجاب الله لها فأعاذها الله وذرّيتها من الشيطان الرجيم فلم يجعل له عليها سبيلاً. حدثنا أبو كريب عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من نفس مولود يولد إلا والشيطان ينال منه تلك الطعنة وبها يستهل الصبي إلا ما كان من مريم ابنة عمران فإنها لما وضعتها قالت ﴿ رَبِّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ فضرب دونها حجاب فطعن فيه». حدثنا أبو كريب... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل مولود من ولد آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل الصبي إلا ما كان من مريم ابنة عمران وولدها فإن أمها قالت حين وضعتها ﴿ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ فضرب دونهما حجاب فطعن في الحجاب». حدثني ابن حميد... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ بنحوه. حدثني ابن حميد... عن سعيد ابن المسيب قال سمعت أبا هريرة يقول سمعت النبي ﷺ يقول «ما من بني آدم مولود يولد إلا قد مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً بمسه أياه عدا مريم وأبنها» فقال أبو هريرة اقرأوا إن شئتم أني أعيذها بلا وذريتها من الشيطان الرجيم. حدثني يونس... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل مولود يولد من بني آدم يمسه الشيطان باصبعه إلا مريم وابنها». حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال «كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها». حدثني يونس... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ مثله وحدثني الحسن بن يحيى... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا يمسه الشيطان فيستهل صارخاً من مسة الشيطان إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة اقرؤا إن شئتم ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ حدثني المثنى... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم». ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قال ما ولد مولود إلا وقد استهل غير المسيح ابن مريم لم يسلط عليه الشيطان ولم ينهزه. حدثنا الحسن بن يحيى اخبرنا المنذر بن النعمان الأفطس أنه سمع وهب بن منبه يقول لما ولد عيسى أتت الشياطين إبليس فقالوا أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها فقال هذا في حادث حدث فقال مكانكم فطار حتى جاء خافقي

الأرض فلم يجد شيئاً ثم جاء البحار فلم يجد شيئاً ثم طار أيضاً فوجد عيسى قد ولد عند مذود حمار وإذا الملائكة قد حفت حوله فرجع إليهم فقال إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا أنا بحضرتها إلا هذه فأيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن ائتوا بني آدم من قبل الخفة والعجلة. حدثنا بشر عن قتادة ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول «كل بني آدم طعن الشيطان في جنبه إلا عيسى ابن مريم وأمه جعل بينهما وبينه حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليهما شيء» وذكر لنا إنهما كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها سائر بني آدم وذكر لنا أن عيسى كان يمشي على البحر كما يمشي على البر مما أعطاه الله تعالى من اليقين والإخلاص. حدثني المثنى. . . عن الربيع ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ قال إن نبي الله ﷺ قال «كل آدمي طعن الشيطان في جنبه غير عيسى وأمه كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها بنو آدم». قال وقال عيسى ﷺ فيما يثني على ربه وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم فلم يكن له علينا سبيل. حدثنا الربيع بن سليمان. . . عن عبد الرحمن بن هرمز أنه قال قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين تلده أمه إلا عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب». حدثنا الربيع. . . عن عبد الرحمن بن هرمز أنه قال قال أبو هريرة أرأيت هذه الصرخة التي يصرخها الصبي حين تلده أمه فإنها منها. حدثني أحمد بن الفرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد يستهل صارخاً». القول في تأويل قوله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ يعني بذلك أن الله جل ثناؤه تقبل مريم من أمها حنة بتحريرها إياها للكنيسة وخدمتها وخدمة ربها بقبول حسن والقبول مصدر من قبلها ربها فأخرج المصدر على غير لفظ الفعل ولو كان على لفظه لكان فتقبلها ربها تقبلاً حسنا وقد تفعل العرب ذلك كثيراً أن يأتوا بالمصادر على أصول الأفعال وإن اختلفت ألفاظها في الأفعال بالزيادة وذلك كقولهم تكلم فلان كلاماً ولو أخرج المصدر على الفعل لقيل تكلم فلان تكلماً ومنه قوله ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ ولم يقل انباتاً حسنا وذكر عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال لم نسمع العرب تضم القاف في قبول وكان القياس الضم لأنه مصدر مثل الدخول والخروج قال ولم أسمع بحرف آخر في كلام العرب يشبهه حدثت بذلك. . . عن أبي عبيد قال أخبرني اليزيدي عن أبي عمرو وأما قوله ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا﴾ فإن معناه وأنبتها ربها في غذائه ورزقه نباتاً حسناً حتى تمت فكملت امرأة بالغة تامة كما حدثنا القاسم قال عن ابن جريج قال الله عز وجل فتقبلها ربها بقبول حسن قال تقبل من أمها ما أرادت بها للكنيسة وأجرها فيها وأنبتها قال نبتت في غذاء الله. القول في تأويل قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ اختلفت القراء في قراءة قوله ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ فقرأته عامة قراء أهل الحجاز والمدينة والبصرة ﴿وَكَفَلَهَا﴾ مخففة الفاء بمعنى ضمها زكريا إليه اعتباراً بقول الله عز وجل ﴿يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾[آل عمران: ٤٤] وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وكفلها زكريا بمعنى ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ الله زكريا وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندي قراءة من قرأ وكفلها مشددة الفاء بمعنى وكفلها الله زكريا بمعنى وضمها الله إليه لأن زكريا أيضاً ضمها إليه بإيجاب الله له ضمها إليه بالقرعة التي أخرجها الله له والآية التي أظهرها لخصومه فيها فجعله بها أولى منهم إذ قرع فيها من شاحه فيها وذلك أنه بلغنا أن زكريا وخصومه في مريم إذ تنازعوا فيها أيهم تكون عنده تساهموا بقداحهم فرموا بها في نهر الأردن فقال بعض أهل العلم ارتزّ [ثبت] قدح زكريا فقام ولم يجر به الماء وجرى بقداح الآخرين الماء، فجعل الله ذلك لزكريا أنه أحق المتنازعين فيها. وقال آخرون بل أصّاعد قدح زكريا في النهر وانحدرت قداح الآخرين مع جرية الماء وذهبت فكان ذلك له علماً من الله في أنه أولى القوم بها وأيّ الأمرين كان من ذلك فلا شك أن ذلك كان قضاء من الله بها لزكريا على خصومه بأنه أولاهم بها. وإذا كان ذلك كذلك فإنما ضمها زكريا إلى نفسه بضم الله إياها إليه بقضائه له بها على خصومه عند تشاحهم فيها واختصامهم في أولاهم بها. وإذا كان ذلك كذلك كان بينا أن أولى

القراءتين بالصواب ما اخترنا من تشديد ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ وأما ما اعتل به القارؤن ذلك بتخفيف الفاء من قول الله ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾[آل عمران: ٤٤] وأن ذلك موجب صحة اختيارهم التخفيف في قوله ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ فحجة دالة على ضعف اختيار المحتج بها. وذلك أنه غير ممتنع ذو عقل من أن يقول قائل «كفل فلان فلاناً فكفله فلاناً» فكذلك القول في ذلك ألقى القوم أقلامهم أيهم يكفل مريم بتكفيل الله إياه بقضائه الذي يقضي بينهم فيها عند إلقائهم الأقلام. وكذلك اختلفت القراء في قراءة ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ فقرأته عامة قراء المدينة بالمد. وقرأته عامة قراء الكوفة بالقصر. وهما لغتان معروفتان وقراءتان مستفيضتان في قراءة المسلمين وليس في القراءة بإحداهما خلاف لمعنى القراءة الأخرى فبأيتهما قرأ القارىء فهو مصيب. غير أن الصواب عندنا إذا مد زكريا أن ينصب بغير تنوين لأنه اسم من أسماء العجم لا يجري ولأن قراءتنا في ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ بالتشديد وتثقيل الفاء فزكريا منصوب بالفعل الواقع عليه وفي ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ لغة ثالثة لا تجوز القراءة بها لخلافها مصاحف المسلمين وهو زكري بحذف المدة والياء الساكنة تشبهه العرب بالمنسوب من الأسماء فتنونه وتجريه في أنواع الأعراب مجاري ياء النسبة فتأويل الكلام وضمها الله إلى زكريا من قول الشاعر: «فهو لضلال الهوام كافل»، يراد به لما ضل من متفرق النعم ومنتشره ضام إلى نفسه وجامع. وقد روى: «فهو لضلال الهوافي كافل»، بمعنى أنه لما ند فهرب من النعم ضام من قولهم هفا الظليم إذا أسرع الطيران. يقال منه للرجل «مالك تكفل كل ضالة» يعني به تضمها إليك وتأخذها وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثني عبد الرحمن بن الأسود الطفاوي... عن عكرمة في قوله ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] قال ألقوا أقلامهم فجرت بها الجرية إلا قلم زكريا أصّاعد فكفلها زكريا. حدثني المثنى... عن الربيع قوله ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ قال ضمها إليه قال ألقوا أقلامهم يقول عصيهم قال فألقوها تلقاء جرية الماء فاستقبلت عصا زكريا جرية الماء فقرعهم. حدثني موسى عن السدّي قال الله عز وجل ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ فانطلقت بها أمها في خرقها يعني أم مريم بمريم حين ولدتها إلى المحراب وقال بعضهم انطلقت حين بلغت إلى المحراب وكان الذين يكتبون التوراة إذا جاؤا إليهم بإنسان يجربونه اقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه. وكان زكريا أفضلهم يومئذ وكان بينهم وكانت خالة مريم تحته فلما أتوا بها اقترعوا عليها وقال لهم زكريا أنا أحقكم بها تحتي خالتها فأبوا فخرجوا إلى نهر الأردن فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها أيهم يقوم قلمه فيكفلها فجرت الأقلام وقام قلم زكريا على قرنته كأنه في طين فأخذ الجارية. وذلك قول الله عز وجل ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ فجعلها زكريا معه في بيته وهو المحراب. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ يقول ضمها إليه، حدثني محمد بن عمر... عن مجاهد في قوله ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ قال سهمهم بقلمه. حدثني المثنى... عن مجاهد نحوه حدثني المثنى... عن قتادة قال كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم قال فتشاح عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها قال قتادة وكان زكريا زوج خالتها فكلفها وكانت عنده وحضنها. حدثنا القاسم... عن عكرمة وأبي بكر عن عكرمة قال ثم خرجت بها يعني أم مريم بمريم في خرقها تحملها إلى بني الكاهن بن هرون أخي موسى بن عمران قال وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة، فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردها إلى بيتي فقالوا هذه ابنة إمامنا وكان عمران يؤمهم في الصلاة وصاحب قرباننا فقال زكريا ادفعوها إليّ فإن خالتها عندي قالوا لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا فاقترعوا بأقلامهم عليها بالأقلام التي يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا. فكفلها حدثنا القاسم... عن ابن عباس قال جعلها زكريا معه في محرابه قال الله عز وجل ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ قال حجاج قال ابن جريج الكاهن في كلامهم العالم. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ بعد أبيها وأمها يذكرها باليتم ثم قص خبرها وخبر زكريا. حدثنا المثنى عن سعيد

بن جبير قوله ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ قال كانت عند. حدثني علي بن سهل... عن سعيد بن جبير قوله ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ قال جعلها زكريا معه في محرابه. حدثني محمد بن سنان عن الحسن في قوله ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ وتقارعها القوم فقرع زكريا فكفلها زكريا. وقال آخرون بل كان زكريا بعد ولادة حنة ابنتها مريم كفلها بغير اقتراع ولا استهام عليها ولا منازعة أحد إياه فيها وإنما كفلها لأن أمها ماتت بعد موت أبيها وهي طفلة وعند زكريا خالتها ايشاع ابنة فاقوذ وقد قيل إن اسم أم يحيى خالة عيسى اشيع حدثنا بذلك القاسم... عن شعيب الحياني أن اسم أم يحيى أشيع. فضمها إلى خالتها أم يحيى فكانت إليهم ومعهم حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنذر أمها التي نذرت فيها قالوا: والاقتراع فيها بالأقلام إنما كان بعد ذلك بمدة طويلة لشدة إصابتهم ضعف زكريا عن حمل مؤونتها.

فتدافعوا حمل مؤونتها لا رغبة منهم ولا تنافساً عليها وعلى احتمال مؤونتها وسنذكر قصتها على قول من قال ذلك إذا بلغنا إليها إن شاء الله تعالى. حدثنا بذلك ابن حميد... عن محمد بن اسحق فعلى هذا التأويل تصح قراءة من قرأ «وكفلها زكريا» بتخفيف الفاء لو صح التأويل. غير أن القول متظاهر من أهل التأويل بالقول الأول أن استهام القوم فيها كان قبل كفالة زكريا اياها وأن زكريا إنما كفلها بإخراج سهمه منها فالجاً على سهام خصومه فيها فلذلك كانت قراءته بالتشديد عندنا أولى من قراءته بالتخفيف. القول في تأويل قوله ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه أن زكريا كان كلما دخل عليها المحراب بعد إدخاله إياها المحراب وجد عندها رزقاً من الله لغذائها فقيل إن ذلك الرزق الذي كان يجده زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ذكر من قال ذلك: حدثنا أبو كريب... عن ابن عباس ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال وجد عندها عنباً في مكتل في غير حينه. حدثنا ابن حميد... عن سعيد في قوله ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال العنب في غير حينه.

حدثني يعقوب... عن إبراهيم في قوله ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال فاكهة في غير حينها. حدثني يعقوب... عن الضحاك أنه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف يعني في قوله ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ حدثنا ابن وكيع... عن الضحاك مثله. حدثني المثنى... عن الضحاك مثله. حدثنا القاسم... عن الضحاك مثله. حدثنا يعقوب... عن مجاهد قال كان يجد عندها العنب في غير حينه. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قوله ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال عنباً وجده زكريا عند مريم في غير زمانه. حدثني المثنى... عن مجاهد نحوه. حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد في قوله ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. حدثنا بشر... عن قتادة في قوله ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال كنا نحدث أنها كانت تؤتى بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة وجد عندها رزقاً قال وجد عندها ثمرة في غير زمانها. حدثني المثنى... عن الربيع قال جعل زكريا دونها عليها سبعة أبواب فكان يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء حدثني موسى بن عبد الرحمن... عن السدّي قال جعلها زكريا معه في بيت وهو المحراب فكان يدخل عليها في الشتاء فيجد عندها فاكهة الصيف ويدخل في الصيف فيجد عندها فاكهة الشتاء. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء. حدثنا القاسم... عن ابن عباس ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ قال وجد عندها ثمار الجنة فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق قال حدثني بعض أهل العلم أن زكريا كان يجد عندها ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء. حدثني محمد بن سنان... عن الحسن قال كان زكريا إذا دخل عليها يعني على مريم المحراب وجد عندها رزقاً من السماء من الله ليس من عند الناس وقالوا لو أن زكريا كان

يعلم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه. وقال آخرون: بل معنى ذلك أن زكريا كان إذا دخل إليها المحراب وجد عندها من الرزق فضلاً عما كان يأتيها به الذي كان يمونها في تلك الأيام. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد... عن محمد بن اسحق قال كفلها بعد هلاك أمها فضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنذر أمها الذي نذرت فيها فجعلت تنبت وتزيد. قال ثم أصابت بني إسرائيل أزمة وهي على ذلك من حالها حتى ضعف زكريا عن حملها فخرج على بني إسرائيل فقال يا بني إسرائيل أتعلمون والله لقد ضعفت عن حمل ابنة عمران فقالوا ونحن لقد جهدنا وأصابنا من هذه السنة ما أصابكم فتدافعوها بينهم وهم لا يرون لهم من حملها بدا حتى تقارعوا بالأقلام فخرج السهم بحملها على رجل من بني إسرائيل نجار يقال له جريج قال فعرفت مريم في وجهه شدة مؤونة ذلك عليه فكانت تقول له يا جريج أحسن بالله الظن فإن الله سيرزقنا فجعل جريج يرزق بمكانها فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله عليها وهي في الكنيسة أنماه الله وكثره فيدخل عليها زكريا فيرى عندها فضلاً من الرزق وليس بقدرما يأتيها به جريج فيقول ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ فتقول ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾. وأما ﴿ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ فهو مقدم كل مجلس ومصلى وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها وكذلك هو من المساجد ومنه قول عدي بن زيد:

كدمى العاج في المحاريب أو كالـ
بيض في الروض زهرة مستنير

والمحاريب جمع محراب وقد يجمع على محارب. القول في تأويل قوله ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ﴿ قَالَ ﴾ زكريا ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ من أي وجه لك هذا الذي أرى عندك من الرزق قالت مريم مجيبة له ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ تعني أن الله هو الذي رزقها ذلك فساقه إليها وأعطاها. وإنما كان زكريا يقول ذلك لها لإنه كان فيما ذكر لنا يغلق عليها سبعة أبواب ويخرج ثم يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء فكان يعجب مما يرى من ذلك ويقول لها تعجباً مما يرى ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ فتقول من عند الله. حدثني بذلك المثنى... عن الربيع. حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق قال حدثني بعض أهل العلم فذكر نحوه. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ قال فإنه وجد عندها الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد فكان زكريا يقول ﴿ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ وأما قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فخبر من الله أنه يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه بغير احصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده لأنه جل ثناؤه لا ينقص سوقه ذلك إليه كذلك خزائنه ولا يزيد اعطاؤه إياه ومحاسبته عليه في ملكه وفيما لديه شيئاً ولا يغرب عنه علم ما يرزقه وإنما يحاسب من يعطى ما يعطيه من يخشى النقصان من ملكه بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف ومن كان جاهلاً بما يعطى على غير حساب.

الرازي ج ٨ ص ٣٥ ـ ٣٧

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في موضع (إذ) من الإعراب أقوال: (الأول) قال أبو عبيدة: إنها زائدة لغواً، والمعنى: قالت امرأة عمران، ولا موضع لها من الإعراب، قال الزجاج: لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً، لأنه لا يجوز إلغاء حرف من كتاب الله تعالى، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله

تعالى من غير ضرورة. (والثاني) قال الأخفش والمبرد: التقدير «اذكر إذ قالت امرأة عمران» ومثله في كتاب الله تعالى كثير. (الثالث) قال الزجاج، التقدير: واصطفى آل عمران على العالمين ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ وطعن ابن الأنباري فيه وقال: إن الله تعالى قرن اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوح، ولما كان اصطفاؤه تعالى آدم ونوحاً قبل قول امرأة عمران استحال أن يقال: إن هذا الاصطفاء مقيد بذلك الوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام فيه ويمكن أن يجاب عنه بأن أثر اصطفاء كل واحد إنما ظهر عند وجوده، وظهور طاعاته، فجاز أن يقال: إن الله اصطفى آدم عند وجوده، ونوحاً عند وجوده، وآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام. (الرابع) قال بعضهم: هذا متعلق بما قبله، والتقدير: والله سميع عليم إذا قالت امرأة عمران هذا القول.

فإن قيل: إن الله سميع عليم قبل أن قالت المرأة هذا القول، فما معنى هذا التقييد؟

قلنا: إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقيد بوجود ذلك الكلام وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك والتغير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتعلقات.

المسألة الثانية: إن زكريا بن اذن، وعمران بن ماثان، كانا في عصر واحد، وامرأة عمران حنة بنت فاقوذ، وقد تزوج زكريا بابنته ايشاع أخت مريم، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة، ثم في كيفية هذا النذر روايات:

الرواية الأولى: قال عكرمة. إنها كانت عاقراً لا تلد، وكانت تغبط النساء بالأولاد، ثم قالت: اللهم إن لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ليكون من سدنته.

والرواية الثانية: قال محمد بن إسحق: إن أم مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت، وكانت يوماً في ظل شجرة فرأت طائراً يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد، فدعت ربها أن يهب لها ولداً فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما عرفت جعلته لله محرراً، أي خادماً للمسجد. قال الحسن البصري: إنها إنما فعلت ذلك بإلهام من الله ولولاه ما فعلت كما رأى إبراهيم ذبح ابنه في المنام فعلم أن ذلك أمر من الله وإن لم يكن عن وحي، وكما ألهم الله أم موسى فقذفته في اليم وليس بوحي.

المسألة الثالثة: المحرر الذي يجعل حراً خالصاً، يقال: حررت العبد إذا خلصته عن الرق، وحررت الكتاب إذا أصلحته، وخلصته فلم تبق فيه شيئاً من وجوه الغلط، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحد عليه تعلق، والطين الحر الخالص عن الرمل والحجارة والحمأة والعيوب أما التفسير فقيل مخلصاً للعبادة عن الشعبي، وقيل: خادماً للبيعة، وقيل: عتيقا من أمر الدنيا لطاعة الله، وقيل: خادماً لمن يدرس الكتاب، ويعلم في البيع... قال الأصم: لم يكن لبني إسرائيل غنيمة ولاسبي، فكان تحريرهم جعلهم أولادهم على الصفة التي ذكرنا، وذلك لأنه كان الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين، فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الإنتفاع، ويجعلونهم محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى، وقيل: كان المحرر يجعل في الكنيسة يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير بين المقام والذهاب، فإن أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار، ولم يكن نبي إلا ومن نسله محرر في بيت المقدس.

المسألة الرابعة: هذا التحرير لم يكن جائزاً إلا في الغلمان أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصيبها من الحيض والأذى، ثم إن حنة نذرت مطلقاً إما لأنها بنت الأمر على التقدير، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر...

ثم قال الله تعالى حاكياً عنها ﴿ فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ التقبل: أخذ الشيء على الرضا، قال الواحدي: وأصله من المقابلة لأنه يقبل بالجزاء، وهذا كلام من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في عبادته، ثم قالت ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ والمعنى: أنك أنت السميع لتضرعي ودعائي وندائي، العليم بما في ضميري وقلبي ونيتي.

واعلم أن هذا النوع من النذر كان في شرع بني إسرائيل

وغير موجود في شرعنا، والشرائع لا يمتنع اختلافها في مثل هذه الأحكام.

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ﴾ واعلم أن هذا الضمير إما أن يكون عائداً إلى الأنثى التي كانت في بطنها وكان عالماً بأنها كانت أنثى أو يقال: إنها عادت إلى النفس والنسمة أو يقال: عادت إلى المنذورة.

ثم قال تعالى ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ واعلم أن الفائدة في هذا الكلام أنه تقدم منها النذر في تحرير ما في بطنها، وكان الغالب على ظنها أنه ذكر فلم تشترط ذلك في كلامها، وكانت العادة عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى فقالت ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ خائفة أن نذرها لم يقع الموقع الذي يعتد به ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدم فذكرت ذلك لا على سبيل الإعلام لله تعالى، تعالى الله عن أن يحتاج إلى إعلامها، بل ذكرت ذلك على سبيل الإعتذار.

ثم قال الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم وابن عامر ﴿ وَضَعَتْ ﴾ برفع التاء على تقدير أنها حكاية كلامها، والفائدة في هذا الكلام أنها لما قالت ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ خافت أن يظن بها أنها تخبر الله تعالى، فأزالت الشبهة بقولها ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ وثبت أنها إنما قالت ذلك للاعتذار لا للإعلام، والباقون بالجزم على أنه كلام الله، وعلى هذه القراءة يكون المعنى أنه تعالى قال: والله أعلم بما وضعت تعظيماً لولدها، وتجهيلاً لها بقدر ذلك الولد، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وبما علق به من عظائم الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً فلذلك تحسرت، وفي قراءة ابن عباس ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ على خطاب الله لها، أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات.

ثم قال تعالى حكاية عنها ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ وفيه قولان: (الأول) أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه: (أحدها) أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث. و (الثاني) أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان. و (الثالث) الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة. و (الرابع) أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. و (الخامس) أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.

والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه.

ثم حكى تعالى عنها كلاماً ثانياً وهو قولها ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ وفيه أبحاث:

البحث الأول: أن ظاهر هذا الكلام يدل على ما حكينا من أن عمران كان قد مات في حال حمل حنة بمريم، فلذلك تولت الأم تسميتها، لأن العادة أن ذلك يتولاه الآباء.

البحث الثاني: أن مريم في لغتهم: العابدة، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا، والذي يؤكد هذا قولها بعد ذلك ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾.

البحث الثالث: أن قوله ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ معناه: وإني سميتها بهذا اللفظ أي جعلت هذا اللفظ اسماً لها، وهذا يدل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متغايرة.

ثم حكى الله تعالى عنها كلاماً ثالثاً وهو قولها ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ وذلك لأنه لما فاتها ما كانت تريد من أن يكون رجلاً خادماً للمسجد تضرعت إلى الله تعالى في أن يحفظها من الشيطان الرجيم، وأن يجعلها من الصالحات القانتات، وتفسير الشيطان الرجيم قد تقدم في أول الكتاب.

ولما حكى الله تعالى عن حنة هذه الكلمات قال

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما قال ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ولم يقل: فتقبلها ربها بتقبل لأن القبول والتقبل متقاربان قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح: ١٧] أي إنباتاً، والقبول مصدر قولهم: قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضيه، قال سيبويه: خمسة مصادر جاءت على فعول: قبول وطهور ووضوء ووقود وولوغ، إلا أن الأكثر في الوقود إذا كان مصدراً الضم، وأجاز الفراء والزجاج: قبولاً بالضم، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي يقال: قبلته قبولاً وقبولا، وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب التفعل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتصبر والتجلد ونحوهما فإنهما يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول.

فإن قيل: فلم لم يقل: فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل؟

و (الجواب) أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع فذكر التقبل ليفيد الجد والمبالغة، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع، بل على وفق الطبع، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها، وهذا الوجه مناسب معقول.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في تفسير ذلك القبول الحسن وجوهاً:

الوجه الأول: . . . طعن القاضي في هذا الخبر وقال: إنه خبر واحد على خلاف الدليل فوجب رده، وإنما قلنا: إنه على خلاف الدليل لوجوه: (أحدها) أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من يعرف الخير والشر والصبي وليس كذلك. و (الثاني) أن الشيطان لو تمكن من هذا النخس لفعل أكثر من ذلك من إهلاك الصالحين وإفساد أحوالهم و (الثالث) لم خص بهذا الاستثناء مريم وعيسى عليهما السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام. (الرابع) أن ذلك النخس لو وجد بقي أثره، ولو بقي أثره لدام الصراخ والبكاء، فلما لم يكن كذلك علينا بطلانه، واعلم أن هذه الوجوه محتملة، وبأمثالها لا يجوز دفع الخبر والله أعلم.

الوجه الثاني: في تفسير أن الله تعالى تقبلها بقبول حسن، ما روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة، وقالت: خذوا هذه النذيرة. . .

الوجه الثالث: روى القفال عن الحسن أنه قال: إن مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ولم تلتقم ثدياً قط، وإن رزقها كان يأتيها من الجنة.

الوجه الرابع: في تفسير القبول الحسن أن المعتاد في تلك الشريعة أن التحرير لا يجوز إلا في حق الغلام حين يصير عاقلاً قادراً على خدمة المسجد، وههنا لما علم الله تعالى تضرع تلك المرأة قبل تلك الجارية حال صغرها وعدم قدرتها على خدمة المسجد، فهذا كله هو الوجوه المذكورة في تفسير القبول الحسن.

ثم قال الله تعالى ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ قال ابن الأنباري: التقدير أنبتها فنبتت هي نباتاً حسناً ثم منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين، أما الأول فقالوا: المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة.

ثم قال الله تعالى ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: كفل يكفل كفالة وكفلا فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه، وفي الحديث «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وقال الله تعالى ﴿ أَكْفِلْنِيهَا ﴾[ص: ٢٣].

المسألة الثانية: قرأ عاصم وحمزة والكسائي ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ بالتشديد، ثم اختلفوا في زكريا فقرأ عاصم بالمد، وقرأ حمزة والكسائي بالقصر على معنى ضمها الله تعالى إلى زكريا، فمن قرأ (زكرياء) بالمد أظهر النصب ومن قرأ بالقصر كان في محل النصب والباقون قرأوا بالمد

والرفع على معنى ضمها زكرياء إلى نفسه، وهو الاختيار، لأن هذا مناسب لقوله تعالى ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]وعليه الأكثر، وعن ابن كثير في رواية ﴿وَكَفِلَهَا﴾ بكسر الفاء، وأما القصر والمد في زكريا فهما لغتان، كالهيجاء والهيجا، وقرأ مجاهد (فتقبلها ربها، وأنبتها، وكفلها) على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ﴿رَبُّهَا﴾ كأنها كانت تدعو الله فقالت: اقبلها يا ربها، وأنبتها يا ربها، واجعل زكريا كافلاً لها.

المسألة الثالثة: اختلفوا في كفالة زكريا عليه السلام إياها متى كانت، فقال الأكثرون: كان ذلك حال طفوليتها، وبه جاءت الروايات، وقال بعضهم: بل إنما كفلها بعد أن فطمت، واحتجوا عليه بوجهين: (الأول) أنه تعالى قال ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ثم قال ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وهذا يوهم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن و (الثاني) أنه تعالى قال ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهذا يدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب الترتيب، فلعل الإنبات الحسن وكفالة زكرياء حصلا معاً.

وأما الحجة الثانية: فلعل دخوله عليها وسؤاله منها هذا السؤال إنما وقع في آخر زمان الكفالة.

ثم قال الله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ الموضع العالي الشريف، قال عمر بن أبي ربيعة:

ربة محراب إذا جئتها

لم أدن حتى أرتقي سلما

واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] والتسور لا يكون إلا من علو، وقيل: المحراب أشرف المجالس وأرفعها، يروى أنها لما صارت شابة بنى زكريا عليه السلام لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطه لا يصعد إليه إلا بسلم، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية، ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أن زكرياء كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم: أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله، فحصول ذلك الرزق عندها إما أن يكون خارقاً للعادة، أو لا يكون، فإن قلنا: إنه غير خارق للعادة فهو باطل من خمسة أوجه: (الأول) أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم دليلاً على علو شأنها وشرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى. و (الثاني) أنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨] والقرآن دل على أنه كان آيساً من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته، فلما رأى انخراق العادة في حق مريم طمع في حصول الولد فيستقيم قوله ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أما لو كان الذي شاهده في حق مريم لم يكن خارقاً للعادة لم تكن مشاهدة ذلك سبباً لطمعه في انخراق العادة بحصول الولد من المرأة الشيخة العاقر. (الثالث) أن التنكر في قوله ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ يدل على تعظيم حال ذلك الرزق، كأنه قيل: رزقاً. أي رزق غريب عجيب، وذلك إنما يفيد الغرض اللائق لسياق هذه الآية لو كان خارقاً للعادة. (الرابع) هو أنه تعالى قال ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] ولولا أنه ظهر عليهما من الخوارق، وإلا لم يصح ذلك.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: المراد من ذلك هو أن الله تعالى خلق لها ولداً من غير ذكر؟

قلنا: ليس هذا بآية، بل يحتاج تصحيحه إلى آية، فكيف نحمل الآية على ذلك، بل المراد من الآية ما يدل على صدقها وطهارتها، وذلك لا يكون إلا بظهور خوارق العادات على يدها كما ظهرت على يد ولدها عيسى عليه السلام. (الخامس) ما تواترت الروايات به أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. فثبت أن الذي ظهر في حق مريم عليها السلام كان فعلاً خارقاً للعادة، فنقول: إما أن يقال: إنه

كان معجزة لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك، والأول باطل لأن النبي الموجود في ذلك الزمان هو زكريا عليه السلام، ولو كان ذلك معجزة له لكان عالماً بحاله وشأنه، فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ وأيضاً فقوله تعالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ مشعر بأنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ثم أنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهنالك طمع في انخراق العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشيخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا بأخبار مريم، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لزكريا عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال: إنها كانت كرامة لعيسى عليه السلام، أو كانت كرامة لمريم عليها السلام، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء.

اعترض أبو علي الجبائي وقال: لم لا يجوز أن يقال إن تلك الخوارق كانت من معجزات زكريا عليه السلام، وبيانه من وجهين: (الأول) أن زكريا عليه السلام دعا لها على الإجمال أن يوصل الله إليها رزقاً، وأنه ربما كان غافلاً عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله تعالى، فإذا رأى شيئاً بعينه في وقت معين قال لها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فعند ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر بدعائه تلك المعجزة. و (الثاني) يحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقاً معتاداً إلا أنه كان يأتيها من السماء، وكان زكريا يسألها عن ذلك حذراً من أن يكون يأتيها من عند إنسان يبعثه إليها، فقالت هو من عند الله لا من عند غيره.

المقام الثاني: إنا لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق العادات، بل معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقاً على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات، فكان زكريا عليه السلام إذا رأى شيئاً من ذلك خاف أنه ربما أتاها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي، فكان يسألها عن كيفية الحال، هذا مجموع ما قاله الجبائي في تفسيره وهو في غاية الضعف، لأنه لو كان ذلك معجزاً لزكريا عليه السلام كان مأذوناً له من عند الله تعالى في طلب ذلك، ومتى كان مأذوناً في ذلك الطلب كان عالماً قطعاً بأنه يحصل، وإذا علم ذلك امتنع أن يطلب منها كيفية الحال، ولم يبق أيضاً لقوله ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ فائدة، وهذا هو الجواب بعينه عن الوجه الثاني.

وأما سؤاله الثالث ففي غاية الركاكة لأن هذا التقدير لا يبقى فيه وجه اختصاص لمريم بمثل هذه الواقعة، وأيضاً فإن كان في قلبه احتمال أنه ربما أتاها هذا الرزق من الوجه الذي لا ينبغي فبمجرد إخبارها كيف يعقل زوال تلك التهمة فعلمنا سقوط هذه الأسئلة وبالله التوفيق.

أما المعتزلة فقد احتجوا على امتناع الكرامات بأنها دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير الأنبياء، كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً على العلم لا جرم لا يوجد في حق غير العالم.

والجواب من وجوه: (الأول) وهو أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدعي، فإن ادعى صاحبه النبوة فذاك الفعل الخارق للعادة يدل على كونه نبياً، وإن ادعى الولاية فذلك يدل على كونه ولياً. و (الثاني) قال بعضهم: الأنبياء مأمورون بإظهارها، والأولياء مأمورون بإخفائها. و (الثالث) وهو أن النبي يدعي المعجز ويقطع به، والولي لا يمكنه أن يقطع به. و (الرابع) أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة، والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة، فهذا جملة الكلام في هذا الباب وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى حكاية عن مريم عليها السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى، وقوله ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير لكثرته، أو من غير مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] وههنا آخر الكلام في قصة حنة. . .

ابن عربي ج ١ ص ١٨١ ـ ١٨٢

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ حين قالت امرأة عمران ربِّ إني نذرت، لقولها: ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّتها كما شهدت بقولها: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

واعلم أن النيّات وهيئات النفس، مؤثرة في نفس الولد كما أن الأغذية مؤثرة في بدنه، فمن كان غذاؤه حلالاً طيباً، وهيئات نفسه نورية، ونياته صادقة حقانية، جاء ولده مؤمناً صدِّيقاً، أو ولياً أوْ نبياً.

ومن كان غذاؤه حراماً، وهيئات نفسه ظلمانية خبيثة، ونياته فاسدة رديئة، جاء ولده فاسقاً، أو كافراً خبيثاً. إذ النطفة التي يتكوّن الولد منها متولدة من ذلك الغذاء، مربّاة بتلك النفس فتناسبها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الولد سرّ أبيه» فكان صدق مريم، وبنوّة عيسى، بركة صدق أبيها.

﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، يجوز أن يراد به الرزق الروحاني، من المعارف والحقائق والعلوم، والحكم الفائضة عليها من عند الله، إذ الاختصاص بالعندية، يدل على كونها من الأرزاق اللدنية.

الآلوسي ج ٢ ص ١٣٣ ـ ١٤٤

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ تقرير للاصطفاء وبيان لكيفيته، والظرف في حيز النصب على المفعولية بفعل محذوف أي اذكر لهم وقت قولها، وقيل: هو منصوب على الظرفية لما قبله، وهو ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ على سبيل التنازع أو ـ السميع ـ ولا يضر الفصل بينهما بالأجنبي لتوسعهم في الظروف، وقيل: هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه ـ باصطفى ـ المذكور كأنه قيل: واصطفى آل عمران ﴿إِذْ قَالَتِ﴾ إلخ فكان من عطف الجمل على الجمل لا المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل في ذلك الوقت، و﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ هي حنة بنت فاقوذا ـ كما رواه إسحق ابن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه. والحاكم عن أبي هريرة ـ وهي جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكان لها أخت اسمها إيشاع تزوجها زكريا عليه الصلاة والسلام ـ هي أم يحيى ـ فعيسى ابن بنت خالة يحيى ـ كما ذكر ذلك غير واحد من الإخباريين ـ ويشكل عليه ما أخرجه الشيخان في حديث المعراج من قوله ﷺ: «فإذا أنا با بني الخالة عيسى ابن مريم. ويحيى بن زكريا» وأجاب صاحب التقريب بأن الحديث مخرج على المجاز فإنه كثيراً ما يطلق الرجل اسم الخالة على بنت خالته لكرامتها عليه، والغرض أن بينهما عليهما الصلاة والسلام هذه الجهة من القرابة وهي جهة الخؤلة، وقيل: كانت إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من الأب على أن عمران نكح أولاً أم حنة فولدت له إيشاع ثم نكح حنة بناءاً على حل نكاح الربائب في شريعتهم فولدت مريم فكانت إيشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت حنة من الأم، وفيه أنه مخالف لما ذكره محيي السنة من أن إيشاع وحنة بنتا فاقوذا على أنه بعيد لعدم الرواية في الأمرين.

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن حنة امرأة عمران كانت حبست عن الولد والمحيض فبينا هي ذات يوم في ظل شجرة إذ نظرت إلى طير يزق فرخاً له فتحركت نفسها للولد فدعت الله تعالى أن يهب لها ذكراً فحاضت من ساعتها فلما طهرت أتاها زوجها فلما أيقنت بالولد قالت: لئن نجاني الله تعالى ووضعت ما في بطني لأجعلنه محرراً ولم يكن يحرر في ذلك الزمان إلا الغلمان فقال لها زوجها: أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى ـ والأنثى عورة ـ فكيف تصنعين؟ فاغتمت لذلك فقالت عند ذلك:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ وهذا في الحقيقة استدعاء للولد الذكر لعدم قبول الأنثى فيكون المعنى ـ رب إني نذرت لك ما في بطني فاجعله ذكراً على حد أعتق عبدك عني ـ وجعله بعض الأئمة تأكيداً لنذرها وإخراجاً له عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز واللام من (لك) للتعليل، والمراد لخدمة بيتك ـ والمحرر ـ من لا

يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله تعالى ويكون في خدمة الكنيسة ـ قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ـ وقال مجاهد: المحرر الخادم للبيعة، وفي رواية عنه الخالص الذي لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: أرادت عتيقاً خالصاً لطاعتك لا أصرفه في حوائجي، وعلى كل هو من الحرية ـ وهي ضربان ـ أن لا يجري عليه حكم السبي وأن لا تتملكه الأخلاق الرديئة والرذائل الدنيوية.

وانتصابه على الحالية من (ما) والعامل فيه (نذرت)؛ وقيل: من الضمير الذي في الجار والمجرور، والعامل فيه حينئذٍ الاستقرار ـ ولا يخفى رجحان الوجه الأول ـ والحال إما مقدرة أو مصاحبة، وجوّز أبو حيان أن ينصب على المصدر أي ـ تحريراً ـ لأنه بمعنى النذر، وتأكيد الجملة للإيذان بوفور الرغبة في مضمونها وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به والتعبير عن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء، و ـ التقبل ـ أخذ الشيء على وجه الرضا وأصله المقابلة بالجزاء ـ وتقبل ـ هنا بمعنى اقبل ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لسائر المسموعات فتسمع دعائي ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما كان ويكون فتعلم نيتي وهو تعليل لاستدعاء القبول من حيث أن علمه تعالى بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لذلك تفضلاً وإحساناً، وتأكيد الجملة لغرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لغرض اختصاص دعائها وانقطاع حبل رجائها عما عداه سبحانه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال ـ قاله شيخ الإسلام ـ وتقديم صفة السمع لأن متعلقاتها وإن كانت غير متناهية إلا أنها ليست كمتعلقات صفة العلم في الكثرة ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير ـ لما ـ ولما علم المتكلم أن مدلولها مؤنث جاز له تأنيث الضمير العائد إليه وإن كان اللفظ مذكراً، وأما التأنيث في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ فليس باعتبار العلم بل باعتبار أن كل ضمير وقع بين مذكر ومؤنث هما عبارتان عن مدلول واحد جاز فيه التذكير والتأنيث نحو الكلام يسمى جملة، و(أنثى) حال بمنزلة الخبر فأنث العائد إلى (ما) نظراً إلى الحال من غير أن يعتبر فيه معنى الأنوثة ليلزم اللغو أو باعتبار التأويل بمؤنث لفظي يصلح للمذكر والمؤنث ـ كالنفس والحبلة والنسمة ـ فلا يشكل التأنيث ولا يلغو (أنثى) بل هي حال مبينة ـ كذا قيل ـ ولا يخلو عن نظر، فالحق أن الضمير لما ـ في بطني ـ والتأنيث في الأول لما أن المقام يستدعي ظهور أنوثته واعتباره في حيز الشرط إذ عليه يترتب جواب (لما) لا على وضع ولد مّا، والتأنيث في الثاني للمسارعة إلى عرض ما دهمها من خيبة الرجاء وانقطاع حبل الأمل، و(أنثى) حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه، وليس الغرض من هذا الكلام الإخبار لأنه إما للفائدة أو للازمها، وعلم الله تعالى محيط بهما بل لمجرد التحسر والتحزن، وقد قال الإمام المرزوقي: إنه قد يرد الخبر صورة لأغراض سوى الإخبار كما في قوله:

قومي هم قتلوا أميم أخي
فإذا رميت (يصيبني سهمي)

فإن هذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار، وحاصل المعنى هنا على ما قرر ـ فلما وضعت بنتاً تحسرت إلى مولاها وتفجعت إذ خاب منها رجاها ـ وعلى هذا لا إشكال أصلاً في التأنيث. ولا في الجزاء نفسه. ولا في ترتبه على الشرط، وما قيل: إنه يحتمل أن يكون فائدة هذا الكلام ـ التحقير للمحرر استجلاباً للقبول لأنه من تواضع لله تعالى رفعه الله سبحانه ـ فمستحقر من القول بالنسبة إلى ما ذكرنا؛ والتأكيد هنا قيل: للرد على اعتقادها الباطل وربما أنه يعود إلى الاعتناء والمبالغة في التحسر الذي قصدته والرمز إلى أنه صادر عن قلب كسير وفؤاد بقيود الحرمان أسير ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ليس المراد الرد عليها في إخبارها بما هو سبحانه أعلم به كما يتراءى من السياق بل الجملة اعتراضية سيقت لتعظيم المولود الذي وضعته وتفخيم شأنه والتجهيل لها بقدره ـ أي والله أعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظائم الأمور ودقائق الأسرار وواضح الآيات، وهي غافلة عن ذلك كله، و(ما) على هذا عبارة عن الموضوعة، قيل: والإتيان بها دون ـ من ـ يلائم التجهيل فإنها كثيراً ما يؤتى بها لما يجهل به وجعلها عبارة عن الواضعة ـ أي والله تعالى أعلم بشأن أم مريم حين تحسرها وتحزنها من توهم خيبة رجاها

وأنها ليست من الولي إلى الله تعالى في شيء إذ لها مرتبة عظمى وتحريرها تحرير لا يوجد منه ـ مما لا وجه له وجزالة النظم تأباه، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿بِمَا وَضَعَتِ﴾ على خطاب الله تعالى لها، والمراد به تعظيم شأن الموضوع أيضاً أي إنك لا تعلمين قدر ما وضعته وما أودع الله تعالى فيه.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿بِمَا وَضَعَتُ﴾ على أنه من كلامها قالته اعتذاراً إلى الله تعالى حيث وضعت مولوداً لا يصلح للغرض، أو تسلية لنفسها أي ولعل لله تعالى في ذلك سراً وحكمة ـ ولعل هذه الأنثى خير من الذكر فالجملة حينئذ لنفي العلم لا للتجهيل لأن العبد ينظر إلى ظاهر الحال ولا يقف على ما في خلاله من الأسرار، وحمل قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على هذا المعنى بجعل الخطاب منها لنفسها في غاية البعد، ووضع الظاهر موضع ضمير المخاطب إظهاراً لغاية الإجلال ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ اعتراض آخر مبين لما اشتمل عليه الأول من التعظيم وليس بياناً لمنطوقه حتى يلحق بعطف البيان الممتنع فيه العطف.

واللام في الذكر والأنثى للعهد، أما التي في الأنثى فلسبق ذكرها صريحاً في قوله سبحانه حكاية: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وأما التي في الذكر فلقولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ﴾ إلخ إذ هو الذي طلبته والتحرير لا يكون إلا للذكر وسمى هذا العهد التقديري ـ وهو غير الذهني لأن قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ صالح للصنفين، وقولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾ تمن لأن يكون ذكراً فأشير إلى ما في البطن حسب رجائها، وجوز أن تكون الجملة من قولها فيكون مرادها نفي مماثلة الذكر للأنثى، فاللام للجنس ـ كما هو الظاهر ـ لأنه لم يقصد خصوص ذكر وأنثى بل إن المراد أن هذا الجنس ليس كهذا الجنس، وأورد عليه أن قياس كون ذلك من قولها أن يكون وليست الأنثى كالذكر فإن مقصودها تنقيص الأنثى بالنسبة إلى الذكر والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس، وأجيب بأنه جار على ما هو العادة في مثله أيضاً لأن مراد أم مريم ليس تفضيل الذكر على الأنثى بل العكس تعظيماً لعطية الله تعالى على مطلوبها أي وليس الذكر الذي هو مطلوبي كالأنثى التي وهبها الله تعالى لي علماً منها بأن ما يفعله الرب خير مما يريده العبد ـ وفيه نظر ـ أما أولاً فلأن اللام في الذكر والأنثى على هذا يكون للعهد وهو خلاف الظاهر الذي ذهب إليه أكثر المفسرين، وأما ثانياً فلأنه ينافي التحسر والتحزن المستفاد من قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ فإن تحزنها ذلك إنما هو لترجيحها الذكر على الأنثى، والمفهوم من هذا الجواب ترجيحها الأنثى على الذكر اللهم إلا أن يحمل قولها ذلك على تسلية نفسها بعدما تحزنت على هبة الأنثى بدل الذكر الذي كانت طلبته إلا أنه تبقى مخالفة الظاهر على ما هي، فالأولى في الجواب عدم الخروج عما هو الظاهر والبحث فيما اقتضته العادة فقد قال في الانتصاف بعد نقل الإيراد وذكر القاعدة: وقد وجدت الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي تعين ما قالوه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فنفى عن الكامل شبه الناقص لأن الكمال لأزواج النبي ﷺ ثابت بالنسبة إلى عموم النساء ـ وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران ـ ومنه أيضاً ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] انتهى.

وتمام الكلام في هذا المقام ما ذكره بعض المحققين أنه إذا دخل نفي بلا. أو غيرها. أو ما في معناه على تشبيه مصرح بأركانه، أو ببعضها احتمل معنيين تفضيل المشبه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه بكذا لأن وجه الشبه فيه أولى وأقوى ـ كقولك ليس زيد كحاتم في الجود ـ ويحتمل عكسه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه به لبعد المسافة بينهما كقول العرب ـ ماء ولا كصداء. ومرعى ولا كالسعدان وفتى ولا كمالك ـ وقوله:

* طرف الخيال ولا كليلة مدلج *

ووقع في شروح المقامات وغيرها أن العرب لم تستعمل النفي بلا على هذا الوجه إلا للمعنى الثاني وأن استعماله لتفضيل المشبه من كلام المولدين حتى اعترضوا على قول الحريري في قوله:

* غدوت ولا اغتداء الغراب *

وعيب قول صاحب التلويح في خطبته: نال حظاً من

الاشتهار ولا اشتهار الشمس نصف النهار، ومبني الاعتراض على هذا، ولعله ليس بلازم كما أشار إليه صاحب الانتصاف بما أورد من الآيات، ومما أورده الثعالبي من خلافه أيضاً في كتابه المنتخب ـ فلان حسن ولا القمر. وجواد ولا المطر ـ على أنه لو سلم ما ذكروه فالمعاني لا حجر فيها على أن ما ورد في النفي بلا المعترضة بني الطرفين لا في كل نفي انتهى.

ـ وهو كما قال: من نفائس المعاني التي ينبغي حفظها ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ المنصوبة المحل على المفعولية للقول ـ وما بينهما كما علمت ـ اعتراض بجملتين غير محكيتين الثانية من تتمة الأولى معنى على ما بين ـ ولهذا أجراه البعض مجرى الاعتراض في الاعتراض فجعله نظير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦].

واعترض بأنه كيف يجوز الاعتراض بين كلامي أم مريم وكلام متكلم لا يجوز أن يكون معترضاً بين كلامي متكلم آخر، وأجيب بأن كلام أم مريم من كلام الله تعالى نقلاً عن أم مريم ولا بعد في أن يكون كلامه تعالى اعتراضاً بين كلاميها اللذين هما من كلام الله تعالى نقلاً عنها، هذا على تقدير أن لا تكون تانك الجملتان من كلام أم مريم أما إذا كانتا من كلامها بناءاً على ما سبق من القراءة والاحتمال فلا اعتراض.

قيل: والغرض من عرض التسمية على (علام الغيوب) التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها فإن (مريم) في لغتهم بمعنى العابدة ـ ولا يخفي بعده ـ إذ مجرد ذكر تسميتها مريم لا يكاد يكون مقرباً لها إليه تعالى لأن التقرب إليه تعالى إنما يكون بسبب العبادة ـ ومجرد عرض التسمية ليس بعبادة ـ فكيف يكون مقرباً اللهم إلا أن يقال: إن التقرب إلى الله تعالى بحبها للعبادة الذي أشعر به تسميتها بنتها عابدة، أو اعتقاد أن الله تعالى مستعاذ يجير من يستعيذ به عما يخافه.

واعترض بأن هذا لا يدفع الشبهة بل هي باقية أيضاً لأن المقرب حينئذ ما في القلب من الحب والاعتقاد لا عرض ذلك على من لا تخفى عليه خافية، والأولى أن يقال: إن الغرض من ذلك إظهار أنها غير راجعة عن نيتها وإن كان ما وضعته أنثى وأنها وإن لم تكن خليقة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه واستقلالها بالتسمية لكون أبيها قد مات وأمها حامل بها فتقديم المسند إليه للتخصيص يعني التسمية مني لا يشاركني فيها أبوها، قيل: وفي ذلك تعريض بيتمها استعطافاً له تعالى وجعلاً ليتمها شفيعاً لها، والقول: بأن فائدة عرض تسميتها التحسر والتحزن أيضاً أي إني سميتها لا أبوها لعدم احتفاله بها والتفاته إليها لكراهة الرجال في الغالب البنات فمع أنه خلاف ما دل عليه أكثر الآثار ونطق به غالب الأخبار من موت أبيها وهي حمل يجر إلى ما ينبغي أن تنزه عنه ساحة الرجل الصالح عمران كما لا يخفى، وقد تقدم الكلام في (مريم) وزناً ومعنى، وقد اختار بعض المتأخرين أنها معربة مارية بمعنى ـ جارية ـ ويقرب أن يكون القول المعول عليه، واستدل بالآية على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة لا يوم السابع لإن الظاهر أنها إنما قالت ذلك بإثر الوضع، واستدل بتغاير المفعولين على تغاير الاسم والمسمى، وقد تقدم البحث فيه ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ﴾ عطف على ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وأتى هنا بخبر إن فعلاً مضارعاً دلالة على طلبها استمرار الاستعاذة دون انقطاعها وهذا بخلاف ﴿وَضَعْتُهَآ﴾، و﴿سَمَّيْتُهَا﴾ حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما وقدم المعاذ به على المعطوف الآتي اهتماماً به، ومعنى ﴿أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أمنعها وأجيرها بحفظك، وأصل العوذ كما قال الرغب: الالتجاء إلى الغير والتعلق به يقال: عاذ فلان بفلان إذا استجار به، ومنه أخذت العوذة وهي التميمة والرقية؛ وقرأ أبو جعفر ـ ونافع ـ إني ـ بفتح ياء المتكلم وكذا في سائر المواضع التي بعد الياء ألف مضمومة إلا في موضعين (بعهدي أوف) و(آتوني أفرغ) ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾ عطف على الضمير المنصوب، وفي التنصيص على إعاذتها وإعاذة ذريتها رمز إلى طلب بقائها حية حتى تكبر، وطلب للتناسل منها هذا إذا أريد بالإعاذة ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة الحفظ من إغوائه الموقع في الخطايا لإنه إنما

يكون بعد البلوغ إذ لا تكليف قبله، وأما إذا أريد منها الحفظ منه مطلقاً فيفهم طلب الأمرين من الأمر الأخير، ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل من مسه صارخاً إلا مريم وابنها» وفي بعض طرقه أنه ضرب بينه وبينها حجاب وأن الشيطان أراد أن يطعن بإصبعه فوقعت الطعنة في الحجاب، وفي رواية إسحق بن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: كل ولد آدم ينال منه الشيطان يطعنه حين يقع بالأرض بإصبعه ولهذا يستهل إلا ما كان من مريم وابنها فإنه لم يصل إبليس إليهما». وطعن القاضي عبد الجبار بإصبع فكره في هذه الأخبار بأنها خبر واحد على خلاف الدليل، وذلك أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من له تمييز ولأنه لو تمكن من هذا الفعل لجاز أن يهلك الصالحين، وأيضاً لم خص عيسى وأمه دون سائر الأنبياء، وأنه ولو وجد المس أو النخس لدام أثره وليس فليس، والزمخشري زعم أن المعنى على تقدير الصحة أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهما كقوله تعالى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠] واستهلاله صارخاً من مسه تخييل وتصوير لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها

يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وأما حقيقة النخس والمس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلأت الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلون به من نخسه انتهى.

ولا يخفى أن الأخبار في هذا الباب كثيرة وأكثرها مدون في الصحاح والأمر لا امتناع فيه، وقد أخبر به الصادق عليه الصلاة والسلام فليتلق بالقبول، والتخييل الذي ركن إليه الزمخشري ليس بشيء لأن المس باليد ربما يصلح لذلك أما الاستهلال صارخاً فلا على أن أكثر الروايات لا يجري فيها مثل ذلك، وقوله: لامتلأت الدنيا عياطاً قلنا: هي مليئة فما من مولود إلا يصرخ، ولا يلزم من تمكنه من تلك النخسة تمكنه منها في جميع الأوقات كيف وفي الصحيح «لولا أن الملائكة يحفظونكم لاحتوشتكم الشياطين كما يحتوش الذباب العسل»؟ «لاختطفتكم الجن» وفسر قوله تعالى ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الرعد: ١١] في أحد الوجوه به، وبهذا يندفع أيضاً قول القاضي: من أنه لو تمكن من هذا الفعل لجاز أن يهلك الصالحين وبقاء الأثر بل وحصوله أيضاً ليس أمراً ضرورياً للمس ولا للنخس والحصر باعتبار الأغلب والاقتصار على عيسى عليه السلام وأمه إيذاناً باستجابة دعاء امرأة عمران على أتم وجه ليتوجه أرباب الحاج إلى الله تعالى بشر اشرهم، أو يقدر له ما يخصصه، وعلى التقديرين يخرج النبي ﷺ من العموم فلا يلزم تفضيل عيسى عليه عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى، ويؤيده خروج المتكلم من عموم كلامه، وقد قال به جمع ويشهد له ما روى الجلال في البهجة السنية عن عكرمة قال: لما ولد النبي ﷺ أشرقت الأرض نوراً فقال إبليس: لقد ولد الليلة ولد يفسد علينا أمرنا فقالت له جنوده: لو ذهبت إليه فجاءه فركضه جبريل عليه السلام فوقع بعدن، وهذا أولى من إبقاء العام على عمومه، والقول بأنه لا يبعد اختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة دون الأنبياء عليهم السلام ولا يلزم منه تفضيله عليهم عليهم السلام إذ قد يوجد في الفاضل ما لا يوجد في الأفضل، وعلى كلا الأمرين الفاضل والمفضول لا إشكال في الإخبار من تلك الحيثية، نعم قد يشكل على ظاهرها أن إعاذة أم مريم كانت بعد الوضع فلا يصح حملها على الإعاذة من المسِّ الذي يكون حين الولادة، وأجيب بأن المس ليس إلا بالانفصال وهو الوضع ومعه الإعاذة، غايته أنه عبر عنه بالمضارع كما أشرنا إليه لقصد الاستمرار فليتأمل، والعجب من بعض أهل السنة كيف يتبع المعتزلة في تأويل مثل هذه الأحاديث الصحيحة لمجرد الميل إلى ترهات الفلاسفة مع أن إبقاءها على ظاهرها مما لا يرنق لهم شرباً ولا يضيق عليهم سرباً، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لمراضيه ويجعل مستقبل حالنا خيراً من ماضيه ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ أي

رضى بمريم في النذر مكان الذكر ففيه تشبيه النذر بالهدية ورضوان الله تعالى بالقبول ﴿ رَبُّهَا ﴾ أي رب مريم المبلغ لها إلى كمالها اللائق بها، وقيل: الضمير لامرأة عمران بدليل أنها التي خاطبت ونادت بقولها ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ ﴾ إلخ، والأول أولى ﴿ بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ الباء مثلها في ـ كتبت بالقلم ـ و ـ القبول ـ ما يقبل به الشيء ـ كالسعوط واللدود ـ ما يسعط به ويلد أي تقبلها بوجه حسن تقبل به النذائر وهو اختصاصه سبحانه إياها بإقامتها مقام الذكر في النذر ولم يقبل قبلها أنثى، أو تسلمها من أمها عقب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة والخدمة.

فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما وضعتها خشيت حنة أن لا تقبل الأنثى محررة فلفتها في الخرقة ووضعتها في بيت المقدس عند القراء فتساهم القراء عليها ـ لأنها كانت بنت إمامهم ـ أيهم يأخذها فقال زكريا وهو رأس الأحبار: أنا آخذها وأنا أحقهم بها لأن خالتها عندي، فقالت القراء: ولكنا نتساهم عليها فمن خرج سهمه فهو أحق بها فدعوا بأقلامهم التي يكتبون بها الوحي وجمعوها في موضع ثم غطوها، وقال زكريا لبعض من الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم ممن في بيت المقدس: أدخل يدك فأخرج فأدخل يده فأخرج قلم زكريا فقالوا: لا نرضى ولكن نلقي الأقلام في الماء فمن خرج قلمه في جرية الماء ثم ارتفع فهو يكفلها فألقوا أقلامهم في نهر الأردن فارتفع قلم زكريا في جري الماء فقالوا: نقترع الثالثة فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكفلها فألقوا أقلامهم فجرى قلم زكريا مع الماء وارتفعت أقلامهم في جرية الماء وقبضها عند ذلك زكريا، ويجوز أن تكون الباء للملابسة، و ـ القبول ـ مصدر وهو من المصادر الشاذة وهناك مضاف محذوف، والمعنى رضي بها متلبسة بأمر ذي قبول، ووجه ذي رضا وهو ما يقيمها مقام الذكور لما اختصت به من الإكرام، ويجوز أن يكون تفعل بمعنى استفعل ـ كتعجل بمعنى استعجل ـ والمعنى فاستقبلها ربها وتلقاها من أول وهلة من ولادتها بقبول حسن وأظهر الكرامة فيها حينئذ ـ وفي المثل خذ الأمر بقوابله ـ وجوز أن تكون الباء زائدة، و ـ القبول ـ مصدر مؤكد للفعل السابق بحذف الزوائد أي قبلها قبولاً حسناً، وعدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فإن صيغة التفعل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكلف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وإن كان المراد بها في حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته، ويحتمل على بعد بعيد أن تكون الباء للمصاحبة بمعنى مع ـ أي تقبل نذرها ـ مع قبول حسن لدعاء أمها في حقها وحق ذريتها حيث أعاذهما من الشيطان الرجيم من أول الولادة إلى خاتمة الحياة ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ أي رباها الرب تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وفي رواية عنه أنه سوى خلقها فكانت تشب في يوم ما يشب غيرها في عام، وقيل: تعهدها بما يصلحها في سائر أحوالها، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو مجاز مرسل بعلاقة اللزوم فإن الزارع يتعهد زرعه بسقيه عند الاحتياج وحمايته عن الآفات وقلع ما يخنقه من النبات. و(نباتاً) هنا مصدر على غير لفظ الفعل المذكور وهو نائب عن إنبات، وقيل: التقدير فنبتت نباتاً، والنبات والنبت بمعنى. وقد يعبر بهما عن النابت ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ وهو من ولد سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ـ أي ضمها الله تعالى إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها ـ على ما ذكر في حديث ابن عباس، وكل ذلك من آثار قدرته تعالى، ولم يكن هناك وحي إليه بذلك، وقرأ بتشديد الفاء حمزة. والكسائي. وعاصم وقصروا (زكريا) غير عاصم في رواية ابن عياش ـ وهو مفعول به لكفلها ـ وقرأ الباقون بتخفيف الفاء ومدوا (زكريا) ورفعوه على الفاعلية ـ وفيه لغتان أخريان ـ إحداهما ـ زكري ـ بياء مشددة من غير ألف، وثانيتهما ـ زكر ـ بغير ياء ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة، وقيل: لألف التأنيث، وقرأ أبي وأكفلها، وقرأ مجاهد ـ فتقبلها ربها. وأنبتها وكفلها ـ على صيغة الدعاء في الأفعال الثلاثة ونصب ـ ربها ـ على النداء أي فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها، وقد استجاب الله تعالى دعاءها في جميع ذلك، والذي عليه الأكثرون وشهدت له الأخبار أن كفالة زكريا كانت

من أول أمرها، وزعم بعضهم أنه كفلها بعد أن فطمت ونبتت النبات الحسن وليس بالقوى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ ﴾ بيان لقبولها ولهذا لم يعطف، والمحراب على ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما غرفة بنيت لها في بيت المقدس وجعلت بابها في وسط الحائط وكانت لا يصعد عليها إلا بسلم مثل باب الكعبة، وقيل: المراد به المسجد إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب؛ وقيل: أشرف مواضعه ومقدمها وهو مقام الإمام من المسجد في رأي، وأصله مفعال صيغة مبالغة ـ كمطعان ـ فسمى به المكان لأن المحاربين نفوسهم كثيرون فيه، وقيل: إنه يكون اسم مكان وسمي به لإن محل محاربة الشيطان فيه أو لتنافس الناس عليه ولبعض المغاربة في المدح:

جمع الشجاعة والخشوع لربه
ما أحسن المحراب في المحراب

وتقديم الظرف على الفاعل لإظهار كمال العناية بأمرها، ونصب (المحراب) على التوسع إذ حق الفعل أن يتعدى بفي، أو بالى وإظهار الفاعل قيل: لفصل الجملة، و(كلما) ظرف على أن (ما) مصدرية، والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت، والعائد محذوف والعامل فيها جوابها بالاتفاق لإن ما في حيز المضاف إليه لا يعمل في المضاف ولا يجري فيها الخلاف المذكور في أسماء الشرط، ومن الناس من وهم فقال: إن ناصبه فعل الشرط، وادعى أنه الأنسب معنى فزاد في الشطرنج جملاً والمعنى كل زمان دخل عليها أو كل وقت دخل عليها فيه ﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ أي أصاب ولقي بحضرتها ذلك أو ذلك كائناً بحضرتها، أخرج ابن جرير عن الربيع قال: إنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، والتنوين للتعظيم فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ذلك من ثمار الجنة والذي عليه الجل أن ذلك عوض لها عن الرضاعة، فقد روي أنها لم ترضع ثدياً قط، وقيل: إن هذا كان بعد أن ترعرعت، ففي رواية ابن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن زكريا عليه الصلاة والسلام استأجر لها ظئراً فلما تم لها حولان فطمت وتركت في المحراب وحدها وأغلقت عليها الباب ولم يتعهد أمرها سواه» ﴿ قَالَ يَٰمَرْيَمُ ﴾ استئناف بياني ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ﴾ أي من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة دونك، ومجيء ﴿ أَنَّىٰ ﴾ بمعنى من أين، أو كيف تقدم الكلام عليه، واستشهد للأول بقوله:

تمنى بوادي الرمث زينب ظلة
فكيف ومن (أنى) بذي الرمث تطرق

وللثاني بقوله:

ـ أنى ومن أين ـ أبك الطرب
من حيث لا صبوة ولا ريب

وحذف حرف الجر من (أنى) نحو حذف ـ في ـ من الظروف اللازمة للظرفية من نحو ـ مع، وسحر ـ لإن الشيء إذا علم في موضع جاز حذفه، والتحقيق أن الظروف محل التوسع لكثرة استعمالهم إياها وكل ظرف يستعمل مع حرف صلته التي يكثر معها استعمالها ـ لأن اتصالها بمظروفها بتلك الحروف ـ فجاز حذفها كما جاز حذف ـ في ـ إلا أنها لما كانت الأصل لوضعها للظرفية أطرد حذفها من المتصرفة وغير المتصرفة، وغيرها من صلات الظروف لا يحذف إلا مع ما يكثر من غير المتصرفة حطاً لرتبتها عن رتبة ـ في ـ كما في الكشف، واستدل بالآية على جواز الكرامة للأولياء لأن مريم لا نبوة لها على المشهور، وهذا هو الذي ذهب إليه أهل السنة والشيعة وخالف في ذلك المعتزلة، وأجاب البلخي منهم عن الآية بأن ذلك كان إرهاصاً وتأسيساً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأجاب الجبائي بأنه كان معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام، ورد الأخير بأن اشتباه الأمر عليه يأبى ذلك، ولعله مبني على الظاهر، وإلا ففي اقتضاء هذه العبارة في نفس الأمر الاشتباه نظر لأنه يجوز أن يكون لإظهار ما فيها من العجب بتكلمها ونحوه، والقول ـ بأن اشتباه زكريا في أنها معجزة لا ينافي كونها معجزة لاشتباه أنه من الجنة أو من بساتين الدنيا ليس بشيء كما لا يخفى ﴿ قَالَتْ ﴾ استئناف كالذي قبله ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ قيل:

أرادت من الجنة، وقيل: مما رزقنيه هو لا بواسطة البشر فلا تعجب ولا تستبعد، وقيل: تكلمت بذلك صغيرة كعيسى عليه الصلاة والسلام وقد جمع من تكلم كذلك فبلغوا أحد عشر نفساً، وقد نظمهم الجلال السيوطي فقال:

تكلم في المهد النبي (محمد)
(ويحيى وعيسى والخليل ومريم)
ومبرى (جريج) ثم (شاهد يوسف)
(وطفل لذي الأخدود) يرويه مسلم
(وطفل) عليه مر بالأمة التي
يقال لها تزني ولا تتكلم
وماشطة في عهد فرعون (طفلها)
وفي زمن الهادي (المبارك) يختم

أو بمن اتصف بمقام العبودية وانقطع إليه بالكلية ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ [آل عمران: ٣١] لإني سيد المحبين ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وحقيقة المحبة عند العارفين احتراق القلب بنيران الشوق، وروح الروح بلذة العشق، واستغراق الحواس في بحر الأنس، وطهارة النفس بمياه القدس، ورؤية الحبيب بعين الكل، وغمض عين الكل عن الكونين، وطيران السر في غيب الغيب، وتخلق المحب بخلق المحبوب ـ وهذا أصل المحبة ـ وأما فرعها فهو موافقة المحبوب في جميع ما يرضاه وتقبل بلائه بنعت الرضا والتسليم في قضائه وقدره بشرط الوفا، ومتابعة سنة المصطفى ﷺ، وأما آدابها فالانقطاع عن الشهوات واللذات المباحة والسكون في الخلوات، والمراقبات، واستنشاق نفحات الصفات، والتواضع والذل في الحركات والسكنات:

مساكين أهل العشق حتى قبورهم
عليها تراب الذل بين المقابر

وهذا لا يكون إلا بعد أن ترى الروح بعين السر مشاهدة الحق بنعت الجمال وحسن القدم لا بنعت الآلاء والنعم لأن المحبة متى كانت من تولد رؤية النعماء كانت معلولة وحقيقة المحبة ما لا علة فيها بين المحب والحبيب سوى ذات الحبيب، ولذا قالوا: لا تصح المحبة ممن يميز بين النار والجنة وبين السرور والمحنة وبين الفرض والسنة وبين الاعتواض والاعتراض ولا تصح إلا ممن نسي الكل واستغرق في مشاهدة المحبوب وفنى فيه

خليلي لو أحببتما لعلمتما
محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى
يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه
وشوق على بعد المراد وقربه

وقد يقال: المحبة ثلاثة أقسام، القسم الأول محبة العوام وهي مطالعة المنة من رؤية إحسان المحسن جبلت القلوب على محبة من أحسن إليها وهو حب يتغير وهو لمتابعي الأعمال الذين يطلبون أجراً على ما يعملون، وفيه يقول أبو الطيب:

وما أنا بالباغي على الحب رشوة
ضعيف هوى يرجى عليه ثواب

القسم الثاني: محبة الخواص المتبعين للأخلاق الذين يحبونه إجلالاً وإعظاماً ولأنه أهل لذلك، وإلى هذا القسم أشار ﷺ بقوله: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه»، وقالت رابعة رحمها الله تعالى:

أحبك حبين حب الهوى
وحب لأنك أهل لذاكا

وهذا الحب لا يتغير إلى الأبد لبقاء الجمال والجلال إلى السرمد.

القسم الثالث: محبة خواص الخواص المتبعين للأحوال وهي الناشئة من الجذبة الآلهية في مكامن «كنت كنزاً مخفياً» وأهل هذه المحبة هم المستعدون لكمال المعرفة، وحقيقتها أن يفنى المحب بسطوتها فيبقى بلا هو وربما بقي صاحبها حيران سكران لا هو حي فيرجى ولا ميت فيبكي، وفي مثل ذلك قيل:

يقولون إن الحب كالنار في الحشا
ألا كذبوا فالنار تذكو وتخمد
وما هو إلا جذوة مس عودها
ندى فهي لا تذكو ولا تتوقد

ويكفي في شرح الحب لفظه فإنه ـ حاء . وباء ـ والحاء من حروف الحلق، والباء شفوية، ففيه إشارة إلى أن

الهوى ما لم يستول على قلبه ولسانه وباطنه وظاهره وسره وعلنه لا يقال له: حب، وشرح ذاك يطول، وهذه محبة العبد لربه، وأما محبة ربه سبحانه له فمختلفة أيضاً، وإن صدرت من محل واحد فتعلقت بالعوام من حيث ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده أن يرزقه ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ تقدم معناه، والجملة تعليل لكونه من عند الله، والظاهر أنها من كلام مريم فحينئذٍ تكون في محل النصب داخلة تحت القول، وقال الطبري. إنها ليست من كلامها بل هي مستأنفة من كلامه تعالى إخباراً لنبيه ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع؟ فقالت: لا والله فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت: لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له: بي أنت وأمي قد أتى الله تعالى بشيء خبأته لك قال: هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله تعالى فحمدت الله تعالى وقدمته إلى النبي ﷺ فلما رآه حمد الله تعالى، وقال: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبتي هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فحمد الله سبحانه ثم قال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله تعالى رزقاً فسئلت عنه قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ثم جمع عليا والحسن والحسين وجمع أهل بيته حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت فاطمة رضي الله تعالى عنها وعلى جيرانها».

هذا (ومن باب الإشارة في الآيات) ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نهى عن موالاة المؤمنين الكافرين لعدم المناسبة بينهم في الحقيقة ولفرق بين الظلمة والنور والظل والحرور، والولاية تقتضي المناسبة ومتى لم تحصل كانت الولاية عن محض رياء أو نفاق والله تعالى لا يحب المرائين ولا المنافقين، ومن هنا نهى أهل الله تعالى المريدين عن موالاة المنكرين لأن ظلمة الإنكار - والعياذ بالله تعالى - تحاكي ظلمة الكفر وربما تراكمت فسدت طريق الايمان، ومن يفعل ذلك فليس من ولاية الله تعالى في شيء معتد به إذ ليس فيه نورية صافية يناسب بها الحضرة الالٓهية ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨] فحينئذٍ تجوز الموالاة ظاهراً، وهذا بالنسبة للضعفاء وأما من قوى يقينه فلا يخشى إلا الله تعالى ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي يدعوكم إلى التوحيد العياني لئلا يكون خوفكم من غيره ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] فلا تحذروا إلا إياه، والأكثرون على أن هذا خطاب للخواص العارفين إذ لا يحذر نفسه من لا يعرفه وقد حذر من دونهم بقوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٨١] قال إبراهيم الخواص: وعلامة الخوف في القلب دوام المراقبة وعلامة المراقبة التفقد للأحوال النازلة ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ ﴾ [آل عمران: ٢٩] من الموالاة ﴿ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩] لأنه مع كل نفس وخطرة ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ﴾ سموات الأرواح وأرض الأجسام ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩] فلا يشغله شان عن شأن ولا يقيده مظهر عن مظهر ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ ﴾ [آل عمران: ٣٠] لأن كل ما يعمله الإنسان أو يقوله ينتقش منه أثر في نفسه ويسطر في صحائف النفوس السماوية إلا أنه لاشتغاله بالشواغل الحسية والادراكات الوهمية والخيالية لا يرى تلك النقوش ولا يبصر هاتيك السطور فإذا تجرد عن عالم الكثافة بصر ورأى وشاهد ما به قلم الاستعداد جرى فإذا وجد سوءاً تود نفسه وتتمنى ﴿ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠] لتعذبها به ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ كرره تأكيداً لئلا يعملوا ما يستحقون به عقابه ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠] أي بسائرهم فلهذا حذرهم، الرحمة فكأنه قيل لهم: اتبعوني بالأعمال الصالحة يخصكم الله تعالى برحمته، وتعلقت بالخواص من حيث الفضل فكأنه قيل لهم: اتبعوني بمكارم الأخلاق يخصكم بتجلي صفات الجمال، وتعلقت بخواص الخواص من حيث الجذبة

فكأنه قيل لهم: اتبعوني ببذل الوجود يخصكم بجذبه لكم إلى نفسه، وهناك يرتفع البون من البين، ويظهر الصبح لذي عينين والقطرة من هذه المحبة تغنى عن الغدير:

وفـي سكـرة منهـا ولـو عمـر سـاعـة
تـرى الـدهـر عبـداً طـائعـاً ولـه الحكـم

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] أي معاصيكم التي سلفت منكم على خلاف المتابعة ولا يعاقبكم عليها أو يغفر لكم ذنوبكم بستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته أو يغفر لكم ذنوب وجودكم ويثيبكم مكانه وجوداً لا يفنى كما قال: «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ [آل عمران: ٣١] يكفر خطاياكم ويمحو ذنوب صفاتكم ووجودكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ يهب لكم عوض ذاك حسنات وصفات ووجوداً حقانية خيراً من ذلك ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فإن المريد يلزمه متابعة المراد ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي فإن أعرضوا فهم كفار منكرون محجوبون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] لقصور استعدادهم عن ظهور جماله فيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] الاصطفاء أعم من المحبة والخلة فيشمل الأنبياء كلهم وتتفاضل فيه مراتبهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فأخص المراتب هو المحبة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ثم الخلة، وفي لفظها إشارة إلى ذلك من طريق مخارج الحروف وأعمها الاصطفاء، فاصطفى آدم بتعليم الصفات وجمع اليدين وإسجاد الأكوان له، ونوحا الذي هو الأب الثاني بتلك الأبوة وبما كان له مع قومه، واصطفى آل إبراهيم وهم الأنبياء من ذريته بظهور أنوار تجليه الخاص على آفاق وجودهم، وآل عمران بجعلهم آية للعالمين ذرية بعضها من بعض في الدين والحقيقة إذ الولادة قسمان: صورية ومعنوية، وكل نبي تبع نبياً في التوحيد والمعرفة وما يتعلق بالباطن من أصول الدين فهو ولده كأولاد المشايخ والولد سر أبيه، ويمكن أن يقال: آدم هو الروح في أول مقامات ظهورها، ونوح هو هي في مقامها الثاني من مقامات التنزل وإبراهيم هو القلب الذي ألقاه نمرود النفس في نيران الفتن ورماه فيها بمنجنيق الشهوات، وآله القوى الروحانية، وعمران هو العقل الإمام في بيت مقدس البدن، وآله التابعون له في ذلك البيت المقتدون به، وكل ذلك ذرية بعضها من بعض لوحدة المورد واتفاق المشرب ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عن رق النفس مخلصاً في عبادتك عن الميل إلى السوي ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قال الواسطي: محفوظ عن إدراك الخلق ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ حيث سقاها من مياه القدرة وأثمرها شجرة النبوة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ لطهارة سره، وشبيه الشيء المنجذب إليه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ هو ما علمت، ويجوز أن يراد الرزق الروحاني من المعارف والحقائق والعلوم والحكم الفائضة عليها من عند الله تعالى إذا الاختصاص بالعندية يدل على كونه أشرف من الأرزاق البدنية.

وأخرج ابن أبي حاتم من بعض الطرق عن مجاهد أنه قال: رزقاً أي علماً، وقد يقال على نحو الأول ليتم تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ وهي النفس في أول مراتب طاعتها لعمران العقل ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ وهو غلام القلب ﴿مُحَرَّرًا﴾ ليس في رق شيء من المخلوقات ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ وهي نفس أيضاً إلا أنها أكمل منها في المرتبة، والجنس يلد الجنس ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ لعلمه أنه سيظهر من هذه الأنثى العجب العجاب، وغيره سبحانه تخفى عليه الأسرار ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وهي العابدة ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وهو الشهوات النفسانية الحاجبة للنفس القدسية عن رياض الملكوت ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ وهو اختصاصه إياها بإفاضة أنواره عليها ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ورقاها فيما تكمل به نشأتها ترقياً حسناً غير مشوب بالعوائق والعلائق ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الاستعداد ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا﴾ وتوجه نحوها في محراب تعبدها المبني لها في بيت مقدس القلب ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ تتغذى به الأرواح في عالم الملكوت ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ الرزق العظيم قالت: هو مفاض من عند الله منزه عن

الحمل بيد الأفكار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الجامع لصفات الجمال والجلال ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ ويفيض عليهم من علمه حسب قابليتهم ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فسبحانه من إله جواد كريم وهاب.

محمد عبده ج ٣ ص ٢٨٦ ـ ٣٤١

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ . . .

والمسيحيون لا يعترفون بأن أبا مريم يدعى عمران ولا ضير في ذلك فإنه لا يلزم أن تكون كل حقيقة معروفة عندهم وليس لهم سند لنسب المسيح يحتج به فهو كسلسلة الطريق عند المتصوفة يزعمون أنها متصلة بعلي أو بالصديق وليس لهم في ذلك سند متصل يحتج بمثله. وأقول: إن نسب المسيح في إنجيلي متى ولوقا مختلف. ولو كتب عن علم لما وقع فيه الخلاف . . .

وهذا ما يشاغب به دعاة النصرانية عوام المسلمين مستدلين بالحديث على تفضيل عيسى على محمد: عليهما الصلاة والسلام، أو على أنه فوق البشر. فالجواب أن كتاب هؤلاء الدعاة حجة عليهم، ففي الفصل الرابع من انجيل مرقص ما نصه:

«أما يسوع فرجع من الأردن مملئاً من الروح القدس وكان يقتاد بالروح في البرية ٢ أربعين يوماً يجرب من إبليس ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام ولما تمت جاع أخيراً ٣ وقال له إبليس إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ٤ فأجابه يسوع قائلاً: مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من الله ثم أصعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ٦ وقال له إبليس لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلي قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد ٧ فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع ٨ فأجابه يسوع وقال «اذهب يا شيطان» أنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد ٩ ثم جاء به إلى أورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل ١٠ لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك ١١ وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك ١٢ فأجاب يسوع وقال له إنه قيل لا تجرب الرب إلهك ١٣ ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين» اهـ.

فهذا صريح في أن إبليس كان يوسوس للمسيح عليه السلام حتى يحمله ويأخذه من مكان إلى مكان، وقصارى الأمر أنه لم يكن يطيعه فيما أمر به من السجود له ومن امتحان الرب إلهه (أي إله المسيح) وقوله لا تجرب الرب إلهك يراد به ما ورد في سفر التثنية آخر أسفار التوراة (٦ : ١٦) ومثله قوله «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». وقوله للرب إلهك تسجد الخ وذلك مما يدل على أنه كان متبعاً للتوراة.

هذا وقد تقدم تحقيق القول في الشيطان ووسوسته في سورة البقرة (١) والمحقق عندنا أنه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين، وخبرهم الأنبياء والمرسلون، وأما ما ورد في حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما وحديث إسلام شيطان النبي ﷺ وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبه فهو من الأخبار الظنية لأنه من رواية الآحاد. ولما كان موضوعها عالم الغيب والإيمان بالغيب من قسم العقائد وهي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨] كنا غير مكلفين الإيمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا وقال بعضهم: يؤخذ فيها بأحاديث الآحاد لمن صحت عنده، ومذهب السلف في هذه الأحاديث تفويض العلم بكيفيتها إلى الله تعالى: فلا نتكلم في كيفية مس الشيطان ولا في كيفية إخراج حظه من القلب، وإنما نقول إن ما قاله الرسول حق وأنه يدل على مزية لمريم وابنها وللنبي ﷺ لا يشاركهم فيها سواهم من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، وهذه المزية لا تقتضي وحدها أن يكون كل واحد منهم أفضل من سائر عباد الله المخلصين، إذ قد يوجد في المفضول من المزايا ما لا يوجد في الفاضل، فليست مريم أفضل من إبراهيم وموسى عليهما الصلاة

والسلام لأن اختصاص الله إياهما بالنبوة والرسالة والخلة والتكليم يعلو كون الشيطان لم يمسهما عند الولادة. على أن الحديث ورد في تفسير كونه تعالى تقبل من أمها إعاذتها وذريتها من الشيطان. وهذه الإعاذة قد كانت بعد ولادتها والعلم بأنها أنثى وظاهر الحديث أن المس يكون عند الوضع. والله ورسوله أعلم بمرادها. . .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ ولا توقع من المرزوق، أو رزقاً واسعاً وأنت ترى أنه لا دليل في الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات. وإسناد المؤمنين الأمر إلى الله في مثل هذا المقام معهود في القديم والحديث.

قال الأستاذ الإمام ما مثاله مبسوطاً: أن القرآن نزل سائغاً يتسهل على كل أحد فهمه من غير حاجة إلى عناء ولا ذهاب في الدفاع عن شيء خلاف الظاهر، فعلينا أن لا نخرج عن سنته ولا نضيف إليه حكايات إسرائيلية أو غير إسرائيلية لجعل هذه القصة من خوارق العادات والبحث عن ذلك الرزق ما هو، ومن أين جاء؟ فضول لا يحتاج إليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة. ولو علم الله أن في بيانه خيراً لنا لبينه.

أما ما سيقت القصة لأجله وهو الذي يجب أن نبحث فيه، ونستخرج العبر من قوادمه وخوافيه، فهو تقرير نبوة النبي ﷺ ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصاً بشعب إسرائيل وشبهة المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر. وبيان ذلك: أن المقصد الأول من مقاصد الوحي هو تقرير عقيدة الألوهية وأهم مسائلها مسألة الوحدانية، وتقرير عقيدة البعث والجزاء وعقيدة الوحي والأنبياء. وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وإنزال الكتاب ثم كانت الآيات من أولها إلى هذه القصة أو قبيل هذه القصة في الألوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وإزالة الشبهات والأوهام في ذلك، ثم بين أن الإيمان بالله وادعاء حبه ورجاء النجاة في الآخرة والفوز بالسعادة فيها إنما تكون باتباع رسوله، وقفى على ذلك بهذه القصة التي تزيل شبه المشركين وأهل الكتاب في رسالته وتردها على وجوههم.

رد عليهم بما يعرفونه من أن آدم أبو البشر وأن الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الحيوان وتمكينه هو وذريته من تسخيرها وهذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب، ومن اصطفاه نوع وجعله أبا البشر الثاني وجعل ذريته هم الباقين، ومن اصطفاء إبراهيم وآله على البشر. فإن العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك فالأولون يفخرون بأنهم من ولد إسماعيل وعلى ملة إبراهيم كما يفخر الآخرون باصطفاء آل عمران من بني إسرائيل حفيد إبراهيم. فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر إلى أنه هو الذي اصطفى هؤلاء بغير مزية سبقت منهم تقتضي ذلك وتوجبه عليه. فإذا كان الأمر له في اصطفاء من يشاء من عباده وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم. فما المانع له من اصطفاء محمد ﷺ بعد ذلك على العالمين كما اصطفى أولئك؟ لا مانع يمنع ذلك عند من يعقل. فإن قيل إنه لم يعهد أن بعث نبياً من غير بني إسرائيل بعد وجودهم. قلنا ولم اصطفى بني إسرائيل عند وجودهم؟ أليس ذلك بمحض مشيئته؟ بلى. وبمحض مشيئته اصطفى محمداً ﷺ. فهذه المثل مسوقة لبيان أنه تعالى يصطفي من خلقه من يشاء. أما الدليل على كونه شاء اصطفاءه فاصطفاه بالفعل فهو أنه اصطفاه بالفعل إذ جعله هادياً للناس مخرجاً لهم من ظلمات الشرك والجهل والفساد، إلى نور الحق الجامع للتوحيد والعلم والصلاح، ولم يكن أثر غيره من آل إبراهيم وآل عمران في الهداية بأظهر من أثره، بل أثره أظهر، ونوره أسطع، ﷺ وعلى كل عبد مصطفى ـ وهذا بيان لوجه اتصال القصة بما قبلها من أول السورة.

ومن هذه المثل قصة مريم فإن أمها إذا كانت قد ولدتها وهي عاقر على خلاف المعهود كما نقل أو يقال إذا كان قبول الأنثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله فلماذا لا يجوز أن يرسل الله محمداً من غير بني إسرائيل على خلاف المعهود عندهم؟ ومثل هذا يقال في قصة زكريا عليه السلام الآتية ومن ذلك كله. يعلم أن أعماله تعالى لا تأتي دائماً على ما يعهد الناس ويألفون.

سيد قطب ج١ ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤

. . . وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبل ربها منها نذرها ـ وهو فلذة كبدها ـ ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله، والتوجه إليه كلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه:

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ . .

ولكنها وضعتها أنثى؛ ولم تضعها ذكراً!

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ .

لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً؛ فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان، ليخدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل. ولكن ها هي ذي تجدها أنثى؛ فتتوجه إلى ربها في نغمة أسيفة:

﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ . .

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ . .

ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة.

﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ . .

ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال:

﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ . .

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة. مناجاة من يشعر أنه منفرد بربه. يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً. وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم. حال الود والقرب والمباشرة، والمناجاة البسيطة العبارة، التي لا تكلف فيها ولا تعقيد. مناجاة من يحس أنه يحدث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً.

﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ . .

وهي الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم . .

وهذه كذلك كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص. فما تود لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم!

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ . .

جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر . . وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح، وكلمة الله، وأن تلد عيسى ـ عليه السلام ـ على غير مثال من ولادة البشر.

﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ . .

أي جعل كفالتها له، وجعله أميناً عليها . . وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي. من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل.

ونشأت مباركة مجدودة. يهيىء لها الله من رزقه فيضاً من فيوضاته:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ولا نخوض نحن في صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة. فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً. حتى ليعجب كافلها ـ وهو نبي ـ من فيض الرزق. فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر إليه كله:

﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه. والتواضع في الحديث عن هذا السر. لا التنفج به والمباهاة! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي تثير عجب نبي الله زكريا. هي التمهيد للعجائب التي تليها في ميلاد يحيى وميلاد عيسى . .

٦

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ . يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ . ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ . إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ . وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ . ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ . وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ . ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾

(سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٤٢ ـ ٥٩)

مصادر تفاسير الآية

التفسير	الجزء	الصفحات
الطبري	ج ٣	ص ١٧٩ ـ ٢٠٩
الزمخشري	ج ١	ص ٤٢٩ ـ ٤٣٣
الرازي	ج ٨	ص ٤٢ ـ ٧٦
الطبرسي	ج ٣	ص ٧٦ ـ ١٠٢
ابن عربي	ج ١	ص ١٨٤ ـ ١٩٣
البيضاوي	ج ٢	ص ١٨ ـ ٢٢
الخازن	ج ١	ص ٣٤٦ ـ ٣٥٩
البغوي	ج ١	ص ٢٣١ ـ ٢٤٠
الماوردي	ج ١	ص ٣٩٢ ـ ٣٩٨
القرطبي	ج ٤	ص ٨٢ ـ ١٠٣
أبو حيان الاندلسي	ج ٢	ص ٤٥٤ ـ ٤٧٨
ابن كثير	ج ١	ص ٣٦٢ ـ ٣٦٨
الجلالان		ص ٦٩ ـ ٧٢
الشوكاني	ج ١	ص ٣٣٦ ـ ٣٤٨
الآلوسي	ج ٣	ص ١٥٤ ـ ١٨٧
القاسمي	ج ٤	ص ٩٦ ـ ١١١
محمد عبده	ج ٣	ص ٢٩٩ ـ ٣٢١
الطباطبائي	ج ٣	ص ٢٠٣ ـ ٢٤٢
جوهري	ج ٢	ص ١٠٤ ـ ١٢٨
المراغي	ج ٣	ص ١٤٩ ـ ١٧٤
سيد قطب	ج ١	ص ٣٩٥ ـ ٤٠٥

الطبري ج ٣ ـ ص ١٧٩ ـ ٢٠٩

القول في تأويل قوله ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ ومعنى قوله ﴿ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ اختارك واجتباك لطاعته وما خصك به من كرامته وقوله ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ يعني طهر دينك من الريب والأدناس التي في أديان نساء بني آدم. ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني اختارك على نساء العالمين في زمانك بطاعتك إياه ففضلك عليهم كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» يعني بقوله خير نسائها خير نساء أهل الجنة. حدثني بذلك الحسين بن علي الصدائي... عن عبد الله بن جعفر قال سمعت علياً بالعراق يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة». حدثني يونس... عن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال «خير نساء الجنة مريم بنت عمران وخير نساء الجنة خديجة بنت خويلد». حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول «حسبك بمريم بنت عمران وامرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد من نساء العالمين» قال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول «خير نساء ركبن الإبل صوالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده» قال قتادة وذكر لنا أنه كان يقول «لو علمت أن مريم ركبت الإبل ما فضلت عليها أحداً». حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال كان أبو هريرة يحدّث أن النبي ﷺ قال «خير نساء ركبن الإبل صلح نساء قريش أحناه على ولد وأرعاه لزوج في ذات يد». قال أبو هريرة ولم تركب مريم بعيراً قط. حدثت عن عمار قال ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه قوله ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال كان ثابت البناني يحدّث عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». حدثني المثنى... عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». حدثني المثنى. عن محمد بن عبد الرحمن بن عمرو بن عثمان أن فاطمة بنت حسين بن علي حدثته أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت «دخل رسول الله ﷺ يوماً وأنا عند عائشة فناجاني فبكيت ثم ناجاني فضحكت فسألتني عائشة عن ذلك فقلت لقد عجلت أخبرك بسر رسول الله ﷺ فتركتني فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عائشة فقالت نعم ناجاني فقال جبريل كان يعارض القرآن كل عام مرة وأنه قد عارض القرآن مرتين وأنه ليس من نبي إلا عمر نصف عمر الذي كان قبله وإن عيسى أخي كان عمره عشرين ومائة سنة وهذه لي ستون وأحسبني ميتاً في عامي هذا وأنه لم ترزأ امرأة من نساء العالمين بمثل ما رزئت ولا تكوني دون امرأة صبراً قالت فبكيت ثم قال أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول فتوفي عامه ذلك». حدثني المثنى قال... أنه سمع عمار بن سعد يقول قال رسول الله ﷺ «فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين». وبمثل الذي قلنا في معنى قوله وطهرك أنه وطهر دينك من الدنس والريب. قال مجاهد حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ ﴾ قال جعلك طيبة إيماناً. حدثني المثنى قال ثنا أبو حذيفة قال ثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال ذلك للعالمين يومئذ. وكانت الملائكة فيما ذكر ابن اسحق تقول ذلك لمريم شفاها. حدثنا ابن حميد قال... حدثنا ابن اسحق قال كانت مريم حبيساً في الكنيسة ومعها في الكنيسة غلام اسمه يوسف وقد كان أمه وأبوه جعلاه نذيراً حبيساً فكانا

في الكنيسة جميعاً وكانت مريم إذا نفد ماؤها وماء يوسف أخذا قلتيهما فانطلقا إلى المغارة التي فيها الماء الذي يستعذبان منه فيملآن قلتيهما ثم يرجعان إلى الكنيسة والملائكة في ذلك مقبلة على مريم ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فإذا سمع ذلك زكريا قال: إن لابنة عمران لشأناً. القول في تأويل قوله ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ـ خبراً عن قيل ملائكته ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ ـ أخلصي الطاعة لربك وحده وقد دللنا على معنى «القنوت» بشواهده فيما مضى قبل والاختلاف بين أهل التأويل فيه في هذا الموضع نحو اختلافهم فيه هنالك. وسنذكر قول بعضهم أيضاً في هذا الموضع، فقال بعضهم معنى اقنتي أطيلي الركود، ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو قال... عن مجاهد ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال أطيلي الركود يعني القنوت، حدثني المثني... عن مجاهد مثله حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال قال مجاهد أطيلي الركود في الصلاة يعني القنوت. حدثني المثنى... عن مجاهد قال لما قيل لها ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قامت حتى ورم كعباها. حدثنا القاسم... عن مجاهد قال لما قيل لها يا مريم اقنتي لربك قامت حتى ورمت قدماها حدثني المثنى قال... عن مجاهد ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال أطيلي الركود. حدثت عن عمار... عن الربيع ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال القنوت الركود يقول: قومي لربك في الصلاة، يقول: اركدي لربك أي انتصبي له في الصلاة واسجدي واركعي مع الراكعين. حدثني محمد بن سنان... عن مجاهد ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: كانت تصلي حتى ترم قدماها. حدثنى ابن البرقي قال ثنا عمرو قال: ثنا الأوزاعي ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال: كانت تقوم حتى يسيل القيح من قدميها.

وقال آخرون معناه: أخلصي لربك ذكر من قال ذلك حدثنى المثنى... عن سعيد ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال أخلصي لربك. وقال آخرون معناه أطيعي ربك ذكر من قال: ذلك حدثني الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال أطيعي ربك. حدثني موسى عن السدي اقنتي لربك أطيعي ربك حدثني المثنى عن أبي سعيد الخدري... عن النبي ﷺ قال: «كل حرف يذكر فيه القنوت من القرآن فهو طاعة لله». حدثني محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ قال يقول إعبدي ربك. قال أبو جعفر وقد بينا أيضاً معنى «الركوع» و«السجود» بالأدلة الدالة على صحته وأنهما بمعنى الخشوع لله والخضوع له بالطاعة والعبودية فتأويل الآية إذاً يا مريم أخلصي عبادة ربك لوجهه خالصاً واخشعي لطاعته وعبادته مع من خشع له من خلقه شكراً له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتطهير من الأدناس والتفضيل على نساء عالم دهرك.

القول في تأويل قوله ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ذلك الأخبار التي أخبر بها عباده عن امرأة عمران وابنتها مريم وزكريا وابنه يحيى وسائر ما قص في الآيات من قوله إن الله اصطفى آدم ونوحاً ثم جمع جميع ذلك تعالى ذكره بقوله ذلك فقال هذه الأنباء من أنباء الغيب أي من أخبار الغيب ويعني بالغيب أنها من خفّي أخبار القوم التي لم تطلع أنت يا محمد عليها ولا قومك ولم يعلمها إلا قليل من أحبار أهل الكتابين ورهبانهم ثم أخبر تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ أنه أوحى ذلك إليه حجة على نبوته وتحقيقاً لصدقه وقطعاً منه به عذر منكري رسالاته من كفار أهل الكتابين الذين يعلمون أن محمداً لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خمولها عند أهلها إلا بإعلام الله ذلك إياه، إذ كان معلوماً عندهم أن محمداً ﷺ أمي لا يكتب فيقرأ الكتب، فيصل إلى علم ذلك من قبل الكتب ولا صاحب أهل الكتب فيأخذ علمه من قبلهم وأما «الغيب» فمصدر من قول القائل: «غاب فلان عن كذا فهو يغيب عنه غيباً وغيبة» وأما قوله نوحيه إليك فإن تأويله: ننزله إليك وأصل «الإيحاء» إلقاء الموحي إلى الموحى إليه، وذلك قد يكون بكتاب وإشارة وإيماء وبإلهام وبرسالة كما قال جل ثناؤه ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: ٦٨] بمعنى: ألقى ذلك إليها فألهمها وكما قال ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى

﴿ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١] بمعنى ألقيت إليهم علم ذلك إلهاماً، وكما قال الراجز:

* أوحى لها القرار فاستقرت *

بمعنى ألقى إليها ذلك أمراً، وكما قال جل ثناؤه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] بمعنى: فألقى ذلك إليهم إيماء. والأصل فيه ما وصفت من إلقاء ذلك إليهم. وقد يكون القاؤه ذلك إليهم إيماء ويكون بكتاب. ومن ذلك قوله ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] يلقون إليهم ذلك وسوسة، وقوله ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ألقى إليّ بمجيء جبريل عليه السلام به إليّ من عند الله عز وجل. وأما الوحي فهو الواقع من الموحي إلى الموحى إليه، ولذلك سمت العرب الخط والكتاب «وحياً» لأنه واقع فيما كتب ثابت فيه كما قال كعب بن زهير:

أتى العجم والآفاق منه قصائد

بقين بقاء الوحي في الحجر الأصم

يعني به: الكتاب الثابت في الحجر. وقد يقال في الكتاب خاصة إذا كتبه الكاتب. «وحي» بغير ألف ومنه قول رؤبة:

كأنه بعد رياح تدهَمُهُ

ومرثَعِنّاتِ الدُّجونِ تَثِمُه

انجيلُ أحبار روحي منمنمه

القول في تأويل قوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وما كنت، يا محمد، عندهم فتعلم ما نعلمكه من أخبارهم التي لم تشهدها، ولكنك إنما تعلم ذلك فتدرك معرفته بتعريفناكهُ. ومعنى قوله ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم. ومعنى قوله ﴿إِذْ يُلْقُونَ﴾ حين يلقون أقلامهم. وأما أقلامهم فسهامهم التي استهم بها المستهمون من بني إسرائيل على كفالة مريم على ما قد بينا قبل في قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثني المثنى... عن قتادة في قوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ يعني محمداً ﷺ حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد ﴿يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ زكريا وأصحابه استهموا بأقلامهم على مريم حين دخلت عليهم. حدثني المثنى... عن مجاهد مثله. حدثنا بشر... عن قتادة قوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاح عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا وكان زوج أختها فكفلها زكريا يقول: ضمها إليه، حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ قال تساهموا على مريم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ وإن مريم لما وضعت في المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها فقال الله عز وجل لمحمد ﷺ ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾. حدثت عن الحسين... قال سمعت الضحاك يقول في قوله ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ اقترعوا بأقلامهم أيهم يكفل مريم فقرعهم زكريا. حدثنا محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ قال حيث اقترعوا على مريم وكان غيباً عن محمد ﷺ حين أخبره الله. وإنما قيل ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ لإن إلقاء المستهمين أقلامهم على مريم إنما كان لينظروا أيهم أولى بكفالتها وأحق. ففي قوله عز وجل ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ دلالة على محذوف من الكلام وهو «لينظروا أيهم يكفل وليتبينوا ذلك ويعلموه» فإن ظن ظانّ أن الواجب في ﴿أَيُّهُمْ﴾ النصب إذ كان ذلك معناه فقد ظن خطأ وذلك أن «النظر» و«التبين» و«العلم» مع «أيّ» يقتضي استفهاماً واستخباراً، وحظ أيّ في الاستخبار، الابتداء وبطول عمل المسئلة والاستخبار عنه. وذلك أن معنى قول القائل «لأنظرن أيهم قام» لأستخبرنّ الناس أيهم قام وكذلك قولهم «لأعلمن». وقد دللنا فيما مضى قبل أن معنى ﴿يَكْفُلُ﴾ يضم بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

القول في تأويل قوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه وما كنت يا محمد عند قوم مريم إذ

يختصمون فيها أيهم أحق بها وأولى. وذلك من الله عز وجل وإن كان خطاباً لنبيه ﷺ فتوبيخ منه عز وجل للمكذبين به من أهل الكتابين. يقول كيف يشك أهل الكفر بك منهم وأنت تنبئهم هذه الأنباء ولم تشهدها ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمور ولست ممن قرأ الكتب فعلم نبأهم ولا جالس أهلها فسمع خبرهم. كما حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ أي ما كنت معهم إذ يختصمون فيها. يخبره بخفّي ما كتموا منه من العلم عندهم لتحقيق نبوته والحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه. القول في تأويل قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ وما كنت لديهم إذ يختصمون وما كنت لديهم أيضاً إذ قالت الملائكة ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ والتبشير إخبار المرء بما يسره من خبر وقوله ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ يعني برسالة من الله وخبر من عنده وهو من قول القائل «ألقى فلان إليّ كلمة سرني بها» بمعنى أخبرني خبراً فرحت به كما قال جل ثناؤه ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ [النساء: ١٧١] يعني بشر الله مريم بعيسى ألقاها إليها. فتأويل الكلام وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولد لك اسمه المسيح عيسى بن مريم. وقد قال قوم وهو قول قتادة إن الكلمة التي قال الله عز وجل ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ هو قوله كن. حدثنا بذلك الحسن بن يحيى. . . عن قتادة قوله ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ قال قوله كن فسماه الله عز وجل كلمته لإنه كان عن كلمته كما يقال لما قدر الله من شيء «هذا قدر الله وقضاؤه» يعني به هذا عن قدر الله وقضائه حدث وكما قال جل ثناؤه ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [النساء: ٤٧] يعني به ما أمر الله به وهو المأمور [به] الذي كان عن أمر الله عز وجل. وقال آخرون بل هي اسم لعيسى سماه الله بها كما سمى سائر خلقه بما شاء من الأسماء. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال الكلمة هي عيسى. حدثنا ابن وكيع. . . عن ابن عباس في قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ قال عيسى هو الكلمة من الله. وأقرب الوجوه إلى الصواب عندي القول الأول وهو أن الملائكة بشرت مريم بعيسى عن الله عز وجل برسالته وكلمته التي أمرها أن تلقيها إليها أن الله خالق منها ولداً من غير بعل ولا فحل ولذلك قال عز وجل ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ فذكر ولم يقل اسمها فيؤنث والكلمة مؤنثة لإن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذي هو بمعنى فلان وإنما هي بمعنى البشارة فذكرت كنايتها كما تذكر كناية الذريّة والدابة والألقاب على ما قد بيناه قبل فيما مضى. فتأويل ذلك كما قلنا آنفاً من أن معنى ذلك إن الله يبشرك ببشرى ثم بين عن البشرى أنها ولد اسمه المسيح. وقد زعم بعض نحويي البصرة أنه إنما ذكر فقال ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ وقد قال ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ والكلمة عنده هي عيسى لإنه في المعنى كذلك كما قال جل ثناؤه ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ ﴾ [الزمر: ٥٦] ثم قال ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا ﴾ [الزمر: ٥٩] وكما يقال ذو الثدية لإن يده كانت قصيرة قريبة من ثدييه فجعلها كأن اسمها ثدية ولولا ذلك لم تدخل الهاء في التصغير. وقال بعض نحويي الكوفة نحو قول من ذكرنا من نحويي البصرة في أن الهاء من ذكر الكلمة وخالفه في المعنى الذي من أجله ذكر قوله ﴿ ٱسْمُهُ ﴾ والكلمة متقدمة قبله. فزعم أنه إنما قيل ﴿ ٱسْمُهُ ﴾ وقد قدمت الكلمة ولم يقل اسمها لأن من شأن العرب أن تفعل ذلك فيما كان من النعوت والألقاب والأسماء التي لم توضع لتعريف المسمى به كفلان وفلان وذلك مثل الذريّة والخليقة والدابة ولذلك جاز عنده أن يقال ذرية طيبة وذريّة طيباً ولم يجز أن يقال «طلحة أقبلت ومغيرة قامت». وأنكر بعضهم اعتلال من اعتل في ذلك بذي الثدية وقالوا إنما أدخلت الهاء في ذي الثدية لأنه أريد بذلك القطعة من الثدي كما قيل «كنا في لحمة ونبيذة» يراد به القطعة منه وهذا القول نحو قولنا الذي قلناه في ذلك: وأما قوله ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ فإنه جل ثناؤه أنبأ عباده عن نسبة عيسى وأنه ابن أمه مريم ونفى بذلك عنه ما أضاف إليه الملحدون في الله جل ثناؤه من النصارى من إضافتهم بنوّته إلى الله عز وجل وما قذفت أمه به المفترية عليها من اليهود كما حدثني به ابن حميد. . . عن محمد

بن جعفر بن الزبير ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ أي هكذا كان أمره لا ما يقولون فيه. وأما ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ فإنه فعيل صرف من مفعول إلى فعيل وإنما هو ممسوح يعني مسحه الله فطهره من الذنوب ولذلك قال ابراهيم ﴿ ٱلْمَسِيحُ ﴾ الصديق وقال آخرون مسح بالبركة. حدثنا ابن وكيع... عن إبراهيم مثله. حدثنا ابن حميد عن إبرهيم مثله. حدثنا ابن البرقي... عن سعيد إنما سمي المسيح لإنه مسح بالبركة. القول في تأويل قوله ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يعنـي بقـولـه ﴿ وَجِيهًا ﴾ ذا وجه ومنزلة عالية عند الله وشرف وكرامة ومنه يقال للرجل الذي يشرف وتعظمه الملوك والناس وجيه يقال منه «ما كان فلان وجيهاً ولقد وجه وجاهة»، «وإن له لوجهاً عند السلطان وجاهاً ووجاهة» والجاه مقلوب قلبت واوه من أوّله إلى موضع العين منه فقيل جاه وإنما هو وجه وفعل من الجاه جاه يجوه مسموع من العـرب «أخـاف أن يجـوهنـي بـأكثـر مـن هـذا» بمعنـى أن يستقبلني في وجهي بأعظم منه. وأما نصب الوجيه فعلى القطع من عيسى لإن عيسى معرفة ووجيه نكرة وهو من نعته ولو كان مخفوضاً على الرد على الكلمة كان جائزاً. وكما قلنا من أن تأويل ذلك وجيهاً في الدنيا والآخرة عند الله قال فيما بلغنا محمد بن جعفر. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ وَجِيهًا ﴾ قال وجيهاً في الدنيا والآخرة عند الله. وأما قوله ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ فإنه يعني أنه ممن يقربه الله يوم القيامة فيسكنه في جواره ويدنيه منه كما حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة قوله ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يقول من المقربين عند الله يوم القيامة حدثت عن عمار بن الحسن... عن الربيع قوله ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ يقول من المقربين عند الله يوم القيامة. حدثني المثنى... عن الربيع مثله.

القـول فـي تـأويـل قـولـه ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ أما قوله ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ فإن معناه إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً عند الله ومكلماً الناس في المهد.

فـ ﴿ وَيُكَلِّمُ ﴾ وإن كان مرفوعاً لأنه في صورة يفعل بالسلامة من العوامل فيه فإنه في موضع نصب وهو نظير قول الشاعر:

بـــت أعشيهـــا بعضـــب بـــاتـــر
يقصـــد فـــي أســـوقهـــا وجـــائـــر

وأما المهد فإنه يعني به مضجع الصبي في رضاعه كما حدثنا القاسم... عن ابن عباس ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ قال مضجع الصبي في رضاعه. وأما قوله ﴿ وَكَهْلًا ﴾ فإنه ومحتنكاً فوق الغلومة ودون الشيخوخة يقال منه رجل كهل وامرأة كهلة كما قال الراجز:

ولا أعـــود بعـــدهـــا كـــريـــا
أمـــارس الكهلـــة والصبيـــا

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ ويكلم الناس طفلاً في المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها وحجة له على نبوّته وبالغاً كبيراً بعد احتناكه بوحي الله الذي يوحيه إليه وأمره ونهيه وما ينزل عليه من كتابه. وإنما أخبر الله عز وجل عبده بذلك من أمر المسيح وأنه كذلك كان وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولاً وشيوخاً احتجاجاً به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى بالباطل وأنه كان منذ أنشأه مولوداً طفلاً ثم كهلاً يتقلب في الأحداث ويتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام من صغر إلى كبر ومن حال إلى حال وأنه لو كان كما قال الملحدون فيه كان ذلك غير جائز عليه فكذب بذلك ما قاله الوفد من أهل نجران الذين حاجوا رسول الله ﷺ فيه واحتج به عليهم لنبيه محمد ﷺ وأعلمهم أنه كان كسائر بني آدم إلا ما خصه الله به من الكرامة التي أبانه بها منهم، كما حدثنا ابن حميد.. عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يخبرهم بحالاته التي يتقلب بها في عمره كتقلب بني آدم في أعمارهم صغاراً وكباراً إلا أن الله خصه بالكلام في مهده آية لنبوّته وتعريفاً للعباد مواقع قدرته. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يقول يكلمهم صغيراً وكبيراً. حدثني المثنى... عن الربيع ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ

﴿وَكَهْلًا﴾ قال يكلمهم صغيراً وكبيراً. حدثني محمد بن عمرو. . . عن مجاهد ﴿وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ قال الكهل الحليم. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قال كلمهم صغيراً وكبيراً وكهلاً وقال ابن جريج وقال مجاهد الكهل الحليم. حدثني محمد بن سنان. . . عن الحسن في قوله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ قال كلمهم في المهد صبياً وكلمهم كبيراً. وقال آخرون معنى قوله ﴿وَكَهْلًا﴾ أنه سيكلمهم إذا ظهر. ذكر من قال ذلك حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال سمعته يعني ابن زيد يقول في قوله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ قال قد كلمهم عيسى في المهد وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل. ونصب ﴿وَكَهْلًا﴾ عطفاً على موضع ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ وأما قوله ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فإنه يعني من عدادهم وأوليائهم لإن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل. القول في تأويل قوله ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه قالت مريم إذ قالت لها الملائكة إن الله يبشرك بكلمة منه ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ من أيّ وجه يكون لي ولد أمن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه أو تبتدىء فيّ خلقه من غير بعل ولا فحل ومن غير أن يمسني بشر؟ فقال الله لها ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني هكذا يخلق الله منك ولداً لك من غير أن يمسك بشر، فيجعله آية للناس وعبرة، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد فيعطي الولد من يشاء من غير فحل ومن فحل، ويحرم ذلك من يشاء من النساء، وإن كانت ذات بعل لإنه لا يتعذر عليه خلق شيء أراد خلقه إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئاً ما أراد فيقول له ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ما شاء مما يشاء، وكيف شاء كما حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من بشر أو غير بشر، أي ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ مما يشاء وكيف يشاء ﴿فَيَكُونُ﴾ ما أراد. القول في تأويل قوله ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والمدينة وبعض قراء الكوفيين ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ بالياء ردّاً على قوله ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ فألحقوا الخبر في قوله ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ بنظير الخبر في قوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقوله ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وبعض البصريين ونعلمه بالنون عطفاً به على قوله ﴿نوحيه إليك﴾ كأنه قال ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤] ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ وقالوا ما بعد نوحيه في صلته إلى قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ثم عطف بقوله ونعلمه عليه. والصواب من القول في ذلك عندنا أنهما قراءتان مختلفتان غير مختلفتيَ المعاني فبأيتهما قرأ القارىء فهو مصيب الصواب في ذلك لاتفاق معنى القراءتين في أنه خبر عن الله بأنه يعلم عيسى الكتاب وما ذكر أنه يعلمه. وهذا ابتداء خبر من الله عز وجل لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به من الكرامة ورفعة المنزلة والفضيلة، فقال كذلك الله يخلق منك ولداً من غير فحل ولا بعل فيعلمه الكتاب وهو الخط الذي يخطه بيده، والحكمة وهي السنة التي نوحيها إليه في غير كتاب، والتوراة وهي التوراة التي أنزلت على موسى كانت فيهم من عهد موسى، والإنجيلَ انجيل عيسى ولم يكن قبله ولكن الله أخبر مريم قبل خلق عيسى أنه موحيه إليه، وإنما أخبرها بذلك فسماه لها لأنها قد كانت علمت فيما نزل من الكتب أن الله باعث نبياً يوحى إليه كتاباً اسمه الإنجيل، فأخبرها الله عز وجل أن ذلك النبي ﷺ الذي سمعت بصفته الذي وعد أنبياءه من قبل أنه منزل عليه الكتاب الذي يسمى انجيلاً هو الولد الذي وهبه لها وبشرها به. وبنحو ما قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج ونعلمه الكتاب قال بيده. حدثنا بشر. . . عن قتادة ونعلمه الكتاب والحكمة، قال الحكمة السنة حدثنا المثنى. . . عن قتادة في قوله ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، قال ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ قال كان عيسى يقرأ التوراة والإنجيل. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج ونعلمه الكتاب والحكمة، قال

الحكمة السنة. حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير قال أخبرها يعني أخبر الله مريم ما يريد به فقال ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ التي كانت فيهم من عهد موسى ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ كتاباً آخر أحدثه إليه لم يكن عندهم علمه إلا ذكره أنه كائن من الأنبياء قبله.

القول في تأويل قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿وَرَسُولًا﴾ ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل فترك ذكر ونجعله لدلالة الكلام عليه كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى
متقلداً سيفاً ورمحا

وقوله ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبي وبشير ونذير وحجتي على صدقي على ذلك ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بعلامة من ربكم تحقق قولي وتصدّق خبري أني رسول من ربكم إليكم كما حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي يحقق بها نبوتي وأني رسول منه إليكم.

القول في تأويل قوله ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ثم بين عن الآية ما هي فقال ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾. فتأويل الكلام ورسولاً إلى بني إسرائيل بأني قد جئتكم بآية من ربكم بأن أخلق لكم من الطين كهيئة الطير و﴿ٱلطَّيْرِ﴾ جمع طائر. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأه بعض أهل الحجاز «كهيئة الطائر فانفخ فيه فيكون طائراً» على التوحيد. وقرأه آخرون ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ على الجماع فيهما. وأعجب القراآت إليّ في ذلك قراءة من قرأ ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا﴾ على الجماع فيهما جميعاً لإن ذلك كان من صفة عيسى أنه يفعل ذلك بإذن الله وأنه موافق لخط المصحف واتباع خط المصحف. مع صحة المعنى واستفاضة القراءة به أعجب إليّ من خلاف المصحف. وكان خلق عيسى ما كان يخلق من الطير كما حدثنا ابن حميد. . . عن ابن اسحق أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوماً مع غلمان من الكتاب فأخذ طيناً ثم قال أجعل لكم من هذا الطين طائراً قالوا وتستطيع ذلك قال نعم بإذن ربي. ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر نفخ فيه ثم قال «كن طائراً بإذن الله» فخرج يطير بين كفيه، فخرج الغلمان بذلك من أمره فذكروه لمعلمهم، فافشوه في الناس وترعرع، فهمت به بنو إسرائيل، فلما خافت أمه عليه حملته على حمير لها ثم خرجت به هاربة. وذكر أنه لما أراد أن يخلق الطير من الطين سألهم أيّ الطير أشدّ خلقاً، فقيل له الخفاش كما حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قال قوله ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ قال أيّ الطير أشدّ خلقاً قالوا الخفاش إنما هو لحم قال ففعل فإن قال قائل وكيف قيل ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ وقد قيل ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ قيل لإن معنى الكلام فأنفخ في الطير ولو كان ذلك، فأنفخ فيها كان صحيحاً جائزاً كما قال في المائدة ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ [المائدة: ١١٠] يريد فأنفخ في الهيئة، وقد ذكر أن ذلك في إحدى القراءتين فأنفخها بغير في وقد تفعل العرب مثل ذلك فتقول «ربّ ليلة قد بتها وبت فيها» قال الشاعر:

ما شق جيب ولا قامتك نائحة
ولا بكتك جياد عند أسلاب

بمعنى ولا قامت عليك. وكما قال آخر:

إحدى بني عيذالله استمر بها
حلو العصارة حتى ينفخ الصور

القول في تأويل قوله ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ يعني بقوله ﴿وَأُبْرِئُ﴾ وأشفي يقال منه أبرأ الله المريض إذا شفاه منه فهو يبرئه ابراء الأكمه، وبرأ المريض فهو يبرأ برأ، وقد يقال أيضاً بريء المريض فهو يبرأ لغتان معروفتان. واختلف أهل التأويل في معنى الأكمه فقال بعضهم هو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار. ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو. . . عن مجاهد في قوله ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قال الأكمه الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل فهو يتكمه. حدثني المثنى. . . عن مجاهد مثله. وقال آخرون هو الأعمى

الذي ولدته أمه كذلك. ذكر من قال ذلك. حدثنا بشر قال... عن قتادة قال كنا نحدّث أن ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الذي ولد وهو أعمى مضموم العينين. حدثني المثنى... عن قتادة في قوله ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ قال كنا نحدّث أن الأكمه الذي ولد وهو أعمى مضموم العينين. حدثت عن المنجاب... عن ابن عباس قال الأكمه الذي يولد وهو أعمى. وقال آخرون بل هو الأعمى. ذكر من قال ذلك حدثني موسى بن هرون عن السدي ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ هو الأعمى. حدثنا القاسم... عن ابن عباس الأعمى. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قال الأكمه الأعمى حدثني محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قال الأعمى. وقال آخرون هو الأعمش. ذكر من قال ذلك حدثني المثنى... عن عكرمة في قوله ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قال الأعمش. والمعروف عند العرب من معنى الكمه العمى يقال منه «كمهت عينه فهي تكمه كمهاً وأكمتها أنا» إذا أعميتها كما قال سويد بن أبي كاهل:

كمهت عيناه حتى ابيضتا
فهو يلحى نفسه لما نزع

ومنه قول رؤبة:

هرّجت فارتد ارتداد الأكمه
في غائلات الحائر المتهته

وإنما أخبر الله عز وجل عن عيسى صلوات الله عليه أنه يقول ذلك لبني إسرائيل احتجاجاً منه بهذه العبر والآيات عليهم في نبوته وذلك أن الكمه والبرص لا علاج لهما فيقدر على ابرائه ذو طب بعلاج. فكان ذلك من أدلته على صدق قيله إنه لله رسول لأنه من المعجزات مع سائر الآيات التي أعطاها الله إياها دلالة على نبوته. فأما ما قال عكرمة من أن الكمه العمش، وما قاله مجاهد من أنه سوء البصر بالليل فلا معنى لهما. لإن الله لا يحتج على خلقه بحجة تكون لهم السبيل إلى معارضته فيها، ولو كان مما احتج به عيسى على بني اسرائيل في نبوته أنه يبرىء الأعمش، أو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل لقدروا على معارضته بأن يقولوا «وما في هذا لك من الحجة وفينا خلق ممن يعالج ذلك وليسوا لله أنبيا ولا رسلا» ففي ذلك دلالة بينة على صحة ما قلنا من أن ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ هو الأعمى الذي لا يبصر شيئاً لا ليلاً ولا نهاراً، وهو بما قال قتادة من أنه المولود كذلك أشبه لأن علاج مثل ذلك لا يدّعيه أحد من البشر إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطى عيسى، وكذلك علاج الأبرص.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. وكان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله يدعو لهم فيستجيب له كما حدثني محمد بن سهل بن عسكر... عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبه يقول لما صار عيسى ابن اثنتي عشرة سنة أوحى الله إلى أمه وهي بأرض مصر، وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر أن اطلعي به إلى الشام. ففعلت الذي أمرت به فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله إليه قال وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله. وأما قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنه يعني وأخبركم بما تأكلون مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكموه ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ يعني بذلك وما ترفعونه فتخبؤنه ولا تأكلونه. يعلمهم أن من حجته أيضاً على نبوته مع المعجزات التي أعلمهم أنه يأتي بها حجة على نبوته، وصدقه في خبره أن الله أرسله إليهم من خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله التي لا يطيقها أحد من البشر إلا من أعطاه الله ذلك علماً له على صدقه، وآية له على حقيقة قوله من أنبيائه ورسله ومن أحب من خلقه إنباءه عن الغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر الذين سبيلهم سبيله عليه. فإن قال قائل وما كان في قوله لهم ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ من الحجة له على صدقه وقد رأينا المتنجمة والمتكهنة تخبر بذلك كثيراً فتصيب؟ قيل أن المتنجم والمتكهن معلوم منهما عند من يخبره بذلك أنهما ينبئان به

عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه، ومن سائر أنبياء الله ورسله، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باحتيال ولكن ابتدأ بإعلام الله إياه من غير أصل تقدم ذلك احتذاه، أو بنى عليه، أو فزع إليه كما يفزع المتنجم إلى حسابه، والمتكهن إلى رئيه فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وأخبارهم عنها، وبين علم سائر المتكذبة على الله أو المدعية علم ذلك. كما حدثنا ابن حميد. . . عن ابن اسحق قال لما بلغ عيسى تسع سنين أو عشراً أو نحو ذلك أدخلته أمه الكتاب فيما يزعمون، فكان عند رجل من المكتبين يعلمه كما يعلم الغلمان فلا يذهب، يعلمه شيئاً مما يعلمه الغلمان إلا بدره إلى علمه قبل أن يعلمه إياه، فيقول ألا تعجبون لابن هذه الأرملة ما أذهب أعلمه شيأ إلا وجدته أعلم به مني! حدثني موسى. . . عن السدّي لما كبر عيسى أسلمته أمه يتعلم التوراة، فكان يلعب مع الغلمان، غلمان القرية التي كان فيها فيحدّث الغلمان بما يصنع آباؤهم. حدثني يعقوب بن إبراهيم. . . عن سعيد بن جبير في قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال كان عيسى ابن مريم إذ كان في الكتاب يخبرهم بما يأكلون في بيوتهم، وما يدّخرون. حدثنا القاسم. . . عن سعيد بن جبير يقول ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال أن عيسى ابن مريم كان يقول للغلام في الكتاب «يا فلان أن أهلك قد خبؤا لك كذا وكذا من الطعام فتطعمني منه». فهكذا فعل الأنبياء وحججها إنما تأتي بما أتت به من الحجج بما قد يوصل إليه ببعض الحيل على غير الوجه الذي يأتي به غيرها بل من الوجه الذي يعلم الخلق أنه لا يوصل إليه من ذلك الوجه بحيلة إلا من قبل الله. وبنحو ما قلنا في تأويل قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو. . . عن مجاهد في قول الله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال بما أكلتم البارحة، وما خبأتم منه عيسى ابن مريم بقوله. حدثني المثنى. . . عن مجاهد مثله. حدثنا القاسم. . . عن عطاء ابن أبي رباح يعني قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال الطعام والشيء يدخرونه في بيوتهم غيباً علمه الله إياه. حدثني المثنى. . . عن الربيع في قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال ما تأكلون ما أكلتم البارحة من طعام، وما خبأتم منه. حدثني موسى بن هرون. . . عن السدّي قال كان يعني عيسى ابن مريم يحدّث الغلمان وهو معهم في الكتاب بما يصنع آباؤهم وبما يرفعون لهم وبما يأكلون. ويقول للغلام انطلق فقد رفع لك أهلك كذا وكذا وهم يأكلون كذا وكذا، فينطلق الصبي فيبكي على أهله حتى يعطوه ذلك الشيء، فيقولون له من أخبرك بهذا، فيقول عيسى فذلك قول الله عز وجل ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليس هم ههنا، فقال ما في هذا البيت؟ فقالوا خنازير، قال عيسى كذلك يكونون، ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير فذلك قوله ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] حدثني محمد بن سنان. . . عن الحسن في قوله ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال ما تخبؤن مخافة الذي يمسك أن لا يخلفه شيء. وقال آخرون إنما عني بقوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ما تأكلون من المائدة التي تنزل عليكم وما تدخرون منها. ذكر من قال ذلك حدثنا بشر بن معاذ. . . عن قتادة قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فكان القوم لما سألوا المائدة فكانت حراباً ينزل عليه أينما كانوا ثمراً من ثمار الجنة فأمر القوم أن لا يخونوا فيه ولا يخبؤا ولا يدخروا لغد بلاء ابتلاهم الله به، فكانوا إذا فعلوا من ذلك شيئاً أنبأهم به عيسى ابن مريم، فقال ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ حدثنا الحسن بن يحيى. . . عن قتادة في قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ قال أنبئكم بما تأكلون من المائدة وما تدّخرون منها قال فكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا فادخروا وخانوا، فجعلوا خنازير حين ادخروا وخانوا فذلك قوله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا

﴿أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]. قال ابن يحيى... عن عمار بن ياسر ذلك وأصل يدخرون من الفعل يفتعلون من قول القائل ذخرت الشيء بالذال فأنا أذخره ثم قيل يدّخر كما قيل يدّكر من ذكرت الشيء يراد به يذتخر، فلما اجتمعت الذال والتاء وهما متقاربتا المخرج ثقل اظهارهما على اللسان فادغمت إحداهما في الأخرى، وصيرتا دالاً مشدّدة صيروها عدلاً بين الذال والتاء. ومن العرب من يغلب الذال على التاء فيدغم التاء في الذال فيقول وما تذخرون، وهو مذخر لك وهو مذكر. واللغة التي بها القراءة الأولى وذلك ادغام الذال في التاء، وإبدالهما دالاً مشدّدة. لا يجوز القراءة بغيرها لتظاهر النقل من القراء بها وهي اللغة الجودي كما قال زهير:

إن الكريم الذي يعطيك نائله
عفواً ويظلم أحياناً فيطلم

يروى بالظاء يريد فيفتعل من الظلم، ويروى بالطاء أيضاً. القول في تأويل قوله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه أن في خلقي من الطين الطير بإذن الله، وفي إبرائي الأكمه والأبرص وإحيائي الموتى وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ابتداء من غير حساب وتنجيم ولا كهانة وعرافة لعبرة لكم ومتفكراً تتفكرون في ذلك، فتعتبرون به أني محق في قولي لكم «إني رسول من ربكم إليكم» وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مصدّقين حجج الله وآياته مقرين بتوحيده ونبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها.

القول في تأويل قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه وبأني قد جئتكم بآية من ربكم، وجئتكم مصدّقاً لما بين يديّ من التوراة، ولذلك نصب ﴿مُصَدِّقًا﴾ على الحال من ﴿جِئْتُكُم﴾. والذي يدل على أنه نصب على قوله وجئتكم دون العطف على قوله ﴿وَجِيهًا﴾ قوله ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. ولو كان عطفاً على قوله وجيهاً لكان الكلام ومصدّقاً لما بين يديه من التوراة وليحل لكم بعض الذي حرم عليكم. وإنما قيل ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ لأن عيسى صلوات الله عليه كان مؤمناً بالتوراة مقراً بها، وأنها من عند الله، وكذلك الأنبياء كلهم يصدّقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم لمخالفة الله بينهم في ذلك مع أن عيسى كان فيما بلغنا عاملاً بالتوراة لم يخالف شيئاً من أحكامها إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل مما كان مشدّداً عليهم فيها كما حدثني المثنى.. عن وهب بن منبه يقول: إن عيسى كان على شريعة موسى صلى الله عليهما وسلم وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس، فقال لبني إسرائيل إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وأضع عنكم من الآصار. حدثني بشر عن قتادة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب وأشياء من الطير والحيتان.. حدثني المثنى... عن الربيع في قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال كان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى قال وكان حرم عليهم فيما جاء به موسى من التوراة لحوم الإبل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرمت عليهم الشحوم وأحلت لهم فيما جاء به عيسى وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير مما لا صيصية له، وفي أشياء حرمها عليهم وشددها عليهم فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل فكان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى صلوات الله عليه. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: لحوم الإبل والشحوم لما بعث عيسى أحلها لهم، وبعث إلى اليهود فاختلفوا وتفرقوا. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي لما سبقني منها ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي أخبركم أنه كان حراماً عليكم فتركتموه، ثم أحله لكم تخفيفاً عنكم فتصيبون يسره وتخرجون من تباعته. حدثني

محمد بن سنان... عن الحسن ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: كان حرم عليهم أشياء فجاءهم عيسى ليحل لهم الذي حرم عليهم يبتغي بذلك شكرهم.

القول في تأويل قوله ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بذلك وجئتكم بحجة وعبرة من ربكم تعلمون بها حقيقة ما أقول لكم كما حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ قال: ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها وما أعطاه ربه. حدثني المثنى... عن مجاهد ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها، ويعني بقوله من ربكم من عند ربكم.

القول في تأويل قوله ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يعني بذلك وجئتكم بآية من ربكم تعلمون بها يقيناً صدقي فيما أقول ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يا معشر بني إسرائيل فيما أمركم به، ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم، فاعبدوه فإنه بذلك أرسلني إليكم وبإحلال بعض ما كان محرماً عليكم في كتابكم، وذلك هو الطريق القويم والهدى المتين الذي لا اعوجاج فيه كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ تبرياً من الذي يقولون فيه يعني ما يقول فيه النصارى، واحتجاجاً لربه عليهم ﴿فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي قد حملتكم عليه، وجئتكم به. واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ فقرأته عامة قراء الأمصار إن الله ربي وربكم فاعبدوه بكسر ألف ﴿إِنَّ﴾ على ابتداء الخبر. وقرأه بعضهم أن الله ربي وربكم بفتح ألف أنّ بتأويل ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أن الله ربي وربكم على رد أن على الآية والإبدال منها. والصواب من القراءة عندنا ما عليه قراءة الأمصار وذلك كسر ألف ﴿إِنَّ﴾ على الابتداء لاجماع الحجة من القراء على صحة ذلك، وما اجتمعت عليه فحجة، وما انفرد به المنفرد عنها فرأي ولا يعترض بالرأي على الحجة. وهذه الآية وإن كان ظاهرها خبراً ففيه الحجة البالغة من الله لرسوله محمد ﷺ على الوفد الذين حاجوه من أهل نجران بإخبار الله عز وجل عن أن عيسى كان بريئاً مما نسبه إليه من نسبه إلى غير الذي وصف به نفسه منه أنه لله عبد كسائر عبيده من أهل الأرض إلا ما كان الله جل ثناؤه خصه به من النبوة والحجج التي آتاه دليلاً على صدقه كما آتى سائر المرسلين غيره من الأعلام والأدلة على صدقهم، والحجة على نبوتهم.

القول في تأويل قوله عز وجل ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ فلما وجد عيسى منهم الكفر. والإحساس هو الوجود، ومنه قول الله عز وجل ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨] فأما الحس بغير ألف فهو الإفناء والقتل، ومنه قوله إذ ﴿تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[آل عمران: ١٥٢] والحس أيضاً العطف والرقة ومنه قول الكميت:

هل من بكى الدار راج أن تحس له
أو يبكي الدار ماء العبرة الخضل

يعني بقوله أن تحس له. أن ترق له فتأويل الكلام فلما وجد عيسى من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحوداً لنبوّته، وتكذيباً لقوله، وصدّاً عما دعاهم إليه من أمر الله ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني بذلك قال عيسى من أعواني على المكذبين بحجة الله، والمولين عن دينه، والجاحدين نبوة نبيه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ عز وجل. ويعني بقوله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ مع الله. وإنما حسن أن يقال ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ بمعنى مع الله لأن من شأن العرب إذا ضموا الشيء إلى غيره، ثم أرادوا الخبر عنهما بضم أحدهما مع الآخر إذا ضم إليه جعلوا مكان مع إلى أحياناً، وأحياناً تخبر عنهما بمع فتقول «الذود إلى الذود إبل بمعنى إذا ضممت الذود إلى الذود صارت إبلاً. فأما إذا كان الشيء مع الشيء لم يقولوه بإلى، ولم يجعلوا مكان مع إلى. غير جائز أن يقال «قدم فلان وإليه مال» بمعنى ومعه مال. وبمثل ما قلنا في

تأويل قوله ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قال جماعة من أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن الحسين. . . عن السدي قوله ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يقول مع الله. حدثنا القاسم عن ابن جريج من أنصاري إلى الله يقول مع الله وأما سبب استنصار عيسى عليه السلام من استنصر من الحواريين فإن بين أهل العلم فيه اختلافاً. فقال بعضهم كان سبب ذلك ما حدثني به موسى بن هرون. . . عن السدي لما بعث الله عيسى فأمره بالدعوة نفته بنو إسرائيل، وأخرجوه فخرج هو وأمه يسيحون في الأرض، فنزل في قرية على رجل، فضافهم وأحسن إليهم، وكان لتلك المدينة ملك جبار معتد، فجاء ذلك الرجل يوماً وقد وقع عليه هم وحزن، فدخل منزله ومريم عند امرأته، فقالت مريم لها «ما شأن زوجك أراه حزيناً» قالت «لا تسألي» قالت «أخبريني لعل الله يفرج كربته»، قالت «فإن لنا ملكاً يجعل على كل رجل منا يوماً يطعمه هو وجنوده ويسقيهم من الخمر، فإن لم يفعل عاقبه، وإنه قد بلغت نوبته اليوم الذي يريد أن نصنع له فيه وليس لذلك عندنا سعة»، قالت «فقولي له لا يهتم فإني آمر ابني فيدعو له فيكفي ذلك»، قالت مريم لعيسى في ذلك، قال عيسى «يا أماه إني إن فعلت كان في ذلك شر» قالت «فلا تبال فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا»، قال عيسى «فقولي له إذا اقترب ذلك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني»، قال فلما ملأهن أعلمه فدعا الله فتحول ما في القدور لحماً ومرقاً وخبزاً، وما في الخوابي خمراً لم ير الناس مثله قط، وإياه طعاماً، فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر سأل من أين هذه الخمر، قال له هي من أرض كذا وكذا، قال الملك فإن خمري أوتي بها من تلك الأرض فليس هي مثل هذه، قال هي من أرض أخرى فلما خلط على الملك اشتد عليه قال فأنا أخبرك عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، وإنه دعا الله فجعل الماء خمراً، قال الملك وكان له ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام، وكان أحب الخلق إليه فقال إن رجلاً دعا الله حتى جعل الماء خمراً ليستجابن له حتى يحيي ابني. فدعا عيسى فكلمه، فسأله أن يدعو الله فيحيي ابنه، فقال عيسى لا تفعل، فإنه إن عاش كان شراً، فقال الملك لا أبالي أليس أراه؟ فلا أبالي ما كان، فقال عيسى عليه السلام فإن أحييته تتركوني أنا وأمي نذهب أينما شئنا، قال الملك نعم، فدعا الله فعاش الغلام، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تنادوا بالسلاح، وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه، فاقتتلوا، وذهب عيسى وأمه وصحبهما يهودي، وكان مع اليهودي رغيفان، ومع عيسى رغيف، فقال له عيسى شاركني، فقال اليهودي نعم، فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف ندم، فلما ناما جعل اليهودي يريد أن يأكل الرغيف، فلما أكل لقمة قال له عيسى ما تصنع؟ فيقول لا شيء فيطرحها حتى فرغ من الرغيف كله فلما أصبحا قال له عيسى هلم طعامك فجاء برغيف، فقال له عيسى أين الرغيف الآخر؟ قال ما كان معي إلا واحد، فسكت عنه عيسى؟ فانطلقوا فمروا براعي غنم، فنادى عيسى يا صاحب الغنم أجزرنا شاة من غنمك، قال نعم أرسل صاحبك يأخذها، فأرسل عيسى اليهودي، فجاء بالشاة فذبحوها وشووها، ثم قال لليهودي كل ولا تكسرنّ عظماً، فأكلا، فلما شبعوا قذف عيسى العظام في الجلد، ثم ضربها بعصاه، وقال قومي بإذن الله، فقامت الشاة تثغو، فقال يا صاحب الغنم خذ شاتك، فقال له الراعي من أنت؟ فقال أنا عيسى ابن مريم، قال أنت الساحر، وفر منه، قال عيسى لليهودي بالذي أحيا هذه الشاة بعدما أكلناها كم كان معك رغيفاً، فحلف ما كان معه إلا رغيف واحد، فمروا بصاحب بقر فنادى عيسى، فقال يا صاحب البقر أجزرنا من بقرك هذه عجلاً، قال ابعث صاحبك يأخذه، قال انطلق يا يهودي فجيء به، فانطلق فجاء به فذبحه وشواه وصاحب البقرة ينظر، فقال له عيسى كل ولا تكسرن عظماً، فلما فرغوا قذف العظام في الجلد، ثم ضربه بعصاه، وقال قم بإذن الله، فقام وله خوار، قال خذ عجلك، قال ومن أنت؟ قال أنا عيسى قال أنت السحار، ثم فر منه، قال اليهودي يا عيسى أحييته بعدما أكلناه، قال عيسى فبالذي أحيا الشاة بعدما أكلناها والعجل بعدما أكلناه كم كان معك رغيفاً؟ فحلف بالله ما كان معه إلا رغيف واحد، فانطلقا حتى نزلا

قرية، فنزل اليهودي أعلاها وعيسى في أسفلها، وأخذ اليهودي عصا مثل عصا عيسى، وقال أنا الآن أحيي الموتى، وكان ملك تلك المدينة مريضاً شديد المرض، فانطلق اليهودي ينادي من يبتغي طبيباً حتى أتى ملك تلك القرية فأخبر بوجعه، فقال أدخلوني عليه فأنا أبرئه، وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه، فقيل له إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ليس من طبيب يداويه ولا يفي دواؤه شيئاً إلا أمر به فصلب، قال أدخلوني عليه فإني سأبرئه، فأدخل عليه، فأخذ برجل الملك فضربه بعصاه حتى مات، فجعل يضربه بعصاه وهو ميت ويقول قم بإذن الله، فأخذ ليصلب، فبلغ عيسى فأقبل إليه وقد رفع على الخشبة، فقال أرأيتم إن أحييت لكم صاحبكم أتتركون لي صاحبي؟ قالوا نعم، فأحيا الله الملك لعيسى، فقام وأنزل اليهودي، فقال يا عيسى أنت أعظم الناس عليّ منه والله لا أفارقك أبداً، قال عيسى فيما حدثنا به محمد بن الحسين بن موسى... عن السدي لليهودي أنشدك بالذي أحيا الشاة والعجل بعدما أكلناهما وأحيا هذا بعدما مات، وأنزلك من الجذع بعدما رفعت عليه لتصلب كم كان معك رغيفاً؟ قال فحلف بهذا كله ما كان معه إلا رغيف واحد، قال لا بأس فانطلقا حتى مرا على كنز قد حفرته السباع والدواب، فقال اليهودي يا عيسى لمن هذا المال؟ قال عيسى دعه فإن له أهلاً يهلكون عليه، فجعلت نفس اليهودي تطلع إلى المال، ويكره أن يعصي عيسى، فانطلق مع عيسى، ومر بالمال أربعة نفر فلما رأوه اجتمعوا عليه فقال اثنان لصاحبيهما انطلقا فابتاعا لنا طعاماً وشراباً ودواباً نحمل عليها هذا المال، فانطلق الرجلان فابتاعا دواباً وطعاماً وشراباً، وقال أحدهما لصاحبه هل لك أن نجعل لصاحبينا في طعامهما سماً فإذا أكلا ماتا فكان المال بيني وبينك؟ فقال الآخر نعم، ففعلا، وقال الآخران إذا ما أتيانا بالطعام فليقم كل واحد إلى صاحبه فيقتله فيكون الطعام والدواب بيني وبينك، فلما جآ بطعامهما قاما فقتلاهما ثم قعدا على الطعام فأكلا منه فماتا. وأعلم ذلك لعيسى فقال لليهودي أخرجه حتى تقتسمه، فأخرجه فقسمه عيسى بين ثلاثة، فقال اليهودي يا عيسى اتق الله ولا تظلمني فإنما هو أنا وأنت ما هذه الثلاثة؟ قال له عيسى هذا لي، وهذا لك، وهذا الثلث لصاحب الرغيف، قال اليهودي فإن أخبرتك بصاحب الرغيف تعطيني هذا المال؟ فقال عيسى نعم، قال أنا هو، قال عيسى خذ حظي وحظك وحظ صاحب الرغيف فهو حظك من الدنيا والآخرة، فلما حمله مشى به شيئاً فخسف به، وانطلق عيسى ابن مريم فمر بالحواريين وهم يصطادون السمك، فقال ما تصنعون؟ فقالوا نصطاد السمك، فقال أفلا تمشون حتى نصطاد الناس؟ قالوا ومن أنت؟ قال أنا عيسى ابن مريم، فآمنوا به وانطلقوا معه. فذلك قول الله عز وجل ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. حدثنا محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ الآية قال استنصر فنصره الحواريون وظهر عليهم. وقال آخرون كان سبب استنصار عيسى من استنصر لأن من استنصر الحواريين عليه كانوا أرادوا قتله. ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم... عن مجاهد فلما أحس عيسى منهم الكفر قال كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه قال ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾. «والأنصار» جمع «نصير» كما «الأشراف» جمع «شريف» و «الأشهاد» جمع «شهيد». وأما ﴿ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في السبب الذي من أجله سموا حواريين. فقال بعضهم سموا بذلك لبياض ثيابهم. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبيد المحاربي... عن سعيد بن جبير قال إنما سموا الحواريين ببياض ثيابهم. وقال آخرون سموا بذلك لأنهم كانوا قصّارين يبيّضون الثياب. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن أبي أرطاة قال: ﴿ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ الغسالون الذين يحوّرون الثياب، يغسلونها. وقال آخرون: هم خاصة الأنبياء وصفوتهم. ذكر من قال ذلك: حدثنا يعقوب بن إبراهيم... أن قتادة ذكر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: كان من الحواريين. فقيل له: من الحواريون؟ قال: الذين تصلح لهم الخلافة. حدثت عن المنجاب... عن الضحاك في

قوله: ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ قال: أصفياء الأنبياء. وأشبه الأقوال التي ذكرنا في معنى «الحواريين» قول من قال: «سموا بذلك لبياض ثيابهم ولأنهم كانوا غسالين». وذلك أن «الحور» عند العرب شدة البياض ولذلك سمي «الحوّاري» من الطعام «حوّاري» لشدة بياضه، ومنه قيل للرجل الشديد بياض مقلة العينين «أحور»، وللمرأة «حوراء». وقد يجوز أن يكون حواريو عيسى كانوا سمّوا بالذي ذكرنا، من تبييضهم الثياب، وأنهم كانوا قصّارين فعرفوا بصحبة عيسى، واختياره إياهم لنفسه أصحاباً وأنصاراً، فجرى ذلك الاسم لهم، واستعمل حتى صار كل خاصة للرجل من أصحابه وأنصاره: «حواريه» ولذلك قال النبي ﷺ «إن لكل نبي حوارياً وحواريّ الزبير». يعني خاصته. وقد تسمي العرب النساء اللواتي مساكنهن القرى والأمصار «حواريّات»، وإنما سمين بذلك لغلبة البياض عليهن، ومن ذلك قول أبي جلدّة اليشكري:

فقل للحواريات يبكين غيرنا
ولا تبكنا إلا الكلاب النوائح

ويعني بقوله ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ ﴾ قال هؤلاء الذين صفتهم ما ذكرنا، من تبييضهم الثياب ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ صدّقنا بالله، وأشهد أنت يا عيسى بأننا مسلمون. وهذا خبر من الله عز وجل أن الإسلام دينه الذي ابتعث به عيسى والأنبياء قبله لا النصرانية ولا اليهودية، وتبرئة من الله لعيسى ممن انتحل النصرانية، ودان بها كما برأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام، وذلك احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على وفد نجران، كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ والعدوان ﴿ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾، وهذا قولهم الذي أصابوا به الفضل من ربهم ﴿ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ لا كما يقول هؤلاء الذي يحاجونك فيه، يعني وفد نصارى نجران. القول في تأويل قوله ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾، وهذا خبر من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا ﴾ أي صدّقنا ﴿ بِمَا أَنزَلْتَ ﴾ يعني بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك ﴿ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ يعني بذلك صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوانه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك وقوله ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ يقول فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرّوا لك بالتوحيد وصدّقوا رسلك واتبعوا أمرك ونهيك فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحلنا محلهم ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصد عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك. يعرّف خلقه جل ثناؤه بذلك سبيل الذين رضى أقوالهم وأفعالهم ليحتذوا طريقهم، ويتبعوا منهاجهم فيصلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها، ويحتج به على الوفد الذين حاجوا رسول الله ﷺ من أهل نجران بأنّ قيل من رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قيلهم، ومنهاجهم غير منهاجهم كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر ابن الزبير ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أي هكذا كان قولهم وإيمانهم.

القول في تأويل قوله ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل، وهم الذين ذكر الله أن عيسى أحس منهم الكفر. وكان مكرهم الذي وصفهم الله به مواطأة بعضهم بعضاً على الفتك بعيسى وقتله. وذلك أن عيسى صلوات الله عليه بعد إخراج قومه إياه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم، فيما حدثنا محمد بن الحسين... عن السدّي ثم إن عيسى سار بهم، يعني بالحواريين الذين كانوا يصطادون السمك، فآمنوا به واتبعوه إذ دعاهم حتى أتى بني إسرائيل ليلاً فصاح فيهم، فذلك قوله ﴿ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ﴾[الصف: ١٤] وأما مكر الله بهم فإنه، فيما ذكر السدي، القاؤه شبه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى، وقد رفع الله عز وجل عيسى قبل ذلك كما حدثني محمد بن الحسين... عن السدي، ثم إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه

من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة، فأخذها رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾. فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر، فأخبروهم أن عيسى قد صعد به إلى السماء، فجعلوا يعدّون القوم فيجدونهم ينقصون رجلاً من العدّة، ويرون صورة عيسى فيهم فشكوا فيه. وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يرون أنه عيسى وصلبوه، فذلك قول الله عز وجل ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[النساء: ١٥٧]، وقد يحتمل أن يكون معنى مكر الله بهم استدراجه إياهم ليبلغ الكتاب أجله كما قد بينا ذلك في قول الله ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[البقرة: ١٥].

القول في تأويل قوله ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه، ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى مع كفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى فيما أتاهم به من عند ربهم، إذ قال الله جل ثناؤه ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ فـ ﴿ إِذْ ﴾ صلة من قوله ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ يعني ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إني متوفيك، ورافعك إليّ فتوفاه ورفعه إليه. ثم اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية، فقال بعضهم «هي وفاة نوم»، وكان معنى الكلام على مذهبهم إني منيمك ورافعك في نومك. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى... عن الربيع في قوله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ قال يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه. قال الحسن قال رسول الله ﷺ لليهود إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة. وقال آخرون: معنى ذلك أني قابضك من الأرض فرافعك إليّ، قالوا ومعنى الوفاة القبض كما يقال «توفيت من فلان مالي عليه» بمعنى قبضته واستوفيته، قالوا فمعنى قوله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ أي قابضك من الأرض حياً إلى جواري، وآخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك. ذكر من قال ذلك: حدثنا علي بن سهل... عن مطر الورّاق في قول الله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ قال متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت. حدثنا الحسن بن يحيى... عن الحسن في قوله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ قال متوفيك من الأرض. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال فرفعه إياه، إليه توفيه إياه، وتطهيره من الذين كفروا. حدثني المثنى... عن معاوية بن صالح أن كعب الأحبار قال: ما كان الله عز وجل ليميت عيسى ابن مريم، إنما بعثه الله داعياً ومبشراً يدعو إليه وحده، فلما رأى عيسى قلة من اتبعه، وكثرة من كذبه شكا ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ وليس من رفعته عندي ميتاً، وإني سأبعثك على الأعور الدجال فتقتله، ثم تعيش بعد ذلك أربعاً وعشرين سنة، ثم أميتك ميتة الحي. قال كعب الأحبار وذلك يصدّق حديث رسول الله ﷺ حيث قال: «كيف تهلك أمة أنا في أوّلها وعيسى في آخرها». حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي قابضك. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ قال ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ قابضك قال و ﴿ مُتَوَفِّيكَ ﴾ ﴿ وَرَافِعُكَ ﴾ واحد، قال ولم يمت بعد حتى يقتل الدجال، وسيموت. وقرأ قول الله عز وجل ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ قال رفعه الله إليه قبل أن يكون كهلاً، قال وينزل كهلاً. حدثنا محمد بن سنان... عن الحسن في قول الله عز وجل ﴿ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ الآية كلها، قال رفعه الله إليه فهو عنده في السماء. وقال آخرون معنى ذلك إني متوفيك وفاة موت. ذكر من قال ذلك: حدثنى المثنى... عن ابن عباس قوله ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾ يقول إني مميتك. حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه اليماني أنه قال: توفى الله عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه. حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق قال: والنصارى يزعمون أنه توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه الله. وقال آخرون: معنى ذلك إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد انزالي إياك إلى الدنيا، وقال هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم. وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال «معنى ذلك: إني قابضك من الأرض

ورافعك إليّ» لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه. حدثنا ابن حميد. . . عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ليهبطنّ الله عيسى ابن مريم حكماً عدلاً وإماماً مقسطاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يجد من يأخذه وليسلكّن الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليُثَنِّيَنَّ بهما جميعاً. حدثنا ابن حميد. . . عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه خليفتي على أمتي وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه: فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن شعره يقطر وإن لم يصبه بلل بين مُمصَّرَتين يدق الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال. وتقع في الأرض الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمر مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيثبت في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي المسلمون عليه ويدفنونه. ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى فيجمع عليه ميتتين لإن الله عز وجل إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم كما قال جل ثناؤه ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾[الروم: ٤٠] فتأويل الآية إذاً: قال الله لعيسى: يا عيسى إني قابضك من الأرض ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا فجحدوا نبوتك. وهذا الخبر وإن كان مخرجه مخرج خبر فإن فيه من الله عز وجل احتجاجاً على الذين حاجوا رسول الله ﷺ في عيسى من وفد نجران بأن عيسى لم يقتل ولم يصلب كما زعموا وأنهم واليهود الذين أقروا بذلك وادعوا على عيسى كذبة في دعواهم وزعمهم كما حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير: ثم أخبرهم يعني الوفد من نجران ورد عليهم فيما أقُرّوا لليهود بصلبه كيف رفعه وطهره منهم فقال ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾. وأما ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فإنه يعني: منظفك فمخلصك ممن كفر بك وجحد ما جئتهم به من الحق من اليهود وسائر الملل غيرها كما حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر ابن الزبير ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال: اذهموا منك بما هموا. حدثني محمد بن سنان. . . عن الحسن في قوله ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ قال: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه.

القول في تأويل قوله عز وجل ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه وجاعل الذين اتبعوك على منهاجك وملتك من الإسلام وفطرته فوق الذين جحدوا نبوتك وخالفوا بسبيلهم [من] جميع أهل الملل، فكذبوا بما جئت به وصدّوا عن الإقرار به فمصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم، كما حدثنا بشر بن معاذ. . . عن قتادة في قوله: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته، فلا يزالون ظاهرين على من ناواهم إلى يوم القيامة. حدثنا المثنى. . . عن الربيع في قوله: ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ثم ذكر نحوه. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ثم ذكر نحوه. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ قال: ناصر من اتبعك على الإسلام على الذين كفروا إلى يوم القيامة. حدثنا محمد بن الحسين. . . عن السدي ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ أما ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾ فيقال: هم المؤمنون وليس هم الروم. حدثني محمد بن سنان. . . عن الحسن ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ قال: جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. قال: المسلمون من فوقهم وجعلهم أعلى ممن ترك الإسلام إلى يوم القيامة.

وقال آخرون: معنى ذلك: وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود. ذكر من قال ذلك حدثني يونس... عن ابن زيد في قول الله ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: الذين كفروا من بني إسرائيل ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ قال: الذين آمنوا به من بني إسرائيل وغيرهم ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة. قال: فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود في شرق ولا غرب، هم في البلدان كلها مستذلون.

القول في تأويل قوله ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ ثم إلى الله أيها المختلفون في عيسى ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: مصيركم يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يقول: فأقضي حينئذ بين جميعكم في أمر عيسى بالحق ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمره. وهذا من الكلام الذي صرف من الخبر عن الغائب إلى المخاطبة، وذلك أن قوله ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ إنما قصد به الخبر عن متبعي عيسى والكافرين به. وتأويل الكلام وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجع الفريقين: الذين اتبعوك، والذين كفروا بك، فأحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ولكن رد الكلام إلى الخطاب لسوق القول على سبيل ما ذكرنا من الكلام الذي يخرج على وجه الحكاية، كما قال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

القول في تأويل قوله ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فأما الذين جحدوا نبوتك يا عيسى، وخالفوا ملتك، وكذبوا بما جئتهم به من الحق، وقالوا فيك الباطل، وأضافوك إلى غير الذي ينبغي أن يضيفوك إليه من اليهود والنصارى وسائر أصناف الأديان، فإني أعذبهم عذاباً شديداً، أما في الدنيا فبالقتل والسباء والذلة والمسكنة، وأما في الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبداً ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يقول, وما لهم من عذاب الله مانع، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوة ولا شفاعة، لأنه العزيز ذو الانتقام. وأما قوله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره: وأما الذين آمنوا بك يا عيسى - يقول: صدقوك - فأقروا بنبوتك وبما جئتهم به من الحق من عندي، ودانوا بالإسلام الذي بعثتك به، وعملوا بما فرضت من فرائضي على لسانك، وشرعت من شرائعي، وسننت من سنني كما: حدثني المثني... عن ابن عباس قوله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: أدوا فرائضي ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، يقول: فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملاً، لا يبخسون منه شيئاً ولا ينقصونه. وأما قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه يعني: والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه. فنفى جل ثناؤه عن نفسه بذلك أن يظلم عباده، فيجازي المسيء ممن كفر جزاء المحسنين ممن آمن به أو يجازي المحسن ممن آمن به واتبع أمره وانتهى عما نهاه عنه فأطاعه، جزاء المسيئين ممن كفر به وكذب رسله وخالف أمره ونهيه. فقال إني لا أحب الظالمين، فكيف أظلم خلقي؟ وهذا القول من الله تعالى ذكره وإن كان خرج مخرج الخبر، كأنه وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله، لأنه أعلم الفريقين جميعاً أنه لا يبخس هذا المؤمن حقه، ولا يظلم كرامته فيضعها فيمن كفر به وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالماً.

القول في تأويل قوله ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذه الأنباء التي أنبأ بها نبيه عن عيسى وأمه مريم وأمها حنة وزكريا وابنه يحيى، وما قص من أمر الحواريين واليهود من بني إسرائيل ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا محمد يقول نقرؤها عليك يا محمد على لسان جبريل ﷺ، بوحيناها إليك ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يقول: من العبر والحجج على من حاجك من وفد نصارى نجران، ويهود بني إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جئتهم به من الحق من عندي، ﴿وَٱلذِّكْرِ﴾ يعني والقرآن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ يعني: ذي الحكمة الفاصلة بين الحق

والباطل، وبينك وبين ناسبي المسيح إلى غير نسبه، كما حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ القاطع الفاصل الحق الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى، وعما اختلفوا فيه من أمره فلا يقبلن خبراً غيره. حدثني المثنى. . . عن الضحاك ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ قال: القرآن. حدثني المثنى. . . عن ابن عباس قوله ﴿ وَٱلذِّكْرِ ﴾ يقول القرآن ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ الذي قد كمل في حكمته.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يعني جل ثناؤه: أن شبه عيسى في خلقي إياه من غير فحل فأخبر به يا محمد الوفد من نصارى نجران عندي كشبه آدم الذي خلقته من تراب ثم قلت له ﴿ كُن ﴾ فكان من غير فحل ولا ذكر ولا أنثى. يقول: فليس خلقي عيسى من أمه من غير فحل بأعجب من خلقي آدم من غير ذكر ولا أنثى، وأمري إذ أمرته أن يكون فكان لحماً يقول: فكذلك خلقي عيسى أمرته أن يكون فكان. وذكر أهل التأويل أن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه ﷺ على الوفد من نصارى نجران الذين حاجوه في عيسى. ذكر من قال ذلك حدثنا ابن حميد. . . عن عامر قال: كان أهل نجران أعظم قوم من النصارى في عيسى قولاً فكانوا يجادلون النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل هذه الآية في سورة آل عمران ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] حدثني محمد بن سعد عن ابن عباس قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا لمحمد ما شأنك تذكر صاحبنا فقال: من هو قالوا: عيسى تزعم أنه عبدالله فقال محمد أجل إنه عبدالله قالوا له: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل ﷺ بأمر ربنا السميع العليم فقال: قل لهم إذا أتوك ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ إلى آخر الآية. حدثنا بشر. . . عن قتادة قوله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ ذكر لنا أن سيِّديْ أهل نجران وأسقفيهم السيد والعاقب لقيا نبي الله ﷺ فسألاه عن عيسى فقالا: كل آدمي له أب فما شأن عيسى لا أب له فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ حدثنا محمد بن الحسين. . . عن السدي ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ لما بعث رسول الله ﷺ وسمع به أهل نجران أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم. منهم: العاقب والسيد وماسرجس وماريحز فسألوه ما يقول في عيسى فقال: هو عبدالله وروحه وكلمته قالوا هم: لا ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم، ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره فهل رأيت قط إنساناً خلق من غير أب فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ حدثنا القاسم. . . عن عكرمة قوله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ قال: نزلت في العاقب والسيد من أهل نجران وهما نصرانيان قال ابن جريج بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النبي ﷺ فيهم السيد والعاقب وهما يومئذ سيدا أهل نجران فقالوا: يا محمد فيم تشتم صاحبنا قال: من صاحبكما قالا: عيسى ابن مريم، تزعم أنه عبد قال رسول الله ﷺ: أجل إنه عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فغضبوا وقالوا إن كنت صادقاً فأرنا عبداً يحيي الموتى ويبرىء الأكمه ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، الآية، لكنه الله. فسكت حتى أتاه جبريل فقال: يا محمد ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٢] الآية، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل إنهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى، قال: جبريل مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، فلما أصبحوا عادوا فقرأ عليهم الآيات. حدثنا ابن حميد. . . عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فاسمع ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ

﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾، فإن قالوا خُلق عيسى من غير ذكر، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر، فكان كما كان عيسى لحماً ودماً وشعراً وبشراً، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب. من هذا حدثني يونس عن ابن زيد في قول الله عز وجل ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾، قال أتى نجرانيان إلى رسول الله ﷺ فقالا له: هل علمت أن أحداً ولد من غير ذكر، فيكون عيسى كذلك؟ قال فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أكان لآدم أب أو أم كما خلقت هذا في بطن هذه؟ فإن قال قائل: فكيف قال «كمثل آدم خلقه» و«آدم» معرفة، والمعارف لا توصل؟ قيل إن قوله ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ غير صلة لآدم، وإنما هو بيان عن أمره على وجه التفسير عن المثل الذي ضربه، وكيف كان. وأما قوله ﴿ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فإنما قال ﴿ فَيَكُونُ ﴾ وقد ابتدأ الخبر عن خلق آدم، وذلك خبر عن أمر قد تقضّى وقد أخرج الخبر عنه مخرج الخبر عما قد مضى فقال جل ثناؤه ﴿ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ لأنه بمعنى الإعلام من الله نبيه أن تكوينه الأشياء بقوله ﴿ كُن ﴾ ثم قال ﴿ فَيَكُونُ ﴾ خبرا مبتدأ، وقد تناهى الخبر عن أمر آدم عند قوله ﴿ كُن ﴾ فتأويل الكلام إذا ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ واعلم يا محمد أن ما قال له ربك ﴿ كُن ﴾ فهو كائن فلما كان في قوله ﴿ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن ﴾ دلالة على أن الكلام يراد به إعلام نبي الله ﷺ وسائر خلقه أنه كائن ما كوّنه ابتداء من غير أصل ولا أول ولا عنصر استغنى بدلالة الكلام على المعنى، وقيل ﴿ فَيَكُونُ ﴾ فعطف بالمستقبل على الماضي على ذلك المعنى. وقد قال بعض أهل العربية ﴿ فَيَكُونُ ﴾ رفع على الابتداء، ومعناه: كن فكان فكأنه قال: فإذا هو كائن.

الرازي ج ٨ ص ٤٢ ـ ٦٨

وصفه طهارة مريم صلوات الله عليها قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ . يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عامل الإعراب ههنا في (إذ) هو ما ذكرناه في قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ ﴾ [آل عمران: ٣٥] من قوله ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣٤]، ثم عطف عليه ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، وقيل: تقديره واذكر إذ قالت الملائكة.

المسألة الثانية: قالوا المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده، وهذا كقوله ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [النحل: ٢] يعني جبريل، وهذا وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام، وهو قوله ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧].

المسألة الثالثة: اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩] وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عندنا، وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لزكريا عليه السلام، وهو قول جمهور المعتزلة، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص: ٧].

المسألة الرابعة: اعلم أن المذكور في هذه الآية أولاً هو الاصطفاء، وثانياً التطهير، وثالثاً الاصطفاء على نساء العالمين، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً من الاصطفاء الثاني، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها.

النوع الأول من الاصطفاء: فهو أمور: (أحدها): أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى، ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث. و(ثانيها): قال الحسن: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقتها إلى زكريا، وكان رزقها يأتيها من الجنة و(ثالثها): أنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة و(رابعها): أنه كفاها أمر معيشتها، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ﴾. و(خامسها): أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول، وأما التطهير ففيه وجوه: (أحدها): أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية، فهو كقوله تعالى في أزواج النبي ﷺ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] و(ثانيها): أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال. و(ثالثها): طهرها عن الحيض، قالوا: كانت مريم لا تحيض و(رابعها): وطهرك من الأفعال الذميمة، والعادات القبيحة. و(خامسها): وطهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم.

وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة.

المسألة الخامسة: روى أنه عليه الصلاة والسلام قال «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة عليهن السلام»، فقيل هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل من النساء، وهذه الآية دلت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل، وقول من قال المراد إنها مصطفاة على عالمي زمانها، فهذا ترك الظاهر.

ثم قال تعالى ﴿يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾، وقد تقدم تفسير القنوت في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وبالجملة فلما بين تعالى أنها مخصوصه بمزيد المواهب والعطايا من الله أوجب عليها مزيد الطاعات، شكراً لتلك النعم السنية، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: لم قدم ذكر السجود على ذكر الركوع؟

والجواب من وجوه: (الأول): أن الواو تفيد الاشتراك ولا تفيد الترتيب. (الثاني): أن غاية قرب العبد من الله أن يكون ساجداً قال عليه الصلاة والسلام «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد»، فلما كان السجود مختصاً بهذا النوع من الرتبة والفضيلة لا جرم قدمه على سائر الطاعات.

ثم قال ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، وهو إشارة إلى الأمر بالصلاة، فكأنه تعالى يأمرها بالمواظبة على السجود في أكثر الأوقات، وأما الصلاة فإنها تأتي بها في أوقاتها المعينة لها. و(الثالث): قال ابن الأنباري: قوله تعالى (اقنتي) أمر بالعبادة على العموم، ثم قال بعد ذلك ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ يعني استعملي السجود في وقته اللائق به، واستعملي الركوع في وقته اللائق به، وليس المراد أن يجمع بينهما، ثم يقدم السجود على الركوع والله أعلم. (الرابع): أن الصلاة تسمى سجوداً كما قيل في قوله ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]. وفي الحديث «إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدتين»، وأيضاً المسجد سمي باسم مشتق من السجود والمراد منه موضع الصلاة، وأيضاً أشرف أجزاء الصلاة السجود وتسمية الشيء باسم أشرف أجزائه نوع مشهور في المجاز.

إذا ثبت هذا فنقول قوله ﴿يَٰمَرْيَمُ اقْنُتِي﴾ معناه: يا مريم قومي، وقوله ﴿وَاسْجُدِي﴾ أي صلي فكان المراد من هذا السجود الصلاة، ثم قال: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ إما أن يكون أمراً لها بالصلاة بالجماعة فيكون قوله ﴿وَاسْجُدِي﴾ أمراً بالصلاة حال الانفراد، وقوله ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمراً بالصلاة في الجماعة. أو يكون المراد من الركوع التواضع ويكون قوله ﴿وَاسْجُدِي﴾ أمراً ظاهراً بالصلاة، وقوله ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أمراً بالخضوع والخشوع بالقلب.

الوجه الخامس في الجواب: لعله كان السجود في ذلك الدين متقدماً على الركوع.

السؤال الثاني: ما المراد من قوله ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾.

و(الجواب): قيل: معناه: افعلي كفعلهم، وقيل المراد به الصلاة في الجماعة كانت مأمورة بأن تصلي في بيت المقدس مع المجاورين فيه، وإن كانت لا تختلط بهم.

السؤال الثالث: لم لم يقل واركعي مع الراكعات؟.

والجواب: لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل، من الاقتداء بالنساء.

واعلم أن المفسرين قالوا: لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات مع مريم عليها السلام شفاها، قامت مريم في الصلاة حتى ورمت قدماها وسال الدم والقيح من قدميها.

قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: «ذلك» إشارة إلى ما تقدم، والمعنى أن الذي مضى ذكره من حديث حنة وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلمه إلا بالوحي.

فإن قيل: لم نفيت هذه المشاهدة، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي استماع هذه الأشياء من حفاظها وهو موهوم؟.

قلنا: كان معلوماً عندهم علماً يقينياً أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة، ونظيره ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦] ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

المسألة الثانية: الأنباء: الإخبار عما غاب عنك، وأما الإيحاء فقد ورد الكتاب به على معان مختلفة، يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرهما، وبهذا التفسير يعد الإلهام وحياً كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقال في الشياطين يوحون إلى أوليائهم، وقال ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] فلما كان الله سبحانه ألقى هذه الأشياء إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام بحيث يخفى ذلك على غيره سماه وحيا.

أما قوله تعالى ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تلك الأقلام وجوهاً: (الأول): المراد بالأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى، وكان القراع على أن كل من جرى قلمه على عكس جري الماء فالحق معه، فلما فعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك، فسلموا الأمر له وهذا قول الأكثرين. و(الثاني): أنهم ألقوا عصيهم في الماء الجاري جرت عصا زكريا على ضد جرية الماء فغلبهم، وهذا قول الربيع. و(الثالث): قال أبو مسلم: معنى يلقون أقلامهم مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور، وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبرى، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً.

قال القاضي: وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحاً نظراً إلى أصل الاشتقاق، إلا أن العرف أوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به، فوجب حمل لفظ القلم عليه.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب، وإما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء، إلا أنه روى في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم إنه حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام، فلا جرم صار هو أولى بكفالتها والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا

في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعة، فقال بعضهم: إن عمران أباها كان رئيساً لهم ومقدماً عليهم، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها، وقال بعضهم: إن أمها حررتها لعبادة الله تعالى ولخدمة بيت الله تعالى، ولأجل ذلك حرصوا على التكفل بها، وقال آخرون: بل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها وأمر عيسى عليه السلام حاصلاً فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا.

المسألة الرابعة: اختلفوا في أن أولئك المختصمين من كانوا؟ فمنهم من قال: كانوا هم خدمة البيت، ومنهم من قال: بل العلماء والأحبار وكتاب الوحي، ولا شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل في الدين والرغبة في الطريق.

أما قوله ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ففيه حذف والتقدير: يلقون أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم وإنما حسن لكونه معلوماً.

أما قوله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فالمعنى وما كنت هناك إذ يتقارعون على التكفل بها، وإذ يختصمون بسببها فيحتمل أن يكون المراد بهذا الاختصام ما كان قبل الإقراع، ويحتمل أن يكون اختصاماً آخر حصل بعد الإقراع، وبالجملة كالمقصود من الآية شدة رغبتهم في التكفل بشأنها، والقيام بإصلاح مهماتها، وما ذاك إلا لدعاء أمها حيث قالت ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] وقالت ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قوله سبحانه وتعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۞ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما شرح حال مريم عليها السلام، في أول أمرها، وفي آخر أمرها شرح كيفية ولادتها لعيسى عليه السلام، فقال ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا في العامل في «إذ» قيل: العامل فيه. وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة، وقيل: يختصمون إذ قالت الملائكة، وقيل: إنه معطوف على «إذ» الأولى في قوله ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ [آل عمران: ٣٥] وقيل التقدير: إن ما وصفته من أمور زكريا، وهبة الله له يحيى كان إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك، وأما أبو عبيدة: فإنه يجري في هذا الباب على مذهب له معروف، وهو أن «إذ» صلة في الكلام وزيادة. واعلم أن القولين الأولين فيهما بعض الضعف وذلك لأن مريم حال ما كانوا يلقون الأقلام وحال ما كانوا يختصمون ما بلغت الحد الذي تبشر فيه بعيسى عليه السلام، إلا قول الحسن: فإنه يقول إنها كانت عاقلة في حال الصغر، فإن ذلك كان من كراماتها، فإن صح ذلك جاز في تلك الحال أن يرد عليها البشرى من الملائكة، وإلا فلا بد من تأخر هذه البشرى إلى حين العقل، ومنهم من تكلف الجواب، فقال: يحتمل أن يقال الاختصام والبشرى وقعا في زمان واسع، كما تقول لقيته في سنة كذا، وهذا الجواب بعيد والأصوب هو الوجه الثالث، والرابع، أما قول أبو عبيدة: فقد عرفت ضعفه، والله أعلم.

المسألة الثانية: ظاهر قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ يفيد الجمع إلا أن المشهور أن ذلك المنادي كان جبريل عليه السلام، وقد قررناه فيما تقدم، وأما البشارة فقد ذكرنا تفسيرها في سورة البقرة في قوله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

وأما قوله تعالى ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ فقد ذكرنا تفسير الكلمة من وجوه وأليقها بهذا الموضع وجهان: (الأول): أن كل علوق وإن كان مخلوقاً بواسطة الكلمة وهي قوله ﴿كُن﴾ إلا أن ما هو السبب المتعارف كان مفقوداً في حق عيسى عليه السلام وهو الأب، فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتم فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة كما أن من غلب عليه الجود والكرم والإقبال يقال فيه على سبيل المبالغة إنه نفس الجود، ومحض الكرم، وصريح الإقبال، فكذا ههنا.

و(الوجه الثاني): أن السلطان العادل قد يوصف بأنه ظل الله في أرضه، وبأنه نور الله لما أنه سبب لظهور ظل العدل، ونور الإحسان، فكذلك كان عيسى عليه السلام سبباً لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته وإزالة

الشبهات والتحريفات عنه فلا يبعد أن يسمى بكلمة الله تعالى على هذا التأويل.

فإن قيل: ولم قلتم إن حدوث الشخص من غير نطفة الأب ممكن؟ قلنا: أما على أصول المسلمين فالأمر فيه ظاهر ويدل عليه وجهان: (الأول): أن تركيب الأجسام وتأليفها على وجه يحصل فيها الحياة والفهم، والنطق أمر ممكن، وثبت أنه تعالى قادر على الممكنات بأسرها، وكان سبحانه وتعالى قادراً على إيجاد الشخص، لا من نطفة الأب، وإذا ثبت الإمكان، ثم إن المعجز قام على صدق النبي، فوجب أن يكون صادقاً، ثم أخبر عن وقوع ذلك الممكن، والصادق إذا أخبر عن وقوع الممكن وجب القطع بكونه كذلك، فثبت صحة ما ذكرناه. (الثاني): ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فلما لم يبعد تخليق آدم من غير أب فلأن لا يبعد تخليق عيسى من غير أب كان أولى وهذه حجة ظاهرة، وأما على أصول الفلاسفة فالأمر في تجويزه ظاهر ويدل عليه وجوه: (الأول): أن الفلاسفة اتفقوا على أنه لا يمتنع حدوث الإنسان على سبيل التوالد من غير تولد قالوا: لأن بدن الإنسان إنما استعد لقبول النفس الناطقة التي تدبر بواسطة حصول المزاج المخصوص في ذلك البدن، وذلك المزاج إنما جعل لامتزاج العناصر الأربعة على قدر معين في مدة معينة، فحصول أجزاء العناصر على ذلك القدر الذي يناسب بدن الإنسان غير ممتنع وامتزاجها غير ممتنع، فامتزاجها يكون عند حدوث الكيفية المزاجية واجباً، وعند حدوث الكيفية المزاجية يكون تعلق النفس بذلك البدن واجباً، فثبت أن حدوث الإنسان على سبيل التولد معقول ممكن، وإذا كان الأمر كذلك فحدوث الإنسان لا عن الأب أولى بالجواز والإمكان.

(الوجه الثاني): وهو أنا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد، كتولد الفأر عن المدر، والحيات عن الشعر، والعقارب عن الباذروج، وإذا كان كذلك فتولد الولد لا عن الأب أولى أن لا يكون ممتنعاً.

(الوجه الثالث): وهو أن التخيلات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة ليس أن تصور المنافي يوجب حصول كيفية الغضب، ويوجب حصول السخونة الشديدة في البدن أليس اللوح الطويل إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ولو جعل كالقنطرة على وهدة لم يقدر على المشي عليه، بل كلما مشى عليه يسقط وما ذاك إلا أن تصور السقوط يوجب حصول السقوط، وقد ذكروا في كتب الفلسفة أمثلة كثيرة لهذا الباب، وجعلوها كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات، فما المانع من أن يقال إنه لما تخيلت صورته عليه السلام كفى ذلك في علوق الولد في رحمها، وإذا كان كل هذه الوجوه ممكناً محتملاً كان القول بحدوث عيسى عليه السلام من غير واسطة الأب قولاً غير ممتنع، ولو أنك طالبت جميع الأولين والآخرين من أرباب الطبائع والطب والفلسفة على إقامة حجة إقناعية في امتناع حدوث الولد من غير الأب لم يجدوا إليه سبيلاً إلا الرجوع إلى استقراء العرف والعادة، وقد اتفق علماء الفلاسفة على أن مثل هذا الإستقراء لا يفيد الظن القوى فضلاً عن العلم، فعلمنا أن ذلك أمر ممكن فلما أخبر العباد عن وقوعه وجب الجزم به والقطع بصحته.

أما قوله تعالى ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ فلفظة «من» ليست للتبعيض ههنا إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجزئاً متبعضاً متحملاً للاجتماع والافتراق وكل من كان كذلك فهو محدث وتعالى الله عنه، بل المراد من كلمة «من» ههنا ابتداء الغاية وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة «الله» مبدأ لظهوره ولحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى والحلولية.

وأما قوله تعالى ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ففيه سؤالات:

السؤال الأول: المسيح: هل هو اسم مشتق، أو موضوع؟.

و(الجواب): فيه قولان: (الأول): قال أبو عبيدة والليث: أصله بالعبرانية مشيحاً، فعربته العرب وغيروا

لفظه، وعيسى: أصله يشوع كما قالوا في موسى: أصله موشى، أو ميشا بالعبرانية، وعلى هذا القول لا يكون له اشتقاق.

و(القول الثاني): إنه مشتق وعليه الأكثرون، ثم ذكروا فيه وجوهاً: (الأول): قال ابن عباس: إنما سمي عيسى عليه السلام مسيحاً، لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة، إلا برىء من مرضه. (الثاني): قال أحمد بن يحيى: سمي مسيحاً لأنه كان يمسح الأرض أي يقطعها، ومنه مساحة أقسام الأرض، وعلى هذا المعنى يجوز أن يقال: لعيسى مسيح بالتشديد على المبالغة كما يقال للرجل فسيق وشريب. (الثالث): أنه كان مسيحاً، لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى، فعلى هذه الأقوال: هو فعيل بمعنى: فاعل، كرحيم بمعنى: راحم. (الرابع): أنه مسح من الأوزار والآثام. (والخامس): سمي مسيحاً لأنه ما كان في قدمه خمص، فكان ممسوح القدمين. و(السادس): سمي مسيحاً لأنه كان ممسوحاً بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء، ولا يمسح به غيرهم. ثم قالوا: وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبياً. (السابع): سمي مسيحاً لأنه مسحه جبريل ﷺ بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان. (الثامن): سمي مسيحاً لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وعلى هذه الأقوال يكون المسيح، بمعنى: الممسوح، فعيل بمعنى: مفعول. قال أبو عمرو بن العلاء المسيح: الملك. وقال النخعي: المسيح والصديق والله أعلم. ولعلهما قالا ذلك من جهة كونه مدحاً لا لدلالة اللغة عليه، وأما المسيح الدجال فإنما سمي مسيحاً لأحد وجهين: (أحدهما): لأنه ممسوح أحد العينين. و(الثاني): أنه يمسح الأرض أي: يقطعها في المدة القليلة، قالوا: ولهذا قيل له: دجال لضربه في الأرض، وقطعه أكثر نواحيها، يقال: قد دجل الدجال إذا فعل ذلك، وقيل: سمي دجالاً من قوله: دجل الرجل إذا موه ولبس.

السؤال الثاني: المسيح كان كاللقب له، وعيسى كالاسم فلم قدم اللقب على الاسم؟.

(الجواب): أن المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفاً رفيع الدرجة، مثل الصديق والفاروق فذكره الله تعالى أولاً بقلبه ليفيد علو درجته، ثم ذكره باسمه الخاص.

السؤال الثالث: لم قال عيسى ابن مريم والخطاب مع مريم؟.

و(الجواب): لأن الأنبياء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فلما نسبه الله تعالى إلى الأم دون الأب، كان ذلك إعلاماً لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته.

السؤال الرابع: الضمير في قوله: اسمه عائد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير؟.

(الجواب) لأن المسمى بها مذكر.

السؤال الخامس: لم قال اسمه المسيح عيسى ابن مريم؟ والاسم ليس إلا عيسى، وأما المسيح فهو لقب، وأما ابن مريم فهو صفة.

(الجواب): الأسم علامة المسمى ومعرف له، فكأنه قيل: الذي يعرف به هو مجموع هذه الثلاثة.

أما قوله تعالى ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: معنى الوجيه: ذو الجاه والشرف والقدر، يقال: وجه الرجل، يوجه وجاهة فهو وجيه، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان، وقال بعض أهل اللغة: الوجيه: هو الكريم، لأن أشرف أعضاء الإنسان وجهه فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال.

واعلم أن الله تعالى وصف موسى ﷺ بأنه كان وجيهاً قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩] ثم للمفسرين أقوال: (الأول): قال الحسن: كان وجيهاً في الدنيا بسبب النبوة، وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى و(الثاني): أنه وجيه عند الله تعالى، وأما عيسى عليه السلام، فهو وجيه في الدنيا بسبب أنه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص بسبب دعائه، ووجيه في الآخرة بسبب أنه يجعله شفيع أمته المحقين ويقبل شفاعتهم فيهم كما يقبل شفاعة أكابر

الأنبياء عليهم السلام و(الثالث): أنه وجهه في الدنيا بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها، ووجيه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى.

فإن قيل: كيف كان وجيهاً في الدنيا واليهود عاملوه بما عاملوه، قلنا: قد ذكرنا أنه تعالى سمى موسى عليه السلام بالوجيه مع أن اليهود طعنوا فيه، وآذوه إلى أن برأه الله تعالى مما قالوا، وذلك لم يقدح في وجاهة موسى عليه السلام، فكذا ههنا.

المسألة الثانية: قال الزجاج «وجيهاً» منصوب على الحال، المعنى: أن الله يبشرك بهذا الولد وجيهاً في الدنيا والآخرة، والفراء يسمي هذا قطعاً كأنه قال: عيسى ابن مريم الوجيه فقطع منه التعريف.

أما قوله ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] ففيه وجوه: (أحدها): أنه تعالى جعل ذلك كالمدح العظيم للملائكة فألحقه بمثل منزلتهم ودرجتهم بواسطة هذه الصفة. و(ثانيها): أن هذا الوصف كالتنبيه على أنه عليه السلام سيرفع إلى السماء وتصاحبه الملائكة. و(ثالثها): أنه ليس كل وجيه في الآخرة يكون مقرباً لأن أهل الجنة على منازل ودرجات، ولذلك قال تعالى ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧] إلى قوله ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ و١١].

أما قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو للعطف على قوله «وجيهاً» والتقدير كأنه قال: وجيهاً ومكلماً للناس وهذا عندي ضعيف، لأن عطف الجملة الفعلية على الإسمية غير جائز إلا للضرورة، أو الفائدة والأولى أن يقال تقدير الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥] الوجيه في الدنيا والآخرة المعدود من المقربين، وهذا المجموع جملة واحدة، ثم قال ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ فقوله ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ عطف على قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾.

المسألة الثانية: في المهد قولان: (أحدهما): أنه حجر أمه. و(الثاني): هو هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع الصبي وقت الرضاع، وكيف كان فالمراد منه: فإنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد.

المسألة الثالثة: قوله ﴿وَكَهْلًا﴾ عطف على الظرف من قوله ﴿فِى ٱلْمَهْدِ﴾ كأنه قيل: يكلم الناس صغيراً وكهلاً وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الكهل؟

(الجواب): الكهل في اللغة ما اجتمع قوته وكمل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوي وتم قال الأعشى:

يضاحك الشمس منها كوكب شرق
مؤزر بحميم النبت مكتهل

أراد بالمكتهل المتناهي في الحسن والكمال.

السؤال الثاني: أن تكلمه حال كونه في المهد من المعجزات، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات، فما الفائدة في ذكره؟.

و(الجواب): من وجوه: (الأول): أن المراد منه بيان كونه متقلباً في الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلهاً. و(الثاني): المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه، ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة. و(الثالث): قال أبو مسلم: معناه أنه يكلم حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في المعجز. (الرابع): قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.

السؤال الثالث: نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثاً وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير: فهو ما بلغ الكهولة.

و(الجواب): من وجهين: (الأول): بينا أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل التام، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين، فصح وصفه بكونه كهلاً

في هذا الوقت. و(الثاني): هو قول الحسين بن الفضل البجلي: أن المراد بقوله ﴿وَكَهْلًا﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، ويكلم الناس، ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض.

المسألة الرابعة: أنكرت النصارى كلام المسيح عليه السلام في المهد، واحتجوا على صحة قولهم بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها، ولا شك أن هذه الواقعة لو وقعت لوجب أن يكون وقوعها في حضور الجمع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بقولهم، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والإثنين لا يجوز، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جداً عند حضور الجمع العظيم فلا بد وأن تتوفر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغاً حد التواتر، وإخفاء ما يكون بالغاً إلى حد التواتر ممتنع، وأيضاً فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء ههنا ممتنعاً لأن النصارى بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلهاً، ومن كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه وفضائله بل ربما يجعل الواحد ألفاً فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى، ولما أطبقوا على إنكارها علمنا أنه ما كان موجوداً البتة.

أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة، وقالوا: إن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعاً قليلين، فالسامعون لذلك الكلام، كان جمعاً قليلاً، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير: أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضاً قد سكتوا لهذه العلة فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً مخفياً إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ بذلك، وأيضاً فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب: لما قرأ على النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة.

ثم قال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فإن قيل: كون عيسى كلمة من الله تعالى، وكونه ﴿وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾، وكونه من المقربين عند الله تعالى، وكونه مكلماً للناس في المهد، وفي الكهولة كل واحد من هذه الصفات أعظم وأشرف من كونه صالحاً فلم ختم الله تعالى أوصاف عيسى بقوله ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

قلنا: إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصلح، والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين في أفعال القلوب، وفي أفعال الجوارح، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات.

قوله تعالى ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

قال المفسرون: إنها إنما قالت ذلك لأن التبشير به يقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة وقد قررنا مثله في قصة زكريا عليه السلام، وقوله ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تقدم تفسيره في سورة البقرة.

أما قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ نافع، وعاصم «ويعلمه» بالياء والباقون بالنون، أما الياء فعطف على قوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقال المبرد عطف على يبشرك بكلمة، وكذا وكذا ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ومن قرأ بالنون قال تقدير الآية أنها: قالت رب أنى يكون لي ولد فقال لها الله ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فهذا وإن كان إخباراً على وجه المغايبة، فقال ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ لأن معنى قوله ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ معناه: كذلك نحن نخلق ما نشاء «ونعلمه الكتاب والحكمة» والله أعلم.

المسألة الثانية: في هذه الآية أمور أربعة معطوف بعضها على بعض بواو العطف، والأقرب عندي أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة، ثم المراد

بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة، ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة، ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية، يعلمه التوراة، وإنما أخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهي، وفيه أسرار عظيمة، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الإلهية، ثم قال في المرتبة الرابعة والإنجيل، وإنما أخر ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى، والمرتبة العليا في العلم، والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية، فهذا ما عندي في ترتيب هذه الألفاظ الأربعة.

ثم قال تعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية وجوه: (الأول): تقدير الآية: ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ونبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً: أني قد جئتكم بآية من ربكم، والحذف حسن إذا لم يفض إلى الاشتباه. (الثاني): قال الزجاج: الإختيار عندي أن تقديره: ويكلم الناس رسولاً، وإنما أضمرنا ذلك لقوله ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم﴾ والمعنى: ويكلمهم رسولاً بأني قد جئتكم، (الثالث) قال الأخفش: إن شئت جعلت الواو زائدة، والتقدير: ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة، والإنجيل رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلاً: أني قد جئتكم بآية.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل بخلاف قول بعض اليهود إنه كان مبعوثاً إلى قوم مخصوصين منهم.

المسألة الثالثة: المراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد ههنا أنواعاً من الآيات، وهي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الجنس لا الفرد.

ثم قال ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

اعلم أنه تعالى حكى ههنا خمسة أنواع من معجزات عيسى عليه السلام:

النوع الأول: ما ذكره ههنا في هذه الآية وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة «أني» بفتح الهمزة، وقرأ نافع بكسر الهمزة فمن فتح «أني» فقد جعلها بدلاً من آية كأنه قال: وجئتكم بأني أخلق لكم من الطين، ومن كسر فله وجهان: (أحدهما): الاستئناف وقطع الكلام مما قبله. و(الثاني): أنه فسر الآية بقوله ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم﴾ ويجوز أن يفسر الجملة المتقدمة بما يكون على وجه الابتداء قال الله تعالى ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩] ثم فسر الموعود بقوله ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [المائدة: ٩] وقال ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] ثم فسر المثل بقوله ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]وهذا الوجه أحسن لأنه في المعنى كقراءة من فتح «أني» على جعله بدلاً من آية.

والمسألة الثانية: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ أي أقدر وأصور وقد بينا في تفسير قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] إن الخلق هو التقدير ولا بأس بأن نذكره ههنا أيضاً فنقول الذي يدل عليه القرآن والشعر والاستشهاد، أما القرآن فآيات (أحدها): قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي المقدرين، وذلك لأنه ثبت أن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب تفسير كونه خالقاً بالتقدير والتسوية و(ثانيها): أن لفظ الخلق يطلق على الكذب قال تعالى في سورة الشعراء ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] وفي العنكبوت ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] وفي سورة ص ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧] والكاذب إنما سمي خالقاً لأنه يقدر الكذب في خاطره ويصوره (ثالثها): هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ أي أصور وأقدر وقال

تعالى في المائدة ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وكل ذلك يدل على أن الخلق هو التصوير والتقدير و(رابعها): قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله ﴿خَلَقَ﴾ إشارة إلى الماضي، فلو حملنا قوله ﴿خَلَقَ﴾ على الإيجاد والإبداع، لكان المعنى: أن كل ما في الأرض فهو تعالى قد أوجده في الزمان الماضي، وذلك باطل بالاتفاق، فإذن وجب حمل الخلق على التقدير حتى يصح الكلام وهو أنه تعالى قدر في الماضي كل ما وجد الآن في الأرض، وأما الشعر فقوله:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض
القوم يخلق ثم لا يفرى

وقوله:

ولا يعطي بأيدي الخالقين ولا
أيدي الخوالق إلا جيد الأدم

وأما الاستشهاد: فهو أنه يقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بالقياس والخلاق المقدار من الخير، وفلان خليق بكذا، أي له هذا المقدار من الإستحقاق، والصخرة الخلقاء الملساء، لأن الملاسة استواء، وفي الخشونة اختلاف، فثبت أن الخلق عبارة عن التقدير والتسوية. إذا عرفت هذا فنقول: اختلف الناس في لفظ «الخالق» قال أبو عبد الله البصري: إنه لا يجوز إطلاقه على الله في الحقيقة، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الظن والحسبان وذلك على الله محال، وقال أصحابنا: الخالق، ليس إلا الله، واحتجوا عليه بقوله تعالى ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ومنهم من احتج بقوله ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: ٣] وهذا ضعيف، لأنه تعالى قال ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [فاطر: ٣] فالمعنى هل من خالق غير الله موصوف بوصف كونه رازقاً من السماء ولا يلزم من صدق قولنا الخالق الذي يكون هذا شأنه، ليس إلا الله، صدق قولنا أنه لا خالق إلا الله.

وأجابوا عن كلام أبي عبدالله بأن التقدير والتسوية عبارة عن العلم والظن لكن الظن وإن كان محالاً في حق الله تعالى فالعلم ثابت.

إذا عرفت هذا فنقول ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ معناه: أصور وأقدر وقوله ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ فالهيئة الصورة المهيئة من قولهم هيأت الشيء إذ قدرته وقوله ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي في ذلك الطين المصور وقوله ﴿فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع «فيكون طائراً» بالألف على الواحد، والباقون (طيراً) على الجمع، وكذلك في المائدة والطير اسم الجنس يقع على الواحد وعلى الجمع.

يروى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات، أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش، فأخذ طيناً وصوره، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً، ثم اختلف الناس فقال قوم: إنه لم يخلق غير الخفاش، وكانت قراءة نافع عليه. وقال آخرون: إنه خلق أنواعاً من الطير وكانت قراء الباقين عليه.

المسألة الثانية: قال بعض المتكلمين: الآية تدل على أن الروح جسم رقيق كالريح، ولذلك وصفها بالفتح، ثم ههنا بحث، وهو أنه هل يجوز أن يقال: إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية، بحيث متى نفخ في شيء كان نفخه فيه موجباً لصيرورة ذلك الشيء حياً، أو يقال: ليس الأمر كذلك بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخة عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات، وهذا الثاني هو الحق لقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] وحكى عن إبراهيم عليه السلام إنه قال في مناظرته مع الملك ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فلو حصل لغيره، هذه الصفة لبطل ذلك الاستدلال.

المسألة الثالثة: القرآن دل على أنه عليه الصلاة والسلام إنما تولد من نفخ جبريل عليه السلام في مريم وجبريل ﷺ روح محض وروحاني محض فلا جرم كانت نفخة عيسى عليه السلام للحياة والروح.

المسألة الرابعة: قوله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه بتكوين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي إلا بأن يوجد الله

الموت، وإنما ذكر عيسى عليه السلام هذا القيد إزالة للشبهة، وتنبيهاً على إني أعمل هذا التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل.

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات:

فهو قوله ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمه هو الذي ولد أعمى، وقال الخليل وغيره هو الذي عمي بعد أن كان بصيراً، وعن مجاهد هو الذي لا يبصر بالليل، ويقال: إنه لم يكن في هذه الأمة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير، وروي أنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه، ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده، قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بـ«يا حي يا قيوم». وأحيا عاذر، وكان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره، فخرج حياً، ومر على ابن ميت لعجوز فدعا الله، فنزل عن سريره حياً، ورجع إلى أهله وولد له، وقوله ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رفع لتوهم من اعتقد فيه الإلهية.

وأما النوع الخامس:

من المعجزات إخباره عن الغيوب فهو قوله تعالى حكاية عنه ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان: (أحدهما): أنه عليه الصلاة والسلام كان من أول مرة يخبر عن الغيوب، روى السدي: أنه كان يلعب مع الصبيان، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم، وكان يخبر الصبي بأن أمك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويبكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ثم قالوا لصبيانهم: لا تلعبوا مع هذا الساحر، وجمعوهم في بيت، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم، فقالوا له، ليسوا في البيت، فقال: فمن في هذا البيت، قالوا: خنازير قال عيسى عليه السلام كذلك يكونون فإذا هم خنازير.

و(القول الثاني): إن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت نزول المائدة، وذلك لأن القوم نهوا عن الإدخار، فكانوا يخزنون ويدخرون، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بذلك.

المسألة الثانية: الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى.

ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى إن في هذه الخمسة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعي اكل من آمن بدلائل المعجزة في الحمل على الصدق، على من أنكر دلالة أصل المعجز على صدق المدعي، وهم البراهمة، فإنه لا يكفيه ظهور هذه الآيات، أما من آمن بدلالة المعجز على الصدق لا يبقى له في هذه المعجزات كلام البتة.

قوله تعالى ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

اعلم أنه عليه السلام لما بين بهذه المعجزات الباهرة كونه رسولاً من عند الله تعالى، بين بعد ذلك إنه بماذا أرسل وهو أمران: (أحدهما): قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ أن تقديره وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ فقوله ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ معطوف عليه والتقدير: وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً «أني قد جئتكم بآية»، وإني بعثت ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وإنما حسن حذف هذه الألفاظ لدلالة الكلام عليها.

المسألة الثانية: إنه يجب على كل نبي أن يكون مصدقاً لجميع الأنبياء عليهم السلام، لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة، فكل من حصل له المعجز، وجب الاعتراف بنبوته، فلهذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقاً لموسى بالتوراة، ولعل من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم تقرير التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين.

وأما المقصود الثاني من بعثة عيسى عليه السلام قوله ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ .

وفيه سؤال: وهو أنه يقال: هذه الآية الأخيرة مناقضة لما قبلها لأن هذه الآية الأخيرة صريحة في أنه جاء ليحل بعض الذي كان محرماً عليه في التوراة، وهذا يقتضي أن يكون حكمه بخلاف حكم التوراة، وهذا يناقض قوله ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ .

و(الجواب): إنه لا تناقض بين الكلام، وذلك لأن التصديق بالتوراة لا معنى له إلا اعتقاد أن كل ما فيها فهو حق وصواب، وإذا لم يكن الثاني مذكوراً في التوراة لم يكن حكم عيسى بتحليل ما كان محرماً فيها، مناقضاً لكونه مصدقاً بالتوراة، وأيضاً إذا كانت الإشارة بعيسى عليه السلام موجودة في التوراة لم يكن مجيء عيسى عليه السلام وشرعه مناقضاً للتوراة، ثم اختلفوا فقال بعضهم: إنه عليه السلام ما غير شيئاً من أحكام التوراة، قال وهب بن منبه: إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام، كان يقرر السبت ويستقبل بيت المقدس، ثم إنه فسر قوله ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ بأمرين: (أحدهما): إن الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى، فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام. و(الثاني): أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنايات كما قال الله تعالى ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٦٠] ثم بقي ذلك التحريم مستمراً على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم، وقال آخرون: إن عيسى عليه السلام رفع كثيراً من أحكام التوراة، ولم يكن ذلك قادحاً في كونه مصدقاً بالتوراة على ما بيناه ورفع السبت ووضع الأحد قائماً مقامه وكان محقاً في كل ما عمل لما بينا أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حق وصدق.

ثم قال ﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وإنما أعاده لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر فأعاد ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعاً في قلوبهم ومؤثراً في طباعهم، ثم خوفهم فقال ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فبين إنه إذا لزمكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما آمركم به عن ربي، ثم إنه ختم كلامه بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكي لا يتقولوا عليه الباطل فيقولون: إنه إله وابن إله لأن إقراره لله بالعبودية يمنع مما تدعيه جهال النصارى عليه، ثم قال ﴿ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ والمعنى: أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه، ثم أكد ذلك بقوله ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ . وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى بشارة مريم بولد مثل عيسى واستقصى في بيان صفاته وشرح معجزاته وترك ههنا قصة ولادته، وقد ذكرها في سورة مريم على الاستقصاء، شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات، وأظهر لهم تلك الدلائل فهم بماذا عاملوه فقال تعالى ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة وههنا وجهان: (أحدهما): إن يجري اللفظ على ظاهره، وهو إنهم تكلموا بالكفر، فأحس ذلك بإذنه. و(الثاني): أن نحمله على التأويل، وهو أن المراد أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر، وعزمهم على قتله، ولما كان ذلك العلم علماً لا شبهة فيه، مثل العلم الحاصل

من الحواس، لا جرم عبر عن ذلك العلم بالإحساس.

المسألة الثانية: اختلفوا في السبب الذي به ظهر كفرهم على وجوه: (الأول): قال السدي: إنه تعالى لما بعثه رسولاً إلى بني إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا فخافهم واختفى عنهم، وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد ﷺ وهو بمكة فكان مستضعفاً، وكان يختفي من بني إسرائيل كما اختفى النبي ﷺ في الغار، وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله، ثم إنه عليه الصلاة والسلام خرج مع أمه يسيحان في الأرض، فاتفق أنه نزل في قرية على رجل فأحسن ذلك الرجل ضيافته وكان في تلك المدينة ملك جبار فجاء ذلك الرجل يوماً حزيناً، فسأله عيسى عن السبب فقال: ملك هذه المدينة رجل جبار ومن عادته أنه جعل على كل رجل منا يوماً يطعمه ويسقيه هو وجنوده، وهذا اليوم نوبتي والأمر متعذر علي، فلما سمعت مريم عليها السلام ذلك، قالت: يا بني ادع الله ليكفي ذلك، فقال: يا أماه إن فعلت ذلك كان شر، فقالت: قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه فقال عيسى عليه السلام: إذا قرب مجيء الملك فاملأ قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني، فلما فعل ذلك دعا الله تعالى فتحول ما في القدور طبيخاً، وما في الخوابي خمراً، فلما جاءه الملك أكل وشرب وسأله من أين هذا الخمر؟ فتعلل الرجل في الجواب فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتى أخبره بالواقعة فقال: إن من دعا الله حتى جعل الماء خمراً إذا دعا أن يحيي الله تعالى ولدي لا بد وأن يجاب، وكان ابنه قد مات قبل ذلك بأيام، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك، فقال عيسى: لا نفعل، فإنه إن عاش كان شراً، فقال: ما أبالي ما كان إذا رأيته، وإن أحييته تركتك على ما تفعل، فدعا الله عيسى، فعاش الغلام، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح واقتتلوا، وصار أمر عيسى عليه السلام مشهوراً في الخلق، وقصد اليهود قتله، وأظهروا الطعن فيه والكفر به.

و(القول الثاني): إن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة، وأنه ينسخ دينهم، فكانوا من أول الأمر طاعنين فيه، طالبين قتله، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم، وأخذوا في إيذائه وإيحاشه وطلبوا قتله.

و(القول الثالث): أن عيسى عليه السلام ظن من قومه الذين دعاهم إلى الإيمان أنهم لا يؤمنون به وأن دعوته لا تنجع فيهم فأحب أن يمتحنهم ليتحقق ما ظنه بهم فقال لهم ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فماأجابه إلا الحواريون، فعند ذلك أحس بأن من سوى الحواريين كافرون مصرون على إنكار دينه وطلب قتله.

أما قوله تعالى ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية أقوال: (الأول): أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الدين، وتمردوا عليه فر منهم وأخذ يسيح في الأرض فمر بجماعة من صيادي السمك، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زيدي وهم من جملة الحواريين الاثنى عشر فقال عيسى عليه السلام: الآن تصيد السمك، فإن تبعتني صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد، فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئاً فأمره عيسى بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه، واستعانوا بأهل سفينة أخرى، وملؤا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام.

و(القول الثاني): أن قوله ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلباً لقتله، ثم ههنا إحتمالات: (الأول): أن اليهود لما طلبوه للقتل وكان هو في الهرب عنهم قال لأولئك الاثني عشر من الحواريين: أيكم يجب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى عليه شبهي يقتل مكاني؟.

فأجابه إلى ذلك بعضهم وفيما تذكره النصارى في إنجيلهم: أن اليهود لما أخذوا عيسى سل شمعون سيفه فضرب به عبداً كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم فرمى بأذنه، فقال له عيسى: حسبك ثم أخذ أذن العبد فردها إلى موضعها، فصارت كما كانت، والحاصل أن الغرض من طلب النصرة إقدامهم على دفع الشر عنه.

و(الاحتمال الثاني): أنه دعاهم إلى القتال مع القوم

لقوله تعالى في سورة أخرى ﴿فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

المسألة الثانية: قوله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه وجوه: (الأول): التقدير: من أنصاري حال ذهابي إلى الله أو حال التجائي إلى الله. و(الثاني): التقدير: من أنصاري إلى أن أبين أمر الله تعالى، وإلى أن أظهر دينه ويكون إلى ههنا غاية كأنه أراد من يثبت على نصرتي إلى أن تتم دعوتي، ويظهر أمر الله تعالى. (الثالث): قال الأكثرون من أهل اللغة إلى ههنا بمعنى مع قال تعالى ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢] أي معها، وقال ﷺ «الذود إلى الذود إبل» أي مع الذود.

قال الزجاج: كلمة «إلى» ليست بمعنى مع فإنك لو قلت ذهب زيد إلى عمرو لم يجز أن تقول: ذهب زيد مع عمرو لأن «إلى» تفيد الغاية و«مع» تفيد ضم الشيء إلى الشيء، بل المراد من قولنا أن «إلى» ههنا بمعنى «مع» هو أنه يفيد فائدتها من حيث أن المراد من يضيف نصرته إلى نصرة الله إياي وكذلك المراد من قوله ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ﴾ [النساء: ٢] أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، وكذلك قوله عليه السلام «الذود إلى الذود إبل» معناه: الذود مضموماً إلى الذود إبل. و(الرابع): أن يكون المعنى من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله ووسيلة إليه، وفي الحديث أنه ﷺ كان يقول إذا ضحى «اللهم منك وإليك» أي تقرباً إليك، ويقول الرجل لغيره عند دعائه إياه «إلي» أي الضم إلي، فكذا ههنا المعنى من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله تعالى. (الخامس). أن يكون «إلى» بمعنى اللام كأنه قال: من أنصاري لله نظيره قوله تعالى ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: ٣٥]. و(السادس): تقدير الآية: من أنصاري في سبيل الله. و«إلى» بمعنى (في) جائز، وهذا قول الحسن.

أما قوله تعالى ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في لفظ «الحواري» وجوهاً:

(القول الأول): أن الحواري اسم موضوع لخاصة الرجل، وخالصته، ومنه يقال للدقيق حواري، لأنه هو الخالص منه، وقال ﷺ للزبير «إنه ابن عمتي، وحواري من أمتي» والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم.

(القول الثاني): الحواري أصله من الحور، وهو شدة البياض، ومنه قيل للدقيق حواري، ومنه الأحور، والحور نقاء بياض العين، وحورت الثياب: بيضتها، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم؟ فقال سعيد بن جبير: لبياض ثيابهم، وقيل كانوا قصارين، يبيضون الثياب، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحاً لهم، وإشارة إلى نقاء قلوبهم، كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال فلان نقي الجيب، طاهر الذيل، إذا كان بعيداً عن الأفعال الذميمة، وفلان دنس الثياب: إذا كان مقدماً على ما لا ينبغي.

(القول الثالث): قال الضحاك: مر عيسى عليه السلام بقوم من الذين كانوا يغسلون الثياب، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري، وهو القصار فعربت هذه اللفظة فصارت حواري، وقال مقاتل بن سليمان الحواريون: هم القصارون، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار يعرف الاستعمال دليلاً على خواص الرجل وبطانته.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هؤلاء الحواريين من كانوا؟.

(القول الأول): إنه عليه السلام مر بهم وهم يصطادون السمك فقال لهم «تعالوا نصطاد الناس» قالوا: من أنت؟ قال «أنا عيسى ابن مريم، عبد الله ورسوله» فطلبوا منه المعجز على ما قال فلما أظهر المعجز آمنوا به، فهم الحواريون.

(القول الثاني): قالوا: سلمته أمه إلى صباغ، فكان إذا أراد أن يعلمه شيئاً كان هو أعلم به منه وأراد الصباغ أن يغيب لبعض مهماته، فقال له: ههنا ثياب مختلفة، وقد علمت على كل واحد علامة معينة، فاصبغها بتلك

الألوان، بحيث يتم المقصود عند رجوعي، ثم غاب فطبخ عيسى عليه السلام جباً واحداً، وجعل الجميع فيه، وقال «كوني بإذن الله كما أريد» فرجع الصباغ فأخبره بما فعل فقال: قد أفسدت عليَّ الثياب، قال «قم فانظر» فكان يخرج ثوباً أحمر، وثوباً أخضر، وثوباً أصفر كما كان يريد، إلى أن أخرج الجميع على الألوان التي أرادها، فتعجب الحاضرون منه، وآمنوا به فهم الحواريون.

(القول الثالث): كانوا الحواريون اثنى عشر رجلاً اتبعوا عيسى عليه السلام، وكانوا إذا قالوا: يا روح الله جعنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج لكل واحد رغيفان، وإذا عطشوا قالوا يا روح الله: عطشنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج الماء فيشربون، فقالوا: من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا، وإذا شئنا سقيتنا، وقد آمنا بك فقال «أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه» فصاروا يغسلون الثياب بالكراء، فسموا حواريين.

(القول الرابع): أنهم كانوا ملوكاً قالوا وذلك أن واحداً من الملوك صنع طعاماً، وجمع الناس عليه، وكان عيسى عليه السلام على قصعة منها، فكانت القصعة لا تنقص، فذكروا هذه الواقعة لذلك الملك، فقال: تعرفونه؟ قالوا: نعم، فذهبوا بعيسى عليه السلام، قال من أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم، قال فإني أترك ملكي وأتبعك فتبعه ذلك الملك مع أقاربه، فأولئك هم الحواريون قال القفال: ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك، وبعضهم من صيادي السمك، وبعضهم من القصارين، والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، وأعوانه، والمخلصين في محبته، وطاعته وخدمته.

المسألة الثالثة: المراد من قوله ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه، لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محال، فالمراد منه ما ذكرناه.

أما قوله ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فهذا يجري مجرى ذكر العلة، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله، لأجل أنا آمنا بالله، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله، والذب عن أوليائه، والمحاربة مع أعدائه.

ثم قالوا ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وذلك لأن إشهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم، إشهاد لله تعالى أيضاً، ثم فيه قولان: الأول: المراد واشهد أنا منقادون لما تريده منا في نصرتك، والذب عنك، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه. الثاني: أن ذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم.

واعلم أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إيمانهم وعلى إسلامهم تضرعوا إلى الله تعالى، وقالوا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وذلك لأن القوم آمنوا بالله حين قالوا في الآية المتقدمة ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا ﴿ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾، وآمنوا برسول الله حيث قالوا ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾، فعند ذلك طلبوا الزلفة والثواب، فقالوا ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين فضل يزيد على فضل الحواريين، ويفضل على درجته، لأنهم هم المخصوصون بأداء الشهادة، قال الله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والثاني: وهو منقول أيضاً عن ابن عباس ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي اكتبنا في زمرة الأنبياء لأن كل نبي شاهد لقومه قال الله تعالى ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وقد أجاب الله تعالى دعاءهم وجعلهم أنبياء ورسلاً، فأحيوا الموتى، وصنعوا كل ما صنع عيسى عليه السلام.

و(القول الثالث): ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد لأنبيائك بالتصديق، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلام أنفسهم، حيث قالوا ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيداً للأمر، وتقوية له، وأيضاً طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد لله بالتوحيد ولأنبيائه بالنبوة.

(القول الرابع): إن قوله ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ إشارة إلى أن كتاب الأبرار إنما يكون في السموات مع الملائكة، قال الله تعالى ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى

عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] فإذا كتب الله ذكرهم مع الشاهدين المؤمنين كان ذكرهم مشهوراً في الملأ الأعلى وعند الملائكة المقربين.

(القول الخامس): أنه تعالى قال ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فجعل أولو العلم من الشاهدين، وقرن ذكرهم بذكر نفسه، وذلك درجة عظيمة، ومرتبة عالية، فقالوا ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي اجعلنا من تلك الفرقة الذين قرنت ذكرهم بذكرك.

و(القول السادس): أن جبريل عليه السلام لما سأل محمداً ﷺ عن الإحسان فقال «أن تعبد الله كأنك تراه»، وهذا غاية درجة العبد في الاشتغال بالعبودية، وهو أن يكون العبد في مقام الشهود، لا في مقام الغيبة، فهؤلاء القوم لما صاروا كاملين في درجة الاستدلال أرادوا الترقي من مقام الاستدلال إلى مقام الشهود والمكاشفة، فقالوا ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

(القول السابع): أن كل من كان في مقام شهود الحق لم يبال بما يصل إليه من المشاق والآلام، فلما قبلوا من عيسى عليه السلام أن يكونوا ناصرين له، ذابين عنه، قالوا ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، أي اجعلنا ممن يكون في شهود جلالك، حتى نصير مستحقرين لكل ما يصل إلينا من المشاق والمتاعب، فحينئذ يسهل علينا الوفاء بما التزمناه من نصرة رسولك ونبيك.

ثم قال تعالى ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أصل المكر في اللغة السعي بالفساد في خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم، وقال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه، ومنه امرأة ممكورة، أي مجتمعة الخلق وإحكام الرأي يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] فلما كان المكر رأياً محكماً قوياً مصوناً عن جهات النقص والفتور، لا جرم سمي مكراً.

المسألة الثانية: أما مكرهم بعيسى عليه السلام، فهو أنهم هموا بقتله، وأما مكر الله تعالى بهم، ففيه وجوه:

الأول: مكر الله تعالى بهم هو أنه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وذلك أن يهودا ملك اليهود، أراد قتل عيسى عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام، لا يفارقه ساعة، وهو معنى قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، فلما أرادوا ذلك أمره جبريل عليه السلام أن يدخل بيتاً فيه روزنة، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة، وكان قد ألقى شبهه على غيره، فأخذ وصلب فتفرق الحاضرون ثلاث فرق، فرقة قالت: كان الله فينا فذهب، وأخرى قالت: كان ابن الله، والأخرى قالت: كان عبد الله ورسوله فأكرمه بأن رفعه إلى السماء، وصار لكل فرقة جمع فظهرت الكافرتان على الفرقة المؤمنة إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ، وفي الجملة، فالمراد من مكر الله بهم أن رفعه إلى السماء وما مكنهم من إيصال الشر إليه.

الوجه الثاني: أن الحواريين كانوا اثني عشر، وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجل منهم، ودل اليهود عليه، فألق الله شبهه عليه ورفع عيسى، فأخذوا ذلك المنافق الذي كان فيهم، وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام، فكان ذلك هو مكر الله بهم.

الوجه الثالث: ذكر محمد بن إسحق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى عليه السلام. فشمسوهم وعذبوهم، فلقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم، وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له إن رجلاً من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله، وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل، فقال: لو علمت ذلك لحلت بينه وبينهم، ثم بعث إلى الحواريين، فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام، فأخبروه فتابعهم على دينهم، وأنزل المصلوب فغيبه، وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم، وكان اسم هذا الملك طباريس، وهو صار نصرانياً، إلا أنه ما أظهر ذلك، ثم إنه جاء بعده ملك آخر، يقال له:

مطليس، وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة، فقتل وسبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهم بقتله.

(القول الرابع): أن الله تعالى سلط عليهم ملك فارس حتى قتلهم، وسباهم، وهو قوله تعالى ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] فهذا هو مكر الله تعالى بهم.

(القول الخامس): يحتمل أن يكون المراد أنهم مكروا في إخفاء أمره، وإبطال دينه، ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل والدناءة أعداءه وهم اليهود والله أعلم.

المسألة الثالثة: المكر عبارة عن الإحتيال في إيصال الشر، والاحتيال على الله تعالى محال فصار لفظ المكر في حقه من المتشابهات وذكروا في تأويله وجوهاً: (أحدها): أنه تعالى سمى جزاء المكر بالمكر، كقوله ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وسمى جزاء المخادعة بالمخادعة، وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء. و(الثاني): أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمى بذلك. (الثالث): أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع والله أعلم.

قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: العامل في «إذ» قوله ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي وجد هذا المكر إذ قال الله هذا القول، وقيل التقدير: ذاك إذ قال الله.

المسألة الثانية: اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات:

الصفة الأولى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ونظيره قوله تعالى حكاية عنه ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين: (أحدهما): إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم، ولا تأخير فيها. و (الثاني): فرض التقديم والتأخير فيها، أما الطريق الأول فبيانه من وجوه: (الأول): معنى قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن. و (الثاني): ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مميتك، وهو مروي عن ابن العباس، ومحمد بن إسحق قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله، ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء، ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه: (أحدها): قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع. و (ثانيها) قال محمد بن اسحاق: توفي سبع ساعات، ثم احياه الله ورفعه. (الثالث) قال: الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

(الوجه الرابع): في تأويل الآية أن الواو في قوله ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي ﷺ «إنه سينزل ويقتل الدجال» ثم إن الله تعالى يتوفاه بعد ذلك.

(الوجه الخامس) في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي: وهو أن المراد ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عن شهواتك وحظوظ نفسك، ثم قال ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وذلك لأن من لم يصر فانياً عما سوي الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضاً فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة، والغضب والأخلاق الذميمة.

و (الوجه السادس): إن التوفي أخذ الشيء وافياً، ولما علم الله إن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على

صحة هذا التأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾ [النساء: ١١٣].

و (الوجه السابع): ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي أجعلك كالمتوفي لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفي، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

(الوجه الثامن): إن التوفي هو القبض يقال: وفاني فلان دراهمي، وأوفاني وتوفيتها منه، كما يقال: سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه، وقد يكون أيضاً توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفياً له.

فإن قيل: فعلى هذا الوجه كان التوفي في عين الرفع إليه فيصير قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ تكراراً.

قلنا: قوله ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء، فلما قال بعده ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ كان هذا تعيينا للنوع ولم يكن تكراراً.

(الوجه التاسع): أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير: متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي ورافع عملك إلي، وهو كقوله ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠] والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها.

(الطريق الثاني): وهو قول من قال لابد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى تقديم أو تأخير، قالوا: إن قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ يقتضي إنه رفعه حياً، والواو لا تقتضي الترتيب، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن.

واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغني عن التزام مخالفة الظاهر والله أعلم.

والمشبهة يتمسكون بهذه الآية في إثبات المكان لله تعالى وأنه في السماء، وقد دللنا في المواضع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القاطعة على أنه يمتنع كونه تعالى في المكان فوجب حمل اللفظ على التأويل، وهو من وجوه:

(الوجه الأول): أن المراد إلى محل كرامتي، وجعل ذلك رفعاً إليه للتفخيم والتعظيم ومثله قوله ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب إبراهيم ﷺ من العراق إلى الشام وقد يقول السلطان: ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي، وقد يسمى الحجاج زوار الله، ويسمى المجاورون جيران الله، والمراد من كل ذلك التفخيم والتعظيم فكذا ههنا.

(الوجه الثاني): في التأويل أن يكون قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ معناه إنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله لأن في الأرض قد يتولى الخلق أنواع الأحكام فأما السموات فلا حاكم هناك في الحقيقة وفي الظاهر إلا الله.

(الوجه الثالث): إن بتقدير القول بأن الله في مكان لم يكن ارتفاع عيسى إلى ذلك سبباً لانتفاعه وفرحه بل إنما ينتفع بذلك لو وجد هناك مطلوبه من الثواب والروح والراحة والريحان، فعلى كلا القولين لا بد من حمل اللفظ على أن المراد: ورافعك إلي محل ثوابك ومجازاتك، وإذا كان لا بد من إضمار ما ذكرناه لم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان لله تعالى.

الصفة الثالثة: من صفات عيسى قوله تعالى ﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ والمعنى مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى.

الصفة الرابعة: قوله ﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾: وجهان (الأول): أن المعنى: الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة، فيكون ذلك إخباراً عن ذل اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة، فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من

أنفسهم موافقته فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال، ومع ذلك فإنا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكاً يهودياً ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك (الثاني) أن المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والدليل.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ هو الرفعة بالدرجة والمنقبة، لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة.

أما قوله ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فالمعنى أنه تعالى بشر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة، والدرجات الرفيعة العالية، وأما في القيامة فإنه يحكم بين المؤمنين به، وبين الجاحدين برسالته، وكيفية ذلك الحكم ما ذكره في الآية التي بعد هذه الآية. وبقي من مباحث هذه الآية موضع شكل، وهو أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره على ما قال ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧] والأخبار أيضاً واردة بذلك إلا أن الروايات اختلفت، فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين دلوا اليهود على مكانه حتى قتلوه وصلبوه، وتارة يروى أنه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه في أن يلقى شبهه حتى يقتل مكانه، وبالجملة فكيفما كان ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات:

(الإشكال الأول): إنا لو جوزنا إلقاء شبه إنسان على انسان آخر لزم السفسطة، فإني إذا رأيت ولدي ثم رأيته ثانياً فحينئذ أجوز أن يكون هذا الذي رأيته ثانياً ليس بولدي بل هو إنسان ألقي شبهه عليه وحينئذ يرتفع الأمان على المحسوسات، وأيضاً فالصحابة الذين رأوا محمداً ﷺ يأمرهم وينهاهم وجب أن لا يعرفوا أنه محمد لاحتمال أنه ألقى شبهه على غيره وذلك يفضي إلى سقوط الشرائع، وأيضاً فمدار الأمر في الأخبار المتواترة على أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس، فإذا جاز وقوع الغلط في المبصرات كان سقوط خبر المتواتر أولى وبالجملة ففتح هذا الباب أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات بالكلية.

و (الإشكال الثاني): وهو أن الله تعالى كان قد أمر جبريل عليه السلام بأن يكون معه في أكثر الأحوال، هكذا قاله المفسرون في تفسير قوله ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ [المائدة: ١١٠] ثم إن طرف جناح واحد من أجنحة جبريل عليه السلام كان يكفي العالم من البشر فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود عنه؟ وأيضاً أنه عليه السلام لما كان قادراً على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوه بالسوء وعلى إسقامهم وإلقاء الزمانة والفلج عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له؟.

و (الإشكال الثالث): إنه تعالى كان قادراً على تخليصه من أولئك الأعداء بأن يرفعه إلى السماء فما الفائدة في إلقاء شبهه على غيره، وهل فيه إلا إلقاء مسكين في القتل من غير فائدة إليه؟.

و (الإشكال الرابع): إنه إذا ألقي شبهه على غيره ثم إنه رفع بعد ذلك إلى السماء فالقوم اعتقدوا فيه أنه هو عيسى مع أنه ما كان عيسى، فهذا كان إلقاء لهم في الجهل والتلبيس، وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى.

و (الإشكال الخامس): إن النصارى على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام، وغلوهم في أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً، فلو أنكرنا ذلك كان طعناً فيما ثبت بالتواتر، والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد ﷺ، ونبوة عيسى، بل في وجوذهما، ووجود سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل.

و (الإشكال السادس): إنه ثبت بالتواتر أن المصلوب بقي حياً زماناً طويلاً، فلو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر الجزع، ولقال: إني لست بعيسى بل إنما أنا غيره، ولبالغ في تعريف هذا المعنى، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند

الخلق هذا المعنى، فلما لم يوجد شيء من هذا علمنا أن ليس الأمر على ما ذكرتم، فهذا جملة ما في الموضع من السؤالات:

و (الجواب عن الأول): إن كل من أثبت القادر المختار، سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق إنساناً آخر على صورة زيد مثلاً، ثم إن هذا التصوير لا يوجب الشك المذكور، فكذا القول فيما ذكرتم.

و (الجواب عن الثاني): إن جبريل عليه السلام لو دفع الأعداء عنه أو أقدر الله تعالى عيسى عليه السلام على دفع الأعداء عن نفسه لبلغت معجزته إلى حد الإلجاء، وذلك غير جائز.

و (هذا هو الجواب عن الإشكال الثالث) فإنه تعالى لو رفعه إلى السماء وما ألقي شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة إلى حد الإلجاء.

و (الجواب عن الرابع): إن تلامذة عيسى كانوا حاضرين، وكانوا عالمين بكيفية الواقعة، وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس.

و (الجواب عن الخامس): إن الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم.

و (الجواب عن السادس): إن بتقدير أن يكون الذي ألقى شبه عيسى عليه السلام كان مسلماً وقبل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال في تلك الواقعة، وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها أمور تتطرق الإحتمالات إليها من بعض الوجوه، ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد ﷺ في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع، والله ولي الهداية.

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ بين بعد ذلك مفصلاً ما في ذلك الإختلاف، أما الإختلاف فهو أن كفر قوم وآمن آخرون، وأما الحكم فيمن كفر فهو أن يعذبه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، وأما الحكم فيمن آمن وعمل الصالحات، فهو أن يوفيهم أجورهم، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما عذاب الكافر في الدنيا فهو من وجهين: (أحدهما): القتل والسبي وما شاكله، حتى لو ترك الكفر لم يحسن إيقاعه به، فذلك داخل في عذاب الدنيا. (والثاني): ما يلحق الكافر من الأمراض والمصائب، وقد اختلفوا في أن ذلك هل هو عقاب أم لا؟ قال بعضهم: إنه عقاب في حق الكافر، وإذا وقع مثله للمؤمن فإنه لا يكون عقاباً بل يكون ابتلاء وامتحاناً، وقال الحسن: إن مثل هذا إذا وقع للكافر لا يكون عقاباً بل يكون أيضاً ابتلاء وامتحاناً، ويكون جارياً مجرى الحدود التي تقام على التائب، فأنها لا تكون عقاباً بل امتحاناً، والدليل عليه أنه تعالى يعد الكل بالصبر عليها والرضا بها والتسليم لها وما هذا حاله لا يكون عقاباً.

فإن قيل: فقد سلمتم في الوجه الأول إنه عذاب للكافر على كفره، وهذا على خلاف قوله تعالى ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [النحل: ٦١] وكلمة «لو» تفيد انتفاء الشيء لإنتفاء غيره، فوجب أن لا توجد المؤاخذة في الدنيا، وأيضاً قال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر: ١٧] وذلك يقتضي حصول المجازاة في ذلك اليوم، لا في الدنيا، قلنا: الآية الدالة على حصول العقاب في الدنيا خاصة، والآيات التي ذكرتموها عامة، والخاص مقدم على العام.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول وصف العذاب بالشدة، يقتضي أن يكون عقاب الكافر في الدنيا أشد، ولسنا نجد الأمر كذلك، فإن الأمر تارة يكون على الكفار وأخرى على المسلمين، ولا نجد بين الناس تفاوتاً.

قلنا: بل التفاوت موجود في الدنيا، لأن الآية في بيان أمر اليهود الذين كذبوا بعيسى عليه السلام، ونرى الذلة والمسكنة لازمة لهم، فزال الإشكال.

المسألة الثالثة: وصف تعالى هذا العذاب بأنه ليس لهم من ينصرهم ويدفع ذلك العذاب عنهم. فإن قيل: أليس قد يمتنع على الأئمة والمؤمنين قتل الكفار بسبب العهد وعقد الذمة.

قلنا: المانع هو العهد، ولذلك إذا زال العهد حل قتله.

ثم قال تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حفص عن عاصم ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ ﴾ بالياء، يعني فيوفيهم الله، والباقون بالنون حملاً على ما تقدم من قوله ﴿ فَأَحْكُمُ، فَأُعَذِّبُهُمْ ﴾ وهو الأولى لأنه نسق الكلام.

المسألة الثانية: ذكر الذين آمنوا، ثم وصفهم بأنهم عملوا الصالحات، وذلك يدل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان، وقد تقدم ذكر هذه الدلالة مراراً.

المسألة الثالثة: احتج من قال بأن العمل علة للجزاء بقوله ﴿ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ ﴾ فشبههم في عبادتهم لأجل طلب الثواب بالمستأجر، والكلام فيه أيضاً قد تقدم والله أعلم.

المسألة الرابعة: المعتزلة احتجوا بقوله ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ على أنه تعالى لا يريد الكفر والمعاصي، قالوا: لأن مريد الشيء لا بد وأن يكون محباً له، إذا كان ذلك الشيء من الأفعال وإنما تخالف المحبة الإرادة إذا علقتا بالأشخاص، فقد يقال: أحب زيداً، ولا يقال: أريده، وأما إذا علقتا بالأفعال: فمعناهما واحد إذا استعملتا على حقيقة اللغة، فصار قوله ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ بمنزلة قوله «لا يريد ظلم الظالمين» هكذا قرره القاضي، وعند أصحابنا أن المحبة عبارة عن إرادة إيصال الخير إليه فهو تعالى وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لا يريد إيصال الثواب إليه، وهذه المسألة قد ذكرناها مراراً وأطواراً.

ثم قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من نبأ عيسى وزكريا وغيرهما، وهو مبتدأ، خبره ﴿ نَتْلُوهُ ﴾ و ﴿ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي، و ﴿ نَتْلُوهُ﴾ صلته، و ﴿ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الخبر.

المسألة الثانية: التلاوة والقصص واحد في المعنى، فإن كلاً منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ ﴾ [القصص: ٣] وأضاف القصص إلى نفسه فقال ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة الملك جاريه مجرى تلاوته سبحانه وتعالى، وهذا تشريف عظيم للملك، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل ﷺ لما كان بأمره من غير تفاوت أصلاً أضيف ذلك إليه سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: قوله ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه، أن ذلك من آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك، لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارىء من كتاب أو من يوحي إليه، فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ، فبقي أن ذلك من الوحي.

المسألة الرابعة: ﴿ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فيه قولان: (الأول): المراد منه القرآن وفي وصف القرآن بكونه ذكراً حكيماً وجوه: (الأول): إنه بمعنى الحاكم مثل القدير والعليم، والقرآن حاكم بمعنى أن الأحكام تستفاد منه. (والثاني): معناه ذو الحكمة في تأليفه ونظمه وكثرة علومه. (والثالث): أنه بمعنى المحكم، فعيل بمعنى مفعل، قال الأزهري: وهو شائع في اللغة، لأن حكمت يجري مجرى أحكمت في المعنى، فرد إلى الأصل، ومعنى المحكم في القرآن أنه أحكم عن تطرق وجوه الخلل إليه قال تعالى ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ [هود: ١] (والرابع): أن يقال القرآن لكثرة حكمه إنه ينطق بالحكمة، فوصف بكونه حكيماً على هذا التأويل.

(القول الثاني): أن المراد بالذكر الحكيم ههنا غير القرآن، وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، أخبر أنه تعالى أنزل هذا القصص مما كتب هنالك، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول ﷺ، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى، فكذا القول في عيسى عليه السلام، هذا حاصل الكلام، وأيضاً إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟ بل هذا أقرب إلى العقل، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس، هذا تلخيص الكلام.

ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: ﴿مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي صفته كصفة آدم ونظيره قوله تعالى ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي صفة الجنة.

المسألة الثانية: قوله تعالى ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ ليس بصلة لآدم ولا صفة ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم، قال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور، ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا.

المسألة الثالثة: اعلم أن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم عليه السلام كما في هذه الآية، وقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] ثم إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم عليه السلام وجوهاً كثيرة: (أحدها): أنه مخلوق من التراب كما في هذه الآية. (والثاني): أنه مخلوق من الماء، قال الله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] (والثالث): أنه مخلوق من الطين قال الله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]. و (الرابع): أنه مخلوق من سلالة من طين قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]. (الخامس): أنه مخلوق من طين لازب قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]. (السادس): إنه مخلوق من صلصال قال تعالى ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]. (السابع) أنه مخلوق من عجل، قال تعالى ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. (الثامن): قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، أما الحكماء فقالوا: إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه: (الأول): ليكون متواضعاً. (الثاني): ليكون ستاراً. (الثالث): ليكون أشد التصاقاً بالأرض، وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض، قال تعالى ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. (الرابع): أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام، وابتلاهم بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطف الأجرام، وأعطاهم كمال الشدة والقوة، وخلق آدم عليه السلام من التراب الذي هو أكثف الأجرام، ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية، وخلق السموات من أمواج مياه البحار وأبقاها معلقة في الهواء حتى يكون خلقه هذه الأجرام برهاناً باهراً ودليلاً ظاهراً على أنه تعالى هو المدبر بغير احتياج، والخالق بلا مزاج وعلاج. (الخامس): خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة، والغضب، والحرص، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب، وإنما خلقه من الماء ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طيناً وهو قوله ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ثم إنه في المرتبة الرابعة قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] والسلالة بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسل من ألطف أجزاء الطين، ثم إنه في المرتبة السادسة أثبت له من الصفات ثلاثة أنواع:

(أحدها): أنه من صلصال والصلصال: اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت. و (الثاني): الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة، وتغير

لونه إلى السواد. و (الثالث): تغير رائحته قال تعالى ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي لم يتغير. فهذه جملة الكلام في التوفيق بين الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام.

المسألة الرابعة: في الآية إشكال، وهو أنه تعالى قال ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدماً على قول الله له «كن» وذلك غير جائز.

وأجاب عنه من وجوه: (الأول): قال أبو مسلم: قد بينا أن الخلق هو التقدير والتسوية، ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه وإراداته لإيقاعه على الوجه المخصوص وكل ذلك متقدم على وجود آدم عليه السلام تقديماً من الأزل إلى الأبد، وأما قوله ﴿كُنْ﴾ فهو عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله ﴿كُنْ﴾.

و (الجواب الثاني): وهو الذي عول عليه القاضي أنه تعالى خلقه من الطين ثم قال له «كن» أي أحياه كما قال ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فإن قيل الضمير في قوله خلقه راجع إلى آدم وحين كان تراباً لم يكن آدم عليه السلام موجوداً.

أجاب القاضي وقال: بل كان موجوداً وإنما وجد بعد حياته، وليست الحياة نفس آدم وهذا ضعيف لأن آدم عليه السلام ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكلة بالشكل المخصوص، بل هي عبارة عن هوية أخرى مخصوصة وهي: إما المزاج المعتدل، أو النفس، وينجر الكلام من هذا البحث إلى أن النفس ما هي، ولا شك أنها من أغمض المسائل.

(الجواب): الصحيح أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم عليه السلام قبل ذلك، تسمية لما سيقع بالواقع.

و (الجواب الثالث) أن قوله ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يفيد تراخي هذا الخبر عن ذلك الخبر كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] ويقول القائل: أعطيت زيدا اليوم ألفاً ثم أعطيته أمس ألفين، ومراده: أعطيته اليوم ألفاً، ثم أنا أخبركم أني أعطيته أمس ألفين فكذا قوله ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي صيره خلقاً سوياً ثم إنه يخبركم أني إنما خلقته بأن قلت له «كن».

المسألة الخامسة: في الآية إشكال آخر وهو أنه كان ينبغي أن يقال: ثم قال له كن فكان فلم يقل كذلك بل قال ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

و (الجواب) تأويل الكلام، ثم قاله له ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكان.

واعلم يا محمد أن ما قال له ربك «كن» فإنه يكون لا محالة...

أبو حيان الأندلسي ج ٢ ص ٤٥٤ ـ ٤٧٨

... القلم معروف وهو الذي يكتب به وجمعه أقلام، ويقع على السهم الذي يقترع به، وهو فعل بمعنى مفعول لأنه يقلم أي يبري ويسوى. وقيل: هو مشتق من القلامة وهي نبت ضعيف لترقيقه، والقلامة أيضاً ما سقط من الظفر إذا قلم وقلمت أظفاره أخذت منها وسويتها. قال زهير:

لدى أسد شاكي السلاح مقذف
له لبد أظفاره لم تقلم

وقال بعض المولدين:

يشبهه بالهلال وذاك نقص
قلامة ظفره شبه الهلال

الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، فقد يكون بالملك للرسل وبالإلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. وبالإشارة إلى قوله: «لأوحت إلينا والأنامل رسلها». ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾ [مريم ١١] قال زهير:

أتى العجم والآفاق منه قصائد
بقين بقاء الوحي في الحجر الصم

والوحي الكتاب قال:

فدافع الرّيان عرّى رسمها
خلقا كما ضمن الوحي سلامها

وقيل الوحي جمع وحى وأما الفعل فيُقال أوحى

ووحى. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ عبراني معرّب وأصله بالعبراني «مشيحاً» بالشين عرب بالسين كما غيرت في موسى فقيل موشى قاله أبو عبيد، وقال الزمخشري: ومعناه المبارك كقوله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وهو من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق.

وقيل: المسيح عربي واختلف أهو مشتق من السياحة فيكون وزنه مفعلاً أو من المسح فيكون وزنه فعيلاً وهل يكون بمعنى مفعول أو فاعل خلاف. ويتبين في التفسير لم سمي بذلك. «الكهل» الذي بلغ سن الكهولة وآخرها ستون. وقيل: خمسون، وقيل: اثنان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة. واختلف في أوّلها، فقيل ثلاثون، وقيل: اثنان وثلاثون، وقيل: ثلاثة وثلاثون، وقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: أربعون عاماً وهو من اكتهل النبات إذا قوى وعلا، ومنه الكاهل. وقال ابن فارس: اكتهل الرجل وخطه الشيب من قولهم «اكتهلت الروضة» إذا عمّها النور، ويُقال للمرأة كهلة انتهى. ونقل عن الأئمة في ترتيب سن المولود وتنقل أحواله أنه في الرحم جنين، فإذا ولد فوليد، فإذا لم يستتم الأسبوع فصديع، وإذا دام يوضع فرضيع، وإذا فطم ففطيم، وإذا لم يرضع فجحوش، فإذا دب ونما فدارج، فإذا سقطت رواضعه فثغور، فإذا نبتت بعد السقوط فثغر بالتاء والثاء، فإذا كان يجاوز العشر فترعرع وناشيء، فإذا كان يبلغ الحلم فيافع ومراهق، فإذا احتلم فحزور، وهو في جميع هذه الأحوال غلام، فإذا اخضرّ شاربه وسال عذاره فباقل، فإذا صار ذاقناً ففتى وشارخ، فإذا كملت لحيته فمجتمع، ثم مادام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ثم هو كهل إلى أن يستوي في الستين هذا هو المشهور عند أهل اللغة. الطين معروف ويُقال طانه الله على كذا وطامه بإبدال النون ميماً جبله وخلقه على كذا ومطين لقب لمحدث معروف. الهيئة الشكل والصورة وأصله مصدر يُقال هاء الشيء يهاء هيأ وهيئته إذا ترتب واستقرّ على حال مّا وتعديه بالتضعيف فتقول هيّأته قال ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ﴾ [الكهف: ١٦]. النفخ معروف. «الإبراء» إزالة العلة والمرض يُقال برىء الرجل وبرأ من المرض، وأما من الذنب ومن الدّين فبرىء.

«الكمه» العمى يولد به الإنسان وقد يعرض يقال كمه يكمه كمهاً فهو أكمه وكمهتها أنا أعميتها قال سويد: «كمهت عيناه حتى ابيضتا». وقال رؤبة: «فارتدّ عنها كارتداد الأكمه». «البرص» داء معروف وهو بياض يعتري الجلد يقال منه برص فهو أبرص ويسمى القمر أبرص لبياضه والوزع سام أبرص للبياض الذي يعلو جلده. ذخر الشيء يذخره خبأه والذخر المذخور قال:

لهـا أشـاريـر مـن لحـم تثمـره
مـن الثعـالـي وذخـر مـن أرانبهـا

... ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾... الإحساس الإدراك ببعض الحواس الخمس وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس. يُقال أحسست الشيء وحسست به وتبدل سينه ياء فيُقال حسيت به، أو تحذف أولى سينيه في أحسست فيقول أحسست قال:

سـوى أن العتـاق مـن المطـايـا
أحسـن بـه فهـن إليـه شـوس

وقال سيبويه وما شاذ من المضاعف يعني في الحذف فشبيه بباب أقمت، وذلك قولهم أحست وأحسن يريدون أحسست وأحسسن وكذلك يفعل بكل بناء تبني لام الفعل فيه على السكون ولا تصل إليه الحركة فإذا قلت لم أحس لم تحذف. الحواري صفوة الرجل وخاصته ومنه قيل الحضريات الحواريات لخلوص ألوانهنّ ونظافتهنّ. قال أبو جلدة اليشكري:

فقـل للحـواريـات تبكيـن غيـرنـا
ولا تبكنـا إلا الكـلاب النـوابـح

ومثله في الوزن الحوالي للكثير الحيلة وليست الياء فيهما للنسب، وهو مشتق من الحور وهو البياض حورت الثوب بيضته. المكر الخداع والخبث وأصله الستر، يقال: مكر الليل إذا أظلم واشتقاقه من المكر وهو شجر ملتف فكان الممكور به يلتف به المكر ويشتمل عليه ويقال امرأة ممكورة إذا كانت ملتفة الخلق والمكر ضرب من النبات. تعالى تفاعل من العلو وهو فعل لاتصال

الضمائر المرفوعة به ومعناه استدعاء المدعوّ من مكانه إلى مكان داعيه وهي كلمة قصد بها أولاً تحسين الأدب مع المدعو، ثم اطردت حتى يقولها الإنسان لعدوّه ولبهيمته ونحو ذلك. الابتهال قوله بهلة الله على الكاذب والبهلة بالفتح والضم اللعنه ويُقال بهله الله لعنه وأبعده من قولك أبهله إذا أهمله وناقة باهلة لا ضرار عليها، وأصل الابتهال هذا ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. وقال لبيد:

من قروم سادة من قومهم

نظر الدهر إليهم فابتهل

. . . ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الظاهر أن إلى تتعلق بمحذوف وهو العامل في فوق وهو المفعول الثاني لجاعل إذ معنى جاعل هنا مصير فالمعنى كائنين فوقهم إلى يوم القيامة، وهذا على أن الفوقية مجاز وأما إن كانت الفوقية حقيقة وهي الفوقية بالجنة فلا تتعلق إليّ بذلك المحذوف بل بما تقدّم من متوفيك، أو من رافعك، أو من مطهرك إذ يصح تعلقه بكل واحد منها أما برافعك، أو مطهرك فظاهر، وأما بمتوفيك فعلى بعض الأقوال، وهذه الأخبار الأربعة ترتيبها في غاية الفصاحة، بدأ أولاً بأخباره تعالى لعيسى أنه متوفيه فليس للماكرين به تسلط عليه ولا توصل إليه ثم بشره ثانياً برفعه إلى سمائه وسكناه مع ملائكته وعبادته فيها وطول عمره في عبادة ربه، ثم ثالثاً برفعه إلى سمائه بتطهيره من الكفار فعم بذلك جميع زمانه حين رفعه، وحين ينزله في آخر الدنيا فهي بشارة عظيمة له أنه مطهر من الكفار أولاً وآخراً. ولما كان التوفّي والرّفع كل منهما خاص بزمان بدىء بهما، ولما كان التطهير عاماً يشمل سائر الأزمان أخر عنهما، ولما بشّره بهذه البشائر الثلاث وهي أوصاف له في نفسه بشره برفعة أتباعه فوق كل كافر لتقرّ بذلك عينه ويسر قلبه. ولما كان هذا الوصف من اعتلاء تابعيه على الكفار من أوصاف تابعيه تأخر عن الأوصاف الثلاثة التي لنفسه إذا البداءة بالأوصاف التي للنفس أهم، ثم أتبع بهذا الوصف الرابع على سبيل التبشير يحال تابعيه في الدنيا ليكمل بذلك سروره بما أوتيه وأوتي تابعوه من الخير. . .

ابن كثير ج ١ ص ٣٦٢ ـ ٣٦٧

. . . يقول تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، وقال سفيان الثوري وغيره: أي من أنصاري مع الله، وقول مجاهد أقرب. والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم وأرضاهم. وهكذا عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به ووازروه ونصّروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال الله تعالى مخبر عنهم: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ . . .

وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرّقت أصحابه شيعاً بعده فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته. ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا هو الله وآخرون قالوا هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالتهم في القرآن ورد على كل فريق فاستمروا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يُقال له قسطنطين فدخل في دين النصرانية قيل حيلة ليفسده فإنه كان فيلسوفاً، وقيل جهلاً منه إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه وزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون

وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد وبنى المدينة المنسوبة إليه وأتبعه طائفة الملكية منهم وهم في هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم لأنه أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله، فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدّقوا الرسول النبي الأمي العربي خاتم الرسل، وسيد ولد آدم على الإطلاق الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها واجتازوا جميع الممالك ودانت لهم جميع الدول وكسروا كسرى وقصروا قيصر وسلبوهما كنوزهما وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيّهم عن ربهم عزّ وجلّ في قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]. فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤهم إلى الروم فلجؤا إلى مدينتهم القسطنطينية ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم يرَ الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً. . .

الآلوسي ج ٣ ص ١٥٤ ـ ١٨٧

. . . وبما أخرجه ابن جرير عن فاطمة صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم أنها قالت: «قال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول».

وقيل: المراد نساء عالمها فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها، ويؤيّده ما أخرجه ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران. وآسية بنت مزاحم. وخديجة بنت خويلد. وفاطمة بنت محمد ﷺ، وأفضلهن عالماً فاطمة». وما رواه الحرث بن أسامة في مسنده بسند صحيح لكنه مرسل «مريم خير نساء عالمها»، وإلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه وهو المشهور عن أئمة أهل البيت ـ والذي أميل إليه ـ أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث أنها بضعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بل ومن حيثيات أخر أيضاً، ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات وبحيثية من الحيثيات ـ وبه يجمع بين الآثار ـ وهذا سائغ على القول بنبوّة مريم أيضاً إذ البضعية من روح الوجود وسيد كل موجود لا أراها تقابل بشيء. وأين الثريا من يد المتناول. ومن هنا يعلم أفضليتها على عائشة رضي الله تعالى عنها الذاهب إلى خلافها الكثير محتجين بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء» وقوله عليه الصلاة والسلام: «فضّل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، وبأن عائشة يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وفاطمة يومئذ فيها مع زوجها علي كرّم الله تعالى وجهه، وفرق عظيم بين مقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومقام علي كرّم الله تعالى وجهه.

وأنت تعلم ما في هذا الاستدلال وأنه ليس بنص على أفضلية الحميراء على الزهراء، أما أولاً فلأن قصارى ما في الحديث الأول على تقدير ثبوته إثبات أنها عالمة إلى حيث يؤخذ منها ثلثا الدين، وهذا لا يدلّ على نفي العلم

المماثل لعلمها عن بضعته عليه الصلاة والسلام، ولعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم أنها لا تبقى بعده زمناً معتداً به يمكن أخذ الدين منها فيه لم يقل فيها ذلك، ولو علم لربما قال: خذوا كل دينكم عن الزهراء، وعدم هذا القول في حق من دل العقل والنقل على علمه لايدلّ على مفضوليته وإلا لكانت عائشة أفضل من أبيها رضي الله تعالى عنه لأنه لم يروَ عنه في الدين إلا قليل لقلّة لبثه وكثرة غائلته بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن قوله عليه الصلاة والسلام: «إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لا يفترقان حتى يردا على الحوض» يقوم مقام ذلك الخبر وزيادة ـ كما لا يخفى ـ كيف لا وفاطمة رضي الله تعالى عنها سيدة تلك العترة؟!

وأما ثانياً فلأن الحديث الثاني معارض بما يدل على أفضلية غيرها رضي الله تعالى عنها عليها، فقد أخرج ابن جرير عن عمار بن سعد أنه قال: «قال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: فضّلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين» بل هذا الحديث أظهر في الأفضلية، وأكمل في المدح عند من انجاب عن عين بصيرته عين التعصب والتعسف لأن ذلك الخبر وإن كان ظاهراً في الأفضلية لكنه قيل ولو على بعد: إن ـ أل ـ في النساء فيه للعهد؛ والمراد بها الأزواج الطاهرات الموجودات حين الأخبار ولم يقل مثل ذلك في هذا الحديث.

وأما ثالثاً فلأن الدليل الثالث يستدعي أن يكون سائر زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لأن مقامهم بلا ريب ليس كمقام صاحب المقام المحمود صلى الله تعالى عليه وسلم فلو كانت الشركة في المنزل مستدعية للأفضلية لزم ذلك قطعاً ولا قائل به.

وبعد هذا كله الذي يدور في خلدي أن أفضل النساء فاطمة. ثم أمها. ثم عائشة بل لو قال قائل إن سائر بنات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من عائشة لا أرى عليه بأساً، وعندي بين مريم وفاطمة توقف نظراً للأفضلية المطلقة، وأما بالنظر إلى الحيثية فقد علمت ما أميل إليه، وقد سئل الإمام السبكي عن هذه المسألة فقال: الذي نختاره وندين الله تعالى به أن فاطمة بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل. ثم أمها. ثم عائشة ـ ووافقه في ذلك البلقيني ـ وقد صحح ابن العماد أن خديجة أيضاً أفضل من عائشة لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة حين قالت: قد رزقك الله تعالى خيراً منها، فقال لها: لا والله ما رزقني الله تعالى خيراً منها آمنت بي حين كذّبني الناس وأعطتني مالها حين حرمني الناس؛ وأيّد هذا بأن عائشة أقرأها السلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من جبريل، وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربها، وبعضهم لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها ـ وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر الاستروشني منا ـ وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم.

وأشكل ما في هذا الباب حديث الثريد ولعل كثرة الأخبار الناطقة بخلافه تهون تأويله، وتأويل واحد لكثير أهون من تأويل كثير لواحد، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل...

القاسمي ج ٤ ص ٩٦ ـ ١١١

... ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ...

أقول: من البعض الذي أحله عيسى عليه السلام فعل الخير في السبوت، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضاً فسألوه: هل يحل أن يشفى في السبت؟ قال لهم عليه السلام: أي إنسان منكم يكون له خروف، فيسقط في حفرة يوم السبت ولا يمسكه ويرفعه؟ والإنسان كم يفضل الخروف؟ فإذن يحل فعل الخير في السبوت، ثم أبرأ ذلك المريض ـ كذا في الأصحاح الثاني عشر. من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى ـ وفيه في الأصحاح الخامس الفقرة السابعةَ عشْرةَ قول المسيح عليه السلام: لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل ـ انتهى ـ وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها، ثم جاء

بولس ومَن بعده من الرهبان فادعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفعه عنهم، إذ أكمله وأتمه بفعله إياه. وكفاهم مؤونة العمل بشيء منه، وأغناهم بشريعته الروحانية، فنقضوا الناموس الذي جاء لإكماله المسيح. فما نقضوه إباحة كثير من الحيوانات المحرمة في الناموس الموسويّ، فنسخت حرمتها في الشريعة العيسوية، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس، إذ قال لهم: لا شيء نجس العين. كما في رسالته إلى أهل رومية. ومما نقضوه تعظيم السبت، فقد كان حكماً أبدياً في الشريعة الموسوية، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل، وكان من عمل فيه عملاً واجب القتل. ومنه أحكام الأعياد المشروعة في التوراة، ومنه حكم الختان الذي كان أبدياً في شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى، وقد ختن عيسى عليه السلام، فنسخ حكمه الرهبان بعده، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة، إلا الزنى، كما بيّن في (إظهار الحق)، في الباب الثالث في إثبات النسخ. وقد أسلفنا جملة جليلة في هذا الشأن في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥] فانظرها. ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كرره تأكيداً وليبنى عليه قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

جاء في إنجيل متى في الأصحاح العاشر ما يأتي:

(١) ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوا ويشفوا كل مرض وكل ضُعف.

(٢) وأما أسماء الأثنى عشر رسولاً فهي هذه. الأول سِمْعَانُ الذي يقال له بُطْرُس وأندراوُس أخوه. يعقوب بن زَبْدِي ويُوحَنَّا أخوه.

(٣) فِيلُبُّسُ وبَرْثُولَمَاوُسُ. تُومَا ومَتّى العَشَّارُ. يعقوب بن حَلْفَى ولَبَّاوُسُ الملقّب تَدَّاوُسَ.

(٤) سِمْعَانُ القانَوِيّ ويهوذا الإسْخَرْ يُوطِيُّ الذي أسلمه.

وكانوا يسمون رسل عيسى عليه السلام. لأنه بعثهم إلى الإسرائيليين الضالين يدعونهم إلى الحق الذي جاء به، فبذلوا الجهد في بثه وانتشاره وإقامته، إلى أن جاء بولس فسلبهم بخداعه، دين المسيح الصحيح، فلم يسمعوا له بعد من خبر، ولا وقفوا له على أثر، وطمس لهم رسوم التوراة، وحلل لهم كل محرم، كما بين ذلك في غير هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر بأن هموا بالفتك به وإرادته بالسوء، حيث تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملكهم ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي بهم بعد ذلك فانتقم منهم وأورثهم ذلة مستمرة وأباد ملكهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ أي أقواهم مكراً، وأنفذهم كيداً، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب. وقال البقاعي كغيره في قوله تعالى ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾: أي بأن رفعه إليه. وشُبِّهَ ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صلبوه، وإنما صلبوا أحدهم، ويُقال إنه الذي دلهم، وأما هو عليه السلام، فصانه عنده بعد رفعه إلى محل أوليائه وموطن قدسه، لينزله في آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربت عليهم الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذي طلبوا به العز إلى آخر الدهر، فكان تدميرهم في تدبيرهم، ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكرهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي مستوفي مدة إقامتك بين قومك. والتوفي، كما يطلق على الإماتة، كذلك يطلق على استيفاء الشيء. كما في كتب اللغة. ولو ادعى أن التوفي حقيقة في الأول، والأصل في الإطلاق الحقيقة فنقول: لا مانع من تشبيه سلب تصرفه عليه السلام بأتباعه وانتهاء مدته المقدرة بينهم بسبب الحياة. وهذا الوجه ظاهر جداً، وله نظائر في الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. قال الزمخشريّ: يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي يتوفاها حين تنام تشبيهاً للنائمين بالموتى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك ـ انتهى كلامه ـ ثم بيّن

سبحانه في بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس فقال: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي من مكرهم وخبث صحبتهم؛ وقد دلت هذه الآية بظاهرها على أن الله تعالى فوق سمواته كقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩﴾ [النحل: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]. وهو مذهب السلف قاطبة كما نقله الإمام الذهبيّ في كتاب (العلوّ). قال أبو الوليد بن رشد في (مناهج الأدلة): لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يثبتون لله سبحانه وتعالى جهة (الفوق) حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشاعرة كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله ـ إلى أن قال: والشرائع كلها مبينة على أن الله في السماء، وأن منه تتنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ. وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك بالمعقول. وبيّن بطلان الشبهة التي لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم ـ إلى أن قال: فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل. وأن إبطاله إبطال الشرائع. قال الدراميّ: وقد اتفقت الكلمة من المسلمين إلى أن الله فوق عرشه فوق سمواته. وقد بسط نصوص السلف الحافظ الذهبي في كتاب (العلوّ) فانظره، هذا، ولما كان لذوي الهمم العوال، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلفاؤهم من بعدهم من الأحوال، بشره تعالى في ذلك بما بشره فقال: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وكذا كان لم يزل من انتحل النصرانية فوق اليهود، ولا يزالون كذلك إلى أن يعدموا فلا يبقى منهم أحد ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

تنبيه:

في قوله: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾. وجوه في التأويل كثيرة، إلا أن الذي فتح المولى به مما أسلفناه هو أرجح التأويلات والله أعلم، وبه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية حجة علينا، لإفادتها وفاته عليه السلام، أي بالصلب، ثم رفعه إلى السماء أعني قيامه حياً بعد وفاته على زعمهم من أنه مات بجسده، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة، ثم أنزل ودفن في أول ساعة من ليلة السبت، وأقام في القبر إلى صبيحة الأحد، ثم انبعث حياً وتراءى للنسوة اللائي جئن إلى قبره زائرات. وقد استندوا في هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع، وشهادة تلاميذه الشفاهية في العالم، ثم أتباعهم وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتياً. ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه في معنى الآية مما لا يبقى معه أدنى ارتياب. وقد بين علماؤنا بطلان معتقدهم هذا في تآليف وتحارير فانظره في (حواشي تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) تأليف الشيخ عبد الله بك. . .

قال الرازيّ: الحكماء قالوا: إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه:

الأول ـ ليكون متواضعاً، الثاني ـ ليكون ستاراً، الثالث ـ ليكون أشد التصاقاً بالأرض. وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض. قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، الرابع ـ أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية، الخامس ـ خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب ـ انتهى ملخصاً.

محمد عبده ج ٣ ص ٢٩٩ ـ ٣٢١

قال الأستاذ الإمام: أعقب هذه القصة بهذه الآية الناطقة بأنها من أنباء الغيب وآخر خبر إلقاء الأقلام لكفالة مريم وذكره في سياق نفي حضور النبي ﷺ مجلس القوم وشهود ما جرى منهم. ولا بدّ لهذه العناية من نقطة وقد قالوا في بيانها: إن كونه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم ولم يروها سماعاً عن أحد معلوم عند منكري نبوته فلم يبق له طريق

للعلم بها إلا مشاهدتها فنفاها تهكماً بهم وبذلك تعيّن أنه لم يبق له طريق لمعرفتها إلا وحي الله تعالى إليه بها. وهذا الجواب منقوص وإن اتفق عليه من نعرف من المفسرين وذلك أن القرآن نطق بأنهم قالوا ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥] قال: والصواب أن النقطة في النص على نفي حضور النبي القوم إذ يلقون أقلامهم أي بعد النص على كون القصة من أنباء الغيب هي أن هذه المسألة لم تكن معلومة عند أهل الكتاب فيكون للمنكرين شبهة على أنه أخذها عنهم. أقول: ويرد على هذا قوله تعالى في آخر قصة يوسف ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وإذا كان بعض المجاحدين قد ادعوا أنه يعلمه بشر فهذه الدعوة قدرها القرآن بقوله ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ورد أنهم قالوا هذا إذ رأوه يقف على قين (حداد) رومي بمكة وذلك القين لم يكن يحسن العربية، وأنى للقين بمثل هذا العلم؟ عرف العربية أم لم يعرفها. فالقرآن لا يعتد بتلك الشبهة إذ الأمي الناشىء بين الأميين لا يمكن أن يتلقى أخبار الأولين من حداد ولا من عالم كحبر أو راهب بمجرد وقوفه عليه أو اجتماعه به ولو أمكن ذلك عادة أو عقلاً لما كان لعاقل أن يثق بحفظ ذلك القين أو غير القين وبأمانته في النقل ولا يختلف أحد من المنكرين لنبوته ﷺ في كمال عقله وسموّ إدراكه وفطنته. ولا شك في أن إتيانه في هذه القصص بما لا يعرفه أهل الكتاب مما يؤكد دفع تلك الشبهة الواهية ويدعم ذلك الأصل الراسخ وهو كونه ﷺ أمياً نشأ بين أميين لا علم لهم بأخبار الأنبياء مع أممهم كما قال في سورة هود بعد ذكر قصة نوح عليه السلام ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: ٤٩] وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها. ومثل هذا قوله بعد ذكر قصة موسى وشعيب في سورة القصص ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ [القصص: ٤٤] إلى آخر الآيات الثلاث.

أما المجاحدون من أهل الكتاب لاسيما دعاة النصرانية في هذا الزمان فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم أنه مأخوذ منها بدليل موافقته لها وفيما خالفها أنه غير صحيح بدليل أنه خالفها وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به أنه غير صحيح لأنه لم يوجد عندنا وهذا منتهى ما يكابر به مناظر مناظراً وأبطل ما يرد به خصم على خصم. ويقول المسلمون إننا نحتج على أن ما جاء به القرآن هو الحق بما قام من الأدلة على نبوة النبي ﷺ مع حفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ومن تلك الدلائل التي يشتمل عليها القرآن معرفة قصص الأنبياء مع كونه أمياً لم يتعلم شيئاً كما تقدم فهي دليل على صحة نفسها وما جاء فيها مخالفاً لما في الكتب السابقة نعده مصححاً لما وقع فيها من الغلط والنسيان بانقطاع أسانيدها حتى إن أعظمها وأشهرها كالأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها ولا زمن كتابتها ولا اللغة التي كتبت بها أولاً. وقد تقدم الإلماع إلى ذلك من قبل.

قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ شروع في خبر عيسى نفسه بعد قصة أمه وقصة زكريا عليهم السلام وهو بدل من قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ وما بينهما اعتراض ناطق بحكمة نزول الآيات مبين وجه دلالها على صدق من أنزلت عليه. والمعنى أن الملائكة بشّرت مريم بالولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله إياها وتطهيره لها وأمرتها بمزيد عبادته والاستغراق في شكره. والمراد بالملائكة هنا الروح جبريل لقوله تعالى في سورة مريم ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧] إلى آخر الآيات وذكر بلفظ الجمع لما تقدم قصة زكريا أو لأنه كان معه غيره. وفي لفظ (كلمة) أربعة وجوه: (أحدها): أن المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحي. ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الباري عز وجل مما يعلو عقول البشر عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فكلمة «كن» هي كلمة التكوين وسيأتي تفسيرها وههنا يقال أن كل شيء قد خلق

بكلمة التكوين فلماذا خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وأجيب عن ذلك بأن الأشياء تنسب في العادة والعرف العام في البشر إلى أسبابها ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البيوض التي يتكون منها الجنين أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله وأطلقت الكلمة على المكون إيذاناً بذلك أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة. وهذا هو الوجه المشهور.

(الوجه الثاني): أنه أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارة الأنبياء به فهو قد عرف بكلمة الله أي بوحيه لأنبيائه. قاله الأستاذ الإمام والكلمة تطلق على الكلام كقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٧١] إلخ.

(الوجه الثالث): أنه أطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرفه قومه اليهود حتى أخرجوه عن وجهه، وجعلوا الدين مادياً محضاً قاله الرازي وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونور الله لما أنه سبب لظهور ظل العدل ونور الإحسان، قال فكذلك كان عيسى سبباً لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته له وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

(الوجه الرابع): أن المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه فقوله بكلمة منه معناه بخبر من عنده أو بشارة، وهو كقول القائل ألقى إلى فلان كلمة سرني بها بمعنى أخبرني خبراً فرحت به، قاله ابن جرير واستشهد له بقوله ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ يعني بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها قال فتأويل القول وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولد لك اسمه المسيح عيسى ابن مريم ثم قال مستدلاً على هذا ما نصه: ولذلك قال عز وجل اسمه المسيح فذكر ولم يقل اسمها فيؤنث والكلمة مؤنثة لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذي هو بمعنى فلان وإنما هي بمعنى البشارة، فذكرت كنايتها كما تذكر كناية الذرية والدابة والألقاب إلخ ما أطال به في المسألة من جهة العربية. . .

ولا يزال سائر اليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها، وأنه لا بدّ أن يظهر فيهم ملك. وقد بين الأستاذ الإمام معنى صدق لفظ المسيح على عيسى عليه السلام بحسب عرفهم فقال: إن الناس إنما يولون الملك عليهم لأجل تقرير العدل فيهم ورفع أثقال الظلم عنهم، وقد فعل المسيح ذلك، فإن اليهود كانوا عند بعثته فيهم متمسكين بظواهر ألفاظ الكتاب وخاضعين لأفهام الكتبة أو الفريسيين وأوهامهم حتى أرهقهم ذلك عسراً وتركهم يئنون من الظلم وأثقال التكاليف. فرفع المسيح ذلك عنهم بإرجاعهم إلى مقاصد الدين وحملهم على الأخوة الرافعة للظلم. أقول: وقد نقلوا عنه ما يفيد هذا المعنى وهو أن مملكته روحانية لا جسدية. وقد لاح لي عند الكتابة أن قوله تعالى ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ﴾ يراد به أن لفظ المسيح هنا أجري مجرى العلم لا مجرى الوصف والعلم المشتق لا يشترط فيه أن يكون مسماه متصفاً بالمعنى الذي يدل عليه إذا استعمل وصفاً. فإذا وضعت لفظ «على» علماً على رجل يصير مدلوله شخص ذلك الرجل سواء كان ذا علوّ أم لا وإذا سميت ابنتك «ملكة» لم يكن لأحد أن يفسر اللفظ بالمعنى الذي وضع له اللفظ قبل العلمية. وقد يجوز أن يلمح المعنى الذي ينقل لفظه إلى العلمية أحياناً. وقد ذكر المفسرون بضعة وجوه لتفسير لفظ المسيح بناء على أنه مشتق من المسح ولا حاجة إلى ذكر شيء منها. . . .

وقوله تعالى في وصفه ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ معناه أنه يكون ذا وجاهة وكرامة في الدارين فالوجيه ذو الجاه والوجاهة. والمادة مأخوذة من الوجه حتى قالوا إن لفظ الجاه أصله وجه، فنقلت الواو إلى موضع العين، فقلبت ألفاً ثم اشتقوا منه، فقالوا جاه فلان يجوه، كما قالوا وجه يوجه، وذو الجاه يسمى وجهاً كما يسمى وجيهاً ويُقال إن لفلان وجهاً عند السلطان كما يقال إن له جاهاً ووجاهة وكأن الأصل في الوجيه من يعظم ويحترم عند المواجهة لما له من المكانة في النفوس. وقال الإمام الغزالي: الجاه ملك القلوب. قال الأستاذ الإمام: إن كون المسيح ذا جاه ومكانة في الآخرة ظاهر. وأما وجاهته في الدنيا فهي قد تكون موضع إشكال لما عرف من امتهان اليهود له ومطاردتهم إياه على فقره وضعف عصبيته. والجواب عن

ذلك سهل وهو أن الوجيه في الحقيقة من كانت له مكانة في القلوب. واحترام ثابت في النفوس، ولا يكون أحد كذلك حتى يكون له أثر حقيقي ثابت من شأنه أن يدوم بعده زمناً طويلاً أو غير طويل. ولا ينكر أحد أن منزلة المسيح في نفوس المؤمنين به كانت عظيمة جداً وأن ما جاء به من الإصلاح هو من الحق الثابت. وقد بقي أثره بعده. فهذه الوجاهة أعلى وأرفع من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون في الظواهر لظلمهم واتقاء شرهم أو لدهانهم ولتزلف إليهم، رجاء الانتفاع بشيء مما في أيديهم من عرض الحياة الدنيا لأن هذه وجاهة صورية لا أثر لها في النفوس إلا الكراهة والبغض والانتقاص وتلك وجاهة حقيقية مستحوذة على القلوب. وحقيقة الوجاهة في الآخرة: هي أن يكون الوجيه في مكان علي ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها فيجلونه ويعلمون أنه مقرب من الله تعالى، ولا يمكننا أن نحددها ونعرف بماذا تكون. قال قائل في الدرس: إن هذه الوجاهة تكون بالشفاعة. فقال الأستاذ الإمام: إن الآية لم تبيّن ذلك، على أنكم تقولون إن هذه الشفاعة عامة لكل نبي وعالم وصالح فيما هي مزية المسيح إذن؟ ولما كانت الوجاهة متعلقة بالناس وما يعود من مطارح أنظارهم على شعور قلوبهم وخطرات أفكارهم قال تعالى فيه ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي هو مع ذلك من عباد الله المقربين إليه عز وجل. فما ينعكس عن أنظار الناظرين إليه هناك إلى مرايا قلوبهم حقيقي في نفسه. . .

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله ما يشاء، فإن من شأنه الاختراع والإبداع، أقول: وعبر هنا بالخلق وفي بشارة زكريا بيحيى بالفعل وكل منهما خلق وفعل لكن لفظ الفعل يستعمل كثيراً فيما يجري على قانون الأسباب المعروفة. ولفظ الخلق يستعمل في الإبداع والإيجاد ولو بغير ما يعرف من الأسباب. فيقال: خلق السموات والأرض ولا يقال فعل السموات والأرض، ولما كان إيجاد يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس عبر عنه بالفعل، وإن كان فيه آية لزكريا أن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما عادة وأما إيجاد عيسى فهو على غير المعهود في التوالد لأنه من أم غير زوج في الظاهر فكان بالأمور المبتدأة بمحض القدرة أشبه، والتعبير عنه بالخلق أليق، وإن كان له سبب روحاني جعل أمه بمعنى الزوج كما سيأتي ولكن هذا السبب غير معهود للناس ولا معروف لهم فمريم لا تعرفه. ولكنها كانت مؤمنة بالله موقنة بقدرته على كل شيء ولذلك أحالها في البشارة على مشيئته لتكون موقنة فقال: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي إذا أراد شيئاً، كما عبر في آية أخرى. فالقضاء بمعنى الإرادة ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قالوا إن هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر، بتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق إرادته به حالاً بطاعة المأمور القادر على العمل للآمر المطاع. ويسمون الأمر بكن أمر التكوين. ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] أي أراد أن يكونا فكانتا. ويقابله أمر التكليف الذي يعرف بوحي الله لأنبيائه. وقد مر الإلماع لهذا من قبل.

وأقول: أعلم أن الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جموداً على العادات؛ وذهولاً عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل فمنه ما يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بالاكتشاف والاختراع ومنه ما لا يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة. ونحن معاشر المؤمنين نقول إن تلك الأشياء المعبر عنها بالفلتات، إما أن يكون لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهدي هؤلاء الجامدين إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الأسباب المعروفة فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال أن يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه. ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك. وإما أن تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب، وحينئذ يجب أن يعترفوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً وإذا كان الأمر

كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ويعده مستحيلاً لأنه لا يعرف له سبباً. ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدث به عقلاء الغابرين. لعدوه من خرافات الدجالين؛ ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي، أي تولد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك بتجاربهم. وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزاً فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول. نعم إنه خلاف الأصل وأن كونه جائزاً لا يقتضي وقوعه بالفعل. ونحن نستدل على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه.

ويمكن تقريب هذه الآية الإلهية من السنن المعروفة في نظام الكائنات بوجهين: (أحدهما): أن الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب، ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد. فكم من سليم اعتقد أنه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضاً. وكم من امرىء سقي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقداً أنه سم ناقع فمات مسموماً به، والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب، وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول: إن مريم لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولداً بمحض قدرته، وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متمماً لهذا التأثير.

(الوجه الثاني): وهو أقرب إلى الحق، وإن كان أخفى وأدق، وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح. وهي إن المخلوقات قسمان أجسام كثيفة، وأرواح لطيفة، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النموّ والحركة والتوالد الذي يكون من النمو أو يكون النمو منه. فلولا الهواء لما عاشت هذه الأحياء، والهواء روح. ولذلك كان من أسمائه إذا تحرك الريح، أصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه. والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطاً بين الكثيف واللطيف، ولكنه أقرب إلى الثاني. والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعلها في الأشباح. فهذه الموجودات اللطيفة التي سميناها أرواحاً هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون، حتى أننا قد رأينا في هذا العصر من أسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد من قدماء فلاسفتنا، ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المستقبل أجلّ وأعظم. فإذا كان الأمر كذلك في الأرواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد، فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم!!.

إذا تمهد هذا فنقول: إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات وقد أرسل روحاً من عنده إلى مريم فتمثل لها بشراً ونفخ فيها، فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام. وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا؟ الله أعلم. أما البحث في تمثل هذه الأرواح التي تسمى بلسان الشرع الملائكة فسيأتي الكلام عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] إذا أنسأ الله لنا في الأجل ووفقنا للمضي في هذا العمل (التفسير) والأستاذ الإمام لم يتعرض لهذا البحث.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ قرأ نافع وعاصم (ويعلمه) بالياء والباقون (ونعلمه) بالنون. (والكتابة هنا بالخط والحكمة) العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع ويقف بالعامل على الصراط المستقيم لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل. والتوراة كتاب موسى فقد كان المسيح عالماً به يبين أسراره لقومه، ويقيم عليهم الحجج بنصوصه والإنجيل هو ماأوحى إليه نفسه. وقد تقدم في تفسير أول السورة الكلام فيهما. والكلام معطوف على قوله ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ﴾ وآية ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ معترضة بينهما

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي ويرسله أو يجعله (بالياء أو النون) رسولاً إلى بني. إسرائيل فحذف لفظ يرسله أو يجعله لدلالة الكلام عليه، كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى
متقلداً سيفاً ورمحاً

وقال الأستاذ الإمام: إن الرسول هنا بمعنى الرسالة والتقدير ويعلمه الرسالة إلى بني إسرائيل، واستعمال لفظ الرسول بمعنى الرسالة شائع. قال كثير:

لقد كذب الواشون، ما بحت عندهم
بسر ولا أرسلتهم برسول

وفي رواية «برسيل» قال وبعض المفسرين يجعل الرسول بمعنى الناطق أي ناطقاً إلى بني إسرائيل ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أقول: والمعنى على التقدير الأول أنه يرسله محتجاً على صدق رسالته بأني قد جئتكم بآية من ربكم. وفسر الآية بقوله ﴿ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قال الأستاذ الإمام: الخلق التقدير والترتيب لا الإنشاء والاختراع ويقرب أن يكون هذا إجماعاً من المفسرين، وفسره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير. . .

وغاية ما يفهم منها أن الله تعالى جعل فيه هذا السر ولكن لم يقل إنه خلق بالفعل، ولم يرد عن المعصوم أن شيئاً من ذلك وقع، وقد جرت سنة الله تعالى أن تجري الآيات على أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل الإيمان موقوفاً عليها فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد جاء به وكذلك يقال في قوله ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ فإن قصارى ما تدل عليه العبارة أنه خص بذلك وأمر بأن يحتج به. والحكمة في إخبار النبي ﷺ بذلك إقامة الحجة على منكري نبوته كما تقدم وأما وقوع ذلك كله أو في بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل يحتج به في مثل ذلك.

ولعلّ آية سورة المائدة أدنى إلى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهي ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [المائدة ١١٠] فإن جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه إلا أن يقال إن جعل هذه الآيات مما يجري على يديه عند طلبه منه والحاجة إلى تحديه به من أجل النعم وأعظمها ولكن هذا خلاف الظاهر.

ومقتضى مذهب الصوفية أن روحانية عيسى كانت غالبة على جثمانيته أكثر من سائر الروحانيين لأن أمه حملت به من الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً فكان تجرده من المادة الكثيفة للتصرف بسلطان الروح من قبيل الملكة الراسخة فيه وبذلك كان إذا نفخ من روحه في صورة رطبة من الطين حلها الحياة حتى تهتز وتتحرك وإذا توجه بروحانيته إلى روح فارقت جسدها أمكنه أن يستحضرها ويعيد اتصالها ببدنها زمناً ما؛ ولكن روحانية البشر لا تصل إلى درجة إحياء من مات فصار رميماً. ويؤيد ذلك ما ينقله النصارى من إحياء المسيح للموتى. فإنهم قالوا إنه أحيا بنتاً قبل أن تدفن وأحيا اليعازر قبل أن يبلى ولم ينقل أنه أحيا ميتاً كان رميماً. وأما إبراء الأكمة والأبرص بالقوة الروحانية فهو أقرب إلى ما يعهد الناس لاسيما مع اعتقاد المريض ويقول مجاهد: إن الأكمه من لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار. والمشهور أنه من ولد أعمى. وأما الأخبار ببعض المغيبات فقد أوتيه كثيرون من الأنبياء، وممّن دون الأنبياء ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن فيما ذكر لحجة لكم على صدق رسالتي إن كنتم مؤمنين بالله مصدقين بقدرته الكاملة، ومن مباحث اللفظ: أن قوله ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ يعود إلى الطير أو إلى ما ذكر. . .

قال الأستاذ الإمام: انتقل من البشارة بعيسى إلى ذكر خبره مع قومه وطوى ما بينهما من خبر ولادته ونشأته وبعثته مؤيداً بتلك الآيات وهذا من إيجاز القرآن الذي انفرد به. فقد انطوى تحت قوله: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ

﴿مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ جميع ما دلت عليه البشارة وعلم أنه وُلد وبُعث ودعا وأيد دعوته كما سبقت البشارة فأحس وشعر من قومه وهم بنو إسرائيل الكفر والعناد والمقاومة والقصد بالإيذاء وفي هذا من العبرة والتسلية للنبي ﷺ ما فيه وأن أكبر ما فيه الإعلام بأن الآيات الكونية وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتماً وإنما كون الإيمان باستعداد المدعو إليه وحسن بيان الداعي ولذلك كان من أمر عيسى عليه السلام أنه لما أحس من قومه الكفر ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها منخلعين عما كانوا فيه متحيزين ومنزوين إلى الله منصرفين إلى تأييد رسوله ونصره على خاذليه والكافرين بما جاء به و﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي أنصار دينه وهذا القول يفيد الانخلاع والانفصال من التقاليد السابقة، والأخذ بالتعليم الجديد. وبذل منتهى الاستطاعة في تأييده فإن نصر الله لا يكون إلا بذلك. . .

والحواريون أنصار المسيح. والنصر لا يستلزم القتال فالعمل بالدين والدعوة إليه نصر له. قال الأستاذ الإمام ولا نتكلم في عددهم لأن القرآن لم يعينه. . .

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون له منقادون لأمره وفي هذا دليل على أن الاسلام دين الله على لسان كل نبي وإن اختلفوا في بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله.

ومن مباحث اللفظ في الآية أن ﴿أَحَسَّ﴾ يستعمل في إدراك الحسي والمعنوي ففي حقيقة الأساس: أحسست منه مكراً وأحسست منه بمكر وما أحسسنا منه خبراً وهل تحِس من فلان بخبر؟ والمكر من الأمور المعنوية وإن كان يستنبط من الأعمال الحسية ويستدل عليه بها.

وقال الأستاذ الإمام: إن الجار في ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بلفظ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ وإن لم يعرف أن مادة نصر تعدى بإلى. ذلك بأن مجموع الكلام هنا قد أشرب الكلمة معنى اللجأ والانضمام، لأن النصر يحصل بذلك. ويصح أن يتعلق بوصف يفيد هذا المعنى الذي يدل عليه الأسلوب كما قدرنا في بيان العبارة وهو الذي جرى عليه المفسرون محافظة على القواعد الموضوعة.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ معطوف على قولهم ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ إلخ.، أي صدقنا بما أنزلت من الإنجيل ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ عيسى ابن مريم قال الأستاذ الإمام ذكر الأتباع بعد الإيمان لأن العلم الصحيح يستلزم العمل والعلم الذي لا أثر له في العمل يشبه أن يكون مجملاً وناقصاً لا يقيناً وإيماناً. وكثيراً ما يظن الإنسان أنه عالم بشيء حتى إذا حاول العمل به لم يحسنه فيتبين له أنه كان مخطئاً في دعوى العلم. ثم قال إن العلم بالشيء يظل مجملاً مبهماً في النفس حتى يعمل به صاحبه فيكون بالعمل تفصيلياً فذكر الحواريين الأتباع بعد الإيمان يفيد أن إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرف لها في العمل ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للرسول بتبليغ الدعوة، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود، فحذف معمول الشاهدين ليعم المشهود له والمشهود عليهم. أو يقال الشاهدين على هذه الحالة أي حالة الرسول مع قومه، وهو الذي اختاره الأستاذ الإمام. قال ومن المعروف في الفقه أن الشاهدين بمنزلة الحاكم لأن الفصل بين الخصمين يكون بشهادتهما ولا تصح الشهادة إلا من العارف بالمشهود به معرفة صحيحة وقد كان الحواريون كذلك كما علم من إقرارهم بالإيمان والاتباع.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ أي ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به فحاولوا قتله وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة كذا قال الجمهور وأقرهم الأستاذ الإمام. ولكن ورد في سورة الأعراف إضافة المكر إلى الله تعالى من غير مقابلة بمكر الناس قال ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] والمكر في الأصل التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب. ولما كان الغالب أن يكون ذلك في السوء لأن من يدبر للإنسان ما يسره وينفعه لا يكاد يحتاج إلى إخفاء تدبيره غلب استعمال المكر في التدبير السيء وإن كان في

المكر الحسن والسيء جميعاً قال تعالى ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣] ووجه الحاجة إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله فيحتاج مربيه أو متولي شؤونه إلى أن يحتال عليه ويمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول. إذ يوجد في الماكرين الأشرار والأخيار ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ فإن تدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه وإتمام حكمه وكلها خير في نفسها وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم. وقال الأستاذ في تفسير ﴿ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ بناء على أن المكر في نفسه شر: أي إن كان في الخير مكر فمكره سبحانه وتعالى موجه إلى الخير ومكرهم هو الموجه إلى الشر.

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي مكر الله بهم، إذ قال لنبيه إني متوفيك الخ فإن هذه بشارة بأنجائه من مكرهم وجعل كيدهم في نحرهم قد تحققت ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة والتوفي في اللغة أخذ الشيء وافياً تاماً. ومن ثم استعمل بمعنى الأماتة قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢] وقال: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة: ١١] كما قال في إدريس عليه السلام ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٧] والله تعالى يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده كما قال في الشهداء: ﴿ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ . فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥] وأما تطهيره من الذين كفروا فهو إنجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرمونه منه ويريدونه به من الشر. هذا ما يفهمه القارىء الخالي الذهن من الروايات والأقوال. لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده. وهاك ما قال الأستاذ الإمام في ذلك:

. . . ولهم في حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف. وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن في تقديم الرفع على التوفي بأن الواو لا تفيد ترتيباً ـ أقول: وفاتهم أن مخالفة الترتيب في الذكر للترتيب في الوجود لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنقطة ولا نقطة هنا لتقديم التوفي على الرفع إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة.

(قال) والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإماتة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه. فإن الروح هي حقيقة الإنسان والجسد كالثوب المستعار، فإنه يزيد وينقص ويتغير، والإنسان إنسان لأن روحه هي هي، (قال) ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجان أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي لأن المطلوب فيها هو اليقين. وليس في الباب حديث متواتر. وثانيهما تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها. وهو حكمتها وما شرعت لأجله. . .

ويوقفهم على فقهها والمراد منها ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب، أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبراً عن رأيه وفهمه. . .

وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان. فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر.

هذا ما قاله الأستاذ الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى

كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل ما فهمه...

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ بالأخذ بما جئت به من الهدى ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بك ولم يهتدوا بهديك فوقية روحانية دينية وهي كونهم أحسن أخلاقاً وأكمل آداباً وأقرب إلى الحق والفضل وأبعد عن الباطل والاعتداء أو فوقية دنيوية وهو كونهم يكونون أصحاب السيادة عليهم. ولكن هذا الوجه لم يتحقق في زمن المسيح لأشد الناس أتباعاً له بل كانوا مغلوبين لليهود فتعين أن يكون الوجه الأول هو المراد ووجهه ظاهر فإن اتباع المسيح هو عين الأخذ بتلك الفضائل والمواعظ التي جاء بها وليس عندنا شيء عن الأستاذ الإمام في هذا. ولا يشكل عليه قوله ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ فإن فوقية الفضائل والآداب هي التي كانت وستبقى كذلك مادامت السموات والأرض ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أقول فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب وبذلك يشمل المسيح والمختلفين معه ويشمل الاختلاف بين أتباعه والكافرين به والله هو الذي يبين لهم جميعاً يوم الحساب الحق في كل ما اختلفوا فيه بما يزيل شبه المشتبهين ورياء الجاحدين.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وكذلك عذب الله اليهود الذين كفروا به بتسليط الأمم عليهم وبحكمها فيهم ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون هناك كما أنهم لم ينصروا هنا...

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم من خبر عيسى ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ﴾ الدالة على نبوتك ﴿وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم في الأحكام فيهدي المؤمنين إلى لباب الدين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع البشري ليتعظ المتعظون ويصل إلى مقام الحكمة العارفون. وليس لدينا عن الأستاذ الامام شيء في هذه الآيات الثلاث.

أقول: بعد أن بين سبحانه خلق عيسى ومجيئه بالآيات وما كان من أمر قومه في الإيمان والكفر به كشف شبهة المفتونين بخلقه على غير السنة المعتادة والمحاجين فيه بغير علم، ورد على المنكرين لذلك فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ أي إن شبه عيسى وصفته في خلق الله إياه على غير مثال سبق كشأن آدم في ذلك. ثم فسر هذا المثل بقوله ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ أي قدر أوضاعه وكون جسمه من تراب ميت أصابه الماء فكان طيناً لازباً ذا لزوجة ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي ثم كونه تكويناً آخر بنفخ الروح فيه. وقد تقدم تفسير العبارة إلا أنه كان الظاهر أن يقول هنا: ثم قال له: كن فكان. ولكنه قال ﴿فَيَكُونُ﴾ لتصوير الحال الماضية كما يقول أهل المعاني في وضع المضارع موضع الماضي أحياناً. وخطر لي الآن أنه يجوز أن تكون كلمة التكوين مجموع ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ والمعنى: ثم قال له كلمة التكوين التي هي عبارة عن توجه الإرادة إلى الشيء ووجوده بها حالاً. ويظهر هذا في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] ولو كان القول للتكليف لم يظهر هذا. لأن قول التكليف من صفة الكلام، وقول التكوين من صفة المشيئة. ولعل من تأمله حق التأمل لا يجد عنه منصرفاً. والعطف بثم لبيان التكوين الآخر يفيد تراخيه وتأخره عن الخلق الأول. وهل كان في هذه المدة على صفة واحدة أم تقلب في أطوار مختلفة كما تتقلب ذريته؟ أقرأ قوله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦] فالسلالة المستخرجة من الطين هي المكون الأول الذي يعبرون عنه بلسان العلم الآن بالبروتوبلاسما ومنها تكون أصلنا في ذلك الطور، لأنه تعالى يقول إنه خلقه من تلك السلالة، ثم انتقل إلى طور التولد بواسطة النطفة في القرار المكين وهو الرحم، ثم انتقل إلى طور تحول النطفة إلى علقة والعلقة إلى مضغة والمضغة إلى هيكل من العظام يكسى لحماً وقد عد هذا طوراً واحداً، ثم أنشأه خلقاً آخر وهو

الطور الأخير. ثم ذكر أن له طوراً آخر في الموت وطوراً آخر في البعث وهو آخر أطواره فكل طور من الأطوار التي قبل الموت حادث وحدوثه لأول مرة لم يكن مسبوقاً بنظير ولم يكن معتاداً وإنما وجد بمشيئة الله وتكوينه المعبر عنه بقوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ فهل يعز على صاحب هذه المشيئة أن يخلق عيسى من غير أب؟ كلا. ولا يعجزه أن يبعث الناس بعد موتهم في نشأة أخرى كالنشأة الأولى.

وقال الأستاذ الإمام ما مثاله: قلنا إن هذه الآيات سيقت في معرض إثبات نبوة محمد ﷺ ببيان أن الله تعالى أن يصطفي من عباده من يشاء لرسالته وأنه مستقل في أفعاله فلا وجه لإنكار اصطفائه محمداً وقد اصطفى قبله آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران. ثم جاء في السياق ذكر قصة عيسى وأمه وما جاء به وما كان من كفر بعض قومه به ورمى أمه بالزنا وإيمان بعض وهناك قسم ثالث لم يكفر بعيسى ولم يؤمن به إيماناً صحيحاً بل افتتن به افتتاناً لكونه ولد من غير أب وزعموا أن معنى كونه ولد بكلمة من الله وكونه من روح الله أن الله تعالى حل في أمه وأن كلمة الله تجسدت فيه فصار إلهاً وإنساناً. فضرب للكافرين وللمفتونين مثل خلق آدم من تراب وهو حجة على الفريقين من اليهود والنصارى ولا شك أن خلق آدم أعجب من خلق عيسى لأن هذا خلق من حيوان من نوعه وذاك قد خلق من التراب، وفي الكلام إرشاد إلى أن أمر الخليقة يشبه بعضه بعضاً فكله غريب بالنسبة إلينا إذا تفكرنا في حقيقتها وعللها ولا شيء منه بغريب عند الموجد المبدع. أما القوانين المعروفة في علم الخليقة فهي قد استخرجت مما نعهده ونشاهده وليست قوانين عقلية قامت البراهين على استحالة ما عداها كيف وأننا نرى في كل يوم ما يخالفها كالحيوانات التي لها أعضاء زائدة والتي تولد من غير جنسها وترون ذكر ذلك في الجرائد ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة وهو إنما خالف ما نعرف لا ما يعلم الله تعالى. وما يدرينا أن لكل هذه الشواذ والفلتات سنناً مطردة محكمة لم تظهر لنا. وكذلك شأن خلق عيسى فكونه على غير المعهود ليس مزية تقتضي تفضيله عليهم. فكيف تقتضي أن يكون إلَهاً؟ وإذا كان عيسى قد خلق من بعض جنسه فآدم قد خلق من غير جنسه فهو أولى بالمزية لو كانت وبالإنكار إن صح، على أن ما نعرف من أمر الخلقية ليس لنا منه إلا الظاهر، نصفه ونقول به وإن لم نعقله، وماذا نعقل من الرابطة بين الحس والنطق في الإنسان مثلاً؟ بل ماذا نعقل من أمر حبة الحنطة في نبتها واستوائها على سوقها وتناسب أوراقها وغير ذلك؟

المراغي ج ٣ ص ١٤٩ ـ ١٧٤

. . . ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم في القيام بشأنها وكفاية مهامها، إما لأن عمران كان رئيساً لهم فأرادوا مكافأته قياماً ببعض ما يجب له من الحقوق، وإما لأنهم وجدوا في بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم، وإما لأنهم رأوا في ذلك القيام بواجب ديني إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة.

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم لأنه أمي، ولم يروها سماعاً عن أحد كما يعترف بذلك منكرو نبوّته، لأنه نشأ بين قوم أميين، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحي أو المشاهدة، والوحي ينكرونه، فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التي نفاها على سبيل التهكم لاستحالتها.

ونظير هذه الآية قوله عقب قصة نوح عليه السلام ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ [هود: ٤٩] وقوله بعد قصة موسى وشعيب ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾ [القصص: ٤٤].

والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيما وافق فيه القرآن كتبهم: إنه مأخوذ منها وفيما خالفها إنه ليس بصحيح لأنه خالفها، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها، وهذا من المكابرة التي لا تغني حجة لرد خصم على خصم، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق للأدلة القائمة على نبوة محمد ﷺ وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح، وما جاء فيه مخالفاً لما في

الكتب السابقة يعد مصححاً لأغلاطها لانقطاع أسانيدها، حتى إن أعظمها وأشهرها وهي الأسفار التي تنسب إلى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها، ولا الزمن الذي كتبت فيه، ولا اللغة التي كتبت بها أولاً.

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾

والمراد من الملائكة هنا جبريل لقوله في سورة مريم ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧] وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم، وقوله بكلمة من الله أي بكلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شيء قد خلق بكلمة التكوين، لأنه لما فقد في تكوينه وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق في العادة، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البويضات التي يتكون منها الجنين ـ أضيف إلى الله وأطلقت الكلمة على هذا المكون إيذاناً بذلك، بخلاف الأشياء الأخرى فإنها تنسب في العرف إلى الأسباب العادية.

والمعروف لديهم أن أنبياءهم السالفين بشروهم بمسيح يظهر فيهم، وأنه ملك يعيد إليهم ما فقدوا من السلطان في الأرض، فحين ظهر عيسى وسمى بالمسيح آمن به قوم وقالوا إنه هو الذي بشر به الأنبياء، واليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها بعدُ.

وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها إشارة إلى أنه ينسب إليها، إذ ليس له أب.

﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ وما جاء به من الإصلاح قد بقي أثره بعد، وهذه الوجاهة أجل شأناً من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون لدفع أذاهم واتقاء شرهم، أو لمداهنتهم والتزلف إليهم رجاء شيء مما في أيديهم من متاع الحياة، وهذه وجاهة صورية لا أثر لها في النفوس إلا الكراهة والبغضاء.

ووجاهته في الآخرة بكونه ذا مكانة علية ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها ويعلمون قربه من ربه.

(ومن المقربين) فالناظر إليه حينئذ يعتقد ما له من القرب والزلفى عنده.

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ وفي هذا بشارة بأنه يعيش حتى يكون رجلاً سوياً، قال ابن عباس: كان كلامه في المهد لحظة بما قصه الله علينا، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام.

والنصارى تزعم أنه عليه السلام لم يتكلم في المهد، ولم ينطق ببراءة أمه صغيراً، وعاش ثلاثين سنة، واليهود تقذف أمه بيوسف النجار.

والخلاصة ـ إنه يكلم الناس طفلاً في المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة على نبوته وبالغاً كبيراً بعد أن يرسله الله وينزل عليه وحيه، وأمره ونهيه. . .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي مثل هذا الخلق العجيب والإحداث البديع وهو خلق الولد بغير أب ـ يخلق الله ما يشاء.

ولاختلاف القصتين قصة مريم وزكريا في الغرابة عبر في الأولى بيفعل، وفي الثانية بيخلق، إذ العادة قد جرت بأن الفعل يستعمل كثيراً في كل ما يحدث على النواميس المعروفة والأسباب الكونية المألوفة، والخلق يقال فيما فيه إبداع واختراع ولو بغير ما يعرف من الأسباب، فيقال خلق الله السموات والأرض، ولا يقال فعل الله السموات والأرض.

وإيجاد يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس فعبر عنه بالفعل، وإن كان فيه آية لزكريا من جهة أن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما في العادة ـ أما إيجاد عيسى فهو على غير المعهود في التوالد بل بمحض القدرة، فالتعبير عنه بالخلق أليق.

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون من غير ريث ولا إبطاء.

وهذا تمثيل لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وتصوير سرعة حصول ما يريد بلا إبطاء بصورة آمر مطاع لمأمور قادر على العمل مطيع، يفعل ما يطلب منه على الفور.

وهذا الأمر يسمى أمر تكوين، وهناك أمر آخر هو أمر تكليف يعرف بوحي الله لأنبيائه.

والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير

أب، وقوفاً عند العادة، وذهولاً عن كيفية بدء العالم، ولكن ليس لهم دليل عقلي ينبىء بالاستحالة، وإنا لنشاهد كل يوم حدوث شيء في الكون لم يكن معتاداً من قبل، بعضه له أسباب معروفة فيسمونه استكشافاً أو اختراعاً، وبعضه ليس بمعروف له سبب ويسمونه فلتات الطبيعة.

والمؤمنون يقولون إن مثل هذا الذي جاء على غير الأسباب المعروفة يجب أن يهدي العاقل إلى أن الأسباب ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً. . .

وقد جرت سنة الله أن تجري الآيات على أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل الإيمان موقوفاً عليها، فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد فعل، ولا حاجة بنا إلى تعيين نوع الطير، إذ لم يرد عندنا نص من كتاب أو سنة يعينه فنقف حينئذ عند لفظ الآية.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

وإنما خصا بالذكر، لأن مداواتهما أعيت نُطُس الأطباء، وقد كان الطب متقدماً جداً زمن عيسى فأراهم الله المعجزة من ذلك الجنس.

وقد جرت السنة الإلهية أن تكون معجزة كل نبيّ من جنس ما اشتهر في زمنه؛ فأعطى موسى العصا وابتلعت ما كانوا يأفكون، لأن المصريين في ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر، وأعطي عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذي حذقه أطباء عصره، وأعطى محمداً معجزة القرآن، لأن التفاخر في ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان. . .

قال صاحب الإسلام والطب الحديث رحمه الله في تفسير هذه الآية: [إن بعضهم قد اعترض على عمل الطين بشكل الطير، لأنه لا لزوم لذلك ما دام الله قادراً على إحيائه إلى ما آخر ما قالوا].

والحقيقة أن في ذلك حكمة عالية، لأن الإنسان خلق محدود الإدراك والحواس، ولا يفهم ولا يرى ولا يسمع إلا ما كان في متناول إدراكه، فإن رأى شيئاً فوق طاقته اجتهد في أن يرده إلى شيء يعرفه، فإن لم يمكنه بقي متحيراً، وإن تكرر ذلك أدى إلى اضطراب في الأعصاب قد يكون خطراً.

وهنا يلحظ لطف الله في أنه لا يُظهر قدرته للإنسان إلا بطريق التدرج، وهذا يلاحظ في كل المعجزات على الإطلاق، .لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين، سواء أكان في شكل الطير أم لم يكن، وكذلك لا داعي للنفخ لأن طريق الإرادة الإلهية هي ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

ولكن الله يقرب فهم الإرادة بهذه الطريقة، لأن الطين إذا كان بشكل الطير يشتبه فيه الإنسان بالطير الحقيقي، ولا يكون هناك فرق بينهما إلا الحياة مع أن ذلك كل الفرق وبعدها ينفخ فيه.

وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييراً كما يحدث في أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها وغير ذلك. فعند وجود الروح في هذا الهيكل الطيني تكون الصدمة قد انكسرت حدتها بانتظار حدوث شيء مهمّ، مع أن كل هذه المقدمات لا دخل لها مطلقاً في وجود الحياة والروح.

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه إلخ، لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب في حالات عصبية مخصوصة (غير عضوية) ولهذا يشتبه فيها الناظر.

وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة، لأننا نراها على أيدي أشخاص كثيرين، مع أن الفرق بين إبراء الأعمى الذي فقد بصره بفقد العين نهائياً، وبين إبراء الأعمى المصاب بالهستريا إلخ مثلاً يشبه الفرق بين الطين الذي في شكل الطير والطير الحقيقي ولكن الله تعالى أراد أن يفهم الإنسان بذلك قدرته تدريجاً؛ فالإنسان أولاً يشك ويقول: ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التي ليست فوق قدرة الإنسان وربما كانت شيئاً غير عادي، ولكن الله يقول بعد ذلك: وأحيي الموتى لكي لا يدع مجالاً للشك مطلقاً.

إننا نجد هذه الطريقة نفسها في تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام، لأنه خلق من نطفة الأم فقط، وفي العالم المادي لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفتي الأب والأم، ولكن الطريقة التي ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين؛ فقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة، ولكنهم أخذوا يفهمون

الحقيقة تدريجياً عند ما اقتنعوا بصحة المعجزات الأخرى التي أتى بها المسيح.

وقد وصلوا إلى هذا الفهم على الرغم من أن عيسى خلق من أم فقط، ولكن خلقه على هذه الصورة لا يقل عن خلق آدم من طين، لأن نظام الكائنات يجري على سنة واحدة لا تتخلف أبداً إلا حيث يريد الله، ومتى أراد الله فلا معنى لطريقة خاصة، ولا حاجة إلى واسطة إلا بقدر الإقلال من تأثير الصدمة على الإنسان كما بينا... ثم قال:

المعجزات كلها من صنع الله مباشرة، ومعناها سنة جديدة بخلاف كل ما نراه يومياً من عظة وعظمة كالولادة ونمو الحيوان والنبات، فإنه مع إعجازه يأتي مطابقاً لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير.

وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس، فإن ذلك مع عظمته لا يحدث صدمة لعقولنا لتعودنا إياه، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما.

ولا تحصل المعجزات إلا على أيدي الأنبياء، وذلك لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين، فهي أشد على من يكون واسطة فيها، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم.

ولمنع الصدمة الشديدة وقت حدوثها يهيىء الله الظروف لتحملها، ويهيىء النبي نفسه لقبولها، ويهيىء الحاضرين لمشاهدتها، فأمر الله لسيدنا موسى بإدخال يده في جيبه وإخراجها فتكون بيضاء ليس إلا لتهيئته للمعجزات الأخرى... وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل إلى صنعها الإنسان مهما ارتقى، وأغلبها ينتهي إلى شيء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة، فمثلاً إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى، والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذي فقد شيئاً عضوياً حياً لا يمكن استعاضته، ومن أمكنه استعاضة شيء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعيض الكل.

وأما إبراء الأعمى الذي يشاهد يومياً فهذا يحدث في الأحوال العصبية غير العضوية، وبواسطة أطباء العيون، وهو يحدث بإزالة أشياء تكون سبب العمى، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلاً إبراء الأعمى بإعادة عصب للعين من جديد إلخ. وكذلك صنع أرجل جديدة، فالجرّاح يصنع رجلاً صناعية، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الإنسان أن يمشي عليها، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلاً من لحم ودم.

وصفوة القول ـ إنه لا يمكنه أن يصنع جزءاً حياً مهما صغر حجمه، لأن الجسم مجموع ملايين من الخلايا، وصنع واحدة كصنع الكل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] ولذلك ستبقى المعجزات دائماً فوق قدرة الإنسان ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة لعقولنا فقط، ولكنها كلها من نوع واحد، وما كان صنعه فوق إدراكنا لا يمكننا الحكم عليه.

وقد يقول البعض: إن العلوم تتقدم، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودة في مدة الأنبياء لعدّ معجزة ـ وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقي للمعجزات لم يُفْهَم، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية، وكلها مبنية على قواعد علمية لا تتغير، فإذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها، فإن وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية؛ فالسنن الإلهية أو القواعد العلمية أو قواعد الطبيعة ـ كما يسميها الطبيعيون ـ لا حدّ لها ولا تتغير أبداً وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتماً على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أبداً، وكل ما يظهر مدهشاً في نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وما سيظهر ـ هو من الاستعانة بهذه القواعد؛ فالذي يتكلم في أوروبا ويسمعه آخر في مصر بواسطة الراديو استطاع ذلك، لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج إلى العالم كله، فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسحروها لأغراضهم، ولذلك مهما عظمت النتائج في

المخترعات، فإن طريق الوصول إليها سنة ثابتة، ومثلها مثل من يحفر الأرض ويستعين بماء المطر ويحوّله نهراً يجري، فإنه لم يخلق نهراً ولكنه استعان بالقوى الطبيعية، بعكس المعجزات فإنها من طراز آخر، وهي مهما صغرت نتائجها خلق سنة جديدة، وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم.

ولزيادة الإيضاح أضرب مثلاً قصة سيدنا إبراهيم وعدم احتراقه بالنار، فإن العلم بتقدمه يستطيع أن يغطي الإنسان بشيء غير قابل للاحتراق ويضعه في النار فلا يحترق، وهذا يشبه المعجزة ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس الطبيعية.

أما المعجزة فهي أن تضع الإنسان كما هو جسماً ولحماً في النار فلا يحترق، فيكون عدم احتراقه حينئذ هو المعجزة، وهي خرق للسنة الطبيعية التي تقضي باحتراق الجسم متى وضع في النار.

وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به، فإنه يظهر أن المخترع أمكنه منع النار من إحراقه، ولكنه في الحقيقة منع النار من إحراق الجسم الخارجي الذي لا يقبل الاحتراق بطبيعته لأن جسم الإنسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار، والفرق بين الاثنين ظاهر، والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوي والمخترع.

والطبيب الذي يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيي الموتى لأنه استعان بالسنن الطبيعية، وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن.

ويتساءل كثير من الناس هل المعجزات ضرورية؟ والجواب أنها ضرورية لإيمان الإنسان بقدرة الله، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين، لأن سنن الله لا تتغير أبداً وهذا ما يسمى (بالطبيعة) وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفي للآن شيء مدهش، حتى إن الإنسان قد ينسى واضع هذه القوانين، ويقول ما الحاجة بي لأن أقول إن هناك صانعاً أزلياً ما دامت هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين؟

وهنا كانت حكمة الله في أن يخرق هذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود.

ومثل ذلك مثل آلة الميزان تزن الإنسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية في ثقب فيها، فتخرج ورقة عليها رقم وزنه، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبداً آلاف السنين، فإن الإنسان يشك في صانعها الأول، ولكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد، وبدون وضع القطعة المعدنية فيها يقول من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها، وإذا رأى يوما أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيه آلة صغيرة تزن الأشخاص، أيقن أن للأولى صانعاً، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذي منه خلق العالم الإنساني كله بالسنن (الطبيعية) الإلهية التي لا تبديل فيها.

وصفوة القول ـ أن أساس المعجزة وعظمتها ليس في نتائجها وغرابتها، فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة، ولكن أهمية المعجزة في طريق صنعها بدون السنن العادية، وهي لذلك لا تتكرر أبداً إلا بإذن الله؛ لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها، ولا يدرك طريقة صنعها. . .

﴿ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ وأعاد هذا ليترتب عليه الأمر الذي ذكره وهو:

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ أي لما جئتكم به من المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة اتقوا الله في المخالفة، وأطيعوني فيما أدعوكم إليه.

ثم ختم مقاله بالإقرار بالتوحيد والاعتراف بالعبودية فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ وهذا أمر لهم بالاعتقاد الحق وهو التوحيد، ثم بملازمة الطاعة بالقيام بأداء ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، ونظيره ما جاء في الحديث «قل آمنت بالله ثم استقم». . .

﴿ ۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ فقد صح أنه لقي من اليهود شدائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه ويستهزئون به ويقولون له يا عيسى: ما أكل فلان البارحة، وما أدخر في بيته لغد؟ فيخبرهم فيسخرون منه حتى طال ذلك به وبهم. وهموا بقتله فخافهم واختفى عنهم، وخرج هو وأمه يسيحان في الأرض.

وفي هذا عبرة وتسلية للنبي ﷺ، وبيان لأن الآيات

الكونية مهما كثرت لا تفضي إلى الإيمان إلا إذا كان للمدعو استعداد للقبول، ومن الداعي حسن بيان.

وحين رأى منهم ذلك:

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي قال للحواريين كما تدل عليه آية الصف ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله في نصري، ويكونون من أهل الاستعداد لمتابعتي، وينخلعون عما كانوا فيه، وينصرفون إلى تأييد رسوله!

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي قال خاصة أصحابه وناصروه: نحن أنصار دين الله، والباذلون كل ما في الوسع في تأييد دعوتك والآخذون بتعاليمك، والمنصرفون عن التقاليد السالفة.

وهذا النصر لا يستلزم القتال، بل يكفي فيه العمل بالدين والدعوة إليه.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ هذا جار مجرى السبب في نصره، فإن الإيمان بالله موجب لنصرة دينه والذبّ عن أوليائه، ومحاربة أعدائه.

﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وفي هذا دليل على أن الإسلام دين الله على لسان كل نبيّ وإن اختلف الأنبياء في بعض صوره وأشكاله، وأحكامه وأعماله.

وإنما طلبوا شهادته، لأن الرسل يشهدون لأممهم يوم القيامة.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ هذا تضرع إلى الله، وعرض لحالهم عليه بعد عرضها على الرسول مبالغة في إظهار أمرهم.

﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي وامتثلنا ما أتى به منك.

وفي ذكرهم الاتباع بعد الإيمان دليل على أن إيمانهم كان بمنزلة اليقين الحاكم على النفس المصرّف لها في العمل، إذ العلم الصحيح هو الذي يستلزم العمل، أما العلم الذي لا أثر له فيه فهو محمل ناقص لا يقين فيه ولا اطمئنان، وكثيراً ما يظن الإنسان أنه عالم بالشيء، فإذا حاول العمل به لم يحسنه، ويتبين له أنه كان مخطئاً في دعوى العلم به.

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي أقواهم مكراً وأنفذهم كيداً، وأقدرهم على إيصال الضر إليهم من حيث لا يحتسبون، فتدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه، وإتمام حكمته وكلها خير في نفسها، وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي مكر الله بهم حين قال لنبيه إني متوفيك ورافعك إليّ. وفي هذا بشارة بنجاته من مكرهم واستيفاء أجله، وأنهم لا ينالون منه ما كانوا يريدون بمكرهم وخبثهم.

وللعلماء في تأويل هذه الآية رأيان:

(١) إن فيها تقديماً وتأخيراً، والأصل: إني رافعك إليّ ومتوفيك، أي إني رافعك الآن ومميتك بعد النزول من السماء في الحين الذي قدر لك...

(٢) إن الآية على ظاهرها، وأن التوفي هو الإماتة العادية، وأن الرفع بعده للروح ولا غرابة في خطاب الشخص وإرادة روحه، فالروح هي حقيقة الإنسان، والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير. والإنسان إنسان لأن روحه هي هي.

والمعنى - إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع عندي كما قال في إدريس عليه السلام ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

وحديث الرفع والنزول آخر الزمان حديث آحاد يتعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر، ولا يوجد هنا واحد منهما، أو أن المراد بنزوله وحكمه في الأرض غلبة روحه، وسر رسالته على الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها، والتمسك بقشورها دون لبابها.

ذاك أن المسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكن جاء بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر شريعة موسى عليه السلام، ويقفهم على فقهها والمراد منها فإن أصحاب هذه الشريعة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها.

فزمان عيسى هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية، لإصلاح السرائر غير تقيد بالرسوم والظواهر.

﴿ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي ومنجوك مما كانوا يريدونه بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القبائح ونسبة السوء إليه.

﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف ٦] ثم آمنوا بمحمد ﷺ بعدك فوق الذين مكروا بك من اليهود وكذبوك، ومن سار بسيرتهم ممن لم يهتد بهديك.

وهذه الفوقية إما فوقية دينية روحانية وهي فضلهم عليهم في حسن الأخلاق، وكمال الآداب، والقرب من الحق، والبعد من الباطل. وإما فوقية دنيوية وهي كونهم أصحاب السيادة عليهم.

وفي هذا إخبار عن ذلّ اليهود ومسكنتهم إلى يوم القيامة وقد تحقق ذلك، فلا يرى ملك يهودي، ولا بلد مستقل لهم بخلاف النصارى، ولكن هذا لم يتحقق زمن المسيح لأتباعه، بل كان اليهود يغلبونهم على أمرهم، فالوجه الأول أولى بالاعتبار.

﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي ثم مصيركم إليّ يوم البعث، فأحكم بينكم حينئذ فيما اختلفتم فيه من أمور الدين، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به.

وحينئذ يتبين لهم الحق في كل ما اختلفوا فيه بما يمحو شبه الجاحدين وعناد المخالفين.

ثم بين جزاء المحقّ والمبطل وكيفيته فقال:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي وأما الذين صدّقوك وأقروا بنبوّتك وبما جئتهم به من الحق، ودانوا بالإسلام الذي بعثك الله به، وعملوا بالأوامر وتركوا النواهي - فيؤتيهم الله أجرهم كاملاً غير منقوص.

ثم بين علة جزاء الفريقين بما جازى فقال:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أي والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه، فكيف بظلم عباده له، فهو يجازيه بما يستحق.

وفي هذا وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله...

وهي من القرآن الحكيم الذي يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم في الأحكام فيهدي المؤمنين إلى لب الدين وفقه الشريعة، وأسرار الاجتماع البشري.

وفيها حجة على من حاجك من وفد نجران، ويهود بني إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جئتهم به من الحق.

سيد قطب ج ١ ص ٣٩٥ ـ ٤٠٥

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ . يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ ...

وأي اصطفاء؟! وهو يختارها لتلقي النفخة المباشرة. كما تلقاها أول هذه الخليقة: «آدم»؟ وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية.. وهو بلا جدال أمر عظيم..

ولكنها - حتى ذلك الحين - لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم!

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى. وذلك لما لابس مولد عيسى - عليه السلام - من شبهات لم يتورع اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس فيزعموا أن وراءه سراً لا يشرف.. قبحهم الله!!

وهنا تظهر عظمة هذا الدين؛ ويتبين مصدره عن يقين. فها هو ذا محمد ﷺ رسول الإسلام الذي يلقى من أهل الكتاب - ومنهم النصارى - ما يلقى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات.. ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على «نساء العالمين» بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد!

أي صدق؟ وأية عظمة؟ وأية دلالة على مصدر هذا الدين، وصدق صاحبه الأمين!

إنه يتلقى «الحق» من ربه؛ عن مريم وعن عيسى عليه السلام؛ فيعلن هذا الحق، في هذا المجال.. ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال!

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾..

طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظيم الخطير..

وعند هذا المقطع من القصة، وقبل الكشف عن الحدث الكبير.. يشير السياق إلى شيء من حكمة مساق القصص.. إنه إثبات الوحي، الذي ينبىء النبي ﷺ بما لم يكن حاضره من أنباء الغيب، في هذا الأمر:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾..

وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل، وفاء لنذرها وعهدها مع ربها. والنص يشير إلى حادث لم يذكره «العهد القديم» ولا «العهد الجديد» المتداولان؛ ولكن لا بد أنه كان معروفاً عند الأحبار والرهبان. حادث إلقاء الأقلام.. أقلام سدنة الهيكل.. لمعرفة من تكون مريم من نصيبه. والنص القرآني لا يفصل الحادث ـ ربما اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه، أو لأنه لا يزيد شيئاً في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة ـ فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة ـ بواسطة إلقاء الأقلام ـ لمعرفة من هي من نصيبه، على نحو ما نصنع في «القرعة» مثلاً.

فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تفشى ولا تباح للإذاعة بها، فاتخذها القرآن ـ في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها ـ دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق. ولم يَرد أنهم ردّوا هذه الحجة. ولو كانت موضع جدال لجادلوه؛ وهم قد جاءوا للجدال!

والآن نجيء إلى مولد عيسى: العجيبة الكبرى في عرف الناس، والشأن العادي للمشيئة الطليقة...

لقد تأهلت مريم إذن بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقي هذا الفضل، واستقبال هذا الحدث، وها هي ذي تتلقى ـ لأول مرة ـ التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾..

إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله. بشارة بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم.. فالمسيح بدل من الكلمة في العبارة. وهو الكلمة في الحقيقة. فماذا وراء هذا التعبير؟

إن هذه وأمثالها، من أمور الغيب التي لا مجال لمعرفة كنهها على وجه التحديد.. ربما كانت من الذي عناه الله بقوله: ﴿ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧] إلخ.

ولكن الأمر أيسر من هذا إذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه الحقيقة الفهم الذي يصل القلب بالله، وصنعته وقدرته، ومشيئته الطليقة:

لقد شاء الله أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب ـ وسواء كان قد جبله مباشرة من التراب أو جبل السلالة الأولى التي انتهت إليه من تراب، فإن هذا لا يقدم ولا يؤخر في طبيعة السر الذي لا يعلمه إلا الله. سر الحياة التي لابست أول مخلوق حي، أو لابست آدم إن كان خلقه مباشرة من التراب الميت! وهذه كتلك في صنع الله. وليست واحدة منهما بأولى من الأخرى في الوجود والكينونة...

من أين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟ إنها قطعاً شيء آخر غير التراب وغير سائر المواد الميتة في هذه الأرض.. شيء زائد. وشيء مغاير. وشيء ينشىء آثاراً وظواهر لا توجد أبداً في التراب ولا في مادة ميتة على الإطلاق..

هذا السر من أين جاء؟ إنه لا يكفي أننا لا نعلم لكي

ننكر أو نهذر! كما يفعل الماديون في لجاجة صغيرة لا يحترمها عاقل فضلاً عن عالم!

نحن لا نعلم. وقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي بذلناها ـ نحن البشر ـ بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها، أو لإنشائها بأيدينا من الموت!

نحن لا نعلم. . ولكن الله الذي وهب الحياة يعلم. . وهو يقول لنا: إنها نفخة من روحه. وإن الأمر قد تم بكلمة منه. «كن فيكون». .

ما هي هذه النفخة؟ وكيف تنفخ في الموات فينشأ فيه هذا السر اللطيف الخافي على الأفهام؟

ما هي؟ وكيف؟ هذا هو الذي لم يخلق العقل البشري لإدراكه، لأنه ليس من شأنه. إنه لم يوهب القدرة على إدراكه. إن معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لا يجديه شيئاً في وظيفته التي خلقه الله لها ـ وظيفة الخلافة في الأرض ـ إنه لن يخلق حياة من موات. . فما قيمة أن يعرف طبيعة الحياة، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة الذي سارت فيه السلالة الحية؟

والله سبحانه يقول: إن النفخة من روحه في آدم هي التي جعلت له هذا الامتياز والكرامة ـ حتى على الملائكة، فلا بد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرد الحياة الموهوبة للدود والميكروب! وهذا ما يقودنا إلى اعتبار الإنسان جنساً نشأ نشأة ذاتية، وأن له اعتباراً خاصاً في نظام الكون، ليس لسائر الأحياء!

وعلى أية حال فهذا ليس موضوعنا هنا، إنما هي لمحة في سياق العرض للتحرز من شبهة قد تقوم في نفس القارىء لما عرضناه جدلاً حول نشأة الإنسان!

المهم هنا أن الله يخبرنا عن نشأة سر الحياة؛ وإن لم ندرك طبيعة هذا السر وكيفية نفخه في الموات. . وقد شاء الله بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة ـ أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقاً معيناً. طريق التقاء ذكر وأنثى. واجتماع بويضة وخلية تذكير. فيتم الإخصاب، ويتم الإنسال. والبويضة حية غير ميتة والخلية حية كذلك متحركة.

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة. . حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان. فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى. وإن لم تكن مثلها تماماً. أنثى فقط. تتلقى النفخة التي تنشىء الحياة ابتداء. فتنشأ فيها الحياة!

أهذه النفخة هي الكلمة؟ الكلمة هي توجه الإرادة؟ الكلمة: ﴿ كُن﴾ التي قد تكون حقيقة وقد تكون كناية عن توجه الإرادة؟ والكلمة هي عيسى، أو هي التي منها كينونته؟

كل هذه بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات. . وخلاصتها هي تلك: أن الله شاء أن ينشىء حياة على غير مثال. فأنشأها وفق إرادته الطليقة التي تنشىء الحياة بنفخة من روح الله. ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها. ويجب أن نجهلها. لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة الخلافة في الأرض، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلاً في تكليف الاستخلاف!

والأمر هكذا سهل الإدراك. ووقوعه لا يثير الشبهات!

وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم. . فتضمنت البشارة نوعه، وتضمنت اسمه ونسبه. وظهر من هذا النسب أن مرجعه إلى أمه. . ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه: ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾. . كما تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾. . ولمحة من مستقبله: ﴿ وَكَهْلًا﴾. . وسمته والموكب الذي ينتسب إليه: ﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾. . فأما مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر في الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة. واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي يحير عقل الإنسان:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾. .

وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾. . وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية

يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب؛ ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب: كيف عجبت من هذا الأمر الفطري الواضح القريب!! وهكذا كان القرآن ينشىء التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب. وهكذا كان يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة، ويقر الأمر في القلوب وفي العقول سواء.. ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخلق الذي اختارها الله لإنجابه على غير مثال؛ وكيف ستمضي سيرته في بني إسرائيل.. وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح، ويلتقيان في سياق واحد، كأنما يقعان اللحظة، على طريقة القرآن:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾..

ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان. والحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها، وإدراك الصواب واتباعه. وهي خير كثير. والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل. فهي أساس الدين الذي جاء به. والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل. وهذا ما يخطىء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة، وهي قاعدة دين المسيح عليه السلام وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع؛ ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل. أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين، وتهذيب لضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص. هذا الإحياء وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به كما سيجيء.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾..

ويفيد هذا النص أن رسالة ـ عيسى عليه السلام ـ كانت لبني إسرائيل، فهو أحد أنبيائهم. ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية، والمتضمنة لقوانين التعامل والتنظيم، هي كتاب عيسى كذلك، مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير...

وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله. وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً؛ ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط!

وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها، أو رد العافية وهي فرع عن الحياة. ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية.. وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى؛ ومنحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم عليه السلام وإذا كان الله قادراً أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال.. ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسانُ الله ـ سبحانه ـ بمألوف الإنسان!

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾..

وهذا الختام في دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل يتكشف عن حقائق أصيلة في طبيعة دين الله، وفي مفهوم هذا الدين في دعوة الرسل جميعاً ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وهي حقائق ذات قيمة خاصة حين ترد على لسان عيسى عليه السلام بالذات، وهو الذي ثار حول مولده وحقيقته ما ثار من الشبهات، التي نشأت كلها من الانحراف عن حقيقة دين الله التي لا تتبدل بين رسول ورسول.

فهو إذ يقول: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾..

يكشف عن طبيعة المسيحية الحقة. فالتوراة التي

تنزلت على موسى عليه السلام وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) ـ هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام؛ وجاءت رسالته مصدقة لها، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، وكان تحريمه في صورة عقوبات حلت بهم على معاصٍ وانحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم. ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام، فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين ـ أي دين ـ أن يتضمن تنظيماً لحياة الناس بالتشريع؛ وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك. فهذا لا يكون ديناً. فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر؛ ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله. ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية، عن الشعائر التعبدية، عن القيم الخلقية، عن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يصرّف حياة الناس وفق المنهج الإلهي. وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة؛ ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله.

وهذا ما حدث للمسيحية. فإنها لعدة ملابسات تاريخية من ناحية؛ ولكونها جاءت موقوتة لزمن ـ حتى يجيء الدين الأخير ـ ثم عاشت بعد زمنها من ناحية. . قد انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبدي الأخلاقي. . فقد حدث أن قامت العداوة المستحكمة بين اليهود والمسيح عليه السلام وأنصاره ومن اتبع دينه فيما بعد؛ فأنشأ هذا انفصالاً بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للإحياء الروحي والتهذيب الأخلاقي. . كما أن تلك الشريعة كانت شريعة موقوتة لزمن خاص ولجماعة من الناس خاصة. وكان في تقدير الله أن الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجيء في موعدها المقدور.

وعلى أية حال فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة بغير شريعة. وهنا عجزت عن أن تقود الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها. فقيادة الحياة الاجتماعية تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر الوجود كله، ويفسر حياة الإنسان ومكانه في الوجود؛ وتقتضي نظاماً تعبدياً وقيماً أخلاقية. ثم تقتضي ـ حتماً ـ تشريعات منظمة لحياة الجماعة، مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي، ومن هذا النظام التعبدي، ومن هذه القيم الأخلاقية. وهذا القوام التركيبي للدين هو الذي يضمن قيام نظام اجتماعي، له بواعثه المفهومة، وله ضماناته المكينة. . فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها، ومن بينهما النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الحياة. وقامت الأنظمة الاجتماعية هناك على غير قاعدتها الطبيعية الوحيدة. فقامت معلقة في الهواء أو قامت عرجاء!

ولم يكن هذا أمراً عادياً في الحياة البشرية، ولا حادثاً صغيراً في التاريخ البشري. . إنما كان كارثة: كارثة ضخمة، تنبع منها الشقوة والحيرة والانحلال والشذوذ والبلاء الذي تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم. سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية ـ وهي خالية من النظام الاجتماعي لخلوها من التشريع ـ أو التي نفضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيراً عن الذين يدعون أنهم مسيحيون. . فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين، هي الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله، ومن القيم الأخلاقية المستندة إلى هذا التصور. . وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا تكون مسيحية. ولا يكون دين على الإطلاق! وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا يقوم نظام اجتماعي للحياة البشرية يلبي حاجات النفس البشرية، ويلبي واقع الحياة البشرية، ويرفع النفس البشرية والحياة البشرية كلها إلى الله.

وهذه الحقيقة هي أحد المفاهيم التي يتضمنها قول المسيح عليه السلام:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.. إلخ..

وهو يستند في تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى: حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾..

فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله: المعجزات التي جاءهم بها لم يجيء بها من عند نفسه. فما له قدرة عليها وهو بشر. إنما جاءهم بها من عند الله. ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله.. ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء ـ فما هو برب وإنما هو عبد ـ وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا لله.. ويختم قوله بالحقيقة الشاملة.. فتوحيد الرب وعبادته، وطاعة الرسول والنظام الذي جاء به: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.. وما عداه عوج وانحراف. وما هو قطعاً بالدين..

ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر، وصفاته ورسالته ومعجزاته وكلماته، هذه التي ذكرت ملحقة بالبشارة.. ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه عليه السلام بالكفر من بني إسرائيل، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وهنا فجوة كبيرة في السياق. فإنه لم يذكر أن عيسى قد ولد بالفعل؛ ولا أن أمه واجهت به القوم فكلمهم في المهد؛ ولا أنه دعا قومه وهو كهل؛ ولا أنه عرض عليهم هذه المعجزات التي ذكرت في البشارة لأمه (كما جاء في سورة مريم).. وهذه الفجوات ترد في القصص القرآني، لعدم التكرار في العرض من جهة، وللاقتصار على الحلقات والمشاهد المتعلقة بموضوع السورة وسياقها من جهة أخرى..

والآن لقد أحس عيسى الكفر من بني إسرائيل ـ بعدما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تتهيأ لبشر؛ والتي تشهد بأن الله وراءها، وأن قوة الله تؤيدها، وتؤيد من جاءت على يده. ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف..

عندئذ دعا دعوته: ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾..

من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟ من أنصاري إلى الله لأبلغ إليه، وأؤدي عنه؟ ولا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه، ويحملون دعوته، ويحامون دونها، ويبلغونها إلى من يليهم، ويقومون بعده عليها..

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فذكروا الإسلام بمعناه الذي هو حقيقة الدين، وأشهدوا عيسى عليه السلام على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله.. أي نصرة رسوله ودينه ومنهجه في الحياة. ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به في هذا الأمر الذي يقومون عليه: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

وفي هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة.. إن عهد المؤمن هو ابتداء مع ربه، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد؛ وانعقدت البيعة مع الله، فهي باقية في عنق المؤمن بعد الرسول.. وفيه كذلك تعهد لله باتباع الرسول. فليس الأمر مجرد عقيدة في الضمير؛ ولكنه اتباع لمنهج، والاقتداء فيه بالرسول. وهو المعنى الذي يركز عليه سياق هذه السورة ـ كما رأينا ـ ويكرره بشتى الأساليب.

ثم عبارة أخرى تلفت النظر في قول الحواريين: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.. فأي شهادة وأي شاهدين؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين. شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء؛ وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر.. وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين. صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً، يشهد لهذا الدين بالأحقية في

الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما في الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات.

وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه، وشريعة نفسه وقومه. فيقوم مجتمع من حوله، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي القويم.. وجهاده لقيام هذا المجتمع، وتحقيق هذا المنهج؛ وإيثاره الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية.. هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء! ومن ثم يدعى ﴿شَهِيدًا﴾..

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه.. أي أن يوفقهم ويعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين؛ وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج. ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من «الشهداء» على حق هذا الدين.

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعي لنفسه الإسلام.. فهذا هو الإسلام، كما فهمه الحواريون. وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقيين! ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه. فأما إذا ادعى الإسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الإسلام؛ أو حاولها في نفسه، ولكنه لم يؤدها في المجال العام، ولم يجاهد لإقامة منهج الله في الحياة إيثاراً للعافية، وإيثاراً لحياته على حياة الدين، فقد قصر في شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين. شهادة تصد الآخرين عنه. وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له! وويل لمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين، وما هو من المؤمنين!

ويمضي السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى عليه السلام وبني إسرائيل:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾..

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.. والمشاكلة هنا في اللفظ هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله.. والمكر التدبير.. ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله. فأين هم من الله؟ وأين مكرهم من تدبير الله؟

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه.. فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله. ولا طائل وراء البحث فيها. لا في عقيدة ولا في شريعة. والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد. دون ما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكول إلى علم الله.

وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.. فلا يصعب القول فيه. فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح.. الإسلام.. الذي عرف حقيقته كل نبي، وجاء به كل رسول، وآمن به كل من آمن حقاً بدين الله.. وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله.. كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان، وحقيقة الاتباع.. ودين الله واحد. وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول. والذين يتبعون محمداً ـ ﷺ ـ هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم. من لدن آدم ـ عليه الإسلام ـ إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع سياق السورة، ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق. فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين، فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ . . وفي هذا النص تقرير لجدية الجزاء وللقسط الذي لا يميل شعرة، ولا تتعلق به الأماني ولا الافتراء . . رجعة إلى الله لا محيد عنها. وحكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد له. وعذاب شديد في الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه. وتوفية للأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا محاباة فيه ولا بخس. . ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ . . فحاشا أن يظلم وهو لا يحب الظالمين . .

وكل ما يقوله أهل الكتاب إذن من أنهم لن يدخلوا النار إلا أياماً معدودات. وكل ما رتبوه على هذا التميع في تصورعدل الله في جزائه من أماني خادعة . . باطل باطل لا يقوم على أساس.

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من قصة عيسى التي تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجدل، يبدأ التعقيب الذي يقرر الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص، وينتهي إلى تلقين الرسول ـ ﷺ ـ ما يواجه به أهل الكتاب مواجهة فاصلة تنهي الحوار والجدل؛ وتستقر على حقيقة ما جاء به، وما يدعو إليه، في وضوح كامل وفي يقين:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ . إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ . . . ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . .

وهكذا نجد هذا التعقيب يتضمن ابتداء صدق الوحي الذي يوحى إلى محمد ـ ﷺ ـ: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ . .

ذلك القصص. وذلك التوجيه القرآني كله. فهو وحي من الله. يتلوه الله على نبيه ـ ﷺ ـ وفي التعبير معنى التكريم والقرب والود . . فماذا بعد أن يتولى الله تعالى التلاوة على محمد نبيه؟ تلاوة الآيات والذكر الحكيم . . وإنه لحكيم يتولى تقرير الحقائق الكبرى في النفس والحياة بمنهج وأسلوب وطريقة تخاطب الفطرة وتتلطف في الدخول عليها واللصوق بها بشكل غير معهود فيما يصدر عن غير هذا المصدر الفريد.

ثم يحسم التعقيب في حقيقة عيسى عليه السلام، وفي طبيعة الخلق والإرادة التي تنشىء كل شيء كما أنشأت عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ . . إن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر. ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى ـ بسبب مولده ـ وبصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب . . أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني . . دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى. ودون أن يقولوا عن آدم: إن له طبيعة لاهوتية. على حين أن العنصر الذي به صار آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب: عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك! وإن هي إلا الكلمة: «كن» تنشىء ما تراد له النشأة «فيكون»!

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة . . حقيقة عيسى، وحقيقة آدم، وحقيقة الخلق كله. وتدخل إلى النفس في يسر وفي وضوح، حتى ليعجب الإنسان: كيف ثار الجدل حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنة الكبرى. سنة الخلق والنشأة جميعاً!

وهذه هي طريقة ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ في مخاطبة الفطرة بالمنطق الفطري الواقعي البسيط، في أعقد القضايا، التي تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور!

٧

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ . وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

(سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٨٤ ـ ٨٥)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٣	ص ٢٤٠ ـ ٢٤١
الزمخشري	ج ١	ص ٤٤٢
الرازي	ج ٨	ص ١٢٣ ـ ١٢٦
الطبرسي	ج ٣	ص ١٣٢ ـ ١٣٥
ابن عربي	ج ١	ص ١٩٧ ـ ٢٠٠
البيضاوي	ج ٢	ص ٢٨ ـ ٢٩
الخازن	ج ١	ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦
البغوي	ج ١	ص ٢٥١
الماوردي	ج ١	ص ٤٠٧
القرطبي	ج ٤	ص ١٢٧ ـ ١٢٩
ابو حيان الاندلسي	ج ٢	ص ٥١٦ ـ ٥١٧
ابن كثير	ج ١	ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩
الجلالان		ص ٧٦
الشوكاني	ج ١	ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨
الآلوسي	ج ٢	ص ٢١٤ ـ ٢١٦
القاسمي	ج ٤	ص ١٣٥ ـ ١٣٦
محمد عبده	ج ٣	ص ٣٥٦ ـ ٣٦١
الطباطبائي	ج ٣	ص ٣٦٤ ـ ٣٧٢
جوهري	ج ٢	ص ١٣١ ـ ١٣٢
المراغي	ج ١	ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥
سيد قطب	ج ١	ص ٤٢١ ـ ٤٢٥

الطبري ج ٣ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه «أفغير دين الله تبغون» يا معشر اليهود، «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون»، فإن ابتغوا غير دين الله، يا محمد، فقل لهم ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ فترك ذكر قوله: «فإن قالوا نعم»، وذكر قوله: «فإن ابتغوا غير دين الله»، لدلالة ما ظهر من الكلام عليه. وقوله ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ يعني به: قل لهم يا محمد: صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا، لا إله غيره ولا نعبد أحداً سواه، ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ يقول: وقل: وصدقنا أيضاً بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله، فأقررنا به ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ يقول: وصدقنا أيضاً بما أنزل على إبراهيم خليل الله، وعلى ابنيه اسمعيل واسحق، وابن ابنه يعقوب، وبما أنزل على «الأسباط» وهم ولد يعقوب الاثنا عشر، وقد بينا أسماءهم بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ يقول: وصدقنا أيضاً مع ذلك بالذي أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوحي، وبما أنزل على النبيين من عنده. والذي آتى الله موسى وعيسى، مما أمر الله عز وجل محمداً بتصديقهما فيه والإيمان به، التوراة التي آتاها موسى والإنجيل الذي آتاه عيسى. ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ يقول لا نصدّق ببعضهم ونكذّب بعضهم، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما كفرت اليهود والنصارى ببعض أنبياء الله، وصدّقت بعضاً ولكنا نؤمن بجميعهم ونصدّقهم ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني: ونحن ندين لله بالإسلام لا ندين غيره، بل نتبرأ إليه من كل دين سواه، ومن كل ملة غيره. ويعني بقوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ ونحن له منقادون بالطاعة، متذللون بالعبودية، مقرّون له بالألوهة والربوبية، وأنه لا إله غيره. وقد ذكرنا الرواية بمعنى ما قلنا في ذلك فيما مضى وكرهنا إعادته.

القول في تأويل قوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾. يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل

الله منه ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ يقول: من الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عز وجل. وذكر أن أهل كل ملة ادعوا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية، فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين لأن من سنة الإسلام الحج فامتنعوا فأدحض الله بذلك حجتهم. ذكر الخبر بذلك حدثني المثنى. . . عن ابن أبي نجيح قال زعم عكرمة: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ فقالت الملل: نحن المسلمون فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧] فحج المسلمون وقعد الكفار. حدثني المثنى. . . عن عكرمة قال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾، قالت اليهود: فنحن المسلمون! فأنزل الله عز وجل لنبيه ﷺ يحجهم إن: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧] حدثني يونس قال أخبرنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ إلى آخر الآية، قالت اليهود: فنحن مسلمون! قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: قل لهم إن ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وقال آخرون في هذه الآية بما حدثنا به المثنى. . . عن ابن عباس قوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٦٢]، فأنزل الله عز وجل بعد هذا ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾.

الزمخشري ج ١ ص ٤٤٢

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان فلذلك وحد الضمير في ﴿ قُلْ ﴾ وجمع في ﴿ ءَامَنَّا ﴾ من الله لقدر نبيه. فإن قلت: لم عدى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر، ومن قال إنما قيل ﴿ عَلَيْنَا ﴾ لقوله ﴿ قُلْ ﴾ وإلينا لقوله قولوا تفرقة بين الرسول والمؤمنين لأن الرسول يأتيه الوحي عن طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء فقد تعسف؛ ألا ترى إلى قوله ﴿ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾، وإلى قوله ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٧٢] ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ ثم قال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾ يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ﴿ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ ﴿ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ وقرىء - ومن يبتغ غير الإسلام - بالإدغام.

الرازي ج ٨ ص ١٢٣ - ١٢٦

قوله تعالى ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أنه إنما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدق لما معهم بين في هذه الآية أن من صفة محمد ﷺ كونه مصدقاً لما معهم فقال: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ إلى آخر الآية وههنا مسائل:

المسألة الأولى: وحد الضمير في ﴿ قُلْ ﴾، وجمع في ﴿ ءَامَنَّا ﴾ وفيه وجوه: (الأول): إنه تعالى حين خاطبه، إنما خاطبه بلفظ الوحدان، وعلمه إنه حين يخاطب القوم يخاطبهم بلفظ الجمع على وجه التعظيم والتفخيم، مثل ما يتكلم الملوك والعظماء. و(الثاني): أنه خاطبه أولاً بخطاب الوحدان ليدل هذا الكلام على أنه لا مبلغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو، ثم قال ﴿ ءَامَنَّا ﴾ تنبيهاً على أنه حين يقول هذا القول فإن أصحابه يوافقونه عليه. (الثالث): إنه تعالى عينه في هذا التكليف بقوله

﴿قُلْ﴾ ليظهر به كونه مصدقاً لما معهم، ثم قال ﴿ءَامَنَّا﴾ تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه، بل هو لازم لكل المؤمنين كما قال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

المسألة الثانية: قدم الإيمان بالله على الإيمان بالأنبياء، لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالنبوة، وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه، لأن كتب سائر الأنبياء حرفوها وبدلوها فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بما أنزله الله على محمد ﷺ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل لما أنزل على سائر الأنبياء فلهذا قدمه عليه، وفي المرتبة الثالثة ذكر بعض الأنبياء وهم الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم، ويختلفون في نبوتهم ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ في سورة الأعراف، وإنما أوجب الله تعالى الإقرار بنبوة كل الأنبياء عليهم السلام لفوائد: (إحداها): إثبات كونه عليه السلام مصدقاً لجميع الأنبياء، لأن هذا الشرط كان معتبراً في أخذ الميثاق. و(ثانيها): التنبيه على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه لمكان ظهور المعجزة عليه، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كان نبياً، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالتكذيب متناقضاً، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوة الكل. و(ثالثها): إنه قال قبل هذه الآية ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وهذا تنبيه على أن إصرارهم على تكذيب بعض الأنبياء إعراض عن دين الله ومنازعة مع الله، فههنا أظهر الإيمان بنبوة جميع الأنبياء، ليزول عنه وعن أمته ما وصف أهل الكتاب به من منازعة الله في الحكم والتكليف. و(رابعها): أن في الآية الأولى ذكر أنه أخذ الميثاق على جميع النبيين، أن يؤمنوا بكل من أتى بعدهم من الرسل، وههنا أخذ الميثاق على محمد ﷺ بأن يؤمن بكل من أتى قبله من الرسل، ولم يأخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده من الرسل، فكانت هذه الآية دالة من هذا الوجه على أنه لا نبي بعده البتة، فإن قيل: لم عدى ﴿أُنزِلَ﴾ في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتباه؟ قلنا: لوجود المعنيين جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر، وقيل أيضاً إنما قيل ﴿عَلَيْنَا﴾ في حق الرسول، لأن الوحي ينزل عليه «وإلينا» في حق الأمة لأن الوحي يأتيهم من الرسول على وجه الانتهاء وهذا تعسف، ألا ترى إلى قوله ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وإلى قوله ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢].

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في أن الإيمان بهؤلاء الأنبياء الذين تقدموا ونسخت شرائعهم كيف يكون؟ وحقيقة الخلاف، أن شرعه لما صار منسوخا، فهل تصير نبوته منسوخة؟ فمن قال إنها تصير منسوخة قال: نؤمن أنهم كانوا أنبياء ورسلا، ولا نؤمن بأنهم الآن أنبياء ورسل، ومن قال إن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوة قال: نؤمن أنهم أنبياء ورسل في الحال فتنبه لهذا الموضع.

المسألة الرابعة: قوله ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ فيه وجوه: (الأول): قال الأصم: التفرق قد يكون بتفضيل البعض على البعض، وقد يكون لأجل القول بأنهم ما كانوا على سبيل واحد في الطاعة لله، والمراد من هذا الوجه يعني: نقر بأنهم كانوا بأسرهم على دين واحد في الدعوة إلى الله، وفي الإنقياد لتكاليف الله. (الثاني): قال بعضهم المراد ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بأن نؤمن ببعض دون بعض كما تفرقت اليهود والنصارى. (الثالث): قال أبو مسلم ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي لا نفرق ما أجمعوا عليه، وهو كقوله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣] وذم قوما وصفهم بالتفرق فقال ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

أما قوله ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ففيه وجوه: (الأول): إن إقرارنا بنبوة هؤلاء الأنبياء إنما كان لأجل كوننا منقادين لله تعالى مستسلمين لحكمه وأمره، وفيه تنبيه على أن حاله على خلاف الذين خاطبهم الله بقوله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. و(الثاني): قال أبو مسلم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مستسلمون لأمر الله بالرضا، وترك المخالفة

وتلك صفة المؤمنين بالله وهم أهل السلم والكافرون يوصفون بالمحاربة لله كما قال ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المائدة: ٣٣] (الثالث): إن قوله ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ يفيد الحصر والتقدير: له أسلمنا لا لغرض آخر من سمعة ورياء وطلب مال، وهذا تنبيه على أن حالهم بالضد من ذلك فإنهم لا يفعلون ولا يقولون إلا للسمعة والرياء وطلب الأموال والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾. اعلم أنه تعالى لما قال في آخر الآية المتقدمة ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ اتبعه بأن بين في هذه الآية أن الدين ليس إلا الإسلام، وأن كل دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند الله، لأن القبول للعمل هو أن يرضى الله ذلك العمل، ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه، ولذلك قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧] ثم بين تعالى أن كل من له دين سوى الإسلام فكما أنه لا يكون مقبولاً عند الله، فكذلك يكون من الخاسرين، والخسران في الآخرة يكون بحرمان الثواب، وحصول العقاب، ويدخل فيه ما يلحقه من التأسف والتحسر على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح وعلى ما تحمله من التعب والمشقة في الدنيا في تقريره ذلك الدين الباطل، واعلم أن ظاهرهذه الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان مقبولاً لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾، إلا أن ظاهر قوله تعالى ﴿ ۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ [الحجرات: ١٤] يقتضي كون الإسلام مغايراً للإيمان ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي، والآية الثانية على الوضع اللغوي.

الطبرسي ج ٣ ص ١٣٢ ـ ١٣٥

﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ الآية كما يخاطب رئيس القوم بأن يقول عن نفسه وعن رعيته، وقد سبق معنى الآية في سورة البقرة، فإن قيل ما معنى قوله ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ بعد ما سبق من الإقرار بالإيمان على التفصيل قلنا معناه ونحن له مسلمون بالطاعة والانقياد في جميع ما أمر به ونهى عنه، وأيضاً فإن أهل الملل المخالفة للإسلام كانوا يقرون كلهم بالإيمان ولكن لم يقروا قط بلفظ الإسلام؛ فلهذا قال ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ ﴾ أي يطلب ﴿ دِينٗا ﴾ يدين به ﴿ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ بل يعاقب عليه ويدل عليه قوله ﴿ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

الخازن ج ١ ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦

الآية أن من صفة محمد ﷺ مصدقاً لما معهم فقال تعالى ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، وإنما وحد الضمير في قوله ﴿ قُلۡ ﴾ وجمع في قوله ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ لأنه إنما خاطبه بلفظ الواحد ليدل هذا الكلام على أنه لا يبلغ هذا التكليف عن الله تعالى إلى الخلق إلا هو ثم قال ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ تنبيهاً على أنه حين قال هذا القول وافقه أصحابه فحسن الجمع في قوله ﴿ ءَامَنَّا ﴾ ومعنى الآية قل يا محمد: صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا لا إله لنا غيره، ولا رب سواه، وإنما قدم الإيمان بالله على غيره لأنه الأصل ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ﴾ يعني وقل يا محمد: وصدقنا أيضاً بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله، وإنما قدم ذكر القرآن لأنه أشرف الكتب، وأنه لم يحرف ولم يبدل وغيره حرف وبدل ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ إنما خص هؤلاء الأنبياء بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بوجودهم ولم يختلفوا في نبوتهم أنبياء ثم جمع جميع الأنبياء فقال ﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ ﴾ أي ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ﴾ النبيون ﴿ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ ﴾ وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون ببعض النبيين ويكفرون ببعض؛ فأمر الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ أن يخبر عن نفسه، وعن أمته أنه يؤمن بجميع الأنبياء. فإن قلت: لم عدى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها في البقرة بحرف

الانتهاء. قلت: لوجود المعنيين جميعاً» ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يعني أن الدين المقبول لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ يعني الذين وقعوا في الخسارة وروى ابن جرير الطبري فلم يحجوا.

القرطبي ج ٤ ص ١٢٧ ـ ١٢٩

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾

﴿غَيْرَ﴾ مفعول يبتغ، ﴿دِينًا﴾ منصوب على التفسير، ويجوز أن ينتصب ﴿دِينًا﴾ بيبتغ، وينتصب ﴿غَيْرَ﴾ على أنه حال من الدِّين. قال مجاهد والسُّدِّي: نزلت هذه الآية في الحارث بن سُويد أخو الجُلَاس بن سويد، وكان من الأنصار، ارتدّ عن الإسلام هو وأثنا عشر معه، ولحقوا بمكة كفاراً، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة. ورُوِي ذلك عن أبن عباس وغيره. قال ابن عباس: وأسلم بعد نزول الآيات. ﴿وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾، قال هشام: أي وهو خاسر في الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرّقت بين الصلة والموصول. وقال المازني: الألف واللام مثلها في الرجل. وقد تقدّم هذا في البقرة عند قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

أبو حيان الأندلسي ج ٢ ص ٥١٦ ـ ٥١٧

. . . ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية موافقة لما في البقرة إلا في ﴿قُلْ﴾ وفي ﴿عَلَيْنَا﴾ وفي ﴿وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ وقد تقدّم شرح ما في البقرة فأغنى عن إعادته هنا إلا ما وقع فيه الخلاف، فنقول الظاهر في «قل» إنه خطاب للنبي ﷺ أمر أن يخبر عن نفسه وعن أمته بقوله: آمنا به، ويقوى أنه أخبار عنه وعن أمته قوله أخيراً ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، وأفرده بالخطاب بقوله ﴿قُلْ﴾ لأنه تقدّم ذكره في أخذ الميثاق في قوله ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ٨١]، فعينه في هذا التكليف ليظهر فيه كونه مصدّقاً لما مع الأنبياء الذين أخذ عليهم الميثاق، وقال ﴿ءَامَنَّا﴾ تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه بل هو لازم لكل المؤمنين. قال تعالى ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] بعد قوله ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. . . وقال ابن عطية: المعنى قل يا محمد أنت وأمتك آمنا بالله فيظهر من كلام ابن عطية أن ثم معطوفاً حذف، وأن ثم الأمر متوجه إلى النبي ﷺ وأمته، وأما تعدية ﴿أُنزِلَ﴾ هنا بعلى وفي البقرة بإلى. فقال ابن عطية: الإنزال على نبي الأمة إنزال عليها. . .

وقال الراغب: إنما قال هنا ﴿عَلَىٰٓ﴾ لأن ذلك لما كان خطاباً للنبي ﷺ وكان واصلاً إليه من الملأ الأعلى بلا واسطة بشر كان لفظ ﴿عَلَىٰٓ﴾ المختص بالعلوّ أولى به، وهناك لما كان خطاباً للأمة وقد وصل إليهم بواسطة النبي ﷺ كان لفظ إلى المختص بالإيصال أولى. ويجوز أن يقال: أنزل عليه إنما يحمل على ما أمر المنزل عليه أن يبلغ غيره، وأنزل إليه ما خص به في نفسه وإليه نهاية الإنزال وعلى ذلك قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] خص هنا بإلى لما كان مخصوصاً بالذكر الذي هو بيان المنزل. وهذا كلام في الأولى لا في الوجوب انتهى كلامه. وذكر الزمخشري أن من قال هذا الفرق فقد تعسف. قال: ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [المائدة: ٤٨] وإلى قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢] انتهى. وأما إعادة لفظ (وما أوتي) فلأنه لما كان لفظ الخطاب عاماً ومن حكم خطاب العام البسط دون الإيجاز، ولما كان الخطاب هنا خاصاً اكتفى فيه بالإيجاز ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ

﴿مِنْهُ﴾، الإسلام هنا قيل: هو الاستسلام إلى الله والتفويض إليه، وهو مطلوب في كل زمان ومكان وشريعة... وقيل: المراد بالإسلام شريعة محمد ﷺ بين تعالى أن من تحرّى بعد مبعثه شريعة غير شريعته فغير مقبول منه وهو الدين الذي وافق في معتقداته دين من ذكر من الأنبياء. قيل: وعن ابن عباس لما نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ الآية أنزل الله بعدها ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ الآية، وهذا إشارة إلى نسخ (إن الذين آمنوا). وعن عكرمة لما نزلت قالوا للنبي ﷺ قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون، فقال الله له: حجهم يا محمد وأنزل ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] فحج المسلمون وقعد الكفار.

وقيل: نزلت في الحرث بن سويد وستأتي قصته بعد هذا، وقبول العمل هو رضاه وإثابة فاعله عليه. وانتصب (ديناً) على التمييز لغير، لأن غير مبهمة ففسرت بدين، كما أن مثلاً مبهمة فتفسر أيضاً، وهذا كقولهم «لنا غيرها إبلاً وشاء» ومفعول ﴿يَبْتَغِ﴾ هو ﴿غَيْرَ﴾. وقيل ﴿دِينًا﴾ مفعول و﴿غَيْرَ﴾ منصوب على الحال لأنه لو تأخر كان نعتاً، وقيل ﴿دِينًا﴾ بدل من ﴿غَيْرَ﴾ والجمهور على إظهار الغينين، وروي عن أبي عمرو الإدغام ﴿وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ الخسران في الآخرة: هو حرمان الثواب وحصول العقاب، شبه في تضييع زمانه في الدنيا باتباع غير الإسلام بالذي خسر في بضاعته ويحتمل أن تكون هذه الجملة قد عطفت على جواب الشرط فيكون قد ترتب على ابتغاء غير الإسلام ديناً عدم القبول والخسران، ويحتمل أن لا تكون معطوفة عليه بل هي استئناف إخبار عن حاله ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ و﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده أي وهو خاسر ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أو بإضمار أعني أو بالخاسرين على أن الألف واللام ليست موصولة بل للتعريف كهي في الرجل أو به على أنها موصولة وتسومح في الصرف والمجرور لأنه يتسع فيهما ما لا يتسع في غيرهما وكل منقول وقد تقدّم لنا نظيره.

ابن كثير ج ١ ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩

ثم قال تعالى ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾، أي من الصحف والوحي ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾، وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ الاثني عشر، ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، أي من سلك طريقاً سوي ما شرعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»...

الشوكاني ج ١ ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨

قوله ﴿أَفَغَيْرَ﴾ عطف على مقدّر: أي أتتولون فتبغون غير دين الله، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار. وقرأ أبو عمرو وحده (يبغون) بالتحتية، و(ترجعون) بالفوقية، قال: لأن الأوّل خاص والثاني عام، ففرّق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ حفص بالتحتية في الموضعين. وقرأ الباقون بالفوقية فيهما وانتصب طوعاً وكرهاً على الحال، أي طائعين ومكرهين. والطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما فيه مشقة وهو من أسلم مخافة القتل وإسلامه واستسلام منه. قوله (آمنا) إخبار منه ﷺ عن نفسه وعن أمته ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كما فرقت اليهود والنصارى فآمنوا ببعض وكفروا ببعض. وقد تقدّم تفسير هذه الآية ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي

منقادون ومخلصون. قوله ﴿دِينًا﴾ مفعول للفعل: أي يبتغ ديناً حال كونه غير الإسلام، ويجوز أن ينتصب غير الإسلام على أنه مفعول الفعل، ودينا إما تمييز أو حال إذا أوّل بالمشتق، أو بدل من غير. قوله ﴿وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إما في محل نصب على الحال أو جملة مستأنفة: أي من الواقعين في الخسران يوم القيامة...

الآلوسي ج ٢ ص ٢١٤ ـ ٢١٦

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أمر للرسول ﷺ أن يخبر عن نفسه والمؤمنين بالإيمان بما ذكر، فضمير آمنا للنبي ﷺ والأمة، وقال المولى عبد الباقي: لما أخذ الله تعالى الميثاق من النبيين أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه أمر محمداً أيضاً ﷺ أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به وبكتبهم فيكون ﴿ءَامَنَّا﴾ في موضع آمنت لتعظيم نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام، أو لما عهد مع النبيين وأممهم أن يؤمنوا أمر محمداً عليه الصلاة والسلام وأمته أن يؤمنوا بهم وبكتبهم.

والحاصل أخذ الميثاق من الجانبين على الإيمان على طريقة واحدة، ولم يتعرض هنا لحكمة الأنبياء السالفين إما لأن الإيمان بالكتاب المنزل إيمان بما فيه من الحكمة، أو للإشارة إلى أن شريعتهم منسوخة في زمن هذا النبي ﷺ، وكلاهما على تقدير كون الحكمة بمعنى الشريعة، ولم يتعرض لنصرته عليه الصلاة والسلام لهم إذ لا مجال بوجه لنصرة السلف، ويؤيد دعوى أخذ الميثاق من الجانبين ما أخرجه عبد الرزاق. وغيره عن طاوس أنه قال: أخذ الله تعالى ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾... ومن هنا أتى بضمير الجمع، وقد يعتبر الإنزال عليه عليه الصلاة والسلام وحده، ولكن نسب إلى الجمع ما هو منسوب لواحد منه مجازاً على ما قيل، ويحتمل أن تكون النون نون العظمة لا ضمير الجماعة، وعدى الإنزال هنا ـ بعلى ـ وفي البقرة ـ بإلى ـ لأنه له جهة علو باعتبار ابتدائه، وانتهاء باعتبار آخره، وقد جعل الخطاب هنا للنبي ﷺ فناسبه الاستعلاء وهناك للعموم، فناسب الانتهاء كذا قيل، ويرد عليه قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ٧٢] والتحقيق أنه لا فرق بين المعدى ـ بإلى ـ والمعدى ـ بعلى ـ إلا بالاعتبار، فإن اعتبرت مبدأه عديته ـ بعلى ـ لأنه فوقاني وإن اعتبرت انتهاءه إلى من هو له عديته ـ بإلى ـ ويلاحظ أحد الاعتبارين تارة والآخر أخرى تفننا بالعبارة، وفرّق الراغب بأن ما كان واصلاً من الملأ الأعلى بلا واسطة كان لفظ ـ على ـ المختص بالعلو أولى به، وما لم يكن كذلك كان لفظ ـ إلى ـ المختص بالإيصال أولى به وقيل: أنزل عليه يحمل على أمر المنزل عليه أن يبلغه غيره، وأنزل إليه يحمل على ما خص به نفسه لأن إليه انتهاء الإنزال ـ وكلا القولين ـ لا يخلو عن نظر ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ قيل: خص هؤلاء الكرام بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم، والمراد بالموصول الصحف ـ كما هو الظاهر ـ وقدم المنزل عليه عليه الصلاة والسلام على المنزل عليهم إما لتعظيمه والاعتناء به، أو لأنه المعرف له ومعرفة المعرف تتقدم على معرفة المعرف، والأسباط الأحفاد لا أولاد البنات، والمراد بهم على رأي أبناء يعقوب الاثنا عشر وذراريهم، وليس كلهم أبناءاً خلافاً لزاعمه ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل. وسائر المعجزات ـ كما يشعر به إيثار الإيتاء على الإنزال الخاص بالكتاب ـ وقيل: هو خاص بالكتابين، وتغيير الأسلوب للاعتناء بشأن الكتابين، وتخصيص هذين النبيين بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ عطف على موسى. وعيسى أي ـ وبما أوتي النبيون ـ على تعدد أفرادهم واختلاف أسمائهم ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ متعلق بأوتي، وفي التعبير بالرب مضافاً إلى ضميرهم ما لا يخفى من اللطف. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي بالتصديق والتكذيب، فعل اليهود والنصارى ـ والتفريق بغير ذلك كالتفضيل جائز ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي مستسلمون بالطاعة والانقياد في جميع ما أمر به ونهى عنه، أو مخلصون له في العبادة، وعلى

التقديرين لا تكون هذه الجملة مستدركة بعد جملة الإيمان كما هو ظاهر، وقيل: إن أهل الملل المخالفة للإسلام كانوا كلهم يقرون بالإيمان ولم يكونوا يقرون بلفظة الإسلام فلهذا أردف تلك الجملة بهذه.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ . . . والإسلام قيل: التوحيد والإنقياد، وقيل: شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام بين تعالى أن من تحرى بعد مبعثه ﷺ غير شريعته فهو غير مقبول منه، وقبول الشيء هو الرضا به وإثابة فاعله عليه، وانتصاب ﴿ دِينًا ﴾ على التمييز من ﴿ غَيْرَ ﴾ وهي مفعول ﴿ يَبْتَغِ ﴾ وجوز أن يكون ﴿ دِينًا ﴾ مفعول ﴿ يَبْتَغِ ﴾ و﴿ غَيْرَ ﴾ صفة قدمت فصارت حالاً، وقيل: هو بدل من (غير الإسلام) والجمهور على إظهار الغينين، وروي عن أبي عمرو الإدغام، وضعفه أبو البقاء بأن كسرة الغين الأولى تدل على الياء المحذوفة ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ إما معطوفة على جواب الشرط فتكون في محل جزم، وإما في محل الحال من الضمير المجرور فتكون في محل نصب، وإما مستأنفة فلا محل لها من الإعراب، و﴿ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده ـ أي وهو خاسر في الآخرة ـ أو متعلق بالخاسرين. . .

القاسمي ج ٤ ص ١٣٥ ـ ١٣٦

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ أي أولاد يعقوب ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ بالإيمان بالبعض والكفر بالبعض، كدأب اليهود والنصارى، ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون فلا نتخذ أرباباً من دونه.

نقطة الجمع في قوله ﴿ ءَامَنَّا ﴾ بعد الإفراد في ﴿ قُلْ ﴾ كون الأمر عامًّا، والإفراد لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإيذان بأنه أصل في ذلك. أو الأمر خاص بالإخبار عن نفسه الزكية خاصة. والجمع لإظهار جلالة قدره ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك.

عدى ﴿ أُنزِلَ ﴾ هنا بحرف الاستعلاء، وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين. إذ الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر، وقال صاحب (اللباب): الخطاب في البقرة للأمة لقوله: قُولُوا. فلم يصح إلا (إلى) لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً. وهنا قال ﴿ قُلْ ﴾، وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته، فكان اللائق به ﴿ عَلَىٰٓ ﴾ لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيها.

وفيه نظر، لقوله تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [آل عمران: ٧٢] أفاده النسفي.

﴿ وَمَن يَبْتَغِ ﴾ أي يطلب ﴿ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا ﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى. كدأب المشركين صريحاً. والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين ﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ لأنه لم ينقد لأمر الله. وفي الحديث الصحيح: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ لضلاله وجوه الهداية في الدنيا. . .

محمد عبده ج ٣ ص ٣٥٦ ـ ٣٦١

. . . كما ختم تعالى آية دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بقوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] جاء هنا بعد ذكر توليتهم عن الإسلام يأمرنا بالإقرار به فقال مخاطباً لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ . . . ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ من كتابه بالتفصيل. وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة: ١٣٦] إلخ، وقد عدى الإنزال هناك بإلى الدالة على الغاية والانتهاء وهنا بعلى التي للاستعلاء وكلا المعنيين صحيح كما قال في الكشاف رامياً بالتعسف من فرق بين التعديتين باختلاف المأمور بالقول في الآيتين، إذ هو هناك المؤمنون وههنا النبي ﷺ لأن التعدية بإلى وردت في خطاب النبي، والتعدية بعلى وردت في خطاب غيره

في آيات أخرى. وقدم الإيمان بالله على الإيمان بإنزال الوحي لأنه الأصل الأول المقصود بالذات، والوحي فرع له، إذ هو وحيه تعالى إلى رسله.

﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾، أي وآمنا بما أنزل على هؤلاء بالإجمال أي صدقنا بأن الله تعالى أنزل عليهم وحياً لهداية أقوامهم، وأنه موافق لما أنزل علينا في أصله وجوهره والقصد منه كما أخبرنا الله تعالى في مثل قوله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤] إلخ السورة، وقوله ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ . وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [النجم: ٣٦] إلخ، وقوله ﴿ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣] إلخ، وأما عين ما أوحي إليهم فلم يبق منه في أيدي الأمم شيء يعتمد على نقله. ﴿ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ ﴿و﴾ ما أوتي ﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ . . . فإن منهم من قصه علينا ومنهم من لم يقصصه فإذا ثبت عندنا أن نبياً ظهر في الهند أو الصين قبل ختم النبوة نؤمن به. وارجع إلى آية البقرة في استبانة الفرق بين التعبير بالإنزال والتعبير بالإيتاء. قال الأستاذ الإمام: وقد قدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا مع كونه أنزل قبله في الزمن لأن ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له، ولا طريق لإثباته سواه لإنقطاع سند تلك وفقد بعضها ووقوع الشك فيما بقي منها، فما أثبته كتابنا من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل، وما أثبته لهم من الكتب كذلك. ونؤمن بأن أصول ما جاءوا به واحدة وهي الإيمان بالله وإسلام القلوب له والإيمان بالآخرة والعمل الصالح مع الإخلاص. فكما أن الإيمان بالله أصل للإيمان بما أنزل علينا كذلك ما أنزل علينا أصل للإيمان بما أنزل عليهم فقدم عليه ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ﴾ كما يفرق أهل الكتاب. فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا نفرق بينهم في الدين، فنقول بعضهم على حق وبعضهم على باطل، بل نقول إنهم كانوا جميعاً على الحق لا خلاف بينهم في الأصول والمقاصد، فمثلهم كمثل الولادة الصادقين يرسلهم الملك العادل متعاقبين لعمارة الولاية وإصلاح أهلها، وما يكون من التغيير في بعض قوانينهم إنما يكون بحسب حال الولاية وأهلها، والمقصد واحد وهو العمران والإصلاح ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ . . .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ لأن الدين إذا لم يكن هو الإسلام الذي بينا معناه آنفاً فما هو إلا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية، وآلة للعصبية، ووسيلة للمنافع الدنيوية، وذلك مما يزيد القلوب فساداً، والأرواح إظلاماً، فلا يزيد الناس في الدنيا إلا عدواناً، وفي الآخرة إلا خسراناً، ولذلك قال: ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي أنه يكون هنالك خاسراً للنعيم المقيم، في جوار الرب الرحيم، لأنه خسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله، وإخلاص السريرة له جل علاه ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٣] في الدين ويزعمون أنه مناط النجاة ووسيلة الفوز والسعادة إذ يهوون أن يسعدوا بغيرهم من الأنبياء والأولياء، وإن خسروا أنفسهم بسلوك سبل الشقاء، ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى . فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٤ ـ ١٥] ولم أر أحداً من المفسرين نبه في هذا المقام على أن الأصل في خسران الآخرة هو خسران النفس، ولا نبه إليه الأستاذ الإمام، بل لم يقل في هذه الآية شيئاً لظهور معناها.

وقد أورد الإمام الرازي ههنا إشكالاً وأجاب عنه قال: واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان مقبولاً. لقوله تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ إلا أن ظاهر قوله تعالى ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤] يقتضي كون الإسلام مغايراً للإيمان. ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي والآية الثانية على الوضع اللغوي: أه كلامه وهذا الجواب مبهم وقد أراد بالآية

الأولى الآية التي نفسرها، وبالثانية (قالت الأعراب) والمعنى أن أولئك الأعراب الذين نزلت فيهم الآية لم يسلموا الإسلام الشرعي وإنما انقادوا لأهله في الظاهر وهو يقتضي اتحاد الإيمان والإسلام وقال في تفسير هذه الثانية من سورة الحجرات ما نصه:

المسألة الرابعة: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة، فكيف يفهم ذلك مع هذا؟ نقول: بين العام والخاص فرق، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان والإسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمراً آخر غيره. مثاله: الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان في صورة الإنسان، ليس أمراً ينفك عن الإنسان، ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود. فكذلك المؤمن والمسلم. وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ ـ ٣٦].

وقال في تفسير الآية الثانية من هاتين ما نصه: والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه. فإذا سمى المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال «أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين». وهذا كما لو قال قائل لغيره: «من في البيت من الناس؟ فيقول له ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد. فيكون مخبراً بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد» أه.

أقول: وأنت ترى أن في كلامه اضطراباً وسببه تزاحم الاصطلاحات الكلامية والاطلاقات اللغوية في ذهنه. والصواب أن مفهومي الإسلام والإيمان في اللغة متباينان فالإسلام الدخول في السلم وهو يطلق على ضد الحرب وعلى السلامة والخلوص وعلى الانقياد كما تقدم في أوائل السورة والإيمان التصديق ويكون بالقلب كأن يقول أمرؤ قولاً فتعتقد صدقه. ويكون اللسان كأن تقول له صدقت. وقد أطلق كل من الإيمان والإسلام في القرآن على إيمان خاص جعل هو المنجى عند الله تعالى وإسلام خاص هو دينه المقبول عنده. أما الأول فهو التصديق اليقيني بوحدانية الله وكماله وبالوحي والرسل وباليوم الآخر بحيث يكون له السلطان على الإرادة والوجدان فيترتب عليه العمل الصالح. ولذلك قال بعد نفي دخول الإيمان في قلوب أولئك الأعراب ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وأما الثاني فهو الإخلاص له تعالى في التوحيد والعبادة والإنقياد لما هدى إليه على ألسنة رسله. وهو بهذا المعنى دين جميع النبيين الذين أرسلهم لهداية عباده. فالإيمان والإسلام على هذا يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل واحد منهما باعتبار ولذلك عدا شيئاً واحداً في الآيات التي ذكرت آنفاً وفي قوله بعد ما ذكر عن إيمان الأعراب وإسلامهم في [الحجرات] ثم بيان حقيقة الإيمان الصادق ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ. يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٦ ـ ١٧] فهذا هو الإيمان الصادق والإسلام الصحيح وهما المطلوبان لأجل السعادة.

وقد يطلق كل من الإيمان والإسلام على ما يكون منهما ظاهراً سواء كان ذلك عن يقين أو عن جهل أو نفاق. فمن الأول الشق الأول من قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢] الآية، فالمراد بالذين آمنو في أول الآية الذين صدقوا بهذا الدين في الظاهر. وقوله ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ﴾ إلخ هو الإيمان الحقيقي الذي عليه مدار النجاة وقد تقدم شرحه آنفاً. ومن الثاني قوله ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] أي دخلنا في السلم الذي هو مسالمة المؤمنين بعد أن كنا حرباً لهم وليس معناه الإخلاص والإنقياد مع الإذعان وإلا لما نفي عنهم إيمان القلب. هذا هو التحقيق في المسألة ولله الحمد.

أمـا إطـلاق الإسـلام بمعنـى مـا عليـه هـؤلاء الأقـوام المعروفون بالمسلمين من عقائد وتقاليد وأعمال فهو اصطـلاح حـادث مبنـي علـى قـاعـدة «الـديـن مـا عليـه المتدينون»، فالبوذية ما عليه الناس المعروفون بالبوذية، واليهودية ما عليه الشعب الذي يطلق عليه اسم اليهود، والنصرانية ما عليه الأقوام الذين يقولون إنا نصارى وهكذا. وهذا هو الدين بمعنى الجنسية وقد يكون له أصل سماوي أو وضعي فيطرأ عليه التغيير والتبديل حتى يكون بعيداً عن أصله في قواعده ومقاصده، وتكون العبرة بما عليه أهله لا بذلك الأصل المجهول أو المعلوم. وتحول دين أهل الكتاب إلى جنسية بهذا المعنى هو الذي صد أهل الكتاب عن اتباع النبي عليه الصلاة والسلام على ما جاء به من بيان روح دين الله الذي كان عليه جميع الأنبياء على اختلاف شرائعهم في الفروع وهو الإسلام. فالإسلام معنى بينه القرآن فمن اتبعه كان على دين الله المرضي ومن خالفه كان باغياً لغير دين الله وليس هو من معنى الجنسية المعروفة الآن التي تختلف باختلاف ما يحدث لأهلها من التقاليد. فالإسلام الحقيقي مباين للإسلام العرفي، لذلك جرينا في هذا التفسير على إنكار جعل الإسلام جنسية عرفية مع الغفلة عن كونه هداية إلهية. نعم إنه لو أقيم على أصله واستتبع مع ذلك رابطة الجنسية لم تكن هذه الرابطة إلا رابطة خير لأهلها غير ضارة بغيرهم لبنائها على قواعد العدل والفضل والرحمة والإحسان، ولكن جعل الجنسية هو الأصل مفسد للدين الذي هو مناط سعادة الدارين.

المراغي ج ١ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ أي قل آمنت أنا ون معي بوجود الله ووحدانيته وتصرفه في الأكوان. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾، وهو القرآن المنزل عليه صلوات الله عليه أولاً، وعلى أمته بتبليغه إليهم. ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾ أي صدّقنا بأن الله أنزل على هؤلاء وحياً لهداية أقوامهم.. ﴿ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات.

وخص هذين النبيين بالذكر، لأن الكلام مع اليهود والنصارى.

﴿ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أي وما أوتي النبيون من ربهم كداود وسليمان وأيوب وغيرهم ممن لم يقص الله سبحانه علينا قصصهم.

وقدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا، مع كونه أنزل قبله ـ لأن ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له، ولا طريق لإثباته سواه.

فما أثبته القرآن الكريم من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل وكذلك كتبهم، مع العلم بأن جوهر الدين واحد لدى الجميع، وهو الإيمان بالله وإسلام القلب له مع العمل الصالح، والإيمان باليوم الآخر.

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ . . . فما مثل الأنبياء إلا مثل الأمراء الأمناء الصادقين يرسلهم السلطان على التعاقب للقيام بشؤون ولاية من ولاياته، وإصلاح أحوال أهلها، وعمل القوانين النافعة لحكمها، فقد يغير التالي بعض قوانين السابق بحسب ما يرى من تبدل طباع أهلها وعاداتهم من شراسة إلى لين، ومن جهل إلى علم، ومن بداوة إلى مدنية وحضارة، وما المقصد من كل هذا إلا عمرانها وبذل الوسع في سعادة أهلها، وإيصال الخير إليهم.

﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ . . وقد افتتحت الآية بالإيمان، واختتمت بالإسلام والخضوع وهو الثمرة والغاية من كل دين أرسل به نبيّ، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ لأن الدين إذا لم يصل بصاحبه إلى هذا الخضوع والإنقياد لله تعالى كان رسوماً وتقاليد لا تجدي شيئاً، بل تزيد النفوس فساداً، والقلوب ظلاماً، ويكون حينئذ مصدر الشحناء والعداوة بين الناس في الدنيا، ومصدر الخسران في الآخرة بالحرمان من النعيم المقيم، والعذاب الأليم. ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ لأنه أضاع ما جبلت عليه الفطر السليمة من توحيد الله والإنقياد له كما جاء في الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه

يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه» وخسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله، وإخلاص السريرة له كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

سيد قطب ج ١ ص ٤٢١ ـ ٤٢٣

ولما كانت الأمة المسلمة ـ المسلمة حقاً لا جغرافية ولا تاريخاً! ـ هي الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله. وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه، وحقيقة الموكب السني الكريم الذي حمل هذا المنهج وبلغه، فإن الله يأمر نبيه ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة كلها؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات، واحترامها لجميع الرسل، ومعرفتها بطبيعة دين الله، الذي لا يقبل الله من الناس سواه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ . وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ . .

هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات قبله، وفي ولائه لكافة الرسل حملته. وفي توحيده لدين الله كله، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده.

ومما هو جدير بالالتفات في الآية القرآنية الأولى هنا هو ذكرها الإيمان بالله وما أنزل على المسلمين ـ وهو القرآن ـ وما أنزل على سائر الرسل من قبل، ثم التعقيب على هذا الإيمان بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ . .

فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه. بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس. كما يتجلى في الآية قبلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] فظاهر أن إسلام الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر، واتباع النظام، وطاعة الناموس. . ومن ثم تتجلى عناية الله ـ سبحانه ـ ببيان معنى الإسلام وحقيقته في كل مناسبة. كي لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان، أو تصديق يستقر في القلب، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة. وهي لفتة ذات قيمة قبل التقرير الشامل الدقيق الأكيد:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ . . إنه لا سبيل ـ مع هذه النصوص المتلاحقة ـ لتأويل حقيقة الإسلام، ولا للّيّ النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به الله، الإسلام الذي يدين به الكون كله. في صورة خضوع للنظام الذي قرره الله له ودبره به.

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها. وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة. ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه. ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها. وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة، واتباع الشريعة التي أرسله بها، والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد.

ولن يكون الإسلام إذن تصديقاً بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله. . دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي، وحقيقته الواقعية التي أسلفنا. .

ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات، أو إشراقات وسبحات، أو تهذيباً خلقياً وإرشاداً روحياً. . دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر، والإشراقات والسبحات، والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد. فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء.

٨

﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

(سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٥٦ - ١٥٩)

مصادر تفاسير الآية

التفسير	الجزء	الصفحات
الطبري	ج ٦	ص ٩ ـ ١٧
الزمخشري	ج ١	ص ٥٧٨ ـ ٥٨١
الرازي	ج ١١	ص ٩٨ ـ ١٠٤
الطبرسي	ج ٥	ص ٢٧٩ ـ ٢٨٤
ابن عربي	ج ١	ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦
البيضاوي	ج ٢	ص ١٢٧ ـ ١٢٨
الخازن	ج ١	ص ٦١٧ ـ ٦٢١
البغوي	ج ١	ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧
الماوردي	ج ١	ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤
القرطبي	ج ٦	ص ٧ ـ ١٢
ابو حيان الاندلسي	ج ٣	ص ٢٨٩ ـ ٣٩٤
ابن كثير	ج ١	ص ٥٧٣ ـ ٥٨٤
الجلالان		ص ١٢٩ ـ ١٣٠
الشوكاني	ج ١	ص ٥٣٢ ـ ٥٣٦
الآلوسي	ج ٦	ص ٩ ـ ١٣
القاسمي	ج ٥	ص ٥٤٩ ـ ٦٢٨
محمد عبده	ج ٦	ص ١١ ـ ٥٩
الطباطبائي	ج ٥	ص ١٢٧ ـ ١٤٧
جوهري	ج ٣	ص ١٠٦ ـ ١١٥
المراغي	ج ٦	ص ٨ ـ ١٦
سيد قطب	ج ٢	ص ٨٠١ ـ ٨٠٣

الطبري ج ٦ ص ٩ ـ ١٧

القول في تأويل قوله ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: ويكفر هؤلاء الذين وصف صفتهم ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ يعني: بفريتهم عليها ورميهم إياها بالزنا، وهو «البهتان العظيم» لأنهم رموها بذلك، وهي مما رموها به بغير ثبت ولا برهان بريئة، فبهتوها بالباطل من القول. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى. . . عن ابن عباس: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ يعني: أنهم رموها بالزنا. حدثنا محمد بن الحسين قال. . . . عن السدي قوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ حين قذفوها بالزنا. حدثني المثنى. . . عن جويبر في قوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴾ قال: قالوا زنت. القول في تأويل قوله ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: وبقولهم ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾، ثم كذبهم الله في قيلهم فقال: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، يعني: وما قتلوا عيسى وما صلبوه. ولكن شبه لهم واختلف أهل التأويل في صفة التشبيه الذي شبه لليهود في أمر عيسى. فقال بعضهم: لما أحاطت اليهود به وبأصحابه أحاطوا بهم وهم لا يثبتون معرفة عيسى بعينه. وذلك أنهم جميعاً حوّلوا في صورة عيسى فأشكل على الذين كانوا يريدون قتل عيسى من غيره منهم، وخرج إليهم بعض من كان في البيت مع عيسى فقتلوه وهم يحسبونه عيسى. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد. . . عن وهب بن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت، وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليهم صوّرهم الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزّن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى لأصحابه من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة، فقال رجل منهم: أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى، وقد صوّره الله على صورة عيسى، فأخذوه فقتلوه وصلبوه. فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك. وقد روي عن وهب بن منبه غير هذا القول،

وهو ما حدثني به المثنى. . . عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل، عشاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بثيابه فتعاظموا ذلك وتكارهوه، فقال ألا من ردّ عليّ شيئا الليلة مما أصنع، فليس مني ولا أنا منه، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة، مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أني خيركم، فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه، كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي التي استعنتكم عليها، فتدعون لي الله وتجتهدون في الدعاء: أن يؤخر أجلي. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء. فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله، أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها قالوا: والله ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر، وما نطيق الليلة سمراً، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه، فقال: يذهب بالراعي وتتفرق الغنم وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه. ثم قال: الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني، فخرجوا وتفرقوا. وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه، فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلهم عليه. وكان شبه عليهم قبل ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرىء المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويبصقون عليه، ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها، فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم، فمكث سبعاً، ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى، فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال علام تبكيان قالتا عليك فقال: إني قد رفعني الله إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبه لهم، فأمرا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر، وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه ندم على ما صنع، فاختنق وقتل نفسه، فقال: لو تاب لتاب الله عليه ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يُحَنّا، فقال هو معكم، فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم، فلينذرهم وليدعهم. وقال آخرون: بل سأل عيسى من كان معه في البيت أن يلقى على بعضهم شبهه فانتدب لذلك منهم رجل، فألقى عليه شبهه، فقتل ذلك الرجل، ورفع عيسى بن مريم عليه السلام. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر بن معاذ. . . عن قتادة قوله: ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، أولئك أعداء الله اليهود أئتمروا بقتل عيسى ابن مريم رسول الله، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه، وذكر لنا أن نبي الله عيسى ابن مريم قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبهي، فإنه مقتول فقال رجل من أصحابه: أنا يا نبي الله، فقتل ذلك الرجل، ومنع الله نبيه ورفعه إليه. حدثنا الحسن بن يحيى، عن قتادة في قوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. . . قال: ألقي شبهه على رجل من الحواريين فقتل. وكان عيسى ابن مريم عرض ذلك عليهم، فقال: أيكم ألقي شبهي عليه وله الجنة؟ فقال رجل: عليّ. حدثنا محمد بن الحسين. . . عن السدي: أن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة؟ فأخذها رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء. فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر، فأخبروهم أن عيسى عليه السلام قد صعد به إلى السماء، فجعلوا يعدّون القوم فيجدونهم ينقصون رجلاً من العدّ ويرون صورة عيسى فيهم، فشكوا فيه. وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم

يرون أنه عيسى وصلبوه. فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، إلى قوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾. حدثنا المثنى. . . عن القاسم بن أبي بزة: أن عيسى ابن مريم قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني؟ فقال رجل من أصحابه: أنا، يا رسول الله، فألقي عليه شبهه فقتلوه. فذلك قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾. حدثنا ابن حميد عن ابن إسحق قال: كان اسم ملك بني إسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقتله رجلاً منهم يقال له داود. فلما أجمعوا لذلك منه، لم يفظع عبد من عباد الله بالموت ـ فيما ذكر لي ـ فظعه، ولم يجزع منه جزعه، ولم يدع الله في صرفه عنه دعاءه، حتى إنه ليقول، فيما يزعمون: «اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني!»، وحتى أن جلده من كرب ذلك ليتفصد دماً. فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه، وهم ثلاثة عشر بعيسى. فلما أيقن أنهم داخلون عليه، قال لأصحابه من الحواريين، وكانوا اثنى عشر رجلاً: بطرس، ويعقوب بن زبدى، ويحنس أخو يعقوب، واندراييس وفيلبس، وابرثلما، ومتى، وتوماس، ويعقوب بن حلفيا، وتداوسيس وقنانيا ويودس زكريا يوطا. قال ابن حميد . . . عن ابن اسحق: وكان فيهم، فيما ذكر لي، رجل اسمه سرجس، فكانوا ثلاثة عشر رجلاً سوى عيسى، جحدته النصارى، وذلك أنه هو الذي شبه لليهود مكان عيسى. قال: فلا أدري ما هو؟ من هؤلاء الاثني عشر، أم كان ثالث عشر، فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى. وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه. فإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر، وإن كانوا اثني عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى ثلاثة عشر. حدثنا ابن حميد . . . عن ابن إسحاق قال، ثنى رجل كان نصرانياً فأسلم: أن عيسى حين جاءه من الله: «أني رافعك إليّ» قال: يا معشر الحواريين، أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة، حتى يشبه للقوم في صورتي فيقتلوه مكاني؟ فقال سرجس: أنا، يا روح الله! قال: فاجلس في مجلسي. فجلس فيه ورفع عيسى صلوات الله عليه. فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه فكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به. وكانت عدّتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة، قد رأوهم وأحصوا عدّتهم. فلما دخلوا عليه ليأخذوه، وجدوا عيسى فيما يرون وأصحابه، وفقدوا رجلاً من العدّة، فهو الذي اختلفوا فيه، وكانوا لا يعرفون عيسى، حتى جعلوا ليودس زكريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه، فقال لهم: إذا دخلتم عليه فإني سأقبله، وهو الذي أقبل، خذوه. فلما دخلوا عليه وقد رفع عيسى، رأى سرجس في صورة عيسى، فلم يشك أنه هو عيسى، فأكب عليه فقبله، فأخذوه فصلبوه. ثم إن يودس زكريا يوطا ندم على ما صنع، فاختنق بحبل حتى قتل نفسه. وهو ملعون في النصارى، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه. وبعض النصارى يزعم أن يودس زكريا يوطا هو الذي شبه لهم، فصلبوه وهو يقول: «إني لست بصاحبكم! أنا الذي دللتكم عليه» والله أعلم أيّ ذلك كان. حدثنا القاسم . . . عن بن جريج: بلغنا أن عيسى ابن مريم قال لأصحابه: أيكم ينتدب فيلقى عليه شبهي فيقتل؟ فقال رجل من أصحابه: أنا يا نبي الله. فألقي عليه شبهه فقتل، ورفع الله نبيه إليه. حدثنا محمد بن عمرو. . . عن مجاهد في قوله ﴿ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ قال: صلبوا رجلاً غير عيسى يحسبونه إياه. حدثني المثنى . . . عن مجاهد ﴿ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ فذكر مثله. حدثنا القاسم . . . عن مجاهد قال: صلبوا رجلاً شبهوه بعيسى يحسبونه إياه ورفع الله إليه عيسى عليه السلام حياً.

قال أبو جعفر وأولى هذه الأقوال بالصواب أحد القولين اللذين ذكرناهما عن وهب بن منبه من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان في البيت مع عيسى حين أحيط به وبهم من غير مسألة عيسى إياهم ذلك، ولكن ليخزي الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عليه السلام من مكروه ما أرادوا به من القتل، ويبتلى به من أراد ابتلاءه من عباده في قيله في عيسى، وصدق الخبر عن أمره أو القول الذي رواه عبد العزيز عنه، وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لأن الذين شهدوا عيسى من الحواريين لو كانوا

في حال ما رفع عيسى وألقي شبهه على من القي شبهه كانوا قد عاينوا عيسى وهو يرفع من بينهم، واثبتوا الذي القي عليه شبه وعاينوه متحوّلاً في صورته بعد الذي كان به من صورة نفسه بمحضر منهم لم يخف ذلك من أمر عيسى، وأمر من ألقى عليه شبهه عليهم مع معاينتهم ذلك كله، ولم يلتبس، ولم يشكل عليهم، وإن أشكل على غيرهم من أعدائهم من اليهود أن المقتول والمصلوب كان غير عيسى، وأن عيسى رفع من بينهم حياً، وكيف يجوز أن يكون كان أشكل ذلك عليهم، وقد سمعوا من عيسى مقالته من يلقي عليه شبهي ويكون رفيقي في الجنة إن كان قال لهم ذلك، وسمعوا جواب مجيبه منهم أنا، وعاينوا تحوّل المجيب في صورة عيسى بعقب جوابه، ولكن ذلك كان إن شاء الله على نحو ما وصف وهب بن منبه إما أن يكون القوم الذين كانوا مع عيسى في البيت الذي رفع منه من حواريه حوّلهم الله جميعاً في صورة عيسى حين أراد الله رفعه، فلم يثبتوا عيسى معرفة بعينه من غيره لتشابه صور جميعهم، فقتلت اليهود منهم من قتلت وهم يرونه بصورة عيسى ويحسبونه إياه لأنهم كانوا به عارفين قبل ذلك. وظن الذين كانوا في البيت مع عيسى مثل الذي ظنت اليهود لأنهم لم يميزوا شخص عيسى من شخص غيره لتشابه شخصه، وشخص غيره ممن كان معه في البيت، فاتفقوا جميعهم أعني اليهود والنصارى من أجل ذلك على أن المقتول كان عيسى، ولم يكن به ولكنه ﴿شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ كما قال الله جل ثناؤه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ أو يكون الأمر في ذلك كان على نحو ما روى عبد الصمد بن معقل . . . عن وهب بن منبه أن القوم الذين كانوا مع عيسى في البيت تفرقوا عنه قبل أن يدخل عليه اليهود، وبقي عيسى وألقى شبهه على بعض أصحابه الذين كانوا معه في البيت بعدما تفرق القوم غير عيسى، وغير الذي ألقى عليه شبهه ورفع عيسى، فقتل الذي تحوّل في صورة عيسى من أصحابه، وظن أصحابه واليهود أن الذي قتل وصلب هو عيسى لما رأوا من شبهه به، وخفاء أمر عيسى عليهم لأن رفعه وتحوّل المقتول في صورته كان بعد تفرق أصحابه عنه، وقد كانوا سمعوا عيسى من الليل ينعي نفسه ويحزن لما قد ظن أنه نازل به من الموت فحكوا ما كان عندهم حقاً، والأمر عند الله في الحقيقة بخلاف ما حكوا، فلم يستحق الذين حكوا ذلك من حوارييه أن يكونوا كذبة، أو حكوا ما كان حقاً عندهم، في الظاهر، وإن كان الأمر عند الله في الحقيقة بخلاف الذي حكوا. القول في تأويل قوله ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ اليهود الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قتله، وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدّة من في البيت قبل دخولهم فيما ذكر، فلما دخلوا عليهم فقدوا واحداً منهم، فالتبس أمر عيسى عليهم بفقدهم واحداً من العدّة التي كانوا قد أحصوها، وقتلوا من قتلوا على شك منهم في أمر عيسى. وهذا التأويل على قول من قال لم يفارق الحواريون عيسى حتى رفع ودخل عليهم اليهود، وأما تأويله على قول من قال تفرقوا عنه من الليل فإنه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ في عيسى هل هو الذي بقي في البيت منهم بعد خروج من خرج منهم من العدّة التي كانت فيه أم لا ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾ يعني من قتله لأنهم كانوا أحصوا من العدّة حين دخلوا البيت أكثر ممن خرج منه ومن وجد فيه فشكوا في الذي قتلوه هل هو عيسى أم لا؟ من أجل فقدهم من فقدوا من العدد الذي كانوا أحصوه ولكنهم قالوا «قتلنا عيسى» لمشابهة المقتول عيسى في الصورة يقول الله جل ثناؤه ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾، يعني: أنهم قتلوا من قتلوه على شك منهم فيه واختلاف، هل هو عيسى أم هو غيره؟ من غير أن يكون لهم بمن قتلوه علم، من هو؟ هو عيسى أم هو غيره؟ ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ يعني جل ثناؤه: ما كان لهم بمن قتلوه من علم، ولكنهم اتبعوا ظنهم فقتلوه، ظناً منهم أنه عيسى، وأنه الذي يريدون قتله، ولم يكن به ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ يقول: وما قتلوا ـ هذا الذي اتبعوه في المقتول الذي قتلوه وهم يحسبونه عيسى ـ يقيناً أنه عيسى ولا أنه غيره، ولكنهم كانوا منه على ظن وشبهة. وهذا كقول الرجل للرجل: «ما قتلت هذا الأمر علماً وما قتلته يقيناً» إذا تكلم فيه بالظن على غير يقين علم. فالهاء في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾

عائدة على ﴿ ٱلظَّنِّۚ ﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنى المثنى. . . عن ابن عباس قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾، قال: يعني لم يقتلوا ظنهم يقيناً. . حدثني المثنى. . . عن جويبر في قوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾، قال: ما قتلوا ظنهم يقيناً. وقال السدي في ذلك ما: حدثنا محمد بن الحسين. . . عن السدي: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾، وما قتلوا أمره يقيناً أن الرجل هو عيسى، ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ ﴾.

القول في تأويل قوله ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أما قوله جل ثناؤه ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ ﴾، فإنه يعني: بل رفع الله المسيح إليه، يقول: لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن الله رفعه إليه فطهره من الذين كفروا. وقد بينا كيف كان رفع الله إياه إليه فيما مضى، وذكرنا اختلاف المختلفين في ذلك، والصحيح من القول فيه بالأدلة الشاهدة على صحته، بما أغنى عن إعادته. وأما قوله ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ فإنه يعني: ولم يزل الله منتقماً من أعدائه، كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقة بظلمهم، وكلعنه الذين قص قصتهم بقوله: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٥٥]، حكيماً يقول: ذا حكمة في تدبيره وتصريفه خلقه في قضائه. يقول: فاحذروا أيها السائلون محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء، من حلول عقوبتي بكم، كما حل بأوائلكم الذين فعلوا فعلكم، في تكذيبهم رسلي وافترائهم على أوليائي، وقد: حدثنا أبو كريب. . . عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ قال: معنى ذلك أنه كذلك.

القول في تأويل قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾، يعني: بعيسى قبل موته، يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدّقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم ﷺ. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار. . . عن ابن عباس ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم. حدثنا ابن وكيع، عن ابن عباس ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: قبل موت عيسى. حدثني يعقوب بن إبراهيم، عن أبي مالك في قوله: ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به. حدثني المثني. . . عن الحسن قال: ﴿ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: قبل أن يموت عيسى ابن مريم حدثني يعقوب. . . عن الحسن في قوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه الآن لحيّ عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. حدثنا بشر بن معاذ. . . عن قتادة في قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يقول: قبل موت عيسى. حدثنا الحسن بن يحيى. . . عن قتادة ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: قبل موت عيسى. حدثنا الحسن بن يحيى. . . عن قتادة ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: قبل موت عيسى، إذا نزل آمنت به الأديان كلها. حدثنا ابن وكيع. . . عن الحسن قال قبل موت عيسى، حدثنا ابن وكيع. . . عن الحسن ﴿ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: عيسى ولم يمت بعد. حدثنا ابن وكيع. . . عن أبي مالك قال: لا يبقى أحد منهم عند نزول عيسى إلا آمن به. حدثنا ابن وكيع. . . عن أبي مالك قال: قبل موت عيسى. حدثنا يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال: ابن زيد في قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال: إذا نزل عيسى ابن مريم، فقتل الدجال لم يبق يهودي في الأرض إلا آمن به. قال: وذلك حين لا ينفعهم الإيمان. حدثني محمد بن سعد. . . عن ابن عباس قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ يعني: أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسى، فيؤمنون به ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾. حدثنا محمد بن المثنى. . . عن الحسن أنه قال: في هذه الآية ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ قال أبو جعفر: أظنه إنما قال إذا خرج عيسى آمنت به اليهود.

وقال آخرون يعني بذلك ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا

﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾ بعيسى قبل موت الكتابي، ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى، وإن غرق أو تردّى من حائط، أو أيّ ميتة كانت. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قوله ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ كل صاحب كتاب ليؤمنن به بعيسى، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ موت صاحب الكتاب. حدثنى المثنى عن مجاهد ليؤمنن به كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قبل موت صاحب الكتاب قال. ابن عباس لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قال: لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ولو عجل عليه بالسلاح. حدثنى إسحق بن إبراهيم... عن ابن عباس ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: هي في قراءة أبيّ «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهُوِيِّ. فقيل أرأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يتلجلج بها لسانه. حدثني المثنى... عن ابن عباس ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ابن مريم. قال وإن ضرب بالسيف، يتكلم به. قال وإن هوى، يتكلم به وهو يَهوِي. حدثنا ابن المثنى... عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لو أن يهودياً وقع من فوق هذا البيت، لم يمت حتى يؤمن به، يعني: بعيسى. حدثنا ابن المثنى...عن عكرمة يقول: لو وقع يهودي من فوق القصر، لم يبلغ إلى الأرض حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: وإن وقع من فوق البيت، لا يموت حتى يؤمن به. حدثنا ابن حميد... عن مجاهد ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا يموت رجل من أهل الكتاب حتى يؤمن به، وإن غرق أو تردّى أو مات بشيء. حدثني يعقوب بن إبراهيم... عن مجاهد في قوله ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا تخرج نفسه حتى يؤمن به. حدثنا ابن وكيع عن عكرمة ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا يموت أحدهم حتى يؤمن به، يعني بعيسى، وإن خرّ من فوق بيت يؤمن به وهو يهوي. حدثنا ابن وكيع... عن الضحاك قال: ليس أحد من اليهود يخرج من الدنيا حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن وكيع... عن الحسن في قوله ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى، يعني اليهود والنصارى. حدثنا الحسن بن يحيى... عن الحسن في قوله ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت. حدثنا ابن بشار... عن محمد بن سيرين ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: موت الرجل من أهل الكتاب، حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: قال ابن عباس: ليس من يهودي ولا نصراني يموت حتى يؤمن بعيسى ابن مريم، فقال له رجل من أصحابه كيف والرجل يغرق أو يحترق أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع، فقال: لا تخرج روحه من جسده حتى يقذف فيه الإيمان بعيسى. حدثت... عن الحسين بن الفرج قال: سمعت الضحاك يقول في قوله ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: لا يموت أحد من اليهود حتى يشهد أن عيسى رسول الله ﷺ. حدثنى المثنى عن جويبر في قوله ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: في قراءة أبيّ قال: موتهم، وقال آخرون: معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى... عن عكرمة: لا يموت النصراني واليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ، يعني في قوله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

قال أبو جعفر وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال: تأويل ذلك» وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى». وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال، لأن الله جل ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد ﷺ بحكم أهل الإيمان في الموارثة والصلاة عليه، وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة، فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسى قبل موته لوجب أن لا يرث الكتابي إذا مات على ملته إلا أولاده الصغار أو البالغون منهم من أهل الإسلام، إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم، وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغ مسلم كان ميراثه مصروفاً حيث يصرف مال المسلم يموت، ولا وارث له، وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقبيره، لأن من مات مؤمناً بعيسى فقد مات مؤمناً بمحمد وبجميع الرسل، وذلك أن عيسى صلوات الله عليه جاء بتصديق محمد، وجميع المرسلين، فالمصدّق بعيسى والمؤمن به مصدّق بمحمد، وبجميع أنبياء الله ورسله، كما أن المؤمن بمحمد مؤمن بعيسى وبجميع أنبياء الله ورسله، فغير جائز أن يكون مؤمناً بعيسى من كان بمحمد مكذباً، فإن ظن ظان أن معنى إيمان اليهودي بعيسى الذي ذكره الله في قوله ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ إنما هو إقراره بأن لله، نبي مبعوث دون تصديقه بجميع ما أتى به من عند الله فقد ظن خطأ وذلك أنه غير جائز أن يكون منسوباً إلى الإقرار بنبوّة نبي من كان له مكذباً في بعض ما جاء به من وحي الله، وتنزيله بل غير جائز أن يكون منسوباً إلى الإقرار بنبوّة أحد من أنبياء الله، لأن الأنبياء جاءت الأمم بتصديق جميع أنبياء الله ورسله، فالمكذب بعض أنبياء الله فيما أتى به أمته من عند الله مكذب جميع أنبياء الله فيما دعوا إليه من دين الله عباد الله، وإذ كان ذلك كذلك كان في إجماع الجميع من أهل الإسلام على أن كل كتابي مات قبل إقراره بمحمد صلوات الله عليه، وما جاء به من عند الله محكوم له بحكم المسألة التي كان عليها أيام حياته، غير منقول شيء من أحكامه في نفسه وماله وولده صغارهم وكبارهم بموته عما كان عليه في حياته أدل الدليل على أن معنى قول الله ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ إنما معناه إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وأن ذلك في خاص من أهل الكتاب، ومعنيّ به أهل زمان منهم دون أهل كل الأزمنة التي كانت بعد عيسى، وأن ذلك كائن عند نزوله كالذي حدثني بشر بن معاذ... عن أبي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: الأنبياء إخوة لعَلّاتٍ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الشعر، كان رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل بين ممصّرتين فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها غير الإسلام ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال وتقع الأمنة في الأرض في زمانه حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، وتلعب الغلمان والصبيان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً. ثم يلبث في الأرض ما شاء الله ـ وربما قال أربعين سنة ـ ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه. وأما الذي قال عني بقوله ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي ـ فمما لا وجه له مفهوم، لأنه ـ مع فساده من الوجه الذي دللنا على فساد قول من قال: «عني به ليؤمنن بعيسى قبل موت الكتابي». يريده فساداً أنه لم يجر لمحمد عليه السلام في الآيات التي قبل ذلك ذكر، فيجوز صرف الهاء التي في قوله ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ إلى أنها من ذكره وإنما قوله ﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ في سياق ذكر عيسى وأمه واليهود. فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول تقوم به حجة. فأما الدعاوى، فلا تتعذر على أحد. فتأويل الآية ـ إذ كان الأمر على ما وصفنا ـ: وما من أهل الكتاب إلا من ليؤمنن بعيسى، قبل موت عيسى، وحذف من بعد إلا لدلالة الكلام عليه، فاستغنى بدلالته عن إظهاره كسائر ما قد تقدم من أمثاله التي قد أتينا على البيان عنها.

القول في تأويل قوله ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: ويوم القيامة يكون عيسى

على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ يعني: شاهداً عليهم بتكذيب من كذبه منهم، وتصديق من صدّقه منهم، فيما أتاهم به من عند الله بإبلاغه رسالة ربه كالذي حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أنه قد أبلغهم ما أرسله به إليهم. حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يقول: يكون عليهم شهيداً يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالة ربه، وأقرّ بالعبودية على نفسه.

الزمخشري ج ١ ص ٥٧٨ - ٥٨١

... فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾؟ قلت: الوجه أن يعطف على فبما نقضهم ويجعل قوله بل طبع الله عليها بكفرهم كلاماً تبع قوله وقالوا قلوبنا غلف على وجه الاستطراد، ويجوز عطفه على ما يليه من قوله بكفرهم. فإن قلت: ما معنى المجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه ذكره سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب أو على ما بعده وهو قوله وكفرهم بآيات الله وقوله بكفرهم؟ قلت: قد تكرّر منهم الكفر لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه كأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم وافتخارهم بقتل عيسى عاقبناهم، أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا. والبهتان العظيم هو التزنية. فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؟ قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] قلت: ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعيسى عما كانوا يذكرونه، به وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ٩، ١٠] روي أن رهطاً من اليهود سبّوه وسبّوا أمه فدعا عليهم: اللهم أنت ربي وبكلمتك خلقتني، اللهم العن من سبني وسبّ والدتي، فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير، فأجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم أنا، فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب. وقيل كان رجلاً ينافق عيسى فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه، فدخل بيت عيسى فرفع عيسى وألقي شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى. ثم اختلفوا فقال بعضهم: إنه إله لا يصح قتله، وقال بعضهم: إنه قد قتل وصلب، وقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم: رفع إلى السماء، وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا. فإن قلت: ﴿شُبِّهَ﴾ مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح فالمسيح مشبه به وليس بمشبه وإن أسندته إلى المقتول، فالمقتول لم يجر له ذكر؟ قلت: هو مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿لَهُمْ﴾ كقولك خيل إليه كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه، ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله إنا قتلنا يدل عليه كأنه قيل ولكن شبه لهم من قتلوه ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم: يعني ولكنهم يتبعون الظن. فإن قلت: قد وصفوا بالشك، والشك أن لا يترجح أحد الجائزين، ثم وصفوا بالظن، والظن أن يترجح أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط ولكن إن لاحت لهم أمارة فظنوا فذاك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾..

وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج: آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شيء منها: يعني هذه الآية، وقال: إني أوتي بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك، فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا: يا عدوّ الله أتاك عيسى نبياً فكذبت به، فيقول: آمنت أنه عبد نبيّ، وتقول

للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه، قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إليّ وقال: ممن؟ قلت: حدثني محمد بن علي ابن الحنفية فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية أو من معدنها. قال الكلبي: فقلت له ما أردت إلى أن تقول: حدثني محمد بن علي ابن الحنفية؟ قال: أردت أن أغيظه، يعني بزيادة اسم علي لأنه مشهور بابن الحنفية. وعن ابن عباس أنه فسره كذلك، فقال له عكرمة: فإن أتاه رجل فضرب عنقه؟ قال: لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه، قال: وإن خرّ من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع؟ قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به. وتدل عليه قراءة أبيّ إلا ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون على معنى: وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم لأن أحداً يصلح للجمع. فإن قلت: ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل موتهم؟ قلت: فائدته الوعيد وليكون علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم بعثاً لهم وتنبيهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاماً للحجة لهم، وكذلك قوله ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ . . . روي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمنة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه. ويجوز أن يراد أن لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزل له ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم. وقيل الضمير في به يرجع إلى الله تعالى.

الرازي ج ١١ ص ٩٨ ـ ١٠٤

قوله ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴾ اعلم أنهم لما نسبوا مريم إلى الزنا لإنكارهم قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب، ومنكر قدرة الله على ذلك كافر لأنه يلزمه أن يقول: كل ولد ولد فهو مسبوق بوالد لا إلى أول، وذلك يوجب القول بقدم العالم والدهر، والقدح في وجود الصانع المختار، فالقوم لا شك أنهم أولاً أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب فالمراد بقوله ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ هو إنكارهم قدرة الله تعالى، وبقوله ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴾ نسبتهم إياها إلى الزنا، ولما حصل التغير لا جرم حسن العطف، وإنما صار هذا الطعن بهتاناً عظيماً لأنه ظهر عند ولادة عيسى عليه السلام من الكرامات والمعجزات ما دل على براءتها من كل عيب، نحو قوله ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم: ٢٥] ونحو كلام عيسى عليه السلام حال كونه طفلاً منفصلاً عن أمه، فإن كل ذلك دلائل قاطعة على براءة مريم عليها السلام من كل ريبة، فلا جرم وصف الله تعالى طعن اليهود فيها بأنه بهتان عظيم، وكذلك وصف طعن المنافقين في عائشة بأنه بهتان عظيم حيث قال ﴿ سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] وذلك يدل على أن الروافض الذين يطعنون في عائشة بمنزلة اليهود الذين يطعنون في مريم عليها السلام.

وسادسها: قوله تعالى ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ وهذا يدل على كفر عظيم منهم لأنهم قالوا فعلنا ذلك، وهذا يدل على أنهم كانوا راغبين في قتله مجتهدين في ذلك، فلا شك أن هذا القدر كفر عظيم. فإن قيل: اليهود كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فكيف قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله؟

والجواب عنه من وجهين: الأول: إنهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧] وكقول كفار قريش لمحمد ﷺ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦] والثاني: إنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعاً لعيسى عليه السلام

عما كانوا يذكرونه به.

ثم قال تعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ واعلم أنه تعالى لما حكى عن اليهود أنهم زعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فالله تعالى كذبهم في هذه الدعوى وقال ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وفي الآية سؤالان:

السؤال الأول: قوله ﴿ شُبِّهَ ﴾ مسند إلى ماذا؟ أن جعلته مسنداً إلى المسيح فهو مشبه به وليس بمشبه، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر.

والجواب من وجهين: الأول: أنه مسند إلى الجار والمجرور، وهو كقولك: خيل إليه كأنه قيل: ولكن وقع لهم الشبه. الثاني: أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ يدل على أنه وقع القتل على غيره فصار ذلك الغير مذكوراً بهذا الطريق، فحسن إسناد] ﴿ شُبِّهَ ﴾ إليه.

السؤال الثاني: أنه إن جاز أن يقال: إن الله تعالى يلقى شبه إنسان على إنسان آخر فهذا يفتح باب السفسطة، فإنا إذا رأينا زيداً فلعله ليس بزيد، ولكنه ألقى شبه زيد عليه، وعند ذلك لا يبقى النكاح والطلاق والملك موثوقاً به، وأيضاً يفضي إلى القدح في التواتر لأن خبر التواتر إنما يفيد العلم بشرط انتهائه في الآخرة إلى المحسوس، فإذا جوّزنا حصول مثل هذه الشبهة في المحسوسات توجه الطعن في التواتر، وذلك يوجب القدح في جميع الشرائع، وليس لمجيب أن يجيب عنه بأن ذلك مختص بزمان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، لأنا نقول: لو صح ما ذكرتم فذاك إنما يعرف بالدليل والبرهان، فمن لم يعلم ذلك الدليل وذلك البرهان وجب أن لا يقطع بشيء من المحسوسات ووجب أن لا يعتمد على شيء من الأخبار المتواترة، وأيضاً ففي زماننا إن انسدت المعجزات فطريق الكرامات مفتوح، وحينئذ يعود الاحتمال المذكور في جميع الأزمنة. وبالجملة ففتح هذا الباب يوجب الطعن في التواتر، والطعن فيه يوجب الطعن في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهذا فرع يوجب الطعن في الأصول فكان مردوداً.

والجواب: اختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضع وذكروا وجوهاً:

الأول: قال كثير من المتكلمين: إن اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم، فأخذوا إنساناً وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس أنه المسيح، والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلا بالاسم لأنه كان قليل المخالطة للناس، وبهذا الطريق زال السؤال. لا يقال: إن النصارى ينقلون عن أسلافهم أنهم شاهدوه مقتولاً، لأنا نقول: إن تواتر النصارى ينتهي إلى أقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب. . .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلم أن في قوله ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ قولين: الأول: أنهم هم النصارى وذلك لأنهم بأسرهم متفقون على أن اليهود قتلوه، إلا أن كبار فرق النصارى ثلاثة: النسطورية، والملكانية، واليعقوبية.

أما النسطورية فقد زعموا أن المسيح صلب من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وأكثر الحكماء يرون ما يقرب من هذا القول، قالوا: لأنه ثبت أن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو إما جسم شريف منساب في هذا البدن، وإما جوهر روحاني مجرد في ذاته وهو مدبر في هذا البدن، فالقتل إنما ورد على هذا الهيكل، وأما النفس التي هي في الحقيقة عيسى عليه السلام فالقتل ما ورد عليه، لا يقال: فكل إنسان كذلك فما الوجه لهذا التخصيص؟ لأنا نقول: أنه نفسه كانت قدسية علوية سماوية شديدة الإشراق بالأنوار الإلهية عظيمة القرب من أرواح الملائكة، والنفس متى كانت كذلك لم يعظم تألمها بسبب القتل وتخريب البدن، ثم إنها بعد الانفصال عن ظلمة البدن تتخلص إلى فسحة السموات وأنوار عالم الجلال فيعظم بهجتها وسعادتها هناك، ومعلوم أن هذه الأحوال غير حاصلة لكل الناس بل هي غير حاصلة من مبدأ خلقة آدم عليه السلام إلى قيام القيامة إلا لأشخاص قليلين، فهذا هو الفائدة في تخصيص عيسى عليه السلام بهذه الحالة.

وأما الملكانية فقالوا: القتل والصلب وصلا إلى

اللاهوت بالإحساس والشعور لا بالمباشرة وقالت اليعقوبية: القتل والصلب وقعا بالمسيح الذي هو جوهر متولد من جوهرين، فهذا هو شرح مذاهب النصارى في هذا الباب، وهو المراد من قوله ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾.

والقول الثاني: أن المراد بالذين اختلفوا هم اليهود، وفيه وجهان: الأول: أنهم لما قتلوا الشخص المشبه به كان الشبه قد ألقي على وجهه ولم يلق عليه شبه جسد عيسى عليه السلام، فلما قتلوه ونظروا إلى بدنه قالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره. الثاني: قال السدي: إن اليهود حبسوا عيسى مع عشرة من الحواريين في بيت، فدخل عليه رجل من اليهود ليخرجه ويقتله، فألقى الله شبه عيسى عليه ورفع إلى السماء، فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنه عيسى عليه السلام، ثم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ فذلك اختلافهم فيه.

المسألة الثانية: احتج نفاة القياس بهذه الآية وقالوا: العمل بالقياس اتباع للظن، واتباع الظن مذموم في كتاب الله بدليل أنه إنما ذكره في معرض الذم، ألا ترى أنه تعالى وصف اليهود والنصارى ههنا في معرض الذم بهذا فقال ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾. وقال في سورة الانعام في مذمة الكفار ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال في آية أخرى ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦] وكل ذلك يدل على أن اتباع الظن مذموم.

والجواب: لا نسلم أن العمل بالقياس اتباع الظن، فإن الدليل القاطع لما دل على العمل بالقياس كان الحكم المستفاد من القيام معلوماً لا مظنوناً، وهذا الكلام له غور وفيه بحث.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا. بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾. . .

أما قوله ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو والكسائي ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ بادغام اللام في الراء والباقون بترك الإدغام، حجتهما قرب مخرج اللام من الراء والراء أقوى من اللام بحصول التكرير فيها، ولهذا لم يجز إدغام الراء في اللام لأن الأنقص يدغم في الأفضل، وحجة الباقين أن الراء واللام حرفان من كلمتين فالأولى ترك الإدغام.

المسألة الثانية: المشبهة احتجوا بقوله تعالى ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ في إثبات الجهة. والجواب: المراد الرفع إلى موضع لا يجري فيه حكم غير الله تعالى كقوله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء ١٠٠] وكانت الهجرة في ذلك الوقت إلى المدينة، وقال إبراهيم ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩].

المسألة الثالثة: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ثابت بهذه الآية، ونظير هذه الآية قوله في آل عمران ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥] واعلم أنه تعالى لما ذكر عقيب ما شرح أنه وصل إلى عيسى أنواع كثيرة من البلاء والمحنة أنه رفعه إليه دل ذلك على أن رفعه إليه أعظم في باب الثواب من الجنة، ومن كل فيها من اللذات الجسمانية، وهذه الآية تفتح عليك باب معرفة السعادات الروحانية.

ثم قال تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ والمراد من العزة كمال القدرة، ومن الحكمة كمال العلم، فنبه بهذا على أن رفع عيسى من الدنيا إلى السموات وإن كان كالمتعذر على البشر لكنه لا تعذر فيه بالنسبة إلى قدرتي وإلى حكمتي، وهو نظير قوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فإن الإسراء وإن كان متعذراً بالنسبة إلى قدرة محمد إلا أنه سهل بالنسبة إلى قدرة الحق سبحانه.

ثم قال تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، واعلم أنه تعالى لما ذكر فضائح اليهود وقبائح أفعالهم وشرح أنهم قصدوا قتل عيسى عليه السلام وبين أنه ما حصل لهم ذلك المقصود، وأنه حصل لعيسى أعظم المناصب وأجل المراتب بيّن تعالى أن هؤلاء اليهود الذين كانوا مبالغين في عداوته لا يخرج أحد منهم من الدنيا إلا بعد أن يؤمن به فقال ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

وعلم أن كلمة «إن» بمعنى «ما» النافية كقوله ﴿وَإِن

﴿مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فصار التقدير: وما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به، ثم إنا نرى أكثر اليهود يموتون ولا يؤمنون بعيسى عليه السلام. والجواب من وجهين. الأولُ: ما روي عن شهر بن حوشب قال: قال الحجاج إني ما قرأتها إلا وفي نفسي منها شيء، يعني هذه الآية فإني أضرب عنق اليهودي ولا أسمع منه ذلك، فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره، وقالوا يا عدو الله أتاك عيسى نبياً فكذبت به، فيقول آمنت أنه عبد الله، وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه هو الله وابن الله، فيقول: آمنت أنه عبد الله فأهل الكتاب يؤمنون به، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك إلا الإيمان، فاستوى الحجاج جالساً وقال: عمن نقلت هذا؟ فقلت: حدثنى به محمد بن علي بن الحنفية فأخذ ينكت في الأرض بقضيب ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية. وعن ابن عباس أنه فسره كذلك فقال له عكرمة: فإن خرّ من سقف بيت أو احترق أو أكله سبع قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به . . .

والوجه الثاني: في الجواب عن أصل السؤال: أن قوله ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي قبل موت عيسى، والمراد أن أهل الكتاب الذين يكونون موجودين في زمان نزوله لا بد وأن يؤمنوا به: قال بعض المتكلمين: إنه لا يمنع نزوله من السماء إلى الدنيا إلا أنه إنما ينزل عند ارتفاع التكاليف أو بحيث لا يعرف، إذ لو نزل مع بقاء التكاليف على وجه يعرف أنه عيسى عليه السلام لكان إما أن يكون نبياً ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، أو غير نبي وذلك غير جائز على الأنبياء، وهذا الإشكال عندي ضعيف لأن انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمد ﷺ، فعند مبعثه انتهت تلك المدة، فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعاً لمحمد عليه الصلاة والسلام. .

الطبرسي ج ٥ ص ٢٧٩ ـ ٢٨٧

وقوله ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي بجحود هؤلاء لعيسى ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾، أي أعظم كذب وأشنعه، وهو رميهم إياها بالفاحشة. عن ابن عباس والسدي.

قال الكلبي: مر عيسى برهط فقال بعضهم لبعض قد جاءكم الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فقذفوه بأمه، فسمع ذلك عيسى فقال: اللهم أنت ربي خلقتني ولم أتهم من تلقاء نفسي، اللهم العن من سبّني وسبّ والدتي فاستجاب الله دعوته فمسخهم خنازير ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ يعني: قول اليهود إنا قتلنا عيسى ابن مريم رسول الله حكاه الله تعالى عنهم أي رسول الله في زعمه، وقيل إنه من قول الله سبحانه لا على وجه الحكاية عنهم، وتقديره الذي هو رسولي ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. واختلفوا في كيفية التشبيه فروي عن ابن عباس أنه قال لما مسخ الله تعالى الذين سبّوا عيسى وأمه بدعائه بلغ ذلك يهوذا وهو رأس اليهود، فخاف أن يدعوا عليه فجمع اليهود فاتفقوا على قتله، فبعث الله تعالى جبرائيل يمنعه منهم، ويعينه عليهم وذلك معنى قوله ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، فاجتمع اليهود حول عيسى فجعلوا يسألونه، فيقول لهم: يا معشر اليهود إن الله تعالى يبغضكم، فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبرائيل في خوخة البيت الداخل لها روزنة في سقفها فرفعه جبرائيل إلى السماء، فبعث يهودا رأس رجلاً من أصحابه اسمه طيطانوس ليدخل عليه الخوخة فيقتله فدخل فلم يره، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله في الخوخة، فألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج على أصحابه قتلوه وصلبوه، وقيل القى عليه شبه وجه عيسى ولم يلق عليه شبه جسده، فقال بعض القوم أن الوجه وجه عيسى والجسد جسد طيطانوس فاشتبه الأمر عليهم.

وقال وهب بن منبه: أتى عيسى ومعه سبعة من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى لأصحابه: من يشري نفسه منكم اليوم بالجنة! فقال رجل منهم أسمه سرجس: أنا! فخرج إليهم فقال: أنا عيسى! فأخذوه وقتلوه وصلبوه، ورفع الله عيسى من يوم ذلك،

وبه قتادة ومجاهد وابن إسحاق وإن اختلفوا في عدد الحواريين. ولم يذكر أحد غير وهب أن شبهه ألقي على جميعهم بل قالوا ألقي شبهه على واحد ورفع عيسى من بينهم، قال الطبري: وقول وهب أقوى لأنه لو القي الشبه على واحد منهم مع قول عيسى ايكم يلقي شبهي فله الجنة ثم رأوا عيسى رفع من بينهم، قال الطبري: لما اشتبه عليهم ولما اختلفوا فيه وإن جاز أن يشتبه على أعدائهم من اليهود الذين ما عرفوه، لكن ألقي الشبه على جميعهم وكانوا يرون كل واحد منهم بصورة عيسى، فلما قتل أحدهم اشتبه الحال عليهم. وقال أبو علي الجبائي: إن رؤساء اليهود أخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عالٍ، ولم يمكنوا أحداً من الدنو إليه، فتغيرت حليته وقالوا: قد قتلنا عيسى ليوهموا بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذي فيه عسى، فلما دخلوه كان عيسى قد رفع من بينهم، فخافوا أنم يكون ذلك سبباً لإيمان اليهود به ففعلوا ذلك، والذين اختلفوا فيه هم غير الذين هم صلبوه وإنما باقي اليهود، وقيل إن الذي دلهم عليه، وقال هذا عيسى أحد الحواريين، أخذ على ذلك ثلاثين درهماً وكان منافقاً، ثم إنه ندم على ذلك واختنق حتى قتل نفسه، وكان اسمه بودس زكريا يوطا وهو ملعون في النصارى، وبعض النصارى يقول أن بودس زكريا يوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه، وهو يقول لست بصاحبكم أنا الذي دللتكم عليه، وقيل إنهم حبسوا المسيح مع عشرة من أصحابه في بيت، فدخل رجل من اليهود فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى ورفع عيسى فقتلوا الرجل.. عن السدي.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ قيل يعني بذلك عامتهم لأن علماءهم علموا أنه غير مقتول.. عن الجبائي، وقيل أراد بذلك جماعة اختلفوا فقال بعضهم قتلناه وقال بعضهم لم نقتله ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي لم يكن له بمن قتلوه علم لكنهم اتبعوا ظنهم، فقتلوه ظناً منهم أنه عيسى ولم يكن به، وإنما شكوا في ذلك لأنهم عرفوا عدد من في البيت، فلما دخلوا عليهم وفقدوا واحداً منهم التبس عليهم أمر عيسى، وقتلوا من قتلوه على شك منهم في أمر عيسى، هذا على قول من قال لم يتفرق أصحابه حتى دخل عليهم اليهود، وأما من قال تفرق أصحابه عنه فإنه يقول كان اختلافهم في أن عيسى هل كان فيمن بقي أو كان فيمن خرج؟ اشتبه الأمر عليهم. وقال الحسن: معناه فاختلفوا في عيسى فقالوا مرة هو عبد الله، ومرة هو ابن الله ومرة هو الله، وقال الزجاج: معنى اختلاف النصارى فيه أن منهم من ادعى أنه لم يقتل ومنهم من قال قتِل. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ . . .

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يعني: بل رفع الله عيسى إليه، ولم يصلبوه ولم يقتلوه، وقد مر تفسيره في سورة آل عمران عند قوله: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ معناه لم يزل الله سبحانه منتقماً من أعدائه حكيماً في أفعاله وتقديراته، فاحذروا أيها السائلون محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء حلول عقوبة بكم كما حل بأوائلكم في تكذيبهم رسله.. عن ابن عباس، وما مر في تفسير هذه الآية من أن الله ألقى شبه عيسى على غيره فإن ذلك من مقدور الله بلا خلاف بين المسلمين فيه، ويجوز أن يفعله الله سبحانه على وجه التغليظ للمحنة والتشديد في التكليف، وإن كان ذلك خارقاً العادة فإنه يكون معجز للمسيح، كما روي أن جبرائيل كان يأتي نبينا في صورة دحية الكلبي. ومما يسأل عن هذه الآية أن يقال قد تواترت اليهود والنصارى مع كثرتهم واجتمعت على أن المسيح قد قتل وصلب، فكيف يجوز عليهم أن يخبروا عن النبي بخلاف ما هو به؟ ولو جاز ذلك فكيف يوثق بشيء من الأخبار؟ والجواب أن هؤلاء دخلت عليهم الشبهة كما أخبر الله سبحانه عنهم بذلك، فلم يكن اليهود يعرفون عيسى بعينه وإنما أخبروا أنهم قتلوا رجلاً قيل لهم إنه عيسى فهم في خبرهم صادقون، وإن لم يكن المقتول عيسى وإنما اشتبه الأمر على النصارى لأن شبه عيسى ألقي على غيره، فرأوا من هو على صورته مقتولاً مصلوباً فلم يخبر أحد من الفريقين إلا عما رآه وظن أن الأمر على ما أخبر به فلا يؤدي ذلك إلى بطلان الأخبار بحال.

. . . ثم أخبر تعالى أنه لا يبقى أحد منهم إلاّ ويؤمن به فقال ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾

اختلف فيه على أقوال (أحدها): إن كلا الضميرين يعودان، المسيح، أي ليس يبقى أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلاّ ويؤمنن بالمسيح قبل موت المسيح إذا أنزله الله إلى الأرض. . . في آخر الزمان لقتل الدجال فتصير الملل كلها أمة واحدة وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عن ابن عباس وأبي مالك والحسن وقتادة وابن زيد وذلك حين لا ينفعهم الإيمان، واختاره الطبري قال: والآية خاصة لمن يكون منهم في ذلك الزمان، وذكر علي بن إبراهيم في تفسيره أن أباه حدثه. . . عن شهر بن حوشب قال: قال الحجاج بن يوسف آية من كتاب الله قد أعيتني قوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾، الآية، والله أني لآمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفتيه حتى يحمل، فقلت أصلح الله الأمير ليس على ما أولت! قال: فكيف هو؟ قلت إن عيسى ابن مريم ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا ولا يبقى أهل ملة يهودي أو نصراني أو غيره إلا وآمن به قبل موت عيسى ويصلي خلف المهدي، قال ويحك أنّى لك هذا ومن أين جئت به؟ قال قلت: حدثني به الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: جئت والله بها من عين صافية. فقيل لشهر ما أردت بذلك؟ قال: أردت أن أغيظه، وذكر أبو القاسم البلخي مثل ذلك، وضعف الزجاج هذا الوجه قال: إن الذين يبقون إلى زمن عيسى من أهل الكتاب قليل، والآية تقتضي عموم إيمان أهل الكتاب، إلا أن جميعهم يقولون أن عيسى الذي ينزل في آخر الزمان نحن نؤمن به.

وثانيها: أن الضمير في به يعود إلى المسيح، والضمير في موته يعود إلى الكتابي، ومعناه لا يكون أحد من أهل الكتاب يخرج من دار الدنيا إلا ويؤمن بعيسى قبل موته إذا زال تكليفه وتحقق الموت، ولكن لا ينفعه الإيمان حينئذ، وإنما ذكر اليهود والنصارى لأن جميعهم مبطلون. اليهود بالكفر به والنصارى بالغلو في أمره، وذهب إليه ابن عباس في رواية أخرى ومجاهد والضحاك وابن سيرين وجويبر قالوا: ولو ضربت رقبته لم تخرج نفسه حتى يؤمن.

وثالثها: أن يكون المعنى ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي عن عكرمة، ورواه أيضاً أصحابنا، وضعف الطبري هذا الوجه بأن قال: لو كان ذلك صحيحاً لما جاز إجراء أحكام الكفار عليهم إذا ماتوا، وهذا لا يصح لأن إيمانهم بمحمد ﷺ إنما يكون في حال زوال التكليف فلا يعتد به، وإنما ضعف هذا القول من حيث لم يجر ذكر لنبينا ﷺ ها هنا. . .

القرطبي ج ٦ ص ٧ ـ ١٢

. . . ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم؛ كما قال: ﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦] أي إلا إيماناً قليلاً أي ببعض الأنبياء، وذلك غير نافع لهم. ثم كرر ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ ليخبر أنهم كفروا كفراً بعد كفر. وقيل: المعنى ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ ﴾ بالمسيح؛ فحذف لدلالة ما بعده عليه، والعامل في «بِكفرِهم» هو العامل في «بِنقضِهِم» لأنه معطوف عليه، ولا يجوز أن يكون العامل فيه «طَبَع». والبهتان العظيم رميها بيوسف النّجار وكان من الصالحين منهم. والبهتان الكذب المفرِط الذي يتعجب منه وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ كُسرت «إنّ» لأنها مبتدأة بعد القول وفتحها لغة؛ وقد تقدّم في «آل عمران» اشتقاق لفظ المسيح. ﴿ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ بدل؛ وإن شئت على معنى أعني. ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ ردّ لقولهم ﴿ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ أي ألقى شبهه على غيره كما تقدّم في «آل عمران». وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكّون فيه. . .

﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ﴾ مِن زائدة؛ وتم الكلام. ثم قال جلّ وعزّ: ﴿ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ استثناء ليس من الأوّل في موضع نصب، ويجوز أن يكون في موضع رفع على البدل؛ أي ما لهم به من علمٍ إلا اتّباع الظّن. وأنشد سيبويه:

وبَلْــدةٍ ليــس بهـــا أنيـــسُ

إلاّ اليعـــافيـــرُ وإلاّ العِيـــسُ

قوله: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ قال ابن عباس والسُّدي:

المعنى ما قتلوا ظنّهم يقيناً؛ كقولك قتلتُه عِلْماً إذا عَلِمتَه عِلماً تامّا؛ فالهاء عائدة على الظّنّ. قال أبو عبيد: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً لقال: وما قتلوه فقط. وقيل: المعنى وما قتلوا الذي شُبّه لهم أنه عيسى يقينا؛ فالوقف على هذا ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾. وقيل: المعنى وما قتلوا عيسى، والوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ و﴿يَقِينًۢا﴾ نعت لمصدر محذوف، وفيه تقديران: أحدهما ـ أي قالوا هذا قولاً يقيناً، أو قال الله هذا قولاً يقيناً. والقول الآخر ـ أن يكون المعنى وما علموه عِلْماً يقيناً. النحاس: إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقيناً فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد «بل» فيما قبلها لضعفها. وأجاز أبن الإنباريّ الوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ على أن ينصب ﴿يَقِينًۢا﴾ بفعل مضمر هو جواب القسم، تقديره: ولقد صدّقتم يقيناً أي صدقا يقينا. ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أبتداء كلام مستأنف؛ أي إلى السماء، والله تعالى متعالٍ عن المكان؛ وقد تقدّم كيفية رفعه في «آل عمران». ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ أي قوياً بالنّقمة من اليهود فسلّط عليهم بطرس أبن أستيسانوس الرّومي فقتل منهم مقتلة عظيمة. ﴿حَكِيمًا﴾ حكم عليهم باللّعنة والغضب.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾. قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة: المعنى ليؤمنن بالمسيح قبل موته أي الكتابيّ؛ فالهاء الأولى عائدة على عيسى، والثانية على الكتابيّ؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين الملك، ولكنه إيمان لا ينفع؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبّس بحالة الموت؛ فاليهوديّ يقِرّ في ذلك الوقت بأنه رسول الله، والنّصرانيّ يُقِرّ بأنه كان رسول الله. ورُوي أن الحجّاج سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتي بالأسير من اليهود و النصارى فآمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت فلا أرى منه الإيمان؛ فقال له شهر ابن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة يقرّ بأنّ عيسى عبدُ الله ورسولُه فيؤمن به ولا ينفعه؛ فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا؟ قال: أخذته من محمد بن الحنفيّة؛ فقال له الحجّاج: أخذت من عينٍ صافية. ورُوي عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته؛ فقيل له: إن غَرِق أو احترق أو أكله السَبع يؤمن بعيسى؟ فقال: نعم! وقيل: إن الهاءين جميعاً لعيسى عليه السلام؛ والمعنى ليؤمنّن به من كان حيّا حين نزوله يوم القيامة؛ قاله قتادة وابن زيد وغيرهما واختاره الطبري. وروى يزيد بن زريع عن رجل عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال: قبل موت عيسى؛ والله إنه لحيّ عند الله الآن؛ ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون؛ ونحوه عن الضّحاك وسعيد بن جبير. وقل: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي بمحمد عليه السلام وإن لم يَجرِ له ذكر؛ لأن هذه الأقاصيص أنزلت عليه والمقصود الإيمان به، والإيمان بعيسى يتضمّن الإيمان بمحمد عليه السلام أيضاً؛ إذ لا يجوز أن يُفرّق بينهم. وقيل: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المعاينة. والتأويلان الأوّلان أظهر. وروى الزُّهريّ عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً فليقتلنّ الدجال وليقتلنّ الخنزير وليكسرنّ الصّليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين» ثم قال أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ قال أبو هريرة: قبل موت عيسى؛ يُعيدها ثلاث مرات. وتقدير الآية عند سيبويه؛ وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به. وتقدير الكوفيين: وإن من أهل الكتاب إلا من ليؤمنن به، وفيه قبح، لأن فيه حذف الموصول، والصلة بعض الموصول فكأنه حذف بعض الاسم...

الآلوسي ج ٦ ص ٩ ـ ١٣

﴿وَبِقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره حيث نسبوها ـ وحاشاها ـ إلى ما هي عنه في نفسها بألف ألف منزل، وتمادوا على ذلك غير مكترثين بقيام المعجزة بالبراءة، والبهتان الكذب الذي يتحير من شدته وعظمه، ونصبه على أنه مفعول به ـ لقولهم ـ وجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي قولاً بهتاناً، وقيل: هو مصدر في

موضع الحال أي مباهتين ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ على سبيل التبجح.

﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ذكروه بعنوان الرسالة تهكماً واستهزاءً كما في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ إلخ، ويحتمل أن يكون ذلك منهم بناءً على قوله عليه الصلاة والسلام وإن لم يعتقدوه، وقيل: إنهم وصفوه بغير ذلك من صفات الذم فغير في الحكاية فيكون من الحكاية لا من المحكى، وقيل: هو استئناف منه مدحاً له عليه الصلاة والسلام ورفعاً لمحله وإظهاراً لغاية جراءتهم في تصديهم لقتله ونهاية وقاحتهم في تبجحهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

وقال وهب بن منبه في خبر طويل رواه عن ابن المنذر: «أتى عيسى عليه السلام ومعه سبعة وعشرون من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى عليه السلام فقالوا لهم: سحرتمونا ليبرزن لنا عيسى عليه السلام أو لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لأصحابه: من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا، فخرج إليهم فقال: أنا عيسى فقتلوه وصلبوه ورفع الله تعالى عيسى عليه السلام»، وبه قال قتادة والسُّدي ومجاهد وابن إسحق، وإن اختلفوا في عدد الحواريين، ولم يذكر أحد غير وهب أن شبهه عليه السلام ألقي على جميعهم بل قالوا: ألقي شبهه على واحد ورفع عيسى عليه السلام من بينهم.

ورجح الطبري قول وهب، وقال: إنه الأشبه، وقال أبو علي الجبائي: إن رؤساء اليهود أخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عالٍ ولم يمكنوا أحداً من الدنو منه فتغيرت حليته، وقالوا: إنا قتلنا عيسى ليوهموا بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذي به عيسى عليه السلام، فلما دخلوه ولم يجدوه خافوا أن يكون ذلك سبباً لإيمان اليهود، ففعلوا ما فعلوا، وقيل: كان رجل من الحواريين ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه وأخذ على ذلك ثلاثين درهماً فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عليه السلام، وألقي شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه السلام، وقيل: غير ذلك، و(شبه) مسند إلى الجار والمجرور، والمراد وقع لهم تشبيه بين عيسى عليه السلام ومن صلب، أو في الأمر ـ على قول الجبائي ـ أو هو مسند إلى ضمير المقتول الذي دل عليه إنا قتلنا أي ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ من قتلوه بعيسى عليه السلام، أو الضمير للأمر و(شبه) من الشبهة أي التبس عليهم الأمر بناءً: على ذلك القول، وليس المسند إليه ضمير المسيح عليه الصلاة والسلام لأنه مشبه به لا مشبه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي في شأن عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعضهم: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع منه ـ إن الله تعالى يرفعني إلى السماء ـ إنه رفع إلى السماء، وقالت النصارى الذين يدعون ربوبيته عليه السلام: صلب الناسوت وصعد اللاهوت، ولهذا لا يعدون القتل نقيصة حيث لم يضيفوه إلى اللاهوت ويرد هؤلاء إن ذلك يمتنع عند اليعقوبية القائلين: إن المسيح قد صار بالاتحاد طبيعة واحدة إذ الطبيعة الواحدة لم يبق فيها ناسوت متميز عن لاهوت والشيء الواحد لا يقال: مات ولم يمت، وأهين ولم يهن.

وأما الروم القائلون: بأن المسيح بعد الاتحاد باق على طبيعتين، فيقال لهم: فهل فارق اللاهوت ناسوته عند القتل؟ فإن قالوا: فارقه فقد أبطلوا دينهم، فلم يستحق المسيح الربوبية عندهم إلا بالاتحاد، وإن قالوا: لم يفارقه فقد التزموا ما ورد على اليعقوبية وهو قتل اللاهوت مع الناسوت، وإن فسروا الاتحاد بالتدرع وهو أن الإله جعله مسكناً وبيتاً ثم فارقه عند ورود ما ورد على الناسوت أبطلوا إلهيته في تلك الحالة، وقلنا لهم: أليس قد أهين؟ وهذا القدر يكفي في إثبات النقيصة إذ لم يأنف اللاهوت لمسكنه أن تناله هذه النقائص، فإن كان قادراً على نفيها فقد أساء مجاورته ورضي بنقيصته وذلك عائد بالنقص عليه في نفسه، وإن لم يكن قادراً فذلك أبعد له عن عز الربوبية، وهؤلاء ينكرون إلقاء الشبه، ويقولون: لا يجوز

ذلك لأنه إضلال، ورده أظهر من أن يخفى، ويكفي في إثباته أنه لو لم يكن ثابتاً لزم تكذيب المسيح، وإبطال نبوته بل وسائر النبوات على أن قولهم في الفصل: إن المصلوب قال: إلهي إلهي لم تركتني وخذلتني، وهو ينافي الرضا بمرّ القضا؛ ويناقض التسليم لأحكام الحكيم، وأنه شكى العطش وطلب الماء، والإنجيل مصرح بأن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وليلة إلى غير ذلك مما لهم فيه إن صح مما ينادي على أن المصلوب هو الشبه كما لا يخفى.

وجوز أن يفسر الشك بالجهل، والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره؛ فالاستثناء حينئذ متصل، وإليه ذهب ابن عطية إلا أنه خلاف المشهور، وما قيل: إن اتباع الظن ليس من العلم قطعاً فلا يتصور اتصاله فمدفوع بأن من قال به جعله بمعنى الظن المتبع ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ الضمير لعيسى عليه السلام كما هو الظاهر أي ما قتلوه قتلاً يقيناً، أو متيقنين، ولا يرد أن نفي القتل المتيقن يقتضي ثبوت القتل المشكوك لأنه لنفي القيد، ولا مانع من أنه قتل في ظنهم فإنه يقتضي أنه ليس في نفس الأمر كذلك فلا حاجة إلى التزام جعل يقيناً مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف، والتقدير تيقنوا ذلك يقيناً، وقيل: هو راجع إلى العلم؛ وإليه ذهب الفراء. وابن قتيبة أي وما قتلوا العلم (يقيناً) من قولهم: قتلت العلم. والرأي، وقتلت كذا علماً إذا تبالغ علمك فيه، وهو مجاز كما في الأساس، والمعنى ما علموه يقيناً، وقيل: الضمير للظن أي ما قطعوا الظن (يقيناً) ونقل ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والسّدي، وحكى ابن الأنباري أن في الكلام تقديماً وتأخيراً وأن (يقيناً) متعلق بقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ أي بل رفعه سبحانه إليه يقيناً، ورده في البحر بأنه قد نص الخليل على أنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها والكلام ردّ وإنكار لقتله، وإثبات لرفعه عليه الصلاة والسلام، وفيه تقدير مضاف عند أبي حيان أي إلى سمائه، قال: وهو حي في السماء الثانية على ما صح عن النبي ﷺ في حديث المعراج، وهو هنالك مقيم حتى ينزل إلى الأرض يقتل الدجال، ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً ثم يحيا فيها أربعين سنة أو تمامها من سنّ رفعه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنة، ويموت كما تموت البشر، ويدفن في حجرة النبي ﷺ، أو في بيت المقدس، وقال قتادة: رفع الله تعالى عيسى عليه السلام إليه فكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش فصار إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً، وهذا الرفع على المختار كان قبل صلب الشبه، وفي إنجيل لوقا ما يؤيده؛ وأما رؤية بعض الحواريين له عليه السلام بعد الصلب فهو من باب تطور الروح، فإن للقدسيين قوة التطور في هذا العالم، وإن رفعت أرواحهم إلى المحل الأسنى، وقد وقع التطور لكثير من أولياء هذه الأمة، وحكاياتهم في ذلك يضيق عنها نطاق الحصر ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغالب فيما يريده ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله، فيدخل فيه تدبيراته سبحانه في أمر عيسى عليه السلام، وإلقاء الشبه على من ألقاه دخولاً أولياً ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي اليهود خاصة، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أو هم والنصارى كما ذهب إليه كثير من المفسرين، (وإن) نافية بمعنى ما، وفي الجار والمجرور وجهان: أحدهما أنه صفة لمبتدأ محذوف، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ جملة قسمية، والقسم مع جوابه خبر المبتدأ، ولا يرد عليه أن القسم إنشاء لأن المقصود بالخبر جوابه وهو خبر مؤكد بالقسم، ولا ينافيه كون جواب القسم لا محل له لأن ذلك من حيث كونه جواباً فلا يمتنع كونه له محل باعتبار آخر لو سلم أن الخبر ليس هو المجموع والتقدير، وما أحد من أهل الكتاب إلا والله ليؤمنن به، والثاني أنه متعلق بمحذوف وقع خبراً لذلك المبتدأ، وجملة القسم صفة له لا خبر، والتقدير وإن أحد إلا ليؤمنن به كائن من أهل الكتاب، ومعناه كل رجل يؤمن به قبل موته من أهل الكتاب، وهو كلام مفيد، فالاعتراض على هذا الوجه ـ بأنه لا ينتظم من أحد، والجار والمجرور إسناد لأنه لا يفيد ـ لا يفيد لحصول الفائدة بلا ريب، نعم المعنى على الوجه الأول كل رجل من أهل الكتاب يؤمن به قبل موته، والظاهر أنه المقصود، وأنه أتم فائدة، والاسثناء مفرغ من

أعم الأوصاف، وأهل الكوفة يقدرون موصولاً بعد إلا، وأهل البصرة يمنعون حذف الموصول وإبقاء صلته، والضمير الثاني راجع للمبتدأ المحذوف اعني أحد، والأول لعيسى عليه السلام فمفاد الآية أن كل يهودي ونصراني يؤمن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله تعالى ورسوله، ولا ينفعه إيمانه حينئذ لأن ذلك الوقت لكونه ملحقاً بالبرزخ لما أنه ينكشف عنده لكل الحق ينقطع إليه التكليف، ويؤيد ذلك أنه قرأ أبي ـ ليؤمنن به قبل موتهم ـ بضم النون وعود ضمير الجمع لأحد ظاهر لكونه في معنى الجمع، وعوده لعيسى عليه السلام غير ظاهر.

وأخرج ابن المنذر. وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر الآية كذلك، فقيل له: أرأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهواء، فقيل: أرأيت إن ضرب عنقه؟ قال: يتلجلج بها لسانه.

وأخرج ابن المنذر أيضاً عن شهر بن حوشب قال: قال لي الحجاج: يا شهر آية من كتاب الله تعالى ما قرأتها إلا اعترض في نفسي منها شيء قال الله تعالى ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، وإني أوتي بالأسارى فأضرب أعناقهم ولا أسمعهم يقولون شيئاً فقلت: رفعت إليك على غير وجهها إن النصراني إذا خرجت روحه ـ أي إذا قرب خروجها كما تدل عليه رواية أخرى عنه ـ ضربته الملائكة من قبله ومن دبره، وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنه الله تعالى، وأنه ابن الله سبحانه، وأنه ثالث ثلاثة عبد الله وروحه وكلمته، فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه، وأن اليهودي إذا خرجت نفسه ضربته الملائكة من قبله ودبره، وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنك قتلته عبد الله وروحه فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان، فإذا كان عند نزول عيسى آمنت به أحياؤهم كما آمنت به موتاهم، فقال: من أين أخذتها؟ فقلت: من محمد بن علي، قال: لقد أخذتها من معدنها، قال شهر: وأيم الله تعالى ما حدثنيه إلا أم سلمة، ولكني أحببت أن أغيظه، والإخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض إلى المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يضطروا إليه مع انتفاء جدواه، وقيل: الضميران لعيسى عليه السلام، وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً. وأبي مالك والحسن وقتادة وابن زيد واختاره الطبراني، والمعنى أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام إلا ليؤمنن به قبل أن يموت وتكون الأديان كلها ديناً واحداً، وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل. ويضع الخراج. وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما» قال: وتلا أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾، وقيل: الضمير الأول لله تعالى ولا يخفى بعده، وأبعد من ذلك أنه لمحمد ﷺ، وروى هذا عن عكرمة، ويضعفه أنه لم يجر له عليه الصلاة والسلام ذكر هنا، ولا ضرورة توجب رد الكناية إليه، لا أنه ـ كما زعم الطبري ـ لو كان صحيحاً لما جاز إجراء أحكام الكفار على أهل الكتاب بعد موتهم لأن ذلك الإيمان إنما هو في حال زوال التكليف فلا يعتد به. . .

القاسمي ج ٥ ص ٥٤٩ ـ ٦٢٨

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

قال أبو السعود: نظمُ قولهم هذا في سلك سائر جناياتهم التي نُعِيَتْ عليهم، ليس لمجرد كونه كذباً، بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبيّ عليه السلام والاستهزاء به. فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليه السلام. كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر ٦]. ولإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح، على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى، مكان ذكرهم القبيح. وقيل: هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى. مدحاً له، ورفعاً لمحله، وإظهاراً لغاية جراءتهم، في تصديقهم لقتله، ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك.

قال الراغب: سمي عيسى بالمسيح لأنه مسحت عنه القوة الذميمة، من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة. كما أن الدجال مسحت عنه القوة المحمودة من العلم والعقل والحلم والأخلاق الحميدة. وقال شمر: لأنه مسح بالبركة. وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم ٣١]. أو لأن الله مسح عنه الذنوب. وذكر المجد في كتابه (البصائر) في اشتقاقه ستة وخمسين قولاً. وتطرّق شارح القاموس لبعضها. فانظره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: لا يصح لهم الفخر بقتله. لأنهم ما قتلوه. ولا متمسك لهم فيما يزعمونه من صلبهم إياه. لأنهم ما صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من ألقى عليه شبهه...

لا خفاء في أن هذه الآية الكريمة لتكذيب اليهود في دعوى الصلب التي تابعهم عليها أكثر النصارى، ولتبرئة ساحة مقام عيسى عليه السلام مما توهموه في ذلك. ولما كانت هذه الآية من مباحث الأمتين، ومعارك الفرقتين ـ أردت بسط الكلام في هذا المقام. انتهاجاً للحق. وأخذا بناصر الصدق. وردّ أباطيل المكذبين. وتزييف أقوال الملحدين. نورد أولاً ما زعموه ورَوَوْه. مما نفاه التنزيل الكريم. ثم بطلان المرويّ عندهم وتهافته بالحجج الدامغة. ثم ما رواه أئمة سلفنا رضي الله عنهم في هذه القصة. ثم رد زعمهم أن إلقاء الشبه سفسطة. ثم سقوط دعواهم التواتر في الصلب. ثم تزييف تفسير بعض النصارى لهذه الآية، وأنها مطابقة لمعتقدهم على زعمه. مع ذكر من رفض عقيدة الصلب من فرق النصارى. وذكر ما روي في إنجيل خامس يوافق عقيدة المسلمين، ويطابق هذه الآية. ونختم هذه المباحث بما قاله شيخ الإسلام تقيّ الدين ابن تيمية رضي الله عنه في هذه الآية، وأبدع، على عادته قدس سره.

محمد عبده ج ٦ ص ١٧ ـ ٥٩

.. الشك في صلب المسيح هو التردد فيه أكان هو المصلوب أم غيره؟ فبعض المختلفين في أمره الشاكين فيه يقول إنه هو، وبعضهم يقول إنه غيره، وما لأحد منهما علم يقيني بذلك وإنما يتبعون الظن. وقوله تعالى ﴿إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع كما علم من تفسيرنا له. وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن المسيح قال لتلاميذه «كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة» أي التي يطلب فيها للقتل (متى ٢٦ : ٣١ ومرقس ١٤ : ٢٧).

فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة فإنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به يشكون فيه في ذلك الوقت وخبره صادق قطعاً فهل يستغرب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره، وقد صارت قصته رواية تاريخية منقطعة الأسناد؟

... وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي وأنه جعل لهم علامة إن من قبله يكون هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه. وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح لأنه ألقي عليه شبهه. فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية. وقيل أن الضمير في قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ للعلم الذي نفاه عنهم، والمعنى ما لهم به من علم لكنهم يتبعون الظن وما قتلوا العلم يقيناً وتثبتاً به بل رضوا بتلك الظنون التي يتخبطون فيها. يقال قتلت الشيء علماً وخبراً ـ كما في الأساس ـ إذا أحطت به واستوليت عليه حتى لا ينازع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب. وروي عن ابن عباس أنه راجع إلى الظن الذي يتبعونه قال «لم يقتلوا ظنهم يقيناً» رواه ابن جرير أي أنهم يتبعون ظناً غير ممحص ولا موفى أسباب الترجيح والحكم التي توصل إلى العلم. وقد اختلفت رواية المفسرين بالمأثور في هذه المسألة لأن عمدتهم فيها النقل عمن أسلم من اليهود والنصارى وهؤلاء كانوا مختلفين ما لهم به من علم يقيني، ولكن الروايات عنهم تشتمل على نحو ما عند النصارى من مقدمات القصة كجمع المسيح لحواريه (أو تلاميذه)، وخدمته إياهم وغسله لأرجلهم، وقوله لبعضهم أنه ينكره قبل صياح الديك ثلاث مرات، ومن بيعه بدلالة أعدائه عليه في مقابلة مال قليل، وكون

الدلالة عليه كانت بتقبيل الدال عليه له. ولكن بعضهم قال إن شبهه ألقي على من دلهم عليه، وبعضهم قال بل ألقي شبهه على جميع من كانوا معه، وروى ابن جرير القولين عن وهب ابن منبه. والحاصل أن جميع روايات المسلمين متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أيدي مريدي قتله فقتلوا آخر ظانين أنه هو.

وأما قوله تعالى ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ فقد سبق نظيره في سورة آل عمران وذلك قوله تعالى ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥] روي عن ابن عباس تفسير التوفي هنا بالإماتة كما هو الظاهر المتبادر، وعن ابن جريج تفسيرها بأصل معناها وهو الأخذ والقبض، والمراد منه ومن الرفع انقاذه من الذين كفروا بعناية من الله الذي اصطفاه وقربه إليه. قال ابن جرير بسنده عن ابن جريج «فرفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا» أي ليس المراد الرفع إلى السماء لا بالروح والجسد ولا بالروح فقط. وعلى القول بأن التوفي الإماتة لا يظهر للرفع معنى إلا رفع الروح. والمشهور بين المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء ويستدلون على هذا بحديث المعراج إذ فيه أن النبي (ص) رآه هو وابن خالته يحيى في السماء الثانية: ولو كان هذا يدل على أنه رفع بروحه وجسده إلى السماء لدل أيضاً على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء في سائر السموات، ولم يقل بهذا أحد.

وذكر الرازي أن المشبهة يستدلون بالآية على إثبات المكان لله تعالى وذكر للرد عليهم وجوهاً: (منها) أن المراد ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى محل كرامتي وجعل ذلك رفعاً للتفخيم والتعظيم ومثله قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب من العراق إلى الشام (ومنها) أن المراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه غير الله.

. . . ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فبعزته وهي كونه يَقهر ولا يُقهر، ويغلب لا يغلب، انقذ عبده ورسوله عيسى عليه السلام من اليهود الماكرين، والروم الحاكمين، وبحكمته جزى كل عامل بعمله، فأحل باليهود ما أحل بهم وسيوفيهم جزاءهم في الآخرة.

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد ﴿إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ﴾ أي ليؤمنن بعيسى إيماناً صحيحاً وهو أنه عبد الله ورسوله وآيته للناس ﴿قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ أي قبل موت ذلك الأحد الذي هو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم. وحاصل المعنى أن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من أمر الإيمان فيؤمن بعيسى إيماناً صحيحاً، فاليهودي يعلم أنه رسول صادق غير دعي ولا كذاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله فلا هو إله ولا ابن الله. ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ يشهد عليهم، بما تظهر به حقيقة أمره معهم، ومنه ما حكاه الله عنه في آخر سورة المائدة ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ [المائدة: ١١٧] وقد يشهد للمؤمن منهم في حال الاختيار والتكليف بإيمانه، وعلى الكافر بكفره، لأنه مبعوث إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ٤١] وذهب بعضهم إلى أن المراد أن كل أحد من أهل الكتاب يؤمن بعيسى قبل موت عيسى وهذا مبني على القول بأن عيسى لما يمت وأنه رفع إلى السماء قبل وفاته وهم الذين أولوا قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهم على هذا يحتاجون إلى تأويل النفي العام هنا بتخصيصه بمن يكون منهم حياً عند نزوله فيقولون: المعنى وما من أحد من أهل الكتاب الذين ينزل المسيح من السماء إلى الأرض وهم أحياء إلا ليؤمنن به ويتبعنه. والمتبادر من الآية المعنى الأول وهذا التخصيص لا دليل عليه وهو مبني على شيء لا نص عليه في القرآن حتى يكون قرينة له. والأخبار التي وردت فيه لم ترد مفسرة للآية. أما المعنى الأول الذي هو الظاهر المتبادر من النظم البليغ فيؤيده ما ورد من اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة، ومن كونهم يبشرون برضوان الله وكرامته أو بعذابه وعقوبته. ففي حديث عبادة بن الصامت في الصحيحين أن المؤمن

إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، وأن الكافر إذا حضر (بضم الحاء أي حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته. وروى أحمد والنسائي من حديث أنس وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت، وعن عائشة زيادة في حديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» الذي في الصحيحين وغيرهما، وهي أنهم قالوا: يا رسول كلنا نكره الموت، فقال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر، إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه. وأن الفاجر إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه من الشر، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه». وروى ابن مردويه وابن منده بسند ضعيف عن ابن عباس «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار»، وروى مثله ابن أبي الدنيا عن رجل لم يسم عن عليّ مرفوعاً. فهذه الأحاديث تؤيد ما روي عن ابن عباس وغيره في تفسير الآية من كون الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح، مع الإنكار الشديد والتقبيح، ومما يؤيد هذه الحقيقة النص في سورة يونس على تصريح فرعون بالإيمان حين أدركه الغرق. ولها دلائل أخرى كالأحاديث الواردة في عدم قبول التوبة عند الغرغرة والله أعلم.

فصل في مباحث تتعلق بمسألة الصلب: إن مسألة الصلب من المسائل التاريخية التي لها نظائر وأشباه كثيرة، فقد كان الملوك والحكام يقتلون ويصلبون، وناهيك بالرومانيين وقسوتهم، واليهود وعصبيتهم، وقد قتل هؤلاء غير واحد من أنبيائهم أشهرهم زكريا ويحيى عليهما السلام. والفائدة في إثبات التاريخ لمثل هذه الوقائع لا تعدو العبرة بأخلاق الأمة ودرجة ضلالها وهدايتها وسيرة الحكام فيها. وقد كان اليهود في عصر المسيح تحت سلطان الروم (الرومانيين) والحاكم الروماني في بيت المقدس في ذلك العهد (بيلاطس) لم يكن يريد قتل المسيح، ولم يحفل بوشاية اليهود وسعايتهم فيه، ولا خاف أن يكون ملكاً يزيل سلطان الروم عن قومه، هكذا تقول النصارى في كتبها، وإنما كانت اليهود تريد قتله عليه السلام لما دعا إليه من الإصلاح الذي يزحزحهم عن تقاليدهم المادية، لأنهم بقتل زكريا ويحيى قد أصيبوا بالضراوة بسفك دماء النبيين والمصلحين، فسواء صح خبر دعوى قتل عيسى وصلبه أم لم يصح، فلا صحته تفيدنا عبرة بحال أولئك القوم لم تكن معروفة، ولا عدمها ينقص من معرفتنا بأخلاقهم وتاريخ زمنهم.

نعم إن مسألة الصلب ليست في ذاتها بالأمر الذي يهتم بإثباته أو نفيه في كتاب الله عز وجل بأكثر من إثبات قتل اليهود النبيين بغير حق وتقريعهم على ذلك، لولا أن النصارى جعلوها أساس العقائد وأصل الدين، فمن فاته الإيمان بها فهو في الآخرة من الهالكين، ومن آمن بها على الوجه الذي يقولونه ويدعون إليه كان هو الناجي الفائز :بملكوت السماء مع المسيح والرسل والقديسين. لأجل هذا كبر عليهم نفي القرآن العظيم لقتل المسيح وصلبه، وهم يوردون في ذلك الشبهات على القرآن والإسلام. لهذا رأينا أن نبين عقيدة الصلب عندهم، وشبهاتهم على نفيها مع الجواب عنها، وما يتعلق بذلك من المباحث المهمة.

عقيدة النصارى في المسيح والصلب: نرى دعاة النصارى المنبثين في بلادنا قد جعلوا قاعدة دعوتهم وأساسها عقيدة صلب المسيح فداء عن البشر، فهذه العقيدة عندهم هي أصل الدين وأساسه والتثليث يليها. لأن أصل الدين وأساسه هو الذي يدعى إليه أولاً، ويجعل ما عداه تابعاً له. ولذلك كان التوحيد هو الأصل والأساس لدعوة الإسلام، ويليه الإيمان بالنبي ﷺ واليوم الآخر، وكان أول شيء دعا إليه النبي (ص) هو كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ودعا أهل الكتاب في كتبه إلى الإسلام بقوله عز وجل ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًۭٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًۭا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] وبهذا أمره الله تعالى. فكان يكتفي في دعوته الأولى لمشركي العرب بتوحيد الألوهية لأن شركهم إنما كان في الألوهية بعبادة غير الله تعالى وهي اتخاذ أولياء يقربونهم إليه زلفى، ويشفعون لهم عنده،

بواسطتهم يدفع الله عنهم الضر، ويسوق إليهم الخير كما كانوا يزعمون. وأما مشركو أهل الكتاب فكان قد طرأ على توحيدهم مثل هذا الشرك في الألوهية باتخاذ المسيح إلهاً، واتخاذ غيره من حواريه وغيرهم آلهة بالوساطة والشفاعة، وطرأ عليه فوق ذلك الشرك في الربوبية باتباعهم لأحبارهم ورهبانهم فيما يحلون لهم، ويحرمون عليهم. فدعاهم (ص) إلى توحيد الألوهية والربوبية معاً. فلولا أن عقيدة الصلب والفداء هي أصل هذه الديانة النصرانية عند أهلها لما كانوا يبدءون بالدعوة إليها قبل كل شيء. أما تقرير هذه العقيدة كما سمعنا من بعض دعاة البروتستانت في بعض المجامع العامة التي يعقدونها للدعوة في مدارسهم، وفي المجالس الخاصة التي اتفق لنا حضورها مع بعضهم، فهي أن آدم لما عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها صار هو وجميع أفراد ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي ـ ثم إن جميع ذريته جاؤا خطاة مذنبين فكانوا مستحقين للعقاب أيضاً بذنوبهم، كما أنهم مستحقون له بذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم. ولما كان الله تعالى متصفاً بالعدل والرحمة جميعاً طرأ عليه (سبحانه وتعالى عن ذلك) مشكل منذ عصي آدم. وهو إنه إذا عاقبه هو وذريته كان ذلك منافياً لرحمته فلا يكون رحيماً!! وإذا لم يعاقبه كان ذلك منافياً لعدله فلا يكون عادلاً!! فكأنه منذ عصي آدم كان يفكر في وسيلة يجمع بها بين العدل والرحمة!! فلم يهتد إلى ذلك سبيلاً إلا منذ ألف وتسع مئة واثنتي عشرة سنة بالنسبة إلى سنتنا هذه (سبحانه سبحانه)، وذلك بأن يحل ابنه تعالى الذي هو هو نفسه في بطن امرأة من ذرية آدم ويتحد بجنين في رحمها، ويولد منها فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث هو ابنها وإلهاً كاملاً من حيث هو ابن الله ـ وابن الله هو الله ـ ويكون معصوماً من جميع معاصي بني آدم، ثم بعد أن يعيش زمناً معهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون، ويتلذذ كما يتلذذون ويتألم كما يتألمون، يسخر أعداءه لقتله أفظع قتلة، وهي قتلة الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب الإلهي، فيحتمل اللعن والصلب لأجل فداء البشر وخلاصهم من خطاياهم كما قال يوحنا في رسالته الأولى: وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) كنت مرة ماراً بشارع محمد علي في القاهرة وأنا قريب عهد بالهجرة إليها فرأيت رجلاً واقفاً على باب المدرسة الإنكليزية فيه يدعو كل من مر امامه: تفضلوا تعالوا اسمعوا كلام الله. ولما خصني بالدعوة أجبت فدخلت فإذا بناس على مقاعد من الخشب في رحبة المدرسة، فلما كثر الجمع قام أحد دعاة النصرانية فألقى نحو ما تقدم آنفاً من العقيدة الصليبية. وبعد فراغه وحثه الناس على الأخذ بما قاله والإيمان به، ودعواه أن لا خلاص لهم بدونه، قمت فقلت إذا كنتم قد دعوتمونا إلى هذا المكان لتبلغونا هذه الدعوة شفقة علينا ورحمة بنا، فاذنوا لي أن أبين لكم موقعها من نفسي، فأذن لي القس بالكلام، فوقفت في موقف الخطابة وأوردت عليهم ما يترتب على هذه الدعوة من العقائد الباطلة والقضايا المتناقضة التي سأبينها هنا، وطلبت الجواب عنها، فكان الجواب أن هذا المكان خاص بالوعظ والكرازة دون الجدال، فإن كنت تريد الجدال والمناظرة فموضعهما المكتبة الإنكليزية، فلما سمع الحاضرون هذا الجواب صاحوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله وانصرفوا. أما ما يؤخذ من هذه العقيدة وما يترتب عليها فدونكه بالإختصار:

ما يرد على عقيدة الصلب: (١) لا يمكن أن يقبل هذه القصة من يؤمن بالدليل العقلي أن خالق العالم لا بد أن يكون بكل شيء عليماً، وفي كل صنعة حكيماً، لأنها تستلزم الجهل والبداء على الباري عز وجل، كأنه حين خلق آدم ما كان يعلم ما يكون عليه أمره، وحين عصى ما كان يعلم ما يقتضيه العدل والرحمة في شأنه، حتى اهتدى إلى ذلك بعد ألوف من السنين مرت على خلقه، كان فيها جاهلاً كيف يجمع بين تينك الصفتين من صفاته، وواقعاً في ورطة التناقض بينهما، ولكن قد يقبلها من يشترط في الدين عندهم أن لا يتفق مع العقل، وأن يأخذ صاحبه بكل ما يسند إلى من نسب إليهم عمل العجائب، ويقول آمنت به وإن لم يدركه، ولم تذعن له نفسه، ومن ينقلون في

أول كتاب من كتبهم الدينية (سفر التكوين) هذه الجملة (٦:٦ فندم الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه) تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

(٢) يلزم من يقبل هذه القصة أن يسلم ما يحيله كل عقل مستقل من أن خالق الكون يمكن أن يحل في رحم امرأة في هذه الأرض التي نسبتها إلى سائر ملكه أقل من نسبة الذرة إليها وإلى سمواتها التي ترى منها، ثم يكون بشراً يأكل ويشرب ويتعب ويعتريه غير ذلك مما يعتري البشر، ثم يأخذه أعداؤه بالقهر والإهانة فيصلبوه مع اللصوص ويجعلوه ملعوناً بمقتضى حكم كتابه لبعض رسله (تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً).

(٣) تقتضي هذه القصة أن يكون الخالق العليم الحكيم قد أراد شيئاً بعد التفكر فيه ألوفاً من السنين، فلم يتم له ذلك الشيء، ذلك أن البشر لم يخلصوا وينجوا بوقوع الصلب من العذاب، فإنهم يقولون إن خلاصهم متوقف على الإيمان بهذه القصة وهم لم يؤمنوا بها ـ لنا أن نقول إنه لم يؤمن بها أحد قط لأن الإيمان هو تصديق العقل وجزمه بالشيء، والعقل لا يستطيع أن يدرك ذلك، والذين يقولون أنهم مؤمنون بها يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم تقليداً لمن لقنهم ذلك. فإن سمينا مثل هذا القول إيماناً، نقول إن أكثر البشر لا يقولونه بل يردونه بالدلائل العقلية، ومنهم من يرده أيضاً بالدلائل النقلية، من دين ثبتت أصوله عندهم بالأدلة العقلية، ومنهم من لم يعلموا بهذه القصة، ومنهم من يقول بمثلها لآلهة أخرى. فإذا عذبهم الله تعالى في الآخرة ولم يدخلهم ملكوته ـ كما تدعي النصارى ـ لا يكون رحيماً على قاعدة دعاة الصلب والصليب، فكيف جمع بذلك بين العدل والرحمة؟

(٤) يلزم من هذه القصة شيء أعظم من عجز الخالق (تعالى وتقدس) عن إتمام مراده بالجمع بين عدله ورحمته، وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح لأنه عذبه من حيث هو بشر، وهو لا يستحق العذاب لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب والطعن بالحراب ـ على ما زعموا ـ لا يصدر من عادل ولا من رحيم بالأحرى. فكيف يعقل أن يكون الخالق غير عادل ولا رحيم، أو أن يكون عادلاً رحيماً فيخلق خلقاً يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين، فيحاول الجمع بينهما فيفقدهما معاً؟؟

(٥) إذا كان كل من يقول بهذه العقيدة أو القصة ينجو من عذاب الآخرة كيفما كانت أخلاقه وأعماله، لزم من ذلك أن يكون أهلها إباحيين، وأن يكون الشرير المبطل الذي يعتدي على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم ويفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، من أهل الملكوت الأعلى لا يعذب على شروره وخطيئاته، ولا يجازي عليها بشيء. فله أن يفعل في هذه الدنيا ما شاء هواه، وهو آمن من عذاب الله، ـ وناهيك بهذا مفسداً للبشر ـ وإذا كان يعذب على شروره وخطيئاته كغيره من غير الصليبيين فما هي مزية هذه العقيدة؟ وإذا كان له امتياز عند الله تعالى في نفس الجزاء فأين العدل الإلهي؟

(٦) ما رأينا أحداً من العقلاء، ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه، أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه، ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل، وترى المؤمنين بالله من الأمم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ٤٨] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقد علم مما ذكرناه من تزكية النفس وتدسيتها بعمل الإنسان، وكسبه الاختياري إن الجزاء في الآخرة لازم للتزكية والتدسية مرتبٌ عليهما ترتب المسبب على السبب والمعلول على العلة بفضل الله وحكمته ومقتضى سنته في خلقه، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: ٢٦١] ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

أليست هذه التعاليم الإسلامية هي التي ترفع قدر الإنسان، وتعلي همته وتحفزه إلى طلب الكمال بإيمانه وإخلاصه وأعماله الصالحة؟ أليست أفضل وأنفع من الإتكال على تلك القصة الصليبية المأثور مثلها عن خرافات الوثنيين، التي لا يصدقها عقل مستقل، ولا

يطمئن بها قلب سليم، المخالفة لسنن الفطرة ونظام الخلقة، التي أفسدت العقول والأخلاق في الممالك الصليبية منذ شاعت فيها بنفوذ الملك قسطنطين الصليبي إلى أن عتقت أوربة من ورق الكنيسة بنور العلم والاستقلال اللذين أشرقا عليها من بلاد الإسلام (ولكن واأسفاه على ذلك النور الذي ضرب بينه وبين أهله بسور له بابا، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، وواشوقاه إلى اليوم الذي يندك فيه هذا السور الذي حجبهم عن القرآن).

عقيدة الصلب والفداء وثنية: اعترف أمامنا كثير من الذين قالوا إنهم نصارى بأن كلاً من هذه العقيدة وعقيدة التثليث لا تعقل، وإن العمدة في إثباتهما عندهم النقل عن كتبهم المقدسة، فلما كانت تلك الكتب ثابتة عندهم وجب أن يقبلوا جميع ما فيها سواء عقل أم لم يعقل. ويقول بعضهم إن كل دين من الأديان فيه عقائد وأخبار يجزم العقل باستحالتها ولكنها تؤخذ بالتسليم.

ونحن نقول إنه ليس في عقائد الإسلام شيء يحكم العقل باستحالته، وإنما فيه أخبار عن عالم الغيب لا يستقل العقل بمعرفتها لعدم الاطلاع على ذلك العالم ولكنها كلها من الممكنات أخبر بها الوحي فصدقناه. فالإسلام لا يكلف أحداً أن يأخذ بالمحال. وأما نقلهم هذه العقيدة عن كتبهم (وسيأتي البحث فيه) فهو معارض بنقل مثله عن كتب الوثنيين وتقاليدهم. فهذه عقيدة وثنية محضة سرت إلى النصارى من الوثنيين كما بينه علماء أوربة الأحرار، ومؤرخوهم، وعلماء الآثار والعاديّات منهم في كتبهم. قال (دوان) في كتابه خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى (ص ١٨١ و ١٨٢) ما ترجمته بالتلخيص:

«إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهنود الوثنيين وغيرهم»، وذكر الشواهد على ذلك. منها قوله «يعتقد الهنود أن كرشنا المولود البكر ـ الذي هونفس الإله فشنو الذي لا ابتداء له ولا انتهاء على رأيهم ـ تحرك حنّوا كي يخلص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وخلص الإنسان بتقديم نفسه ذبيحة عنه». وذكر أن (مسترمور) قد صور كرشنا مصلوباً كما هو مصور في كتب الهنود مثقوب اليدين والرجلين، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً. ووجدت له صورة مصلوباً وعلى رأسه إكليل من الذهب. والنصارى تقول إن يسوع صلب وعلى رأسه أكليل من الشوك.

وقال (هوك) في ص ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته: «ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد أحد الآلهة وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس من الخطيئة»

وقال (مورينورليمس) في ص ٣٦ من كتابه (الهنود): ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية. ومما يدل على ذلك ما جاء في مناجاتهم وتوسلاتهم التي يتوسلون بها بعد «الكياتري»، وهو «إني مذنب ومرتكب الخطيئة وطبيعتي شريرة وحملتني أمي بالإثم فخلصني يا ذا العين الحندقوقية يا مخلص الخاطئين من الآثام والذنوب».

وقال القس جورج كوكس في كتابه (الديانات القديمة) في سياق الكلام عن الهنود: «ويصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتاً لأنه قدم شخصه ذبيحة». ونقل هيجين عن (اندرادا الكروزويوس)، وهو أول أوربي دخل بلاد النيبال والتبت أنه قال في الإله (اندرا) الذي يعبدونه إنه سفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير لكي يخلص البشر من ذنوبهم. وإن صورة الصليب موجودة في كتبهم. وفي كتاب جورجيوس الراهب صورة لإله (أندرا) هذا مصلوباً، وهو بشكل صليب أضلاعه متساوية العرض متفاوتة الطول فالرأسي أقصرها (وفيه صورة وجهه) والسفلي أطولها، ولولا صورة الوجه لما خطر لمن يرى الصورة إنها تمثل شخصاً.

هذا وأما ما يروى عن البوذيين في (بوذه) فهو أكثر انطباقاً على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه، حتى إنهم يسمونه المسيح، والمولود الوحيد، ومخلص العالم، ويقولون إنه إنسان كامل وإله كامل تجسد بالناسوت، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر، ويخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقبوا عليها، ويجعلهم وارثين لملكوت السموات. بين ذلك كثير من علماء

الغرب منهم (بيل) في كتابه (تاريخ بوذه)، و(هوك) في رحلته، و(مولر) في كتابه تاريخ الآداب السنسكريتية، وغيرهم.

ومن أراد المقابلة بين إله النصارى وآلهة الوثنيين الأولين في الشرق والغرب فعليه أن يقرأ كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (لمحمد طاهر التنير). فهل يتصور من مسلم هداه الله بالإسلام إلى التوحيد الخالص، والدين القيم دين العقل والفطرة المبني على تكريم نوع الإنسان أن يستحب العمى على الهدى فيرضى لنفسه التخبط في ظلمات هذه العقائد الوثنية؟؟

شبهات النصارى على إنكار الصلب: (الشبهة الأولى): يدعي بعضهم فيما يموّه به على عوام المسلمين أن مسألة الصلب متواترة فالعلم بها قطعي.

والجواب عن هذه الشبهة أن دعوى التواتر ممنوعة، فإن التواتر عبارة عن إخبار عدد كثير لا يجوز العقل اتفاقهم وتواطأهم على الكذب بشيء قد أدركوه بحواسهم إدراكاً صحيحاً لا شبهة فيه، وكان خبرهم بذلك متفقاً لا اختلاف فيه، هذا إذا كان التواتر في طبقة واحدة رأوا بأعينهم شيئاً (مثلاً) وأخبروا به. فإن كان التواتر في طبقات كان ما بعد الأولى مخبراً عنها، ويشترط أن يكون أفراد كل طبقة لا يجوز عقل عاقل تواطؤهم على الكذب في الأخبار عمن قبلهم، وأن يكون كل فرد من كل طبقة قد سمع جميع الأفراد الذي يحصل بهم التواتر ممن قبلهم. وأن يتصل السند هكذا إلى الطبقة الأخيرة، فإن اختل شرط من هذه الشروط لا ينعقد التواتر.

وأنى للنصارى بمثل هذا التواتر، والذين كتبوا الأناجيل والرسائل المعتمدة عندهم لا يبلغون عدد التواتر، ولم يخبر أحد منهم عن مشاهدة، ومن تنقل عنه المشاهدة كبعض النساء لا يؤمن عليه الاشتباه والوهم، بل قال يوحنا في إنجيله: أن مريم المجدلية وهي أعرف الناس بالمسيح اشتبهت فيه وظنت أنه البستاني. وهو قد كان صاحب آيات، وخوارق عادات، فلا يبعد أن يلقى شبهه على غيره، وينجو بالتشكل بصورة غير صورته، كما رووا عنه أنه قال لهم إنهم يشكون فيه، وكما قال مرقس: إنه ظهر لهم بهيئة أخرى. ثم إن ما عزي إليهم لم ينقله عنهم عدد التواتر بالسماع منهم طبقة بعد طبقة إلى العصر الذي صار للنصارى فيه ملك وحرية يظهرون فيهما دينهم. وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي وغيره انقطاع أسانيد هذه الكتب بالبينات الواضحة. وسيأتي في هذا السياق ما يدل على عدم الثقة بها.

(الشبهة الثانية): يقولون لو لم تكن هذه القصة متواترة متفقاً عليها لوجد فيهم من أنكرها كما وجدت فيهم فرق خالفت الجمهور في أصول عقائده كالتثليث، ولم تخالفه في هذه العقيدة.

والجواب عن هذا عسير على من يجهل تاريخهم، يسير على المطلع عليه، فقد أنكر الصلب منهم فرقة السيرنثيين والتاتيانوسيين اتباع تاتيانوس تلميذ يوستينوس الشهيد، وقال فوتيوس: إنه قرأ كتاباً يسمى رحلة الرسل فيه أخبار بطرس، ويوحنا، واندراوس، وتوما، وبولس، ومما قرأه فيه «إن المسيح لم يصلب، ولكن صلب غيره، وقد ضحك بذلك من صالبيه» هذا وإن مجامعهم الأولى قد حرمت قراءة الكتب التي تخالف الأناجيل الأربعة والرسائل التي اعتمدتها فصار أتباعهم يحرقون تلك الكتب ويتلفونها، وإننا نرى ما سلم بعض نسخه منها كإنجيل برنابا ينكر الصلب، وما يدرينا أن تلك الكتب التي فقدت كانت تنكره أيضاً. فنحن لا ثقة لنا باختيار المجامع لما اختارته فنجعله حجة ونعدّ ما عداه كالعدم: على أن عدم العلم بالمنكرين لا يقتضي عدم وجودهم، وعدم وجودهم لا يقتضي أن يكون ما اتفقوا عليه بتقليد بعضهم لبعض ثابتاً في نفسه.

(الشبهة الثالثة): يقولون إن الأناجيل ورسائل العهد الجديد قد أثبتت الصلب وهي كتب مقدسة معصومة من الخطإ فوجب اعتقاد ما أثبتته.

ونقول: (أولاً): لا دليل على عصمة هذه الكتب ولا على أن كاتبيها كانوا معصومين، و(ثانياً): لا دليل على نسبتها إلى من نسبت إليهم لأنها غير متواترة كما تقدم، و(ثالثاً): إنها معارضة بأمثالها كإنجيل برنابا وترجيحهم إياها على هذا الإنجيل لا يصلح مرجحاً عندنا لأنهم اتبعوا

في اعتمادها تلك المجامع التي لا ثقة لنا بأهلها، ولا كانوا معصومين عندهم ولا عندنا، و(رابعاً): أنها متعارضة في قصة الصلب وفي غيرها، و(خامساً): أنها معارضة بالقرآن العزيز وهو الكتاب الإلهي الذي ثبت نقله بالتواتر الصحيح دون غيره، فقصارى تلك الكتب أن تفيد الظن بالقرائن كما قال تعالى ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ والقرآن قطعي فوجب تقديمه لأنه يفيد العلم القطعي.

أن بعض المسلمين يصدقون دعاة النصرانية ومجادليهم في زعمهم أن هذه الأناجيل محفوظة عندهم من عهد المسيح إلا الآن، وإنها مسلمة عند جميع فرقهم ومعروفة عند غيرهم، فلم يكن يختلف فيها اثنان، ولكن من طالع كتبهم التاريخية والدينية يعلم أن هذه الدعوى باطلة. وإنما يصدقهم المسلمون الجاهلون لتوهم أن النصرانية نشأت كالإسلام في مهد القوة والعزة والمدنية والحضارة، فأمكن حفظ كتبها كما أمكن حفظ القرآن. وشتان بين الأمتين في نشأتهما شتان. وإليك نزراً من البيان، وإن شئت المزيد من مثله فارجع إلى الكتب المؤلفة في هذا الشأن.

الدلائل على عدم الثقة بالأناجيل: ألف (سلسوس) من علماء الوثنيين في القرن الثاني للميلاد كتاباً في أبطال الديانة النصرانية قال فيه كما نقل عنه (أكهارن) من علماء ألمانية ما ترجمته: «بدل النصارى أناجيلهم ثلاث مرات، أو أربع مرات، بل أكثر من هذا تبديلاً كأن مضامينها بدلت».

وفي كتبهم أن الفرقة الأبيونية من فرق النصارى في القرن الأول للميلاد كانت تصدق بإنجيل متى وحده، وتنكر ما عداه، ولكن كان ذلك الإنجيل مخالفاً لإنجيل متى الذي ظهر بعد ظهور قسطنطين. وأن الفرقة المارسيونية من فرق النصارى القديمة كانت تأخذ بإنجيل لوقا، وكانت النسخة التي تؤمن بها مخالفة للموجودة الآن، وكانت تنكر سائر الأناجيل وهي عندهم من المبتدعة.

وفي رسالة بولس إلى أهل غلاطية ما نصه (١: ٦ إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعا عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعجونكم، ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح)، هكذا في ترجمة البروتستانت الأخيرة (يحولوا)، وفي الترجمة القديمة التي نقل عنها كثيرون «يحرفوا»، وفي ترجمة الجزويت «يقلبوا»، والمعاني متقاربة تدل كلها على أنه كان في عهد بولس قوم يدعون الناس إلى إنجيل غير الذي يدعو هو إليه، ومعنى كونه غيره أنهم حرفوه أو قلبوه حتى صار كأنه انجيل آخر. وكما اعترف بولس بهذا اعترف بأنه كان يوجد في عصره رسل كذابون غدارون تشبهوا برسل المسيح، صرح بذلك في رسالته الثانية إلى أهل كورنيثيوس فقال (١١: ١٣ لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى رسل المسيح، ولا عجب لأن الشبطان يغير شكله إلى ملاك نور فليس عظيماً إذا كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم كخدام للبر).

وفي سفر الأعمال تصريح بأن بعض اليهود كانوا ينبثون بين المسيحيين ويعلمونهم غير ما يعلمهم رسل المسيح، وأن الرسل والمشايخ أرسلوا بولس وبرنابا إلى أنطاكية لتحذير إخوانهم فيها من الذين يوصونهم بالختان، وحفظ الناموس الذي لم يأمروهم به، كما ذكر في الفصل ١٥ منه، وفي آخره أنه حصلت مشاجرة هنالك بين بولس وبرنابا وافترقا. ومن المعلوم أن بولس كان عدو المسيحيين وخصمهم، وأنه لما ادعى الإيمان لم يصدقه جماعة المسيح عليه السلام ولولا أن شهد له برنابا لما قبلوه. وبرنابا يقول في أول إنجيله أن بولس نفسه كان من الذين بشروا بتعليم جديد غير تعليم المسيح. فمع أمثال هذه النصوص في أمهات كتبهم المقدسة كيف يمكن للمسلم أن يثق بها.

ومن الشواهد على التعارض والتناقض في قصة الصلب منها أن أصل هذه العقيدة أن المسيح بذل نفسه باختياره فداء وكفارة عن البشر، مع أن هذه الأناجيل تصرح بأنه حزن واكتئب عندما شعر بقرب أجله، وطلب من الله أن يصرف عنه هذه الكأس. ففي متى: (٢٦: ٣٧ ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب ٣٨ فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت امكثوا هنا واسهروا معي ثم

تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما (تريد) أنت. . . فمضى أيضاً ثانية وصلى قائلاً: يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك) ومثل هذا في لوقا: (٢٢: ٤٣ ـ ٤٥) فكيف يقول المسيح هذا وهو إله عندهم فهل يمكن أن يجهل ما يمكن وما لا يمكن، وأن يطلب إبطال الطريقة التي أراد الآب ـ وهو هو عندهم ـ أن يجمع بها بين عدله ورحمته؟؟

ومن الشواهد عليها مسألة اللصين اللذين قالوا إنهما صلبا معه. قال مرقس: (١٥: ٢٧ وصلبوا معه لصين واحداً عن يمينه، وآخر عن يساره فتم الكتاب القائل: واللذان صلبا معه كانا يعيرانه. وكذلك قال متى: (٢٧: ٤٤) وأما لوقا فقد سمى الرجلين اللذين صلبا معه مذنبين، ولكنه قال: (٢٣: ٣٩ وكان واحد من المذنبين المعلقين معه يجدّف عليه قائلاً: إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا فأجاب الآخر وانتهره» إلخ، وفيه أن المسيح بشر هذا بأنه يكون معه في الفردوس ذلك اليوم، فكانت نبوة الكتاب (المراد به أشعيا) إنه يصلب مع أثمة بصيغة الجمع ثم كان الجمع اثنين ولا بأس بذلك. ولكن كيف يقول اثنان من الإنجيليين المعصومين على رأيهم أن الذي عيره وأهانه هو أحدهما والآخران، وهما مثله في عصمته يقولان بل كلاهما عيراه؟ ومثل هذه المخالفات والمعارضات في هذه القصة كثيرة، ومن أظهرها مسألة دفنه ليلة السبت وقيامه من القبر قبل فجر يوم الأحد. مع أن البشارة أنه يكون في بطن الأرض ثلاثة أيام بلياليها وهي مدة يونان في بطن الحوت. ومنها مسألة النساء اللواتي جئن القبر وفيها عدة خلافات في وقت المجيء ورؤية الملك أو الملكين ورؤيته هو إلخ.

(الشبهة الرابعة): قولهم إن كتب العهد العتيق قد بشرت بمسألة الصلب ونوهت بها تنويهاً.

ونحن نقول إن هذا غير مسلّم بل أنتم الذين تأولتم عبارات من تلك الكتب، وجعلتموها مشيرة إلى هذه القصة ـ وكما قال السيد جمال الدين أنكم فصلتم قميصاً من تلك الكتب وألبستموها للمسيح. كما أنكم تدعون أن الذبائح الوثنية كانوا يشيرون بها إلى صلب المسيح فكأن جميع خرافات البشر وعباداتهم حجج لكم على عقيدتكم هذه وإن كانوا قد سبقوكم إلى مثلها. على أن كثيراً من تلك العبارات حجة عليكم لا لكم كما هو مبسوط في محله.

(الشبهة الخامسة): يقولون إذا جاز أن يشتبه في المسيح ويجهل شخصه الجنود الذين جاؤا للقبض عليه والحكام ورؤساء الكهنة الذين طلبوا صلبه بعد القبض عليه، فهل يجوز أن يشتبه في ذلك تلاميذه ومريدوه الذين يعرفونه حق المعرفة؟ ونقول إن الجواب عن هذا من وجهين (أحدهما): أنه عهد بين الناس أن يشبه بعضهم بعضاً شبهاً تاماً بحيث لا يميز أحد المتشابهين المعاشرون والأقربون. وقد يكون هذا بين الغرباء كما يكون بين الأقربين. ولعله يقل في الذين يسافرون ويتقلبون بين الكثير من الناس من لم يقع له الاشتباه بين من يعرف ومن لا يعرف. وقد وقع لي غير مرة أن أسلم على رجل غريب اشتبه عليّ بصديق لي ثم اعرف بعد الحديث معه أنه غيره. وإننا لزيادة البيان نورد قليلاً من الشواهد عن الإفرنج الذين يثق دعاة النصرانية عندنا بهم ما لا يثقون بغيرهم لأن هؤلاء الدعاة من أبناء جنسهم أو مقلدتهم.

قال صاحب كتاب التربية الاستقلالية (إميل القرن التاسع عشر) حكاية عن كتاب كتبته امرأة الدكتور إراسم إلى زوجها ما نصه: «لقد كثر ما لاحظت أنه يوجد في بعض الأحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والأنوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين أفراد أسرة واحدة مع أن كلاً منهما يكون أجنبياً من الآخر من كل الوجوه. أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون؟ ذلك هو صديقك يعقوب نقولا، خلتني أراه بذاته في زي امرأة» أه فهذا مثال لرأي الكاتب في تشابه الناس. وفي رسالة نشرت في المجلد الحادي عشر من المنار ما نصه (٣٦٨):

«ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على أنه كثيراً ما يحدث للناس

الخطأ في معرفة بعض الأشخاص ويشتبهون عليهم بغيرهم، وقد ذكر «جاي»، و«فرير» مؤلفا (كتاب أصول الطب الشرعي) في اللغة الإنكليزية حادثة استحضر فيها ١٥٠ شاهداً لمعرفة شخص يدعى «مارتين جير» فجزم أربعون منهم أنه هو هو، وقال خمسون إنه غيره، والباقون ترددوا جدّاً ولم يمكنهم أن يبدوا رأياً، ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون، وعاش مع زوجة مارتين محاطاً بأقاربه وأصحابه ومعارفه مدة ثلاث سنوات وكلهم مصدقون أنه مارتين، ولما حكمت المحكمة عليه لظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى، فأحضر ثلاثون شاهداً آخرون فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين، وقال سبعة أنه غيره وتردد الباقون. وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩ في فرنسة وأمثالها كثير. «وقد بلغ من شبه بعض الأشخاص لغيرهم أن وجد فيهم بعض ما يوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور أو الجروح أو آثارها وغير ذلك حتى تعسر تمييز بعضهم عن بعض ولذلك جد الأطباء في وضع مميزات لأشخاص البشر المختلفين أه.

(الوجه الثاني): أن هذه الحادثة من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى ابن مريم وأنقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره وغير شكله هو، فخرج من بينهم وهم لا يشعرون. وفي أناجيلهم وكتبهم جمل متفرقة تؤيد هذا الوجه أشرنا إلى بعضها من قبل (منها): قوله لهم إنهم يشكون فيه يومئذ، (ومنها): أنه يتشكل بغير شكله، (ومنها): أنه طلب من الله أن يعبر عنه هذه الكأس أي قتله وصلبه إن أمكن. ولا شك أن هذا من الممكنات الخاضعة لمشيئة الله وقدرته.

ويمكن أن يستدل على استجابة الله لدعائه بقول يوحنا حكاية عنه في سياق قصة الصلب من آخر الفصل ١٦ «ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» قال هذا بعد إخبارهم بأنه تأتي ساعة يتفرقون عنه، ويبقى وحده، ولكن الله يكون معه، أي بعونه وحفظه. وفي هذا المعنى قول متى (٢٦: ٥٦ حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا)، وقول مرقص (١٤: ٥٠ فتركه الجميع وهربوا)، فهذا نص في أن التلاميذ كلهم هربوا حين جاء الجند ليقبضوا على المسيح فلم يكن الذين يعرفونه حق المعرفة هنالك.

ومما يدل على استجابة الله دعوته بأن ينقذه ويعبر عنه تلك الكأس عبارة المزمور ١٠٩ التي يقولون إن المراد بها المسيح وهذا نصها: «٢٦ أعني يا رب إلهي خلصني حسب رحمتك، وليعلموا أن هذه يدك أنت يا رب فعلت هذا أما هم فيلعنون، وأما أنت فتبارك، قاموا وخزوا، أما عبدك فيفرح ليلبس خصمائي خجلاً، وليتعطفوا بخزيهم كالرداء احمد الرب جداً بفمي، وفي وسط كثيرين اسبحه لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلصه من القاضين على نفسه». وفي العبارات التي يحملونها على المسيح شواهد أخرى بمعنى هذا.

(الشبهة السابعة): يقولون: إذا كان المسيح قد نجا من أعدائه بعناية إلهية خاصة، فأين ذهب؟ ولماذا لم يقف له أحد على عين ولا أثر؟

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على الذين يقولون أنه رفع بروحه وجسده إلى السماء، وإنما ترد على الذين قالوا إن الله توفاه في الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام. ويقول هؤلاء لا غرابة في الأمر فإن أخاه موسى عليه السلام كان بين الألوف من قومه، الخاضعين لأمره ونهيه، وقد انفرد عنهم، ومات في مكان لم يعرفه أحد منهم، فكيف يستغرب أن يفرّ عيسى عليه السلام من قوم أعداء له لا ولي له فيهم ولا نصير إلا أفراداً من الضعفاء، قد انفضوا من حوله وقت الشدة وأنكره أمثلهم (بطرس) ثلاث مرات؟ لأبد إذا ذهب إلى مكان مجهول ومات فيه كما مات موسى (عليهما السلام)، ولم يعرف قبره أحد، كما هو منصوص في آخر سفر تثنية الاشتراع من أسفار التوراة. ومن الناس من يزعم أن قبر المسيح الذي دفن فيه بعد موته قد اكتشف في الهند كما سيأتي.

قول بعض النصارى بعدم موت المسيح بالصلب: رووا أن القبر الذي دفن فيه المصلوب وجد في صباح الأحد خالياً واللفائف ملقاة، وأن اليهود والوثنيين لما علموا بذلك قالوا إن الجثة سرقت. ويروى عن بعض المدققين

من علماء أوربة الأحرار، وكذا الذين يسمون المسيحيين العقليين أن الذي صلب لم يمت بل أغمي عليه فلما أنزل ولف باللفائف، ووضع في ذلك الناووس أفاق وألقى اللفائف حتى إذا جاء الذين رفعوا الحجر لافتقاده خرج واختفى عن الناس حتى لا يعلم به أعداؤه. ومما أوردوا من التقريب على هذا أن المصلوب لم يجرح منه إلا كفاه ورجلاه وهي ليست من المقاتل، ولم يمكث معلقاً إلا ثلاث ساعات، وكان يمكن أن يعيش على هذه الصفة عدة أيام، وأنه لما جرح بالحربة خرج منه دم وماء، والميت لا يخرج منه ذلك، بل قالوا إن ذلك لم يكن صلباً تاماً كالمعتاد في تلك الأزمنة.

ومن النقول المصرحة بشيوع هذا الرأي ما جاء في (ص ٥٦٣ من كتاب ذخيرة الألباب، في بيان الكتاب) وهو: «فللكفرة والجاحدين في تكذيب تلك المعجزة مذاهب شتى... فمنهم من استفزتهم مع بهردواكّ، وبولس غلبت حماقة الجهل ووساوس الكفر إلى أن قالوا إن يسوع نزل عن الصليب حياً ودفن في القبر حياً».

وقال (في ص ٥٦٤ منه): أن اليهود والوثنيين وهم أعداء المسيح ودينه الحق قد توغلوا في بيداء الهذيان، وتمادوا في إغواء ضلالهم حتى قالوا إن تلاميذ يسوع رفعوا جسده خفية، وعلى حين غفلة من الحراس، وبثوا في القوم أنه انبعث حياً وعندهم أن ذلك كان شائعاً عند اليهود حين كتب القديس متى انجيله (عد ١٥ من فصل ٢٨ من متى) اهـ.

القول بهجرة المسيح إلى الهند وموته في بلدة (سِريْ نكرْ) في كشمير: يوجد في بلدة سري نكرا ونقر (والهنود تكتب نكر بالكاف المفخمة وهي كالجيم المصرية) مقبرة فيها مقام عظيم يقال هناك إنه مقام نبي جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسع مئة سنة يسمى يوزآسف، ويقال إن اسمه الأصلي عيسى صاحب (وكلمة صاحب في الهند لقب تعظيم كلقب أفندي عند الترك، ومستر ومسيو عند الإفرنج) وإنه نبي من بني إسرائيل وإنه ابن ملك. وأن هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم وتذكر في بعض كتبهم، وأن دعاة النصرانية الذين ذهبوا إلى ذلك المكان لم يسعهم إلا أن قالوا أن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله.

ذكر ذلك بالتفصيل غلام أحمد القادياني الهندي في كتابه الذي سماه (الهدى. والتبصرة لمن يرى) وذكر فيه أنه اكتفى بالإجمال، وأن تفصيل هذه المسألة يوجد في كتاب معروف هناك اسمه (إكمال الدين)، وذكر أكثر من سبعين اسماً من أسماء أهل ذلك البلد الذين قالوا إن ذلك القبر هو قبر المسيح عيسى ابن مريم. ورسم صورة المقبرة بالقلم، وإما قبر المسيح فوضعه في الكتاب بالرسم الشمسي (الفوتغرافي) مكتوباً عليه (مقبرة عيسى صاحب).

وغلام أحمد هذا يفسر الإيواء في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] بالهجرة إلى الهند واللجأ إلى تلك البلدة في كشمير، فإن الإيواء يستعمل في مقام الإنقاذ والتنجية من الهم والكرب والمصائب والمخاوف، واستشهد بقوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] وقوله ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦] وقوله حكاية عن ولد نوح ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣] والربوة لمكان المرتفع، وبلاد كشمير من أعلى بلاد الدنيا وهي ذات قرار مكين، وما معين، والمشهور عند المفسرين أن هذه الربوة هي رملة فلسطين أو دمشق الشام، ولو آوى الله المسيح وأمه إليهما، لما خفي مكانهما فيهما، لا سيما إذا كان ذلك بعد محاولة صلبه وتألب اليهود عليه، كما يدل عليه لفظ الإيواء الذي لم يستعمل في القرآن إلا في الأنقاذ من المكروه كما علم من الأمثلة المذكورة آنفاً، ومثلها قوله تعالى في الأنصار رضي الله عنهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وفي يوسف عليه السلام ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩] وفي آية أخرى ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩] ولم يكن المسيح قبل تألب اليهود

عليه والسعي لقتله وصلبه في مخافة يحتاج فيها إلى الإيواء في مأمن منه. ففراره إلى الهند وموته في ذلك البلد ليس ببعيد عقلاً ولا نقلاً.

(الشبهة الثامنة): يقولون إنكم تأخذون بقول إنجيل برنابا وغيره بالموضوع وأقوال مبتدعة النصارى الأولين الذين زعموا أن يهوذا هو الذي صلب لا المسيح، مع أن يهوذا قد انتحر كما ثبت في الإنجيل.

ونقول في الجواب اتفقت النصارى على القول بأن يهوذا الأسخريوطي هو الذي دل على يسوع المسيح وكان يهوذا هذا رجلاً عامياً من بلدة تسمى (خريوت) في أرض يهوذا تبع المسيح وصار من خواص أتباعه الذين يلقبونهم بالتلاميذ الاثني عشر الذين بشرهم بأنهم يكونون معه في الملكوت على اثني عشر كرسياً، ويدينون بني إسرائيل، أي يحاسبونهم في يوم الدين. ومن الغريب أن يهوذا كان يشبه المسيح في خلقه كما نقل (جورج سايل) الإنكليزي في ترجمته للقرآن المجيد فيما علقه على سورة آل عمران، وعزا هذا القول إلى (السيرنثيين والكربوكراتيين) من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شبهاً تاماً.

وقالوا إن يهوذا أسف وندم على ما كان من إسلامه المسيح إلى اليهود حتى حمله ذلك على بخع نفسه (الانتحار) فذهب إلى حقل وخنق نفسه فيه (متى ٢٧ : ٣ ـ ١٠) أو علقها (أعمال ١ : ١٨) وغرضنا من هذا الخبر بيان أنهم معترفون بأن يهوذا فقد بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود وأنهم يدعون أن سبب هذا هو قتل نفسه من الحزن والأسف. واختلف الرسل في كيفية القتل وإن كانوا معصومين؟. ونحن نرى أنه إنما فقد لأنه هو الذي صلب، والمسيح هو الذي نجاه الله تعالى ورفعه، فإن الذي يحمله انفعاله وألم نفسه على أن يبخع نفسه بيده خنقاً أو شنقاً لا يستبعد منه أن يبسلها بالاستسلام إلى من يتولى ذلك عنه فإنه أهون عليه، فمن المعقول أن يكون يهوذا عندما دل اليهود على المسيح في الليل رأى بعينيه عناية الله تعالى بإنجائه وإنقاذه من بين أيديهم (كما أنجى أخاه محمد عليهما الصلاة والسلام من أيدي كفار قريش وكانوا أشد معرفة له من معرفة اليهود للمسيح ـ لأنهم لم يكونوا يحتاجون إلى بذل المال لمن يدلهم عليه كما بذلت اليهود ثلاثين قطعة من الفضة ليهوذا ـ فخرج ليلة الهجرة من بين الذين كانوا ينتظرونه عند داره ليقتلوه ولم يبصروه) فلما رأى يهوذا ذلك وعلم درجة عناية الله تعالى بعبده ورسوله عظم ذنبه في نفسه واستسلم للموت ليكفر الله عنه ذنبه كما كفر ذنب الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل بقتل أنفسهم فأخذوه وصلبوه من غير مقاومة تذكر. فرواية الإنجيل وسفر الأعمال عن وجدانه مخنوقاً أو مشنوقاً غير مسلمة وقد تعارض القولان فتساقطا ووجب اعتماد قول برنابا الذي أخذ به بعض قدماء النصارى.

وإذا كان إيمان يهوذا قوياً إلى هذه الدرجة درجة الانتحار والبخع من ألم الذنب فليت شعري لماذا لا تقبل توبته ولا ينفعه إيمانه حتى ادعوا أنه مات كافراً، وإن كرسيه في الملكوت سيبقى خالياً، وبشارة المسيح له لا تكون صادقة؟ ولماذا تقبل توبة بطرس الذي أنكر المسيح وتركه ولعنه المسيح في حياته وسماه شيطاناً، على أن توبته دون توبة يهوذا، وما كان يهوذا إلا متمماً لذريعة الفداء التي هي أساس الدين عندهم؟

(الشبهة التاسعة): يقولون إن المسيح قد قام من قبره بعد موته ودفنه وظهر للنساء ولتلاميذه ولأناس آخرين، وأرى بعضهم أثر المسامير في جسده، وقد اتفقت على قيامه جميع الأناجيل، فكيف يجمع بين هذا وبين القول بأن الذي صلب غيره. ونقول: (أولاً): إنه لا ثقة لنا برواية هذه الأناجيل، وبينا الدلائل على عدم الثقة بها بالاختصار، ومنها تعارضها في هذه المسألة ونبينها هنا بشيء من التطويل و(ثانياً): أنه يحتمل أن يكون لهذه الدعوى سبب ثم توسع القوم فيها كما هي عادتهم في الروايات عن العجائب والمستغربات، حتى تسنى لبولس ومريديه أن يفرغوها في هذا القالب الذي نراه في كتب العهد الجديد وسترى بيان هذا قريباً.

أما البيان الأول ففي إنجيل متى أن مريم المجدلية، ومريم الأخرى (أي أم يعقوب) جاءتا وقت الفجر لتنظرا

القبر فوجدتا الملك قد دحرج الحجر وجلس عليه فأخبرهما أن يسوع قام منه وسبق تلاميذه إلى الجليل وهناك يرونه. فذهبتا لتخبرا التلاميذ فلاقاهما يسوع وسلم عليهما وقال لهما كما قال الملك (راجع ٢٨ متى وهو الفصل الأخير).

وفي الفصل الأخير من مرقس أن النساء كن ثلاثة الثالثة سالومة، وإنهن جئن القبر عند طلوع الشمس، وأنهن رأين الحجر مدحرجاً ولم يقل كمتى أن الملك كان قاعداً عليه بل قال إنهن وجدن في القبر شاباً عن اليمين، وإنه قال لهن «اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس إنه يسبقكم إلى الجليل» فزاد عطف بطرس على التلاميذ. وقال إنهن هربن ولم يقلن لأحد شيئاً إذ أخذتهن الرعدة والحيرة وكن خائفات ثم قال إنه ظهر أولاً لمريم المجدلية (أي دون من كان معها خلافاً لمتى) فذهبت وأخبرت الذين كانوا معه فلم يصدقوا. ثم ظهر بهيئة أخرى لاثنين منهم وهما منطلقان إلى البرية. فأخبرا الباقين فلم يصدقوا «أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام» وهذا مما زاده على متى.

وأما لوقا فلم يقل إن النساء اللواتي جئن لافتقاد القبر هن الثلاث اللواتي ذكرهن مرقس، ولا الثنتان اللتين اقتصر عليهما متى بل ذكر إنهن نساء كن جئن من الجليل مع يوسف الذي دفن يسوع ونظرن القبر والدفن. وإنهن جئن أول الفجر لا عند طلوع الشمس كما قال مرقس، وإنهن وجدن الحجر مدحرجاً فدخلن القبر ولم يجدن الجسد فيه. ولم يقل إنهن وجدن شاباً فيه عن اليمين كما قال مرقس ولا الملك على الحجر خارجه كما قال متى. بل قال إنهن بينما كن متحيرات إذا رجلان وقفا بهن بثياب براقة وقالا لهن لماذا تطلبن الحي بين الأموات (وهذا تعبير قد يؤيد قول من قالوا إنه لم يمت وذكرهن بقوله إنه يسلم ويصلب وفي اليوم الثالث يقوم. ولم يأمرهن بأخبار التلاميذ بأن يسبقوه إلى الجليل وإنهم هناك يرونه، كما قال متى ومرقس. وقال إنهن رجعن «وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقين بهذا كله» فخالف مرقس الذي قال إنهن لم يقلن شيئاً. وقال إن هؤلاء النسوة هن مريم المجدلية ويونّا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن. وأن التلاميذ وجميع الباقين لم يصدقوهن إذ تراءى لهم كلامهن كالهذيان.

ثم ذكر أنه (أي يسوع) مشى مع اثنين منهم كانا منطلقين إلى قرية عمواس وهي على ٦٠ غلوة من أورشليم (خلافاً لمرقس الذي قال لاثنين منطلقين إلى البرية)، وقال إن أعينهما أمسكت عن معرفته. وإنهما ذكرا قصته، وإنه كان «إنساناً نبياً»، وإنه وبخهما ووصفهما بالغباوة وبطء القلوب في الإيمان، وأنهما ضيفاه في القرية، وإنه لما اتكأ معهما وأخذ خبزاً وبارك وكسّر، وناولهما. انفتحت أعينهما فعرفاه ثم اختفى عنهما، وأنهما في تلك الساعة رجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر (هكذا مع أن الظاهر أنهما منهم فيكون الباقي تسعة) مجتمعين هم والذين معهم، ويقولون إنه ظهر لسمعان. فأخبراهم خبرهما. ولم يلبث أن ظهر لهم وأكل معهم.

وأما يوحنا فقد خالف الثلاثة فذكر في الفصل ٢٠ أن مريم المجدلية جاءت إلى القبر باكراً والظلام باقٍ، فنظرت الحجر مرفوعاً، فركضت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه، وقالت لهما أخذوا السيد من القبر فركضا إلى القبر، ودخلا فيه فرأيا الأكفان موضوعة. وكانت مريم تبكي خارج القبر، ثم انحنت إلى القبر فنظرت ملاكين جالسين واحد عند الرأس والآخر عند الرجلين: وبعد الكلام معهما عن سبب بكائها التفتت إلى الوراء فنظرت يسوع واقفاً فلم تعرفه وظنت أنه البستاني. ثم تعرف إليها وأمرها أن تخبر التلاميذ بقوله «إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» فأخبرتهم.

ثم ذكر أن التلاميذ كانوا مجتمعين عشية ذلك اليوم والأبواب مغلقة خوفاً من اليهود، فجاء يسوع ووقف في الوسط وسلم عليهم. وأن توما لم يكن معهم فظهر له بعد ثمانية أيام. ثم ذكر في الفصل ٢١ أنه أظهر نفسه للتلاميذ على بحر طبرية، فلم يعرفوه أولاً ثم اصطادوا سمكاً بأمره وحضر غداءهم.

هذا ملخص دعوى قيام يسوع من القبر برواية الأناجيل الأربعة، ويرى المتأمل فيها أنها متعارضة متناقضة. ومن الغريب إنه لم يصرح أحد منهم بأنه ظهر لهم في الجليل كما نقلوا عنه وعن الملك أو الملكين. والقاعدة الأصولية في المتعارضين إذا لم يمكن الجمع بينهما ولا ترجيح أحدهما على الآخر أن يقال «تعادلا فتساقطا»، وبهذه القاعدة التي لا مندوحة عن القول بها في هذه القصة وغيرها من التعارض في هذه الأناجيل اتقاء الوقوع في الترجيح بغير مرجح نقول: إن روايات الأناجيل الأربعة ساقطة لا يعتد بشيء منها. فهذا هو بيان الوجه الأول من وجهي الجواب.

وأما الوجه الثاني المبني على احتمال أن يكون لهذه الدعوى سبب أو أصل بني عليه فبيانه أنه يحتمل أن يكون قد شاع في ذلك الوقت أن يسوع قد قام من قبره، وأنه رآه بعض النساء وبعض تلاميذه، واضطربت الأقوال في ذلك فكتب كل مؤلف انجيل ما سمعه. وأن يكون سبب الإشاعات تخيل مريم المجدلانية العصبية المزاج (التي روت هذه الأناجيل أن المسيح أخرج منها سبعة شياطين) أنها رأت المسيح وكلمته. ويجوز أن تكون الرؤية الخيالية اتفقت لغيرها أيضاً من التلاميذ أو غيرهم بعد أن سمعوها منها، ومثل هذا يقع كثيراً كما سيأتي بيانه بالشواهد.

وأمثال هؤلاء العامة لا يقدرون على التمييز بين الحقيقة والخيال. ألم تر أنهم يروون أن المسيح وبخهم على غباوتهم وضعف إيمانهم بعد أن كانوا عاشروه زمناً رأوا فيه ما أيده الله تعالى به من الآيات، أو لم تر أنهم ما كان بعضهم يصدق بعضاً، بل يتهم بعضهم بعضاً بالكذب والهذيان، وأنهم لضعفهم تركوا نبيهم وقت الشدة، وأنكره أمثلهم وارتشى عليه بعضهم؟ فأمثال هؤلاء الصيادين والنساء لا يستغرب منهم عدم التمييز بين الحقيقة والخيال، وطالما وقع مثل ذلك في حال الانفعالات العصبية للناس، كالحزن والخوف والعشق، يتراءى للإنسان في مثل هذه الأحوال شخص يكلمه زمناً طويلاً أو قصيراً كما يحصل في الرؤى والأحلام. وبعضهم يعد هذا من رؤية الأرواح، وقد راجت سوق هذه المسألة في أوربة في هذا العصر، حتى صاروا يزعمون أن فيهم من يستحضر الروح، وكان هذا معروفاً في الزمن السابق، ولذلك احترس عنه بعض مؤلفي هذه الأناجيل، فقال إنه لما ظهر لهم خافوا وظنوا أنهم يرون روحاً فنفى هو ذلك.

وقد كنا بينا هذه المسألة في كتابنا (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية) الذي ألفناه في زمن التحصيل. ومما قلناه فيه أن الصوفية يفرقون بين رؤية الأرواح والرؤية الخيالية. ومما أوردناه عن صاحب كتاب (الذهب الابريز) من القسم الثاني واقعة جرت في بلدهم (فاس) قال: أخبرني بعض الجزارين إنه مات له ولد كان يحبه كثيراً، وأنه لم يزل شخصه في فكره حتى إن عقله وجوارحه كانت كلها معه، فكان هذا دأبه ليلاً ونهاراً إلى أن خرج ذات يوم إلى باب الفتوح أحد أبواب فاس، حرسها الله تعالى، لشراء الغنم على عادة الجزارين فجال فكره في أمر ولده الميت، فبينما هو يجول فكره فيه إذ رآه عياناً وهو قادم إليه حتى وقف إلى جنبه. قال فكلمته وقلت له: يا ولدي خذ هذه الشاة ـ لشاة اشتريتها ـ حتى أشتري أخرى، وقد حصلت غيبة قليلة عن حسي. فلما سمعني من كان قريباً أتكلم مع الولد قالوا: مع من تتكلم أنت؟ فلما كلموني رجعت إلى حسي وغاب الولد عن بصري، فلا يدري ما حصل في باطني من الوجد عليه إلا الله تبارك وتعالى، إهـ.

وما كل من يقع له مثل هذا يعلم أن هذه رؤية خيالية كالرؤيا المنامية. وإنني أعرف امرأة كبيرة السن من أهل بلدنا (القلمون) كانت دائماً ترى الموتى وتخاطبهم وتأنس بخطابهم تارة، ويظهر عليها الانقباض أخرى. وكان أكثر حديثها مع أخ لها مات غريقاً. وكنت أجزم أنا وكل من عرفها بأنها غير كاذبة ولا متصنعة بل كانت هائمة في ذلك ولا تبالي بشيء.

ولا يغرن العاقل انتشار أمثال هذه الإشاعات بين العامة، وجعلها من القضايا المسلمة، فإن هذا معهود في الناس في كل عصر، وقد بينه الفيلسوف العالم الاجتماعي غوستاف لوبون الفرنسي بياناً علمياً في الفصل الثاني من

كتابه (روح الاجتماع) ومما قاله في بيان قابلية الجماعات للتأثر والتصديق وانخداع الحواس والفكر ما يأتي ملخصاً:

«إن سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد في اختراع الأقاصيص التي تنشر بين الناس بسرعة، بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذي يعتور الحوادث في مخيلة المجتمعين، إذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتنقلب صورتها في خيال الجماعة بلا إبطاء، لأن الجماعة تفكر بواسطة التخيلات، وكل تخيل يجر إلى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة. . .

«ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التي تدخلها الجماعة على حادثة شاهدتها، وتنوع تلك الصور لأن أمزجة الأفراد الذين تتكون هي منهم مختلفة متباينة بالضرورة. لكن المشاهد غير ذلك، والتشويش واجب عند الكل بعامل العدوى، لأن أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة تنتشر منه العدوى إلى البقية. فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولاً فما لبث التأثر والعدوى أن مثلاه للبقية جسماً مرئياً.

«هكذا وقعت جميع التخيلات الإجماعية الكثيرة التي رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس»، «ولا ينبغي في ردّ ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراجح والذكاء الوافر لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا إذ العالم والجاهل سواء في عدم القدرة على النظر والتمييز ما داموا في الجماعة، ورب معترض يقول: إن تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك إلا أن بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية، ولا يكفي لهذا العمل عدة مجلدات غير أني لا أريد أن أترك القارىء أمام قضايا لا دليل عليها، ولذلك سآتي ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين الألوف من الحوادث التي يمكن سردها.

«وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة في موضوعها لأنها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت إلى صفوفها من الأفراد صفوفاً وأنواعاً ما بين جاهل غبي، وعالم ألمعي، رواها عرضاً ربان السفينة (جوليان فيليكس) في كتابه الذي ألفه في مجاري مياه البحر وسبق نشرها في (المجلة العلمية) قال:

«كانت المدرعة (لابيل بول) تبحث في البحر عن الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انقطعت عنها بعاصفة شديدة، وكان النهار طالعاً والشمس صافية، وبينما هي سائرة إذا بالرائد يشير إلى زورق يساوره الغرق، فشخص رجال السفينة إلى الجهة التي أشير إليها، ورأوا جميعاً من عساكر وضباط زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة. وكل ذلك كان خيالاً فقد أنقذ الربان زورقاً صار ينهب البحر انجاداً للبائسين. فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط أكداساً من الناس يموجون ويمدون أيديهم، وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عديدة، حتى إذا بلغوا المرئي وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطىء القريب، وإذ تجلت الحقيقة غاب الخيال.

«هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذي يتولد في الجماعة بحال لا تحتمل الشك ولا الإبهام ـ كما قرناه من قبل ـ فهنا جماعة في حالة الانتظار والاستعداد، وهناك رائد يشير إلى وجود مركب حفه الخطر وسط الماء، فذلك مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من في الباخرة من عساكر وضباط بالقبول والإذعان».

ثم بين المؤلف أن مثل هذا الإنخداع يقع للجماعات المؤلفة من العلماء فيما هو بعيد عن اختصاصهم العلمي. واستشهد على ذلك بالواقعة الآتية:

(قال) «ومن الأمثلة على ذلك ما رواه لنا (موسيو دافي) أحد علماء النفس المحققين وقد نشرته حديثاً مجلة (أعصر العلوم النفسية) وهو: دعا (موسيو دافي) جماعة من كبار أهل النظر منهم عالم من أشهر علماء انكلترة وهو (مسترولاس)، وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا، ثم أجرى أمامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح، والكتابة على الألواح، حتى كتبوا له شهادات قالوا فيها إن المشاهدات التي وقعت أمامهم لا تنال إلا بقوة فوق قوة البشر، فلما

صارت الشهادات في يده وبين لهم أن جميع ما عمله شعوذة بسيطة جداً. قال راوي الحادثة ليس الذي يوجب الدهش والاستغراب في هذه المسألة هو إبداع (دافي)، ومهارته في الحركات التي عملها، بل هوضعف الشهادات التي كتبها أولئك العلماء»، ثم استنتج المؤلف من ذلك أنه إذا كان انخداع العلماء بما لا حقيقة له واقعاً فما أسهل انخداع العامة!

ثم ذكر حادثة وقعت في أثناء كتابته لهذا البحث، وخاضت فيها جرائد باريس، وكان منشأ الانخداع فيها الشبه الذي هو موضوع بحثنا قال (في ص ٥٠ من النسخة العربية المترجمة).

«أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق بنتين صغيرتين وإخراج جثتهما من نهر (السين)، عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة مؤكدة، واتفقت أقوالهم فيها اتفاقاً لم يبق معه شك في نفس قاضي التحقيق، فأذن بدفنهما. وبينما الناس يتأهبون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما الشهود بالإجماع، وظهر أنهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين المفقودتين إلا شبه بعيد جداً. والذي وقع هو عين ما وقع في الأمثلة التي سردناها: تخيل الشاهد الأول أن الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك، فسرت عدوى التأثير إلى الباقي، اهـ.

تبين مما تقدم أن الإشاعات التي تبنى على تخيل بعض الناس كثيرة تقع في كل زمان ومكان. وينخدع بها العلماء كالعوام، وإنما بين غوستاف لوبون أنها جارية على سنن الاجتماع، وليست مما يجهل تعليله من الفلتات والشواذ. وإننا بعد كتابة ما تقدم بأيام جاءتنا مجلة المقتطف (الصادرة في ٢٣ المحرم من هذا العام ١٣٣١) فقرأنا في مقالة فيها عنوانها (مناجاة الأرواح والبحث في النفس): أن أربعة من علماء الإنكليز وكبار عقلائهم الثقات شاهدوا واقعة من وقائع مستحضري الأرواح احتاطوا فيها أشد الاحتياط لئلا تكون غشاً أو شعوذة، وكان الوسيط فيها، أي الذي يستحضر الروح، رجلاً اسمه (مستر هوم)، وقد شهد أولئك العلماء الثقات أنهم شاهدوا الروح المستحضر، فخاطب كلاً منهم باسمه وأجابه عما سأله عنه وأن أحدهم سأله: ألك جسم حقيقي أم أنت خيال؟ فقال إن جسمي أقوى من جسمك، فامتحنه بوضع أصبعه في فيه فألفاه حاراً وأسنانه صلبة حادة وعضه عضة صرخ من ألمها.

قال المقتطف بعد ذكر الواقعة أنه يحتمل أن تكون شعوذة من (مستر هوم)، أي وإن كان أولئك العلماء قد ربطوا يديه ورجليه بأسلاك من النحاس إلى كرسي متصل بالموقد موثقاً بذلك الرباط ولحموا الأسلاك بلحام معدني، وقالوا إنه لا يمكن لقوة بشرية أن تزيحه من مكانه ما لم تقطع الأسلاك المعدنية، ثم رأوه بعد مشاهدة الواقعة كما تركوه في قيوده وأغلاله.

(ثم قال المقتطف وهو محل الشاهد) «وإذا لم يكن (هوم) قد فعل ذلك فلا يستحيل أن يكون كوكس وكروكس وغلتون قد خدعوا كلهم، فرأوا ما لا يُرى، وسمعوا ما لا يُسمع لأنه كما يحتمل أن يفعل بعض الناس أفعالاً خارقة لا يستطيع غيرهم فعلها يحتمل أن يتخيل بعضهم أنهم يرون ويسمعون ما لا حقيقة له في الخارج، كيف لا والنائم والحادس يريان ويسمعان ما لا وجود له».

أقول فإذا جاز في رأي علماء العصر وفلاسفته أن ينخدع العلماء الطبيعيون وغيرهم بالتخيل فكيف لا يجوز أن ينخدع به مثل مريم المجدلية العصبية (الهستيرية)، وتوما وإخوانه من صيادي السمك. وإذا جاز أن يتخيل ضباط المدرعة (لابيل بول) وعسكرها وبحارتها زورقاً يساوره الغرق، فيجزمون بأنهم رأوه بأعينهم وهو مكتظ بالمستنجدين المستغيثين، وهم يرون أيديهم تومىء وتشير، ويسمعون جلبتهم بالصياح والضجيج، وإذا جاز أيضاً أن يتخيل جماهير الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس، فظنوا أنهم رأوه حقيقة، فلماذا لا يجوز مثل هذا التخيل في أولئك الأفراد الذين نقل عنهم أنهم رأوا المسيح بعد حادثة الصلب إن صحت الرواية على انقطاع سندها؟ وإذا جاز أن يجزم بضعة عشر شاهداً في البنتين اللتين غرقتا في نهر السين جزماً مبنياً على ما شبه لهم، فلماذا لا يجوز أن يجزم بمثل ذلك في يهوذا الذي كان يشبه المسيح، من لم يكونوا يعرفون المسيح.

وقع في عصرنا هذا واقعتان من قبيل مسألة رؤية المسيح ورؤية القديس جورج (إحداهما) وقعت في الشام منذ سنين، وهي أن رجلاً اسمه علي راغب اشتغل بالتصوف والرياضة فغلبت عليه الخيالات فكان إذا تخيل شيئاً مهما عنده يتمثل له كأنه حاضر بين يديه. وقد اشتغل زمناً بقراءة الأناجيل حتى كان يحفظ منها ما لا يكاد يحفظه أحد من النصارى، ثم إنه عاشر بعض النصارى في دمشق حتى كان يحضر كنائسهم، فكثر تخيله لقصة الصلب التي قرأها في الأناجيل، فرأى المسيح مرة متمثلاً أمامه بالصورة التي ذكروا أنه كان عليها عند الصلب، ورأى أثر المسامير في يديه، فاعتقد أن هذه الرؤية حسية حقيقية، وخطب في النصارى بذلك فصدقوه وقالوا إنه قدّيس. وشاعت المسألة ولغط الناس بها. ثم التقى الشيخ طاهر الجزائري بالشيخ راغب هذا، وتحدثا في المسألة فلم يفجأه الشيخ طاهر بالتخطئة، بل شغل باله وخياله بآيات المسيح، وبما كان له من القدرة على الظهور بأشكال مختلفة (كما ذكروا في الإنجيل)، وانتقل من هذا إلى مسألة إلقاء شبهه على يهوذا وما بينه الله تعالى من التشبيه لهم، فما زال يحدثه بمثل هذا حتى ذهب ولقصة الصلب في خياله صورة أخرى، فرأى المسيح متمثلاً أمامه وليس في يديه ولا غيرها أثر للصلب، فسأله عن حقيقة مسألة الصلب فقال له: ألقيت على يهوذا صورة من صوري فأخذوه وصلبوه. فذهب الشيخ راغب وخطب في النصارى بهذه الرؤية فنبذوه واعتقدوا أنه مجنون. فهذه الرؤية تشبه رؤية توما للمسيح عليه الصلاة والسلام.

وأما الواقعة الثانية فهي أن بعض الناس في هذه الأيام تخيل أن الشيخ المتبولي خرج من قبره المعروف بجوار محطة مصر، ووقف عل قبته ثم طار في الهواء ونزل على الكنيسة الجديدة التي ينشئها اليونانيون، ولما شاع هذا الخبر في القاهرة إجتمع خلق كثير من العامة عند الكنيسة، وصاروا يهتفون باسم المتبولي ففرقتهم الشرطة والشحنة بالقوة، وادعى كثيرون منهم أنهم رأوا المتبولي فيها. وروت بعض الجرائد اليومية أن مجذوباً من أبناء السبعين قال أنا المتبولي فصدقه الناس وصاروا يتبركون به. ولولا حزم الحكومة لحدث بين عوام المصريين واليونانيين من جرّاء هذه المسألة فتن سفكت فيها الدماء، ولكن الحكومة تداركت ذلك، وفرقت شمل الجماهير، وقبضت على بعضهم وحبستهم.

هذا وإن كثيراً من الصوفية الذين يناجون الأرواح يرون المسيح وأمه كثيراً. وقد تعرّف إلي بعضهم وهو أعجمي من أصحاب المظاهر الدنيوية يخفي تصوفه عن أقرانه وأخبرني أنه يرى أرواح الأنبياء ويتلقى عنهم علوماً يكتبها بالعربية، وأنه رأى عيسى ومريم عليهما السلام مراراً وتلقى عنهما، ومن ذلك أنه سأل مريم عن تمثل الملك لها ونفخه فيها فأجابته عن ذلك وأنه حصل من ذلك نحو ما يحصل بالزواج من التلقيح. وسألته أنا عن استحضار الأرواح الذي نسمعه عن الإفرنج هل هو مثل ما يذكره عن نفسه، ويؤثر عن الصوفية من قبله، فقال إن بعضه حيل وبعضه له أصل دون ما عندنا وأبعد عنه بمراحل. وأنا لا أتهم هذا الرجل بالكذب عن نفسه ولا أتهم الامام الغزالي فيما رواه عن نفسه من مثل ذلك أيضاً. وإنما أقول إذا كانت هذه الرؤية خيالية أيضاً كرؤية الشيخ راغب فهي تؤكد ما نحن فيه من جواز مثل ذلك على جماعة المسيح. وإن كانت حقيقة وهي ولا شك أعلى وأكمل مما يثبته الكثيرون من علماء الإفرنج فهي مصدقة لخبر القرآن في قصة المسيح، وناقضة لتلك العقيدة الخيالية، المقرر مثلها عند الأمم الوثنية.

حاصل المباحث والشك في وجود المسيح. حاصل هذه المباحث أن قصة الصلب ليس لها سند متصل إلى الأفراد الذين رويت عنهم، وأولئك الأفراد الذين رووها غير معروفين معرفة يقينية كما يعلم من دائرة المعارف الفرنسية، وغيرها من الكتب التي ألفها علماء أوربة الأحرار. وأن الذي يؤخذ من مجموع تلك الروايات المنقطعة الإسناد أن أول من وضع هذه العقيدة النصرانية المعروفة الآن هو بولس اليهودي الذي كان أشد أعداء المسيح عليه السلام وألد خصوم أتباعه خصاماً. ثم رأى أنه لا يتمكن من نكايتهم، وإفساد أمرهم، إلا بدخوله فيهم، ففعل. وعلى تقدير وقوع الصلب ورؤية المسيح

بعده فالذي يقرب من المعقول في تصويره هو ما بيناه.

ولا يروعنّ القارىء المستقل الفكر هذه الشهرة المنتشرة بانتشار النصارى في أقطار الأرض، وما لهم فيها من القوة والأيد، فإنما العبرة في إثبات الوقائع والحوادث كونه في زمن وقوعها، كما ثبت القرآن المجيد في زمن نزوله حفظاً وكتابة، ألم تر أن هذه الشهرة المنتشرة للمسيح عليه السلام لم تمنع بعض علماء أوربة الأحرار من الشك في وجوده نفسه، ولا من ترجيح كون قصته خيالية، لا حادثة الصلب والقيام منها فحسب. كما أن بعضهم يرى مثل هذا الرأي في بعض آلهة الوثنيين، وفي (هوميروس) شاعر اليونان، الذي تضرب بشعره الأمثال، فهو أشهر رجل في تاريخ أمته الذي هو من أشهر تواريخ الأمم الغابرة. ومثله في تاريخ أمتنا العربية قيس العامري الشهير بمجنون ليلى. ذكر في الأغاني روايات عن بني عامر أنه غير معروف عندهم. وأنه قيل أن الشعر الذي ينسب إليه هو لبعض كبراء بني أمية عزاه إلى مجهول تستراً بعشقه.

مثل هذا في التاريخ كثير فهو غير مستبعد عقلاً ولكننا نحن المسلمين نؤمن بالمسيح لا لذكره في أناجيلهم وكتبهم فكم في الكتب من قصص خيالية مثل قصته، بل لأن القرآن أثبت وجوده ونبوته والقرآن ثابت عندنا قطعاً فنؤمن بكل ما أثبته. وأن لي كلمة قديمة اذكرها في هذا السياق الذي لم أتوسع فيه إلا لرد هجمات دعاة النصرانية الذين أسرفوا في الطعن في الإسلام وهي: إن إثبات القرآن للمسيح هو أقوى حجة على منكري آيات المسيح عليه السلام وأقوى شبهة على القرآن. فإن الشبهات التي يوردها الملاحدة والعقليون من النصارى وأمثالهم على إثباته كون المسيح وأمه آية وإن الله آتاه آيات أخرى - هي أقوى الشبهات الواردة على القرآن، ولكن ردها سهل على قاعدة الإيمان بقدرة الله تعالى وتصرفه في خلقه كما يشاء. ومن آيات كون القرآن من عند الله تعالى عدم موافقته للنصارى في رواياتهم في الصلب والتثليث، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الجمع بين الإسلام والنصرانية: إن تلك الأقوال المعروفة عند النصارى دفعت بعض الراغبين في التأليف بينهم وبين المسلمين إلى الجمع بين ما جاء في القرآن العزيز وما يؤخذ من الأناجيل بنوع من التأويل. وهو أن قول القرآن ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يشعر بأنه قد حصل ما هو مظنة القتل لأنه صورة من صوره، ووسيلة من وسائله، وهو ذلك التعليق على الخشبة الذي كان بدون كسر عظم ولا إصابة عضو رئيسي ولم يطل زمنه فكأنه ليس صلباً. وعندهم أن هذا هو معنى قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وهذا التأويل بعيد وما قررناه من قبل هو الأقرب.

وممن ولع بالجمع بين النصرانية البولسية التي تؤخذ من الكتب التي يسمونها العهد الجديد وبين الإسلام قسِّيس من طائفة الروم الأرثوذكس اسمه (خريستوفورس جباره) كان برتبة أرشمندريت وكاد يكون مطراناً، فخلع ثوب (الكهنوت) وطفق يدعو إلى التأليف والجمع بين الإسلام والنصرانية، ويقول بعدم التنافي بينهما، ويؤلف الكتب في ذلك، يثبت فيها التوحيد وصدق القرآن، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام، مع صحة الأناجيل وتطبيقها على القرآن، ولكن لم يستطع أن يؤلف حزباً، وإنني أعتقد أنه كان مخلصاً في عمله، وكان الأستاذ الإمام يحسن الظن فيه أيضاً ويرى أن دعوته لا تخلو من فائدة وتمهيد للتأليف بين الناس، وظهور دين الله الحق في جميع البلاد. والحق أن الإسلام هو دين محمد ودين المسيح ودين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن المحال هو الجمع بين دين القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين الديانة البوليسية المبنية على أن الثلاثة واحد حقيقة والواحد ثلاثة حقيقة، وعلى عقيدة الصلب والفداء الوثنية. وكيف يمكن الجمع بين التوحيد والتثليث، وبين عقيدة نجاة الإنسان وسعادته بعلمه وعمله، وعقيدة نجاته بإيمانه بلعن ربه لنفسه، وتعذيبه إياها عن عبيده، وإن لم يتم لربه مراده من ذلك، ألا إن القرآن هو الجامع المؤلف، ولكن ترك دعوته المنتمون إليه فكيف يستجيب له المخالف، فدين التوحيد والتأليف لا يقوم بدعوته أحد، ولا يحمي دعاته أحد، ولا يبذل له

المال لهداية الناس أحد، ودين التعديد والفداء تبذل له القناطير المقنطرة من الدنانير، ويستأجر لدعوته الألوف من المجادلين والعاملين، وتحميهم الدول القوية بالمدافع والأساطيل، على أننا لا نيأس من روح الله، فكما وفق لتأليف جماعة الدعوة والإرشاد، فهو الذي يوفق لمساعدتها من أراد، والله خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، وما هي إلا أن يستيقظ المسلمون من رقدتهم، ويتنبهوا من غفلتهم، ويعرفوا الغرض من حرص الإفرنج على تنصيرهم، وإن أول بلايا دعوتهم، وما ينشرون من صحفهم وكتبهم، وينشئون من مدارسهم ومستشفياتهم، هو إبطال ثقة المسلمين بدينهم، وحل الرابطة التي تجمع بين أفرادهم وشعوبهم، حتى يكونوا طعمة للطاعمين، بل عبيداً للطامعين، فإذا انتبهوا وفقهوا، عرفوا كيف يحفظون أنفسهم ودنياهم بحفظ دينهم، وتوثيق رابطته بينهم، والاستغناء عن الجمعيات والمستشفيات، التي ينشئها جمعيات التغرير بالتبشير لهدم الإسلام، بإنشاء خير منها لإعلاء منار الإسلام، الذي هو دين العقل والعرفان، والعدل والعمران، الذي أكمل الله به دين الأنبياء عليهم السلام، ويجذبون إليه من في بلاد أمريكة وأوربة من المستقلين الأحرار، حتى تكون كلمة الله هي العليا في كل مكان ـ لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله.

بهاء الله البابي ومسيح الهند القادياني: يعلم الخاص والعام أنه ورد في علامات الساعة من الأخبار أنه يخرج رجل من آل بيت النبي (ص) يقال له المهدي يملأ الأرض عدلاً، بعد أن تكون قد ملئت جوراً، وينزل في آخر مدته عيسى ابن مريم من السماء فيرفع الجزية ويكسر الصليب ويقتل المسيح الدجال. وليس هذا مقام تحرير هذه المسألة وإنما اقتضت الحال أن نذكر من ضررها أنها لانتظار المسلمين لها، ويأسهم من إعادة عدل الإسلام ومجده بدونها، قد كانت مثار فتن عظيمة، فقد ظهر في بلاد مختلفة وأزمنة مختلفة أناس يدعي كل واحد منهم أنه المهدي المنتظر، يخرج على أهل السلطان، ويستجيب له كثير من الأغرار، فتجري الدماء بينهم وبين جنود الحكام كالأنهار، ثم يكون النصر والغلب للأقوياء بالجند والمال، على المستنصرين بتوهم التأييد السماوي وخوارق العادات. وقد ادعى هذه الدعوى أيضاً أناس من الضعفاء أصابهم هوس الولاية والأسرار الروحية فلم يكن لهم تأثير يذكر.

كانت آخر فتنة دموية من فتن هذه الدعوة فتنة مهدي السودان، وكانت قبلها فتنة (الباب) الذي ظهر في بلاد إيران، وأمره مشهور. وقد بنى بعض أتباعه على أساس دعوته بناء من أنقاض تلك الدعوى ولكنه جاء أكبر منها. ذلك المدعي هو ميرزا حسين الملقب ببهاء الله، ادعى الربوبية وبث دعاته في المسلمين والنصارى وغيرهما، ومما يدعون به النصارى إلى دينهم قولهم إن البهاء هو المسيح الموعد به. وقد بينا فتنتهم في المنار ورددنا عليهم مراراً.

وظهر في الهند رجل آخر سلمي (بالطبع) ادعى أنه هو المسيح الموعود به وهو (غلام أحمد القادياني) الذي نقلنا عن بعض كتبه نبأ التجاء المسيح عيسى ابن مريم إلى الهند، وهو إنما عني ببيان ذلك ليجعله من مقدمات إثبات دعوته. وقد كان قبل موته أرسل إليّ الكتاب الذي نقلت عنه ما ذكر وغيره من كتبه التي يدعو بها إلى نفسه، فرددت عليه في المنار فهجاني في كتاب آخر وتوعدني بقوله عني «سيهزم فلا يرى» وزعم أن هذا نبأ وحي جاءه من الله جل وعلا، وقد كان هو الذي انهزم ومات. كان هذا الرجل يستدل بموت المسيح ورفع روحه إلى السماء كما رفعت أرواح الأنبياء، على أنه هو المسيح الموعود به، ولا يزال أتباعه يستدلون بذلك. وقد جرى على طريقة أدعياء المهدوية من شيعة إيران (كالباب والبهاء) في استنباط الدلائل الوهمية على دعوته من القرآن حتى أنه استخرج ذلك من سورة الفاتحة! وله في تفسيرها كتاب في غاية السخف يدعي أنه معجزة له!! فجعلها مبشرة بظهوره وبأنه هو مسيح هذه الأمة. وإنما فتح على هذه الأمة هذا الباب الغريب من أبواب تأويل القرآن وتحريف ألفاظه عن المعاني التي وضعت لها، إلى معان غريبة لا تشبهها ولا تناسبها، أولئك الزنادقة من المجوس

وأعوانهم الذين وضعوا تعاليم فرق الباطنية، فراجت حتى عند كثير من الصوفية. ولمن يستدل بالكلم على ما لا يدل عليه في استعمال لغته أن يستدل بما شاء على ما شاء، وهو يجد من جاهلي اللغة وفاقدي الاستقلال العقلي من يقبل منه كل دعوى.

والحق أنه ليس في القرآن نص يثبت أن عيسى ينزل من السماء ويحكم في الأرض. وأما الأحاديث الواردة في ذلك فهي تختلف دعوى القادياني، فإن منها أنه ينزل في دمشق لا في الهند، ومنها أنه يقتل الدجال الذي يظهر قبله، ومنها أنه يحكم ويملأ الأرض عدلاً، ولا يزال الظلم والجور وسفك الدماء مالئاً الأرض، وناهيك بما هو جار منها في بلاد البلقان في هذه الأيام. فإن دول البلقان النصرانية ما ظهروا على العثمانيين في مكان، إلا وأسرفوا في قتل الكبار والصغار، والنساء والأطفال، ونسف ديارهم بالديناميت أو إحراقهم بالنار، بعد سلب الأموال وهتك الأعراض. وكل هذا يعمل باسم الصليب ورفع شأنه، فأين هو مما ورد من كسر المسيح للصليب، وما كان القادياني إلا خاضعاً لدولة من دول الصليب ولكن من شؤون البشر إنه لا يدعوهم أحد إلى شيء مهما كان بعيداً عن المعقول والمنقول إلا ويجد فيهم من يصدقه ويستجيب له. فنسأل الله التأييد بالهداية، والحفظ من الغواية. آمين.

جوهري ج ٣ ص ١٠٦ ـ ١١٥

. . . ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ادّعت اليهود أنهم قتلوا عيسى وصدقتهم النصارى على ذلك، فكذبهم الله قائلاً ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ولقد تقدم إيضاح هذا المقام في سورة آل عمران بما لا مزيد عليه، فارجع إليه إن شئت تر أن إنجيل برنابا قد تكفل بهذه المسألة، ونقلنا النصوص هناك وأن يهوذا هو الذي ألقي عليه شبه المسيح وصلب وقتل. وقد كان هو التلميذ الذي خان نبيه وأستاذه ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ في شأن عيسى ﴿ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ فهذه الأناجيل قد اختلفوا فيها حتى كانت المجامع التي أقيمت قديماً، وهناك حصل حذف وإثبات كما تقدم ﴿ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ بسبب أن المسيح اختار رسله من الشعب الهادي قوماً كانوا صيادي سمك في بحيرة طبرية ليفهم الناس أن دينه لا يحتاج إلى ذكاء خارق للعادة فجاء بولس وهو (فريسي) ويعرف اللغة اليونانية وادعى أنه هو المختص بالمعرفة الحقيقية لدين المسيح وأخذ يخاصم بطرس، فتألف بعد رفع المسيح صنفان من النصارى صنف يتبع بقية أتباع المسيح، وصنف يتبع بولس المذكور، ثم نشبت الحرب بين الدولة الرومانية في زمن نيرون بقيادة فبياسيانوس الروماني وبين اليهود.

ولما مات القائد الروماني تولى القيادة ابنه طيطس وفتحت أورشليم عام ٧٠، وضرب الهيكل فتفرق اليهود في كل واد يهيمون، وانحلت الرابطة وكان كل أسقف يعلم جماعاته بما يغلب على عقله مع الحكمة المأثورة عن المسيح، ثم اختلطت التعاليم بالفلسفة اليونانية لا سيما في مدارس الإسكندرية. وغلبت الفلسفة على تلك التعاليم البسيطة لجهل القائمين بها وقوة الفلاسفة، فنشأت في آخر الجيل الأول الأناجيل المنقولة في الأصل عن الرسل، وقد أحصى فابريسيوس منها ٣٥ إنجيلاً، فهذا العدد كان بعض ما في الجيل الأول والثاني، وبقي الأمر على هذا المنوال إلى سنة ٣٨٤ لما رأى البابا داماسيوس ما في الأناجيل المنتشرة من الاختلاف والتناقض فأمر مارايرو نيموس أن يحرر ترجمة لاتينية جديدة، وذلك لأن الملك تيودوسيوس ضجر من المخاصمات وصدر الأمر بأن يكون الأسقف في رومة هو الذي له الحق وحده أن يتبعه عموم النصارى، وهذه الترجمة ثبتها المجمع التريدنتيني سنة ١٥٤٦، وخطأها سيستوس الخامس سنة ١٥٩٠. ونقحها بنسخة جديدة، وخطأ هذه كليمنضوس الثامن وطبع نسخة جديدة بترجمة جديدة وهي الباقية إلى الآن عند الكاثوليكيين.

فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ أي لكنهم يتبعون لكنهم يتبعون الظن، فالاستثناء منقطع ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾

أي قتلاً يقيناً ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ ﴾ ردّ وإنكار لقتله وإثبات لرفعه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا ﴾ لا يغلب على ما يريده ﴿ حَكِيمًا ﴾ فيما دبر لعيسى ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ ﴾ يعني وما من أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى بل أهل الملل جميعاً إلا والله ليؤمنن بعيسى حين ينزل من السماء ويقتل الدجال فيهلكه حتى تكون الملة واحدة وهو الإسلام، وتقع الأمنة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور إلخ.

هذا ما جاء في كلام علماء التفسير، وسأوضح هذا المقام مع بعض التحقيق ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴾ فيشهد على اليهود بالتكذيب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

المراغي ج ٦ ص ١٢ ـ ١٦

﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ المراد بالكفر هنا الكفر بعيسى عليه السلام بدليل ما بعده، وبالكفر الذي قبله الكفر بمحمد ﷺ بقرينة قوله: ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ ﴾ [النساء: ١٥٥]، والبهتان: الكذب الذي يبهت من يقال فيه: أي يُدهِشه ويُحيّره لبعده وغرابته، والمراد به هنا رميها بالفاحشة:

والمعنى ـ إن الله طبع على قلوبهم بكفرهم بعيسى وأمه ورميهم إياها بالكذب العظيم، وأي بهتان تبهت به العذراء التقية أعظم من هذا؟.

والخلاصة ـ إن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حل بهم من غضب الله.

﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ أي وبسبب قولهم هذا القول المؤذن بالجرأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله.

وذكروه بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته، بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم لا الألوهية كما ادعت النصارى، إذ جاء في إنجيل يوحنا (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته).

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ ﴾ أي والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا، وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس، ولكن وقع لهم الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وهم إنما صلبوا غيره، ومثل هذا الشبه يحدث كثيراً في كل زمان وتحكى عنه نوادر وحوادث غاية في الغرابة لكنها قد وقعت فعلاً.

فقد ذكر بعض المؤلفين في الطب الشرعي من الإنجليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ في فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصاً لمعرفة شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون أنه غيره والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدوا رأياً ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجته مارتين محوطاً بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات وكلهم مصدق أنه مارتين، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى فأُحْضِر ثلاثون شاهداً أقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين، وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقون.

على أن هذا الحادث من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى ابن مريم وأنقذه من أعدائه فألقى شبهه على غيره وغيّر شكله، فخرج من بينهم وهم لا يشعرون، وفي أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه؛ وإذا قال قائل: وإذا كان المسيح قد نجا من أعدائه فأين ذهب؟ والجواب أنا إذا قلنا إنه رفع بروحه وجسده إلى السماء فلا تَرِد هذه الشبهة، وإذا قلنا إن الله توفاه في الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام فلا غرابة في ذلك، فإن أخاه موسى عليه السلام قد انفرد عن قومه في مكان لم يعرفه أحد منهم، وكانوا ألوفاً عدة خاضعين لأمره ونهيه، فكيف يستغرب أن يفرّ عيسى عليه السلام من قوم هم أعداء له، لا ولي له فيهم ولا نصير إلا أفراد من الضعفاء قد انفضّوا من حوله وقت الشدة، وقد أنكره أمثلهم بُطْرُس الحواري ثلاث مرات؟.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا

ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ قال في لسان العرب: الشك ضد اليقين، فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أهو المصلوب أم غيره؟

والمعنى ـ وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي تردد من حقيقة أمره، إذ ليس لهم به من علم قطعيّ الثبوت، وإنما هم يتبعون الظن والقرائن التي ترجح بعض الآراء على بعض، وقد جاء في بعض الأناجيل التي يعوّلون عليها أنه قال لتلاميذه (كلكم تشكُّون في هذه الليلة) أي الليلة التي يطلب فيها للقتل (إنجيل متى من ٢٦ ـ ٣١ ومرقس من ١٤ ـ ٢٧).

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه أو عرف الناس له بأنهم سيشكون فيه في ذلك الوقت، وخبره صادق قطعاً، فهل من العجيب اشتباهُ غيرهم وشكُّ مَنْ دونهم في أمره؟.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي وما قتلوا عيسى ابن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه، إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة، والأناجيل التي يعوّل عليها صريحة في أن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي وقد جعل لهم علامة أن من قبله يكون هو المسيح فلما قبّله قبضوا عليه، وإنجيل برنابا يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه هو المسيح، لأنه ألقي عليه شبهه، ومن هذا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية.

والخلاصة ـ أن روايات المسلمين جميعها متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدي قتله فقتلوا آخر ظناً منهم أنه هو.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ﴾ هذه الآية كآية آل عمران ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقد روي عن ابن عباس أنه فسر التوفي بالإماتة، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض والمراد منه ومن الرفع إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقربه.

وقال ابن جرير نقلاً عن ابن جريج: فرفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا أي فليس المراد الرفع إلى السماء بالروح والجسد ولا بالروح فقط، وفي تفسير ابن عباس معنى الرفع رفع الروح، ولكن المشهور بين جمهرة المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء بدليل حديث المعراج، إذ أن النبي ﷺ رآه هو وابن خالته يحيى في السماء الثانية، وأنت ترى أنه لا دليل لهم في ذلك إذ لو دل هذا على ما يقولون لدل على رفع يحيى وسائر من آرهم من الأنبياء في سائر السموات ولا قائل بذلك.

وقال الرازي ـ المعنى رافعك إلى محل كرامتي، وجَعَله رفعاً للتفخيم والتعظيم كقوله حكاية عن إبراهيم ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩] وهو إنما ذهب من العراق إلى الشام، والمراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله اهـ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي إن الله عزيز يغْلِب ولا يُغْلَب، وبهذه العزة أنقذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين، وبحكمته جازى كل عامل بعمله، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد في الأرض، وسيوفيهم جزاءهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الإنفطار: ١٩].

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦۖ﴾ أي وإن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وسواه من أمور الدين فيؤمن بعيسى إيماناً حقاً لا زيغ فيه ولا ضلال، فاليهودي يعلم أنه رسول صادق في رسالته ليس بالكذاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله وليس بإله وليس هو بابن لله.

وفائدة إخبارهم بذلك ـ بيان أنه لا ينفعهم حينئذ فعليهم أن يبادروا به قبل أن يُضطُّروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم كما حكى الله عنه من قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ﴾ [المائدة: ١١٧] فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال

التكليف والاختيار وعلى الكافر بالكفر، إذ هو مرسل إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة، فيبشَّرُون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته، روى البخاري عن عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «إن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حُضِرَ (حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته» وروى ابن مردويه عن ابن عباس «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار».

وهذا يؤيد ما روي عن ابن عباس في تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح، مع الإنكار الشديد والتقبيح.

سيد قطب ج ٢ ص ٨٠١ ـ ٨٠٣

... إن قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه، قضية يخبط فيها اليهود ـ كما يخبط فيها النصارى بالظنون ـ فاليهود يقولون: إنهم قتلوه ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية! والنصارى يقولون: إنه صلب ودفن، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام. و«التاريخ» يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن في حساب!

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين.. فلقد تتابعت الأحداث سراعاً؛ وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين.. إلا ما يقصه رب العالمين.. والأناجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته.. كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح؛ كانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد.. وقد كتبت معها أناجيل كثيرة. ولكن هذه الأناجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد؛ واعتبرت رسمية، واعترف بها؛ لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات!

ومن بين الأناجيل التي كتبت في فترة كتابة الأناجيل الكثيرة: إنجيل برنابا. وهو يخالف الأناجيل الأربعة المعتمدة، في قصة القتل والصلب، فيقول:

«ولما دنت الجنود مع يهوذا، من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جم غفير. فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً. وكان الأحد عشر نياماً. فلما رأى الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل، سفراءه.. أن يأخذوا يسوع من العالم. فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد.. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياماً. فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع. حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم. لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيدي معلمنا. أنسيتنا الآن؟... إلخ».

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة ـ التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر ـ ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية.

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾. أما القرآن فيقرر قراره الفصل: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾. ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا . بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين. وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه.

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة؛ إلا ما ورد في السورة الأخرى من قوله تعالى ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وهذه كتلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفي

وموعده.. ونحن ـ على طريقتنا في ظلال القرآن ـ لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال؛ ولا أن نضرب في أقاويل وأساطير؛ ليس لدينا من دليل عليها، وليس لنا إليها سبيل..

ونعود من هذا الاستطراد، مع عودة السياق القرآني إلى بقية هذا الاستدراك: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾. وقد اختلف السلف في مدلول هذه الآية، باختلافهم في عائد الضمير في «موته» فقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته أي عيسى وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة.. وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته.. أي موت الكتابي ـ وذلك على القول بأن الميت ـ وهو في سكرات الموت ـ يتبين له الحق؛ حيث لا ينفعه أن يعلم!

ونحن أميل إلى هذا القول الثاني؛ الذي ترشح له قراءة أبيّ: «إلا ليؤمننّ به قبل موتهم».. فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير؛ وأنه أهل الكتاب.. وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن اليهود الذين كفروا بعيسى ـ عليه السلام ـ وما زالوا على كفرهم به، وقالوا: إنهم قتلوه وصلبوه، ما من أحد منهم يدركه الموت، حتى تكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح، فيرى أن عيسى حق، ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حين لا ينفعه إيمان.. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً.

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب. ثم يعود بعدها إلى تعداد مناكر اليهود؛ وما نالهم عليها من الجزاء الأليم في الدنيا والآخرة.

٩ ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾

(سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٦٣)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٦	ص ٢٠
الزمخشري	ج ١	ص ٥٨٢
الرازي	ج ١١	ص ١٠٧ ـ ١٠٩
الطبرسي	ج ٥	ص ٢٩١ ـ ٢٩٣
ابن عربي	ج ١	ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨
البيضاوي	ج ٢	ص ١٢٩
الخازن	ج ١	ص ٦٢٣ ـ ٦٢٤
البغوي	ج ١	ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩
الماوردي	ج ١	ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦
القرطبي	ج ٦	ص ١٥ ـ ١٧
أبو حيان الأندلسي	ج ٣	ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨
ابن كثير	ج ١	ص ٥٨٥ ـ ٥٨٨
الجلالان		ص ١٣١
الشوكاني	ج ١	ص ٥٣٦ ـ ٥٣٩
الآلوسي	ج ٦	ص ١٤ ـ ١٥
القاسمي	ج ٥	ص ١٧٢٢
محمد عبده	ج ٦	ص ٦٦ ـ ٧٦
الطباطبائي	ج ٥	ص ١٢٧ ـ ١٤٧
جوهري	ج ٣	ص ١٠٦ ـ ١٢٢
المراغي	ج ٦	ص ١٩ ـ ٢٤
سيد قطب	ج ٢	ص ٧٩٤ ـ ٨١٤

الطبري ج ٦ ص ٢٠

يعني جل ثناؤه بقوله ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ ﴾ إنا أرسلنا إليك، يا محمد، بالنبوّة كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائر الأنبياء الذين سميتهم لك من بعده، والذين لم أسمهم لك، كما: حدثنا ابن وكيع. . . عن الربيع بن خثيم في قوله ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ قال: أوحى إليه كما أوحى إلى جميع النبيين من قبله وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ لأن بعض اليهود لما فضحهم الله بالآيات التي أنزلها على رسوله ﷺ وذلك من قوله: ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ ﴾ [النساء ١٥٣] فتلا ذلك عليهم رسول الله ﷺ، قالوا وما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله هذه الآيات، تكذيباً لهم، وأخبر نبيه والمؤمنين به أنه قد أنزل عليه بعد موسى وعلى من سماهم في هذه الآية، وعلى آخرين لم يسمهم، كما: حدثنا أبو كريب. . . عن ابن عباس قال قال سكين وعدي بن زيد يا محمد، ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ ﴾ إلى آخر الآيات.

وقال آخرون: بل قالوا: لما أنزل الله الآيات التي قبل هذه في ذكرهم «ما أنزل الله على بشر من شيء ولا على موسى ولا على عيسى» فأنزل الله جل ثناؤه ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ [الأنعام: ٩١] ولا على موسى ولا على عيسى. ذكر من قال ذلك: حدثنى الحرث. . . عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ ﴾ [النساء: ١٥٣] إلى قوله ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١٥٦] فلما تلاها عليهم يعني: على اليهود واخبرهم بأعمالهم الخبيثه جحدوا كل ما أنزل الله، وقالوا «ما أنزل الله على بشر من شيء ولا على موسى ولا على عيسى وما أنزل الله على نبي من شيء» قال: فحل حبوته وقال: ولا على أحد فأنزل الله جل ثناؤه وما ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ [الأنعام: ٩١] وأما قوله ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ فإن القراء اختلفت في قراءته. فقرأته عامة قراء أمصار الإسلام، غير نفر من قراء الكوفة ﴿ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ بفتح الزاي على التوحيد، بمعنى: وآتينا داود الكتاب المسمى ﴿ زَبُورٗا ﴾

وقرأ ذلك بعض قراء الكوفيين وآتينا داود زبوراً بضم الزاي جمع زبر. كأنهم وجهوا تأويله وآتينا داود كتباً وصحفاً مزبورة. من قولهم «زبرت الكتاب أزبره زبراً وذبرته أذبره ذبراً» إذا كتبته. قال أبو جعفر: وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندنا، قراءة من قرأ ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ بفتح الزاي على أنه اسم الكتاب الذي أوتيه داود كما سمى الكتاب الذي أوتيه موسى التوراة، والذي أوتيه عيسى الإنجيل، والذي أوتيه محمد الفرقان، لأن ذلك هو الاسم المعروف به ما أوتي داود. وإنما تقول العرب: زبور داود، بذلك يعرف كتابه سائر الأمم.

الرازي ج ١١ ص ١٠٧ - ١٠٩

قوله تعالى ﴿۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حكى أن اليهود سألوا الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وذكر تعالى بعده أنهم لا يطلبون ذلك لأجل الاسترشاد ولكن لأجل العناد واللجاج، وحكى أنواعاً كثيرة من فضائحهم وقبائحهم، وامتد الكلام إلى هذا المقام، شرع الآن في الجواب عن تلك الشبهة فقال ﴿۞إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ والمعنى: أنا توافقنا على نبوة نوح وإبراهيم وإسمعيل وجميع المذكورين في هذه الآية، وعلى أن الله تعالى أوحى إليهم، ولا طريق إلى العلم بكونهم أنبياء الله ورسله إلا ظهور المعجزات عليهم ولكل واحد منهم نوع آخر من المعجزات على التعيين، وما أنزل الله على كل واحد من هؤلاء المذكورين كتاباً بتمامه مثل ما أنزل إلى موسى، فلما لم يكن عدم انزال الكتاب على هؤلاء دفعة واحدة قادحاً في نبوتهم، بل كفى في إثبات نبوتهم ظهور نوع واحد من أنواع المعجزات عليهم، علمنا أن هذه الشبهة زائلة، وأن إصرار اليهود على طلب هذه المعجزة باطل، وتحقيق القول فيه أن إثبات المدلول يتوقف على ثبوت الدليل، ثم إذا حصل الدليل وتم فالمطالبة بدليل آخر تكون طلباً للزيادة وإظهاراً للتعنت واللجاج، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا اعتراض عليه لأحد بأنه لم أعطى هذا الرسول هذه المعجزة وذلك الرسول الآخر معجزاً آخر، وهذا الجواب المذكور ههنا هو الجواب المذكور في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني أنك إنما ادعيت الرسالة، والرسول لا بد له من معجزة تدل على صدقه، وذلك قد حصل، وأما أن تأتي بكل ما يطلب منك فذاك ليس من شرط الرسالة، فهذا جواب معتمد عن الشبهة التي أوردها اليهود، وهو المقصود الأصلي من هذه الآية.

المسألة الثانية: قال الزجاج: الإيحاء الإعلام على سبيل الخفاء، قال تعالى ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي أشار إليهم، وقال ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾ [المائدة: ١١١] وقال ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] والمراد بالوحي في هذه الآيات الثلاثة الإلهام.

المسألة الثالثة: قالوا إنما بدأ تعالى بذكر نوح لأنه أول نبي شرع الله تعالى على لسانه الأحكام والحلال والحرام، ثم قال تعالى ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ثم خص بعض النبيين بالذكر لكونهم أفضل من غيرهم كقوله ﴿وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

واعلم أن الأنبياء المذكورين في هذه الآية سوى موسى عليه السلام اثنا عشر ولم يذكر موسى معهم، وذلك لأن اليهود قالوا: إن كنت يا محمد نبياً فأتنا بكتاب من السماء دفعة واحدة كما أتى موسى عليه السلام بالتوراة دفعة واحدة، فالله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بأن هؤلاء الأنبياء الاثنى عشر كلهم كانوا أنبياء ورسلاً مع أن واحداً منهم ما أتى بكتاب مثل التوراة دفعة واحدة، وإذا كان المقصود من تعديد هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

هذا المعنى لم يجر ذكر موسى معهم، ثم ختم ذكر الأنبياء بقوله ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ يعني أنكم اعترفتم بأن الزبور من عند الله، ثم إنه ما نزل على داود دفعة واحدة في ألواح مثل ما نزلت التوراة دفعة واحدة على موسى عليه السلام في الألواح، فدل هذا على أن نزول الكتاب لا على الوجه الذي نزلت التوراة لا يقدح في كون الكتاب من عند الله، وهذا إلزام حسن قوي.

المسألة الرابعة: قال أهل اللغة: الزبور الكتاب، وكل كتاب زبور، وهو فعول بمعنى مفعول، كالرسول والركوب والحلوب، وأصله من زبرت بمعنى كتبت، وقد ذكرنا ما فيه عند قوله ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

المسألة الخامسة: قرأ حمزة ﴿زُبُورًا﴾ بضم الزاي في كل القرآن، والباقون بفتحها، حجة حمزة أن الزبور مصدر في الأصل، ثم استعمل في المفعول كقولهم: ضرب الأمير ونسج فلان، فصار اسماً ثم جمع على زبر كشهود وشهد، والمصدر إذا أقيم مقام المفعول فإنه يجوز جمعه كما يجمع الكتاب على كتب، فعلى هذا، الزبور الكتاب، والزبر بضم الزاي الكتب، أما قراءة الباقين فهي أولى لأنها أشهر، والقراءة بها أكثر.

١٠

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا﴾

(سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٧١ ـ ١٧٢)

مصادر تفاسير الآية

المصدر	الجزء	الصفحات
الطبري	ج ٦	ص ٢٤ ـ ٢٧
الزمخشري	ج ١	ص ٥٨٤ ـ ٥٨٨
الرازي	ج ١١	ص ١١٤ ـ ١١٩
الطبرسي	ج ٥	ص ٢٩٩ ـ ٣٠٥
ابن عربي	ج ١	ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢
البيضاوي	ج ٢	ص ١٣٠ ـ ١٣١
الخازن	ج ١	ص ٦٢٦ ـ ٦٢٨
البغوي	ج ١	ص ٤٠٠ ـ ٤٠١
الماوردي	ج ١	ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧
القرطبي	ج ٦	ص ٢٠ ـ ٢٥
أبو حيان الأندلسي	ج ٣	ص ٤٠٠ ـ ٤٠٥
ابن كثير	ج ١	ص ٥٨٩ ـ ٥٩١
الجلالان		ص ١٣٢
الشوكاني	ج ١	ص ٥٣٩ ـ ٥٤٣
الآلوسي	ج ٦	ص ٢٢ ـ ٣٨
القاسمي	ج ٥	ص ٦٧٤ ـ ٦٨٦
محمد عبده	ج ٦	ص ٨١ ـ ١٠٠
الطباطبائي	ج ٥	ص ١٤٧ ـ ١٥٣
جوهري	ج ٣	ص ١١٦ ـ ١١٨
المراغي	ج ٦	ص ٢٨ ـ ٣٥
سيد قطب	ج ٢	ص ٨١٤ ـ ٨٢٣

الطبري ج ٦ ص ٢٤ ـ ٢٥

القول في تأويل قوله ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يا أهل الإنجيل من النصارى ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ يقول: لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غير الحق، فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله، قول منكم على الله غير الحق. لأن الله لم يتخذ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابناً ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾. وأصل «الغلو» في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده. يقال منه في الدين: «قد غلا فهو يغلو غلواً»، و «غلا بالجارية عظمها ولحمها»، إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها، «يغلو بها غلواً وغلاء»، ومن ذلك قول الحرث بن خالد المخزومي:

خمصانة قلق موشحها
رؤد الشباب غلا بها عظم

وقد حدثنا المثنى... عن الربيع قال صاروا فريقين: فريق غلوا في الدين، فكان غلوهم فيه الشك فيه والرغبة عنه، وفريق منهم قصروا عنه، ففسقوا عن أمر ربهم.

القول في تأويل قوله ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ ما المسيح، أيها الغالون في دينهم، من أهل الكتاب، بابن الله كما تزعمون، ولكنه عيسى ابن مريم، دون غيرها من الخلق، لا نسب له غير ذلك. ثم نعته الله جل ثناؤه بنعته ووصفه بصفته فقال: هو رسول الله أرسله الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه. وأصل «المسيح»، «الممسوح» صرف من مفعول إلى فعيل. وسماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب. وقيل: مسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الآدميين، كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه، فيطهر منه. ولذلك قال مجاهد ومن قال مثل قوله: «المسيح» الصديق. وقد زعم بعض الناس أن أصل

هذه الكلمة عبرانية أو سريانية «مشيحاً» فعربت فقيل: «المسيح» كما عرب سائر أسماء الأنبياء التي في القرآن مثل إسمعيل وإسحق وموسى وعيسى. قال أبو جعفر: وليس ما مثل به من ذلك للمسيح بنظير. وذلك أن إسمعيل وإسحق وما أشبه ذلك، أسماء لا صفات، والمسيح صفة. وغير جائز أن تخاطب العرب وغيرها من أجناس الخلق في صفة شيء إلا بمثل ما يفهم عمن خاطبها. ولو كان المسيح من غير كلام العرب، ولم تكن العرب تعقل معناه، ما خوطبت به. وقد أتينا من البيان عن نظائر ذلك فيما مضى بما فيه الكفاية عن إعادته. وأما «المسيح الدجال» فإنه أيضاً بمعنى: الممسوح العين، صرف من «مفعول إلى فعيل». فمعنى المسيح في عيسى ﷺ: الممسوح البدن من الأدناس والآثام، ومعنى المسيح في الدجال: الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كالذي روى عن رسول الله ﷺ في ذلك. وأما قوله ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ فإنه يعني: بالكلمة الرسالة التي أمر الله ملائكته أن تأتي مريم بها، بشارة من الله، لها التي ذكر الله جل ثناؤه في قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [آل عمران: ٤٥]: يعني: برسالة منه، وبشارة من عنده. وقد قال قتادة في ذلك ما: حدثنا به الحسن بن يحيى... عن قتادة ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ قال: هو قوله كن فكان. وقد بينا اختلاف المختلفين من أهل الإسلام في ذلك فيما مضى، بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله ﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ يعني: أعلمها بها وأخبرها، كما يقال: «ألقيت إليك كلمة حسنة» بمعنى أخبرتك بها وكلمتك بها. وأما قوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ فإن أهل العلم اختلفوا في تأويله. فقال بعضهم: معنى قوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ونفخة منه، لأنه حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله إياه بذلك، فنسب إلى أنه روح من الله لأنه بأمره كان. قال: وإنما سمي النفخ روحاً لأنها ريح تخرج من الروح، واستشهدوا على ذلك من قولهم بقول ذي الرمة في صفة نار نعتها.

فلما بدت كفنتها وهي طفلة ... بطلساء لم تكمل ذراعاً ولا شبرا

وقلت له ارفعها إليك وأحيها ... بروحك واقتته لها قيتة قدرا

وظاهر لها من بائس الشخت واستعن ... عليها الصبا واجعل يديك لها سترا

ولما تنمت تأكل الرم لم تدع ... ذوابل مما يجمعون ولا خضرا

فلما جرت للجزل جريا كأنه ... سنا البرق أحدثنا لخالقها شكرا

وقالوا يعني بقوله «أحيها بروحك» أي: أحيها بنفخك. وقال بعضهم يعني بقوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أنه كان إنساناً بإحياء الله له بقوله «كن» قالوا: وإنما معنى قوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ وحياة منه بمعنى إحياء الله إياه بتكوينه. وقال بعضهم معنى قوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ ورحمة منه كما قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] قالوا: ومعناه في هذا الموضع: ورحمة منه. قالوا: فجعل الله عيسى رحمة منه على من اتبعه وآمن به وصدقه لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد. وقال آخرون: معنى ذلك: وروح من الله خلقها فصورها، ثم أرسلها إلى مريم فدخلت في فيها، فصيرها الله تعالى روح عيسى عليه السلام. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى... عن أبيّ بن كعب في قوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: أخذهم فجعلهم أرواحاً، ثم صوّرهم، ثم استنطقهم، فكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها العهد والميثاق، فأرسل ذلك الروح إلى مريم، فدخل في فيها، فحملت الذي خاطبها، وهو روح عيسى عليه السلام.

وقال آخرون: معنى «الروح» ههنا، جبريل عليه السلام. قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم، وألقاها أيضاً إليها روح من الله، قالوا: فـ«الروح» معطوف به على ما في قوله: ﴿ أَلْقَىٰهَآ ﴾ من ذكر الله، بمعنى: أنّ إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله، ثم من جبريل عليه السلام. قال أبو جعفر: ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيداً من الصواب.

القول في تأويل قوله: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾. قال أبو جعفر: يعني

بقوله جل ثناؤه: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾، فصدِّقوا، يا أهل الكتاب، بوحدانية الله وربوبيته، وأنه لا ولد له، وصدِّقوا رسله فيما جاؤوكم به من عند الله، وفيما أخبرتكم به أن الله واحد لا شريك له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ﴾، يعني: ولا تقولوا: الأربابُ ثلاثة.

ورفعت «الثلاثة»، بمحذوف دلّ عليه الظاهر، وهو «هم». ومعنى الكلام: ولا تقولوا هم ثلاثة. وإنما جاز ذلك، لأن «القول» حكاية، والعرب تفعل ذلك في الحكاية، ومنه قول الله: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ﴾ [الكهف ٢٢]. وكذلك كل ما ورد من مرفوع بعد «القول» لا رافع معه، ففيه إضمار اسم رافع لذلك الاسم.

ثم قال لهم جل ثناؤه، متوعداً لهم في قولهم العظيم الذي قالوه في الله: ﴿ ٱنتَهُواْ ﴾، أيها القائلون: الله ثالث ثلاثة، عما تقولون من الزور والشرك بالله، فإن الانتهاء عن ذلك خير لكم من قِيله، لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم ـ على قِيلكم ذلك، إن أقمتم عليه، ولم تنيبوا إلى الحق الذي أمرتكم بالإنابة إليه ـ والآجِل في معادكم.

القول في تأويل قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾. قال أبو جعفر: يعني بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، ما الله، أيها القائلون: الله ثالث ثلاثة، كما تقولون، لأن من كان له ولد، فليس بإله. وكذلك من كان له صاحبة، فغير جائز أن يكون إلهاً معبوداً. ولكن الله الذي له الألوهة والعبادة، إله واحد معبود، لا ولد له، ولا والد، ولا صاحبة ولا شريك.

ثم نزّه جل ثناؤه نفسه وعظّمها ورفعها عما قال فيه أعداؤه الكَفَرة به فقال: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾، يقول: علا الله وجل وعز وتعظّم وتنزّه عن أن يكون له ولد أو صاحبة.

ثم أخبر جل ثناؤه عباده: أن عيسى وأمّه ومن في السموات ومن في الأرض، عبيدهُ وإماؤه وخلقه، وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه، احتجاجاً منه بذلك على من ادّعى أن المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا، لم يكن ذا حاجة إليه، ولا كان له عبداً مملوكاً، فقال: ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، يعني: لله ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ملكاً وخلقاً، وهو يرزقهم ويقُوتهم ويدبُّرهم، فكيف يكون المسيح ابناً لله، وهو في الأرض أو في السموات، غيرُ خارج من أن يكون في بعض هذه الأماكن؟

وقوله: ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾، يقول: وحسب ما في السموات وما في الأرض بالله قيّماً ومدبّراً ورازقاً، من الحاجة معه إلى غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ ﴾، لن يأنف ولن يستكبر المسيح، ﴿ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ ﴾ يعني: من أن يكون عبداً لله، كما:

حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾، لن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة. وأما قوله: ﴿ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾، فإنه يعني: ولن يستنكف أيضاً من الإقرار لله بالعبودة والإذعان له بذلك، رسلُه ﴿ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾، الذين قرّبهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه. وروى عن الضحاك أنه كان يقول في ذلك، ما:

حدثني به جعفر بن محمد البزوري قال، حدثنا يعلى بن عبيد، عن الأجلح قال: قلت للضحاك: ما ﴿ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية.

القول في تأويل قوله: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾. قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: ومن يتعظّم عن عبادة ربه، ويأنفْ من التذلل والخضوع له بالطاعة من الخلق كلهم، ويستكبر عن ذلك، ﴿ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾، يقول: فسيبعثهم يوم القيامة جميعاً، فيجمعهم لموعدهم عنده.

الزمخشري ج ١ ص ٥٨٤ ـ ٥٨٨

من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحيّ، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة. ومعنى ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها (ثلاثة) خبر مبتدأ محذوف، فإن صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس، وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وبأقنوم الابن العلم وبأقنوم روح القدس الحياة، فتقديره الله ثلاثة وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة، والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله ـ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ـ وقالت النصارى المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم، ويدل عليه قوله ـ إنما المسيح عيسى ابن مريم ـ فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها، وأن اتصاله بالله تعالى من حيث إنه رسوله، وأنه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب. فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالآباء، وقوله ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، وحكاية الله أوثق من حكاية غيره. ومعنى ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ سبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد؛ وقرأ الحسن ﴿أَن يَكُونَ﴾ بكسر الهمزة ورفع النون: أي سبحانه ما يكون له ولد، على أن الكلام جملتان ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بيان لتنزهه عما نسب إليه: يعني أن كل ما فيهما خلقه وملكه فيكف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض ـ وكفى بالله وكيلاً ـ يكل إليه الخلق كلهم أمورهم فهو الغنيّ عنهم وهم الفقراء إليه ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة، من نكفت الدمع إذا نحيته عن خدك بأصبعك ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن في طبقتهم. فإن قلت: من أين دل قوله ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ على أن المعنى ولا من فوقه؟ قلت: من حيث أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوّهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم لن يترفع عيسى عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية التصغير. وروي «أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم قالوا: عيسى، قال: وأي شيء أقول؟ قالوا: تقول إنه عبدالله ورسوله، قال: إنه ليس بعار أن يكون عبد الله، قالوا بلى، فنزلت»: أي لا يستنكف عيسى من ذلك فلا تستنكفوا له منه، فلو كان موضع استنكاف لكان هو أولى بأن يستنكف لأن العار ألصق به. فإن قلت: علام عطف قوله ولا الملائكة؟ قلت: لا يخلو إما أن يعطف على المسيح أو على اسم يكون، أو على المستتر في عبداً لما فيه من معنى الوصف لدلالته على معنى العبادة كقولك: مررت برجل عبد أبوه، فالعطف على المسيح هو الظاهر لأداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض، وهو أن المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية، أو أن يعبد الله هو ومن فوقه. فإن قلت: قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبدالله في هذا العطف فما وجهه؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد ولا كل واحد من الملائكة أو ولا الملائكة المقرّبون أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة عبدالله عليه إيجازاً، وأما إذا عطفتهم على الضمير في عبداً فقد طاح هذا السؤال. . .

الرازي ج ١١ ص ١١٤ ـ ١١٩

قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾.

فاعلم أنا فسرنا «الكلمة» في قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] والمعنى أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وأما قوله (وروح منه) ففيه وجوه: الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله (منه) التشريف والتفضيل كما يقال: هذه نعمة من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة. الثاني: أنه كان سبباً لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح. قال تعالى في وصفه القرآن ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢] الثالث: روح منه أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي برحمة منه، وقال عليه الصلاة والسلام «إنما أنا رحمة مهداة» فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث أنه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم لا جرم سمي روحاً منه. الرابع: أن الروح هو النفخ في كلام العرب، فإن الروح والريح متقاربان، فالروح عبارة عن نفخة جبريل وقوله ﴿ مِّنۡهُۖ ﴾ يعني أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] الخامس: قوله ﴿ رُوحٞ ﴾ أدخل التنكير في لفظ (رُوحٌ) وذلك يفيد التعظيم، فكان المعنى: وروح من الأرواح الشريفة القدسية العالية، وقوله ﴿ مِّنۡهُ ﴾ إضافة لذلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتعظيم. . .

ثم قال ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾ وفيه مسألتان: .

المسألة الأولى: واعلم أن مذهب النصارى مجهول جداً، والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة، إلا أنهم وإن سموها صفات فهي في الحقيقة ذوات، بدليل أنهم يجوزون عليها الحلول في عيسى وفي مريم بأنفسها، وإلا لما جوزوا عليها أن تحل في الغير وأن تفارق ذلك الغير مرة أخرى، فهم وإن كانوا يسمونها بالصفات إلا أنهم في الحقيقة يثبتون ذوات متعددة قائمة بأنفسها، وذلك محض الكفر، فلهذا المعنى قال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ ﴾ فأما إن حملنا الثلاثة على أنهم يثبتون صفات ثلاثة، فهذا لا يمكن إنكاره، وكيف لا نقول ذلك وإنا نقول: هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام العالم الحي القادر المريد، ونفهم من كل واحد من هذه الألفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر، ولا معنى لتعدد الصفات إلا ذلك، فلو كان القول بتعدد الصفات كفراً لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث أنا نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من كونه تعالى قادراً أو حياً.

المسألة الثانية: قوله ﴿ ثَلَٰثَةٌۚ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، ثم اختلفوا في تعيين ذلك المبتدأ على وجوه الأول: ما ذكرناه، أي ولا تقولوا الأقانيم ثلاثة. الثاني: قال الزجاج: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وذلك لأن القرآن يدل على أن النصارى يقولون: أن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، والدليل عليه قوله تعالى ﴿ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ [المائدة: ١١٦] الثالث: قال الفراء ولا تقولوا هم ثلاثة كقوله ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ ﴾ [الكهف: ٢٢] وذلك لأن ذكر عيسى ومريم مع الله تعالى بهذه العبارة يوهم كونهما إلهين، وبالجملة فلا نرى مذهباً في الدنيا أشد ركاكة وبعداً عن العقل من مذهب النصارى.

ثم قال تعالى ﴿أَنتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ وقد ذكرنا وجه انتصابه عند قوله ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] ثم أكد التوحيد بقوله ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ثم نزه نفسه عن الولد بقوله ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ودلائل تنزيه الله عن الولد قد ذكرناها في سورة آل عمران، وفي سورة مريم على الاستقصاء. وقرأ الحسن: إن يكون، بكسر الهمزة من «أن» ورفع النون من يكون، أي سبحانه ما يكون له ولد، وعلى هذا التقدير فالكلام جملتان.

ثم قال تعالى ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ واعلم أنه سبحانه في كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالكاً لما في السموات وما في الأرض فقال في مريم ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] والمعنى: من كان مالكاً لكل السموات والأرض ولكل ما فيها كان مالكاً لعيسى ولمريم لأنهما كانا في السموات وفي الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما في الذات والصفات، وإذا كان مالكاً لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكاً لهما أولى، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولداً وزوجة.

ثم قال ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ والمعنى أن الله سبحانه كافٍ في تدبير المخلوقات وفي حفظ المحدثات فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر، وهو إشارة إلى ما يذكره المتكلمون من أنه سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات قادراً على كل المقدورات كان كافياً في الإلهية، ولو فرضنا إلهاً آخر معه لكان معطلاً لا فائدة فيه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً.

ثم قال تعالى ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: لن يستنكف أي لن يأنف، وأصله في اللغة من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك عن خدك، فتأويل ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ أي لن يتنغص ولن يمتنع، وقال الأزهري: سمعت المنذري يقول: سمعت أبا العباس وقد سئل عن الاستنكاف فقال: هو من النكف، يقال ما عليه في هذا الأمر من نكف ولا وكف، والنكف أن يقال له سوء، واستنكف إذا دفع ذلك السوء عنه.

المسألة الثانية: روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا قال: ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى: قال: وأي شيء قلت؟ قالوا تقول إنه عبد الله ورسوله، قال: إنه ليس بعار أن يكون عبد الله، فنزلت هذه الآية، وأنا أقول: إنه تعالى لما أقام الحجة القاطعة على أن عيسى عبد الله، ولا يجوز أن يكون ابناً له أشار بعده إلى حكاية شبهتهم وأجاب عنها، وذلك لأن الشبهة التي عليها يعولون في إثبات أنه ابن الله هو أنه كان يخبر عن المغيبات وكان يأتي بخوارق العادات من الأحياء والإبراء، فكأنه تعالى قال ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ . . .

المسألة الثالثة: استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر. وقد ذكرنا استدلالهم بها في تفسير قوله ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [طه: ١١٦] وأجبنا عن هذا الاستدلال بوجوه كثيرة، والذي نقول ههنا: إنا نسلم أن اطلاع الملائكة على المغيبات أكثر من اطلاع البشر عليها، ونسلم أن قدرة الملائكة على التصرف في هذا العالم أشد من قدرة البشر، كيف ويقال: إن جبريل قلع مدائن قوم لوط بريشة واحدة من جناحه إنما النزاع في أن ثواب طاعات الملائكة أكثر أم ثواب طاعات البشر، وهذه الآية لا تدل على ذلك البتة، وذلك لأن النصارى إنما أثبتوا إلهية عيسى بسبب أنه أخبر عن الغيوب وأتى بخوارق العادات. فإيراد الملائكة لأجل إبطال هذه الشبهة إنما يستقيم إذا كانت الملائكة أقوى حالاً في هذا العلم، وفي هذه القدرة من البشر، ونحن نقول بموجبه. فأما أن يقال: المراد من الآية تفضيل الملائكة على المسيح في كثرة الثواب على الطاعات فذلك مما لا يناسب هذا الموضع ولا يليق به، فظهر أن هذا الاستدلال إنما قوي في الأوهام لأن الناس ما لخصوا محل النزاع والله أعلم.

المسألة الرابعة: في الآية سؤال، وهو أن الملائكة معطوفون على المسيح فيصير التقدير: ولا الملائكة المقربون في أن يكونوا عبيداً لله وذلك غير جائز.

والجواب فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المراد ولا كل واحد من المقربين. والثاني: أن يكون المراد ولا

الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً فحذف ذلك لدلالة قوله (عبداً لله) عليه على طريق الإيجاز.

المسألة الخامسة قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه (عبيد الله) على التصغير.

المسألة السادسة: قوله ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يدل على أن طبقات الملائكة مختلفة في الدرجة والفضيلة فالأكابر منهم مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، وقد شرحنا طبقاتهم في سورة البقرة في تفسير قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم قال تعالى ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ والمعنى أن من استنكف عن عبادة الله واستكبر عنها فإن الله يحشرهم إليه أي يجمعهم إليه يوم القيامة حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً.

واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه يحشر هؤلاء المستنكفين المستكبرين لم يذكر ما يفعل بهم بل ذكر أولاً ثواب المؤمنين المطيعين.

الطبرسي ج ٥ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٥

﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أرسله الله إلى الخلق لا كما زعمت الفرقتان المبطلتان ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ يعني أنه حصل بكلمته التي هي قوله كن! عن الحسن وقتادة، وقيل معناه أنه يهتدي به الخلق كما اهتدوا بكلام الله ووحيه عن أبي علي الجبائي، وقيل معناه بشارة الله التي بشرتها مريم على لسان الملائكة كما قال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وهو المراد بقوله (ألقاها إلى مريم) كما يقال ألقيت إليك كلمة حسن أي قلت، وقيل معنى ألقاها إلى مريم خلقها في رحمها عن الجبائي ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أنه إنما سماه روحاً لأنه حدث عن نفخة جبرائيل في درع مريم بأمر الله تعالى، وإنما نسبه إليه كان بأمر، وقيل إنه إضافة إلى نفسه تفخيماً لشأنه كما قال الصوم لي وأنا أجزي به، وقد يسمى النفخ روحاً واستشهد على ذلك ببيت ذي الرمة يصف ناراً:

فقلت له ارفعها إليك واحيها ... بروحك واقتت لها قيتة قدرا

وظاهر لها من يابس الشخت واستعن ... عليه الصبا واجعل يديك لها سترا

ومعنى احيها بروحك أي بنفخك، ويقال اقتت النار إذا أطعمتها حطباً. والثاني: أن المراد به يحيي به الناس في دينهم كما يحيون بالأرواح عن الجبائي، فيكون المعنى أنه جعله نبياً يقتدى به ويستن بسنته ويهتدى بهداه.

والثالث: أن معناه إنسان أحياه الله بتكوينه بلا واسطة من جماع أو نطفة كما جرت العادة بذلك عن أبي عبيدة.

والرابع: أن معناه «ورحمة منه» كما قال في موضع آخر ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي برحمة منه، فجعل الله عيسى رحمة على من آمن به واتبعه لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد.

والخامس: أن معناه روح الله من الله خلقها فصورها ثم أرسلها إلى مريم فدخلت في قلبها فصيرها الله تعالى عيسى عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب.

والسادس: أن معنى الروح ها هنا جبرائيل (ع) فتكون عطفاً على ما في ألقاها من ضمير ذكر الله، وتقديره ألقاها الله إلى مريم وروح منه أي من الله أي جبرائيل ألقاها أيضاً إليها ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أمرهم الله بتصديقه والإقرار بوحدانيته وتصديق رسله فيما جاؤوا به من عنده، وفيما أخبرهم به من أن الله سبحانه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد. . .

وقد شبهوا قولهم جوهر واحد ثلاثة أقانيم بقولنا سراج واحد، ثم تقول ثلاثة أشياء: دهن وقطن ونار، وشمس واحدة وإنما هي جسم وضوء وشعاع، وهذا غلط بعيد لأنا لا نعني بقولنا سراج واحد أنه شيء واحد بل هو أشياء على الحقيقة، وكذلك الشمس، كما تقول حشرة واحدة، وإنسان واحد، ودار واحدة، وإنما هي أشياء متغايرة. فإن قالوا إن الله شيء واحد وإله واحد حقيقة فقولهم ثلاثة متناقضة، وإن قالوا إنه في الحقيقة أشياء مثل ما ذكرناه في الإنسان والسراج وغيرهما فقد تركوا القول بالتوحيد

والتحقوا بالمشبهة، وإلا فلا واسطة بين الأمرين. . . فقال ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ ولفظة سبحانه تفيد التنزيه عما لا يليق به، أي هو منزه عن أن يكون له ولد. . . ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي حسب ما في السماوات وما في الأرض بالله قيماً ومدبراً ورازقاً، وقيل معناه وكفى بالله حافظاً لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها، فهو تسلية للرسول ووعيد للقائلين فيه سبحانه بما لا يليق به. . .

ابن عربي ج ١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٢

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ أما اليهود فبالتعمق في الظاهر ونفي البواطن، وحط عيسى عن درجة النبوة، ومقام الإتصاف بصفات الربوبية. وأما النصارى فبالتعمق في البواطن ونفي الظواهر، ورفع عيسى إلى مقام الإلوهية «ولا تقولوا على الله إلا الحق» بالجمع بين الظواهر والبواطن. والجمع والتفصيل، كما هو عليه التوحيد المحمدي، والقول بكون عيسى مظهراً للصفات الإلهية، حياً بحياته، داعياً إلى مقام توحيد الأوصاف، ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ ﴾ نفساً مجرّدة هي كلمة من كلمات الله، أي حقيقة من حقائقه الروحانية، روحاً من أرواح. ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ بالجمع والتفصيل ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ﴾ بزيادة الحياة، والعلم، على الذات، فيكون الإله ثلاثة أشياء، ويكون عيسى جزء من حياته بالنفخ، أو بالتفرقة بين ذات الحق، وعالم النور، وعالم الظلمة، فيكون عيسى متولداً من نوره، بل قولوا: بالكل من حيث هو كلّ فيكون العلم، والحياة عن الذات، وكذا عالم النور والظلمة، ويكون عيسى فانياً فيه، موجوداً بوجوده، حياً بحياته، عالماً بعلمه، وذلك، وحدته الذاتية المعبر عنها بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ نزهه أن يكون موجود غيره فيتولد منه، وينفصل ويجانسه بأنه موجود مثله، بل هو الموجود من حيث هو وجود. ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ الأرواح «والأرض» الأجساد، بكونها أسماؤه، وظاهره، وباطنه. ﴿ وَكِيلًا ﴾ يقوم مقام الخلق في أفعالهم، وصفاتهم، وذواتهم، عند فنائهم في التوحيد. كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (لا إله إلا الله بعد فناء الخلق).

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ في مقام التفصيل، إذ باعتبار الجمع لا وجود للمسيح ولا لغيره، فلا ممكن أصلاً. وأما باعتبار التفصيل، فكل ما ظهر بتعيّن فهو ممكن، والممكن لا وجود له بنفسه فضلاً عن شيء غيره فيكون عبداً محتاجاً، ذليلاً مفتقراً غير مستنكف عن ذلة العبودية، وإن كان غنياً عن تعلق الأجسام بالتجرد المحض، والتقدس عن دنس الطبائع، كالملائكة المقرّبين، الذين هم الأرواح المجردة، والأنوار المحصنة. ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾ بظهور أنيته «ويستكبر» بطغيانه في الظهور بصفاته. ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ بظهور نور وجهه، وتجليّه بصفة قاهريته، حتى يفنوا بالكلية في عين الجمع. . .

البيضاوي ج ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١

. . . ﴿ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ من أن يكون عبداً له فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: «لم تعيب صاحبنا»؟، قال رسول الله ﷺ: «ومن صاحبكم»؟ قالوا: «عيسى عليه السلام»، قال عليه السلام: «وأي شيء أقول» قالوا: «تقول إنه عبد الله ورسوله» قال: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله» قالوا: «بلى»؛ فنزلت ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيد الله، واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال مساقه لرد قول النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية، وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم كالدليل على عدم استنكافه. وجوابه أن الآية للرد على عبدة

المسيح والملائكة. فلا يتجه ذلك وإن سلم اختصاصها بالنصارى، فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير كقولك أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤوس وإن أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين هم حول العرش أو من أعلى منهم رتبة من الملائكة على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، ومن يرتفع عنها والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه، وإنما يستعمل حيث لا استحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم.

الخازن ج ١ ص ٦٢٦ ـ ٦٢٨

قوله عز وجل ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ نزلت هذه الآية في النصارى، وذلك أن الله تعالى لما أجاب عن شبه اليهود فيما تقدم من الآية اتبع ذلك بإبطال ما تعتقده النصارى، وأصناف النصارى أربعة: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية، فأما اليعقوبية والملكانية فقالوا في عيسى أنه الله وقالت النسطورية إنه ابن الله وقالت المرقوسية ثالث ثلاثة وقيل إنهم يقولون إن عيسى جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس، وإنهم يريدون بأقنوم الأب الذات، وبأقنوم الابن عيسى، وبأقنوم روح القدس الحياة الحالة فيه، فتقديره عندهم الإله ثلاثة، وقيل إنهم يقولون في عيسى ناسوتية وألوهية فناسوتيته من قبل الأم، وألوهيته من قبل الأب تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. يقال إن الذي أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له بولص تنصر ودس هذا في دين النصارى ليضلهم بذلك، وستأتي قصته في سورة التوبة إن شاء الله تعالى، وقيل يحتمل أن يكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً فإنهم غلوا في أمر عيسى عليه السلام. فأما اليهود فإنهم بالغوا في التقصير في أمره حتى حطوه عن منزلته حيث جعلوه مولوداً لغير رشدة، وغلت النصارى في رفع عيسى عن منزلته ومقداره حيث جعلوه إلهاً. . .

﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ هي قوله تعالى كن فكان بشراً من غير أب ولا واسطة ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ يعني أوصلها إلى مريم، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يعني أنه كسائر الأرواح التي خلقها الله تعالى، وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم كما يقال بيت الله، وناقة الله، وهذه نعمة من الله يعني أنه تفضل بها، وقيل الروح هو الذي نفخ فيه جبريل في جيب درع مريم فحملت بإذن الله. وإنما أضافه إلى نفسه بقوله منه لأنه وجد بأمر الله قال بعض المفسرين إن الله تعالى لما خلق أرواح البشر جعلها في صلب آدم عليه السلام، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد الله أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام، وقيل إن الروح والريح متقاربان في كلام العرب، فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام، وقوله منه يعني إن ذلك النفخ كان بأمره وإذنه، وقيل أدخل النكرة في قوله وروح على سبيل التعظيم، والمعنى روح وأي روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة، وقوله منه إضافته تلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتكريم (ق) عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». وقوله تعالى ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ يعني فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله، وأنه لا ولد له، وصدقوا رسله فيما جاءكم به من عند الله، وصدقوا بأن عيسى عليه السلام من رسل الله فآمنوا به ولا تجعلوه إله. . .

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. . . والمعنى أن جميع ما في السموات والأرض خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزء منه؟ لأن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزه عن صفات الأعراض والأجسام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يعني أنه تعالى كاف في تدبير جميع خلقه، فلا حاجة له إلى غيره، وكل الخلق محتاجون

إليه، وفقراء إليه، وهو غني عنهم. وقوله تعالى ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ وذلك أن وفد نجران قالوا: «يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله» فقال النبي ﷺ: «إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله»، فنزلت لن يستنكف المسيح يعني لن يأنف، ولن يتعظم، والاستنكاف الاستكبار مع الأنفة، يقال: نكفت من كذا، واستنكفت منه، أي أنفت منه، وأصله من نكفت الشيء نحيته، ونكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك من خدك، والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح أن يكون عبد الله ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ يعني ولن يستنكف الملائكة المقربون وهم حملة العرش، والكروبيون، وأفاضل الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أن يكونوا عبيد الله لأنهم في ملكه، ومن جملة خلقه، وقيل لما ادعت النصارى في عيسى أنه ابن الله وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من المعجزات أجاب الله تعالى عن هذه الشبهات التي وقعت للنصارى بأن عيسى من شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون فإنهم مع كرامتهم وعلو منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله. وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر، ووجه الدليل أن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة، ولا يرتقي إلاّ من الأدنى إلى الأعلى، ولا حجة لهم فيه، والجواب عنه أن الله تعالى لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر بل قاله رداً على من يقول إن الملائكة بنات الله، أو أنهم آلهة كما رد على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله، وقاله أيضاً رداً على النصارى فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة، يعني كما أن المسيح عبد الله فكذلك الملائكة عبيد الله. وقوله تعالى ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ يعني ومن يتعظم عن عبادة الله، ويأنف من التذلل لله والخضوع والطاعات من جميع خلقه. ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ يعني فسيبعثهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً.

القرطبي ج ٦ ص ٢٠ - ٢٥

قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ نهى عن الغلوّ. والغُلُوّ التّجاوز في الحدّ؛ ومنه غلاَ السّعر يَغْلو غَلاء؛ وغَلا الرجلُ في الأمر غُلُوّا، وغَلا بالجارية لحمُها وعظمُها إذا أسرعت الشّباب فجاوزت لِداتِها، ويعني في ذلك فيما ذكره المفسرون غُلوّ اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغُلوّ النّصارى فيه حتى جعلوه ربًّا، فالإفراط والتقصير كله سيئة وكُفر، وكذلك قال مُطَرِّف بن عبدالله: الحسنة بين سيّئتين؛ قال الشاعر:

وأوِف ولا تستوفِ حقَّك كلّه
وصافح فلم يستوف قطّ كريمُ
ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقتصدْ
كِلاَ طَرفي قصْدِ الأمورِ ذَميمُ

وقال آخر:

عليكَ بأوساطِ الأمور فإنها
نجاةٌ ولا تَركبْ ذَلولاً ولا صَعْباً

وفي صحيح البخاري عنه عليه السلام: «لا تطروني كما أطْرَتِ النصارى عيسى وقولوا عبدُ الله ورسوله».

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ أي لا تقولوا إن له شريكاً أو ابناً. ثم بيّن تعالى حال عيسى عليه السلام وصفته فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥ ﴾وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ ﴾، المسيح رفع بالابتداء؛ و﴿ عِيسَى ﴾ بدل منه وكذا ﴿ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾. ويجوز أن يكون خبرَ الابتداء ويكون المعنى: إنما المسيحُ ابن مريم. ودلّ بقوله ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ على أن من كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً، وحقُّ الإله أن يكون قديماً لا مُحدَثا. ويكون ﴿ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ خبراً بعد خبر.

الثانية: لم يذكر الله عزّ وجل امرأة وسمّاها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران، فإنه ذكر اسمها في نحوِ من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ، ولا يبتذلون

أسماءهنّ، بل يَكْنون عن الزوجة بالعِرْس والأهل والعِيال ونحو ذلك؛ فإن ذكروا الإماء لم يَكنوا عنهنّ ولم يصونوا أسماءهنّ عن الذّكر والتّصريح بها؛ فلما قالت النّصارى في مريم ما قالت وفي ابنها صرّح الله باسمها، ولم يَكْنِ عنها بالأموّة والعبوديّة التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمائها.

الثالثة: اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرّر ذكره منسوباً للأم استشعرت القلوبُ ما يجب عليها اعتقادُه من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله. والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أي هو مكوّن بكلمة «كُنْ» فكان بشراً من غير أب؛ والعرب تسمّي الشّيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه. وقيل: «كَلِمتهُ» بشارة الله تعالى مريم عليها السلام، ورسالته إليها على لسان جبريل، وذلك قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وقيل: «الكلمة» ههنا بمعنى الآية؛ قال الله تعالى ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ [التحريم: ١٢]، ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وكان لعيسى اربعة أسماء؛ المسيحُ وعيسى وكلمةٌ وروحٌ، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن. ومعنى ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريمَ.

قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هذا الذي أوقع النصارى في الإضلال؛ فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلّوا، وعنه أجوبة ثمانية: الأول: قال أبيّ بن كعب: خلق الله أرواح بني آدم لمّا أخذ عليهم الميثاق، ثم ردّها إلى صُلْب آدم وأمسك عنده روحَ عيسى عليه السلام؛ فلما أراد خلقه أرسل ذلك الرّوحَ إلى مريم، فكان منه عيسى عليه السلام؛ فلهذا قال: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. وقيل: هذه الإضافة للتّفضيل وإن كان جميع الأرواح من خلقه؛ وهذا كقوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ [الحج: ٢٦]. وقيل: قد يُسمّى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً، وتضاف إلى الله فيقال: هذا روح من الله أي من خلقه؛ كما يقال في النّعمة إنها من الله. وكان عيسى يُبرىء الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى فاستحق هذا الاسم. وقيل: يُسمّى رُوحاً بسبب نفخة جبريل عليه السلام، ويُسمّى النّفخ رُوحاً لأنه ريح يخرج من الرّوح؛ قال الشّاعر ـ هو ذو الرُّمة ـ:

فقلتُ لـه ارفعهـا إليـكَ وأحيهـا
بروحك واقتته لها قيتةً قدرا

... قوله تعالى ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي آمنوا بأن الله واحد خالق المسيح ومرسله، وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهاً، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟﴾ آلهتنا ﴿ ثَلَٰثَةٌ ﴾ عن الزّجاج. قال ابن عباس: يريد بالتّثليث الله تعالى وصاحبته وابنه. وقال الفرّاء وأبو عبيد: أي لا تقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ [الكهف ٢٢]. أبو علي: التقدير ولا تقولوا هو ثالثُ ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف. والنّصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أقنوم إلهاً ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة والعِلم، وربما يعبّرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس؛ فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، في كلام لهم فيه تخبّط بيانه في أصول الدّين. ومحصول كلامهم يئول إلى التّمسك بأن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته؛ وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالإلهية، فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرّهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً به؛ وإن لم يُسلِّموا ذلك فلا حجة لهم أيضاً؛ لأنهم معارضون بموسى عليه السّلام، وما كان يجري على يديه من الأمور العظام، مثل قَلْبِ العصا ثعباناً، وفَلْقِ البحر واليد البيضاء والمنّ والسّلوى، وغير ذلك؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء، فإن أنكروا ذلك فننكر ما يدّعونه هم أيضاً من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لعيسى؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذّبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التّواتر. وقد قيل:

إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفع عيسى؛ يُصَلُّون إلى القبلة، ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بُولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى فقال: إن كان الحق مع عيسى فقد كَفَرنا وجحدنا والنار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنّة ودخلنا النّار؛ وإنّي أحتال فيهم فأضلّهم فيدخلون النّار؛ وكان له فرس يقال له العُقاب، فأظهر النّدامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بُولس عدوُّكم قد نوديتُ من السماء أن ليست لك توبةٌ إلا أن تتنصّر، فأدخلوه في الكنيسة بيتاً فأقام فيه سنة لا يخرج ليلاً ولا نهاراً حتى تعلّم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديتُ من السماء أن الله قد قَبِل توبتكَ فصدّقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نسْطوراً وأعلمه أن عيسى ابن مريم إله، ثم توجه إلى الرّوم وعمهم اللاّهوت والنّاسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فتأنّس ولا بجسم فتجسّم ولكنه ابن الله. وعلّم رجلاً يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلاً يقال له الملك فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال لعيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً وقال له: أنت خالِصتي ولقد رأيتُ المسيح في النّوم ورَضِي عنّي، وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبح نفسي وأتقرّب بها، فادع الناس إلى نحلتك، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته، فتبع كل واحد منهم طائفة، فاقتتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النّصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال؛ والله أعلم. وقد رُويت هذه القصّة في معنى قوله تعالى ﴿ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [المائدة: ١٤]. وسيأتي إن شاء الله تعالى قوله تعالى ﴿ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ «خيراً» منصوب عند سيبويه بإضمار فعل؛ كأنه قال ائتوا خيراً لكم؛ لأنه إذا نهاهم عن الشّرك فقد أمرهم بإتيان ما هو خير لهم؛ قال سيبويه: وفيما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره ﴿ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ لأنك إذا قلت: انته فأنت تخرجه من أمر وتُدخله في آخر؛ وأنشد:

فَواعِدِيه سَرْحَتي مَالِكٍ
أو الرُّبَا بينهما أسْهَلا

ومذهب أبي عبيدة: إنتهوا يَكُن خيراً لكم؛ قال محمد بن يزيد: هذا خطأ، لأنه يضمر الشّرط وجوابه، وهذا لا يوجد في كلام العرب. ومذهب الفرّاء أنه نعت لمصدر محذوف، قال عليّ بن سليمان: هذا خطأ فاحش؛ لأنه يكون المعنى: إنتهوا الانتهاء الذي هو خير لكم. قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ ابتداء وخبر؛ و«واحدٌ» نعتٌ له. ويجوز أن يكون «إله» بدلاً من اسم الله عزّ وجلّ و«واحدٌ» خبره، التقدير إنما المعبود واحد. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أي تنزيهاً عن أن يكون له ولد؛ فلما سقطَ «عن» كان «أنْ» في محل النّصب بنزع الخافض؛ أي كيف يكون له ولد، وولد الرجل مُشْبِه له، ولا شبيه لله عزّ وجلّ. ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فلا شريك له، وعيسى من جملة ما في السموات والأرض، وما فيهما مخلوق، فكيف يكون عيسى إلهاً وهو مخلوق! وإن جاز ولد فليجز أولاد حتى يكون كلّ من ظهرت عليه معجزة ولداً له. ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي لأوليائه، وقد تقدّم. .

قوله تعالى ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ أي لن يأنف ولن يحتشِم. ﴿ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ أي من أن يكون؛ فهو في موضع نصب. وقرأ الحسن: «إن يكون» بكسر الهمزة على أنها نفي هو بمعنى «ما» والمعنى ما يكون له ولد؛ وينبغي رفع يكون ولم يذكره الرّواة. ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي من رحمة الله ورضاه؛ فدل بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وكذا ﴿ولا أقول إني ملك﴾ [هود: ٣١] وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في «البقرة». ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ ﴾ أي يأنف ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ ﴾ فلا يفعلها. ﴿ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى المحشر. ﴿ جَمِيعًا ﴾ فيجازي كلاً بما يستحق، كما بيّنه في الآية بعد هذا.

أبو حيان الأندلسي ج ٣ ص ٤٠٠ ـ ٤٠٥

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك والولد، والحلول والاتحاد ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾. قرأ جعفر بن محمد ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ ﴾ على وزن السكيت، وتقدم شرح الكلمة في ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] ومعناها ﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أوجد هذا الحادث في مريم وحصله فيها، وهذه الجملة قيل: حال، وقيل: صفة على تقدير نية الانفصال، أي: وكلمة منه، ومعنى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي: صادرة لأنه ذو روح، وجد من غير جزء من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته. وقال أبيّ بن كعب: عيسى روح من أرواح الله تعالى الذي خلقها واستنطقها بقوله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل. وقال الطبري وأبو روق ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي نفخة منه، إذ هي من جبريل بأمره وأنشد بيت ذي الرمة:

فقلت له اضممها إليك وأحيها

بروحك واجعله لها قيتة قدرا

يصف سقط النار، وسمي روحاً لأنه حدث عن نفخة جبريل. وقيل ومعنى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي: رحمة ومنه ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقيل سمي روحاً لإحياء الناس به كما يحيون بالأرواح، ولهذا سمي القرآن روحاً. وقيل: المعنى بالروح هنا الوحي، أي ووحي إلى جبريل بالنفخ في درعها، أو إلى ذات عيسى إن كن ونكر ﴿ وَرُوحٌ ﴾ لأن المعنى على تقدير صفة لا على إطلاق روح، أي: وروح شريفة نفيسة من قبله تعالى ﴿ وَمَن ﴾ هنا لابتداء الغاية، وليست للتبعيض كما فهمه بعض النصارى، فادعى أن عيسى جزء من الله تعالى، فرد عليه علي بن الحسين بن وافد المروزي، حين استدل النصراني بأن في القرآن ما يشهد لمذهبه، وهو قوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ فأجابه ابن وافد بقوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال: إن كان يجب بهذا أن يكون عيسى جزأ منه، وجب أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزأ منه، فانقطع النصراني وأسلم، وصنف ابن فايد إذا ذاك كتاب النظائر ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي: الذين من جملتهم عيسى ومحمد عليهما السلام ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الآلهة ثلاثة. قال الزمخشري والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم ألا ترى إلى قوله ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ١١٦] وقالت النصارى: المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: في المسيح لاهوتيته وناسوتيته من جهة الأب والأم، ويدل عليه قوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتهم، وأن اتصاله بالله عز وجل من حيث أنه رسوله، وأنه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب ينفي أنه يتصل به اتصال الأبناء بالآباء، وقوله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ [المائدة: ١٧١] وحكاية الله أوثق من حكاية غيره، وهذا الذي رجحه الزمخشري قول ابن عباس قاله، يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه. .

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون التقدير: المعبود ثلاثة، أو الآلهة ثلاثة، أو الأقانيم ثلاثة، وكيفما تشعب اختلاف عبارات النصارى، فإنه يختلف بحسب ذلك التقدير انتهى. وقال الزجاج: تقديره إلها ثلاثة. وقال الفراء وأبو عبيد: تقديره ثلاثة كقوله ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ ﴾ وقال أبو علي: التقدير: الله ثالث ثلاثة، حذف المبتدأ والمضاف انتهى أراد أبو علي موافقة قوله ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣] أي: أحد آلهة ثلاثة، والذي يظهر أن الذي أثبتوه هو ما أثبت في الآية خلافه، والذي أثبت في الآية بطريق الحصر إنما هو وحدانية الله تعالى، وتنزيهه أن يكون له ولد، فيكون التقدير: ولا تقولوا الله ثلاثة، ويترجح قول أبي علي بموافقته الآية التي ذكرناها، وبقوله تعالى ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن

﴿يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾، والنصارى وإن اختلفت فرقهم فهم مجمعون على التثليث، ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ تقدم الكلام في انتصاب ﴿خَيْرًا﴾. وقال الزمخشري: في تقدير مذهب سيبويه في نصبه لما بعثهم على الإيمان يعني في قوله ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء ١٧٠] وعلى الانتهاء عن التثليث يعني في قوله ﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ علم أنه يحملهم على أمر، فقال: ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: اقصدوا وأتوا خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو الإيمان والتوحيد انتهى، وهو تقدير سيبويه في الآية ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قال ابن عطية: إنما في هذه الآية حاصرة، اقتضى ذلك العقل في المعنى المتكلم فيه، وليست صيغة ﴿إِنَّمَا﴾ تقتضي الحصر، ولكنها تصلح للحصر والمبالغة في الصفة، وإن لم يكن حصر نحو إنما الشجاع عنترة وغير ذلك انتهى كلامه، وقد تقدم كلامنا مشبعاً في ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] وكلام ابن عطية فيها هنا: إنها لا تقتضي بوضعها الحصر صحيح، وإن كان خلاف ما في أذهان كثير من الناس ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ معناه: تنزيهاً له، وتعظيماً من أن يكون له ولد، كما تزعم النصارى في أمره، إذ قد نقلوا أبوة الحنان والرأفة إلى أبوة النسل. وقرأ الحسن ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ بكسر الهمزة وضم النون من يكون، على أن ﴿إِنَّ﴾ نافية، أي: ما يكون له ولد، فيكون التنزيه عن التثليث، والإخبار بانتفاء الولد، فالكلام جملتان، وفي قراءة الجماعة واحدة، ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أخبار لملكه بجميع من فيهن، فيستغرق ملكه عيسى وغيره، ومن كان ملكاً لا يكون جزأ من المالك، على أن الجزئية لا تصح إلا في الجسم، والله تعالى منزه عن الجسم والعرض. . .

ابن كثير ج ١ ص ٥٨٩ ـ ٥٩١

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] الآية. وقال الإمام أحمد. . . عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، ثم رواه هو وعلي بن المديني عن الزهري كذلك، ولفظه «إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» وقال علي بن المديني. . . هذا حديث صحيح مسند، وهكذا رواه البخاري. . . عن الزهري به ولفظه «فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، وقال الإمام أحمد. . . عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ «أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبدالله عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» تفرد به من هذا الوجه. وقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه، وتقدس، وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ولهذا قال ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذنه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها

جبريل. قال الله تعالى ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ﴾ [المائدة: ٧٥] وقال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال تعالى ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ [التحريم: ١٢] إلى آخر السورة، وقال تعالى إخباراً عن المسيح ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩] الآية. وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ هو كقوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧] وقال ابن أبي حاتم.. عن شاذ بن يحيى يقول في قول الله ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ قال: ليس الكلمة صارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى هذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله ﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ أي: أعلمها بها كما زعمه في قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام. وقال البخاري... عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، وقال الوليد... عن جنادة زاد «من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء»، وكذا رواه مسلم... عن ابن جابر به، ومن وجه آخر عن الأوزاعي به فقوله في الآية والحديث «وروح منه» كقوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، أي من خلقه ومن عنده، وليست من للتبعيض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى، وقد قال مجاهد في قوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ أي ورسول منه وقال غيره ومحبة منه، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله ﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٧٣] وفي قوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ ﴾ [الحج: ٢٦] وكما روي في الحديث الصحيح «فأدخل على ربي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد وقوله ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي: فصدقوا بأن الله واحد أحد لا ولد له ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ﴾ أي: لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣] وكما قال في آخر السورة المذكورة ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، وقال في أولها ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧] الآية، والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم، وليس لهم ضابط، ولا لكفرهم حد بل أقوالهم وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلهاً، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولداً، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة. ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً. ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً، فكانوا أحزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة، وعشرون على مقالة، ومائة على مقالة، وسبعون على مقالة، وأزيد من ذلك وأنقص. فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر نفر، وقد توافقوا على

مقالة فأخذها الملك ونصرها وأيدها، وكان فيلسوفاً داهية، ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دست أولئك الثلثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقنونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية، وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا، أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة . . .

قال ابن أبي حاتم حدثنا . . . عن ابن عباس قوله ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ﴾ لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم ﴿ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، وليس له في ذلك دلالة لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده، وخلق من خلقه كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] الآيات ولهذا قال ﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ أي: فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف.

الشوكاني ج ١ ص ٥٣٩ ـ ٥٤٣

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ ﴾ الغلو: هو التجاوز في الحدّ ومنه غلا السعر يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لداتها. والمراد بالآية: النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى، فمن الإفراط غلوّ النصارى في عيسى حتى جعلوه ربا، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة، وما أحسن قول الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد
كلا طرفي قصد الأمور ذميم

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزير ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾، المسيح مبتدأ، وعيسى بدل منه، وابن مريم صفة لعيسى، ورسول الله الخبر، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان، والجملة تعليل للنهي، وقد تقدّم الكلام على المسيح في آل عمران. قوله ﴿ وَكَلِمَتُهُۥ ﴾ عطف على رسول الله، و﴿ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ حال، أي كوّنه بقوله كن فكان بشراً من غير أب، وقيل (كلمته) بشارة الله مريم ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقيل الكلمة ها هنا بمعنى الآية، ومنه ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ [التحريم: ١٢] وقوله ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أي بأنه سبحانه إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه، ولا تكذبوهم ولا تغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آلهة. قوله ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ﴾ ارتفاع ثلاثة على أنه خبر مبتدأ محذوف قال الزجاج: أي لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وقال الفراء وأبو عبيد: أي لا تقولوا هم ثلاثة كقوله ـ سيقولون ثلاثة ـ وقال أبو علي الفارسي: لا تقولوا هو ثالث ثلاثة، فحذف المبتدأ والمضاف، والنصارى مع تفرّق مذاهبهم متفقون على التثليث، ويعنون بالثلاثة: الثلاثة الأقانيم، فيجعلونه سبحانه جوهراً واحداً له ثلاثة أقانيم، ويعنون بالأقانيم أقنوم الوجود، وأقنوم الحياة، وأقنوم العلم، وربما يعبرون عن

الأقانيم بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود وبالروح الحياة وبالابن المسيح. وقيل المراد بالآلهة الثلاثة: الله سبحانه وتعالى، ومريم، والمسيح. وقد اختبط النصارى في هذا اختباطاً طويلاً.

ووقفنا في الأناجيل الأربعة التي يطلق عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير في عيسى: فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان، وتارة يوصف بأنه ابن الله، وتارة يوصف بأنه ابن الربّ، وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين. والحق ما أخبرنا الله به في القرآن، وما خالفه في التوراة، أو الإنجيل، أو الزبور، فهو من تحريف المحرّفين، وتلاعب المتلاعبين. ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام.

وحاصل ما فيها جميعاً أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه، وذكر ما جرى له من المعجزات والمراجعات لليهود ونحوهم، فاختلفت ألفاظهم، واتفقت معانيها، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ والضبط، وذكر ما قاله عيسى وما قيل له، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء، ولا أنزل على عيسى من عنده كتاباً، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوراة ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها، وهكذا الزبور فإنه من أوّله إلى آخره من كلام داود عليه السلام. وكلام الله أصدق، وكتابه أحق، وقد أخبرنا أن الإنجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، وأن الزبور كتابه آتاه داود وأنزله عليه.

القاسمي ج ٥ ص ٦٧٤ ـ ٦٨٦

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ أي: بالإفراط في رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء ألوهيته. فإنه تجاوزٌ فوق المنزلة التي أُوتيهَا، وهي الرسالة. واستفيد حرمة الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد. وفي الصحيح عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى... عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا محمد! يا سيدنا وابن سيدنا! وخيرنا وابن خيرنا! فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله، عبد الله ورسوله، والله! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل».

قال ابن كثير: تفرد به من هذا الوجه، ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ أي: لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد، بل نزهوه عن جميع ذلك ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه به من كونه ابناً لله تعالى ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبر المبتدأ أعني المسيح، أي: مقصور على مقام الرسالة لا يتخطاه ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أي: مكوّن بكلمته وأمره الذي هو (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة «﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾، أي: أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾، أي بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة، وإنما أضافهُ إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم. كما يقال: بيت الله، وناقة الله. وقيل: الروح هو نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم، فحملت بإذن الله. سمي النفخ روحاً لأنه ريح تخرج من الروح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه وجد بأمره تعالى وإذنه.

قال أبو السعود: (من) لابتداء الغاية مجازاً، لا تبعيضية، كما زعمت النصارى. يحكى أن طبيباً نصرانيًا للرشيد، ناظَرَ عليّ بن حسين الواقديّ المروزيّ ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية. فقرأ الواقدي: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]. فقال: إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه، تعالى علوًا كبيراً، فانقطع النصرانيّ وأسلم. وفرح الرشيد فرحاً شديداً، ووصل الواقديّ بصلة فاخرة. وقيل: سمي روحاً، لإحيائه الموتى بإذن الله. وقيل: لإحيائه القلوب.

كما سمى به القرآن لذلك، في قوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقيل: أريد بالروح الوحي الذي أوحي إلى مريم بالبشارة. وقيل: جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة، قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى عليه السلام متكوّناً من النفخ، لا من النطفة، وصف بالروح. وتقديم كونه عليه السلام رسول الله في الذكر، مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه، في الوجود ـ لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل، وتعيين مآل ما يحتمله، وسدّ باب التأويل الزائغ. انتهى ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وخصوه بالألوهية ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: جميعهم وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالألوهية ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، كما ينبىء عنه قوله تعالى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقد ذكر السيد عبدالله الهنديّ في مناظرته مع قسيس الهند حكاية عن مناظرة؛ أنه حكى أن فرقة من النصارى تسمى (كولى ري دينس) كانت تقول: الآلهة ثلاثة: الأب والابن ومريم. قال: ولعل هذا الأمر كان مكتوباً في نسخهم، لأن القرآن كذبهم. انتهى.

أو التقدير: ولا تقولوا: الله ثلاثة. أي ثلاثة أقانيم. وفي تعاليمهم المدرسية المطبوعة الآن ما نصه: أخص أسرار المسيحية سر الثالوث، وهو إله واحد في ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس. والأب هو الله والابن هو الله وروح القدس هو الله، وليسوا ثلاثة آلهة، بل إله واحد موجود في ثلاثة أقانيم متساوين في الجوهر ومتميزين فيما بينهم بالأقنومية، وذلك لأن لهم جوهراً واحداً ولاهوتاً واحداً وذاتاً واحدة. وليس أحد هذه الأقانيم الثلاثة أعظم أو أقدم أو أقدر من الآخرين، لكون الثلاثة متساوية في العظمة والأزلية والقدرة وفي كل شيء، ما عدا الأقنومية. ولا نقدر أن نفهم جيداً هذه الحقائق لأنها أسرار فائقة العقل والإدراك البشريّ. انتهى كلامهم في تعليمهم المدرسيّ المطبوع في بيروت سنة (١٨٧٦) مسيحية، فانظر إلى هذا التناقض والتمويه.

يعترفون بأن الثلاثة آلهة، ثم يناقضون قولهم وينكرون ذلك.

ونقل العلامة الشيخ رحمة الله الهنديّ في كتابه (إظهار الحق) عن صاحب (ميزان الحق) النصرانيّ أنه قال: نحن لا نقول: إن الله ثلاثة أشخاص أو شخص واحد. بل نقول بثلاثة أقانيم الوحدة. وبين الأقانيم الثلاثة وثلاثة أشخاص بُعد السماء والأرض. انتهى.

قال رحمة الله: وهذه مغالطة صرفة، لأن الموجود لا يمكن أن يوجد بدون التشخص. فإذا فرض أن الأقانيم موجودون وممتازون بالامتياز الحقيقيّ، كما صرح هو بنفسه في كتبه، فالقول بوجود الأقانيم الثلاثة هو بعينه القول بوجود الأشخاص الثلاثة. على أنه وقع في الصحيفة التاسعة والعشرين من كتاب الصلاة، الرائج في كنيسة انكلترة، المطبوع سنة (١٨١٨) ما ترجمته: أيها الثلاثة المقدسون والمباركون والعالون منزلةً، الذين هم واحد. يعني ثلاثة أشخاص وإلهاً واحداً، فوقع فيه ثلاثة أشخاص صريحاً. وكذلك مملوءة بعبارات مصرحة بأن عيسى ابن الله، وأنه الله، وأن مريم أم الله وزوجة الله، ويسجدون لها ولصورتها السجود المحرَّم في كتبهم لغير الله، كما يسجدون لله. نسأله سبحانه وتعالى الحفظ، ونعوذ به من الخذلان وتسويلات الشيطان.

ولقد شفى الغليل الأستاذ الجيل الشيخ رحمة الله في (إظهار الحق) فساق، في الباب الرابع منه، إبطال التثليث بالبراهين الدامغة والحجج البالغة. كما رد عليهم من المسلمين وممن أسلم منهم عدد وافر يفوت الحصر. وقد انتشر، ولله الحمد، في ذلك مؤلفات نافعة، بل رد عليهم فرق كثيرة منهم، فقد جاء في كتاب (الرأي الصواب وفصل الخطاب) للقس جبارة ما صورته: إن المسيحيين الموحدين الذين ظهروا منذ (٨٠) سنة في أميركا ولهم الآن ثلاثمائة كنيسة والدرجة الأولى في المعارف والمدارس والاجتماعات الأدبية، وكذلك لهم في إنكلترا ثلاثمائة كنيسة وتآليف عديدة معتبرة، ويعتبرون القرآن كما يعتبرون الإنجيل والتوراة كتباً إلهية ـ لا يؤمنون بتثليث الآلهة. أي إنهم لا يعتقدون بكون السيد المسيح أو الروح

القدس هو إله حقيقيّ، كالله الواجب الوجود، بل يعتقدون أن الله وحده هو الإله الحق. انتهى.

وفيه أيضاً ما لفظه: كل الكتب المنزل تعلّم بالوحدانية وتنفي تثليث الآلهة، أو كون الله ثلاثة. وتعلن صريحاً بأوضح العبارة؛ أن الله واحد أحد، وأنه لا إله حقاً سواه. انتهى.

وفي كتاب (سوسنة سليمان) ذكر فرق منهم متعددة صارت إلى إنكار ألوهية المسيح والروح القدس. وهذا الكتاب ساق من فرقهم العتيقة والحديثة واختلافهم ما يقضي بالعجب، مما يؤيد ما قاله الحافظ ابن كثير، من أن لهم آراء مختلفة وأقوالاً غير مؤتلفة. ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً. انتهى.

قال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية في (الرسالة القبرصية): فتفرّق النصارى في التثليث والاتحاد تفرقاً وتشتتوا تشتيتاً لا يقرّ به عاقل ولم يجيء به نقل، إلا كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب، قد بينتها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله. كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده، ودعائه وتضرعه. ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسله، كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله، فأرباب التثليث في الوحدانية، والاتحاد في الرسالة، قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو بيّن بفطرة الله التي فطر الناس عليها، وبكتب الله التي أنزلها. انتهى.

وقد اجتمع لديَّ، بحمده تعالى، حين كتابة هذه السطور عشرون مؤلفاً في الرد عليهم، وكلها، ولله الحمد، مطبوعة منتشرة، فلا حاجة للإطالة بالنقل عنها. لسهولة الوقوف عليها. قال الماوردي في (أعلام النبوّة): فأما النصارى فقد كانوا، قبل أن تنصر قسطنطين الملك، على دين صحيح في توحيد الله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام. ثم اختلفوا في عيسى بعد تنصر قسطنطين. وهو أول من تنصر من ملوك الروم. أي لأن الروم كانوا صابئة. ثم قهرهم على التنصر قسطنطين لما ملكهم، فقال أوائل النسطورية: إن عيسى هو الله. وقال أوائل اليعاقبة: إنه ابن الله. وقال أوائل الملكانية: إن الآلهة ثلاثة: أحدهم عيسى، ثم عدل أواخرهم عن التصريح بهذا القول المستنكر، حين استنكرته النفوس، ودفعته العقول، فقالوا: إن الله تعالى جوهر واحد، هو ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس، وأنها واحدة في الجوهرية، وأن أقنوم الأب هو الذات، وأقنوم الابن هو الكلمة، وأقنوم روح القدس هو الحياة. واختلفوا في الأقانيم، فقال بعضهم: هي خواص، وقال بعضهم: هي أشخاص، وقال بعضهم: هي صفات، وقالوا: إن الكلمة اتحدت بعيسى، واختلفوا في الاتحاد.

ثم قال: وليس لهذه المذاهب شبهة تقبلها العقول، وفسادُها ظاهر في العقول. . .

والذي أوقعهم في هذه المهلكة الوخيمة، والورطة الجسيمة، ما ورد موهماً من ألفاظ الإنجيل كالأب والابن، فلم يحملوها على ما أريد منها، وحملوها على ظاهرها، فضلُّوا وأضلُّوا. وفي (منية الأذكياء) ما نصه: وأما ما ورد في الإنجيل الموجود الآن، من إطلاق ابن الله على عيسى عليه السلام، فهو ـ إن لم يكن مما حرّف ـ يكون مجازاً، بمعنى ابن المحبة، كما يقال: فلان من أبناء الدينا، ونظير ذلك قول عيسى عليه السلام لليهود، حين ادعوا أن لهم أباً واحداً هو الله: (لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني)، ثم قال لهم: (أنتم من أب هو إبليس. وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا) ادعت اليهود أن الله تعالى أبوهم، أي أنهم مطيعون له إطاعة الابن للأب، فكذبهم عيسى عليه السلام وجعلهم أبناء الشيطان، أي أنهم مطيعون له. ولا يخفى أن الابن والأب هنا مجازان. وقد كثر إطلاق اسم الأب على الله تعالى، واسم الابن على العبد الصالح، في الكتب السالفة. فهو إما من الخبط في الترجمة، وإما مؤوّل بما ذكرنا، فلا تغفل، لكن قد منع من هذا الإطلاق في الملة المحمدية بالكلية، تحرزاً من الإيهام والوقوع في شرك الأوهام. وهذا هو الطريق الرشد. وقوله تعالى ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تعليل لتنزهه مما نسب إليه، بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه؟ إذ النبوّة

والملك لا يجتمعان ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ أي: إليه يكل كل الخلق أمورهم، وهو غنيّ عنهم، فأنى يتصور في حقه اتخاذ الولد، الذي هو شأن العجزة المحتاجين في تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم. وقوله تعالى، ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ جملة مستأنفة لتقرير ما سبق من التنزيه، أي: لن يأنف من أن يكون عبداً لله. فإن عبوديته شرف يتباهى به ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ من أن يكونوا عبيداً له تعالى. واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء.

قال الزمخشري: أي: ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً. وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومَن في طبقتهم.

ثم قال: فإن قلت: من أين دل قوله ﴿ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ على أن المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك. وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوّهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة. كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية. فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة، تخصيص المقربين، لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة. ومثاله قول القائل.

وما مثله ممن يُجَاوِدُ حَاتِمٌ
ولا البحر ذو الأمواج يَلْتَجُّ زَاخِرُهْ

لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذي الأمواج، ما هو فوق حاتم في الجود. ومن كان له ذوق فليذق، مع هذه الآية قوله: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، حتى يعترف بالفرق البين. انتهى.

قال البيضاويّ: وجوابه أن الآية: للرد على عبدة المسيح والملائكة، فلا يتجه ذلك، وإن سلم اختصاصها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير، كقولك: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مرؤس. وإن أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة، وهم الكروبيون، الذين هم حول العرش، أو من أعلى منهم رتبة من الملائكة، على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه. انتهى.

قال ناصر الدين في (الانتصاف): وقد كثر الاختلاف في تفضيل الأنبياء على الملائكة. فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء. وذهب القاضي أبو بكر، منّا، والحليميّ وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة. واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدتهم في تفضيل الملائكة. من حيث الوجه الذي استدل به الزمخشريّ. ونحن بعون الله نشبع القول في المسألة من حيث الآية. فنقول: أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة، أحدها: أن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح، أن تكون أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام. وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدّع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء، أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة. وبين طائفتنا في هذه الطرف خلاف (السؤال الثاني) أن قوله ﴿ولا الملائكة المقربون﴾ صيغة جمع، تتناول مجموع الملائكة، فهذا يقتضي كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح. ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح. وفي هذا السؤال أيضاً نظر، لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة، فقد يقال يلزمه القول بأنه أفضل من الكل. كما أن النبيّ عليه الصلاة والسلام، لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء، كان أفضل من كلهم. ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل، والتفضيل على الجملة أحداً ممن صنف في هذا المعنى. وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين، وادعى أنه لا يلزم منه؛ على التفصيل، تفضيل على الجملة. ولم يثبت عنه هذا القول. ولو قاله أحد فهو مردود بوجه لطيف، وهو: أن التفضيل المراد، جل أماراته رفع درجة الأفضل في الجنة، والأحاديث متوافرة بذلك، وحينئذ لا يخلو إما أن ترفع درجة واحد من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم، أو لا ترفع درجة أحد منهم عليه، لا سبيل إلى

الأول، لأنه يلزم منه رفع المفضول على الأفضل، فتعين الثاني وهو ارتفاع درجة الأفضل على درجات المجموع، ضرورة، فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم، قطعاً. الثالث: أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو، وهي لا تقتضي ترتيباً. وأما الاستشهاد بالمثال المذكور على أن الثاني أبداً يكون أعلى رتبة، فمعارض بأمثلة لا تقتضي ذلك، كقول القائل: ما عابني على هذا الأمر زيد ولا عمرو، قلت: وكقولك لا تؤذ مسلماً ولا ذمّياً. فإن هذا الترتيب وجه الكلام، والثاني أدنى وأخفض درجة. ولو ذهبت تعكس هذا، فقلت: لا تؤذ ذميًا ولا مسلماً، ليجعل الأعلى ثانياً، لخرجت عن حد الكلام وقانون البلاغة. وهذا المثال بين ما يورد في نقض القانون المقرر، ولكن الحق أولى من المراء. وليس بين المثالين تعارض. ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء فنقول: النقطة في الترتيب في المثالين الموهوم تعارضهما واحدة. وهي توجب في موضع تقديم الأعلى، وفي مواضع تأخيره. وتلك النقطة مقتضى البلاغة التنائي عن التكرار والسلامة عن النزول. فإذا اعتمدت ذلك فمهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوله، أو يكون الآخر مندرجاً في الأول، قد أفاده. وأنت مستغن عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، واستئنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأول. مثاله الآية المذكورة. فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة وأعلى رتبة، لكان ذكر الملائكة بعده كالمستغنى عنه، لأنه إذا كان الأفضل وهو المسيح، على هذا التقدير، عبداً لله غير مستنكف من العبودية ـ لزم من ذلك أن من دونه في الفضيلة أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله، وهم الملائكة على هذا التقدير. فلم يتجدد إذاً بقوله ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ إلا ما سلف أول الكلام. وإذا قدرت المسيح مفضولاً بالنسبة إلى الملائكة، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبداً له، إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك. وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل. فالحاجة داعية إلى ذكر الملائكة. إذ لم يستلزم الأول الآخر. فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده وتتزايد. وما كان كذلك تعين أنم يحمل عليه الكتاب العزيز. لأنه الغاية في البلاغة. وبهذه النقطة يجب أن نقول: لا تؤذ مسلماً ولا ذميّاً. فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في الآية. لأنك إذا نهيته عن إيذاء المسلم، فقد يقال ذاك من خواصه احتراماً للإسلام، فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر المسلوبة عنه هذه الخصوصية. فإذا قلت: ولا ذميًا ـ فقد جددت فائدة لم تكن في الأول، وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى، إلى النهي عن أكثر منه. ولو رتبت هذا المثال كترتيب الآية، فقلت: لا تؤذ ذميًا، فهم المنهيّ أن أذى المسلم أدخل في النهي، إذ يساوي الذميّ في سبب الاحترام وهو الإنسانية مثلاً، ويمتاز عنه بسبب أجلّ وأعظم وهو الإسلام، فيقنعه هذا النهي عن تجديد نهي آخر عن أذى المسلم. فإن قلت: ولا مسلماً، لم تجدد له فائدة. ولم تعلمه غير علمه أولاً. .فقد علمت أنها نقطة واحدة، توجب أحياناً تقديم الأعلى، وأحياناً تأخيره. ولا يميز لك ذلك إلا السياق. وما أشك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى وتأخير الأعلى. ومن البلاغة المرتبة على هذه النقطة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] استغناءً عن نهيه عن ضربهما فما فوقه، بتقدير الأدنى. ولم يَلِق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهياً عن أعلى من التأفيف والإنهار (كذا). لأنه متسغنى عنه. وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية لتفضيل الملائكة، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عتيدة عند المعتقد لذلك، جمع بين الآية وتلك الأدلة بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف، وذاك أن تفضيل الملائكة فبالقوة وشدة البطش واسعة التمكن والاقتدار. قال: وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية، لأن المقصود الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام، مستندين إلى كونه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة، فناسب ذلك أن

يقال: هذا الذي صدرت على يديه الخوارق، لا يستنكف عن عبادة الله تعالى، بل من هو أكثر خوارق وأظهر آثاراً، كالملائكة المقربين الذي من جملتهم جبريل عليه السلام. وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه؛ فقلب عاليها سافلها، فيكون تفضيل الملائكة، إذا، بهذا الاعتبار. لا خلاف أنهم أقوى وأبطش وأن خوارقهم أكثر. وإنما الخلاف في التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات في دار الجزاء. وليس في الآية عليه دليل. ولما كان أكثر ما لبس على النصارى في ألوهية عيسى كونه مخلوقاً، أي: موجوداً من غير أب، أنبأنا الله تعالى أن هذا الموجود من غير أب، لا يستنكف من عبادة الله، بل ولا الملائكة المخلوقون من غير أب ولا أم، فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى. ويشهد لذلك أن الله تعالى نظر عيسى بآدم عليهما السلام، فنظر الغريب بالأغرب، وشبه العجيب من قدرت بالأعجب، إذ عيسى مخلوق من أم، وآدم من غير أم ولا أب، ولذلك قال: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ثم قال له كن فيكون. ومدار هذا البحث على النقطة التي نبهت عليها. فمتى استقام اشتمال المذكور أياماً على فائدة، لم يشتمل عليها الأول بأي طريق كان، من تفضيل أو غيره، من الفوائد ـ فقد استدّ النظر وطابق صيغة الآية والله أعلم، وعلى الجملة فالمسألة سمعية. والقطع فيها معروف بالنص الذي لا يحتمل تأويلاً، ووجوده عسر، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. انتهى. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: يأنف منها ويمتنع ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ أي: يتعظم عنها ويترفع ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم، ويفصل بينهم بحكمه العدل.

محمد عبده ج ٦ ص ٨١ ـ ١٠٠

. . . ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ فتتجاوزوا الحدود التي حدها الله لكم، فإن الزيادة في الدين كالنقص منه، كلاهما مخرج له عن وضعه ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي الثابت المتحقق في نفسه، إما بنص ديني متواتر، وإما ببرهان عقلي قاطع، وليس لكم على مزاعمكم في المسيح شيء منهما ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى بني إسرائيل أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن يرجعوا عن الإيمان بالجبت والطاغوت، وعن اتباع الهوى وعبادة المال، وإيثار شهوات الأرض على ملكوت السماء، وزهدهم في الحياة الدنيا، وحثهم على حق التقوى، وبشرهم بالنبي الخاتم الذي يبين لهم كل شيء، ويقيمهم على صراط الاعتدال، ويهديهم إلى الجمع بين حقوق الأرواح وحقوق الأجساد. . .

وأما قوله ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ففيه وجهان (أحدهما): أن معناه أنه مؤيد بروح منه تعالى. ويوضحه قوله فيه ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال في صفات المؤمنين الذين لا يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كان من ذوي القربى ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] (وثانيهما): أن معناه أنه خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل عليه السلام، ويوضحه قوله تعالى في أمه ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال تعالى فيها ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] كما قال في خلق الإنسان بعد ذكر بدئه من طين ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٨، ٩]، وقال بعضهم أن المراد بالروح هنا النفخ أي نفخ الملك بأمر الله في مريم فإنه استعمل بمعنى النفخ والنفس الذي ينفخ كما قال ذو الرمة في إضرام النار.

فقلت له ارفعها إليك وأحيها
بروحك واجعلها لها قيتة قدرا

والروح الذي يحيا به الإنسان مأخوذ من اسم الريح (وأصل الريح روح بالكسر فقلبت الواو ياءً لتناسب الكسرة وجمعه أرواح ورياح وأصل هذه رواح بالكسر)

كما أن اسم النفس بسكون الفاء من النفس بفتحها.

ويجوز أن يراد بقوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ الأمران معاً، أي أنه خلق بنفخ الملك المعبر عنه بالروح وبروح القدس في أمه نفخاً كان كالتلقيح الذي يحصل باقتران الزوجية، وكان مؤيداً بهذا الروح مدة حياته، ولذلك غلبت عليه الروحانية، وظهرت آيات الله فيه زمن الطفولية وزمن الرجولية، ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [المائدة: ١١٠] فلما كان كذلك أطلق عليه أنه «روح» كأنه هو عين ذلك الملك الذي جعله الله سبب ولادته، وأيده به مدة حياته، كما يقال «رجل عدل» على سبيل المبالغة والمراد ذو عدل. وقال بعض المفسرين أن المراد بالروح هنا الرحمة كقوله تعالى في المؤمنين ﴿ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ويقويه قوله تعالى فيه ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ [مريم: ٢١] ويكمن إدخال هذا المعنى في الوجه الأول لأنه من فروعه. والمعنى الجامع أن الروح ما به الحياة، والحياة قسمان: حسية ومعنوية. فالأولى ما به يشعر الإنسان ويدرك ويتفكر ويتذكر، والثانية ما به يكون رحيماً حكيماً فاضلاً محباً محبوباً نافعاً للخلق، وقد سمى الله الوحي روحاً فقال لخاتم رسله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢] وكلا المعنيين متحقق في عيسى عليه السلام على وجه الكمال، فلهذا جوزنا الوجهين في المسألة.

وآية الله تعالى في خلق عيسى بكلمته، وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه، كآيته في خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه، إذ كان خلق كل منهما بغير السنة العامة في خلق الناس من ذكر وانثى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقد علم مما قررناه أن قوله «منه» متعلق بمحذوف صفة لروح أي وروح كائنة منه. وزعم بعض النصارى أن من للتبعيض وأن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه. ونقل المفسرون أن طبيباً نصرانياً للرشيد ناظر علي بن حسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له أن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية فقرأ له الواقدي قوله تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال يلزم إذاً أن تكون جميع هذه الأشياء أجزاء منه تبارك وتعالى، فانقطع النصراني، وأسلم ففرح الرشيد بإسلامه ووصل الواقدي بصلة فاخرة.

أما أناجيل النصارى وكتبهم فقد استعملت لفظ الروح في معان مختلفة فيما يتعلق بالمسيح وفي غير ما يتعلق به. فمن ذلك قول متى (١: ١٨ أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس) وفي الفصل الأول من إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيره إياها بولد ومحاورتهما في ذلك، ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها «٣٥ الروح القدس يحل عليك»، فروح القدس ليس هو الله، ومن يؤيده الله به لا يكون إلهاً، ففي هذا الفصل نفسه من إنجيل لوقا أن (اليصابات) أم يحيى امتلأت من الروح القدس (٤١)، وبذلك حملت بيحيى وكانت عاقراً ـ وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس (٦٧)، وفي الفصل الثاني منه ما نصه «٢٥ وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان باراً تقياً ينتظر تعزية إسرائيل والروح القدس كان عليه ٢٦، وكان قد أوحي إليه بالروح القدس»، وهذا الاستعمال كثير عندهم لا حاجة لإضاعة الوقت بكثرة إيراد الشواهد فيه، وإنما نقول أن روح القدس عندهم وعندنا واحد وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصي عددهم غيره تعالى، والقدس الطهر، ويذكر في مقابله في الأناجيل الروح النجس أي الشيطان، فجعلوه إلهاً كما فعل الوثنيون من قبل.

وجملة القول أن هذه الأناجيل تدل على ما ذكرناه آنفاً من كون عيسى خلق بواسطة روح القدس، وأن يحيى خلق كذلك، وكان خلقه آية من وجه آخر إذ كان أبوه شيخاً كبيراً وأمه عاقراً، ولكن الواسطة والسبب واحد وهو

الملك المسمى بروح القدس أيدهم الله به نساء ورجالا عليهم السلام، فمن الحماقة أن يقول قائل مع هذا أن قوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ يفيد أنه جزء من الله تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقه. بل يقولون أن تلاميذ المسيح أنفسهم كانوا مؤيدين بروح القدس حتى من طرده المسيح ولعنه منهم وسماه شيطاناً. وقد أيد به من كان دونهم أيضاً.

علمنا أن مؤلفي الأناجيل يستعملون كلمة روح القدس استعمالاً يدل على أنه ملك من خلق الله، ولكن يوحنا قد انفرد بعبارات يمكن إرجاعها إلى استعمال غيره، ويمكن تحريفها للاستدلال بها على شيء آخر كما فعلوا، فهم يقولون أن الروح منبثق من الآب وأنه عين الآب، يستدلون على ذلك بقول يوحنا حكاية عن المسيح (١٥ : ٢٦ ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي) أصل الانبثاق أن يكسر الماء ما أمامه من سد على الشط ويفيض على ما وراءه، وفي قراءة أخرى في ترجمة البروتستانت «يخرج» فمن هذه الكلمة استنبطوا عقيدة وثنية تنقضها نصوص كثيرة في الأناجيل. وهذه الجملة خبر عن شيء يكون في المستقبل (وفرق بين ينبثق من عنده وبين انبثق منه على أن هذه لا تدل على ما زعموا أيضاً)، وهي بشارة من المسيح بمن يرسله الله تعالى بعده الذي عبروا عنه هنا بالمعزّي. وكلمة المعزّي ترجمة للبارقليط وهي كلمة يونانية معناه (محمد أو أحمد) وتقرأ بالاستقامة وبالإمالة فلا يحتاج في تحريفها عن المعنى الذي قلناه إلى معنى المعزي الذي قالوه إلا إلى ليّ اللسان بها ليا قليلاً. وقد ترجمت في إنجيل برنابا بمحمد فكانت هذه الترجمة موضع الاستغراب عند كثير من الناس ظانين أن برنابا نقل عن المسيح أنه نطق بكلمة محمد العربية، والظاهر أنه نطق بترجمتها، ومن عادة أهل الكتاب، ترجمة الأعلام والألقاب، على أن «روح الحق» من جملة أسماء نبينا (ص) كما ترى في أسمائه المسرودة في دلائل الخيرات. وقد بين يوحنا في الفصل السادس عشر من إنجيله تفصيلاً عن المسيح عليه السلام لبشارته بالبارقليط، منه أنه خير لهم أن يذهب هو من الدنيا لأنه إذا لم يذهب لا يأتي البارقليط، وإنه متى جاء يبكت العالم على الخطيئة وعلى البر والحساب (الدينونة)، وفسر الخطيئة بعدم الإيمان به أي المسيح، ومنه أنه هو أي المسيح لا يستطيع أن يقول لهم كل شيء لعدم استعدادهم وعدم طاقتهم الاحتمال، قال (١٣ وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ١٤ ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم)، ولم يجىء بعد المسيح أحد من عند الله وبخ الناس وبكتهم على عدم الإيمان بالمسيح وعلى طعن بعضهم فيه وفي أمه، وعلى غلو طائفة فيهما وجعلهما آلهين مع الله، وعلم الناس كل شيء من أمور العقائد والآداب والفضائل والأحكام الشخصية والمدنية، وأخبر بالأمور المستقبلة ـ لم يجىء أحد بكل هذا إلا روح الحق محمد ﷺ، وهو منبثق من الله أي مرسل منه لإحياء الناس كما يرسل الله الغيث لإحياء الأرض، وفي الحديث أنه شبه بعثته بالغيث الذي تأخذ منه كل أرض بحسب استعدادها. فإذا كانت عبارة يوحنا تدل على أن روح الحق الذي بشر به المسيح، وأنه يأتي بعده تدل بلفظ الإنبثاق على ما قالوا، فليجعلوا محمداً (ص)، هو الأقنوم الثالث، أو اقنوماً رابعاً، وينتقلوا من التثليث إلى التربيع، لا، لا أقول لهم أصروا على هذا التأويل والتضليل، بل أقول لهم ما قاله الله عز وجل، ﴿ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ﴾ إلخ، أي فإذا كان الأمر كذلك وهو المعقول، الذي لا تحتمل غيره النقول، فآمنوا بالله إيماناً يليق به وهو أنه واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، تنزه عن صفات الحوادث، ونسبتها إليه واحدة، وهي أنها مخلوقة وهو الخالق، ومملوكة وهو المالك، وأن هذه الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليابس منها، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها، فمن الجهل الفاضح أن يجعل له ندّ وكفء فيها، أو يقال إنه حل أو اتحد بشيء منها، ـ وآمنوا برسله كلهم، كما يليق بهم، وهو أنهم عبيد

له خصمهم بضرب من العلم والهداية (الوحي) ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه، وكيف يزكون أنفسهم، ويصلحون ذات بينهم ـ ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الآب والابن والروح القدس، أو: الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر، فكل منها إله كامل، ومجموعها إله واحد. فتسفهوا أنفسكم بترك التوحيد الخالص الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، والقول بالتثليث الذي هو عقيدة الوثنيين الطغام، ثم تدعوا الجمع بين التثليث الحقيقي والتوحيد الحقيقي، وهو تناقض تحيله العقول ولا تقبله الأفهام. . .

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ليس له ولد خاص مولود منه يصح أن يسمى ابنه حقيقة، بل له كل ما في السموات والأرض ـ والمسيح من جملتها ـ خلق كل ذلك خلقاً، وكل ذي عقل منها وإدراك يفتخر بأن يكون له عبداً، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] لا فرق في هذا بين الملائكة المقربين، والنبيين الصالحين، كما صرحت به الآية التالية لهذه. ولا بين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم، ومن خلق من أصل واحد كحواء وعيسى، ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى. كلهم بالنسبة إليه تعالى سواء، عبيد له من خلقه محتاجون دائماً إلى فضله وهو يتصرف فيهم كما يشاء، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] أي به الكفاية لمن عرفه وعرف سننه في خلقه إذا وكلوا إليه أمورهم، ولم يحاولوا الخروج عن سننه وشرائعه بسوء اختيارهم.

فصل في عقيدة التثليث: قلنا إن هذه العقيدة وثنية نقلها الوثنيون المتنصرون إلى النصرانية، وقسروا بعض الألفاظ الواردة في كتبهم اليهودية على أن تعطيهم شبهة يتكئون عليها في هذا التضليل، وأرغموها عليه بضرب من التحريف والتأويل، هدموا به آيات التوحيد القوية البنيان، العالية الأركان، أما كون هذه العقيدة وثنية فقد بينه علماء أوربة بالتفصيل، وأتوا عليه بالشواهد الكثيرة من الآثار القديمة والتاريخ، وإننا نشير إلى قليل منها في هذا المقام.

التثليث عند البراهمة: قال موريس (في ص ٣٥ من المجلد السادس من كتابه «الآثار الهندية القديمة») ما ترجمته: كان عند أكثر الأمم الوثنية البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي أو الثالوثي. وقال دوان (في ص ٣٦٦ من كتابه خرافات التوراة وما يماثلها في الأديان الأخرى) إذا رجعنا البصر إلى الهند نرى أن أعظم وأشهر عبادتهم اللاهوتية هو التثليث. ويسمون هذا التعليم بلغتهم «تري مورتي» وهي عبارة مركبة من كلمتين بلغتهم السنسكريتية «تري» ومعناه ثلاثة، و«مورتي» ومعناها هيئات أو أقانيم، وهي «برهما وفشنو وسيفا» ثلاثة أقانيم متحدة لا تنفك عن الوحدة فهي إله واحد (بزعمهم).

وقد شرح المؤلف معنى هذه الأصول أو الأقانيم عندهم، وذكر إنهم يرمزون إليها بثلاثة أحرف وهي (أ. و. م) وإنهم يصفون هذا الثالوث المقدس الذي لا ينقسم في الجوهر، ولا في الفعل، ولا في الاتحاد بقولهم «برهما الممثل لمبادىء التكوين والخلق ولا يزال خلاقاً إلهيا، وهو (الآب) ـ وفشنو يمثل حفظ الأشياء المكونة (أي من الزوال والفساد) وهو (الابن) المنبثق والمتحول عن اللاهوتية ـ وسيفا هو المهلك والمبيد والمبدىء والمعيد (أي الذي له التصرف والتحويل في الكون)، وهو (روح القدس)، ويدعونه: (كرشنا) الرب المخلص، والروح العظيم الذي ولد منه (فشنو) الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس. فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد، إلخ ما قاله ومنه أنهم يرمزون للأقنوم الثالث بصورة حمامة، وهذه عين عقيدة النصارى في التثليث من كل وجه فهي عقيدة برهمية وثنية، أخذها النصارى عن البراهمة وصاروا يدعونهم أخيراً إليهم. وكان منتهى شوط أحد اليسوعيين في التفرقة بينهما أن ثالوث البراهمة وأمثالهم نجس، وثالوث النصارى مقدس!! فإذا قال لهم الوثنيون الأمر بالعكس، فارجعوا إلى الأصل ودعوا المبتدع، فبماذا يحجونهم؟؟.

والذي يظهر لي أن التوحيد هو أصل عقيدة البراهمة وأن أول رسول أرسل إليهم وصف لهم الإله بثلاث

صفات هي التي تظهر بها حقيقة الألوهية وهي (١) ما به الخلق والإيجاد، و(٢) الحفظ والإمداد، و(٣) التصرف والتغيير في عالم الكون والفساد. فلما طال عليهم الأمد ودبت إليهم الوثنية جعلوا لكل فعل من هذه الأفعال إلهاً، وجعلوا أسماء الصفات، أسماء أقانيم وذوات، ولما كانوا ناقلين بالتواتر كلمة التوحيد، وإن الله إله واحد قالوا إن الثلاثة واحد، وكل واحد منها عين الثلاثة. وسرت هذه العقيدة إلى غيرهم من الوثنيين في الشرق والغرب.

وللهنود تماثيل للوحدة والتثليث رأيت واحداً منها في دار العاديات التي بنتها الحكومة الهندية الإنكليزية في ضواحي مدينة بناريس (المقدسة عند البراهمة)، وهو تمثال واحد له ثلاثة وجوه. ولعله هو الذي قال عنه موريس (في ص ٣٧٢ من المجلد الرابع من كتابه آثار الهند القديمة) لقد وجدنا في أنقاض هيكل قديم قوضه مرور القرون صنماً له ثلاثة رؤوس على جسد واحد والمقصود منه الرمز للثالوث.

إله له ثلاث أقانيم. وكذلك بوذيو (جينست) يقولون إن (جيفا) مثلث الأقانيم (قال) والصينيون يعبدون بوذه ويسمونه (فو) ويقولون إنه ثلاثة أقانيم كما تقول الهنود. وذكر رمزهم (أ. و. م)

وقال دوان (في ص ١٧٢ من كتابه خرافات التوراة إلخ) وأنصار لاوكومتذا الفيلسوف الصيني المشهور ـ وكان قبل المسيح بأربع سنين وست مئة (٦٠٤) يدعون «شيعة تاوو» ويعبدون إلها مثلث الأقانيم. وأساس فلسفته اللاهوتية أن «تاوو» وهو العقل الأول الأزلي انبثق منه واحد، ومن الثاني انبثق ثالث، وعن هذا الثالث انبثق كل شيء. وهذا القول بالتولد والانبثاق أدهش العلامة موريس لأن قائله وثني.

التثليث عند قدماء المصريين: (٣) قال دوان في ص ٤٧٣ من كتابه المشار إليه آنفاً: وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم إن الأول خلق الثاني وهما خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس. وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره: هل كان قبله أحد أعظم منه وهل يكون بعده أحد أعظم منه؟ فأجابه الكاهن نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شيء ثم الكلمة ومعهما روح القدس، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات، وعنهم صدرت القوة الأبدية، فاذهب يافاني يا صاحب الحياة القصيرة. قال المؤلف: لا ريب أن تسمية الأقنوم الثاني من الثالوث المقدس «كلمة» هو من أصل وثني مصري دخل في غيره من الديانات كالمسيحية. و«أبولو» المدفون في (دهلي) يدعى «الكلمة» وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يعلمه (بلاتو) قبل المسيح بسنين عديدة «الكلمة هي الإله الثاني» ويدعى أيضاً ابن الله البكر وقال بونويك (في ص ٤٠٢ من كتابه عقائد قدماء المصريين): أغرب عقيدة عم انتشارها في ديانة المصريين هي قولهم بلاهوت الكلمة وإن كل شيء صار بواسطتها، وأنها منبثقة من الله، وأنها هي الله وكان بلاتو عارفاً بهذه العقيدة الوثنية وكذلك أرسطو وغيرهما، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بسنين (بل بقرون) ولم نكن نعلم أن الكلدانيين والمصريين يقولون هذا القول ويعتقدون هذا الاعتقاد إلا في هذه الأيام اهـ.

أقول الذي يظهر لي أن الرسل الذين أرسلهم الله إلى المصريين وأمثالهم من القائلين بمثل قولهم هذا كانوا يقولون لهم أن كل شيء خلق بكلمة الله، فلما طال عليهم الأمد وسرت إليهم الوثنية ظنوا أن الكلمة ذات تفعل بالإرادة والاختيار فقالوا ما قالوا. والحق أنها عبارة عن تعلق إرادة الله الواحد الأحد بالشيء الذي يريد خلقه، ومتى تعلقت إرادته بخلق شيء كان كما أراد ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢] فلو لم يكن عندنا من إعجاز القرآن إلا بيان هذه الحقيقة التي خلت بها الأمم من أقدمها كالهنود والمصريين إلى أحدثها قبل الإسلام كالنصارى لكفى في الاستدلال على أنه من عند الله، فإنه بين لنا ضلال تلك الأمم، والأصل المعقول المقبول الذي يتفق مع التوحيد الذي نقل عنهم أجمعين، فتجلى بذلك دين الله إلى جميع رسله نقياً من أدران الشرك ونزغات الشياطين.

التثليث عند الفرس وغيرهم من أهل آسية: قال هيجين

(في ص ١٦٢ من كتابه الأنكلوسكسون) كان الفرس يدعون متروساً الكلمة والوسيط ومخلص الفرس: اهـ وقال مثل هذا دونلاب وبنصون. وقال دوان في كتابه الذي ذكرغير مرة: كان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مثل الهنود، ويسمونها أو زمرد وأهرمن ـ فأوزمرد الخلاق، ومترات ابن الله المخلص والوسيط، وأهرمن الملك. أقول وقد بينت آنفاً أصل هذا الاعتقاد، وكيف سرى إليه الفساد. والمشهور عن مجوس الفرس التثنية دون التثليث، فكانوا يقولون بإله مصدر النور والخير، وآله مصدر الظلمة والشر.

ونقل عن الكدانيين والأشوريين والفينقيين الإيمان بالكلمة على أنها ذات تعبد ويسميها الكلدانيون (ممرار) والأشوريون (مردوخ) ويدعون مردوخ ابن الله البكر، وهكذا الأمم يأخذ بعضها عن بعض. وقد قال برتشرد (في ص ٢٨٥ من كتابه خرافات المصريين الوثنيين) لا يخلو شيء من الأبحاث الدينية المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي. ونقول إن أديان أسلافه الغربيين كذلك، فإن لم تكن أعرف في الوثنية. فهم تلاميذ الشرقيين فيها، ولا سيما المصريين منهم، ولكنهم هم الذين شوهوا الديانة المسيحية الشرقية فنقلوها من التوحيد الإسرائيلي إلى التثليث الوثني.

التثليث عند أهل أوربة اليونان والرومان وغيرهم: جاء في كتاب (سكان أوربة الأولين) ما ترجمته: كان الوثنيون القدماء يعتقدون أن الإله واحد ولكنه ذو ثلاثة أقانيم.

وجاء في كتاب ترقي الأفكار الدينية (ص ٣٠٧ م١) أن اليونانيين كانوا يقولون إن الإله مثلث الأقانيم، وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات (إشارة إلى الثالوث) ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع، ويعتقدون أن الحكماء قالوا إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة، ولهم اعتناء بهذا العدد في جميع شعائرهم الدينية. اهـ.

أقول وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم هذه الشعائر كلها ونسخت بها شريعة المسيح التي هي التوراة، ويسمون أنفسهم مع ذلك مسيحيين ويعملون كل شيء باسم المسيح! فهل ظلم أحد من البشر بالافتيات عليه كما ظلم المسيح عليه السلام؟ لا لا

ونقل دوان عن أورفيوس أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال: «كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم» وقال فسك (في ص ٢٠٥ من كتاب الخرافات ومخترعوها: كان الرومانيون الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث يؤمنون بالله أولاً ثم بالكلمة ثم بالروح، وقال بارخورست في القاموس العبراني: كان للفلنديين (البرابرة الذين كانوا في شمال بروسية) إله اسمه (تريكلاف) وقد وجد له تمثال في (هرتو نجربرج) له ثلاثة رؤوس على جسد واحد. أقول تريكلاف مركبمن كلمة ترى ومعناها ثلاثة وكلمة كلاف ولعل معناها إله.

وقال دوان في (ص ٣٧٧ من كتابه) كان الاسكندنافيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يدعونها أودين وتورا وفري. ويقولون هذه الثلاثة الأقانيم إله واحد. وقد وجد صنم بمثل هذا الثالوث المقدس بمدينة (أوبسال) من أسوج وكان أهل أسوج ونروج والدنمارك يفاخر بعضهم بعضاً في بناء الهياكل لهذا الثالوث. ويصورون أودين بيده حسام وتورا واقفاً عن شماله وعلى رأسه تاج وبيده صولجان، وفري واقفاً عن شمال تورا وفيه علامة الذكر والأنثى. ويدعون أودين الآب وتورا الابن البكر ـ أي ابن الأب أودين ـ وفري مانح البركة والنسل والسلام والغنى اهـ.

أقول فهل ترك الأوروبيون أديانهم الوثنية إلى دين المسيح عليه السلام الذي هو التوراة المبنية على أساس التوحيد الخالص، أم ظلوا على وثنيتهم، وأدخلوا فيها شخص المسيح، وجعلوه أحد آلهتهم التي كانوا يعبدون من قبل. . . ؟؟ إنهم نقلوا عنه إنه ما جاء لينقض الناموس (شريعة موسى) وإنما جاء ليتممها، ولكن مقدسهم بولس نقضها حجراً حجرا ولبنة لبنة إلا ذبيحة الأصنام والدم المسفوح والزنا الذي لا عقاب عليه عندهم فأراحهم ومهد لهم السبيل لتأسيس دين جديد لا يتفق مع دين المسيح

عليه السلام في عقائده، ولا في أحكامه ولا في آدابه، وأبعد الناس عن دين المسيح الإفرنج الذين بذلوا الملايين من الدنانير لتنصير البشر كلهم باسم المسيح، وغرضهم من ذلك استعباد جميع البشر بإزالة ملكهم وصلب أموالهم لتكون جميع لذات الدنيا وشهواتها وزينتها وعظمتها خالصة لهم، فهل جاء المسيح لهذا، وبهذا أمر أم بضده؟

والله إنني لا أرى من عجائب أطوار البشر وقلبهم للحقائق، ولبسهم الحق بالباطل أعجب وأغرب من وجود الديانة النصرانية في الأرض: ديانة بنيت على أساس التوحيد الخالص المعقول جعلوها ديانة وثنية بتثليث غير معقول، أخذوه من تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة اقتباساً مشوهاً ـ دياة شريعة سماوية، نسخوا شريعتها برمتها وأبطلوها، واستبدلوا بها بدعاً وتقاليد غريبة عنها ـ ديانة زهد وتواضع وتقشف وإيثار وعبودية، جعلوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر ـ ديانة أصولها التي هم عليها مقتبسة من الوثنية الأولى لم يرد كلمة تدل على عقيدتها عن أنبياء بني إسرائيل، ولكنهم زعموا أنها مستمدة من جميع كتب أنبياء بني إسرائيل ـ ديانة نسبوها إلى المسيح عليه السلام وليس عندهم نص من كلامه في أصول عقيدتها التي هي التثليث، وإنما بقي عندهم نصوص قاطعة من كلامه في حقيقة التوحيد والتنزيه وإبطال التثليث وعدم المساواة بين الآب والابن الذي أطلق لفظه مجازاً عليه وعلى غيره من الأبرار، على أنه كان يعبر عن نفسه في الأكثر بابن الإنسان.

لو لم يكن عندهم من النصوص في هذه العقيدة إلا ما رواه يوحنا في الفصل السابع عشر من إنجيله لكفى وهو قوله عليه السلام (٣ وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فبين أن الله تعالى هو الإله وحده وأنه هو رسوله، وهذا هو الذي دعا إليه القرآن، وكان يجب أن يكون أساس عقيدتهم يرد إله كل ما يوهم خلافه ولو بالتأويل، لأجل المطابقة بين المعقول والمنقول.

ونقل مرقس في الفصل الثاني عشر من إنجيله أن أحد الكتبة سأله عن أول الوصايا قال (٢٩ فأجابه يسوع أول الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد إلخ. . ٣٢ فقال له الكاتب جيداً يا معلم بالحق قلت لأنه واحد وليس آخر سواه. . ٣٤ فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له لست بعيداً عن ملكوت السموات) فعلم من هذا أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل، فإن فرضنا أنه ورد ما ينافيها، وجب رده أو إرجاعه إليها.

وروى يوحنا عنه في الفصل الأول من إنجيله إنه قال (٢٨ الله لم يره أحد قط) ومثله في الفصل الرابع من رسالة يوحنا الأول (١٢ الله لم ينظره أحد قط) وفي الفصل السادس من رسالة بولس الأولى إلى أهل تيموثاوس (١٦ لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه) وقد رأى الناس المسيح والروح القدس.

وروى مرقس في الفصل الثالث عشر من إنجيله إنه قال في الساعة ويوم القيامة ما نصه: (٣٢ وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلم يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب) فلو كان الابن عين الآب لكان يعلم كل ما يعلمه الآب. وقوله عليه السلام في القيامة موافق لقول الله سبحانه في القرآن خطاباً لخاتم رسله (ص) (قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو).

ولو كان هؤلاء النصارى يقبلون نصوص انجيل برنابا لأتيناهم بشواهد منه على التوحيد مؤيدة بالبراهين العقلية والنقلية على أن المسيح بشر رسول قد خلت من قبله الرسل وليس بدعا فيهم، وناهيك الفصل الرابع والستين منه الذي يحتج به المسيح بما آتى الله الأنبياء من الآيات على أن الآيات لا تنافي البشرية والعبودية لله تعالى، وبالفصل الخامس والتسعين الذي يحتج فيه بأقوال الأنبياء في التوحيد وأنه تعالى خلق كل شيء بكلمته وأنه يَرى ولا يُرى، وأنه غير متجسد وغير مركب وغير متغير، وإنه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام. ثم قال (١٩ فإني بشر منظور وكتلة من طين تمشي على الأرض وفانٍ كسائر البشر ٢٠ وإنه كان لي بداية وسيكون لي نهاية، وأني لا أقتدر أن أبتدع خلق ذبابة) وحسبنا ما كتبناه هنا في مسألة التثليث الآن،

وسنبقي بقية مباحثها إلى تفسير سورة المائدة . . .

وقد استدل بهذه الآية على أن الملائكة المقربين أفضل من الأنبياء المرسلين، وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني والحليمي من أئمة الأشعرية وجمهور المعتزلة، وأما جمهور الأشعرية فيفضلون الأنبياء على الملائكة، ووجه التفضيل أن السياق في رد غلوّ النصارى في المسيح إذ اتخذوه إلهاً ورفعوه عن مقام العبودية فالبلاغة في الرد عليهم تقتضي الترقي في الرد من الرفيع إلى الأرفع كما تقول إن فلاناً التقى، لا يستنكف عن تقبيل يده الوزير ولا الأمير. فإذا بدأت بذكر الأمير لم يعد لذكر الوزير مزية ولا فائدة، بل يكون لغواً لأنه يندمج في الأول بالطريق الأولى. وقد بين ذلك الزمخشري وجزم به فتكلف بعضهم في الرد عليه وكان آخر شوط البيضاوي أن جعل غاية الآية تفضيل الملائكة المقربين على أولي العزم من المرسلين لا كل الملائكة على كل الأنبياء. وأما القاضي أحمد بن المنير فإنه بعد أن أطال في تقريره على الكشاف برد طريقة الترقي والتفصي من الاستدلال بها على تفضيل الملائكة المقربين، على الأنبياء المرسلين، عاد إلى الأنصاف من نفسه، وجزم بأن الآية تدل على تفضيل هؤلاء الملائكة في عظم الخلق والقدرة على الأعمال العظيمة وهو الذي يناسب الرد على من استكبروا خلق المسيح من غير أب وصدور بعض الآيات عنه فجعلوه إلهاً، والملائكة خلقوا من غير أب ولا أم، ويعلمون ما هو أعظم من آيات المسيح فهم بهذا أفضل منه وأعظم، ولكن هذا التفضيل في غير موضع الخلاف من الأشعرية والمعتزلة، وهو كثرة الثواب على الأعمال في الآخرة. والمنصف يرى أن التفاضل في هذا الرجم بالغيب، إذ لا يعلم إلا بنص من الشارع ولا نص، وليس للخلاف في هذا المسألة فائدة في إيمان ولا عمل، ولكنه من توسيع مسافة التفرق بالمراء والجدل.

جوهري ج ٣ ص ١١٧

يقول الله ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ ﴾ يخاطب النصارى ﴿ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ ﴾ أوصلها إليها، وحصلها فيها ﴿ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ ﴾، وذو روح صدر منه فلذلك يحيي الأموات والقلوب ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ﴾، أي الآلهة ثلاثة، أو الله ثلاثة، أو الله ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس؛ فالأب الذات، والابن العلم، وروح القدس الحياة (انتهوا) عن التثليث انتهاء ﴿ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ ﴾ بالذات لا تعدّد فيه بوجه ما ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ ﴾، أي أسبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد، فإن الولد يكون لمن يفنى فيكون بقاء لذكره بعده إلى أمد معلوم، وينفع والديه في كبرهما، والله ليس كذلك فهو باقٍ ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾، والحاجة إلى الولد ليكون وكيلاً عن أبيه قائماً بنظام بيته، والله هو الوكيل، فأين الحاجة للولد إذن؟ هذا من جهة الله، أما المسيح فلن يأنف أن يكون عبداً لله بل الملائكة المقربون لا يأنفون من ذلك، ولذلك قال ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ ﴾ لن يأنف من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك، من ﴿ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾ أن يكونوا عبيداً، لله ﴿ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ ﴾، ومن يترفع عنها ﴿ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾ فيجازيهم.

المراغي ج ٦ ص ٢٧ - ٣٥

. . ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ إلى بني إسرائيل، وقد أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وزهدهم في الدنيا، وحثهم على التقوى، وبشرهم بمحمد خاتم النبيين، وأرشدهم إلى الاعتدال في كل شيء، فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان.

﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ ﴾، وهو مكوّن بكلمته وأمره الذي هو «كن» من غير وساطة أب ولا

نطفة، فإنه لما أرسل إليها الروح الأمين جبريل بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاماً زكياً، فاستنكرت ذلك، إذ هي عذراء لم تتزوج فقال لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]فكلمة «كن» هي الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشيء وإيجاده.

وهو أيضاً مؤيد بروح منه كما قال تعالى ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] وكما قال في صفات المؤمنين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وآية الله في خلق عيسى بكلمته وجعله بشراً سويًّا بما نفخ فيه من روحه كآيته في خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه، فخلْقُهما كان بغير السنة العامة في خلق الناس من ذكر وأنثى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وزعم بعض النصارى أن كلمة (منه) تدل على أن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه، فقد نقل بعض المفسرين أن طبيباً نصرانياً للرشيد ناظر علي بن حسين الواقدي المَرْوَزِي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى وتلا الآية، فقرأ له الواقدي قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فلئن صح ما تقول لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى ـ فأفحِم النصراني، وأسلم، ففرح بذلك الرشيد، ووصل الواقديّ بصلة عظيمة. وقد جاء في إنجيل متى (أمّا ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا، لما كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجِدت حبلى من الروح القدس). وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور المَلك جبريل لها وتبشيره إياها بولد، ومحاورتهما في ذلك، ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها (الروح القدس يحلّ عليك).

وفي هذا الفصل أن اليصابات أم يحيى امتلأت من الروح القدس، وبذلك حملت بيحيى، وكانت عاقراً، وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس.

ومن هذا تعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم، وأن عيسى خلق بوساطته، وكذلك يحيى، وكان خلقه من وجه آخر، إذ كان أبوه شيخاً كبيراً وأمه عاقراً، ولكن الواسطة والسبب واحد، وهو المَلك المسمى بروح القدس، أيدهم الله به رجالاً ونساء، فلا يستفاد إذاً من قوله: وروح منه، أنه جزء من الله، تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقه.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾، أي فآمنوا بالله إيماناً يليق به، وهو أنه واحدٌ أحدٌ تنزه عن صفات الحوادث، وأن كل ما في الكون مخلوق له، وهو الخالق له، وأن الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى اليابس منها، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها، وآمنوا برسله كلهم إيماناً يليق بشأنهم وهو أنهم عبيد له خصهم بضروب من التكريم والتعظيم، وألهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحي ليعلموا الناس كيف يوحّدون ربهم ويعبدونه ويشكرونه، ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الآب والابن والروح القدس، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر، وكل منها إله كامل، ومجموعها إله واحد.

فإن في هذا تركاً للتوحيد الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء، واتباعاً لعقيدة الوثنيين، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول، ولا يقبله أولو الألباب...

والتعبير بالولد دون الابن الذي يعبرون به في كلامهم، لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولداً، أي مولوداً من تلقيح أبيه لأمه، وهذا محال على الله تعالى، وإن أرادوا الابن المجازي لا الحقيقي فلا خصوصية لعيسى في ذلك، لأنه قد أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابناً له حقيقة، بل له كل ما في السموات وما في الأرض خلقاً ملكاً، والمسيح من جملتها كما قال تعالى ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

سيد قطب ج ٢ ص ٨١٤ ـ ٨٢٣

هذا الدرس جولة مع النصارى من أهل الكتاب، كما كان الدرس الماضي جولة مع اليهود منهم وهؤلاء من أهل الكتاب، الموجه إليهم هذا الخطاب.

وفي الدرس الماضي أنصف القرآن عيسى ابن مريم وأمه الطاهرة من افتراءات اليهود، وأنصف العقيدة الصحيحة في حكاية صلب المسيح عليه السلام وأنصف الحق نفسه من يهود، وأفاعيل يهود، وعنت!

في هذا الدرس يتجه السياق إلى إنصاف الحق والعقيدة، وإنصاف عيسى ابن مريم كذلك من غلو النصارى في شأن المسيح عليه السلام ومن الأساطير الوثنية التي تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام، وشتى الملل، التي احتكت بها النصرانية؛ سواء في ذلك أساطير الإغريق والرومان، وأساطير قدماء المصريين، وأساطير الهنود!

ولقد تولى القرآن الكرم تصحيح عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين، المتخلفة من بقايا الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام في الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترهات الجاهلية!

لا بل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة في الله للبشر أجمعين؛ وينقذها من كل انحراف وكل اختلاف، وكل غلو، وكل تفريط، في تفكير البشر أجمعين.. فصحح ـ فيما صحح ـ اختلالات تصور التوحيد في آراء أرسطو في أثينا قبل الميلاد، وأفلوطين في الإسكندرية بعد الميلاد؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات في شتى الفلسفات التي كانت تخبط في التيه، معتمدة على ذبالة العقل البشري، الذي لا بد أن تعنيه الرسالة، ليهتدي في هذا التيه!

والقضية التي يعرض لها السياق في هذه الآيات، هي قضية «التثليث» وما تتضمنه من أسطورة «بنوة المسيح» لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح.

ولقد جاء الإسلام والعقيدة التي يعتنقها النصارى ـ على اختلاف المذاهب ـ هي عقيدة أن الإله واحد في أقانيم ثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس. والمسيح هو «الابن».. ثم تختلف المذاهب بعد ذلك في المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط. وهل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كالآب أو مخلوق.. إلى آخر ما تفرقت به المذاهب، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة.. (وسيأتي شيء من تفصيل هذا الإجمال في مناسبته في سياق سورة المائدة).

والثابت من التتبع التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية، أن عقيدة التثليث، وكذلك عقيدة بنوة المسيح لله ـ سبحانه ـ (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها في التثليثات المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى. إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التارخي، مع الوثنيين الذي دخلوا في النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة.. والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات المصرية القديمة، من تثليث «أوزوريس وإيزيس، وحوريس» والتثليثات المتعددة في هذه الديانة..

وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التى أنزلها بهم الأباطرة الرومان، والمجامع المقدسة الموالية للدولة (الملوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادي على الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيداً عن أيدي السلطات الرومانية.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾..

فهو الغلو إذن وتجاوز الحد والحق، هو ما يدعو أهل الكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا على الله غير الحق، فيزعموز له ولداً ـ سبحانه ـ كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة...

وقد تطورت عندهم فكرة البنوة، وفكرة التثليث،

حسب رقي التفكير وانحطاطه. ولكنهم قد اضطروا أمام الاشمئزاز الفطري من نسبة الولد لله، والذي تزيده الثقافة العقلية، أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر. ولكن عن «المحبة» بين الآب والابن. وأن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة.. بأنها «صفات» لله سبحانه في «حالات» مختلفة.. وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشري. فهم يحيلونها إلى معميات غيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السماوات والأرض.

والله سبحانه تعالى عن الشركة؛ وتعالى عن المشاهبة. ومقتضى كونه خالقاً يستتبع.. بذاته.. أن يكون غير الخلق. وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التغاير بين الخالق والخلق. والمالك والملك.. وإلى هذا يشير النص القرآني:

﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

وإذا كان مولد عيسى عليه السلام من غير أب عجيباً في عرف البشر، خارقاً لما ألفوه، فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المألوف. والمألوف للبشر ليس هو كل الموجود. والقوانين الكونية التي يعرفونها ليست هي كل سنة الله. والله يخلق السنة ويجريها، ويصرفها حسب مشيئته. ولا حد لمشيئته.

والله سبحانه يقول وقوله الحق في المسيح ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ فهو على وجه القصد والتحديد: «رسول الله». شأنه في هذا شأن بقية الرسل. شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان..

﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ وأقرب تفسير لهذه العبارة، أنه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن: إنه ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].. فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب - كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم - والكلمة التي تخلق كل شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى - عليه السلام - في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها بقوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾.

وقد نفخ الله في طينة آدم من قبل من روحه. فكان «إنساناً».. كما يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١، ٧٢] وكذلك قال في قصة عيسى: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء: ٩١] فالأمر له سابقة.. والروح هنا هو الروح هناك.. ولم يقل أحد من أهل الكتاب - وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله - إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى مع تشابه الحال من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك. بل إن آدم خلق من غير أب وأم: وعيسى خلق مع وجود أم.. وكذلك قال الله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩]..

ويعجب الإنسان - وهو يرى وضوح القضية وبساطتها - من فعل الهوى ورواسب الوثنية التي عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله، في أذهان أجيال وأجيال هي كما يصورها القرآن بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة.

إن الذي وهب لآدم.. من غير أبوين.. حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذي وهب عيسى.. من غير أب.. هذه الحياة الإنسانية كذلك.. وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التي لا تنتهي عن ألوهية المسيح، لمجرد أنه جاء من غير أب. وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك!.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾..

وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله - ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد بوصفه خاتم النبيين - والانتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير، تجيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح..

﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.. تشهد بهذا وحدة الناموس..

ووحدة الخلق. ووحدة الطريقة: كن.. فيكون.. ويشهد بذلك العقل البشري ذاته. فالقضية في حدود إدراكه. فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقاته، ولا ثلاثة في واحد، ولا واحداً في ثلاثة:

﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾.. والولادة امتداد للفاني ومحاولة للبقاء في صور النسل.. والله الباقي غني عن الامتداد في صورة الفانين؛ وكل ما في السماوات وما في الأرض ملك له سبحانه على استواء: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾..

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود؛ وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم! فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة:

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.. وهكذا لا يكتفي القرآن ببيان الحقية وتقريرها في شأن العقيدة. إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم؛ وقيامه ـ سبحانه ـ عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم؛ ليكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة..

ويمضي السياق في البيان؛ لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادي الصحيح، وهي الحقيقة الاعتقادية التي تنشأ في النفس من تقرير حقيقة الوحدانية.. حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق.. وأن هناك فقط: ألوهية وعبودية.. ألوهية واحدة، وعبودية تشمل كل شيء، وكل أحد، في هذا الوجود.

ويصحح القرآن هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى، أو شركاً في الألوهية كشركته في الألوهية:

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه؛ وحدانية لا تتبلس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور؛ وعني بتقرير أن الله ـ سبحانه ـ ليس كمثله شيء. فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا خاصية. كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله ـ سبحانه ـ وكل شيء (بما في ذلك كل حي)، وهي أنها صلة ألوهية وعبودية. ألوهية الله، وعبودية كل شيء لله.. والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق ـ أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه ـ بحيث لا تدع في النفس ظلاً من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر هذه هي الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون، فقررها في سيرة كل رسول، وفي دعوة كل رسول؛ وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام، إلى عهد محمد خاتم النبيين ـ عليه الصلاة والسلام ـ تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]..

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية ـ وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة ـ يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة؛ وينسب لله ـ سبحانه ـ البنين والبنات؛ أو ينسب لله ـ سبحانه ـ الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم؛ اقتباساً من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات!

ألوهية وعبودية.. ولا شيء غير هذه الحقيقة. ولا قاعدة إلا هذه القاعدة. ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية، وصلة العبودية بالألوهية..

ولا تستقم تصورات الناس ـ كما لا تستقيم حياتهم ـ إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غبش، ومن كل شبهة، ومن كل ظل!

أجل لا تستقيم تصورات الناس، ولا تستقر مشاعرهم، إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم.. هو إله لهم وهم عبيده.. هو خالق لهم وهم مخاليق.. هو مالك لهم وهم مماليك.. وهم كلهم سواء في هذه الصلة، لا بنوة أحد. ولا امتزاج بأحد.. ومن ثم لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه: التقوى والعمل الصالح.. وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله. فأما البنوة، وأما الامتزاج فأنى بهما لكل أحد؟!

ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة، إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة: أنهم كلهم عبيد

لرب واحد.. ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد. فأما القربى إليه ففي متناول الجميع.. عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان، لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان.. وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين الله والناس؛ وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لفرد أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس.. وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام!

فالمسألة ـ على هذا ـ ليست مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين، فحسب، إنما هي كذلك مسألة نظام حياة، وارتباطات مجتمع، وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام.. ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد.. ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس، بوصفها الممثلة لابن الله، أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية؛ المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم. ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم «بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله! وقد ظلَّ «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب؛ وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب.. ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوربا باسم (الابن) أو مركب الأقانيم. حتى جاء «الصليبيون» إلى أرض الإسلام مغيرين. فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس»، وكانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر»، و«كالفن»، و«زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح.. على أساس من تأثير الإسلام، ووضوح التصور الإسلامي، ونفي القداسة عن بني الإنسان؛ ونفي التفويض في السلطان.. لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام.

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته؛ وألوهية روح القدس (أحد الأقانيم)، وفي كل أسطورة عن بنوة أحد لله، أو ألوهية أحد مع الله، في أي شكل من الأشكال.. يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى ابن مريم عبدالله، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله، وأن الملائكة المقربين عبيد لله، وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله، وأن جميع خلائقه ستحشر إليه، وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم. وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾.

إن المسيح عيسى ابن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبداً لله، لأنه عليه السلام وهو نبي الله ورسوله ـ خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان، وهو خير من يعرف أنه من خلق الله، فلا يكون خلق الله كالله، أو بعضاً من الله! وهو خير من يعرف أن العبودية لله ـ فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة ـ لا تنقص من قدره، فالعبودية لله مرتبة لا يأباها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء، وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله، وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده.. وكذلك الملائكة المقربون ـ وفيهم روح القدس جبريل ـ شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء ـ فما با لجماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة؟!

﴿ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾..

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه.. سلطان الألوهية على العباد.. شأنهم في هذا شأن المقربين بالعبودية المستسلمين لله.. فأما الذين عرفوا الحق، فأقروا بعبوديتهم لله، وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار؛ فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.. وما يريد الله ـ سبحانه ـ من عباده أن يقروا له بالعبودية، وأن

يعبدوه وحده، لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم، ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء، ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم، كما تصح حياتهم وأوضاعهم. فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع، على أساس سليم قويم، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار..

يريد الله ـ سبحانه ـ أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بيناها في نفوس الناس وفي حياتهم، ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ليعرفوا مَنْ صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض، فلا يخضعوا إلا له، وإلا لمنهجه وشريعته للحياة، وإلا لمن يحكم حياتهم وشرعه دون سواه. يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد؛ ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه، حين تعنو له وحده الوجوه والجباه. يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة، حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون الله ولا يذكرون أحداً إلا الله. يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب، ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح؛ فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربى إلى الله. يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فتكون لهم غيرة على سلطان الله في الأرض أن يدعيه المدعون باسم الله، أو باسم غير الله فيردون الأمر كله لله. ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس..

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة؛ وتعليق أنظارم البشر لله وحده؛ وتعليق أنظار البشر لله وحده؛ وتعليق قلوبهم برضاه، وأعمالهم بتقواه، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه.. إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية، وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به الأرض.. في هذه الحياة.. فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقرين بالعبودية العاملين للصالحات، في الآخرة، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر، وفيض من عطاء الله.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام، وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها، ودعوة الرسل جميعاً قبل أن يحرفها الأتباع، وتشوهها الأجيال.. يجب أن ننظر إليها بوصفها ميلاداً جديداً للإنسان، تتوافر له معه الكرامة والحرية، والعدل والصلاح، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.

والذين يستنكفون من العبودية لله يذلون لعبوديات في هذه الأرض ولا تنتهي.. يذلون لعبودية الهوى والشهوة، أو عبودية الوهم والخرافة، ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه، ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله.. ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون الله.. هذا في الدنيا.. أما في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣].

١١

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ١٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٦	ص ١٠٤ ـ ١٠٥	ابن كثير	ج ٢	ص ٣٤ ـ ٣٥
الرازي	ج ١١	ص ١٩٠ ـ ١٩١	الجلالان		ص ١٣٩
الزمخشري	ج ١	ص ٦٠١ ـ ٦٠٢	الشوكاني	ج ٢	ص ٢٤ ـ ٢٥
الطبرسي	ج ٦	ص ٥٧ ـ ٦٠	الآلوسي	ج ٦	ص ٩٨ ـ ١٠٠
ابن عربي	ج ١	ص ٣١٧ ـ ٣١٩	القاسمي	ج ٦	ص ١٩٢١ ـ ١٩٢٤
البيضاوي	ج ٢	ص ١٤٢	محمد عبده	ج ٦	ص ٣٠٦ ـ ٣١٤
الخازن	ج ٢	ص ٢٨	الطباطبائي	ج ٥	ص ٢٤٢ ـ ٢٨٥
البغوي	ج ٢	ص	جوهري	ج ٣	ص ١٥٣ ـ ١٥٤
الماوردي	ج ٢	ص	المراغي	ج ٦	ص ٨١ ـ ٨٤
القرطبي	ج ٦	ص ١١٩	سيد قطب	ج ٢	ص ٨٦٣ ـ ٨٦٦
ابو حيان الاندلسي	ج ٣	ص ٤٤٢ ـ ٤٥٠			

الطبري ج ٦ ص ١٠٤ ـ ١٠٥

القول في تأويل قوله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ هذا ذم من الله عزّ ذكره للنصارى والنصرانية الذين ضلوا عن سبل السلام واحتجاج منه لنبيه محمد ﷺ في فريتهم عليه بادعائهم له ولداً يقول جل ثناؤه أقسم لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وكفرهم في ذلك تغطيتهم الحق في تركهم نفي الولد عن الله جلّ وعزّ وادعائهم أن المسيح هو الله فرية وكذباً عليه وقد بينا معنى المسيح فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد للنصارى الذين افتروا عليّ وضلوا عن سواء السبيل بقيلهم أن الله هو المسيح ابن مريم من يملك من الله شيئاً يقول من الذي يطيق أن يدفع من أمر الله جلّ وعزّ شيئاً فيردّه إذا قضاه من قول القائل ملكت على فلان أمره إذا صار لا يقدر أن ينفذ أمراً إلا به وقوله إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً يقول من ذا الذي يقدر أن يردّ من أمر الله شيئاً إن شاء أن يهلك المسيح ابن مريم باعدامه من الأرض وإعدام أمه مريم وإعدام جميع من في الأرض من الخلق جميعاً يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ قل لهؤلاء الجهلة من النصارى لو كان المسيح كما يزعمون أنه هو الله وليس كذلك لقدر أن يردّ أمر الله إذا جاءه باهلاكه وإهلاك أمه وقد أهلك أمه فلم يقدر على دفع أمره فيها إذ نزل ذلك ففي ذلك لكم معتبر إن اعتبرتم وحجة عليكم إن عقلتم في أن المسيح بشر كسائر بني آدم وأن الله عزّ وجلّ هو الذي لا يغلب ولا يقهر ولا يردّ له أمر بل هو الحي الدائم القيوم الذي يحيي ويميت وينشىء ويفني وهو حي لا يموت. القول في تأويل قوله ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ يعني تبارك وتعالى بذلك والله له تصريف ما في السموات والأرض وما بينهما يعني وما بين السماء والأرض يهلك

من يشاء من ذلك ويبقي ما يشاء منه ويوجد ما أراد ويعدم ما أحب لا يمنعه من شيء أراد من ذلك مانع ولا يدفعه عنه دافع ينفذ فيهم حكمه ويمضي فيهم قضاءه لا المسيح الذي إن أراد ربه واهلاك أمه لم يملك دفع ما أراد به ربه من ذلك يقول جلّ وعزّ كيف يكون إلهاً يعبد من كان عاجزاً عن دفع ما أراد به غيره من السوء وغير قادر على صرف ما نزل به من الهلاك بل الإله المعبود الذي له ملك كل شيء وبيده تصريف كل من في السماء والأرض وما بينهما فقال جل ثناؤه وما بينهما وقد ذكر السموات بلفظ الجمع ولم يقل وما بينهن لأن المعنى وما بين هذين النوعين من الأشياء كما قال الراعي:

طـرقـا فتلـك همـا همـي أقـريهمـا
قلصـا لـواقـح كـالقسـي وحـولا

فقال طرقا مخبراً عن شيئين ثم قال فتلك هما همي فرجع إلى معنى الكلام وقوله يخلق ما يشاء يقول جل ثناؤه وينشىء ما يشاء ويوجده ويخرجه من حال العدم إلى حال الوجود ولن يقدر على ذلك غير الله الواحد القهار وإنما يعني بذلك أن له تدبير السموات والأرض وما بينهما وتصريفه وإفناءه وإعدامه وإيجاد ما يشاء مما هو غير موجود ولا منشأ يقول فليس ذلك لأحد سواي فكيف زعمتم أيها الكذبة أن المسيح إله وهو لا يطيق شيئاً من ذلك بل لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه ولا عن أمه ولا اجتلاب نفع إليها إلا بإذني. القول في تأويل قوله ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ يقول عزّ ذكره الله المعبود هو القادر على كل شيء والمالك كل شيء الذي لا يعجزه شيء أراده ولا يغلبه شيء طلبه المقتدر على هلاك المسيح وأمه ومن في الأرض جميعاً لا العاجز الذي لا يقدر على منع نفسه من ضر نزل به من الله ولا منع أمه من الهلاك.

الزمخشري ج ١ ص ٦٠١ ـ ٦٠٢

قولهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ﴾ معناه بت القول على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير. قيل كان في النصارى قوم يقولون ذلك، وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم. . .

﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ أي يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده. أشياع

الرازي ج ١١ ص ١٩٠ ـ ١٩١

قوله تعالى ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ ﴾ في الآية سؤال، وهو أن أحداً من النصارى لا يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، فكيف حكى الله عنهم ذلك مع أنهم لا يقولون به.

وجوابه: أن كثيراً من الحلولية يقولون: أن الله تعالى قد يحل في بدن إنسان معين، أو في روحه، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال: إن قوماً من النصارى ذهبوا إلى هذا القول، بل هذا أقرب مما يذهب إليه النصارى، وذلك لأنهم يقولون: أن إقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام، فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة، فإن كان ذاتاً فذات الله تعالى قد حلت في عيسى واتحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإله على هذا القول. وإن قلنا: إن الأقنوم عبارة عن الصفة، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول، ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى يلزم خلو ذات الله عن العلم، ومن لم يكن عالماً لم يكن إلهاً، فحينئذ يكون الإله هو عيسى على قولهم، فثبت أن النصارى وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول إلا أن حاصل مذهبهم ليس إلا ذلك. . .

ثم قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ ﴾ إنما قال ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾ بعد ذكر السموات والأرض، ولـم يقـل: بينهـن لأنـه ذهب بـذلـك مـذهـب الصنفين والنوعين.

ثم قال: ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفيه وجهان: الأول: يعني يخلق ما يشاء، فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة لا من الأب والأم كما في حق آدم عليه السلام، وتارة من الأم لا من الأب كما في حق عيسى عليه السلام، والثاني: يخلق ما يشاء، يعني أن عيسى إذا قدر صورة الطير من الطين فالله تعالى يخلق فيه اللحمية والحياة والقدرة معجزة لعيسى، وتارة يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص معجزة له، ولا اعتراض على الله تعالى في شيء من أفعاله.

الطبرسي ج ٦ ص ٥٧ ـ ٦٠

ثم حكى سبحانه عن النصارى ما قالوا في المسيح ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ كفّرهم الله سبحانه بهذا القول لأنهم قالوه على وجه التدين به والاعتقاد لا على وجه الإنكار وإنما كفروا بذلك لوجهين:

أحدهما: إنهم كفروا بالنعمة من حيث أضافوا إلى غير الله ممن ادعوا إلهيته

والآخر: إنهم كفروا بأنهم وصفوا المسيح وهو محدث بصفات الله سبحانه فقالوا له وكل جاهل بالله كافر، لأنه لما ضيع نعمة الله تعالى كان بمنزلة من أضافها إلى غيره ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي من يقدر أن يدفع من أمر الله شيئاً من قولهم ملكت على فلان أمره إذ اقتدرت عليه حتى لا يمكنه انفاذ شيء من أمره إلا بك وتقديره من يملك من أمر الله شيئاً ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ . . .

ابن عربي ج ١ ص ٣١٧ ـ ٣١٩

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ بأن حصروا الألوهية فيه، وقيدوا الإله بتعينه. ﴿ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ إلى قوله: ﴿ جَمِيعًا ﴾ بالإفناء في التوحيد، والطمس في غير الجمع. كما قال: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أي عالم الأرواح ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ عالم الأجساد ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من الصور والأعراض كلها ظاهرة وباطنة، وأسماؤه، وصفاته وأفعاله.

الخازن ج ٢ ص ٢٨

قوله عزّ وجلّ ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ قال ابن عباس هؤلاء نصارى نجران فإنهم قالوا هذه المقالة وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم يقولون في المسيح أنه الله تعالى، الله عما يقولون علواً كبيراً وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة لأنهم يقولون بالحلول وأن الله قد حلّ في بدن عيسى فلما كان اعتقادهم ذلك لا جرم حكم الله عليهم بالكفر ثم ذكر الله ما يدل على فساد مذهبهم فقال تعالى ﴿ قُلْ ﴾ يعني يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة ﴿ فَمَن يَمْلِكُ ﴾ يعني يقدر أن يدفع ﴿ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ يعني من أمر الله شيئاً ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ ﴾ يعني يعدم المسيح وأمه. . .

أبو حيان الأندلسي ج ٣ ص ٤٤٨ ـ ٤٥٠

واختلف المفسرون في تأويل هذه الآية فذهب قوم إلى أنهم كلهم قائلون هذا القول وهم على ثلاث فرق كما تقدم وأنهم أجمعوا وإن اختلفت مقالاتهم على أن معبودهم جوهر واحد أقانيم ثلاثة الأب والابن والروح أي الحياة ويسمونها روح القدس وأن الابن لم يزل مولوداً من الأب ولم يزل الأب والداً ولم تزل الروح منتقلة بين الأب والابن وأجمعوا على أن المسيح لاهوت وناسوت أي إله وإنسان فإذا قالوا المسيح إله واحد فقد قالوا الله هو المسيح وذهب قوم إلى أن القائلين هذا القول فرقة غير معينة يقولون إن الكلمة اتخذت بعيسى سواء قدرت ذاتا أم صفة وذهب قوم إلى أن اليعقوبية من النصارى هي القائلة بهذه المقالة ذكره البغوي في معالم التنزيل. قال بعض المفسرين وكل طوائفهم الثلاثة اليعقوبية والملكانية والنسطورية ينكرون هذه المقالة والذي يقرون به أن عيسى ابن الله تعالى وأنه إله وإذا اعتقدوا فيه إنه إله لزم من ذلك قولهم بأنه الله انتهى وقد رأيت من نصارى بلاد الأندلس من كان ينتمي إلى العلم فيهم وذكر لي أن عيسى نفسه هو الله تعالى ونصارى الأندلس ملكية قلت له كيف تقول ذلك ومن المتفق عليه أن عيسى كان يأكل ويشرب فتعجب من قولي وقال إذا كنت أنت بعض مخلوقات الله قادراً على أن تأكل وتشرب فكيف لا يكون الله قادراً على ذلك فاستدللت من ذلك على فرط غباوته وجهله بصفات الله تعالى وذهب ابن عباس إلى أنهم أهل نجران وزعم طائفة منهم أنه إله الأرض والله إله السماء ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله تعالى في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة كالحلاج والشوذي وابن أحلى وابن العربي المقيم كان بدمشق وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سبعين والتستري تلميذه وابن مطرف المقيم بمرسية والصفار المقتول بغرناطة وابن اللباج وأبو الحسن المقيم كان بلورقة وممن رأيناه يرمي بهذا المذهب الملعون العفيف التلمساني وله في ذلك أشعار كثيرة وابن عياش المالقي الأسود الأقطع المقيم كان بدمشق وعبد الواحد بن المؤخر المقيم كان بصعيد مصر والأيكي العجمي الذي كان تولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر وأبو يعقوب بن مبشر تلميذ التستري المقيم كان بحارة زويلة وإنما سردت أسماء هؤلاء نصحاً لدين الله يعلم الله ذلك وشفقة على ضعفاء المسلمين وليحذروا فهم شر من الفلاسفة الذين يكذبون الله تعالى ورسله ويقولون بقدم العالم وينكرون البعث وقد أولع جهلة ممن ينتمي للتصوّف بتعظيم هؤلاء وادّعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه والردّ على النصارى والحلولية والقائلين بالوحدة هو من علم أصول الدين. وقال ابن عطية القائلون بأن الله هو المسيح فرقة من النصارى وكل فرقهم على اختلاف أقوالهم يجعل للمسيح حظاً من الألوهية. وقال الزمخشري قيل كان في النصارى من يقول ذلك. وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر العالم ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هذا ردّ عليهم والفاء في فمن للعطف على جملة محذوفة تضمنت كذبهم في مقالتهم التقدير قل كذبوا وقل ليس كما قالوا فمن يملك . . .

ومن تنفذ فيه لا يكون إلهاً وعطف عليهما ومن في الأرض جميعاً عطف العام على الخاص ليكونا قد ذكرا مرّتين مرّة بالنص عليهما ومرة بالاندراج في العام وذلك على سبيل التوكيد والمبالغة في تعلق نفاذ الإرادة فيهما وليعلم أنهما من جنس من في الأرض لا تفاوت بينهما في البشرية وفي ذلك إشارة إلى حلول الحوادث بهما والله سبحانه وتعالى منزه أن تحلّ به الحوادث وأن يكون محلاً لها وفي هذا ردّ على الكرامية ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ والمسيح وأمه من جملة ما في الأرض فهما مقهوران لله تعالى مملوكان له وهذه الجملة مؤكدة لقوله إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ودلالة على أنه إذا أراد فعل لأن من له ذلك الملك يفعل في ملكه ما يشاء . . .

الشوكاني ج ٢ ص ٤٢ ـ ٢٥

ضمير الفصل في قوله ﴿ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ يفيد الحصر؛ قيل وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى؛ وقيل لم يقل به أحد منهم، ولكن استلزم قولهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ لا غيره، وقد تقدّم في آخر سورة النساء ما يكفي ويغني عن التكرار. قوله ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، والملك، والملك: الضبط والحفظ والقدرة، من قولهم ملكت على فلان أمره: أي قدرت عليه: أي فمن يقدر أن يمنع ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ . . .

قوله «يخلق ما يشاء» جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء لا يستصعب عليه شيء.

الآلوسي ج ٦ ص ٩٨ ـ ١٠٠

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ لا غير المسيح كما يقال: الكرم هو التقوى، وأن الله تعالى هو الدهر أي الجالب للحوادث لا غير الجالب، فالقصر هنا للمسند إليه على المسند بخلاف قولك: زيد هو المنطلق فإن معناه لا غير زيد، والقائلون لذلك ـ على ما هو المشهور ـ هم اليعقوبية المدعون بأن الله سبحانه قد يحل في بدن إنسان معين أو في روحه.

وقيل: لم يصرح بهذا القول أحد من النصارى، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً مع تصريحهم بالوحدة، وقولهم: لا إله إلا واحد لزمهم أن الله سبحانه هو المسيح، فنسب إليهم لازم قولهم توضيحاً لجهلهم وتفضيحاً لمعتقدهم، وقال الراغب: فإن قيل: إن أحداً لم يقل الله تعالى هو المسيح وإن قالوا المسيح هو الله تعالى وذلك أن عندهم أن المسيح من لاهوت وناسوت فيصح أن يقال المسيح هو اللاهوت، وهو ناسوت كما صح أن يقال: الإنسان هو حيوان مع تركبه من العناصر، ولا يصح أن يقال: اللاهوت هو المسيح كما لا يصح أن يقال: الحيوان هو الإنسان، قيل: إنهم قالوا: هو المسيح على وجه آخر غير ما ذكرت، وهو ماروي عن محمد بن كعب القرظي أنه لما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام اجتمع طائفة من علماء بني إسرائيل فقالوا: ما تقولون في عيسى عليه الصلاة والسلام؟ فقال أحدهم: أوتعلمون أحداً يحيي الموتى إلا الله تعالى؟ فقالوا: لا، فقال: أو تعلمون أحداً يبرىء الأكمه والأبرص إلا الله تعالى؟ قالوا: لا، قالوا: فما الله تعالى إلا من هذا وصفه أي حقيقة الإلهية، فيه، وهذا كقولك: الكريم زيد أي حقيقة الكرم في زيد، وعلى هذا قولهم: إن الله تعالى هو المسيح انتهى، وأنت تعلم أنه مع دعوى أن القائلين بالاتحاد يقولون بانحصار المعبود في المسيح كما هو ظاهر النظم لا يرد شيء ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان قولهم الفاسد وإلقاماً لهم الحجر، وقد يقال: الخطاب لكل من له أهلية ذلك، والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ عاطفة على مقدر، أو جواب شرط محذوف، و«من» استفهامية للإنكار والتوبيخ، والملك الضبط والحفظ التام عن حزم، والمراد هنا ـ فمن يمنع، أو يستطيع ـ كما في قوله:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا
أملك رأس البعير إن نفرا

و﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ متعلق به على حذف مضاف أي ليس الأمر كذلك، أو إن كان كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وإرادته شيئاً ﴿ إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ومن حق من يكون إلهاً أن لا يتعلق به، لا بشأن من شؤونه، بل بشيء من الموجودات قدرة غيره فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه، فلما كان عجزه بيناً لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل عما تقولون فيه.

والمراد بالإهلاك الإماتة والإعدام مطلقاً لا عن سخط وغضب، وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه

الألوهية حيث ذكرت معه الصفة في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره تعالى وملكوته سبحانه، وقيل: وصفه بذلك للتنبيه على أنه حادث تعلقت به القدرة بلا شبهة لأنه تولد من أم، وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف لزيادة تأكيد عجز المسيح، ولعل نظمها في سلك من فرض إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجاً لحال بقية من فرض إهلاكه، وتعميم إرادة الإهلاك مع حصول الغرض بقصرها على عيسى عليه الصلاة والسلام لتهويل الخطب وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره وملكوته تعالى لا يقدر على دفع ما أريد به فضلاً عما أريد بغيره، وللإيذان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك كما أنه أسوة لهم في العجز وعدم استحقاق الألوهية. قاله المولى أبو السعود، و﴿جَمِيعًا﴾ حال من المتعاطفات، وجوّز أن يكون حالاً من (من) فقط لعمومها، وقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي ما بين طرفي العالم الجسماني فيتناول ما في السموات من الملائكة وغيرها، وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات، قيل: تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته إثر الإشارة إلى كون البعض كذلك أي له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتة لا لأحد سواه استقلالاً ولا اشتراكاً، فهو تحقيق لاختصاص الألوهية به تعالى إثر بيان انتفائها عما سواه، وقيل: دليل آخر على نفي ألوهية عيسى عليه الصلاة والسلام لأنه لو كان إلهاً كان له ملك السموات والأرض وما بينهما، وقيل: دليل على نفي كونه عليه الصلاة والسلام ابناً ببيان أنه مملوك لدخوله تحت العموم، ومن المعلوم أن المملوكية تنافي البنوة، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والألوهية على وجه يزيح ما اعتراهم من الشبه في أمر المسيح عليه السلام لولادته من غير أب، وخلق الطير. وإبراء الأكمه والأبرص. وإحياء الموتى، ﴿وَمَا﴾ نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية أي يخلق أي يخلق يشاؤه، فتارة يخلق من غير أصل ـ كخلق السموات والأرض ـ مثلاً، وأخرى من أصل ـ كخلق بعض ما بينهما ـ وذلك متنوع أيضاً، فطوراً ينشىء من أصل ليس من جنسه كخلق آدم، وكثير من الحيوانات ـ وتارة من أصل يجانسه إما من ذكر وحده ـ كخلق حواء ـ أو من أنثى وحدها ـ كخلق عيسى عليه الصلاة والسلام ـ أو منهما ـ كخلق سائر الناس، ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات ـ ككثير من المخلوقات ـ وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر ـ كخلق الطير ـ على يد عيسى عليه السلام معجزة له. وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فينبغي أن ينسب كل ذلك إليه تعالى لا من أجرى على يده قاله غير واحد.

وقيل: إن الجملة جيء بها ههنا مبينة لما هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلخ بحسب اقتضاء المقام، ﴿وَمَا﴾ نصب على المصدرية أيضاً، وقيل: يجوز أن تكون موصولة ومحلها النصب على المفعولية أي يخلق الذي يشاء أن يخلقه، والجملة مسوقة لبيان أن قدرته تعالى أوسع من عالم الوجود، وعلى كل تقدير فقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله وإظهار الاسم الجليل لما مر من التعليل...

محمد عبده ج ٦ ص ٣٠٦ ـ ٣١٤

أقام الله الحجة على أهل الكتاب كافة، ثم بين ما كفر به النصارى خاصة، فقال ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ قال البيضاوي: «هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرح به أحد منهم، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا: لا إله إلا واحد ـ لزمهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم، توضيحاً لجهلهم، وتفضيحاً لمعتقدهم». وذكر الفخر الرازي في تفسيره أن هذا القول مبني على عقيدة الحلول

والاتحاد، وأنه لازم مذهب النصارى وإن كانوا لا يقولونه أو لا يقوله أحد منهم. وصرح بعض المفسرين بأن هذا المذهب مذهب اليعقوبية منهم خاصة. وذلك أن السابقين من المفسرين والمؤرخين ذكروا أن النصارى ثلاث فرق: اليعقوبية والملكانية والنسطورية. واعلم أن أمثال الزمخشري والبيضاوي والرازي لا يعتد بما يعرفون عن النصارى فإنهم لم يقرؤا كتبهم ولم يناظروهم فيها وفي عقائدهم إلا قليلاً، وإنما يأخذون ما في كتب المسلمين عنهم قضايا مسلمّة. ومنها ما هو مشهور فيها من تفسير الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة، فالقول بها لا ينافي وحدانية الخالق. وكان يقول مثل هذا بعض علماء النصارى لعلماء المسلمين، والظاهر أن بعض المتقدمين كان يعتقد هذا، كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربة وغيرهم كثيرمن الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبي رسول لا إله. ولعله لم يبق في النصارى من يقول بتلك الفلسفة، لأنهم في كل عصر يغيرون في دينهم ما شاؤا أن يغيروا في فلسفته. وكان أكبر تغيير حدث بعد هؤلاء المفسرين مذهب «البروتستانت» أي إصلاح النصرانية، حدث منذ أربع قرون وصار هو السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وانكلترة وألمانية. نسف هذا المذهب أكثر التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله، ثم استبدل بها تقاليد أخرى فصار عدة مذاهب في الحقيقة، ومع هذا ترى هؤلاء المصلحين الذين زعموا أنهم أعادوا النصرانية إلى أصلها لم يستطيعوا أن يرجعوها إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح وسائر أنبياء بني إسرائيل ورسل الله أجمعين، فهم لا يزالون يقولون بألوهية المسيح وبالتثليث ويعدون الموحد غير مسيحي، كما يقول ذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان من فرق النصرانية في هذا العصر ـ وهم الكاثوليك والأرثوذكس ـ فجميع فرق نصارى هذا العصر تقول أن الله هو المسيح ابن مريم، وأن المسيح ابن مريم هو الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. والظاهر أن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة كما قال مفسرونا.

قال «الدكتور بوست» في تاريخ الكتاب المقدس عند الكلام على لفظ الجلالة ما نصه:

«طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفدي، وإلى الروح القدس التطهير. غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء. أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم كما هي في العهد الجديد. وقد أشير إلى هذا في «تك ص ١» حيث ذكر «الله» و«روح الله» إلخ «قابل مز ٣٣: ويو ١٦: ١٠ و٣» والحكمة الإلهية المشخصة في «أم ص ٨» تقابل الكلمة في «يو ص ١» وربما نشير إلى الأقنوم الثاني. وتطلق نعوت القدير على كل أقنوم من هذه الأقانيم الثلاثة على حدته» اهـ بحروفه.

والحق أن العهد القديم ـ أي كتب الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح ـ ليس فيها شيء ظاهر ولا خفي في عقيدة التثليث لأنها عقيدة وثنية محضة. ومن أغرب التكلف تفسير الحكمة في أمثال سليمان بالكلمة بالمعنى الذي يريدونه وهو وهم لم يخطر في بال سليمان، ولا المسيح عليهما السلام، وسترى أنهم قالوا: إن استعمال الكلمة بهذه المعنى لم يرد إلا في كلام يوحنا!! وقد كان جميع أنبياء الله تعالى موحدين، أعداء للوثنية والوثنيين. وإنما يصح أن يقال إن التوحيد ظاهر جلي في العهد الجديد أيضاً، والتثليث فيه هو الخفي. فإن العقيدة التي يدعو إليها دعاة النصرانية، والعبارات التي يذكرونها في ألوهية المسيح والتثليث لا تفهم كلها من العهد الجديد، بل هنالك عبارات يتحكمون في تفسيرها وشرحها كما يهوون، على خلاف شهير فيها بين متقدميهم ومتأخريهم.

والعمدة عندهم في هذه العقيدة أول عبارة من إنجيل يوحنا وهي «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة» وقد أطلقوا لفظ الكلمة على المسيح، فصار معنى الفقرة الثالثة من عبارة إنجيل يوحنا: والله هو المسيح بن مريم. وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم، فكيف يقول البيضاوي والرازي أنه أسند إليهم لازم مذهبهم؟

قال بوست في قاموسه: «يقصد بالكلمة السيد المسيح ولم ترد هذه اللفظة بهذا المعنى إلا في مؤلفات يوحنا «١: ١ ـ ١٤ ويو ١: ١ ورؤ ١٩: ١٣» وقد استعمل الفيلسوف «فيلو» لفظة «الكلمة» غير أنه يقصد بها غير ما قصد يوحنا» اهـ.

أقول قد بينا في تفسير «فنسوا حظاً مما ذكروا به» إنهم قالوا إن يوحنا ما كتب إنجيله في آخر عمره إلا إجابة لاقتراح من ألحوا عليه بذلك للعلة التي ذكروها. فلولا هذا الاقتراح والإلحاح لما كتب، ولو لم يكتب لم تعرف هذه العقيدة ـ فثبت أن هذه العقيدة لم يذكرها المسيح نفسه في كلامه ولا دعا إليها أحد من تلاميذه الذين انتشروا في البلاد للدعوة إلى إنجيله، ولم يعرفها أحد إلا في العشر العاشر من القرن الأول الذي كتب فيه يوحنا انجيله هذا، إن صح أن يوحنا الحواري هو الذي كتبه ـ ولن يصح ـ ولا يعقل أن يسكت المسيح وجميع تلاميذه عن هذه العقيدة إذا كانت هي أصل الدين كما تزعم النصارى، بل الذي تتوفر عليه الدواعي أن يقررها المسيح نفسه في كلامه، ويجعلها تلاميذه أول ما يدعون إليه ويكررونه في أقوالهم ورسائلهم.

ولا يغرنك ما أشار إليه «بوست» من الشواهد عن رسالة يوحنا ورؤياه فتظن أن هنالك نصاً أو نصوصاً في إثبات هذه العقيدة، كلا! إن الشاهد الذي عزاه إلى أول رسالته الأولى هو: «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة» فكلمة الحياة لا تفيد هذه العقيدة إلا بتحكمهم. وأما الشاهد الذي عزاه إلى الرؤيا فهو: «١١ ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعي أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب ١٢ وعيناه كلهيب من نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو ١٣ وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعي اسمه كلمة الله ١٤ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزاً أبيض نقياً ١٥ ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعصا من حديد» فأنت ترى أن هذه الأوصاف لا تنطبق على المسيح وإنما تنطبق على أخيه محمد عليهما الصلاة والسلام، فمن أسمائه الصادق والأمين، وبالعدل كان يحكم ويحارج إلخ ولم يكن للمسيح شيء من هذه الصفات، لأنه لم يحكم ولم يحارب ولم يرع الأمم. ولفظ «كلمة الله» هنا لا يفيد معنى تلك العقيدة ولا يشير إليها لأن كل شيء وجد بكلمة الله وهي كلمة التكوين ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [ياسين: ٨٢].

وأما الدليل على كون هذه العقيدة وثنية فهو يظهر لك جلياً فيما كتبناه في تفسير قوله تعالى من هذا الجزء ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ [النساء: ١٧١] وذلك أن زعمهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ جزء من عقيدة التثليث المأخوذة عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنيي الشرق والغرب. وقد أوردنا هنالك من شواهد كتب التاريخ وآثار الأولين ما علم به قطعاً أن النصارى أخذوا هذه العقيدة عنهم. وسنعود إلى ذكرها عند تفسير قوله تعالى من هذه السورة ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾ [المائدة: ٧٣] ـ قال تعالى في تبكيت هؤلاء الناس ورد زعمهم...

ومن غريب تهافت هؤلاء الناس أنهم قالوا أن شر نوع من أنواع الأهلاك وهو الصلب نزل بالمسيح ـ الذي هو الكلمة، والله هو الكلمة بزعمهم ـ ولم يستطع أن يدفعه من نفسه، وأنه استغاث بربه خائفاً وجلاً ضارعاً خاضعاً ليصرف عنه ذلك الكأس فلم يجبه إلى ما طلب!! وهم يكابرون أنفسهم في دفع هذا التهافت بمثل قولهم: إنه كان له طبيعتان ومشيئتان، ثنتان منهما إلهيتان وثنتان بشريتان، وليت شعري إذا كان هذا ممكناً فهل يمكن معه أن يجهل المسيح بطبيعته البشرية طبيعته الإلهية فيعترض عليها بمثل قولهم عنه في إنجيل متى «٣٧: ٤٦ الهي الهي لماذا تركتني» ويستنجدها غير عالم بما يمكن وما لا يمكن لها بمثل ما قالوه عنه في إنجيل متى «٢٦: ٣٩ ثم تقدم قليلاً وخر على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس ـ إلى أن قال ـ ٤٢ فمضى أيضاً

ثانية وصلى قائلاً: إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن اشربها فلتكن مشيئتك» وهذا أعظم حجة عليهم مصدقة لحجة القرآن، فإن مشيئة الله لا يردها شيء.

ثم إن الطبيعة البشرية هي التي خاطبت البشر فإذا كان هذا شأنها لا يقبل قولها ولا يوثق بتعليمها، فكيف تجعل مع الطبيعة الأخرى شيئاً واحداً، يسمى رباً وإلهاً ويعبد؟ والناس ما رأوا إلا الطبيعة البشرية، ولا عرفوا غيرها ولا سمعوا إلا كلامها ولا رأوا إلا أفعالها؟ والنكتة في عطف من في الأرض جميعاً على المسيح وأمه التذكير بأنهما من جنس البشر الذين في الأرض وما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر. وأناجيلهم تعترف بأن المسيح كان كغيره في الشؤون البشرية كما سيأتي في تفسير ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الظاهر أن هذه الجملة حالية أي فمن يملك من الله شيئاً إن أراد هلاك المسيح وأمه وأهل لأرض قاطبة والحال أنه هو صاحب الملك المطلق والتصرف الاستقلالي الكامل في السموات والأرض وما بينهما، أي ما بين هذين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم.

وهذا الملك والتصرف مما تعترف به النصارى، ولكنهم زعموا أن صاحب هذا الملك العظيم والتصرف المطلق والكمال الأعلى قد عرض له بعد خلق آدم ـ الذي ندم وتأسف من كل قلبه أنه خلقه ـ أمر عظيم، وهو أن آدم عصاه فاقتضى عدله أن يعذبه، واقتضت رحمته أن لا يعذبه، فوقع التناقض والتعارض بين مقتضى صفاته فلم يجد لذلك مخرجاً يجمع به بين مقتضى العدل والرحمة، إلا أن يحل في بطن امرأة من ذرية آدم ويتكون جنيناً فيه فتلده إنساناً كاملاً وإلهاً كاملاً! ثم يعرض نفسه لشر قتلة لعن صاحبها على لسان رسله وهي الصلب، فداء لآدم وذريته، وجمعاً بين عدله بتعذيب واحد منهم هو وحده البريء من الذنب، ورحمة الآخرين إن آمنوا بهذه العقيدة ولو بغير عقل، ثم إنه لم يتم له هذا الجمع لأن أكثر البشر لم يؤمنوا بها!! فهو لا بد أن يعذبهم في الآخرة. على أنه عذب كثيراً من الناس بمثل ما عذبه به وبغير ذلك ومنهم المؤمنون بتلك العقيدة، فلماذا لم يكن تعذيبهم في الدنيا فداء لهم؟ وهل هذا هو الجمع بين العدل والرحمة؟!

ولما كانت شبهتهم على كون المسيح بشراً إلهاً، وإنساناً رباً، هي أنه خلق على غير السّنّة العامة في خلق البشر، وأنه عمل أعمالاً غريبة لا تصدر عن عامة البشر، قال تعالى في رد هذه الشبهة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ أي لما كان له ملك السموات والأرض وما بينهما، كان من المعقول أن يكون خلقه للأشياء تابعاً لمشيئته، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان، ومنها أبو البشر عليه السلام، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط أو أنثى فقط، وقد يخلق بعضها بين ذكر وأنثى. ولا يدل شكل الخلق ولا سببه ولا امتياز بعض المخلوقات ـ كالكهرباء ـ على بعض ألوهيتها أو حلول الإله الخالق فيها، بل هذا لا يعقل ولا يمكن. فامتياز الأرض على عطارد أو زحل بوجود الأحياء فيها من البشر وغيرهم لا يعد دليلاً على كون الأرض إلهاً لذلك الكوكب الذي فضلته بهذه المزية. كذلك سنة الله في خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلهاً أو رباً لمن لم توجد فيهم هذه المزايا، لأن المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق، فلا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً نسبته إلى خالقه كنسبة سائر المخلوقات إليه تعالى وأما الامتياز ببعض الأفعال الغريبة فهو معهود من البشر أيضاً، ونقل ذلك عن جميع الأمم والملل، وقد ادّعت الأمم الوثنية لأصحابها الألوهية والربوبية، وأجمع الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم على توحيد الله تعالى وسموا تلك الغرائب بالآيات الإلهية. وقالوا إن الله تعالى قد يؤيد بها أنبياءه ورسله فلماذا خرجتم أيها النصارى عن سنة النبيين والمرسلين، واتبعتم سنة الوثنيين كقدماء الهنود والمصريين، الذين جعلوا غرابة خلق مقدسيهم وغرابة بعض أفعالهم، دليلاً على ألوهيتهم وربوبيتهم؟ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته، وإنما يعد بعض خلقه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى. وكذلك غرابة بعض أفعالهم، وهي قد تكون عن علم كسبي يجهله غيرهم، أو قوة نفسية لم يبلغها سواهم، أو تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

جوهري ج ٣ ص ١٥٣ ـ ١٥٤

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، يعني أن الله قد حل في بدن عيسى ويقولون الآب والابن والروح القدس إله واحد وأنت تعرف أن هذه سرت للمسيحيين من الإنجيل الهندي فإني رأيته بعيني رأسي وقد وازن المسيحيون بينه وبين بعض الأناجيل فلم يجدوا إلا فرقاً يسيراً بلا تصرف فيه وفيه التثليث والصلب وقد كان تاريخه قبل المسيح بنحو أربعة آلاف سنة وستراه مفصلاً في آخر هذه السورة، وقوله ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ أي فمن يمنع من قدرته وإرادته؟.

المراغي ج ٦ ص ٨١ ـ ٨٤

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ المسيحيون في هذا العصر فرق ثلاث: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت «أي إصلاح النصرانية» وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون وصار هو المذهب السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا، وقد أزال هذا المذهب كثيراً من التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله واستبدل بها تقاليد أخرى، ومع كل هذا فهؤلاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء، فلا يزالون يقولون بالتثليث ويعدون الموّحد غير مسيحي كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان.

وجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول: إن الله هو المسيح ابن مريم وإن المسيح ابن مريم هو الله، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة إذ كان بعضهم يفسر الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة والقول بها لا ينافي توحيد الخالق كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربا وغيرهم موحدون يعتقدون أن المسيح نبي ورسول لا إله.

قال الدكتور بوست البروتستانتي في تاريخ الكتاب المقدس «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفدى، وإلى الروح المقدس التطهير. غير أن هذه الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء».

والعمدة عندهم في هذه العقيدة عبارة جاءت في إنجيل يوحنا وهي «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله، والله هو الكلمة» وقد فسروا الكلمة بالمسيح فيصير معنى الفِقْرة الثالثة من إنجيل يوحنا «والله هو المسيح ابن مريم» وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم.

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثني الشرق والغرب...

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي فمن يملك من الله شيئاً إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف في السموات والأرض وما بينهما أي وما بين العالَمَين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم.

ثم دفع شبهة تحوك في صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال:

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ أي إن تلك الشبهة التي عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بَشَر وإله ـ هو أنه خُلِق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من عامة البشر، فالله له ملك السموات والأرض، ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض، ولا على

ألوهية لبعضها، ولا حلول الإله الخالق فيها، فسنة الله في خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلهاً وربًّا، لأن هذه المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً. . .

والخلاصة ـ إن كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته، وإنما يعدّ بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبيٍّ يجهله غيرهم، أو عن تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

روى ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ ابن أبيّ وبحريّ بن عمرو وشاس بن عدي من اليهود فكلمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذَّرهم نقمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كما قالت النصارى ذلك . . .

سيد قطب ج ٢ ص ٨٦٣ ـ ٨٦٦

إن الذي جاء به عيسى ـ عليه السلام ـ من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول. والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول. . ولكن هذه العقيدة الناصعة أدخلت عليها التحريفات؛ بسبب دخول الوثنيين في النصرانية، وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها.

ولم تجيء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة، ولكنها دخلت على فترات، وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى، حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير، الذي تحار فيه العقول. حتى عقول الشارحين للعقيدة المعرفة من أهلها المؤمنين بها!

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح ـ عليه السلام ـ في تلامذته وفي أتباعهم. وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت ـ وهو إنجيل برنابا ـ يتحدث عن عيسى ـ عليه السلام بوصفه رسولاً من عند الله. ثم وقعت بينهم الاختلافات. فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل. ومن قائل: إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة. ومن قائل: إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب، ولكنه على هذا مخلوق لله. ومن قائل: إنه ابن الله وليس مخلوقاً بل له صفة القدم كالأب. .

ولتصفية هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية «مجمع نيقية» الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفاً من البطارقة والأساقفة. قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخي النصرانية:

«وكانوا مختلفين في الآراء والأديان. فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله. وهم «البربرانية». . ويسمون: «الريمتيين». ومنه من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها. وهي مقالة «سابليوس» وشيعته. ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنها، وخرجت من حيث يخرج الولد عن ساعتها. وهي مقالة «إليان» وأشياعه. ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، وصحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي «ابن الله» ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس. وهي مقالة «بولس الشمشاطي» بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم «البوليقانيون». ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، وطالح، وعدل بينهما. وهي مقالة «مرقيون» اللعين وأصحابه! وزعموا أن «مرقيون» هو رئيس الحواريين وأنكروا «بطرس». ومنهم من كانوا يقولون بألوهية المسيح. وهي مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً. .

وقد اختار الإمبراطور الروماني «قسطنطين» الذي كان قد دخل في النصرانية من الوثنية ولم يكن يدري شيئاً من

النصرانية! هذا الرأي الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم، وشرد أصحاب سائر المذاهب، وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده، وناسوتية المسيح.

وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه: «إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه. وأنه لم يوجد قبل أن يولد. وأنه وجد من لا شيء. أو من يقول: إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الآب. وكل من يؤمن أنه خلق، أو من يقول: إنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران».

ولكن هذا المجمع بقراراته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع «آريوس» وقد غلبت على القسطنطينية، وأنطاكية، وبابل، والإسكندرية، ومصر.

ثم سار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم: هو إله، وقال آخرون: ليس بإله! فاجتمع «مجمع القسطنطينية الأول» سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر.

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية:

«قل ثيموثاوس بطريك الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمرور غير روح الله. وليس روح الله شيئاً غير حياته. فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق. وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي. وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به. ومن كفر به وجب عليه اللعن»!!!

وكذلك تقررت ألوهية روح القدس في هذا المجمع، كما تقررت ألوهية المسيح في مجمع نيقية. وتم «الثالوث» من الآب. والابن. وروح القدس...

ثم ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية.. أو اللاهوت والناسوت كما يقولون.. فقد رأى «نسطور» بطريرك القسطنطينية أن هناك أقنوماً وطبيعة. فأقنوم الألوهية من الآب وتنسب إليه؛ وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم، فمريم أم الإنسان ـ في المسيح ـ وليست أم الإله! ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم ـ كما نقله عنه ابن البطريق:

«إن هذا الإنسان الذي يقول: إنه المسيح.. بالمحبة متحد مع الابن.. ويقال: إنه الله وابن الله، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة»..

ثم يقول: «إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً إداً».

وخالفه في هذا الرأي أسقف رومه، وبطريرك الإسكندرية، وأساقفة أنطاكية، فاتفقوا على عقد مجمع رابع. وانعقد «مجمع أفسس» سنة ٤٣١ ميلادية. وقرر هذا المجمع ـ كما يقول ابن البطريق ـ:

«أن مريم العذراء والدة الله. وأن المسيح إله حق وإنسان، معروف بطبيعتين، متوحد في الأقنوم».. ولعنوا نسطور!

ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأي جديد، انعقد له «مجمع أفسس الثاني» وقرر: «أن المسيح طبيعة واحدة، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت». ولكن هذا الرأي لم يسلم، واستمرت الخلافات الحادة، فاجتمع مجمع «خلقيدونية» سنة ٤٥١ وقرر: «إن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة. وأن اللاهوت طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحدها، التقتا في المسيح».. ولعنوا مجمع أفسس الثاني!

ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع. ووقعت بين المذهب المصري «المنوفيسية» والمذهب «الملوكاني» الذي تبنته الدولة الإمبراطورية ما وقع من الخلافات الدامية، التي سبق أن أثبتنا فيها مقالة: «سير. ت. و. أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» في مطالع تفسير سورة آل عمران..

ونكتفي بهذا القدر في تصوير مجمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح، والخلافات الدامية والعداوة والبغضاء التي ثارت بسببها بين الطوائف، وما

تزال إلى اليوم ثائرة.. وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق في هذه القضية، ولتقول كلمة الفصل، ويجيء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾.. ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣].. «كما سيجيء في السورة».

ويثير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه، وبين ذات عيسى ـ عليه السلام ـ وذات أمه، وكل ذات أخرى، في نصاعة قاطعة حاسمة...

وهو ـ سبحانه ـ مالك كل شيء، وخالق كل شيء، والخالق غير المخلوق. وكل شيء مخلوق: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾..

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، ووضوحها وبساطتها.. وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية. في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين. بلا غبش ولا شبهة ولا غموض...

١٢ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ٤٦)

مصادر تفاسير الآية

المفسر	الجزء	الصفحة	المفسر	الجزء	الصفحة
الطبري	ج ٦	ص ١٧١	أبو حيان الاندلسي	ج ٣	ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠
الزمخشري	ج ١	ص ٦١٧	ابن كثير	ج ٢	ص ٦٤ ـ ٦٥
الرازي	ج ١٢	ص ٨ ـ ٩	الجلالان		ص ١٤٦
الطبرسي	ج ٦	ص ١٠٧ ـ ١١٠	الشوكاني	ج ٢	ص ٤٥ ـ ٤٩
ابن عربي	ج ١	ص ٣٢٥ ـ ٣٣٠	الآلوسي	ج ٦	ص ١٥٠
البيضاوي	ج ٢	ص ١٥٢	القاسمي	ج ٦	ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠
الخازن	ج ٢	ص ٥٩	محمد عبده	ج ٦	ص ٤٠١ ـ ٤٠٢
البغوي	ج ٢	ص	الطباطبائي	ج ٥	ص ٣٣٧ ـ ٣٦٦
الماوردي	ج ٢	ص	جوهري	ج ٣	ص ١٨٥ ـ ١٩٠
القرطبي	ج ٦	ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩	المراغي	ج ٦	ص ١٢٢ ـ ١٢٨
			سيد قطب	ج ٢	ص ٨٨٧ ـ ٩٠٥

الطبري ج ٦ ص ١٧١

القول في تأويل قوله ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله وقفينا على آثارهم أتبعنا يقول أتبعنا عيسى ابن مريم على آثار النبيين الذين أسلموا من قبلك يا محمد فبعثناه نبياً مصدّقاً لكتابنا الذي أنزلناه إلى موسى من قبله أنه حق وأن العمل بما لم ينسخه الإنجيل منه فرض واجب وآتيناه الإنجيل يقول، وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه الإنجيل فيه هدى ونور، يقول في الإنجيل هدى وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانه ونور يقول وضياء من عمى الجهالة ومصدقاً لما بين يديه، يقول أوحينا إليه ذلك وأنزلناه إليه بتصديق ما كان قبله من كتب الله التي كان أنزلها على كل أمة أنزل إلى نبيها كتاب للعمل بما أنزل إلى نبيهم في ذلك الكتاب من تحليل ما حلل وتحريم ما حرم وهدى وموعظة، يقول أنزلنا الإنجيل إلى عيسى مصدّقاً للكتب التي قبله وبياناً لحكم الله الذي ارتضاه لعباده المتقين في زمان عيسى وموعظة لهم، يقول وزجراً لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال وتنبيهاً لهم عليه والمتقون هم الذين خافوا الله وحذروا عقابه فاتقوه بطاعته فيما أمرهم وحذروه بترك ما نهاهم عن فعله. وقد مضى البيان عن ذلك بشواهده قبل فأغنى ذلك عن إعادته.

الزمخشري ج ١ ص ٩١٧

قفيته مثل عقبته، إذا أتبعته، ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به، فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء. فإن قلت: فأين المفعول الأول في الآية؟ قلت: هو محذوف والظرف الذي هو ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ كالسادّ مسده، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في آثارهم للنبيين في قوله ـ يحكم بها النبيون الذي أسلموا ـ وقرأ الحسن الأنجيل بفتح الهمزة، فإن صح عنه فلأنه أعجميّ خرج لعجمته عن زنات العربية كما خرج هابيل وآجر ﴿وَقَفَّيْنَا وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على محل فيه هدى ومحله النصب على الحال ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ يجوز أن ينتصب على الحال كقوله مصدقاً، وأن ينتصبا مفعولاً لهما...

الرازي ج ١٢ ص ٨ ـ ٩

قوله تعالى ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قفيته: مثل عقبته إذا اتبعته، ثم يقال: عقبته بفلان وقفيته به، فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء.

فإن قيل: فأين المفعول الأول في الآية؟

قلنا: هو محذوف، والظرف وهو قوله ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ كالساد مسده، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في ﴿ ءَاثَٰرِهِم ﴾ للنبيين في قوله ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤] وههنا سؤالات:

السؤال الأول ـ إنه تعالى وصف عيسى ابن مريم بكونه مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وإنما يكون كذلك إذا كان عمله على شريعة التوراة، ومعلوم أنه لم يكن كذلك، فإن شريعة عيسى عليه السلام كانت مغايرة لشريعة موسى عليه السلام، فلذلك قال في آخر هذه الآية ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ فكيف طريق الجمع بين هذين الأمرين؟

والجواب ـ معنى كون عيسى مصدقاً للتوراة أنه أقر بأنه كتاب منزل من عند الله، وأنه كان حقاً واجب العمل به قبل ورود النسخ.

السؤال الثاني ـ لم كرر قوله ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ والجواب: ليس فيه تكرار لأن في الأول أن المسيح يصدق التوراة، وفي الثاني الإنجيل يصدق التوراة.

السؤال الثالث ـ إنه تعالى وصف الإنجيل بصفات خمس فقال ﴿ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وفيه مباحثات ثلاثة: أحدها: ما الفرق بين هذه الصفات الخمس: وثانيها: لم ذكر الهدى مرتين؟، وثالثها: لم خصصه بكونه موعظة للمتقين؟

والجواب عن الأول ـ إن الإنجيل هدى بمعنى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه، وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد والمثل والضد، وعلى النبوة وعلى المعاد، فهذا هو المراد بكونه هدى، وأما كونه نوراً، فالمراد به كونه بياناً للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف، وأما كونه مصدقاً لما بين يديه، فيمكن حمله على كونه مبشراً بمبعث محمد ﷺ وبمقدمه، وأما كونه هدى مرة أخرى فلأن اشتماله على البشارة بمجيء محمد ﷺ سبب لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ، ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى في ذلك لا جرم أعاده الله تعالى مرة أخرى تنبيهاً على أن الإنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوة محمد ﷺ، فكان هدى في هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجاً إلى البيان والتقرير، وأما كونه موعظة فلاشتمال الإنجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة وإنما خصها بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بها، كما في قوله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

السؤال الرابع ـ قوله في صفة الإنجيل ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ عطف على ماذا؟

الجواب ـ إنه عطف على محل ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ ومحله النصب على الحال، والتقدير: وآتيناه الإنجيل حال كونه هدى ونوراً ومصدقاً لما بين يديه.

أبو حيان الأندلسي ج ٣ ص ٤٩٨ ـ ٥٠٠

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر تعالى أن التوراة يحكم بها النبيون ذكر أنه قفاهم بعيسى تنبيهاً على أنه من جملة الأنبياء وتنويهاً باسمه وتنزيهاً له عما يدعيه اليهود فيه وأنه من جملة مصدقي التوراة ومعنى قفينا أتينا به يقفو آثارهم أي يتبعها والضمير في آثارهم يعود على النبيين من قوله يحكم بها النبيون. وقيل على الذين كتبت عليهم هذه الأحكام وعلى آثارهم متعلق بقفينا وبعيسى

متعلق به أيضاً وهذا على سبيل التضمين أي ثم جئنا على آثارهم بعيسى ابن مريم قافياً لهم وليس التضعيف في قفينا للتعدية إذ لو كان للتعدية ما جاء مع الباء المعدية ولا تعدى بعلى وذلك إن قفا يتعدى لواحد قال تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وتقول قفا فلان الأثر إذا اتبعه فلو كان التضعيف للتعدي لتعدى إلى اثنين منصوبين وكان يكون التركيب ثم قفينا على آثارهم عيسى ابن مريم وكان يكون عيسى هو المفعول الأول وآثارهم المفعول الثاني لكنه ضمن معنى وجاء وعدى بالياء وتعدى إلى آثارهم بعلى. وقال الزمخشري قفيته مثل عقبته إذا اتبعته ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به فتعديه به إلى الثاني بزيادة الباء «فإن قلت» فأين المفعول الأول في الآية «قلت» هو محذوف والظرف الذي هو على آثارهم كالساد مسده لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه انتهى وكلامه يحتاج إلى تأويل وذلك أنه جعل قفيته المضعف بمعنى قفوته فيكون فعل بمعنى فعل نحو قدر الله وقدر الله وهو أحد المعاني التي جاءت لها فعل ثم عداه بالباء وتعدية المتعدى لمفعول بالباء لثانٍ قلّ أن يوجد حتى زعم بعضهم أنه لا يوجد ولا يجوز فلا يقال في طعم زيد اللحم أطعمت زيداً باللحم والصحيح أنه جاء على قلة تقول دفع زيد عمراً ثم تعديه بالباء فتقول دفعت زيداً بعمرو أي جعلت زيداً يدفع عمراً وكذلك صك الحجر الحجر ثم تقول صككت الحجر بالحجر أي جعلته يصكه وأما قوله المفعول الأول محذوف الظرف كالساد مسدّه فلا يتجه لأن المفعول هو مفعول به صريح ولا يسد الظرف مسده وكلامه مفهم التضمين وإن لم يصرح به ألا ترى إلى قوله لأنه إذا قفى به أثره فقد قفى به إياه وقول الزمخشري فقد قفى به إياه فصل الضمير وحقه أن يكون متصلاً وليس من مواضع فصل لو قلت زيد ضربت بسوط إياه لم يجز إلا في ضرورة شعر فاصلاحه زيد ضربته بسوط وانتصب مصدقاً على الحال من عيسى ومعنى لما بين يديه لما تقدمه من التوراة لأنها جاءت قبله كما أن الرسول بين يدي الساعة وتقدم الكلام في هذا وتصديقه إياها هو بكونه مقراً إنها كتاب منزل من الله حقاً واجب العمل به قبل ورود النسخ إذ شريعته مغايرة لبعض ما فيها

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله وقفينا وفيه تعظيم عيسى عليه السلام بأن الله آتاه كتاباً إلاهياً وتقدمت قراءة الحسن الأنجيل بفتح الهمزة وما ذكروه في اشتقاقه إن كان عربياً وقوله فيه هدى ونور في موضع الحال وارتفاع هدى على الفاعلية بالجار والمجرور إذ قد اعتمد بأن وقع حالاً الذي حال أي كائناً فيه هدى ولذلك عطف عليه ومصدقاً لما بين يديه من التوراة والضمير في يديه عائد على الإنجيل. . .

﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ قرأ الضحاك وهدى وموعظة بالرفع وهو هدى وموعظة. وقرأ الجمهور بالنصب حالاً معطوفة على قوله ومصدقاً جعله أولاً فيه هدى ونور وجعله ثانياً هدى وموعظة فهو في نفسه هدى وهو مشتمل على الهدى وجعله هدى مبالغة فيه إذ كان كتاب الإنجيل مبشراً برسول الله ﷺ والدلالة منه على نبوته ظاهرة ولما كانت أشد وجوه المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى ذلك أعاد الله ذكر الهدى تقريراً وبياناً لنبوّة محمد ﷺ ووصفه بالموعظة لاشتماله على نصائح وزواجر بليغة وخصصها بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بها كما قال تعالى هدى للمتقين فهم المقصودون في علم الله تعالى وإن كان الجميع يدعى ويوعظ ولكنه على غير المتقين عمى وحسرة وأجاز الزمخشري أن ينتصب هدى وموعظة على أنهما مفعول لهما لقوله وليحكم قال كأنه قيل وللهدى والموعظة آتيناه الإنجيل وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام وينبغي أن يكون الهدى والموعظة مسندين في المعنى إلى الله لا إلى الإنجيل ليتحد المفعول من أجله مع العامل في الفاعل ولذلك جاء منصوباً ولما كان وليحكم فاعله غير الله أتى معدى إليه بلام العلة ولاختلاف الزمان أيضاً لأن الإيتاء قارن الهداية والموعظة في الزمان والحكم خالف فيه لاستقباله ومضيه في الإيتاء فعدى أيضاً لذلك باللام وهذا الذي أجازه الزمخشري خلاف الظاهر. قال الزمخشري فإن نظمت هدى وموعظة في سلك مصدّقاً فما تصنع بقوله وليحكم «قلت» أصنع به كما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتهما مفعولاً لهما فأقدر ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيناه إياه انتهى وهو جواب واضح.

ابن كثير ج ٢ ص ٦١ ـ ٦٢

﴿ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة وقوله تعالى ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم للمتقين أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

الشوكاني ج ٢ ص ٤٥ ـ ٤٧

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ هذا شروع في بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة: أي جعلنا عيسى ابن مريم يقفو آثارهم: أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل، يقال قفيته مثل عقبته: إذا أتبعته؛ ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به فيتعدى إلى الثاني بالباء، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف، وهو على آثارهم لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، وانتصاب ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ على الحال من عيسى...

وقوله ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ معطوف على محل ﴿ فِيهِ هُدًى ﴾ أي أن الإنجيل أوتيه عيسى حال كونه مشتملاً على الهدى والنور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة؛ وقيل إن مصدّقاً معطوف على مصدّقا الأوّل فيكون حالاً من عيسى مؤكداً للحال الأول ومقرّراً له. والأوّل أولى لأن التأسيس خير من التأكيد. قوله ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ عطف على مصدّقاً داخل تحت حكمه منظماً إليه: أي مصدقاً وهادياً وواعظاً للمتقين.

الآلوسي ج ٦ ص ١٥٠

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل ـ كما قيل ـ إثر بيان أحكام التوراة، وهو عطف على ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ وضمير الجمع المجرور ـ للنبيين الذين أسلموا ـ كما قاله أكثر المفسرين، واختاره علي ابن عيسى، والبلخي، وقيل: للذين فرض عليهم الحكم الذي مضى ذكره، وحكى ذلك عن الجبائي ـ وليس بالمختار ـ والتقفية الاتباع، ويقال: قفا فلان إثر فلان إذا تبعه، وقفيته بفلان إذا أتبعته إياه، والتقدير هنا أتبعناهم على آثارهم ﴿ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ فالفعل كما قيل: متعد لمفعولين أحدهما بنفسه. والآخر بالباء، والمفعول الأول محذوف، و﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم ﴾ كالساد مسدّه لأنه إذا قفا به على آثارهم فقد قفاهم به، واعترض بأن الفعل قبل التضعيف كان متعدياً إلى واحد، وتعدية المتعدي إلى واحد لثان بالباء لا تجوز سواء كان بالهمزة أو التضعيف، ورد بأن الصواب أنه جائز لكنه قليل، وقد جاء منه ألفاظ قالوا: صك الحجر الحجر، وصككت الحجر بالحجر، ودفع زيد عمراً ودفعت زيداً بعمرو أي جعلته دافعاً له.

وذهب بعض المحققين إلى أن التضعيف فيما نحن فيه ليس للتعدية، وأن تعلق الجار بالفعل لتضمينه معنى المجيء أي جئنا بعيسى ابن مريم على آثارهم قافياً لهم فهو متعد لواحد لا غير بالباء، وحاصل المعنى أرسلنا عيسى عليه السلام عقيبهم ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ حال من عيسى مؤكدة فإن ذلك من لازم الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ عطف على ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾، وقرأ الحسن بفتح الهمزة، ووجه صحة ذلك أنه اسم أعجمي فلا بأس بأن يكون على ما ليس في أوزان

العرب، وهو بأفعيل العرب، وهو بأفعيل أو فعليل بالفتح، وإما إفعيل بالكسر فله نظائر ـ كإبزيم، وإحليل ـ وغير ذلك ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة، والجملة في موضع النصب على أنها حال من الإنجيل، وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ عطف على الحال وهو حال أيضاً، وعطف الحال المفردة على الجملة الحالية وعكسه جائز لتأويلها بمفرد وتكرير هذا لزيادة التقرير، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على ما تقدم منتظم معه في سلك الحالية، وجعل كله هدى ـ بعدما جعل مشتملاً عليه ـ مبالغة في التنويه بشأنه لما أن فيه البشارة بنبينا ﷺ أظهر، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المهتدون بهداه والمنتفعون بجدواه، وجوّز نصب ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ على المفعول لها عطفاً على مفعول له آخر مقدر أي إثباتاً لنبوته ﴿وَهُدًى﴾ إلخ، ويجوز أن يكونا معللين لفعل محذوف عامل فيه أي ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ آتيناه ذلك.

القاسمي ج ٦ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠

﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلناه عقبهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ أي إلى الحق ﴿وَنُورٌ﴾ أي: بيان للأحكام ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾...

محمد عبده ج ٦ ص ٤٠١ ـ ٤٠٢

ولذلك قال تعالى ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي أعطيناه الإنجيل مشتملاً على هدى من الضلال في العقائد والأعمال كالتوحيد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل، ونور يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه من الدلائل والأمثال، والفضائل والآداب، ومصدقاً لللتوراة التي تقدمته، أي مشتملاً على النص بتصديق التوراة، وهذا غير تصديق المسيح لها بقوله وعمله أو حاله. ووصفه بمثل ما وصف به التوراة، وبكونه مصدقاً لها. ثم زاد في وصفه عطفاً على تلك الأحوال فجعله نفسه هدى من وجه آخر وموعظة للمتقين، ولعله ما انفرد به من المسائل الروحية، والمواعظ لا دية، وزلزل ذلك الجمود الاسرائيلي المادي، وزعزعة ذلك الغرور الذي كان الكتبة والفريسيون من اليهود مفتونين به. وخص هذا النوع بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون به إذ لا يفوتهم شيء من الكتاب لحرصهم عليه، وعنايتهم به. والحكمة في هذا النوع من الهدى والموعظة فقه أسرار الشريعة ومعرفة حكمتها والمقصد منها، والعلم بأن وراء تلك التوراة وهذا الإنجيل هداية أتم وأكمل. وديناً أعم وأشمل، وهو الذي يجيء به النبي الأخير «البارقليط» الأعظم، ولولا زلزال الإنجيل في جملته لتلك التقاليد وزعزعته لذلك الغرور، وأنس الناس بما حفظ من تعاليمه عدة قرون، لما انتشر الإسلام بين أهل الكتاب في سورية ومصر وبين النهرين بتلك السرعة.

١٣

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ . لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ . لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ٧٢ ـ ٧٨)

مصادر تفاسير الآية

المصدر	الجزء	الصفحات
الطبري	ج ٦	ص ٢٠١ ـ ٢٠٦
الزمخشري	ج ١	ص ٦٣٤ ـ ٦٣٦
الرازي	ج ١٢	ص ٥٩ ـ ٦٤
الطبرسي	ج ٦	ص ١٦١ ـ ١٧١
ابن عربي	ج ١	ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩
البيضاوي	ج ٢	ص ١٦٢ ـ ١٦٤
الخازن	ج ٢	ص ٧٦ ـ ٧٩
البغوي	ج ٢	ص ٤٤ ـ ٤٥
الماوردي	ج ٢	ص ٥٦ ـ ٥٧
القرطبي	ج ٦	ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣
ابو حيان الأندلسي	ج ٣	ص ٥٣٤ ـ ٥٤٠
ابن كثير	ج ٢	ص ٨٠ ـ ٨٥
الجلالان		ص ١٥١ ـ ١٥٣
الشوكاني	ج ٢	ص ٦١ ـ ٦٧
الآلوسي	ج ٦	ص ١٨٤ ـ ١٨٩
القاسمي	ج ٦	ص ٢٠٩٧ ـ ٢١١٠
محمد عبده	ج ٦	ص ٤٧٩ ـ ٤٩٢
الطباطبائي	ج ٦	ص ٦٢ ـ ١٠٥
جوهري	ج ٣	ص ١٩٩ ـ ٢٠٣
المراغي	ج ٦	ص ١٦٢ ـ ١٧٣
سيد قطب	ج ٢	ص ٩٣٦ ـ ٩٥٣

الطبري ج ٦ ص ٢٠١ ـ ٢٠٦

القول في تأويل قوله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن بعض ما فتن به الإسرائيليين الذين أخبر عنهم أنهم حسبوا أن لا تكون فتنة يقول تعالى ذكره فكان مما ابتليتهم واختبرتهم به فنقضوا فيه ميثاقي وغيروا عهدي الذي كنت أخذته عليهم بأن لا يعبدوا سواي ولا يتخذوا رباً غيري وأن يوحدوني وينتهوا إلى طاعة عبدي عيسى ابن مريم فإني خلقته وأجريت على يده نحو الذي أجريت على يد كثير من رسلي فقالوا كفراً منهم هو الله وهذا قول اليعقوبية من النصارى عليهم غضب الله يقول الله تعالى ذكره «فلما اختبرتهم وابتليتهم بما ابتليتهم به أشركوا بي وقالوا لخلق من خلقي وعبد مثلهم من عبيدي وبشر نحوهم معروف نسبه وأصله مولود من البشر يدعوهم إلى توحيدي ويأمرهم بعبادتي وطاعتي ويقرّ لهم بأني ربه وربهم وينهاهم عن أن يشركوا بي شيئاً هو إلههم جهلاً منهم بالله وكفراً به ولا ينبغي لله أن يكون والداً ولا مولودا» ويعني بقوله وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم يقول «اجعلوا العبادة

والتذلل للذي له يذل كل شيء وله يخضع كل موجود ربي وربكم يقول مالكي ومالككم وسيدي وسيدكم الذي خلقني وإياكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة أن يسكنها في الآخرة ومأواه النار يقول ومرجعه ومكانه الذي يأوي إليه ويصير في معاده من جعل لله شريكاً في عبادته نار جهنم وما للظالمين يقول وليس لمن فعل غير ما أباح الله له وعبد غير الذي له عبادة الخلق من أنصار ينصرونه يوم القيامة من الله فينقذونه منه إذا أورده جهنم».

القول في تأويل قوله ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا أيضاً خبر من الله تعالى ذكره عن فريق آخر من الإسرائيليين الذين وصف صفتهم في الآيات قبل أنه لما ابتلاهم بعد حسبانهم أنهم لا يبتلون ولا يفتنون قالوا كفراً بربهم وشركاً الله ثالث ثلاثة وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكانية والنسطورية كانوا فيما بلغنا يقولون الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم أباً والداً غير مولود وابناً مولوداً غير والد وزوجاً متتبعة بينهما يقول الله تعالى ذكره مكذباً لهم فيما قالوا من ذلك وما من إله إلا إله واحد يقول ما لكم معبود أيها الناس إلا معبود واحد وهو الذي ليس بوالد لشيء ولا مولود بل هو خالق كل والد ومولود وإن لم ينتهوا عما يقولون يقول إن لم ينتهوا قائلو هذه المقالة عما يقولون من قولهم الله ثالث ثلاثة ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم يقول ليمسنّ الذين يقولون هذه المقالة والذين يقولون المقالة الأخرى هو المسيح ابن مريم لأن الفريقين كلاهما كفرة مشركون فلذلك رجع في الوعيد بالعذاب إلى العموم ولم يقل ليمسنهم عذاب أليم لأن ذلك لو قيل كذلك صار الوعيد من الله تعالى ذكره خاصاً لقائل القول الثاني وهم القائلون الله ثالث ثلاثة ولم يدخل فيهم القائلون المسيح هو الله فعم بالوعيد تعالى ذكره كل كافر ليعلم المخاطبون بهذه الآيات أن وعيد الله قد شمل كلا الفريقين من بني إسرائيل ومن كان من الكفار على مثل الذي هم عليه فإن قال قائل وإن كان الأمر على ما وصفت فعلى من عادت الهاء والميم اللتّان في قوله منهم قيل على بني إسرائيل فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا وإن لم ينته هؤلاء الإسرائيليون عما يقولون في الله من عظيم القول ليمسنّ الذين يقولون منهم أن المسيح هو الله والذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة وكل كافر سلك سبيلهم عذاب أليم بكفرهم بالله وقد قال جماعة من أهل التأويل بنحو قولنا في أنه عنى بهذه الآيات النصارى ذكر من قال ذلك. حدثنا محمد بن الحسين. . . عن السدي قال لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة قال قالت النصارى هو والمسيح وأمه فذلك قول الله تعالى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قال قال مجاهد لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة نحوه.

القول في تأويل قوله ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره أفلا يرجع هذان الفريقان الكافران القائل أحدهما إن الله هو المسيح ابن مريم والآخر القائل إن الله ثالث ثلاثة عما قالا من ذلك ويتوبان مما قالا وقطعا به من كفرهما ويسألان ربهما المغفرة مما قالا والله غفور لذنوب التائبين من خلقه المنيبين إلى طاعته بعد معصيتهم رحيم بهم في قبوله توبتهم ومراجعتهم إلى ما يحب مما يكره فيصفح بذلك من فعلهم عما سلف من إجرامهم قبل ذلك.

القول في تأويل قوله ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وهذا من الله تعالى ذكره احتجاجاً لنبيه محمد ﷺ على فرق النصارى في قولهم في المسيح يقول مكذباً لليعقوبية في قيلهم هو الله والآخرين في قيلهم هو ابن الله ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة في المسيح ولكنه ابن مريم ولدته ولادة الأمهات أبناءهن وذلك من صفة البشر لا من صفة خالق البشر وإنما هو لله رسول كسائر رسله الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا أجري على يده ما شاء أن يجريه عليها من الآيات والعبر حجة له على صدقه وعلى أن لله رسول إلى من أرسله إليه من خلقه كما أجرى على أيدي من قبله من الرسل من الآيات والعبر حجة لهم على حقيقة صدقهم في أنهم لله رسل وأمه

صدّيقة يقول تعالى ذكره وأم المسيح صدّيقة والصدّيقة الفعيلة من الصدق وكذلك قولهم فلان صدّيق فعيل من الصدق ومنه قوله تعالى ذكره والصدّيقين والشهداء وقد قيل إن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه إنما قيل له الصدّيق لصدقه وقد قيل إنما سمى صدّيقاً لتصديقه النبي ﷺ في مسيره في ليلة واحدة إلى بيت المقدس من مكة وعوده إليها وقوله كانا يأكلان الطعام خبر من الله تعالى ذكره عن المسيح وأمه أنهما كانا أهل حاجة إلى ما يغذوهما وتقوم به أبدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم فإن من كان كذلك فغير كائن إلهاً لأن المحتاج إلى الغذاء قوامه بغيره وفي قوامه بغيره وحاجته إلى ما يقيمه دليل واضح على عجزه والعاجز لا يكون إلا مربوباً لا رباً.

القول في تأويل قوله ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يقول تعالى ذكر لنبيه محمد ﷺ انظر يا محمد كيف نبين لهؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى الآياة وهي الأدلة والأعلام والحجج على بطول ما يقولون في أنبياء الله وفي فريتهم على الله وادّعائهم له ولداً وشهادتهم لبعض خلقه بأنه لهم رب وإله ثم لا يرتدعون عن كذبهم وباطل قيلهم ولا ينزجرون عن فريتهم على ربهم وعظيم جهلهم مع ورود الحجج القاطعة عذرهم عليهم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ثم انظر يا محمد أنى يؤفكون يقول ثم انظر مع تبييننا لهم آياتنا على بطول قولهم أيّ وجه يصرفون عن بياننا الذي بينته لهم وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحق يضلون والعرب تقول لكل مصروف عن شيء هو مأفوك عنه يقال قد أفكت فلاناً عن كذا أي صرفته عنه فأنا آفكه أفكاً وهو مأفوك وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر.

القول في تأويل قوله ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وهذا أيضاً احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على النصارى القائلين في المسيح ما وصف من قيلهم فيه قبل يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من النصارى الزاعمين أن المسيح ربهم والقائلين إن الله ثالث ثلاثة أتعبدون سوى الله الذي يملك ضركم ونفعكم وهو الذي خلقكم ورزقكم وهو يحييكم ويميتكم شيئاً لا يملك لكم ضراً ولا نفعا يخبرهم تعالى ذكره أن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله والذي زعم من زعم منهم أنه لله ابن لا يملك لهم ضراً يدفعه عنهم أن أحله الله بهم ولا نفعاً يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم. يقول تعالى ذكره «فكيف يكون رباً وإلهاً من كانت هذه صفته بل الرب المعبود الذي بيده كل شيء والقادر على كل شيء فأياه فاعبدوا وأخلصوا له العبادة دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون وأما قوله والله هو السميع العليم فإنه يعني تعالى ذكره بذلك والله هو السميع لاستغفارهم لو استغفروه من قيلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه العليم بتوبتهم لو تابوا منه وبغير ذلك من أمورهم.

القول في تأويل قوله ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وهذا خطاب من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ يقول تعالى ذكره قل يا محمد لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح يا أهل الكتاب يعني بالكتاب الإنجيل لا تغلوا في دينكم يقول ولا تفرطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل فتقولوا فيه هو الله أو هو ابنه ولكن قولوا هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً يقول ولا تتبعوا أيضاً في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه فتقولون فيه كما قالوا هو لغير رشدة وتبهتوا أمه كما يبهتونها بالفرية وهي صدّيقة وأضلوا كثيراً يقول تعالى ذكره وأضل هؤلاء اليهود كثيراً من الناس فحادوا بهم عن طريق الحق وحملوهم على الكفر بالله والتكذيب بالمسيح وضلوا عن سواء السبيل يقول وضل هؤلاء اليهود عن قصد الطريق وركبوا غير محجة الحق وإنما يعني تعالى ذكره بذلك كفرهم بالله وتكذيبهم رسله عيسى ومحمدا ﷺ وذهابهم عن الإيمان وبعدهم منه وذلك كان ضلالهم الذي وصفهم الله به وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من

قال ذلك. حدثني محمد عمرو: قال... عن مجاهد في قول الله وضلّوا عن سواء السبيل قال يهود. حدثني محمد بن الحسين... عن السدي لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً فهم أولئك الذين ضلوا وأضلوا أتباعهم وضلوا عن سواء السبيل عن عدل السبيل.

القول في تأويل قوله ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء النصارى الذين وصف تعالى ذكره صفتهم لا تغلوا فتقولوا في المسيح غير الحق ولا تقولوا فيه ما قالت اليهود الذين قد لعنهم الله على لسان أنبيائه ورسله داود وعيسى ابن مريم وكان لعن الله إياهم على ألسنتهم كالذي. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال لعنوا بكل لسان لعنوا على عهد موسى في التوراة ولعنوا على عهد داود في الزبور ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن. حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم يقول لعنوا في الإنجيل على لعان عيسى ابن مريم ولعنوا في الزبور على لسان داود حدثنا ابن وكيع... عن ابن عباس لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال خالطوهم بعد النهي في تجاراتهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض فهم ملعونون على لسان داود وعيسى ابن مريم. حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال لعنوا على لسان داود فصاروا قردة ولعنوا على لسان عيسى فصاروا خنازير. حدثنا القاسم... قال قال ابن عباس قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل بكل لسان لعنوا على عهد موسى في التوراة وعلى عهد داود في الزبور وعلى عهد عيسى في الإنجيل ولعنوا على لسان محمد ﷺ في القرآن قال ابن جريج وقال آخرون لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود على عهده فلعنوا بدعوته قال مرّ داود على نفر منهم وهم في بيت فقال من في البيت قالوا خنازير قال اللهم اجعلهم خنازير فكانوا خنازير قال ثم أصابتهم لعنته ودعا عليهم عيسى فقال اللهم العن من افترى عليّ وعلى أمي واجعلهم قردة خاسئين. حدثنا بشر بن معاذ عن قتادة قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل الآية لعنهم الله على لسان داود في زمانه فجعلهم قردة خاسئين وفي الإنجيل على لسان عيسى فجعلهم خنازير. حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع... عن أبي مالك قال لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود قال مسخوا على لسان داود قردة وعلى لسان عيسى خنازير. حدثني يعقوب... عن أبي مالك مثله حدثنا أبو كريب... عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعزيراً فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه فلما رأى ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ثم قال والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يدي المسيء ولا تواطؤنه على الخواطر أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم. حدثنا ابن حميد... عن عبد الله قال لما فشا المنكر في بني إسرائيل جعل الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ثم لا يمنعه ذلك أن يؤاكله ويشاربه فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم أنزل فيهم كتاباً لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال كلا والذي نفسي بيده حتى تأطروا الظالم على الحق أطراً. حدثنا علي بن سهل الرملي... عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ إن بني إسرائيل لما ظهر منهم المنكر جعل الرجل يرى أخاه وجاره وصاحبه على المنكر فينهاه ثم لا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه ونديمه فضرب الله قلوب بعضهم على بعض ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون إلى فاسقون قال

عبد الله وكان رسول الله ﷺ متكئاً فاستوى جالساً فغضب وقال لا والله حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً. حدثنا ابن بشار. . . عن أبي عبيدة قال قال رسول الله ﷺ إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يرى أخاه على الريب فينهاه عنه فإذا كان الغد لم يمنعه مارأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن فقال لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم حتى بلغ ولكن كثيراً منهم فاسقون قال وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال لا حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً. حدثنا ابن بشار عن عبد الله عن النبي ﷺ بمثله. حدثنا هناد بن السري عن علي بن بذيمة قال سمعت أبا عبيدة يقول قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه غير أنهما قالا في حديثهما وكان رسول الله ﷺ متكئاً فاستوى جالساً ثم قال كلا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً. حدثني يونس قال. . . عن ابن زيد في قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال فقال لعنوا في الإنجيل وفي الزبور وقال قال رسول الله ﷺ إن رحى الإيمان قد دارت فدوروا مع القرآن حيث دار فإنه قد فرغ الله مما افترض فيه وأنه كانت أمة من بني إسرائيل كانوا أهل عدل يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فأخذهم قومهم فنشروهم بالمناشير وصلبوهم على الخشب وبقيت منهم بقية فلم يرضوا حتى داخلوا الملوك وجالسوهم ثم لم يرضوا حتى واكلوهم فضرب الله تلك القلوب بعضها ببعض فجعلها واحدة فذلك قول الله تعالى لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود إلى ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ماذا كانت معصيتهم قال كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون فتأويل الكلام إذا لعن الله الذين كفروا من اليهود بالله على لسان داود وعيسى ابن مريم ولعن الله آباءهم على لسان داود وعيسى ابن مريم بما عصوا الله فخالفوا أمره وكان يعتدون يقول وكانوا يتجاوزون حدوده.

الرازي ج ١٢ ص ٥٩ ـ ٦٤

اعلم أنه تعالى لما استقصى الكلام مع اليهود شرع ههنا في الكلام مع النصارى فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وهذا هو قول اليعقوبية لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلهاً، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى، ثم حكى تعالى عن المسيح أنه قال. وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لم يفرق بين نفسه وبين غيره في أن دلائل الحدوث ظاهرة عليه. ثم قال تعالى ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ومعناه ظاهر. واحتج أصحابنا على أن عقاب الفساق لا يكون مخلداً، قالوا: وذلك لأنه تعالى جعل أعظم أنواع الوعيد والتهديد في حق المشركين هو أن الله حرم عليهم الجنة وجعل مأواهم النار. وأنه ليس لهم ناصر ينصرهم ولا شافع يشفع لهم، فلو كان حال الفساق من المؤمنين كذلك لما بقي لتهديد المشركين على شركهم بهذا الوعيد فائدة.

ثم قال تعالى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى ـ «ثلاثة» كسرت بالإضافة، ولا يجوز نصبها لأن معناه: واحد ثلاثة. أما إذا قلت: رابعُ ثلاثة فهنا يجوز الجر والنصب، لأن معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم.

المسألة الثانية ـ في تفسير قول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ طريقان: الأول: قول بعض المفسرين، وهو أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى للمسيح ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فقوله ﴿ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، والدليل على أن المراد ذلك قوله تعالى في الرد عليهم ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار، إلا أنه حذف ذكر الآلهة لأن ذلك معلوم من

مذاهبهم، قال الواحدي: ولا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة إذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة، فإنه مامن شيئين إلا والله ثالثهما بالعلم، لقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة ٧].

والطريق الثاني ـ أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم آب، وابن، وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالآب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمر، واختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الآب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ في «من» قولان: أحدهما: أنها صلة زائدة والتقدير: وما إله إلا واحد، والثاني: أنها تفيد معنى الاستغراق، والتقدير: وما في الوجود من هذه الحقيقة إلا فرد واحد.

ثم قال تعالى ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال الزجاج: معناه: ليمسن الذين أقاموا على هذا الدين؛ لأن كثيراً منهم تابوا عن النصرانية.

ثم قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الفراء: هذا أمر في لفظ الاستفهام كقولهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] في آية تحريم الخمر.

ثم قال تعالى ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى وفلق البحر على يد موسى، وإن كان خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى «وأمه صديقة» وفي تفسير ذلك وجوه: أحدها: أنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها. قال تعالى في صفتها ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ وثانيها: أنه تعالى قال ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] فلما كلمها جبريل وصدقته وقع عليها اسم الصديقة، وثالثها: أن المراد بكونها صديقة غاية بعدها عن المعاصي وشدة جدها واجتهادها في إقامة مراسم العبودية، فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صديقاً قال تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

ثم قال تعالى ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ واعلم أن المقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوه: الأول: إن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً لا إلهاً، والثاني: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنياً عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهاً. الثالث قال بعضهم: إن قوله ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث لأن من أكل الطعام فإنه لا بد وأن يحدث، وهذا عندي ضعيف من وجوه: الأول: إنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون. الثاني: إن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس باله، فأي حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر. الثالث: إن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلهاً لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلهاً للعالمين، وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل.

ثم قال تعالى ﴿انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يقال: أفكه يأفكه إفكا إذا صرفه، والإفك الكذب لأنه صرف عن الحق، وكل مصروف عن الشيء مأفوك عنه، وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر، ومعنى قوله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أنى

يصرفون عن الحق، قال أصحابنا: الآية دلت على أنهم مصروفون عن تأمل الحق، والإنسان يمتنع أن يصرف نفسه عن الحق والصدق إلى الباطل والجهل والكذب، لأن العاقل لا يختار لنفسه ذلك، فعلمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي صرفهم عن ذلك.

ثم قال تعالى ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وهذا دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعاً من الحجة: الأول: إن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الاضرار بهم، وكان أنصاره وصحابته يحبونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الاضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهاً. الثاني: إن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه، ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخريه، ومن كان في الضعف هكذا كيف يعقل أن يكون إلهاً. الثالث: إن إله العالم يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه، ويكون كل ما سواه محتاجاً إليه، فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولاً بعبادة الله تعالى، لأن الإله لا يعبد شيئاً، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، ولما عرف بالتواتر كونه كان مواظباً على الطاعات والعبادات علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجاً في تحصيل المنافع ودفع المضار إلى غيره، ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم، وإذا كان كذلك كان عبداً كسائر العبيد، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢].

ثم قال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ والمراد منه التهديد يعني سميع بكفرهم عليم بضمائرهم. قوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾.

اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً على أباطيل اليهود، ثم تكلم ثانياً على أباطيل النصارى وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها، فعند ذلك خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب فقال ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ والغلو نقيض التقصير. ومعناه الخروج عن الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير. وقوله ﴿ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ صفة المصدر، أي لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق، أي غلواً باطلا، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلو باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود لعنهم الله نسبوه إلى الزنا. وإلى أنه كذاب، والنصارى ادّعوا فيه الالهية.

ثم قال تعالى ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى ـ الأهواء ههنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجة. قال الشعبي: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه. قال ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦]. واتبع هواه فتردى. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣]. ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر. لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه. وقال بعضهم: الهوى إله يعبد من دون الله. وقيل: سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار، وأنشد في ذم الهوى:

إن الهوى لهو الهوان بعينه
فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وقال رجل لابن عباس: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فقال ابن عباس: كل هوى ضلالة.

المسألة الثانية ـ إنه تعالى وصفهم بثلاث درجات في الضلال، فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى أنهم الآن ضالون كما كانوا، ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة. نعوذ بالله منها، ويحتمل أن يكون المراد: أنهم ضلوا وأضلوا، ثم ضلوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال إنه إرشاد إلى الحق، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين، وبالضلال الثاني الضلال عن طريق الجنة.

واعلم أنه تعالى لما خاطب أهل الكتاب بهذا الخطاب وصف أسلافهم فقال تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ﴾ قال أكثر المفسرين: يعني أصحاب السبت، وأصحاب المائدة. أما أصحاب السبت فهو أن قوم داود، وهم أهل «ايلة» لما اعتدوا ففي السبت بأخذ الحيتان على ما ذكر الله تعالى هذه القصة في سورة الأعراف قال داود: اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة، وأما أصحاب المائدة فإنهم لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى: اللهم العنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي. قال بعض العلماء: إن اليهود كانوا يفتخرون بأنا من أولاد الأنبياء، فذكر الله تعالى هذه الآية لتدل على أنهم ملعونون على ألسنة الأنبياء. وقيل: إن داود وعيسى عليهما السلام بشرا بمحمد ﷺ، ولعنا من يكذبه، وهو قول الأصم ثم قال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾ والمعنى أن ذلك اللعن كان بسبب أنهم يعصون ويبالغون في ذلك العصيان.

ابن كثير ج ٢ ص ٧٧ ـ ٨٥

... يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال إني عبد الله ولم يقل إني أنا الله ولا ابن الله بل ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ [مريم: ٣٠] إلى أن قال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [آل عمران: ٥١] وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ولهذا قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ ﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ ﴾ أي فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠] وفي الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وفي لفظ مؤمنة وتقدم في أول سورة النساء عند قوله إن الله لا يغفر أن يشرك به حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة: الدواوين ثلاثة فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله وهو الشرك بالله قال الله تعالى ﴿ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ والحديث في مسند أحمد ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح إنه قال لبني إسرائيل ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ أي وماله عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه وقوله ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ ﴾ قال ابن أبي حاتم... حدثني أبو صخر في قول الله تعالى ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ ﴾ قال هو قول اليهود عزير ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتي اليهود والنصارى والصحيح أنها أنزلت في النصارى خاصة قاله مجاهد وغير واحد ثم اختلفوا في ذلك فقيل المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة وهو أقنوم الآب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً قال ابن جرير وغيره والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه ولك فرقة منهم تكفر الأخرى والحق أن الثلاثة كافرة وقال السدي وغيره نزلت في جعلهم المسيح وأمّه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار قال السدي وهو كقوله تعالى في آخر السورة ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية وهذا القول هو الأظهر

والله أعلم قال الله تعالى ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ أي ليس متعدداً بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ أي من هذا الافتراء والكذب ﴿ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال ثم قال ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة فكل من تاب إليه تاب عليه وقوله تعالى ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ أي له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام كما قال ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩] وقوله ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ أي مؤمنة به مصدّقة له وهذا أعلى مقاماتها فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارّة أم إسحق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارّة ومريم بقوله ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧] وهذا معنى النبوة والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال قال الله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك وقوله تعالى ﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ثم قال تعالى ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي نوضحها ونظهرها ﴿ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون وبأي قول يتمسكون وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون. . .

. . . يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية فقال تعالى ﴿ قُلْ ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنكم ولا إيصال نفع إليكم ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه ثم قال ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوّة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال وقال ابن أبي حاتم. . . عن الربيع بن أنس قال وقد كان قائم قام عليهم فأخذ بالكتاب والسنة زماناً فأتاه الشيطان فقال إنما تركب أثراً أو أمراً قد عمل قبلك فلا تحمد عليه ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك وادع إليه واجبر الناس عليه ففعل ثم اذكر بعد فعله زماناً فأراد أن يتوب منه فخلع سلطانه وملكه وأراد أن يتعبد فلبث في عبادته أياماً فأتى فقيل له لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك ولكن ضل فلان وفلان وفلان في سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة فكيف لك بهداهم فلا توبة لك أبداً ففيه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ . . .

وقال الإمام أحمد. . . رحمه الله عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم قال يزيد وأحسبه. قال في أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى

ابن مريم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» وقال أبو داود... عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

١٤

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ . وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ . إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ . قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ . وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ١١٠ ـ ١١٩)

مصادر تفاسير الآية:

المفسر	الجزء	الصفحات
الطبري	ج ٧	ص ٨٢ ـ ٩٢
الزمخشري	ج ١	ص ٦٥٣ ـ ٦٥٩
الرازي	ج ١٢	ص ١٢٤ ـ ١٣٩
الطبرسي	ج ٦	ص ٢٣١ ـ ٢٥٠
ابن عربي	ج ١	ص ٣٤٨ ـ ٣٥٤
البيضاوي	ج ٢	ص ١٧٤ ـ ١٧٧
الخازن	ج ٢	ص ١٠٨ ـ ١١٦
البغوي	ج ٢	ص ٦٣
الماوردي	ج ٢	ص ٧٩ ـ ٨٠
القرطبي	ج ٦	ص ٣٦٢ ـ ٣٨١
ابو حيان الاندلسي	ج ٤	ص ٢٨ ـ ٦٤
ابن كثير	ج ٢	ص ١١٤ ـ ١٢٢
الجلالان		ص ١٦٠ ـ ١٦١
الشوكاني	ج ٢	ص ٩٠ ـ ٩٦
الآلوسي	ج ٧	ص ٥٦ ـ ٧٣
القاسمي	ج ٦	ص ٤٢٥ ـ ٤٤٣
عبده	ج ٧	ص ٢٤٢ ـ ٢٧٥
الطباطبائي	ج ٦	ص ٢١٨ ـ ٢٧٧
جوهري	ج ٣	ص ٢١١ ـ ٢٣٤
المراغي	ج ٧	ص ٥٢ ـ ٦٨
سيد قطب	ج ٢	ص ٩٩٧ ـ ١٠٠٢

الطبري ج ٧ ص ٨٢ ـ ٩٢

القول في تأويل قوله ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ يقول تعالى ذكره لعباده احذروا يوم يجمع الله الرسل فيقول لهم ماذا أجابتكم أممكم في الدنيا إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس فإذ من صلة أجبتم كأنّ معناها ماذا

أجابت عيسى الأمم التي أرسل إليها عيسى فإن قال قائل وكيف سئلت الرسل عن إجابة الأمم إياها في عهد عيسى ولم يكن في عهد عيسى من الرسل إلا أقل من ذلك قيل جائز أن يكون الله تعالى عني بقوله فيقول ماذا أجبتم الرسل الذين كانوا أرسلوا في عهد عيسى فخرج الخبر مخرج الجميع والمراد منهم من كان في عهد عيسى كما قال تعالى الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم والمراد واحد من الناس وإن كان مخرج الكلام على جميع الناس ومعنى الكلام إذا قال الله حين قال يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس يقول يا عيسى اذكر أيادي عندك وعند والدتك إذ قوّيتك بروح القدس وأعنتك به. وقد اختلف أهل العربية في أيدتك ما هو من الفعل فقال بعضهم هو فعلتك كما في قولك قوّيتك فعلت من القوّة وقال آخرون بل هو فاعلتك من الأيد وروي عن مجاهد أنه قرأ إذ آيدتك بمعنى أفعلتك من القوّة والايد. وقوله بروح القدس يعني بجبريل يقول إذ أعنتك بجبريل وقد بينت معنى ذلك وما معنى القدس فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيله لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس في حال تكليمك الناس في المهد وكهلاً وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره أنه أيده بروح القدس صغيراً في المهد وكهلاً كبيراً فردّ الكهل على قوله في المهد لأن معنى ذلك صغيراً كما قال الله تعالى ذكره دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً وقوله وإذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل يقول واذكر أيضاً نعمتي عليك إذ علمتك الكتاب وهو الخط والحكمة وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك وهو الإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير يقول كصورة الطير باذني يعني بقوله تخلق تعمل وتصلح من الطين كهيئة الطير باذني يقول بعوني على ذلك وعلم مني به فتنفخ فيها يقول فتنفخ في الهيئة فتكون الهيئة والصورة طيراً بأذني وتبرىء الأكمه. يقول وتشفي الأكمه وهو الأعمى الذي لا يبصر شيئاً المطموس البصر والأبرص باذني وقد بينت معاني هذه الحروف فيما مضى من كتابنا هذا مفسراً بشواهده بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات يقول واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفي عنك بني إسرائيل إذ كففتهم عنك وقد هموا بقتلك إذ جئتهم بالبينات يقول إذ جئتهم بالأدلة والاعلام المعجزة على نبوّتك وحقية ما أرسلتك به إليهم فقال الذين كفروا منهم يقول تعالى ذكره فقال الذين جحدوا نبوّتك وكذبوك من بني إسرائيل إن هذا إلا سحر مبين. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته قراء أهل المدينة وبعض أهل البصرة إن هذا إلا سحر مبين يعني يبين عما أتى به لمن رآه ونظر إليه أنه سحر لا حقيقة له وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة إن هذا إلاّ ساحر مبين بمعنى ما هذا يعني به عيسى إلا ساحر مبين يقول يبين بأفعاله وما يأتي به من هذه الأمور العجيبة عن نفسه أنه ساحر لا نبي صادق والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى متفقتان غير مختلفتين وذلك أن كل من كان موصوفاً بفعل السحر فهو موصوف بأنه ساحر ومن كان موصوفاً بأنه ساحر فإنه موصوف بفعل السحر فالفعل دال على فاعله والصفة تدل على موصوفها والموصوف يدل على صفته والفاعل يدل على فعله فبأيّ ذلك قرأ القارىء فمصيب الصواب في قراءته.

القول في تأويل قوله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره واذكر أيضاً يا عيسى إذ ألقيت إلى الحواريين وهم وزراء عيسى على دينه وقد بينا معنى ذلك ولم قيل لهم الحواريون فيما مضى بما أغنى عن إعادته وقد اختلفت ألفاظ أهل التأويل في تأويل قوله وإذ أوحيت وإن كانت متفقة المعاني فقال بعضهم بما حدثني به محمد بن الحسين... عن السدي وإذ أوحيت إلى الحواريين يقول

قذفت في قلوبهم. وقال آخرون معنى ذلك ألهمتهم فتأويل الكلام إذا وإذ ألقيت إلى الحواريين أن صدّقوا بي وبرسولي عيسى فقالوا آمنا أي صدّقنا بما أمرتنا أن نؤمن يا ربنا واشهد علينا بأننا مسلمون يقول واشهد علينا بأننا خاضعون لك بالذلة سامعون مطيعون لأمرك. القول في تأويل قوله ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره واذكر يا عيسى أيضاً نعمتي عليك إذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي إذ قالوا لعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء فإذ الثانية من صلة أوحيت واختلفت القراء في قراءة قوله يستطيع ربك فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين هل تستطيع بالتاء ربك بالنصب بمعنى هل تستطيع أن تسأل ربك وهل تستطيع أن تدعو ربك أو هل تستطيع وترى أن تدعوه وقالوا لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك وإنما قالوا لعيسى هل تستطيع أنت ذلك. حدثنا ابن وكيع. . . عن ابن أبي مليكة قال قالت عائشة كان الحواريون لا يشكون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة ولكن قالوا يا عيسى هل تستطيع ربك حدثني أحمد بن يوسف الثعلبي قال. . . عن سعيد ابن جبير أنه قرأها كذلك هل تستطيع ربك وقال تستطيع أن تسأل ربك وقال ألا ترى أنهم مؤمنون وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والعراق هل يستطيع بالياء ربك بمعنى أن ينزل علينا ربك كما يقول الرجل لصاحبه أتستطيع أن تنهض معنا في كذا وهو يعلم أنه يستطيع ولكنه إنما يريد انتهض معنا فيه وقد يجوز أن يكون مراد قارئه كذلك هل يستجيب لك ربك ويطيعك أن تنزل علينا. وأولى القراءتين عندي بالصواب قراءة من قرأ ذلك هل يستطيع بالياء ربك برفع الرب بمعنى هل يستجيب لك إن سألته ذلك ويطيعك فيه وإنما قلنا ذلك أولى القراءتين بالصواب لما بينا قبل من أن قوله إذ قال الحواريون من صلة إذ أوحيت وإن معنى الكلام وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك فبين إذ كان ذلك كذلك أن الله تعالى ذكره قد كره منهم ما قالوا من ذلك واستعظمه وأمرهم بالتوبة ومراجعة الإيمان من قيلهم ذلك والإقرار لله بالقدرة على كل شيء وتصديق رسوله فيما أخبرهم عن ربهم من الأخبار وقد قال عيسى لهم عند قيلهم ذلك له استعظاماً منه لما قالوا اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. ففي استتابة الله إياهم ودعائه لهم إلى الإيمان به وبرسوله ﷺ عند قيلهم ما قالوا من ذلك واستعظام نبي الله ﷺ كلمتهم الدلالة الكافية من غيرها على صحة القراءة في ذلك بالياء ورفع الرب إذ كان لا معنى في قولهم لعيسى لو كانوا قالوا له هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء أن تستكبر هذا الاستكبار. فإن ظن ظان أن قولهم ذلك له إنما هو استعظام منهم لأن ذلك منهم كان مسألة آية فإن الآية إنما يسألها الأنبياء من كان بها مكذباً ليتقرر عنده حقيقة ثبوتها وصحة أمرها كما كانت مسألة قريش نبينا محمداً ﷺ أن يحوّل لهم الصفا ذهباً ويفجر فجاج مكة أنهاراً من سأله من مشركي قومه وكما كانت مسألة صالح الناقة من مكذبي قومه ومسألة شعيب أن يسقط كسفاً من السماء من كفار من أرسل إليهم. وكان الذين سألوا عيسى أن يسأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء على هذا الوجه كانت مسألتهم فقد أحلهم الذين قرؤا ذلك بالتاء ونصب الرب محلاً أعظم من المحل الذي ظنوا أنهم نزهوا ربهم عنه أو يكونوا سألوا ذلك عيسى وهم موقنون بأنه لله نبي مبعوث ورسول مرسل وأن الله تعالى على ما سألوا من ذلك قادر فإن كانوا سألوا ذلك وهم كذلك وإنما كانت مسألتهم إياه ذلك على نحو ما يسأل أحدهم نبيه إذ كان فقيراً أن يسأل له ربه أن يغنيه وإن عرضت به حاجة أن يسأل له ربه أن يقضيها فأنى ذلك من مسألة الآية في شيء بل ذلك سؤال ذي حاجة عرضت له إلى ربه فسأل نبيه مسألة ربه أن يقضيها له وخبر الله تعالى عن القوم ينبىء بخلاف ذلك وذلك أنهم قالوا لعيسى إذ قال لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا فقد أنبأ هذا عن قيلهم إنهم لم يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوّته فلا بيان أبين من هذا الكلام في أن

القوم كانوا قد خالط قلوبهم مرض وشك في دينهم وتصديق رسولهم وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختباراً وبنحو الذي قلنا في ذلك. قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى ﷺ أنه قال لبني إسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يا معلم الخير قلت لنا أن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال عيسى اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين إلى قوله لا أعذبه أحداً من العالمين. قال فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أوّلهم حدثني محمد ابن الحسين. . . عن السدي هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قالوا هل يطيعك ربك إن سألته فأنزل الله عليهم مائدة من السماء فيها جميع الطعام إلا اللحم فأكلوا منها وأما المائدة فإنها الفاعلة من ماد فلان القوم يميدهم ميداً إذا أطعمهم ومارهم ومنه قول رؤبة.

تهدى رؤوس المترفين الانداد
إلى أمير المؤمنين الممتاد

يعني بقوله الممتاد المستعصي فالمائدة المطعمة سميت الخوان بذلك لأنها تطعم الآكل مما عليها ولمائدة المدار به في البحر يقال مد يميد ميدا.

قال عيسى للحواريين القائلين له هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء راقبوا الله أيها القوم وخافوا أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا فإن الله لا يعجزه شيء أراده وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمته إن كنتم مؤمنين يقول إن كنتم مصدقي على ما أتوعدكم به من عقوبة الله إياكم على قولكم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء. القول في تأويل قوله ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك قال الحواريون مجيبي عيسى على قوله لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين في قولكم لي هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء إنا إنما قلنا ذلك وسألناك أن تسأل لنا ربك لنأكل من المائدة فنعلم يقيناً قدرته على كل شيء وتطمئن قلوبنا. يقول وتستكن قلوبنا وتستقر على وحدانيته وقدرته على كل ما شاء وأراد ونعلم أن قد صدقتنا ونعلم أنك لم تكذبنا في خبرك أنك لله رسول مرسل ونبي مبعوث ونكون عليها يقول ونكون على المائدة من الشاهدين يقول ممن يشهد أن الله أنزلها حجة لنفسه علينا في توحيده وقدرته على ما شاء ولك على صدقك في نبوّتك.

القول في تأويل قوله ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن نبيه عيسى ﷺ أنه أجاب القوم إلى ما سألوه من مسألة ربه مائدة تنزل عليهم من السماء ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا فقال بعضهم معناه نتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا ذكر من قال ذلك. حدثني محمد بن الحسين. . . عن السدي قوله تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا يقول نتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا. حدثنا بشر بن معاذ. . . عن قتادة قوله تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا قال أرادوا أن تكون لعقبهم من بعدهم. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قوله أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأوّلنا قال الذين هم أحياء منهم يومئذ وآخرنا من بعدهم منهم. حدثني الحرث قال ثنا عبد العزيز قال قال سفيان تكون لنا عيداً قالوا نصلي فيه قال نزلت مرتين. وقال آخرون معناه نأكل منها جميعاً ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم. . . عن ابن عباس أنه قال أكل منها يعني من المائدة حين وضعت بين أيديهم آخر الناس كما أكل منها أولهم.

وقال آخرون معنى قوله عيداً عائدة من الله تعالى علينا وحجة وبرهاناً. وأولى الأقوال بالصواب قول من قال

معناه تكون لنا عيداً نعبد ربنا في اليوم الذي تنزل فيه ونصلي له فيه كما يعيد الناس في أعيادهم لأن المعروف من كلام الناس المستعمل بينهم في العيد ما ذكرنا دون القول الذي قاله من قال معناه عائدة من الله علينا وتوجيه معاني كلام الله إلى المعروف من كلام من خوطب به أولى من توجيهه إلى المجهول منه ما وجد إليه السبيل. وأما قوله لأوّلنا وآخرنا فإن الأولى من تأويله بالصواب قول من قال تأويله للأحياء منا اليوم ومن يجيء بعدنا منا للعلة التي ذكرناها في قوله تكون لنا عيداً لأن ذلك هو الأغلب من معناه. وأما قوله وآية منك فإن معناه وعلامة وحجة منك يا رب على عبادك في وحدانيتك وفي صدقي على أني رسول إليهم بما أرسلتني به وارزقنا وأنت خير الرازقين وأعطنا من عطائك فإنك يا رب خير من يعطي وأجود من تفضل لأنه لا يدخل عطاءه منّ ولا نكد. وقد اختلف أهل التأويل في المائدة هل أنزلت عليهم أم لا وما كانت فقال بعضهم نزلت وكانت حوتاً وطعاماً فأكل القوم منها ولكنها رفعت بعدما نزلت بأحداث منهم أحدثوها فيما بينهم وبين الله تعالى ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن المثنى. . . حدثني الحسين بن علي. . . عن عطية قال المائدة سمكة فيها طعم كل طعام. حدثنا ابن وكيع. . . عن عطية قال المائدة سمك فيه من طعم كل طعام. حدثنا ابن وكيع. . . عن أبي عبد الرحمن قال نزلت المائدة خبزاً وسمكاً. حدثني محمد بن سعد عن ابن عباس قال نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤا. حدثنا الحسن بن يحيى أنه سمع وهب ابن منبه يقول في قوله أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً قال نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات قال الحسن قال أبو بكر فحدّثت به عبد الصمد بن معقل فقال سمعت وهباً وقيل له وما كان ذلك يغني عنهم فقال لا شيء ولكن الله حشا بين أضعافهن البركة فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا. حدثنا ابن وكيع. . . عن مجاهد قال هو الطعام ينزل عليهم حيث نزلوا. حدثني محمد بن عمرو. . . عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قول الله تعالى مائدة من السماء قال مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم. حدثنا القاسم قال ثنا الحسين. . . عن إسحق بن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ما شاؤا قال فسرق بعضهم منها وقال لعلها لا تنزل غداً فرفعت. حدثنا المثنى. . . عن رجل من بني عجل قال صليت إلى جنب عمار بن ياسر فلما فرغ قال هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل قال فقلت لا قال إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفذ قال فقيل لهم فإنها مقيمة لكم ما لم تخبؤا أو تخونوا أو ترفعوا فإن فعلتم فإني أعذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين قال فما تم يومهم حتى خبؤا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين وإنكم معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه وأخبركم على لسان نبيكم أنكم ستظهرون على العرب ونهاكم أن تكنزوا الذهب والفضة وأيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوهما ويعذبكم عذاباً أليماً. حدثنا الحسن بن قزعة البصري. . . عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ نزلت المائدة خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير. حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع. . . عن ابن عباس في المائدة قال كانت طعاماً ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا. وقال آخرون كانت المائدة تنزل وعليها ثمر من ثمار الجنة ذكر من قال ذلك. حدثنا محمد بن بشار. . . عن عمار قال نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمر الجنة فأمروا أن لا يخبؤا ولا يخونوا ولا يدخروا قال فخان القوم وخبؤا وادّخروا فحوّلهم الله قردة وخنازير. حدثنا بشر. . . عن قتادة قال ذكر لنا أنها كانت مائدة ينزل عليها الثمر من ثمار الجنة وأمروا أن لا يخبؤا ولا يخونوا ولا يـدّخروا لغد بلاء أبلاهم الله به وكانوا إذا فعلوا شيئاً من ذلك أنبأهم به عيسى فخان القوم فيه فخبؤا وادخروا لغد. وقال آخرون كان عليها من كل طعام إلا اللحم ذكر من قال ذلك. حدثنا أبو كريب. . . عن ميسرة قال

كانت إذا وضعت المائدة لبني إسرائيل اختلفت عليها الأيدي بكل طعام. حدثنا ابن وكيع... عن ميسرة وزاذان قالا كانت الأيدي تختلف عليها بكل طعام. حدثني الحرث... عن زاذان وميسرة في هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قالا رأوا الأيدي تختلف عليها بكل شيء إلا اللحم. وقال آخرون لم ينزل الله على بني إسرائيل مائدة ثم اختلف قائلو هذه المقالة فقال بعضهم إنما هذا مثل ضربه الله تعالى لخلقه نهاهم به عن مسألة نبي الله الآيات ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد في قوله أنزل علينا مائدة من السماء قال مثل ضرب لم ينزل عليهم شيء. وقال آخرون أن القوم لما قيل لهم فمن يكفر بعد منكم فأني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين استعفوا منها فلم تنزل ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة قال كان الحسن يقول لما قيل لهم فمن يكفر بعد منكم إلى آخر الآية قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل. حدثنا ابن المثنى... عن الحسن أنه قال في المائدة لم تنزل. حدثني الحرث... عن مجاهد قال مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم. والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال أن الله تعالى أنزل المائدة على الذين سألوا عيسى مسألته ذلك ربه وإنما قلنا ذلك للخبر الذي روينا بذلك عن رسول الله ﷺ وأصحابه وأهل التأويل من بعدهم غير من انفرد بما ذكرنا عنه وبعد فإن الله تعالى لا يخلف وعده ولا يقع في خبره الخلف وقد قال تعالى مخبراً في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك أني منزلها عليكم وغير جائز أن يقول تعالى ذكره أني منزلها عليكم ثم لا ينزلها لأن ذلك منه تعالى خبر ولا يكون منه خلاف ما يخبر ولو جاز أن يقول إني منزلها عليكم ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول فمن يكفر بعد منكم فإني معذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذبه فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة وغير جائز أن يوصف ربنا تعالى بذلك وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فإن يقال كان عليها مأكول وجائز أن يكون كان سمكاً وخبزاً وجائز أن يكون كان ثمراً من ثمر الجنة وغير نافع العلم به ولا ضاراً لجهل به إذا أقرّ تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل. القول في تأويل قوله ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا جواب من الله تعالى القوم فيما سألوا نبيهم عيسى مسألة ربهم من إنزاله مائدة عليهم فقال تعالى ذكره إني منزلها عليكم أيها الحواريون فمطعمكموها فمن يكفر بعد منكم يقول فمن يجحد بعد إنزالها عليكم وأطعاميكموها منكم رسالتي إليه وينكر نبوة نبي عيسى ﷺ ويخالف طاعتي فيما أمرته ونهيته فأني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من عالمي زمانه ففعل القوم فجحدوا وكفروا بعدما أنزلت عليهم فيما ذكر لنا فعذبوا فيما بلغنا بأن مسخوا قردة وخنازير كالذي حدثنا بشر... عن قتادة قوله إني منزلها عليكم الآية ذكر لنا أنهم حوّلوا خنازير. حدثنا ابن بشار... عن عبد الله بن عمرو قال إن أشد الناس عذاباً ثلاثة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون. حدثنا الحسن بن عرفة... عن عوف قال سمعت أبا المغيرة القوّاس يقول قال عبد الله بن عمرو إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون. حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي قوله فمن يكفر بعد منكم بعدما جاءته المائدة فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين يقول أعذبه بعذاب لا أعذبه أحداً من العالمين غير أهل المائدة.

القول في تأويل قوله ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ يقول تعالى ذكره يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وقيل إن الله قال هذا القول لعيسى حين رفعه إليه في الدنيا ذكر من قال ذلك. حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال رفع الله عيسى ابن مريم إليه قالت النصارى ما قالت وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك فسأله عن قوله فقال

سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب إلى قوله وأنت على كل شيء شهيد. وقال آخرون بل هذا خبر من الله تعالى ذكره عن أنه يقول لعيسى ذلك في القيامة ذكر من قال ذلك. حدثنا القاسم... عن ابن جريج وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال والناس يسمعون فراجعه بما قد رأيت وأقر له بالعبودية على نفسه فعلم من كان يقول في عيسى ما يقول إنه إنما كان يقول باطلاً. حدثنا ابن حميد... عن ميسرة قال قال الله يا عيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله فأرعدت مفاصله وخشي أن يكون قد قال فقال سبحانك إن كنت قلته فقد علمته الآية. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله متى يكون ذلك قال يوم القيامة ألا ترى أنه يقول هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فعلى هذا التأويل الذي تأوّله ابن جريج يجب أن يكون وإذ بمعنى وإذا كما قال في موضع آخر ولو ترى إذ فزعوا بمعنى يفزعون وكما قال أبو النجم:

ثم جزاه الله عنا إذ جزى
جنات عدن في العلاليّ العلى

والمعنى إذا جزى وكما قال الأسود

فالآن اذ هازلتهن فإنما
يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهباً

بمعنى إذا هازلتهن وكأن من قال في ذلك بقول ابن جريج هذا وجه تأويل الآية إلى فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين في الدنيا وأعذبه أيضاً في الآخرة إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله. وأولى القولين عندنا بالصواب في ذلك قول من قال بقول السدي وهو أن الله تعالى قال ذلك لعيسى حين رفعه إليه وأن الخبر خبر عما مضى لعلتين احداهما أن إذا نما تصاحب في الأغلب من كلام العرب المستعمل بينها الماضي من الفعل وإن كانت قد تدخلها أحياناً في موضع الخبر عما يحدث إذا عرف السامعون معناها وذلك غير فاشٍ ولا فصيح في كلامهم فتوجيه معاني كلام الله تعالى إلى الأشهر الأعرف ما وجد إليه السبيل أولى من توجيهها إلى الأجهل الأنكر. والأخرى أن عيسى لم يشك هو ولا أحد من الأنبياء أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه فيجوز أن يتوهم على عيسى أن يقول في الآخرة مجيباً لربه تعالى أن تعذب من اتخذني وأمي إلهين من دونك فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم فإن قال قائل وما كان وجه سؤال الله عيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وهو العالم بأن عيسى لم يقل ذلك قيل يحتمل ذلك وجهين من التأويل أحدهما تحذير عيسى عن قيل ذلك ونهيه كما يقول القائل لآخر أفعلت كذا وكذا مما يعلم القول له ذلك أن القائل يستعظم فعل ما قال له أفعلته على وجه النهي عن فعله والتهديد له فيه والآخر إعلامه أن قومه الذين فارقهم قد خالفوا عهده وبدّلوا دينهم بعده فيكون بذلك جامعاً أعلامه حالهم بعده وتحذيره له قيله. وأما تأويل الكلام فإنه أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين أي معبودين تعبدونهما من دون الله قال عيسى تنزيهاً لك يا رب وتعظيماً أن أفعل ذلك أو أتكلم به ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. يقول ليس لي أن أقول ذلك لأني عبد مخلوق وأمي أمة لك فهل يكون للعبد والأمة ادعاء ربوبية إن كنت قلته فقد علمته يقول إنك لا يخفى عليك شيء وأنت عالم أني لم أقل ذلك ولم آمرهم به.

القول في تأويل قوله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن نبيه عيسى ﷺ أنه يبرأ إليه مما قالته فيه وفي أمه الكفرة من النصارى أني كون دعاهم إليه أو أمرهم به فقال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليسَ لي بحق إن كنت قلته فقد علمته ثم قال تعلم ما في نفسي يقول إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطق به ولم أظهر بجوارحي فكيف بما قد نطقت به وأظهرته بجوارحي. يقول لو كنت قد قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله كنت قد علمته لإنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به فكيف بما قد نطقت به ولا أعلم ما في نفسك يقول ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه لأني إنما أعلم من

الأشياء ما أعلمتنيه إنك أنت علام الغيوب يقول إنك أنت العالم بخفيات الأمور التي لا يطلع عليها سواك ولا يعلمها غيرك.

القول في تأويل قوله ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول عيسى يقول ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من القول أن أقوله لهم وهو أن قلت لهم اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا يقول وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم فلما توفيتني يقول فلما قبضتني إليك كنت أنت الرقيب عليهم يقول كنت أنت الحفيظ عليهم دوني لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم وفي هذا تبيان أن الله تعالى إنما عرّفه أفعال القوم ومقالتهم بعدما قبضه إليه وتوفاه بقوله أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وأنت على كل شيء شهيد يقول وأنت تشهد على كل شيء لأنه لا يخفى عليك شيء وأما أنا فإنما شهدت بعض الأشياء وذلك ما عاينت وأنا مقيم بين أظهر القوم فإنما أنا أشهد على ذلك الذي عاينت ورأيت وشهدت. وبنحو الذي قلنا في قوله كنت أنت الرقيب عليهم قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك. حدثني محمد بن الحسين. . . عن السدي كنت أنت الرقيب عليهم أما الرقيب فهو الحفيظ. حدثنا القاسم قال. . . عن ابن جريج كنت أنت الرقيب عليهم قال الحفيظ وكانت جماعة من أهل العلم تقول كان جواب عيسى الذي أجاب به ربه من الله تعالى توفيقاً منه له فيه ذكر من قال ذلك. حدثنا ابن وكيع. . . عن ابن طاوس عن أبيه أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق قال الله وفقه. حدثنا ابن وكيع. . . عن ابن طاوس عن أبيه طاوس قال احتج عيسى والله وفقه أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله الآية. حدثنا ابن وكيع قال. . . عن ميسرة قال قال الله تعالى يا عيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال فأرعدت مفاصله وخشي أن يكون قد قالها فقال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب.

القول في تأويل قوله ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يقول تعالى ذكره إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة باماتتك إياهم عليها فإنهم عبادك مستسلمون لك لا يمتنعون مما أردت بهم ولا يدفعون عن أنفسهم ضراً ولا أمراً تنالهم به وإن تغفر لهم بهدايتك إياهم إلى التوبة منها فتستر عليهم فإنك أنت العزيز في انتقامه ممن أراد الانتقام منه لا يقدر أحد يدفعه عنه الحكيم في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة وتوفيقه من وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب كالذي حدثنا محمد بن الحسين. . . عن السدي في قوله إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام فإنك أنت العزيز الحكيم وهذا قول عيسى في الدنيا. حدثنا الحسن. . . عن قتادة في قوله إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم قال والله ما كانوا طعانين ولا لعانين. القول في تأويل قوله ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ﴾ اختلفت القراء في قراءة قوله هذا يوم ينفع الصادقين فقرأ ذلك بعض أهل الحجاز والمدينة هذا يوم ينفع الصادقين بنصب يوم وقرأ بعض أهل الحجاز وبعض أهل المدينة وعامة قراء أهل العراق هذا يوم ينفع الصادقين برفع يوم فمن رفعه رفعه بهذا وجعل يوم اسماً وإن كانت إضافته غير محضة لأنه صار كالمنعوت وكان بعض أهل العربية يزعم أن العرب يعملون في أعراب الأوقات مثل اليوم والليلة عملهم فيما بعدها إن كان ما بعدها رفعاً رفعوها كقولهم هذا يوم يركب الأمير وليلة يصدر الحاج ويوم أخوك منطلق وإن كان ما بعدها نصباً نصبوها وذلك كقولهم هذا يوم خرج الجيش وسار الناس وليلة قتل زيد ونحو ذلك وإن كان معناها في الحالين إذ وإذا. وكأن من قرأ هذا هكذا رفعاً وجه الكلام إلى أنه من قيل الله يوم القيامة وكذلك كان السدي يقول

في ذلك حدثني محمد بن الحسين. . . عن السدي قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم هذا فصل من كلام عيسى وهذا يوم القيامة يعني السدّي بقوله هذا فصل من كلام عيسى أن قوله سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إلى قوله فإنك أنت العزيز الحكيم من خبر الله عزّ وجلّ عن عيسى أنه قاله في الدنيا بعد أن رفعه إليه وأن ما بعد ذلك من كلام الله لعباده يوم القيامة. وأما النصب في ذلك فإنه يتوجه من وجهين أحدهما أن إضافة يوم ما لم تكن إلى اسم تجعله نصباً لأن الإضافة غير محضة وإنما تكون الإضافة محضة إذا أضيف إلى اسم صحيح ونظير اليوم في ذلك الحين والزمان وما أشبههما من الأزمنة كما قال النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصبا
وقلت ألما أصح والشيب وازع

والوجه الآخر أن يكون مراداً بالكلام هذا الأمر وهذا الشأن يوم ينفع الصادقين فيكون اليوم حينئذ منصوباً على الوقت والصفة بمعنى هذا الأمر في يوم ينفع الصادقين صدقهم. وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب هذا يوم ينفع الصادقين بنصب اليوم على أنه منصوب على الوقت والصفة لأن معنى الكلام أن الله تعالى أجاب عيسى حين قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته إلى قوله فإنك أنت العزيز الحكيم. فقال له عزّ وجلّ هذا القول النافع أو هذا الصدق النافع يوم ينفع الصادقين صدقهم فاليوم وقت القول والصدق النافع. فإن قال قائل فما موضع هذا قيل رفع فإن قال فأين رافعه قيل مضمر وكأنه قال قال الله عزّ وجلّ هذا هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم كما قال الشاعر:

أما ترى السحاب كيف يجري
هذا ولا خيلك يا ابن بشر

يريد هذا هذا ولا خيلك فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا لما بينا قال الله لعيسى هذا القول النافع في يوم ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم ذلك في الآخرة عند الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار يقول للصادقين في الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة ثواباً لهم من الله عزّ وجلّ على ما كان من صدقهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه فوفوا به لله فوفى الله عزّ وجلّ لهم ما وعدهم من ثوابه خالدين فيها أبداً يقول باقين في الجنات التي أعطاهموها أبداً دائماً لهم فيها نعيم لا ينتقل عنهم ولا يزول وقد بينا فيما مضى أن معنى الخلود الدوام والبقاء.

القول في تأويل قوله ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ يقول تعالى ذكره رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ورضوا عنه يقول ورضوا هم عن الله تعالى في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم من جزيل ثوابه ذلك الفوز العظيم. يقول هذا الذي أعطاهم الله من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها مرضياً عنهم وراضين عن ربهم وهو الظفر العظيم بالطلبة وإدراك الحاجة التي كانوا يطلبونها في الدنيا ولها كانوا يعملون فيها فنالوا ما طلبوا وأدركوا ما أملوا.

الرازي ج ١٢ ص ١٢٢ ـ ١٣٩

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى ـ اعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل ﴿ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ توبيخ مَن تمرد من أممهم وأشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى جلال الله وكبريائه حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به، وهو اتخاذ الزوجة والولد فلا جرم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم. فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بإله. والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في

وقت نزول هذه الآية على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم.

المسألة الثانية ـ موضع ﴿ إِذْ ﴾ يجوز أن يكون رفعاً بالابتداء على معنى، ذاك إذ قال الله، ويجوز أن يكون المعنى، اذكر إذ قال الله.

المسألة الثالثة ـ خرج قوله ﴿ إِذْ قَالَ ﴾ على لفظ الماضي دون المستقبل وفيه وجوه: الأول: الدلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت وكل آتٍ قريب ويقال: الجيش قد أتى، إذا قرب إتيانهم. قال الله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١]. الثاني: إنه ورد على حكاية الحال ونظيره قول الرجل لصاحبه كأنك بنا وقد دخلنا بلدة كذا فصنعنا فيها كذا إذ صاح صائح فتركتني وأجبته. ونظيره من القرآن قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [الأنفال: ٥٠] ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [سبأ: ٣١] والوجه في كل هذه الآيات ما ذكرناه، من أنه خرج على سبيل الحكاية عن الحال.

المسألة الرابعة ـ ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ يجوز أن يكون «عيسى» في محل الرفع لأنه منادى مفرد وصف بمضاف ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه في نية الإضافة ثم جعل الابن توكيداً وكل ما كان مثل هذا جاز فيه وجهان نحو يا زيدُ بن عمرو، ويا زيدَ بن عمرو، وأنشد النحويون:

* يا حكمَ بن المنذر بن الجارود *

برفع الأول ونصبه على ما بيناه.

المسألة الخامسة ـ قوله ﴿ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾ أراد الجمع كقوله ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وإنما جاز ذلك لأنه مضاف يصلح للجنس.

واعلم أن الله تعالى فسر نعمته عليه بأمور: أولها: قوله ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وفيه وجهان الأول: روح القدس هو جبريل عليه السلام. الروح جبريل والقدس هو الله تعالى. كأنه أضافه إلى نفسه تعظيماً له. الثاني: إن الأرواح مختلفة بالماهية فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية، ومنها مشرقة، ومنها كدرة، ومنها خيرة، ومنها نذلة. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «الأرواح جنود مجندة» فالله تعالى خص عيسى بالروح الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الخيرة. ولقائل أن يقول: لما دلّت هذه الآية على أن تأييد عيسى إنما حصل من جبريل أو بسبب روحه المختص به، قدح هذا في دلالة المعجزات على صدق الرسل. لأنا قبل العلم بعصمة جبريل نجوز أنه أعان عيسى عليه السلام على ذلك، على سبيل إغواء الخلق وإضلالهم. فما لم تعرف عصمة جبريل لا يندفع هذا. وما لم تعرف نبوة عيسى عليه السلام لا تعرف عصمة جبريل، فيلزم الدور وجوابه: ما ثبت من أصلنا أن الخالق ليس إلا الله. وبه يندفع هذا السؤال.

وثانيها: قوله تعالى ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أما كلام عيسى في المهد فهو قوله ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ وقوله ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ في موضع الحال. والمعنى: يكلمهم طفلاً وكهلاً من غير أن يتفاوت كلامه في هذين الوقتين. وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له. وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده.

وثالثها: قوله تعالى ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ وفي ﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ قولان أحدهما: المراد به الكتابة وهي الخط. والثاني: المراد منه جنس الكتب. فإن الإنسان يتعلم أولاً كتباً سهلة مختصرة، ثم يترقى منها إلى الكتب الشريفة. وأما ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ فهي عبارة عن العلوم النظرية، والعلوم العملية. ثم ذكر بعده ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ وفيه وجهان:

الأول: إنهما خصا بالذكر بعد ذكر الكتب على سبيل التشريف كقوله ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب: ٧] والثاني: وهو الأقوى أن الإطلاع على أسرار الكتب الإلهية، لا يحصل إلا لمن صار بانياً في أصناف العلوم الشرعية والعقلية الظاهرة التي يبحث عنها العلماء. فقوله ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ إشارة إلى الأسرار التي لا يطلع عليها أحد إلا أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ورابعها: قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ . . .

وسابعها: قوله تعالى ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى ـ قوله ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه هذه البينات التي تقدم ذكرها وعلى هذا التقدير فالألف واللام للعهد. ويحتمل أن يكون المراد منه جنس البينات.

المسألة الثانية ـ روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أظهر هذه المعجزات العجيبة قصد اليهود قتله فخلصه الله تعالى منهم حيث رفعه إلى السماء.

ثم قال تعالى ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى ـ قرأ حمزة والكسائي ﴿سَٰحِرٌ﴾ بالألف وكذلك في يونس وهود والصف، وقرأ ابن عامر وعاصم في يونس بالألف فقط والباقون ﴿سِحْرٌ﴾ فمن قرأ ﴿سَٰحِرٌ﴾ أشار إلى الرجل ومن قرأ ﴿سِحْرٌ﴾ أشار به إلى ما جاء به. وكلاهما حسن لأن كل واحد منهما قد تقدم ذكره. قال الواحدي رحمه الله: والاختيار ﴿سِحْرٌ﴾ لجواز وقوعه على الحدث والشخص، أما وقوعه على الحدث فظاهر وأما وقوعه على الشخص، فتقول: هذا سحر وتريد به ذو سحر كما قال تعالى ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي ذا البر قال الشاعر:

* فإنما هي إقبال وإدبار *

المسألة الثانية ـ فإن قيل: إنه تعالى شرع ههنا في تعديد نعمه على عيسى عليه السلام وقول الكفار في حقه ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من النعم، فكيف ذكره ههنا؟

والجواب: إن من الأمثال المشهورة ـ أن كل ذي نعمة محسود ـ وطعن الكفار في عيسى عليه السلام بهذا الكلام، يدل على أن نعم الله في حقه كانت عظيمة. فحسن ذكره عند تعديد النعم للوجه الذي ذكرناه.

وثامنها: قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وقد تقدم تفسير الوحي. فمن قال إنهم كانوا أنبياء قال ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحى إلى الأنبياء. ومن قال إنهم ما كانوا أنبياء قال المراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وقوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وإنما ذكر هذا في معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوباً في قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان. وذكر تعالى أنه لما ألقى ذلك الوحي في قلوبهم؛ آمنوا وأسلموا وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام، لأن الإيمان صفة القلب والإسلام، عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر، يعني آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم.

فإن قيل: إنه تعالى قال في أول الآية ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ ثم إن جميع ما ذكره تعالى من النعم مختص بعيسى عليه السلام، وليس لأمه بشيء منها تعلق.

قلنا: كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل الضمن والتبع للأم. ولذلك قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] فجعلهما معاً آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر. وروى أنه تعالى لما قال لعيسى ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ كان يلبس الشعر ويأكل الشجر، ولا يدخر شيئاً لغد ويقول مع كل يوم رزقه، ومن لم يكن له بيت فيخرب، ولا ولد فيموت، أينما أمسى بات.

قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى ـ في قوله ﴿إِذْ قَالَ﴾ وجهان: الأول «أوحيت إلى الحواريين. إذ قال الحواريون» الثاني: اذكر إذ قال الحواريون.

المسألة الثانية ـ ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قرأ الكسائي (هل تستطيع) بالتاء (ربك) بالنصب وبإدغام اللام في التاء، سبب الإدغام أن اللام قريب المخرج من التاء لأنهما من حروف طرف اللسان وأصول الثنايا وبحسب قرب الحرف من الحرف يحسن الادغام، وهذه القراءة مروية عن علي وابن عباس: وعن عائشة رضي الله عنها

أنها قالت: كانوا أعلم بالله من أن يقولوا هل يستطيع وإنما قالوا هل تستطيع أن تسأل ربك. وعن معاذ بن جبل: أقرأني رسول الله ﷺ (هل تستطيع) بالتاء (ربك) بالنصب والباقون يستطيع ربك برفع الباء وبالإظهار فأما القراءة الأولى فمعناها: هل تستطيع سؤال ربك؟ قالوا وهذه القراءة أولى من الثانية لأن هذه القراءة توجب شكهم في استطاعة عيسى، والثانية توجب شكهم في استطاعة الله، ولا شك أن الأولى أولى، وأما القراءة الثانية ففيها إشكال، وهو أنه تعالى حكى عنهم أنهم ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ وبعد الإيمان كيف يجوز أن يقال إنهم بقوا شاكّين في اقتدار الله تعالى على ذلك.

والجواب عنه من وجوه: **الأول**: إنه تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكى عنهم ادعاءهم لهما ثم أتبع ذلك بقوله حكاية عنهم ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فدل ذلك على أنهم كانوا شاكّين متوقفين فإن هذا القول لا يصدر عمن كان كاملاً في الإيمان وقالوا: ونعلم أن قد صدقتنا وهذا يدل على مرض في القلب وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين يدل على أنهم ما كانوا كاملين في الإيمان.

والوجه الثاني ـ في الجواب أنهم كانوا مؤمنين إلا أنهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠] فإن مشاهدة مثل هذه الآية لا شك أنها تورث الطمأنينة ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا.

والوجه الثالث ـ في الجواب أن المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك هل هو جائز في الحكمة أم لا وذلك لأن أفعال الله تعالى لما كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة ففي الموضع الذي لا يحصل فيه شيء من وجوه الحكمة يكون الفعل ممتنعاً فإن المنافي من جهة الحكمة كالمنافي من جهة القدرة، وهذا الجواب يتمشى على قول المعتزلة، وأما على قولنا فهو محمول على أن الله تعالى هل قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقض به ولم يعلم وقوعه كان ذلك محالاً غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور.

والوجه الرابع ـ قال السدي: هل يستطيع ربك أي هل يطيعك ربك إن سألته، وهذا تفريد على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة.

الوجه الخامس ـ لعل المراد بالرب: هو جبريل عليه السلام، لأنه كان يربيه ويخصه بأنواع الإعانة، ولذلك قال تعالى: في أول الآية ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ يعني أنك تدعي أنه يربيك ويخصك بأنواع الكرامة، فهل يقدر على إنزال مائدة من السماء عليك.

والوجه السادس ـ إنه ليس المقصود من هذا السؤال كونهم شاكّين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك في غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول هل يقدر السلطان على إشباع هذا ويكون غرضه منه أن ذلك أمر جلي واضح، لا يجوز لعاقل أن يشك فيه، فكذا ههنا.

المسألة الثالثة ـ قال الزجّاج: المائدة فاعلة من ماد يميد، إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها وقال ابن الأنباري سميت مائدة لأنها عطية من قول العرب: ماد فلان فلاناً يميده ميداً إذا أحسن إليه، فالمائدة على هذا القول، فاعلة من الميد بمعنى معطية، وقال أبو عبيدة: المائدة فاعلة بمعنى مفعولة مثل عيشة راضية، وأصلها مميدة ميد بها صاحبها، أي أعطيها وتفضل عليه بها، والعرب تقول مادني فلان يميدني إذا أحسن إليه.

ثم قال تعالى ﴿ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وفيه وجهان: الأول: قال عيسى اتقوا الله في تعيين المعجزة، فإنه جار مجرى التعنت والتحكم، وهذا من العبد في حضرة الرب جرم عظيم، ولأنه أيضاً اقتراح معجزة بعد تقدم معجزات كثيرة، وهو جرم عظيم. الثاني: إنه أمرهم بالتقوى لتصير التقوى سبباً لحصول هذا المطلوب، كما قال ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] وقوله ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين بكونه سبحانه وتعالى قادراً على إنزال المائدة فاتقوا الله لتصير تقواكم وسيلة إلى حصول هذا المطلوب.

ثم قال تعالى ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ

﴿قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾. والمعنى كأنهم لما طلبوا ذلك. قال عيسى لهم: إنه قد تقدمت المعجزات الكثيرة فاتقوا الله في طلب هذه المعجزة بعد تقدم تلك المعجزات القاهرة...

ثم قال تعالى ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى ـ أما الكلام في ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ فقد تقدم بالاستقصاء في سورة آل عمران في قوله ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] فقوله ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ نداء، وقوله ﴿رَبَّنَآ﴾ نداء ثانٍ وأما قوله ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ صفة للمائدة وليس بجواب للأمر، وفي قراءة عبد الله ﴿تَكُنْ﴾ لأنه جعله جواب الأمر. قال الفراء: وما كان من نكرة قد وقع عليها أمر جاز في الفعل بعده الجزم والرفع، ومثاله قوله تعالى ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِى﴾ [مريم ٥، ٦] بالجزم والرفع ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: ٣٤] بالجزم والرفع، وأما قوله ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا، ونزلت يوم الأحد فاتخذه النصارى عيداً، والعيد في اللغة اسم لما عاد إليك في وقت معلوم، واشتقاقه من عاد يعود فأصله هو العود، فسمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح جديد، وقوله ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي دلالة على توحيدك وصحة نبوة رسولك ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي وارزقنا طعاماً نأكله وأنت خير الرازقين.

المسألة الثانية ـ تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً، فقدموا ذكر الأكل فقالوا ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ لم يقف عليه بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فقوله ﴿رَبَّنَآ﴾ ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى، وقوله و﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾ انتقال من الذات إلى الصفات، وقوله ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث أنها نعمة، بل من حيث إنها صادرة عن المنعم وقوله ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال وقوله ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ إشارة إلى حصة النفس وكل ذلك نزول من حضرة الجلال. فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون. ثم قال ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ومن غير الله إلى الله ومن الأخس إلى الأشرف، وعند ذلك تلوح لك سمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها اللهم اجعلنا من أهله.

المسألة الثالثة ـ في قراءة زيد يكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا والتأنيث بمعنى الآية.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى ـ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع منزلها بالتشديد، والباقون بالتخفيف وهما لغتان نزل وأنزل وقيل: بالتشديد أي منزلها مرة بعد أخرى، وبالتخفيف مرة واحدة.

المسألة الثانية ـ قوله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي بعد إنزال المائدة ﴿فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾... جنساً من العذاب لا يعذب به غيرهم. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون ذلك العذاب معجلاً لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون مؤخراً إلى الآخرة، وقوله ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانهم.

المسألة الثالثة ـ قيل: إنهم سألوا عيسى عليه السلام هذا السؤال عند نزولهم في مفازة على غير ماء ولا طعام ولذلك قالوا نريد أن نأكل منها.

المسألة الرابعة ـ اختلفوا في أن عيسى عليه السلام هل سأل المائدة لنفسه أو سألها لقومه وإن كان قد أضافها إلى

نفسه في الظاهر وكلاهما محتمل والله أعلم.

المسألة الخامسة ـ اختلفوا في أنه هل نزلت المائدة. فقال الحسن ومجاهد: ما نزلت واحتجوا عليه بوجهين: الأول: إن القوم لما سمعوا قوله ﴿عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استغفروا وقالوا لا نريدها، والثاني: إنه وصف المائدة بكونها عيداً. لبقي ذلك العيد إلى يوم القيامة. وقال الجمهور الأعظم من المفسرين: إنها نزلت ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا وعد بالإنزال جزماً من غير تعليق على شرط، فوجب حصول هذا النزول.

والجواب عن الأول: إن قوله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ﴾ شرط وجزاء لا تعلق له بقوله ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

والجواب عن الثاني: إن يوم نزولها كان عيداً لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم.

المسألة السادسة ـ روي أن عيسى عليه السلام لما أراد الدعاء لبس صوفاً، ثم قال ﴿ٱللَّهُمَّ أَنزِلْ عَلَيْنَا﴾ فنزلت سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها، وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عليه السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وقال لهم ليقم أحسنكم عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها. فقال شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك، فقام عيسى وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل. . .

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى ـ هذا معطوف على قوله ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ وعلى هذا القول فهذا الكلام إنما يذكره لعيسى يوم القيامة، ومنهم من قال: إنه تعالى قال هذا الكلام لعيسى عليه السلام حين رفعه إليه وتعلق بظاهر قوله ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ﴾ وإذ تستعمل للماضي، والقول الأول أصح، لأن الله تعالى عقب هذه القصة بقوله ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والمراد به يوم القيامة، وأما التمسك بكلمة إذ فقد سبق الجواب عنه.

المسألة الثانية ـ في قوله ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ سؤالان: أحدهما: إن الاستفهام كيف يليق بعلام الغيوب. وثانيهما: إنه كان عالماً بأن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك فلم خاطبه به؟ فإن قلتم الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم فنقول: إن أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهية عيسى ومريم مع القول بنفي إلهية الله تعالى فكيف يجوز أن ينسب هذا القول إليهم مع أن أحداً منهم لم يقل به.

والجواب: عن السؤال الأول أنه استفهام على سبيل الإنكار.

والجواب: عن السؤال الثاني أن الإله هو الخالق والنصارى يعتقدون أن خالق المعجزات التي ظهرت على يد عيسى ومريم هو عيسى عليه السلام ومريم والله تعالى ما خلقها البتة وإذا كان كذلك فالنصارى قد قالوا إن خالق تلك المعجزات هو عيسى ومريم، والله تعالى ليس خالقها، فصح أنهم أثبتوا في حق بعض الأشياء كون عيسى ومريم إلهين له مع أن الله تعالى ليس إلهاً له فصح بهذا التأويل هذه الحكاية والرواية.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ أما قوله ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فقد فسرناه في قوله ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

واعلم أن الله تعالى لما سأل عيسى إنك هل قلت كذا لم يقل عيسى بأني قلت أو ما قلت بل قال ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، وهذا ليس بحق ينتج أنه ما يكون لي أن أقول هذا الكلام ولما بين أنه ليس له أن يقول هذا الكلام شرع في بيان أنه هل وقع هذا القول منه أم لا فلم يقل بأني ما قلت هذا الكلام لأن هذا يجري مجرى دعوى الطهارة والنزاهة، والمقام مقام الخضوع والتواضع، ولم يقل بأني قلته بل فوض ذلك إلى علمه المحيط بالكل.

فقال ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ وهذا مبالغة في الأدب وفي إظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمور بالكلية إلى الحق سبحانه.

ثم قال تعالى ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى - المفسرون ذكروا فيه عبارات تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي وقيل: تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك، وقيل: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل: تعلم ما كان مني في الدنيا ولا أعلم ما كان منك في الآخرة، وقيل: تعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وتفعل.

المسألة الثانية - تمسكت المجسمة بهذه الآية وقالوا: النفس هو الشخص وذلك يقتضي كونه تعالى جسماً.

والجواب من وجهين: الأول: إن النفس عبارة عن الذات، يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد، والثاني: إن المراد تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ولكنه ذكر هذا الكلام على طريق المطابقة والمشاكلة وهو من فصيح الكلام.

ثم قال تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ وهذا تأكيد للجملتين المتقدمتين أعني قوله ﴿ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ ﴾ وقوله ﴿ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾.

ثم قال تعالى حكاية عن عيسى ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ ﴾ إن مفسرة والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول المأمور به. . .

ثم قال تعالى ﴿ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ ﴾ أي كنت أشهد على ما يفعلونه ما دمت مقيماً فيهم. ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي ﴾ والمراد منه، وفاة الرفع إلى السماء، من قوله ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥]

﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ قال الزجاج: الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم.

﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ يعني أنت الشهيد لي حين كنت فيهم ﴿ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴾ بعد مفارقتي لهم، فالشهيد الشاهد ويجوز حمله على الرؤية، ويجوز حمله على العلم، ويجوز حمله على الكلام بمعنى الشهادة فالشهيد من أسماء الصفات الحقيقية على جميع التقديرات.

ثم قال تعالى ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى - معنى الآية ظاهر، وفيه سؤال: وهو أنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول ﴿ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ والله لا يغفر الشرك.

والجواب عنه من وجوه: الأول: إنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام ﴿ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه، والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافراً بل يكون مذنباً حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز، فلهذا المعنى: طلب المغفرة من الله تعالى، والثاني: إنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه، فذكر عيسى هذا الكلام ومقصود منه تفويض الأمور كلها إلى الله، وترك التعرض والاعتراض بالكلية، ولذلك ختم الكلام بقوله ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ يعني أنك قادر على ما تريد، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية، وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول: إن غفرانه جائز عندنا، وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا: لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب، وليس في إسقاطه على الله مضرة، فوجب أن يكون حسناً بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرح عيسى عليه السلام.

الوجه الثالث - في الجواب أن القوم لما قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جوّز أن يكون بعضهم قد تاب عنه، فقال ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ ﴾ علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك، وأنت قد حكمت على كل من كفر من عبادك بالعقوبة، وأن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر، وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة.

الوجه الرابع - إنا ذكرنا أن من الناس من قال: إن قول الله تعالى لعيسى ﴿ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ ﴾ إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة، وعلى هذا القول فالجواب سهل لأن قوله ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ ﴾ يعني إن توفيتهم على هذا الكفر

وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضاً ذاك. وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

المسألة الثانية ـ احتج بعض الأصحاب بهذه الآية على شفاعة محمد ﷺ في حق الفساق قالوا: لأن قول عيسى عليه السلام ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ليس في حق أهل الثواب لأن التعذيب لا يليق بهم، وليس أيضاً في حق الكفار لأن قوله ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا يليق بهم فدل على أن ذلك ليس إلا في حق الفساق من أهل الإيمان. وإذا ثبت شفاعة الفساق في حق عيسى عليه السلام ثبت في حق محمد ﷺ بطريق الأولى لأنه لا قائل بالفصل.

المسألة الثالثة ـ روى الواحدي رحمه الله أن في مصحف عبد الله ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سمعت شيخي ووالدي رحمه الله يقول ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ههنا أولى من الغفور الرحيم، لأن كونه غفوراً رحيماً يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج، وأما العزة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة، فإن كونه عزيزاً يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنه لا اعتراض عليه لأحد. فإذا كان عزيزاً متعالياً عن جميع جهات الاستحقاق، ثم حكم بالمغفرة كان الكرم ههنا أتم مما إذا كان كونه غفوراً رحيما/يوجب المغفرة والرحمة، فكانت عبارته رحمه الله أن يقول: عزّ عن الكل ثم حكم بالرحمة فكان هذا أكمل. وقال قوم آخرون: إنه لو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، أشعر ذلك بكونه شفيعاً لهم، فلما قال ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى ـ أجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة، والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة، والدليل على أن المراد ما ذكرنا: أن صدق الكفار في القيامة لا ينفعهم، ألا ترى أن إبليس قال ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ فلم ينفعه هذا الصدق، وهذا الكلام تصديق من الله تعالى لعيسى في قوله ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾.

المسألة الثانية ـ قرأ جمهور القراء ﴿يَوْمُ﴾ بالرفع، وقرأ نافع بالنصب، واختاره أبو عبيدة. فمن قرأ بالرفع، قال الزجّاج: التقدير هذا اليوم يوم منفعة الصادقين، وأما النصب ففيه وجوه: الأول: على أنه ظرف لقال والتقدير: قال الله هذا القول لعيسى يوم ينفع. الثاني: أن يكون التقدير: هذا الصدق واقع يوم ينفع الصادقين صدقهم، ويجوز أن تجعل ظروف الزمان أخباراً عن الأحداث بهذا التأويل كقولك: القتال يوم السبت، والحج يوم عرفة، أي واقع في ذلك اليوم، والثالث: قال الفراء: ﴿يَوْمَ﴾ أضيف إلى ما ليس باسم فبني على الفتح كما في يومئذ. قال البصريون هذا خطأ لأن الظرف إنما يبنى إذا أضيف إلى المبنى كقول النابغة.

* على حين عاتبت المشيب على الصبا *

بنى «حين» لإضافته إلى المبني وهو الفعل الماضي وكذلك قوله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ﴾ [الأنفطار:١٩] بني لإضافته إلى «لا» وهي مبنية، أما هنا فالإضافة إلى معرب لأن ينفع فعل مستقبل، والفعل المستقبل معرب فالإضافة إليه لا توجب البناء والله أعلم.

ثم قال تعالى ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

اعلم أنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب، وحقيقة الثواب: أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم. فقوله ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم، وقوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إشارة إلى الدوام واعتبر هذه الدقيقة، فإنه أينما ذكر الثواب قال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وأينما ذكر عقاب الفساق من أهل الإيمان ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأبيد، وأما قوله تعالى ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فهو إشارة إلى التعظيم. هذا ظاهر قول

المتكلمين، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى، فتحت قوله ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها، وقوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ الجمهور على أن قوله ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ عائد إلى جملة ما تقدم من قوله ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى ﴾ إلى قوله ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ وعندي أنه يحتمل أن يكون ذلك مختصاً بقوله ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ﴾ فإنه ثبت عند أرباب الألباب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما، وهذا الكلام يشمئز منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل ميسر لما خلق له.

الطبرسي ج ٦ ص ٢٣١ ـ ٢٥٠

لما عرّف سبحانه يوم القيامة بما وصفه به من جمع الرسل فيه عطف عليه بذكر المسيح فقال ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ ومعناه إذ يقول الله في الآخرة، وذكر لفظ الماضي تقريباً للقيامة لأن ما هو آت فكأن قد وقع ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ وهذا إشارة إلى بطلان قول النصارى لأن من له أم لا يكون إلهاً ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ أي اذكر ما أنعمت به عليك وعلى أمك واشكر، أفرد النعمة في اللفظ ويريد به الجمع، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨]، وإنما جاز ذلك لأنه مضاف فصلح للجنس ثم فسر نعمته بأن قال ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وهو جبرائيل (ع) وقد مضى تفسيره في سورة البقرة عند قوله: وأيدناه بروح القدس ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ أي في حال ما كنت صبياً في المهد وفي حال ما كنت كهلاً، وقال الحسن المهد حجر أمه ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ قيل الكتابة يعني الخط ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي العلم والشريعة وقيل أراد الكتب فيكون الكتاب اسم جنس ثم فصله بذكر التوراة والإنجيل فقال ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى ﴾ أي واذكر ذلك أيضاً إذ تصور الطين كهيئة الطير الذي تريد أي كخلقته وصورته وسماه خلقاً لأنه كان يقدره وقوله بإذني أي تفعل ذلك بإذني وامري ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ أي تنفخ فيها الروح لأن الروح جسم يجوز أن ينفخه المسيح بأمر الله ﴿ فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ والطير يؤنث ويذكر: فمن أنث فعلى الجمع ومن ذكر فعلى اللفظ، وواحد الطير طائر فيكون مثل ظاعن وظعن وراكب وركب، وبين بقوله فيكون طيراً بأذني أنه إذا نفخ المسيح فيها الروح قلبها الله لحماً ودماً ويخلق فيها الحياة، فصارت طائراً بأذن الله أي بأمره وإرادته لا بفعل المسيح ﴿ وَتُبْرِئُ ﴾ أي تصحح ﴿ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ الذي ولد أعمى ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ من به برص مستحكم ﴿ بِإِذْنِى ﴾ أي بأمري ومعناه إنك تدعوني حتى أبرىء الأكمه والأبرص، ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه وسؤاله ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ أي اذكر إذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك وأخرجهم من القبور حتى يشاهدهم الناس أحياء، ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ عن قتلك وأذيتك ﴿ إِذْ جِئْتَهُم ﴾ أي حين جئتهم ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ مع كفرهم وعنادهم ويجوز أن يكون تعالى كفهم عنه بألطافه التي لا يقدر عليها غيره، ويجوز أن يكون كفهم بالمنع والقهر كما منع من أراد قتل نبينا. ومعنى جئتهم بالبينات أتيتهم بالحجج والمعجزات ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ وجحدوا نبوتك ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ يعنون به عيسى وسحر مبين يعني به أن ما جاء به سحر ظاهر واضح، وينبغي أن يكون قوله سبحانه في أول الآية إذ قال الله يا عيسى اذكر نعمتي يعني أخبر بها قومك الذين كذبوا عليك ليكون حجة عليهم لأنهم ادعوا عليه إنه إله، ثم عدد النعمة نعمة نعمة على ما بيناه. . .

ثم بين سبحانه تمام نعمته على عيسى فقال ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ ﴾ أي واذكر إذ أوحيت ﴿ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ ﴾ أي الهمتهم وقيل القيت إليهم بالآيات التي أريتهم إياها، ومضى الكلام في الحواريين في سورة آل عمران وهم وزراء عيسى. . عن قتادة وأنصاره عن الحسن ﴿ أَنْ ءَامِنُواْ

﴿بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي صدقوا بي وبصفاتي وبعيسى إنه عبدي ونبيي ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قال الحواريون ﴿ءَامَنَّا﴾ أي صدقنا ﴿وَٱشْهَدْ﴾ يا الله ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ . . .

ثم أخبر سبحانه عن الحواريين وسؤالهم فقال ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ والعامل في إذ قوله أوحيت، ويحتمل أن يكون معناه وذاكر إذ قال الحواريون ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن يكون معناه هل يفعل ربك ذلك بمسألتك إياه لتكون علماً على صدقك. . . من حيث لا يعرض عليهم فيه أشكال ولا شبهة، ومن ثم قالوا وتطمئن قلوبنا كما قال إبراهيم ولكن ليطمئن قلبي. . عن أبي علي الفارسي.

وثانيها: إن المراد هل يقدر ربك، وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله ولذلك أنكر عليهم عيسى (ع) فقال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين لأنهم لم يستكمل إيمانهم في ذاك الوقت.

وثالثها: أن يكون معناه هلى يستجيب لك ربك؟ وإليه ذهب السدي في قوله يريد هل يطيعك ربك إن سألته، وهذا على أن يكون استطاع بمعنى أطاع كما يكون استجاب بمعنى أجاب. قال الزجّاج: يحتمل مسألة الحواريين عيسى (ع) المائدة على ضربين:

أحدهما: أن يكونوا أرادوا أن يزدادوا تثبيتاً كما قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى.

وجائز أن يكون مسألتهم المائدة قبل علمهم أنه أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ معناه اتقوا الله أن تسألوه شيئاً لم تسأله الأمم قبلكم، وقيل إن معناه الأمر بالتقوى مطلقاً كما أمر الله المؤمنين بها في قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾. . عن أبي علي الفارسي، وقيل أمرهم أن لا يقترحوا الآيات وأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله، لأن الله تعالى قد أراهم البراهين والمعجزات بإحياء الموتى وغيره مما هو أوكد مما سألوه وطلبوه. . عن الزجاج ﴿قَالُواْ﴾ أي قال الحواريون ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: أن تكون الإرادة التي هي من أفعال القلوب ويكون التقدير فيه نريد السؤال من أجل هذا الذي ذكرنا، والآخر أن تكون الإرادة ها هنا بمعنى المحبة التي هي ميل الطباع أي نحب ذلك ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ يجوز أن يكونوا قالوا وهم مستبصرون في دينهم ومعناه نريد أن نزداد يقيناً وذلك أن الدلائل كلما كثرت مكنت المعرفة في النفس. . . عن عطاء ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله وهذا يقوي قول من قال إن هذا كان في ابتداء أمرهم والصحيح أنهم طلبوا المعاينة والعلم الضروري والتأكيد في الإعجاز ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لله بالتوحيد ولك بالنبوة وقيل من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم. .

ثم أخبر سبحانه عن سؤال عيسى «ع» إياه فقال ﴿. . . قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ عن قومه لما التمسوا منه، وقيل إنه إنما سأل ربه ذلك حين أذن له في السؤال ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾ أي خواناً عليه طعام. . .

﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي ودلالة منك عظيمة الشأن في إزعاج قلوب العباد إلى الإقرار بمدلولها الاعتراف بالحق الذي تشهد به ظاهرها تدل على توحيدك وصحة نبوة نبيك ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي واجعل ذلك رزقاً لنا، وقيل معناه وارزقنا الشكر عليها. . عن الجبائي ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وفي هذا دلالة على أن العباد قد رزق بعضهم بعضاً، لأنه لو لم يكن كذلك لم يصح أن يقال له سبحانك أنت خير الرازقين، كما لا يجوز أن يقال أنت خير الآلهة لما لم يكن غيره إلهاً ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ مجيباً له إلى ما التمسه ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ يعني المائدة ﴿عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ أي بعد إنزالها عليكم ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: إنه أراد عالمي زمانه فجحد القوم فكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير. . عن قتادة وروي عن أبي الحسن موسى أنهم مسخوا خنازير.

وثانيها: إنه أراد عذاب الاستئصال.

وثالثها: إنه أراد جنساً من العذاب لا يعذب به أحداً غيرهم وإنما استحقوا هذا النوع من العذاب بعد نزول المائدة لأنهم كفروا بعدما رأوا الآية التي هي من ازجر

الآيات عن الكفر بعد سؤالهم لها، فاقتضت الحكمة اختصاصهم بفن من العذاب عظيم الموضع كما اختصت آيتهم بفن من الزجر عظيم الموقع . . .

ثم عطف سبحانه على ما تقدم من أمر المسيح فقال ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ والمعنى إذ يقول الله يوم القيامة لعيسى ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ هذا وإن خرج مخرج الاستفهام فهو تقريع وتهديد لمن ادعى ذلك عليه من النصارى، كما جرى في العرف بين الناس أن من ادعى على غيره قولاً فيقال لذلك الغير بين يدي المدعي ذلك القول أأنت قلت هذا القول؟ ليقول لا! فيكون ذلك استعظاماً لذلك القول وتكذيباً لقائله. وذكر فيه وجه آخر وهو أن يكون تعالى أراد بهذا القول تعريف عيسى أن قوماً قد اعتقدوا فيه وفي أمه أنهما إلهان، لأنه يمكن أن يكون عيسى لم يعرف ذلك إلا في تلك الحال عن البلخي والأول أصح، وقد اعترض على قوله إلهين فقيل لا يعلم في النصارى من اتخذ مريم إلهاً، والجواب عنه من وجوه.

أحدها: إنهم لما جعلوا المسيح إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً إلهاً لأن الولد يكون من جنس الوالدة فهذا على طريق الإلزام لهم.

والثاني: أنهم لم عظموها تعظيم الآلهة أطلق اسم الآلهة عليهما كما أطلق اسم الرب على الرهبان والأحبار في قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] لما عظموهم تعظيم الرب.

والثالث: إنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك، ويعضد هذا القول ما حكاه الشيخ أبو جعفر عن بعض النصارى أنه قال كان فيما مضى قوم يقال لهم المريمية يعتقدون في مريم إنها إله، فعلى هذا يكون القول فيه كالقول في الحكاية عن اليهود وقولهم عزير ابن الله ﴿ قَالَ ﴾ يعني عيسى ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ جل جلالك وعظمت وتعاليت عن عطاء، وقيل معناه تنزيهاً لك وبراءة مما لا يجوز عليك: وقيل تنزيهاً لك من أن تبعث رسولاً يدعي الإلهية لنفسه ويكفر بنعمتك فجمع بين التوحيد والعدل . . . وإنما تحق العبادة لك لقدرتك على أصول النعم. ثم استشهد الله تعالى على براءته من ذلك القول فقال ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ يريد إني لم أقله لأني لو كنت قلته لما خفي عليك لأنك علام الغيوب ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ . . . عن ابن عباس، وإنما ذكر النفس لمزاوجة الكلام والعادة جارية بأن الإنسان يسر في نفسه، فصار قوله ما في نفسي عبارة عن الإخفاء، ثم قال ما في نفسك على جهة المقابلة، وإلا فالله منزه عن أن يكون له نفس أو قلب تحل فيه المعاني، ويقوي هذا التأويل قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ لأنه علل علمه بما في نفس عيسى بأنه علام الغيوب وعيسى ليس كذلك فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه. ثم قال حكاية عن عيسى في جواب ما قرره تعالى عليه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي لم أقل للناس إلا ما أمرتني به من الإقرار لك بالعبودية وإنك ربي وربهم وإلهي وإلههم وأمرتهم أن يعبدوك وحدك ولا يشركوا معك غيرك في العبادة ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ أي شاهداً ﴿ مَّا دُمْتُ ﴾ حياً ﴿ فِيهِمْ ﴾ بما شهدته منهم وعلمته وبما أبلغته من رسالتك التي حملتنيها وأمرتني بأدائها إليهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أي قبضتني إليك وأمتني. . عن الجبائي، وقيل معناه وفاة الرفع إلى السماء. . عن الحسن ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ ﴾ أي الحفيظ ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ . . عن السدي وقتادة ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي أنت عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليك خافية ولا يغيب عنك شيء قال الجبائي: وفي هذه الآية دلالة على أنه أمات عيسى وتوفاه ثم رفعه إليه لأنه بين أنه كان شهيداً عليهم ما دام فيهم، فلما توفاه الله كان هو الشهيد عليهم وهذا ضعيف لأن التوفي لا يستفاد من إطلاقه الموت، ألا ترى إلى قوله الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فبين أنه تعالى يتوفى الأنفس التي لم تمت ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ لا يقدرون على دفع شيء عن أنفسهم ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في هذا تسليم الأمر لمالكه وتفويض إلى مدبره وتبرؤ من أن يكون إليه شيء من أمور قومه، كما يقول الواحد منا إذا تبرأ من تدبير أمر من

الأمور ويريد تفويضه إلى غيره هذا الأمر لا مدخل لي فيه فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه، مع علمه وقطعه على أن أحد الأمرين لا يكون منه. وقيل إن المعنى إن تعذبهم فبإقامتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم فبتوبة كانت منهم.. عن الحسن، فكأنه اشترط التوبة وإن لم يكن الشرط ظاهراً في الكلام، وإنما لم يقل فإنك أنت الغفور الرحيم لأن الكلام لم يخرج مخرج السؤال، ولو قال ذلك لأوهم الدعاء لهم بالمغفرة، على أن قوله العزيز الحكيم أبلغ في المعنى، وذلك أن المغفرة قد تكون حكمة وقد لا تكون، والوصف بالعزيز الحكيم يشتمل على معنى الغفران والرحمة إذا كانا صوابين، ويزيد عليهما باستيفاء معانٍ كثيرة، لأن العزيز هو المنيع القادر الذي لا يضام والقاهر الذي لا يرام. وهذا المعنى لا يفهم من الغفور الرحيم والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها ولا يفعل إلا الحسن الجميل، فالمغفرة والرحمة إن اقتضتهما الحكمة دخلتا فيه، وزاد معنى هذا اللفظ عليهما من حيث اقتضى وضعه بالحكمة في سائر أفعاله. . .

لما بين عيسى بطلان ما عليه النصارى ﴿ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ يعني ما صدقوا فيه في دار التكليف لأن يوم القيامة لا تكليف فيه على أحد ولا يخبر أحد فيه إلا بالصدق ولا ينفع الكفار صدقهم في يوم القيامة إذا أقروا على أنفسهم بسوء أعمالهم، وقيل إن المراد بصدقهم تصديقهم لرسول الله تعالى وكتبه، وقيل إنه الصدق في الآخرة وإنه ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله، فعلى هذا يكون المراد به صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ ﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ أي دائماً فيها في نعيم مقيم لا يزول ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بما فعلوا ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ بما أعطاهم من الجزاء والثواب ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ هو ما يحصلون فيه من الثواب قال الحسن: فازوا بالجنة ونجوا من النار.

ابن عربي ج ١ ص ٣٤٩ ـ ٣٥٤

﴿ نِعْمَتِي عَلَيْكَ ﴾ بالهداية الخاصة، ومقام النبوة والولاية. ﴿ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ بالتطهير والتزكية، والإصطفاء. ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ ﴾ في مهد البدن. ﴿ وَكَهْلًا ﴾ بالغاً إلى نور شيب الكمال بالتجرد عن البدن، وملابسه.

﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ﴾ كتاب الحقائق والمعارف الثابتة في اللوح المحفوظ، بتأييد روح القدس، وحكمة السلوك في الله، بتحصيل الأخلاق والأحوال، والمقامات، والتجريد، والتفريد، وتوراة العلوم الظاهرة، والأحكام المتعلقة بالأفعال، وأحوال النفس وصفاتها، وإنجيل العلوم الباطنة من علوم تجليات الصفات وأحكامها وأحكام أحوال القلب وصفاته، وأعماله.

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ من طين العقل الهيولاني الذي هو الاستعداد المحض بيد التربية والحكمة العملية ﴿ كَهَيْـَٔةِ ﴾ طير القلوب الطائرة إلى حضرة القدس لتجرّدها عن عالمها، وكمالها. ﴿ بِإِذْنِي ﴾ أي بعلمي وقدرتي، وتيسيري عند تجلي صفات حياتي وعلمي، وقدرتي لك أنصافك، واستنبائي إياك ﴿ فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ من روح الكمال حياة العلم الحقيقي بالتكميل، والإضافة. ﴿ فَتَكُونُ طَيْرًۢا ﴾ نفساً مجرّدة كاملة تطير إلى جناب القدس بجناح العشق. ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ المحجوب عن نور الحق ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ المعيب بمرض محبة الدنيا، وغلبة الهوى.

﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ﴾ موتى الجهل من قبور البدن، وأرض النفس بإذني.

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ المحجوبين عن نور تجليات الصفات، الجاهلين المضادين لك، لجهلهم بحالك، ومقامك ﴿ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالحجج والدلائل الواضحة ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ ﴾ حجبوا منهم عن ﴿ دِينَ ٱلْحَقِّ ﴾ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ لحيرتهم فيه.

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ أي، ألهمت في قلوبهم النورانيين الذين طهروا نفوسهم بماء المنافع، والأعمال المزكية، حتى قبلوا دعوتك لصفاء نفوسهم، وأحبوك بالإرادة التامة لمناسبتهم إياك بنور الفطرة، وصفاء الإستعداد ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي ﴾ إيماناً حقيقياً بتوحيد

الصفات، والمحو ﴿وَبِرَسُولِي﴾ برعاية حقوق تجلياتها على التفصيل ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ﴾ يا إلهنا بعلمك الشامل، المحيط بالكل، إننا منقادون لك، مسلمين وجودات صفاتنا إليك.

﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ إذ اقترح عليك أصحابك، فقالوا: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي، شاهدك من عالم الربوبية، فإنّ رب كل واحد هو الاسم الذي يربيه ويكمله، ولا يعبد أحد إلا ما عرفه من عالم الربوبية، ولا عرف إلا ما بلغ إليه من المرتبة في الألوهية، فيستفيض منه العلوم، ويستنزل منه البركات، ويستمد منه المدد الروحاني، ولهذا قالوا مع إقرارهم، وإسلامهم، ﴿رَبُّكَ﴾ ولم يقولوا ﴿رَبَّنَآ﴾ لأن ربهم لا يستطيع ﴿أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شريعة من سماء عالم الروح تشتمل على أنواع العلوم، والحكم، والمعارف، والأحكام، فيها غذاء القلوب، وقوت النفوس، وحياتها، وذوقها ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ احذروه في ظهور صفات نفوسكم، واجعلوه وقاية لكم فيما يصدر عنكم من الأخلاق، والأفعال تنجوا من تبعاتها، وتفوزوا وتفلحوا، أن تحقق إيمانكم، فلا حاجة بكم إلى شريعة جديدة ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن﴾ نستفيد ﴿مِنۡهَا﴾ ونعمل بها، ونتقوّى بها ﴿وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ فإن العلم غذاء القلب، وقوته ﴿وَنَعۡلَمَ﴾ صدقك في الإخبار عن ربك، ونبوتك، وولايتك، بها وفيها ﴿وَنَكُونَ عَلَيۡهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الحاضرين أهل العلم، نخبر بها من عدانا من الغائبين، ونعلمهم، وندعوهم بها، إلى الله ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أمراً، أي، شرعاً، وديناً يعود إليه من في زماننا من أهل ديننا، ومن بعدنا ممن سيوجد من النصارى ﴿وَءَايَةٗ مِّنكَ﴾ علامة وعلماً منك تعرف بها وتعبد ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ ذلك الشرع، والعلم النافع، والهداية ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لا ترزق إلا ما ينفعنا، ويكون صلاحنا فيه ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ﴾ يحتجب عن ذلك الدين، بعد إنزاله ووضوحه ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لبيان الطريق، ووضوح الدين، والحجة، مع وجود استعدادهم، فلا ينكرونه، إلا معاندين؛ والعذاب مع العلم أشد من العذاب مع الجهل، إذ الشعور بالمحجوب عنه يوجب شدة الإيلام.

﴿ءَأَنتَ﴾ دعوت الناس إلى نفسك، وأمّك، أو إلى مقام قلبك ونفسك، فإن من بقي فيه وجود الأنانية، وبقية النفس والهوى، أو كان فيه تلوين بوجود القلب، وظهوره بصفته، يدعو الخلق أما إلى مقام نفسه، وأما إلى مقام قلبه، لا إلى الحق ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزيه لله عن الشريك، وتبرئة له عن وجود البقية ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فإني لا وجود لي بالحقيقة، فلا ينبغي ولا يصح أن أقول قولاً ليس لي ذلك القول بالحقيقة، فإن القول والفعل، والصفة والوجود، كلها لك ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ﴾ أي إن كان صدر مني قول فعن علمك، ولا وجود لما لا تعلم، وما وجد بعلمك، وجد. ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي﴾ لإحاطتك بالكل، فعلمني ببعض علمك ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾ أي ذاتك، لأني لا أحيط بالكل.

﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ وما أمرتهم إلا ما كلفتني قوله، وألزمتني إياه ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ أي ما دعوتهم إلا إلى الجمع في صورة التفصيل، وهو الذي نسبة ربوبيته إلى الكل سواء، فغلطوا فما رأوه إلا في بعض التفاصيل لضيق وعائهم، ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ رقيباً حاضراً أراعيهم، وأعلمهم ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ أي ما بقي مني وجود بقية ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي﴾ أفنيتني بالكلية بك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لفنائي فيك ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ حاضر يوجد بك، وإلا لم يكن ذلك الشيء.

﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ بإدامة الحجاب ﴿فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ﴾ أحقاء بالحجب والحرمان، وأنت أولى بهم، تفعل بهم ما تشاء. ﴿وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ برفع الحجاب. ﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي القادر على ذلك، لا تزول عزتك بتقريبهم، ورفع حجابهم. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ تفعل ما تفعله من التعذيب بالحجب، والحرمان والتقريب باللطف، والغفران بحكمتك البالغة. ﴿هَٰذَا يَوۡمُ﴾ نفع صدقك إياك وصدق كل صادق، لكونه خميرة الكمالات، وخاصية الملكوت. ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ﴾ الصفات، بدليل ثمرة الرضوان، فإن الرضا لا يكون إلا بفناء الإرادة، ولا تفنى إرادتهم إلا إذا غلبت إرادة الله عليهم فأفنتها، ولهذا أقدم رضوان الله عنهم على

رضـوانهـم عنـه، أي لمـا أرادهـم الله تعـالـى فـي الأزل، بمظهرية إرادته، ومحل رضوانه، ورضي بهم محلاً وأهلاً لذلك، سلب عنهم إرداتهم بأن جعل إرادته مكانها، وأبدلهم بها، فرضيّ عنهم، وأرضاهم ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ أي الفلاح العظيم الشأن، ولو كان فناء الذات لكان الفوز الأكبر، والفلاح الأعظم.

البيضاوي ج ٢ ص ١٧٤ ـ ١٧٧

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ بدل من يوم ويجمع وهو على طريقة ونادى أصحاب الجنة والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديد ما أظهر عليهم من الآيات فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة أو نصب باضمار اذكر ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي أو حال منه وقرىء آيدتك ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام أو بالكلام الذي يحيا به الدين أو النفس حياة أبدية ويطهر من الآثام ويؤيده قوله ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ . . .

والمعنى إلحاق حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتكلم وبه استدل على أنه سينزل فإنه رفع قبـل أن يكتهـل ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران وقرأ نافع ويعقوب طائراً ويحتمل الإفراد والجمع كالباقر ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم ﴾ يعني اليهـود حيـن همـوا بقتلـه ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ ظرف لكففت ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر فالإشارة إلى عيسى عليه الصـلاة والسـلام ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ ﴾ أي أمرتهم على ألسنة رسلي ﴿ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ يجوز أن تكـون أن مصـدريـة وأن تكـون مفسـرة ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ مخلصون ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ منصوب باذكر أو ظرف لقالوا فيكون تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ لم يكن بعد عن تحقيق واستحكام معرفة وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع ربك أي هل يجيبك واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب وقرأ الكسائي تستطيع ربك أي سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد الماء يميد إذا تحرك أو من ماده إذا أعطاه كأنها تميد من تقدم إليه ونظيرها قولهم شجرة مطعمة ﴿ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ من أمثال هذا السؤال ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوّتي أو صدقتم في ادعائكم الإيمان ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالى ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ في ادعاء النبوّة أو أن الله يجيب دعوتنا ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ إذا استشهـدتنـا أو مـن الشاهدين للعين دون السامعين للخبر ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك أو أنهم لا يقلعون عنه فأراد إلزامهم الحجة بكمالها ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا ﴾ . . .

﴿ لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيد متقدمينا ومتأخرينا روي أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا وقرىء لأولانا وأخرانا بمعنى الأمة أو الطائفة ﴿ وَءَايَةً ﴾ عطف على عيداً ﴿ مِّنكَ ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوّتي ﴿ وَٱرْزُقْنَا ﴾ المائدة أو الشكر عليها ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إجابة إلى سؤالكم وقرأ نافع وابن عامر وعاصم منزلها بالتشديد ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا ﴾ أي تعذيباً.

كانت تأتيهم أربعين يوماً غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبداً ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتي في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استعفوا وقالوا لا نريد فلم تنزل وعن مجاهد أن هذا مثل ضربه الله لمقترحي المعجزات وعن بعض الصوفية المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن وعلى هذا فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه فسأل لأجل اقتراحهم فبين الله سبحانه وتعالى إن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ يريد به توبيخ الكفرة وتبكيتهم ومن دون الله صفة لإلهين أو صلة اتخذوني ومعنى دون أما المغايرة فيكون فيه تنبيه على أن عبادة الله سبحانه وتعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده أو القصور فإنهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وكأنه قيل اتخذوني وأمي إلهين متوصلين بنا إلى الله سبحانه وتعالى ﴿ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك وقوله في نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ تقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ تصريح بنفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ عطف بيان للضمير في به أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع أو خبر مضمر أو مفعوله مثل هو أو أعني ولا يجوز إبداله من ما أمرتني به فإن المصدر لا يكون مفعول القول ولا أن تكون أن مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يؤول القول بالأمر فكان قيل ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن اعبدوا الله ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه أو مشاهداً لأحوال من كفر وإيمان ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى ﴾ بالرفع إلى السماء لقوله إني متوفيك ورافعك والتوفي أخذ الشيء وافياً والموت نوع منه قال الله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴿ كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ مطلع عليه مراقب له ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ أي أن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ فلا عجز ولا استقباح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب الذي لا يثبت ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم فإن عذبت فعدل وإن غفرت ففضل وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع الترديد والتعليق بأن ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ وقرأ نافع يوم بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح لأن المضاف إليه معرف والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف ﴿ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ بيان للنفع.

القرطبي ج ٦ ص ٣٦٢ ـ ٣٨١

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾ هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال: اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول الله لعيسى كذا؛ قاله المهدويّ. و﴿ عِيسَى ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع على أن يكون ﴿ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ نداء ثانياً، ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ لأنه نداء منصوب كما قال:

* يا حكَمَ بنَ المنذر بنِ الجارُود *

ولا يجوز الرفع في الثاني إذا كان مضافاً إلا عند الطوال.

قوله تعالى: ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ ﴾ إنما ذكر الله تعالى عيسى نعمه عليه وعلى والدته وإن كان لهما ذاكراً لأمرين: أحدهما ـ ليتلو على الأمم ما خصهما به من الكرامة، وميّزهما به من علوّ المنزلة. الثاني ـ ليؤكد به حجته، ويردّ به جاحده. ثم أخذ في تعديد نعمه فقال: ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ يعني قوّيتك؛ مأخوذ من الأيد وهو القوّة، وقد تقدّم. وفي ﴿ رُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ وجهان: أحدهما ـ إنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها كما تقدّم في قوله: ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾. الثاني ـ إنه جبريل عليه السلام وهو الأصح، كما تقدّم في «البقرة». ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ ﴾ يعني وتكلم الناس في المهد صبيًّا. وفي الكهولة نبيًّا، وقد تقدّم ما في هذا في «آل عمران» فلا معنى لإعادته. ﴿ كَفَفْتُ ﴾ معناه دفعت وصرفت ﴿ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ حين همُّوا بقتلك. ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي الدلالات والمعجزات، وهي المذكورة في الآية. ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بك وجحدوا نبوّتك. ﴿ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي المعجزات. ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾. وقرأ حمزة والكسائيّ «ساحر» أي إن هذا الرجل إلا ساحر قويّ على السِّحر.

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ قد تقدم القول في معاني هذه الآية، والوحي في كلام العرب معناه الإلهام ويكون على أقسام: وَحْي بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام. ووحي بمعنى الإلهام كما في هذه الآية؛ أي ألهمتهم وقذفت في قلوبهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ﴾ [القصص: ٧] ووَحي بمعنى الإعلام في اليقظة والمنام. قال أبو عُبيدة: أوحيت بمعنى أمرت، «وإلى» صلة؛ يقال: وَحَى أوْحَى بمعنى؛ قال الله تعالى: ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة: ٥] وقال العجاج:

* أوْحَى لها القرارَ فاستقرّت *

أي أمرها بالقرار فاستقرّت. وقيل: ﴿ أَوْحَيْتُ ﴾ هنا بمعنى أمرتهم. وقيل: بينت لهم. ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ على الأصل؛ ومن العرب من يحذف إحدى النونين، أي واشهد يا رب. وقيل يا عيسى بأننا مسلمون لله.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ على ما تقدّم من الإعراب. ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾. قراءةُ الكسائيّ وعليّ وابن عباس وسعيد بن جُبير ومجاهد «هل تستطيع» بالتاء «ربك» بالنصب. وأدغم الكسائيّ اللام من «هل» في التاء. وقرأ الباقون بالياء، ﴿ رَبُّكَ ﴾ بالرفع، وهذه القراءة أشكل من الأولى؛ فقال السُّدي: المعنى هل يطيعك ربك إن سألته ﴿ أَن يُنَزِّلَ ﴾ فيستطيع بمعنى يطيع، كما قالوا: أستجاب بمعنى أجاب، وكذلك أستطاع بمعنى أطاع. وقيل المعنى: هل يقدر ربك، وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عزّ وجلّ، ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلطهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله تعالى.

قلت: وهذا فيه نظر؛ لأن الحواريين خُلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال: ﴿ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقال عليه السلام: «لكل نبيّ حواريٌّ وحواري الزبير». ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله عليهم جاؤوا بمعرفة الله وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أممهم، فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى؟ إلا أنه يجوز أن يقال: إنّ ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي

ﷺ: اجعل لنا ذات أنواطٍ كما لهم ذات أنواط، وكما قال من قال من قوم موسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ [الاعراف: ١٣٨] على ما يأتي بيانه في «الأعراف» إن شاء الله تعالى. . .

لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني إلى ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معاينة كذلك؛ كما قال إبراهيم: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] على ما تقدّم، وقد كان إبراهيم عَلِم ذلك عِلْم خبر ونظر ولكن أراد المعاينة التي لا يدخلها رَيْب ولا شبهة؛ لأن عِلْم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعِلْم المعاينة لا يدخله شيء من ذلك؛ ولذلك قال الحواريون: ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ كما قال إبراهيم: ﴿ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قلت: وهذا تأويل حسن، وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين، على ما يأتي بيانه. وقد أدخل ابن العربيّ المستطيع في أسماء الله تعالى، وقال: لم يرد به كتاب ولا سنّة اسماً وقد ورد فعلاً، وذكر قول الحواريين: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾. ورده عليه ابن الحصّار في كتاب شرح السنة له وغيره؛ قال ابن الحصار: وقوله سبحانه مخبراً عن الحواريين لعيسى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ ليس بشكٍّ في الاستطاعة، وإنما هو تلطف في السؤال، وأدب مع الله تعالى؛ إذ ليس كل ممكن سبق في علمه وقوعه ولا لكل أحد، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى، فكيف يظن بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كل شيء ممكن؟! وأما قراءة «التاء» فقيل: المعنى هل تستطيع أن تسأل ربك؛ هذا قول عائشة ومجاهد ـ رضي الله عنهما؛ قالت عائشة رضي الله عنها: كان القوم أعلم بالله عزّ وجلّ من أن يقولوا ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ ولكن «هل تستطيع ربك». وروي عنها أيضاً أنها قالت: كان الحواريون لا يشكُّون أن الله يقدر على إنزال مائدة ولكن قالوا: «هل تستطيع ربك». وعن معاذ بن جبل: أقرأنا النبي ﷺ «هل تستطيع ربك» قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مراراً يقرأ بالتاء «هل تستطيع ربك». وقال الزجاج: المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله. وقيل: هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله؛ والمعنى متقارب، ولا بد من محذوف؛ كما قال: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢] وعلى قراءة الياء لا يحتاج إلى حذف. قال: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي اتقوا معاصيه وكثرة السؤال؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات؛ إذ كان الله عزّ وجلّ إنما يفعل الأصلح لعباده. ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ نصب بأن. ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ عطف كله، بينوا به سبب سؤالهم حين نُهوا عنه. وفي قولهم ﴿ نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وجهان: أحدهما ـ أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علّة إذ كانوا زَمْنى أو عُمياناً، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون، فخرج يوماً إلى موضع فوقعوا في مفَازة ولم يكن معهم نفقة فجاعوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء؛ فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء، فقال عيسى لشمعون: ﴿ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له: قل له ﴿ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ الآية. الثاني ـ ﴿ نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها. قال الماوردي: وهذا أشبه، لأنهم لو احتاجوا لم يُنهوا عن السؤال. ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها ـ تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبياً. الثاني ـ تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا اعواناً لك. الثالث ـ تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا؛ ذكرها الماوردي. وقال المهدويّ: أي تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا. قال الثعلبيّ:

نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا. ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله. ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالوحدانية، ولك بالرسالة والنبوّة. وقيل: ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ الأصل عند سيبويه يا الله، والميمان بدل من «يا». «ربنا» نداء ثان لا يجيز سيبويه غيره؛ ولا يجوز عنده أن يكون نعتاً، لأنه قد أشبه الأصوات من أجل ما لحقه. ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ المائدة الخوان الذي عليه الطعام؛ قال قُطرُب: لا تكون المائدة مائدة حتى يكون عليها طعام، فإن لم يكن قيل خوان، وهي فاعلة من مادَ عبده إذا أطعمه وأعطاه؛ فالمائدة تميد ما عليها أي تُعطى؛ ومنه قول رؤبة ـ أنشده الأخفش:

تُهدى رؤوس المترَفين الأنداد
إلى أمير المؤمنين الممتاد

أي المستعطَى المسؤول؛ فالمائدة هي المطعمة والمعطية الآكلين الطعام. ويسمى الطعام أيضاً مائدة تجوّزاً، لأنه يكل على المائدة، كقولهم للمطر سماء. وقال أهل الكوفة: سميت مائدة لحركتها بما عليها؛ من قولهم: ماد الشيءُ إذا مال وتحرّك؛ قال الشاعر:

لعلك باكٍ إنْ تغنّتْ حمامةٌ
يميد بها غُصن من الأيكِ مائلُ

وقال آخر:

وأقلقني قتلُ الكناني بعده
فكادت بي الأرض الفضاء تَميدُ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]. وقال أبو عبيدة: مائدة فاعلة بمعنى مفعولة، مثل ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] بمعنى مرضية ﴿مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [طارق: ٦] أي مدفوق. قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ﴿تَكُونُ﴾ نعت لمائدة وليس بجواب.

... والعيد واحد الأعياد؛ وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد، ويقال: للفرق بينه وبين أعواد الخشب، وقد عَيّدوا أي شهدوا العيد؛ قاله الجوهري. وقيل: أصله من عاد يعود أي رجع فهو عود بالواو، فقلبت ياء لانكسار ما قبلها، مثل الميزان والميقات والميعات، فقيل ليوم الفطر والأضحى عيد لأنهما يعودان كل سنة. وقال الخليل: العيد كل يوم يجمع كأنهم عادوا إليه. وقال ابن الأنباري: سمي عيداً للعود في المَرَح والفَرَح، فهو يوم سرور الخلق كلهم؛ ألا ترى أن المسجونين في ذلك اليوم لا يطالبون ولا يعاقبون، ولا يصاد الوحش ولا الطيور، ولا تنفذ الصبيان إلى المكاتب. وقيل: سمي عيداً لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزلته؛ ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهيئاتهم ومآكلهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف، ومنهم من يرحم ومنهم من يُرحم. وقيل: سمي بذلك لأنه يوم شريف تشبيهاً بالعيد: وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه؛ فيقال: إبل عِيديّةٌ، قال:

* عِيديّةٌ أرهنت فيها الدنانير *

وقد تقدّم. وقرأ زيد بن ثابت ﴿لِأُولَانَا وَأُخْرَانَا﴾ على الجمع. قال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم. ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾ يعني دلالة وحجة. ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي أعطنا ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من أعطى ورزق، لأنك الغنيّ الحميد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعده الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمُسخوا قِردة وخنازير. قال ابن عمر: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾. واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور ـ وهو الحق ـ نزولها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾. وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله تعالى لخلقه فنهاهم عن مسئلة الآيات لأنبيائه. وقيل: وعدهم بالإجابة فلما قال لهم: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ ـ الآية ـ استعفوا منها، واستغفروا الله وقالوا: لا نريد هذا؛ قاله الحسن. وهذا القول والذي قبله خطأ، والصواب أنها

نزلت. قال ابن عباس: إن عيسى ابن مريم قال لبني إسرائيل: «صوموا ثلاثين يوماً ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم» فصاموا ثلاثين يوماً وقالوا: يا عيسى لو عَمِلنا لأحد فقضينا عملنا [لأطعَمَنا]، وإنا صمنا وجُعنا فادع الله أن ينزّل علينا مائدة من السماء، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أوّلهم. وذكر أبو عبد الله محمد بن عليّ التِّرمذيّ في «نوادر الأصول» له. . .

لما سألت الحواريون عيسى ابن مريم ـ صلوات الله عليه ـ المائدة قام فوضع ثياب الصّوف، ولبس ثياب المُسُوح ـ وهو سِرْبال من مسُوح أسود ولِحَاف أسود ـ فقام فألزق القدَم بالقدَم، وألصق العَقِب بالعَقِب، والإبهام بالإبهام، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى، ثم طأطأ رأسه، خاشعاً لله، ثم أرسل عينيه يبكي حتى جرى الدمع على لحيته، وجعل يقطر على صدره ثم قال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ قال الله: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فنزلت سفرة حمراء مُدَوَّرة بين غمامتين غَمامة من فوقها وغَمامة من تحتها، والناس ينظرون إليها؛ فقال عيسى: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة إلهي أسألك من العجائب فتُعطى» فهبطت بين يدي عيسى عليه السلام وعليها منديل مغطى، فخر عيسى ساجداً والحواريون معه، وهم يجدون لها رائحة طيبة لم يكونوا يجدون [مثلها] قبل ذلك؛ فقال عيسى: «أيكم أعبد لله وأجرأ على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه السفرة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها» فقال الحواريون: يا رُوح الله أنت أحقُّ بذلك، فقام عيسى ـ صلوات الله عليه ـ فتوضأ وضوءاً حسناً، وصلّى صلاة جديدة، ودعا دعاء كثيراً. . .

الناس ازدحموا عليه فما بقي صغير ولا كبير ولا شيخ ولا شاب ولا غنى ولا فقير إلا جاؤوا يأكلون منه، فضغط بعضهم بعضاً فلما رأى ذلك عيسى جعلها نُوَباً بينهم، فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوماً، كناقة ثمود ترعى يوماً وتشرب يوماً، فنزلت أربعين يوماً تنزل ضُحاً فلا تزال هكذا حتى يفيء الفيء موضعه. وقال الثعلبيّ: فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفيء طارت صُعُدا فيأكل منها الناس، ثم ترجع إلى السماء والناس ينظرون إلى ظلها حتى تتوارى عنهم، فلما تم أربعون يوماً أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى إجعل مائدتي هذه للفقراءة دون الأغنياء؛ فتمارى الأغنياء في ذلك وعادوا الفقراء، وشكّكوا الناس، فقال الله يا عيسى: «إني آخذ بشرطي»؛ فأصبح منهم ثلاثة وثلاثون خنزيراً يأكلون العَذرة يطلبونها بالأكباء والأكْباء ـ هي الكُناسة واحدها كِبا ـ بعدما كانوا يأكلون الطعام الطيّب وينامون على الفُرش اللينة، فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا على عيسى يبكون، وجاءت الخنازير فجثَوا على رُكَبهم قدّام عيسى، فجعلوا يبكون وتقطر دموعهم فعرفهم عيسى فجعل يقول: «ألست بفلان» فيومىء برأسه ولا يستطيع الكلام، فلبثوا بذلك سبعة أيام ـ ومنهم من يقول أربعة أيام ـ ثم دعا الله عيسى أن يقبض أرواحهم، فأصبحوا لا يدرى أين ذهبوا؟ الأرض ابتلعتهم أو ما صنعوا؟!

قلت: في هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده، وعن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السُّلمي كان طعام المائدة خبزاً وسمكاً. وقال ابن عطية: كانوا يجدون في السمك طيب كل طعام؛ وذكره الثعلبيّ. وقال عمّار بن ياسر وقتادة: كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمار من ثمار الجنة. وقال وهب بن مُنَبّه: أنزل الله تعالى أقرصة من شعير وحيتاناً. وخرّج الترمذيّ في أبواب التفسير عن عمّار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدةُ من السماء خبزاً ولحماً وأمِروا ألا يَخونوا ولا يَدخروا لغدٍ فخانوا وادّخروا ورَفعوا لغدٍ فمُسِخوا قِردة وخنازير» قال أبو عيسى: هذا حديث قد رواه أبو عاصم عن عمّار بن ياسرٍ موقوفاً ولا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، حدثنا حُميد بن مَسعدة قال حدّثنا سفيان بن حبيب عن سعيد بن أبي عروبة نحوه ولم يرفعه، وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً. وقال سعيد بن جُبير: أُنزل على المائدة كل شيء

إلا الخبز واللحم. وقال عطاء: نزل عليها كل شيء إلا السمك واللحم. وقال كعب: نزلت المائدة منكوسة من السماء تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم.

قلت: هذه الثلاثة الأقوال مخالفة لحديث التِّرمذي وهو أولى منها؛ لأنه إن لم يصح مرفوعاً فصح موقوفاً عن صحابيّ كبير. والله أعلم. والمقطوع به أنها نزلت وكان عليها طعام يؤكل والله أعلم بتعيينه. وذكر أبو نعيم عن كعب أنها نزلت ثانية لبعض عباد بني إسرائيل؛ قال كعب: اجتمع ثلاثة نفر من عباد بني إسرائيل فاجتمعوا في أرض فلاةٍ مع كل رجل منهم أسم من أسماء الله تعالى، فقال أحدهم: سَلُوني فأدعوَ الله لكم بما شئتم، قالوا: نسألك أن تدعو الله أن يظهر لنا عيناً ساحّة بهذا المكان؛ ورياضاً خُضرا وعبقريًا، قال: فدعا الله فإذا عين ساحّة ورياض خُضر وعَبْقريّ. ثم قال أحدهم: سَلوني فأدعوَ الله لكم بما شئتم؛ فقالوا نسألك أن تدعوا الله أن يطعمنا شيئاً من ثمار الجنة فدعا الله فنزلت عليهم بسرة فأكلوا منها لا تقلب إلا أكلوا منها لوناً ثم رفعت؛ ثم قال أحدهم: سلوني فأدعو الله لكم بما شئتم؛ فقالوا: نسألك أن تدعو الله أن ينزل علينا المائدة التي أنزلها على عيسى؛ قال: فدعا فنزلت فقضوا منها حاجتهم ثم رفعت؛ وذكر تمام الخبر.

مسئلة ـ جاء في حديث سلمان المذكور بيان المائدة وأنها كانت سُفرة لا مائدة ذات قوائم، والسُّفرة مائدة النبي ﷺ وموائد العرب؛ خرّج أبو عبد الله الترمذي؛ حدّثنا محمد بن [بشار]، عن أنس قال: ما أكل رسول الله ﷺ على خِوان قَطُّ ولا في سُكُرُّجة ولا خُبِز له مُرقّقٌ. قال قلت لأنس: فعلام كانوا يأكلون؟ قال: على السُّفَر. . .

قلت هذا حديث صحيح ثابت اتفق عليه رجاله؛ البخاريّ ومسلم، وخرجه الترمذي قال: حدّثنا محمد بن بشّار قال حدّثنا معاذ بن هشام فذكره وقال فيه: حسن غريب. قال الترمذي أبو عبد الله: الخُوان هو شيء محدث فعلته الأعاجم، وما كانت العرب لتمتهنها، وكانوا يأكلون على السُّفر واحدها سفرة وهي التي تتخذ من الجلود ولها معاليق تنضم وتنفرج، فبالإنفراج سُميت سُفرة، لأنها إذا حُلَّت معاليقها انفرجت فأسفرت عما فيها فقيل لها السُّفرة. وإنما سمي السَّفَر سَفَراً لإسفار الرجل بنفسه عن البيوت. وقوله: ولا في سُكُرُّجة؛ لأنها أوعية الأصباغ، وإنما الأصباغ للألوان ولم تكن من سماتهم الألوان، وإنما كان طعامهم الثَّريد عليه مقطّعات اللحم. وكان يقول: «انهسوا اللحم نهساً فإنه أشهى وأمرأ». فإن قيل: فقد جاء ذكر المائدة في الأحاديث؛ من ذلك حديث ابن عباس قال: لو كان الضَّب حراماً ما أكل على مائدة النبي ﷺ، خرّجه مسلم وغيره. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت قال رسول الله ﷺ: «تُصلي الملائكة على الرجل ما دامت مائدته موضوعة» خرجه الثّقات؛ قيل له: المائدة كل شيء يمدُّ ويبسط مثل المنديل والثوب، وكان من حقه أن تكون مادة الدالة مضعّفة فجعلوا إحدى الدالين ياء فقيل مائدة، والفعل واقع به فكان ينبغي أن تكون ممدودة، ولكن خرجت في اللغة مخرج فاعل كما قالوا: سِرٌّ كاتم وهو مكتوم، وعيشة راضية وهي مرضية، وكذلك خرج في اللغة ما هو فاعل على مخرج مفعول فقالوا: رجل مشؤوم، وإنما هو شائم، وحجاب مستور وإنما هو ساتر، فالخُوان هو المرتفع عن الأرض بقوائمه، والمائدة ما مُدّ وبُسط، والسُّفرة ما أسفر عما في جوفه، وذلك أنها مضمومة بمعاليقها. وعن الحسن قال: الأكل على الخُوان فعل الملوك، وعلى المنديل فعل العجم، وعلى السُّفرة فعل العرب وهو السنة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. اختلف في وقت هذه المقالة؛ فقال قتادة وابن جُريج وأكثر المفسرين: إنما يقول له هذا يوم القيامة. وقال السُّدى وقطرُب. قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصارى فيه ما قالت، واحتجوا بقوله: «إن تعذبهم فإنهم عبادك» فإنّ «إذ» في كلام العرب لما مضى. والأول أصح؛ يدل عليه ما قبله من قوله: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] وما بعده ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾. وعلى هذا تكون «إذ» كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ

﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾ [سبأ: ٥١] أي إذا فزعوا. وقال أبو النجم:

ثـم جـزاه اللـه عنّـي إذ جَـزَى
جنّـاتِ عَـدْنٍ فـي السّمـوات العُلـى

يعني إذا جزى. وقال الأسود بن جعفر الأزديّ:

فـالآن إذْ هـازلتُهـنّ فـإنّمـا
يقلْـن ألا لـم يـذهـب الشّيـخ مَـذهبـا

يعني إذا هازلتهنّ، فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي، لأنه لتحقيق أمره، وظهور برهانه، كأنه قد وقع. وفي التنزيل ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الاعراف: ٤٤] ومثله كثير وقد تقدم. واختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال ـ وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام ـ على قولين: أحدهما ـ أنه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في التوبيخ والتقريع. الثاني ـ قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيّروا بعده، وادّعوا عليه ما لم يقله. فإن قيل: فالنصارى لم يتخذوا مريم إلهاً فكيف قال ذلك فيهم؟ فقيل: لما كان من قولهم أنها لم تَلِد بشراً وإنما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته، فصاروا حين لزمهم ذلك بمثابة القائلين له.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ خرّج الترمذيّ عن أبي هريرة قال تلقّى عيسى حجّته ولقّاه الله في قوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «فلقّاه الله» ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ الآية كلها. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين؛ أحدهما ـ تنزيهاً له عما أضيف إليه. الثاني ـ خضوعاً لعزته، وخوفاً من سَطْوته. ويقال: إن الله تعالى لما قال لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ أخذته الرّعدة من ذلك القـول حتـى سمـع صـوت عظـامـه فـي نفسـه فقـال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ أي أن أدعى لنفسي ما ليس من حقها، يعني أنني مربوب ولست بربّ، وعابد ولست بمعبود. ثم قال: ﴿إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ﴾ فردّ ذلك إلى علمه، وقد كان الله عالماً به أنه لم يقله، ولكنه سأله عنه تقريعاً لمن اتخذ عيسى إلهاً. ثم قال: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ﴾ أي تعلم ما في غَيْبي ولا أعلم ما في غَيْبك. وقيل: المعنى تعلم ما أعلم ما تُريد. وقيل: تعلم سِرّي ولا أعلم سِرّك، لأن السرّ موضعه النفس. وقيل: تعلم ما كان مني في دار الدنيا، ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة.

قلت: والمعنى في هذه الأقوال متقارب؛ أي تعلم سرّي وما انطوى عليه ضميري الذي خلقته، ولا أعلم شيئاً مما استأثرت به من غَيْبك وعلمك. ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون، وما لم يكن وما هو كائن.

قوله تعالى: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ يعني في الدنيا بالتوحيد. ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ «أنْ» لا موضع لها من الإعراب وهي مفسرة مثل ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ [ص: ٦]. ويجـوز أن تكـون فـي مـوضـع نصـب؛ أي مـا ذكرت لهم إلا عبادة الله. ويجوز أن تكون في موضع خفـض؛ أي بـأن اعبـدوا الله؛ وضـم النـون أولـى؛ لأنهـم يستثقلون كسرة بعدها ضمة، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أي حفيظاً بما أمرتهم. ﴿مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ﴾ «ما» في موضع نصب أي وقت دوامي فيهم. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ قيل: هذا يدل على أن الله عزّ وجلّ توفاه قبل أن يرفعه؛ وليس بشيء؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه في السماء حيّ، وأنه ينزل ويقتل الدَّجال ـ على ما يأتي بيانه ـ وإنما المعنى فلما رفعتني إلى السماء. قال الحسن: الوفاة في كتاب الله عزّ وجلّ على ثلاثة أوجه؛ وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] يعني وقت انقضاء أجلهـا، ووفـاة النـوم؛ قـال الله تعـالـى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الانعـام: ٦٠] يعنـي الـذي ينيمكـم. ووفاة الرفع، قال الله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]. «أنت» توكيد «الرَّقيبَ» خبر «كنت» ومعناه الحافظ عليهم، والعالم بهم؛ والشاهد على أفعالهم؛

وأصله المراقبة أي المراعاة، ومنه المرقبة لأنها في موضع الرقيب من علوّ المكان. ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي من مقالتي ومقالتهم. وقيل: على من عصى وأطاع؛ خرّج مسلم... عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله [حفاة] عُراةً غُرلاً كما بدأنا أوّل خَلْق نُعيده وعداً علينا إنّا كنا فاعلين ألا وإن أوّل الخلائق يُكسَى يومَ القيامة إبراهيمُ ـ عليه السلام ـ ألا وإنه سيُجاءُ برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذاتَ الشمال فأقول يا ربّ أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ قال: «فيقال لي إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»...

أبو حيان الأندلسي ج ٤ ص ٥٠ ـ ٦٥

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ يحتمل أن يكون إذ بدلاً من قوله يوم يجمع الله الرّسل والمعنى أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وبتعدد ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام فكذبوهم وأسموهم سحرة وجاوز واحد التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة كما قال بعض بني إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى من البينات هذا سحر مبين واتخذه بعضهم وأمه إلهين قاله الزمخشري. وقال ابن عطية يحتمل أن يكون العامل في إذ مضمراً تقديره اذكر يا محمد إذ وقال هنا بمعنى يقول لأن الظاهر من هذا القول إنه في القيامة تقدمة لقوله أأنت قلت للناس ويحتمل أن يكون إذ بدلاً من قوله يوم يجمع الله انتهى وجوّزوا أن يكون إذ في موضع خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك إذ قال الله وإذا كان المنادى علماً مفرداً ظاهر الضمة موصوفاً بابن متصل مضاف إلى علم جاز فتحه اتباعاً لفتحة ابن هذا مذهب الجمهور وأجاز الفرّاء وتبعه أبو البقاء في ما لا تظهر فيه الضمة تقدير الضمة والفتحة فإن لم تجعل ابن مريم صفة وجعلته بدلاً أو منادى فلا يجوز في ذلك العلم إلا الضم وقد خلط بعض المفسرين وبعض من ينتمي إلى النحو هنا فقال بعض المفسرين يجوز أن يكون عيسى في محل الرفع لأنه منادى معرفة غير مضاف ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه في نية الإضافة ثم جعل الابن توكيداً وكل ما كان مثل هذا جاز فيه الوجهان نحو يا زيد بن عمرو وأنشد النحويون

يا حكم بن المنذر بن الجارود
أنت الجواد بن الجواد بن الجود

قال التبريزي الأظهر عندي أن موضع عيسى نصب لأنك تجعل الاسم مع نعته إذا أضفته إلى العلم كالشيء الواحد المضاف انتهى. والذي ذكره النحويون في نحو يا زيد بن بكر إذ فتحت آخر المنادى أنها حركة اتباع لحركة نون ابن ولم يعتد بسكون باء ابن لأن الساكن حاجز غير حصين قالوا ويحتمل أن يراد بالذكر هنا الإقرار وأن يراد به الإعلام وفائدة هذا الذكر اسماع الأمم ما خصه به تعالى من الكرامة وتأكيد حجته على جاحده. وقيل أمر بالذكر تنبيهاً لغيره على معرفة حق النعمة ووجوب شكر المنعم. قال الحسن ذكر النعمة شكرها والنعمة هنا جنس ويدل على ذلك ما عدّده بعد هذا التوحيد اللفظي من النعم وأضافها إليه تنبيهاً على عظمها ونعمه عليه قد عددها هنا وفي البقرة وآل عمران ومريم وفي مواضع من القرآن ونعمته على أمه براءتها مما نسب إليها وتكفيلها لزكريا وتقبلها بقبول حسن وما ذكر في سورة التحريم ومريم ابنة عمران إلى آخره وغير ذلك وأمر بذكر نعمة أمه لأنها نعمة صائرة إليه ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الياء. وقرأ مجاهد وابن محيصن أيدتك على أفعلتك. وقال ابن عطية على وزن فاعلتك ثم قال ويظهر أن الأصل في القراءتين أيدتك على وزن أفعلتك ثم اختلف الإعلال والمعنى فيهما أيدتك من الأيد. وقال عبد المطلب:

الحمد لله الأعز الأكرم
أيدنا يوم زحوف الأشرم

انتهى، والذي يظهر أن أيد في قراءة الجمهور ليس

وزنه أفعل لمجيء المضارع على يؤيد فالوزن فعل ولو كان أفعل لكان المضارع يؤيد كمضارع آمن يؤمن وأما من قرأ آيد فيحتاج إلى نقل مضارعه من كلام العرب فإن كان يؤايد فهو فاعل وإن كان يؤيد فهو أفعل وأما قول ابن عطية إنه في القراءتين يظهر أن وزنه أفعلتك ثم اختلف الإعلال فلا أفهم ما أراد وتقدم تفسير نظير هذه الجملة في قوله وأيدناه بروح القدس ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ﴾ تقدم تفسير نظير هذه الجمل والقراآت التي فيها والإعراب وما لم يتقدم ذكره نذكره فنقول جاء هناك كهيئة الطير فتنفخ فيها فتكون. وقرأ ابن عباس فتنفخها فتكون. وقرأ الجمهور فتكون بالتاء من فوق. وقرأ عيسى بن عمر فيها فيكون بالياء من تحت والضمير في فيها قال ابن عطية اضطرب المفسرون فيه قال مكي هو في آل عمران عائد على الطائر وفي المائدة عائد على الهيئة قال ويصبح عكس هذا وقال غيره الضمير المذكور عائد على الطين. قال ابن عطية ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطين ولا على الهيئة لأن الطير أو الطائر الذي يجيء الطير على هيئته لا نفخ فيه البتة وكذلك لأنفخ في هيئته الخاصة به وكذلك الطين إنما هو الطين العام ولأنفخ في ذلك انتهى. وقال الزمخشري ولا يرجع بعض الضمير إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخة في شيء وكذلك الضمير في يكون انتهى والذي ينبغي أن يحمل عليه كلام مكي أنه لا يريد به ما فهم عنه بل يكون قوله عائداً على الطائر لا يريد به الطائر المضاف إليه الهيئة بل الطائر الذي صوره عيسى ويكون التقدير وإذ يخلق من الطين طائراً صورة مثل صورة الطائر الحقيقي فينفخ فيه فيكون طائراً حقيقة بإذن الله ويكون قوله عائداً على الهيئة لا يريد به الهيئة المضافة إلى الطائر بل الهيئة التي تكون الكاف صفة لها ويكون التقدير وإذ تخلق من الطين هيئة مثل هيئة الطير فتنفخ فيها أي في الهيئة الموصوفة بالكاف المنسوب خلقها إلى عيسى وأما قول مكي ويصح عكس هذا وهو أن يكون الضمير المذكر عائداً على الهيئة والضمير المؤنث عائداً على الطائر فيمكن تخريجه على أنه ذكر الضمير وإن كان عائداً على مؤنث لأنه لحظ فيها معنى الشكل كأنه قدر هيئة كهيئة الطير بقوله شكلاً كهيئة الطير وأنه أنث الضمير وإن كان عائداً على مذكر لأنه لحظ فيه معنى الهيئة. قال ابن عطية والوجه عود ضمير المؤنث على ما تقتضيه الآية ضرورة أي صوراً أو أشكالاً أو أجساماً وعود الضمير المذكر على المخلوق الذي يقضتيه تخلق ثم قال ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف في معنى المثل لأن المعنى وإذ تخلق من الذين مثل هيئة ولك أن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيكون اسماً في غير الشعر فهو قول أبي الحسن وحده من البصريين وكذا قال الزمخشري أن الضمير في فيها للكاف. قال لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها وجاء في آل عمران بإذن الله مرتين وجاء هنا بإذني أربع مرّات عقيب أربع جمل لأن هذا موضع ذكر النعمة والامتنان بها فناسب الإسهاب وهناك موضع إخبار لبني إسرائيل فناسب الإيجاز والتقدير وإذ تخرج الموتى تحيي الموتى فعبر بالإخراج عن الإحياء كقوله تعالى كذلك الخروج بعد قوله وأحيينا به بلدة ميتاً أو يكون التقدير وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي منعتهم من قتلك حين همّوا بك وأحاطوا بالبيت الذي أنت فيه. وقال عبيد بن عمير لما قال الله لعيسى اذكر نعمتي عليك كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يؤخر شيئاً لغد ويقول مع كل يوم رزقه لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أين ما أمسى بات وهذا القول يظهر منه أن عيسى خوطب بذلك قبل الرفع والبينات هنا هي المعجزات التي تقدم ذكرها وظهرت على يديه ولما فصل تعالى نعمته ذكر ذلك منسوباً لعيسى دون أمه لأنه من هذه النعم نعمة النبوة وظهور هذه الخوارق فنعمته عليه أعظم منها على أمه إذ ولدت مثل هذا النبي الكريم. وقال الشاعر فيما يشبه هذا:

شهد العوالم أنها لنفيسة
بدليل ما ولدت من النجباء

﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي ساحر بالألف هنا وفي هود والصف فهذا هنا إشارة إلى عيسى. وقرأ باقي السبعة فهذا إشارة إلى ما جاء به عيسى من البينات ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي أوحيت إليهم على ألسنة الرسل. وقال ابن عطية إما أن يكون وحي إلهام أو وحي أمر والرسول هنا هو عيسى وهذا الإحياء إلى الحواريين هو من نعم الله على عيسى بأن جعل له أتباعاً يصدقونه ويعملون بما جاء به ويحتمل أن تكون تفسيرية لأنه تقدّمها جملة في معنى القول وأن تكون مصدرية ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ تقدم تفسير نظير هذه الجملة في آل عمران إلا أن هناك رمنا بالله لأنه تقدم ذكر الله فقط في قوله من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وهنا جاء قالوا آمنا فلم يتقيد بلفظ الجلالة إذ قد تقدم أن آمنوا بي وبرسولي وجاء هناك واشهد بأنا وهنا واشهد بأننا وهذا هو الأصل إذ أن محذوف منه النون لاجتماع الأمثال ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عطية إذ قال الحواريون اعتراض لما وصف حال قول الله لعيسى يوم القيامة وتضمن الاعتراض إخبار محمد ﷺ وأمته بنازلة الحواريين في المائدة إذ هي مثال نافع لكل أمة مع نبيها انتهى. والذي يقتضيه ظاهر اللفظ أن قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك إلى آخر قصة المائدة كان في ذلك في الدنيا ذكر عيسى بنعمه وبما أجراه على يديه من المعجزات وباختلاف بني إسرائيل عليه وانقسامهم إلى كافر ومؤمن وهم الحواريون ثم استطرد إلى قصة المائدة ثم إلى سؤاله تعالى لعيسى أأنت قلت للناس وإنما حمل بعضهم على أن ذلك في الآخرة كونه اعتقد أن إذ بدلاً من يوم يجمع الله الرسل وأن في آخر الآيات هذا يوم ينفع الصادقين ولا يتعين هذا المجمل على ما نبينه إن شاء الله تعالى في قوله هذا يوم ينفع بل الظاهر ما ذكرناه. وقرأ الجمهور هل يستطيع ربك بالياء وضم الباء وهذا اللفظ يقضتي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزل مائدة من السماء وذلك هو الذي حمل الزمخشري على أن الحواريين لم يكونوا مؤمنين قال (فإن قلت) كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم (قلت) ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه قوله إذ قالوا فآذن أن دعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكّين وقوله هل يستطيع ربك كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ولذلك قول عيسى لهم معناه اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها إن كنتم مؤمنين إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة انتهى. وأما غير الزمخشري من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين حتى قال ابن عطية لا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين. وقال قوم قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى. . .

قال ابن الأنباري لا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكّوا في قدرة الله وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه هل تستطيع أن تقوم معي وهو يعلم أنه مستطيع له ولكنه يريد هل يسهل عليك انتهى. وقال الفارسي معناه هل يفعل ذلك بمسألتك إياه. وقال الحسن لم يشكّوا في قدرة الله وإنما سألوه سؤال مستخبر هل ينزل أم لا فإن كان ينزل فاسأله لنا. قال ابن عطية هل يفعل تعالى هذا وهل يقع منه إجابة إليه كما قال لعبد الله بن زيد هل يستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ فالمعنى هل يحب ذلك وهل يفعله انتهى. وقيل المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك جائز أم لا وذلك لأن أفعاله موقوفة على وجوه الحكمة فإن لم يحصل شيء من وجوه الحكمة كان الفعل ممتنعاً فإن المنافي من وجوه الحكمة كالمنافي من وجوه القدرة. قال أبو عبد الله الرازي هذا الجواب يمشي على قول المعتزلة وأما على مذهبنا فهو محمول على أنه تعالى هل قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقض به ويعلم وقوعه كان ذلك محالاً غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور. وقال أيضاً ليس المقصود من هذا الكلام كونهم شاكّين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك في غاية الظهور

كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول هل يقدر السلطان على إشباع هذا ويكون غرضه منه أن ذلك أمر واضح لا يجوز للعاقل أن يشك فيه وأبعد من قال هل ينزل ربك مائدة من السماء ويستطيع صلة ومن قال الرب هنا جبريل لأنه كان يربي عيسى ويخصه بأنواع الإعانة ولذلك قال في أول الآية إذ أيدتك بروح القدس وروي أن الذي نحا بهم هذا المنحى من الاقتراح هو أن عيسى قال لهم مرة هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله تعالى ثم إن سألتموه حاجة قضاها فلما صاموها قالوا يا معلم الخير إن حق من عمل عملاً أن يطعم فهل يستطيع ربك فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم.

وقرأ الكسائي هل تستطيع ربك بالتاء من فوق ربك بنصب الباء وهي قراءة عليّ ومعاذ وابن عباس وعائشة وابن جبير قالت عائشة كان الحواريون أعرف بالله من أن يقولوا هل يستطيع ربك نزهتهم عن بشاعة اللفظ وعن مرادهم ظاهره وقد ذكرنا تأويلات ذلك ومعنى هذه القراءة هل تستطيع سؤال ربك وأن ينزل معمول لسؤال المحذوف إذ هو حذف لا يتم المعنى إلا به. وقال أبو عليّ وقد يمكن أن يستغني عن تقدير سؤال على أن يكون المعنى هل تستطيع أن ينزل ربك بدعائك فيؤول المعنى ولا بد إلى مقدر يدل عليه ما ذكر من اللفظ انتهى ولا يظهر ما قال أبو عليّ لأن فعل الله تعالى وإن كان سببه الدعاء لا يكون مقدوراً لعيسى أدغم الكسائي لام هل في ياء يستطيع وعلى هذه القراءة يكون قول عيسى اتقوا الله إن كنتم مؤمنين لم ينكر عليه الاقتراح للآيات وهو على كلتا القراءتين يكون قوله إن كنتم مؤمنين تقريراً للإيمان كما تقول افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً. وقال مقاتل وجماعة اتقوه إن تسألوه البلاء لأنها إن نزلت وكذبتم عذبتم. وقال أبو عبيد وجماعة إن تسألوه ما لم تسأله الأمم قبلكم. وقيل إن تشكّوا في قدرته على إنزال المائدة. وقيل اتقوا الله في الشك فيه وفي رسله وآياتهم. وقيل اتقوا معاصي الله. وقيل أمرهم بالتقوى ليكون سبباً لحصول هذا المطلوب كما قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. وقال الزمخشري هنا عيسى في محل النصب على اتباع حركته حركة الابن كقولك يا زيد بن عمرو وهي اللغة الفاشية ويجوز أن يكون مضموماً كقولك يا زيد بن عمرو والدليل عليه قوله. أحار ابن عمر كأني خمر. لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم انتهى. فقوله عيسى في محل النصب على هذا التقدير وعلى تقدير ضمه فهو لا اختصاص له بكونه في محل النصب على تقدير الاتباع فاصلاحه عيسى مقدر فيه الفتحة على اتباع الحركة وقوله ويجوز أن يكون مضموماً هذا مذهب الفراء وهو تقدير الفتح والضم ونحوه مما لا تظهر فيه الضمة قياساً على الصحيح ولم يبدأ أولاً بالضم الذي هو مجمع على تقديره فليس بشرط ألا ترى إلى جواز ترخيم رجل اسمه مثنى فتقول يا مثن أقبل وإلى ترخيم بعلبك وهو مبني على الفتح لكنه في تقدير الاسم المضموم وإن عنى ضمة مقدرة فإن عنى ضمة ظاهرة فليس بشرط ألا ترى إلى جواز ترخيم رجل اسمه مثنى فتقول يا مثن فإن مثل يا جعفر بن زيد مما فتح فيه آخر المنادى لأجل الاتباع مقدّر فيه الضمة لشغل الحرف بحركة الاتباع كما قدر الإعرابي في قراءة من قرأ الحمد لله بكسر الدال لأجل اتباع حركة الله فقولك يا جار هو مضموم تقديراً وإن كانت الثاء المحذوفة مشغولة في الأصل بحركة الاتباع وهي الفتحة فلا تنافي بين الترخيم وبين ما فتح اتباعاً وقدرت فيه الضمة وكان ينبغي للزمخشري أن يتكلم على هذه المسألة قبلُ هذا في قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك حيث تكلم الناس عليها. . . .

وكينونتهم من المشاهدين بهذه الآية الناقلين لها إلى غيرهم القائمين بهذا الشرع أو من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوّة وقد طول بعض المفسرين في تفسير متعلق إرادتهم بهذه الأشياء وملخصها أنهم أرادوا الأكل للحاجة وشدة الجوع. قال ابن عباس وكان إذا خرج أتبعه خمسة آلاف أو أكثر من صاحب له وذي علة يطلب البرء ومستهزىء فوقعوا يوماً في مفازة ولا زاد فجاعوا وسألوا من الحواريين أن يسألوا عيسى نزول مائدة من السماء فذكر شمعون لعيسى ذلك فقال قل لهم اتقوا الله وأرادوا الأكل ليزدادوا إيماناً. قال ابن الأنباري أو التشريف

بالمائدة ذكره الماوردي والاطمئنان إما بأن الله قد بعثك إلينا أو اختارنا أعواناً لك أو قد أجابك أو العلم بالصدق في إنا إذا صمنا لله تعالى ثلاثين يوماً لم نسأل الله شيئاً إلا أعطانا أو في أنك رسول حقاً إذ المعجز دليل الصدق وكانوا قبل ذلك لم يروا الآيات أو يراد بالعلم الضروري والمشاهدة انتهى. وأتت هذه المعاطيف مرتبة ترتيباً لطيفاً وذلك أنهم لا يأكلون منها إلا بعد معاينة نزولها فيجتمع على العلم بها حاسة الرؤية وحاسة الذوق فبذلك يزول عن القلب قلق الاضطراب ويسكن إلى ما عاينه الإنسان وذاقه وباطمئنان القلب يحصل العلم الضروري بصدق من كانت المعجزة على يديه إذ جاءت طبق ما سأل وسألوا هذا المعجز العظيم لأن تأثيره في العالم العلوي بدعاء من هو في العالم الأرضي أقوى وأغرب من تأثير من هو في العالم الأرضي في عالمه الأرضي ألا ترى أن من أعظم معجزات رسول الله ﷺ القرآن وانشقاق القمر وهما من العالم العلوي وإذا حصل عندهم العلم الضروري بصدق عيسى شهدوا شهادة يقين لا يختلج بها ظن ولا شك ولا وهم وبذكرهم هذه الأسباب الحاملة على طلب المائدة يترجح قول من قال كان سؤالهم ذلك قبل علمهم بآيات عيسى ومعجزاته وإن وحي الله إليهم بالإيمان كان في صدر الأمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأوا الآيات واستمروا واصبروا. وقرأ ابن جبير ونعلم بضم النون مبنياً للمفعول وهكذا في كتاب التحرير والتحبير وفي كتاب ابن عطية. وقرأ سعيد بن جبير ويعلم بالياء المضمومة والضمير عائد على القلوب وفي كتاب الزمخشري ويعلم بالياء على البناء للمفعول. وقرأ الأعمش وتعلم بالتاء أي وتعلمه قلوبنا. وقرأ الجمهور ونكون بالنون وفي كتاب التحرير والتحبير. وقرأ سنان وعيسى وتكون عليها بالتاء وفي الزمخشري وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم للإيمان والإخلاص وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا انتهى. وإنما قال ذلك لأنه ليس عنده الحواريون مؤمنين وإذا ولى أن المخففة من الثقيلة فعل متصرف عن دعاء فإن كان ماضياً فصل بينهما بقد نحو قوله ونعلم أن قد صدقتنا وإن كان مضارعاً فصل بينهما بحرف تنفيس كقوله علم أن سيكون منكم مرضى ولا يقع بغير فصل قيل إلا قليلاً. وقيل إلا ضرورة فيما تتعلق به عليها التي تقدمت في نحو إني لكما لمن الناصحين. وقال الزمخشري عاكفين عليها على أن عليها في موضع الحال انتهى. وهذا التقدير ليس بجيد لأن حرف الجر لا يحذف عامله وجوباً إلا إذا كان كوناً مطلقاً لا كوناً مقيداً والعكوف كون مقيد ولأن المجرور إذا كان في موضع الحال كان العامل فيها عاكفين المقدر وقد ذكرنا أنه ليس بجيد ثم أن قول الزمخشري مضطرب لأن عليها إذا كان ما يتعلق به هو عاكفين كانت في موضع نصب على المفعول الذي تعدى إليه العامل بحرف الجر وإذا كانت في موضع الحال كان العامل فيها كوناً مطلقاً واجب الحذف فظهر التنافي بينهما ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ روي أن عيسى لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويبكي ويدعو وتقدّم الكلام على لفظة اللهم في آل عمران ونادى ربه أولاً بالعلم الذي لا شركة فيه ثم ثانياً بلفظ ربنا مطابقاً إلى مصلحنا ومربينا ومالكنا. وقرأ الجمهور وتكون لنا على أن الجملة صفة لمائدة. وقرأ عبد الله والأعمش يكن بالجزم على جواب الأمر والمعنى يكن يوم نزولها عيداً وهو يوم الأحد ومن أجل ذلك اتخذه النصارى عيداً. وقيل العيد السرور والفرح ولذلك يقال يوم عيد فالمعنى يكون لنا سروراً وفرحاً والعيد المجتمع لليوم المشهود وعرفه أن يقال في ما يستدير بالسنة أو بالشهر أو بالجمعة ونحوه. وقيل العيد لغة ما عاد إليك من شيء في وقت معلوم سواء كان فرحاً أو ترحاً وغلبت الحقيقة العرفية على الحقيقة اللغوية. وقال الخليل العيد كل يوم يجمع الناس لأنهم عادوا إليه. قال ابن عباس لأولنا لأهل زماننا وآخرنا من يجيء بعدنا. وقيل لأولنا المتقدمين منا والرؤساء وآخرنا يعني الاتباع والأولية والآخرية فاحتملتا الأكل والزمان والرتبة والظاهر الزمان. وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدري لأولانا وأخرانا أنثوا على معنى

الأمة والجماعة والمجرور بدل من قوله لنا وكرر العامل وهو حرف الجر كقوله منها من غم والبدل من ضمير المتكلم والمخاطب إذا كان بدل بعض أو بدل اشتمال جاز بلا خلاف وإن كان بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة فإن أفاد معنى التأكيد جاز لهذا البدل إذ المعنى تكون لنا عيداً كلنا كقولك مررت بكم أكابركم وأصاغركم لأن معنى ذلك مررت بكم كلكم وإن لم تفد توكيداً فمسألة خلاف الأخفش بخير وغيره من البصريين بمنع ومعنى وآية منك علامة شاهدة على صدق عبدك. وقيل حجة ودلالة على كمال قدرتك. وقرأ اليماني وأنه منك والضمير في وأنه إما للعيد أو الإنزال. وارزقنا قيل المائدة. وقيل الشكر لنعمتك وأنت خير الرازقين لأنك الغني الحميد تبتدىء بالرزق. قال أبو عبد الله الرازي تأمل هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً فقدموا ذكر الأكل وأخروا الأغراض الدينية الروحانية وعيسى طلب المائدة وذكر أغراضه فقدم الدينية وأخر أغراض الأكل حيث قال وارزقنا وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء وقته وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله وارزقنا لم يقف عليه بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال وأنت خير الرازقين فقوله ربنا ابتداء منه بنداء الحق سبحانه وتعالى وقوله أنزل علينا مائدة انتقال من الذات إلى الصفات وقوله تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة بل من حيث إنها صادرة عن المنعم وقوله وآية منك إشارة إلى حصة النفس وكل ذلك نزل من حضرة الجلال فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون وأنت خير الرازقين هو عروج مرة أخرى من الأخس إلى الأشرف وعند هذا يلوح همه من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها اللهم اجعلنا من أهله وهو كلام دائر بين لفظ فلسفي ولفظ صوفي وكلاهما بعيدة عن كلام العرب ومناحيها ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الظاهر أن المائدة نزلت لأنه تعالى ذكر أنه منزلها وبإنزالها قال الجمهور. قال ابن عطية شرط عليهم شرطه المتعارف في الأمم أنه من كفر بعد آية الاقتراح عذب أشد عذاب. قال الحسن ومجاهد لما سمعوا الشرط أشفقوا فلم تنزل. قال مجاهد فهو مثل ضربه الله للناس لئلا يسألوا هذه الآيات واختلف من قال إنها نزلت هل رفعت بأحداث أحدثوه أم لم ترفع. وقال الأكثرون أكلوا منها أربعين يوماً بكرة وعشية. وقال اسحاق بن عبد الله يأكلون منها متى شاؤوا. وقيل بطروا فكانت تنزل عليهم يوماً بعد يوم. وقال المؤرخون كانت تنزل عند ارتفاع الضحى فيأكلون منها ثم ترتفع إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض واختلفوا في كيفية نزولها وفيما كان عليها وفي عدد من أكل منها وفيما آل إليه حال من أكل منها اختلافاً مضطرباً متعارضاً ذكره المفسرون ضربت عن ذكره صفحاً إذ ليس منه شيء يدل عليه لفظ الآية وأحسن ما يقال فيه ما خرجه الترمذي في أبواب التفسير عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يدخروا لغد ولا يخونوا فخانوا وادّخروا ورفعوا لغد فمسخوا قردة وخنازير. . .

وقيل شكّهم في عيسى وتشكيكهم الناس. وقيل مخالفتهم الأمر بأن لا يخونوا ولا يخبؤا ولا يدخروا قاله قتادة. وقال عمار ابن ياسر لم يتم يومهم حتى خانوا فادّخروا ورفعوا وظاهر العالمين العموم وقيل عالمي زمانهم. ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال أبو عبيدة إذ زائدة وقال غيره بمعنى إذا والظاهر أنها على أصل وضعها وإن ما بعدها من الفعل الماضي قد وقع ولا يؤول بيقول. قال السدي وغيره كان هذا القول من الله تعالى حين رفع عيسى إليه وقالت النصارى ما قالت وادعت أن عيسى أمرهم بذلك واختاره الطبري. وقال ابن عباس وقتادة والجمهور هذا القول من الله تعالى إنما هو يوم القيامة يقول له على رؤوس الخلائق فيعلم الكفار أن ما كانوا عليه باطل فيقع التجوز في استعمال إذ بمعنى إذا والماضي بعده بمعنى المستقبل وفي إيلاء الاستفهام الاسم ومجيء الفعل بعده

دلالة على صدور الفعل في الوجود لكن وقع الاستفهام عن النسبة أكان هذا الفعل الواقع صادراً عن المخاطب أم ليس بصادر عنه بيان ذلك أنك تقول أضربت زيداً فهذا استفهام هل صدر منك ضرب لزيد أم لا ولا إشعار فيه بأن ضرب زيد قد وقع. فإذا قلت أنت ضربت زيداً كان الضرب قد وقع بزيد لكنك استفهمت عن إسناده للمخاطب وهذه مسألة بيانية نص على ذلك أبو الحسن الأخفش وذكر المفسرون أنه لم يقل أحد من النصارى بإلهية مريم فكيف قيل إلهين وأجابوا بأنهم لما قالوا لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا من حيث البعضية بإلهية من ولدته فصاروا بمثابة من قال انتهى. والظاهر صدور هذا القول في الوجود لا من عيسى ولا يلزم من صدور القول وجود الاتخاذ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك. قال ابن عطية من أن يقال هذا وينطق به. وقال الزمخشري من أن يكون لك شريك والظاهر الأول لقوله بعدما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. قال أبو روق لما سمع عيسى هذا المقال ارتعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة عين من دم. فقال عند ذلك مجيباً لله تعالى سبحانك تنزيهاً وتعظيماً لك وبراءة لك من السوء ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا نفي يعضده دليل العقل فيمتنع عقلاً ادعاء بشر محدث الإلهية وبحق خبر ليس لي ليس مستحقاً وأجازوا في لي أن يكون تبييناً وأن يكون صلة صفة لقوله بحق لي تقدم فصار حالاً أي بحق لي ويظهر أنه يتعلق بحق لأن الباء زائدة وحق بمعنى مستحق أي ما ليس مستحقاً وأجاز بعضهم أن يكون الكلام قد تم عند قوله ما ليس لي وجعل بحق متعلقاً بعلمته الذي هو جواب الشرط ورد ذلك بادعاء التقديم والتأخير فيما ظاهره خلاف ذلك ولا يصار إلى التقديم والتأخير إلا لمعنى يقتضي ذلك أو بتوقيف أو فيما لا يمكن فيه إلا ذلك انتهى هذا القول ورده ويمتنع أن يتعلق بعلمه لأنه لا يتقدم على الشرط شيء من معمولات فعل الشرط ولا من معمولات جوابه ووقف نافع وغيره من القراء على قوله بحق وروي ذلك عن النبي ﷺ ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ قال أبو عبد الله الرازي هذا مقام خضوع وتواضع فقدم ناسخ نفي القبول عنه ولم يقل ما قلته بل فوّض ذلك إلى علمه المحيط بالكل وهذه مبالغة في الأدب وفي إظهار الذلة والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمر بالكلية إلى الحق سبحانه انتهى وفيه بعض تلخيص . . .

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ هذا تقرير للجملتين معاً لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه أحد فإذا كنت أنت المختص بعلم الغيب فلا علم لي بالغيب فكيف تكون لي الألوهية وخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فلقال الله سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق الآية كلها قال أبو عيسى حديث حسن صحيح ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أخبر أنه لم يتعد أمر الله في أن أمر بعبادته وأقر بربوبيته وفي قوله ربي وربكم براءة مما ادّعوه فيه وفي الإنجيل قال: يا معاشر بني المعمودية قوموا بنا إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم ومخلصي ومخلصكم. وقال أبو عبد الله الرازي كان الأصل أن يقال ما أمرتهم إلا ما أمرتني به إلا أنه وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب. وقال الحسن إنما عدل لئلا يجعل نفسه وربه آمرين معاً ودل على أن الأصل ما ذكر أن المفسرة انتهى. قال الحوفي وابن عطية وإن في أن اعبدوا مفسرة لا موضع لها من الإعراب ويصح أن يكون بدلاً من ما وصح أن يكون بدلاً من الضمير في به زاد ابن عطية أنه يصح أن يكون في محل خفض على تقدير بأن اعبدوا وأجاز أبو البقاء الجر على البدل من الهاء والرفع على إضمار هو والنصب على إضمار أعني أو بدلاً من موضع به.

قال ولا يجوز أن تكون بمعنى أن المفسرة لأن القول قد صرّح به وأن لا تكون مع التصريح بالقول. وقال الزمخشري إن في قوله أن اعبدوا الله إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر والمفسر إما فعل القول وإما فعل الأمر وكلاهما لا وجه له أما فعل القول فيحكى بعده الكلام من غير أن يوسط بينهما حرف التفسير لا تقول ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله ربي وربكم ولكن ما قلت لهم إلا اعبدوا الله وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله تعالى فلو فسرته باعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم لأن الله لا

يقول اعبدوا الله ربي وربكم وإن جعلتها موصولة بالفعل لم يخل من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به أو من الهاء في به وكلاهما غير مستقيم لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه ولا يقال ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء لأنك لو أقمت أن اعبدوا الله لم يصح لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته (فإن قلت) فكيف تصنع (قلت) يحمل فعل القول على معناه لأن معنى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم ويجوز أن تكون موصولة عطفاً على بيان الهاء لا بدلاً انتهى. وفيه بعض تلخيص أما قوله وأما فعل الأمر إلى آخر المنع وقوله لأن الله تعالى لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم فإنما لم يستقم لأنه جعل الجملة وما بعدها مضمومة إلى فعل الأمر ويستقيم أن يكون فعل الأمر مفسراً بقوله اعبدوا الله ويكون ربي وربكم من كلام عيسى على إضمار أعني أي أعني ربي وربكم لا على الصفة التي فهمها الزمخشري فلم يستقم ذلك عنده وأما قوله لأن العبادة لا تقال فصحيح لكن ذلك يصح على حذف مضاف أي ما قلت لهم إلا القول الذي أمرتني به قول عبادة الله أي القول المتضمن عبادة الله وأما قوله لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته فلا يلزم في كل بدل أن يحل محل المبدل منه ألا ترى إلى تجويز النحويين زيد مررت به أبي عبد الله ولو قلت زيد مررت بأبي عبد الله لم يجز ذلك عندهم إلا على رأي الأخفش وأما قوله عطفاً على بيان الهاء فهذا فيه بعد لأن عطف البيان أكثره الجوامد الإعلام وما اختاره الزمخشري وجوّزه غيره من كون أن مفسرة لا يصح لأنها جاءت بعد إلا وكل ما كان بعد إلا المستثنى بها فلا بد أن يكون له موضع من الإعراب وأن التفسيرية لا موضع لها من الإعراب وانظر إلى ما تضمنت محاورة عيسى وجوابه مع الله تعالى لما قرع سمعه ما لا يمكن أن يكون نزه الله تعالى وبرأه من السوء ومن أن يكون معه شريك ثم أخبر عن نفسه إنه لا يمكن أن يقول ما ليس له بحق فأتى بنفي لفظ عام وهو لفظ ما المندرج تحته كل قول ليس بحق حتى هذا القول المعين ثم تبرأ تبرؤاً ثالثاً وهو إحالة ذلك على علمه تعالى وتفويض ذلك إليه وعيسى يعلم أنه ما قاله ثم لما أحال على العلم أثبت علم الله به ونفى علمه بما هو لله وفيه إشارة إلى أنه لا يمكن أن يهجس ذلك في خاطري فضلاً عن أن أفوه به وأقوله فصار مجموع ذلك نفي هذا القول ونفي أن يهجس في النفس ثم علل ذلك بأنه تعالى مستأثر بعلم الغيب ثم لما نزه الله تعالى وانتفى عنه قول ذلك وأن يخطر ذلك في نفسه انتقل إلى ما قاله لهم فأتى به محصوراً بالا معذوقاً بأنه هو الذي أمره الله به أن يبلغهم عنه ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي رقيباً كالشاهد على المشهود عليه أمنعهم من قول ذلك وأن يتدينوا به وأتى بصيغة فعيل للمبالغة كثير الحفظ عليهم والملازمة لهم وما ظرفية ودام تامّة أي ما بقيت فيهم أي شهيداً في الدنيا ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ قيل هذا يدل على أنه توفاه وفاة الموت قبل أن يرفعه وليس بشيء لأن الأخبار تظافرت برفعه حياً وأنه في السماء حيّ وأنه ينزل ويقتل الدجال ومعنى توفيتني قبضتني إليك بالرفع. وقال الحسن الوفاة وفاة الموت ووفاة النوم ووفاة الرفع. وقال الزمخشري ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة وأنزلت عليهم من البينات وأرسلت إليهم الرسل انتهى وفيه دسيسة الاعتزال. . .

﴿ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ قرأ الجمهور هذا يوم بالرفع على أن هذا مبتدأ ويوم خبره والجملة محكية بقال وهي في موضع المفعول به لقال أي هذا الوقت وقت نفع الصادقين وفيه إشارة إلى صدق عيسى عليه السلام. وقرأ نافع هذا يوم بفتح الميم وخرّجه الكوفيون على أنه مبني خبر لهذا وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إلى الجملة فعلى قولهم تتحد القراءتان في المعنى. وقال البصريون شرط هذا البناء إذا أضيف الظرف إلى الجملة الفعلية أن يكون مصدراً بفعل مبني لأنه لا يسري إليه البناء إلا من المبني الذي أضيف إليه والمسألة مقررة في علم النحو فعلى قول البصريين هو معرب لا

مبني وخرج نصبه على وجهين ذكرهما الزمخشري وغيره أحدهما أن يكون ظرفاً لقال وهذا إشارة إلى المصدر فيكون منصوباً على المصدرية أي قال الله هذا القول أو إشارة إلى الخبر أو القصص كقولك قال زيد شعراً أو قال زيد خطبة فيكون إشارة إلى مضمون الجملة واختلف في نصبه أهو على المصدرية أو ينتصب مفعولاً به فعلى هذا الخلاف ينتصب إذا كان إشارة إلى الخبر أو القصص نصب المصدر أو نصب المفعول به. قال ابن عطية وانتصابه على الظرف وتقديره قال الله هذا القصص أو الخبر يوم ينفع معنى يزيل وصف الآية وبهاء اللفظ والمعنى والوجه الثاني أن يكون ظرفاً خبر هذا وهذا مرفوع على الابتداء والتقدير هذا الذي ذكرناه من كلام عيسى واقع يوم ينفع ويكون هذا يوم ينفع جملة محكية بقال.

قال الزمخشري وقرأ الأعمش يوماً ينفع بالتنوين كقوله واتقوا يوماً لا تجزى. وقال ابن عطية وقرأ الحسن بن عياش الشامي هذا يوم بالرفع والتنوين. وقرأ الجمهور صدقهم بالرفع فاعل ينفع وقريء بالنصب وخرج على أنه مفعول له أي لصدقهم أو على إسقاط حرف الجر أي بصدقهم أو مصدر مؤكد أي الذين يصدقون صدقهم أو مفعول به أي يصدقون الصدق كما تقول صدقته القتال والمعنى يحققون الصدق. قال الزمخشري (فإن قلت) أن أريد صدقهم في الآخرة فليست بدار عمل وإن أريد في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة (قلت) معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم انتهى. وهذا بناء على قول من قال إن هذا القول يكون من الله تعالى في الآخرة وقد اتبع الزمخشري الزجاج في قوله هذا حقيقته الحكاية ومعنى ينفع الصادقين صدقهم الذي كان في الدنيا ينفعهم في القيامة لأن الآخرة ليست بدار عمل ولا ينفع أحداً فيها ما قال وإن حسن ولو صدق الكافر وأقر بما عمل فقال كفرت وأسأت ما نفعه وإنما الصادق الذي ينفعه صدقه الذي كان فيه في الدنيا والآخرة انتهى. والظاهر أنه ابتداء كلام من الله تعالى. وقال السدي هذا فصل من كلام عيسى عليه السلام أي يقول عيسى يوم القيامة قال الله تعالى واختلف في هذا اليوم فقيل يوم القيامة كما ذكرناه وخص بالذكر لأنه يوم الجزاء الذي فيه تجني ثمرات الصدق الدائمة الكاملة وإلا فالصدق ينفع في كل يوم وكل وقت. وقيل هو يوم من أيام الدنيا فإن العمل لا ينفع إلا إذا كان في الدنيا والصادقون هنا النبيون وصدقهم تبليغهم أو المؤمنون وصدقهم إخلاصهم في إيمانهم أو صدق عهودهم أو صدقهم في العمل لله تعالى أو صدقهم تركهم الكذب على الله وعلى رسله أو صدقهم في الآخرة في الشهادة مكذبين لأنبيائك وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز القوي على الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب (فإن قلت) المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال وإن تغفر لهم (قلت) ما قال إنك تغفر لهم ولكنه بنى الكلام على أن يقال إن عذبتهم عدلت لأنهم أحقاء بالعذاب وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن وهذا من الزمخشري ميل إلى مذهب أهل السنة فإن غفران الكفر جائز عندهم وعند جمهور البصريين من المعتزلة عقلاً قالوا لأن العقاب حق لله على الذنب وفي إسقاطه منفعة وليس في إسقاطه على الله مضرة فوجب أن يكون حسناً ودل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام انتهى كلام جمهور البصريين من المعتزلة. وقال أهل السنة مقصود عيسى تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك الاعتراض بالكلية ولذلك ختم الكلام بقوله فإنك أنت العزيز الحكيم أي قادر على ما تريد في كل ما تفعل لا اعتراض عليك. وقيل لما قال لعيسى أأنت قلت للناس الآية علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه والحاكي هذا الكفر لا يكون كافراً بل مذنباً حيث كذب وغفران الذنب جائز فلهذا قال وإن تغفر لهم. وقيل كان عند عيسى أنهم أحدثوا المعاصي وعملوا بعده بما لم يأمرهم به إلا أنهم على عمود دينه فقال وأن تغفر لهم ما أحدثوا بعدي من المعاصي وهذا يتوجه على قول من قال إن قول الله له أأنت قلت للناس كان وقت الرفع لأنه قال ذلك وهم أحياء لا يدري ما يموتون عليه. وقيل الضمير

في تعذبهم عائدة على من مات كافراً وفي أن تغفر لهم عائدة على من تاب منهم قبل الموت. وقيل قال ذلك على وجه الاستعطاف لهم والرأفة بهم مع علمه بأن الكفار لا يغفر لهم ولهذا لم يقل لأنهم عصوك انتهى. وهذا فيه بعد لأن الاستعطاف لا يحسن إلا لمن يرجى له العفو والتخفيف والكفار لا يرجى لهم ذلك والذي اختاره من هذه الأقوال أن قوله تعالى وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس قول قد صدر ومعنى يعطفه على ما صدر ومضى ومجيئه بإذ التي هي ظرف لما مضى ويقال التي هي حقيقة في الماضي فجميع ما جاء في هذه الآيات من إذ قال هو محمول على أصل وضعه وإذا كان كذلك فقول عيسى وأن تغفر لهم فعبر بالسبب عن المسبب لأنه معلوم وأن الغفران مرتب على التوبة وإذا كان هذا القول في غير وقت الآخرة كانوا في معرض أن يرد فيهم التعذيب أو المغفرة الناشئة عن التوبة وظاهر قوله فإنك أنت العزيز الحكيم أنه جواب الشرط والمعنى فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده الحكيم فيما تفعله تضل من تشاء وتهدي من تشاء وقرأت جماعة فإنك أنت الغفور الرحيم على ما يقتضيه قوله وأن تغفر لهم قال عياض بن موسى وليست من المصحف. وقال أبو بكر بن الأنباري وقد طعن على القرآن من قال إن قوله فإنك أنت العزيز الحكيم لا يناسب قوله وأن تغفر لهم لأن المناسب فإنك أنت الغفور الرحيم. والجواب أنه لا يحتمل إلا ما أنزله الله تعالى ومتى نقل إلى ما قال هذا الطاعن ضعف معناه فإنه ينفرد الغفور الرحيم بالشرط الثاني ولا يكون له بالشرط الأول تعلق وهو ما أنزله الله تعالى وأجمع على قراءته المسلمون معذوق بالشرطين كلاهما أولهما وآخرهما إذ تلخيصه أن تعذبهم فأنت عزيز حكيم وأن تغفر لهم فأنت العزيز الحكيم في الأمرين كلاهما من التعذيب والغفران فكان العزيز الحكيم أليق بهذا المكان لعمومه وأنه يجمع الشرطين ولم يصلح الغفور الرحيم أن يحتمل ما احتمله العزيز الحكيم انتهى. وأما قول من ذهب لأنبيائهم بالبلاغ أو شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم أقوال ستة والظاهر العموم فكل صادق ينفعه صدقهم ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ هذا كأنه جواب سائل ما لهم جزاء على الصدق فقيل لهم جنات ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ إشارة إلى تأبيد الديمومية في الجنة ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ قيل بقبول حسناتهم ورضوا عنه بما آتاهم من الكرامة. وقيل بطاعتهم ورضوا عنه في الآخرة بثوابه. وقال الترمذي بصدقهم ورضوا عنه بوفاء حقهم. وقيل في الدنيا ورضوا عنه في الآخرة. وقال أبو عبد الله الرازي في قوله رضي الله عنهم هو إشارة إلى التعظيم هذا على ظاهر قول المتكلمين وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى فتحت قوله رضي الله عنهم ورضوا عنه أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها انتهى. وهو كلام عجيب شبيه بكلام أهل الفلسفة والتصوّف. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم من كينونة الجنة لهم على التأييد وإلى رضوان الله عنهم لأن الجنة بما فيها كالعدم بالنسبة إلى رضوان الله وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال يطلع الله على أهل الجنة فيقول يا أهل الجنة هل رضيتم فيقولون يا ربنا وكيف لا نرضى وقد بعدتنا عن نارك وأدخلتنا جنتك فيقول الله تعالى ولكم عندي أفضل من ذلك فيقولون وما أفضل من ذلك فيقول الله عزّ وجلّ أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعدها أبداً.

ابن كثير ج ٢ ص ١١٤ ـ ١٢٢

يذكر تعالى ما منّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ أي في خلقي إياك من أم بلا ذكر وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام وجعلتك نبياً داعياً إلى

الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية وأخبرت عن رسالتي إياك ودعوت إلى عبادتي . . .

وقوله تعالى ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته وقوله ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته وقد قال ابن أبي حاتم . . . عن أبي الهذيل قال كان عيسى ابن مريم إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١] وفي الثانية ﴿ الٓمٓ . تَنزِيلُ ﴾ [السجدة: ١، ٢] فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء يا قديم يا خفي يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة أخر يا حي يا قيوم يا ألله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام يا نور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم يا رب وهذا أثر عظيم جداً. وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إلي وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ.

وقوله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً ثم قيل إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧] وهو وحي إلهام بلا خلاف وكما قال تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل: ٦٨ ـ ٦٩] وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا قال الحسن البصري ألهمهم الله عزّ وجلّ ذلك وقال السدى قذف في قلوبهم ذلك ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك فقالوا ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ . . .

قال أبو جعفر بن جرير . . . عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني إسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يا معلم الخير قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ . قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم كذا رواه ابن جرير . . . وقال ابن أبي حاتم . . . عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن قزعة ثم رواه ابن جرير عن عمار قال نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة فأمروا أن لا يخونوا ولا يخبأوا ولا يدخروا قال فخان القوم وخبأوا وادخروا فمسخهم الله قردة وخنازير . . . وقال ابن جرير . . . عن رجل من بني عجل قال صليت إلى جانب عمار بن ياسر فلما فرغ قال هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل؟ قال قلت لا قال إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد قال فقيل لهم فإنها مقيمة لكم ما لم

تخبأوا أو تخونوا أو ترفعوا فإن فعلتم فإني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين قال فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين وإنكم يا معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاء فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ونهاكم أن تكنزوا الذهب والفضة وأيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكنزوهما ويعذبكم الله عذاباً أليماً. وقال حدثنا القاسم. . . عن إسحق ابن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ما شاءوا قال فسرق بعضهم منها وقال لعلها لا تنزل غداً فرفعت، وقال العوفي عن ابن عباس نزل على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤا. وقال خصيف عن عكرمة ومقسم عن ابن عباس كانت المائدة سمكة وأرغفة، وقال مجاهد هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا وقال أبو عبد الرحمن السلمي نزلت المائدة خبزاً وسمكاً وقال عطية العوفي المائدة سمك فيه طعم كل شيء وقال وهب بن منبه أنزلها من السماء على بني إسرائيل فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة فأكلوا ما شاؤا من ضروب شتى فكان يقعد عليها أربعة آلاف وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لمثلهم فلبثوا على ذلك ما شاء الله عزّ وجلّ وقال وهب بن منبه نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات وحشا الله بين أضعافهن البركة فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا. وقال الأعمش عن مسلم عن سعيد بن جبير أنزل عليها كل شيء إلا اللحم. وقال سفيان الثوري. . . عن ميسرة قال كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم وعن عكرمة كان خبز المائدة من الأرز رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم. . . عن سلمان الخير أنه قال لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة كره ذلك جداً فقال اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ولا تسألوا المائدة من السماء فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها، فأبوا إلا أن يأتيهم بها فلذلك ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ الآية فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود وجبة من شعر وعباءة من شعر ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأطأ رأسه خشوعاً ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه فلما رأى ذلك دعا الله فقال ﴿ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم وعيسى يبكي خوفاً من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً، لم يعذبه أحداً من العالمين، وهو يدعو الله في مكانه ويقول اللهم اجعلها رحمة لهم ولا تجعلها عذاباً، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني، إلهي اجعلنا لك شاكرين، اللهم إني أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً ورجزاً إلهي اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنة ومثلة. فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى والحواريين وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط رخر عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغماً، ثم انصرفوا بغيظ شديد، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة فإذا عليها منديل مغطى فقال عيسى من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ونحمد ربنا ونذكر باسمه ونأكل من رزقه الذي رزقنا فقال الحواريون يا روح الله وكلمته أنت أولانا بذلك وأحقنا بالكشف عنها. فقام عيسى عليه

السلام واستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ثم بكى بكاء طويلاً ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ثم انصرف وجلس إلى السفرة وتناول المنديل وقال باسم الله خير الرازقين وكشف عن السفرة فإذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها سيلاً قد تحدق بها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات. فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى يا روح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية. فقال له شمعون لا وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة فقال عيسى عليه السلام ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة، فقال له كن فكان أسرع من طرفة عين، فكلوا مما سألتم بإسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فإنه بديع قادر شاكر، فقالوا يا روح الله وكلمته إنا نحب أن يرينا الله آية في هذه الآية فقال عيسى سبحان الله أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة فقال يا سمكة عودي بإذن الله حية كما كنت فأحياها الله بقدرته فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسيرها ففزع القوم منها وانحاسوا فلما رأى عيسى منهم ذلك قال ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون، يا سمكة عودي بإذن الله كما كنت فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول، فقالوا يا عيسى كن أنت يا روح الذي تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد، فقال عيسى معاذ الله من ذلك. يبدأ بالأكل من طلبها. فلما رأى الحواريون وأصحابه امتناع عيسى منها خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة فتحاموها فلما رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى وقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله الذي أنزلها لكم فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا أكلكم باسم الله واختموه بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئته إذ نزلت من السماء لم ينقص منها شيء ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها وبرىء كل زمن أكل منها فلم يزالوا أغنياء أصحاء حتى خرجوا من الدنيا، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة، سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات. قال وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبل بنو إسرائيل إليها يسعون من كل مكان يزاحم بعضهم بعضاً الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً فلما رأى ذلك جعلها نوباً بينهم تنزل يوماً ولا تنزل يوماً فلبثوا على ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غبا عند ارتفاع النهار فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم إلى جو السماء بإذن الله وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم قال فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام أن اجعل رزقي في المائدة للفقراء واليتامى والزمنى دون الأغنياء من الناس، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس وغمطوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسراسه في قلوب الربانيين حتى قالوا لعيسى أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء أحق فإنه قد ارتاب بها منا بشر كثير؟ فقال عيسى عليه السلام هلكتم وإله المسيح طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم وشككتم فيها فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله، فأوحى الله إلى عيسى إني آخذ المكذبين بشرطي فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين. قال فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير فأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات، هذا أثر غريب

جداً قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم وأكمل والله سبحانه وتعالى أعلم وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم إجابة من الله لدعوته كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ الآية،

وقال قائلون إنها لم تنزل فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله أنزل علينا مائدة من السماء قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء. . .

وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد والله أعلم ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير قال لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال ووعد الله ووعيده حق وصدق وهذا القول هو ـ والله أعلم ـ الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم قد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلىء وأنواع الجواهر فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق فمات وهي في الطريق فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام فالله أعلم. . .

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد هكذا قاله قتادة وغيره واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ وقال السدي هذا الخطاب والجواب في الدنيا وصوبه ابن جرير قال وكان ذلك حين رفعه إلى السماء واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين (أحدهما) أن الكلام بلفظ المضى (والثاني) قوله: (إن تعذبهم) ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ وهذان الدليلان فيهما نظر لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضي ليدل على الوقوع والثبوت ومعنى قوله ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ الآية التبري منهم ورد المشيئة فهم إلى الله وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة وقد روى بذلك حديث مرفوع رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز وكان ثقة قال سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دعي الأنبياء وأممهم ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها فيقول ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ الآية ثم يقول ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك قال فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عزّ وجلّ مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار» وهذا حديث غريب عزيز. . .

﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة قال انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملى على سفيان وأنا معه فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال سمعت سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عزّ وجلّ حفاة عراة غرلا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الانبياء: ١٠٤] وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال إنك لا تدري ما

أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح. ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» ورواه البخاري عند هذه الآية عن أبي الوليد عن شعبة وعن محمد بن كثير عن سفيان الثوري كلاهما عن المغيرة بن النعمان به.

وقوله ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عزّ وجلّ فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها.

قال الإمام أحمد... عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فلما أصبح قلت يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال «إني سألت ربي عزّ وجلّ الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً».

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد حدثتني جسرة بنت دجاجة أنها انطلقت معتمرة فانتهت إلى الربذة فسمعت أبا ذر يقول قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله فلما رأى القوم قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه يصلي فجئت فقمت خلفه فأومأ إليّ بيمينه فقمت عن يمينه ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله فقمنا ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو وقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة فقال ابن مسعود بيده لا أسأله عن شيء حتى يحدث إليّ فقلت بأبي وأمي قمت بآية من القرآن ومعك القرآن لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه قال «دعوت لأمتي» قلت فماذا أجبت أو ماذا رد عليك؟ قال «أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة» قلت أفلا أبشر الناس؟ قال «بلى» فانطلقت معنقاً قريباً من قذفة بحجر فقال عمر يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات فناداه أن «ارجع» فرجع وتلك الآية ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وقال ابن أبي حاتم... عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول عيسى ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه فقال «اللهم أمتي». وبكى فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما يبكيه، فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إن سنرضيك في أمتك ولا نسوءك...

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عزّ وجلّ فعند ذلك يقول تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس يقول يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون رضي الله عنهم ورضوا عنه كما قال تعالى ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢] وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث وروى ابن أبي حاتم... عن أنس مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ فيه «ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلوني سلوني أعطكم ـ قال ـ فيسألونه الرضا فيقول رضاي أحلكم داري وأنا لكم كرامتي فسلوني أعطكم فيسألونه الرضا ـ قال ـ فيشهدهم أنه قد رضي عنهم سبحانه وتعالى» وقوله ﴿ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١] وكما قال ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦]...

الشوكاني ج ٢ ص ٩٠ ـ ٩٦

قوله ﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ ذكّره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه مع كونه ذاكراً لها عالماً بتفضل الله سبحانه بها لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علوّ المقام، أو لتأكيد الحجة وتبكيت الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة وتوبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وأنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه ليس لهما من الأمر شيء. قوله ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ إذ ظرف للنعمة لأنها بمعنى المصدر: أي اذكر إنعامي عليك وقت تأييدي لك، أو حال من النعمة: أي كائنة ذلك الوقت ﴿ أَيَّدتُّكَ ﴾ قوّيتك مأخوذ من الأيد، وهو القوّة. وفي روح القدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها، وقيل إنه جبريل عليه السلام، وقيل إنه الكلام الذي يحيي به الأرواح. والقدس: الطهر، وإضافته إليه لكونه سببه، وجملة ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ ﴾ مبنية لمعنى التأييد، و﴿ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ في محل نصب على الحال: أي تكلم الناس حال كونك صبياً وكهلاً لا يتفاوت كلامك في الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بينا. وقوله ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ معطوف على ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ أي واذكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب: أي جنس الكتاب، أو المراد بالكتاب الخط. وعلى الأوّل يكون ذكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما: أما التوراة فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدال كما هو مصرح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه، والمراد بالحكمة جنس الحكمة: وقيل هي الكلام المحكم ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ أي تصوّر تصويراً مثل صورة الطير ﴿ بِإِذْنِى ﴾ لك بذلك وتيسيري له ﴿ فَتَنفُخُ ﴾ في الهيئة المصوّرة ﴿ فَتَكُونُ ﴾ هذه الهيئة (طائراً) متحركاً حياً كسائر الطيور ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ لك وتسهيله عليك وتيسيره لك، وقد تقدّم تفسير هذا مطوّلاً في البقرة فلا نعيده ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة ﴿ بِإِذْنِى ﴾. وتكرير بإذني في المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه. قوله ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ ﴾ معطوف على «إذ تخرج» كففت معناه: دفعت وصرفت ﴿ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ ﴾ حين هموا بقتلك ﴿ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين، لما عظم ذلك في صدرهم وانبهروا منه لم يقدروا على جحده بالكلية، بل نسبوه إلى السحر. قوله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ هو معطوف على ما قبله، وقد تقدّم تفسير ذلك. والوحي في كلام العرب معناه الإلهام: أي ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم؛ وقيل معناه: أمرتهم على ألسنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولي. قوله ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا ﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ أي مخلصون للإيمان: أي واشهد يا رب، أو واشهد يا عيسى.

وقد أخرج عبد الرزاق عن مجاهد في قوله ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيفزعون فيقولون ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ فترد إليهم أفئدتهم فيعلمون. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال: ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا. لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قالوا لا علم لنا فرقاً يذهل عقولهم، ثم يردّ الله إليهم عقولهم فيكونون هم الذين يسألون بقول الله ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦] وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء وأممها ثم يدعى بعيسى

فيذكره نعمته عليه فيقرّ بها، فيقول: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك الآية، ثم يقول أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون نعم هو أمرنا بذلك. فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ يقول قذفت في قلوبهم، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

قوله ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر: أي اذكر أو نحوه كما تقدّم، قيل والخطاب لمحمد ﷺ. قرأ الكسائي «هل تستطيع» بالفوقية، ونصب ربك، وبه قرأ عليّ وابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد، وقرأ الباقون بالتحتية ورفع ربك. واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا ﴿ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ والسؤال عن استطاعته لذلك ينافي ما حكوه عن أنفسهم. وأجيب بأن هذا كان في أوّل معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله؛ وقيل إنهم ادّعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة، ويردّه أن الحواريين هم خلصاء عيسى وأنصاره كما قال ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل إن ذلك صدر ممن كان معهم، وقيل إنهم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه؟ وقيل إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويدل على هذا قولهم من بعد ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ وأما على القراءة الأولى، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك...

قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ ﴾ معطوف على ما قبله في محل نصب بعامله أو بعامل مقدّر هنا: أي اذكر. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة. والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى. وقال السديّ وقطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت، والأوّل أولى: قيل ﴿ وَإِذْ ﴾ هنا بمعنى إذا كقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ ﴾ [سبأ: ٥١] أي إذا فزعوا، وقول أبي النجم:

ثم جزاه الله عني إذ جزى
جنات عدن في السموات العلى

أي إذا جزى، وقول الأسود بن جعفر الأسدي:

فالآن إذ هازلتهنّ فإنما
يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهبا

الآلوسي ج ٧ ص ٥٦ ـ ٧٣

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ بدل من ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقد نصب بإضمار اذكر، وقيل: في محل رفع على معنى ذاك إذ وليس بشيء، وصيغة الماضي لما مر آنفاً من الدلالة على تحقق الوقوع، والمراد بيان ما جرى بينه تعالى وبين فرد من الرسل المجموعين على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه عزّ وجلّ وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج على تفاصيل أحوال الباقين، وتخصيص عيسى عليه السلام بالذكر لما أن شأنه عليه الصلاة والسلام متعلق بكلا فريقي أهل الكتاب المفرطين والمفرطين الذين نعت هذه السورة الكريمة جناياتهم فتفصيلهم أعظم عليهم وأجلب لحسراتهم، وإظهار الاسم الجليل لما مر. و﴿ عِيسَى ﴾ مبني عند الفراء ومتابعيه إما على ضمة مقدرة أو على فتحة كذلك إجراء له مجرى يا زيد بن عمروا في جواز ضم المنادى

وفتحه عند الجمهور، وهذا إذا أعرب ابن صفة لعيسى، أما إذا أعرب بدلاً أو بياناً فلا يجوز تقدير الفتحة إجماعاً كما بين في كتب النحو، و«على» في قوله تعالى:

﴿ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ متعلقة بنعمتي جعل مصدراً أي اذكر إنعامي أو بمحذوف وقع حالاً من نعمة أن جعل اسماً أي اذكر نعمتي كائنة عليك إلخ، وعلى التقديرين يراد بالنعمة ما هو في ضمن المتعدد، وليس المراد كما قال شيخ الإسلام بأمره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة في سلك التعديد تكليفه عليه السلام بشكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر في أوانه أي خروج بل إظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتداداً بها وتلذذاً بذكرها على رؤوس الأشهاد وليكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخاً للكفرة من الفريقين المختلفين في شأنه عليه السلام إفراطاً وتفريطاً وإبطالاً لقولهما جميعاً ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ ظرف لنعمتي أي اذكر أنعامي عليكما وقت تأييدي لكما أو حال منها أي اذكرها كائنة وقت ذلك، وقيل: بدل اشتمال منها وهو في المعنى تفسير لها.

وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً به على السعة، وقرىء «آيدتك» بالمد ووزنه عند الزمخشري أفعلتك وعند ابن عطية فاعلتك، قال أبو حيان: ويحتاج إلى نقل مضارعه من كلام العرب فإن كان يؤايد فهو فاعل وإن كان يؤيد فهو أفعل ومعناه ومعنى أيد واحد، وقيل: معناه بالمد القوة وبالتشديد النصر وهما ـ كما قيل ـ متقاربان لأن النصر قوة ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ أي جبريل عليه السلام أو الكلام الذي يحيي به الدين ويكون سبباً للطهر عن أوضار الآثام أو تحيي بها الموتى أو النفوس حياة أبدية أو نفس روحه عليه السلام حيث أظهرها سبحانه وتعالى روحاً مقدسة طاهرة مشرفة نورانية علوية، وكون هذا التأييد نعمة عليه عليه الصلاة والسلام مما لا خفاء فيه، وأما كونه نعمة على والدته فلما ترتب عليه من براءتها مما نسب إليها وحاشاها وغير ذلك.

﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾ أي طفلاً صغيراً، وما في النظم الكريم أبلغ من التصريح بالطفولية وأولى لأن الصغير يسمى طفلاً إلى أن يبلغ الحلم فلذا عدل عنه، والظرف في موضع الحال من ضمير «تكلم».

وجوز أن يكون ظرفاً للفعل. والجملة إما استئناف مبين لتأييده عليه الصلاة والسلام أو في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿ أَيَّدتُّكَ ﴾ كما قال أبو البقاء. والمهد معروف. وعن الحسن أن المراد به حجر أمه عليهما السلام، وأنكر النصارى كلامه عليه الصلاة والسلام في المهد وقالوا إنما تكلم عليه السلام أوان ما يتكلم الصبيان، وقد تقدم مع جوابه. . .

وقال بعض: الأولى أن يجعل ﴿ وَكَهْلًا ﴾ تشبيهاً بليغاً أي تكلمهم كائناً في المهد وكائناً كالكهل. وأنت تعلم أن أخذ التشبيه من العطف لا وجه له وتقدير الكاف تكلف ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ﴾ عطف على ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ ﴾ أي واذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك من غير معلم ﴿ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي جنسهما، وقيل: الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ خصا بالذكر اظهاراً لشرفهما على الأول. ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ أي تصور ﴿ مِنَ ٱلطِّينِ ﴾ أي جنسه ﴿ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ أي هيئة مثل هيئته ﴿ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا ﴾ أي في تلك الهيئة المشبهة ﴿ فَتَكُونُ ﴾ بعد نفخك من غير تراخ ﴿ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ أي حيواناً يطير كسائر الطيور. وقرأ نافع ويعقوب (طائراً) وهو إما اسم مفرد وإما اسم جمع كباقر وسامر.

﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ عطف على ﴿ تَخْلُقُ ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ عطف على ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ أعيدت فيه «إذ» كما قيل لكون إخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعد ما صاروا رميماً معجزة باهرة حرية بتذكير وقتها صريحاً. وما في النظم الكريم أبلغ من تحيي الموتى فلذا عدل عنه إليه. وقد تقدم الكلام في بيان من أحياهم عليه الصلاة والسلام مع بيان ما ينفعك في هذه الآية في سورة آل عمران.

وذكر ﴿ بِإِذْنِى ﴾ هنا أربع مرات وثمة مرتين قالوا: لأنه هنا للامتنان وهناك للأخبار فناسب هذا التكرار هنا ﴿ وَإِذْ

﴿كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ﴾ يعني اليهود حين هموا بقتله ولم يتمكنوا منه.

﴿إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي المعجزات الواضحة مما ذكر وما لم يذكر وهو ظرف لكففت مع اعتبار قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهو مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه الصلاة والسلام المحوج إلى الكف أي كففتهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئك إياهم بالبينات، ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة. فكلمة من بيانية وهذا إشارة إلى ما جاء به. وقرأ حمزة والكسائي «إلا ساحر» فالإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، وجعل الإشارة إليه على القراءة الأولى وتأويل السحر بساحر لتتوافق القراءتان لا حاجة إليه ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ أي أمرتهم في الإنجيل على لسانك أو أمرتهم على ألسنة رسلي وجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر في كلام العرب كما قال الزجاج وأنشد:

* الحمد لله استقلت *

* بإذنه السماء واطمأنّت *

* أوحى لها القرار فاستقرت *

أي أمرها أن تقر فامتثلت، وقيل: المراد بالوحي إليهم الهامه تعالى إياهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧] وروي ذلك عن السدي، وقتادة. وإنما لم يترك الوحي على ظاهره لأنه مخصوص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والحواريون ليسوا كذلك، وقد تقدم المراد بالحواريين.

وأن قوله تعالى ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى﴾ مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول، وقيل: مصدرية أي بأن آمنوا إلخ. وتقدم الكلام في دخولها على الأمر. والتعرض لعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الإيمان به عليه الصلاة والسلام والرمز إلى عدم إخراجه عليه الصلاة والسلام عن حده حطاً ورفعاً ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ طبق ما أمرنا به ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون في إيماننا أو منقادون لما أمرنا به.

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ منصوب باذكر على أنه ابتداء كلام لبيان ما جرى بينه عليه الصلاة والسلام وبين قومه منقطع عما قبله كما يشير إليه الإظهار في مقام الإضمار.

وجوّز أن يكون ظرفاً لقالوا وفيه ـ على ما قيل حينئذ ـ تنبيه على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لم يكن عن تحقيق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته سبحانه لأنهم لو حققوا وعرفوا لم يقولوا ذلك إذ لا يليق مثله بالمؤمن بالله عزّ وجلّ. وتعقب هذا القول السلبي بأنه خارق للإجماع. وقال ابن عطية لا خلاف أحفظه في أنهم كانوا مؤمنين. وأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ وبأن وصفهم بالحواريين ينافي أن يكونوا على الباطل وبأن الله تعالى أمر المؤمنين بالتشبه بهم والاقتداء بسنتهم في قوله عز من قائل: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. وبأن رسول الله ﷺ مدح الزبير «إن لكل نبي حواريا وإن حواري الزبير» والتزام القول بأن الحواريين فرقتان مؤمنون وهم خالصة عيسى عليه الصلاة والسلام والمأمور بالشبه بهم وكافرون وهم أصحاب المائدة، وسؤال عيسى عليه الصلاة والسلام نزول المائدة وإنزالها ليلزمهم الحجة يحتاج إلى نقل ولم يوجد. ومن ذلك أجيب عن الآية بأجوبة فقيل: إن معنى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ هل يفعل كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم مبالغة في التقاضي. ونقل هذا القول عن الحسن.

والتعبير عن الفعل بالاستطاعة من التعبير عن المسبب بالسبب إذ هي من أسباب الإيجاد وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل تسمية للسبب الذي هو الإرادة باسم المسبب الذي هو الفعل في مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ إلخ [المائدة: ٦]. وقيل: إن المعنى هل يطيع ربك فيستطيع بمعنى يطيع ويطيع بمعنى يجيب مجازاً ونقل ذلك عن السدي. وذكر أبو شامة أن النبي ﷺ عاد أبا طالب في مرض فقال له: يا ابن أخي ادع ربك أن يعافيني فقال: اللهم اشف عمي فقام كأنما نشط من عقال فقال: يا ابن أخي إن ربك الذي تعبده يطيعك فقال: يا عم وأنت لو أطعته لكان يطيعك أي يجيبك لمقصودك وحسن استعماله ﷺ لذلك المشاكلة.

وقيل: هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة فكأنهم قالوا: هل إرادة الله تعالى وحكمته تعلقت بذلك أولاً؟ لأنه لا يقع شيء بدون تعلقهما به.

واعترض بأن قوله تعالى الآتي: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ لا يلائمه لأن السؤال عن مثله مما هو من علوم الغيب لا قصور فيه. وقيل: إن سؤالهم للاطمئنان والتثبت كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ومعنى ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إن كنتم كاملين في الإيمان والإخلاص. ومعنى ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ نعلم علم مشاهدة وعيان بعد ما علمناه علم إيمان وايقان. ومن هذا يعلم ما يندفع به الاعتراض.

وقرأ الكسائي. وعلي كرم الله تعالى وجهه. وعائشة. وابن عباس. ومعاذ. وجماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ﴿ هَلْ ﴾ تستطيع ربك بالتاء خطاباً لعيسى عليه الصلاة والسلام ونصب ﴿ رَبُّكَ ﴾ على المفعولية.

والأكثرون على أن هناك مضافاً محذوفاً أي سؤال ربك أي هل تسأله ذلك من غير صارف. وعن الفارسي أنه لا حاجة إلى تقدير. والمعنى هل تستطيع أن ينزل ربك بدعائك. وأنت تعلم أن اللفظ لا يؤدي ذلك فلا بد من التقدير، والمائدة في المشهور الخوان الذي عليه الطعام من ماد يميد إذا تحرك أو من ماده بمعنى أعطاه فهي فاعلة إما بمعنى مفعولة كعيشة راضية، واختاره الأزهري في تهذيب اللغة أو بجعلها للتمكن مما عليها كأنها بنفسها معطية كقولهم للشجرة المثمرة. مطعمة. وأجاز بعضهم أن يقال فيها ميدة واستشهد عليه بقول الراجز:

وميـــدة كثيـــرة الألـــوان
تصنـــع للجيـــران والإخـــوان

واختار المناوي أن المائدة كل ما يمد ويبسط، والمراد بها السفرة، وأصلها طعام يتخذه المسافر ثم سمي بها الجلد المستدير الذي تحمل به غالباً كما سميت المزادة راوية. وجوّز أن تكون تسمية الجلد المذكور سفرة لأن له معاليق متى حلت عنه انفرج فأسفر عما فيه. وهذا غير الخوان بضم الخاء وكسرها وهو أفصح ويقال له: اخوان بهمزة مكسورة لأنه اسم لشيء مرتفع يهيأ ليؤكل عليه الطعام، والأكل عليه بدعة لكنه جائز إن خلا عن قصد التكبر وتطلق المائدة على نفس الطعام أيضاً كما نص عليه بعض المحققين، و﴿ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ يجوز أن يتعلق بالفعل قبله وأن يتعلق بمحذوف وقع صفة لمائدة أي مائدة كائنة من السماء ﴿ قَالَ ﴾ أي عيسى عليه الصلاة والسلام لهم حين قالوا ذلك: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات كما قال الزجاج. وعن الفارسي أنه أمر لهم بالتقوى مطلقاً. ولعل ذلك لتصير ذريعة لحصول المأمول فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢] وقال جل شأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتي أو كاملين في الإيمان والإخلاص أو إن صدقتم في ادعاء الإيمان والإسلام ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ ﴾ أكل تبرك. وقيل: أكل تمتع وحاجة. والإرادة إما بمعناها الظاهر أو بمعنى المحبة أي نحب ذلك والكلام كما قيل تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد من السؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى ولكن نريد إلخ أو ليس مرادنا اقتراح الآيات لكن مرادنا ما ذكر ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ بازدياد اليقين كما قال عطاء ﴿ وَنَعْلَمَ ﴾ علم مشاهدة وعيان على ما قدمناه ﴿ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي أنه قد صدقتنا في ادعاء النبوة، وقيل: في أن الله تعالى يجيب دعوتنا، وقيل: فيما ادعيت مطلقاً.

﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ عند من لم يحضرها من بني إسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر؛ وقيل: من الشاهدين لله تعالى بالوحدانية ولك بالنبوة.

و﴿ عَلَيْهَا ﴾ متعلق بالشاهدين إن جعل اللام للتعريف أو بمحذوف يفسره من الشاهدين إن جعلت موصولة وجوّزنا تفسير ما لا يعمل للعامل، وقيل: متعلق به، وفيه تقديم ما في حيز الصلة وحرف الجر وكلاهما ممنوع.

ونقل عن بعض النحاة جواز التقديم في الظرف، وعن بعضهم جوازه مطلقاً، وجوّز أن يكون حالاً من اسم كان أي عاكفين عليها. وقرىء (يعلم) بالبناء للمفعول و(تعلم وتكون) بالتاء والضمير للقلوب.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، وأخرج الترمذي في نوادر الأصول وغيره عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام لما رأى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله تعالى فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا فالصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع بالأصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأطأ رأسه خشوعاً ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه فلما رأى ذلك دعا الله تعالى فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين على ما قيل مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات وأخرى بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع ومبالغه في الاستدعاء وإنما لم يجعل نداء واحداً بأن يعرب ﴿رَبَّنَآ﴾ بدلاً أو صفة لأنهم قالوا: إن لفظ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ لا يتبع وفيه خلاف لبعض النحاة.

وحذف حرف النداء في الأول وعوض عنه الميم وكذا في الثاني إلا أن التعويض من خواص الاسم الجليل أي يا الله يا ربنا ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾ أي خوانا عليه طعام أو سفرة كذلك وتقديم الظرف على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر. وقوله سبحانه وتعالى ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلق إما بانزل أو بمحذوف وقع صفة لمائدة أي كائنة من السماء والمراد بها إما المحل المعهود وهو المتبادر من اللفظ وإما جهة العلو، ويؤيد الأول ما أخرجه ابن حميد، وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر أن المائدة التي نزلت كان عليها من ثمر الجنة وكذا روي عن وهب بن منبه.

ويؤيد الثاني ما روي عن سلمان الفارسي من خبر طويل أن المائدة لما نزلت قال شمعون رأس الحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام يا روح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقير المسائل ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بسبب هذه الآية فقال شمعون: لا وإله إسرائيل ما أردت بها سوء ياابن الصديقة. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام ليس شيء مما ترون عليها من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا إنما هو شيء ابتدعه الله تعالى في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة فقال له كن فكان في أسرع من طرفة عين فكلوا مما سألتم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فإنه بديع قادر شاكر، وقوله تعالى ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ صفة «مائدة» و«لنا» خبر كان و﴿عِيدًا﴾ حال من الضمير في الظرف أو في (تكون) على رأي من يجوز إعمالها في الحال، وجوّز أن يكون ﴿عِيدًا﴾ الخبر و«لنا» حينئذ إما حال من الضمير في ﴿تَكُونُ﴾ أو حال من ﴿عِيدًا﴾ لأنه صفة له قدمت عليه والعيد العائد مشتق من العود ويطلق على الزمان المعهود لعوده في كل عام بالفرح والسرور، وعليه فلا بدّ من تقدير مضاف، والمعنى يكون نزولها لنا عيداً، ويطلق على نفس السرور العائد وحينئذ لا يحتاج إلى التقدير، وفي الكلام لطافة لا تخفي، وذكر غير واحد أن العيد يقال لكل ما عاد عليك في وقت، ومنه قول الأعشى:

فواكبدي من لاعج الحب والهوى
إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها

وهو واو كما ينبىء عنه الاشتقاق ولكنهم قالوا في جمعه: أعياد وكان القياس أعواد لأن الجموع ترد الأشياء إلى أصولها كراهة الاشتباه ـ كما قال ابن هشام ـ بجمع عود، ونظر ذلك الحريري بقولهم وهو أليط بقلبي منك أي ألصق حبابه فإن أصله الوُاو لكن قالوا ذلك ليفرق بينه وبين قولهم هو ألوط من فلان، ولا يخفى أن هذا مخالف لما ذكره محققو أهل اللغة، وعن الكسائي يقال لاط الشيء بقلبي يلوط ويليط وهو ألوط وأليط، ثم إنهم إنما لم يعكسوا الأمر في جمع عود وعيد فيقولوا في جمع الأول أعياد وفي جمع الثاني أعواد مع حصول التفرقة

أيضاً اعتباراً على ما قيل للأخف في الأكثر استعمالاً مع رعاية ظاهر المفرد، وقرأ عبد الله «تكن» بالجزم على جواب الأمر ﴿ لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ أي لأهل زماننا ومن يجيء بعدنا. روي أنه نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصارى عيداً، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن المعني يأكل منها أول الناس وآخرهم، والجار والمجرور عند بعض بدل من الجار والمجرور أعني «لنا»، وقال أبو البقاء إذا جعل «لنا» خبراً أو حالاً فهو صفة ل «عيدا »وإن جعل صفة له كان هو بدلاً من الضمير المجرور بإعادة الجار، وظاهره أن المبدل منه الضمير لكن أعيد الجار لأن البدل في قوة تكرار العامل، وهو تحكم لأن الظاهر كما أشير إليه إبدال المجموع من المجموع، ثم إن ضمير الغائب يبدل منه وأما ضمير الحاضر فأجازه بعضهم مطلقاً وأجازه آخرون كذلك، وفصل قوم فقالوا إن أفاد توكيداً وإحاطة وشمولاً جاز وإلا امتنع.

واستظهر بعضهم على قول الخبر أن يكون «لنا» خبراً أي قوتاً أو نافعة لنا. وقرأ زيد، وابن محيصن، والجحدري ﴿ لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ بتأنيث الأول والآخر باعتبار الأمة والطائفة، وكون المراد بالأولى والأخرى الدار الأولى أي الدنيا والدار الأخرى أي الآخرة مما لا يكاد يصح ﴿ وَءَايَةً ﴾ عطف على ﴿ عِيدًا ﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مِّنكَ ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي...

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله قومه ذلك فدعا أنزل الله تعالى عليهم سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من السماء تهوي إليهم وعيسى عليه الصلاة والسلام يبكي خوفاً من الشرط الذي اتخذ عليهم فيها فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه والحواريون حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا رائحة مثلها قط وخر عيسى عليه الصلاة والسلام والحواريون سجداً شكراً لله تعالى وأقبل اليهود ينظرون إليهم فرأوا ما يغمهم ثم انصرفوا فأقبل عيسى عليه الصلاة والسلام ومن معه ينظرونها. فإذا هي مغطاة بمنديل فقال عليه الصلاة والسلام: من أجرؤنا على كشفه وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه حتى نراها ونحمد ربنا سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذي رزقنا؟ فقالوا: يا روح الله وكلمته أنت أولى بذلك فقام واستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى ركعات ثم بكى طويلاً ودعا الله تعالى أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ثم انصرف وجلس حول السفرة وتناول المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين وكشف عنها فإذا عليها سمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات، وفي رواية على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن. وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فسأله شمعون عنها وأجابه بما تقدمت روايته.

ثم قالوا له عليه الصلاة والسلام؛ إنما نحب أن ترينا آية في هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام: سبحان الله تعالى أما اكتفيتم ثم قال: يا سمكة عودي بإذن الله تعالى حية كما كنت فأحياها الله تعالى بقدرته فاضطربت وعادة حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسير ففزع القوم منها وانحاشوا فقال عليه الصلاة والسلام لهم: ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ما أخوفني عليكم بما تصنعون يا سمكة عودي بإذن الله تعالى كما كنت مشوية ثم دعاهم إلى الأكل فقالوا: يا روح الله أنت الذي تبدأ بذلك فقال: معاذ الله تعالى يبدأ من طلبها فلما رأوا امتناع نبيهم عليه الصلاة والسلام خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة فتحاموها فدعا عليه الصلاة والسلام لها الفقراء والزمنى، وقال: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله تعالى الذي أنزلها لكم ليكون مهنئوها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا كلكم باسم الله واختتموه بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة وصدروا منها وكل واحد منهم شبعان يتجشى ونظر عيسى عليه

السلام والحواريون ما عليها فإذا ما عليها كهيئته إذ نزلت من السماء لم ينتقص منه شيء ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها وبرىء كل زمن منهم أكل منها فلم يزالوا أغنياء صحاحاً حتى خرجوا من الدنيا وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم، وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون فزاحم بعضهم بعضاً الأغنياء والفقراء والنساء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً فلما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك جعلها نوباً بينهم فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوماً فلبثوا في ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غبا عند ارتفاع الضحى فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم بإذن الله تعالى إلى جو السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل رزقي لليتامى والمساكين والزمنى دون الأغنياء من الناس فلما فعل الله تعالى ذلك ارتاب بها الأغنياء وغمصوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب المرتابين فلما علم عيسى عليه السلام ذلك منهم قال: هلكتم وإله المسيح سألتم نبيكم أن يطلب المائدة لكم إلى ربكم فلما فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككتم فيها فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله تعالى وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام إني آخذ المكذبين بشرطي وإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فلما أمسى المرتابون وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين وكان آخر الليل مسخهم الله تعالى خنازير وأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيكم ما سألتم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا؛ يا معلم الخير قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً فعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم. وجاء عنه أن المائدة كانت تنزل عليهم حيث نزلوا، وعن وهب بن منبه أن المائدة كان يقعد عليها أربعة آلاف فإذا أكلوا شيئاً أبدل الله تعالى مكانه مثله فلبثوا بذلك ما شاء الله عزّ وجلّ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ منصوب بما نصبه من الفعل المضمر أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك. وصيغة الماضي لما مضى. والمراد يقول له عليه الصلاة والسلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة توبيخاً للكفرة وتبكيتاً لهم بإقراره عليه الصلاة والسلام على رؤوس الإشهاد بالعبودية وأمرهم بعبادته عزّ وجلّ.

وقيل: قاله سبحانه له عليه الصلاة والسلام في الدنيا وكان ذلك بعد الغروب فصلى عليه الصلاة والسلام المغرب ثلاث ركعات شكراً لله تعالى حين خاطبه بذلك، وكان الأولى لنفي الألوهية عن نفسه. والثانية لنفيها عن أمه. والثالثة لإثباتها لله عزّ وجلّ. فهو عليه الصلاة والسلام أول من صلى المغرب ولا يخفى أن ما سيأتي إن شاء الله تعالى في الآيات يأبى ذلك ولا يصح أيضاً خبر فيه. ثم إنه ليس مدار أصل الكلام عند بعض المحققين أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من إيلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال المشهور وعليه قوله تعالى ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٦٢] ونحوه بل على أن المتيقن هو الاتخاذ. والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه الصلاة والسلام أو أمر من تلقاء أنفسهم كما في قوله تعالى. ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وقال بعض: لما كان القول قد وقع من رؤسائهم في الضلال كان مقرراً كالاتخاذ

فالاستفهام لتعيين من صدر منه فلذا قدم المسند إليه، وقيل: التقديم لتقوية النسبة لأنها بعيدة عن القبول بحيث لا تتوجه نفس السامع إلى أن المقصود ظاهرها حتى يجيب على طبقه فاحتاجت إلى التقوية حتى يتوجه إليها المستفهم عنها، وفيه كمال توبيخ الكفرة بنسبة هذا القول إليه، وفي قوله ﴿ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ ﴾ دون واتخذوني ومريم توبيخ على توبيخ كأنه قيل: أأنت قلت ما قلت مع كونك مولوداً وأمك والدة والإله لا يلد ولا يولد.

وأنت تعلم أن في ندائه عليه الصلاة والسلام على الكيفية المذكورة إشارة إلى إبطال ذلك الاتخاذ. ولام (للناس) للتبليغ، والاتخاذ إما متعد لاثنين فالياء مفعوله الأول و ﴿ إِلَٰهَيْنِ ﴾ مفعوله الثاني وإما متعد لواحد فإلهين حال من المفعول و﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ حال من فاعل الاتخاذ أي متجاوزين الله تعالى أو صفة لإلهين أي كائنين من دون الله تعالى أي غيره منضماً إليه سبحانه فالله تعالى إله وهما بزعم الكفرة إلهان فالمراد اتخاذهما بطريق اشتراكهما معه عزّ وجلّ. وهذا كما في قوله تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨] وأيد ذلك بأن التوبيخ والتبكيت إنما يتأتى بذلك.

وقال الراغب: إن ظاهر ذلك القول استقلالهما عليهما الصلاة والسلام بالألوهية وعدم اتخاذ الله سبحانه وتعالى معهما إلهاً ولا بد من تأويل ذلك لأن القوم ثلثوا والعياذ بالله تعالى فإما أن يقال: إن من أشرك مع الله سبحانه غيره فقد نفاه معنى لأنه جل شأنه وحده لا شريك له ويكون إقراره بالله تعالى كلا اقرار. وحينئذ يكون ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ مجازاً عن مع الله تعالى أو يقال: إن المراد بمن دون الله التوسط بينهما وبينه عزّ شأنه فيكون الدون إشارة لقصور مرتبتهما عن مرتبته جل جلاله لأنهم قالوا: هو عز اسمه كالشمس وهما كشعاعها.

وزعم بعضهم أن المراد اتخاذهما بطريق الاستقلال. ووجهه أن النصارى يعتقدون أن المعجزات التي ظهرت علي يدي عيسى، وأمه عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها الله تعالى بل هما خلقاها فصح أنهم اتخذوهما في حق بعض الأشياء إلهين مستقلين ولم يتخذوه إلهاً في حق ذلك البعض، ولا يخفي أن الأول كالمتعين وإليه أشار العلامة ونص على اختياره شيخ الإسلام.

واستشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحداً من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهاً. وأجيب عنه بأجوبة. الأول أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلده فذكر ﴿ إِلَٰهَيْنِ ﴾ على طريق الإلزام لهم. والثاني أنهم لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليها اسم الإله كما أطلق اسم الرب على الأحبار والرهبان في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] لما أنهم عظموهم تعظيم الرب. والتثنية حينئذ على حد ـ القلم أحد اللسانين ـ. والثالث إنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك. ويعضد هذا القول ما حكاه أبو جعفر الإمامي عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم: المريمية يعتقدون في مريم أنها إله. وهذا كما كان في اليهود قوم يعتقدون أن عزيراً ابن الله عن اسمه وهو أولى الأوجه عندي. وما قرره الزاعم من أن النصارى يعتقدون إلخ غير مسلم في نصارى زماننا ولم ينقله أحد ممن يوثق به عنهم أصلاً. وإظهار الاسم الجليل لكونه في حيز القول المسند إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام وهر ظاهر. وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام حين يقول له الرب عزّ وجلّ ما يقول ترتعد مفاصله وينفجر من أصل كل شعرة من جسده عين من دم خيفة من ربه جلت عظمته، وفي بعضها أنه عليه الصلاة والسلام يرتعد خوفاً ولا يفتح له باب الجواب خمسمائة عام ثم يلهمه الله تعالى الجواب بعد فيقول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ أي تنزيهاً لك من أن أقول ذلك أو يقال في حقك كما قدره ابن عطية، وقدره بعضهم من أن يكون لك شريك فضلاً من أن يتخذ إلهان دونك، وآخرون من أن تبعث رسولاً يدعي ألوهية غيرك ويدعو إليها ويكفر بنعمتك، والأول أوفق بسياق النظم الكريم. وسبحان على سائر التقادير ـ على

أحد الأقوال فيه وقد تقدمت ـ علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه. وفيه من المبالغة في التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح وهو الابعاد في الأرض والذهاب، ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل والعدول عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن وإقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى.

وقوله سبحانه ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ ﴾ استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه عنه وما الثانية سواء كانت موصولة أو نكرة موصوفة مفعول ﴿ أَقُولَ ﴾ والمراد بها على التقديرين القول المذكور أو ما يعمه وغيره ويدخل فيه القول المذكور دخولاً أولياً ونصب القول للمفردات نحو الجملة والكلام والشعر مما لا شك في صحته كنصبه الجمل الصريحة فلا حاجة إلى تفسير أقول بأذكر كما يتوهم. واسم ليس ضمير عائد إلى ما و(بحق) خبره، والجار والمجرور فيما بينهما للتبيين فيتعلق بمحذوف كما في سقيا لك وإيثار ليس على الفعل المنفي على ما يحق لي لظهور دلالته على استمرار انتفاء الحقية وإفادة التأكيد بما في خبره من الباء المطرد زيادتها في خبر ليس.

ومعنى ﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ ﴾ أي لا ينبغي ولا يليق وهو أبلغ من لم أقله فلذا أوثر عليه: والمراد لا ينبغي أن أقول قولاً لا يحق لي قوله أصلاً في وقت من الأوقات، وجوّز أبو البقاء أن يكون (لي) خبر ليس و(بحق) في موضع الحال من الضمير في الجار والعامل فيه ما فيه من معنى الاستقرار وأن يكون متعلقاً بفعل محذوف على أنه مفعول له والباء للسببية أي ما ليس يثبت لي بسبب حق. وأن يكون خبر ليس و(لي) صفة حق قدم عليه فصار حالاً، وهذا مخرج على رأي من أجاز تقديم حال المجرور عليه، وقيل: إن (لي) متعلق بحق وهو الخبر. وهو أيضاً مبني على قول بعض النحاة المجوز تقديم صلة المجرور على الجار. والجمهور على عدم الجواز. . .

فقوله جل شأنه: ﴿ وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ ﴾ بيان للواقع وإظهار لقصوره عليه السلام، وللنفس في كلامهم إطلاقات فتطلق على ذات الشيء وحقيقته وعلى الروح وعلى القلب وعلى الدم وعلى الإرادة، قيل: وعلى العين التي تصيب وعلى الغيب وعلى العقوبة. ويفهم من كلام البعض أنها حقيقة في الإطلاق الأولى مجاز فيما عداه، وفسر غير واحد النفس هنا بالقلب، والمراد تعلم معلومي الذي أخفيه في قلبي فكيف بما أعلنه ولا أعلم معلومك الذي تخفيه وسلك في ذلك مسلك المشاكلة كما في قوله:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه

قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

إلا أن ما في الآية كلا اللفظين وقع في كلام شخص واحد وما في البيت ليس كذلك. وفي الدر المصون أن هذا التفسير مروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وحكاه عنه أيضاً في مجمع البيان. وفسرها بعضهم بالذات وادعى أن نسبتها بهذا المعنى إلى الله تعالى لا تحتاج إلى القول بالمشاكلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾ [طه: ٤١] ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٣٠] وقوله ﷺ: «أقسم ربي على نفسه أن لا يشرب عبد خمراً ولم يتب إلى الله تعالى منه إلا سقاه من طينة الخبال» وقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله عزّ وجلّ ولأجل ذلك مدح نفسه» وقوله ﷺ: «سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه» إلى غير ذلك من الأخبار.

وقال المحقق الشريف في شرح المفتاح. وغيره: إن لفظ النفس لا يطلق عليه تعالى وأن أريد به الذات إلا مشاكلة وليس بشيء لما علمت من الآيات والأحاديث، وادعاء أن ما فيها مشاكلة تقديرية كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ ﴾ [البقرة: ١٣٨] لا يخفى أنه من سقط المتاع فالصحيح المعول عليه جواز إطلاقها بمعنى الذات على الله تعالى من غير مشاكلة، نعم قيل: إن لفظ النفس في هذه الآية وإن كان بمعنى الذات لا بد معه من اعتبار المشاكلة لأن لا أعلم ما في ذاتك ليس بكلام مرضي فيحتاج إلى حمله

على المشاكلة بأن يكون المراد لا أعلم معلوماتك فعبر عنه بلا أعلم ما في نفسك لوقوع التعبير عن تعلم معلومي بتعلم ما في نفسي.

وعلى ذلك حمل العلامة الثاني كلام صاحب الكشاف ولا يخفي ما فيه، والتحقيق أن الآية من المشاكلة إلا أنها ليست في إطلاق النفس بل في لفظ (في) فإن مفادها بالنظر إلى ما في نفس عيسى عليه السلام الارتسام والانتقاش ولا يمكن ذلك نظراً إلى الله تعالى. وإلى هذا يشير كلام بعض المحققين ومنه يعلم ما في كتب الأصول من الخبط في هذا المقام، وقال الراغب: يجوز أن يكون القصد إلى نفي النفس عنه تعالى فكأنه قال: تعلم ما في نفسي ولا نفس لك فاعلم ما فيها كقول الشاعر:

* ولا ترى الضب بها ينجحر *

وهو على بعده مما لا يحتاج إليه. ومثله ما ذكره بعض الفضلاء من أن النفس الثانية هي نفس عيسى عليه السلام أيضاً، وإنما أضافها إلى ضمير الله تعالى باعتبار كونها مخلوقة له سبحانه كأنه قال: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما فيها ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ تقرير لمضمون الجملتين منطوقاً ومفهوماً لما فيه من الحصر ومدلوله الإثبات فيقرر ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى﴾ لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ويلزمه النفي فيقرر لا أعلم ما في نفسك لأنه غيب أيضاً، ومدلول النفي أنه لا يعلم الغيب غيره تعالى شأنه.

وقوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ استئناف ـ كما قال شيخ الإسلام ـ مسوق لبيان ما صدر عنه عليه السلام قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وأكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولاً أولياً. والمراد عند البعض ما أمرتهم إلا بما أمرتني به إلا أنه قيل: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ نزولاً على قضية حسن الأدب لئلا يجعل ربه سبحانه ونفسه معاً آمرين ومراعاة لما ورد في الاستفهام. ودل على ذلك بإقحام أن المفسرة في قوله تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾.

ولا يرد أن الأمر لا يتعدى بنفسه إلى المأمور به إلا قليلاً كقوله:

* أمرتك الخير فافعل ما أمرت به *

فكذا ما أول به لأنه ـ كما قال ابن هشام ـ لا يلزم من تأويل شيء بشيء أن يتعدى تعديته كما صرحوا به لأن التعدية تنظر إلى اللفظ. نعم قيل في جعل أن مفسرة بفعل الأمر المذكور صلته نحو أمرتك بهذا أن قم نظر أما في طريق القياس فلأن أحدهما مغن عن الآخر. وأما في الاستعمال فلأنه لم يوجد. ونظر فيما ذكر في طريق القياس لأن الأول لا يغني عن الثاني والثاني لا يغني عن الأول وللتفسير بعد الإبهام شأن ظاهر. وادعى ابن المنير أن تأويل هذا القول بالأمر كلفة لا طائل وراءها وفيه نظر.

وجوّز إبقاء القول على معناه و﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ﴾ إما خبر لمضمر أي هو أن اعبدوا أو منصوب باعبدوني مقدراً، وقيل: عطف بيان للضمير في (به)، واعترض بأنه صرح في المغني بأن عطف البيان في الجوامد بمنزلة النعت في المشتقات فكما أن الضمير لا ينعت لا يعطف عليه عطف بيان، وأجيب بأن ذلك من المختلف فيه وكثير من النحاة جوزوه. وما في المغني قد أشار شراحه إلى رده، وقيل: بدل من الضمير بدل كل من كل. ورده الزمخشري في الكشاف بأن المبدل منه في حكم التنحية والطرح فيلزم خلو الصلة من العائد بطرحه، وأجيب عنه بأن المذهب المنصور أن المبدل منه ليس في حكم الطرح مطلقاً بل قد يعتبر طرحه في بعض الأحكام كما إذا وقع مبتدأ فإن الخبر للبدل نحو زيد عينه حسنة ولا يقال حسن. وقد يقال أيضاً إنه ليس كل مبدل منه كذلك بل ذلك مخصوص فيما إذا كان البدل بدل غلط، وأجاب بعضهم بأنه وإن لزم خلو الصلة من العائد بالطرح لكن لا ضمير فيه لأن الاسم الظاهر يقوم مقامه كما في قوله:

* وأنت الذي في رحمة الله أطمع *

ولا يخفى أن في صحة قيام الظاهر هنا مقام الضمير خلافاً لهم، وجوز أن يكون بدلاً من ﴿ مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾، واعترض بأن (ما) مفعول القول ولا بد فيه أن يكون جملة محكية أو ما يؤدي مؤداها أو ما أريد لفظه وإذا كان العبادة بدلاً كانت مفعول القول مع أنها ليست واحداً من هذه الأمور فلا يقال: ما قلت لهم إلا العبادة، وفي الانتصاف

أن العبادة وإن لم تقل فالأمر بها يقال وأن الموصولة بفعل الأمر يقدر معها الأمر فيقال هنا ما قلت لهم: إلا الأمر بالعبادة ولا ريب في صحته لأن الأمر مقول بل قول على أن جعل العبادة مقولة غير بعيد على طريقة ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣] أي الوطن الذي قالوا قولاً يتعلق به وقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] ونحو ذلك، وفي الفوائد أن المراد ما قلت لهم إلا عبادته أي الزموا عبادته فيكون هو المراد من ﴿مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ ويصح كون هذه الجملة بدلاً من ما أمرتني به من حيث إنها في حكم المراد لأنها مقولة و﴿مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ مفرد لفظاً وجملة معنى ولا يخلو عن تعسف، وجوّز إبقاء القول على معناه وأن مفسرة إما لفعل القول أو لفعل الأمر، واعترض بأن فعل القول لا يفسر بل يحكى به ما بعده من الجمل ونحوها وبأن فعل الأمر مسند إلى الله تعالى وهو لا يصح تفسيره باعبدوا اللهِ ربي وربكم بل باعبدوني أو اعبدوا الله ونحوه، وأجيب عن هذا بأنه يجوز أن يكون حكاية بالمعنى كأنه عليه السلام حكى معنى قول الله عزّ وجلّ بعبارة أخرى وكأن الله تعالى قال له عليه السلام: مرهم بعبادتي أو قال لهم على لسان عيسى عليه السلام: اعبدوا الله رب عيسى وربكم فلما حكاه عيسى عليه السلام قال: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فكنى عن اسمه الظاهر بضميره كما قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى . ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٢، ٥٣] فإن موسى عليه السلام لا يقول فاخرجنا بل فاخرج الله تعالى لكن لما حكاه الله تعالى عنه عليه السلام رد الكلام إليه عزّ شأنه وأضاف الإخراج إلى ذاته عزّ وجلّ على طريقة المتكلم لا الحاكي وإن كان أول الكلام حكاية. ومثله قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] إلى قوله سبحانه: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ إلى غير ذلك.

وقال أبو حيان: يجوز أن يكون المفسر ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ويكون ﴿رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ من كلام عيسى عليه السلام على إضمار أعني لا على الصفة ﷺ عزّ اسمه واعتمده ابن الصائغ وجعله نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] على رأي. وفي أمالي ابن الحاجب إذا حكى حاكٍ كلاماً فله أن يصف المخبر عنه بما ليس في كلام المحكى عنه، واستبعد ذلك الحلبي والسفاقسي وهو الذي يقتضيه الإنصاف.

وقيل على الأول: إن بعضهم أجاز وقوع أن المفسرة بعد لفظ القول ولم يقتصر بها على ما في معناه فيقع حينئذ مفسراً له لكن أنت تعلم أنه لا ينبغي الاختلاف في أنه لا يقترن المقول المحكي بحرف التفسير لأن مقول القول في محل نصب على المفعولية والجملة المفسرة لا محل لها فلعل مراد البعض مجرد الوقوع والتزام أن المقول محذوف وهو المحكي وهذا تفسير له أي ما قلت لهم مقولاً فتدبر فقد انتشرت كلمات العلماء هنا.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي رقيباً أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك من غير واسطة ومشاهد لأحوالهم من إيمان وكفر، و(عليهم) كما قال أبو البقاء متعلق بشهيداً، ولعل التقديم لما مر غير مرة ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي مدة دوامي فيما بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى﴾ أي قبضتني بالرفع إلى السماء كما يقال توفيت المال إذا قبضته. وروي هذا عن الحسن وعليه الجمهور.

وعن الجبائي أن المعنى أمتن وادعى أن رفعه عليه السلام إلى السماء كان بعد موته وإليه ذهب النصارى وقد مر الكلام في ذلك ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الحفيظ المراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسول وإنزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ما قالوا، وقيل: المراد بالرقيب المطلع المشاهد، ومعنى الجملتين إني ما دمت فيهم كنت مشاهداً لأحوالهم فيمكن لي بيانها فلما توفيتني كنت أنت المشاهد لذلك لا غيرك فلا أعلم حالهم ولا يمكنني بيانها، ولا يخفى أن الأول أوفق بالمقام، وقد نص بعض المحققين أن الرقيب والشهيد هنا بمعنى واحد وهو ما فسر به الشهيد أولاً ولكن تفنن في العبارة ليميز بين الشهيدين والرقيبين لأن كونه عليه الصلاة والسلام رقيباً ليس كالرقيب الذي يمنع ويلزم بل كالشاهد

على المشهود عليه ومنعه بمجرد القول وأنه تعالى شأنه هو الذي يمنع منع إلزام بالأدلة والبينات، و(أنت) ضمير فصل أو تأكيد و(الرقيب خبر كان. وقرىء (الرقيب) بالرفع على أنه خبر أنت، والجملة خبر كان و(عليهم) في القراءتين متعلق بالرقيب.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه ـ على ما قيل ـ إيذان بأنه سبحانه كان هو الشهيد في الحقيقة على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم، و(على) متعلقة بشهيد، والتقديم لمراعاة الفاصلة. . .

﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي فإن تغفر لهم ما كان منهم لا يلحقك عجز بذلك ولا استقباح فإنك القوي القادر على جميع المقدورات التي من جملتها الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة، والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن لأنه أدخل في الكرم وإن كانت العقوبة أحسن في حكم الشرع من جهات أخر، وعدم المغفرة للكافر بحكم النص والإجماع لا للامتناع الذاتي فيه ليمتنع الترديد والتعليق بأن.

القاسمي ج ٦ ص ٤٢٥ ـ ٤٤٣

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ذكروه باسمه ونسبوه إلى أمه لئلا يتوهم أنهم اعتقدوا إلهيته أو ولديته، ليستقلّ بإنزال المائدة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال: سورة المائدة وههنا قراءتان: الأولى ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياء على أنه فعل وفاعل و﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ المفعول. والثانية ـ بالتاء و(ربك) نصب أي سؤال ربك. فحذف المضاف. والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه؟ وهي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومعاذ رضي الله عنهم. وسعيد بن جبير والكسائيّ، في آخرين.

قال أكثر المفسرين: الاستفهام على القراءة الأولى محمول على المجاز. إذ لا يسوغ لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكّوا في قدرة الله تعالى. . .

وذكر أبو شامة أن النبيّ ﷺ عاد أبا طالب في مرض. فقال له: يا ابن أخي! ادع ربك أن يعافيني. فقال: اللهمّ! اشف عمي. فقام كأنما نشط من عقال. فقال: يا ابن أخي! إن ربك الذي تعبده ليطيعك. فقال: يا عم! وأنت لو أطعته لكان يطيعك. أي يجيبك لمقصودك.

وحسنه في الحديث المشاكلة، فظهر أن العرب استعملته بهذا المعنى.

قال الخازن: وقال بعضهم: هو على ظاهره. وقال: غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم. وكانوا بشراً، فقالوا هذه المقالة. فرد عليهم غلطهم بقوله ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني اتقوا الله أن تشكّوا في قدرته.

والقول الأول أصح. انتهى.

وعليه فمعنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال، وأن توقفوا إيمانكم على رؤية المائدة إن كنتم به وبرسالتي (مؤمنين) فإن الإيمان مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات.

لطيفة: في المائدة قولان: الأول ـ أنها الطعام نفسه، من (ماد) إذا أفضل. كما في (اللسان) وهذا القول جزم به الأخفش وأبو حاتم. أي: وإن لم يكن معه خوان. كما في (التقريب) و(اللسان) وصرح به ابن سيده في (المحكم).

قال الفارسيّ: والآية صريحة فيه، قاله أرباب التفسير والغريب. والثاني ـ أنها الخوان عليه الطعام. قال الفارسيّ: لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام، وإلا فهي خوان، وصرّح به فقهاء اللغة، وجزم به الثعالبيّ وابن فارس. واقتصر عليه الحريريّ في (درة الغوّاص) وزعم أن غيره من أوهام الخواص. وذكر الفارسيّ في (شرحها) أنه يجوز إطلاق (المائدة) على (الخوان) مجرّداً عن الطعام، باعتبار أنه وضع أو سيوضع. وقال ابن ظفر:

ثبت لها اسم المائدة بعد إزالة الطعام عنها. كما قيل (لقحة) بعد الولادة. وقال أبو عبيد: المائدة في المعنى مفعولة، ولفظها فاعلة. وهي مثل عِيشَةٍ راضِيَةٍ. وقيل: من (ماد) إذا أعطى. يقال: ماد زيد عمراً، إذا أعطاه. وقال أبو إسحق: الأصل عندي في (مائدة) أنها فاعلة. من (ماد يميد) إذا تحرّك. فكأنها تميد بما عليها. أي: تتحرك. وقال أبو عبيدة: سميت (مائدة) لأنها مِيدَ بها صاحبها. أي: أُعْطِيَها وتُفُضِّلَ عليه بها. وفي (العناية): فكأنها تعطي من حولها مما حضر عليها. وفي (المصباح): لأن المالك مادها للناس: أي: أعطاهم إياها. ومثله في كتاب (الأبنية لابن القطاع): ويقال في المائدة مَيْدة. قاله الجرمي وأنشد:

ومَيْـدةٍ كثيـرةِ الألـوان

تُصنـع للجيـران والإخـوان

كذا في (القاموس وشرحه). والخُوان بضم الخاء وكسرها ما يؤكل عليه الطعام كما في (القاموس). معرّب كما في (الصحاح) و(العين). وقيل: إنه عربيّ مأخوذ من (تخونه) أي نقص حقه. لأنه يؤكل عليه فينقص. كذا في (العناية).

﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا ﴾ أي آمنا. لكنا نريد الأكل منها من غير مشقة تشغلنا عن عَبادة الله تعالى ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ أي فلا تعتريها شبهة لا يؤمن من ورودها، لولا مثل هذه الآية. فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلاليّ مما يوجب قوة اليقين ﴿ وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي في دعوى النبوة، وفيما تعدنا من نعيم الجنة، مع أنها سماوية ﴿ وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ أي فنشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً. ويؤمن بسببها كفارهم. أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

ثم لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، وأنهم لا يقلعون عنه، أزمع على استدعائها واستنزالها.

روى ابن حاتم؛ أنه توضأ واغتسل ودخل مصلاه، فصلّى ما شاء الله. فلما قضى صلاته قام مستقبل القبلة، وصفّ قدميه، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض بصره وطأطأ برأسه، خشوعاً. ثم أرسل عينيه بالبكاء. فما زالت دموعه تسيل على خديه، وتقطر من أطراف لحيته، حتى ابتلت الأرض حيال وجهه، من خشوعه. فعند ذلك دعا الله تعالى فقال: اللهم! ربنا. كما قال تعالى:

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ ﴾ أي: يا الله المطلوب لكل مهمّ، الجامع للكمالات، الذي ربانا بها. ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية، إظهاراً لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء ﴿ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أي التي فيها ما تعدنا من نعيم الجنة ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا ﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ونسرّ به، نحن الذين يدركونها. ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوّون في دينهم. و(العيد) العائد. مشتق من (العود) لعوده في كل عام بالفرح والسرور. وكل ما عاد عليك في وقت فهو عيد، قال الأعشى:

واكبـدي مـن لاعـج الحـب والهـوى

إذا اعتـاد قلبـي مـن أميمـةَ عيـدُهـا

كذا في (العناية).

وفي (القاموس) (العيد) بالكسر، ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه. وكل يوم فيه جمع «آية منك» أي: على كمال قدرتك وصدق وعدك وتصديقك إياي «وارزقنا» أي: أعطنا ما سألناك ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ أي: خير من يرزق. لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ إجابة لدعوتكم ﴿ فَمَن يَكْفُرْ ﴾ أي: بي وبرسولي «بعد» أي بعد تنزيلها، المفيد للعلم الضروريّ بي وبرسولي «مِنكُمْ» أيها المنعمّون بها ﴿ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي من عالَمي زمانهم. أو من العالَمين جميعاً. . .

ثم قال: ولكن الجمهور أنها نزلت. وهو الذي اختاره ابن جرير. قال: لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ ووعد الله ووعيده حق وصدق.

وهذا القول هو، والله أعلم، الصواب. كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. اهـ.

ومن الآثار ما أخرجه الترمذي عن عمار بن ياسر قال:

قال رسول الله ﷺ: أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد. فخانوا وادخروا ورفعوا لغد. فمسخوا قردة وخنازير. قال الترمذيّ: وقد روي عن عمار، من طريقٍ، موقوفاً وهو أصح.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس: أن عيسى ابن مريم، قالوا له: ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء. قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها. عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة. فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم.

وقد ساق ابن كثير آثاراً في نزولها لا تخلو عن غرابة ونكارة في سياقها، كما لا يخفى.

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم: قال فدعاه، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين. وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال: بل باب التوبة والرحمة.

ورواه الحاكم في مستدركه وابن مردويه.

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل (ماذا أجبتم) توبيخ من تمرد من أممهم. وأشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى، الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام. لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء، وطعن هؤلاء الملحدة تعدى إلى جلال الله وكبريائه، حيث وصفوه بما لا يليق أن يوصف مقامه به، وهو اتخاذ الزوجة والولد. فلا جرم، ذكر تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة، إشعاراً بعبوديته. فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة عليه، تدل على أنه عبد وليس بإله. ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره، عليه السلام، على رؤوس الأشهاد، بالعبودية، وأمره لهم بعبادة الله عزّ وجلّ. إكذاباً لهم في افترائهم عليه، وتثبيتاً للحجة على قومه؛ فهذا سر سؤاله تعالى له، مع علمه بأنه لم يقل ذلك. وكل ذلك لتنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول الآية ومَن تأثرهم، على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم.

تنبيهات:

الأول: روى عن قتادة: أن هذا القول يكون يوم القيامة لقوله تعالى ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾. وقال السديّ: هذا الخطاب والجواب، في الدنيا. وصوّبه ابن جرير، قال: وكان ذلك حين رفعه إلى السماء. واحتج ابن جرير على ذلك بوجهين: (أحدهما) أن الكلام بلفظ المضيّ؛ و(الثاني) قوله: إن تُعَذِّبْهُم. وإن تَغْفِرْ لَهُمْ.

قال الحافظ ابن كثير: وهذان الدليلان فيهما نظر. لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضيّ ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ . . . ﴾ الآية: التبرؤ منهم وردّ المشيئة فيهم إلى الله تعالى. وتعليقُ ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه. كما في نظائر ذلك من الآيات. فالذي قاله قتادة وغيره هو الأظْهَرُ. فالله أعلم أنّ ذلك كائن يوم القيامة، ليدلّ على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد.

وقد روى بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز، وكان ثقة قال: سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه، أبى موسى الأشعريّ، قال: قال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأُمَمِهم. ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقرّ بها فيقول: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ ﴾ . . . الآية، ثم يقول: ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ؟ ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيُسْئَلون فيقولون: نعم هو أمرنا بذلك! قال: فيطول شَعْر عيسى عليه السلام. فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عزّ وجلّ مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار! قال ابن كثير: وهذا حديث غريب عزيز!

الثاني: إيثار قوله تعالى (أُمِّيَ) على (مَرْيَم) توبيخ

للمتخذين، على توبيخ. أي مع أنك بشر تلد وتولد قبل هذا.

الثالث: توهم بعضهم أن كلمة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تفيد أنّ النصارى يعتقدون أن عيسى وأمه، عليهما السلام، مستقلان باستحقاق العبادة، بدلاً عن الله تعالى. كما يقال: اتخذت فلاناً صديقاً من دوني. فإن معناه أنه استبدله به، لا أنه جعله صديقاً معه. وهم لم يقولوا بذلك. بل ثلّثوا. فأجاب: بأن من أشرك مع الله غيره فقد نفاه معنى. لأنه وحده لا شريك له، منزه عن ذلك. فإقراره بالله كلا إقرار. فيكون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مجازاً عن (مَعَ الله). ولا يخفى أن هذا تكلف. لأن توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحاً لا بما يلزمه بضرب من التأويل. فالصواب أن المراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه. كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله عزّ وجلّ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ - إلى قوله. . . ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] إذ به يتأتي التوبيخ، ويتسنى التقريع والتبكيت. هذا ما حققوه هنا.

وأقول: إن كلمة (دون) في هذه الآية وأمثالها بمعنى (غير) كما حققه اللغويون. ولا تفيد وضعا الاستقلال والبدلية، كما توهم وسر ذكرها إفهام الشركة. لأنه لولاها لتوهم دعوى انحصار الألوهية فيما عداه. مع أنهم لا يعتقدون ذلك.. ولا يفهم من نحو (أتخذت صديقاً من دوني) الاستبدال. فذاك من قرينة خارجية. وإلا فالمثال لا يعينه. لجواز إرادة اتخاذه معه كما لا يخفى. فتبصر ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ أي أنزهك تنزيهاً لائقاً بك من أن يقال هذا وينطق به ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي ما يتصور مني بعد إذ بعثتني لهداية الخلق ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ أي في حق نفسي ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ما استقر في قلوب العقلاء عدم استحقاقي له مما يضلهم ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام، بالطريق البرهانيّ. فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعاً. فحيث انتفى علمه تعالى به، انتفى صدوره عنه حتماً. ضرورة، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم. قاله أبو السعود ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله. كأنه قيل: لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي. فكيف بما أعلنه؟ وقوله تعالى ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ بيان للواقع، وإظهار لقصوره. أي ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. أفاده أبو السعود ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به. وإنما قيل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ نزولاً على قضية حسن الأدب، ومراعاة لما ورد في الاستفهام. وقوله تعالى ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تفسير للمأمور به ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: رقيباً أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك، ويتأتى لي نهيهم عما أشاهده فيهم مما لا ينبغي ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: بالرفع إلى السماء كما في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] والتوفي: أخذ الشيء وافياً. والموت نوع منه. قال تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وسبق في قوله تعالى (يا عيسى إنِّي متوفِّيكَ) في (آل عمران) زيادة إيضاح على ما هنا. فتذكر ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الناظر لأعمالهم. فمنعتَ من أردت عصمته من التفوّه بذلك. وخذلت من خذلت من الضالين، فقالوا ما قالوا ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله. وفيه إيذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل، حين كونِهِ عليه السلام فيما بينهم.

تنبيه: دلت الآية على أن الأنبياء، بعد استيفاء أجلهم الدنيويّ، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم. وقد روى البخاريّ هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس! إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً. ثم قال: كما بدأنا أوّل خلقٍ نُعيدُه وعداً علينا إنَّا كُنَّا فاعلين. . . إلى آخر الآية. ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسىٰ يوم القيامة إبراهيم. ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب! أصيحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم.

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عزّ وجلّ. فإنه الفعال لما يشاء. ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. ويتضمن التبرؤ من النصارى الذين كذبوا على الله ورسوله. وجعلوا لله ندًّا وصاحبة وولداً. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً. انتهى. . .

يعني أن المغفرة، وإن كانت قطعية الانتفاء بحسب الوجود، لكنها لما كانت بحسب العقل، تحتمل الوقوع واللاوقوع، استعمل فيها كلمة (إن) فسقط ما يتوهم أن تعذيبهم، مع أنه قطعيّ الوجود، كيف استعمل فيه (إن) وعدم وقوع العفو بحكم النص والإجماع. وفي كتب الكلام: إن غفران الشرك جائز عقلاً عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة. لأن العقاب حق الله على المذنب، وليس في إسقاطه مضرة.

وبالجملة: فليس قوله تعالى ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ تعريضاً بسؤاله العفو عنهم. وإنما هو لإظهار قدرته على ما يريد، وعلى مقتضى حكمه وحكمته. ولذا قال: إنك أنت العزيز الحكيم، تنبيهاً على أنه لا امتناع لأحد عن عزته، فلا اعتراض في حكمه وحكمته.

قال الرازي: قال قوم: لو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، أشعر ذلك بكونه شفيعاً لهم. فلما قال: فإنك أنت العزيز الحكيم، دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه.

وفي (العناية) ما ملخصه: أن ما ظنه بعضهم من أن مقتضى الظاهر ﴿ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بدل ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ كما وقع في مصحف عبد الله بن مسعود ـ فقد غاب عنه سر المقام. لأنه ظن تعلقه بالشرط الثاني فقط، لكونه جوابه. وليس كما توهم. بل هو متعلق بهما. ومن له الفعل والترك عزيز حكيم. فهذا أنسب وأدق وأليق بالمقام، أو هو متعلق بالثاني، وإنه احتراس، لأن ترك عقاب الجاني قد يكون لعجز ينافي القدرة، أو لإهمالٍ ينافي الحكمة. فبيّن أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة. . .

روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلَى النّبي ﷺ ذات ليلة. فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول! لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت. تركع بها وتسجد بها؟ قال: إني سألت ربي عزّ وجلّ الشفاعة لأمتي؛ فأعطانيها. وهي نائلة، إن شاء الله، لمن لا يشرك بالله شيئاً.

وأخرجه النسائيّ أيضاً.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء. فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون. فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله. فلما رأى القومَ قد أخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلى. فجئت فقمت خلفه فأومأ إليّ بيمينه، فقمت عن يمينه. ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي. وخلفه، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله. فقمنا ثلاثتنا يصلّي كل واحد منا بنفسه، ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو. وقام بآية من القرآن يرددها، حتى صلّى الغداة. فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود: أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة؟ فقال ابن مسعود: لا أسأله عن شيء حتى يُحدث إليّ، فقلت: بأبي وأمي! قمتَ بآية من القرآن ومعك القرآن. لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه. قال: دعوت لأمتي. قلت: فماذا أجبت؟ أو ماذا رد عليك؟ قال: أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة، تركوا الصلاة. قلت: أفلا أبشر الناس، قال: بلى. فانطلقت مُعْنِقاً قريباً من قذفةٍ بحجر. فقال عمر: يا رسول الله! إنك إن تبعث بهذا نكلوا عن العبادة. فناداه أن أرجع. فرجع. . .

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبيّ ﷺ تلا قول الله عزّ وجلّ في إبراهيم ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى . . . ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

﴿فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال: اللهم! أمتي أمتي. وبكى. فقال الله تعالى: يا جبريل! اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فاسأله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم. فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.

محمد عبده ج ٧ ص ٢٤٤ ـ ٢٧٥

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ وهو على طريقة ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] ـ أي في التعبير عن المستقبل بالماضي ـ والمعنى أنه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم وتعديد ما ظهر عليهم من الآيات، فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة، وغلا آخرون واتخذوهم آلهة. أو نصب بإضمار ﴿ٱذْكُرْ﴾ اهـ.

والنعمة تستعمل مصدراً واسماً لما حصل بالمصدر، والمفرد المضاف يفيد التعدد. والمعنى: اذكر أنعامي عليك وعلى والدتك وقت تأييدي إياك بروح القدس إلخ أو اذكر نعمي حال كونها واقعة عليك وعلى والدتك إذ أيدتك أي قويتك شيئاً فشيئاً بروح القدس الذي تقوم به حجتك، وتبرأ من تهمة الفاحشة والدتك، حال كونك تكلم الناس في المهد بما يبرئها من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أباً له ـ وكهلاً حين بعثت فيهم رسولاً تقيم عليهم الحجة، بما ضلوا به عن المحجة. فكلامه في المهد هو قوله ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] إلخ ما ذكر في سورة مريم.

وروح القدس هو ملك الوحي الذي يؤيد الله به الرسل بالتعليم الإلهي والتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها، قال تعالى في شأن القرآن ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقد تقدم في موضعين من سورة البقرة، وقال تعالى ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ أي ونعمتي عليك إذ علمتك قراءة الكتاب أي ما يكتب ـ أو الكتابة بالقلم ـ أي وفقتك لتعلمها، والحكمة وهي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه الأحكام، والتوراة ـ وهي الشريعة الموسوية، والإنجيل ـ وهو ما أوحاه تعالى إليه من الحكم والأحكام، والبشارة بخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، وقد سبق لنا تفصيل القول في حقيقة التوراة والإنجيل في تفسير أول سورة آل عمران (ص ١٥٥ ـ ١٥٩ ج ٣ تفسير) وفي تفسير هذه السورة (ص ٢٨٣ ـ ٣٠٢ ج ٦ تفسير)

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ قرأ نافع هنا وفي آية آل عمران ﴿فَتَكُونُ طَٰٓئِرًۢا﴾ والطائر واحد الطير ـ كراكب وركب ـ والجمهور ﴿فَتَكُونُ طَيْرًۢا﴾ قيل هو جمع وقيل اسم جمع، وأجاز أبو عبيدة وقطرب إطلاق طير على الواحد ولعله مبني على أن أصله المصدر كما وجهه ابن سيده. ولفظ الطير مؤنث بمعنى جماعة. والخلق في أصل اللغة تقدير أي جعل الشيء بمقدار معين. يقال خلق الإسكافي النعل ثم فراه، أي عين شكله ومقداره ثم قطعه قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ
ـض القوم يخلق ثم لا يفري

ومنه خلق الكذب والإفك قال تعالى ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] أي تقدرون وتزورون كلاماً يأفك سامعه أي يصرفه عن الحق. ويستعمل في إيجاد الله تعالى الأشياء بتقدير معين في علمه. والمعنى: واذكر نعمتي عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيراً بإذن الله ومشيئته، أو بتسهيله أو تكوينه، إذ يجعل جلت قدرته

نفسَك سبباً لحلول الحياة في تلك الصورة من الطين، فأنت تفعل التقدير والنفخ، والله هو الذي يكوّن الطير. وقد تقدم في تفسير نظير هذه الآية من سورة آل عمران كلام عن شيخنا الأستاذ الإمام مضمونه أن عيسى عليه السلام أعطي هذه الآية أي مكنه الله منها ولم يفعلها. واستدركنا على ذلك بالإشارة إلى دلالة آية المائدة هذه على وقوعها من غير جزم بذلك، وبينا سر ذلك وحكمته عند الصوفية وهو قوة روحانية عيسى عليه السلام، ولا يبعد كتمان اليهود لهذه الآية إذا كان رآها بعضهم مرة واحدة وعدها من السحر اعتقاداً أو مكابرة وخاف أن تجذب قومه إلى المسيح. . .

﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ عُطف التذكير بإبراء الأكمه والأبرص على ما قبله مباشرة فلم يُبدأ بإذ، وبدىء بها التذكير بإخراج الموتى، فكان عطفاً على قوله ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ ولعل نكتة ذلك أن إبراء الأكمه والأبرص من جنس شفاء المرض الذي قد يقع بعض أفراده على أيدي غير الأنبياء المرسلين، ولا سيما من يظن المرضى فيهم الصلاح والولاية، فلما كان كذلك ذكر بالتبع لإحياء الصورة من الطير، ولما كان إحياء الموتى أعظم جعل نعمة مستقلة فقرن بإذ. والمراد بالأكمه والأبرص والموتى الجنس ـ والأكمه من ولد أعمى، ويطلق على من عمي بعد الولادة أيضاً. وفي كتب العهد الجديد أنه أبرأ كثيراً من العمي والبرص وأحيا ثلاثة أموات (الأول) ابن أرملة وحيد في (نايين) كانوا يحملونه على النعش فلمس النعش وأمر الميت أن يقوم منه فقام فقال الشعب «قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه» أي شعب إسرائيل اهـ (من انجيل لوقا ٧: ١١ ـ ١٧) (الثاني) ابنة رئيس ماتت ودعاه لإحيائها فجاء بيته وقال للجمع «تنحوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية» والقصة في (انجيل متى ٩: ١٨ ـ ٢٦) ونفيه لموتها ثم إثباته لنومها ينافي أن يكون أراد بالنوم الموت مجازاً على ما نقل عنه في غير هذا الموضع. وعليه يقال يحتمل أن يكون أغمي عليها فظنوا إنها ماتت فعلم بالكشف أو الوحي إنها لم تمت. والمسلمون لا يثقون بنقول القوم ولا بدقتهم في الترجمة ومراعاة ما يدل عليه الإثبات بعد النفي (الثالث) لعازر الذي كان يحبه جداً ويحب أختيه مريم ومرتا كما يحبونه، ففي الفصل الحادي عشر من انجيل يوحنا أنه كان مات في بيت عنيا ووضع في مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرفع عينيه إلى فوق وقال (أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت. ليؤمنوا إنك أرسلتني، ولما قال هذا: صرخ بصوت عظيم «لعازر هلمّ خارجاً» فخرج الميت) إلخ ملاحدة أوربة يزعمون أن لعازر تماوت بإذن المسيح والتواطىء معه. . . وقد كذبوا أخزاهم الله تعالى. ولم ينقل النصارى عنه أنه أحيا أمواتاً كانوا تحت التراب بعد البلى كما نقل عن دانيال عليهما السلام وتكرار كلمة الإذن بتقييد كل فعل من تلك الأفعال بها يفيد إنه ما وقع شيء منها إلا بمشيئة الله الخاصة وقدرته. والأذن يطلق على الإعلام بإجازة الشيء والرخصة فيه وعلى الأمر به وكذا على المشيئة والتيسير. كقوله تعالى ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ومحال أن يكون معناه بإجازته أو أمره، ومثله بل أظهر منه قوله ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦] أي بإرادته وتيسيره.

﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين كففت بني إسرائيل عنك فلم أمكنهم من قتلك وصلبك وقد أرادوا ذلك وقت تكذيب كفارهم إياك وزعمهم أن ما جئت به من البينات لم يكن إلا سحراً ظاهراً، لا من جنس الآيات التي جاء بها موسى، على إنها مثلها أو أظهر منها. قرأ الجمهور ﴿ سِحْرٌ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي (ساحر) بالألف، ورسمها في المصحف الإمام بغير ألف ككلمة (ملك) في الفاتحة وتقرأ ﴿مَٰلِكِ﴾ وكلمة (الكتب) في عدة سور تقرأ فيها (الكتاب) بالأفراد كما تقرأ في بعضها بصيغة الجمع، ولو كتبت هذه الكلمات بالألف لما احتملت إلا

قراءة المد وحدها. وظاهر أن قراءة الجمهور ﴿سِحْرٌ﴾ يراد بها أن تلك البينات التي جاء بها من السحر وهو التمويه والتخييل الذي يري الإنسان الشيء على غير حقيقته، أو ما له سبب خفي عن غير فاعله، ـ وأن قراءة (ساحر) يراد بها أن من أتى بتلك البينات ساحر، إذ جاء بأمر صناعي أو بتخييل باطل. والمراد من القراءتين كلتيهما أن الذين كفروا بعيسى عليه السلام طعنوا في تلك الآيات بأنها سحر، وفيمن جاء بها بأنه من جنس السحرة، أي فلا يعتد بشيء مما يظهر على يديه من خوارق العادات، فأفاد أنهم لا يؤمنون وإن جاءهم بآيات أخرى، إذ لم يكن الطعن فيما كان قد جاء به لشبهات تتعلق بها، وإنما كان عن عناد ومكابرة ادعوا بهما أن السحر صنعة له يجب أن يوصف به كل شيء غريب يجيء به.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك ـ وقد كذبك جمهور بني إسرائيل ـ فجعلتهم أنصاراً لك يؤيدون حجتك، وينشرون دعوتك. والوحي في أصل اللغة الإشارة السريعة الخفية، أو الإعلام بالشيء بسرعة وخفاء، كما بيناه من قبل. ولو وجد هذا التلغراف في عهد العرب الخلّص لسموا خبره وحيا، والمصريون يسمونه حتى في الرسميات إشارة. وأطلق الوحي في القرآن على ما يلقيه الله تعالى في نفوس الأحياء من الإلهام كقوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] وقوله ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] وهكذا ألقى الله تعالى في قلوب الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسى عليه السلام، وقيل الوحي إليهم هو ما أنزل على أنبيائهم والحواريون جمع حواريّ وهو من خلص لك وأخلص سراً وجهراً في مودتك، ومعناه في أصل اللغة الأبيض النقي اللون، والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود لبياضهن، قال في اللسان: والاعراب تسمي نساء الأمصار حواريات لبياضهن وتباعدهن من قشف الاعراب بنظافتهن، قال:

فقلت إن الحواريات معطبةٌ
إذا تفتلن من تحت الجلابيب

وأما الحور العين فهما جمع حوراء وعيناء، من الحور (بالتحريك) وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها، فالحوراء مؤنث الأحور، والحوارية مؤنث الحواري. ثم استعمل الحواريّ بمعنى النقي الخالص في غير اللون، قال في اللسان: وقال بعضهم: الحواريون صفوة الأنبياء الذين خلصوا لهم، قال الزجاج: الحواريون خلصان الأنبياء عليهم السلام وصفوتهم، قال: والدليل على ذلك قول النبي (ص) «الزبير ابن عمتي، وحواريّ من أمتي» أي خاصتي من أصحابي وناصري ـ قال ـ وأصحاب النبي (ص) حواريون. وتأويل الحواريين في اللغة الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب. اهـ. واللغة لا تدل على النقاء من كل عيب بهذا التحديد، وإنما تدل على النقاء والخلوص مطلقاً، فيكفي في صحة الإطلاق أن يكونوا قد خلصوا لنصره، أو خلصوا ونقوا من الكفر والنفاق. وقد حكى الله عنهم هنا إنهم قالوا: آمنا. أي بالله ورسوله عيسى عليه السلام. وأشهدوا الله على أنفسهم إنهم مسلمون، أي مخلصون في إيمانهم مذعنين لما يترتب عليه من الأمر والنهي، وحكى عنهم في سورتي [آل عمران] و[الصف] أنهم حين قال المسيح ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] قالوا ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران ٥٢].

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسير ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ ما نصه: كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جر بينه عليه السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبيء عنه الإظهار في موقع الإضمار، و«إذ» منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام، بطريق تلوين الخطاب والالتفات، لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فإنه ليس بخطاب وإنما هو حكاية خطاب، بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ـ الآية ـ فتأمل، كأنه قيل للنبي (ص) عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام: أذكر للناس وقت قولهم إلخ وقيل هو ظرف

لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص، لم يكن عن تحقيق وإيقان، ولا يساعده النظم الكريم. اهـ. . .

أقول في متعلق الظرف قولان للمفسرين رجح أبو السعود المشهور منهما وهو الأول ورد الثاني الذي جرى عليه الزمخشري في الكشاف وهو أنه متعلق بقوله تعالى ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي ادعوا الإيمان وأشهدوا الله على أنفسهم إنهم مسلمون مخلصون في إيمانهم في الوقت الذي قالوا فيه ما ينافي ذلك وهو قولهم ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ويقول الزمخشري إن الله تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام وإنما حكى قولهم حكاية ووصله بما يدل على كذبهم فيه وهو سؤالهم هذا وجوابه عليه السلام لهم إذ أمرهم بتقوى الله إن كانوا مؤمنين حقاً، وإصرارهم على السؤال بعد ذلك، ووجه رد هذا القول إنه لو كان هو المراد لقيل ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ ولم يقل ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ ولما صح أن تكون دعوى الإيمان من الحواريين نعمة من الله على عيسى ـ وهي كاذبة ـ ولا أن تكون عن وحي من الله تعالى. ولكن هذا الأخير لا يرد على الزمخشري لأنه فسر الوحي إلى الحواريين بالإيمان بأنه أمر الله إياهم بذلك على ألسنة الرسل، أي أمره إياهم مع غيرهم إذ كلف الناس كافة بأن يؤمنوا بما تجيئهم به الرسل. ولكن يرد قوله أيضاً تسميتهم بالحواريين وما في سورتي آل عمران والصف من إجابتهم عيسى إلى نصره. ولعله يرى أن هذا شأنهم في أول الدعوة ثم آمنوا بعد ذلك وصاروا أنصار الله ورسوله عيسى عليه السلام.

وقد حكى أبو السعود بعدما ذكرناه عنه الخلاف في إيمانهم. ومنشأ هذا الخلاف كلمة ﴿يَسۡتَطِيعُ﴾ وقد قرأ الكسائي «هل تستطيع ربَّك» قالوا أي سؤال ربك، وهذه القراءة مروية عن علي وعائشة وابن عباس ومعاذ من علماء الصحابة (رض) وقد صحح الحاكم عن معاذ أن النبي (ص) أقرأه «تستطيع ربك» ومثله في ذلك غيره لأن تلقين القرآن لا يتوقف على تصريح الصحابي برفعه، وقرأ الجمهور ﴿يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وهذا الذي استشكل بأنه لا يصدر عن مؤمن صحيح الإيمان. . .

وأقول ربما يظن الأكثرون أن هذا الوجه الأخير تكلف بعيد وليس كذلك. فالاستطاعة استفعال من الطوع وهو ضد الكره. قال تعالى ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فصلت: ١١] وفي لسان العرب: الطوع نقيض الكره، طاعه يطوعه وطاوعه، والاسم الطواعة والطواعية ﴿ثُمَّ قَالَ﴾ ويقال طعت له وأنا أطيع طاعة، ولتفعلنه طوعاً أو كرهاً، وطائعاً أو كارهاً، وجاء فلان طائعاً غير مكره. . . قال ابن سيده: وطاع يطاع وأطاع ـ لان وانقاد، وأطاعه إطاعة وانطاع له كذلك. وفي التهذيب: وقد طاع له يطوع إذا انقاد له بغير ألف، فإذا مضى لأمره فقد أطاعه. فإذا وافقه فقد طاوعه، اهـ. فيفهم من هذا أن إطاعة الأمر فعله عن اختيار ورضى ولذلك عبر به عن امتثال أوامر الدين لأنها لا تكون ديناً إلا إذا كانت عن إذعان ووازع نفسي. والذي أفهمه أن الاستفعال في هذه المادة كالاستفعال في مادة الإجابة، فإذا كان «استجاب له» بمعنى أجاب دعاءه أو سؤاله ـ فمعنى استطاعه أطاعه، أي انقاد له وصار في طوعه أو طوعاً له. والسين والتاء في المادتين على أشهر معانيهما وهو الطلب، ولكنه طلب دخل على فعل محذوف دل عليه المذكور المترتب على المحذوف. فأصل استطاع الشيء ـ طلب وحاول أن يكون ذلك الشيء طوعاً له فأطاعه وانقاد له، ومعنى استجاب ـ سئل شيئاً وطلب منه أن يجيب إليه فأجاب. فبهذا الشرح الدقيق تفهم صحة قول من قال من المفسرين أن يستطيع هنا بمعنى يطيع، وأن معنى يطيع يفعل مختاراً راضياً غير كاره، فصار حاصل معنى الجملة «هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك؟» والمائدة في اللغة الخوان الذي عليه الطعام، فإذا لم يكن عليه طعام لا يسمى مائدة، وقد يطلق لفظ المائدة على الطعام نفسه حقيقة أو مجازاً من اطلاق اسم المحل على الحال، وهو اسم فاعل من ماد بمعنى تحرك أو من ماد أهله بمعنى نعشهم كما في الأساس أي أعاشهم وسد فقرهم، كأنها هي تميد من يجلس إليها ويأكل منها. وقيل إنها بمعنى اسم المفعول على حد: عيشة راضية ﴿قَالَ

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي قال عيسى لهم اتقوا الله أن تقترحوا عليه أمثال هذه الاقتراحات التي كان سلفكم يقترحها على موسى لئلا تكون فتنة لكم فإن من شأن المؤمن الصادق الإيمان أن لا يجرب ربه ـ أو أن يعمل ويكسب ولا يطلب من ربه أن يعيش بخوارق العادات، وعلى غير السنن التي جرت عليها معايش الناس. أو المعنى اتقوا الله وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عسى أن يعطيكم ذلك، من باب قوله تعالى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي نطلبها لثلاث فوائد (احداها) إننا نريد أن نأكل منها لأننا في حاجة إلى الطعام ولا نجد ما يسد حاجتنا، وقيل المراد أكل التبرك (الثانية) نريد أن تطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة الله بمشاهدة خرقه للعادة، أي بضم علم المشاهدة واللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال (الثالثة) أن نعلم هذا النوع من العلم ـ أي علم المشاهدة ـ أن الحال والشان معك هو أنك قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الإيمان، كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات (الرابعة) أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل فيؤمن المستعد للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيماناً ـ فهذا ما نراه في توجيه أقوالهم، على المختار من صحة إيمانهم.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي لما علم عيسى عليه السلام صحة قصدهم وأنهم لا يريدون تعجيزاً ولا تجربة دعا الله تعالى بهذا الدعاء، فناداه باسم الذات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة والحكمة والرحمة وغير ذلك فقال ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ ومعناه يا ألله، ثم باسم الرب الدال على معنى الملك والتدبير والتربية والإحسان خاصة، فقال ﴿رَبَّنَآ﴾ أي يا ربنا ومالكنا كلنا ومتولي أمورنا ومربينا، أنزل علينا مائدة سماوية، جثمانية أو ملكوتية، يراها هؤلاء المقترحون بأبصارهم، وتتغذى بها أبدانهم أو أرواحهم، ولو لم يقل من السماء لشمل الطلب إعطاءهم مائدة من الأرض ولو بطريقة عادية، فإن كل ما يعطى من الله تعالى يسمى انزالاً. لتحقق معنى العلوّ المطلق غير المقيد بجهة من الجهات لله سبحانه هو العلي القاهر فوق عباده. . .

وكلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور، وبمعنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين أو أيام معينة من السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا، ولذلك قال السدي في تفسير العبارة: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه. وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وقال سلمان الفارسي (رض) عظة لنا ولمن بعدنا، ويصح أن يسمى طعام العيد عيداً على سبيل المجاز كما أشرنا إليه آنفاً.

وقوله ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ معناه وتكون آية وعلامة منك على صحة نبوتي ودعوتي، ولعل المراد بنص قوله «منك» ـ مع العلم بأن كل شيء منه تعالى ولا سيما الآيات ـ النص على أن الآيات إنما تكون من الله وحده، أو أن تكون المائدة من لدنه تعالى بغير واسطة منه عليه السلام تشبه السبب كالآيات السابقة. ومما نقل عنه وعن نبينا عليهما الصلاة والسلام إطعام العدد الكثير من الطعام القليل بخلق الله الزيادة فيه، وروي عن نبينا أيضاً إسقاء العدد الكثير من الماء القليل إذ وضع يده فيه فصار يزيد ويفور من بين أصابعه. فأمثال هذه الآيات ـ وإن كانت من الله ككل شيء ـ تحصل بما يشبه الأسباب، وفيها مجال لاشتباه المرتاب، لأن كل من يأخذ من ذلك الطعام أو الماء فإنما يأخذ من شيء كان موجوداً وهو لم يشاهد حدوث الزيادة فيه. وينقل الناس مثل هذا عن غير الأنبياء من الصالحين، كالسحرة والمشعوذين، وقد كان معروفاً في بني إسرائيل، ولذلك وصف الحواريون المائدة بما وصفوها به، وقال هو «وآية منك» لتوافق مطلوبهم فلا يقترحوا شيئاً آخر، وإنني أذكر حكايتين عن بعض المعاصرين توضح ما أريد:

حدثني الثقة أن بعض رجال العلم والدين عاد مريضاً

من الرجال المعتقدين المشهورين بالكرامات فأقام عنده في حجرة النوم ساعة وكان قد نقه، ثم أراد الانصراف فآلى عليه أن يتعشى معه، ثم دعى الخوان فنصب ولم يوضع عليه شيء من الطعام، فجلس إليه الشيخان وصار المزور يقترح على الزائر أن يذكر ما يشتهي من ألوان الطعام وكلما ذكر شيئاً مد المزور صاحب الدار يده فأخرج صحناً من تحت كرسي أو أريكة بجانبه مملوء بذلك اللون وهو سخن يتصاعد بخاره، حتى ذكر عدة ألوان لا تناسب بينها ولم تجر عادة البلد بالجمع بينها، وأبعد من ذلك أن تكون طبخت ووضعت تحت ذلك الكرسي وبقيت على حرارتها كل تلك المدة. فأمثال هذه الحكاية يعدها بعض من ثبتت روايتها عنده من الخوارق، ويعدها بعضهم من الشعوذة والحيل التي اكتشف مثلها وهو موضع الحكاية الثانية:

حدثني شيخ من كبار شيوخ الطريق والمناصب العلمية بواقعة وقعت لوالده ـ وكان معتقداً محترماً ـ مع رجل غريب جاء مدينتهم وظهر على يديه عدة غرائب عدت من الكرامات، وقال: إن والده أخذ هذا الرجل مرة وطاف به في ضواحي البلد مدة طويلة انتهوا في آخراها إلى المقبرة التي دفن فيها أجدادهم فزاروا قبورهم واستراحوا هنالك وشكوا ما عرض لهم من الجوع بطول المشي، فأظهر والد محدثي للشيخ الغريب إنه يمكنهم أن يستضيفوا أجداده السادة الكرام، ثم نادى أحدهم واستجداه ودس يده في تراب قبره فأخرج منه صحفة فيها كروش غنم مطبوخة وهي محشوة بالرز واللحم والصنوبر، فأكلوا منها فإذا هي حارة، وقد استطابها الرجل الغريب جداً حتى توهم أنها ليست من طعام الدنيا. ولا أذكر أكان اختيار هذه الأكلة وإخراجها باقتراح الرجل نفسه أم باقتراح غيره وإنما أظن ظناً قوياً إنها اقترحت.

قال محدثي: وسر هذه المسألة أن والدي أمر قبل خروجه بأن تطبخ عندنا هذه الكروش ويأخذها أحد الخدم أو المريدين (الشك مني) فيدفنها في ذلك القبر في صحفة مغطاة بحيث تبقى سخنة ولا يصيبها تراب، وإنما فعل ذلك لاختبار الرجل وحمله إياه على مكاشفته بحقيقة ما يعمله من الغرائب في مقابلة اخباره إياه بسر هذه المسألة، ولا أتذكر ما كان من أمرهما بعد ذلك فإنني سمعت هذه القصة في أوائل العهد بطلب العلم.

فأمثال هذه الوقائع التي يعهدها الناس في كل زمان ويعلمون أن منها ما هو حيل أو صناعة تتلقى بالتعليم والتمرين ـ هي التي حملت بعض الناس على الشك والارتياب في آيات الأنبياء، وبعضهم على تسميتها سحراً مبينا، وبعضهم على التثبت فيها للتفرقة بين الحق والباطل، وهو ما طلبه الحواريون لأجل تحصيل العلم اليقيني الذي تطمئن به قلوبهم وتقوم به حجتهم على غيرهم، على ما اخترناه مع الجمهور من صحة إيمانهم قبل طلب المائدة، أو لأجل تحصيل اليقين في الإيمان بعد التسليم في الظاهر كما اختار الزمخشري وغيره، ولهذه الحكمة جعل الله تعالى الآية الكبرى لرسالة خاتم رسله (ص) علمية حتى لا يبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق المخلصين فيها. وهي اتيان رجل أمي عاش بين الأميين إلى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين الذي لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه إلخ إلخ وأما قوله عليه السلام ﴿ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ فمعناه وارزقنا منها أو من غيرها ما تتغذى به أجسامنا أيضاً وأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بحساب، وترزق من تشاء بغير حساب. ومن محاسنه أنه أخر ذكر فائدة المائدة المادية عن ذكر فائدتها الدينية الروحية، أو معناها وارزقنا الشكر عليها، وربما يقويه إنذار الله من يكفر بعد إنزالها إذ قال: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع منزلها بالتشديد من التنزيل المفيد للتكثير أو التدريج، والباقون منزلها بالتخفيف من الإنزال، وقيل إنهما هنا بمعنى واحد. أي وعد الله عيسى بتنزيلها عليهم مرة أو مراراً، ولكنه رتب على هذا الوعد شرطاً أي شرط، فقال ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، مثل ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ

﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] والمعنى إن من يكفر منهم بعد هذه الآية التي اقترحوها على الوجه الذي لا يحتمل الاشتباه ولا التأويل فإن الله تعالى يعذبه عذاباً شديداً لا يعذب مثله أحداً من سائر كفار العالمين كلهم أو عالمي أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية. وإنما يعاقب الخاطىء والكافر بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر، والبعد فيه عن الشبهة والعذر، وما أعطي من موجبات الشكر، وأي شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله ثم يقترح آية بينة على وجه مخصوص تشترك في العلم بها جميع حواسه، وينتفح بها في دنياه قبل آخرته، فيعطى ما طلب أو خيراً منه ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه ويكون من الكافرين؟

وقد اختلف مفسرو السلف في المائدة أنزلت بالفعل أم لا؟ فروي عن بعضهم إنها نزلت، واختلف هؤلاء في الطعام الذي نزل ـ أي أعطي على وجه المعجزة من الله ـ فأبهمه بعضهم، وقيل هو خبز وسمك، وصرح بعضهم بأن الخبز من الشعير، وقيل خبز ولحم، وقيل من ثمار من الجنة، وقيل كل شيء إلا اللحم. وقيل كان ينزل عليهم طعام أينما ذهبوا كما كان ينزل المن على بني إسرائيل. ولا يصح من أسانيد هذه الروايات شيء، ولذلك رجح ابن جرير نزولها انجازاً للوعد وأنه كان عليها مأكول لا نعينه، بل قال غير جائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وقال إن العلم به لا ينفع والجهل به لا يضر. ونقول إذاً إنه يصدق بمثل ما كان ينزل على بني إسرائيل في التيه من المن الذي يجمعونه عن الحجارة وورق الشجر، وعبارة ابن عباس عند ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد من طريق عكرمة: كان طعاماً ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا، ويصدق بما يأتي عن انجيل يوحنا من إطعام الألوف في عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين أكل منها أول ذلك الجمع كآخره.

وقال آخرون إنها لم تنزل البتة قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وقال قائلون إنها لم تنزل، فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. قال ابن جرير: حدثنا القاسم ـ هو ابن سلام ـ حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام، وعنه قال: أبوها حين عرض عليهم العذاب أن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم. وقال أيضاً: حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل. وحدثنا بشر حدثنا يزيد وحدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول لما قيل لهم ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل. وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن. وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم بالتواتر ولا أقل من الآحاد والله أعلم، اهـ. ثم ذكر الحافظ رأي الجمهور وترجيح ابن جرير له وذكر الرازي أن الذين قالوا بنفي نزولها احتجوا عليه بوجهين ذكرهما وأجاب عنهما فقال (أحدهما) أن القوم لما سمعوا قوله ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استغفروا وقالوا لا نريدها (والثاني) أنه وصف المائدة بكونها عيداً لأولهم وآخرهم فلو نزلت لبقي ذلك العيد إلى يوم القيامة. وبعد ذكر قول الجمهور بنزولها لوجوب إنجاز الوعد الجازم غير المعلق قال ـ «والجواب عن الأول أن قوله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ﴾ شرط وجزاء لا تعلق له بقوله ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والجواب عن الثاني أن يوم نزولها كان عيداً لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم، اهـ.

أقول: أما جوابه عن الحجة الأولى ففي غير محله لوجهين (أحدهما) أنها عبارة عن خبر إن صح لا ترد صحته بكون جملة الوعيد الشرطية غير متعلقة بجملة الوعد، إلا إذا قاله هذان التابعيان الأجلاء من قبيل التفسير بالرأي، والأقرب أن له عندهما أصلاً مرفوعاً، فالأولى أن يحمل على وجه يتفق مع صدق الوعد، وهو (الوجه الثاني) وذلك بأن يقال إن جملة الوعيد مرتبة على جملة الوعد لعطفها عليها بالفاء كما بيناه آنفاً، وهذا الترتيب كافٍ لحمل الحواريين على ترك طلبها بل طلب الاستقالة من إنزالها. وما كان مثل الحسن ومجاهد وقتادة من أئمة

التفسير ليخفى عليهم أن الوعد غير معلق بشرط وأنه إنما جعل الوعيد مرتباً عليه ترتيباً، ولكنهم رأوا أن هذا سبب كافٍ في عدم معارضة الوعد لما رووه من تنصل القوم واستقالتهم من ذلك الطلب وإقالة الله إياهم منه. وحينئذ لا يكون عدم إنزالها إخلافاً للوعد، فإن من وعد غيره بشيء وأراد أن ينجزه له مرتباً عليه تكليفاً أو تخويفاً حمل الموعود على عدم القبول لا يسمى مخلفاً وأما جوابه عن الحجة الثانية فهو دعوى تحتاج إلى إثبات إذ لا يثبت أنه كان عند أتباع المسيح عيد للمائدة إلا بنص عن المعصوم أو نقل يعتد به من تاريخهم. وسيأتي ما عند النصارى من ذلك وأنه ليس ببعيد ليوم نزول المائدة والظاهر أن الرازي لم يطلع عليه، ومنه يعلم ما في قول الحافظ ابن كثير: إن النصارى لا تعرف خبر المائدة وإنه ليس في كتابهم المقدس عندهم، نعم إن كتابهم أو كتبهم ليس لها أسانيد متصلة بالتواتر ولا بالآحاد. ولكن يقال مع ذلك إنه لو كان لسلفهم عيد عام للمائدة لكان من الشعائر التي تتوفر الدواعي على نقلها بالقول والعمل. ويجاب بأنه يجوز أن يكون المراد بالعيد اجتماع الحواريين وأمثالهم لصلاة ونحوها كما قيل، فإن هذا يجوز أن ينسى لإخفائهم إياه في زمن الاضطهاد، أو بأن الذين أظهروا النصرانية بعد استخفاء أهلها بالاضطهاد لا يدخلون في عموم قوله (وآخرنا) لأنهم بدلوا وهو الذي أجاب به الرازي، أو بان المراد بالعيد الذكرى والموعظة لمؤمنيهم المتبعين له عليه السلام كما تقدم عن سلمان (رض).

ويجوز أيضاً أن يكون العيد بغير اسم المائدة، وأن يكون معنى قوله ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ـ تكون طعاماً للعيد. وهو يصدق باطعامه العدد الكثير من الخبز والسمك القليل في عيد الفصح كما يأتي قريباً.

ثم إن كتب النصارى من الأناجيل وغيرها قسمان أحدهما قانوني وهو ما أقرته الكنيسة واعتمدته، والثاني غير قانوني وهو ما رفضته الكنيسة ولم تعتمده، ومنه انجيل برنابا الذي صرح فيه بالتوحيد الخالص والبشارة بنبوة محمد ﷺ، وانجيل الطفولية الذي ذكر فيه مسألة جعله هيئة من الطين كهيئة الطير نفخ فيها فطارت، فيجوز أن يكون خبر هذه القصة في بعض الأناجيل التي رفضتها الكنيسة وفقدت بعد ذلك، وقد صرح يوحنا في انجيله بأن الآيات التي عملها المسيح كثيرة لو كتبت كلها لا يسع العالمُ الكتب المكتوبة ـ وإننا نرى بعض أصحاب الأناجيل الأربعة المعتمدة كتب منها ما لم يكتبه الآخرون.

وقد صرحوا بأن أكثر كلام المسيح كان أمثالاً ورموزاً، ويعدون من هذه الرموز كل ما ورد من خبر الأكل والشرب في الملكوت وكذلك بعض النصوص في الأكل والشرب في الدنيا. فما يدرينا أنهم أشاروا إلى هذه القصة ببعض التأويلات حسب فهمهم واعتقادهم إذ كانوا ينقلون ذلك بالمعنى ثم نقل عنهم بالترجمة وقد فقدت الأصول ولا يعلم عنها شيء يقيني كما بينا ذلك من قبل بالنقول عنهم.

وأنا أذكر هنا ما في هذه الأناجيل بمعنى قصة المائدة: جاء في أول الفصل السادس من انجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام ذهب إلى بحر الجليل (بحيرة طبرية) وتبعه خلق كثير لأنهم رأوا آياته، فصعد إلى جبل وجلس هناك مع تلاميذه ـ وهم الحواريون ـ قال يوحنا (٤ وكان الفصح عيد اليهود قريباً ٥ فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مقبل إليه فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل ٧ أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً ٨ قال له واحد من تلاميذه وهو اندراوس أخو سمعان بطرس ٩ هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء ١٠ فقال يسوع اجعلوا الناس يتكئون، وكان في المكان عشب كثير فاتكأ الرجال وعددهم خمسة آلاف ١١ وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ والتلاميذ على المتكئين، وكذلك كل من السمكتين بقدر ما شاؤا).

ثم بين أن المسيح عاتب التلاميذ على الشبع من ذلك الخبز وقال (٢٧ اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي، للحياة الأبدية التي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه ٢٨ فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ٢٩ أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله ٣٠ فقالوا له فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك،

ماذا تعمل ٣١ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا ٣٢ فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء ٣٣ لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ٣٤ فقالوا أعطنا في كل حين هذا الخبز ٣٥ فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يقبل إلي فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً ٣٦ ولكنني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون) إلخ القصة وفيها تكرار إنه هو خبز الحياة النازل من السماء لا المن الذي نزل على أجدادهم، وإن من يأكل جسده ويشرب دمه فله الحياة الأبدية لأنه يثبت فيه.

فهذه القصة أولها يشير إلى المائدة الجسدية، وآخرها يشير إلى المائدة الروحية، وهي قد وقعت في عيد الفصح المتفق عليه عند اليهود والنصارى إلى اليوم، ولا يزال النصارى يحتفلون به ويأكلون فيه خبزاً ويشربون خمراً باسم المسيح ويسمونه العشاء الرباني. فهذا دليل على أن لهذه الآية أصلاً عندهم، ونحن نعتقد أن القرآن مهيمن على كتبهم فما حكاه عن أنبيائهم فهو الحق اليقين، وما نفاه فهو المنفي الذي لا يقبل الثبوت، ومن الغريب أن يوحنا يثبت هنا أن التلاميذ قالوا للمسيح بعدما رأوا إطعامه العدد الكثير من الطعام القليل: أي آية تصنع لنرى ونؤمن بك، وإنه قال لهم: إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون. فهذا يوافق قول من قال إنهم سألوا المائدة امتحاناً ولم يكونوا مؤمنين حقاً كما ادعوا وهو ظاهر الآيتين هنا، وإنما استدللنا على صحة إيمانهم بتسميتهم حواريين، وبما في آل عمران والصف، على أنه حكاية عنهم أيضاً. والله أعلم بالسرائر...

اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي ظاهر، والخطاب للنبي ﷺ، فقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معطوف على قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾ إلخ والمعنى اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم جميعاً عما أجابتهم به أممهم إذ يقول لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إلخ وإذ يقول له بعد ذلك: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟ أي يسأله: أقالوا هذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم؟

ومعنى قوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كائنين من دون الله ـ أو حال كونكم متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة. فهذا التعبير يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك، فإن عبادة الشريك المتخذ، غير عبادة الله خالق السموات والأرض، سواء اعتقد المشرك أن هذا المتخذ ينفع ويضر بالاستقلال ـ وهو نادر ـ أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب، أو بالوساطة عند الله أي بحمله تعالى بما له من التأثير والكرامة على النفع والضر، وهو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم في قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]وقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] إلخ ـ وقلما يوجد في البشر المتدينين من يتخذ إلهاً غير الله متجاوزاً بعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره، فإن الإيمان الفطري المغروس في غرائز البشر هو أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك أحد كنهها، فالموحدون أتباع الرسل يتوجهون بعباداتهم القولية والفعلية إلى صاحب هذه القوة الغيبية وحده، معتقدين أنه هو الفاعل المطلق وحده، وأن كل فعل ينسب إلى غيره فإنما ينسب إليه كذباً أو على أنه فعله باقدار الله إياه عليه وتسخيره له بمقتضى سننه في خلقه، التي قام بها نظام الأسباب والمسببات بمشيئته وحكمته، والمشركون يتوجهون تارة إليه وتارة إلى بعض ما يستكبرون خصائصه من خلقه، كالشمس والنجم، وبعض مواليد الأرض، وتارة يتوجهون إليهما معاً فيجعلون الثاني وسيلة إلى الأول. ومن يشعر بسلطة غيبية تتجلى له في بعض الخلق فهو يخشى ضرها ويرجو نفعها، ولا يمتد نظر عقله ولا شعور قلبه إلى سلطة فوقها، ولا يتفكر في خلق هذه الأكوان، فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، فلا يعد من العقلاء المستعدين

لفهم الشرائع وحقائق الدين، على أنه يصدق عليه إنه اتخذ إلهاً من دون الله، ولكن هذا النوع من الاتخاذ غير مراد هنا لأن الذين شرعوا للناس عبادة المسيح وأمه كانوا من شعوب مرتقية حتى في وثنيتها، ولها فلسفة دقيقة فيها، وهم اليونان والرومان، وبعض اليهود المطلعين على تلك الفلسفة جد الاطلاع. وجملة القول أن اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره سواء كانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره، ولو بدعاء غيره والتوجه إليه ليكون واسطة عنده ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

أما اتخاذهم المسيح إلهاً فقد تقدم بيانه في مواضع من تفسير هذه السورة، وأما أمه فعبادتها كانت متفقاً عليها في الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التي حدثت بعد الإسلام بعدة قرون.

إن هذه العبادة التي توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح (عليهما السلام) منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء، واستغاثة واستشفاع، ومنها صيام ينسب إليها، ويسمى باسمها، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع لذكرها ولصورها وتماثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها، التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها، ولكن لا نعرف عن فرقة من فرقهم إطلاق كلمة (إله) عليها، بل يسمونها (والدة الإله) ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا مجاز، والقرآن يقول هنا إنهم اتخذوها وابنها إلهين، والاتخاذ غير التسمية، فهو يصدق بالعبادة وهي واقعة قطعاً، وبين في آية أخرى إنهم قالوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ [المائدة: ١٧] وذلك معنى آخر. وقد فسر النبي (ص) قوله تعالى في أهل الكتاب ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] إنهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا إنهم سموهم أرباباً.

وأول نص صريح رأيته في عبادة النصارى لمريم عبادة حقيقية ما في كتاب (السواعي) من كتب الروم الأرثوذكس، وقد اطلعت على هذا الكتاب في دير يسمى (دير البلمند) وأنا في أول العهد بمعاهد التعليم. وطوائف الكاثوليك يصرحون بذلك ويفاخرون به. وقد زين الجزويت في بيروت العدد التاسع من السنة السابعة لمجلتهم (المشرق) إذ جعلوه تذكاراً لمرور خمسين سنة على إعلان البابا بيوس التاسع إن مريم البتول «حُبل بها بلاد دنس الخطية» وأثبتوا في هذا العدد عبادة الكنائس الشرقية لمريم كالكنائس الغربية، ومنه قول (الأب لويس شيخو) في مقالة له فيه عن الكنائس الشرقية «أن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور» وقوله «قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المغبوطة أم الله».

من يسمع أو يقرأ سؤال الله تعالى لعيسى عن عبادة الله له ولأمه تتوق نفسه لمعرفة جوابه عليه السلام، وتتوجه إلى السؤال والاستفهام، فلذلك جاء كأمثاله بأسلوب الاستئناف ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ بدأ عليه السلام جوابه بتنزيه إلهه وربه عزّ وجلّ عن أن يكون معه إله، خلافاً لمن قال إن التنزيه هنا إنما هو عن ذلك القول المسؤول عنه، فذهب إلى أن معنى الجملة: أنزهك تنزيهاً لائقاً من أن أقول ذلك، أو من أن يقال ذلك في حقك، وظن أن هذا هو الذي يقتضيه سياق النظم، وستعلم ما فيه من الضعف، وإن ما اخترناه هو الحق.

وكلمة «سبحان» قيل إنها علم للتسبيح، وقيل إنها مصدر لسبح الثلاثي كالغفران، واستعملت مضافة باطراد إلا ما شذ في الشعر، والتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وهو من مادة السبح والسباحة وهي الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر، ومن الثاني سبح الخيل وقالوا فرس سبوح (كصبور) ومثله التقديس من القدس وهو الذهاب البعيد في الأرض، ثم استعمل التسبيح والتقديس في التنزيه. قالوا: إن التسبيح يدل على الإبعاد ولكن عن كل شر وسوء، ولذا خص بتنزيه الله تعالى، ويقابله اللعن فهو يدل على الإبعاد ولكن عن كل خير، وكذلك لفظ الإبعاد والبعد غلب استعماله في مقام الشر؛ ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾ [هود: ٦٠] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ [إبراهيم: ٣] قال الراغب: والتسبيح تنزيه الله تعالى،

وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير، كما جعل الإبعاد في الشر، فقيل أبعده الله، وجعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية، اهـ. ثم أورد الشواهد من الآيات على إطلاق التسبيح بمعنى الصلاة وبمعنى الدلالة على التنزيه كتسبيح السموات والأرض وما فيهما. والمراد بتسبيح النية العلم والاعتقاد. وفي كلمة ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ـ ومثلها سبحان الله ـ مبالغة في هذا التنزيه أيُّ مبالغة، إذ تدل على المبالغة بمادتها الدالة بمأخذها الاشتقاقي على البعد والإيغال والسبح الطويل في هذا البحر المديد الطويل، وبصيغتها الأصلية وهي التسبيح ـ التي هي مسمى اسم المصدر (سبحان) ومدلولُه ـ فإن التفعيل يدل على التكثير، ثم بالعدول عن هذه الصيغة التي هي مصدر إلى الاسم الذي جعل علماً عليها ـ على قول ابن جني ـ فان اسم المصدر يدل على تأكيد معنى المصدر وثباته وحقيقته، لأن مدلوله هو لفظ المصدر، فانتقال الذهن منه إلى المصدر ومن المصدر إلى المعنى بمنزلة تكرار لفظ المصدر، بل هو أبلغ وأدل على إرادة الحقيقة دون التجوز، ولم أر أحداً سبقني إلى بيان هذا على كونه في غاية الظهور عند من تأمله [ومن شدة الظهور الخفاء].

قلنا إن عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عزّ وجلّ عن أن يكون معه إله، فأثبت بهذا أنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزه في ذاته وصفاته عن أن يشارك في ألوهيته، وانتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق، عن قول ما ليس له بحق، فقال:

﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ أي ليس من شأني ولا مما يصح وقوعه مني أن أقول قولاً ليس لي أدنى حق أن أقوله، لأنك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل. ولا يخفى أن هذا أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول وانكاره انكاراً مجرداً، لأن نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفياً مؤيداً بالدليل، فهو بتنزيه الله تعالى أولا أثبت إن ذلك القول الذي سئل عنه ـ تمهيداً لإقامة الحجة على من اتخذوه وأمه إلهين ـ قول باطل ليس فيه شائبة من الحق، ثم قفى على ذلك بأنه ليس من شأنه ولا مما يقع من مثله أن يقول ما ليس له بحق، فنتيجة المقدمتين الثابتتين أنه لم يقل ذلك القول.

ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى قاطعة على سبيل الترقي من البرهان الأدبي الراجع إلى نفسه وهو عصمته عليه السلام، إلى البرهان الأعلى الراجع إلى ربه العلّام، فقال ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ ﴾ أي إن كان ذلك القول قد وقع مني فرضاً فقد علمته، لأن علمك محيط بكل شيء، تعلم ما أسره وأخفيه في نفسي، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعلمه مني غيري؟ ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا تهديني إليها بنظر واستدلال كسبي، إلا ما تظهرني عليه بوحي وهبي. قيل إن إضافة كلمة نفس إلى الله تعالى من باب المشاكلة، على إنها وردت بغير مقابل يسوغ ذلك كقوله تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام: ٥٤] ـ ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقيل إنها بمعنى الذات، والمهم فهم المعنى من هذا الاطلاق. وتنزيه الله تعالى عن مشابهة نفسه لأنفس خلقه معروف بالنقل والعقل، فاستشكال اطلاق الوحي للاسماء مع هذا ضرب من الجهل ﴿ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ أي إنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك، لأن علمك المحيط بكل ما كان وما يكون وما هو كائن علم ذاتي لا منتزع من صور المعلومات، ولا مستفاد بتلقين ولا بنظر واستدلال، وإنما علم غيرك منك لا من ذاته، فأما أن يناله بما آتيته من المشاعر أو العقل، وأما أن يتلقاه مما تهبه من الإلهام والوحي، أي وقد علمت أني لم أقل ذلك القول. وشرط «أن» لا يقتضي الوقوع.

ثم إنه بعد تنزيه ربه، وتبرئة نفسه، وإقامة البرهانين على براءته، بين حقيقة ما قاله لقومه، لأن الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة، بحيث تظهر لهم هنالك حجة الله البالغة، إلا بإثبات ما كان يجب أن يكونوا عليه من أمر الدين والتوحيد بعد نفي ضده، فكان من شأن السامع لما سبق من النفي أن يسأل عما قاله في موضوعه، ولذلك قال ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾ فهذا قول يتضمن إنكار أن يكون أمرهم باتخاذه وأمه إلهين

وإثبات ضده، أي ما قلت لهم في شأن الإيمان وأصل الدين وأساسه الذي يبني عليه غيره ولا يعتد بغيره دونه، إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقاداً وتبليغاً وهو الأمر بعبادتك وحدك، مع التصريح بأنك ربي وربهم، وإنني عبد من عبادك مثلهم، أي إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم. فقوله ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ تفسير للمأمور به، وإنما قال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، ولم يقل ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، أدباً مع الله تعالى ومراعاة لما ورد في السؤال ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ ﴾.

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أي وكنت قائماً عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون ويفعلون فأقر الحق وأنكر الباطل مدة دوام وجودي بينهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ أي فلما توفيتني إليك كنت أنت المراقب لهم وحدك إذ انتهت مدة رسالتي فيهم ومراقبتي لهم وشهادتي عليهم، فلا أشهد على ما وقع منهم وأنا لست فيهم، وأنت شهيد عليهم وشهيد بيني وبينهم، بما إنك شهيد على كل شيء في ملكك، وأنت أكبر شهادة ممن تجعلهم شهداء من خلقك، ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقد مرّ في هذه السورة ما يزكي تبرئة عيسى عليه السلام لنفسه ويؤيد قوله هنا، وذلك قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] فجملة ﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ إلخ حالية أي قالوا قولهم ذلك والحال إن المسيح أمرهم بضده، وهو أن يعبدوا الله وحده.

وفي أناجيلهم من بقايا التوحيد الذي أمرهم به ما رواه يوحنا في انجيله عنه وهو قوله عليه السلام (٧: ٣ وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك. ويسوع المسيح الذي أرسلته) وفي إنجيل برنابا من تجريد التوحيد والاستدلال عليه بالآيات البينات ما هو جدير بأن يكون وحياً صحيحاً من الله تعالى إلى رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام.

ولما كان المراد من السؤال الذي أجيب عنه بهذا الجواب هو إقامة الحجة التي يظهر بها عدل الله تعالى يوم القيامة فيما يجزي به من اتخذ عيسى وأمه إلهين وغيرهم من قومه فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى بحسب ما تقتضيه شهادته تعالى وصفاته فقال ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي أن تعذب أولئك الناس الذي أرسلتني إليهم فبلغتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك وحدك، فضلّ من ضل منهم، وقالوا ما لم أقله لهم، واهتدى من اهتدى منهم فلم يعبدوا معك أحداً من دونك، فإنهم عبادك وأنت ربهم الأولى والأحق بأمرهم، ولست أنا ولا غيري من الخلق بأرحم بهم، ولا بأعلم بحالهم، وإنما تجزيهم بحسب علمك بظواهرهم وبواطنهم، فأنت أعلم بالمؤمن الموحد، والمشرك المثلث، والطائع الصالح، والعاصي الفاسق، والمقر للكفر والفسق والمنكر لهما، وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. ولا تظلم أحداً مثقال ذرة. فالمراد إذاً إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب منهم. ولا يمنع إرادة هذا المعنى إطلاق الضمير الراجع إلى جملتهم فإنه ضمير الجنس الذي يصدق ببعض الأفراد، وهو لم يَرِد بصيغة من صيغ العموم. ولذلك أطلقه في المقابل. وهو قوله: وإن لم تغفر لهم إلخ أي وإن تغفر فإنما لمن يستحق المغفرة منهم، فإنك أنت العزيز أي القوي الغالب على أمره، الحكيم في جميع تصرفه وصنعه، فيضع كل حكم وجزاء وفعل في موضعه. وهو أعلم بموضع العدل، وموضع الرحمة والفضل.

وهذا التوجيه أظهر من قول بعضهم أن تعذب من أشرك منهم فإنهم عبادك، وإن تعذب من آمن منهم فإنك أنت العزيز الحكيم. فإن هذا تعيين لمن يعذبه ومن يغفر له، ينافيه إطلاق ضمير الجنس في مقام التفويض الذي مهد له بالبراءة مما قالوه فيه وفي أمه، مخالفاً لما بلغهم عن ربه، وإثبات أن الله تعالى هو الرقيب عليهم، والشهيد على كل شيء يقع منهم ومن غيرهم. فكأنه قال لربه: إنك أنت

العليم بما كان منهم مدة وجودي بينهم وبعد وفاتي، وأنت الشهيد عليهم ولا شهادة أكبر ولا أصدق من شهادتك، فمهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك، إذ لا يوجد أحد أرحم منك بعبادك فيرحمهم أو يسألك أن ترحمهم، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته، لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يُغلب، ويمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع، ولا بتحويلك عن إرادتك فإنك أنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه، فلا يمكن لأحد غيرك أن يرجعك عنه، بناء على أن غيره أولى منه. فمن ذا الذي يستطيع الاستدراك أو الافتيات عليك؟

فهذا بيان ما يقتضيه التفويض المطلق إلى الله تعالى وحده، بل أقول إن في جزاء الشرط الأول إشارة إلى أن تعذيب من يظن المخلوقون إنهم يستحقون المغفرة إن وقع من الله فلا يكون إلا عدلاً، لأنهم عباد الله المضافون إليه، ومن شأن هذه الإضافة أن تفيدهم مغفرة منه ورحمة، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨] ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] وأمثالها من الآيات التي أضيف فيها لفظ عباد إلى الله، فإذا وقع عليهم العذاب فلا بد أن يكون سببه الذي خفي عن المخلوقين عظيماً، فالأدب التفويض ـ وفي جزاء الشرط الثاني إشارة إلى أن المغفرة إن أصابت من يظن المخلوقون إنه يستحق العذاب فلا تكون من الله تعالى إلا لغاية اقتضتها عزة الألوهية، وحكمة الربوبية، فلا عبرة بالظواهر التي تبدو للمخلوقين بالنسبة إلى علم علام الغيوب وحكمته ولا سيما في ذلك اليوم، فالواجب أن يفوض إليه الأمر كله، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء. وبهذا تنجلي نكتة اختيار ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ هنا على ﴿ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ على خلاف المعروف من أسلوب القرآن في مراعاة مناسبة المقام في قرن الأسماء الإلهية بالأفعال والأحكام، كما تقدم بيانه في تفسير ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ . فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨، ٣٩] فذكر عيسى عليه السلام لإسمي الله ﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ في جزاء شرطية المغفرة كذكره لكلمة ﴿ عِبَادُكَ ﴾ في جزاء شرطية التعذيب، كل منهما وقع في محله الذي تقتضيه البلاغة في مقام التفويض فكان حجة له، ولو أراد بكلامه الشفاعة والاسترحام لعكس ولكل مقام مقال، ولولا هذا لكان كل منهما اعتراضاً على الرب، أو تعريضاً بحكمه جلّ وعزّ، وحاشا لعيسى عليه الصلاة والسلام من ذلك.

ولما غفل من غفل من المفسرين عن هذا مع تصريح بعضهم بأن الكلام في تفويض الأمر إلى الله تعالى استشكلوا العبارة، وحاروا فيما فهموه من دلالتها على جواز غفران الشرك، وطفقوا يتلمسون النكتة لترتيب الغفران على صفتي العزة والحكمة، دون ما يتبادر من ترتيبه على صفتي المغفرة والرحمة، واستنجدوا مذاهبهم الكلامية في ذلك فانجدت مفسري الأشعرية، بما استطالوا به على مفسري المعتزلة، فقالوا إن المعنى أن تعذبهم فإنهم عبيدك والمالك يتصرف بعبيده كما يشاء فلا يسئل ولا يعترض عليه وإن عذب أكملهم إيماناً وإسلاماً واحساناً، وقال بعضهم إن المراد فإنهم عبيدك الأرقاء في أسر ملكك، الضعفاء العاجزون عن الامتناع من عقابك، وإن تغفر لهم ما كان من شركهم وكفرهم وما يتبعه من سوء أعمالهم فإنك أنت القوي القادر على ذلك الحكيم فيه من حيث إن المغفرة مستحسنة لكل مجرم. قاله أبو السعود. وقال الآلوسي: والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة، لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول، بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن لأنه أدخل في الكرم، وإن كانت العقوبة أحسن في حكم الشرع من جهات أخر، اهـ. وظاهر هذا إن حكم الشرع في هذا الأصل من أصول الدين على خلاف المعقول، وليس كذلك. . .

وأقول: إن هذا لوجه أضعف من الوجه الذي قبله فجميع ما أورده الرازي من الوجوه ضعيف. وما كان ليخفى ضعفها بل سقوطها وبطلان كثير من مسائلها على ذكائه النادر، واطلاعه الواسع، لولا عصبية المذاهب.

ولكن قوله في أثناء شرح الوجه الثاني: أن مقصد عيسى عليه السلام من كلامه تفويض الأمر إلى الله عزّ وجلّ هو الحق المبين، وقد هدانا الله تعالى إلى تفسيره وشرح نكتة البلاغة فيه بأوضح تبين، وقد علم مما بيناه أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئاً من الشفاعة لقومه... ويؤيد هذا عدة أحاديث (منها) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم أن النبي (ص) تلا قول الله تعالى في إبراهيم (ص) ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ ﴾ ـ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فرفع يديه وقال «اللهم أمتي أمتي» وبكى فقال الله عزّ وجلّ يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله (ص) بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» (ومنها) حديث ابن عباس في صحيح البخاري قال فيه: «ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ ﴾ إلى قوله ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ قال فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم» وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره بهذا المعنى زيادة «فأقول بعداً لهم وسحقاً» وقد ورد هذا المعنى في عدة أحاديث في الصحاح والسنن في ألفاظ بعض اختلاف لا يغير المعنى. منها إن هؤلاء الذين أحدثوا بعده (ص) يذادون أي يطردون عن الحوض. واختلف العلماء فيهم فقيل هم الذين ارتدوا بعده عن الإسلام وقاتلهم أبو بكر وقيل هم المنافقون وقيل هم المبتدعة. (منها) حديث أبي ذر عند أحمد والنسائي وابن بردويه إنه (ص) قام بهذه الآية ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ ﴾ إلخ حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبو ذر عن ذلك فقال «إني سألت ربي سبحانه الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى من لا يشرك بالله شيئاً».

فهذه الأحاديث تدل على أن مقام التفويض غير مقام الشفاعة وإن الشفاعة لا تنال أحداً يشرك بالله تعالى شيئاً، وفاقاً لما جاء به الوحي على لسان عيسى (ص) كما تقدم في هذه السورة ولسان محمد(ص) كما تقدم في آيتين من سورة النساء؛ ووفاقاً للآيات التي تنفي الشفاعة في الآخرة باطلاق أو تنفي قبولها، أو تقيدها على تقدير حصولها بمثل قوله تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] بعدما تقدم من تفويض عيسى أمر قومه إلى ربه عزّ وجلّ بتلك العبارة البليغة، في إثر تلك الأجوبة السديدة، تتوجه النفس إلى معرفة ما يقوله الرب في ذلك اليوم العظيم وتسأل عنه بلسان الحال أو المقال إن لم تسمعه...

سيد قطب ج ٢ ص ٩٩٧ ـ ١٠٠٢

... إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى ابن مريم وأمه.. من تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام؛ يبرىء أمه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله.. وروح القدس جبريل ـ عليه السلام ـ يؤيده هنا وهناك.. ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئاً، فعلمه الكتابة وعلمه كيف يحسن تصريف الأمور، كما علّمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل؛ والإنجيل الذي آتاه إياه مصدقاً لما بين يديه من التوراة. ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله. فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله؛ فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ـ لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خلق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء ـ وإذا هو يبرىء المولود أعمى ـ بإذن الله ـ حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ـ ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينيه للنور ـ ويبرىء الأبرص بإذن الله، لا بدواء ـ والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة ـ وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله ـ وواهب الحياة أول مرة

قادر على رجعها حين يشاء - ثم يذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين! ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها - وقد شهدتها الألوف - ولم يريدوا التسليم بدلالتها عناداً وكبراً. . حمايته منهم فلم يقتلوه - كما أرادوا ولم يصلبوه. بل توفّاه الله ورفعه إليه. . كذلك يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله؛ فإذا هم ملبون مستسلمون، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ . .

إنها النعم التي آتاها الله عيسى ابن مريم، لتكون له شهادة وبينة. فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل - فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى، ومن الناس جميعاً، ومنهم قومه الغالون فيه. . ها هو ذا يواجه بها ليسمع قومه ويروا؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين!

ويستطرد السياق في معرض النعم على عيسى ابن مريم وأمه، إلى شيء من نعمة الله على قومه، ومن معجزاته التي أيده الله بها وشهدها وشهد بها الحواريون. . .

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى . . المستخلصين منهم وهم الحواريون. . فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا - ﷺ - فرق بعيد. . إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى. فآمنوا. وأشهدوا عيسى على إسلامهم. . ومع هذا فهم بعدما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة. تطمئن بها نفوسهم. ويعلمون منها أنه صدقهم. ويشهدون بها له لمن وراءهم. فأما أصحاب محمد - ﷺ - فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم . . لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان. ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن. . هذا الفارق الكبير بين حواريي عيسى عليه السلام - وحواريي محمد - ﷺ - ذلك مستوى، وهذا مستوى . . وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون. . وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون. . ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله . .

وقصة المائدة - كما أوردها القرآن الكريم - لم ترد في كتب النصارى. ولم تذكر في هذه الأناجيل التي كتبت متأخرة بعد عيسى - عليه السلام - بفترة طويلة، لا يؤمن معها على الحقيقة التي تنزلت من عند الله. وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى - عليه السلام - وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه. . ولكن ورد في هذه الأناجيل خبر عن المائدة في صورة أخرى: فورد في إنجيل متى في نهاية الإصحاح الخامس عشر: «وأما يسوع فدعا تلاميذه، وقال: إني أشفق على الجميع، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي، وليس لهم ما يأكلون. ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا في الطريق. فقال له تلاميذه: من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض؛ وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكر وكسر، وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع، فأكل الجمع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف، ما عدا النساء والأولاد» . . . وورد مثل هذه الرواية في سائر الأناجيل . .

وبعض التابعين - رضوان الله عليهم - كمجاهد والحسن - يريان أن المائدة لم تنزل. لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . . خافوا وكفوا عن طلب نزولها: قال ابن كثير في التفسير: «روى الليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: «هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء» (رواه ابن أبي حاتم وابن جرير). ثم قال ابن جرير. . . عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم. . وقال أيضاً؛ حدثنا أبو المثنى، عن الحسن، أنه

قال في المائدة: إنها لم تنزل.. وحدثنا بشر، عن قتادة، قال: كان الحسن يقول: لما قيل لهم: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها، فلم تنزل».

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت. لأن الله تعالى قال: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾. ووعد الله حق. وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذي نعتمده في أمرها دون سواه.. إن الله ـ سبحانه ـ يذكر عيسى ابن مريم ـ في مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين ـ بفضله عليه: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾... لقد كان الحواريون ـ وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به ـ يعرفون أنه بشر.. ابن مريم.. وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة. وكانوا يعرفونه أنه ليس رباً وإنما هو عبد مربوب لله. وأنه ليس ابن الله، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله؛ وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة.. لذلك حين طلبوا إليه، أن تنزل عليهم مائدة من السماء، لم يطلبوها منه، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة. وإنما سألوه: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾...

واختلفت التأويلات في قولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾.. كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى ـ عليه السلام ـ على إسلامهم له. وقيل: إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود وهو لازم الاستطاعة وهو أن ينزلها عليهم. وقيل: إن معناها: هل يستجيب لك إذا طلبت. وقرئت: «هل تستطيع ربك». بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء.. وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى ـ عليه السلام ـ محذراً إياهم من طلب هذه الخارقة.. لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق، ولا يقترحون على الله. ﴿ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.. ولكن الحواريين كرروا الطلب، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه: ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾. فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض. وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم، ثم يكونوا شهوداً لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة.

وكلها أسباب كما قلنا تصور مستوى معيناً دون مستوى أصحاب محمد ـ ﷺ ـ فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز! عندئذ اتجه عيسى ـ عليه السلام ـ إلى ربه يدعوه: ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾..

وفي دعاء عيسى عليه السلام كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة ـ أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه. فهو يناديه: يا الله. يا ربنا. إنني أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد، فتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين.. فهو إذن يعرف أنه عبد وأن الله ربه. وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين، في مواجهة قومه، يوم المشهد العظيم!

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى ابن مريم؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه.. لقد طلبوا خارقة. واستجاب الله. على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذاباً شديداً بالغاً في شدته لا يعذبه أحداً من العالمين: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.. فهذا هو الجد اللائق بجلال الله؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهواً. وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع! وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة.. فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا، أو أن يكون في الآخرة.

ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده.. ليمضي إلى

القضية الأساسية.. قضية الألوهية والربوبية.. وهي القضية الواضحة في الدرس كله.. فلنعد إلى المشهد العظيم فهو ما يزال معروضاً على أنظار العالمين. لنعد إليه فنسمع استجواباً مباشراً في هذه المرة في مسألة الألوهية المدعاة لعيسى ابن مريم وأمه. استجواباً يوجه إلى عيسى عليه السلام في مواجهة الذين عبدوه. ليسمعوه وهو يتبرأ إلى ربه في دهش وفزع من هذه الكبيرة التي افتروها عليه وهو منها بريء... وإن الله ـ سبحانه ـ ليعلم ماذا قال عيسى للناس. ولكنه الاستجواب الهائل الرهيب في اليوم العظيم المرهوب: الاستجواب الذي يقصد به إلى غير المسؤول؛ ولكن في صورته هذه وفي الإجابة عليه ما يزيد من بشاعة موقف المؤلهلين لهذا العبد الصالح الكريم.. إنها الكبيرة التي لا يطيق بشر عادي أن يقذف بها.. أن يدعي الألوهية وهو يعلم أنه عبد.. فكيف برسول من أولي العزم؟ كيف بعيسى ابن مريم؛ وقد أسلف الله له هذه النعم كلها بعد ما اصطفاه بالرسالة وقبل ما اصطفاه؟ كيف به يواجه استجواباً عن ادعاء الألوهية، وهو العبد الصالح المستقيم؟ من أجل ذلك كان الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب.. يبدأ بالتسبيح والتنزيه: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾. ويسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾. ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته؛ مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.. وعندئذ فقط، وبعد هذه التسبيحة الطويلة يجرؤ على الإثبات والتقرير فيما قاله وفيما لم يقله، فيثبت أنه لم يقل لهم إلا أن يعلن عبوديته وعبوديتهم لله ويدعوهم إلى عبادته: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾. ثم يخلي يده منهم بعد وفاته.. وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله ـ سبحانه ـ قد توفى عيسى ابن مريم ثم رفعه إليه. وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله. وليس هنالك ـ فيما أرى ـ أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده. فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله. أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً. وكذلك صورة حياة عيسى ـ عليه السلام ـ وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾..

وينتهي إلى التفويض المطلق في أمرهم؛ مع تقرير عبوديتهم لله وحده. وتقرير قوة الله على المغفرة لهم أو عذابهم؛ وحكمته فيما يقسم لهم من جزاء سواء كان هو المغفرة أو العذاب: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.. فيا لله للعبد الصالح في موقفه الرهيب! وأين أولئك الذين أطلقوا هذه الفرية الكبيرة؛ التي يتبرأ منها العبد الطاهر البريء ذلك التبرؤ الواجف، ويبتهل من أجلها إلى ربه هذا الابتهال المنيب؟. أين هم في هذا الموقف، في هذا المشهد؟.. إن السياق لا يلقي إليهم التفاتة واحدة. فلعلهم يتذاوبون خزياً وندماً. فلندعهم حيث تركهم السياق! لنشهد ختام المشهد العجيب:

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾..

... هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنه التعقيب المناسب على كذب الكاذبين؛ الذين أطلقوا تلك الفرية الضخمة على ذلك النبي الكريم. في أعظم القضايا كافة.. قضية الألوهية والعبودية، التي يقوم على أساس الحق فيها هذا الوجود كله وما فيه ومن فيه..

.. هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم.. إنها كلمة رب العالمين، في ختام الاستجواب الهائل على مشهد من العالمين.. وهي الكلمة الأخيرة في المشهد. وهي الكلمة الحاسمة في القضية. ومعها ذلك الجزاء الذي يليق بالصدق والصادقين: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾.. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.. درجات بعد درجات.. الجنات والخلود ورضا الله ورضاهم بما لقوا من ربهم من التكريم: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾..

ولقد شهدنا المشهد ـ من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة ـ وسمعنا الكلمة الأخيرة.. شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعداً يوعد، ولا مستقبلاً ينتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الآذان أو تقرؤها العيون. إنما حركت به المشاعر، وجسمته واقعاً اللحظة تسمعه الآذان وتراه العيون...

على أنه إن كان بالقياس إلينا ـ نحن البشر المحجوبين ـ مستقبلاً ننتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق، واقع حاضر. فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين...

وفي نهاية هذا الدرس؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتر أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض..

في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم.. يجيء الإيقاع الأخير في السورة؛ يعلن تفرد الله ـ سبحانه ـ بملك السماوات والأرض ما فيهن؛ وقدرته ـ سبحانه ـ على كل شيء بلا حدود: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالألوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويفوضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم. الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير...

وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن «الدين» وتعرضه ممثلاً في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزله دون سواه.. إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، والمالك هو الذي يحكم: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].. إنها قضية واحدة.. قضية الألوهية.. قضية التوحيد.. وقضية الحكم بما أنزل الله.. لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد...

١٥ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

(سورة الأنعام، رقم٦، الآية ٨٥)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٧	ص ١٧٢ ـ ١٧٣	أبو حيان الأندلسي	ج ٤	ص ١٦٢ ـ ١٧٤
الزمخشري	ج ٢	ص ٣٣	ابن كثير	ج ٢	ص ١٥٤ ـ ١٥٦
الرازي	ج ١٣	ص ٦٥	الجلالان		ص ١٧٦
الطبرسي	ج ٧	ص ١١٨ ـ ١٢٣	الشوكاني	ج ٢	ص ١٣٦ ـ ١٣٨
ابن عربي	ج ١	ص ٣٨٤ ـ ٣٨٧	الآلوسي	ج ٤	ص ٢١٣ـ ٢١٤
البيضاوي	ج ٢	ص ١٩٦ ـ ١٩٧	القاسمي	ج ٦	ص ٦١٠ ـ ٦١٤
الخازن	ج ٢	ص ١٨٥	محمد عبده	ج ٧	ص ٥٨٤ ـ ٦١٠
البغوي	ج ٢	ص ٩٣	الطباطبائي	ج ٧	ص ٢٤١ ـ ٢٦٥
الماوردي	ج ٢	ص ١٤٠	جوهري	ج ٤	ص ٥٥ ـ ٨٠
القرطبي	ج ٧	ص ٣١ ـ ٣٣	المراغي	ج ٧	ص ١٧٩ ـ ١٨٧
			سيد قطب	ج ٢	ص ١١٣٦ ـ ١١٥٠

الطبري ج ٧ ص ١٧٢ ـ ١٧٣

القــول فــي ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ يقول تعالى ذكره وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدى والرشاد من ذريته زكريا بن أزن ابن بركيا ويحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم ابنة عمران بن أشيم بن أمور بن حزقيا والياس واختلفوا في الياس فكان ابن إسحق يقول هو إلياس بن يسى بن فنحاص بن العيزار ابن هرون بن عمران ابن أخي موسى نبي الله ﷺ وكان غيره يقول هو إدريس وممن ذكر ذلك عنه عبدالله بن مسعود حدثنا محمد بن بشار... عن عبد الله بن مسعود قال إدريس هو الياس وإسرائيل هو يعقوب وأما أهل الأنساب فإنهم يقولون إدريس جد نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وأخنوخ هو إدريس بن يرد بن مهلائيل وكذلك روي عن وهب بن منبه والذي يقول أهل الأنساب أشبه بالصواب وذلك أن الله تعالى نسب إلياس في هذه الآية إلى نوح وجعله من ذريته ونوح ابن إدريس عند أهل العلم فمحال أن يكون جد أبيه منسوباً إلى أنه من ذريته وقوله كل من الصالحين يقول من ذكرنا من هؤلاء الذين سمّينا من الصالحين يعني زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلى الله عليهم.

البيضاوي ج ٢ ص ١٩٦ ـ ١٩٧

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت.

أبو حيان الأندلسي ج٤ ص ١٦٢ـ١٧٤

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا وبدأ زكريا ويحيى لسبقهما عيسى في الزمان وقدّم زكريا لأنه والد يحيى فهو أصل ويحيى فرع وقرن عيسى وإلياس لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد وقدّم عيسى لأنه صاحب كتاب ودائرة متسعة وتقدّم ذكر أنساب هؤلاء الأنبياء إلا إلياس...

الآلوسي ج ٤ ص ٢١٣ ـ ٢١٤

﴿ وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم وهو اسم عبراني أو سرياني وفي الصحيح أنه ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس وفي ذكره عليه السلام دليل على أن الذرية يتناول أولاد البنات لأن انتسابه ليس إلا من جهة أمه وأورد عليه أنه ليس له أب يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه فلا يظهر قياس غيره عليه في كونه ذرية لجده من الأم.

وتعقب بأن مقتضى كونه بلا أب أن يذكر في حيز الذرية وفيه منع ظاهر والمسألة خلافية، والذاهبون إلى دخول ابن البنت في الذرية يستدلون بهذه الآية وبها احتج موسى الكاظم رضي الله تعالى عنه على ما وراء البعض عن الرشيد. . .

القاسمي ج ٦ ص ٦١٠ ـ ٦١٤

وفي (العناية): أورد على الاستدلال بتناول الذرية أولاد البنت من هذه الآية، بأن عيسى عليه السلام ليس له أب، يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه، فلا يظهر قياس غيره عليه. والمسألة مختلف فيها، والقائل بها استدل بهذه الآية، وآية المباهلة، حيث دعا ﷺ الحسن والحسين رضي الله عنهما بعدما نزل: ﴿ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]. إن لم نقل إنه من خصائصه ﷺ. انتهى.

١٦

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(سورة التوبة، رقم٩، الآية ٣٠ ـ ٣١)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٠	ص ٧٨ ـ ٨٢
الزمخشري	ج ٢	ص ١٨٤ ـ ١٨٥
الرازي	ج ١٦	ص ٣٢ ـ ٣٨
الطبرسي	ج ١٠	ص ٤٥ ـ ٤٩
ابن عربي	ج ١	ص ٤٩١ ـ ٤٩٤
البيضاوي	ج ٣	ص ٦٥ ـ ٦٦
الخازن	ج ٣	ص ٨١ ـ ٨٤
البغوي	ج ٢	ص ٢٤٠ ـ ٢٤١
الماوردي	ج ٢	ص ٣٥٢ ـ ٣٥٤
القرطبي	ج ٨	ص ١١٦ ـ ١٢٠
أبو حيان الأندلسي	ج ٥	ص ٣٠ ـ ٣٢
ابن كثير	ج ٢	ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩
الجلالان		ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥
الشوكاني	ج ٢	ص ٣٥٢ ـ ٣٥٥
الآلوسي	ج ٥	ص ٨٠ ـ ٨٥
القاسمي	ج ٨	ص ١٨٠ ـ ١٨٧
محمد عبده	ج ١٠	ص ٣٢١ ـ ٣٨٣
الطباطبائي	ج ٩	ص ٢٣٦ ـ ٢٦٦
جوهري	ج ٥	ص ١٠٣ ـ ١٠٥
المراغي	ج ٤	ص ٩٦ ـ ١٠٣
سيد قطب	ج ٣	ص ١٦٣٤ ـ ١٦٤٣

الطبري ج ١٠ ص ٧٨ ـ ٨٢

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ اختلف أهل التأويل في القائل عزير ابن الله فقال بعضهم كان ذلك رجلاً واحداً وهو فنحاص ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم . . . عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قوله وقالت اليهود عزير ابن الله قال قالها رجل واحد قالوا إن اسمه فنحاص وقالوا هو الذي قال إن الله فقير ونحن أغنياء. وقال آخرون بل كان ذلك قول جماعة منهم ذكر من قال ذلك. حدثنا أبو كريب. . . عن ابن عباس قال أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان ابن أوفى وشاش بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله فأنزل الله في ذلك من قولهم وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله إلى أنى يؤفكون حدثني محمد بن سعْدُ عن ابن عباس قوله وقالت اليهود عزير ابن الله وإنما قالوا هو ابن الله من أجل أن عزير كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان التابوت فيهم فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم وأرسل الله عليهم مرضاً فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشي كبده حتى نسوا التوراة ونسخت من صدورهم وفيهم عزير فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نسخت التوراة من صدورهم وكان عزير قبل من علمائهم فدعا عزير الله وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدره من التوراة فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله نزل نور من الله فدخل جوفه فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة فأذن في قومه فقال يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها إليّ فعلق يعلمهم فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم ثم إن التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلمهم فوجدوه

مثله فقالوا والله ما أوتي عزير هذا إلا أنه ابن الله حدثني محمد بن الحسين. . . عن السدّى وقالت اليهود عزير ابن الله إنما قالت ذلك لأنهم ظهرت عليهم العمالقة فقتلوهم وأخذوا التوراة وذهب علماؤهم الذين بقوا فدفنوا كتب التوراة في الجبال وكان عزير غلاماً يتعبد في رؤوس الجبال لا ينزل إلا يوم عيد فجعل الغلام يبكي ويقول رب تركت بني إسرائيل بغير عالم فلم يزل يبكي حتى سقطت أشفار عينيه فنزل مرة إلى العيد فلما رجع إذا هو بامرأة قد مثلت له عند قبر من تلك القبور تبكي وتقول يا مطعماه ويا كاسياه فقال لها ويحك من كان يطعمك ويكسوك ويسقيك وينفعك قبل هذا الرجل قالت الله قال فإن الله حي لم يمت قالت يا عزير فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل قال الله قالت فلم تبكي عليهم فلما عرف أنه قد خصم ولى مدبراً فدعته فقالت يا عزير إذا أصبحت غداً فأتِ نهر كذا وكذا فاغتسل فيه ثم اخرج فصل ركعتين فإنه يأتيك شيخ فما أعطاك فخذه فلما أصبح انطلق عزير إلى ذلك النهر فاغتسل فيه ثم خرج فصلى ركعتين فجاءه الشيخ فقال افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعاً كهيئة القوارير ثلاث مرار فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بني إسرائيل إني قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على كل إصبع له قلماً وكتب بأصابعه كلها فكتبت التوراة كلها فلما رجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرج أولئك العلماء كتبهم التي كانوا دفنوها من التوراة في الجبال وكانت في خواب مدفونة فعارضوها بتوراة عزير فوجدوها مثلها فقالوا ما أعطاك الله هذا إلا أنك ابنه. واختلفت القرّاء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض المكيين والكوفيين وقالت اليهود عزير ابن الله لا ينونون عزير وقرأه بعض المكيين والكوفيين عزير ابن الله بتنوين عزير قال هو اسم مجرى وإن كان أعجمياً لخفته وهو مع ذلك غير منسوب إلى الله فيكون بمنزلة قول القائل زيد ابن عبدالله وأوقع الابن موقع الخبر ولو كان منسوباً إلى الله لكان الوجه فيه إذا كان الابن خبرا الأجراء والتنوين فكيف هو منسوب إلى غير أبيه وأما من ترك تنوين عزير فإنه لما كانت الباء من ابن ساكنة مع التنوين الساكن والتقى ساكنان فحذف الأول منهما استثقالاً لتحريكه قال الراجز:

* لتجدني بالأمير برا *

* وبالقناة مد عسامكرا *

* إذا غطيف السلمى فرا *

فحذف النون للساكن الذي استقبلها. قال أبو جعفر وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ عزير ابن الله بتنوين عزيرلان العرب لاتنون الأسماء إذا كان الابن نعتاً للاسم كقولهم هذا زيد بن عبدالله فأرادوا الخبر عن عزير بأنه ابن الله ولم يريدوا أن يجعلوا الابن له نعتاً والابن في هذا الموضع خبر لعزير لأن الذين ذكر الله عنهم أنهم قالوا ذلك إنما أخبروا عن عزير أنه كذلك وإن كانوا بقيلهم ذلك كانوا كاذبين على الله مفترين. وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل يعني قولهم اليهود عزير ابن الله يقول نسبة قول هؤلاء في الكذب على الله والفرية عليه ونسبتهم المسيح إلى أنه لله ابن ككذب اليهود وفريتهم على الله في نسبتهم عزير إلى أنه لله ابن ولا ينبغي أن يكون لله ولد سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني المثنى. . . عن ابن عباس قوله يضاهؤن الذين كفرون من قبل يقول يشبهون حدثنا بشر. . . عن قتادة قوله يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل ضاهت النصارى قول اليهود قبلهم-حدثني محمد بن الحسين. . . عن السدّي يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل النصارى يضاهؤن قول اليهود في عزير حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل يقول النصارى يضاهؤن قول اليهود حدثني محمد بن سعيد. . . عن ابن عباس قوله يضاهؤن قول الذين كفروا من قبل يقول قالوا مثل ما قال أهل الأوثان وقد قيل أن معنى ذلك يحكون بقولهم قول أهل الأديان الذين قالوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق يضاهون بغير همز وقرأه عاصم يضاهؤن بالهمز وهي لغة لثقيف وهما لغتان يقال ضاهيته على كذا أضاهيه مضاهاة

وضاهأته عليه مضاهأة إذا مالأته عليه وأعنته. قال أبو جعفر والصواب من القراءة في ذلك ترك الهمز لأنها القراءة المستفيضة في قرأة الأمصار واللغة الفصحى وأما قوله قاتلهم الله فإن معناه فيما ذكر عن ابن عباس ما حدثني المثنى. . . عن ابن عباس قوله قاتلهم الله يقول لعنهم الله وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن وقال ابن جريج في ذلك ما حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قوله قاتلهم الله يعني النصارى كلمة من كلام العرب فأما أهل المعرفة بكلام العرب فإنهم يقولون معناه قتلهم الله والعرب تقول قاتعك الله وقاتعها الله بمعنى قاتلك الله قالوا وقاتعك الله أهون من قاتله الله وقد ذكروا أنهم يقولون شاقاه الله ما باقاه يريدون أشقاه الله ما أبقاه قالوا ومعنى قوله قاتلهم الله كقوله قتل الخراصون وقتل أصحاب الأخدود واحد وهو بمعنى التعجب فإن كان الذي قالوا كما قالوا فهو من نادر الكلام الذي جاء على غير القياس لأن فاعلت لا تكاد أن تجيء فعلاً إلا من اثنين كقولهم خاصمت فلاناً وقاتلته وما أشبه ذلك وقد زعموا أن قولهم عافاك الله منه وأن معناه أعفاك الله بمعنى الدعاء لمن دعا له بأن يعفيه من السوء وقوله أنى يؤفكون يقول أي وجه يذهب بهم ويحيدون وكيف يصدون عن الحق وقد بينا ذلك بشواهد فيما مضى قبل. القول في تأويل قوله ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ يقول جل ثناؤه اتخذوا اليهود أحبارهم وهم العلماء وقد بينت تأويل ذلك بشواهده فيما مضى من كتابنا هذا قبل واحدهم حبرو وحبر بكسر الحاء منه وفتحها وكان يونس الجرمي فيما ذكر عنه يزعم أنه لم يسمع ذلك إلا حبر بكسر الحاء ويحتج بقول الناس هذا مداد حبر يراد به مداد عالم وذكر الفراء أنه سمعه حبرا وحبرا بكسر الحاء وفتحها والنصارى رهبانهم وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم كما حدثنا ابن وكيع. . . عن الضحاك اتخذوا أحبارهم ورهبانهم قال قراءهم وعلماءهم أرباباً من دون الله يعني سادة لهم من دون الله يطيعونهم في معاصي الله فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم

ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم كما حدثني الحسن بن يزيد الطحان. . . عن عديّ بن حاتم قال انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فقال أما أنهم لم كونوا يعبدونهم ولكن كانوا يحلون لهم فيحلون حدثنا أبو كريب وابن وكيع. . . عن عدي بن حاتم قال أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال ياعديّ اطرح هذا الوثن من عنقك قال فطرحته وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة فقرأ هذه الآية اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال قلت يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم فقال أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه قال قلت بلى قال فتلك عبادتهم واللفظ لحديث أبي كريب حدثني سعيد بن عمرو السكوني. . . عن عدي بن حاتم قال سمعت رسول الله ﷺ يقرأ سورة براءة فلما قرأ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قلت يا رسول الله أما أنهم لم يكونوا يصلون لهم قال صدقت ولكن كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرّمون ما أحل الله لهم فيحرّمونه حدثنا محمد بن بشار. . . عن حذيفة أنه سئل عن قوله اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله أكانوا يعبدونهم قال لا كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه حدثنا ابن وكيع. . . عن أبي البختري قال قيل لأبي حذيفة فذكر نحوه غير أنه قال ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيستحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه حدثنا ابن وكيع. . . عن أبي البختري قال قيل لحذيفة أرأيت قول الله اتخذوا أحبارهم قال أما أنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً أحله الله لهم حرموه فتلك كانت ربوبيتهم. قال ثنا جرير وابن فضيل عن عطاء عن أبي البختري اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراماً وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالاً فأطاعوهم في ذلك فجعل الله طاعتهم عبادتهم ولو قالوا لهم اعبدونا لم يفعلوا حدثني الحسن بن يحيى. . . عن أبي البختري قال سأل رجل حذيفة فقال

يا أبا عبدالله أرأيت قوله اتخذوا أحبارهم رهبانهم أرباباً من دون الله أكانوا يعبدونهم قال لا كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه حدثنا ابن وكيع. . . عن الحسن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً قال في الطاعة حدثني محمد بن سعيد قال. . . عن ابن عباس قوله اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يقول وزينوا لهم طاعتهم حدثني محمد بن الحسين. . . عن السدي اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال عبدالله بن عباس لم يأمروهم أن يسجدوا لهم ولكن أمروهم بمعصية الله فأطاعوهم فسماهم الله بذلك أرباباً حدثنا ابن وكيع. . . عن أبي العالية اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً قال قلت لأبي العالية كيف كانت الربوبية التي كانت في بني إسرائيل قال قالوا ما أمرونا به ائتمرنا وما نهوا عنه انتهينا لقولهم وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه فاستنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم حدثني بشر بن سويد. . . عن حذيفة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال لم يعبدوهم ولكن أطاعوهم في المعاصي وأما قوله والمسيح ابن مريم فإن معناه اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أرباباً من دون الله وأما قولهم وما أمر إلا ليعبدوا إلهاً واحداً فإنه يعني به وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبار والرهبان والمسيح أرباباً إلا أن يعبدوا معبوداً واحداً وأن يطيعوا إلاّ رباً واحداً دون أرباب شتى وهو الله الذي له عبادة كل شيء وطاعة كل خلق المستحق على جميع خلقه الدينونية له بالوحدانية والربوبية لا إله إلا هو يقول تعالى ذكره لا تنبغي الألوهة إلا لواحد الذي أمر الخلق بعبادته ولزمت جميع العباد طاعته سبحانه عما يشركون يقول تنزيهاً وتطهيراً لله عما يشرك في طاعته وربوبيته القائلون عزير ابن الله والقائلون المسيح ابن الله المتخذون أحبارهم أرباباً من دون الله.

الزمخشري ج ٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٦

عزير ابن الله مبتدأ وخبر كقوله ـ المسيح ابن الله ـ وعزير اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه، ومن نوّن جعله عربياً، وأما قول من قال سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ «أحد الله» أو لأن الابن وقع وصفاً والخبر محذوف وهو معبودنا فتمحل عن مندوحة، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة وما هو بقول كلهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفي وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك. وقيل له فنحاص، وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزير وهو غلام يسيح في الأرض، فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة فأملاها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب. فإن قلت: كل قول يقال بالفم فما معنى قوله ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان، وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير. والثاني أن يراد بالقول المذهب كقولهم قول أبي حنيفة يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبقَ شبهة في انتفاء الولد ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً، والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدمائهم: يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله تعالى الله عنه. وقيل الضمير للنصارى: أي

يضاهي قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزير ابن الله لأنهم أقدم منهم. وقرىء يضاهؤن بالهمز من قولهم امرأة ضهيأ على فعيل وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزتها مزيدة كما في غرقىء و﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا تعجباً من شناعة قولهم، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء. قاتلهم الله ما أعجب فعلهم. . .

الرازي ج ١٦ ص ٣٢ ـ ٣٨

وقوله تعالى ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حكم في الآية المتقدمة على اليهود والنصارى بأنهم لا يؤمنون بالله، شرح ذلك في هذه الآية وذلك بأن نقل عنهم أنهم أثبتوا لله ابناً، ومن جوّز ذلك في حق الإله فهو في الحقيقة قد أنكر الإله، وأيضاً بيّن تعالى أنهم بمنزلة المشركين في الشرك، وإن كانت طرق القول بالشرك مختلفة، إذ لا فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره لأنه لا معنى للشرك إلا أن يتخذ الإنسان مع الله معبوداً، فإذا حصل هذا المعنى فقد حصل الشرك، بل إنا لو تأملنا لعلمنا أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى، لأن عابد الوثن لا يقول إن هذا الوثن خالق العالم وإله العالم، بل يجريه مجرى الشيء الذي يتوسل به إلى طاعة الله أما النصارى فإنهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح جداً، فثبت أنه لا فرق بين هؤلاء الحلولية وبين سائر المشركين، وأنهم إنما خصهم بقبول الجزية منهم، لأنهم في الظاهر ألصقوا أنفسهم بموسى وعيسى، وادّعو أنهم يعملون بالتوراة والإنجيل، فلأجل تعظيم هذين الرسولين المعظمين وتعظيم كتابيهما وتعظيم أسلاف هؤلاء اليهود والنصارى بسبب أنهم كانوا على الدين الحق، حكم الله تعالى بقبول الجزية منهم، وإلا ففي الحقيقة لا فرق بينهم وبين المشركين.

المسألة الثانية: في قوله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ أقوال: الأول: قال عبيد بن عمير: إنما قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه **فنحاص بن عازوراء**.

الثاني: قال ابن عباس في رواية سعيد بن جبير وعكرمة: أتى جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، وهم: سلام بن مشكم، والنعمان بن أوفى، ومالك بن الصيف، وقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، ولا تزعم أن عزيراً ابن الله، فنزلت هذه الآية. وعلى هذين القولين فالقائلون بهذا المذهب بعض اليهود إلا أن الله نسب ذلك القول إلى اليهود بناء على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد، يقال فلان يركب الخيول ولعله لم يركب إلا واحداً منها، وفلان يجالس السلاطين ولعله لا يجالس إلا واحداً. والقول الثالث: لعل هذا المذهب كان فاشياً فيهم ثم انقطع، فحكى الله ذلك عنهم: ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك، فإن حكاية الله عنهم أصدق. . .

والسبب الذي لأجله قالوا هذا القول ما رواه ابن عباس أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم فتضرع عزير إلى الله وابتهل إليه فعاد حفظ التوراة إلى قلبه، فأنذر قومه به، فلما جربوه وجدوه صادقاً فيه، فقالوا ما تيسر هذا لعزير إلا أنه ابن الله، وقال الكلبي: قتل بختنصر علماءهم فلم يبق فيهم أحد يعرف التوراة. وقال السدي: العمالقة قتلوهم فلم يبق فيهم أحد يعرف التوراة، فهذا ما قيل في هذا الباب. وأما حكاية الله عن النصارى أنهم يقولون: المسيح ابن الله، فهي ظاهرة لكن فيها إشكال قوي، وهي إنا نقطع أن المسيح صلوات الله عليه وأصحابه كانوا مبرئين من دعوة الناس إلى الأبوة والنبوة، فإن هذا أفحش أنواع الكفر، فكيف يليق بأكابر الأنبياء عليهم السلام؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يعقل إطباق جملة محبي عيسى من النصارى على هذا الكفر، ومن الذي وضع هذا المذهب الفاسد، وكيف قدر على نسبته إلى المسيح عليه السلام؟ فقال المفسرون في الجواب عن هذا السؤال:

إن اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام كانوا على الحق بعد رفع عيسى حتى وقع حرب بينهم وبين اليهود، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جمعاً من أصحاب عيسى، ثم قال لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، وإني أحتال فأضلهم، فعرقب فرسه وأظهر الندامة مما كان يصنع ووضع على رأسه التراب وقال نوديت من السماء ليس لك توبة إلا أن تتنصّر، وقد تبت فأدخله النصارى الكنيسة ومكث سنة لا يخرج وتعلم الإنجيل فصدقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم رجلاً اسمه نسطور، وعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، وتوجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت، وقال: ما كان عيسى إنساناً ولا جسماً ولكنه الله، وعلّم رجلاً آخر يقال له يعقوب ذلك، ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى، ثم دعا لهؤلاء الثلاثة وقال لكل واحد منهم أنت خليفتي فادع الناس إلى إنجيلك، ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عني، وإني غداً أذبح نفسي لمرضاة عيسى، ثم دخل المذبح فذبح نفسه، ثم دعا كل واحد من هؤلاء الثلاثة الناس إلى قوله ومذهبه، فهذا هو السبب في وقوع هذا الكفر في طوائف النصارى، هذا ما حكاه الواحدي رحمه الله تعالى، والأقرب عندي أن يقال لعله ورد لفظ الابن في الإنجيل على سبيل التشريف، كما ورد لفظ الخليل في حق إبراهيم على سبيل التشريف، ثم إن القوم لأجل عداوة اليهود ولأجل أن يقابلوا غلوهم الفاسد في أحد الطرفين بغلو فاسد في الطرف الثاني، فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية. والجهال، قبلوا ذلك، وفشا هذا المذهب الفاسد في أتباع عيسى عليه السلام، والله أعلم بحقيقة الحال. . .

المسألة الثالثة: قرأ عاصم والكسائي وعبد الوارث عن أبي عمرو ﴿عُـزَيْرٌ﴾ بالتنوين والباقون بغير التنوين. قال الزجاج: الوجه إثبات التنوين. فقوله ﴿عُـزَيْرٌ﴾ مبتدأ وقوله ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ خبره، وإذا كان كذلك فلا بد من التنوين في حال السعة لأن عزيرا ينصرف سواء كان أعجمياً أو عربياً، وسبب كونه منصرفاً أمران: أحدهما: إنه اسم خفيف فينصرف، وإن كان أعجمياً كهود ولوط والثاني: إنه على صيغة التصغير وأن الأسماء الأعجمية لا تصغر، وأما الذين تركوا التنوين فلهم فيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: إنه أعجمي ومعرفة، فوجب أن لا ينصرف.

والوجه الثاني: إن قوله ﴿ٱبْنُ﴾ صفة والخبر محذوف. والتقدير: عزير ابن الله معبودنا، وطعن عبد القاهر الجرجاني في هذا الوجه في كتاب دلائل الأعجاز، وقال الاسم إذا وصف بصفة ثم أخبر عنه فمن كذبه انصرف التكذيب إلى الخبر، وصار ذلك الوصف مسلماً. فلو كان المقصود بالإنكار هو قولهم عزير ابن الله معبودنا، لتوجّه الإنكار إلى كونه معبوداً لهم، وحصل كونه ابناً لله، ومعلوم أن ذلك كفر، وهذا الطعن عندي ضعيف. أما قوله إن من أخبر عن ذات موصوفة بصفة بأمر من الأمور وأنكره منكر، توجه الإنكار إلى الخبر فهذا مسلم. وأما قوله ويكون ذلك تسليماً لذلك الوصف فهذا ممنوع، لأنه لا يلزم من كونه مكذباً لذلك الخبر بالتكذيب أن يدل على أن ما سواه لا يكذبه بل يصدقه، وهذا بناء على دليل الخطاب وهو ضعيف لاسيما في مثل هذا المقام.

الوجه الثالث: قال الفراء: نون التنوين ساكنة من عزير، والباء في قوله ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ ساكنة فحصل ههنا التقاء الساكنين، فحذف نون التنوين للتخفيف، وأنشد الفراء:

فألفيته غير مستعتب
ولا ذاكر اللّه إلا قليلا

واعلم أنه لما حكى عنهم بهذه الحكاية قال ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.

ولقائل أن يقول: إن كل قول إنما يقال بالفم، فما معنى تخصيصهم لهذا القول بهذه الصفة.

والجواب من وجوه: الأول: أن يراد به قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى معتبر لحقه، والحاصل أنهم قالوا باللسان قولاً، ولكن لم

يحصل عند العقل من ذلك القول أثر، لأن إثبات الولد للإله مع أنه منزه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل، ليس عند العقل منه أثر. ونظيره قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] والثاني: إن الإنسان قد يختار مذهباً إما على سبيل الكناية وإما على سبيل الرمز والتعريض، فإذا صرح به وذكره بلسانه، فذلك هو الغاية في اختياره لذلك المذهب، والنهاية في كونه ذاهباً إليه قائلاً به. والمراد ههنا أنهم يصرحون بهذا المذهب ولا يخفونه البتة. والثالث: أن المراد أنهم دعوا الخلق إلى هذه المقالة حتى وقعت هذه المقالة في الأفواه والألسنة، والمراد منه مبالغتهم في دعوة الخلق إلى المذهب.

ثم قال تعالى ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذه الآية وجوه: الأول: إن المراد أن هذا القول من اليهود والنصارى يضاهي قول المشركين الملائكة بنات الله. الثاني: إن الضمير للنصارى أي قولهم المسيح ابن الله يضاهي قول اليهود عزير ابن الله لأنهم أقدم منهم. الثالث: إن هذا القول من النصارى يضاهي قول قدمائهم، يعني أنه كفر قديم، فهو غير مستحدث.

المسألة الثانية: المضاهاة: المشابهة. قال الفراء يقال ضاهيته ضهياً ومضاهاة، هذا قول أكثر أهل اللغة في المضاهاة. وقال شمر: المضاهاة: المتابعة، يقال: فلان يضاهي فلاناً أي يتابعه.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ بالهمزة وبكسر الهاء، والباقون بغير همزة وضم الهاء، يقال ضاهيته وضاهأته لغتان مثل أرجيت وأرجأت. وقال أحمد ابن يحيى لم يتابع عاصماً أحد على الهمزة.

ثم قال تعالى ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا القول تعجباً من بشاعة قولهم كما يقال القوم ركبوا سبعاً، قاتلهم الله ما أعجب فعلهم! أنّى يؤفكون'الإفك الصرف يقال أفك الرجل عن الخير، أي قلب وصرف، ورجل مأفوك أي مصروف عن الخير. فقوله تعالى ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ معناه كيف يصدون ويصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل، حتى يجعلوا لله ولداً! وهذا التعجب إنما هو راجع إلى الخلق، والله تعالى لا يتعجب من شيء، ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطبتهم، والله تعالى عجب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل.

قوله تعالى ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى وصف اليهود والنصارى بضرب آخر من الشرك بقوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو عبيدة: الأحبار: الفقهاء، واختلفوا في واحدة، فبعضهم يقول حَبر وبعضهم يقول حِبر. وقال الأصمعي: لا أدري أهو الحبر أو الحبر؟ وكان أبو الهيثم يقول واحد الأحبار حبر بالفتح لا غير، وينكر الكسر، وكان الليث، وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذمياً كان أو مسلماً، بعد أن يكون من أهل الكتاب. وقال أهل المعاني الحبر العالم الذي بصناعته يحبر المعاني، ويحسن البيان عنها. والراهب الذي تمكنت الرهبة والخشية في قلبه وظهرت آثار الرهبة على وجهه ولباسه. وفي عرف الاستعمال، صار الأحبار مختصاً بعلماء اليهود من ولد هرون، والرهبان بعلماء النصارى أصحاب الصوامع.

المسألة الثانية: الأكثرون من المفسرين قاوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، نقل أن عدي ابن حاتم كان نصرانياً فانتهى إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ سورة براءة، فوصل إلى هذه الآية، قال فقلت لسنا نعبدهم فقال «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه» فقلت بلى قال'«فتلك عبادتهم» وقال الربيع: قلت لأبي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربما وجدوا في

كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى. قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إليّ كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

فإن قيل: إنه تعالى لما كفرهم بسبب أنهم أطاعوا الأحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره، كما هو قول الخوارج.

والجواب: إن الفاسق، وإن كان يقبل دعوة الشيطان إلا أنه لا يعظمه لكن يلعنه، ويستخف به. أما أولئك الأتباع كانوا يقبلون قول الأحبار والرهبان ويعظمونهم، فظهر الفرق.

والقول الثاني: في تفسير هذه الربوبية أن الجهال والحشوية إذا بالغوا في تعظيم شيخهم وقدوتهم، فقد يميل طبعهم إلى القول بالحلول والاتحاد، وذلك الشيخ إذا كان طالباً للدنيا بعيداً عن الدين، فقد يلقى إليهم أن الأمر كما يقولون ويعتقدون، وشاهدت بعض المزورين ممن كان بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له، وكان يقول لهم أنتم عبيدي، فكان يلقى إليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء، ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه، فربما ادعى الإلهية، فإذا كان مشاهداً في هذه الأمة، فكيف يبعد ثبوته في الأمم السالفة؟ وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل أن يكون المراد منها أنهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله، وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا أنواع الكفر، فكفروا بالله، فصار ذلك جارياً مجرى أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله، ويحتمل أنهم أثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد. وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع في هذه الأمة.

ثم قال تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ ﴾ ومعناه ظاهر، وهو أن التوراة والإنجيل والكتب الإلهية ناطقة بذلك.

ثم قال ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ أي سبحانه من أن يكون له شريك في الأمر والتكليف، وأن يكون له شريك في كونه مسجوداً ومعبوداً، وأن يكون له شريك في وجوب نهاية التعظيم والإجلال.

البيضاوي ج ٣ ص ٦٥ ـ ٦٦

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا أنه ابن الله والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب عزير بالتنوين على أنه عربي مخبر عنه بابن غير موصوف به وحذفه في القراءة الأخرى إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصف والخبر محذوف مثل معبودنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدر ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ﴾ هو أيضاً قول بعضهم وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب أو لابن يفعل ما فعله من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً ﴿ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ ﴾ أما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجوز عنها أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذين يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿ مِن قَبۡلُۚ ﴾ أي من قبلهم والمراد قدماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله أو اليهود على أن الضمير للنصارى والمضاهاة المشابهة والهمز لغة فيه وقد

قرأ به عاصم ومنه قولهم امرأة ضهيأ على فعيل للتي شابهت للرجال في أنها لا تحيض ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله أو بالسجود لهم ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ بأن جعلوه ابناً لله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ أي وما أمر المتخذون أو المتخذون أرباباً فيكون كالدليل على بطلان الاتخاذ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟﴾ ليطيعوا ﴿إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ وهو الله تعالى وأما طاعة الله الرسول وسائر من أمرالله بطاعته فهو في الحقيقة طاعة الله ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثابتة أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له عن أن يكون له شريك.

الخازن ج ٣ ص ٨١ ـ ٨٤

قوله عزّ وجلّ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه في هذه الآية فأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولداً ومن جوّز ذلك على الله فقد أشرك به لأنه لا فرق بين من يعبد صنماً وبين من يعبد المسيح فقد بان بهذا أنهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وإبقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة التي بأيديهم ولعلهم يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون إليه. . . ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني أنهم يقولون في ذلك القول بألسنتهم من غير علم يرجعون إليه قال أهل المعاني لم يذكر الله قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا كان ذلك القول زوراً وكذباً لا حقيقة له ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ قال ابن عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطؤن وقال الحسن يوافقون ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال قتادة والسدي معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزيز ابن الله وقال مجاهد معناه يضاهئون قول المشركين من قبل لأن المشركين كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الأمم الخالية الكافرة وقال القتيبي يريد أن من كان في عصر النبيّ ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولوهم ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهما لله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه بمعنى التعجب أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجباً من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلاً يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يعني أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل وإقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذ التعجب راجع إلى الخلق لأن الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطبتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه ﷺ من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل. قوله سبحانه وتعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والأحبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أرباباً من دون الله يعني أنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى وذلك أنهم أحلوا لهم أشياء وحرموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها فاتخذوهم كالأرباب لأنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الإلهية عن عدي بن حاتم قال أتيت النبيّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرمون» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قال عبدالله ابن المبارك:

وهل بدل الدين إلا الملو
ك وأحبار سوء ورهبانها

﴿ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ يعني اتخذوه إلهاً وذلك لما اعتقدوا فيه النبوة والحلول اعتقدوا فيه الإلّهية ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ يعني وما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على السنة أنبيائهم ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ لأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة والأحكام وأن يكون له شريك في الإلهية يستحق التعظيم والإجلال.

القرطبي ج ٨ ص ١١٦ ـ ١٢٠

فيه سبع مسائل:

الأولى ـ قرأ عاصم والكسائي ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ بتنوين عزيز. والمعنى أن «ابناً» على هذا خبر ابتداء عن عزير، و﴿ عُزَيْرٌ ﴾ ينصرف عجمياً كان أو عربياً. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر «عُزَيْر ٱبْنُ» بترك التنوين لاجتماع الساكنين؛ ومنه قراءة من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدُ. ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الاخلاص: ١، ٢]. قال أبو عليّ: وهو كثير في الشعر. وأنشد الطبريّ في ذلك:

لَتجِدَنِّي بالأمير بَرّا
وبالقناة مِدْعَساً مِكَرّا
* إذَا غُطَيْفُ السُّلَمِيُّ فرّا *

الثانية ـ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ ﴾ هذا لفظ خرج على العموم ومعناه الخصوص؛ لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك. وهذا مثلُ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ولم يقل ذلك كل الناس. وقيل: إن قائل ما حكى عن اليهود سلاّم بن مِشْكم ونعمان ابن أبي أوفَى وشاش بن قيس ومالك بن الصّيف؛ قالوه النبيّ ﷺ. قال النقاش: لم يبق يهودي يقولها، بل انقرضوا؛ فإذا قالها واحد فيتوجّه أن تلزم الجماعة شُنْعَةُ المقالة؛ لأجل نباهة القائل فيهم. وأقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس يُحتجّ بها. فَمن هاهنا صح أن تقول الجماعة قول نَبِيهها. والله أعلم. وقد رُوي أن سبب ذلك القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عُزير يسيح في الأرض؛ فأتاه جبريل فقال: «أين تذهب»؟ قال: أطلب العلم؛ فعلمه التوراة كلها فجاء عزير بالتوراة إلى بني إسرائيل فعلمهم. وقيل: بل حفّظها الله عزيرا كرامة منه له؛ فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفّظني التوراة، فجعلوا يدرسونها من عنده. وكانت التوراة مدفونة، كان دفنها علماؤهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب، وقتْل بُخْتَنَصَّر إياهم. ثم إن التوراة المدفونة وُجدت فإذا هي متساوية لما كان عُزير يدرس؛ فضلّوا عند ذلك وقالوا: إن هذا لم يتهيأ لعزير إلا وهو ابن الله؛ حكاه الطبريّ. وظاهر قول النصارى أن المسيح ابن الله؛ إنما أرادوا بنوة النَّسل؛ كما قالت العرب في الملائكة. وكذلك يقتضي قول الضحاك والطّبري وغيرهما. وهذا أشنع الكفر. قال أبو المعالي: أطبقت النصارى على أن المسيح إله ابن إله. قال ابن عطية. ويقال إن بعضهم يعتقدها بنوة حنوّ ورحمة. وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه، وهو كفر.

الثالثة ـ **قال ابن العربي**: في هذا دليل من قول ربّنا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره الذي لا يجوز لأحد أن يبتدىء به لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له والردّ عليه، ولو شاء ربنا ما تكلّم به أحد، فإذا مكّن من إطلاق الألسن به فقد أذن بالأخبار عنه؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة والبرهان.

الرابعة ـ قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ قيل: معناه التأكيد؛ كما قال تعالى: ﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: ٧٩] وقوله: ﴿ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٣] ومثله كثير. وقيل: المعنى أنه لما كان قولٌ ساذَج ليس فيه بيان ولا برهان، وإنما هو قول بالفَم مجرّد نَفَس دعوَى لا معنى تحته صحيح؛ لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له والداً؛ فهو كذب وقولٌ لسانِيٌ فقط، بخلاف الأقوال الصحيحة التي

تَعْضُدها الأدلة ويقوم عليها البرهان. قال أهل المعاني: إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً؛ كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] و ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] و﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

الخامسة ـ قوله تعالى: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ يشابهون؛ ومنه قول العرب: امرأةٌ ضَهْيَا للّتي لا تحيض أو التي لا ثَدْيَ لها؛ كأنها أشبهت الرجال. وللعلماء في ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثلاثة أقوال: الأوّل ـ قولُ عَبَدة الأوثان: اللاَّت والعُزّى ومَناة الثالثة الأخرى. الثاني ـ قول الكفرة: الملائكة بنات الله. الثالث ـ قول أسلافهم، فقلدوهم في الباطل واتبعوهم على الكفر؛ كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

السادسة ـ اختلف العلماء في «ضهيا» هل يمدُّ أولاً؛ فقال ابن وَلاّد: امرأة ضَهْيَا؛ وهي التي لا تحيض؛ مهموز غير ممدود. ومنهم من يمدّ وهو سيبويه فيجعلها على فعلاء بالمدّ، والهمزة فيها زائدة؛ لأنهم يقولون نساء ضُهْي، فيحذفون الهمزة. قال أبو الحسن قال لي النَّجِيرَميّ: ضهيأة بالمد والهاء. جمع بين علامتي تأنيث؛ حكاه عن أبي عمرو الشَّيباني في النوادر. وأنشد.

* ضهيأة أو عاقر جماد *

ابن عطية: من قال ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ مأخوذ من قولهم: امرأة ضهياء فقوله خطأ؛ قاله أبو عليّ، لأن الهمزة في «ضاهأ» أصلية، وفي «ضهياء» زائدة كحمراء.

السابعة ـ قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي لعنهم الله، يعني اليهود والنصارى، لأن الملعون كالمقتول. قال ابن جريج: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ هو بمعنى التعجب. وقال ابن عباس: كل شيء في القرآن قَتْل فهو لعن؛ ومنه قول أبانَ بن تَغْلب:

قاتلها اللّه تَلْحانِي وقد علمَتْ
أنّي لنفسي إفساد وإصلاحي

وحكى النقاش أن أصل «قاتل الله» الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر، وهم لا يريدون الدعاء. وأنشد الأصمعيّ:

يا قاتل اللّه لَيْلَى كيف تعجبني
وأخبر الناس أني لا أباليها

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ الأحبار جمع حبر، وهو الذي يحسن القول وينظّمه ويتقنه بحسن البيان عنه. ومنه ثوب محبّر أي جمع الزينة. وقد قيل في واحد الأحبار: حبر بكسر الحاء. والمفسرون على فتحها. وأهل اللغة على كسرها. قال يونس: لم أسمعه إلا بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا: [مداد] حِبر يريدون مداد عالم، ثم كثير الاستعمال حتى قالوا للمداد حبر. قال الفرّاء: الكسر والفتح لغتان. وقال ابن السِّكيت: الحِبر بالكسر المداد، والحبر بالفتح العالِم. والرّهبان جمع راهب مأخوذ من الرّهبة، وهو الذي حمله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس، ويجعل زمانه له وعمله معه وأنسه به.

قوله تعالى: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعاني: جعلوا أحبارهم ورُهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف: ١٩٦] أي كالنار.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مضى الكلام في اشتقاقه في «آل عمرن». والمسيح: العَرَق يَسيل من الجبين. ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال:

افرح فسوف تألف الأحزانا
إذا شهدت الحشر والميزانا
وسال من جبينك المسيح
كأنه جداول تسيح

ومضى في «النساء» معنى إضافته إلى مريم أمّه.

أبو حيان الأندلسي ج ٥ ص ٣٠ ـ ٣٣

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ بيّن تعالى لحاق اليهود والنصارى بأهل الشرك وإن اختلفت طرق الشرك فلا فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره لأن الشرك هو أن يتخذ مع الله معبوداً بل عابد الوثن أخف كفراً من النصراني لأنه لا يعتقد أن الوثن خالق العالم والنصراني يقول بالحلول والاتحاد وقائل ذلك قوم من اليهود كانوا بالمدينة.

قال ابن عباس قالها أربعة من أحبارهم سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، وقيل قاله فنحاص، وقال النقاش لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا وتذم الطائفة أو تمدح بصدور ما يناسب ذلك من بعضهم. قيل والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب. . .

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ تعدت اتخذ هنا المفعولين والضمير عائد على اليهود والنصارى. قال حذيفة لم يعبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه وقد جاء هذا مرفوعاً في الترمذي إلى الرسول الله ﷺ من حديث عدي بن حاتم. وقيل كانوا يسجدون لهم كما يسجدون لله والسجود لا يكون إلا لله فأطلق عليهم ذلك مجازاً. وقيل علم سبحانه أنهم يعتقدون الحلول وأنه سبحانه تجلى في بواطنهم فيسجدون له معتقدين أنه لله الذي حل فيهم وتجلى في سرائرهم فهؤلاء اتخذوهم أرباباً حقيقية ومذهب الحلول فشافى هذه الأمة كثيراً وقالوا بالاتحاد أو أكثر ما فشا في مشايخ الصوفية والفقراء في وقتنا هذا وقد رأيت منهم جماعة يزعمون أنهم أكابر. وحكى أبو عبد الله الرازي أنه كان فاشياً في زمانه حكاه في تفسيره عن بعض المروزيين كان يقول لأصحابه أنتم عبيدي وإذا خلا ببعض الحمقا من أتباعه ادعى الإلهية وإذا كان هذا مشاهداً في هذه الأمة فكيف يبعد ثبوته في الأمم السابقة، انتهى. وهو منقول من كتاب التحرير والتحبير وقد صنف شيخنا المحدث المتصوّف قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن القسطلاني كتاباً في هذه الطائفة فذكر فيهم الحسين ابن منصور الحلاج وأبا عبدالله الشوذي كان بتلمسان وإبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان عرف بابن المرأة وأبا عبدالله بن أحلى المتأمر بلورقة وأبا عبدالله بن العربي الطائي وعمر بن علي بن الفارض وعبدالحق بن سبعين وأبا الحسن الششتري من أصحابه وابن مطرف الأعمى من أصحاب ابن أحلى والصفيفير من أصحابه أيضاً والعفيف التلمساني وذكر في كتابه من أحوالهم وكلامهم وأشعارهم ما يدل على هذا المذهب وقتل السلطان أبو عبدالله بن الأحمر مالك الأندلس الصفيفير بغرناطة وأنابها وقد رأيت العفيف الكوفي وأنشدني من شعره وكان يتكتم هذا المذهب وكان أبو عبدالله الأيكي شيخ خانكاه سعيد السعداء مخالطاً له خلطة كثيرة وكان متهماً بهذا المذهب وخرج التلمساني من القاهرة هارباً إلى الشام من القتل على الزندقة وأما ملوك العبيديين بالمغرب ومصر فإن أتباعهم يعتقدون فيهم الإلهية وأولهم عبيدالله المتلقب بالمهدي وآخرهم سليمان المتلقب بالعاضد والأحبار علماء اليهود والرهبان عباد النصارى الذين زهدوا في الدنيا وانقطعوا عن الخلق في الصوامع أخبر عن المجموع وعاد كل إلى ما يناسبه أي اتخذ اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم والمسيح ابن مريم عطف على رهبانهم ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الظاهر أن الضمير عائد على من عاد عليه في اتخذوا أي أمروا في التوراة والإنجيل على ألسنة أنبيائم. وقيل في القرآن على لسان رسول الله ﷺ. وقيل في الكتب الثلاثة. وقيل في الكتب المنزلة وعلى لسان جميع الأنبياء. وقال الزمخشري أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة. وقيل الضمير عائد على

الأحبار والرهبان المتخذين أرباباً أي وما أمر هؤلاء إلا ليعبدوا الله ويوحدوه فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون وفي قوله عما يشركون دلالة على إطلاق اسم الشرك على اليهود والنصارى.

ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزير إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالقة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماؤهم وسبوا كبارهم بقي العزير يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فبينما هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذ امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه واكاسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت الله قال: فإن الله حي لا يموت، قالت يا عزير فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك فتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمر العظيمة ثلاث مرات فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بني إسرائيل قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التواة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله. وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أي يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر ويعدلون إلى الباطل؟ وقوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام وكان قد تنصّر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ «يا عدي ما تقول؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون» وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبدالله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزّه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

الجلالان ص ٢٤٤ - ٢٤٥

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ﴾ عيسى ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ لا مستند لهم عليه بل ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ يشابهون به ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ﴾ من آبائهم تقليداً لهم ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾ لعنهم ﴿ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يُصرفون عن الحق مع قيام الدليل.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ﴾ علماء اليهود ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ عبّاد النصارى ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حيث اتبعوهم في تحليل مات حرم الله وتحريم ما أحل ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ في التوراة والإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟﴾ أي بأن يعبدوا ﴿إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

الشوكاني ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٥

... وظاهر قوله ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ إن هذه المقالة لجميعهم، وقيل هو لفظ خرج على العموم، ومعناه الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا لبعض منهم. وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها؟ بل قد انقرضوا؛ وقيل إنه قال ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة منهم، فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود، لأن قول بعضهم لازم لجميعهم. قوله ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه من غير أب، فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أن يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون في الإنجيل وصفه تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في مواضع متعددة من الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة؛ قيل: وهذه المقالة إنما هي لبعض النصارى لا لكلهم. قوله ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة الباطلة. ووجه قوله بأفواههم مع العلم بأن القول لا يكون إلا الفم، بأن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان ولا عضده برهان كان مجرّد دعوى، لا معنى تحتها فارغة صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه، غير مفيدة الفائدة يعتدّ بها؛ وقيل إن ذكر الأفواه لقصد التأكيد كما في كتبت بيدي ومشيت برجلي، ومنه قوله تعالى ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]. وقوله ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زورا كقوله ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٧] وقوله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ [الكهف: ٥]. وقوله ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ [الفتح: ١١] قوله ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ المضاهاة: المشابهة، قيل ومنه قول العرب امرأة ضهياء، وهي التي لا تحيض لأنها شابهت الرجال. قال أبو علي الفارسي: من قال ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء فقوله خطأ، لأن الهمزة في ضاهأ أصلية، وفي ضهياء زائدة كحمراء. وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء. ومعنى مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم: الأوّل أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم واللات والعزى ومناة بنات الله. القول الثاني أنهم شابهوا قول من يقول من الكافرين: إن الملائكة بنات الله، الثالث أنهم شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزير ابن الله وأن المسيح ابن الله. قوله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، لأن من قاتله الله هلك؛ وقيل هو تعجب من شناعة قولهم؛ وقيل معنى قاتلهم الله: لعنهم الله...

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. قوله ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأحبار: جمع حبر، وهو الذي يحسن القول. ومنه ثوب محبر: وقيل جمع حبر بكسر الحاء. قال يونس: لم أسمعه إلا بكسر الحاء. وقال الفراء:

الفتح والكسر لغتان. وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر العالم، والحبر بالفتح العالم. والرهبان جمع راهب مأخوذ من الرهبة. وهم علماء النصارى كما أن الأحبار علماء اليهود. ومعنى الآية أنهم لما أطاعوهم فيما يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب. قوله ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف على رهبانهم: أي اتخذه النصارى رباً معبوداً، وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزير رباً معبوداً، وفي هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدي بقوله ويستنّ بسنّته من علماء هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبياؤه، هو كاتخاذ اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل هم أطاعوهم وحرّموا ما حرّموا وحللوا ما حللوا، وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة بالتمرة، والماء بالماء؛ فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن عبدالله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاده، فعلتم بما جاءوا به من الآراء التي لم تعمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص الكتاب والسنة، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه، فأعرتموهما آذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأفهاماً مريضة، وعقولا مهيضة، وأذهاناً كليلة، وخواطر عليلة، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزية إن غوت
غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا أرشدكم الله وإياي كتباً كتبها لكم الأموات من أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم ومتعبدهم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤكم به من الرأي بأقوال إمامكم وإمامهم وقدوتكم وقدوتهم، وهو الإمام الأوّل محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم.

دعوا كل قول عند قول محمد
فما آمن في دينه كمخاطر

اللهم هادي الضال، مرشد التائه، موضح السبيل، اهدنا إلى الحق وارشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج الهداية. قوله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً، والحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة الله وحده، أو وما أمر الذين اتخذوهم أرباباً من الأحبار والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوهم له من اتخاذهم أرباباً. قوله ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لقوله إلهاً ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً له عن الإشراك في إطاعته وعبادته. . .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله؟ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عنه قال: كنّ نساء بني إسرائيل يجتمعن بالليل فيصلين ويعتزلن ويذكرن ما فضل الله به بني إسرائيل,وما أعطاهم، ثم سلط عليهم شرّ خلقه بختنصر، فحرق التوراة وخرّب بيت المقدس، وعزير يومئذ غلام، فقال عزير: أوكان هذا؟ فلحق بالجبال والوحش فجعل يتعبد فيها، وجعل لا يخالط الناس، فإذا هو ذات يوم بامرأة عند قبر وهي تبكي. فقال: يا أمة اتقي الله واحتسبي واصبري أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت: يا عزير أتنهاني أن أبكي وأنت قد خلفت بني إسرائيل ولحقت بالجبال والوحش؟ ثم قالت: إني لست بامرأة ولكني الدنيا، وإنه سينبع في مصلاك عين وتنبت شجرة، فاشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة، فإنه سيأتيك ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا، فلما كان من الغد نبعت العين ونبتت الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة الشجرة، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه

فألهمه الله التوراة، فجاء فأملاه على الناس، فعند ذلك قالوا عزير ابن الله، تعالى الله عن ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً فذكر قصة وفيها: أن عزيز سأل الله بعدما أنسى بني إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم أن يردّ الذي نسخ من صدره، فبينما هو يصلي نزل نور من الله عزّ وجلّ فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذّن في قومه فقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة وردّها إليّ. وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال: دعا عزير ربه أن يلقى التوراة كما أنزل على موسى في قلبه، فأنزلها الله عليه، فبعد ذلك قالوا: عزير ابن الله. وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: ثلاث أشك فيهن: فلا أدري عزير كان نبياً أم لا؟ ولا أدري ألعن تبع أم لا؟ قال: ونسيت الثالثة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾ قال: يشبهون. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ قال: لعنهم الله وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن. وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. وأخرجه أيضاً أحمد وابن جرير. وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن أبي البحتري قال: سأل رجل حذيفة فقال: أرأيت قوله ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه...

الآلوسي ج ٥ ص ٨٠ ـ ٨٥

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾ استئناف سيق لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك في المشركين، والقائل ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ متقدمو اليهود ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل مما شاع، وسبب ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عزيراً كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان التابوت عندهم. فلما رأى الله سبحانه وتعالى أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا عزير ربه عزّ وجلّ وابتهل أن يرد إليه ما نسخ من صدره، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله عزّ وجلّ نزل نور من الله تعالى فدخل جوفه فعاد الذي كان ذهب من جوفه من التوراة فأذن في قومه فقال: يا قومي قد أتاني الله تعالى التوراة وردّها إلي فطفق يعلمهم فمكثوا ما شاء الله تعالى أن يمكثوا وهو يعلمهم. ثم إن التابوت نزل عليهم بعد ذهابه منهم فعرضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلمهم فوجدوه مثله فقالوا: والله ما أوتي عزير هذا إلاّ لأنه ابن الله سبحانه. وقال الكلبي في سبب ذلك: إن بختنصر غزا بيت المقدس وظهر على بني إسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزير إذ ذاك صغيراً فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيراً ليجدد لهم التوراة وليكون آية لهم بعدما أماته الله تعالى مائة سنة فأتاه ملك بإناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة في صدره فلما أتاهم قال: أنا عزير فكذبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فأملِ علينا التوراة فكتبها لهم من صدره. فقال رجل منهم: إن أبي حدثني عن جدي أنه وضعت في التوراة في خابية ودفنت في كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوه غادر حرفاً فقالوا: إن الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب عزير إلا لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وروي غير ذلك ومرجع الروايات إلى أن السبب حفظه عليه السلام للتوراة، وقيل: قائل ذلك جماعة من يهود المدينة منهم

سلام بن مشكم. ونعمان بن أبي أوفى. وشاس بن قيس. ومالك بن الصيف. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ. وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن قائل ذلك فنحاص بن عازوراء وهو على ما جاء في بعض الروايات القائل: «إن الله فقير ونحن أغنياء».

وبالجملة أن هذا القول كان شائعاً فيهم ولا عبرة بإنكارهم له أصلاً ولا بقول بعضهم: إن الواقع قولنا عزير أبان الله أي أوضح أحكامه وبين دينه أو نحو ذلك بعد أن أخبر الله سبحانه تعالى بما أخبر. وقرأ عاصم. والكسائي. ويعقوب. وسهل ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين والباقون بتركه. أما التنوين فعلى أنه اسم عربي مخبر عنه بابن. وقال أبو عبيدة: إنه أعجمي لكنه صرف لخفته بالتصغير كنوح ولوط وإلى هذا ذهب الصغاني.

وهو مصغر عزار تصغير ترخيم، والقول بأنه أعجمي جاء على هيئة المصغر وليس به فيه نظر. وأما حذف التنوين فقيل لالتقاء الساكنين فإن نون التنوين ساكنة والباء في ابن ساكنة أيضاً فالتقى الساكنان فحذفت النون كما يحذف حروف العلة لذلك، وهو مبني على تشبيه النون بحرف اللين وإلا فكان القياس تحريكها، وهو مبتدأ وابن خبره أيضاً ولذا رسم في جميع المصاحف بالألف؛ وقيل: لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، وقيل: لأن الابن وصف والخبر محذوف مثل معبودنا. وتعقب بأنه تمحل عنه مندوحة ورده الشيخ في دلائل الإعجاز بأن الاسم إذا وصف بصفة ثم أخبر عنه فمن كذبه انصرف تكذيبه إلى الخبر وصار ذلك الوصف مسلماً، فلو كان المقصود بالإنكار قولهم عزير ابن الله معبودنا لتوجه الإنكار إلى كونه معبوداً لهم وحصل تسليم كونه ابناً لله سبحانه وذلك كفر. واعترض عليه الإمام قائلاً: إن قوله يتوجه الإنكار إلى الخبر مسلم لكن قوله: يكون ذلك تسليماً للوصف ممنوع لأنه لا يلزم من كونه مكذباً لذلك الخبر كونه مصدقاً لذلك الوصف إلا أن يقال: ذلك بالخبر يدل على أن ما سواه لا يكذبه وهو مبني على دليل الخطاب وهو ضعيف. وأجاب بعضهم بأن الوصف للعلية فإنكار الحكم يتضمن إنكار علته. وفيه أن إنكار الحكم قد يحتمل أن يكون بواسطة عدم الإفضاء لا لأن الوصف كالأبنية مثلاً منتف.

وفي الإيضاح أن القول بمعنى الوصف وأراد أنه لا يحتاج إلى تقدير الخبر كما أن أحداً إذا قال مقالة ينكر منها البعض فحكيت منها المنكر فقط، وهو كما في الكشف وجه حسن في رفع التمحل لكنه خلاف الظاهر كما يشهد له آخر الآية. وقال بعض المحققين: إنه يحتمل أن يكون ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي صاحبنا عزير ابن الله مثلاً، والخبر إذا وصف توجه الإنكار إلى وصفه نحو هذا الرجل العاقل وهذا موافق للبلاغة وجار على وفق العربية من غير تكلف ولا غبار، ولم يظهر لي وجه تركه مع ظهوره، والظاهر أن التركيب خبر ولا حذف هناك، واختلف في عزير هل هو نبي أم لا والأكثرون على الثاني ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، ولعلهم إنما قالوه لاستحالة أن يكون ولد من غير أب أو لأنهم رأوا من أفعاله ما رأوا.

ويحتمل ـ وهو الظاهر عندي ـ أنهم وجدوا اطلاق الابن عليه عليه السلام وكذا اطلاق الآب على الله تعالى فيما عندهم من الإنجيل فقالوا ما قالوا وأخطأوا في فهم المراد من ذلك. وقد قدمنا من الكلام ما فيه كفاية في هذا المقام.

ومن الغريب ـ ولا يكاد يصح ـ ما قيل: إن السبب في قولهم هذا أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام إحدى وثمانين سنة يصلون ويصومون ويوحدون حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة منهم ثم قال لليهود: إن كان الحق مع عيسى عليه السلام فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون أن دخلنا النار ودخلوا الجنة وإني سأحتال عليهم وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم إنه عمد إلى فرس يقاتل عليه فعقره وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه وأتى النصارى فقالوا له من أنت فقال: عدوكم بولص قد نوديت من السماء أنه ليست لك توبة

حتى تتنصر وقد تبت وأتيتكم فأدخلوه الكنيسة ونصّروه ودخل بيتاً فيها فلم يخرج منه سنة حتى تعلّم الإنجيل ثم خرج وقال: قد نوديت إن الله تعالى قد قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال منهم نسطور. ويعقوب. وملكاً فعلم نسطور أن الإله ثلاثة. الله. وعيسى. ومريم تعالى الله عن ذلك، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله سبحانه، وعلم ملكاً أن عيسى هو الله تعالى لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك منهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له: أنت خالصتي فادع الناس إلى ما علمتك وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد، ثم قال لهم: إني رأيت عيسى عليه السلام في المنام، وقد رضي عني وأنا ذابح نفسي تقرباً إليه ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه، وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد منهم إلى الروم، وواحد إلى بيت المقدس. والآخر إلى ناحية أخرى وأظهر كل مقالته ودعا الناس إليها فتبعه من تبعه وكان ما كان من الاختلال والضلال ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي ما صدر عنهم من العظيمتين ﴿ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ أي أنه قول لا يعضده برهان مماثل للألفاظ المهملة التي لا وجود لها إلا في الأفواه من غير أن يكون لها مصداق في الخارج، وقيل: هو تأكيد لنسبة القول المذكور إليهم ونفي التجوّز عنها وهو الشائع في مثل ذلك، وقيل: أريد بالقول الرأي والمذهب، وذكر الأفواه إما للإشارة إلى أنه لا أثر له في قلوبهم وإنما يتكلمون به جهلاً وعناداً وإما للإشعار بأنه مختار لهم غير متحاشين عن التصريح به فإن الإنسان ربما ينبه على مذهبه بالكتابة أو بالكناية مثلاً فإذا صرح به وذكره بلسانه كان ذلك الغاية في اختياره، وادّعى غير واحد أن جعل ذلك من باب التأكيد كما في قولك: رأيته بعيني وسمعته بأذني مثلاً مما يأباه المقام. ولو كان المراد به التأكيد مع التعجيب من تصريحهم بتلك المقالة الفاسدة لا ينافيه المقام ولا تزاحم في النكات ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ أي يضاهي قولهم في الكفر والشناعة ﴿ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وصير مرفوعاً، ويحتمل أن يكون من باب التجوّز كما قيل في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٢] لا يهديهم في كيدهم، فالمراد يضاهئون في قولهم قول الذين كفروا ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلهم وهم كما روي عن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة واختاره الفراء المشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون، وقيل: المراد بهم قدماؤهم فالمضاهي من كان في زمنه عليه الصلاة والسلام منهم لقدمائهم وأسلافهم، والمراد الإخبار بعراقتهم في الكفر.

وأنت تعلم أنه لا تعدد في القول حتى يتأتى التشبيه، وجعله بين قولي الفريقين ليس فيه زيد مزية، وقيل: المراد بهم اليهود على أن الضمير للنصارى، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر وإن أخرجه ابن المنذر وغيره عن قتادة مع أن مضاهاتهم قد علمت من صدر الآية، ويستدعي أيضاً اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ بقول النصارى، وقرأ الأكثر ﴿ يُضَٰهِـُٔونَ ﴾ بهاء مضمومة بعدها واو، وقد جاء ضاهيت وضاهأت بمعنى من المضاهاة وهي المشابهة وبذلك فسرها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن الحسن تفسيرها بالموافقة وهما لغتان، وقيل: الياء فرع عن الهمزة كما قالوا قريت وتوضيت، وقيل: الهمزة بدل من الياء لضمها. ورد بأن الياء لا تثبت في مثله حتى تقلب بل تحذف كرامون من الرمي، وقيل: إنه مأخوذ من قولهم: امرأة ضهيا بالقصر وهي التي لا ثدي لها أو لا تحيض أو لا تحمل لمشابهتها بالرجال، ويقال: ضهياء بالمد كحمراء وضهيياء بالمد وتاء التأنيث وشذّ فيه الجمع بين علامتي التأنيث، وتعقب بأنه خطأ لاختلاف المادتين فإن الهمزة في ضهياء على لغتها الثلاث زائدة وفي المضاهاة أصلية ولم يقولوا: إن همزة ضهياء أصلية ياؤها زائدة لأن فعيلاء لم يثبت في أبنيتهم، ولم يقولوا وزنها فعلل كجعفر لأنه ثبت زيادة الهمزة في ضهياء بالمدّ فتتعيّن في اللغة الأخرى، وفي هذا المقام كلام مفصل في محله. ومن الناس من جوّز الوقف على ﴿ قَوْلُهُم ﴾ وجعل ﴿ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ متعلقاً بيضاهئون ولا توقف في أنه ليس بشيء، وفي الجملة ذم للذين كفروا على أبلغ وجه وإن لم

تسق لذمهم ﴿قَاتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتل الله تعالى فمقتول ومن غالبه فمغلوب. وأخرج ابن جرير، وغيره عن ابن عباس أن المعنى لعنهم الله وهو معنى مجازي لقاتلهم، ويجوز أن يكون المراد من هذه الكلمة التعجب من شناعة قولهم فقد شاعت في ذلك حتى صارت تستعمل في المدح فيقال: قاتله الله تعالى ما أفصحه.

وقيل: هي للدعاء والتعجب يفهم من السياق لأنها كلمة لا تقال إلا في موضع التعجب من شناعة فعل قوم أو قولهم ولا يخفى ما فيه مع أن تخصيصها بالشناعة شناعة أيضاً ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى، والأحبار علماء اليهود، واختلف في واحدة فقال الأصمعي: لا أدري أهو حَبر أو حِبر، وقال أبو الهيثم: هو الفتح لا غير، وذكر ابن الأثير أنه بالفتح والكسر وعليه أكثر أهل اللغة، والصحيح إطلاقه على العالم ذمياً كان أو مسلماً فقد كان يقال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما الحبر ويجمع كما في القاموس على حبور أيضاً وكأنه مأخوذ من تحبير المعاني بحسن البيان عنها ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ وهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع، وهو جمع راهب وقد يقع على الواحد ويجمع على رهابين ورهابنة وفي مجمع البيان أن الراهب هو الخاشي الذي تظهر عليه الخشية وكثر إطلاقه على متنسكي النصارى وهو مأخوذ من الرهبة أي الخوف، وكانوا لذلك يتخلون من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعمد مشاقها حتى إن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب، ومن هنا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا رهبانية في الإسلام» والمراد في الآية اتخذ كل من الفريقين علماءهم لا الكل الكل ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرمه سبحانه وهو التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. فقد روى الثعلبي، وغيره عن عدي بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فقلت له: يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام. أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟ فقلت بلى. قال: ذلك عبادتهم. وسئل حذيفة رضي الله تعالى عنه عن الآية فأجاب بمثل ما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونظير ذلك قولهم: فلان يعبد فلاناً إذا أفرط في طاعته فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة وهي طاعة مخصوصة على مطلقها والأول أبلغ، وقيل: اتخاذهم أرباباً بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا للرب عزّ وجلّ وحينئذ فلا مجاز إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لكلام علمائهم ورؤسائهم والحق أحق بالاتباع فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه وإن أخطأه اجتهاد مقلده ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ بأن اتخذوه رباً معبوداً أو بأن جعلوه ابناً لله كما يقتضيه سياق الآية على ما قيل وفيه نظر. وتخصيص الاتخاذ به عليه السلام يشير إلى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير، وتأخيره في الذكر مع أن اتخاذهم له كذلك أقوى من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم لأنه مختص بالنصارى، ونسبته عليه السلام إلى أمه للإيذان بكمال ركاكة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في الكتب الإلهية وعلى ألسنة الأنبياء عليهم السلام ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ جليل الشأن وهو الله سبحانه ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فإن ذلك مناف لعبادته جل شأنه، وأما إطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر من أمر الله بطاعته فهي في الحقيقة إطاعة لله عزّ وجلّ، أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أرباباً من المسيح عليه السلام والأحبار والرهبان إلا

ليطيعوا أو ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم، ولا يخفي أن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضاً به تعالى ومتى لم يخص به جل شأنه لم تخص العبادة به سبحانه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لإلهاً أو استئناف، وهو على الوجهين مقرر للتوحيد وفيه على ما قيل فائدة زائدة وهو أن ما سبق يحتمل غير التوحيد بأن يؤمروا بعبادة إله واحد من بين الآلهة فإذا وصف المأمور بعبادته بأنه هو المنفرد بالألوهية تعين المراد، وجوّز أن يكون صفة مفسرة لواحداً ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له أي تنزيه عن الإشراك به في العبادة والطاعة.

القاسمي ج ٨ ص ١٨٠ - ١٨٧

القول في تأويل قوله تعالى

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ جملة مبتدأة، سيقت لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه، وانتظامهم بذلك في سلك المشركين. وقرىء ﴿عُزَيْرٌ﴾ بالتنوين على الأصل، وحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس تخفيفاً. وهو مبتدأ وما بعده خبره، ولهم أوجه أخرى في إعرابه، والوجه ما ذكرناه.

وليعلم أن الذي دعا الفريقين إلى مقاليهما هو الغلوّ في التعظيم. فأما اعتقاد النصارى فهو مشهور معلوم، تكفل التنزيل الكريم يذكره مراراً، ودحر شبهه. وأما اليهود في ﴿عُزَيْرٌ﴾ فغلاتهم أو جهلتهم يتفوهون بهذه الكلمة الشنعاء، وأما بقيتهم فيعتبرونه في مقام موسى، ويحترمون دائماً ذكره، ويعتقدون أن الله تعالى قد أقامه لجمع التوراة المبددة. ولتجديد الملة الموسوية، وإرجاعها إلى عهدها، وإصلاح ما فسد من آدابها وعوائدها، بإلهام، فإن نسخة التوراة الأصلية، وبقية أسفارهم، فقدت لما أغار أهل بابل، جند (بخت نصّر) على بيت المقدس، وهدموه، وسبوا أهله إلى مملكتهم بابل، وأقاموا هناك سبعين سنة، ثم لما نبغ فيهم (عزير) واشتهر، واستعطف أحد ملوكهم في سراحهم، فأطلق له الملك الإجازة، فعاد من بابل بمن بقي من اليهود إلى بيت المقدس، وجدّد ما اندثر من الشريعة الموسوية.

قال بعض الكتابيين في قاموس له: زعم اليهود أن أئمتهم عقدوا مجمعاً في عهد (عزرا)، وجمعوا الأسفار العبرانية في قانون متعارف عندهم اليوم، وضموا إليه ما لم يكن فيه من قبل جلاء بابل.

وفي (الذخيرة) من كتبهم ما نصه: أجمع القوم على أن (عزرا) الذي كان خبيراً بآثار وطنه وقدمها، وماهراً بمعرفة الطقوس اليهودية، وبارعاً بالعلوم المقدسة، هو أول من قرر هذا القانون، وأثبت أجزاءه المختلفة، بعد الأسر البابليّ في نحو السنة ٥٤٣ قبل ميلاد المسيح، ولما تفرّقت التوراة آن الجلاء، قام (عزرا) وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة، وألف منها نسخة صحّحها ونقحها ما استطاع، وبدل أسماء الأماكن التي انتسخ ثمّ استعمالُها، بأسماء أخرى أشهر في عرفهم، ونسق الكل نسقاً محكماً، واتفق الجميع على أنه اعتاض في كل الأسفار عن حروف الخط العبرانيّ بحروف كلدانية، ألف استعمالها اليهود مدة أسرهم الذي استمرّ سبعين سنة. انتهى.

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه (ابناً) وفيه من الجراءة على المقام الربّانيّ ما فيه. ولو زعموا إرادة المجاز في ذلك، فلا مناص لهم من لحوق الكفر بهم، فإنه يجب الاحتياط في تنزيهه تعالى، حتى بعفة اللسان، عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه، فيتبرأ من مثل هذا اللفظ مطلقاً ومن كل ماشاكله. هذا وقد قيل إن القائل لذلك بعض من متقدميهم، وقيل ناس من أهل المدينة في عهد النبيّ ﷺ ولا دلالة في الآية على واحد منهما بخصوصه، ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل، مما شاع.

لطيفة:

قرىء (عزيرٌ) بالتنوين على الأصل، لأنه منصرف، وقرىء بحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس، لا لأنه أعجمي غير منصرف للعلمية والعجمة، كما قيل، لأن

ذلك إنما يصح لو كان على لفظه الأصليّ، وهو (عزراء) أو (عزريا)، لفظان عبرانيان، معنى الأول معين، والثاني الله مساعد. أما وقد تصرفت فيه العرب بالتصغير، فلا. وظاهر أن أغلب الأسماء القديمة، لانتقالها من أمة إلى أخرى وكثرة تداولها، تطرق إليها من شوائب التحريف والزيادة والنقصان، ما غير صيغتها الأصلية بعض التغيير ولما استعملت العرب من الأسماء العبرانية ونحوها ما أدخلته إلى لغتها، إما منحوتة من القديمة، أو محرفة منها، أصبحت بالاصطلاح من قبيل الأعلام العربية، إلا ما بقي على وضعه الأول.

وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين. وما فيه من معنى البعد، للدلالة على بعد درجة المشار إليه في الشناعة والفظاعة ـ قاله أبو السعود ـ ﴿قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قال الزمخشريّ: فإن قلت: كل قول يقال بالفم، فما معنى ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما ـ أن يرادبه أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته، كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم، لا تدل على معان. وذلك أن القول الدال على معنى، لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر في القلب. وما لا معنى له، مقول بالفم لا غير.

والثاني ـ أن يراد بالقول المذهب، كقولهم (قول أبي حنيفة)، يريدون مذهبه، وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم، لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة، حتى يؤثر في القلوب. وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له، لم تبقَ شبهة في انتفاء الولد. انتهى.

وثَمَّة وجه ثالث شائع في مثله، وهو التأكيد لنسبة هذا القول إليهم، مع التعجيب من تصريحهم بتلك المقالة الفاسدة. قال بعضهم: القول قد ينسب إلى الأفواه وإلى الألسنة، والأول أبلغ.

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي يضاهي قولُهم قولَ الذين كفروا من قبلهم من الأمم، فضلوا كما ضل أولئك. قيل: المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ مشركو مكة، القائلون بأن الملائكة بنات الله، وهذا يتم إن أريد بـ ﴿ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ في الآية، يهود المدينة ونصارى نجران في عهده ﷺ، وهو وجه في الآية كما تقدم، فإنهم سُبِقوا من أهل مكة بالكفر به عليه الصلاة والسلام. وقيل: المراد بهم قدماؤهم، يعني أن من كان في زمنه عليه الصلاة والسلام منهم، يضاهيء قولهم قول قدمائهم. والمراد عراقتهم في الكفر، أي أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث.

قال أبو السعود: وفيه أنه لا تعدد في القول، حتى يتأتى التشبيه، وجعله بين قولي الفريقين، مع اتحاد المقول، ليس فيه مزيد مزيّة. وقيل: الضمير للنصارى، أي يضاهيء قولهم ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ قولَ اليهود ﴿عُزَيْرٌ......﴾ إلخ لأنهم أقدم منهم.

قال أبو السعود: وهو أيضاً كما ترى، فإنه يستدعي اختصاص الرد والإبطال بقوه تعالى ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، بقول النصارى انتهى.

والمضاهاة المشابهة، يقال: ضاهيت، وضاهأت ـ كما قاله الجوهريّ ـ وقراءة العامة (يضاهون) بهاء مضمومة بعدها واو. وقرأ عاصم بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة، وهما بمعنى. من المضاهأة، وهي المشابهة، وهما لغتان. وقيل: الياء فرع عن الهمزة، كما قالوا: قريت وتوضيت وأخطيت ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي لعنهم أو قتلهم، أو عاداهم أو تعجب من شناعة قولهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك. والأحبار علماء اليهود جمع (حَبْر) بكسر الحاء وفتحها، وهو العالم بتحبير الكلام وتحسينه ـ كذا ذكره أئمة اللغة ـ قال بعضهم:

بعضهم: (الحبر) أعظم الأشراف بين الإسرائيليين، يكون عندهم وسيلة للتقرب لله، ومرتبة وراثية في آل هارون، يكون بكر أشيخ من فيها. انتهى.

و ﴿ وَرُهْبَـٰنَهُمْ ﴾ جمع راهب بمعنى المتعبد الخاشع الزاهد. وأصل الترهب عند النصارى، التخلي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذّها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها. وفي الحديث «لا رهبانية في الإسلام». وقوله تعالى ﴿ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال الرازيّ: الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، أي لما روى الترمذي عن عديّ بن حاتم قال: أتيت النبيّ ﷺ وفي عنقي صَليب من ذهب، فقال: يا عديّ! اطرح عنك هذا الوثن. وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه.

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصّر في الجاهلية فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ، على أخته، وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، فرغّبته في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عديّ المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائيّ المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عديّ صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآي ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال بلى: إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم. وقال رسول الله ﷺ: يا عديّ! ما تقول؟ أيضرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يضرّك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال فلقد رأيت وجهه استبشر. ثم قال: إن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون.

قال ابن كثير: وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية، أنهم أتبعوهم فيما حللوا وحرموا.

وقال السديّ: استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

وقد ذكر بعض المفسرين وجهاً في تفسير اتخاذهم أرباباً، قال: بأن أطاعوهم بالسجود لهم.

قال الشهاب: والأول هو تفسير النبيّ ﷺ، فينفي الاقتصار عليه، لأنه لما أتاه عديّ ابن حاتم وهو يقرؤها قال له: إنا لم نعبدهم، فقال: ألم تتبعوهم في التحليل والتحريم؟ فهذه هي العبادة، والناس يقولون: فلان يعبد فلاناً، إذا أفرط في طاعته، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة؛ أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة، وهي طاعة مخصوصة على مطلقها، والأول أبلغ. انتهى.

قال الرازيّ: قال الربيع: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

قال الرازيّ: قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من ملقدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة في كتاب الله تعالى في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليّ كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات، مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمّل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل المدينة. انتهى.

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ ﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في كتابهم ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي يطيعوا أمره، ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه، وقوله ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ صفة ثانية لـ ﴿ إِلَـٰهًا ﴾، أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي به في العبادة والطاعة.

محمد عبده ج ١٠ ص ٣٢١ ـ ٣٨٣

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

تقدم في الآية (٢٩) السابقة لهذه الآيات أن أهل الكتاب المراد بهم اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله تعالى على الوجه الحق الذي جاءت به رسله من توحيد وتنزيه لذاته وصفاته ـ ولا باليوم الآخر على الوجه الصحيح من أن الناس يبعثون بشراً كما كانوا في الدنيا، أي أجساداً وأرواحاً، وأنهم يجزون بإيمانهم وأعمالهم، وعليها مدار سعادتهم وشقائهم، لا على أشخاص الأنبياء والصديقين ـ ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله إلى كل منهم إيماناً وإذعاناً وعملاً ـ ولا يدينون دين الحق. أي إنما يتبعون تقاليد وجدوا عليها آباءهم وأحبارهم ورهبانهم ـ فلما بيّن تعالى هذا في سياق قتالهم وما ينتهي به إذا لم يؤمنوا بما جاء رسول الله خاتم النبيين ﷺ وهو أداء الجزية بشرطها ـ عطف عليه ما يبين مبهمه، ويفصل مجمله، ويبين غايته، وهو هذه الآيات الأربع فقال عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ إلخ نبدأ في تفسير هذه الآية بذكر شيء من تاريخ عزير هذا ومكانته عند القوم ثم ببيان من سمّوه ابن الله من اليهود، ونقفي على ذلك بذكر قول النصارى: المسيح ابن الله وتفنيده، ثم من قال بمثل هذا القول من الوثنيين القدماء وهو من معجزات القرآن: وقد تقدم هذا مفصلاً في تفسير سورتي النساء والمائدة.

عزير هذا هو الذي يسميه أهل الكتاب (عزرا) والظاهر أن يهود العرب هم الذين صغروا بالصيغة العربية للتحبيب وصرفوه وعنهم أخذ المسلمون والتصرف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى معروف عند جميع الأمم، حتى أن اسم يسوع قلبته العرب فقالت عيسى.

وهو كما في أول الفصل السابع من السفر المعروف باسمه عزرا ابن سرايا ابن عزريا بن حلقيا ـ وساق نسبه إلى العازار بن هارون (عليه السلام). . .

وجملة القول أن اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيرا هذا حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب ابن الله ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما أم بالمعنى الذي سيأتي قريباً عن فيلسوفهم (فيلو) وهو قريب من فلسفة وثنيي الهند التي هي أصل عقيدة النصارى. وقد اتفق المفسرون على أن اسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم، وهو مبني على القاعدة التي بيناها في تفسير بعض آيات سورة البقرة التي تحكي عنهم أقوالاً وأفعالاً مسندة إليهم في جملتهم، وهي مما صدر عن بعضهم، وهي أن المراد من هذا الأسلوب تقرير أن الأمة تعد متكافلة في شؤونها العامة، وأن ما يفعله بعض الفرق أو الجماعات أو الزعماء منها يكون له تأثير في جملتها وإن المنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم، وبينا في تفسير قوله تعالى ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] إن من سنن الاجتماع البشري أن المصائب والرزايا التي تحل بالأمم بفشو المفاسد والرذائل فيها لا تختص الذين تلبسوا بتلك المفاسد وحدهم، كما أن الأوبئة التي تحدث بكثرة الأقذار في الشعب وغير ذلك من الإسراف في الشهوات تكون عامة أيضاً.

وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة كالذين قال الله فيهم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، والذين قال فيهم ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] رداً على قوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؟ [البقرة: ٢٤٥] ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا.

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال أتى رسول

الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ وإنما قالوا هو ابن الله من أجل أن عزيراً كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم فلما رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم (وذكر الراوي حكاية إسرائيلية قال في آخرها أن عزيراً صلى ودعا الله أن يرد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة فاستحاب له فصار يعلمهم إياها ثم نزل التابوت عليهم فعرضوا عليه ما علمهم عزير فوجدوه مثله).

فنحن نأخذ بما قاله ابن عباس رواية عمن جاؤا النبيّ ﷺ من اليهود وقالوا ما قالوا فإنه رواية عن شيء وقع في زمنه فأخبر عما رأى وسمع، وأما ما حكاه من سبب قولهم فما هو إلا رواية عن بعضهم كذبوا فيه عليهٰ أو على من حدثه به، والظاهر أنه مما سمعه من كعب الأحبار إذ روى عنه كثيراً من الإسرائيليات، فقد أخرج أبو الشيخ عن كعب أنه قال دعا عزير ربه عزّ وجلّ أن يلقّى التوراة كما أنزل على موسى عليه السلام في قلبه. فأنزلها الله تعالى عليه فبعد ذلك قالوا عزير ابن الله.

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور روايات أخرى إسرائيلية خرافية في هذا المعنى منها ما رواه ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس وملخصه أن الله سلط بختنصر على بني إسرائيل فحرق التوراة وخرب بيت المقدس وعزير يومئذ غلام فلحق بالجبال يتعبد فيها وأن الدنيا تمثلت له في صورة امرأة فأخبرته بأنه سينبع في مصلاه عين ماء وتنبت فيه شجرة فإذا شرب من العين وأكل من الثمرة جاءه ملكان... (إلى أن قال) فجاء الملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فألهمه الله التوراة!! وروى ابن أبي حاتم هذه الخرافة عن السدي بأطول مما روي عن ابن عباس. وما ذكرنا هذا إلا لنبين للناس أنه من شر الخرافات الإسرائيلية التي كان يغش المسلمين بها كعب الأحبار وأمثاله مما ليس في كتب اليهود، وقد راجت على أكثر المفسرين بعدم اطلاعهم على كتب العهد العتيق ولاسيما سفر الأيام الثاني وسفري عزرا ونحميا ولا على غيرها من كتبهم ولا على تاريخ يوسيفوس اليهودي وغيره من التواريخ. دع كتب أحرار الإفرنج ومؤرخيهم مما لم يكن في زمنهم.

ومن المعلوم أن بعض النصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله كانوا من اليهود وقد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح يقول إن الله إبناً هو كلمته التي خلق بها الأشياء ـ فعلى هذا لا يبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا إن عزيراً ابن الله بهذا المعنى.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ هذا القول كان يقوله القدماء منهم ويعتقدون به معنى مجازياً كالمحبوب والمكرم ثم سرت إليهم فلسفة الهنود في (كرشنا) وغيرهم من قدماء الوثنيين ثم اتفقت عليه فرقهم المعروفة في هذه الأزمنة وعلى أنه حقيقة لا مجاز. وعلى أن (إبن الله) بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) لأن هؤلاء الثلاثة عندهم واحد حقيقة لا مجازاً، هذا تعليم الكنائس الذي قررته المجامع الرسمية، بتأثير الفلسفة الرومية. ولكن بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون. ويخالفه خلق كثير منهم أعظمهم شأناً الموحدون والعقليون. والكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستنتينية لا تعتد بنصرانيتهم ولا بدينهم...

كنا بينّا في تفسير سورة المائدة ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] إن لقب «ابن الله» أطلق في كتب اليهود والنصارى على آدم كما تراه في نسب المسيح في آخر الفصل الثالث من إنجيل لوقا وهو «ابن شيث بن آدم ابن الله» وعلى يعقوب كما في الفصل الرابع من سفر الخروج (٤: ٢٢ هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر) ـ وعلى أفرايم كما في سفر أرميا (٣١: ٩ لأني صرت أباً وأفريم هو بكري) ـ وعلى داود (من ٨٩: ٢٦ هو يدعوني أبي أنت إلهي وصخرة خلاصي ٢٧ أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض) وأنه أطلق أيضاً على الملائكة والمؤمنين الصالحين وسمي الله

أباً لهم في مواضع كثيرة من كتب العهدين، ويقابله اطلاق المسيح لقب «أولاد إبليس» على غير الصالحين وتسمية إبليس أباهم كما ترى في إنجيل يوحنا (٨: ٤١ أنتم تعملون أعمال أبيكم، قالوا إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع لو كان الله أباً لكم لكنتم تحبونني ـ إلى أن قال ـ أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا) وهنالك شواهد أخرى من استعمال كلمة ابن الله في الأفراد كسليمان (ع.م) وفي المؤمنين الصالحين وتسميتهم مولودين من الله تعالى وتسميته سبحانه أباً لهم.

وبينا أيضاً أن هذا الاستعمال مجازي قطعاً لا يحتمل المعنى الحقيقي بحال من الأحوال، ولكن النصارى قد خرجوا عن قوانين العقل واللغات بجعل إطلاق لفظ ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ على المسيح وحده حقيقياً وعلى غيره مجازياً، ووعدنا بتوضيح ذلك في تفسير هذه الآية ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ على أننا كنا قد بيناه ووضحناه قبل ذلك في تفسير ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١] الآية من سورة النساء وكذا في مواضع من التفسير و(المنار) ولعلنا ما وعدنا بإيضاحه إلا ونحن ذاهلون عن هذا. وكثرة الكلام في المحال لا تزيده إلا غموضاً وإشكالاً، فالنصارى قد تحكموا في تفسير ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وتفسير (الكلمة) وتفسير (روح القدس) وتفسير اسم الجلالة (الله) بما ينافي العقل ونصوص العهد القديم والعهد الجديد فجعلوها متعارضة متناقضة. كل ذلك لإدخال عقيدة قدماء الوثنيين من الهنود والمصريين واليونان على دين أنبياء بني إسرائيل المبني على أساس التوحيد المطلق (٣) ولكننا نأتي بخلاصة أخرى في الموضوع نرجو أن تكون أوضح وأظهر مما سبق، وأدل على نوع من أنواع إعجاز القرآن، وهو تحديد الحقائق فيما اختلف فيه أهل الكتاب من أمر دينهم، مما كان مجهولاً لهم ولغيرهم من البشر، كما وعد الله عزّ وجلّ في آيات منه كاختلافهم في المسيح نفسه وفي معنى اسم الله وكلمته وروحه وأرواح القدس.... قال الله تعالى ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ذلك القول الذي قالوه في عزير والمسيح هو قولهم الذي تلوكه ألسنتهم في أفواههم، ما أنزل به الله من سلطان، ولا يتجاوز حركة اللسان، إذ ليس له مدلول في الوجود، ولا حقيقة في مدارك العقول، فهو كقوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤، ٥] وفي معناه قوله في التبني ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّـٰٓـِٔى تُظَـٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَـٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] وقوله في أهل الإفك ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥] فذكر الأفواه وكذا الألسنة ـ مع العلم بالحس لبيان ما ذكر أي أنه قول لا يعدوها ولا يتجاوزها إلى شيء في الوجود فهو كما يقول العوام «كلام فارغ».

﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي يشابهون ويحاكون فيه قول الذين كفروا من قبلهم فقالوا هذا القول أو مثله، قيل إن المراد بهم مشركو العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله. وقيل إن المراد سلفهم الذين قالوا هذا القول قبلهم، وهذا مبني على أن الكلام في اليهود والنصارى الذين كانوا في عصر نزول القرآن، إذا لم يصل إلينا أن أحداً من سلف أولئك اليهود في بلاد العرب أو غيرها قالوا عزير ابن الله وإن كان غير بعيد في نفسه، ولو كانت الآية نصاً فيه لجزمنا به لأن عدم وصول نقل إلينا فيه لا يقتضي عدم وقوعه والراجح المختار أن المراد بكل من اليهود والنصارى في الآية الجنس وهو يصدق بوقوع ذلك من بعضهم في أي عصر كان والمختار في مضاهأتهم للذين كفروا من قبلهم يصدق في كل من وقع ذلك منهم والله أعلم بهم، وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين في الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول

والتثليث كانت معروفة عند البراهمة في الهند والبوذيين فيها وفي الصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومان، وقد بينا هذا في تفسير آية (٤ : ١٩٦) التي تقدمت الإشارة إليها آنفاً وهذا البيان لهذه الحقيقة من معجزات القرآن، فإنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم بل لم تظهر إلا في هذا الزمان، كما يقال مثل هذا فيما بينه من حقيقة أمر كتبهم وسيأتي بيانه قريباً في فصل خاص.

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ هذه الجملة تستعمل في اللسان العربي للتعجب فهو المراد بها لا ظاهر معناها. قال في مجاز الأساس: وقاتله الله ما أفصحه. أهو حكي النقاش أن أصل «قاتله الله» الدعاء ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء اهـ وفسره بعضهم بالدعاء على أن المراد به اللعنة أو الهلاك. والأول أظهر ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تقدم مثل هذه الجملة في الرد على قول الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة من سورة المائدة إذ قال تعالى ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥] ومثله في سورة الأنعام بعد الاستدلال على الخالق عزّ وجلّ ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥] والإفك صرف الشيء عن وجهه [وبابه من وزن ضرب] ويقال أفك بالبناء للمفعول بمعنى صرف عقله عن إدراك الحقيقة، ورجل مأفوك العقل، فمادة أفك تستعمل في صرف العقل والنفس عن الحق إلى الباطل ونحوه. والمعنى هنا كيف يصرفون عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق عزّ وجلّ، وهو الذي تجزم به العقول، والذي بلغه عن الله تعالى كل رسول، فهو جمع بين المعقول والمنقول، ويقولون هذا القول الذي لا يقبله عقل، ولم يصح به عن أنبياء الله ورسله نقل؟ فأين عزير والمسيح من رب العالمين، الخالق لهذا الكون العظيم، الذي وصل من عجائب سعته إلى علم البشر القليل إن بعض شموسه لا يصل نورها إلى الأرض إلا بعد قطع الملايين من السنين النورية ـ فهل يليق بعاقل من هذه الدواب التي تعيش على هذه الذرة الصغيرة منه (وهي الأرض) أن يجعل لخالقه كله، ومدبر أمره، ولداً وعائلة من جنسه، وأن يرتقي به الغرور إلى أن يجعل واحداً منهم هو الخالق له والمدبر لأمره، مع العلم بأنه ولد من امرأة وكان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم إلخ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ. ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩].

وفي الآية من القراءات تنوين ﴿عُزَيْرٌ﴾ بناء على أنه عربي بما تصرفت به العرب فجعلته بصيغة اسم التصغير، وأن ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ خبر عنه لا وصف له، وهو المروي عن عاصم والكسائي ويعقوب وقرأه الباقون بغير تنوين بناء على أنه اسم أعجمي فاجتمع فيه علتا العلمية والعجمة، وفيه وجه آخر في الإعراب، وقرأ عاصم ومن أخذ عنه ﴿يُضَاهِئُونَ﴾ بالهمز والباقون (يضاهون) من الناقص وهما لغتان. . .

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ هذا استئناف بيّن ما في قوله ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٣٠] من الإجمال، فإن أهل الكتاب لو أطلقوا لقب ابن الله على عزير والمسيح إطلاقاً مجازياً كما أطلق في كتبهم ولم يضاهئوا به من قبلهم من الوثنيين لما كانوا به كفاراً وإنما كانوا كفاراً بهذه الوثنية التي أشير إليها بهذه المضاهأة وبينها بهذه الآية.

الأحبار جمع حبر بفتح الحاء المهملة وكسرها وهو العالم من أهل الكتاب والرهبان جمع راهب ومعناه في اللغة الخائف، وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة والرهبانية في النصرانية بدعة كما قال تعالى في سورة الحديد ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:

٢٧] وكانت نيتهم فيها صالحة كما قال تعالى ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] ذلك بأن الأصل فيها تأثير مواعظ المسيح عليه السلام في الزهد والإعراض عن لذات الدنيا، ثم صار أكثر منتحليها من الجاهلين والكسالى فكانت عبادتهم صورية أعقبتهم رياء وعجباً وغروراً بأنفسهم وبتعظيم العامة لهم ولذلك قال تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] ولما صارت النصرانية ذات تقاليد منظمة في القرن الرابع وضع رؤساؤهم نظماً وقوانين للرهبانية ولمعيشتهم في الأديار. وصار لها عندهم فرق كثيرة يشكو بعض أحرارهم من مفاسدهم فيها. فكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى في سلفهم المخلصين ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧] وفي خلفهم المرائين ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧] وهذه الآية من تحرير القرآن للحقائق في المسائل الكبيرة بعبارة وجيزة هي الحق المفيد فيها، وقد نهى النبيّ ﷺ عن الرهبانية في الإسلام. . .

والمعنى اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الذين فيهم أرباباً، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين فيهم أرباباً أعطوهم من حق التشريع فيهم وأطاعوهم فيه، والنصارى اتخذوا رهبانهم أي عبادهم الذين يخضع العوام لهم أرباباً كذلك. والأظهر أن يكون المراد من الأحبار والرهبان جملة رجال الدين في الفريقين أي من العلماء والعباد، فذكر من كل فريق ما حذف مقابله من الآخر على طريقة الاحتباك ـ أي اتخذ اليهود أحبارهم وربانيهم والنصارى قسوسهم ورهبانهم أرباباً غير الله وبدون إذنه بإعطائهم حق التشريع الديني لهم وبغير ذلك مما هو حق الرب تعالى. والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين فاتخاذهم أرباباً يستلزم اتخاذ من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولى، فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوناً كان أو غير مدوّن، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدوّن سواء قالوه بالتبع لمن فوقهم، أو من تلقاء أنفسهم، لثقتهم بدينهم. وكذلك اتخذوا المسيح بن مريم رباً وإلهاً. أشرك تعالى بين اليهود والنصارى في اتخاذ رجال الدين أرباباً شارعين، وذكر بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح رباً وإلهاً يعبدونه، واليهود لم يعبدوا عزيراً ولم يؤثر عمن قال منهم أنه ابن الله أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم في المسيح أنه هو الله الخالق المدبر لأمور العباد، ومن النصارى من يعبدون أمه عبادة حقيقية ويصرحون بذلك، وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين في عرفهم: يتوسلون بهم، ويتخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة في الغالب. والظاهر أن من كان قد تنصر من مشركي العرب لم يكونوا يعبدون هؤلاء الرؤساء والكبراء في الملة إلا قليلاً. وأما اتخاذهم أرباباً بالمعنى المأثور في تفسير الآية فقد كان عاماً عند الفريقين فإن اليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة بل لم يلتزموها بل أضافوا إليها من الشرائع اللسانية عن رؤسائهم ما كان خاصاً ببعض الأحوال من قبل أن يدونوه في المشنة والتلمود. ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم.

وأما النصارى فقد نسخ رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية على إقرار المسيح لها، واستبدلوا بها شرائع كثيرة في العقائد والعبادات والمعاملات جميعاً. وزادوا على ذلك انتحالهم حق مغفرة الذنوب لمن شاؤا حرمان من شاؤا من رحمة الله وملكوته. وهذا حق الله وحده ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أي لا أحد. والقول بعصمة البابا رئيس الكنيسة في تفسير الكتب الإلهية ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من العبادات وتحريم المحرمات. . .

ولبعض المفسرين أقوال في الآية جديرة بأن تنقل بنصها لما فيها من العبرة لأهل هذا العصر: قال العلامة الشيخ سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي في تفسير هذه الآية من كتابه (الإشارات الإلهية، إلى المباحث الأصولية) أي ما يتعلق بأصول العقائد وأصول الفقه في القرآن ـ ما نصه: «أما المسيح فاتخذوه رباً معبوداً بالحقيقة. وأما الأحبار لليهود والرهبان للنصارى فإنما اتخذوهم أرباباً مجازاً، لأنهم أمروهم بتكذيب محمد ﷺ

وإنكار رسالته فأطاعوهم فيه فصاروا كالأرباب لهم بجامع الطاعة، والنصارى يزعمون أن المسيح قال لتلاميذه عند صعوده عنهم: ما حللتموه فهو محلول في السماء وما ربطتموه فهو مربوط في السماء. فمن ثم إذا أذنب أحدهم ذنباً بالقربان إلى البترك أو الراهب وقال يا أبونا اغفر لنا. ـ بناء على أن خلافة المسيح مستمرة فيهم وأنهم أهل الحل والعقد في السماء والأرض على ما نقلوه عن المسيح وهو من ابتداعاتهم في الدين ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ الآية ـ بدليل قول المسيح ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]اهـ.

أقول أما عبارته في الحلل والربط فهي موافقة لترجمة اليسوعيين في التعبير بالفعل الماضي، وأما الترجمة الأميركانية فهي بالفعل المضارع هكذا (متى ١٨: ١٨ الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء) وأما أمر المسيح إياهم بعبادة الله ربه وربهم وكذلك موسى عليهما السلام فسيأتي. . .

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي اتخذوا اليهود والنصارى رؤساءهم أرباباً من دون الله تعالى والربوبية تستلزم الألوهية بالذات إذ الرب هو الذي يجب أن يعبد وحده ـ واتخذ النصارى المسيح رباً وإلهاً، والحال إنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاء به عن الله إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً بما شرعه هو لهم وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الجملة استئناف بياني لا صفة ثانية لا إله فهي تعليل للأمر بعبادة إله واحد بأنه لا وجود لغيره في حكم الشرع، ولا في نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بمحض الهوى والجهل، إذ ظن هؤلاء الجاهلون أن لبعض المخلوقات من السلطان الغيبي والقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق مثل ما لله إما بالذات وإما بالوساطة عنده تعالى والشفاعة لديه وهي الشفاعة الشركية المنفية بنصوص القرآن ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهياً له عن شركهم في ألوهيته بدعاء غير معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

أما أمر الله تعالى إياهم بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام فهو في مواضع من التوراة أظهرها وأشهرها أول الوصايا العشر التي جاءت في سفر الخروج أن الله تعالى كتبها لموسى عند مناجاته في سيناء بإصبعه على تابوت العهد وهذا أولها «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في الماء تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلهك إله غيور» إلخ.

وأما أمره تعالى إياهم بها على لسان عيسى المسيح عليه السلام فتجد منه فيما رواه يوحنا عنه في إنجيله قوله: (٣:٧ وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» وفي إنجيل برنابا الذي تعده الكنيسة غير قانوني من آيات التوحيد المطلق المجرد من جميع شوائب الشرك ما هو أجدر من الأناجيل الأربعة القانونية بأن يكون من إنجيل المسيح الصحيح الموحى إليه من ربه عزّ وجلّ. ثم وصفهم الله تعالى بوصف ثالث في تفصيل حال كفرهم المجمل المتقدم بعد وصفهم باتخاذ ابن الله، ورؤسائهم أرباباً من دون الله. . .

جوهري ج ٥ ص ١٠٣ ـ ١٠٥

. . . ثم أخذ الله سبحانه يبين سبب أخذ الجزية منهم مع أن لهم ديناً وكيف يصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقال ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وذلك لأن بختنصر قتل كل من يحفظ التوراة، وكان العزير قد أماته الله مائة عام، فلما أحياه الله قال لقومه: أنا أملي عليكم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا أنه ابن الله، ألا ترى أن اليهود لما سمعوا هذا القول لم يكذبوه وكانوا مغرمين بالتكذيب ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ

ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ لأن الولد الذي لا أب له مستحيل عادة، ولأن إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى لا يقوم بهما إلا من كان إلهاً. .

يقول المحققون من علماء العصر الحاضر: إن بولس رجل فريسي ويعرف اللغة العبرية فاحتقر في بادىء الأمر الرسل ولم ير المسيح ولا سمع كلامه ومع ذلك ادّعى أنه قد خصت به المعرفة وحده وأخذه يخاصم بطرس ويوبخه فتألف إذ ذاك أي بعد موت المسيح بعشر سنين صنفان من النصارى: صنف يتّبع من بقي من الرسل في أورشليم، والثاني تابع لبشارة بولس الذي ادّعى أنه أوحي إليه من المسيح ذاته، وبعد حين تمرّد اليهود على نيرون فنشبت الحرب في اليهودية بقيادة فسباسيانوس الروماني ثم ابنه طيطس وانتهت بافتتاح أورشليم عام (٧٠م) وخرّب الهيكل وتفرّق اليهود أشتاتاً ولم يبقَ من الرسل إلا يوحنا وفيلبس، ولم يبق إذ ذاك من الدين إلا أحاديث متفرّقة على ألسنة الأساقفة واختلفت تعاليم الكنائس بتعاليم الفلسفة اليونانية وما جاء آخر الجيل الأوّل حتى نشأت عدّة قصص وروايات سميت أناجيل وقد أحصي منها في الجيل الأوّل والثاني (٣٥) إنجيلاً وصاحب الإحصاء هو فابريسيوس، واختيار الأناجيل الأربعة كان في الجيل الثاني ونسبتها إلى متى ومرقص ولوقا ويوحنا من المشاكل التي تعذر على العلماء حلها.

نتائج الخلاف في النصرانية

في سنة ٣٨٤م أصدر البابا داماسيوس إلى مار ايرونيجوس أن يحرّر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والجديد وكان (تيودوسيوس) الملك في ذلك العهد قد ضجر من المخاصمات فأصدر أمراً أن يكون حق التولية لأسقف رومة وحده وعلى النصارى عموماً اتباعه.

تنازع النصارى في أمر المسيح

كانت كنائس النصرانية في أوّل الجيل الرابع منقسمة إلى حزبين الواحد يقرّ بألوهية المسيح والآخر ينكرها، وفي سنة ٣١٢ ظهر أريوس فجعل أن للآب والابن جوهرين متميزين، والثاني خليفة الأوّل وإذن فهو ليس بإله، وكان أريوس هذا واسع العلم ذا خلق حميد فاتبعه خلق كثير. ولما رأى اسكندر أسقف الاسكندرية ذلك استدعى بعض الأساقفة وألفوا مجمعاً لعنوا فيه أريوس وتعليمه، فكثير النزاع والشقاق على هذه المسألة حتى قلقت النفوس وضجرت الأمّة كلها واهتزّ عرش الملك قسطنطين فأرسل رسالة على يد أوزيوس إلى كل من أريوس وإسكندر وبخهما فيها على هذا الخلاف التافه الذي لا علم لأحدهما بحقيقته. ودام الخصام والجدال واشتدّ ولم تنفع رسالة الملك فأمر الملك بمجمع في نيقية سنة ٣٢٥.

ومن عجب تطابق أقوال المؤرخين أن هؤلاء الآباء كانوا يتشاتمون ويتقاتلون ويذم كل منهم الآخر بفضائح لا حدّ لها، ونصر قسطنطين الملك ألوهية المسيح ونفي الأريوسيين ثم رجعوا من المنفى منتصرين ودخلوا الإسكندرية فاضطر قسطنطين أن يقيم مجمعاً في أنطاكية فأبطل مذهب إسكندر المسمى (أرثوذكس) أي مستقيمي الرأي ومات أريوس فجأة وهو محمول على أعناق أصحابه بالعز والأبهة، ومات قسطنطين سنة ٣٣٧ بعد أن قسم الملك بين أولاده الثلاثة قسطنطين وقسطنس وقسطنت وتوالت المجامع بعد ذلك على هذا المنوال.

فلننظر أيها الذكي كيف كانت الحكاية الأولى المنقولة عن المفسرين ـ وإن كانت مخطئة في التاريخ وفي الرواية ـ قد أفادت أن هذا الخلاف له حقيقة، وكيف تبين أن بولس الرسول كان له نزعة خاصة، وكيف كانت ألوهية المسيح وعدمها شغلاً شاغلاً للدولة الرومانية، وكيف أدى الأمر إلى الملك تيودسيوس القيصر أمر أن يتبع النصارى كلهم البابا (داماسيوس) ومن يخالفه يعاقب، ولكن الأريوسيين كانوا كثيراً جداً فلم يعاقبهم، فاحتال القديس (أمفيلوك) بحيلة أوجبت أن الملك يعاقب من لا يقول بألوهية المسيح. فانظر كيف اهتزت العروش وعظمت المصائب وتقاتلت الأحزاب، كل ذلك على ألوهية المسيح وعدم ألوهيته.

ولما كان قول اليهود والنصارى لا دليل عليه بل هو مصيبة عمياء كما عرفت من حقائق التاريخ، قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ مجرد عن البرهان

والتحقيق مهمل لا محل له سوى الأفواه كما قال القيصر للإسكندر ولأريوس، وقوله تعالى ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا من قبل.

ومعنى هذا أن هناك ديانات في الأمم السالفة قبل التاريخ في مصر والعراق وبلاد المكسيك قبل افتتاح أمريكا كانت فيها هذه الخرافات. انظر هذا المقام في سورة البقرة في أوائلها فقد تبين هناك أن دين التثليث وكون الله له ابن ملأت المسكونة ووجدت في الهند فارجع إليها إن شئت ترى العجب العجاب وكذلك في آخر سورة المائدة، وهذا أيضاً من معجزات القرآن.

ولعمري لم يعرف الناس أن هناك ديناً قبل الدين المسيحي يقول بابن الله وبألوهية ذلك الابن إلا في هذا الزمان فتعجب من عجائب القرآن، وهذا واضح كل الإيضاح في آخر المائدة فيما تقدّم، قال تعالى ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالهلاك وتعجب من شناعتهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل. ثم أخذ الله سبحانه يبين أنهم لم يقتصروا على عبادة المسيح وعزير، بل جعلوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، والأحبار علماء اليهود، والرهبان أصحاب الصوامع في النصارى، ومعنى كونهم أرباباً أنهم يحرّمون لهم ويحللون وهم لهم مقلدون.

وعن عديّ بن حاتم قال «أتيت النبيّ ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه». قال عبد الله ابن المبارك:

وهل بدّل الدين إلا الملو ... ك وأحبار سوء ورهبانها
لقد وقع القوم في جيفة ... يبين لذي العلم أنتانها

وهذا هو قوله تعالى ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ وهذا الأخير اعتقدوا فيه الألوهية كما تقدم قال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة.

المراغي ج ٤ ص ٩٦ ـ ١٠٣

الإيضاح

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ عزير كاهن يهودي وكاتب شهير سكن بابل حوالى سنة ٤٥٧ ق.م أسس المجمع الكبير وجمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل الأحرف الكلدانية عوضاً من العبرانية القديمة، وألف أسفار الأيام، وعزرا، ونحميا؛ وعلى الجملة فعصره هو ربيع الدين اليهودي، وهو جدير أن يكون ناشر الشريعة اليهودية، فقد أحياها بعد أن نُسِيت، ومن أجل هذا فاليهود يقدّسونه حتى ان بعض يهود المدينة أطلق عليه لقب (ابن الله).

وإسناد هذا القول إليهم جملة وإن كان قد صدر من بعضهم ـ مبني على أن الأمة تعدّ متكافلة في شؤونها العامة، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير في جملتها، والمنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

وما مثل ذلك إلا مثل الأوبئة التي تحدث في الشعب بكثرة الأقذار وإهمال مراعاة القواعد الصحية ـ لا يُعْدَى بها من تلبس بها فحسب، بل تنتشر العدوى في الشَّعْب جميعه.

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله؟

والمشهور عند المؤرخين حتى مؤرخي أهل الكتاب أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه قد فُقِدت قبل عهد سليمان عليه السلام، فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين الذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما جاء في سفر الملوك الأول، وأن عزرا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية ممزوجة ببقايا اللغة العبرانية التي نسي اليهود معظمها، ويقول أهل الكتاب إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله.

وخلاصة ما سلف ـ إن جميع أهل الكتاب يدينون لعزير في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم، وإن كان هذا المستند ضعيفاً، فقد جاء في ترجمة عزرا من دائرة المعارف البريطانية: إنه لم يُعِد إليهم الشريعة التي أحرقت فحسب، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت أتلفت وأعاد سبعين سفراً غير قانونية (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة: وإذا كانت هذه الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر، فكتّاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقاً، اهـ.

﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وهذا قول للقدماء منهم كانوا يريدون به المحبوب أو المكرّم، ثم سرت إليهم وثنية الهنود فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقة وعلى أن ابن الله بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) إذ هذه الثلاثة عندهم واحد حقيقة، وهذا تعليم الكنائس الذي قررته المجامع الرسمية بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون ـ وقد خالف في ذلك خلق كثير منهم يسمَّوْن الموحدين أو العقليين، ولكن الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية لا تعتدّ بنصرانيتهم ولا بدينهم.

وكلمة (ثالوث) تطلق عندهم على وجود أقانيم ثلاثة معاً في اللاهوت تعرف بالآب والابن والروح القدس، وهذا هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية والبروتستانتية وهو المطابق لنصوص الكتاب المقدس.

وعقيدة التثليث وألوهية المسيح مع مخالفتهما للعقل ليس لهما أصل في كتب الأنبياء لا قطعي ولا ظني، وكتب العهد الجديد كذلك ليست نصاً فيهما؛ على أن هذه لا يوثق بها، فإن النصارى قد أضاعوا أكثر ما كتب من إنجيل المسيح في عصره، ثم رفضت مجامعهم الرسمية بعد دخول التعاليم الوثنية فيهم من قبل الرومانيين أكثر ما وجد عندهم من الأناجيل التي كانت تعد بالعشرات واعتمدت أربعاً منها فحسب، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي هذا الذي قالوه في عزير والمسيح قول تلوكه الألسنة في الأفواه، لا يؤيده برهان ولا يتجاوز حركة اللسان، بل البرهان دالّ على عكسه لاستحالة إثبات الولد لمن هو بريء عن الحاجة واتخاذ الصاحبة.

وفي معنى الآية قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤، ٥].

﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي يشابهون فيها قول الذين كفروا من قبلهم وهم مشركو العرب الذين قالوا مثل هذا القول، إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

وقد علم من تاريخ قدماء الوثنيين في الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة والبوذيين في الهند والصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومانيين، فبيان القرآن الكريم لهذه الحقيقة التي لم يكن أحد من العرب ولا ممن حولهم يعرفها ـ بل لم تظهر إلا في هذا الزمان ـ معجزة من معجزاته الكثيرة التي تظهر على مر الزمان، وتصدّقها المشاهدة والعِيان.

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعجب من شناعة قولهم، وقد شاع استعمالها في ذلك، وتستعمل في المدح أيضاً فيقال: قاتله الله ما أفصحه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد في المدح أيضاً فيقال: قاتله الله ما أفصحه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد لعنهم الله.

﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾؟ أي كيف يُصْرَفون توحيد الله وتنزيهه، وبه تجزم العقول، وبلَّغه عن الله كل رسول - إلى قول لا يقبله عقل، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله الذي خلق هذا الكون العظيم ودبَّر أمره، ولا ينبغي لواحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شئونه ولداً من جنسه، مع علمه بأنه كان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

ثم فصل قوله قبل يضاهئون قول الذين كفروا من قبل بقوله:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ أي اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أرباباً، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين أرباباً مما أعطوهم من حق التشريع فيهم وإطاعتهم فيه، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم: أي عبَّادهم الذين يخضع لهم العوام أرباباً كذلك.

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين، فاتخاذهم أرباباً يقتضي بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة، إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوناً كان أو غير مدون، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون سواء قالوه تبعاً لمن فوقهم أو من تلقاء أنفسهم لثقتهم بدينهم.

وانفرد النصارى باتخاذهم المسيح رباً وإلهاً يعبدونه، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقية ويصرحون بذلك، وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين في عرفهم، ويتوسلون بهم، ويتخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة.

واليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل أضافوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم من قبل أن يدوِّنوه في المَشْنة والتَّلْمُود، ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم.

والنصارى غيّر رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية واستبدلوا بها شرائع أخرى في العبادات والمعاملات جميعاً، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاؤوا وحرمان من شاؤوا من رحمة الله وملكوته، والله يقول: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وَزادوا القول بعصمة البابا في تفسير الكتب الإلهية، ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من الطاعات، وينهي عنه من المحرمات...

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ أي اتخذوا رؤساءهم أرباباً من دون الله، والربوبية تستلزم الألوهية، إذ الرب هو الذي يجب أن يعبد وحده، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به من عند الله، إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً بما شرعه لهم وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه.

ثم علل الأمر بعبادة إلّه واحد فقال:

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا إله غيره في حكم الشرع وفي نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأي والهوى جهلاً بصفات الألوهية، إذ ظنوا أن لبعض المخلوقات سلطاناً غيبياً وقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق مثل ما لله إما بالذات وإما بالوساطة والشفاعة لديه.

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزيهاً له عن شركهم في ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

وأمره تعالى بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام جاء في مواضع من التوراة، منها أرل الوصايا العشر التي جاءت في سفر الخروج (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صوراً مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في الماء تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدهن، لأني أنا الرب إلّهك) إلخ.

وأمره بعبادته على لسان عيسى كثير أيضاً، من ذلك ما رواه يوحنا في إنجيله (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته).

سيد قطب ج ٣ ص ١٦٣٤ - ١٦٤٣

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ . .

لما أمر الله المسلمين بقتال أهل الكتاب ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. . . كانت هنالك ملابسات في واقع المجتمع المسلم في المدينة - تحدثنا عنها في تقديم السورة وتقديم المقطع الأول منها - تدعو إلى توكيد هذا الأمر وتقويته؛ وجلاء الأسباب والعوامل التي تحتمه؛ وإزالة الشبهات والمعوقات التي تحيك في بعض النفوس تجاهه. وبخاصة أن طاعة هذا الأمر كانت تقتضي مواجهة الروم في أطراف الشام. والروم كانوا مرهوبين من العرب قبل الإسلام؛ وكانوا مسيطرين على شمال الجزيرة لفترة طويلة؛ ولهم أعوان من القبائل العربية، وسلطنة خاضعة لنفوذهم هي سلطنة الغساسنة. . وحقيقة أن هذه لم تكن أول ملحمة يخوضها المسلمون مع الروم، بعد أن أعز الله أولئك العرب بالإسلام، وجعل منهم أمة تواجه الروم والفرس بعد أن كانوا قبائل لا تجرؤ ولا تفكر في الالتحام بالروم والفرس؛ وكل ما عرف عنها من شجاعة إنما يتبدى في قتال بعضها لبعض، وفي الغارات والثارات والنهب والسلب! ولكن مهابة الروم كانت ما تزال باقية في أعماق النفوس - وبخاصة تلك التي لم يتم انطباعها بالطابع الإسلامي الأصيل - وكانت آخر ملحمة كبيرة بين المسلمين والروم - وهي غزوة مؤتة - ليست في صالح المسلمين. وقد احتشد فيها من الروم وعملائهم من نصارى العرب ما روي أنه مائتا ألف!

كل هذه الملابسات - سواء ما يتعلق منها بتركيب المجتمع المسلم في هذه الفترة؛ أو ما يختص برواسب المهابة للروم والتخوف من الالتحام معهم؛ مضافاً إليها ظروف الغزوة ذاتها - وقد سميت غزوة العسر لما سنبينه من الظروف التي أحاطت بها - وفوق ذلك كله شبهة أن الروم وعمالهم من نصارى العرب هم أهل كتاب. . كل هذه الملابسات دعت إلى زيادة الإيضاحات والبيانات القوية لتقرير حتمية هذا الأمر، وإزالة الشبهات والمعوقات النفسية، وجلاء الأسباب والعوامل لتلك الحتمية. .

وفي هذه الآية يبين السياق القرآني ضلال عقيدة أهل الكتاب هؤلاء؛ وأنها تضاهيء عقيدة المشركين من العرب، والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم. وأنهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التي جاءتهم بها كتبهم؛ فلا عبرة إذن بأنهم أهل كتاب، وهم يخالفون في الاعتقاد الأصل الذي تقوم عليه العقيدة الصحيحة في كتبهم. والذي يلفت النظر هو ذكر اليهود هنا وقولهم: عزير ابن الله؛ في حين أن الآيات كانت بصدد التوجيه والتحضير لمواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب. . وذلك - على ما نرجح - يرجع إلى أمرين:

الأول: أنه لما كان نص الآيات عاماً؛ والأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون عاماً؛ فقد اقتضى السياق بيان الأصل الاعتقادي الذي يستند إليه هذا الأمر العام في شأن أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى سواء.

الثاني: أن اليهود كانوا قد رحلوا من المدينة إلى أطراف الشام؛ بعدما اشتبكوا مع الإسلام والمسلمين في حرب مريرة منذ مقدم الرسول الله ﷺ إلى المدينة. انتهت بإجلاء بني قينقاع وبني النضير إلى أطراف الشام؛ هم وأفراد من بني قريظة. فكان اليهود يومئذ في طريق الانطلاق الإسلامي إلى أطراف الشام. مما اقتضى أن يشملهم ذلك الأمر، وأن يشملهم هذا البيان.

وقول النصارى: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ معلوم مشهور؛ ومازال عليه عقائدهم حتى اللحظة منذ أن حرّفها بولس، ثم تم تحريفها على أيدي المجامع المقدسة - كما سنبين - فأما قول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ فليس شائعاً ولا معروفاً اليوم. والذي في كتب اليهود المدونة الباقية سفر باسم «عزيرا» - وهو عزير - نعت فيه بأنه كاتب ماهر في توراة موسى، وأنه وجه قلبه لالتماس شريعة الرب. . ولكن حكاية هذا القول عن اليهود في القرآن

دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل ـ وبخاصة يهود المدينة ـ زعموا هذا الزعم، وراج بينهم؛ وقد كان القرآن يواجه اليهود والنصارى مواجهة واقعية؛ ولو كان فيما يحكيه من أقوالهم ما لا وجود له بينهم لكان هذا حجة لهم على تكذيب ما يرويه رسول الله ﷺ ولما سكتوا عن استخدام هذا على أوسع نطاق!

وقد أورد المرحوم الشيخ رشيد رضا في الجزء العاشر من تفسير المنار (ص ٣٧٨ ـ ٣٨٥) خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود وعلق عليها ذلك تعليقاً مفيداً ننقل منه هنا فقرات تفيدنا في بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالاً. قال:

«جاء في دائرة المعارف اليهودية (طبعة ١٩٠٣) أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملي لليهودية الذي تفتحت فيه أزهاره وعبق شذا ورده. وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة (وفي الأصل عربة أو مركبة الشريعة) لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود ٢١ ب) فقد كانت نسيت. ولكن عزرا أعادها وأحياها. ولولا خطايا بني إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات (المعجزات) كما رأوها في عهد موسى. . اهـ. . وذكر فيها أنه كتب الشريعة بالحروف الأشورية ـ وكان يضع علامة على الكلمات التي يشك فيها ـ وأن مبدأ التاريخ اليهودي يرجع إلى عهده.

وقال الدكتور جورج بوست في قاموس الكتاب المقدس: عزرا (عون) كاهن يهودي وكاتب شهير سكن بابل مدة «ارتحشستا» الطويل الباع؛ وفي السنة السابعة لملكه أباح لعزرا بأن يأخذ عدداً وافراً من الشعب إلى أورشليم نحو سنة ٤٥٧ق.م (عزرا ص٧) وكانت مدة السفر أربعة أشهر.

«ثم قال: وفي تقليد اليهود يشغل عزرا موضعاً يقابل بموضع موسى وإيليا؛ ويقولون إنه أسس المجمع الكبير، وأنه جمع أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرانية القديمة، وأنه ألف أسفار «الأيام» و«عزرا» و«نحميا».

«ثم قال: ولغة سفر «عزرا» من ص ٤ :٨ ـ ٦ :١٩ كلدانية، وكذلك ص ٧ :١ ـ ٢٧، وكان الشعب بعد رجوعهم من السبي يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية. اهـ.

«وأقول: إن المشهور عند مؤرخي الأمم، حتى أهل الكتاب منهم، أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه، قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام. فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر، كما تراه في سفر الملوك الأول. وأن (عزرا) هذا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية، واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها. ويقول أهل الكتاب: إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله. . . وهذا ما لا يسلمه لهم غيرهم، وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن، حتى من تآليفهم، كذخيرة الألباب الكاثوليك ـ وأصله فرنسي ـ وقد عقد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى. ومنها قوله:

«جاء في سفر عزرا (٤ف ١٤ عدد٢١) أن جمع الأسفار المقدسة حرقت بالنار في عهد «نبوخذنصّر» حيث قال: «إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأي امرىء أن يعرف ما صنعت!» ويزاد على ذلك أن عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التي أبادتها النار، وعضده فيما كتبه خمسة معاصرون، ولذلك ترى «ترتوليانوس» والقديس «إيريناوس» والقديس «إيرونيموس» والقديس «يوحنا الذهبي» والقديس «باسيليوس» وغيرهم يدعون عزرا: مرمّم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود. . . اهـ.

إلى أن قال: «نكتفي بهذا البيان هنا ولنا فيه غرضان: (أحدهما): إن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم. (وثانيهما): إن هذا المستند واهي النسيان متداعي الأركان، وهذا هو الذي حققه علماء أوروبا الأحرار. فقد جاء في ترجمته من دائرة المعارف البريطانية بعد ذكر ما في سفره وسفر نحميا من كتابته للشريعة: أنه جاء في روايات أخرى

متأخرة عنها أنه لم يعد إليهم الشريعة التي أحرقت فقط، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت قد أتلفت، وأعاد سبعين سفراً غير قانونية (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة فيها: وإذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم، ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقاً... (انظر ص ١٤ ج ٩ من الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩).

«وجملة القول: إن اليهود كانوا وما يزالون يقدسون عزيرا هذا حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾. ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بالمعنى الذي سيأتي قريباً عن فيلسوفهم (فيلو) وهو قريب من فلسفة وثنيي الهند التي هي أصل عقيدة النصارى. وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم..

... «وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]. ... والذين قال فيهم: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] رداً على قوله تعالى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا...

«روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله؟!... إلخ.

«ومن المعلوم أن بعض النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله كانوا من اليهود. وقد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح يقول: إن لله ابناً هو كلمته التي خلق بها الأشياء. فعلى هذا لا يبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا: إن عزيرا ابن الله بهذا المعنى»..

ومن هذا البيان يتضح ما وراء حكاية القرآن لقول اليهود هذا ـ في هذه المناسبة التي يتوخاها السياق ـ فهي تقرير حقيقة ما عليه فريق من أهل الكتاب من فساد الاعتقاد، الذي لا يتفق معه أن يكونوا مؤمنين بالله، أو أن يكونوا يدينون دين الحق. وهذه هي الصفة الأساسية التي قام عليها حكم القتال. وإن يكن القصد من القتال ليس هو إكراههم على الإسلام؛ وإنما هو كسر شوكتهم التي يقفون بها في وجه الإسلام؛ واستسلامهم لسلطانه ليتحرر الأفراد ـ في ظل هذا الاستسلام ـ من التأثر بالضغوط التي تقيد إرادتهم في اختيار دين الحق من غير إكراه من هنا أو من هناك.

أما قول النصارى ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وأنه ثالث ثلاثة فهو ـ كما قلنا ـ شائع مشهور، وعليه جميع مذاهبهم منذ أن حرَّف بولس رسالة المسيح القائمة على التوحيد كبقية الرسالات؛ ثم أتمت تحريفها المجامع المقدسة، وقضت على أصل فكرة التوحيد قضاء نهائياً!...

١٧ ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

(سورة يونس، رقم ١٠، الآية ٦٨ ـ ٦٩)

مصادر تفاسير الآية

المفسر	الجزء	الصفحة
الطبري	ج ١١	ص ٩٨
الزمخشري	ج ٢	ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥
الرازي	ج ١٧	ص ١٣٢ ـ ١٣٤
الطبرسي	ج ١١	ص ٧٣ ـ ٧٤
ابن عربي	ج ١	ص ٥٤٢ ـ ٥٤٨
البيضاوي	ج ٣	ص ٩٧
الخازن	ج ٣	ص ٢٠٠
البغوي	ج ٢	ص ٣٠٥
الماوردي	ج ٢	ص ٤٤٠
القرطبي	ج ٨	ص ٣٦١
ابو حيان الأندلسي	ج ٥	ص ١٧٧
ابن كثير	ج ٢	ص ٤٢٤
الجلالان		ص ٢٧٧
الشوكاني	ج ٢	ص ٤٥٩ ـ ٤٦١
الآلوسي	ج ٦	ص ١٥٥ ـ ١٥٦
القاسمي	ج ٩	ص ٣٣٧٨ ـ ٣٣٨٠
محمد عبده	ج ١١	ص ٤٥٥ ـ ٤٥٧
الطباطبائي	ج ١٠	ص ٧٨ ـ ١٠١
جوهري	ج ٦	ص ٦١ ـ ٧٤
المراغي	ج ٤	ص ١٣٤ ـ ١٣٦
سيد قطب	ج ٣	ص ١٨٠٥ ـ ١٨٠٧

الطبـري ج ١١ ص ٩٨

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره قال هؤلاء المشركون بالله من قومك يا محمد اتخذ الله ولداً وذلك قولهم الملائكة بنات الله يقول الله منزهاً نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك سبحان الله تنزيهاً لله عما قالوا وادّعوا على ربهم هو الغني يقول الله غني عن خلقه جميعاً فلا حاجة به إلى ولد لأن الولد إنما يطلبه من يطلبه ليكون عوناً له في حياته وذكراً له بعد وفاته والله عن كل ذلك غني فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره ولا يبيد فيكون به حاجة إلى خلف بعده له ما في السموات وما في الأرض يقول تعالى ذكره لله ما في السموات وما في الأرض ملكاً والملائكة عباده وملكه فكيف يكون عبد الرجل وملكه له ولداً يقول أفلا تعقلون أيها القوم خطأ ما تقولون إن عندكم من سلطان بهذا يقول ما عندكم أيها القوم بما تقولون وتدّعون من أن الملائكة بنات الله من حجة تحتجون بها وهي السلطان أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه جهلاً منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد لهم أن الذين يفترون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويدعون له ولداً لا يفلحون يقول لا يبقون في الدنيا ولكن لهم متاع في الدنيا يمتعون به وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كتب فناؤهم فيه ثم إلينا مرجعهم يقول ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم إلينا مصيرهم ومنقلبهم ثم نذيقهم العذاب الشديد وذلك أصلاؤهم جهنم بما كانوا يكفرون بالله في الدنيا فيكذبون رسله ويجحدون آياته ورفع قوله متاع بمضمر قبله أما ذلك وأما هذا.

الـزمخشـري ج ٢ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥

.... ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علة لنفي الولد، لأن ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله ـ إن عندكم ـ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس بعلم ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبة النبي ﷺ بالتظاهر به ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده.

الرازي ج ١٧ ص ١٣٢ ـ ١٣٤

قوله تعالى ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

اعلم أن هذا نوع آخر من الأباطيل التي حكاها الله تعالى عن الكفار وهي قولهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ويحتمل أن يكون المراد حكاية قول من يقول: الملائكة بنات الله، ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول: الأوثان أولاد الله، ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك. ثم إنه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده ﴿هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

واعلم أن كونه تعالى غنياً مالكاً لكل ما في السموات والأرض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد، وبيان ذلك من وجوه: الأول: أنه سبحانه غني مطلقاً على ما في هذه الآية، والعقل أيضاً يدل عليه، لأنه لو كان محتاجاً لافتقر إلى صانع آخر، وهو محال. وكل من كان غنياً فإنه لا بد أن يكون فرداً منزهاً عن الأجزاء والأبعاض، وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه، والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الإنسان، ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله، وإذا كان هذا محالاً ثبت أن كونه تعالى غنياً يمنع ثبوت الولد له.

(الحجة الثانية) إنه تعالى غني وكل من كان غنياً كان قديماً أزلياً باقياً سرمدياً، وكل من كان كذلك، امتنع عليه الانقراض والانقضاء، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي، وينقرض، فيكون ولده قائماً مقامه، فثبت أن كونه تعالى غنياً، يدل على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

(الحجة الثالثة) أنه تعالى غني وكل من كان غنياً فإنه يمتنع أن يكون موصوفاً بالشهوة واللذة وإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد.

(الحجة الرابعة) إنه تعالى غني، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له ولد، لأن اتخاذ الولد إنما يكون في حق من يكون محتاجاً حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة، فمن كان غنياً مطلقاً امتنع عليه اتخاذ الولد.

(الحجة الخامسة) ولد الحيوان إنما يكون ولداً له بشرطين: إذا كان مساوياً له في الطبيعة والحقيقة، ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه، وهذا في حق الله تعالى محال، لأنه تعالى غني مطلقاً، وكل من كان غنياً مطلقاً كان واجب الوجود لذاته، فلو كان لواجب الوجود ولد، لكان ولده مساوياً له. فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضاً واجب الوجود، لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره، وإذا لم يكن متولداً من غيره لم يكن ولداً، فثبت أن كونه تعالى غنياً من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له، وهذه الثلاثة مع الثلاثة الأول في غاية القوة.

(الحجة السادسة) أنه تعالى غني، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له أب وأم، وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدساً عن الأولاد.

فإن قيل: يشكل هذا بالوالد الأول؟

قلنا: الوالد الأول لا يمتنع كونه ولداً لغيره، لأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الأول من أبوين يقدمانه. أما الحق سبحانه فإنه يمتنع افتقاره إلى الأبوين، وإلا لما كان غنياًمطلقاً.

(الحجة السابعة) إنه تعالى غني مطلقاً، وكل من كان غنياً مطلقاً امتنع أن يفتقر في أحداث الأشياء إلى غيره.

إذا ثبت هذا فنقول: هذا الولد، إما أن يكون قديماً أو حادثاً، فإن كان قديماً فهو واجب الوجود لذاته، إذ لو كان ممكن الوجود لافتقر إلى المؤثر، وافتقار القديم إلى المؤثر يقتضي إيجاد الموجود وهو محال، وإذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولداً لغيره، بل كان موجوداً مستقلاً بنفسه، وأما إن كان هذا الولد حادثاً والحق سبحانه غني مطلقاً فكان قادراً على إحداثه ابتداء من غير تشريك شيء آخر، فكان هذا عبداً مطلقاً، ولم يكن ولداً، فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله «هو الغني» الدالة على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

أما قوله ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فاعلم أنه نظير قوله ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] وحاصله يرجع إلى أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن، وكل ممكن محتاج، وكل محتاج محدث، فكل ما سوى الواحد الأحد الحق محدث، والله تعالى محدثه وخالقه وموجده. وذلك يدل على فساد القول بإثبات الصاحبة والولد. ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا إليه، عطف عليهم بالإنكار والتوبيخ فقال ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ منبهاً بهذا على أنه لا حجة عندهم في ذلك البتة. ثم بالغ في ذلك الإنكار فقال: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

الطبرسي ج ١١ ص ٧٣ ـ ٧٤

المعنى

ثم حكى الله سبحانه عن صنف من الكفار أنهم أضافوا إليه اتخاذ الولد وهم طائفتان:

إحداهما: كفار قريش والعرب فإنهم قالوا الملائكة بنات الله.

والأخرى: النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله فقال سبحانه ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ وإنما قال قالوا وإن لم يكن سبق ذكرهم لأنهم كانوا بحضرة النبي ﷺ وكان يعرفهم وتصح الكتابة عن المعلوم كما تصح عن المذكور ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أي تنزيهاً له عما قالوا ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ عن اتخاذ الولد ثم بين سبحانه الوجه فيه فقال ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ومعناه إذا كان له ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وملكاً وخلقاً فهو الغني عن اتخاذ الولد لأن الإنسان إنما يتخذ الولد ليتقوى به من ضعف أو ليستغني به من فقر والله سبحانه منزه عن ذلك وإذا استحال اتخاذ الولد حقيقة عليه سبحانه استحال عليه اتخاذ الولد على وجه التبني ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أي ما عندكم من حجة، وبرهان بهذا ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ هذا توبيخ من الله سبحانه لهم على قولهم ذلك ثم بين سبحانه الوعيد لهم على ذلك فقال ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يكذبون ﴿ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ باتخاذ الولد وغير ذلك ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون بشيء من الثواب واصل الافتراء من القطع من فريت الأديم أي قطعته، فمعناه يقطعون الكذب الذي يكذبون به على الله تعالى.

ابن عربي ج ١ ص ٥٤٢ ـ ٥٤٨

﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ أي، معلولاً يجانسه ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ أنزهه عن مجانسة شيء ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ الذي وجوده بذاته، وبه وجود كل شيء، فكيف يماثله شيء؟ ومن له الوجود كله فكيف يجانسه شيء؟

البيضاوي ج ٣ ص ٩٧

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ أي تبناه ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ علة لتنزيهه فإن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ تقرير لغناه ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ نفي لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطلان قولهم وبهذا متعلق بسلطان أو نعت له أو بعندكم كأنه قيل إن عندكم في هذا من سلطان ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ وتقريع على اختلاقهم وجهلهم وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لا بد لها من قاطع وأن التقليد فيها غير سائغ ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

القرطبي ج ٨ ص ٣٦١

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ يعني الكفار، وقد تقدّم. ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد. ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم أخبر بغناه المطلق، وأن له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبداً؛ ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]. ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ أي ما عندكم من حجة بهذا. ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من إثبات الولد له، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانِس شيئاً ولا يشابه شيئاً، ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ أي يختلفون. ﴿ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي لا يفوزون ولا يأمنون؛ وتم الكلام.

ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٧ ـ ٩٥] ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ﴿ ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[لقمان: ٢٤].

الشوكاني ج ٢ ص ٤٥٩ ـ ٤٦١

قوله ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً، فرد ذلك عليهم بقوله ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ فنزّه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين. وبين أنه غنيّ عن ذلك وأن الولد إنما يطلب للحاجة. والغنيّ المطلق لا حاجة حتى يكون له ولد يقضيها، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، والأزليّ القديم لا يفتقر إلى ذلك. وقد تقدّم تفسير الآية في البقرة. ثم بالغ في الردّ عليهم بما هو كالبرهان، فقال

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾. وإذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولدا له للموافاة بين الملك والبنوّة والأبوّة. ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ﴾ أي ما عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذي تم لونه، و «من» في ﴿ مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ زائدة للتأكيد، والجار والمجرور في ﴿ بِهَٰذَآ ﴾ متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار. ثم وبخهم على هذا القول العاطل عن الدليل الباطل عند العقلاء فقال ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ويستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء، بل من الجهل المحض ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً يدلّ على أن ما قالوه كذب، وأن من كذب على الله لا يفلح فقال ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ أي كل مفتر هذا شأنه، ويدخل فيه هؤلاء دخولاً أوّلياً. وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز. والمعنى: أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب.

الآلوسي ج ٦ ص ١٥٥ ـ ١٥٦

﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين وبيان بطلانه، والمراد بهؤلاء المشركين على ما قيل: كفار قريش والعرب فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله تعالى، واليهود والنصارى القائلون: عزير وعيسى عليهما السلام ابناء عز وجل والاتخاذ صريح في التبني، وظاهر الآية يدل على أن ذلك قول كل المشركين وإذا ثبت أن منهم من يقول بالولادة والتوليد حقيقة كان ما هنا قول البعض ولينظر هل يجري فيه احتمال إسناد ما للبعض للكل لتحقق شرطه أم لا يجري لفقد ذلك والولد يستعمل مفرداً وجمعاً.

وفي القاموس الولد محركة وبالضم والكسر والفتح واحد وجمع وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسر فيهما وولد الضم وهو يشمل الذكر والأنثى ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى عما نسبوا إليه على ما هو الأصل في معنى سبحان وقد يستعمل للتعجب مجازاً ويصح إرادته هنا، والمراد التعجب من كلمتهم الحمقى، وجمع بعضهم بين التنزيه والتعجب ولعلّه مبني على أن التعجب معنى كنائي وأنه يصح إرادة المعنى الحقيقي في الكناية وهو أحد قولين في المسألة، وقيل: إنه لا يلزم استفادة معنى التعجب منه باستعمال اللفظ فيه بل هو من المعاني الثواني، وقوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ أي عن كل شيء في كل شيء علة لتنزهه تعالى وتقدس عن ذلك وإيذان بأن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة وهي التقوى أو بقاء النوع مثلاً، وقوله تعالى:

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي من العقلاء وغيرهم تقرير لمعنى الغني لأن المالك لجميع الكائنات هو الغني وما عداه فقير، وقيل: هو علة أخرى للتنزه عن التبني لأنه ينافي المالكية، وقوله جل شأنه: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ أي حجة ﴿ بِهَٰذَآ ﴾ أي بما ذكر من القول الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع المعارض والمنافي ـ فإن ـ نافية و ﴿ مِّن ﴾ زائدة لتأكيد النفي ومجرورها مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل له لاعتماده على النفي و ﴿ بِهَٰذَآ ﴾ متعلق إما ـ بسلطان ـ لأنه بمعنى الحجة كما سمعت وإما بمحذوف وقع صفة له، وقيل: وقع حالاً من الضمير المستتر في الظرف الراجع إليه، وإما بما في ﴿ عِندَكُم ﴾ من معنى الاستقرار، ويتعين على هذا كون ﴿ سُلْطَٰنٍ ﴾ فاعلاً للظرف لئلا يلزم الفصل بين العامل المعنوي ومتعلقه بأجنبي، والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والأفحام وتأكيد ما في قوله تعالى:

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم، وفي الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لا بد لها من قاطع وأن التقليد بمعزل من الاهتداء ولا تصلح متمسكاً لنفي القياس والعمل بخبر الآحاد لأن ذلك في الفروع

وهي مخصوصة بالأصول لما قام من الأدلة على تخصيصها وإن عم ظاهرها.

﴿ قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى سيد المخاطبين ﷺ ليبين سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم وفي ذلك إنذار لهم عن الاستمرار على ما هم فيه ولغيرهم عن الوقوع في مثله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في كل أمر ويدخل الافتراء بنسبة الولد والشريك إليه تعالى دخولاً أولياً وهو أولى من الاقتصار على ما الكلام فيه، وحينئذ فالمراد بالموصول ما يعم أولئك المخاطبين وغيرهم، أي إن من تكون هذه صفتهم كائناً ما كانوا ﴿ لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلاً ويندرج في ذلك عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة والاقتصار عليه في مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه دون التعميم في المناسبة.

محمد عبده ج ١١ ص ٤٥٥ ـ ٤٥٧

﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض اليهود: عزير ابن الله، وتقدم في سورة التوبة «ويرى بعض المؤرخين أن عزير هو أوزيروس أحد آلهة قدماء المصريين» ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ كلمة التسبيح معناها التنزيه والتقديس أي تسبيحاً له عز وجل عن كل ما لا يليق بربوبيته وألوهيته، وتقال في مقام التعجب، ويصح هنا جمع المعنيين كليهما. وقفى على هذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأفواههم ما ليس لهم به علم فقال ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو الغني بذاته عن الولد، لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء، فالإنسان يحتاج إلى الولد لأمور منها بقاء ذكره به وبذريته، ومنها أنه قوة وعصبة له يعتز به هو وعشيرته، ومنها أن وجوده زينة له في داره يلهو به في صغره، ويفاخر به أقرانه في كبره، ومنها أنه قد يحتاج إليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته، وقد يحتاج إلى رفده وبره، عند عجزه أو فقره، والله تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع لأنه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلاً وأبداً ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ «إن» هنا نافية و «من» مؤكدة لهذا النفي مفيدة لعمومه، والسلطان الحجة والبرهان. والجملة تجهيل لهم ورد عليهم، أي ما عندكم أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي، تعارضون به هذا البرهان العقلي، وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره، وكونه المالك لكل شيء مما في السموات والأرض ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا استفهام تبكيت وتوبيخ على أقبح الجهل والكفر، وهو قولهم على الله تعالى ما ليس لهم به علم، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من العلم البرهاني والوحي الإلهي، قال البيضاوي وغيره: وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وإن العقائد لا بد لها من قاطع، وإن التقليد فيها غير سائغ اهـ وقد تقدم حكاية اتخاذ الولد عن الكفار عامة وعن النصارى خاصة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام، وسيأتي في سور أخرى مع ابطاله وتفنيده بالدلائل ووجوه الحجة المختلفة الأساليب، أو التقريع والتأنيب، والإنذار والوعيد.

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ اتخاذهم الشركاء له، أو يزعمهم اتخاذه ولداً لنفسه، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم، وغيرهما من مسائل التشريع، أو بدعوى ولايتهم وإطلاعه إياهم على أسرار خلقه وتصريفه لهم في ملكه، وقد تقدم بعضه في هذه السورة كالآيات ١٧ و ٥٩ و ٦٠ ﴿ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار.

المراغي ج ٤ ص ١٣٤ ـ ١٣٦

بعد أن حكى سبحانه وتعالى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عنده ـ قفى على ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم، وهو زعمهم أنه تعالى جَدُّه اتخذ ولداً، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء.

﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي إن الله غني عن خلقه جميعاً، فإن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك له ولا حاجة له إلى شيء منه وجميعه في حاجة إليه، ولا يجانسه شيء منه، فالإنسان يحتاج إلى الولد إما للنصرة والمعونة وإما للاعتزاز به لدى الأهل والعشيرة، وإما لأنه زينة يلهو به في صغره ويفْخَر به في كبره، وإما للحاجة إليه في قضاء مصالحه أو لانتظار رفده وبره حين عجزه أو فقره، وإما لبقاء ذكره بعد موته، والله غنيّ عن كل ذلك، ولا حاجة له إلى شيء من هذه المنافع فهو مُسْتَغْنٍ أزلاً وأبداً.

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ أي ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول الذي تقولونه بلا علم ولا وحي إلهي.

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز إضافته إليه، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية والوحي الإلهي.

وفي الآية إيماء إلى أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد الدينية لا بد فيها من دليل قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي قل لهم إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه، أو باتخاذه ولداً لنفسه أو بدعوى أن الأولياء يطلعون على أسرار خلقه ويتصرفون في ملكه، لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى، ولا ينجون من عذاب الآخرة.

سيد قطب ج ٣ ص ١٨٠٥ ـ ١٨٠٧

ومن ثم كان الرد على فرية: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.. هو:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ..﴾ تنزيهاً لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصوّر. ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾.. بكل معاني الغنى، عن الحاجات التي أسلفنا وعن سواها مما يخطر ومما لا يخطر على البال. مما يقتضي وجود الولد. والمقتضِيات هي التي تسمح بوجود المقتضَيات، فلا يوجد شيء عبثاً بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية. ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. فكل شيء ملكه. ولا حاجة به ـ سبحانه ـ لأن يملك شيئاً بمساعدة الولد. فالولد إذن عبث. تعالى الله سبحانه عن العبث!

ولا يدخل القرآن الكريم في جدل نظري حول الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية، مما جد عند المتكلمين، وفي الفلسفات الأخرى. لأنه يلمس الموضوعات في واقعها القريب إلى الفطرة. ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاضر نهائياً وتصبح غرضاً في ذاتها!

فيكتفي هنا بهذه اللمسة التي تمس واقعهم، وحاجتهم إلى الولد، وتصورهم لهذه الحاجة، وانتفاء وجودها بالقياس إلى الله الغني الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض، ليبلغ من نفوسهم موضع الاقتناع أو موضع الإفحام، بلا جدل نظري يضعف أثر اللمسة النفسية التي تستجيب لها الفطرة في يسر وهوادة.

ثم يجابههم بالواقع، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدعون. ويسمي البرهان سلطاناً، لأن البرهان قوة، وصاحب البرهان قوي ذو سلطان:

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾..

ما عندكم من حجة ولا برهان على ما تقولون.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ . .

وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق. فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على الله ـ سبحانه ـ ! إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة. فهو أولاً ينافي ما يستحقه الله من عباده من تنزيه وتعظيم، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولأنه ضلال في تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق، ينشأ عنه ضلال في تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات. فكلها فرع من تصور هذه العلاقة. وكل ما ابتدعه الكهنة لأنفسهم في الوثنيات من سلطان؛ وكل ما ابتدعته الكنيسة لها من سلطان، إنما نشأ عن تصور العلاقة بين الله تعالى وبناته الملائكة! أو بين الله تعالى وعيسى بن مريم من صلة الأبوة والبنوة، وحكاية الخطيئة، ومنها نشأت مسألة الاعتراف، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبي المسيح (بزعمهم). . إلى نهاية السلسلة التي متى بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق فسدت الحلقات التالية كلها في كل ضروب الحياة.

فليست المسألة مجرد فساد في التصور الاعتقادي، ولكنه مسألة الحياة برمتها. وكل ما وقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عداء، انتهى إلى تخلص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلصه من سلطان الدين نفسه! إنما نشأ من هذه الحلقة. حلقة فساد تصور العلاقة بين الله وخلقه. وجر في ذيوله شراً كبيراً تعاني البشرية كلها ويلاته في التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء.

ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إبهام. . الله خالق أزلي باق، لا يحتاج إلى الولد. والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هي علاقة الخالق بخلقه دون استثناء. وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلف ولا تحابي. فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز، ومن حاد عنها ضل وخسر. . الناس في هذا كلهم سواء. وكلهم مرجعهم إلى الله. وليس هنالك من شفعاء ولا شركاء. وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً. ولكل نفس ما عملت. ولا يظلم ربك أحداً.

عقيدة بسيطة واضحة، لا تدع مجالاً لتأويل فاسد، ولا تنحني أو تنحرف بالقلب في دروب ومنحنيات، ولا في سحب وضباب!

ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة، وكلهم مكلف بها، وكلهم حفيظ عليها. وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض، نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله.

قل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ . .

لا يفلحون أي فلاح. لا يفلحون في شِعَب ولا طريق. لا يفلحون في الدنيا ولا في الأخرى. والفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع، وتنمية الحياة، ودفعها إلى الأمام. وليس هو مجرد الانتاج المادي تحطيم القيم الإنسانية، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية. فذلك فلاح ظاهري موقوت، منحرف عن خط الرقي الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال.

١٨ ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾

(سورة النحل ،رقم ١٦، الآية ٥١)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٤	ص ٨٠	ابن كثير	ج ٢	ص ٥٧٢
الزمخشري	ج ٢	ص ٤١٣	الجلالان		ص ٣٥٢
الرازي	ج ٢٠	ص ٤٧ ـ ٤٩	الشوكاني	ج ٣	ص ١٦٨ ـ ١٧٢
الطبرسي	ج ١٤	ص ٨٣ ـ ٨٥	الآلوسي	ج ٧	ص ١٦١ ـ ١٦٣
ابن عربي	ج ١	ص ٦٧٨ ـ ٦٨٠	القاسمي	ج ١٠	ص ١١٥ ـ ١١٧
البيضاوي	ج٣	ص ١٨٣	محمد عبده	ج	ص
الخازن	ج ٤	ص ٩٥	الطباطبائي	ج ١٢	ص ٢٥٢ ـ ٢٨٦
البغوي	ج ٣	ص ٥٩	جوهري	ج ٨	ص ١٢٤ ـ ١٦٤
الماوردي	ج ٣	ص ١٩٢	المراغي	ج ١٤	ص ٩٢
القرطبي	ج ١٠	ص ١١٣	سيد قطب	ج ٤	ص ٢١٧٦
أبو حيان الاندلسي	ج ٥	ص ٤٩٩ ـ ٥٠٣			

الطبري ج ١٤ ص ٨٠

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ يقول تعالى ذكره وقال الله لعباده لا تتخذوا لي شريكاً أيها الناس ولا تعبدوا معبودين فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي شريكاً ولا شريك لي إنما هو إلّه واحد ومعبود واحد وأنا ذلك فإياي فارهبون يقول فإياي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً.

الزمخشري ج ٢ ص ٤١٣

. . . وأنهم بين الخوف والرجاء. فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان إثنان، فما وجه قوله ﴿ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ ﴾؟ قلت: الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دالّ على شيئين: على الجنسية، والعدد المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والـذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به؛ ألا ترى أنك لو قلت إنما هو إلـه ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأن الغائب هو المتكلم وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله وإياه فارهبوه.

الرازي ج ٢٠ ص ٤٧ ـ ٤٩

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن كل ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه، أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالأمر بأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه وأنه غني عن الكل فقال ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين، فما الفائدة في قوله ﴿ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ ﴾.

وجوابه من وجوه: أحدها: قال صاحب النظم: فيه تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين. وثانيها: وهو الأقرب عندي أن الشيء إذا كان مستنكراً مستقبحاً، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سبباً لوقوف العقل على ما فيه من القبح.

إذا عرفت هذا فالقول بوجود الإلّهين قول مستقبح في العقول، ولهذا المعنى فإن أحداً من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال، فقوله ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح. وثالثها: أن قوله ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ لفظ واحد يدل على أمرين: ثبوت الإله وثبوت التعدد، فإذا قيل: لا تتخذوا إلّهين. لم يعرف من هذا اللفظ أن النهي وقع عن إثبات الإله أو عن إثبات التعدد أو عن مجموعهما. فلما قال ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ ثبت أن قوله ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ﴾ نهى عن إثبات التعدد فقط، ورابعها: أن الإثنينية منافية للإلهية، وتقريره من وجوه: الأول: أنا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجباً لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتي ومتباينين بالتعين وما به المشاركة غير ما به المباينة، فكل واحد منهما مركب من جزأين. وكل مركب فهو ممكن، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفي القول بكونهما واجبي الوجود. الثاني: إنا لو فرضنا إلهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثاني، لأن الحركة الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسمة أصلاً ولا التفاوت أصلاً، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثاني، وإذا ثبت هذا امتنع كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية. وإذا ثبت هذا فأما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما البتة. فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً. فثبت أن كونهما اثنين ينفي كون كل واحد منهما إلهاً. الثالث: أنا لو فرضنا إلهين اثنين لكان إما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر، فإن قدر ذاك إله والآخر ضعيف، وإن لم يقدر فهو ضعيف، والرابع: وهو أن أحدهما إما أن يقوى على مخالفة الآخر، أو لا يقوى عليه فإن لم يقو عليه فهو ضعيف، وإن قوى عليه فذاك الآخر إن لم يقو على الدفع فهو ضعيف، وإن قوى عليه فالأول المغلوب ضعيف. فثبت أن الإثنينية والإلهية متضادتان. فقوله ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الإلهية وبين الإثنينية، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ والمعنى: أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله. وثبت أن القول بوجود الإلهين محال: ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق الصمد.

ثم قال بعده ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور، والتقدير: أنه لما ثبت أن الإله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور، ويقول ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ وفيه دقيقة أخرى وهي أن قوله ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه، وذلك لأن الموجود إما قديم وإما محدث. أما القديم الذي هو الإله فهو واحد، وأما ما سواه فمحدث، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبايجاده، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا إليه ولا رهبة إلا منه، فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات.

الخازن ج ٤ ص ٩٥

قوله سبحانه وتعالى ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ لما أخبر الله عز وجل في الآية المتقدمة أن كل ما في السموات والأرض خاضعون لله منقادون لأمره عابدون له وأنهم في ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى في هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ إلهين إثنين فقال ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ قال الزجاج ذكر الإثنين توكيداً

لقوله إلهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لا تتخذوا إثنين إلهين يعني أن الاثنين لا يكون كل واحد منهما إلهاً ولكن اتخذوا إلهاً واحداً وهو قوله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لأن الإلهين لا يكونان إلا متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والإرادة فصارت الاثنينية منافية للآلهية وذلك قوله تعالى إنما هو إله واحد يعني لا يجوز أن يكون في الوجود إلهان اثنان إنما هو إلّه واحد ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ يعني فخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وإنما نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور وهو من طريق الالتفات لأنه أبلغ في الترهيب من قوله فإياه فارهبوا، فهو من بديع الكلام وبليغه وقوله فإياي فارهبون يفيد الحصر وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه ولا يرغبون إلا إليه وإلى كرمه وفضله وإحسانه.

الشوكاني ج ٣ ص ١٦٨ ـ ١٧٢

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقادة له، خاضعة لجلاله، أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله ﴿ ۞وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه؛ وقد قيل إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية، والإفراد في إله قد دلّ على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، ووصف إله واحد؟ فقيل في الجواب: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إلّه؛ وقيل إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك؛ وقيل إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدّد لا إلى الجنسية، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون لا غيري، وقد مرّ مثل هذا في أوّل البقرة.

الآلوسي ج ٧ ص ١٦١ ـ ١٦٣

قال تعالى لجميع المكلفين بواسطة الرسل عليهم السلام: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ المشهور أن ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ وصف لإلهين وكذا «واحد» في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ صفة لإله، وجيء بهما للإيضاح والتفسير لا للتأكيد وإن حصل. وتقرير ذلك أن لفظ ﴿ إِلَٰهَيْنِ ﴾ حامل لمعنى الجنسية أعني الإلهية ومعنى العده أعني الأثنينية وكذا لفظ «إله» حامل لمعنى الجنسية والوحدة، والغرض المسوق له الكلام في الأول النهي عن اتخاذ الإثنين من الإله عن اتخاذ جنس الإله، وفي الثاني إثبات الواحد من الإله لا إثبات جنسه فوصف ﴿ إِلَٰهَيْنِ ﴾ باثنين «وإله» بواحد إيضاحاً لهذا الغرض وتفسيراً له، فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو نعم الرجل زيد. وكذا المثنى كقوله:

فإن النار بالعودين تذكى
وأن الحرب أولها الكلام

وإلى هذا ذهب صاحب الكشاف، وما يفهم منه أنه تأكيد فمعناه أنه محقق ومقرر من المتبوع فهو تأكيد لغوي لا أنه مؤكد أمر المتبوع في النسبة أو الشمول ليكون تأكيداًصناعياً كيف وهو إنما يكون بتقرير المتبوع بنفسه أو بما يوافقه معنى أو بألفاظ محفوظة، فما قيل: إن مذهبه أن ذلك من التأكيد الصناعي ليس بشيء إذ لا دلالة في كلامه عليه. وقد أورد السكاكي الآية في باب عطف البيان مصرحاً بأنه من هذا القبيل فتوهم منه بعضهم أنه قائل بأن ذلك عطف بيان صناعي، وهو الذي اختاره العلامة القطب في شرح المفتاح نافياً كونه وصفاً، واستدل على ذلك بأن معنى قولهم: الصفة تابع يدل على معنى في متبوعه أنه تابع ذكر ليدل على معنى في متبوعه على ما نقل عن ابن

الحاجب، ولم يذكر «إثنين وواحد» للدلالة على الأثنينية والوحدة اللتين في متبوعهما فيكونا وصفين بل ذكراً للدلالة على أن القصد من متبوعهما إلى أحد جزئيه أعني الأثنينية والوحدة دون الجزء الآخر أعني الجنسية، فكل منهما تابع غير صفة يوضح متبوعه فيكون عطف بيان لا صفة.

وقال العلاّمة الثاني: ليس في كلام السكاكي ما يدل على أنه عطف بيان صناعي لجواز أن يريد أنه من قبيل الإيضاح والتفسير وإن كان وصفاً صناعياً، ويكون إيراده في ذلك المبحث مثل إيراد كل رجل عارف وكل إنسان حيوان في بحث التأكيد ومثل ذلك عادة له. وتعقب العلاّمة الأول بأنه إن أريد أنه لم يذكر إلا ليدل على معنى في متبوعه فلا يصدق التعريف على شيء من الصفة لأنها البتة تكون لتخصيص أو تأكيد أو مدح أو نحو ذلك وإن أريد أنه ذكر ليدل على هذا المعنى ويكون الغرض من دلالته عليه شيئاً آخر كالتخصيص والتأكيد وغيرهما فيجوز أن يكون ذكر «اثنين وواحد» للدلالة على الأثنينية والوحدة ويكون الغرض من هذا بيان المقصود وتفسيره، كما أن الدابر في أمس الدابر ذكر ليدل على معنى الدبور والغرض منه التأكيد بل الأمر كذلك عند التحقيق، ألا ترى أن السكاكي جعل من الوصف ما هو كاشف وموضح ولم يخرج بهذا عن الوصفية وأجيب بأنا نختار الشق الثاني ونقول: مراد العلامة من قوله: ذكر ليدل على معنى في متبوعه أن يكون المقصود من ذكره الدلالة على حصول المعنى في المتبوع ليتوسل بذلك إلى التخصيص أو التوضيح أو المدح أو الذم إلى غير ذلك وذكر «إثنين وواحد» ليس للدلالة على حصول الأثنينية والوحدة في موصوفيهما بل تعيين المقصود من جزئيهما فلا يكونان صفة، وذكر الدابر ليدل على حصول الدبور في الأمس ثم يتوسل بذلك إلى التأكيد وكذا في الوصف الكاشف بخلاف ما نحن فيه فتدبره فإنه غامض: ولم يجوّز العلاّمة الأول البدلية فقال: وأما أنه ليس ببدل فظاهر لأنه لا يقوم مقام المبدل منه.

ونظر فيه العلاّمة الثاني بأنا لا نسلم أن البدل يجب صحة قيامه مقام المبدل منه فقد جعل الزمخشري ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾[الأنعام: ١٠٠] بدلاً من ﴿شُرَكَآءَ﴾ ومعلوم أنه لا معنى لقولنا وجعلوا الله الجن، ثم قال: بل لا يبعد أن يقال: الأولى أنه بدل لأنه المقصود بالنسبة إذ النهي عن اتخاذ الاثنين من الإله على ما مر تقريره. وتعقب بأن الرضى قد ذكر أنه لما لم يكن البدل معنى في المتبوع حتى يحتاج إلى المتبوع كما احتاج الوصف ولم يفهم معناه من المتبوع كما فهم ذلك في التأكيد جاز اعتباره مستقلاً لفظاً أي صالحاً لأن يقوم مقام المتبوع، اهـ.

ولا يخفى أن صحة إقامته بهذا المعنى لا تقتضي أن يتم معنى الكلام بدونه حتى يرد ما أورد؛ وقيل: إن ذكر «إثنين» للدلالة على منافاة الأثنينية للألوهية وذكر الوحدة للتنبيه على أنها من لوازم الألوهية.

وجعل ذلك بعضهم من روادف الدلالة على كون ما ذكر مساق النهي والإثبات وهو الظاهر وإن قيل فيه ما قيل.

وزعم بعضهم أن ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾ متعد إلى مفعولين وأن ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ مفعوله الأول و﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ مفعوله الثاني والتقدير لا تتخذوا إثنين إلهين، وقيل: الأول مفعول أول والثاني ثان، وقيل: ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ مفعوله الأول و ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ باق على الوصفية والتوكيد والمفعول الثاني محذوف أي معبودين، ولا يخفى ما في ذلك، وإثبات الوحدة له تعالى مع أن المسمى المعين لا يتعدد بمعنى أنه لا مشارك له في صفاته وألوهيته فليس الحمل لغواً، ولا حاجة لجعل الضمير للمعبود بحق المفهوم من الجلالة على طريق الاستخدام كما قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه في سورة الإخلاص. وفي التعبير بالضمير الموضوع للغائب التفات من التكلم إلى الغيبة على رأي السكاكي المكتفي بكون الأسلوب الملتفت عنه حق الكلام وإن لم يسبق الذكر على ذلك الوجه، وأما قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ففيه التفات من الغيبة إلى المتكلم على مذهب الجمهور أيضاً، والنكتة فيه بعد النكتة العامة أعني الإيقاظ وتطرية الإصغاء المبالغة في

التخويف والترهيب فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام.

والفاء في ﴿فَإِيَّٰيَ﴾ واقعة في جواب شرط مقدر و (إياي) مفعول لفعل محذوف يقدر مؤخراً يدل عليه ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي إن رهبتم شيئاً فإياي ارهبوا، وقول ابن عطية: إن «إياي» منصوب بفعل مضمر تقديره فارهبوا إياي فارهبون ذهول عن القاعدة النحوية، وهي أنه إذا كان المعمول ضميراً منفصلاً والفعل متعد إلى واحد هو الضمير وجب تأخر الفعل نحو ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] ولا يجوز أن يتقدم إلا في ضرورة نحو قوله:

إليك حتى بلغت إياكا. وعطف المفسر المذكور على المفسر المحذوف بالفاء لأن المراد رهبة بعد رهبة، وقيل: لأن المفسر حقه أن يذكر بعد المفسر، ولا يخفى فصل الضمير وتقديمه من الحصر أي أرهبوني لا غير فأنا ذلك الإله الواحد القادر على الانتقام.

القاسمي ج ١٠ ص ١١٥ ـ ١١٧

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾. إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك. وبأمره بعبادته وحده، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة. فإن قيل: الواحد والمثنى نص في معناهما، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد، كما يذكر مع الجميع. أي في نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص، فلِمَ ذكر العدد فيهما؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين: الجنسية والعدد المخصوص. فلما أريد الثاني صرّح به للدلالة على أنه المقصود الذي سيق الكلام وتوجه له النهي دون غيره. فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو: نعم الرجل زيد. وكذا المثنى كقوله:

فإنّ النارَ بالعُودَينِ تُذْكَى
وإنَّ الحربَ أوّلُها الكَلامُ

وقيل: ذكر العدد للإيماء بأن الأثنينيّة تنافي الألوهية. فهو في معنى قوله ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلذا صرح بها، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية.

وقال الشهاب: ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ معطوف على قوله ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾ [الرعد: ١٥] أو على قوله ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾ [النحل: ٤٤] وقيل: إنه معطوف على ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ بِٱلۡحَقِّ﴾ على أسلوب عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً.

أي: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٤٨] ولم يسمعوا ما قال الله؟. ولا يخفى تكلفه. وفي قوله ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ التفات عن الغيبة، مبالغة في الترهيب. فإن تخويف الحاضر مواجهة، أبلغ من ترهيب الغائب، لا سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام.

المراغي ج ٥ ص ٩٢

الإيضاح

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكاً ولا تعبدوا سواي، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتموه لي شريكاً، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد، ومعبود واحد، وأنا ذاك، فاتقوني وخافوا عقابي، بمعصيتكم إياي، بإشراككم بي غيري، أو عبادتكم سواي.

وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه، للدلالة على أن المنهى عنه هي الأثنينية وأنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة في قوله ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الألوهية، أما الألوهية فغير منكرة ولا متنازع فيها.

والخلاصة ـ إنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

سيد قطب ج ٤ ص ٢١٧٦

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾.

لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين. إنما هو إله واحد لا ثاني له. ويأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر ﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ دون سواي بلا شبيه أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير. . ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض.

١٩ ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾

(سورة الإسراء، رقم ١٧، الآية ١١١)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٥	ص ١٢٥ ـ ١٢٦	أبو حيان الاندلسي	ج ٦	ص ٨٩ ـ ٩١
الزمخشري	ج ٢	ص ٤٧٠	ابن كثير	ج ٣	ص ٦٨ ـ ٧٠
الرازي	ج ٢١	ص ٧١ ـ ٧٢	الجلالان		ص ٣٧٨ ـ ٣٩٠
الطبرسي	ج ١٥	ص ١٠٨ ـ ١١٢	الشوكاني	ج ٣	ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧
ابن عربي	ج ١	ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨	الآلوسي	ج ٨	ص ١٩٥ ـ ١٩٩
البيضاوي	ج ٣	ص ٢١٤	القاسمي	ج ١٠	ص ٣١١ ـ ٣١٢
الخازن	ج ٤	ص ١٩٠	الطباطبائي	ج ١٣	ص ٢١٧ ـ ٢٣٥
البغوي	ج ٣	ص ١١٨	جوهري	ج ٩	ص ٧٤ ـ ١٢٠
الماوردي	ج ٣	ص ٢٨٢	المراغي	ج ١٥	ص ١٠٦ ـ ١١١
القرطبي	ج ١٠	ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٢٥٤

الطبري ج ١٥ ص ١٢٥ ـ ١٢٦

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وقل يا محمد الحمدلله الذي لم يتخذ ولداً فيكون مربوباً لا رباً لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ولم يكن له شريك في الملك فيكون عاجزاً ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفاً ولا يكون إلهاً من يكون محتاجاً إلى معين على ما حاول ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان ولم يكن له ولي من الذل يقول ولم يكن له حليف حالفه من الذل به لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليل مهين ولا يكون من كان ذليلاً مهيناً يحتاج إلى ناصر إلهاً يطاع وكبره تكبيراً يقول وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل وأطعه فيما أمرك ونهاك وبنحو الذي قلنا في قوله ولم يكن له ولي من الذل قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن عمرو... عن مجاهد ولم يكن له ولي من الذل قال لم يحالف أحد ولا يبتغي نصر أحد حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله حدثنا بشر... عن قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ الصغير من أهله والكبير حدثنا ابن حميد عن ابن عباس قال إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا لا تجعل مع الله إلهاً آخر حدثني يونس عن القرظى أنه كان يقول في هذه الآية ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ الآية قال إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً وقالت العرب لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك وقال الصابئون والمجوس لولا أولياء الله لذل الله فأنزل الله ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ ﴾ أنت يا محمد على ما يقولون ﴿ تَكْبِيرًا ﴾ . . .

الزمخشري ج ٢ ص ٤٧٠ ـ ٤٧١

﴿ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ ناصر من الذل ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته. فإن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والذل بكلمة التحميد؟ قلت: لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد «وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية». عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة بني إسرائيل فرقّ قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في

الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية» رزقنا الله بفضله العميم وإحسانه الجسيم.

إن قلت: «كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك؟» قال أحمد: وقد لاحظ ههنا ما أغفله عند قوله تعالى ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد ولا تناسبها، فإنك لو قلت ابتداء الحمد لله الذي الذين كفروا به يعدلون لم يكن مناسباً، والله أعلم.

الرازي ج ٢١ ص ٦٩ ـ ٧١

واعلم أنه تعالى لما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد فقال ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهي اسلوب ثلاثة أنواع من الصفات (النوع الأول) من الصفات أنه لم يتخذ ولداً والسبب فيه وجوه (الأول) إن الولد هو الشيء المتولد من جزء من أجزاء شيء آخر فكل من له ولد فهو مركب من الأجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد. (الثاني) إن كل من له ولد فإنه يمسك جميع النعم لولده فإذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده. (الثالث) إن الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضياً ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الإطلاق. (والنوع الثاني) من الصفات السلبية قوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر. (والنوع الثالث) قوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الذل لم يجب شكره لتجويز أن غير حمله على ذلك الإنعام أو منعه منه، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وكان منزهاً عن أن يكون له ولي يلي أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأجل أقسام الشكر ثم قال تعالى ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقروناً بالتكبير ويحتمل أنواعاً من المعاني (أولها) تكبيره في ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل ما سواه. (وثانيها) تكبيره في صفاته وذلك من ثلاثة أوجه (أولها) أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزه عن كل صفات النقائص (وثالثها) أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات (ورابعها) أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال. (النوع الثالث) من تكبير الله تكبيره في أفعاله وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر فقال أهل السنة إنا نحمد الله ونكبره ونعظمه على أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيئته وإرادته، وقالت المعتزلة إنا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلاً لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد أن حكمته تقتضي التنزيه والتقديس عنها وعن إرادتها وسمعت أن الأستاذ أبا إسحاق الإسفرايني كان جالساً في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني فلما رآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء فقال الأستاذ أبو إسحاق سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء. (النوع الرابع) تكبير الله في أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الأمر والنهي والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء. (النوع الخامس) تكبير الله في أسمائه وهو أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة (النوع السادس). من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ

التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافياً بكنه مجده وعزته. وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت إنه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ابن عربي ج ١ ص ٧٣٧ ـ ٧٣٨

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي، أظهر الكمالات الإلهية، والصفات الرحمانية، التي لا تكون إلا للذات الأحدية ﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي، لم يكن علة لموجود من جنسه، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكناً بالذات، معدوماً بالحقيقة، فكيف يكون من جنس الموجود حقاً، الواجب بذاته من جميع الوجوه؟

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ﴾ من يساويه في قوة القهر والمملكة، من الشريك في الملك، وإلا لكانا مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة، فامتياز كل واحد منهما عن الآخر لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبية، فلزم تركبهما، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين، وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير لم يكن أحدهما إلهاً. وإن استقل أحدهما دون الآخر، فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له. وإن استقلا جميعاً، لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد، إن فعلا معاً، وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر، رضي بفعله أو لم يرض.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي، لم يكن له ناصر علة كان، أو جزء علة تقوية، وتنصره من ذلّة الانفعال والعدم، وإلا لم يكن إلهاً واجباً، بل ممكناً لتكون حبيباً قائماً به لا بنفسك ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ من أن يتقيد بصفة دون أخرى، أو صورة غير أخرى، أو يلحقه شيء من هذه النقائص، فينحصر في وجود خاص تبارك وتعالى عن ذلك علوًّا كبيراً ﴿تَكْبِيرًا﴾ لا يقدر قدره، ولا يعرف كنهه، لامتناع وجود شيء غيره يفضل عليه، وينسب إليه، بل كل ما يتصور ويعقل، ولا يكبّر غيره بهذا التكبير، والله الحق، الموفق.

الشوكاني ج ٣ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧

. . . وأخرج ابن جرير والحاكم عنها قالت: نزلت في التشهد. وأخرج ابن أبي شيبة وابن منيع وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأوّل، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخرها. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ قال: لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد. وأخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العزّ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية كلها». وأخرج أبو يعلى وابن السنى عن أبي هريرة قال «خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي، فأتى عليّ رجل رثّ الهيئة فقال: أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السقم والضرّ، قال: ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ؟ توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمدلله الذي لم يتخذ ولداً إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال مهيم: «قال لم أزل أقول الكلمات التي علمتني». وفي لفظ أن النبي ﷺ علم ذلك أبا هريرة. قال ابن كثير: وإسناده ضعيف وفي متنه نكارة. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال «ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ

يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخرها للصغير من أهله والكبير». وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال «كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرّات ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ إلى آخر السورة، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف من طريق عبد الكريم عن عمرو بن شعيب فذكره. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

الآلوسي ج ٨ ص ١٩٥ ـ ١٩٩

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ رد على اليهود والنصارى وبني مليح حيث قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله تعالى والملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، ونفى اتخاذ الولد ظاهر في نفي التبني ويعلم منه نفي أن يكون له سبحانه ولداً لصلب من باب أولى، وقد نفى ذلك صريحاً في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣] ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ظاهره أنه رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية، ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون رداً على الوثنية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي ناصر ومانع له سبحانه من الذل لاعتزازه تعالى بنفسه فمن صلة لولي وضمن معنى المنع والنصر أو لم يوال تعالى أحداً من أجل مذلة فالولاية بمعنى المحبة على أصلها ومن تعليلية، وليس المعنى على الوجهين نفي الذل والنصر في الأول والموالاة والذل في الثاني على أسلوب ـ لا يهتدي بمناره ـ بل المراد أنه تعالى إذا اتخذ عبداً له ولياً فذلك محض الاصطناع في شأن العبد لا أن هناك حاجة، وكذلك نصر الله تعالى كمال للناصر لا أن ثمة حاجة ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وإلى هذا ذهب صاحب الكشاف وهو حسن، وجعل ذلك على الوجهين الفاضل الطيبي من ذاك الأسلوب، وفي الحواشي الشهابية في بيان ثاني الوجهين أن المراد نفي أن يكون له تعالى مولى يلتجيء هو سبحانه إليه، وأما الولي الذي يوصف به المؤمن فليس الولاية فيه بهذا المعنى بل بمعنى من يتولى أمره لمحبته له تفضلاً منه عز وجل ورحمة فغاير بين الولايتين، ولعل الحق مع صاحب الكشاف، ومن عجيب ما قيل إن ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ في موضع الصفة لولي ومن فيه للتبعيض وأن الكلام على حذف مضاف أي لم يكن له ولي من أهل الذل والمراد بهم اليهود والنصارى، ولعمري أنه لا ينبغي أن يلتفت إليه.

وربما يتوهم أن المقام مقام التنزيه لا مقام الحمد لأنه يكون على الفعل الاختياري وبه ما ذكر من الصفات العدمية ويدفع بأنه لاق وصفه تعالى بما ذكر بكلمة التحميد لأنه يدل على نفي الإمكان المقتضى للاحتياج وإثبات أنه تعالى الواجب الوجود لذاته الغني عما سواه المحتاج إليه ما عداه فهو الجواد المعطي لكل قابل ما يستحق فهو تعالى المستحق للحمد دون غيره عز وجل، وهذا الذي عناه الزمخشري وقال في الكشف: لك أن تتخذ نفي هذه الصفات وهي ذرائع منع المعروف أما الولد فلأنه مبخلة، وأما الشريك فلأنه مانع من التصرف كيف يشاء، وأما الاحتياج إلى من يعتز به أو يذب عنه فأظهر رديفاً لإثبات أضدادها على سبيل الكناية وهو وجه حسن؛ ولو حمل الكلام على ظاهره أيضاً لكان له وجه ذلك لأن قول القائل الحمد لله فيه ما ينبيء أن الإلهية تقتضي الحمد فإذا قلت الحمدلله المنزه عن النقائص مثلاً يكون قد قويت معنى الإلهية المفهومة من اللفظ فيكون وصفاً لائقاً مؤيداً لاستحقاقه تعالى الحمد من غير نظر إلى مدخلية الوصف في الحمد بالاستقلال وهذا بين مكشوف إلا أن الزمخشري حاول أن ينبه على مكان الفائدة الزائدة اهـ.

وتعقب بأن ما ذكره من أن في الحمد لله ما ينبيء أن الإلهة تقتضي الحمد لا يتم على مذهب ما نعي الاشتقاق في الاسم الكريم وفيه تأمل. والآية على ما قال العلامة الطيبي من التقسيم الحاصر لأن المانع من إيتاء النعم إما فوقه سبحانه وتعالى أو دونه أو مثله عز وجل فبنى الكلام على الترقي وبدىء من الأدون وختم بالأعلى فنفى الكل فمنه ولد الكثرة وله القل والدق والجل تعالى كبرياؤه وعظمت نعماؤه، ولدلالة ما تقدم على أنه تعالى هو

الكامل وما عداه ناقص استحق التكبير ولذا عطف عليه قوله سبحانه ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، وفي الأمر بذلك بعد ما تقدم مؤكداً بالمصدر المنكر من غير تعيين لما يعظم به تعالى إشارة إلى أنه مما لا تسعه العبارة ولا تفي به القوة البشرية وإن بالغ العبد في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد فلم يبق إلا الوقوف بأقدام المذلة في حضيض القصور والاعتراف بالعجز عن القيام بحقه جل وعلا وإن طالت القصور. . .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج والبيهقي في الأسماء والصفات عن اسماعيل بن أبي فديك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل عليه السلام فقال: يا محمد قل: توكلت على الحي الذي لا يموت والحمدلله الذي لم يتخذ ولداً». إلى آخر الآية، وأخرج ابن السني والديلمي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ: وعليها أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لها إذا أخذت مضجعك فقولي: «الحمدلله الكافي سبحان الله الأعلى حسبي الله وكفى ما شاء الله قضى سمع الله لمن دعا ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجى توكلت على ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ - إلى ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ثم قال - ﷺ: ما من مسلم يقرأها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره» هذا وما ألطف المناسبة بين ابتداء هذه السورة، وهذا الختام وليس بدعا في كلام اللطيف العلاّم. . .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فضلاً عن أن يكون له سبحانه ولد بطريق التولد ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فلا مدخل لغيره تعالى في ملكية شيء على الحقيقة وما يوجد بسبب ليس السبب إلا آلة له ولا تملك الآلة شيئاً بل لا شيء إلا وهو صنعه تعالى على الحقيقة والسرير مثلاً وإن أضيف إلى النجار من حيث الصنعة إلا أنه في الحقيقة آلة كالقدوم ولا يضاف العمل إلى الآلة على الحقيقة كذا قيل، وللشيخ قدس سره كلام في هذا المقام يفصح عن بعض هذا ذكره في الباب الثامن والتسعين بعد المائة فارجع إليه وتدبر، وكذا له كلام في قوله سبحانه ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ﴾ لكن يغني عنه ما قدمناه ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ قال بعضهم: تكبيره تعالى أن تعلم أنك لا تطيق أن تكبره إلا به، وقال ابن عطاء تكبيره عز وجل بتعظيم منته وإحسانه في القلب بالعلم بالتقصير في الشكر وكيف يوفي أحد شكره تعالى ونعمه جل وعلا لا تحصى وآلاؤه لا تستقصى، هذا وقد تم بفضل الله تعالى تفسير هذه السورة الكريمة.

القاسمي ج ١٠ ص ٣١١ - ٣١٢

ثم بيّن سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال، بقوله تعالى ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي لَمْ يَكُنْ علةً لموجود من جنسه، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكناً بالذات، معدوماً بالحقيقة. فكيف يكون من جنس الموجود حقًّا، الواجب بذاته من جميع الوجوه؟ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك. وإلا لكانا مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة. فامتياز كل واحد منهما عن الآخر، لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة. فلزم تركبهما فكان كلاهما ممكنين واجبين. وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير، لم يكن أحدهما إلهاً. وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له. وإن استقلا جميعاً، لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد، إن فعلا معاً، وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر، رضي بفعله أو لم يرض. أفاده القاشانيّ.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي ناصر من الذل ومانع له منه، لاعتزازه به. أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به، ليدفعها بموالاته ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ أي عظمه عن أن يلحقه شيء من هذه النقائص تعظيماً جليلاً.

سيد قطب ج ٤ ص ٢٢٥٤

وتختم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته [الله] بلا ولد ولا شريك، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير. وهو العلي الكبير، فيلخص هذا الختام محور السورة الذي دارت عليه، والذي بدأت ثم ختمت به:

٢٠ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا . مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

(سورة الكهف، رقم ١٨، الآية ٤ ـ ٦)

مصادر تفاسير الآية

المفسر	الجزء	الصفحات
الطبري	ج ١٥	ص ١٢٨ ـ ١٣٠
الزمخشري	ج ٢	ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣
الرازي	ج ٢١	ص ٧٧ ـ ٧٩
الطبرسي	ج ١٥	ص ١١٥ ـ ١١٩
ابن عربي	ج ١	ص ٧٤١ ـ ٧٤٣
البيضاوي	ج ٣	ص ٢١٥ ـ ٢١٦
الخازن	ج ٤	ص ١٩١
البغوي	ج ٣	ص ١١٩
الماوردي	ج ٣	ص ٢٨٣
القرطبي	ج ١٠	ص ٣٥٣
ابو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٩٤ ـ ٩٩
ابن كثير	ج ٣	ص ٧١ ـ ٧٢
الجلالان		ص ٣٨١
الشوكاني	ج ٣	ص ٢٦٨ ـ ٢٧١
الآلوسي	ج ١٥	ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦
القاسمي	ج ١١	ص ٤٠٢٣
الطباطبائي	ج ١٣	ص ٢٣٥ ـ ٢٤٢
جوهري	ج ٩	ص ١٢١ ـ ١٨٣
المراغي	ج ١٥	ص ١١٣ ـ ١٢٠
سيد قطب	ج ٤	ص ٢٢٥٥ ـ ٢٢٥٨

الطبري ج ١٥ ص ١٢٨ ـ ١٣٠

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا . مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ يقول تعالى ذكره ويحذر أيضاً محمد القوم الذين قالوا اتخذ الله ولداً من مشركي قومه وغيرهم بأس الله وعاجل نقمته وآجل عذابه على قيلهم ذلك كما حدثنا ابن حميد. . . عن ابن إسحق وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً يعني قريشاً في قولهم إنما نعبد الملائكة وهن بنات الله وقولهم ما لهم به من علم يقول ما لقائلي هذا القول يعني قولهم اتخذ الله ولداً به يعني بالله من علم والهاء في قوله به من ذكر الله وإنما معنى الكلام ما لهؤلاء القائلين هذا القول بالله إنه لا يجوز أن يكون له ولد من علم فلجهلهم بالله وعظمته قالوا ذلك وقوله ولا لآبائهم يقول ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل الذي هم عليه اليوم كان لهم بالله وبعظمته علم.

وقوله كبرت كلمة تخرج من أفواههم اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء المدنيين والكوفيين والبصريين كبرت كلمة بنصب كلمه بمعنى كبرت كلمتهم التي قالوها كلمة على التفسير كما يقال نعم رجلا عمرو ونعم الرجل رجلاً قام وكان بعض نحويي أهل البصرة يقول نصبت كلمة لأنها في معنى أكبر بها كلمة كما قال جل ثناؤه وساءت مرتفقاً وقال هي في النصب مثل قول الشاعر:

ولقد علمت إذا اللقاح تروحت
هدج الرئال تكبهن شمالا

أي تكبهن الرياح شمالاً فكأنه قال كبرت تلك الكلمة وذكر عن بعض المكيين أنه كان يقرأ ذلك كبرت كلمة رفعا كما يقال عظم قولك وكبر شأنك وإذا قرىء ذلك كذلك لم يكن في قوله كبرت كلمة مضمر وكان صفة للكلمة والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأ كبرت كلمة نصباً لإجماع الحجة من القراء عليها فتأويل الكلام عظمت الكلمة كلمة تخرج من أوفاه هؤلاء القوم الذين قالوا اتخذ الله ولداً والملائكة بنات الله كما حدثنا ابن حميد. . عن ابن إسحاق كبرت كلمة تخرج من أفواههم قولهم إن الملائكة بنات الله وقوله أن يقولون إلا كذباً يقول عز ذكره ما يقول هؤلاء القائلون اتخذ الله ولداً بقيلهم ذلك إلا كذباً وفرية افتروها على الله. القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا

﴿ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ يعني تعالى ذكره بذلك فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً تمرداً منهم على ربهم إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك فيصدقوا بأنه من عند الله حزناً وتلهفاً ووجداً بإدبارهم عنك وأعراضهم عما أتيتهم به وتركهم الإيمان بك يقال منه بخع فلان نفسه يبخعها بخعاًوبخوعاً ومنه قول ذي الرمة:

ألا أيهـذا البـاخـع الـوجـد نفسـه
لشـيء نحتـه عـن يـديـه المقـادر

يريد نحته فخففف. وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله باخع قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا بشر. . . عن قتادة فلعلك باخع نفسك يقول قاتل نفسك حدثنا الحسن بن يحيى. . . عن قتادة مثله وأما قوله أسفاً فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله فقال بعضهم معناه فلعلك باخع نفسك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث غضباً ذكر من قال ذلك حدثنا بشر. . . عن قتادة إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً قال غضباً. وقال آخرون جزعاً ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو. . . عن مجاهد في قول الله أسفاً قال جزعاً حدثنا القاسم. . . عن مجاهد مثله. وقال آخرون معناه حزناً عليهم ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن بن يحيى. . . عن قتادة في قوله أسفاً قال خزناً عليهم وقد بينا معنى الأسف فيما مضى من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وهذه معاتبة من الله عز ذكره على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله والبراءة من الآلهة والأنداد وكان بهم رحيماً. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن حميد. . . عن ابن إسحاق فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً يعاتبه على حزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم أي لا تفعل.

الرازي ج ٢١ ص ٧٧ ـ ٧٩

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا . مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ فـي الآيـة مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ معطوف على قوله ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه فالأول عام في حق كل من استحق العذاب، والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى.

المسألة الثانية: الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف (أحدها) **كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات** الله (وثانيها **النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله** (ثالثها **اليهود الذين قالوا عزير ابن الله**، والكلام في أن إثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وتمامه مذكور في سورة مريم، ثم إنه تعالى أنكر على القائلين بإثبات الولد لله تعالى من وجهين (الأول) قوله ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ﴾ فإن قيل اتخاذ الله ولداً محال في نفسه فكيف قيل ما لهم به من علم؟ قلنا انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصل إليه، وقد يكون لأنه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به. ونظيره قوله ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنين: ١١٧]. واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على أن القول في الدين بغير علم باطل، والقول بالقياس الظني قول في الدين بغير علم فيكون باطلاً وتمام تقريره مـذكـور فـي قـولـه ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقـولـه ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ﴾ أي ولا أحد من

أسلافهم، وهذا مبالغة في كون تلك المقالة باطلة فاسدة (النوع الثاني) مما ذكره الله في إبطاله قوله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: قرىء ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية، قال الواحدي ومعنى التمييز أنك إذا قلت كبرت المقالة أو الكلمة جاز أن يتّوهم أنها كبرت كذباً أو جهلاً أو افتراء فلما قلت كلمة ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير كبرت الكلمة كلمة فحصل فيه الإضمار، أما من رفع فلم يضمر شيئاً كما تقول عظم فلان فلذلك قال النحويون والنصب أقوى وأبلغ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة.

البحث الثاني: قوله ﴿كَبُرَتْ﴾ أي كبرت الكلمة. والمراد من هذه الكلمة ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فصارت مضمرة في كبرت وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة.

البحث الثالث: احتج النظام في إثبات قوله: إن الكلام جسم بهذه الآية قال إنه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة؛ والحركة لا تصح إلا على الأجسام. والجواب أن الحروف إنما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق، فلما كان خرج النفس سبباً لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة.

البحث الرابع: قوله ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يدل على أن هذا الكلام مستكره جداً عند العقل؛ كأنه يقول هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان، فكأنه شيء يجري به لسانهم على سبيل التقليد، لأنهم مع أنها تولهم عقولهم وفكرهم تأباها وتنفر عنها ثم قال تعالى ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ومعناه ظاهر، واعلم أن الناس قد اختلفوا في حقيقة الكذب. فعندنا أنه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا؟ ومن الناس من قال شرط كونه كذباً أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق، وهذا القيد عندنا باطل، والدليل عليه هذه الآية فإنه تعالى وصف قولهم بإثبات الولد لله بكونه كذباً، مع أن الكثير منهم يقول ذلك، ولا يعلم كونه باطلاً، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقاً أو لم يعلم، ثم قال تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: المقصود منه أن يقال للرسول: لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإنا بعثناك منذراً ومبشراً فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه. والغرض تسلية الرسول ﷺ عنه.

البحث الثاني: قال الليث بخع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً من شدة وجده بالشيء. وقال الأخفش والفراء أصل البخع الجهد يقال بخعت لك نفسي أي جهدتها، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت بخع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك. وقال الكسائي بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخع الرجل نفسه إذا نهكها وعلى هذا معنى ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾ أن ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا قاتل نفسك ومهلكها والأصل ما ذكرناه، هكذا قال الواحدي.

البحث الثالث: قوله ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي من بعدهم يقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وأصل هذا أن الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحى وتبطله بالكلية فإذا كان موته قريباً من موت الأول كان موته حاصلاً حال بقاء آثار الأول فصح أن يقال مات فلان على أثر فلان.

البحث الرابع: قوله ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ المراد بالحديث القرآن قال القاضي وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول إنه قديم وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهي حادثة.

البحث الخامس: قوله ﴿أَسَفًا﴾ الأسف المبالغة في الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] في سورة الأعراف وعند قوله ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] وفي انتصابه وجوه (الأول) أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على أنه يأسف (الثاني) يجوز أن يكون مفعولاً له أي للأسف كقولك

جئتك ابتغاء الخير (والثالث) قال الزجاج (أسفاً) منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

البحث السادس: الفاء في قوله ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ جواب الشرط وهو قوله ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ قدم عليه ومعناه التأخير.

ابن عربي ج ١ ص ٧٤١ ـ ٧٤٣

واعلم أن الإنذار والتبشير اللذين هما من باب التكميل اللازم لكونه قيّماً عليهم، كلاهما أثر ونتيجة عن صفتي القهر واللطف الإلهيين، اللذين محل استعداد قبولهما من نفس العبد، الغضب والشهوة، فإن العبد ما استعد لقبولهما إلا بصفتي الغضب والشهوة وفنائهما، كما لم يستعد لفضيلتي الشجاعة والعفة إلا بوجودهما، فلما انتفتا قامتا مقامهما، لأن كلاً منهما ظلّ لواحدة من تينك، يزول بحصولها، فعند إرتواء القلب منهما، وكمال التخلق بهما، حدث عن القهر الإنذار عند استحقاقية المحل بالكفر والشرك، وعن اللطف التبشير باستحقاقية الإيمان والعمل الصالح، إذ الإفاضة لا تكون إلا عند استحقاق المحل.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ﴾ أي، ما لهم بهذا القول من علم، بل إنما يصدر عن جهل مفرط وتقليد للآباء لا عن علم ويقين، ويؤيده قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي، ما أكبرها كلمة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ليس في قلوبهم من معناه شيء، لأنه مستحيل لا معنى له، إذا العلم اليقيني يشهد أن الوجود الواجبي العلي أحديّ الذات، لا يماثله الوجود الممكن المعلول، والولد هو المماثل لوالده في النوع، المكافىء له في القوة، والشهود الذاتي يحكم بفناء الخلق في الحق، والمعلول في المشهود، فلم يكن ثم سوّاه شيء غيره فضلاً عن الشبيه والولد، كما قال أحدهم:

هذا الوجود وإن تكثر ظاهراً
وحياتكم ما فيه إلا أنتم

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ لتطابق الدليل العقلي، والوجدان الذوقي الشهودي على إحالته ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ أي، مهلك ﴿نَّفْسَكَ﴾ من شدة الوجد والأسف على توليهم وإعراضهم، وذلك لأن الشفقة على خلق الله والرحمة عليهم، من لوازم محبة الله ونتائجه.

ولما كان ﷺ حبيب الله، ومن لوازم محبوبيته محبته لله، لقوله: «يحبهم ويحبونه» وكلما كانت محبته للحق أقوى كانت شفقته ورحمته على خلقه أكثر، لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله اشتدّ تعطفه عليهم، فإنهم كأولاده وأقاربه، بل كأعضائه وجوارحه في الشهود الحقيقي، فلذلك بالغ في التأسف عليهم حتى كاد يهلك نفسه، وأيضاً علم أن المحب إذا تقوّى بالمحبوب في استمرار الوصل ظهر قبوله في القلوب، لمحبّة الله إياه.

البيضاوي ج ٣ ص ٢١٥ ـ ٢١٦

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظاماً لكفرهم وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذه أو بالقول والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مفرط وتوهم كاذب أو تقليد لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به فإنهم كانوا يطلقون الآب والابن بمعنى المؤثر والأثر أو بالله إذ لو علموه لما جوّزوا نسبة الاتخاذ إليه ﴿وَلَا لِـَٔابَآئِهِمْ﴾ الذين تقولوه بمعنى التبني ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عظمت مقالتهم هذه في الكفر لما فيها من التشبيه والتشريك وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه إلى غير ذلك من الزيغ وكلمة نصب على التمييز وقرىء بالرفع على الفاعلية والأول أبلغ وأدل على المقصود ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ صفة لها تقيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم والخارج بالذات هو الهواء الحامل لها وقيل صفة محذوف هو المخصوص بالذم لأن كبر ههنا بمعنى بئس وقرىء كبرت بالسكون مع الأشمام ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ قاتلها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ إذا ولوا عن الإيمان شبهه لما

يداخله من الوجد على توليهم بمن فارقته أعزته فهو يتحسر على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وقرىء باخع نفسك على الإضافة ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ بهذا القرآن ﴿أَسَفًا﴾ للتأسف عليهم أو متأسفاً عليهم والأسف فرط الحزن والغضب وقرىء أن بالفتح على لان فلا يجوز أعمال باخع إلا إذا جعل حكاية حال ماضية.

أبو حيان الأندلسي ج ٦ ص ٩٤ ـ ٩٩

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا . مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وقرىء ويبشر بالرفع والجمهور بالنصب عطفاً على لينذر والأجر الحسن الجنة ولما كنى عن الجنة بقوله أجراً حسناً قال ماكثين فيه أي مقيمين فيه فجعله ظرفاً لاقامتهم ولما كان المكث لا يقتضي التأبيد قال أبداً وهو ظرف دال على زمن غير متناه وانتصب ماكثين على الحال وذو الحال وهو الضمير في لهم والذين نسبوا الولد إلى الله تعالى بعض اليهود في عزير وبعض النصارى في المسيح وبعض العرب في الملائكة والضمير في به الظاهر أنه عائد على الولد الذي ادّعوه. قال المهدوي فتكون الجملة صفة للولد. قال ابن عطية وهذا معترض لأنه لا يصفه إلا القائل وهم ليس قصدهم أن يصفوه والصواب عندي أنه نفي مؤتنف أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك ولا موضع للجملة من الإعراب ويحتمل أن يعود على الله تعالى وهذا التأويل أذم لهم وأقضى في الجهل التام عليهم وهو قول الطبري انتهى. قيل والمعنى ما لهم بالله من علم فيتنزهوه عما لا يجوز عليه ويحتمل أن يعود على القول المفهوم من قالوا أي ما لهم بقولهم هذا من علم فالجملة في موضع الحال أي قالوا جاهلين من غير فكر ولا روية ولا نظر في ما يجوز ويمتنع. وقيل يعود على الاتخاذ المفهوم من اتخذ أي ما لهم بحكمة الاتخاذ من علم إذ لا يتخذه إلا من هو عاجز مقهور يحتاج إلى معين يشد به عضده وهذا مستحيل على الله. قال الزمخشري اتخاذ ولداً في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم (قلت) معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به انتهى. ولا لآبائهم معطوف على لهم وهم من تقدم من أسلافهم الذين ذهبوا إلى هذه المقالة السخيفة بل من قال ذلك إنما قاله عن جهل وتقليد وذكر الآباء لأن تلك المقالة قد أخذوها عنهم وتلقفوها منهم. وقرأ الجمهور كلمة بالنصب والظاهر انتصابها على التمييز وفاعل كبرت مضمر يعود على المقالة المفهومة من قوله قالوا اتخذ الله ولداً وفي ذلك معنى التعجب أي ما أكبرها كلمة والجملة بعدها صفة لها تفيد استعظام اجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان في القلوب ويحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به بل يصرف عنه الفكر فكيف بمثل هذا المنكر وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة. وقال ابن عطية وهذه المقالة هي قائمة في النفس معنى واحداً فيحسن أن تسمى كلمة وقال أيضاً وقرأ الجمهور بنصب الكلمة كما تقول نعم رجلا زيد وفسر بالكلمة ووصفها بالخروج من أفواههم فقال بعضها نصبها على التفسير على حد نصب قوله تعالى وساءت مرتفقاً. وقالت فرقة نصبها على الحال أي كبرت فريتهم ونحو هذا انتهى فعلى قوله كما تقول نعم رجلا زيد يكون المخصوص بالذم محذوفاً لأنه جعل تخرج صفة لكلمة والتقدير كبرت كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة التي فاهوا بها وهي مقالتهم اتخذ الله ولداً والضمير في كبرت ليس عائداً على ما قبله بل هو مضمر يفسره ما بعده وهو التمييز على مذهب البصريين ويجوز أن يكون المخصوص بالذم محذوفاً وتخرج صفة له أي كبرت كلمة تخرج من أفواههم. وقال أبو عبيدة نصب على التعجب أي أكبر بها كلمة أي من كلمة. وقرىء كبرت بسكون الباء وهي في لغة تميم. وقرأ الحسن وابن يعمر وابن محيصن والقواس عن ابن كثير بالرفع على الفاعلية والنصب أبلغ في المعنى

وأقوى وإن نافية أي ما يقولون وكذباً نعت لمصدر محذوف أي قولاً كذباً. فلعلك باخع لعل للترجي في المحبوب وللإشفاق في المحذور. وقال العسكري فيها هنا هي موضوعة موضع النهي يعني أن المعنى لا تبخع نفسك. وقيل وضعت موضع الاستفهام تقديره هل أنت باخع نفسك. وقال ابن عطية تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه أي لا تكن كذلك. وقال الزمخشري شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقته أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم انتهى وتكون لعل للاستفهام قول كوفي والذي يظهر أنها للإشفاق أشفق أن يبخع الرسول ﷺ نفسه لكونهم لم يؤمنوا وقوله على آثارهم استعارة فصيحة من حيث لهم إدبار وتباعد عن الإيمان وإعراض عن الشرع فكأنهم من فرط إدبارهم قد بعدوا فهو في إدبارهم يحزن عليهم ومعنى على آثارهم من بعدهم أي بعد يأسك من إيمانهم أو بعد موتهم على الكفر ويقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وقرىء باخع نفسك بالاضافة. وقرأ الجمهور باخع بالتنوين نفسك بالنصب. قال الزمخشري على الأصل يعني أن اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل فالأصل أن يعمل وقد أشار إلى ذلك سيبويه في كتابه. وقال الكسائي العمل والإضافة سواءوقد ذهبنا إلى أن الإضافة أحسن من العمل بما قررناه في ما وضعنا في علم النحو. وقرىء إن لم يؤمنوا بكسر الميم وفتحها فمن كسر. فقال الزمخشري هو يعني اسم الفاعل للاستقبال ومن فتح فللمضي يعني حالة الإضافة أي لأن لم يؤمنوا والإشارة بهذا الحديث إلى القرآن قال تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً. وأسفاً قال مجاهد جزعاً. وقال قتادة غضباً وعنه أيضاً حزناً. وقال السدّى ندماً وتحسراً. وقال الزجاج الأسف المبالغة في الحزن والغضب. وقال منذر بن سعيد الأسف هنا الحزن لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسف ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه كان غضباً كقوله تعالى ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغضبونا. قال ابن عطية وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطرد انتهى. وانتصاب أسفاً على أنه مفعول من أجله أو على أنه مصدر في موضع الحال وارتباط قوله إنا جعلنا الآية بما قبلها هو على سبيل التسلية للرسول ﷺ لأنه تعالى أخبر أنه خلق ما على الأرض من الزينة للابتلاء والاختبار أي الناس أحسن عملاً فليسوا على نمط واحد في الاستقامة واتباع الرسل بل لا بد أن يكون فيهم من هو أحسن عملاً ومن هو أسوأ عملاً فلا تغتم وتحزن على من فضلت عليه بأنه يكون أسوأ عملاً ومع كونهم يكفرون بي لا أقطع عنهم موادّ هذه النعم التي خلقتها وجعلنا هنا بمعنى خلقنا والظاهر أن ما يراد بها غير العاقل وأنه يراد به العموم فيما لا يعقل.

ابن كثير ج ٣ ص ٧١ ـ ٧٢

وقوله ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه. وقيل على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة كما تقول أكرم بزيد رجلاً قاله بعض البصريين، وقرأ ذلك بعض قراء مكة كبرت كلمة كما يقال عظم قولك وكبر شأنك، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر فإن هذا تبشيع لمقالتهم واستعظام لإفكهم ولهذا قال ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ وقد ذكر محمد بن إسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة. . . عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته

وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، قال فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبرهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ «أخبركم غداً عما سألتم عنه» ولم يستثن فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ . . .

يقال تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى ﴿ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨] وقال ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: ٨٨] وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] باخع أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿ أَسَفًا﴾ يقول لا تهلك نفسك أسفاً، قال قتادة: قاتل نفسك غضباً وحزناً عليهم، وقال مجاهد جزعاً والمعنى متقارب أي لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

الشوكاني ج ٣ ص ٢٦٨ ـ ٢٧١

﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض كفار قريش، القائلون بأن الملائكة بنات الله، فذكر سبحانه أوّلاً قضية كلية، وهي إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية. فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ﴾ أي بالولد، أو اتخاذ الله إياه، ومن مزيدة لتأكيد النفي، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة، والمعنى: ما لهم بذلك علم أصلاً ﴿ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ علم، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعاً ﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ انتصاب كلمة على التميز، وقرىء بالرفع على الفاعلية. قال الفراء: كبرت تلك الكلمة كلمة. وقال الزجاج: كبرت مقالتهم كلمةِ، والمراد بهذه الكلمة هي قولهم اتخذ الله ولداً. ثم وصف الكلمة بقوله ﴿ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ﴾ وفائدة هذا الوصف استعظام اجترائهم على التفوّه بها، والخارج من الفم وإن كان هو مجرد الهوى. لكن لما كانت الحروف والأصوات كيفيات قائمة بالهوى أسند إلى الحال ما هو من شأن المحل. ثم زاد في تقبيح ما وقع منهم فقال ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً لا مجال للصدق فيه بحال. ثم سلى رسول ﷺ بقوله ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ قال الأخفش والفراء: البخع الجهد. وقال الكسائي: بخعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة، وبخع

الرجل نفسه إذا نهكها. وقال أبو عبيدة: معناه مهلك نفسك، ومنه قول ذي الرمة:

* ألا أيها ذا الباخع الوجد نفسه *

فيكون المعنى على هذه الأقوال لعلَّك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي القرآن وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرىء بفتح أن: أي لأن لم يؤمنوا ﴿أَسَفًا﴾ أي غيظاً وحزناً وهو مفعول له أو مصدر في موضع الحال...

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ قال: هم اليهود والنصارى وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية ابن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحتري في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل الله سبحانه ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ يقول: قاتل نفسك وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدّي مثله. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿أَسَفًا﴾ قال: وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَسَفًا﴾ قال: جزعاً. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَسَفًا﴾ قال: حزناً.

الآلوسي ج ١٥ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٦

وتكرير الإنذار بقوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ متعلقاً بفرقة خاصة ممن عمه الإنذار السابق من مستحقي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم كما ينيء عنه ما بعد أي وينذر من بين هؤلاء الكفرة المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم العرب القائلون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله سبحانه والنصارى القائلون المسيح ابن الله عز وجل، وترك إجراء الموصول على الموصوف كما في قوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩] الخ للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على أقبح الوجوه؛ وإيثار صيغة الماضي في الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق، وجعل بعضهم المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة، وفي الآية صنعة الاحتباك حيث حذف من الأول ما ذكر فيما بعد وهو المنذر وحذف مما بعد ما ذكر في الأول وهو المنذر به. وتعقب بأنه يؤدي إلى خروج سائر أصناف الكفر عن الإنذار والوعيد.

وأجيب بأنه يعلم إنذار سائر الأصناف ودخولهم في الوعيد من باب الأولى لأن القول بالتبني وإن كبر كلمة دون الإشراك وفيه نظر، وقدر ابن عطية العالم وأبو البقاء العباد فيعم المؤمنين أيضاً، وتعقب بأن التعميم يقتضي حمل الإنذار على معنى مجرد الإخبار بالأمر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما في قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: ٢] وهو يفضي إلى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة فتأمل.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي باتخاذه سبحانه وتعالى ولداً ﴿مِنۡ عِلۡمٍ﴾ مرفوع المحل على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف، ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم في مقالهم أي ما لهم بذلك شيء من العلم أصلاً لا لإخلالهم بطريق العلم مع تحقق المعلوم أو إمكانه بل لاستحالته في نفسه ومعها لا يستقيم تعلق العلم، واستظهر كون ضمير (به) عائداً على الولد وعدم العلم وكذا حال الجملة على ما سمعت، وزعم المهدوي أن الجملة على هذا صفة لولداً وليس بشيء، وجوز أن يعود على القول المفهوم من ﴿قَالُواْ﴾ أي ليس قولهم ذلك ناشئاً عن علم وتذكر ونظر فيما يجوز عليه تعالى وما يمتنع، وقال الطبري: هو عائد على الله تعالى على معنى ليس لهم علم بما يجوز عليه تعالى وما يمتنع ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ الذين قالوا مثل ذلك ناسبين التبني إليه عز

وجل، والتعرض لنفي العلم عنهم لأنهم قدوة هؤلاء ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليق بكبريائه جل وعلا، وكبر وكذا كل ما كان على وزن فعل موضوعاً على الضم كظرف أو محولاً إليه من فعل أو فعل ذهب لأخفش. والمبرد إلى إلحاقه بباب التعجب فالفاعل هنا ضمير يرجع إلى قوله تعالى: ﴿ اتَّخَذَ ﴾ الخ بتأويل المقالة، و ﴿ كَلِمَةً ﴾ نصب على التمييز وكأنه قيل ما أكبرها كلمة وقوله تعالى ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ صفة ﴿ كَلِمَةً ﴾ تفيد استعظام اجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به بل يصرف عنه الفكر فكيف بمثل هذا المنكر. وذهب الفارسي وأكثر النحاة إلى إلحاقه بباب نعم وبئس فيثبت له جميع أحكامه ككون فاعله معرفاً بأل أو مضافاً إلى معرف بها أو ضميراً مفسراً بالتمييز، ومن هنا جوّز أن يكون الفاعل هنا ضمير ﴿ كَلِمَةً ﴾ وهي أيضاً تمييز والجملة صفتها ولا ضير في وصف التمييز في باب نعم وبئس، وجوّز أبو حيان وغيره أن تكون صفة لمحذوف هو المخصوص بالذم أي كبرت كلمة كلمة خارجة من أفواههم، وظاهر كلام الأخفش تغاير المذهبين. وفي التسهيل أنه من باب نعم وبئس وفيه معنى التعجب. والمراد به هنا تعظيم الأمر في قلوب السامعين. وهذا ظاهر في أنه لا تغاير بينهما وإليه يميل كلام بعض الأئمة. وقيل نصبت على الحال ولا يخفى حاله. وتسمية ذلك كلمة على حد تسمية القصيدة بها. وقرىء (كبرت) بسكون الباء وهي لغة تميم، وجاء في نحو هذا الفعل ضم العين وتسكينها ونقل حركتها إلى الفاء وقرأ الحسن. وابن يعمر وابن محيصن. والقواس عن ابن كثير ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ بالرفع على الفاعلية والنصب أبلغ وأوكد واستدل النظام على أن الكلام جسم بهذه الآية لوصفه فيها بالخروج الذي هو من خواص الأجسام. وأجيب بأن الخارج حقيقة هو الهواء الحامل له وإسناده إلى الكلام الذي هو كيفية مجاز وتعقب بأن النظام القائل بجسمية الكلام يقول هو الهواء المكيف لا الكيفية.

واستدلاله على ذلك مبني على أن الأصل هو الحقيقة إلا أن الخلاف لفظي لا ثمرة فيه ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ أي ما يقولون في ذلك الشأن إلا قولاً كذباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً والضمير أن لهم ولآبائهم ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ أي قاتل ﴿ نَّفْسَكَ ﴾ وفي معناه ما في صحيح البخاري مهلك والأول مروي عن مجاهد. والسدي. وابن جبير. وابن عباس. وأنشد لابن الأزرق إذ سأله قول لبيد بن ربيعة:

لعلك يوماً إن فقدت مزارها
على بعده يوماً لنفسك باخع

وفي البحر عن الليث بخع الرجل نفسه بخعاً وبخوعاً قتلها من شدة الوجد وأنشد قول الفرزدق:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه
لشيء نحته عن يديه المقادر

وهو من بخع الأرض بالزراعة أي جعلها ضعيفة بسبب متابعة الزراعة كما قال الكسائي، وذكر الزمخشري أن البخع أن يبلغ الذبح البخاع بالباء وهو عرق مستبطن القفا، وقد رده ابن الأثير وغيره بأنه لم يوجد في كتب اللغة والتشريح لكن الزمخشري ثقة في هذا الباب واسع الاطلاع، وقرىء ﴿ بَاخِعُ نَّفْسَكَ ﴾ بالإضافة وهي خلاف الأصل في اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل عند الزمخشري، وأشار إليه سيبويه في الكتاب.

وقال الكسائي: العمل والإضافة سواء، وزعم أبو حيان أن الإضافة أحسن من العمل ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ أي من بعدهم. يعني من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عتبة ابن ربيعة. وشيبة بن ربيعة. وأبا جهل بن هشام. والنضر بن الحرث. وأمية بن خلف. والعاصي بن وائل. والأسود بن المطلب. وأبا البختري في نفر من قريش اجتمعوا. وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ ﴾ الخ، ومنه يعلم أن ما ذكرنا أوفق بسبب النزول من كون المراد من بعد موتهم على الكفر.

﴿ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾ الجليل الشأن، وهو

القرآن المعبر عنه في صدر السورة بالكتاب، ووصفه بذلك لو سلم دلالته على الحدوث لا يضر الأشاعرة وإضرابهم القائلين: بأن الألفاظ حادثة، وإن شرطية، والجملة بعدها فعل الشرط، والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه عند الجمهور، وقيل الجواب فلعلك الخ المذكور، وهو مقدم لفظاً مؤخر معنى، والفاء فيه فاء الجواب، وقرىء ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ بفتح همزة أن على تقدير الجار أي لأن، وهو متعلق بباخع على أنه علة له. وزعم غير واحد أنه لا يجوز أعماله على هذا إذ هو اسم فاعل وعمله مشروط بكونه للحال أو الاستقبال، ولا يعمل وهو للمضي، وإن الشرطية تقلب الماضي بواسطة ﴿لَمْ﴾ إلى الاستقبال بخلاف أن المصدرية فإنها تدخل على الماضي الباقي على مضيه إلا إذا حمل على حكاية الحال الماضية لاستحضار الصورة للغرابة.

وتعقبه بعض الأجلة بأنه لا يلزم من مضى ما كان علة لشيء مضيه، فكم من حزن مستقبل على أمر ماضٍ سواء استمر أولاً فإذا استمر فهو أولى لأنه أشد نكاية فلا حاجة إلى الحمل على حكاية الحال. ووجه ذلك في الكشف بأنه إذا كانت علة البخع عدم الإيمان فإن كانت العلة قد تمت فالمعلول كذلك ضرورة تحقق المعلول عند العلة التامة، وإن كانت بعد فكمثل ضرورة أنه لا يتحقق بدون تمامها، وتعقب بأنه غير مسلم، لأن هذه ليست علة تامة حقيقية حتى يلزم ما ذكر، وإنما هي منشأ وباعث فلا يضر تقدمها، وقيل إنه تفوت المبالغة حينئذ في وجده ﷺ على توليهم لعدم كون البخع عقبه بل بعده بمدة بخلاف ما إذا كان للحكاية، وتعقب أيضاً بأنه لا وجه له بل المبالغة في هذا أقوى لأنه إذا صدر منه لأمر مضى فكيف لو استمر أو تجدد؟ ولعل في الآية ما يترجح له البقاء على الاستقبال فتدبر، وانتصاب قوله تعالى ﴿أَسَفًا﴾ بباخع على أنه مفعول من أجله وجوّز أن يكون حالاً من الضمير فيه بتأويل متأسفاً لأن الأصل في الحال الاشتقاق وأن ينتصب على أنه مصدر فعل مقدر أي تأسف أسفاً، والأسف على ما نقل عن الزجاج المبالغة في الحزن والغضب.

وقال الراغب: الأسف الحزن والغضب معاًوقد يقال لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان على من دونه انتشر فصار غضباًومتى كان على ما فوقه انقبض فصار حزناً، ولذلك سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الحزن والغضب فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً، وبهذا النظر قال الشاعر:

فحزن كل أخى حزن أخو الغضب.

وإلى كون الأسف أعم من الحزن والغضب وكون الحزن على من لا يملك ولا هو تحت يد الآسف والغضب على من هو في قبضته وملكه ذهب منذر بن سعد وفسر الأسف هنا بالحزن بخلافه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] وإذا استعمل الأسف مع الغضب يراد به الحزن على ما قيل في قوله تعالى ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] وجعل كل منهما فيه بالنسبة إلى بعض من القوم، وعن قتادة تفسير الأسف هنا بالغضب، وفي رواية أخرى بالحزن، وفي صحيح البخاري تفسيره بالندم. وعن مجاهد تفسيره بالجزع، وأهل الحزن أكثر، ولعل للترجي وهو الطمع في الوقوع أوالإشفاق منه، وهي هنا استعارة أي وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم.

وقال العسكري: هي هنا موضوعة موضع النهي كأنه قيل لا تبخع نفسك، وقيل موضع الاستفهام، وجعله ابن عطية إنكارياً على معنى لا تكن كذلك، والقول بمجيء لعلَّ للاستفهام قول كوفي، والذي يظهر أنها هنا للإشفاق الذي يقصد به التسلي والحث على ترك التحزن والتأسف، ويمكن أن يكون مراد العسكري ذلك، وفي الآية عند غير واحد استعارة تمثيلية وذلك أنه مثل حاله ﷺ في شدة الوجد على إعراض القوم وتوليهم عن الإيمان بالقرآن وكمال الحزن عليهم بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه إثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته تأسفاً على مفارقتهم وتلهفاً على مهاجرتهم ثم قيل ما قيل، وهو أولى من اعتبار الاستعارة المفردة التبعية في الأطراف.

وجوّز أن تكون من باب التشبيه لذكر طرفيه وهما النبي ﷺ وباخع بأن يشبه عليه الصلاة والسلام لشدة حرصه على الأمر بمن يريد قتل نفسه لفوات أمر وهو كما ترى.

سيد قطب ج ٤ ص ٢٢٥٧ ـ ٢٢٥٨

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوي المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان. وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله.

ففي مطلع السورة: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا. مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْۚ﴾.

والفتية أصحاب الكهف يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥] وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها الله: ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩].

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢].

وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ﴾ [الكهف: ٨٢] فيكل الأمر فيها لله...

٢١

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا . ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا . فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا . يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

(سورة مريم، رقم ١٩، الآية ١٦ ـ ٣٦)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٦	ص ٤٥ ـ ٦٤	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ١٧٧ ـ ١٩١
الزمخشري	ج ٢	ص ٥٠٤ ـ ٥٠٩	ابن كثير	ج ٣	ص ١١٤ ـ ١٢١
الرازي	ج ٢١	ص ١٩٥ ـ ٢٢٠	الجلالان		ص ٣٩٧ ـ ٣٩٩
الطبرسي	ج ١٦	ص ٢٠ ـ ٣٩	الشوكاني	ج ٣	ص ٣٢٧ ـ ٣٣٥
ابن عربي	ج ٢	ص ١١ ـ ١٦	الآلوسي	ج ١٦	ص ٧٤ ـ ٩٢
البيضاوي	ج ٤	ص ٤ ـ ٧	القاسمي	ج ١١	ص ١١٥ ـ ١٢٥
الخازن	ج ٤	ص ٢٤١ ـ ٢٤٦	الطباطبائي	ج ١٤	ص ٣٢ ـ ٥٥
البغوي	ج ٣	ص ١٥٩	جوهري	ج ١٠	ص ٧ ـ ٩
الماوردي	ج ٣	ص ٣٦١	المراغي	ج ١٦	ص ٤٠ ـ ٥١
القرطبي	ج ١١	ص ٨٩ ـ ١٠٨	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٢٩٨ ـ ٢٣٠٩

الطبري ج ١٦ ص ٤٥ ـ ٦٤

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا ﴾ ـ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ واذكر يا محمد في كتاب الله الذي أنزله عليك بالحق مريم ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم وهو افتعل من النبذ والنبذ الطرح وقد بينا ذلك بشواهد فيما مضى قبل. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك. حدثنا بشر. . . عن

قتادة في قوله واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت أي انفردت من أهلها حدثني سليمان بن عبدالجبار. . . عن ابن عباس إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً قال خرجت مكاناً شرقياً حدثنا موسى. . . عن السديّ قال خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها وهو قوله فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. في شرقي المحراب وقوله مكاناً شرقياً يقول فتنحت واعتزلت من أهلها في موضع قبل مشرق الشمس دون مغربها كما حدثنا الحسن. . . عن قتادة في قوله مكاناً شرقياً قال من قبل المشرق. حدثني اسحق بن شاهين. . . عن ابن عباس قال إني لأعلم خلق الله لأيّ شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذوا ميلاد عيسى قبله. حدثنا ابن المثنى. . . عن ابن عباس مثله. حدثني سليمان بن عبد الجبار. . . عن ابن عباس قال إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج لله وما صرفهم عنهما إلا قيل ربك فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس. حدثنا بشر. . . عن قتادة إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً قال شاسعاً متنحياً وقيل إنها إنما صارت بمكان يلي مشرق الشمس لأن ما يلي المشرق عندهم كان خيراً مما يلي المغرب وكذلك ذلك فيما ذكر عند العرب وقوله فاتخذت من دونهم حجاباً يقول فاتخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس وذكر عن ابن عباس أنها صارت بمكان يلي المشرق لأن الله أظلها بالشمس وجعل لها منها حجاباً. حدثني محمد بن سعد. . . عن ابن عباس قوله انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً قال مكاناً أظلتها الشمس أن يراها أحد منهم وقال غيره في ذلك ما حدثنا موسى. . . عن السدي فاتخذت من دونهم حجاباً من الجدران وقوله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يقول تعالى ذكره «فأرسلنا إليها حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً واتخذت من دونهم حجاباً جبريل» وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك. حدثنا بشر. . . عن قتادة قوله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قال أرسل إليها فيما ذكر لنا جبريل. حدثنا ابن حميد. . . عن وهب بن منبه قال وجدت عندها جبريل قد مثله الله بشراً سويا. .

حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قوله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قال جبريل. حدثني محمد بن سهل. . . عن وهب بن منبه قال أرسل الله جبريل إلى مريم فمثل لها بشراً سوياً. حدثنا موسى. . . عن السدي قال فلما طهرت يعني مريم من حيضها إذا هي برجل معها وهو قوله ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فتشبه لها في صورة آدمي سويّ الخلق منهم يعني في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق. القول في تأويل قوله تعالى ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فخافت مريم رسولنا إذ تمثل ﴿لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وظنته رجلاً يريدها على نفسها. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قوله ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ قال خشيت أن يكون إنما يريدها على نفسها. حدثنا موسى. . . عن السدي ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فلما رأته فزعت منه وقالت ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فقالت إني أعوذ أيها الرجل بالرحمن منك تقول أستجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرمه عليك إن كنت ذا تقوى له تتقي محارمه وتجتنب معاصيه لأن من كان لله تقياً فإنه يجتنب ذلك ولو وجه ذلك إلى أنها عنت ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ إن كنت تتقي الله في استجارتي واستعاذتي به منك كان وجهاً كما حدثنا ابن حميد. . . عن وهب بن منبه قالت ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ ولا ترى إلا أنه رجل من بنى آدم. حدثنا أبو كريب. . . عن ابن زيد وذكر قصص مريم فقال قد علمت أن التقي ذو نهية حين قالت ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يقول تعالى ذكره فقال لها روحنا ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يا مريم أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق غير أبي عمر ولأهب لك بمعنى إنما أنا رسول ربك يقول أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ على الحكاية وقرأ أبو عمرو بن العلاء ليهب لك غلاماً زكياً بمعنى ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أرسلني إليك ليهب الله لك غلاماً زكياً. قال أبو جعفر والصواب

من القراءة في ذلك ما عليه قراء الأمصار وهو لأهب لك بالألف دون الياء لأن ذلك كذلك في مصاحف المسلمين وعليه قراءة قديمهم وحديثهم غير أبي عمرو وغير خلافهم فيما أجمعوا عليه ولا سائغ لأحد خلاف مصاحفهم والغلام الزكي هو الطاهر من الذنوب وكذلك تقول العرب غلام زاك وزكي وعال وعليّ. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يقول تعالى ذكره قالت مريم لجبريل أنى يكون لي غلام من أي وجه يكون لي غلام أمن قبل زوج أتزوج فأرزقه منه أم يبتدىء الله في خلقه ابتداء ولم يمسسني بشر من ولد آدم بنكاح حلال ولم أك إذ لم يمسسني منهم أحد على وجه الحلال بغياً بغيت ففعلت ذلك من الوجه الحرام فحملته من زنا كما حدثنا موسى... عن السديّ ولم أكُ بغياً يقول زانية قال كذلك ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ يقول تعالى ذكره قال لها جبريل هكذا الأمر كما تصفين من أنك لم يمسسك بشر ولم تكوني بغياً ولكن ربك قال ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي خلق الغلام الذي قلت أن أهبه لك عليّ هين لا يتعذر عليّ خلقه وهبته لك من غير فحل يفتحلك وقوله ولنجعله آية للناس يقول وكي نجعل الغلام الذي نهبه لك علامة وحجة على خلقي أهبه لك. ورحمة منا يقول ورحمة منا لك ولمن آمن به وصدقه أخلقه منك ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ يقول وكان خلقه منك أمراً قد قضاه الله ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائن منك كما حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي أن الله قد عزم على ذلك فليس منه بد. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ وفي هذا الكلام متروك ترك ذكره استغناء بدلالة ما ذكر منه عنه فنفخنا فيها من روحنا بغلام ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ وبذلك جاء تأويل أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سهل... قال سمعت وهباً قال لما أرسل الله جبريل إلى مريم تمثل ﴿ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ فقالت له ﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه اليماني قال لما قال ذلك يعني لما قال جبريل ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ الآية استسلمت لأمر الله فنفخ في جيبها ثم انصرف عنها. حدثنا موسى... عن السدي قال طرحت عليها جلبابها لما قال جبريل ذلك لها فأخذ جبريل بكميها فنفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قدامها فدخلت النفخة صدرها فحملت فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها فلما فتحت لها الباب التزمتها فقالت امرأة زكريا أشعرت أني حبلى قالت مريم أشعرت أيضاً أني حبلى قالت امرأة زكريا إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله مصدقاً بكلمة من الله. حدثنا القاسم... قال ابن جريج يقولون إنه إنما نفخ في جيب درعها وكمها وقوله ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ يقول فاعتزلت بالذي حملته وهو عيسى وتنحّت به عن الناس مكاناً قصياً يقول مكاناً نائياً قاصياً عن الناس يقال هو بمكان قاص وقصيّ بمعنى واحد كما قال الراجز:

لتقعدنّ مقعد القصيّ
منى ذي القاذورة المقلى

يقال منه قصا المكان يقصو قصواً إذا تباعد وأقصيت الشيء إذا أبعدته وأخرته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ قال مكاناً نائياً، حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله مكاناً قصياً قال قاصياً. حدثنا عن مجاهد مثله حدثنا موسى... عن السديّ قال لما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب الشرقي منه فأتت أقصاه وقوله ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ يقول تعالى ذكره فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة ثم قيل لما أسقطت الباءة منه أجاءها كما يقال أتيتك بزيد فإذا حذفت الباء قيل أتيتك زيداً قال جل ثناؤه ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ [الكهف: ٩٦] ائتوني بزبر الحديد ولكن الألف مدّت لما حذفت الباء وكما قالوا خرجت به وأخرجته وذهبت به

وأذهبته وإنما هو أفعل من المجيء كما يقال جاء هو وأجأته أنا أي جئت به ومثل من أمثال العرب «شرَّ ما أجاءني إلى مخة عرقوب» وأشاء ويقال شر ما يجيئك ويشيئك إلى ذلك ومنه قول زهير:

وجـــار ســـار معتمـــداً إليكـــم

أجـــاءتـــه المخـــافـــة والـــرجـــاء

يعني جاء به وأجاءه إلينا وأشاءك من لغة تميم وأجاءك من لغة أهل العالية وإنما تأوّل من تأوّل ذلك بمعنى ألجأها لأن المخاض لما جاءها إلى جذع النخلة كان قد ألجأها إليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله فأجاءها المخاض قال المخاض ألجأها حدثنا القاسم... عن مجاهد قال ألجأها المخاض قال ابن جريج وقال ابن عباس ألجأها المخاض إلى جذع النخلة. حدثنا موسى... عن السدي فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة يقول ألجأها إلى جذع النخلة. حدثنا بشر... عن قتادة قوله فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قال اضطرها إلى جذع النخلة واختلفوا في أيّ المكان الذي انتبذت مريم بعيسى لوضعه وأجاءها إليها المخاض فقال بعضهم كان ذلك في أدنى أرض مصر وآخر أرض الشام وذلك أنها هربت من قومها لما حملت فتوجهت نحو مصر هاربة منهم ذكر من قال ذلك. حدثنا محمد بن سهل... عن وهب بن منبه يقول لما اشتملت مريم على الحمل كان معها قرابة لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم فكانت مريم ويوسف يخدمان في ذلك المسجد في ذلك الزمان وكان لخدمته فضل عظيم فرغبا في ذلك فكانا يليان معالجته بأنفسهما تحبيره وكناسته وطهوره وكل عمل يعمل فيه وكان لا يعمل من أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً وعبادة منهما فكان أول من أنكر حمل مريم صاحبها يوسف فلما رأى الذي بها استفظعه وعظم عليه وفظع به فلم يدرِ على ماذا يضع أمرها فإذا أراد يوسف أن يتهمها ذكر صلاحها وبراءتها وأنها لم تغب عنه ساعة قط وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر عليها فلما اشتد عليه ذلك كلمها فكان أول كلامه إياها أن قال لها إنه قد حدث في نفسي من أمرك أمر قد خشيته وقد حرصت على أن أميته وأكتمه في نفسي فغلبني ذلك فرأيت الكلام فيه أشفى لصدري قالت فقل قولاً جميلاً قال ما كنت لأقول لك إلا ذلك فحدثيني هل ينبت زرع بغير بذر قالت نعم قال فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها قالت نعم قال فهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم أن الله تبارك وتعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر يومئذ إنما صار من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر أو لم تعلم أن الله بقدرته أنبت الشجر بغير غيث وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجرة بعدما خلق كل واحد منهما واحدة أم تقول لن يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته قال يوسف لها لا أقول هذا ولكني أعلم أن الله تبارك وتعالى بقدرته على ما يشاء يقول لذلك كن فيكون قالت مريم أولم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وامرأته من غير أنثى ولا ذكر قال بلى فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله تبارك وتعالى وأنه لا يسعه أن يسألها عنه وذلك لما رأى من كتمانها لذلك ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه وذلك لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها ونتوء بطنها وضعف قوتها ودأب نظرها ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك فلما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك فإنهم إن ظفروا بك عيروك وقتلوا ولدك فأفضت ذلك إلى أختها وأختها حينئذ حبلى وقد بشرت بيحيى فلما التقيا وجدت أم يحيى ما في بطنها خر لوجهه ساجداً معترفاً لعيسى فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له ليس بينها حين ركبت وبين الإكاف شيء فانطلق يوسف بها حتى إذا كان متاخماً لأرض مصر في منقطع بلاد قومها أدرك مريم النفاس ألجأها إلى آريّ حمار يعني مذود الحمار وأصل نخلة وذلك في زمان أحسبه برداً أو حراً «الشك من أبي جعفر» فاشتد على مريم المخاض فلما وجدت منه شدة التجأت إلى النخلة فاحتضنتها واحتوشتها الملائكة قاموا صفوفاً محدقين بها.

وقد روي عن وهب بن منبه قول آخر غير هذا وذلك ما حدثنا به ابن حميد... عن وهب بن منبه قال لما حضر ولادها يعني مريم وجدت ما تجد المرأة من الطلق خرجت من المدينة مغربة من إيلياء حتى تدركها الولادة إلى قرية من إيلياء على ستة أميال يقال لها بيت لحم فأجاءها المخاض إلى أصل نخلة إليها مذود بقرة تحتها ربيع من الماء فوضعته عندها. وقال آخرون بل خرجت لما حضر وضعها ما في بطنها إلى جانب المحراب الشرقي منه فأتت أقصاه فألجأها المخاض إلى جذع النخلة وذلك قول السدي وقد ذكرت الرواية به قبل. حدثني زكريا بن يحيى بن أبي زائدة... عن المغيرة بن عثمان قال سمعت ابن عباس يقول ما هي إلا أن حملت فوضعت. حدثنا القاسم... عن المغيرة بن عثمان بن عبدالله أنه سمع ابن عباس يقول ليس إلا أن حملت فولدت وقوله يا ليتني مت قبل هذا ذكر أنها قالت ذلك في حال الطلق استحياء من الناس كما حدثنا موسى... عن السديّ قال قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ تقول يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ شيئاً نسي فترك طلبه كخرق الحيض التي إذا ألقيت وطرحت لم تطلق ولم تذكر وكذلك كل شيء نسي وترك ولم يطلب فهو نسي ونسي بفتح النون وكسرها هما لغتان معروفتان من لغات العرب بمعنى واحد مثل الوتر والوتر والجسر والجسر وبأيتهما قرأ القارىء فمصيب عندنا وبالكسر قرأت عامة قراء الحجاز والمدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة وبالفتح قرأه أهل الكوفة ومنه قول الشاعر:

كأن لها في الأرض نسياً تقصه
إذا ما غدت وإن تحدثك تبلت

ويعني بقوله تقصه تطلبه لأنها كانت نسيته حتى ضاع ثم ذكرته فطلبته يعني بقوله تبلت تحسن وتصدق ولو وجه النسي إلى المصدر من النسيان كان صواباً وذلك أن العرب فيما ذكر عنها تقول نسيته نسياناً ونسياً كما قال بعضهم من طاعة الرب وعصى الشيطان يعني وعصيان وكما تقول أتيته إتياناً وأتيا كما قال الشاعر:

أتي الفواحش فيهم معروفة
ويرون فعل المكرمات حراما

وقوله ﴿مَّنسِيّٗا﴾ مفعول من نسيت الشيء كأنها قالت ليتني كنت الشيء الذي ألقى فترك ونسي. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم... عن عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ لم أُخلق ولم أكُ شيئاً حدثنا موسى... عن السدي ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ يقول نسياً نسي ذكري ومنسياً تقول نسي أثري فلا يرى لي أثر ولا عين. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر. حدثنا الحسن... عن قتادة قوله ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ قال لا أعرف ولا يدري من أنا حدثنا القاسم... عن الربيع بن أنس ﴿نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ قال هو السقط. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ لم أكن في الأرض شيئاً قط. القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا. وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ اختلف القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراءة الحجاز والعراق فناداها من تحتها بمعنى فناداها جبرائيل من بين يديها على اختلاف منهم في تأويله فمن متأوّل منهم إذا قرأه من تحتها كذلك ومن متأوّل أنه عيسى وأنه ناداها من تحتها بعدما ولدته وقرأ ذلك بعض قراء أهل الكوفة والبصرة فناداها من تحتها بفتح التاءين من تحت بمعنى فناداها الذي تحتها على أن الذي تحتها عيسى وأنه الذي نادى أمه ذكر من قال الذي ناداها من تحتها الملك حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قرأ فناداها من تحتها يعني جبرائيل حدثني عبدالله بن أحمد بن يونس... عن عمرو بن ميمون الأودي قال الذي ناداها الملك حدثنا ابن بشّار عن علقمة أنه قرأ فخاطبها من تحتها. حدثنا أبو هشام الرفاعي... عن علقمة أنه قرأ فخاطبها من تحتها. حدثنا الرفاعي... عن علقمة أنه قرأها كذلك. حدثنا ابن بشار... عن الضحاك فناداها

من تحتها قال جبرائيل. حدثنا ابن بشار... عن الضحاك مثله حدثنا بشر... عن قتادة ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ أي من تحت النخلة. حدثنا موسى... عن السدي فناداها جبرائيل من تحتها أن لا تحزني. حدثنا الحسن... عن قتادة في قوله ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قال الملك. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ يعني جبرائيل كان أسفل منها. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قال ناداها جبرائيل ولم يتكلم عيسى حتى أتت قومها. ذكر من قال ناداها عيسى ﷺ. حدثنا محمد بن بشار... عن مجاهد قوله ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قال عيسى ابن مريم. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد مثله. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد مثله. حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. حدثنا بشر... عن الحسن ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ ابنها. حدثنا الحسن... عن قتادة قال قال الحسن هو ابنها. حدثنا ابن حميد... عن وهب ابن منبه فناداها عيسى من تحتها أن لا تحزني. حدثني أبو حميد أحمد بن المغيرة الحمصي... عن سعيد بن جبير قوله ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قال عيسى أما تسمع الله يقول ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ [مريم: ٢٩] حدثني يونس... عن ابن زيد ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ قال عيسى ناداها أن ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ حدثت عن عبدالله بن أبي جعفر... عن أبيّ بن كعب قال الذي خاطبها هو الذي حملته في جوفها ودخل من فيها. قال أبو جعفر وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال الذي ناداها ابنها عيسى وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل فرده على الذي هو أقرب إليه أولى من ردّه على الذي هو أبعد منه ألا ترى أنه في سياق قوله ﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ يعني به فحملت عيسى فانتبذت به ثم قيل فناداها نسقاً على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه ولعلة أخرى وهي قوله ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ ولم تشر إليه إن شاء الله إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ وما أخبر الله عنه أنه قال لها أشيري للقوم إليه ولو كان ذلك قولاً من جبرائيل لكان خليقاً أن يكون في ظاهر الخبر مبيناً أن عيسى سينطق ويحتج عنها للقوم وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله فإذا كان ذلك هو الصواب من التأويل الذي بينا فبين أن كلتا القراءتين أعني ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ بالكسر ومن تحتها بالفتح صواب وذلك أنه إذا قرئ بالكسر كان في قوله فناداها ذكر من عيسى. وإذا قرئ من تحتها بالفتح كان الفعل لمن وهو عيسى. فتأويل الكلام إذا فناداها المولود من تحتها أن لا تحزني يا أمه ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾. كما حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ قالت وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج فأقول من زوج ولا مملوكة فأقول من سيدي أيّ شيء عذري عند الناس ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ فقال لها عيسى أنا أكفيك الكلام. واختلف أهل التأويل في المعنيّ بالسريّ في هذا الموضع فقال بعضهم عني به النهر الصغير ذكر من قال ذلك حدثنا ابن بشار... عن البراء بن عازب ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ قال الجدول حدثنا ابن بشار... عن أبي إسحاق قال سمعت البراء يقول في هذه الآية ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾. قال الجدول حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ وهو نهر عيسى. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ قال السري النهر الذي كان تحت مريم حين ولدته كان يجري يسمى سرياً. حدثني أبو حصين... عن عمرو بن ميمون الأودي قال في هذه الآية ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ قال السري نهر يشرب منه. حدثنا يعقوب وأبو كريب... عن عمرو بن ميمون في قوله ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ قال هو الجدول. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد ﴿سَرِيّٗا﴾ قال نهر بالسريانية. حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله قال ابن جريج نهر إلى جنبها. حدثنا محمد بن بشار... عن الحسن في قوله ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ قال كان سرياً فقال حميد بن عبد الرحمن إن السري الجدول فقال غلبتنا عليك الأمراء حدثنا القاسم... عن سعيد بن جبير ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ

﴿سَرِيًّا﴾ قال هو الجدول النهر الصغير وهو بالنبطية سريّ.
حدثني أبو حميد الحمصي... عن ثابت بن عجلان قال سألت سعيد بن جبير عن السري قال نهر. حدثنا أبو كريب... عن إبراهيم قال النهر الصغير. حدثني يعقوب... عن إبراهيم أنه قال هو النهر الصغير يعني الجدول، يعني قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

- حدثنا ابن وكيع... عن الضحاك، قال: جدول صغير بالسريانية.

- حُدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله ﴿تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ الجدول الصغير من الأنهار.

- حدثنا بشر... عن قتادة ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ والسريّ: هو الجدول، تسميه أهل الحجاز.

- حدثنا الحسن... عن معمر، في قوله ﴿سَرِيًّا﴾ قال: هو جدول.

- حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعني ربيع الماء.

- حدثنا موسى بن هارون... عن السدي ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ والسريّ: هو النهر.

وقال آخرون: عني به عيسى.

ذكر من قال ذلك:

- حدثنا بشر... عن قتادة، عن الحسن ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ والسريّ: عيسى نفسه.

- حدثني يونس... عن ابن زيد، في قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعني نفسه، قال: وأي شيء أسرى منه، قال: والذين يقولون: السري: هو النهر ليس كذلك النهر، لو كان النهر لكان إنما يكون إلى جنبها، ولا يكون النهر تحتها.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قيل من قال: عنى به الجدول، وذلك أنه اعلمها ما قد أعطاها الله من الماء الذي جعله عندها، وقال لها ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى﴾ من هذا الرطب ﴿وَٱشْرَبِى﴾ من هذا الماء ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ بولدك، والسريّ، معروف من كلام العرب أنه النهر الصغير، ومنه قول لبيد:

فَتَوَسَّطا عُرْضَ السَّرِيّ وَصَدَّعا
مَسْجُورَة «مُتَجاوِراً قُلاَّمُها»

ويُروى قلنا مسجورة، ويُروى أيضاً: فغادرا.

وقوله ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ ذكر أن الجذع كان جذعاً يابساً، وأمرها أن تهزّه، وذلك في أيام الشتاء، وهزّه إياه كان تحريكه.

- كما حدثني يونس... عن ابن زيد، في قوله ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قال: حركيها.

ذكر من قال ذلك:

- حدثني محمد بن سعيد... عن ابن عباس ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قال: كان جذعاً يابساً، فقال لها: هزّيه ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

- حدثنا ابن حميد... عن عبد المؤمن، قال: سمعت أبا نهيك يقول: كانت نخلة يابسة.

- حدثني محمد بن سهل بن عسكر... عن وهب بن منبه يقول في قوله ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ فكان الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء.

- حدثنا موسى بن هارون... عن السدي ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ وكان جذعاً منها مقطوعاً فهزّته، فإذا هو نخلة، وأجري لها في المحراب نهر، فتساقطت النخله رطباً جنياً فقال لها: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وهزي إليك بالنخله. حدثنا ابن بشار... مجاهد في قوله ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قال: النخلة. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد في قوله ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ قال العجوة: حدثني يعقوب... عن عمرو بن ميمون أنه تلا هذه الآية ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ قال فقال عمرو ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب وأدخلت الباء في قوله ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ كما يقال زوجتك فلانة وزوّجتك بفلانة وكما قال ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] بمعنى تنبت الدهن وإنما تفعل العرب ذلك لأن الأفعال يكنى عنها بالباء فيقال إذ كنيت عن ضربت عمراً فعلت به وكذلك كل فعل فلذلك تدخل الباء في الأفعال وتخرج فيكون دخولها وخروجها بمعنى

فمعنى الكلام ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ وقد كان لو أن المفسرين كانوا فسروه كذلك وهزي إليك رطباً بجذع النخلة بمعنى على جذع النخلة وجهاً صحيحاً ولكن لست أحفظ عن أحد أنه فسره كذلك ومن الشاهد على دخول الباء في موضع دخولها وخروجها منه سواء قول الشاعر:

بـــواد يمـــان ينبـــت الســـدر صـــدره
وأسفلـــه بـــالمـــرخ والشبهـــان

واختلف القراء في قراءة قوله تساقط فقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة والكوفة تساقط بالتاء من تساقط وتشديد السين بمعنى تتساقط عليك النخلة رطباً جنياً ثم تدغم إحدى التاءين في الأخرى فتشدد وكأن الذين قرأوا ذلك كذلك وجهوا معنى الكلام إلى ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾ تساقط النخلة عليك رطباً وقرأ ذلك بعض قراء الكوفة تساقط بالتاء وتخفيف السين ووجه معنى الكلام إلى مثل ما وجه إليه مشدّدوها غير أنهم خالفوهم في القراءة وروي عن البراء بن عازب أنه قرأ ذلك يساقط بالياء. حدثني بذلك أحمد بن يوسف... عن أبي إسحاق قال سمعت البراء بن عازب يقرؤه كذلك وكأنه وجه معنى الكلام إلى وهزي إليك بجذع النخلة يتساقط الجذع عليك رطباً جنياً وروي عن أبي نهيك أنه كان يقرؤه تسقط بضم التاء وإسقاط الألف. حدثنا بذلك ابن حميد ثنا عبد المؤمن قال سمعت أبا نهيك يقرؤه كذلك وكأنه وجه معنى الكلام إلى تسقط النخلة عليك رطباً جنياً * قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال إن هذه القرآت الثلاث أعني تساقط بالتاء وتشديد السين وبالتاء وتخفيف السين وبالياء وتشديد السين قرآت متقاربات المعاني قد قرأ بكل واحدة منهن قراء أهل معرفة بالقرآن فبأيّ ذلك قرأ القارىء فمصيب الصواب فيه وذلك أن الجذع إذا تساقط رطباً وهو ثابت غير مقطوع فقد تساقطت النخلة رطباً وإذا تساقطت النخلة رطباً فقد تساقطت النخلة بأجمعها جذعها وغير جذعها وذلك أن النخلة ما دامت قائمة على أصلها فإنما هي جذع وجريد وسعف فإذا قطعت صارت جذعاً فالجذع الذي أمرت مريم بهزه لم يذكر أحد نعلمه أنه كان جذعاً مقطوعاً غير السدي وقد زعم أنه عاد بهزها إياه نخلة فقد صار معناه ومعنى من قال كان المتساقط عليها رطباً نخلة واحداً فتبين بذلك صحة ما قلنا. وقوله جنياً يعني مجنياً وإنما كان أصله مفعولاً فصرف إلى فعيل والمجني المأخوذ طرياً وكل ما أخذ من ثمرة أو نقل من موضعه بطراوته فقد اجتنى ولذلك قيل فلان يجتني الكمأة ومنه قول ابن أخت جذيمة:

هـــذا جنـــاي وخيـــاره فيـــه
إذ كـــل جـــان يـــده إلـــى فيـــه

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ يقول تعالى ذكره فكلي من الرطب الذي يتساقط عليك واشربي من ماء السريّ الذي جعله ربك تحتك ولا تخشي جوعاً ولا عطشاً وقري عيناً يقول وطيبي نفساً وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني ونصبت العين لأنها هي الموصوفة بالقرار وإنما معنى الكلام ولتقرر عينك بولدك ثم حول الفعل عن العين إلى المرأة صاحبة العين فنصبت العين إذ كان الفعل لها في الأصل على التفسير نظير ما فعل بقوله ﴿ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا ﴾ [النساء: ٤] وإنما هو فإن طابت أنفسهن لكم وقوله ﴿ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا ﴾ [هود: ٧٧] ومنه قوله يساقط عليك رطباً جنياً إنما هو يساقط عليك رطب الجذع فحول الفعل إلى الجذع في قراءة من قرأه بالياء وفي قراءة من قرأه تساقط بالتاء معناه يساقط عليك رطب النخلة ثم حول الفعل إلى النخلة. وقد اختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ وَقَرِّي ﴾ فأما أهل المدينة فقرؤوه وقري بفتح القاف على لغة من قال قررت بالمكان أقر به وقررت عيناً أقر به قروراً وهي لغة قريش فيما ذكر لي وعليها القراءة وأما أهل نجد فإنها تقول قررت به عيناً أقر به قراراً وقررت بالمكان أقر بـه فـالقراءة على لغتهم وقري عيناً بكسر القاف. والقراءة عندنا على لغة قريش بفتح القاف وقوله فأما ترين من البشر أحد يقول فإن رأيت من بني آدم أحداً يكلمك أو يسائلك عن شيء من أمرك وأمر ولدك وسبب ولادتكه ﴿ فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا ﴾ يقول فقولي إني أوجبت

على نفسي لله صمتاً أن لا أكلم أحداً من بني آدم اليوم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ وبنحو الذي قلنا في معنى الصوم قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن عبدالأعلى عن أنس بن مالك يقول في هذه الآية ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ صمتاً. حدثني زكريا بن يحيى بن أبي زائدة... عن المغيرة بن عثمان قال سمعت أنس بن مالك يقول ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال صمتاً. حدثني محمد بن سعيد... عن ابن عباس قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال يعني بالصوم الصمت. حدثني يعقوب... عن سليمان التيمي قال سمعت أنساً قرأ «إني نذرت للرحمن صوماً وصمتاً». حدثني الحسن بن يحيى... عن قتادة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أما قوله ﴿صَوْمًا﴾ فإنها صامت من الطعام والشراب والكلام. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام كما يصوم من الطعام إلا من ذكر الله فقال ذلك لها لذلك فقالت إني أصوم من الكلام كما أصوم من الطعام إلا من ذكر الله فلما كلموها أشارت إليه فقالوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فأجابهم فقال إني عبدالله آتاني الكتاب حتى بلغ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ واختلفوا في السبب الذي من أجله أمرها بالصوم عن كلام البشر فقال بعضهم أمرها بذلك لأنه لم يكن لها حجة عند الناس ظاهرة وذلك أنها جاءت وهي أيم بولد فأمرت بالكف عن الكلام ليكفيها الكلام ولدها ذكر من قال ذلك حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني... عن حارثة قال كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال ما شأنك فقال أصحابه حلف أن لا يكلم الناس اليوم فقال عبدالله كلم الناس وسلم عليهم فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدّقها أنها حملت من غير زوج يعني بذلك مريم عليها السلام. حدثني يونس... عن ابن زيد لما قال عيسى لمريم لا تحزني قالت وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة أي شيء عذرى عند الناس ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فقال لها عيسى أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قال هذا كله كلام عيسى لأمه. حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فإني سأكفيك الكلام. وقال آخرون إنما كان ذلك آية لمريم وابنها. ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن... عن قتادة في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال في بعض الحروف صمتاً وذلك أنك لا تلقى امرأة جاهلة تقول نذرت كما نذرت مريم ألا تكلم يوماً إلى الليل. وإنما جع الله تلك آية لمريم ولابنها ولا يحل لأحد أن ينذر صمت يوم إلى الليل حدثنا بشر... عن قتادة فقرأ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ وكانت تقرأ في الحرف الأول صمتاً وإنما كانت آية بعثها الله لمريم وابنها. وقال آخرون بل كانت صائمة في ذلك اليوم والصائم في ذلك الزمان كان يصوم عن الطعام والشراب وكلام الناس فأذن لمريم في قدر هذا الكلام ذلك اليوم وهي صائمة ذكر من قال ذلك حدثنا موسى... عن السدي ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يكلمك ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ فكان من صام في ذلك الزمان لم يتكلم حتى يمسي فقيل لها لا تزيدي علي هذا. القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فلما قال ذلك عيسى لأمه اطْمأنت نفسها وسلمت لأمر الله وحملته حتى أتت به قومها. كما حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه قال أنساها يعني مريم كرب البلاء وخوف الناس ما كانت تسمع من الملائكة من البشارة بعيسى حتى إذا كلمها يعني عيسى وجاءها مصداق ما كان الله وعدها احتملته ثم أقبلت به إلى قومها. وقال السدي في ذلك ما حدثنا موسى... عن السدي قال لما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بني إسرائيل أن مريم قد ولدت فأقبلوا يشتدون فدعوها فأتت به قومها تحمله وقوله ﴿قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فلما رأوا مريم ورأوا معها الولد الذي ولدته قالوا لها يا مريم لقد جئت بأمر عجيب وأحدثت حدثاً عظيماً وكل عامل عملاً أجاده وأحسنه فقد

فراه كما قال الراجز:

قد أطعمتني دقلاً حوليا
مسوساً مدوداً حجريا
* قد كنت تفرّين به الفريا *

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأول ذكر من قال ذلك حدثني بن عمرو... عن مجاهد في قول الله تعالى ﴿ فَرِيًّا ﴾ قال عظيماً. حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. حدثنا بشر... عن قتادة قوله لقد جئت شيئاً ﴿ فَرِيًّا ﴾ قال عظيماً. حدثنا موسى... عن السدي ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ قال عظيماً. حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه قال لما رأوها ورأوه معها قالوا يا مريم ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أي الفاحشة غير المقاربة. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل لها يا أخت هارون ومن كان هارون هذا الذي ذكره الله وأخبر أنهم نسبوا مريم إلى أنها أخته فقال بعضهم قيل لها يا أخت هارون نسبة منهم لها إلى الصلاح لأن أهل الصلاح فيهم كانوا يسمون هارون وليس بهارون أخي موسى ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن... عن قتادة في قوله ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ قال كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل يسمى هارون فشبهوها به فقالوا يا شبيهة هارون في الصلاح. حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ قال كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل. حدثني يعقوب... عن محمد بن سيرين قال نبئت أن كعباً قال إن قوله يا أخت هارون ليس هارون أخي موسى قال فقالت له عائشة كذبت قال يا أم المؤمنين إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر وإلا فإني أجد بينهما ستمائة سنة قال فسكتت. حدثني يونس... قال ابن زيد في قوله يا أخت هارون قال اسم واطأ اسماً كم بين هارون وبينهما من الأمم كثيرة حدثنا أبو كريب وابن المثنى وسفيان وابن وكيع وأبو السائب... عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا لي ألستم تقرؤون يا أخت هارون قلت بلى وقد علمتم ما كان بين عيسى وموسى فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم». حدثنا ابن حميد... عن المغيرة بن شعبة قال أرسلني النبيّ ﷺ في بعض حوائجه إلى أهل نجران فقالوا أليس نبيك يزعم أن هارون أخو مريم هو أخو موسى فلم أدرِ ما أردّ عليهم حتى رجعت إلى النبيّ ﷺ فذكرت له ذلك فقال إنهم كانوا يسمون بأسماء من كان قبلهم * وقال بعضهم عنى به هارون أخو موسى ونسبت مريم إلى أنها أخته لأنها من ولده يقال للتميمي يا أخا تميم وللمضري يا أخا مضر ذكر من قال ذلك حدثنا موسى... عن السدي يا أخت هارون قال كانت من بني هارون أخي موسى وهو كما تقول يا أخا بني فلان * وقال آخرون بل كان ذلك رجلاً منهم فاسقاً معلن الفسق فنسبوها إليه * قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله ﷺ الذي ذكرناه وأنها نسبت إلى رجل من قومها وقوله ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ يقول ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ يقول وما كانت أمك زانية. كما حدثني موسى... عن السدي ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ قال زانية وقال ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ولم يقل بغية لأن ذلك مما يوصف به النساء دون الرجال فجرى مجرى امرأة حائض وطالق وقد كان بعضهم يشبه ذلك بقولهم ملحفة جديد وامرأة قتيل. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ يقول تعالى ذكره فلما قال قومها ذلك لها قالت لهم ما أمرها عيسى بقيله لهم ثم أشارت لهم إلى عيسى أن كلموه. كما حدثنا موسى... عن السدي قال لما قالوا لها ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ قالت لهم ما أمرها الله به فلما أرادوها بعد ذلك على الكلام أشارت إليه إلى عيسى. حدثنا بشر... عن قتادة قوله فأشارت إليه قال أمرتهم بكلامه حدثنا ابن حميد... عن وهب بن

منبه ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ يقول أشارت إليه أن كلموه. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أن كلموه وقوله ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره قال قومها لها كيف نكلم من وجد في المهد وكان في قوله ﴿مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ معناها التمام لا التي تقتضي الخبر وذلك شبيه المعنى بكان التي في قوله ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] وإنما معنى ذلك هل أنا إلا بشر رسول وهل وجدت أو بعثت وكما قال زهير بن أبي سلمى:

أجـــــرت إليـــــه حـــــرة أرحبيـــــة

وقـــد كـــان لـــون الليـــل مثـــل الأرنـــدج

بمعنى وقد صار أو وجد وقيل إنه عني بالمهد في هذا الموضع حجر أمه ذكر من قال ذلك حدثنا بشر... عن قتادة ﴿مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ والمهد الحجر * قال أبو جعفر وقد بينا معنى المهد فيما مضى بشواهده فأغنى عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فلما قال قوم مريم لها كيف نكلم ﴿مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ وظنوا أن ذلك منها استهزاء بهم قال عيسى لهم متكلماً عن أمه ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ وكانوا حين أشارت لهم إلى عيسى فيما ذكر عنهم غضبوا. كما حدثني موسى... عن السديّ قال لما أشارت لهم إلى عيسى غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾. حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فأجابهم عيسى عنها فقال لهم ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية. حدثني يونس... قال ابن زيد في قوله ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قال لهم ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ فقالوا إن هذا لأمر عظيم. حدثت عن الحسين... عن الضحاك ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ لم يتكلم عيسى إلا عند ذلك حين ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ وقوله ﴿اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ يقول القائل أو آتاه الكتاب والوحي قبل أن يخلق في بطن أمه فإن معنى ذلك بخلاف ما يظن وإنما معناه وقضى يوم قضى أمور خلقه إليّ أن يؤتيني الكتاب. كما حدثني بشر ابن آدم... عن عكرمة قال: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ قال قضى أن يؤتيني الكتاب. فيما مضى. حدثنا محمد بن بشار... عن عكرمة في قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ قال القضاء. حدثنا الحسن... عن عكرمة في قول الله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ قال قضى أن يؤتيني الكتاب. وقوله ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وقد بينت معنى النبي واختلاف المختلفين فيه والصحيح من القول فيه عندنا بشواهده فيما مضى بما أغنى عن إعادته وكان مجاهد يقول في معنى النبي وحده ما حدثنا به محمد بن عمرو... عن مجاهد قال النبي وحده الذي يكلم وينزل عليه الوحي ولا يرسل وقوله وجعلني مباركاً اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم معناه وجعلني نفاعاً ذكر من قال ذلك حدثني سليمان بن عبدالرحمن بن حماد الطلحي... عن مجاهد وجعلني مباركاً قال نفاعاً. وقال آخرون كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكر من قال ذلك. حدثني سليمان بن عبد الجبار قال سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم فقال له يرحمك الله ما الذي أعلن من علمي قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده وقد اجتمع الفقهاء على قول الله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وقيل ما بركته قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان. وقال آخرون. ذلك جعلني معلم الخير ذكر من قال ذلك حدثني يونس بن عبدالأعلى قال ثنا سفيان في قوله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال معلماً للخير. حدثنا ابن حميد... عن مجاهد قوله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال معلماً للخير. حيثما كنت وقوله وأوصاني بالصلاة والزكاة يقول وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة يعني بالمحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ وفي الزكاة معنيان

أحدهما زكاة الأموال أن يؤديها والآخر تطهير الجسد من دنس الذنوب فيكون معناه وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي. وقوله ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ يقول ما كنت حياً في الدنيا موجوداً وهذا يبين عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع تطهير البدن من الذنوب لأن الذي يوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يدّخر شيئاً لغد فتجب عليه زكاة المال إلا أن تكون الزكاة التي كانت فرضت عليه الصدقة بكل ما فضل عن قوته فيكون ذلك وجهاً صحياً. لقول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل عيسى للقوم وجعلني مباركاً وبراً أي جعلني براً بوالدتي والبر هو البارّ يقال هو برّ بوالده وبارّ به وبفتح الباء قرأت هذا الحرف قراء الأمصار وروى عن أبي نهيك ما حدثنا ابن حميد. . . عن أبي نهيك أنه قرأ ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ من قول عيسى عليه السلام قال أبو نهيك أوصاني بالصلاة. والزكاة والبر بالوالدين كما أوصاني بذلك فكأن أبا نهيك وجه تأويل الكلام إلى قوله ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ هو من خبر عيسى عن وصية الله إياه به كما أن قوله ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ من خبره عن وصية الله إياه بذلك فعلى هذا القول يجب أن يكون نصب البر بمعنى عمل الوصية فيه لأن الصلاة والزكاة وإن كانتا مخفوضتين في اللفظ فإنهما بمعنى النصب من أجل أنه مفعول بهما وقوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ يقول ولم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به ونهاني عنه شقياً ولكن ذللني لطاعته وجعلني متواضعاً. كما حدثنا بشر. . . عن قتادة قال ذكر لنا أنه يعني عيسى كان يقول سلوني فإن قلبي لين وإني صغير في نفسي مما أعطاه الله من التواضع. وحدثنا بشر. . . عن قتادة ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويبرىء الأكمة والأبرص في آيات سلطه الله عليهن وأذن له فيهن فقالت طوبى للبطن الذي حملك والثدي الذي أرضعت به فقال نبي الله ابن مريم يجيبها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً. حدثنا القاسم. . . عن عبدالله بن واقد أبي رجاء عن بعض أهل العلم قال لا تجد عاقاً إلا وجدته جباراً شقياً ثم قرأ ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ قال ولا تجد سيىء الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً ثم قرأ وما ملكت أيمانكم ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦] وقوله ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ يقول والأمنة من الله عليّ من الشيطان وجنده يوم ولدت أن ينالوا مني ما ينالون ممن يولد عند الولادة من الطعن فيه ويوم أموت من هول المطلع ويوم أبعث حياً يوم القيامة أن ينالني الفزع الذي ينال الناس بمعاينتهم أهوال ذلك اليوم. كما حدثنا ابن حميد. . . عن وهب بن منبه والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً قال يخبرهم في قصة خبره عن نفسه أنه لا أب له وأنه سيموت ثم يبعث حياً يقول الله تبارك وتعالى ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ القول في تأويل قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره وهذا الذي بينت لكم صفته وأخبرتكم خبره من أمر الغلام الذي حملته مريم هو عيسى ابن مريم وهذه الصفة صفته وهذا الخبر خبره وهو ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ يعني أن هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحق والكلام الذي تلوته عليكم قول الله وخبره لا خبر غيره الذي يقع فيه الوهم والشك والزيادة والنقصان على ما كان يقول الله تعالى ذكره فقولوا في عيسى أيها الناس هذا القول الذي أخبركم الله به عنه لا ما قالته اليهود الذي زعموا أنه لغير رشدة وأنه كان ساحراً كذاباً ولا ما قالته النصارى من أنه كان لله ولداً وإن الله لم يتخذ ولداً ولا ينبغي ذلك له * وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكره من قال ذلك حدثنا القاسم. . . عن مجاهد قوله ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ قال الله الحق. حدثني يحيى عن ابراهيم المسعودي. . . عن إبراهيم قال كانوا يقولون في هذا الحرف في قراءة عبدالله قال الحق الذي فيه يمترون قال كلمة الله ولو وجه تأويل ذلك إلى ذلك عيسى ابن مريم القول الحق بمعنى ذلك القول الحق ثم حذفت الألف واللام من القول وأضيف إلى الحق كما قيل ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٥] وكما قيل وعد الصدق الذي كانوا يوعدون كان تأويلاً

صحيحاً وقد اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق قول الحق برفع القول على ما وصفت من المعنى وجعلوه في إعرابه تابعاً لعيسى كالنعت له وليس الأمر في إعرابه عندي على ما قاله الذين زعموا أنه رفع على النعت لعيسى إلا أن يكون معنى القول الكلمة على ما ذكرنا عن إبراهيم من تأويله ذلك كذلك فيصح حينئذ أن يكون نعتاً لعيسى وإلا فرفعه عندي بمضمر وهو هذا قول الحق على الابتداء وذلك أن الخبر قد تناهى عن قصة عيسى وأمه عند قوله ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ ثم ابتدأ الخبر بأن الحق فيما فيه تمتري الأمم من أمر عيسى هو هذا القول الذي أخبر الله به عنه عباده دون غيره وقد قرأ ذلك عاصم بن أبي النجود وعبدالله بن عامر بالنصب وكأنهما أرادا بذلك المصدر ذلك عيسى ابن مريم قولاً حقاً ثم أدخلت فيه الألف واللام. وأما ما ذكر عن ابن مسعود من قراءته ذلك عيسى ابن مريم قال الحق فإنه بمعنى قول الحق مثل العاب والعيب والذام والذيم * قال أبو جعفر والصواب من القراءة في ذلك عندنا الرفع لإجماع الحجة من القراء عليه وأما قوله تعالى ذكره ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ فإنه يعني الذي فيه يختصمون ويختلفون من قولهم ماريت فلاناً إذا جادلته وخاصمته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا بشر... عن قتادة قوله ذلك عيسى ابن مريم قول الحق ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ امترت فيه اليهود والنصارى فأما اليهود فزعموا أنه ساحر كذاب وأما النصارى فزعموا أنه ابن الله وثالث ثلاثة وإله وكذبوا كلهم ولكنه عبدالله ورسوله وكلمته وروحه. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال اختلفوا فقالت فرقة هو عبدالله ونبيه فآمنوا به وقالت فرقة بل هو الله وقالت فرقة هو ابن الله تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً قال فذلك قوله ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ [مريم: ٣٧] والتي في الزخرف قال دقيوس ونسطور وماريعقوب قال أحدهم حين رفع الله عيسى هو الله وقال الآخر ابن الله وقال الآخر كلمة الله وعبده فقال المفتريان إن قولي هوأشبه بقولك وقولك بقولي من قول هذا فهلم فلنقاتلهم فقاتلوهم وأوطؤهم وغلبوهم حتى خرج النبيّ ﷺ وهم مسلمة أهل الكتاب. حدثنا الحسن... عن قتادة في قوله ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ قال اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال أحدهم هو الله هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية فقال الثلاثة كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث قل أنت فيه قال هو ابن الله وهم النسطورية فقال الإثنان كذبت ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه قال هو ثالث ثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله وهم الإسرائيلية ملوك النصارى قال الرابع كذبت هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتتلوا فظهر على المسلمين وذلك قول الله ﴿ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٢١] قال قتادة هم الذين قال الله ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾ [مريم: ٣٧] اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً * القول في تأويل قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يقول تعالى ذكره لقد كفرت الذين قالوا إن عيسى ابن الله وأعظموا الفرية عليه فما ينبغي لله أن يتخذ ولداً ولا يصلح ذلك له ولا يكون بل كل شيء دونه فخلقه وذلك نظير قول عمرو بن أحمر:

في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة
ما ينبغي دونها سهل ولا جبل

وأن من قوله أن يتخذ في موضع رفع بكان وقوله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ يقول تنزيهاً لله وتبرئة له أن يكون له ما أضاف إليه الكافرون القائلون عيسى ابن الله وقوله ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يقول جلّ ثناؤه إنما ابتدأ الله خلق عيسى ابتداء وأنشأه إنشاء من غير فحل افتحل أمه ولكنه قال له ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ لأنه كذلك يبتدع الأشياء ويخترعها إنما يقول إذا قضى خلق شيء أو إنشاءه كن فيكون موجوداً حادثاً لا يعظم عليه خلقه لأنه لا يخلقه بمعاناة وكلفة ولا ينشئه بمعالجة وشدة. وقوله ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء

أهل المدينة والبصرة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ واختلف أهل العربية في وجه فتح أن إذا فتحت فقال بعض نحويي الكوفة فتحت رداً على عيسى وعطفاً عليه بمعنى ذلك عيسى ابن مريم وذلك أن الله ربي وربكم وإذا كان ذلك كذلك كانت أن رفعا وتكون بتأويل خفض كما قال ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٣١] قال ولو فتحت على قوله ﴿ وَأَوْصَٰنِى ﴾ بأن الله كان وجهاً وكان بعض البصريين يقول وذكر ذلك أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء وكان ممن يقرؤه بالفتح إنما فتحت أن بتأويل وقضى أن الله ربي وربكم وكانت عامة قراء الكوفيين يقرؤنه وإن الله بكسران بمعنى النسق على قوله ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ ﴾ وذكر عن أبيّ بن كعب أنه كان يقرؤه فإنما يقول له كن فيكون إن الله ربي وربكم بغير واو. قال أبو جعفر والقراءة التي نختار في ذلك الكسر على الابتداء وإذا قرىء كذلك لم يكن لها موضع وقد يجوز أن يكون عطفاً على أن التي مع قوله ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ ﴾ ولو قال قائل ممن قرأ ذلك نصباً نصب على العطف على الكتاب بمعنى آتاني الكتاب وآتاني أن الله ربي وربكم كان وجهاً حسناً ومعنى الكلام وإني وأنتم أيها القوم جميعاً لله عبيد فإياه فاعبدوا دون غيره. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه قال عهد إليهم حين أخبرهم عن نفسه ومولده وموته وبعثه ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي إني وإياكم عبيدالله فاعبدوه ولا تعبدوا غيره وقوله ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ يقول هذا الذي أوصيتكم به وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم الذي من سلكه نجا ومن ركبه اهتدى لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه.

الزمخشري ج ٢ ص ٥٠٤ ـ ٥٠٩

قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن (إذ) بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه، والانتباذ: الاعتزال والانفراد... فإذا حاضت تحوّلت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد فبينا هي في مغسلتها أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سويّ الخلق لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً، أو حسن الصورة مستوى الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه. ودلّ على عفافها وروعها أنها تعوذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبراً لعفتها. وقيل كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب... وقيل قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس. وقيل إن النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباذ مريم مكاناً شرقياً. الروح جبريل لأن الدين يحيا به ويوحيه أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك أنت روحي. وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله ـ ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: ٨٩] أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح: أي مقرّبنا وذا روحنا. أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كقوله تعالى ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [هود: ٨٦] ـ أي إنما أنا رسول من استعذت به لأهب لك لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع، وفي بعض المصاحف (إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك) أو هي حكاية لقول الله تعالى. جعل المسّ عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أو لمستم النساء والزنى ليس كذلك، إنما يقال فيه فجربها وخبث بها وما أشبه ذلك وليس بقمن أن تراعي فيه الكنايات والآداب. والبغي: الفاجرة التي تبغي الرجال وهي فعول عند المبرد بغوي فأدغمت الواو في الياء. وقال ابن جني

في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً لقيل بغوّ كما قيل فلان نهو عن المنكر ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً ﴾ تعليل معللة محذوف: أي ولنجعله آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمر: أي لنبين به قدرتنا ولنجعله آية ونحوه ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية: ٢٢] وقوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ ﴾[يوسف:٢١] ﴿ مَّقْضِيًّا ﴾ مقدّر مسطوراً في اللوح لا بد لك من جريه عليك، أو كان أمراً حقيقياً بأن يكون ويقضي لكونه آية ورحمة، والمراد بالآية العبرة والبرهان على قدرة الله، وبالرحمة الشرائع والألطاف، وما كان سبباً في قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكوين. وقيل كان مدة الحمل ستة أشهر. وعن عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر، وقيل: ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل ثلاث ساعات، وقيل حملته في ساعة وصوّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها. وعن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته، وقيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل بنت عشر وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قالوا: ما من مولود إلا يستهّل غيره ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها كقوله «تدوس بنا الجماجم والتريبا» أي تدوس الجماجم ونحن على ظهورها ونحوه قوله تعالى ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي تنبت ودهنها فيها الجار والمجرور في موضع الحال ﴿ قَصِيًّا ﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل أقصى الدار، وقيل كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل حملت من الزنى خاف عليها قتل الملك فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق حدّثته نفسه بأن يقتلها، فأتاه جبريل فقال: إنه من روح القدس فلا تقتلها فتركها ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ أجاء منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء؛ ألا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءنيه زيد كما تقول بلغته وأبلغنيه، ونظيره آتى حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل أتيت المكان وآتانيه فلان. قرأ ابن كثير في رواية ﴿ ٱلْمَخَاضُ ﴾ بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً وهو تمخض الولد في بطنها. طلبت الجذع لتستّر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف لا يخلو إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل، وإما أن يكون تعريف الجنس: أي جذع هذه الشجرة خاصة كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها، ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البرد وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها. قرىء ﴿ مِتُّ ﴾ بالضم والكسر يقال مات يموت ومات يمات. النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٧]، وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا انظروا أنساءكم: أي الشيء اليسير نحو العصا والقدح والشظاظ، تمنت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى في العادة، وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه ولك لما لحقها من فرط الحياء والتشوّر من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلما تثبت عليه الأقدام أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وحفص نسياً بالفتح؛ قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر كالحمل. وقرأ محمد بن كعب القرظي نسأ بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته، وقرأ الأعمش منسياً بالكسر على

الإتباع كالمغيرة والمنخر ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ هو جبريل عليه السلام، قيل كان يقبل كالقابلة، وقيل هو عيسى وهي قراءة عاصم وأبي عمرو، وقيل تحتها أسفل من مكانها كقوله ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥] وقيل كان أسفل منها تحت الأكمه فصاح بها إن لا تحزني. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص من تحتها. وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى. وعن قتادة الضمير في تحتها للنخلة. وقرأ زرّ وعلقمة فخاطبها من تحتها «سئل النبيّ ﷺ عن السريّ فقال: هو الجدول» قال لبيد:

فتوسطا عرض السريّ فصدعا
مسجورة متجاوراً قلامها

وقيل هو من السرور والمراد عيسى. وعن الحسن: كان والله عبداً سرياً. فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسريّ والرطب. قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ فيه تسع قراءات بإدغام التاء، وتتساقط بإظهار التاءين، وتساقط بطرح الثانية، ويساقط بالياء وإدغام التاء، وتساقط وتسقط ويسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع، و﴿رُطَبٗا﴾ تمييز أو مفعول على حسب القراءة. وعن المبرد جواز انتصابه بهزّي وليس بذلك والباء في بجذع النخلة صلة للتأكيد كقوله تعالى ـ ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] ـ أو على معنى افعلي الهز به كقوله: بجرح في عراقيبها نصلي. قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وكذلك التحنيك، وقالوا: كان من العجوة. وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل. وقيل إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب. عن طلحة بن سليمان ﴿جَنِيّٗا﴾ بكسر الجيم للإتباع: أي جمعنا لك في السريّ والرطب فائدتين إحداهما الأكل والشرب، والثانية سلوة الصدر لكونهما معجزتين، وهو في معنى قوله ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ أي وطيبي نفساً ولا تغتمي وارفضي عنك ما أحزنك وأهمك. وقرىء وقرّي بالكسر لغة نجد (فلما ترئن) بالهمز ابن الرومي عن أبي عمرو، وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج وحلأت السويق، وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صَوۡمٗا﴾ صمتا. وفي مصحف عبدالله صمتاً. وعن أنس بن مالك مثله، وقيل صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت لأنه نسخ في أمته. أمرها الله بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام لمعنيين: أحدهما أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبرىء به ساحتها، والثاني كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم. وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها. قيل أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة وقيل سوّغ لها ذلك بالنطق ﴿إِنسِيّٗا﴾ أي أكلم الملائكة دون الإنس. الفريّ البديع وهو من فري الجلد ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل. وقيل هو أخو موسى صلوات الله عليهما. وعن النبيّ ﷺ إنما عنوا هارون النبي وكانت من أعقابه في طبقة الأخوة وبينها وبينه ألف سنة وأكثر. وعن السدي: كانت من أولاده، وإنما قيل يا أخت هارون كما يقال يا أخا همدان: أي يا أحداً منهم. وقيل رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها به: أي كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به ولم ترد أخوّة النسب. ذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون تبركاً به وباسمه، فقالوا: كنا نشبّهك بهارون هذا. وقرأ عمر بن لجأ التيمي: ما كان أباك امرؤ سوء. وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى تعلت من نفاسها ثم جاءت تحمله فكلمها عيسى في الطريق فقال: يا أماه أبشري فإني عبدالله ومسيحه، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك. وقيل هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام فتركوها ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ﴾ أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا

أشد علينا من زناها. وروي أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته. وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان (كان) لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماض مبهم يصلح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة والدالّ عليه مبني الكلام وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر أن يكون نكلم حكاية حال ماضية: إي كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبياً في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا. أنطقه الله أوّلاً بأنه عبدالله ردّاً لقول النصارى؛ و﴿ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوّته فقيل أعطيها في طفوليته أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً نظراً في ظاهر الآية. وقيل معناه: أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد ﴿ مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ عن رسول الله ﷺ نفاعاً حيث كنت وقيل معلماً للخير. قرىء ﴿ وَبَرًّا ﴾ عن أبي نهيك جعل ذاته براً لفرط بره أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ ﴾ قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك جاءنا رجل، فكان من فعل الرجل كذا؛ والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إليّ. والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس؛ فإذا قال: وجنس السلام عليّ خاصة، فقد عرّض بأن ضدّه عليكم، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧] يعني أن العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام مناكرة وعناد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض. قرأ عاصم وابن عامر ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ بالنصب. وعن ابن مسعود: قال الحق وقال الله. وعن الحسن: ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ بضم القاف، وكذلك في الأنعام ﴿ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [الأنعام: ٧٣] والقول والقال والقول بمعنى واحد كالرهب والرهب والرهب، وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر أو بدل أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسّر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق كقولك هو عبدالله حقاً والحق لا الباطل، وإنما قيل لعيسى كلمة الله وقول الحق لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله كن من غير واسطة أب تسمية لمسبب باسم السبب كما سمي العشب بالسماء والشحم بالندا، ويحتمل إذا أريد بقول الحق عيسى أن يكون الحق اسم الله عزّ وجلّ، وأن يكون بمعنى الثبات والصدق، ويعضده قوله ﴿ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون ﴿ يَمْتَرُونَ ﴾ يشكون، والمرية الشك، أو يتمارون يتلاحقون. قالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى ابن الله وثالث ثلاثة. وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه تمترون على الخطاب. وعن أبيّ بن كعب قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون. كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه وأنه مما لا يتأتى ولا يتصوّر في العقول وليس بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أوجده بكن كان منزّهاً من شبه الحيوان الوالد، والقول ههنا مجاز ومعناه أن إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف، فشبه ذلك بأمر الآمر المطاع إذا ورد على المأمور المتمثل. قرأ المدنيون وأبو عمرو بفتح أن، ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعبدوه كقوله ـ ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨] ـ والأستار وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء وفي حرف أبيّ: إن الله بالكسر بغير واو.

الرازي ج ٢١ ص ١٩٥ ـ ٢٢٠

قوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا . فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذ بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه أن المقصود بذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه.

المسألة الثانية: النبذ أصله الطرح والإلقاء والإنتباذ افتعال منه ومنه ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

وانتبذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أي ناحية وهذا إذا جلس قريباً منك حتى لو نبذت إليه شيئاً وصل إليه ونبذت الشيء رميته ومنه النبيذ لأنه يطرح في الإناء وأصله منبوذ فصرف إلى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لأنه يرمى به ومنه النهي عن المنابذة في البيع وهو أن يقول إذا نبذت إليك هذا الثوب أو الحصاة فقد وجب البيع إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ معناه تباعدت وانفردت على سرعة إلى مكان يلي ناحية الشرق ثم بيّن تعالى أنها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجاباً مستوراً وظاهره ذلك أنها لم تقتصر على أن انفردت إلى موضع بل جعلت بينها وبينهم حائلاً من حائط أو غيره ويحتمل أنها جعلت بين نفسها وبينهم ستراً وهذا الوجه الثاني أظهر من الأول ثم لا بدّ في احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس مذكوراً واختلف المفسرون فيه على وجوه (الأول) إنها لما رأت الحيض تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام. (والثاني) إنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة. (والثالث) قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيض محتجبة بشيء يسترها. (والرابع) إنها كان لها في منزل زوج أختها زكريا محراب على حدة تسكنه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فتمنت [على] الله [أن] تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفرج السقف لها فخرجت إلى المفازة فجلست في المشرقة وراء الجبل فأتاها الملك. (وخامسها) عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي. واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها.

المسألة الثالثة: المكان الشرقي هو الذي يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة.

المسألة الرابعة: إنها لما جلست في ذلك المكان أرسل الله إليها الروح واختلف المفسرون في هذا الروح فقال الأكثرون إنه جبريل عليه السلام وقال أبو مسلم إنه الروح الذي تصور في بطنها بشراً والأول أقرب لأن جبريل عليه السلام يسمى روحاً قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وسمي روحاً لأنه روحاني وقيل خلق من الروح وقيل لأن الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك روحي وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابته الروح عند الله الذي هو عدة المتقين في قوله ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨] أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا وإذا ثبت أنه يسمى روحاً فهو هنا يجب أن يكون المراد به هو لأنه قال ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ ولا يليق ذلك إلا بجبريل عليه السلام واختلفوا في أنه كيف ظهر لها (فالأول) إنه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوي الخلق. (والثاني) إنه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وكل ذلك محتمل ولا دلالة في اللفظ على التعيين ثم قال وإنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ثم ههنا إشكالات. (أحدهما) وهو أنه لو جاز أن يظهر الملك في صورة إنسان معين فحينئذ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذي أراه في الحال هو زيد الذي رأيته بالأمس لاحتمال أن الملك أو الجني تمثل في صورته وفتح هذا الباب يؤدي إلى السفسطة لا يقال هذا إنما يجوز في زمان جواز البعثة فأما في زماننا هذا فلا يجوز لأنا نقول هذا الفرق إنما يعلم بالدليل، فالجاهل بذلك الدليل يجب أن لا يقطع بأن هذا الشخص الذي أراه الآن هو الشخص الذي رأيته بالأمس. (وثانيها) إنه جاء في الأخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جداً فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه في مقدار جثة الإنسان بأن تساقطت أجزاءه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل أو بأن تداخلت اجزاءه وذلك يوجب تداخل الأجزاء وهو محال. (وثالثها) وهو أنا لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام في صورة الآدمي فلم يجوز تمثله في صورة جسم

أصغر من الآدمي حتى الذباب والبق والبعوض ومعلوم أن كل مذهب جر إلى ذلك فهو باطل. (ورابعها) إن تجوزيه يفضي إلى القدح في خبر التواتر فلعل الشخص الذي حارب يوم بدر لم يكن محمداً بل كان شخصاً آخر تشبه به وكذا القول في الكل (والجواب) عن الأول أن ذلك التجويز لازم على الكل لأن من اعترف بافتقار العالم إلى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادراً على أن يخلق شخصاً آخر مثل زيد في خلقته وتخطيطه وإذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك في أن زيداً المشاهد الآن هو الذي شاهدناه بالأمس أم لا، ومن أنكر الصانع المختار وأسند الحوادث إلى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك لزمه تجويز أن يحدث اتصال غريب في الأفلاك يقتضي حدوث شخص مثل زيد في كل الأمور وحينئذ يعود التجويز المذكور. (وعن الثاني) أنه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة والأجزاء الأصلية قليلة جداً فحينئذ يكون متمكناً من التشبه بصورة الإنسان، هذا إذا جعلناه جسمانياً أما إذا جعلناه روحانياً فأي استبعاد في أن يتذرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير (وعن الثالث) أن أصل التجويز قائم في العقل وإنما عرف فساده بدلائل السمع وهو الجواب عن السؤال الرابع والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ وفيه وجوه (أحدها) أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإني عائذة به منك وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال. (وثانيها) إن معناه ما كنت تقياً حيث استحللت النظر إليّ وخلوت بي. (وثالثها) إنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقي يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي والأول هو الوجه.

قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لما علم جبريل خوفها قال ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لا بد من دلالة تدل على أنه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس فههنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل أنها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أظهر لها من باطن جسده ما عرفت أنه ملك فيكون ذلك هو العلم وسأل القاضي عبدالجبار في تفسيره نفسه فقال إذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم إن الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالاً فكيف يصح ذلك وأجاب أن ذلك إنما وقع في زمان زكريا عليه السلام وكان رسولاً وكل ذلك كان عالماً به وهذا ضعيف لأن المعجز إذا كان مفعولاً للنبي فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالماً به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزاً له بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر ونافع ليهب بياء مفتوحة بعد اللام أي ليهب الله لك والباقون بهمزة مفتوحة بعدها أما قوله لأهب لك ففي مجازه وجهان: (الأول) إن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها وإضافة الفعل إلى ما هو سبب له مستعمل قال تعالى في الأصنام ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. (الثاني) إن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فإن قال قائل ما الدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الأجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذي يقال فيه إن جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الأشياء أما أنه جسم فلأنه محدث وكل محدث إما متحيز أو قائم بالمتحيز وأما أن الجسم لا يقدر على هذه الأشياء فلأنه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لأن الأجسام متماثلة وهو ضعيف لأن للخصم أن يقول لا نسلم أن كل محدث إما متحيز أو قائم به، بل ههنا موجودات قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالاً لذات الله تعالى لأن الاشتراك في الصفات الثبوتية لا

يقتضي التماثل فكيف في الصفات السلبية سلمنا كونه جسماً فلم قلت الجسم لا يقدر عليه قوله الأجسام متماثلة قلنا نعني به أنها متماثلة في كونها حاصلة في الأحياز ذاهبة في الجهات أو نعني به أنها متماثلة في تمام ماهياتها والأول مسلم لكن حصولها في الأحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات المواصفات سلمنا أن الأجسام متماثلة فلم لا يجوز أن يقال إن الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى أنه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك والجواب الحق أن المعتمد في دفع هذا الاحتمال إجماع الأمة فقط والله أعلم.

المسألة الثالثة الزكي يفيد أموراً ثلاثة: (الأول) إنه الطاهر من الذنوب و(الثاني) إنه ينمو على التزكية لأنه يقال فيمن لا ذنب له زكي، وفي الزرع النامي زكي و(الثالث) النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يبعث نبياً وقال بعض المتكلمين الأولى أن يحمل على الكل وهو ضعيف لما عرفت في أصول الفقه أن اللفظ الواحد لا يجوز حمله على المعنيين سواء كان حقيقة فيهما أو في أحدهما مجازاً وفي الآخر حقيقة.

المسألة الرابعة: سماه زكياً مع أنه لم يكن له شيء من الدنيا وأنت إذا نظرت في سوقك فمن لم يملك شيئاً فهو شقي عندك. وإنما الزكي من يملك المال والله يقول كان زكياً، لأن سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب وأنت فإنما تسمي بالزكي من كانت سيرته الجهل وطريقته المال.

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إنها إنما تعجبت مما بشرها جبريل عليه السلام: لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر على هذا الحد ولأنها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدره الله تعالى على ذلك.

المسألة الثانية: لقائل أن يقول قولها ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ يدخل تحته قولها ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ فلماذا أعادتها ومما يؤكد هذا السؤال أن في سورة آل عمران قالت ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران: ٤٧] فلم تذكر البغاء والجواب من وجوه: (أحدها) إنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله ﴿ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٤٩] «والزنا ليس كذلك إنما يقال فجربها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات. و(ثانيها) إن إعادتها لتعظيم حالها كقوله ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة: ٩٨] فكذا ههنا إن من لم تعرف من النساء بزوج فأغلظ أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه.

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف البغي الفاجرة التي تبغي الرجال وهو فعول عند المبرد بغوي فأدغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب التمام هو فعيل ولو كان فعولاً لقيل بغوا كما قيل نهوا عن المنكر.

المسألة الرابعة: إن جبريل عليه السلام أجابها بقوله ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وهو كقوله في آل عمران ﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧] لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات والمواد.

المسألة الخامسة: الكناية هو ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ وفي قوله ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ تحتمل وجهين: (الأول) أن تكون راجعة إلى الخلق أي أن خلقه علي هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا بإظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقرب. (الثاني) أن ترجع الكنايات إلى الغلام وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة أعلمت أن الله تعالى جاعل ولدها آية

على وقوع ذلك الأمر الغريب، فأما قوله تعالى ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ فيحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي فعلنا ذلك ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ فعلنا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفاً على الآية أي ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً وَرَحْمَةً ﴾ فعلنا ذلك.

المسألة السادسة: قوله ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ المراد منه أنه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لأنه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب وأيضاً فلأن جميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء والقدر إلى واجب الوجود والمنتهي إلى الواجب انتهاء واجباً يكون واجب الوجود وإذا كان واجب الوجود فلا فائدة في الحزن والأسف وهذا هو سر قوله عليه السلام «من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب».

قوله تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] أي في عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] وقال فنفخنا فيها لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها واختلفوا في النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩] ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ فكذا ههنا وقال آخرون النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام لأهب لك أنه أمر مكون من قبله حتى يحصل الحمل مريم عليها السلام فلا بد من إحالة النفخ إليه، ثم اختلفوا في كيفية ذلك النفخ على قولين: (الأول) قول وهب إنه نفخ جبريل في جيبها حتى وصلت إلى الرحم. (الثاني) في ذيلها فوصلت إلى الفرج. (الثالث) قول السدي أخذ بكمها فنفخ في جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها، فقالت امرأة زكريا إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله تعالى ﴿ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٩]. (الرابع) إن النفخة كانت في فيها فوصلت إلى بطنها فحملت في الحال، إذا عرفت هذا ظهر أن الكلام حذفاً وهو، وكان أمراً مقضياً، فنفخ فيها فحملته.

المسألة الثالثة: قيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل. وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال.

المسألة الرابعة: ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها كقوله ﴿ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي تنبت والدهن فيها، واختلفوا في علة الإنتباذ على وجوه: (أحدها) ما رواه الثعلبي في العرائس عن وهب قال إن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم في أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً ولا عبادة منهما، وأول من عرف حمل مريم يوسف النجار فتحير في أمرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل فأول ما تكلم أن قال إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه فغلبني ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري، فقالت قل قولاً جميلاً قال أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث، وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت نعم: ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق كل واحد منهما على حدة، أو تقول إن الله تعالى لا يقدر على أن

ينبت الشجرة حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها، فقال يوسف لا أقول هذا ولكني أقول إن الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون، فقالت له مريم أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب، فلما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك لئلا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له، فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة، وذلك في زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها. و(ثانيها) إنها استحيت من زكريا فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا. و(ثالثها) إنها كانت مشهورة في بني إسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الأنبياء في تربيتها وتكفل زكريا بها، ولأن الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى، فلما كانت في نهاية الشهرة استحيت من هذه الواقعة فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا. و(رابعها) إنها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم. واعلم أن هذه الوجوه محتملة، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها.

المسألة الخامسة: اختلفوا في مدة حملها على وجوه: (الأول) قول ابن عباس رضي الله عنهما إنها كانت تسعة أشهر كما في سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع فلو كانت عادتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر. (الثاني) إنها كانت ثمانية أشهر، ولم يعش مولود وضع لثمانية إلا عيسى ابن مريم عليه السلام. (الثالث) وهو قول عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر. (الرابع) إنها كانت ستة أشهر. (الخامس) ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة وصور في ساعة ووضعته في ساعة. (السادس) وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً كانت مدة الحمل ساعة واحدة ويمكن الاستدلال عليه من وجهين: (الأول) قوله تعالى ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ . فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ . فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ والفاء للتعقيب فدلت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة لا يقال انتباذها مكاناً قصياً كيف يحصل في ساعة واحدة لأنا نقول: السدي فسره بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها. (الثاني) إن الله تعالى قال في وصفه ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فثبت أن عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، وإنما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة.

المسألة السادسة: ﴿ قَصِيًّا ﴾ أي بعيداً من أهلها، يقال مكان قاص، وقصي بمعنى واحد مثل عاص وعصي، ثم اختلفوا فقيل أقصى الدار، وقيل وراء الجبل، وقيل سافرت مع ابن عمها يوسف وقد تقدمت هذه الحكاية.

المسألة السابعة: قال صاحب الكشاف «أجاء» منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء فإنك لا تقول جئت المكان، وأجاءنيه زيد كما تقول بلغنيه وأبلغته، والمعنى أن طلقها ألجأها إلى جذع النخلة ثم يحتمل أنها إنما ذهبت إلى النخلة طلباً لسهولة الولادة للتشبث بها. ويحتمل للتقوية والاستناد إليها، ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه القالة إذا رآها، ولذلك حكى الله عنها أنها تمنت الموت.

المسألة الثامنة: قال في الكشاف قرأ ابن كثير في رواية المخاض بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً وهو تمخض الولد في بطنها.

المسألة التاسعة: قال في الكشاف كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء والتعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائره وإما أن يكون تعريف الجنس أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة كان الله أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، ولأن النخلة أقل الأشياء صبراً على البرد ولا

تثمر إلا عند اللقاح، وإذا قطعت رأسها لم تثمر، فكأنه تعالى قال كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح، ثم إني أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر.

المسألة العاشرة: لم قالت ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام ووعدها بأن يجعلها وابنها آية للعالمين، والجواب من وجهين: (الأول) قال وهب أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس [من] بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام. (الثاني) إن عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك وروي عن أبي بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر! وددت أني ثمرة ينقرها الطائر! وعن عمر أنه أخذ تبنة من الأرض وقال ليتني هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئاً! وقال علي يوم الجمل يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، وعن بلال ليت بلال لم تلده أمه. فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم. (الثالث) لعلها قالت ذلك لكي لا تقع المعصية ممن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به.

المسألة الحادية عشر: قال صاحب الكشاف النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطمث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح كقوله ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٧] تمنت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى في العادة. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة نسياً بالفتح والباقون نسياً بالكسر قال الفراء هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، وقرأ محمد بن كعب القرظي نسيئاً بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينساه أهله لقلته وقرأ الأعمش منسياً بالكسر على الإتباع كالمغير والمنخر والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا . وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا . فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: فناداها من تحتها القراءة المشهورة فناداها وقرأ زر وعلقمة فخاطبها وفي الميم فيها قراءتان فتح الميم وهو المشهور وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائي وحفص وفي المنادي ثلاثة أوجه: (الأول) إنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير. (والثاني) إنه جبريل عليه السلام وإنه كان كالقابلة للولد. (والثالث) إن المنادي على القراءة بالكسر وهو الملك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم والأول أقرب لوجوه: (الأول) إن قوله ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾ بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحداً والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادى جبريل عليه السلام، فقد صح قولنا. (الثاني) إن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة وذلك لا يليق بالملائكة. (الثالث) إن قوله فناداها فعل ولا بدّ أن يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى ﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ والضمير هنا عائد إلى المسيح فكان حمله عليه أولى. و(الرابع) هو دليل الحسن بن علي عليه السلام السلام أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام فأما من قال المنادي هو عيسى عليه السلام فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطييباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال المنادي جبريل عليه السلام قال إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بما تقدم من أصناف البشارات وأما قوله ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ فإن حملناه على الولد فلا سؤال وإن حملناه على الملك ففيه وجهان: (الأول) أن يكونا معاً في مكان مستو ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا فكل من كان أقرب منها كان فوق وكل من كان أبعد منها كان تحت وفسر الكلبي قوله تعالى ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ

مِنكُمْ ﴾ [الأحزاب: ١٠] بذلك وعلى هذا الوجه قال بعضهم إنه ناداها من أقصى الوادي. و(الثاني) أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفل وعلى هذا الوجه روي عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية وفيه (وجه ثالث) يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رأته وأنها ما رأته وليس في اللفظ ما يدل على شيء من ذلك.

المسألة الثانية: اتفق المفسرون إلا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السري هو النهر والجدول سمي بذلك لأن الماء يسري فيه وأما الحسن وابن زيد فجعلا السري عيسى والسري هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أي من أشرافهم وروي أن الحسن رجع عنه وروي عن قتادة وغيره أن الحسن تلا هذه الآية وبجنبه حميد بن عبدالرحمن الحميري ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ فقال إن كان لسرياً وإن كان لكريماً، فقال له حميد يا أبا سعيد إنما هو الجدول فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك، واحتج من حمله على النهر بوجهين: (أحدهما) أنه سأل النبيّ ﷺ عن السري فقال هو الجدول. و(الثاني) أن قوله ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي ﴾ يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من حمله [على] عيسى بوجهين: (الأول) أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جانبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها كما في قوله ﴿ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ﴾ [الزخرف: ٥١] لأن هذا حمل اللفظ على مجازه ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج إلى هذا المجاز. (الثاني) إنه موافق لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] والجواب عنه ما تقدم أن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت فرعان: (الأول) إن حملنا السري على النهر ففيه وجهان: (أحدهما) إن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء عذب و(الثاني) إنه كان هناك ماء جار و(الأول) أقرب لأن قوله ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ مشعر بالحدوث في ذلك الوقت ولأن الله تعالى ذكره تعظيماً لشأنها وذلك لا يثبت إلا على الوجه الذي قلناه. (الثاني) اختلفوا في أن السري هو النهر مطلقاً وهو قول أبي عبيدة والفراء أو النهر الصغير على ما هو قول الأخفش.

المسألة الثالثة: قال القفال الجذع من النخلة هو الأسفل وما دون الرأس الذي عليه الثمرة وقال قطرب كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع وأما الباء في قوله بجذع النخلة فزائدة والمعنى هزي إليك أي حركي جذع النخلة، قال الفراء العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام زوجتك فلانة وبفلانة، وقال الأخفش يجوز أن يكون على معنى هزي إليك رطباً بجذع النخلة أي على جذعها، إذا عرفت هذا فنقول قد تقدم أن الوقت كان شتاء وأن النخلة كانت يابسة، واختلفوا في أنه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير، وهل أثمر مع الرطب غيره؟ والظاهر يقتضي أنه صار نخلة لقوله بجذع النخلة وأنه ما أثمر إلا الرطب.

المسألة الرابعة: قال صاحب الكشاف تساقط فيه تسع قراءات تساقط بإدغام التاء وتتساقط بإظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية ويساقط بالياء وإدغام التاء وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع.

المسألة الخامسة: رطباً تمييز أو مفعول على حسب القراءة الجني المأخوذ طرياً وعن طلحة ابن سليمان جنياً بكسر الجيم للأتباع والمعنى جمعنا لك في السري والرطب فائدتين (إحداهما) الأكل والشراب و(الثانية) سلوة الصدر بكونهما معجزتين فإن قال قائل فتلك الأفعال الخارقة للعادات لمن؟ قلنا قالت المعتزلة إنها كانت معجزة لزكريا وغيره من الأنبياء وهذا باطل لأن زكريا عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها فكيف بتلك المعجزات، بل الحق أنها كانت كرامات لمريم أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام.

المسألة السادسة: فكلي واشربي وقري عيناً قرىء

بكسر القاف لغة نجد ونقول قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء، ثم قال وقري عيناً، وههنا سؤال، وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران: (أحدهما) إن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن. و(الثاني) ما روي أنه أجيعت شاة ثم قدم العلق إليها وربط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفاً من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن فدلت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن، إذا ثبت هذا فنقول فلم قدم الله تعالى في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف، والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى.

المسألة السابعة: قال صاحب الكشاف قرأ ترئن بالهمز ابن الرومي عن أبي عمرو وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلأت السويق وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال (صوماً) صمتاً وفي مصحف عبدالله صمتاً وعن أنس بن مالك مثله وقيل صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالاً على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزاً في شرعهم، وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال القفال لعله يجوز لأن الاحتراز عن كلام الآدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة، ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس، وروي أنه دخل أبو بكر على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر إن الإسلام هدم هذا فتكلمي والله أعلم.

المسألة الثامنة: أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لئلا تشرع مع من اتهمها في الكلام لمعنيين: (أحدهما) إن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى. و(الثاني) كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافهاً.

المسألة التاسعة: اختلفوا في أنها هل قالت معهم ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ فقال قوم إنها تكلمت معهم بذلك لأنها كانت مأمورة بأن تأتي هذا النذر عند رؤيتهم فإذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها أمسكت وأومأت برأسها، وقال آخرون إنها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ وهذه الصيغة وإن كانت عامة إلا أنها صارت بالقرينة مخصوصة في حق هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۝ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۝ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أنها كيف أتت بالولد على أقوال: (الأول) ما روي عن وهب قال أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به إلى قومها. (الثاني) ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم إلى غار فأدخلها فيه أربعين يوماً حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلمها عيسى في الطريق، فقال يا أماه أبشري فإني عبدالله ومسيحه. وهذان الوجهان محتملان وليس في القرآن ما يدل على التعيين.

المسألة الثانية: الفرىء، البديع وهو من فري الجلد يروى أنهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ فيحتمل أن يكون المراد شيئاً عجيباً خارجاً عن العادة من غير تعيير وذم ويحتمل أن يكون مرادهم شيئاً عظيماً منكراً فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ لأن هذا القول ظاهره التوبيخ وأما هارون ففيه أربعة أقوال: (الأول) أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد أنك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا،

وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون تبركاً به وباسمه (الثاني) أنه أخو موسى عليه السلام وعن النبيّ ﷺ إنما عنوا هارون النبي وكانت من أعقابه وإنما قيل أخت هارون كما يقال يا أخا همدان أي يا واحداً منهم. و(الثالث) كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة. (الرابع) كان لها أخ يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعيّرت به وهذا هو الأقرب لوجهين: (الأول) إن الأصل في الكلام الحقيقة وإنما ليكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها أخ مسمى بهارون. (الثاني) إنها أضيفت إليه ووصف أبواها بالصلاح وحينئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه أفحش.

المسألة الثالثة: القراءة المشهورة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ وقرأ عمرو بن رجاء التميمي (ما كان اباك امرؤ سوء).

المسألة الرابعة: إنهم لما بالغوا في توبيخها سكتت وأشارت إليه أي إلى عيسى عليه السلام أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه وعن السدي لما أشارت إليه غضبوا غضباً شديداً وقالوا لسخريتها بنا أشد من زناها، روي أنه كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان. وقيل إن زكريا عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها، فقال لعيسى عليه السلام انطق بحجتك إن كنت أمرت بها فقال عيسى عليه السلام عند ذلك (إني عبدالله) فإن قيل كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم؟ قلنا إن جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام ناداها من تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت، فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي إلى زكريا أو لعلها عرفت بالوحي إليها على سبيل الكرامة، بقي ههنا بحثان:

البحث الأول: قوله ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي حصل في ﴿ٱلْمَهْدِ﴾ فكان ههنا بمعنى حصل ووجد وهذا هو الأقرب في تأويل هذا اللفظ، وإن كان الناس قد ذكروا وجوهاً أخر.

البحث الثاني: اختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما روي أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا لها ما قالوا فأشارت إليه وهو في حجرها ولم يكن لها منزل معد حتى يعد لها المهد أو المعنى ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ صَبِيًّا﴾ سبيله أن ينام في المهد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع: (الصفة الأولى) قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وفيه فوائد: (الفائدة الأولى) إن الكلام منه في ذلك الوقت كان سبباً للوهم الذي ذهبت إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع ذلك الوهم فقال ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن كان موهماً من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على العبودية. (الفائدة الثانية) إنه لما أقرّ بالعبودية فإن كان صادقاً في مقاله فقد حصل الغرض وإن كان كاذباً لم تكون القوة قوة إلهية بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه إلهاً. (الفائدة الثالثة) إن الذي اشتدت الحاجة إليه في ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص على إثبات عبودية نفسه كأنه جعل إزالة التهمة عن الله أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما تكلم بها. (الفائدة الرابعة) وهي أن التكلم بإزالة هذه التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم لأن الله سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية والمرتبة العظيمة. وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد، واعلم أن

مذهب النصارى متخبط جداً، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز، ومع ذلك فإنا نذكر تقسيماً حاصراً يبطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول: إما أن يعتقدوا كونه متحيزاً أو لا، فإن اعتقدوا كونه متحيزاً أبطلنا قولهم بإقامة الدلالة على حدوث الأجسام، وحينئذ يبطل كل ما فرعوا عليه. وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز فحينئذ يبطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمر وامتزاج النار بالفحم لأن ذلك لا يعقل إلا في الأجسام فإذا لم يكن جسماً استحال ذلك ثم نقول للناس قولان في الإنسان منهم من قال إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها ومنهم من يقول إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الأجسام فنقول هؤلاء النصارى، إما أن يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل في بدن المسيح أو في نفسه، أو يقولوا لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهاً، أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا إنه على سبيل التشريف اتخذه ابناً كما اتخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلاً فهذه هي الوجوه المعقولة في هذا الباب، والكل باطل، أما القول الأول بالاتحاد فهو باطل قطعاً، لأن الشيئين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد، إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً، فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل، وإن عدما وحصل ثالث فهو أيضاً لا يكون اتحاداً بل يكون قولاً بعدم ذينك الشيئين، وحصول شيء ثالث، وإن في أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالوجود لأنه يستحيل أن يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال. وأما الحلول فلنا فيه مقامان: (الأول) إن التصديق مسبوق بالتصور فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكروا للحلول تفسيرات ثلاثة: (أحدهما) كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم، واعلم أن هذا باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسماً وهم وافقونا على أنه ليس بجسم. و(ثانيها) حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعاً لحصول محله فيه، وهذا أيضاً إنما يعقل في حق الأجسام لا في حق الله تعالى. و(ثالثها) حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات فنقول هذا أيضاً باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجاً فكان ممكناً فكان مفتقراً إلى المؤثر، وذلك محال، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذه الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته في حق الله تعالى امتنع إثباته. (المقام الثاني) احتج الأصحاب على نفي الحلول مطلقاً بأن قالوا لو حل لحل، إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان، فالقول بالحلول باطل، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لأن ذلك يقتضي إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان، لأنا دللنا على أن الله قديم. وعلى أن الجسم محدث، ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجاً إلى المحل والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته لا يكون واجباً لذاته، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل لأنه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها وحلوله في المحل أمر جائز، والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم أن يكون حلوله في المحل أمراً زائداً على ذاته وذلك محال لوجهين: (أحدهما) إن حلوله في المحل لو كان زائداً على ذاته لكان حلول ذلك الزائد في محله زائداً على ذاته أو لزم التسلسل وهو محال. و(الثاني) إن حلوله في ذلك لما كان زائداً على ذاته فإذا حل في محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة، وذلك محال لأنه لو كان قابلاً للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته، وكانت حاصلة أزلاً، وذلك محال لأن وجود الحوادث في الأزل محال، فحصول قابليتها وجب أن يكون ممتنع الحصول فإن قيل لم لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل، لأنه يلزم، أما حدوث الحال أو قدم المحل قلنا لا نسلم وجوب أحد الأمرين، ولم يجوز أن

يقال إن ذاته تقتضي الحلول بشرط وجود المحل ففي الأزل ما وجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب فلا جرم لم يجب الحلول، وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب سلمنا أنه يلزم، أما حدوث الحال أو قدم المحل فلم لا يجوز. قوله إنا دللنا على حدوث الأجسام، قلنا لم لا يجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلاً أو نفساً أو هيولى على ما يثبته بعضهم، ودليلكم على حدوث الأجسام لا يقبل حدوث هذه الأشياء، قوله ثانياً لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجاً إلى المحل، قلنا لا نسلم وجوب أحد الأمرين بل ههنا احتمالان آخران: (أحدهما) إن العلة وإن امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة إلى المعلول فلم لا يجوز أن يقال إن ذاته غنية عن ذلك المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها في ذلك المعلول فيكون وجوب حلولها في ذلك المحل من معلولات ذاته، وقد ثبت أن العلة وإن استحال انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لا يقتضي احتياجها إلى المعلول. (الثاني) أن يقال إنه في ذاته يكون غنياً عن المحل وعن الحلول، إلا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول، فالمفتقر إلى المحل صفة من صفاته وهي حلوله في ذلك المحل فأما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الإضافية إلى الغير افتقار ذاته إلى الغير وذلك لأن جميع الصفات الإضافية الحاصلة له مثل كونه أولاً وآخراً ومقارناً ومؤثراً ومعلوماً ومذكوراً مما لا يتحقق إلا عند حصول التحيز، وكيف لا والإضافات لا بد في تحققها من أمرين، سلمنا ذلك فلِمَ لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل. قوله يلزم أن يكون حلوله فيه زائداً عليه، ويلزم التسلسل، قلنا حلوله في المحل لما كان جائزاً كان حلوله في المحل زائداً عليه، أما كون ذلك الحلول حالاً في المحل أمر واجب فلا يلزم أن يكون حلول الحلول زائداً عليه فلا يلزم التسلسل. قوله ثانياً يلزم أن يصير محل الحوادث، قلنا لِمَ لا يجوز ذلك قوله يلزم أن يكون قابلاً للحوادث في الأزل، قلنا لا شك أن تمكنه من الإيجاد ثابت له إما لذاته أو لأمر ينتهي إلى ذاته، وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثراً في الأزل فكلما ذكرتموه في المؤثرية فنحن نذكره في القابلية، والجواب إنا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الأسئلة، فنقول ذاته، إما أن تكون كافية اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية في ذلك فإن كان الأول استحال توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا إنه يلزم إما قدم المحل أو حدوث الحال. وإن كان الثاني كان كونه مقتضياً لذلك الحلول أمراً زائداً على ذاته حادثاً فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله في محل حدوث شيء فيه لكن يستحيل أن يكون قابلاً للحوادث، وإلا لزم أن يكون في الأزل قابلاً لها وهو محال على ما بيناه، وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لأنه تعالى لذاته قادر على الإيجاد في الأزل فهو قادر على الإيجاد فيما لا يزال فههنا أيضاً لو كانت ذاتاً قابلة للحوادث لكانت في الأزل قابلة لها فحينئذ يلزم المحال المذكور. هذا تمام القول في هذه الأدلة ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخر: (أحدها) إنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه، والمراد من الكلمة العلم. فنقول: العلم لما حل في عيسى ففي تلك الحالة إما أن يقال إنه بقي في ذات الله تعالى أو ما بقي فيها فإن كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين، وذلك غير معقول، ولأنه لو جاز أن يقال العلم الحاصل في ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل في ذات الله تعالى بعينه، فلم لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى؟ وإن كان الثاني لزم أن يقال إن الله تعالى لم يبق عالماً بعد حلول علمه في عيسى عليه السلام وذلك مما لا يقوله عاقل. و(ثانيها) مناظرة جرت بيني وبين بعض النصارى، فقلت له هل تسلم أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا؟ فإن أنكرت لزمك أن لا يكون الله تعالى قديماً لأن دليل وجوده هو العالم فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل، وإن سلمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فنقول إذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت أن كلمة الله

تعالى ما دخلت في زيد وعمرو بل كيف أنها ما حلت في هذه الهرة وفي هذا الكلب، فقال لي إن هذا السؤال لا يليق بك لأنا إنما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فإذا لم نجد شيئاً من ذلك ظهر على يد غيره فكيف نثبت الاتحاد أو الحلول، فقلت له إني عرفت من هذا الكلام أنك ما عرفت أول الكلام لأنك سلمت لي أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فإذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة فأكثر ما في الباب أنه وجد ما يدل على حصوله في حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل في حق زيد وعمرو ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول، فثبت أنك مهما جوزت القول بالاتحاد والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد وذلك الحلول في حق كل واحد بل في حق كل حيوان ونبات ولا شك أن المذهب الذي يسوق قائله إلى مثل هذا القول الركيك يكون باطلاً قطعاً، ثم قلت له وكيف دل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على ما قلت؟ أليس أن انقلاب العصا ثعباناً أبعد من انقلاب الميت حياً فإذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على إلهيته فبأن لا يدل هذا على إلهية عيسى أولى. و(ثالثها) إنا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لأنه كان مجتهداً في العبادة والعبادة لا تليق إلا بالعبيد فإنه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى إن اليهود قتلوه ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية. و(رابعها) المسيح إما أن يكون قديماً أو محدثاً والقول بقدمه باطل لأنا نعلم بالضرورة أنه ولد وكان طفلاً ثم صار شاباً وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر، وإن كان محدثاً مخلوقاً ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فإن قيل المعنى بإلهيته أنه حلت صفة الإلهية فيه، قلنا هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح [إلا] عبد محدث فكيف يمكن وصفه بالإلهية. و(خامسها) إن الولد لا بدّ وأن يكون من جنس الوالد فإن كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه فأذن قد اشتركا من بعض الوجوه، فإن لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر، وإن حصل الإمتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك، فيلزم وقوع التركيب في ذات الله وكل مركب ممكن، فالواجب ممكن هذا خلف محال هذا كله على الاتحاد والحلول (أما الاحتمال الثالث) وهو أن يقال معنى كونه إلهاً أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف في هذا العالم فهذا أيضاً باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه ولو كان قادراً على خلق الأجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكراً يذبون عنه. (وأما الاحتمال الرابع) وهو أنه اتخذه ابناً لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية وليس فيه كثير خطأ إلا في اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال إني عبدالله (الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلف الناس فيه فالجمهور على أنه قال هذا الكلام حال صغره وقال أبو القاسم البلخي إنه إنما قال ذلك حين كان كالمراهق الذي يفهم وإن لم يبلغ حد التكليف أما الأولون فلهم قولان: (أحدهما) إنه كان في ذلك الصغر نبياً. (الثاني) روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال المراد بأن حكم وقضى بأنه سيبعثني من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد إلى حال الصغر، ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبياً، واحتج من نص على فساد القول الأول بأمور: (أحدها) إن النبيّ لا يكون كاملاً والصغير ناقص الخلقة بحيث يعد هذا التحدي من الصغير منفراً بل هو في التنفير أعظم من أن يكون امرأة. و(ثانيها) إنه لو كان نبياً في هذا الصغر لكان كمال عقله مقدما على ادعائه للنبوة إذ النبي لا بدّ وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله في ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدماً على التحدي وإنه غير جائز. و(ثالثها) إنه لو كان نبياً في ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان

الأحكام، وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ما كان نبياً في ذلك الوقت. أجاب الأولون عن الكلام الأول بأن كون الصبي ناقصاً ليس لذاته بل الأمر يرجع إلى صغر جسمه ونقصان فهمه، فإذا أزال الله تعالى هذه الأشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة إلى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل. وعن الكلام الثاني لِمَ لا يجوز أن يقال إكمال عقله وإن حصل مقدماً على دعواه إلا أنه معجزة لزكريا عليه السلام، أو يقال إنه إرهاص لنبوته أو كرامة لمريم عليها السلام وعندنا الإرهاص والكرامات جائزة، وعن الكلام الثالث لم لا يجوز أن يقال مجرد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع والأحكام جائز ثم بعد البلوغ أخذ في شرح تلك الأحكام، فثبت بهذا أنه لا امتناع في كونه نبياً في ذلك الوقت وقوله ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يدل على كونه نبياً في ذلك الوقت فوجب إجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة، أما قول أبي القاسم البلخي فبعيد وذلك لأن الحاجة إلى كلام عيسى عليه السلام إنما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام.

المسألة الثانية: اختلفوا في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لأن الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة، وقال أبو مسلم المراد هو الإنجيل لأن الألف واللام ههنا للجنس أي آتاني من هذا الجنس، وقال قوم المراد هو التوراة والإنجيل لأن الألف واللام تفيد الاستغراق.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أنه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبياً لأن قوله ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ يدل على أن ذلك كان قد حصل من قبل إما ملاصقاً لذلك الكلام أو متقدماً عليه بأزمان، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبياً وأمره بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلى الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة فقيل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم مما يدل على براءة حالها فلهذا أشارت إليه بالكلام. (الصفة الثالثة) قوله ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ قال بعضهم أخبر أنه نبي ولكنه ما كان رسولاً لأنه في ذلك الوقت ما جاء الشريعة ومعنى كونه نبياً أنه رفيع القدر على الدرجة وهذا ضعيف لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصاً إذا قرن إليه ذكر الشرع وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة. (الصفة الرابعة) قوله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ فلقائل أن يقول كيف جعله مباركاً والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة فلما جاء صار بعضهم يهوداً وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحق إلا القليل، والجواب ذكروا في تفسير المبارك وجوهاً: (أحدها) إن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير فمعناه جعلني ثابتاً على دين الله مستقراً عليه. و(ثانيها) إنه إنما كان مباركاً لأنه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق فإن ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله وروى الحسن عن النبيّ ﷺ قال أسلمت أم عيسى عليها السلام عيسى إلى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه إليك على أن لا تضربه فقال له المعلم أكتب فقال أي شيء أكتب، فقال أكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد؟ فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني إن كنت لا تدري فاسألني فأنا أعلمك الألف من آلاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من أداء الحق إلى الله. و(ثالثها) البركة الزيادة والعلو فكأنه قال جعلني في جميع الأحوال غالباً مفلحاً منجحاً لأني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعلياً بالحجة فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء. و(رابعها) مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي إحيائي الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، عن قتادة أنه رأته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به، فقال عيسى عليه السلام مجيباً لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً. أما قوله ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل إنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف. (الصفة الخامسة) قوله ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ فإن قيل كيف أمر بالصلاة والزكاة

مع أنه كان طفلاً صغيراً والقلم مرفوع عنه على ما قاله ﷺ «رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يبلغ» الحديث وجوابه من وجهين: (الأول) إن قوله ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فلعل المراد أنه تعالى أوصاه بهما وبأدائهما في الوقت المعين له وهو وقت البلوغ. (الثاني) لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغاً عاقلاً تام الأعضاء. والخلقة وتحقيقه قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكما أنه تعالى خلق آدم تاماً كاملاً دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام، وهذا القول الثاني أقرب إلى الظاهر لقوله ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته ولكن لقائل أن يقول لو كان الأمر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصاً كامل الأعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجباً فكان ينبغي أن لا يعجبوا فلعل الأولى أن يقال إنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل مرة أخرى. (الصفة السادسة) قوله تعالى ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ أي جعلني براً بوالدتي وهذا يدل على قولنا إن فعل العبد مخلوق لله تعالى لأن الآية تدل على أن كونه براً إنما حصل بجعل الله وخلقه وحمله على الألطاف عدول عن الظاهر ثم قوله ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي ﴾ إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها قال صاحب الكشاف جعل ذاته براً لفرط بره ونصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفني بها واحداً. (الصفة السابعة) قوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ وهذا أيضاً يدل على قولنا لأنه لما بين أنه جعله براً وما جعله جباراً فهذا إنما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جباراً وغير بار بأمه، فإن الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك، ومعلوم أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك في معرض التخصيص وقوله ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ أي ما جعلني متكبراً بل أنا خاضع لأني متواضع لها ولو كنت جباراً لكنت عاصياً شقياً، وروي أن عيسى عليه السلام قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي وعن بعض العلماء لا تجد العاق إلا جباراً شقياً وتلا ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ ولا تجد سيء الملكة إلا مختالاً فخوراً وقرأ ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦]. (الصفة الثامنة) هي قوله ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم لام التعريف في السلام منصرف إلى ما تقدم في قصتي يحيى عليه السلام من قوله ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم: ٥] أي السلام الموجه إليه في المواطن الثلاثة موجه إلي أيضاً وقال صاحب الكشاف الصحيح أن يكون هذا التعريف تعويضاً باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه أن اللام للاستغراق فإذا قال ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ ﴾ فكأنه قال وكل السلام علي وعلى أتباعي فلم يبقَ للأعداء إلا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [طه: ٤٧] بمعنى أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض.

المسألة الثانية: روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيى أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت على نفسي وأجاب الحسن فقال إن تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه.

المسألة الثالثة: قال القاضي السلام عبارة عما يحصل به الأمان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى، ولا بد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات في كل الأحوال، واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية واحتجوا عليه بأن هذا

من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من أشد الناس بحثاً عن أحواله وأشد الناس غلواً فيه حتى زعموا كونه إلهاً ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلم، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها ففي تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم في المهد وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله.

قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وابن عامر ﴿ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ بالنصب وعن ابن مسعود (قال الحق) و(قال الله) وعن الحسن (قُول الحق) بضم القاف وكذلك في الأنعام ﴿ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ ﴾ [الأنعام: ٧٣] والقول والقال والقول في معنى واحد كالرهب والرهب والرهب، أما ارتفاعه فعلى أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله أو على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عند الله الحق لا الباطل والله أعلم.

المسألة الثانية: لا شبهة أن المراد بقوله ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ الإشارة إلى ما تقدم وهو قوله ﴿ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم وفي قوله ﴿ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ﴾ إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله، فأما ﴿ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ﴾ ففيه وجوه: (أحدها) وهو أن نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق وذلك لأن الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن نقول عيسى كلمة الله وبين أن نقول عيسى قول الحق. و(ثانيها) أن يكون المراد ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ إلا أنك أضفت الموصوف إلى الصفة فهو كقوله ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٥] وفائدة قولك ﴿ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ تأكيد ما ذكرت أولاً من كون عيسى عليه السلام ابناً لمريم. و(ثالثها) أن يكون قول الحق خبراً لمبتدأ محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووصفنا له هو قول الحق فكأنه تعالى وصفه أولاً ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى ابن مريم ثم ذكر أن هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى أنه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية ويكون في معنى إن هذا ﴿ لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾. فأما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فالمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران، روي أن عيسى عليه السلام لما رفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للأول ما تقول في عيسى؟ فقال هو إله والله إله وأمه إله، فتابعه على ذلك ناس وهم الإسرائيلية، وقيل للرابع ما تقول؟ فقال هو عبدالله ورسوله وهو المؤمن المسلم، وقال أما تعلمون أن عيسى كان يطعم وينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك؟ فخصمهم، أما قوله ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ﴾ فهو يحتمل أمرين: (أحدهما) أن ثبوت الولد له محال فقولنا ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ ﴾ كقوله ما كان لله أن يقول لأحد إنه ولدي لأن هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكماله فقوله ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ﴾ كقولنا ما كان لله أن يظلم أي لا يليق ذلك بحكمته وكمال إلهيته، واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير أنه ليس لله أن يفعل كل شيء لأنه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الإيجاد أي ليس له هذا الاختيار وأجاب أصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى فلا جرم قال ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ﴾ أما قوله ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إنه تعالى لما قال سبحانه ثم قال عقيبه

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ كان كالحجة على تنزيهه عن الولد وبيان ذلك أن الذي يجعل ولداً لله، إما أن يكون قديماً أزلياً أو يكون محدثاً فإن كان أزلياً فهو محال لأنه لو كان واجباً لذاته لكان واجب الوجود أكثر من واحد. هذا خلف. وإن كان ممكناً لذاته كان مفتقراً في وجوده إلى الواجب لذاته غنياً لذاته فيكون الممكن محتاجاً لذاته فيكون عبداً له لأنه لا معنى للعبودية إلا ذلك، وأما إن كان الذي يجعل ولداً يكون محدثاً فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وإيجاده وهو المراد من قوله ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ عبداً له لا ولداً له فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولداً.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بقوله ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ على قدم كلام الله تعالى قالوا لأن الآية تدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له، كن فيكون فلو كان قوله كن محدثاً لافتقر حدوثه إلى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال، فثبت أن قول الله قديم لا محدث، واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه: (أحدها) إنه تعالى أدخل عليه كلمة إذا وهذه الكلمة دالة على الاستقبال فوجب أن لا يحصل القول إلا في الاستقبال. و(ثانيها) إن حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ ﴾ يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء والمتأخر عن غيره محدث. و(ثالثها) الفاء في قوله ﴿ فَيَكُونُ﴾ يدل على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك القول من غير فصل فيكون قول الله متقدماً على حدوث الحادث تقدماً بلا فصل والمتقدم على المحدث تقدماً بلا فصل يكون محدثاً، فقول الله محدث. واعلم أن استدلال الفريقين ضعيف، أما استدلال الأصحاب فلأنه يقتضي أن يكون قوله ﴿ كُن ﴾ قديماً وذلك باطل بالاتفاق، وأما استدلال المعتزلة فلأنه يقتضي أن يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والأصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه إنما المدعي قدم شيء آخر.

المسألة الثالثة: من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم أنه تعالى إذا أحدث شيئاً قال له كن وهذا ضعيف لأنه، إما أن يقول له كن قبل حدوثه أو حال حدوثه. فإن كان الأول كان ذلك خطاباً مع المعدوم وهو عبث وإن كان الثاني فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والإرادة فأي تأثير لقوله كن فيه، ومن الناس من زعم أن المراد من قوله ﴿ كُن ﴾ هو التخليق والتكوين وذلك لأن القدرة على الشيء غير وتكوين الشيء غير فإن الله سبحانه قادر في الأزل وغير مكون في الأزل، ولأنه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكون لها، والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكون لأنا نقول المكون إنما حدث لأن الله تعالى كونه فأوجده، فلو كان التكوين نفس المكون لكان قولنا المكون إنما وجد بتكوين الله تعالى نازلاً منزلة قولنا المكون إنما وجد نفسه وذلك محال، فثبت أن التكوين غير المكون فقوله ﴿ كُن﴾ إشارة إلى الصفة المسماة بالتكوين، وقال آخرون قوله ﴿ كُن﴾ عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته في الممكنات. فإن وقوعها بتلك القدرة والإرادة من غير امتناع واندفاع يجري مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لأوامر مولاه، فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة.

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

اعلم أن قوله ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ المدينيون وأبو عمرو بفتح أن، ومعناه ولأنه ربي وربكم فاعبدوه، وقرأ الكوفيون وأبو عبيدة بالكسرة على الابتداء، وفي حرف أبي (إن الله) بالكسر من غير واو أي بسبب ذلك فاعبدوه.

المسألة الثانية: إنه لا يصح أن يقول الله ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ﴾ فلا بدّ وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى، وفيه قولان: (الأول) التقدير فقل يا محمد إن الله ربي وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة في أن عيسى هو عبد الله. (الثاني) قال أبو مسلم الأصفهاني: الواو في وإن الله عطف على قول عيسى عليه السلام ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كأنه قال إني عبدالله وإنه ربي وربكم فاعبدوه، وقال وهب بن منبه عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه

ومولده ونعته أن الله ربي وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ يدل على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى على خلاف قول المنجمين إن مدبر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب ويدل أيضاً على أن الإله واحد لأن لفظ الله اسم علم له سبحانه فلما قال ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى ذلك يدل على التوحيد، أما قوله ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فقد ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية فههنا الأمر بالعبادة وقع مرتباً على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه إنما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه رباً لنا، وذلك يدل على أنه تعالى إنما تجب عبادته لكونه منعماً على الخلائق بأصول النعم وفروعها، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام لما منع أباه من عبادة الأوثان قال ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢] يعني أنها لما لم تكن منعمة على العباد لم تجز عبادتها، وبهذه الآية ثبت أن الله تعالى لما كان رباً ومربياً لعباده وجبت عبادته، فقد ثبت طرداً وعكساً تعلق العبادة بكون المعبود منعماً، أما قوله ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ يعني القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة صراط مستقيم وأنه سمى هذا القول بالصراط المستقيم تشبيهاً بالطريق لأنه المؤدي إلى الجنة...

وإذا قلنا المراد بقوله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي قل يا محمد إن الله ربي وربكم، فهذا القول أظهر لأنه لا تخصيص فيه...

ابن عربي ج ٢ ص ١١ ـ ١٦

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ المكان الشرقي، هو مكان العالم القدسي لاتصالها بروح القدس عند تجرّدها، وانتباذها عن ممكن الطبيعة، ومقرّ النفس، وأهمها القوى النفسانية، والطبيعية.

والحجاب الذي اتخذته من دونهم، وهو حظيرة القدس، الممنوع من أهل عالم النفس، بحجاب الصدر، الذي هو غاية مبلغ علم القوى المادية، ومدى سيرها، وما لم تترق إلى العالم القدسيّ بالتجرّد، لم يمكن إرسال روح القدس إليها، كما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وإنما تمثل لها بشراً سوي الخلق، حسن الصورة، لتتأثر نفسها به، وتستأنس، فتتحرّك على مقتضى الجبلة، ويسري الأثر من الخيال في الطبيعة، فتتحرّك شهوتها فتنزل كما يقع في المنام من الإحتلام، وتنقذف نطفتها في الرحم، فيتخلّق منه الولد.

وقد مرّ أن الوحي قريب من المنامات الصّادقة، تمدد القوّة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده، كما في النّوم، فكلّ ما يُرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا قلباً، والاتصالات التي لها بالأرواح القدسيّة، يسري في النفس الحيوانية والطبيعية، وينفعل منه البدن.

وإنما أمكن تولّد الولد من نطفة واحدة، لأنه ثبت في العلوم الطبيعية، أنّ منيّ الذكر في تكوّن الولد بمنزلة الأنفحة في الجبن، ومنيّ الأنثى بمنزلة اللّبن، أي العقد من منيّ الذكر، والإنعقاد من منيّ الأنثى، لا على معنى، أنّ منيّ الذّكر ينفرد بالقوّة العاقدة، ومنيّ الأنثى بالقوّة المنعقدة، بل على معنى، أنّ القوة العاقدة في منيّ الذّكر أقوى، والمنعقدة في منيّ الأنثى أقوى، وإلاّ لم يمكن أن يتحد شيئاً واحداً، ولم ينعقد الذكر حتى يصير جزء من الولد.

فعلى هذا، إذا كان مزاج الأنثى قوياً ذكورياً كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى، وكان مزاج كبدها حاراً، كان المنيّ المنفصل عن كليّتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذي ينفصل عن كليّتها اليسرى، فإذا اجتمعا في الرّحم، وكان مزاج الرحم قوياً في الإمساك والجذب، قام المنفصل من الكليّة اليمنى مقام الذكر في شدّة قوة العقد، والمنفصل من الكليّة اليسرى مقام منيّ الأنثى في قوّة الانعقاد، فيتخلّق الولد هذا؛ وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس، متقوية، يسري أثر اتصالها به إلى الطبيعة، والبدن، ويغير المزاج، ويمدّ جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس، والله أعلم.

﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ دالة على البعث والنشور ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ عليهم بتكميلهم به بالشرائع والحكم، والمعارف، وهدايتهم بسبب فعلنا ذلك، فهو صورة الرحمة الإلهية المعنوية ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ في اللّوح، مقدّراً في الأزل. وعن ابن عباس فاطمأنت إليه، بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾. فدنا منها فنفخ في جيب الدرع، أي البدن، وهو سبب انزالها على ما ذكرنا، كالغلمة مثلاً، والمعانقة التي كثيراً ما تصير سبباً للإنزال.

وقيل إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله، واتصاله بها وتعلّقه بنطفتها، والحق أنه روح القدس، لأنه كان السبب الفاعلي لوجوده، كما قال: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾.

واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة في الرحم، واستقرارها فيه، ريثما تمتزج وتتحد، وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ ﴾ أي معه ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ أي، بعيداً من المكان الأول الشرقي، لأنها وقعت به في المكان الغربي، الذي هو عالم الطبيعة، والأفق الجسماني، ولهذا قال: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ نخلة النفس ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ ﴾ أي ناداها جبريل من الجهة السفلية بالنسبة إلى مقامها من القلب، أي، من عالم الطبيعة، الذي كان حزنها من جهته، وهو الحمل الذي هو سبب تشوّرها، وافتضاحها ﴿ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾، أي جدولاً، من غرائب العلم الطبيعي، وعلم توحيد الأفعال، الذي خصّك الله بها واصطفاك، كما رأيت من تولد الجنين من نطفتك، وحدها.

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ﴾ نخلة نفسك، التي بسقت في سماء الروح، باتصالك بروح القدس، واخضرّت بالحياة الحقيقية، بعد يبسها بالرياضة، وجفافها بالحرمان عن ماء الهوى وحياته، وأثمرت المعارف، والمعاني، أي، حرّكيها بالفكر ﴿ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ ﴾ من ثمرات المعارف، والحقائق ﴿ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى ﴾ أي، من فوقك رطب الحقائق، والمعارف الإلهية، وعلم تجليات الصفات، والمواهب، والأحوال ﴿ وَٱشْرَبِى ﴾ من تحتك ماء العلم الطبيعي، وبدائع الصّنع، وغرائب الأفعال الإلهية، وعلم التوكل، وتجليات الأفعال، والأخلاق، والمكاسب، كما قال تعالى: ﴿ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿ وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ بالكمال، والولد المبارك، الموجود بالقدرة، الموهوب بالعناية ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا ﴾ أي، من أهل الظاهر، المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب، وبالصنع، والحكمة، عن الإبداع والقدرة، الذين لا يفهمون قولك، ولا يصدّقون بك، وبحالك، لوقوفهم مع العادة، واحتجابهم بالعقول المشوبة بالوهم، المحجوبة عن نور الحق ﴿ فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ أي، لا تكلميهم في أمرك شيئاً، ولا تماديهم فيما لا يمكنهم قبوله، حتى ينطق هو بحاله.

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ ﴾ في المواطن الثلاثة كما على يحيى لكون ذاتي مجرّدة مقدسة، لا تحتجب بالمواد، حتى في الطفولة، إذ معنى السلام، التنزه عن العيوب اللاحقة بواسطة تعلق المادة ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي، كلمته التي هي عبارة عن ذات مجردة أزلية، كما مرّ غير مرة.

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ لامتناع وجود شيء آخر معه ﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ﴾ عن أن يوجد معه شيء ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي، يبدعه بمجرد تعلق إرادته به من غير زمان.

القرطبي ج ١١ ص ٨٩ ـ ١٠٨

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ القصة إلى آخرها. هذا ابتداء قصة ليست من الأولى. والخطاب لمحمد ﷺ؛ أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا.

﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ ﴾ أي تنحت وتباعدت. والنبذ الطرح والرمي؛ قال الله تعالى: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]. ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أي ممن كان معها. و﴿ إِذِ ﴾ بدل من

﴿مَرْيَمَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها. والانتباذ الاعتزال والانفراد. واختلف الناس لم انتبذت؛ فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس. وقال غيره: لتعبد الله؛ وهذا حسن. وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفاً على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت من الناس لذلك، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرقيه لتخلو للعبادة، فدخل عليها جبريل عليه السلام. فقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾. أي مكاناً من جانب الشرق والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس. والشرق بفتح الراء الشمس. وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها، حكاه الطبري. وحكى عن ابن عباس أنه قال: إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام وقالوا: لو كان شيء من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه. واختلف الناس في نبوة مريم؛ فقيل: كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملَك. وقيل: لم تكن نبية وإنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رؤى جبريل [عليه السلام] في صفة دحية (الكلبي) حين سؤاله عن الإيمان والإسلام. والأول أظهر. وقد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفى في «آل عمران» والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾... لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها. وقيل: هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصاً وكرماً. والظاهر أنه جبريل عليه السلام أي تمثل الملك لها؛ لقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي تمثل الملك لها. ﴿بَشَرًا﴾ تفسير أو حال. ﴿سَوِيًّا﴾ أي مستوى الخلقة؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل في صورته. ولما رأت رجلاً حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء فـ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي ممن يتقي الله. البِكاليّ: فنكص جبريل عليه السلام فزعاً من ذكر الرحمن تبارك وتعالى. الثعلبيّ: كان رجلاً صالحاً فتعوّذت به تعجباً. وقيل: تقي فعيل بمعنى مفعول أي كنت ممن يتقي منه. وفي البخاري قال أبو وائل: علمت مريم أن التقيّ ذو نهيةٍ حين قالت: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾. وقيل: تقي اسم فاجر معروف في ذلك الوقت؛ قاله وهب بن منبه؛ حكاه مكي وغيره. ابن عطية: وهو ضعيف ذاهب مع التخرص. فقال لها جبريل عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وقرأ ورش عن نافع: «ليهب لك» على معنى أرسلني الله ليهب لك. وقيل: معنى «لأهب» بالهمز محمول على المعنى؛ أي قال: أرسلته لأهب لك. ويحتمل «ليهب» بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة. فلما سمعت مريم ذلك من قوله استفهمت عن طريقه فـ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ أي بنكاح. ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي زانية. وذكرت هذا تأكيداً؛ لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام. وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ وروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكمها؛ قاله ابن جريج. ابن عباس: أخذ جبريل عليه السلام رُدْن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. قال الطبري: وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها نيفاً وخمسين سنة. وقوله ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي ونخلقه لنجعله: ﴿ءَايَةً﴾ دلالة على قدرتنا عجيبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ [أي] لمن آمن به. ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً في اللوح مسطوراً.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد، قال ابن عباس: إلى أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال؛

وإنما بعدت فراراً من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج. قال ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل. وقيل: غير ذلك على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ «أجاءها» [بمعنى] اضطرها؛ وهو تعدية جاء بالهمز. يقال: جاءه به وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال: ذهب به وأذهبه. وقرأ شبيل ورويت عن عاصم: «فاجأها» من المفاجأة. وفي مصحف أبيّ: «فلما أجاءها المخاض». وقال زهير:

وجَارٍ سَارَ معتمداً إليكم
أَجَاءَتْهُ المخَافَةُ والرَّجَاءُ

وقرأ الجمهور: ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ بفتح الميم. وابن كثير فيما روى عنه بكسرها وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها. مَخَضت المرأة تَمخَّض مَخاضاً ومِخاضاً. وناقة ماخض أي دنا ولادها. ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدّة وجع الطلق. . . ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ تمنّت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين: أحدهما ـ أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك. الثاني ـ لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك. وعلى هذا الحدّ يكون تمنّي الموت جائزاً، وقد مضى هذا المعنى مبيّناً في سورة «يوسف» عليه السلام. والحمد لله.

قلت: وقد سمعتُ أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول: اخرج يا مَن يُعبد من دون الله فحزنت لذلك، و﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ . . . وحكي عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا: احفظوا نساءكم؛ الأنساء جمع نِسي وهو الشيء الحقير يغفل فينسى. ومنه قول الكميت رضي الله تعالى عنه:

أتجعلُنا جِسْراً لكلبِ قُضَاعَةٍ
ولسْتُ بِنسْيٍ في معَدٍّ ولا دَخْلِ

وقال الفراء: النسي ما تلقيه المرأة من خَرق اعتلالها؛ فقول مريم: ﴿نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ أي حيضة ملقاة. وقرىء: «نَسْياً» بفتح النون وهما لغتان مثل الحِجْر والحَجر والوِتْر والوَتْر. وقرأ محمد بن كعب القرظي بالهمز: «نِسئا» بكسر النون. وقرأ نوف البِكاليّ: «نسئاً» بفتح النون من نسأ الله تعالى في أجله أي أخره. وحكاه أبو الفتح والداني عن محمد بن كعب. وقرأ بكر بن حبيب: «نَسًّا» بتشديد السين وفتح النون دون همز. . . قال السدي فذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] . وذكر أيضاً من قصصها أنها خرجت فارّة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار، كان يخدم معها في المسجد. وطوّل في ذلك. قال الكلبي: قيل ليوسف ـ وكانت سميت له أنها حملت من الزنى ـ فالآن يقتلها الملك، فهرب بها، فهمّ في الطريق بقتلها، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس؛ قال ابن عطية: وهذا كله ضعيف. وهذه القصة تقتضي أنها حملت، وأستمرّت حاملاً على عرف النساء، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر. قال عكرمة؛ ولذلك قيل: لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصة عيسى. وقيل: ولدته لتسعة. وقيل: لستة. وما ذكرناه عن ابن عباس أصح وأظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قرىء بفتح الميم وكسرها. قال ابن عباس: المراد بـ﴿مِن﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة؛ ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله [تعالى] فيها مراد عظيم. وقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ تفسير النداء، و«أن» مفسرة بمعنى أي؛ فلا تحزني بولادتك. ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعني عيسى. والسريّ من الرجال العظيم الخصال السيّد. قال الحسن: كان والله سرياً من الرجال. ويقال: سَرِي فلان على فلان أي تكرم. وفلان سريٌّ من قوم سَراةٍ. . . قال ابن عباس: كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم والنهر يسمى سرِياً كأن الماء يسري فيه؛ قال الشاعر:

سَلْمٌ تَرى الدَّالِيَّ منه أزْوَرَا
إذا يَعُبُّ في السَّرِيِّ هَرْهَرا

وقال لبيد:

تَـوسَّطا عُـرْضَ السَّـرِيِّ وصَـدَّعـا
مَسْجُـورَة مُتجـاوراً قُـلاَّمُها

وقيل: ناداها عيسى، وكان ذلك معجزة وآية وتسكيناً لقلبها، والأول أظهر. وقرأ ابن عباس: «فناداها ملك مِن تحتِها» قالوا: وكان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها.

قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ﴾ أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع. والباء في قوله: ﴿بِجِذْعِ﴾ زائدة مؤكدة كما يقال: خذ بالزمام، وأعط بيدك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥] أي فليمدد سبباً. وقيل: المعنى؛ وهزي إليك رطباً على جذع النخلة. و﴿تُسَٰقِطْ﴾ أي تتساقط فأدغم التاء في السين وقرأ حمزة: «تَسَاقَطْ» مخففاً فحذف التي أدغمها غيره. وقرأ عاصم في رواية حفص: «تُساقِطْ» بضم التاء مخففاً وكسر القاف. وقرىء: «تَتَسَاقَطْ» بإظهار التاءين، «ويَسَّاقَطْ» بالياء وإدغام التاء و«تُسْقِطْ» و«يُسْقِط» و«تَسْقُطْ» و«يَسْقط» بالتاء للنخلة وبالياء للجذع؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري رحمة الله تعالى عليه. ﴿رُطَبًا﴾ نصب بالهز؛ أي إذا هززت الجذع هززتِ بهزه ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾. وعلى الجملة فـ«رطباً» يختلف نصبه بحسب معاني القراءات؛ فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة. و﴿جَنِيًّا﴾ معناه قد طابت وصلحت للاجتناء، وهي من جنيت الثمرة. ويروى عن ابن مسعود ـ ولا يصح ـ أنه قرأ: «تساقط عليك رطباً جنياً برنيًا». وقال مجاهد: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ قال: كانت عجوة. وقال عباس بن الفضل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فقال: لم يذو. قال وتفسيره: لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدي مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح. قال الفراء: الجنيّ والمجنيّ واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القتيل والمقتول والجريح والمجروح. وقال غير الفراء: الجنيّ المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته؛ وأنشدوا:

وطيـب ثمـارٍ فـي ريـاضٍ أريضـةٍ
وأغصـان أشجـارٍ جَنـاهـا علـى قُـرْبِ

يريد بالجَني ما يجنى منها أي يقطع ويؤخذ. قال ابن عباس: كان جذعاً نخراً فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم أخضر فصار بلحاً ثم احمرّ فصار زهواً، ثم رطباً؛ كل ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء.

الثانية: استدلّ بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً؛ فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهز.

الثالثة: الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يقدح في التوكل، خلافاً لما تقوله جهال المتزهدة؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه، وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] فلما ولدت أُمِرت بهز الجذع. قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النصب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده. وحكى الطبري عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها: لا تحزني؛ فقالت له كيف لا أحزن وأنت معي؟ إلا ذات زوج ولا مملوكة! أي شيء عذري عند الناس؟! ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام.

الرابعة: قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم؛ ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك. وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل؛ ذكره الزمخشري. قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى: ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ الجنيّ من التمر ما طاب من غير

نقش ولا إفساد. والنقش أن يُنقَش من أسفل البسرة حتى ترطب؛ فهذا مكروه؛ يعني مالك أن هذا تعجيل للشيء قبل وقته، فلا ينبغي لأحد أن يفعله، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوّزاً لبيعه؛ ولا حُكماً بطيبه. وقد مضى هذا القول في الأنعام. والحمد لله. وعن طلحة بن سليمان ﴿جِنِيًّا﴾ بكسر الجيم للاتباع؛ أي جعلنا لكِ في السريّ والرطب فائدتين: إحداهما الأكل والشرب، والثانية سلوة الصدر؛ لكونهما معجزتين؛ وهو [معنى] قوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي فكلي من الجنيّ، واشربي من السريّ، ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ برؤية الولد النبيّ. وقرىء بفتح القاف وهي قراءة الجمهور... يقال: قَرَّ عَيْنَاً يَقَر ويقِر بضم القاف وكسرها؛ وأقر الله عينه فقرّت. وهو مأخوذ من القرّ والقِرّة وهما البرد. ودمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة. وضعف فرقة هذا وقالت: الدمع كله حار، فمعنى أقر الله عينه أي سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقرّ وتسكن؛ وفلان قرة عيني؛ أي نفسي تسكن بقربه. وقال الشيباني: ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ معناه نامي؛ حضها على الأكل والشرب والنوم. قال أبو عمرو: أقرّ الله عينه أي أنام عينه، وأذهب سهره. و﴿عَيْنًا﴾ نصب على التمييز؛ كقولك: طب نفساً. والفعل في الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذي العين؛ وينصب الذي كان فاعلاً في الحقيقة على التفسير. ومثله طبت نفساً، وتفقأت شحماً وتصببت عرقاً، ومثله كثير.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ الأصل في ترِين تَرْأَيين فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار، «تريين»، ثم قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها؛ فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التأنيث، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار تَرَيْن، ثم حذفت النون علامة للجزم؛ لأن إن حرف شرط وما صلة فبقي تَرَيْ، ثم دخله نون التوكيد وهي مثقلة، فكسر ياء التأنيث لالتقاء الساكنين؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار تَرَين؛ وعلى هذا النحو قول ابن دريد:

* إما تَرَيْ رأسِي حَاكَى لونه *

وقول الأفوه:

* إمـا تَـرَيْ رأسـي أَزْرَى بـه *

وإنمـا دخلـت النـون هنـا بتـوطئـة «مـا» كمـا يـوطّـىء لدخولها أيضاً لام القسم. وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة: «تَرَيْنَ» بسكون الياء وفتح النون خفيفة؛ قال أبوالفتح: وهي شاذة.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ هذا جواب الشرط وفيه إضمار؛ أي فسألكِ عن ولدكِ ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي صمتاً؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك. وفي قراءة أبيّ بن كعب «إنِّي نَذَرْتُ للرَّحمَنِ صَوْماً صمتـاً». وروي عـن أنـس، وعنـه أيضـاً «وصمتـاً» بـواو، واختـلاف اللفظيـن يـدل علـى أن الحـرف ذكـر تفسيـراً لا قرآناً؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم. والذي تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام. وقيل: هو الصوم المعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة. وعلى هذا تخرج قراءة أنس «وصمتا» بواو، وأن الصمت كان عندهم في الصوم ملتزماً بالنذر، كما أن من نذر منا المشي إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة. ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام ـ أو ابنها على الخلاف المتقدم ـ بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها خجلها، وتتبين الآيةُ فيقوم عذرها. وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية، وهو قول الجمهور. وقالت فرقة: معنى «قولي» بالإشارة لا بالكلام...

الثالثة: من التزم بالنذر ألاّ يكلم أحداً من الآدميين فيحتمل أن يقال: إنه قُربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقـال: ذلـك لا يجـوز فـي شـرعنـا لمـا فيـه مـن التضييـق وتعذيب النفس، كنذر القيام في الشمس ونحوه. وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا؛ وقد تقدم. وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام.

وهذا هو الصحيح لحديث أبي إسرائيل، خرّجه البخاري عن ابن عباس. وقال ابن زيد والسديّ: كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام.

قلت: ومن سنّتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام «إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم». وقال عليه الصلاة والسلام: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

قوله تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ رُوي أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه. قال ابن عباس: خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله. فقالوا منكرين: ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾... قال مجاهد: «فَرِياً» عظيماً. وقال سعيد بن مسعدة: أي مختلقاً مفتعلاً؛ يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد. والولد من الزنى كالشيء المفترى. قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ﴾ [الممتحنة: ١٢] أي بولد يقصد إلحاقه بالزوج وليس منه. يقال: فلان يفري الفريّ أي يعمل العمل البالغ، وقال أبو عبيدة: الفريّ العجيب النادر؛ وقاله الأخفش. قال: فرياً عجيباً والفَرْي القطع كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع القول بكونه عجيباً نادراً. وقال قطرب: الفري الجديد من الأسبقية؛ أي جئت بأمر جديد بديع لم تسبقي إليه. وقرأ أبو حيوة: «شَيْئاً فَرْياً» بسكون الراء. وقال السديّ ووهب بن منبّه: لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدّت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحُملت كذلك. وقال آخر: ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى؛ فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها؛ وجعلوا يخفضون إليها القول ويلينون؛ فقالوا: ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ أي عظيماً؛ قال الراجز:

قد أطعَمَتْني دَقَلاً حَوْليا
مُسَوِّساً مُدَوِّداً حَجْرِيّا
* قد كنتِ تفرِين بهِ الفريّا *

أي تعظمينه.

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾...

قلت: فقد دلّ الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهارون زمان مديد...

قلت: ذكره الغزنوي عن سعيد بن جُبير أنه كان فاسقاً مَثَلاً في الفجور فنسبت إليه. والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟! وهذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح. وذلك يوجب عندنا الحدّ وسيأتي في سورة «النور» القول فيه إن شاء الله تعالى. وهذا القول الأخير يردّه الحديث الصحيح، وهو نص صريح فلا كلام لأحد معه، ولا غبار عليه. والحمد لله. وقرأ عمر بن لجأ التَّيمي: «مَا كانَ أَباكِ امرُو سَوْءٍ».

قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت بـ﴿ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا ﴾ وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال: إن أمرها بـ«قولي» إنما أريد به الإشارة. ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا: استخفافها بنا أشدّ علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهة التقرير: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ و﴿ كَانَ ﴾ هنا ليس يراد بها الماضي؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبياً، وإنما هي في معنى هو [الآن]. وقال أبو عبيدة: «كان» هنا لغو؛ كما قال:

* وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ *

وقيل: هي بمعنى الوجود والحدوث كقوله: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وقد تقدم. وقال ابن الأنباري: لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت «صبياً»، ولا أن يقال «كان» بمعنى حدث، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر، تقول: كان الحرُّ وتكتفي به. والصحيح أن ﴿ مَن ﴾ في معنى الجزاء و﴿ كَانَ ﴾ بمعنى يكن؛ والتقدير: من يكن في المهد صبياً فكيف نكلمه؟! كما تقول: كيف أعطي من كان لا يقبل عطية؛ أي من يكن لا يقبل. والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء؛ كقوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ [الفرقان: ١٠] أي إن يشأ يجعل. وتقول: من كان إليّ منه إحسان كان إليه مني مثله، أي من يكن منه إلى إحسان يكن إليه مني مثله. و﴿ ٱلْمَهْدِ ﴾ قيل: كان سريراً كالمهد. وقيل: ﴿ ٱلْمَهْدِ ﴾ هاهنا حجر الأم. وقيل: المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوَّم في المهد لصغره، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده: ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ وهي:

الثانية: . . . و ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ فكان أوّل ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وبربوبيته؛ ردّاً على من غلا من بعده في شأنه. والكتاب الإنجيل؛ قيل: آتاه في تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوّة كما علّم آدم الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلي. وهذا في غاية الضعف على ما نبينه في المسألة بعد هذا. وقيل: أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلاً في الحال؛ وهذا أصح. ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ أي ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلّماً له. التُّسْتَرِيّ: وجعلني آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف. ﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ أي لأؤديهما إذا أدركني التكليف، وأمكنني أداؤهما، على القول الأخير الصحيح. ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [ما] في موضع نصب على الظرف أي دوام حياتي. [قوله تعالى]: ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي ﴾ قال ابن عباس: لما قال ﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي ﴾ ولم يقل بوالديّ علم أنه شيء من جهة الله تعالى. ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ أي متعظماً متكبراً يقتل ويضرب على الغضب. وقيل: الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقاً قط. ﴿ شَقِيًّا ﴾ أي خائباً من الخير. ابن عباس: عاقاً. وقيل: عاصياً لربه وقيل: لم يجعلني تاركاً لأمره فأشقى كما شقي إبليس لما ترك أمره.

الثالثة: قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر! أخبر عيسى عليه السلام بما قضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت. وقد روي في قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا: إن هذا لأمر عظيم. وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان فكان نطقه إظهار براءة أمه لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة. ولم ينقل أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله. ويدلّ أيضاً على أنه تكلم في المهد خلافاً لليهود والنصارى. والدليل على ذلك إجماع الفِرق على أنها لم تُحدّ. وإنما صحّ براءتها من الزنى بكلامه في المهد. ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبرّ الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ في شريعة أمره. وكان عيسى عليه السلام في غاية التواضع؛ يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوي حيث جَنّه الليل، لا مسكن له، ﷺ.

الرابعة: الإشارة بمنزلة الكلام وتُفهِم ما يُفهِم القول. كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ ﴾ وقد مضى هذا في «آل عمران» مستوفى.

الخامسة: قال الكوفيون: لا يصح قذف الأخرس ولا

لعانه. وروي مثله عن الشعبي، وبه قال الأوزاعيّ وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفاً؛ ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة. قالوا: واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع. قال ابن القصار: قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ما عدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس. وما ذكروه من الإجماع في شهادة الأخرس فغلط. وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ. قال ابن المنذر: والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغي أن يكون القذف مثل ذلك. قال المهلّب: وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة. وفي إجماع العقول على أن العِيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ أي السلامة عليّ من الله تعالى. قال الزجاج: ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن في الثانية ذكر الألف واللام. وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعني في الدنيا. وقيل: من همز الشيطان كما تقدم في «آل عمران». ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعني في القبر. ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني في الآخرة؛ لأن له أحوال ثلاثة: في الدنيا حياً، وفي القبر ميتاً، وفي الآخرة مبعوثاً؛ فسلم في أحواله كلها؛ وهو معنى قول الكلبي، ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان. . .

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي ذلك الذي ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك اعتقدوه، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة، وإنه ابن يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى: إنه الإله أو ابن الإله. ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ قال الكسائيّ: «قَوْلُ الْحَقِّ» نعت لعيسى؛ أي ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق]. وسُمي قول الحق كما سُمي كلمة الله؛ والحق هو الله عزّ وجلّ. وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق. وقيل: التقدير هذا الكلام قول الحق. قال ابن عباس: يريد هذا كلام عيسى [ابن مريم] ﷺ قول الحق ليس بباطل؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] أي الوعد الصدق. وقال: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] أي ولا الدار الآخرة. وقرأ عاصم وعبدالله بن عامر: «قال الحق» بالنصب على الحال؛ أي أقول قولاً حقاً. والعامل معنى الإشارة في «ذلك». الزجاج: هو مصدر أي أقول قول الحق؛ لأن ما قبله يدلّ عليه. وقيل: مدح. وقيل: إغراء. وقرأ عبدالله: «قال الحق». وقرأ الحسن: ﴿قُولُ ٱلْحَقِّ﴾ بضم القاف، وكذلك في «الأنعام» ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب. ﴿ٱلَّذِى﴾ من نعت عيسى. ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون؛ أي ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون القول الحق. وقيل: «يمترون» يختلفون. ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع؛ فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية. فقالت الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، قال: هو ابن الله وهم النّسطورية، فقال الإثنان كذبت، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، الله إله وهو إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى. قال الرابع: كذبت بل هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع ـ على ما قال ـ فاقتتلوا فظُهِر على المسلمين، فذلك قول الله تعالى ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١]. . .

قلت: ووقع في تاريخ مصر فيما رأيت وجاء في الإنجيل؛ الظاهر أن السيد المسيح لما ولد في بيت لحم كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار في الحُلم وقال له: قم فخذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك، فإن هيرودس مزمع أن يطلب عيسى ليهلكه، فقام من نومه: وامتثل أمر ربه، وأخذ السيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر، وفي حال مجيئه إلى مصر نزل ببئر البَلَسان التي بظاهر القاهرة، وغسلت ثيابه على ذلك البئر، فالبَلَسان لا يطلع ولا ينبت إلا في تلك الأرض، ومنه يخرج الدهن الذي يخالط الزيت الذي تعمّد به النصارى، ولذلك كانت قارورة واحدة في أيام المصريين لها مقدار عظيم، وتقع في نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعاً جليلاً جداً، وتكون أحبّ إليهم من كل هدية لها قدْر. وفي تلك السّفْرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين وقسقام المعروفة الآن بالمحرقة، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن، ويحضرون إليها في عيد الفصح من كل مكان؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر، ومنها عاد إلى الشام. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أي ما ينبغي له ولا يجوز: ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ «من» صلة للكلام؛ أي أن يتخذ ولداً. و«أن» في موضع رفع اسم «كان» أي ما كان لله أن يتخذ ولداً؛ أي ما كان من صفته اتخاذ الولد، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أن يكون له ولد. ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ تقدم في «البقرة» مستوفى. ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو: بفتح «أن» وأهل الكوفة: «وَإن» بكسر الهمزة على أنه مستأنف. تدلّ عليه قراءة أُبيّ: «كن فيكون إن الله» بغير واو وعلى العطف على ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾. وفي الفتح أقوال: فمذهب الخليل وسيبويه أن المعنى؛ ولأن الله ربي وربكم، وكذا، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ ﴾ [الجن: ١٨] فـ «أن» في موضع نصب عندهما. وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام، وأجاز أن يكون أيضاً في موضع خفض بمعنى؛ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً وبأن الله ربي وربكم. وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بمعنى؛ والأمر أن الله ربي وربكم. وفيها قول خامس: حكى أبو عبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى: وقضى أن الله ربي وربكم؛ فهي معطوفة على قوله: ﴿ أَمْرًا ﴾ من قوله: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ والمعنى إذا قضى أمراً وقضى أن الله ولا يبتدأ بـ«أن» على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث. ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية. ﴿ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي دين قويم لا اعوجاج فيه.

الآلوسي ج ١٦ ص ٧٤ ـ ٩٢

قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ ﴾ إلخ فهو كلام مستأنف خوطب به النبيّ ﷺ وأمر عليه الصلاة والسلام بذكر قصة مريم إثر قصة زكريا عليه السلام لما بينهما من كمال الاشتباك والمناسبة. والمراد بالكتاب عند بعض المحققين السورة الكريمة لا القرآن كما عليه الكثير إذ هي التي صدرت بقصة زكريا عليه السلام المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء عليهم السلام المذكورين فيها أي واذكر للناس فيها ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أي نبأها فإن الذكر لا يتعلق بالأعيان.

وقوله تعالى: ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ ﴾ ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل في حيز الظرف متمم للبناء وجعله أبو حيان ظرفاً لفعل محذوف أي واذكر مريم وما جرى لها إذا انتبذت وما ذكرناه أولى. وقيل: هو ظرف لمحذوف وقع حالاً من ذلك المضاف، وقيل: بدل اشتمال من مريم لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه تفخيم لقصتها العجيبة.

وتعقبه أبو البقاء بأن الزمان إذا لم يقع حالاً من الجثة ولا خبراً عنها ولا صفة لها لم يكن بدلاً منها. ورد بأنه لا يلزم من عدم صحة ما ذكر عدم صحة البدلية ألا ترى

سلب زيد ثوبه كيف صح فيه البدلية مع عدم صحة ما ذكر في البدل وكون ذلك حال الزمان فقط غير بين ولا مبين. وقيل: بدل كل من كل على أن المراد بمريم قصتها وبالظرف الواقع فيه وفيه بعد. وقيل: (إذا) بمعنى أن المصدرية كما في قوله لا أكرمتك إذا لم تكرمني أي لأن لم تكرمني أي لعدم إكرامك لي. وهذا قول ضعيف للنحاة. والظاهر أنها ظرفية أو تعليلية إن قلنا به ويتعين على ذلك بدل الاشتمال. والانتباذ الاعتزال والانفراد.

وقال الراغب يقال: انتبذ فلان اعتزل اعتزال من تقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس. والنبذ: إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ متعلق بانتبذت وقوله سبحانه ﴿مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ قيل نصب على الظرف، وقيل مفعول به لانتبذت باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيان المترتب وجوداً واعتباراً على أصل معناه العامل في الجار والمجرور وهو السر في تأخيره عنه. واختاره بعض المحققين أي اعتزلت وانفردت من أهلها. وأتت مكاناً شرقياً من بيت المقدس أو من دارها لتختلي هناك للعبادة... قوله تعالى ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾ وكونه شرقياً كان أمراً إتفاقياً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قول ربك ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا﴾ فلذلك صلوا قبل مطلع الشمس... وقد قدمنا عن بعض أنهم كانوا في زمن عيسى عليه السلام يستقبلون بيت المقدس وأنهم ما استقبلوا الشرق إلا بعد رفعه عليه السلام زاعمين أنه ظهر لبعض كبارهم فأمره بذلك. وجوّز أن يكون اختاره الله تعالى لها لأنه مطلع الأنوار. وقد علم سبحانه أنه حان ظهو النور العيسوي منها فناسب أن يكون ظهور النور المعنوي في جهة ظهور النور الحسي وهو كما ترى... وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل عليه السلام كما قاله الأكثر، وعبر عنه بذلك لأن الدين يحيا به وبوحيه فهو مجاز. والإضافة للتشريف كبيت الله تعالى.

... وقرأ أبو حيوة وسهل ﴿رُوحَنَا﴾ بفتح الراء، والمراد به جبريل عليه السلام أيضاً لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله تعالى الذي هو عدة المقربين في قوله تعالى ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] أو لأنه عليه السلام من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا أو ذا روحنا.

وذكر النقاش أنه قرىء ﴿رُوحَنَا﴾ بتشديد النون اسم ملك من الملائكة عليهم السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ مشتق من المثال وأصله أن يتكلف أن يكون مثال الشيء، والمراد فتصور لها ﴿بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ سوي الخلق، كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً... وما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها إلى رحمها فمع ما فيه من الهجنة التي ينبغي أن تنزه مريم عنها يكذبه قوله تعالى ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه فضلاً عن الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة، نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لأن عادة الملك إذا تمثل أن يتمثل بصورة بشر جميل كما كان يأتي النبيّ ﷺ في صورة دحية رضي الله تعالى عنه أولاً لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وإرادة القائل أنه وقع كذلك ليكون مظنة لما ذكر فيظهر خلافه فيكون أقوى في نزاهتها بعيد جداً عن كلامه.

وقال بعض المتأخرين: إن استعاذتها بالله تعالى تنبىء عن تهييج شهوتها وميلانها إليه ميلاً طبيعياً على ما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] فقد قيل: المراد بالصبوة فيه الميل بمقتضى الطبيعة وحكم القوة الشهوية ثم أنه لا ينافي عفتها بل يحققها لكونه طبيعياً اضطرارياً غير داخل تحت التكليف كما قيل في قوله تعالى ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] ومع هذا قد استعاذ يوسف عليه السلام بما حكى الله تعالى عنه من قوله تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] فدعوى أن الاستعاذة تكذب التهييج والميل الطبيعي كذب والقول بأنه يأبى ذلك مقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة ليس بشيء لأن خلق الإنسان من ماء واحد أثر من آثار القدرة الخارقة للعادة أيضاً.

والأسباب في هذا المقام ليست بمرفوضة بالكلية كما يرشد إلى ذلك قصة يحيى عليه السلام. على أنه قد يدعي أن خلق شيء لا من شيء أصلاً محال فلا يكون من مراتب القدرة ومادة الجعل إلاّ بداعي الأعيان الثابتة وهي قديمة اهـ، ولا يخلو عن بحث، وما ذكرناه في التعليل أسلم من القال والقيل فتدبر، ونصب ﴿بَشَرًا﴾ على الحالية المقدرة أو التمييز، وقيل على المفعولية بتضمين تمثل معنى اتخذ... ومعلوم أن كل مذهب يجر إلى ذلك فهو باطل، وأيضاً لو جاز ذلك ارتفع الوثوق بالخبر المتواتر كخبر مقاتلة النبيّ عليه الصلاة والسلام يوم بدر لجواز أن يكون المقاتل المتمثل به. وأجيب عن الأول بأنه لا يمتنع أن يكون لجبريل عليه السلام أجزاء أصلية قليلة وأجزاء فاضلة فبالأجزاء الأصلية يكون متمكناً من التمثل بشراً هذا عند القائلين بأنه جسم...

﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ شرط جواب محذوف ثقة بدلالة السياق عليه، أي إن كان يرجى منك أن تتقي الله تعالى وتخشاه وتحتفل بالاستعاذة فإني عائذة به منك. كذا قدره الزمخشري.

والحاصل أن التقوى لم تجعل شرط الاستعاذة بل شرط مكافته وأمنها منه وكنت عن ذلك بالاستعاذة بالله تعالى حثاله على المكافة بألطف وجه وأبلغه وإن من تعرض للمستعيذ به فقد تعرض لعظيم سخطه انتهى.

وقدر الزجاج إن كنت تقياً فتتعظ بتعويذي، والأولى عليه تتعظ بإسقاط الفاء لأن المضارع الواقع جواباً لا يقترن بالفاء فيحتاج إلى جعله مرفوعاً بتقدير مبتدأ، وقدر بعضهم فاذهب عني بعضهم فلا تتعرض بي... وقال الشهاب: الظاهر إن على هذا القول وصلية وفي مجيئها بدون الواو كلام، وذكر أن الجملة على هذا حالية والمقصود بها الالتجاء إلى الله تعالى من شره لا حثه على الانزجار وقيل نافية، والجملة استئناف في موضع التعليل أي ما كنت تقياً متورعاً بحضورك عندي وانفرادك بي وهو خلاف الظاهر...

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ المالك لأمرك والناظر في مصلحتك الذي استعذت به ولست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر. روي عن ابن عباس أنها لما قالت: ﴿أَعُوذُ﴾ إلخ تبسم جبريل عليه السلام وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع، ويجوز أن يكون حكاية لقوله تعالى بتقدير القول أي ربك الذي قال أرسلت هذا الملك لأهب لك، ويؤيده قراءة شيبة. وأبي الحسن. وأبي بحرية. والزهري. وابن مناذر. ويعقوب. واليزيدي. وأبي عمرو. ونافع في رواية ليهب بالياء فإن فاعله ضمير الرب تعالى. وما قيل: من أصل «ليهب» ﴿لِأَهَبَ﴾ فقلبت الهمزة ياء لانكسار ما قبلها تعسف من غير داع له.

وفي بعض المصاحف: ﴿أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب وقيل: نبياً وقيل: نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح فالزكا شامل للزيادة المعنوية والحسية. واستدل بعضهم برسالة الملك إليها على نبوتها.

وأجيب: بأن الرسالة لمثل ذلك لا تستدعي النبوة ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي والحال أنه لم يباشرني بالحلال رجل وإنما قيل بشر مبالغة في تنزهها من مبادىء الولادة ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي ولم أكن زانية، والجملة عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالحلال وهو كناية عن ذلك كما في قوله تعالى ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣] ونحوه كما قيل دخلتم بهن وبنى عليها.

وأما الزنا فليس بمقام أن يكنى عنه لأن مقامه أما تطهير اللسان فلا كناية ولا تصريح وإما التقريع فحينئذ يستحق الزيادة على التصريح والألفاظ التي يظن أنها كناية فيه قد شاعت حتى صارت حقيقة صريحة فيه ومنها ما في النظم الكريم، ولا يرد على ذلك ما في سورة آل عمران من قولها ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] مقتصرة عليه فإن غاية ما قيل فيه إنه كناية عن النكاح والزنا على سبيل التغليب، ولم يجعل كناية عن الزنا وحده، ولقائل أن يقول: أنه ثم كناية عن النكاح فقط كما هنا واستوعبت الأقسام ههنا لأنه مقام البسط واقتصرت على نفي النكاح ثم لعدم التهمة ولعلمها أنهم ملائكة ينادون لا يتخيلون فيها التهمة ولعلها أنهم ملائكة ينادون لا يتخيلون فيها التهمة بخلاف هذه الحالة فإن جبريل عليه السلام كان قد

أتاها في صورة شاب أمرد، ولهذا تعوذت منه ولم يكن قد سكن روعها بالكلية إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ على أنه قيل: إن ما في آل عمران من الاكتفاء وترك الاكتفاء في هذه لأنه تقدم نزولها فهي محل التفصيل بخلاف تلك لسبق العلم، وقيل: المساس هنا كناية عن الأمرين على سبيل التغليب كما في تلك السورة ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ تخصيص بعد التعميم لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء، ولذا آثرت كان في النفي الثاني فإن في ذلك إيذاناً بأن انتفاء الفجور لازم لها.

وكأنها عليها السلام من فرط تعجبها وغاية استبعادها لم تلتفت إلى الوصف في قول الملك عليه السلام ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ النافي كل ريبة وتهمة ونبذته وراء ظهرها وأتت بالموصوف وحده وأخذت في تقرير نفيه على أبلغ وجه أي ما أبعد وجود هذا الموصوف مع هذه الموانع بله الوصف، وهذا قريب من الأسلوب الحكيم. . . ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ اطلقوا الكلام في أنه نظير ما تقدم في قصة زكريا عليه السلام. وفي الكشف أنه لا يجري فيه تمام الأوجه التي ذكرها الزمخشري هناك لأن «قال» أولاً فيه ضمير الرسول إليها فكذلك إن علق بالثاني يكون المعنى قال الرسول قال ربك كذلك ثم فسره بقوله: ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أو المعنى مثل ذلك القول العجيب الذي سمعته ووعدتك قال ربك على إقحام الكاف ثم استأنف هو على هين ولا بدّ من إضمار القول لأن المخاطب لها جبريل عليه السلام وقوله ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ كلام الحق تعالى شأنه حكاه لها. وإن علق بالأول يكون المعنى الأمر كذلك تصديقاً لها أو كما وعدت تحقيقاً له ثم استأنف قال ربك هو على هين لإزالة الاستبعاد أو لتقرير التحقيق. ولا يبعد أن يجعل ﴿ قَالَ رَبُّكِ﴾ على هذا تفسيراً وكذلك مبهماً انتهى. ولا أرى ما نقل عن ابن المنير هناك وجهاً هنا ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ﴾ تعليل لمعلل محذوف أي لنجعل وهب الغلام (آية) وبرهاناً ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ جميعهم أو المؤمنين على ما روي عن ابن عباس يستدلون به على كمال قدرتنا ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عظيمة كائنة ﴿ مِّنَّآ ﴾ عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بإرشاده فعلنا ذلك. وجوز أن يكون معطوفاً على علة أخرى مضمرة أي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية إلخ. . . وفي إيثار الجملة الأولى اسمية دالة على لزوم الهون ومزيلة للاستبعاد والثانية فعلية دالة على أنه تعالى أنشأه لكونه آية ورحمة خاصة لا لأمر آخر ينافيه مراد بها التجدد لتجدد الوجود لينتقل من الاستبعاد إلى الاستحماد ما لا يخفي من الفخامة انتهى.

ولا يرد أنه إذا قدر علة نحو لنبين جاز أن يكون ذلك متعلقاً بما يدل عليه ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ من غير حذف شيء فلا يصح قوله لم يكن بدّ من معلل محذوف لظهور ما فيه. وما ذكره من العطف خالف فيه بعضهم فجعل الواو على الأول اعتراضية. ومن الناس من قال: إن ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ﴾ على قراءة «ليهب» عطف عليه على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وجوز أيضاً العطف على ﴿ لِأَهَبَ ﴾ على قراءة أكثر السبعة. ولا يخفي بعد هذا العطف على القراءتين. . .

ونقل النيسابوري عن أهل التنجيم أن ذلك لأن الحمل يعود إلى تربية القمر فتستولي عليه البرودة والرطوبة وهو ظاهر في أن مربي الحمل في أول شهور الحمل القمر وفي الثامن يعود الأمر إليه عند المنجمين وهو مخالف لما في كفاية التعليم عنهم من أن أول الشهور منسوب إلى زحل والثاني إلى المشتري وهكذا إلى السابع وهو منسوب إلى القمر ثم ترجع النسبة إلى زحل ثم إلى المشتري: وفيها أيضاً أن جهال المنجمين يقولون إن النطفة في الشهر الأول تقبل البرودة من زحل فتجمد، وفي الثاني تقبل القوة النامية من المشتري فتأخذ في النمو، وفي الثالث تقبل القوة الغضبية من المريخ. وفي الرابع قوة الحياة من الشمس. وفي الخامس قوة الشهوة من الزهرة. وفي السادس قوة النطق من عطارد. وفي السابع قوة الحركة من القمر فتتم خلقة الجنين فإن ولد في ذلك الوقت عاش وإلا فإن ولد في الثامن لم يعش لقبوله قوة الموت من زحل وإن ولد في التاسع عاش لأنه قبل قوة المشتري. ومثل تلك الكلمات خرافات وكل امرأة تعرف أن النطفة إذا مضت عليها ثلاثة أشهر تتحرك. وقد ذكر حكماء الطبيعة

إن أقل مدة الولادة ستة أشهر ومدة الحركة ثلث مدة الولادة فيكون أقلها شهرين ومن امتحن الإسقاط يعلم أن الخلقة تتم في أقل من خمسين يوماً انتهى. وكلام المتشرعين لا يخفى عليك في هذا الباب.

وقد يعيش المولود لثمان إلا أنه قليل فليس ذلك من خواصه عليه السلام إن صح. ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة بيد أني أميل إلى أولها والاستدلال للثاني مما سمعت لا يخلو عن نظر.

﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ أي فاعتزلت وهو في بطنها فالباء للملابسة والمصاحبة مثلها في قوله تعالى ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقول المتنبي يصف الخيول:

فمرت غير نافرة عليهم
تدوس بنا الجماجم والرؤوسا

والجار والمجرور ظرف مستقرة وقع حالاً من ضميرها المستتر أي فانتبذت ملتبسة به... ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ أي ألجأها كما قال الزمخشري وجماعة، وفي الصحاح أجأته إلى كذا بمعنى ألجأته واضطررته إليه ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ قال زهير بن أبي سلمى:

وجار سار معتمداً عليكم
أجاءته المخافة والرجاء

قال الفراء: أصله من جئت وقد جعلته العرب الجاء، وفي المثل شر ما يجيئك إلى مخة عرقوب انتهى، واختار أبو حيان أن المعنى جاء بها واعترض على الزمخشري وأطال الكلام بما لا يخفي رده و﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾ بفتح الميم كما في قراءة الأكثرين وبكسرها كما في رواية عن ابن كثير مصدر مخضت المرأة بفتح الخاء وكسرها إذا أخذها ما الطلق وتحرك الولد في بطنها للخروج، وقرأ الأعمش. وطلحة «فاجاءها» بإمالة فتحة الجيم، وقرأ حماد بن سلمة عن عاصم «فاجأها» من المفاجأة وروي ذلك عن مجاهد ونقله ابن عطية عن شبيل بن عزرة أيضاً، وقال صاحب اللوامح: إن قراءته تحتمل أن تكون الهمزة فيها قد قلبت ألفاً ويحتمل أن تكون بين بين غير مقلوبة.

﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ لتستند إليه عند الولادة كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي أو لذلك ولتستر به...

﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم من مات يمات كخاف يخاف أو من مات يميت كجاء يجيء...

﴿قَبۡلَ هَٰذَا﴾ الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت أو قبل هذا الأمر، وإنما قالته عليها السلام مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفاً من لائمتهم أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها. وروي أنها سمعت نداء أخرج يا من يعبد من دون الله تعالى فحزنت لذلك وتمنت الموت، وتمنى الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه. نعم يكره تمنيه لضرر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا. ففي صحيح مسلم. وغيره قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل فإن كان لا بد متمنياً فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» ومن ظن أن تمنيها عليها السلام ذلك كان لشدة الوجع فقد أساء الظن والعياذ بالله تعالى.

﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا﴾ أي شيئاً.. تافهاً شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلاً كخرقة الطمث.

وقرأ الأكثرون ﴿نِسۡيٗا﴾ بالكسر. قال الفراء: هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر والفتح أحب إلي.

وقال الفارسي: الكسر على اللغتين، قال ابن الأنباري: هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر نائب عن الاسم، وقرأ محمد بن كعب القرظي (نسئا) بكسر النون والهمزة مكان الياء وهي قراءة نوف الأعرابي، وقرأ بكر بن حبيب السهمي. ومحمد بن كعب أيضاً في رواية (نسا) بفتح النون والهمزة على أن ذلك من نسأت اللبن إذا صببت عليه ماء فاستهلك اللبن فيه لقلته فكأنها تمنت أن تكون مثل ذلك اللبن الذي لا يرى ولا يتميز من الماء، ونقل ابن عطية عن بكر بن حبيب أنه قرأ (نسا) بفتح النون والسين من غير همز كعصى ﴿مَّنسِيّٗا﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس. ووصف النسي بذلك لما أنه حقيقة عرفية فيما يقل الاعتداد به وإن لم ينس، وقرأ الأعمش. وأبو جعفر في رواية بكسر الميم اتباعاً لحركة السين كما قالوا: منتن باتباع حركة الميم لحركة التاء...

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ ملك ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ . . . (من) بفتح الميم بمعنى الذي فاعل نادى و(تحتها) ظرف منصوب صلة لمن والمراد به إما عيسى أو جبريل عليهما الصلاة والسلام ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ أي لا تحزني على أنَّ أن مفسرة أو بأن لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ﴾ بمكان أسفل منك، وقيل: تحت أمرك إن أمرت بالجري جري وإن أمرت بالإمساك أمسك وهو خلاف الظاهر ﴿سَرِيّٗا﴾ . . . .

عن الحسن وابن زيد والجبائي أن المراد بالسري عيسى عليه السلام وهو من السرو بمعنى الرفعة كما قال الراغب أي جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن سامي القدر، وفي الصحاح هو سخاء في مروءة وإرادة الرفعة أرفع قدراً ولامه على هذا المعنى واو. والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ أي إلى جهتك. والهز تحريك يميناً وشمالاً سواء كان بعنف أو لا، أو تحريك بجذب ودفع وهو مضمن معنى الميل فلذا عدي بإلى أو أنه مجاز عنه أو اعتبر في تعديته ذلك لأنه جزء معناه كذا قيل. . .

وقيل: المرأة إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، وذكر أن التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وكذا التحنيك وفي أمرها بالهز إشارة إلى أن السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوب وهو لا ينافي التوكل وما أحسن ما قيل:

ألم تر أن اللّه أوحى لمريم
وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه
إليها ولكن كل شيء له سبب

﴿فَكُلِي﴾ من ذلك الرطب ﴿وَٱشۡرَبِي﴾ من ذلك السري. وقيل: من عصير الرطب وكان في غاية الطراوة فلا يتم الاستدلال بذكر الشرب على تعيين تفسير السري بالجدول وما ألطف ما أرشد إليه النظم الكريم من احضار الماء أولاً والطعام ثانياً ثم الأكل ثالثاً والشرب رابعاً فإن الاهتمام بالماء أشد من الاهتمام بالأكل لاسيما ممن يريد أن يأكل ما يحوج إلى الماء كالأشياء الحلوة الحارة، والعادة قاضية بأن الأكل بعد الشرب ولذا قدم الأكل على الشرب حيث وقع، وقيل: قدم الماء لأنه أصل في النفع ونفعه عام للتنظيف ونحوه، وقد كان جارياً وهو أظهر في إزالة الحزن وأخر الشرب للعادة. وقيل قدم الأكل ليجاور ما يشاكله وهو الرطب. والأمر قيل يحتمل الوجوب والندب. وذلك باعتبار حالها، وقيل هو للإباحة ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ وطيبي نفساً وارفضي عنها ما أحزنك. وقرىء بكسر القاف وهي لغة نجد وهم يفتحون عين الماضي ويكسرون عين المضارع وغيرهم يكسرهما وذلك من القر بمعنى السكون فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره ويشهد له قوله تعالى ﴿تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ [الأحزاب: ١٩] من الحزن أو بمعنى البرد فإن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة. ويشهد له قولهم قرة العين وسخنتها للمحبوب والمكروه. وتسليتها عليها السلام بما تضمنته الآية من إجراء الماء وإخراج الرطب من حيث أنهما أمران خارقان للعادة فكأنه قيل: لا تحزني فإن الله تعالى قدير ينزه ساحتك عما يختلج في صدور المتقيدين بالأحكام العادية بأن يرشدهم أي الوقوف على سريرة أمرك بما أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية، وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب لأن الحزين قد لا يتفرغ لمثل ذلك وأكد ذلك بالأمر الأخير. ومن فسر السري برفيع الشأن سامي القدر جعل التسلية بإخراج الرطب كما سمعت وبالسري من حيث أن رفعة الشأن مما يتبعها تنزيه ساحتها فكأنه قيل لا تحزني فإن الله سبحانه قد أظهر لك ما ينزه ساحتك قالا وحالا.

وقد يؤيد هذا في الجملة بما روي عن ابن زيد قال: قال عيسى عليه السلام لها لاتحزني فقالت: كيف لا أحزن وأنت معي ولست ذات زوج ولا مملوكة فأي شيء عذري عند الناس ليتني مت قبل هذا فقال لها عليه السلام: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ أي آدمياً كائناً من كان. وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه ابن الرومي (ترئن)

بالإبدال من الياء همزة. وزعم ابن خالويه أن هذا لحن عند أكثر النحويين. . .

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ أي جاءتهم مع ولدها حاملة إياه على أن الباء للمصاحبة ولو جعلت للتعدية صح أيضاً. والجملة في موضع الحال من ضمير مريم أو من ضمير ولدها. وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيد بن منصور. وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها قيل: إنها حنت إلى الوطن وعلمت أن ستكفي أمرها فأتت به دخلت عليهم تباكوا؛ وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام. وجاء في رواية عن الحبر أنها لما انتبذت من أهلها وراء الجبل فقدوها من محرابها فسألوا يوسف عنها فقال: لا علم لي بها وإن مفتاح باب محرابها عند زكريا فطلبوا زكريا وفتحوا الباب فلم يجدوها فاتهموه فأخذوه ووبخوه فقال رجل: إني رأيتها في موضع كذا فخرجوا في طلبها فسمعوا صوت عقعق في رأس الجذع الذي هي من تحته فانطلقوا إليه فلما رأتهم قد أقبلوا إليها احتملت الولد إليهم حتى تلقتهم به ثم كان ما كان. فظاهر الآية والأخبار أنها جاءتهم به من غير طلب منهم، وقيل: أرسلوا إليها لتحضري إلينا بولدك وكان الشيطان قد أخبرهم بولادتها فحضرت إليهم به فلما رأوهما ﴿ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ ﴾ فعلت ﴿ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾ قال قتادة: عظيماً، وقيل عجيبا وأصله من فرى الجلد قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد وقيل: من أفراه كذلك. واختير الأول لأن فعيلاً إنما يصاغ قياساً من الثلاثي. وعدم التفرقة بينه وبين المزيد في المعنى هو الذي ذهب إليه صاحب القاموس.

وفي الصحاح عن الكسائي أن الفري القطع على وجه الإصلاح والإفراء على وجه الإفساد. وعن الراغب مثل ذلك. وقيل الإفراء عام. وأياً ما كان فقد استعير الفري لما ذكر في تفسيره. وفي البحر أنه يستعمل في العظيم من الأمر شراً أو خيراً قولاً أو فعلاً. ومنه في وصف عمر رضي الله تعالى عنه فلم أرَ عبقرياً يفري فرية، وفي المثل جاء يفري الفري. ونصب (شيئاً) على أنه مفعول به. وقيل على أنه مفعول مطلق أي لقد جئت مجيئاً عجيباً، وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب. وقرأ أبو حيوة فيما نقل ابن عطية (فريا) بسكون الراء وفيما نقل ابن خالويه (فرأ) بالهمزة. . .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أن كلموه قال شيخ الإسلام: والظاهر أنها بينت حينئذ نذرها وأنها بمعزل من محاورة الإنس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالإشارة لا بالعبارة والجمع بينهما مما لا عهد به ﴿ قَالُواْ ﴾ منكرين لجوابها، وفي بعض الآثار أنها لما أشارت إليه أن كلموه قالوا: استخفافها بنا أشد من زناها وحاشاها ثم قالوا: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ قال قتادة: المهد حجر أمه، وقال عكرمة: المرباة أي المرجحة، وقيل: سريره. وقيل: المكان الذي يستقر عليه. واستشكلت الآية بأن كل من يكلمه الناس كان في المهد صبياً قبل زمان تكليمه فلا يكون محلاً للتعجب والإنكار.

وقال أبو عبيدة: كان زائدة لمجرد التأكيد من غير دلالة على الزمان و﴿ صَبِيًّا ﴾ حال مؤكدة والعامل فيها الاستقرار، فقول ابن الأنباري. إن كان نصبت هنا الخبر والزائدة لا تنصبه ليس بشيء، والمعنى كيف نكلم من هو في المهد الآن حال كونه صبياً، وعلى قول من قال: إن كان الزائدة لا تدل على حدث لكنها تدل على زمان ماض مقيد به ما زيدت فيه كالسيرافي لا يندفع الإشكال بالقول بزيادتها.

وقال الزجاج: الأجود أن تكون من شرطية لا موصوفة ولا موصوفة أي من كان في المهد فكيف نكلمه وهذا كما يقال كيف أعظ من لا يعمل بموعظتي والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء فلا إشكال في ذلك، ولا يخفى بعده. . . ﴿ قَالَ ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ . . .

﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي حيثما كنت. وفي البحر إن هذا شرط وجزاؤه محذوف تقديره جعلني مباركاً وحذف لدلالة ما تقدم عليه، ولا يجوز أن يكون معمولاً لجعلني السابق لأن ـ أين ـ لا تكون إلا استفهاماً

أو شرطاً والأول لا يجوز هنا فتعين الثاني واسم الشرط لا ينصبه فعل قبله وإنما هو معمول للفعل الذي يليه.

﴿ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ . . . والزكاة تطهير النفس عن الرذائل، ويتعين هذا في الزكاة على ما نقل عن ابن عطاء الله وإن كان منظوراً فيه من أنه لا زكاة على الأنبياء عليهم السلام لأن الله تعالى نزههم عن الدنيا فما في أيديهم لله تعالى ولذا لا يورثون أو لأن الزكاة تطهير وكسبهم طاهر. وقيل لا يتعين لأن ذلك أمر له بإيجاب الزكاة على أمته وهو خلاف الظاهر، وإذا قيل بحمل الزكاة على الظاهر فالظاهر أن المراد ﴿ وَأَوْصَٰنِي ﴾ بأداء زكاة المال إن ملكته فلا مانع من أن يشمل التوقيت بقوله سبحانه ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ . . .

﴿ وَأَوْصَٰنِي ﴾ أي وألزمني أو وكلفني براً فهو من باب. علفتها تبناً وماء بارداً. وأقرب منه على ما في الكشف لأنه مثل زيداً مررت به في التناسب وإن لم يكن من بابه.

وجوّز أن يكون معطوفاً على محل ﴿ بِٱلصَّلَوٰةِ ﴾ كما قيل في قراءة (أرجلكم) بالنصب، وقيل إن أوصى قد يتعدى للمفعول الثاني بنفسه كما وقع في البخاري أوصيناك ديناً واحداً، والظاهر أن الفعل في مثل ذلك مضمن معنى ما يتعدى بنفسه، وحكى الزهراوي. وأبو البقاء أنه قرىء ﴿ وَبِرًّا ﴾ بوالدتي بكسر الباء والراء وهو معطوف على الصلاة والزكاة قولاً واحداً، والتنكير للتفخيم ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ . . .

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ تقدم الكلام في وجه تخصيص هذه المواطن بالذكر فتذكر فما في العهد من قدم. والأظهر بل الصحيح أن التعريف للجنس جيء به تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها عليها السلام من اليهود فإنه إذا قال جنس السلام على خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم، ونظيره قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ يعني أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام مناكرة وعناد فهو مئنة لنحو هذا من التعريض. والقول بأنه لتعريف العهد خلاف الظاهر بل غير صحيح لا لأن المعهود سلام يحيى عليه الصلاة والسلام وعينه لا يكون سلاماً لعيسى عليه الصلاة والسلام لجواز أن يكون من قبيل (هذا الذي رزقنا من قبل) بل لأن هذا الكلام منقطع عن ذلك وجوداً وسرداً فيكون معهوداً غير سابق لفظاً ومعنى على أن المقام يقتضي التعريض ويفوت على ذلك التقدير لأن التقابل إنما ينشأ من اختصاص جميع السلام به عليه كذا في الكشف وإلا كنفاء في العهد به لتصحيحه بذكره في الحكاية لا يخفى حاله وسلام يحيى عليه السلام قيل لكونه من قول الله تعالى أرجح من هذا السلام لكونه من قول عيسى عليه السلام، وقيل هذا أرجح لما فيه من إقامة الله تعالى إياه في ذلك مقام نفسه مع إفادة اختصاص جميع السلام به عليه السلام فتأمل.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿ يَوْمَ وُلِدَتْ ﴾ بتاء التأنيث وإسناد الفعل إلى والدته ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة. وفيه إشارة إلى علو رتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المحسوس المشاهد. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿ عِيسَى ﴾ . . .

﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ﴾ قرأ الجمهور (قول) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه، والضمير المقدر للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل: فيه صفة لعيسى أو بدل من أو خبر بعد خبر لذلك أهو الخبر وعيسى بدل أو عطف بيان. والمراد في جميع ذلك كلمة الله تعالى. وقرأ ابن مسعود (قال الحق). وقال الله برفع (قال) فيهما.

وعن الحسن (قول الحق) بضم القاف واللام. والقول والقال والقول بمعنى واحد كالرهب والرهب والرهب. ونص أبو حيان على أنها مصادر. وعن ابن السكيت القال وكذا القيل اسم لا مصدر. وقرأ طلحة والأعمش في رواية (قال الحق) برفع لام (قال) على أنه فعل ماض ورفع (الحق) على الفاعلية. وجعل ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ على هذا مقول القول أي قال الله تعالى ذلك الموصوف بما ذكر عيسى ابن مريم ﴿ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾.

والموصول صفة القول أو الحق أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي إلخ وذلك بحسب اختلاف التفسير والقراءة. وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه. والسلمي. وداود بن أبي

هند. ونافع في رواية. والكسائي كذلك ﴿تَمْتَرُونَ﴾ بتاء الخطاب.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾... ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيت له ببيان إن شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يوجد بأسرع وقت فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وهو من أمارات الاحتياج والنقص. وقرأ ابن عامر (فيكون) بالنصب على الجواب. وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ عطف على ما قال الواحدي على قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فهو من تمام قول عيسى عليه السلام تقريراً لمعنى العبودية والآيتان معترضتان، ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما. وقرأ أبي بغير واو.

والظاهر أنه على هذا بتقدير القول خطاباً لسيد المخاطبين ﷺ أي قل يا محمد إن الله إلخ. وقرأ الحرميان. وأبو عمرو (وأن) بالواو وفتح الهمزة. وخرجه الزمخشري على حذف حرف الجر وتعلقه باعبدوه أي ولأنه تعالى ربي وربكم فاعبدوه وهو كقوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وهو قول الخليل وسيبويه.

وأجاز الفراء أن يكون إن وما بعدها في تأويل مصدر عطفاً على ﴿الزَّكَاةِ﴾ أي وأوصاني بالصلاة والزكاة وبأن الله ربي وربكم إلخ. وأجاز الكسائي أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أن الله ربي وربكم.

وحكى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء أنه عطف على (أمراً) من قوله تعالى ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي إذا قضى أمراً وقضى أن الله ربي وربكم وهو تخبيط في الإعراب فلعله لا يصح عن أبي عمرو فإنه من الجلالة في علم النحو بمكان. وقيل: إنه عطف على الكتاب وأكثر الأقوال كما ترى. وفي حرف أبي رضي الله تعالى عنه أيضاً (وبأن) بالواو وباء الجر وخرجه بعضهم بالعطف على الصلاة أو الزكاة بعضهم بأنه متعلق باعبدوه أي بسبب ذلك فاعبدوه، والخطاب أما لمعاصري عيسى عليه السلام وإما لمعاصري نبينا ﷺ ﴿هَٰذَا﴾ أي ما ذكر من التوحيد ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه.

القاسمي ج ١١ ص ١١٥ ـ ١٢٥

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾...

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

... أي لئلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق...

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ﴾

... وإنما ذكرته بالله تعالى لأن المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل. فخوفته أولاً بالله عزّ وجلّ.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾...

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾...

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾.

﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي عليك بهذه الكرامة، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده. وقوله ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾. وأنه كنى به عن النفخ في فرجها. كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقال ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾...

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ ﴿ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أي الحمل ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾، شأنه أي ينسى ولا يعتد به. منسياً لا يخطر على بال أحد. وهو نعت للمبالغة. وإنما قالت ذلك، لما عرفت أنها ستبتلي وتمتحن بهذا المولود، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد. فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة، وبضد ما قرفت به، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام...

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾...

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾.

«وهزي إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطباً جنياً» أي حضر أو إن اجتنائه. قال الزمخشري: فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب! قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب، ولكن من حيث إنهما معجزتان تُريان الناس أنها من أهل العصمة، والبعد من الريبة، وأمن مثلها، مما قرفوها به، بمعزل. وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات، خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾.

﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ أي بالكمال والولد المبارك، الموجود بالقدرة، الموهوب بالعناية... «فإما ترين من البشر أحداً» أي من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب، الذين لا يفهمون قولك ولا يصدقون بحالك لوقوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق. فإذا سألوك ﴿ فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾. أي لا تكلميهم في أمرك شيئاً. ولا تماديهم فيما لا يمكنهم قبوله. وإنما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام. فإنه نص قاطع في براءة ساحتها، فقوله ﴿ صَوْمًا ﴾. أي صمتاً. وقوله ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ﴾ إلخ تفسير للنذر بذكر صيغته.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾.

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ استئناف.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ ﴾ منكرين جوابها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ولم يعهد تكليم عاقل لصبي في المهد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾.

﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.

﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ أنطقه الله بذلك. أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد، رداً على من يزعم ربوبيته ونبوّته ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي كثير الخير حيثما وجدت. أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات. والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة، إما باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، أو جعل الآتي، لا محالة، كأنه وجد ﴿ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ أي أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أي مستكبراً عن طاعته وأمره ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أي الذي فصلت نعوته الجليلة وخصائصه الباهرة ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ أي لا ما يصفه به النصارى. وهو تكذيب لهم، فيما يزعمونه، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني. حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ﴿ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ أي: ومَن هذا شأنه كيف يتوهم أي يكون له ولد؟ وهذا كقوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠] ثم أشار إلى تتمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده. بقوله سبحانه ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي قويم. من اتبعه رشد وهدى. ومن خالفه ضلَّ وغوى.

تنبيهات في فوائد هذه القصة

الأول: لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب. فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة. ولهذا ذكرهما في آل عمران، وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه: وأنه على ما يشاء قدير. (ومريم) هي بنت عمران، من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة للعبادة، وأنه تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً فنشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى الناسكات المتبتلات. وكانت في كفاية زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقاً، كما تقدم في سورة آل عمران.

الثاني: استدل بقوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ من قال بنبوة مريم. واستدل بقوله تعالى عنها. ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ على جواز تمني النون لمثل تلك الحال. وبقوله تعالى: ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ على التسبب في الرزق، وتكلف الكسب. . .

وفي الآية أصل لما يقوله الأطباء، إن الرطب ينفع النساء. واستدل بقوله تعالى ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ بعد ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ على أن الحالف (لا يتكلم أو لا يكلم فلاناً) لا يحنث بالإشارة. وعلى أن السكوت عن السفيه واجب. . . وفي قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ معنى قولهم في المثل: من أشبه أباه فما ظلم. وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

الثالث: . . . ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ ﴾ . . .

الرابع: . . .وقد مرَّ أن الوحي قريب من المنامات الصادقة، لهذه القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما في النوم. فكل ما يرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا (قلباً) والاتصالات التي لها بالأرواح القدسية، يسري في النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن. . .

ثم قال في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ في اللوح مقدراً في الأزل. وعن ابن عباس: فاطمأنت إليه بقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾. . . واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة في الرحم، واستقرارها فيه، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح انتهى.

الخامس: التمثّل مشتق من المثل. ومعناه التصور. وفيه دليل على أن الملَك يتشكل بشكل البشر.

قال إمام الحرمين: تمثلُ جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه. ثم يعيده إليه بعدُ.

وجزم ابن عبد السلام: بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها موجباً لموته، بل يجوز أن يبقى في الجسد حيّاً لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً، بل بعادة أجراها الله تعالى في بعض خلقه، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة.

وقال البلقينيّ: ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه. بل يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكله الأصليّ. إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل. وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته. ومثال ذلك القطن، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً. فإنه بالنفش يحصل له صورة كبيرة، وذاته لم تتغير. وهذا على سبيل التقريب. والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه. والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى، بل يخفى على الرائي فقط. والله أعلم. كذا قال ابن حجر في فتح الباري.

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب، واقتفاء ما لم يحط بكنهه. فالخوض فيه عبث ينتهي خائضه إلى حيث ابتدأ. لأنه من عالم الغيب الذي لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل. ولم يرد عن المعصوم ﷺ فيه نص قاطع. وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه. فاعرف ذلك فإنه ينفعك في مواضع عديدة.

السادس: قال بعضهم: أصل كلمة (عيسى) يسوع. فحرّفه اليهود إلى (عيسو) تهكماً فحوله العرب إلى (عيسى) تشبهاً باسم موسى. ولبدل الواو بالألف سبب مبنيّ على قواعد اللغة العبرانية، بل والعربية انتهى.

المراغي ج ٦ ص ٤٠ ـ ٥١

. . . ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾ أي فاتخذت من دون أهلها ستاراً يسترها عنهم وعن الناس، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليُعْلِمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسئ وغماً، وإنما مَثّل لها بهذاالمثال، لتأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يُلْقي إليها من كلماته، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع محاورته.

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال:

﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾ أي فلما رأته فزعت منه . . .

فهو كقوله: ﴿ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] أي إن الإيمان يوجب ذلك.

فلما علم جبريل خوفها:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ أي فقال الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لستُ ممن تظنين، ولا يقع مني ما تتوهمين من الشر . . .

ولما عجبت مريم مما سمعت:

﴿ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ . . .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ ﴾ أي قال الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكوني ذات بعل، ولا تقترفين فاحشة، فإنه تعالى على ما يشاء قدير، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده، ولا يحتاج في إنشائه إلى الموادّ والآلات.

ونحو الآية قوله في سورة آل عمران: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨].

﴿ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ . . . وإلى الأوّلين أشار القائل:

ألا رب مولود وليس له أب

وذي ولد لم يلده أبوان

﴿ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ أي قد قضاه الله في سابق عهده، ومضى به حكمه، فلا يغير ولا يبدل: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩].

﴿ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴾.

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل (ولا حاجة إليها في العبرة) فنقول إنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ، إذ لا يتعلق به كبير فائدة.

وإنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها وهي من سلائل بيت النبوة، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة، فرأت أن لا تراهم وأن لا يروها.

﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ . . .

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي فناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصري وسعيد بن جبير (وقد أنطقه الله حين وضعته تطييباً لقلبها، وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد بادىء ذي بدء علوّ شأن ذلك المولود الذي بشرها به جبريل عليه السلام). . .

﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ . . .

وفي هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية، وإلى أن السعي في الرزق مطلوب ولا ينافي التوكل، ولله در القائل:

ألـــم تـــرَ أن اللّـــه أوحـــى لمـــريـــم
وهـــزّي إليـــك الجـــذع يسّـــاقـــط الـــرُّطَـــبُ
ولـــو شـــاء أحنـــى الجـــذع مـــن غيـــر هَـــزّه
إليهـــا ولكـــن كـــل شـــيء لـــه سبـــبُ

﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أي فكلـي مـن ذلـك الرطب، واشربي من عصيره، وطيبي نفساً، وأبعدي عنك الأحزان، فإن الله قـدير أن ينزّه ساحتك ويبعد عنك تخرّصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنن التي جعلها الله الطريق للولادة في البشر، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يُثبتوا لك القداسة والطهر.

﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ . . .

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ أي إن مريم حين أُمِرَتْ أن تصوم يومها، ولا تكلم أحداً من البشر، وأنها ستُكْفَى أمرها ويقام بحجتها سلّمت أمرها إلى الله، واستسلمت لقضائه. . . ثم زادوا تأكيداً في توبيخها وتعييرها فقالوا:

﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ . . .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي فأشارت إلى عيسى أن كلموه، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام، واقتصرت على ذلك للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وأن هذا المولود يفهم الإشارة، ويقدر على العبارة.

﴿ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ . . .

ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه. بجملة صفات:

(١) ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أي إني عبدالله الذي له صفات الكمال لا أعبد غيره، وفي هذا إيماء إلى أن من كان لا يُتخذ إلهاً من دونه.

(٢) ﴿ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ . . .

(٣) ﴿ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ . . .

(٤) ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي سيجعلني نفاعاً للناس هادياً لهم إلى سبيل الرشاد في أيّ مكان كنت، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلاً وهي لم تحصل بعدُ، من قِبَل أنها لما كانت واقعة حتماً نُزِّلت منزلة ما قد حصل.

(٥) ﴿ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ . . .

(٦) ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ . . .

(٧) ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ . . .

(٨) ﴿ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي والأمَنَة من الله عليَّ، فلا يقدر أحد على ضُرِّي في هذه المواطن الثلاثة التي هي أشق ما تكون على العباد.

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التي لو وجدت لتوافرت الدواعي على نقلها تواتراً، لأنه من المناقب السامية، والفضائل التي لها الميزة العظمى بين الناس، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من

أحواله علمنا أنه لم يوجد؛ وأيضاً فاليهود أظهروا عداوته حين ادّعى النبوة، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد، ولكان تحيّلهم في قتله أعظم، ومن حيث لم يحصل شيء من هذا علمنا أنه لم يتكلم.

والمسلمون يقولون: كفى إثباتاً لذلك نص القرآن القاطع ـ إلى أن العقل يرشد إليه، إذ لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها، وربما كان الحاضرون حين كلامه عدداً قليلاً؛ ومن ثم لم يشتهر بينهم، وربما لم يحضر اليهود كلامه، ولم يسمعوا به. . .

الإيضاح

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي ذلك الذي فصّلت نبوّته، وذكرت مناقبه وأوصافه، هو عيسى بن مريم، نقول ذلك قول الصدق الذي لا ريب فيه، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ما هو منه براء.

ثم أكد ما دل عليه سابق الكلام من كونه ابناً لمريم لا لغيرها بقوله:

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ . . .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال:

﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾. أي تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره.

ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال:

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج؟ . . .

٢٢

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾

(سورة مريم، رقم ١٩، الآية ٨٨ ـ ٩٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٦	ص ٩٧ ـ ١٠٠	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٢١٥ ـ ٢٢١
الزمخشري	ج ٢	ص ٥٢٤ ـ ٥٢٦	ابن كثير	ج ٣	ص ١٣٨ ـ ١٣٩
الرازي	ج ٢١	ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥	الجلالان		ص ٤٠٥
الطبرسي	ج ١٦	ص ٧٠ ـ ٧٩	الشوكاني	ج ٣	ص ٣٥٠ ـ ٣٥٣
ابن عربي	ج ٢	ص ٢٦ ـ ٢٩	الآلوسي	ج ١٦	ص ١٢٦ ـ ١٢٩
البيضاوي	ج ٤	ص ١٥ ـ ١٦	القاسمي	ج ١١	ص ٤١٦٤
الخازن	ج ٤	ص ٢٦١	الطباطبائي	ج ١٤	ص ١٠٧ ـ ١١٦
البغوي	ج ٣	ص ١٧٥ ـ ١٧٦	جوهري	ج ١٠	ص ٤٤ ـ ٥٩
الماوردي	ج ٣	ص ٣٩٠	المراغي	ج ١٦	ص ٨٥ ـ ٨٧
القرطبي	ج ١١	ص ١٥٥ ـ ١٥٩	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٣١٦ ـ ٢٣٢٢

الطبري ج ١٦ ص ٩٧ ـ ١٠٠

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بالله ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ يقول تعالى ذكره للقائلين ذلك من خلقه لقد جئتم أيها الناس شيئاً عظيماً من القول منكراً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ يقول قولاً عظيماً. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ يقول: لقد جئتم شيئاً عظيماً وهو المنكر من القول. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله ﴿ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ قال عظيماً. حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ قال عظيماً. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ قال: جئتم شيئاً كبيراً من الأمر، حين دعوا للرحمن ولداً. وفي الادّ لغات ثلاث يقال: لقد جئت شيئاً إدّا بكسر الألف، وأدّ بفتح الألف، وإدّا بفتح الألف ومدها، على مثال ماد فاعل.

وقرأه قراء الأمصار، بكسر الألف وبها نقرأ، وقد ذكر عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ ذلك بفتح الألف، ولا أرى قراءته كذلك لخلافها قراءة قراء الأمصار، والعرب تقول لكل أمر عظيم: إدّ، وإمر ونكر، ومنه قول الراجز:

لقد لقي الاعداء مني نكرا
داهية دهيا وإدّا إمرا

ومنه قول الآخر:

* في لهث منه وحثل إدّا*

وقوله ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ يقول تعالى ذكره: تكاد السموات يتشققن قطعاً من قيلهم ﴿ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾، ومنه قيل: فطر نابه: إذا انشق. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك احسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين. وقال رسول

الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة، قالوا يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: تلك أوجب وأوجب. ثم قال: والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن». حدثنا القاسم... عن مجاهد ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ ذكر لنا أن كعبا كان يقول: غضبت الملائكة، واستعرت جهنم، حين قالوا ما قالوا. وقوله ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ يقول: وتكاد الأرض تنشق، فتنصدع من ذلك ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ يقول: وتكاد الجبال يسقط بعضها على بعض سقوطاً، والهد: السقوط، وهو مصدر هددت، فأنا أهد هداً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ يقول: هدماً. حدثنا القاسم... عن ابن عباس: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال: الهد؛ الانقضاض. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال غضبا لله، قال: ولقد دعا هؤلاء الذين جعلوا لله هذا الذي غضبت السموات والأرض والجبال من قولهم لقد استتابهم ودعاهم إلى التوبة، فقال ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] قالوا: هو وصاحبته وابنه، جعلوهما الهين معه ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] إلى قوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٤] القول في تأويل قوله تعالى ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾. يقول تعالى ذكره: وتكاد الجبال أن تخر انقضاضاً، لأن دعوا للرحمن ولدا، فأن في موضع نصب في قول بعض أهل العربية، لاتصالها بالفعل، وفي قول غيره في موضع خفض بضمير الخافض، وقد بينا الصواب من القول في ذلك في غير موضع من كتابنا هذا بما أغنى عن اعادته في هذا الموضع. وقال ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ يعني بقوله ﴿أَن دَعَوْا۟﴾: أن جعلوا له ولدا، كما قال الشاعر:

ألا رب من تدعو نصيحا وان تغب
تجده بغيب غير منتصح الصدر

وقال ابن أحمر:

أهوى لها مشقصا حشرا فشبرقها
وكنت أدعو قذاها الأثمد القِردا

وقوله ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ يقول: وما يصلح لله أن يتخذ ولدا، لأنه ليس كالخلق الذين تغلبهم الشهوات، وتضطرهم اللذات إلى جماع الاناث، ولا ولد يحدث إلا من أنثى، والله يتعالى عن أن يكون كخلقه وذلك كقول ابن أحمر:

في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة
ما ينبغي دونها سهل ولا جبل

يعني: لا يصلح ولا يكون. ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ يقول: ما جميع من في السموات من الملائكة، وفي الأرض من البشر والإنس والجن ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ يقول: إلا يأتي ربه يوم القيامة عبد له، ذليلا خاضعا، مقرا له بالعبودية، لا نسب بينه وبينه. وقوله ﴿ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إنما هو فاعل من أتيته فانا آتيه. القول في تأويل قوله تعالى ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ يقول تعالى ذكره: لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم، وعدهم عدا، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم، وعرف عددهم، فلا يغرب عنه منهم أحد.

الرازي ج٢١ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥

... إعلم أنه تعالى لما رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولداً ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقالت العرب الملائكة بنات الله، والكل داخلون في هذه الآية، ومنهم من خصها بالعرب الذين أثبتوا أن الملائكة بنات الله قالوا لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة، أما الآن فانه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الأوثان تكلم في إفساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة

لكونهم بنات الله، أما قوله ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ فقرىء إداً بالكسر والفتح، قال ابن خالويه: الإد والأد العجب وقيل المنكر العظيم والأدة الشدة وأدني الأمر وآدني أثقلني. قرىء يتفطرن بالتاء بعد الياء، أعني المعجمة من تحتها، واختلفوا في يكاد فقرأ بعضهم بالياء المعجمة من تحتها، وبعضهم بالتاء من فوق، والانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر من فطره إذا شققه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود يتصدعن وقوله ﴿ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾ أي تهد هدا أو مهدودة أو مفعول له، أي لأنها تهد والمعنى أنها تتساقط أشد ما يكون تساقط البعض على البعض، فان قيل من أين يؤثر القول باثبات الولد لله تعالى في انفطار السموات، وانشقاق الأرض، وخرور الجبال؟ قلنا فيه وجوه: (أحدها): إن الله سبحانه وتعالى يقول أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي، وأني لا أعجل بالعقوبة كما قال ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١]. (وثانيها): أن يكون استعظاما للكلمة، وتهويلا من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين، وهدمها لأركانه وقواعده. (وثالثها): إن السموات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول، وهذا تأويل أبي مسلم. (ورابعها): إن السموات والأرض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها أما قوله ﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في إعرابه ثلاثة أوجه: (أحدهما): أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه، أو منصوباً بتقدير سقوط اللام، وإفضاء الفعل أي هذا لأن دعوا، أو مرفوعاً بأنه فاعل (هدا) أي هدها دعاء الولد للرحمن، والحاصل أنه تعالى بين أن سبب تلك الأمور العظيمة هذا القول.

المسألة الثانية: إنما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيهاً على أنه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده من قبل أن أصول النعم، وفروعها ليست إلا منه.

المسألة الثالثة: قوله ﴿ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ هو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين، فاقتصر على أحدهما الذي هو الثاني طلباً للعموم والإحاطة بكل من ادعى له ولداً أو من دعا بمعنى نسب الذي هو مطاوعه ما في قوله ﷺ «من ادعى إلى غير مواليه». قال الشاعر:

* إنا بني نهشل لا ندعى لأب *

أي لا ننتسب إليه، ثم قال تعالى ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ أي هو محال، أما الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأما التبني فلأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد، ولا مشبه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به، واستعانته به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به، ثم قال ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ والمراد أنه ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة والناس إلا وهو يأتي الرحمن أي يأوي إليه ويلتجىء إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة، والأول أولى لأنه لا تخصيص فيه وقوله ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته، فهو سبحانه محيط بهم، ويعلم مجمل أمورهم وتفاصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد، وهم برآء منهم.

البيضاوي ج ٤ ص ١٥ ـ ١٦

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ الضمير يحتمل الوجهين لأن هذا لما كان مقولا فيما بين الناس جاز أن ينسب إليهم ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجراءة على الله تعالى، والأد بالفتح والكسر العظيم المنكر، والادة لشدة، وأدني الأمر، وآدني أثقلني وعظم عليّ. ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر ويعقوب

ينفطرن، والأول أبلغ لأن التفعل مطاوع فعل، والانفعال مطاوع فعل، ولأن أصل التفعل التكلف ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ تهد هدًا، أو مهدودة، أو لأنها تهد، أي تكسر وهو تقرير لكونه ادا، والمعنى أن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الاجرام العظام، وتفتت من شدتها، أو أن فظاعتها مجلبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرب العالم، وبدد قوائمه غضبا على من تفوه بها. ﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ يحتمل النصب على العلة لتكاد، أو لهدا على حذف اللام، وافضاء الفعل إليه والجر باضمار اللام، أو بالابدال من الهاء في منه، والرفع على أنه خبر محذوف تقديره الموجب، لذلك أن دعوا، أو فاعل هدًا أي هدّها دعاء الولد للرحمن، وهو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين، وانما اقتصر على المفعول الثاني ليحيط بكل ما دعى له ولدا، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى إلى فلان إذا انتسب إليه ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، ولا يليق به اتخاذ الولد ولا ينطلب له لو طلب مثلا لأنه مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للاشعار بأن كل ما عداه نعمة ومنعم عليه، فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها، ومولى أصولها وفروعها فكيف يمكن أن يتخذه ولدا، ثم صرح به في قوله ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما منهم ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد. وقرىء آتٍ الرحمن على الأصل ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ حصرهم، وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه، وقبضة قدرته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عد أشخاصهم، وأنفاسهم، وأفعالهم فان كل شيء عنده بمقدار.

الخازن ج ٤ ص ٢٦١

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ يعني اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله من العرب، ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ قال ابن عباس منكرا وقيل معناه لقد قلتم قولاً عظيماً، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ من الانفطار، وهو الشق، ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾، أي تخسف بهم ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تسقط وتنطبق عليهم، ﴿أَن دَعَوْا﴾ أي من أجل أن جعلوا، ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ فان قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال، ومن أين تؤثر هذه الكلمة في هذه الجمادات. قلت فيه وجهان أحدهما أن الله تعالى يقول كدت أن أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي، وإني لا أعجل بالعقوبة. الثاني أن يكون استعظاما للكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين، وهدمها لأركانه، وقواعده. قال ابن عباس فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا، ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونفاه عنه، فقال تعالى ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد ولا شبيه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله تعالى من سرور به واستعانة، وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، أي آتيه يوم القيامة عبدا ذليلا خاضعا والمعنى أن الخلائق كلهم عبيده، ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته.

سيد قطب ج ٤ ص ٢٣١٦ - ٢٣٢٢

... ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين، ذلك حين يقول المشركون من العرب: الملائكة بنات الله. والمشركون من اليهود: عزير ابن الله. والمشركون من النصارى: المسيح ابن الله.. فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التي تنكرها فطرته، وينفر منها ضميره...

إن جرس الألفاظ، وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو: جو الغضب والغيرة والانتفاض! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية، والمساس بقداسة الذات العلية، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته، أو كرامة من يحبه ويوقره.

هذه الإنتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والإرتجاف.

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق: ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ حتى تنطلق كلمة التفظيع والتبشيع: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾، ثم يهتز كل ساكن من حولهم، ويرتج كل مستقر، ويغضب الكون كله لبارئه. وهو يحس بتلك الكلمة تصدم كيانه وفطرته؛ وتجافي ما وقر في ضميره، وما استقر في كيانه؛ وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها: ﴿ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾..

وفي وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾.

إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا ولد ولا شريك، إنما خلق وعبيد.

وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان.. ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ فلا مجال لهرب أحد، ولا لنسيان أحد...

٢٣

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة الانبياء ،رقم ٢١، الآية ٢٦ ـ ٢٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٧	ص ١٢	أبو حيان الاندلسي	ج ٦	ص ٣٠٣ ـ ٣٠٧
الزمخشري	ج ٢	ص ٥٦٩	ابن كثير	ج ٣	ص ١٧٦
الرازي	ج ٢٢	ص ١٥٩	الجلالان		ص ٤٢٢
الطبرسي	ج ١٧	ص ١٦ ـ ٢١	الشوكاني	ج ٣	ص ٤٠٤ ـ ٤٠٧
ابن عربي	ج ٢	ص ٧٠ ـ ٧٢	الآلوسي	ج ١٧	ص ٣٠ ـ ٣١
البيضاوي	ج ٤	ص ٣٨ ـ ٣٩	القاسمي	ج ١١	ص ٤٢٦٤
الخازن	ج ٤	ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣	الطباطبائي	ج ١٤	ص ٢٥٨ ـ ٢٨٣
البغوي	ج ٣	ص ٢٠٤	جوهري	ج ١٠	ص ١٩٣ ـ ٢٢٢
الماوردي	ج ٣	ص ٤٤٢	المراغي	ج ١٧	ص ٢١ ـ ٢٣
القرطبي	ج ١١	ص ٢٨١	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٣٦٤ ـ ٢٣٧٨

الطبري ج ١٧ ص ١٢

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بربهم اتخذ الرحمن ولدا من ملائكته فقال جل ثناؤه استعظاماً مما قالوا وتبرياً مما وصفوه به سبحانه، يقول تنزيهاً له عن ذلك ما ذلك من صفته ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ يقول ما الملائكة كما وصفهم به هؤلاء الكافرون من بني آدم، ولكنهم عباد مكرمون يقول أكرمهم الله. كما حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ قال قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى صاهر الجن، فكانت منهم الملائكة قال الله تبارك وتعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ وأن الملائكة ليس كما قالوا إنما هم عباد أكرمهم الله بعبادته. حدثنا محمد بن عبد الأعلى... عن قتادة وحدثنا الحسن... عن قتادة ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ قالت اليهود وطوائف من الناس: إن الله تبارك وتعالى خاتن إلى الجن والملائكة من الجن. قال الله تبارك وتعالى سبحانه ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ وقوله ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ يقول جل ثناؤه: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يعملون عملاً إلا به. حدثنا بشر... عن قتادة قال: قال الله: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ يثني عليهم ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾.

الرازي ج ٢٢ ص ١٥٩ ـ ١٦٠

... اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزهاً عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله، وأضافوا إلى ذلك أنه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم، فقال: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات: ١٥٨]، ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد، فلو كان لله ولد لأشبهه من بعض الوجوه، ثم لا بد وأن يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فيقع التركيب في ذات الله سبحانه وتعالى، وكل مركب ممكن، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكناً غير واجب، وذلك يخرجه عن حد الإلهية ويدخله في حد العبودية، ولذلك نزه نفسه عنه.

أما قوله ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد، والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد، وقرىء «مكرمون، لا يسبقونه» من سابقته فسبقته أسبقه.

والمعنى أنهم يتبعونه في قوله، ولا يقولون شيئاً حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله، وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً كذلك مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به.

الطبرسي ج ٧ ص ١٦ ـ ٢١

. . . ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ يعني من الملائكة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزه نفسه عن ذلك لأن اتخاذ الولد لا يخلو إما أن يكون على سبيل التوالد أو على سبيل التبني، وكلاهما لا يجوز عليه لأن الأول يقتضي أن يكون من قبيل الأجسام، والثاني وهو التبني يكون بأن يقيم غير ولده مقام ولده، وإذا كان حقيقة الولد مستحيلاً منه، فالمشبه به كذلك وليس ذلك كالخلة لأنه من الاختصاص وحقيقته جائزة عليه ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي ليسوا أولاد الله كما يزعمون، بل هم عباد مكرمون أكرمهم الله واصطفاهم ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، فكل أقوالهم طاعة لربهم، وناهيك بذلك جلالة قدرهم ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾، ومن كان بهذه الصفة لا يوصف بأنه ولده.

المراغي ج ٦ ص ٢١ ـ ٢٢

. . . وبعد أن بيّن سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزه عن الشريك والندّ ـ أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد فقال:

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴾ أي وقال فريق من هؤلاء المشركين وهم بطون من خُزاعة وجُهَيْنة وبني سَلِمة ـ الملائكة بنات الله، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك، لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد، فلو كان له ولد لأشبهه ولا مجانسة بين النعمة والمنعِم، والخالق والمخلوق.

ثم أكّد إبطال ما سلف بقوله:

﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ أي ليس الملائكة كما قالوا، بل هم عباد مخلوقون له تعالى، فهم ملكه لكنهم مقربون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية.

ثم بين سبحانه كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره وتأدبهم معه تعالى فقال:

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله. وخلاصة ذلك ـ إنهم في غاية المراقبة لربهم، يجمعون بين الطاعة في القول والفعل.

٢٤ ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(سورة الأنبياء ،رقم ٢١، الآية ٩١)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٧	ص ٦٧	أبو حيان الاندلسي	ج ٦	ص ٣٣٦ ـ ٣٤١
الزمخشري	ج ٢	ص ٥٨٢	ابن كثير	ج ٣	ص ١٩٤
الرازي	ج ٢٢	ص ٢١٨ ـ ٢١٩	الجلالان		ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠
الطبرسي	ج ١٧	ص ٥٥ ـ ٥٩	الشوكاني	ج ٣	ص ٤٢٤ ـ ٤٢٧
ابن عربي	ج ٢	ص ٨٨ ـ ٨٩	الآلوسي	ج ١٧	ص ٨١
البيضاوي	ج ٤	ص ٤٦	القاسمي	ج ١١	ص ٤٣٠٥
الخازن	ج ٤	ص ٣٢١	الطباطبائي	ج ١٤	ص ٣١٠ ـ ٣١٩
البغوي	ج ٣	ص ٢٢٥	جوهري	ج ١٠	ص ٢٣٤
الماوردي	ج ٣	ص ٤٦٩	المراغي	ج ١٧	ص ٦٦ ـ ٦٧
القرطبي	ج ١١	ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٣٨٣ ـ ٢٣٩٦

الطبري ج ١٧ ص ٦٧

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ واذكر التي أحصنت فرجها، يعني مريم بنت عمران. ويعني بقوله ﴿ أَحۡصَنَتۡ ﴾: حفظت ومنعت فرجها مما حرم الله عليها إباحته فيه، واختلف في الفرج الذي عنى الله جل ثناؤه أنها أحصنته، فقال بعضهم: عنى بذلك فرج نفسها أنها حفظته من الفاحشة. وقال آخرون: عنى بذلك جيب درعها أنها منعت جبريل منه قبل أن تعلم أنه رسول ربها، وقبل إن تثبته معرفة، قالوا: والذي يدل على ذلك قوله: ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا ﴾، ويعقب ذلك قوله ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ قالوا: وكان معلوماً بذلك أن معنى الكلام والتي أحصنت جيبها ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾. قال أبو جعفر: والذي هو أولى القولين عندنا بتأويل ذلك، قول من قال: ﴿ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا ﴾ من الفاحشة، لأن ذلك هو الأغلب من معنييه عليه، والأظهر في ظاهر الكلام ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ يقول: فنفخنا في جيب درعها من روحنا. وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في معنى قوله: ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا ﴾ في غير هذا الموضع والأولى بالصواب من القول في ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله: ﴿ وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يقول: وجعلنا مريم وابنها عبرة لعالمي زمانهما يعتبرون بهما ويتفكرون في أمرهما، فيعلمون عظيم سلطاننا وقدرتنا على ما نشاء، وقيل آية ولم يقل آيتين، وقد ذكر آيتين لأن معنى الكلام جعلناهما علماً لنا وحجة، فكل واحدة منهما في معنى الدلالة على الله، وعلى عظيم قدرته يقوم مقام الآخر إذ كان أمرهما في الدلالة على الله واحداً.

الرازي ج ٢٢ ص ٢١٨ ـ ٢١٩

قوله تعالى ﴿ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

إعلم أن التقدير واذكر التي أحصنت فرجها، ثم فيه قولان: (أحدهما) أنها أحصنت فرجها إحصاناً كلياً من الحلال والحرام جميعاً، كما قالت ﴿ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴾ [مريم:٢٠]. (والثاني): من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه، والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ.

وأما قوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ فلقائل أن يقول: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر: ٢٩] أي أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ ظاهر الاشكال لأنه يدل على إحياء مريم عليها السلام. (والجواب) من وجوه: (أحدها): معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها، أي أحييناه في جوفها كما يقول الزمار نفخت في بيت فلان، أي في المزمار في بيته. (وثانيها): فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لأنه نفخ في جيب درعها، فوصل النفخ إلى جوفها، ثم بين تعالى بأخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال: ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، أما مريم فآياتها كثيرة: (أحدها): ظهور الحبل فيها لا من ذكر، فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة. (وثانيها): إن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة، وهو قوله تعالى ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٧]. (وثالثها ورابعها): قال الحسن إنها لم تلتقم ثدياً يوماً قط، وتكلمت هي أيضاً في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام، وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها، فبين سبحانه أنه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات، ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى. فإن قيل هلا قيل آيتين كما قال ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ [الإسراء: ١٢] قلنا لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل. وههنا آخر القصص.

ابن عربي ج ٢ ص ٨٨ ـ ٨٩

... ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ ﴾ أي، النفس الزكية الصافية، المستعدة العابدة، التي ﴿ أَحْصَنَتْ ﴾ فرج استعدادها، ومحل تأثير الروح من باطنها، بحفظه من مسافحي القوى البدنية فيها، ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ من تأثير روح القدس، بنفخ الحياة الحقيقية، فولدت عيسى القلب، ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ مع القلب، علامة ظاهرة، وهداية واضحة ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ من القوى الروحانية، والنفوس المستعدة، المستبصرة، يهديهم إلى الحق، وإلى طريق مستقيم.

جوهري ج ١٠ ص ٢٣٤

... قال تعالى ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ من الحلال والحرام يعني مريم ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾، أي أمرنا جبريل فنفخ في جيب درعها، فخلقنا المسيح في بطنها بذلك النفخ. ويصح أن يقال أجرينا فيها روح المسيح، وأضافه إليه تشريفاً فإن الروح من أمر الله، ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا ﴾ أي قصتهما أو حالهما ﴿ آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾، فإن المتأمل لقصتهما يتحقق بها كمال قدرة الله تعالى...

٢٥ ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾

(سورة المؤمنون، رقم ٢٣، الآية ٥٠)

مصادر تفاسير الآية

التفسير	الجزء	الصفحة	التفسير	الجزء	الصفحة
الطبري	ج ١٨	ص ١٩ ـ ٢٢	ابو حيان الاندلسي	ج ٦	ص ٤٠٦ ـ ٤١٠
الزمخشري	ج ٣	ص ٣٣	ابن كثير	ج ٣	ص ٢٤٦
الرازي	ج ٢٣	ص ١٠٢ ـ ١٠٣	الجلالان		ص ٤٥٠
الطبرسي	ج ١٨	ص ١٥٣ ـ ١٥٦	الشوكاني	ج ٣	ص ٤٨٤ ـ ٤٨٨
ابن عربي	ج ٢	ص ١٢٢ ـ ١٢٤	الآلوسي	ج ١٩	ص ٣٧ ـ ٣٩
البيضاوي	ج ٤	ص ٦٧	القاسمي	ج ١٢	ص ٤٤٠١ ـ ٤٤٠٢
الخازن	ج ٥	ص ٣٨	الطباطبائي	ج ١٥	ص ٢٦ ـ ٣٦
البغوي	ج ٣	ص ٢٦٢	جوهري	ج ١١	ص ١٣٣ ـ ١٤٧
الماوردي	ج ٤	ص ٥٥ ـ ٥٦	المراغي	ج ١٨	ص ٢٦ ـ ٢٧
القرطبي	ج ١٢	ص ١٢٦ ـ ١٢٧	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٤٦٣ ـ ٢٤٦٩

الطبري ج ١٨ ص ١٩ ـ ٢٢

. . . ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ يقول: وجعلنا ابن مريم وأمه حجة لنا على من كان بينهم، وعلى قدرتنا على إنشاء الأجسام من غير أصل كما أنشأنا خلق عيسى من غير أب، كما حدثنا الحسن بن يحيى. . . عن قتادة في قوله ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ﴾ قال: ولدته من غير أب هو له، ولذلك وحدت الآية، وقد ذكر مريم وابنها وقوله ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ يقول: وضممناهما وصيرناهما إلى ربوة. يقال أوى فلان إلى موضع كذا فهو يأوي إليه إذا صار إليه، وعلى مثال أفعلته فهو يؤويه. وقوله ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ يعني إلى مكان مرتفع من الأرض على ما حوله، ولذلك قيل للرجل يكون في رفعة من قومه وعز وشرف وعدد، هو في ربوة من قومه، وفيها لغتان: ضم الراء وكسرها إذا أريد بها الاسم، وإذا أريد بها الفعلة من المصدر قيل ربا ربوة. واختلف أهل التأويل في المكان الذي وصفه الله بهذه الصفة وآوى إليه مريم وابنها، فقال بعضهم هو الرملة من فلسطين. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن المثنى. . . عن أبو هريرة: الزموا هذه الرملة من فلسطين فإنها الربوة التي قال الله ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ حدثني عصام بن رواد بن الجراح. . . عن كريب قال: ما أدري ما حدثنا مرة البهزي انه سمع رسول الله ﷺ ذكر أن الربوة: هي الرملة. حدثنا الحسن. . . عن أبي عبد الله ابن عم أبي هريرة قال: سمعت أبا هريرة يقول في قول الله ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال: هي الرملة من فلسطين. حدثنا ابن بشار. . . عن عبدالله ابن عم أبي هريرة قال: قال لنا أبو هريرة: الزموا هذه الرملة التي بفلسطين فإنها الربوة التي قال الله وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين. وقال آخرون: هي دمشق. ذكر من قال ذلك: حدثنا أحمد بن الوليد القرشي. . . عن سعيد بن المسيب أنه قال في هذه الآية ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال: زعموا أنها دمشق. حدثنا ابن عبد الأعلى. . . عن ابن المسيب أنه قال: دمشق. حدثنا الحسن. عن سعيد بن المسيب مثله. حدثني يحيى بن عثمان بن صالح السهمي. . . عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال: إلى ربوة من ربى مصر. قال: وليس الربى إلا في مصر، والماء حين يرسل تكون الربى عليها القرى لولا الربى لغرقت تلك القرى. وقال آخرون: هي بيت المقدس. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى. . . عن قتادة قال: هو بيت المقدس. قال: ثنا محمد بن ثور. . . قتادة قال: كان كعب يقول: بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. حدثنا الحسن. . . عن كعب مثله. وأولى هذه الأقوال

بتأويل ذلك أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة لأن الرملة لا ماء بها معين، والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل: ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ قال: الربوة المستوية. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله إلى ربوة قال: مستوية ـ حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. وقوله ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ يقول تعالى ذكره: من صفة الربوة التي آوينا إليها مريم وابنها عيسى أنها أرض منبسطة، وساحة وذات ماء ظاهر لغير الباطن جار. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس ﴿وَمَعِينٍ﴾ قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] حدثني محمد بن عمارة الأسدي... عن مجاهد في قوله ذات قرار ومعين قال: المعين الماء. حدثني محمد بن عمارة الأسدي... عن مجاهد، معين، قال: ماء. حدثنا القاسم عن مجاهد مثله. حدثني سليمان بن عبد الجبار عن سعيد في قوله ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المكان المستوى، والمعين الماء الظاهر. حدثت عن الحسين بن الفرج... عن الضحاك يقول في قوله: ومعين هو الماء الظاهر. وقال آخرون: عني بالقرار: الثمار. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هي ذات ثمار، وهي بيت المقدس. حدثنا الحسن... عن قتادة مثله. قال أبو جعفر: وهذا القول الذي قاله قتادة في معنى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ وإن لم يكن أراد بقوله: إنها إنما وصفت بأنها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ لما فيها من الثمار، ومن أجل ذلك، يستقر فيها ساكنوها، فلا وجه له نعرفه. وأما ﴿وَمَعِينٍ﴾ فإنه مفعول من عنته فأنا أعينه، وهو معين؛ وقد يجوز أن يكون فعيلاً من معن يمعن فهو (معين) من الماعون؛ ومنه قول عبيد بن الأبرص:

واهيـــة أو معيـــن ممعـــن
أو هضبـــة دونهـــا اللّهـــب

الرازي ج ٢٣ ص ١٠٢ ـ ١٠٣

قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بأن خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد في الصغر وأجرى على يديه إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى، وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لأنها حملته من غير ذكر. وقال الحسن تكلمت مريم في صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: الآية ٣٧] ولم تلقم ثدياً قط، قال القاضي إن ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام لأنها لم تكن نبية، قلنا القاضي إنما قال ذلك لأن عنده الإرهاص غير جائز وكرامات الأولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة إلى ما قال، والأقرب أنه جعلهما آية بنفس الولادة لأنه ولد من من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعاً في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة والذي يدل على أن هذا التفسير أولى وجهان: (أحدهما): إنه تعالى قال ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ لأن نفس الإعجاز ظهر فيهما لا أنه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التي ظهرت على يده نحو إحياء الموتى وذلك لأن الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك إن نطقا في المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لا أنه آية فيه. (الثاني): إنه تعالى قال آية ولم يقل آيتين، وحمل هذا اللفظ على الأمر الذي لا يتم إلا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى عليه السلام مستقلاً بها...

الطبرسي ج ١٨ ص ١٥٥

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ وهذا مثل قوله ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١]. أي حجة على قدرتنا على الاختراع، وآية عيسى أنه خلق من غير ذكر، وآية مريم أنها حملت من غير فحل ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ أي جعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً مستوياً واسعاً، يقال أوى إليه يأوي أوياً وأواه غيره يؤويه إيواء أي جعله مأوى له، والربوة التي أويا إليها هي الرملة من فلسطين عن أبي هريرة، وقيل دمشق عن سعيد بن المسيب، وقيل مصر عن ابن زيد، وقيل بيت المقدس عن قتادة وكعب، قال كعب وهي أقرب الأرض إلى السماء، وقيل هي حيرة الكوفة وسوادها والقرار مسجد الكوفة، والمعين الفرات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ معناه أي ذات موضع ﴿ قَرَارٍ ﴾ أي هي أرض مستوية يستقر عليها ساكنوها.. عن الضحاك وسعيد، وقيل ذات ثمار.. عن قتادة. ذهب إلى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها، ﴿ وَمَعِينٍ ﴾ ماء جار ظاهر العيون، مفعول من أعنته أعينه، ويجوز أن يكون فعيلاً من معن يمعن معانة، والماعون الشيء القليل في قول الزجاج، قال الراعي:

قوم على الإسلام لما يمنعوا

ماعونهم ويبدلوا التنزيلا

قالوا معناه رفدهم، وقيل زكاتهم وقال عبيد بن الأبرص:

واهية أو معين ممعن

أو هضبة دونها اللّهبُ

واللهب شق في الجبل، ممعن مار، والمعن الشيء السهل الذي ينقاد ولا يعتاص، وأمعن بحقه، وأذعن أي أقر، قال ابن الإعرابي سالت معناه أي مسائله ومجاريه.

الآلوسي ج ٩ ص ٣٧ ـ ٣٩

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾آية آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد مشترك بينهما فلذا أفردت، وجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أي جعلنا حال ابن مريم وأمه آية أو جعلنا ابن مريم وأمه ذوي آية وأن يكون على حذف آية من الأول لدلالة الثاني عليه أو بالعكس أي جعلنا ابن مريم آية لما ظهر فيه عليه السلام من الخوارق كتكلمه في المهد بما تكلم صغيراً وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص وغير ذلك كبيراً وجعلنا أمه آية بأن ولدت من غير مسيس، وقال الحسن: إنها عليها السلام تكلمت في صغرها أيضاً حيث قالت: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]. ولم تلتقم ثدياً قط، وقال الخفاجي: لك أن تقول: إنما يحتاج إلى توجيه إفراداً الآية بما ذكر إذا أريد أنها آية على قدرة الله تعالى أما إذا كانت بمعنى المعجزة أو الإرهاص فلا لأنها إنما هي لعيسى عليه السلام لنبوته دون مريم، اهـ. ولا يخفى ما فيه والوجه عندي ما تقدم، والتعبير عن عيسى عليه السلام بابن مريم وعن مريم بأمه للإيذان من أول الأمر بحيثية كونهما آية فإن نسبته عليه السلام إليها مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له أي جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمه التي ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية، وتقديمه عليه السلام لأصالته فيما ذكر من كونه آية كما قيل أن تقديم أمه في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء: ٩١]. لأصالتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ، ثم اعلم أن الذي أجمع عليه الإسلاميون أنه ليس لمريم ابن سوى عيسى عليه السلام.

وزعم بعض النصارى قاتلهم الله تعالى أنها بعد أن ولدت عيسى تزوجت بيوسف النجار، وولدت منه ثلاثة أبناء، والمعتمد عليه عندهم أنها كانت في حال الصغر خطيبة يوسف النجار عقد عليها ولم يقربها ولما رأى حملها بعيسى عليه السلام هم بتخليتها فرأى في المنام ملكاً أوقفه على حقيقة الحال فلما ولدت بقيت عنده مع عيسى عليه

السلام فجعل يربيه ويتعهده مع أولاد له من زوجة غيرها فأما هي فلم يكن يقربها أصلاً. والمسلمون لا يسلمون أنها كانت معقوداً عليها ليوسف ويسلمون أنها كانت خطيبته وأنه تعهدها وتعهد عيسى عليه السلام ويقولون: كان ذلك لقرابته منها ﴿ وَءَاوَيْنَٰهُمَآ ﴾ أي جعلناهما يأويان ﴿ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ﴾ ما ارتفع من الأرض دون الجبل...

٢٦ ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ . عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(سورة المؤمنون، رقم ٢٣، الآية ٩١ ـ ٩٢)

مصادر تفاسير الآية

التفسير	الجزء	الصفحات	التفسير	الجزء	الصفحات
الطبري	ج ١٨	ص ٣٨ ـ ٣٩	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٤١٧ ـ ٤١٩
الزمخشري	ج ٣	ص ٤٠ ـ ٤١	ابن كثير	ج ٣	ص ٢٥٤
الرازي	ج ٢٣	ص ١١٦ ـ ١١٧	الجلالان		ص ٤٥٤
الطبرسي	ج ١٨	ص ١٧٠ ـ ١٧٦	الشوكاني	ج ٣	ص ٤٩٥ ـ ٤٩٧
ابن عربي	ج ٢	ص ١٢٤ ـ ١٢٨	الآلوسي	ج ١٩	ص ٥٩ ـ ٦٠
البيضاوي	ج ٤	ص ٧٠	القاسمي	ج ١٢	ص ٤٤١٥
الخازن	ج ٥	ص ٤٣	الطباطبائي	ج ١٥	ص ٥٢ ـ ٦٥
البغوي	ج ٣	ص ٢٦٧	جوهري	ج ١١	ص ١٤٨ ـ ٢٠٠
الماوردي	ج ٤	ص ٦٥	المراغي	ج ١٨	ص ٥٠ ـ ٥١
القرطبي	ج ١٢	ص ١٤٦ ـ ١٤٧	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٤٧١ ـ ٢٤٧٩

الطبري ج ١٨ ص ٣٨ ـ ٣٩

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يقول: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون بالله، من أن الملائكة بنات الله، وأن الآلهة والأصنام آلهة دون الله ﴿ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ اليقين، وهو الدين الذي ابتعث الله نبيه ﷺ، وذلك الإسلام، ولا يعبد شيء سوى الله، لأنه لا إله غيره، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ يقول: وإن المشركين لكاذبون فيما يضيفون إلى الله، وينحلونه من الولد والشريك. وقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ يقول تعالى ذكره: ما لله من ولد، ولا كان معه في القديم، ولا حين ابتدع الأشياء، تصلح عبادته، ولو كان معه في القديم، أو عند خلقه الأشياء، من تصلح عبادته ﴿ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ ﴾ يقول إذاً لاعتزل كل إله منهم ﴿ بِمَا خَلَقَ ﴾ من شيء، فانفرد به، ولتغالبوا، فلعلا بعضهم على بعض، وغلب القوي منهم الضعيف لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر! وقوله ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ ﴾ جواب لمحذوف، وهو: لو كان معه إله إذاً لذهب كل إله بما خلق، اجتزىء بدلالة ما ذكر عليه عنه وقوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره تنزيه لله عما يصفه به هؤلاء المشركون، من أن له ولداً، وعما قالوه من أن له شريكا، أو أن معه في القدم إلها يعبد، تبارك وتعالى. وقوله: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ يقول تعالى ذكره هو عالم ما غاب عن خلقه من الأشياء، فلم يروه ولم يشاهدوه وما رأوه وشاهدوه. وإنما هذا من الله خبر عن هؤلاء الذين قالوا من المشركين: اتخذ الله ولداً، وعبدوا من دونه آلهة، أنهم فيما يقولون ويفعلون مبطلون مخطئون، فإنهم يقولون ما يقولون من قول في ذلك عن غير علم، بل عن جهل منهم به، وأن العالم بقديم الأمور وبحديثها وشاهدها وغائبها عنهم، الله الذي لا يخفى عليه شيء، فخبره هو الحق دون خبرهم، وقال: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ﴾ فرفع عالم على الابتداء، بمعنى: هو عالم الغيب، ولذلك دخلت الفاء في قوله ﴿ فَتَعَٰلَىٰ ﴾ كما يقال: مررت بأخيك المحسن، فأحسنت إليه، فترفع المحسن إذا جعلت فأحسنت إليه بالفاء، لأن معنى الكلام إذا كان كذلك: مررت بأخيك هو المحسن، فأحسنت إليه. ولو جعل الكلام بالواو فقيل: وأحسنت إليه لم يكن

وجه الكلام في المحسن إلا الخفض على النعت للأخ، ولذلك لو جاء ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ بالواو، كان وجه الكلام في عالم الغيب الخفض على الأتباع لإعراب اسم الله، وكان يكون معنى الكلام: سبحان الله عالم الغيب والشهادة وتعالى. فيكون قوله ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ حينئذ معطوفا على سبحان الله، وقد يجوز الخفض مع الفاء، لأن العرب قد تبتدىء الكلام بالفاء، كابتدائها بالواو، وبالخفض كان يقرأ ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ في هذا الموضع أبو عمرو، على خلافه في ذلك قراءة الأمصار. والصواب من القراءة في ذلك عندنا: الرفع، لمعنيين: أحدهما إجماع الحجة من القراء عليه، والثاني: صحته في العربية. وقوله ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء المشركين، ووصفهم إياه بما يصفون.

الزمخشري ج ٣ ص ٤٠ - ٤١

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقرىء أتيتهم، وأتيتهم بالفتح والضم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بأن نسبة الوالد إليه محال والشرك باطل ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبدّ به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين، ولغلب بعضهم بعضاً، كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متمايزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك، وللتغالب فاعملوا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. فإن قلت: إذاً لا تدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجواباً ولـم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؟ قلت: الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأنداد والأولاد ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدأ محذوف. ما والنون مؤكدتان: أي إن كان لا بدّ من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

الرازي ج ٢٣ ص ١١٦ - ١١٧

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . . .

إعلم أنه سبحانه ادعى أمرين: (أحدهما): قوله ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾، وهو كالتنبيه على أن ذلك من قول هؤلاء الكفار، فإن جمعاً منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله. (والثاني): قوله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ وهو قولهم باتخاذ الأصنام آلهة، ويحتمل أن يريد به إبطال قول النصارى والثنوية، ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ والمعنى لانفرد على [ذلك] كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبدّ به، ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزاً عن ملك الآخر، ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون، وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. فإن قيل «إذاً» لا يدخل إلا على كلام هو جزاء وجواب، فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجواباً؟ ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل، قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ عليه، ثم إنه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك.

أما قوله ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فقرىء بالجر صفة لله، والرفع خبر مبتدأ محذوف، والمعنى أنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة، فغيره وإن علم الشهادة

فلن يعلم معها الغيب، والشهادة التي يعلمها لا يتكامل بها النفع إلا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم، فلذلك قال ﴿ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ثم أمره سبحانه بالانقطاع إليه وأن يدعوه. . .

الطبرسي ج ١٨ ص ١٧٠ ـ ١٧٦

. . . أكد سبحانه ما قدمه من أدلة التوحيد بقوله ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ أي لم يجعل ولد غيره ولد نفسه لاستحالة ذلك عليه، فمن المحال أن يكون له ولد، فلا يجوز عليه التشبيه بما هو مستحيل ممتنع إلا على النفي والتبعيد، واتخاذ الولد هو أن يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده لو كان له، وكذلك التبني إنما هو جعل الجاعل ابن غيره، ومن يصح أن يكون ابناً له مقام إبنه، ولذلك لا يقال تبنى شاب شيخاً ولا تبنى الإنسان بهيمة لما استحال أن يكون ذلك ولداً له ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ﴾ «من» هاهنا وفي قوله من ولد المؤكدة فهو آكد من أن يقول ما اتخذ ولداً كان معه إله، نفى عن نفسه الولد والشريك على آكد الوجوه ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ والتقدير إذا لو كان معه إله آخر لذهب كل إله بما خلق، أي لميّز كل إله خلقه عن خلق غيره ومنعه من الاستيلاء على ما خلقه، أو نصب دليلاً يميز به خلقه وخلق غيره، فإنه كان لا يرضى أن يضاف خلقه وأنعامه إلى غيره ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾، أي ولطلب بعضهم قهر بعض ومغالبته، وهذا معنى قول المفسرين ولقاتل بعضهم بعضاً كما يفعل الملوك في الدنيا، وقيل معناه ولمنع بعضاً عن مراده، وهو مثل قوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء: ٢٢]، وفي هذا دلالة عجيبة في التوحيد، وهو أن كل واحد من الآلهة من حيث يكون إلهاً يكون قادراً لذاته فيؤدي إلى أن يكون قادراً على كل ما يقدر عليه غيره من الآلهة، فيكون غالباً ومغلوباً من حيث أنه قادر لذاته، وأيضاً فإن من ضرورة كل قادرين صحة التمانع بينهما، فلو صح وجود إلهين صح التمانع بينهما من حيث أنهما قادران وامتنع التمانع بينهما من حيث أنهما قادران، للذات وهذا محال، وفي هذا دلالة على إعجاز القرآن لأنه لا يوجد في كلام العرب كلمة وجيزة تضمنت ما تضمنته هذه، فإنها قد تضمنت دليلين باهرين على وحدانية الله وكمال قدرته، ثم نزّه نفسه عما وصفوه به فقال ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عما يصفه به المشركون من اتخاذه الولد والشريك ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾، أي يعلم ما غاب وما حضر فلا يخفى عليه شيء ﴿ فَتَعَـٰلَىٰ ﴾ الله ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معنى أنه عالم بما كان، وبما سيكون، وبما لم يكن إن كان كيف يكون، ومن كان بهذه الصفة لا يكون له شريك لأنه الأعلى من كل شيء في صفته. . .

البيضاوي ج ٤ ص ٧٠

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ لتقدسه عن مماثلة أحد ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ﴾ يساهمه في الألوهية ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ جواب محاجتهم، وجزاء شرط حذف لدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كل منهم بما خلقه، واستبد به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، وظهر بينهم المتحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء، واللازم باطل بالإجماع، والاستقراء، وقيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب واحد ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وقد جره ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص على الصفة، وهو دليل آخر على نفي الشريك بناء على توافقهم في أنه المنفرد بذلك، ولهذا رتب عليه ﴿ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ بالفاء.

أبو حيان الأندلسي ج ٦ ص ٤١٧ ـ ٤١٩

وقرىء ﴿بَلْ أَتَيْتُهُم﴾ بتاء المتكلم، وابن أبي إسحاق بتاء الخطاب، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما ينسبون إلى الله تعالى من اتخاذ الولد، ومن الشركاء وغير ذلك مما هم فيه كاذبون، ثم نفى اتخاذ الولد وهو نفي استحالة، ونفي الشريك بقوله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: وما كان معه شريك في خلق العالم واختراعهم، ولا في غير ذلك مما يليق به من الصفات العلى، فنفي الوالد تنبيه على من قال الملائكة بنات الله، ونفي الشريك في الألوهية تنبيه على من قال الأصنام آلهة، ويحتمل أن يراد به إبطال قول النصارى والثنوية، و ﴿مِن وَلَدٍ﴾ و ﴿مِنْ إِلَٰهٍ﴾ نفي عام يفيد استغراق الجنس، ولهذا جاء ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ﴾، ولم يأتِ التركيب إذاً لذهب الإله، ومعنى لذهب أي لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به، وتميز ملك كل واحد عن ملك الآخر، وغلب بعضهم بعضاً كحال ملوك الدنيا، وإذا لم يقع الانفراد والتغالب فاعلموا أنه إله واحد وإذا لم يتقدمه في اللفظ شرط ولا سؤال سائل ولا عدة قالوا، فالشرط محذوف تقديره: ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ عليه، وهذا قول الفراء زعم أنه إذا جاء بعدها اللام كانت لو وما دخلت عليه محذوفة، وقد قررنا تخريجاً لها على غير هذا في قوله ﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣] والظاهر أن ما في ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ بمعنى: الذي وجوّز أن تكون مصدرية ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزيه عن الولد والشريك، وقرىء ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ الإبنان وأبو عمرو وحفص ﴿عَالِمِ﴾ بالجر، قال الزمخشري: صفة لله وقال ابن عطية: اتباع للمكتوبة، وقرأ باقي السبعة، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، وأبو بحرية بالرفع. قال الأخفش الجر أجود ليكون الكلام من وجه واحد. قال أبو علي الرفع أن الكلام قد انقطع يعني أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم، وقال ابن عطية والرفع عندي أبرع، والفاء في قوله ﴿فَتَعَالَىٰ﴾ عاطفة، فالمعنى كأنه قال: عالم الغيب والشهادة فتعالى كما تقول زيد شجاع فعظمت منزلته، أي شجع فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى: فأقول تعالى عما يشركون على أخبار مؤتنف، والغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة ما شاهدوه. انتهى.

الآلوسي ج ٩ ص ٥٦ ـ ٦٠

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ لتنزهه عزّ وجلّ عن الاحتياج وتقدسه تعالى عن مماثلة أحد.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ يشاركه سبحانه في الألوهية ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي لاستبد بالذي خلقه واستقل به تصرفاً وامتاز ملكه عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ولوقع التحارب والتغالب بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك والتالي باطل لما يلزم من ذلك نفي ألوهية الجميع أو ألوهية ما عدا واحداً منهم وهو خلاف المفروض أو لما أنه يلزم أن لا يكون بيده تعالى وحده ملكوت كل شيء وهو باطل في نفسه لما برهن عليه في الكلام وعند الخصم لأنه يقول باختصاص ملكوت كل شيء به تعالى كما يدل عليه السؤال والجواب السابقان آنفاً كذا قيل، ولا يخفى أن اللزوم في الشرطية المفهومة من الآية عادي لا عقلي ولذا قيل: إن الآية إشارة إلى دليل إقناعي للتوحيد لا قطعي.

وفي الكشف قد لاح لنا من لطف الله تعالى وتأييده أن الآية برهان نير على توحيده سبحانه، وتقريره أن مرجع الممكنات الواجب الوجود تعالى شأنه جل عن كل كثرة أما كثرة المقومات أو الأجزاء الكمية فبينة الانتفاء لإيذانها بالإمكان، وأما التعدد مع الاتحاد في الماهية فكذلك للافتقار إلى المميز ولا يكون مقتضى الماهية لاتحادهما فيه فيلزم الإمكان، ثم المميزان في الطرفين صفتا كمال لأن الاتصاف بما لا كمال فيه نقص فهماً ناقصان ممكنان مفتقران في الوجود إلى مكمل خارج هو الواجب بالحقيقة، وكذلك الافتقار في كمال ما للوجود يوجب الإمكان لا يجابه أن يكون فيه أمر بالفعل وأمر بالقوة

واقتضائه التركيب والإمكان.

ومن هنا قال العلماء: إن واجب الوجود بذاته واجب بجميع صفاته ليس له أمر منتظر ومع الاختلاف في الماهية يلزم أن لا يكون المرجح مرجحاً أي لا يكون الإله إلهاً لأن كل واحد واحد من الممكنات أن استقلا بترجيحه لزم توارد العلتين التامتين على معلول شخصي وهو ظاهر الاستحالة فكونه مرجحاً إلهاً يوجب الافتقار إليه وكون غيره مستقلاً بالترجيح يوجب الاستغناء عنه فيكون مرجحاً غير مرجح في حالة واحدة، وإن تعاونا فكمثل إذ ليس ولا واحد منهما بمرجح وفرضاً مرجحين مع ما فيه من العجز عن الإيجاد والافتقار إلى الآخر، وإن اختص كل منهما ببعض مع أن الافتقار إليهما على السواء لزم اختصاص ذلك المرجح بمخصص يخصصه بذلك البعض بالضرورة وليس الذات لأن الافتقار إليهما على السواء فلا أولوية للترجيح من حيث الذات ولا معلول الذات لأنه يكون ممكناً والكلام فيه عائد فيلزم المحال من الوجهين الأولين أعني الافتقار إلى مميز غير الذات ومقتضاها ولزوم النقص لكل واحد لأن هذا المميز صفة كمال مخصص كل بذلك التمييز هو الواجب الخارج لا هماً، وإلى المحال الأول الإشارة بقوله تعالى ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وهو لازم على تقدير التخالف في الماهية واختصاص كل ببعض، وخص هذا القسم لأن ما سواه أظهر استحالة، وإلى الثاني الإشارة بقوله سبحانه ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي إما مطلقاً وإما من وجه فيكون العالي هو الإله أو لا يكون ثم إله أصلاً وهذا لازم على تقديري التخالف والاتحاد والاختصاص وغيره فهو تكميل للبرهان من وجه وبرهان ثان من آخر، فقد تبين ولا كفرق الفجر أنه تعالى هو الواحد الأحد جعل وجوده زائداً على الماهية أولاً فاعلاً بالاختيار أولاً، وليس برهان الوحدة مبنياً على أنه تعالى فاعل بالاختيار كما ظنه الإمام الرازي قدس سره انتهى، وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق، وربما يورد عليه بعض مناقشات تندفع بالتأمل الصادق. وما أشرنا إليه من انفهام قضية شرطية من الآية ظاهر جداً على ما ذهب إليه الفراء فقد قال: إن إذاً حيث جاءت بعدها اللام فقبلها لو مقدرة إن لم تكن ظاهرة نحو ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ فكأنه قيل: لو كان معه إله كما تزعمون لذهب كل إلخ.

وقال أبو حيان: إذا حرف جواب وجزاء ويقدر قسم يكون (لذهب) جواباً له، والتقدير والله إذاً أي أن كان معه من إله لذهب وهو في معنى ليذهبن كقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا﴾ [الروم: ٥١] أي ليظلن لأن إذاً تقتضي الاستقبال وهو كما ترى، وقد يقال: إن إذا هذه ليست الكلمة المعهودة وإنما هي إذاً الشرطية حذفت جملتها التي تضاف إليها وعوض عنها التنوين كما في يومئذ والأصل إذاً كان معه من إله لذهب إلخ، والتعبير بإذاً من قبيل مجاراة الخصم، وقيل: ﴿كُلُّ إِلَٰهٍ﴾ لما أن النفي عام يفيد عام يفيد استغراق الجنس و(ما) في ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ موصولة حذف عائدها كما أشرنا إليه.

وجوز أن تكون مصدرية ويحتاج إلى نوع تكلف لا يخفى. ولم يستدل على انتفاء اتخاذ الولد إما لغاية ظهور فساده أو للاكتفاء بالدليل الذي أقيم على انتفاء أن يكون معه سبحانه إله بناء على ما قيل أن إبن الإله يلزم أن يكون إلهاً إذاً الولد يكون من جنس الوالد وجوهره وفيه بحث ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مبالغة في تنزيهه تعالى عن الولد والشريك، وما موصولة وجوز أن تكون مصدرية. وقرىء (تصفون) بتاء الخطاب ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي كل غيب وشهادة، وجر (عالم) على أنه بدل من الاسم الجليل أو صفة له لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فيتعرف بالإضافة.

وقرأ جماعة من السبعة. وغيرهم برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم، والجر أجود عند الأخفش والرفع أبرع عند ابن عطية، وأياً ما كان فهو على ما قيل إشارة إلى دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافق المسلمين والمشركين في تفرده تعالى بذلك. وفي الكشف أن في قوله سبحانه (عالم) إلخ إشارة إلى برهان آخر راجع إلى إثبات العلو أو لزوم الجهل الذي هو نقص وضد العلو لأن المتعددين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كل واحد حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل وقصور، ثم علمه به يكون انفعالياً تابعاً لوجود

المعلوم فيكون في إحدى صفات الكمال ـ أعني العلم ـ مفتقراً وهو يؤذن بالنقصان والإمكان ﴿ فَتَعَـٰلَىٰ ﴾ الله ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ تفريع على كونه تعالى عالماً بذلك فهو كالنتيجة لما أشار إليه من الدليل.

وقال ابن عطية: الفاء عاطفة كأنه قيل علم الغيب والشهادة فتعالى كما تقول زيد شجاع فعظمت منزلته على معنى شجع فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى فأقول تعالى إلخ على أنه أخبار مستأنف.

المراغي ج ٦ ص ٥٠ ـ ٥١

بعد أن بين سبحانه أن المشركين كاذبون في إنكار البعث والجزاء، وفي مقالتهم: إن القرآن أساطير الأولين، قفى على ذلك بيان أنهم كاذبون في أمرين آخرين. اتخاذ الله للولد، وإثبات الشريك له.

نفي سبحانه عن نفسه شيئين:

(١) ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ أي ليس له ولد كما زعم قوم من المشركين حين قالوا: الملائكة بنات الله، وكيف يكون له ذلك، ولا مثل له ولا ندّ، والولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين، والله غني عن كل شيء.

(٢) ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ﴾ يشركه في الألوهية، لا قبل خلق العالَم ولا حين خلقه له ولا بعد خلقه.

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدّد الآلهة فقال:

(أ) ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي لو قُدّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغاير صنعة سواه، فكان يحصل التباين في نظم الخلق والإيجاد، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع فلا ينتظم الكون، والمشاهد أنه منتظم متسق، وهو الغاية في الكمال كما قال: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ﴾ [الملك: ٣].

(ب) ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي ولكان لكل منهم أن يطلب قهر الآخر وغلبته، فيعلو بعضهم على بعض كما هو حال ملوك الدنيا، وإذا لم تروا أثراً للتحارب والتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

وبعد أن وضح الحق وصار كفلق الصبح جاء بما هو كالنتيجة لذلك فقال:

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزه ربنا وتقدّس عما يقوله الكافرون من أن له ولداً أو شريكاً.

ثم وصف نفسه بصفات الكمال فقال:

﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ أي هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء فلا يرونه ولا يشاهدونه، وبما يرونه ويبصرونه، والمراد أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا، فإنهم يقولون عن غير علم، وأن الذي يعلم الأشياء شاهدَها وغائبَها ولا تخفي عليه خافية من أمرهما ـ قد نفى ذلك، فخبره هو الحق دون خبرهم.

﴿ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تقدس عما يقول الجاحدون الظالمون.

٢٧ ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

(سورة الفرقان، رقم ٢٥، الآية ٢)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٨	ص ١٣٦	أبو حيـان الاندلسي	ج ٦	ص ٤٧٨ ـ ٤٨٦
الزمخشري	ج ٣	ص ٨١	ابن كثير	ج ٣	ص ٣٠٨
الرازي	ج ٢٤	ص ٤٧	الجلالان		ص ٤٧٠
الطبرسي	ج ١٩	ص ٨٤ ـ ٨٩	الشوكاني	ج ٤	ص ٦٠ ـ ٦٢
ابن عربي	ج ٢	ص ١٥١ ـ ١٥٢	الآلوسي	ج ١٨	ص ٢١٠ ـ ٢١١
البيضاوي	ج ٤	ص ٨٨ ـ ٨٩	القاسمي	ج ١٢	ص ٤٥٦٣
الخـازن	ج ٥	ص ٩٣	الطباطبائي	ج ١٥	ص ١٧٢ ـ ١٧٨
البغوي	ج ٣	ص ٣٠٦	جوهري	ج ١٢	ص ١٢٨ ـ ٢٠٣
القرطبي	ج ١٣	ص ١ ـ ٣	المراغي	ج ١٨	ص ١٤٦ ـ ١٤٨
			سيد قطب	ج ٥	ص ٢٥٤٣ ـ ٢٥٥٦

الطبري ج ١٨ ص ١٣٦

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ يقول تعالى ذكره ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الذي الثانية من نعت الذي الأولى، وهما جميعاً في موضع رفع، الأولى بقوله تبارك، والثانية نعت لها، ويعني بقوله ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الذي له سلطان السموات والأرض ينفذ في جميعها أمره وقضاءه، ويمضي في كلها أحكامه، يقول: فحق على من كان كذلك أن يطيعه أهل مملكته، ومن في سلطانه، ولا يعصوه، يقول: فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناس، واتبعوه، واعلموا بما جاءكم به من الحق ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ يقول تكذيباً لمن أضاف إليه الولد، وقال الملائكة بنات الله: ما اتخذ الذي نزل الفرقان على عبده ولداً فمن أضاف إليه ولداً فقد كذب وافترى على ربه ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ يقول تكذيباً لمن كان يضيف الألوهة إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب، ويقول في تلبيته: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك: كذب قائلو هذا القول، ما كان لله من شريك في ملكه وسلطانه، فيصلح أن يعبد من دونه، يقول تعالى ذكره: فافردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ الألوهة، وأخلصوا له العبادة، دون كل ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس، فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك، وقوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ يقول تعالى ذكره: وخلق الذي نزل على محمد الفرقان كل شيء؛ فالأشياء كلها خلقه وملكه، وعلى المماليك طاعة مالكهم وخدمة سيدهم دون غيره، يقول: وأنا خالقكم ومالككم، فأخلصوا لي العبادة دون غيري، وقوله ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ يقول: فسوّى كل ما خلق، وهيأ لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت.

الزمخشري ج ٣ ص ٨١

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ ﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه. فإن قلت: كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه؟ قلت: ما فصل بينهما بشيء لأن المبدل منه صلته نزل وليكون تعليل له، فكأن المبدل منه لم يتم إلا به. فإن قلت: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ كأنه قال وقدر

كـل شـيء فقـدّره؟ قلـت: المعنى أنـه أحـدث كـل شـيء إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية فقدره وهيأه لما يصلح لـه، مثـالـه أنـه خلـق الإنسـان علـى هـذا الشكـل المقـدر المسوى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما، ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف عنـه، أو سمـى إحـداث الله خلقـاً لأنـه لا يحـدث شيئـاً لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت، فإذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنه قيل وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجده متفاوتاً. وقيل فجعل له غاية ومنتهى، ومعنـاه: فقـدّره للبقـاء إلـى أمـد معلـوم. الخلـق بمعنـى الافتعال.

الرازي ج ٢٤ ص ٤٤ ـ ٤٧

... سبحـانـه وصـف ذاتـه بـأربـع أنـواع مـن صفـات الكبـريـاء. (أولهـا): قـولـه ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب وقوله ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ١١٦] إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء. (وثانيها): قوله ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ فبين سبحانه أنه هو المعبود أبداً، ولا يصح أن يكون غيره معبوداً ووارثاً للملك عنه، فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله (تبارك) ولقوله ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهذا كالرد على النصارى. (وثالثها): قوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ والمراد أنه هو المنفرد بالإلهية، وإذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه رجاؤه عن الكل، ولا يبقى مشغول القلب إلا برحمته وإحسانه، وفيه الرد على الثنوية، والقائلين بعبادة النجوم، والقائلين بعبادة الأوثان. (ورابعها): قوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: هل في قوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ دلالة على أنه سبحانه خالق لأعمال العباد؟ (والجواب): نعم من وجهين (الأول): إن قوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ يتناول جميع الأشياء فيتناول أفعال العباد، (والثاني): وهو أنه تعالى بعد أن نفى الشريك ذكر ذلك، والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلاً قال: ههنا أقوام يعترفون بنفي الشركاء والأنداد، ومع ذلك يقولون إنهم يخلقون أفعال أنفسهم. فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة في الرد عليهم. قال القاضي الآية لا تدل عليه لوجوه: (أحدها): إنه سبحانه صرح بكون العبد خالقاً في قوله ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ ﴾ [المائدة: ١١٠] وقـال ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المـؤمنـون: ١٤]. (وثانيها): إنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد. (وثالثها): إنه سبحانه تمدح بأنه قدره تقديراً ولا يجوز أن يريد به إلا الحسن والحكمة دون غيره، فثبت بهذه الوجوه أنه لا بد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه، فكيف ولا دلالة فيها البتة، لأن الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول إلا ما يظهر فيه التقدير، وذلك إنما يظهر في الأجسام لا في الأعراض. والجواب:

أمـا قـولـه ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ ﴾ [المـائـدة: ١١٠] وقـولـه ﴿ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] فهما معارضان بقوله ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢] وبقوله ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣] وأما قوله لا يجوز التمدح بخلق الفساد، قلنا لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظراً إلى تقادير القـدرة وإلـى أن صفـة الايجـاد مـن العـدم والإعـدام مـن الوجود ليست إلا له؟ وأما قوله: الخلق لا يتناول إلا الأجسام، فنقول لو كان كذلك لكان قوله خلق كل شيء خطأ لأنه يقتضي إضافة الخلق إلى جميع الأشياء مع أنه لا يصح في العقل إضافته إليها.

السؤال الثاني: في الخلق معنى التقدير فقوله ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ معناه وقدر كل شيء

فقدره تقديراً. (والجواب): المعنى أحدث كل شيء إحداثاً يراعى فيه التقدير والتسوية، فقدره تقديراً وهيأه لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما، ومصلحة ما، مطابقاً لما قدر غير متخلف عنه.

السؤال الثالث: هل في قوله ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ دلالة على مذهبكم؟ (الجواب): نعم وذلك من وجوه: (أحدها): إن التقدير في حقنا يرجع إلى الظن والحسبان، أما في حقه سبحانه فلا معنى له إلا العلم به والأخبار عنه، وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة، فلما علم في الشيء الفلاني أنه لا يقع. فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلاً وانقلاب خبره الصدق كذباً، وذلك محال والمفضي إلى المحال محال فإذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وإنه مأمور به، فثبت أن الأمر والإرادة لا يتلازمان، وظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه. والشقي من شقي في بطن أمه (وثانيها): إنه عند حصول القدرة والداعية الخالصة إن وجب الفعل، كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى، وحينئذ يبطل قول المعتزلة، وإن لم يجب فإن استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب إثبات الصانع وإن لم يستغن عن المرجح، فالكلام يعود في ذلك المرجح، ولا ينقطع إلا عند الانتهاء إلى واجب الوجود. (وثالثها): إن فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع إلا الشيء الذي أراد تكوينه وإيجاده، لكن الإنسان لا يريد إلا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل، فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك، فإن قيل إنما كان لأنه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل، قلنا إن اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى جهل أول، ووقع في قلب الإنسان لا بسبب جهل سابق، بل الإنسان أحدثه ابتداء من غير موجب، وذلك محال لأن الإنسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول إلا العلم، فوجب أن لا يحصل له إلا ما قصده وأراده، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ، وهو المراد من قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾.

الطبرسي ج ١٩ ص ٨٤ ـ ٨٧

... ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى والمشركون ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾ يشاركه فيما خلق ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ مما يطلق عليه اسم المخلوق ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ على ما اقتضته الحكمة والتقدير تبيين مقادير الأشياء للعباد فيكون معناه قدر الأشياء بأن كتبها في الكتاب الذي كتبه الملائكة لطفاً لهم، وقيل خلق كل شيء فقدر طوله وعرضه ولونه وسائر صفاته ومدة بقائه...

ابن عربي ج ٢ ص ١٥١ ـ ١٥٢

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يقهرهما تحت ملكوته، أوجد كل شيء موسوماً يتعين بسمة الإمكان، ويشهد عليه بالعدم «فقدّره تقديراً» على قدر قبول بعض صفاته، ومظهرية بعض كمالاته، دون بعض؛ أي، هيأ استعداداتهم لما شاء من كمالاتهم التي هي صفاته.

البيضاوي ج ٤ ص ٨٨ ـ ٨٩

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوع أو منصوب ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ كزعم النصارى ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ كقول الثنوية أثبت له الملك مطلقاً ونفي ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير حسب إرادته كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصوروا أشكال معينة ﴿ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ فقدره وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك أو فقدره للبقاء إلى أجل مسمى وقد يطلق الخلق لمجرد الايجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في ايجاده حتى لا يكون متفاوتاً.

٢٨

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾

(سورة الأحزاب، رقم ٣٣، الآية ٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢١	ص ٧٩	أبو حيان الأندلسي	ج ٧	ص ٢٠٩ ـ ٢١٤
الزمخشري	ج ٣	ص ٢٥٢	ابن كثير	ج ٣	ص ٤٦٩
الرازي	ج ٢٥	ص ١٩٦ ـ ١٩٧	الجلالان		ص ٥٥٠
الطبرسي	ج ٢١	ص ٩٨ ـ ١١٣	الشوكاني	ج ٤	ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣
ابن عربي	ج ٢	ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥	الآلوسي	ج ٢١	ص ١٥٤
البيضاوي	ج ٤	ص ١٥٩	القاسمي	ج ١٣	ص ٤٨٢٩ ـ ٤٨٣٠
الخازن	ج ٥	ص ٢٣٢	الطباطبائي	ج ١٦	ص ٢٧٢ ـ ٢٨٢
البغوي	ج ٣	ص ٤٣٨	جوهري	ج ١٦	ص ١٦ ـ ٢٤
الماوردي	ج ٤	ص ٣٧٧	المراغي	ج ٢١	ص ١٣٢ ـ ١٣٣
القرطبي	ج ١٤	ص ١٢٦ ـ ١٢٧	سيد قطب	ج ٥	ص ٢٨١٧ ـ ٢٨٣٠

الطبري ج ٢١ ص ٧٩

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ يقول تعالى ذكره كان ذلك في الكتاب مسطوراً، إذ كتبنا كل ما هو كائن في الكتاب ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ ﴾ كـان ذلـك أيضـاً فـي الكتاب مسطوراً، ويعني بالميثاق: العهد، وقد بينا ذلك بشواهده فيما مضى قبل ﴿ وَمِنكَ ﴾ يا محمد ﴿ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ يقول: وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكداً أن يصدق بعضهم بعضاً. كما حدثنا بشر... عن قتادة، قوله وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح قال: وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «كنت أوّل الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعـث»، ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ ميثاق أخذه الله على النبيين؛ خصوصاً أن يصدّق بعضهم بعضاً، وأن يتبع بعضهم بعضاً. حدثنا محمد بن بشار... عن قتادة إذا تلا هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ قال: كان نبي الله ﷺ فـي أوّل النبييـن فـي الخلـق. حـدثنـي محمـد بـن عمرو... عن مجاهد في قول الله ﴿ مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ قال: في ظهر آدم. حدثني محمد بن سعـد... عـن ابـن عبـاس قـولـه ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ قال الميثاق الغليظ، العهد.

الرازي ج ٢٥ ص ١٩٦ ـ ١٩٧

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾.

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١] وأكده بالحكاية التي خشي فيها الناس لكي لا يخشى فيها أحداً غيره وبين أنه لم يرتكب أمراً يوجب الخشيـة بقـولـه ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحـزاب: ٦] أكـده بـوجـه آخـر وقـال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ كأنه قال اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ.

المسألة الثانية: خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها، ونوحاً لأنه كان أصلاً ثانياً للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم وكان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب، وأما نوح فكان مخلوقاً للنبوة وأرسل للإنذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا.

المسألة الثالثة: في كثير من المواضع يقول الله ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٨٧] ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١] إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به، وقوله ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا في الإرسال كما قال تعالى ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولاً وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق، فإذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظاً للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة، وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] هو الإخبار بأنهم مسؤولون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام «كلكم راع وكلكم مسؤول» وكما أراد الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمور أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد.

ابن عربي ج ٢ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ وخصوصاً الخمسة المذكورة لاختصاصهم بمزيد المرتبة والفضيلة ميثاق التوحيد، والتكميل، والهداية بالتبليغ عند الفطرة، وهو الميثاق الغليظ المضاعف بالكمال والتكميل، ولذلك، أضافه إليهم بقوله: ﴿مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي، الميثاق الذي ينبغي لهم، ويختص بهم، وقدّم في الاختصاص بالذكر نبينا عليه السلام، بقوله: ﴿وَمِنكَ﴾ لتقدّمه على الباقين في الرتبة والشرف.

القرطبي ج ١٤ ص ١٢٦ ـ ١٢٧

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي عهدهم على الوفاء بما حمّلوا، وأن يبشر بعضهم ببعض، ويصدّق بعضهم بعضاً؛ أي كان مسطوراً حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء. ﴿وَمِنكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾. وإنما خص هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيّين تفصيلاً لهم وقيل: لأنهم أصحاب الشرائع والكتب، وأولوا العزم من الرسل وأئمة الأمم. ويحتمل أن يكون هذا تعظيماً في قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أي هذا مما لم تختلف فيه الشرائع، أي شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أي كان في ابتداء الإسلام توارثٌ بالهجرة، والهجرة سبب متأكد في الدّيانة، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد؛ فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن في دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق؛ فلا تُداهنوا في الدين ولا تمالئوا الكفار. ونظيره: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] ـ إلى قوله ـ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ومن ترك التفرق في الدين ترك موالاة الكفار. وقيل: أي النبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك في الكتاب مسطوراً ومأخوذاً به المواثيق من الأنبياء. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضاً. والميثاق هو اليمين بالله تعالى؛ فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين. وقيل: الأول هو الإقرار بالله تعالى، والثاني في أمر النبوّة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ [آل عمران: ٨١]. أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمد رسول الله ﷺ، ويعلن محمد ﷺ أن لا نبيّ بعده. وقدّم محمداً في الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ قال: «كنت أولهم في الخلق وآخرهم في البعث». وقال مجاهد: هذا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام.

الشوكاني ج ٤ ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤

قوله ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ العامل في الظرف محذوف: أي واذكر، كأنه قال: يا أيها النبي اتق الله واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين. قال قتادة: أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً ويتبع بعضهم بعضاً. وقال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصحوا لقومهم. والميثاق هو اليمين، وقيل هو الإقرار بالله، والأوّل أولى، وقد سبق تحقيقه. ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم، فقال ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة، ومن أولى العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى. قال الزجاج: وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالذّر. ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ فقال ﴿وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾، أي عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا وما أخذه الله عليهم، ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرّتين، فأخذ عليهم في المرّة الأولى مجرّد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدداً، ومثل هذه الآية قوله ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

الآلوسي ج ١١ ص ١٥٤

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾ مقدر بالذكر على أنه مفعول لا ظرف لفساد المعنى، وهو معطوف على ما قبله عطف القصة على القصة، أو على مقدر كخذ هذا، وجوز أن يكون ذلك عطفاً على خبر كان، وهو بعيد وإن كان قريباً، ولما كان ما سبق متضمناً أحكاماً شرعها الله تعالى وكان فيها أشياء مما كان في الجاهلية، وأشياء مما كان في الإسلام أبطلت ونسخت أتبعه سبحانه بما فيه حث على التبليغ فقال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذۡ﴾ إلخ أي واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والشرائع والدعاء إلى الدين الحق، وذلك على ما قال الزجاج وغيره وقت استخراج البشر من صلب آدم عليه السلام كالذر، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنه سبحانه أخذ من النبيين عهودهم بتصديق بعضهم بعضاً، واتباع بعضهم بعضاً. وفي رواية أخرى عنه أنه أخذ الله تعالى ميثاقهم بتصديق بعضهم بعضاً، والإعلان بأن محمداً رسول الله، وإعلان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا نبي بعده ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ﴾ تخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين اندراجاً بيناً للإيذان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع.

واشتهر أنهم هم أولو العزم من الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. وأخرج البزار عن أبي هريرة أنهم خيار ولد آدم عليهم الصلاة والسلام، وتقديم نبينا ﷺ مع أنه آخرهم بعثُه للأيذان بمزيد خطره الجليل، أو لتقدمه في الخلق، فقد أخرج ابن أبي عاصم. والضياء في المختارة عن أبي بن كعب مرفوعاً بدىء بي الخلق

وكنت آخرهم في البعث، وأخرج جماعة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»، وكذا في الاستنباء فقد جاء في عدة روايات أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، ولا يضر فيما ذكر تقديم نوح عليه السلام في آية الشورى أعني قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] الآية، إذ لكل مقام مقال، والمقام هناك وصف دين الإسلام بالأصالة، والمناسب فيه تقديم نوح فكأنه قيل: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء والمشاهير، وقال ابن المنير: السر في تقديمه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه هو المخاطب والمنزل عليه هذا المتلو فكان أحق بالتقديم، وفيه بحث ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهد عظيم الشأن، أو وثيقاً قوياً، وهذا هو الميثاق الأول وأخذه هو أخذه، والعطف مبني على تنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] أثر قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هود: ٥٨]، وفي ذلك من تفخيم الشأن ما فيه ولهذا لم يقل عزّ وجلّ: وإذ أخذنا من النبيين ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ميثاقاً غليظاً مثلاً، وقال سبحانه ما في النظم الكريم، وقيل: الميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى، فيكون بعدما أخذ الله سبحانه من النبيين الميثاق بتبليغ الرسالة، والدعوة إلى الحق أكد باليمين بالله تعالى، على الوفاء بما حملوا فالميثاقان متغايران بالذات.

٢٩ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾

(سورة الصافات، رقم ٣٧، الآية ٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٣	ص ٢٣	أبو حيان الأندلسي	ج ٧	ص ٣٥١ـ٣٥٣
الزمخشري	ج ٣	ص ٣٣٣	ابن كثير	ج ٤	ص ٢
الرازي	ج ٢٦	ص ١١٨	الجلالان		ص ٥٨٧
الطبرسي	ج ٢٣	ص ٤٥ ـ ٤٩	الشوكاني	ج ٤	ص ٣٨٥ ـ ٣٩٠
ابن عربي	ج ٢	ص ٣٣٥	الألوسي	ج ٢٣	ص ٦٧
البيضاوي	ج ٥	ص ٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٠٢٥ـ٥٠٢٦
الخازن	ج ٦	ص ١٨	الطباطبائي	ج ١٧	ص ١١٩ـ١٢٦
البغوي	ج ٤	ص ١٨	جوهري	ج ١٨	ص ٧ـ١٨
الماوردي	ج ٥	ص ٣٧	المراغي	ج ٢٣	ص ٤١ـ٤٢
القرطبي	ج ١٥	ص ٦١ ـ ٦٣	سيد قطب	ج ٥	ص ٢٩٧٩ ـ ٢٩٨٩

الطبري ج ٢٣ ص ٢٣

القول في تأويل قوله تعالى ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ والصافات صفا إن معبودكم الذي يستوجب عليكم أيها الناس العبادة، وإخلاص الطاعة منكم له لواحد لا ثاني ولا شريك. يقول فله فأخلصوا العبادة وإياه فأفردوا بالطاعة، ولا تجعلوا له في عبادتكم إياه شريكاً.

الرازي ج ٢٦ ص ١١٨

. . . ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ذكر عقيبة ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً، وهو قوله تعالى ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥]، وذلك لأنه تعالى بين في قوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. إن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ أردفه بقوله ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد. (الوجه الثالث) في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة، فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة، والله أعلم.

الطبرسي ج ٢٣ ص ٤٥ ـ ٤٩

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ وهذه أقسام أقسم الله تعالى بها أنه واحد ليس له شريك، ثم اختلف في مثل هذه الأقسام فقيل إنها أقسام بالله تعالى على تقدير ورب الصافات، ورب الزاجرات، ورب التين والزيتون لأن في القسم تعظيماً للمقسم به، ولأنه يجب على العباد أن لا يقسموا إلا بالله تعالى إلا أنه حذف لأن حجج العقول دالة على المحذوف عن الجبائي والقاضي، وقيل بل أقسم الله سبحانه بهذه الأشياء وإنما جاز ذلك لأنه ينبىء عن تعظيمها بما فيها من الدلالة على توحيده وصفاته العلي، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يقسموا إلا به. . .

أبو حيان الأندلسي ج ٧ ص ٣٥١ ـ ٣٥٣

هذه السورة مكية، ومناسبة أولها لآخر يس، أنه تعالى لما ذكر المعاد، وقدرته على إحياء الموتى، وأنه هو منشئهم، وإذا تعلقت إرادته بشيء كان ذكر تعالى وحدانيته إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة وجوداً وعدماً إلا بكون المريد واحداً. وتقدم الكلام على ذلك في قوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

الآلوسي ج ١٢ ص ٦٧

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جواب للقسم، وقد جرت عادتهم على تأكيد ما يهتم به بتقديم القسم، ولذا قدم ههنا فلا يقال: إنه كلام مع منكر مكذب فلا فائدة في القسم، وما قيل من أن وحدة الصانع قد ثبتت بالدليل النقلي بعد ثبوتها بالعقل ففائدته ظاهرة هنا غير تام لأن الكلام مع من لا يعترف بالتوحد.

٣٠ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾

(سورة الصافات، رقم ٣٧، الآية ١٥٢)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٣	ص ٦٨	أبو حيان الاندلسي	ج ٧	ص ٣٧٤ ـ ٣٧٧
الزمخشري	ج ٣	ص ٣٥٤	ابن كثير	ج ٤	ص ٢٢ ـ ٢٣
الرازي	ج ٢٦	ص ١٦٧	الجلالان		ص ٥٩٦
الطبرسي	ج ٢٣	ص ٨٦ ـ ٨٨	الشوكاني	ج ٤	ص ٤١٢ ـ ٤١٧
ابن عربي	ج ٢	ص ٢٤٢ ـ ٢٤٦	الآلوسي	ج ٢٣	ص ١٥٠
البيضاوي	ج ٥	ص ١٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٠٦٤
الخـازن	ج ٦	ص ٣٨	الطباطبائي	ج ١٧	ص ١٧٠ ـ ١٧٩
البغوي	ج ٤	ص ٣٤	جوهري	ج ١٨	ص ٢٣ ـ ٦٧
الماوردي	ج ٥	ص ٧٠	المراغي	ج ٢٣	ص ٨٤ ـ ٨٨
القرطبي	ج ١٥	ص ١٣٣	سيد قطب	ج ٥	ص ٢٩٩٩ ـ ٣٠٠٣

الطبري ج ٢٣ ص ٦٨

. . . ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعني تعالى ذكره: أم شهد هؤلاء القائلون من المشركين الملائكة بنات الله خلقي الملائكة وأنا أخلقهم إناثاً، فشهدوا هذه الشهادة، ووصفوا الملائكة بأنها إناث. وقوله ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ [الصافات: ١٥١] يقول تعالى ذكره: إلا إن هؤلاء المشركين من كذبهم ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في قيلهم ذلك. كما حدثنا بشر. . . عن قتادة ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ يقول: من كذبهم: ﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾. حدثنا محمد ابن الحسين. . . عن السدي في قوله ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ﴾: قال من كذبهم.

الرازي ج ٢٦ ص ١٦٧

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾، وأما النظر فمفقود وبيانه من وجهين: الأول: أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب، لأن الله تعالى أكمل الموجودات، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخس وهو المراد من قوله ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣ ـ ١٥٤].

الطبرسي ج ٢٣ ص ٨٦ ـ ٨٨

قرأ أبو جعفر، ونافع برواية اسماعيل وورش من طريق الأصفهاني لكاذبون اصطفى البنات بالوصول والابتداء، اصطفى بكسر الهمزة، والباقون اصطفى بفتح الهمزة وكذلك ورش من طريق البخاري.

قال أبو علي: الوجه الهمزة على وجه التقريع لهم بذلك والتوبيخ، ويقويه قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[الطور: ٣٩]، ألكم الذكر وله الأنثى فكما أن هذه المواضع كلها استفهام كذلك قوله اصطفى البنات، ووجه لقراءة الأخرى أنه على وجه الخبر كأنه اصطفى البنات فيما يقولون، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي عند نفسك وفيما كنت تقوله وتذهب إليه، ويجوز أن يكون اصطفى البنات بدلاً من قوله ولد الله لأن ولادة البنات واتخاذهن اصطفاؤهن، فيصير اصطفى بدلاً من المثال الماضي كما كان قوله: يضاعف له العذاب بدلاً من قوله: يلق أثاماً، ويجوز أن يكون متعلقاًبالقول على أنه أريد حرف العطف فلم يذكر، واستغنى بما في الجملة الثانية من الاتصال بالأولى عن حرف العطف

كقوله ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾[الكهف: ٢٢] ونحو ذلك. . . ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ حين زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في قولهم هذا.

القرطبي ج ١٥ ص ١٣٣

. . . ﴿ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في قولهم إن لله ولداً، وهو الذي لا يلد ولا يولد و «إنّ» بعد «ألا» مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أمّا مفتوحة أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أمّا بمعنى حقًّا، والكسر على أن تكون أمّا بمعنى ألاَ. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: يجوز فتحها بعد ألاَ تشبيهاً بأما، وأمّا في الآية فلا يجوز إلا كسرها؛ لأن بعدها الرفع. وتمام الكلام «لَكَاذِبُونَ».

أبو حيـان الأندلسي ج ٧ ص ٣٧٤ ـ ٣٧٧

ثم أخبر عنهم ثالثاً بأعظم الكفر، وهو ادعاؤهم أنه تعالى قد ولد فبلغ إفكهم إلى نسبة الولد. ولما كان هذا فـاحشـاً قـال ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ واحتمـل أن تخـص هـذه الجملة بقولهم ﴿ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ ويكون تأكيداً لقوله ﴿ مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾ واحتمل أن يعم هذا القول (فإن قلت) لم قال ﴿ وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾، فخص علمهم بالمشاهدة، (قلت): ما هو إلا استهزاء وتجهيل كقوله: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ [الزخرف: ١٩] وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بأخبار صادق لا بطريق استدلال ولا نظر، ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك كالقائل قولاً عن ثلج صدر، وطمأنينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم قد شاهدوا خلقه. وقرأ ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ أي الملائكة ولده. والولد: فعل بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. تقول: هذه ولدي وهؤلاء ولدي. انتهى.

وقرأ الجمهور (أصطفى) بهمزة الاستفهام على طريقة الإنكار والاستبعاد. وقرأ نافع في رواية إسماعيل وابن جماز، وجماعة، وإسماعيل عن أبي جعفر وشيبة بوصل الألف وهو من كلام الكفار حكى الله تعالى شنيع قولهم وهو أنهم ما كفاهم أن قالوا (ولد الله) حتى جعلوا ذلك الولد بنات الله، والله تعالى اختارهم على البنين. وقال الزمخشري: «بدلاً عن قولهم (ولد الله)» وقد قرأ بها حمزة والأعمش. وهذه القراءة وإن كان هذا محملها فهي ضعيفة. والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها، وذلك قوله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها دخيلة بين سببين وليست دخيلة بين نسبيين، بل لها مناسبة ظاهرة مع قولهم (ولد الله) وأما قوله ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فهي جملة اعتراض بين مقالتي الكفر جاءت للتشديد والتأكيد في كون مقالتهم تلك هي من إفكهم ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ تقريع وتوبيخ واستفهام عن البرهان والحجة. وقرأ طلحة بن مصرف (تذكُرون) بسكون الذال وضم الكاف ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الصافات: ١٥٦] أي: حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله. ﴿ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِ ﴾ [القصص: ٤٩] الذي أنزل عليكم بذلك كقوله ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥].

ابن كثير ج ٤ ص ٢٢ ـ ٢٣

﴿ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي صدر منه الولد ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم بنات الله فجعلوا لله ولداً تعالى وتقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم.

الآلوسي ج ١٢ ص ١٥٠

وقوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الاستفتاء مسوق لأبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو شبهة ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيما يتدينون به مطلقاً أو في هذا القول، وفيه تأكيد لقوله تعالى: ﴿ مِّنْ إِفْكِهِمْ ﴾. وقرىء ﴿ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ بالإضافة، ورفع ولد على أنه خبر مبتدأ محذوف أي ليقولون الملائكة ولد الله، والولد فعل بمعنى مفعول يقع على المذكر والمؤنث والواحد والجمع، ولذا وقع هنا خبراً عن الملائكة المقدر.

المراغي ج ٨ ص ٨٦

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ أي وما جرأهم على هذا القول الهُراء، والرأي الخَطِل إلا اعتقادهم الباطل أن لله ولدا، وهو افتراء قبيح وإفك صريح، لا مستند له، ولا شبهة ترشد إلى صدقه.

ثم أكد هذا النفي بقوله:

﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ فيما يقولون، ولا أثَرَة لهم من علم يصدق ما يعتقدون، فمن أين جاءهم هذا؟ . . .

٣١ ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾

(سورة الزمر، رقم ٣٩، الآية ٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج٢٣	ص ١٢٣	أبو حيان الاندلسي	ج ٧	ص ٤١٣ ـ ٤١٧
الزمخشري	ج ٣	ص ٣٨٧	ابن كثير	ج ٤	ص ٤٤ ـ ٤٥
الرازي	ج ٢٦	ص ٢٤٢	الجلالان		ص ٦٠٦
الطبرسي	ج ٢٣	ص ١٣٦ ـ ١٣٨	الشوكاني	ج ٤	ص ٤٤٨ ـ ٤٥١
ابن عربي	ج ٢	ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠	الآلوسي	ج ٢٣	ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧
البيضاوي	ج ٥	ص ٢٤	القاسمي	ج ١٤	ص ٥١٢٨
الخازن	ج ٦	ص ٦٧	الطباطبائي	ج ١٧	ص ٢٣٠ ـ ٢٤٥
البغوي	ج ٤	ص ٦١ ـ ٦٢	جوهري	ج ١٨	ص ١٥٠ ـ ١٧٦
الماوردي	ج ٥	ص ١١٣	المراغي	ج ٢٣	ص ١٤١ ـ ١٤٤
القرطبي	ج ١٥	ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤	سيد قطب	ج ٥	ص ٣٠٣٣ ـ ٣٠٤٠

الطبري ج ٢٣ ص ١٢٣

وقوله ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ يقول تعالى ذكره: لو شاء الله اتخاذ ولد، ولا ينبغي له ذلك ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: لاختار من خلقه ما يشاء. وقوله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ يقول: تنزيهاً لله عن أن يكون له ولد، وعما أضاف إليه المشركون به من شركهم ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ يقول: هو الذي يعبده كل شيء، ولو كان له ولد لم يكن له عبداً، يقول: فالأشياء كلها له ملك، فأنى يكون له ولد، وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه، والقهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متذلل، ومن سطوته خاشع.

الزمخشري ج ٣ ص ٣٨٧

يعني لو أراد اتخاذ الولد لامتنع، ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه، ويختصهم ويقرّبهم كما يختص الرجل ولده ويقرّبه، وقد فعل ذلك الملائكة فافتتنتم به، وغركم اختصاصه إياهم، فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالين في الكفر، ثم قال ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾، فنزّه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودلّ على ذلك بما ينافيه وهو أنه واحد فلا يجوز أن يكون له صاحبة، لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له، وإذا لم يتأت أن يكون صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد، وهو معنى قوله ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[الأنعام: ١٠١] وقهار غلاب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟

الرازي ج ٢٦ ص ٢٤٢

. . . المراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد، وبيانه من وجوه: (الأول): إنه لو اتخذ ولداً لما رضي إلا بأكمل الأولاد، وهو الإبن فكيف نسبتم إليه البنت. (الثاني): إنه سبحانه واحد حقيقي،

والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره، فكان يحتاج إلى غيره، والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلوجوه: (الأول): إن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد. وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء، والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه. (الثاني): شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك الماهية كان ذلك التعيين معلوماً بسبب منفصل، فلا يكون إلهاً واجب الوجود لذاته. فثبت أن كونه إلهاً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته، وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد. (الثالث): إن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة، والزوجان لا بدّ وأن يكونا من جنس واحد، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه، وأما كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت، فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهوراً بالموت، أما الذي يكون قاهراً ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً، فثبت أن قوله ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى.

ابن عربي ج ٢ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠

... وامتناعه عن قبوله ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي، نزهه عن المماثلة والمجانسة، واصطفاء الولد لكون الوحدة لازمة لذاته وقهره بوحدانيته لغيره، فلا تماثل في الوجود فكيف في الوجوب؟

الخازن ج ٦ ص ٦٧

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ﴾ أي لاختار ﴿مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، يعني الملائكة ثم نزه نفسه فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك وعما لا يليق بطهارة قلبه. ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾، أي في ملكه الذي لا شريك له، ولا ولد. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ أي الغالب الكامل القدرة.

ابن كثير ج ٤ ص ٤٤ ـ ٤٥

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى فقال تبارك وتعالى ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عزّ وجلّ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم، وقوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء، فدانت له وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

الآلوسي ج ١٢ ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق، وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله، وعيسى ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجاً أولياً، وحاصل المعنى لو أراد الله سبحانه اتخاذ الولد لامتنعت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع، أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض.

وأصل الكلام لو اتخذ الولد لامتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية، فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لامتنع أن يريده ليكون أبلغ وأبلغ، ثم حذف هذا الجواب، وجيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أن الممكن هذا لا الأول، وإنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز إتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك، فقد تحقق التلازم وحق نفي اللازم وإثبات الملزوم دون صعوبة، ويجوز أن يكون المراد لو أراد الله أن يتخذ لامتنع، ولم يصح لكن على إرادة نفي الصحة على كل تقدير من تقديري الإرادة وعدمها من باب ـ لو لم يخف الله لم يعصه ـ فلا ينفي الثاني إذ ذاك، ولا يحتاج إلى بيان الملازمة، وإذا امتنع ذلك فالممكن الاصطفاء، وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته من شاء كالملائكة، وعيسى، وذهب عليكم أن الاصطفاء ليس باتخاذ، والجواب على هذا الوجه أيضاً محذوف أقيم مقامه ما يفيد زيادة مبالغة، وإنما لم يجعل لاصطفى هو الجواب عليه لصيرورة المعنى حينئذ لو أراد اتخاذ الولد الاصطفاء، ولو لم يرد لاصطفى من طريق الأولى، وحينئذ يكون إثبات الاصطفاء هو المطلوب من الايراد كما أن التمدح بنفي العصيان في مثال الباب هو المطلوب وليس الكلام فيه، وعلى الوجهين هو من أسلوب.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

وجوز أن يكون المعنى في الآية لو أراد الله تعالى أن يتخذ ولداً لجعل المخلوق ولداً إذ لا موجود سواه إلا، وهو مخلوق له تعالى، والتالي محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق والولدية تأبى تلك المباينة، فالمقدم مثله، ويكون قوله تعالى ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ على معنى لاتخذه ابناً على سبيل الكناية، وما تقدم أولى لما فيه من المبالغة التي نبحث عليها. وقوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى، وتأكيد له ببيان تنزهه سبحانه عنه أي تنزهه الخاص به تعالى على أن سبحان مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسبيحاً لائقاً به لأنه علم للتسبيح، مقول على ألسنة العباد، أو سبحوه تسبيحاً لائقاً بشأنه جل شأنه، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ استئناف مقرر لتنزهه عن ذلك أيضاً، فإن اتخاذ الولد يقتضي تبعضاً، وانفصال شيء من شيء، وكذا يقتضي المماثلة بين الولد والوالد والوحدة الذاتية الحقيقية التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبة له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعض والانفصال إباءً ظاهراً لأنهما من خواص الكم، وقد اعتبر في مفهوم الوحدة الذاتية سلبه، فتأبى الاتخاذ المذكور، وكذا تأبى المماثلة سواء فسرت بما ذهب إليه قدماء المعتزلة كالجبائي، وابنه أبي هاشم، وهي المشاركة في أخص صفات الذات كمشاركة زيد لعمرو في الناطقية، أم فسرت بما ذهب إليه المحققون من الماتريدية، وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية، أم فسرت بما نسب إلى الأشعري، وهو التساوي بين الشيئين من كل وجه، ولعل مراده نحو ما مرّ عن الماتريدي وإلا فمع التساوي من كل وجه ينتفي التعدد، فينتفي التماثل بناء على ما قرروا من أن الوحدة الذاتية كما تقتضي نفي الأبعاض المقدارية تقتضي نفي الكثرة العقلية، وأن التماثل يقتضي التعدد، وهو يقتضي ثبوت الأجزاء المذكورة كذا قيل، وفيه بحث طويل وكلام غير قليل، وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الإخلاص، فالأولى أن يقتصر على منافاة الوحدة الذاتية للتبعض والانفصال

لاستلزامهما التركب الخارجي، والحكماء والمتكلمون مجمعون عى استحالته في حقه تعالى، ودليلها أظهر من أن يذكر، وكذا وصف القهارية يأبى اتخاذ الولد، وقرر ذلك على أوجه، فقيل وجه إبائها ذلك أن القهارية تقتضي الغنى الذاتي الذي هو أعلى مراتب الغنى، وهو يقتضي التجرد عن المادة وتولد الولد عن الشيء يقتضيها، وقيل إن القهارية تقتضي كمال الغنى، وهو يقتضي كمال التجرد الذي هو البساطة من كل الوجوه، فلا يكون هناك جنس وفصل ومادة وصورة وإعراض وأبعاض إلى غير ذلك مما يخل بالبساطة الكاملة الحقيقية، واتخاذ الولد لما فيه من الانفصال والمثلية مخل بتلك البساطة، فيخل بالغنى فيخل بالقهارية، وقد أشار سبحانه إلى أن الغنى ينافي أن يكون له سبحانه ولد بقوله تعالى ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨]. وقيل: إن اتخاذ الولد يقتضي انفصال شيء عنه تعالى، وذلك يقتضي أن يكون متأثراً مقهوراً لا مؤثراً قهاراً تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فحيث كان جل وعلا قهاراً كما هو مقتضى الألوهية استحال أن يكون له عزّ وجلّ ولد، وقيل: إن القهارية منافية للزوال لأن القهار لو قبله كان مقهوراً إذ المزيل قاهر له، ولذا قيل سبحان من قهر العباد بالموت.

والولد من أعظم فوائده عندهم قيامه مقام الأب بعد زواله، فإذا لم يكن الزوال لم يكن حاجة إلى الولد، وهذا مع كونه إلزامياً لا يخلو عن بحث كما لا يخفى.

والزمخشري جعل قوله تعالى ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ﴾ إلخ. ، متصلاً بقوله عزّ وجلّ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الزمر: ٣] إلخ، على أنه مقرر نفى أن يكون له تعالى ولي، ونفى أن يكون له ولد، ولعل بيان ذلك لا يخفى فتدبر.

٣٢

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

(سورة الشورى، رقم ٤٢، الآية ١٣)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٥	ص ١٠ ـ ١١	ابو حيان الأندلسي	ج ٧	ص ٥١١ ـ ٥١٤
الزمخشري	ج ٣	ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤	ابن كثير	ج ٤	ص ١٠٨ ـ ١٠٩
الرازي	ج ٢٧	ص ١٥٤ ـ ١٥٧	الجلالان		ص ٦٣٩ ـ ٦٤٠
الطبرسي	ج ٢٥	ص ٤٠ ـ ٤٤	الشوكاني	ج ٤	ص ٥٢٩ ـ ٥٣٢
ابن عربي	ج ٢	ص ٤٢٧ ـ ٤٢٩	الآلوسي	ج ٢٥	ص ٢٠ ـ ٢٢
البيضاوي	ج ٥	ص ٥٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٢٣٠ ـ ٥٢٣٢
الخازن	ج ٦	ص ١١٨ ـ ١١٩	الطباطبائي	ج ١٨	ص ٢٧ ـ ٣٦
البغوي	ج ٤	ص ١٠٨ ـ ١٠٩	جوهري	ج ٢٠	ص ٣ ـ ١٤٧
الماوردي	ج ٥	ص ١٩٦ ـ ١٩٧	المراغي	ج ٢٥	ص ٢٣ ـ ٢٧
القرطبي	ج ١٦	ص ٩ ـ ١٢	سيد قطب	ج ٥	ص ٣١٣٥ ـ ٣١٥٥

الطبري ج ٢٥ ص ١٠ ـ ١١

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ يقول تعالى ذكره ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم ﴾ ربكم أيها الناس ﴿ مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ أن يعمله ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: وشرع لكم من الدين الذي أوحينا إليك يا محمد، فأمرناك به ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ يقول: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾، أن أقيموا الدين، فإن إذ كان ذلك معنى الكلام، في موضع نصب على الترجمة بها عن «ما» التي في قوله ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ ويجوز أن تكون في موضع خفض رداً على الهاء التي في قوله ﴿ بِهِۦٓ ﴾، وتفسيراً عنها، فيكون معنى الكلام حينئذ ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾. وجائز أن تكون في موضع رفع على الاستئناف، فيكون معنى الكلام حينئذ: شرع لكم من الدين ما وصى به وهو أن أقيموا الدين. وإذ كان معنى الكلام ما وصفت، فمعلوم أن الذي أوصى به جميع هؤلاء الأنبياء وصية واحدة، وهي إقامة الدين الحق ولا تتفرقوا فيه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ قال: ما أوصاك به وأنبياءه، كلهم دين واحد. حدثنا محمد... عن السدى في قوله ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ قال, هو الدين كله. حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ بعث نوح حين بعث بالشريعة بتحليل الحلال وتحريم الحرام، ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾. حدثنا محمد قال... عن قتادة ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ قال: الحلال والحرام. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ إلى آخر الآية، قال حسبك ما قيل لك. وعنى بقوله ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ أن اعملوا به على ما شرع لكم وفرض، كما قد بينا فيما مضى قبل في قوله ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[البقرة: ٤٣]. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد... عن السدى في قوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ قال اعملوا به، وقوله ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ يقول: ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتم بالقيام به، كما اختلف الأحزاب من قبلكم.

كما حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ تعلموا أن الفرقة هلكة، وأن الجماعة ثقة. وقوله ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كبر على المشركين بالله من قومك يا محمد ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ قال أنكرها المشركون، وكبر عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، فصادمها إبليس وجنوده، فأبى الله تبارك وتعالى إلا أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من نأواها. وقوله ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ يقول: الله يصطفى إليه من يشاء من خلقه ويختار لنفسه وولايته من أحب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمْرو... عن مجاهد قوله ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ يقول: ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه عليه السلام من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه. كما حدثنا محمد... عن السدى ﴿ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ من يقبل إلى طاعة الله.

الرازي ج ٢٧ ص ١٥٤ ـ ١٥٧

اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الشورى: ٣] ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾، والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحاً ومحمداً وإبراهيم وموسى وعيسى، هذا هو المقصود من لفظ الآية، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، إلا أنه بقي في لفظ الآية إشكالات: (أحدها): إنه قال في أول الآية ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾، وفي آخرها ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ وفي الوسط ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ فما الفائدة في هذا التفاوت؟ (وثانيها): إنه ذكر نوحاً عليه السلام على سبيل الغيبة فقال ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾، والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾. (وثالثها): إنه يصير تقدير الآية: شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك فقوله ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم ﴾ خطاب الغيبة وقوله ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ خطاب الحضور، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد، وهو مشكل، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها، وبالجملة فالمقصود من الآية أنه يقال شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال، ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ ﴾ أي لا تتفرقوا بالآلهة الكثيرة، كما قال يوسف عليه السلام ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩] وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] واحتج بعضهم بقوله ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ على أن النبي ﷺ في أول الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح عليه السلام، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل، ومحل ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ إما نصب بدل من مفعول ﴿ ۞ شَرَعَ ﴾ والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل ماذاك المشروع؟ فقيل هو إقامة الدين ﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ من إقامة دين الله تعالى

على سبيل الاتفاق والإجماع، بدليل أن الكفار قالوا ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وههنا مسائل:

المسألة الأولى: احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتنازع، والله تعالى ذكر في معرض المنة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة ومعلوم أن فتح باب القياس يفضي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على الأخذ بالقياس تفرقوا تفرقاً لا رجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة، فوجب أن يكون ذلك محرماً ممنوعاً عنه.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع قسمين: منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه، بل يكون واجب البقاءفي جميع الشرائع والأديان، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان، ودلت هذه الآية على أن سعى الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني، لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعته من وجوه: (الأول): إن للنفوس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوي التأثير. (الثاني): إنها إذا توافقت صار كل واحد منها معيناً للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود. (الثالث): إن حصول التنازع ضد مصلحة العالم لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب، فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦].

ثم قال تعالى ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ وفيه وجهان: (الأول): إنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة. (الثاني): إنه إنما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبراً وأنفة، فبين تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة، ويلزم الانقياد لهم، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع، فمنه جبى الخراج واجتباه، وجبي الماء في الحوض فقوله ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة، وقوله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ كقوله تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ثم قال ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، وهو كما روى في الخبر من «تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»، أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي بأن أشرح له صدره وأسهل أمره.

ابن عربي ج ٢ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ المطلق الذي وصى جميع الأنبياء بإقامته، واجتماعهم عليه، وعدم تفرّقهم فيه، وهو أصل الدين، أي، التوحيد والعدل، وعلم المعاد المعبر عنه بالإيمان بالله واليوم الآخر، دون فروع الشرائع التي اختلفوا فيها بحسب المصالح، كأوضاع الطاعات، والعبادات، والمعاملات، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فالدين القيم هو المتعلق بما لا يتغير من العلوم، والأعمال، والشريعة هي المتعلقة بما يتغير من القواعد، والأوضاع.

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المحجوبين عن الحق بالغير ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد، لكونهم أهل المقت، ومظاهر الغضب، والقهر، وليسوا من المحبوبين الذين اجتباهم الله بمحض عنايته.

الآلوسي ج ١٣ ص ٢٠ ـ ٢٢

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾، وإيذان بأن ما شرع سبحانه لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل، والخطاب لأمته عليه الصلاة والسلام، أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ومن بعده من أرباب الشرائع، وأولى العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأمرهم به أمراً مؤكداً، وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير إليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بعيسى عليه السلام، وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الإعصار من أصول الشرائع والأحكام، كما ينبىء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن المأمور به، والمراد بإيحائه إليه ﷺ، إما ما ذكر في صدر السورة الكريمة، وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الشورى: ٧] الآية وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] وغير ذلك، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، وفي ذلك إشعار بأن شريعته ﷺ هي الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ولذا عبر فيها بالتي هي أصل الموصولات، وذلك هو السر في تقديم الذي أوحى إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام أول الرسل، وتوجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه ﷺ ﴿ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، وبيوم الجزاء، وسائر ما يكون العبد به مؤمناً، والمراد بإقامته تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، والمواظبة عليه، و (أن) مصدرية وتقدم الكلام في وصلها بالأمر والنهي، أو مخففة من الثقيلة لما في (شرع) من معنى العلم، والمصدر إما منصوب على أنه بدل من مفعول (شرع)، والمعطوفين عليه، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، والجملة جواب عن سؤال نشأ من إبهام المشروع كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أن أقيموا الدين، وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير (به)، ولا يلزمه بقاء الموصول بلا عائد لأن المبدل منه ليس في نية الطرح حقيقة، نعم قال شيخ الإسلام: إنه ليس بذاك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبي ﷺ مستلزم لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرق للأنبياء المذكورين عليهم السلام، وتوجيه النهي إلى أممهم تمحل ظاهر مع أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته ﷺ، وأنهم المتفرقون، ثم بين ما استظهره، وسنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وجوّز كونه بدلاً من (الدين)، ويجوز كون (أن) مفسرة فقد تقدمها ما يتضمن معنى القول دون حروفه، والخطاب في (أقيموا) وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ على ما اختاره غير واحد من الآجلة شامل للنبي ﷺ وأتباعه، وللأنبياء والأمم قبلهم، وضمير (فيه) للدين، أي ولا تتفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتي به بعض، ولا يأتي بعض، ويأتي بعض ببعض منه دون بعض، وهو مراد مقاتل، أي لا تختلفوا فيه، ولا يشمل هذا النهي عن الاختلاف في الفروع، فإنها ليست من الأصول المرادة هنا، ولم يتحد بها النبيون كما يؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٥] وبعضهم أدخل بعض الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين.

قال مجاهد: لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه، وذلك إقامة الدين، وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدم عليه السلام إلا بنوه، ولم يفرض له الفرائض، ولا شرعت له المحارم، وإنما كان منبهاً على بعض الأمور مقتصراً على بعض ضروريات المعاش، واستمر الأمر إلى نوح عليه السلام، فبعثه الله تعالى بتحريم الأمهات والبنات، ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الأدب في الديانات ولم يزل ذلك يتأكد بالرسل، ويتناصر بالأنبياء واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة حتى ختمه سبحانه بخير الملل على لسان أكرم الرسل، فمعنى الآية شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب بصالح الأعمال، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكبر، والزنا، والإيذاء للخلق، والاعتداء على الحيوان، واقتحام الدناءات وما يعود بحرم المروءات، فهذا كله مشروع ديناً واحداً، وملة متحدة، لم يختلف على ألسنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، ومعنى ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ اجعلوه قائماً، أي دائماً مستمراً من غير خلاف فيه، ولا اضطراب. انتهى. ولعلّه أراد بالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج مطلقها لا ما نعرفه في شرعنا منها، فإن الصلوات الخمس، والزكاة المخصوصة، وصيام شهر رمضان من خواص هذه الأمة على الصحيح، والظاهر أن حج البيت لم يشرع لأمة موسى، وأمة عيسى عليهما السلام، ولا لأكثر الأمم قبلهما على أن الآية مكية، ولم تشرع الزكاة المعروفة، وصيام رمضان إلا في المدينة، وبالجملة لا شك في اختلاف الأديان في الفروع، نعم لا يبعد اتفاقها فيما هو من مكارم الأخلاق، واجتناب الرذائل ﴿كَبُرَ﴾ أي عظم وشق ﴿عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على سبيل الاستمرار التجددي من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام، ويشعر بإرادته التعبير بالمشركين، وهو أصل الأصول، وأعظم ما شق عليهم كما تنبىء بذلك الآيات، أو ما تدعوهم إليه من إقامة الدين، وعدم التفرق فيه ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ تسلية له ﷺ بأن منهم من يجيب، و ﴿يَجْتَبِىٓ﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء، والضمير في (إليه) لله تعالى كما ذكر محي السنة وغيره، وكذا الضمير في قوله تعالى ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي يصطفي إليه سبحانه من يشاء اصطفاه، ويخصصه سبحانه بفيض إلّهي يتحصل له منه أنواع النعم، ويهدي إليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يقبل إليه تعالى شأنه، وعدى الاجتباء بإلى لما فيه من الجمع على ما يفهم من كلام الراغب، وجعله جمع من الجباية بمعنى الجمع يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته فيه، فمنهم من اختار ضمير (إليه) في الموضعين ـ لما ـ لما فيه من اتساق الضمائر، أي يجتاب ويجمع من يشاء اجتلابه وجمعه إلى ما تدعوهم إليه، ومنهم من اختار جعله للدين لمناسبة معنوية هي اتحاد المتفرق فيه، والمجتمع عليه، والزمخشري اختار كونه من الجباية بمعنى الجمع وعود الضمير على الدين، وما ذكره محي السنة وغيره ـ قال في الكشاف ـ أظهر وأملأ بالفائدة، أما الثاني فللدلالة على أن أهل الاجتباء غير أهل الاهتداء، وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه، وعلى مختار طائفة واحدة.

وأما الأوّل فلأن الاجتباء بمعنى الاصطفاء أكثر استعمالاً، ولأنه يدل على أن أهل الدين هم صفوة الله تعالى اجتباهم إليه، واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذي آثره الزمخشري فكلام ظاهري بناه على أن الكلام في عدم التفرق في الدين، فناسب الجمع والانتهاء إليه، وقيل: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على معنى ما تدعوهم إلى الإيمان به، والمراد به الرسالة أي ثقلت عليهم رسالتك وعظم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ رد عليهم على نحو ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢٤] وما قدمنا أظهر.

٣٣

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

(سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٥٧ ـ ٥٩).

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٥	ص ٥١ ـ ٥٣	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٤ ـ ٢٧
الزمخشري	ج ٣	ص ٤٩٤	ابن كثير	ج ٤	ص ١٣٠ ـ ١٣٢
الرازي	ج ٢٧	ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢	الجلالان		ص ٦٥٣
الطبرسي	ج ٢٥	٩١ ـ ٩٤	الشوكاني	ج ٤	ص ٥٦٠ ـ ٥٦٥
ابن عربي	ج ٢	ص ٤٤٧ ـ ٤٤٩	الآلوسي	ج ٢٥	ص ٨٥
البيضاوي	ج ٥	ص ٦٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧
الخازن	ج ٦	ص ١٣٨ ـ ١٣٩	الطباطبائي	ج ١٨	ص ١١٢ ـ ١١٩
البغوي	ج ٤	ص ١٢٨ ـ ١٢٩	جوهري	ج ٢٠	ص ١٤٩ ـ ٢٦١
الماوردي	ج ٥	ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤	المراغي	ج ٢٥	ص ١٠١ ـ ١٠٦
القرطبي	ج ١٦	ص ١٠٢ ـ ١٠٥	سيد قطب	ج ٥	ص ٣١٩٥ ـ ٣٢٠٤

الطبري ج ٢٥ ص ٥١ ـ ٥٣

وقوله ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ يقول تعالى ذكره: ولما شبه الله عيسى في إحداثه وإنشائه إياه من غير فحل بآدم؛ فمثله به بأنه خلقه من تراب من غير فحل إذا قومك يا محمد من ذلك يضجون ويقولون: ما يريد محمد منا إلا أن نتخذه إلهاً نعبده، كما عبدت النصارى المسيح. واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم بنحو الذي قلنا فيه. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله عزّ وجلّ ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال: يضجون، قال: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة قال: لما ذكر عيسى ابن مريم جزعت قريش من ذلك، وقالوا: يا محمد ما ذكرت عيسى ابن مريم؟ وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نصنع به كما صنعت النصارى بعيسى ابن مريم، فقال الله عزّ وجلّ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ﴾ حدثنا بشر... عن قتادة قال: لما ذكر عيسى في القرآن قال مشركو قريش: يا محمد ما أردت إلى ذكر عيسى؟ قال: وقالوا: إنما يريد أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى. وقال آخرون: بل عنى بذلك قول الله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٨] قيل المشركين عند نزولها: قد رضينا بأن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة، لأن كل هؤلاء مما يعبد من دون الله، قال الله عزّ وجلّ ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال: يعني قريشاً لما قيل لهم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾[الأنبياء: ٩٨] فقالت له قريش: فما ابن مريم قال: ذاك عبد الله ورسوله، فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً، فقال الله عزّ وجلّ ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ فقرأته عامة قراء المدينة، وجماعة من قراء الكوفة «يَصُدُّونَ» بضم الصاد وقرأ ذلك بعض قراء الكوفة والبصرة ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ بكسر الصاد. واختلف أهل العلم بكلام العرب في فرق ما بين ذلك إذا قرىء بضم الصاد، وإذا قرىء بكسرها، فقال بعض نحويي البصرة، ووافقه

عليه بعض الكوفيين: هما لغتان بمعنى واحد، مثل يشدّ ويشدّ، وينم وينم من النميمة، وقال آخر منهم، من كسر الصاد فمجازها يضجون، ومن ضمها فمجازها يعدلون. وقال بعض من كسرها فإنه أراد يضجون، ومن ضمها فإنه أراد الصدود عن الحق. وحدثت عن الفراء قال: حدثني أبو بكر بن عياش، أن عاصماً ترك يصدون من قراءة أبي عبد الرحمن، وقرأ ﴿يَصِدُّونَ﴾ قال: قال أبو بكر حدثني عاصم... أن ابن عباس لقي ابن أخي عبيد بن عمير فقال: إن عمك لعربي، فما له يلحن في قوله: «إذا قومك منه يصدون» وإنما هي ﴿يَصِدُّونَ﴾ والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان بمعنى واحد، ولم نجد أهل التأويل فرقوا بين معنى ذلك إذا قرىء بالضم والكسر، ولو كان مختلفاً معناه، لقد كان الاختلاف في تأويله بين أهله موجوداً وجود اختلاف القراءة فيه باختلاف اللغتين، ولكن لما لم يكن مختلف المعنى لم يختلفوا في أن تأويله: يضجون ويجزعون، فبأي القراءتين قرأ القارىء فمصيب: ذكر ما قلنا في تأويل ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس، قوله ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يقول: يضجون. حدثنا ابن حميد... عن الصعب بن عثمان قال: كان ابن عباس يقرأ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ وكان يفسرها يقول: يضجون، حدثنا ابن بشار... عن ابن عباس ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثنا ابن المثنى... ابن عباس بمثله حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد، في قول الله عزّ وجلّ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يجزعون ويضجون. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن ابن عباس أنه قرأها ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يضجون، وقرأ علي رضي الله عنه ﴿يَصِدُّونَ﴾. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول، في قوله ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثنا محمد... عن السدي ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾. يقول تعالى ذكره: وقال مشركو قومك يا محمد: آلهتنا التي نعبدها خير أم محمد فنعبد محمداً، ونترك آلهتنا. وذكر أن ذلك في قراءة أبيّ بن كعب ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ذكر الرواية بذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة أن في حرف أبي بن كعب ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون محمداً ﷺ. وقال آخرون: بل عنى بذلك: آلهتنا خير أم عيسى. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي في قوله ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ قال: خاصموه، فقالوا: يزعم أن كل من عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة هؤلاء قد عبدوا من دون الله قال فأنزل الله براءة عيسى. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ قال: عبد هؤلاء عيسى، ونحن نعبد الملائكة. وقوله ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ إلى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ وقوله تعالى ذكره ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ يقول تعالى ذكره: ما مثلوا لك هذا المثل يا محمد، ولا قالوا لك هذا القول إلا جدلاً وخصومة يخاصمونك به ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: ما بقومك يا محمد هؤلاء المشركين في محاجتهم إياك بما يحاجونك به طلب الحق ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يلتمسون الخصومة بالباطل: وذكر عن النبيّ ﷺ أنه قال «ما ضل قوم عن الحق إلا أوتوا الجدل» ذكر الرواية بذلك: حدثنا ابن المثنى... عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ حدثني موسى بن عبد الرحمن الكندي وأبو كريب... عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ بنحوه. حدثنا أبو كريب... عن أبي أمامة «أن رسول الله ﷺ، خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً، حتى كأنما صب على وجهه الخلّ، ثم قال ﷺ: لا تضربوا كتاب الله

بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل، ثم تلا، ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾. وقوله ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يقول تعالى ذكره: فما عيسى إلا عبد من عبادنا أنعمنا عليه بالتوفيق، والإيمان ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ يقول: وجعلناه آية لبني إسرائيل، وحجة لنا عليهم بإرسالناه إليهم بالدعاء إلينا، وليس هو كما تقول النصارى من أنه ابن الله تعالى، تعالى الله عن ذلك. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني بذلك عيسى ابن مريم، ما عدا ذلك عيسى ابن مريم، إن كان إلا عبداً أنعم الله عليه. وبنحو الذي قلنا أيضاً في قوله ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ قالوا: ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أحسبه قال: آية لبني إسرائيل. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي آية.

الرازي ج ٢٧ ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢

قوله تعالى ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة. فأولها قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥] وثانيها قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف: ١٩] وثالثها قوله ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٠] ورابعها قوله ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] وخامسها: هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلاً أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم، فأما أن ذلك المثل كيف كان، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً كلها محتملة. فالأول: إن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة. الثاني: روى أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال عبد الله ابن الزبعري هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ «بل لجميع الأمم» فقال خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيراً والملائكة يعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النبيّ ﷺ وفرح القوم وضحكوا وضجوا، فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية أيضاً والمعنى: ولما ﴿ ضُرِبَ ﴾ عبد الله بن الزبعري عيسى ﴿ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه ﴿ إِذَا قَوْمُكَ ﴾ قريش ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من هذا المثل ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وجدلاً وضحكاً بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، ﴿ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون. الوجه الثالث في التأويل: وهو أن النبيّ ﷺ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهاً لأنفسهم، قال كفار مكة إن محمداً يريد أن يجعل لنا إلهاً كما جعل النصارى المسيح إلهاً لأنفسهم، ثم عند هذا قالوا ﴿ أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ يعني آآلهتنا خير أم محمد، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمداً يدعونا إلى عبادة نفسه، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بدّ من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى، ثم إنه

تعالى بين أنا لم نقل إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل، فإن عيسى ليس إلا عبداً أنعمنا عليه، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمداً يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس، واختلفوا فقال الكسائي: هما بمعنى نحو يعرشون ويعرُشون ويعكِفون ويعكُفون، ومنهم من فرق، أما القراءة بالضم فمن الصدود، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه، وأما بالكسر فمعناه يضجون.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة والكسائي أآلهتنا استفهاماً بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاماً بهمزة ومدة.

ثم قال تعالى ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ مبالغون في الخصومة، وذلك لأن قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لا يتناول الملائكة وعيسى، وبيانه من وجوه (الأول): إن كلمة ما لا تتناول العقلاء البتة. (والثاني): إن كلمة ما ليست صريحة في الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظتي الكل والبعض عليه، فيقال إنكم وكل ما تعبدون من دون الله. أو إنكم وبعض ما تعبدون من دون الله. (الثالث): إن قوله إنكم وكل ما تعبدون من دون الله أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة. (الرابع): إن قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] هب أنه عام إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه، والخاص مقدم على العام.

المسألة الرابعة: القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [غافر: ٤] إن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل.

ثم قال تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر.

الطبرسي ج ٢٥ ص ٩١ ـ ٩٤

. . . ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ اختلف في المراد به على وجوه. إحداها: إن معناه ولما وصف ابن مريم شبها في العذاب بالآلهة أي فيما قالوه على زعمهم وذلك أنه لما نزل قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون قد رضينا بأن تكون آلهتنا حيث يكون عيسى وذلك قوله ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ أي يضجون ضجيج المجادلة حيث خاصموك وهو قوله ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي ليست آلهتنا خيراً من عيسى فإن كان عيسى في النار بأنه يعبد من دون الله فكذلك آلهتنا. . عن ابن عباس ومقاتل. وثانيها: إن معناه لما ضرب الله المسيح مثلاً بآدم في قوله ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾ [آل عمران: ٥٩] أي من قدر على أن ينشيء آدم من غير أب وأم قادر على إنشاء المسيح من غير أب اعترض على النبيّ ﷺ بذلك قوم من كفار قريش فنزلت هذه الآية. وثالثها: إن معناه أن النبيّ ﷺ لما مدح المسيح وأمه وإنه كآدم في الخاصية قالوا إن محمداً يريد أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى. . . عن قتادة. ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليهم أفضل الصلوات أنه قال جئت إلى رسول الله ﷺ يوماً فوجدته في ملأ من قريش فنظر إليّ ثم قال يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فأفرطوا في حبه

فهلكوا واقتصد فيه قوم فنجوا. فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا يشبه بالأنبياء والرسل فنزلت الآية وقالوا ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ أي آلهتنا أفضل أم المسيح فإذا كان المسيح في النار رضينا أن تكون آلهتنا معه... عن السدي وابن زيد وقيل معناه إن آلهتنا خير من المسيح فإذا عبد المسيح جاز أن تعبد آلهتنا.. عن الجبائي وقيل هو كناية عن محمد ﷺ والمعنى آلهتنا خير من محمد ﷺ وهو يأمرنا بأن نعبده كما عبد النصارى المسيح ونطيعه ونترك آلهتنا... عن قتادة وقال علي بن عيسى معنى سؤالهم بقولهم ﴿ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ إنهم الزموا ما لا يلزم على ظن منهم وتوهم كأنهم قالوا ومثلنا فيما نعبد مثل ما يعبد المسيح فأيما خير عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح على أنه إن قال عبادة المسيح أقر بعبادة غير الله وكذلك إن قال عبادة الأوثان وإن قال ليس في عبادة المسيح خير قصر به عن المنزلة التي أبين لأجلها من سائر العباد وجوابهم عن ذلك أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام عليه لا يوجب العبادة كما لا يوجب أن ينعم عليه بأعلى مراتب النعمة ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أي ما ضربوا هذا المثل لك إلا ليجادلوا به ويخاصموك ويدفعوك به عن الحق لأن المتجادلين لا بد أن يكون أحدهما مبطلاً بخلاف المتناظرين لأن المناظرة قد تكون بين المحقين ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أي جدلون في دفع الحق بالباطل ثم وصف سبحانه المسيح فقال ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي ما هو إلا عبد أنعمنا عليه بالخلق من غير أب وبالنبوة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي آية لهم ودلالة يعرفون بها قدرة الله تعالى على ما يريد حيث خلقه من غير أب فهو مثل لهم يشبهون به ما يرون من أعاجيب صنع الله...

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٢٤ ـ ٢٥

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

لما ذكر تعالى طرفاً من قصة موسى ـ عليه السلام ـ ذكر طرفاً من قصة عيسى ـ عليه السلام ـ عن ابن عباس وغيره لما نزل ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾[آل عمران: ٥٩] ونزل كيف خلق من غير فحل قالت قريش: ما أراد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً وقيل ضرب المثل بعيسى هو ما جرى بين الزبعري وبين الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في القصة المحكية في قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقد ذكرت في سورة الأنبياء في آخرها إن ابن الزبعري قال: فإذا كان هؤلاء أي: عيسى وأمه، وعزير في النار، فقد وصفنا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، وقيل: المثل هو أن الكفار لما سمعوا أن النصارى تعبد عيسى قالوا: آلهتنا خير من عيسى، قال ذلك فهم من كان يعبد الملائكة، وضرب مبني للمفعول، فاحتمل أن يكون الفاعل ابن الزبعري إن صحت قصته، وأن يكون الكفار، وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي ﴿ يَصُدُّونَ ﴾ بضم الصاد، أي: يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل. وقرأ ابن عباس وابن جبير والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها، أي: يصيحون، ويرتفع لهم حمية بضرب المثل: وروى ضم الصاد عن علي وأنكرها ابن عباس ولا يكون إنكاره إلا قبل بلوغه تواترها. وقرأ الكسائي والفراء هما لغتان بمعنى مثل يعرشون ويعرشون. ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ خفف الكوفيون الهمزتين، وسهل باقي السبعة الثانية بين بين. وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر فاحتمل أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها، واحتمل أن يكون خبراً محضاً حكوا أن آلهتهم خير ثم عنَّ لهم أن يستفهموا على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام، وهذا الاستفهام يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أي ما مثلوا هذا التمثيل إلا لأجل الجدل والغلبة والمغالطة، لا لتمييز الحق واتباعه،

وانتصب جدلاً على أنه مفعول من أجله، وقيل: مصدر في موضع الحال. وقرأ ابن مقسم ﴿إِلَّا جِدَالًا﴾ بكسر الجيم، وألف خصمون شديدو الخصومة واللجاج وفعل من أبنية المبالغة، نحو هدى، والظاهر أن الضمير في أم، هو لعيسى لتتناسق الضمائر في قوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾،

وقال قتادة: يعود على النبيّ ﷺ أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي: خبرة عجيبة كالمثل لبني إسرائيل إذ خلق من غير أب، وجعل له من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يجعل لغيره في زمانه، وقيل المنعم عليه هو محمد ﷺ.

القاسمي ج ١٤ ص ٣٤٦ ـ ٣٤٧

﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي في كونه كآدم، كما أشارت له آية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] والمعنى: لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة، عبادته كفر، ودعاؤه شرك، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي من مثله المضروب ووصفه المبين ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يعرضون ولا يعون ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون بآلهتهم الملائكة الذين عبدوهم، زعماً منهم أنهم بنات الله تعالى. كما ذكر عنهم ذلك في أول السورة. أي إنهم خير من عيسى وأفضل، لأنهم من الملأ الأعلى والنوع الأسمى، فإذا جازت عبادة المفضول وهو عيسى، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة. كأنهم يقررون على شركهم أصولاً صحيحة. ويبنون على تمسكهم أقيسة صريحة. وغفلوا، لجهلهم، عن بطلان المقيس والمقيس عليه. وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى، وعلى استحالة التوالد في ذاته العلية. وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال، والمشاغبة بالجدال. كما قال تعالى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ أي ما ضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدل والخصومة، لا عن اعتقادٍ، لظهور بطلانه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي شديدو الخصومة بالباطل تمويهاً وتلبيساً. وفي الحديث «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» وما ذكرناه في تفسير هذه الآية، هو الجليّ الواضح، لدلالة السياق والسباق فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف. ثم جلى شأن عيسى عليه السلام، بما يرفع كل لبس، بقوله سبحانه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي آية لهم وحجة عليهم، بما ظهر على يديه، مما أيّد نبوته ورسالته وصدق دعواه.

٣٤

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾

(سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٦٣ ـ ٦٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٥	ص ٥٥ ـ ٥٦	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٤ ـ ٢٧
الزمخشري	ج ٣	ص ٤٩٥	ابن كثير	ج ٤	ص ١٣١ ـ ١٣٣
الرازي	ج ٢٧	ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣	الجلالان		ص ٦٥٣ ـ ٦٥٤
الطبرسي	ج ٢٥	ص ٩٤ ـ ٩٦	الشوكاني	ج ٤	ص ٥٦٠ ـ ٥٦٥
ابن عربي	ج ٢	ص ٤٤٩ ـ ٤٥١	الآلوسي	ج ٢٥	ص ٨٩
البيضاوي	ج ٥	ص ٦٣	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٢٨١ ـ ٥٢٨٢
الخازن	ج ٦	ص ١٣٩ ـ ١٤٠	الطباطبائي	ج١٨	ص ١١٣ ـ ١١٩
البغوي	ج ٤	ص ١٢٩	جوهري	ج ٢٠	ص ١٤٩ ـ ٢٦١
الماوردي	ج ٥	ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧	المراغي	ج ٢٥	ص ١٠١ ـ ١٠٦
القرطبي	ج ١٦	ص ١٠٧ ـ ١٠٨	سيد قطب	ج ٥	ص ٣١٩٩ ـ ٣٢٠١

الطبري ج ٢٥ ص ٥٥ ـ ٥٦

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ يقول تعالى ذكره: ولما جاء عيسى بني إسرائيل بالبينات، يعني بالواضحات من الأدلة. وقيل: عني بالبينات: الإنجيل. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي الإنجيل. وقوله ﴿ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ قيل: عني بالحكمة في هذا الموضع: النبوّة. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن السدّي ﴿ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ قال: النبوّة. وقد بينت معنى الحكمة فيما مضى من كتابنا هذا بشواهده، وذكرت اختلاف المختلفين في تأويله، فأغنى ذلك عن إعادته. وقوله ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ يقول: ولأبين لكم معشر بني إسرائيل بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة. كما حدثني محمد بن عمرو عن مجاهد، قوله ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ قال: من تبديل التوراة. وقد قيل: معنى البعض في هذا الموضع بمعنى الكل، وجعلوا ذلك نظير قول لبيد:

تــرّاك أمكنــة إذا لــم أرضهــا
أو يعتلــق بعــض النفــوس حمــامهــا

قالوا: الموت لا يعتلق بعض النفوس، وإنما المعنى: أو يعتلق النفوس حمامها. وليس لما قال هذا القائل كبير معنى، لأن عيسى إنما قال لهم ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ لأنه قد كان بينهم اختلاف كثير في أسباب دينهم ودنياهم، فقال لهم: أبين لكم بعض ذلك، وهو أمر دينهم دون ما هم فيه مختلفون من أمر دنياهم، فلذلك خص ما أخبرهم أنه يبينه لهم. وأما قول لبيد «أو يعتلق بعض النفوس» فإنه إنما قال ذلك أيضاً كذلك، لأنه أراد: أو يعتلق نفسه حمامها، فنفسه من بين النفوس لا شك أنها بعض لا كلّ. وقوله ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ يقول: فاتقوا ربكم أيها الناس بطاعته، وخافوه باجتناب معاصيه، وأطيعون فيما أمرتكم به من اتقاء الله واتباع أمره، وقبول نصيحتي لكم. وقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ يقول: إن الله الذي يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له، ربي وربكم جميعاً، فاعبدوه وحده، لا تشركوا معه في عبادته شيئاً، فإنه لا يصلح ولا ينبغي أن يعبد شيء سواه. وقوله ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ يقول: هذا الذي أمرتكم به من اتقاء الله وطاعتي، وإفراد الله بالألوهة، هو الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي لا يقبل من أحد من عباده غيره.

الـرازي ج ٢٧ ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣

. . . اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات وبـالشـرائـع البينـات الـواضحـات ﴿ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ وهي معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ يعني أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء، فجاء عيسى ليبين لهم الحق في تلك المسائل الخلافية، وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين وبعض الذي يختلفون فيه معناه فروع الدين، فإن قيل لم لم يبين لهم كل الذي يختلفون فيه؟ قلنا لأن الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها، فلا يجب على الرسول بيانها، ولما بين الأصول والفروع قال ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في الكفر به والإعراض عن دينه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ والمعنى ظاهر.

الطبرسي ج ٢٥ ص ٩٤ ـ ٩٦

. . . ثم أخبر سبحانه عن حال عيسى (ع) حين بعثه الله نبياً فقال ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات الدالة على نبوته وقيل بالإنجيل عن قتادة ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ أي بالنبوة عن عطاء وقيل بالعلم بالتوحيد والعدل والشرائع ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ قيل إن المعنى كل الذي تختلفون كقول لبيد «أو تعتلق بعض النفوس حمامها»، أي كل النفوس وقول القطامي:

قـد يـدرك المتـأنـي بعـض حـاجتـه
وقـد يكـون مـن المستعجـل الـزلـل

أي كل حاجته. . عن أبي عبيدة قال الزجاج والصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل والذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه وقول الشاعر «أو يخترم بعض النفوس حمامها» إنما يعني نفسه وقيل معناه لأبين لكم ما تختلفون فيه من أمور الدين دون أمور الدنيا ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ بأن تجتنبوا معاصيه وتعملوا بالطاعات ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ ﴾ الذي تحق له العبادة ﴿ فَٱعۡبُدُوهُۚ ﴾ خالصاً ولا تشركوا به شيئاً ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ يفضي بكم إلى الجنة وثواب الله.

القرطبي ج ١٦ ص ١٠٧ ـ ١٠٨

قـولـه تعـالـى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾ قـال ابـن عباس: يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام، وخَلْق الطير، والمائدة وغيرها، والإخبار بكثير من الغيوب. وقال قتادة: البينات هنا الإنجيل. ﴿ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ أي النبوّة، قاله السُدّي. ابن عباس: علم ما يؤدي إلى الجميل ويكف عن القبيح. وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيري والماوردي. ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ ﴾ [قال مجاهد: من تبديل التوراة. الزجاج: المعنى لأبين لكم في الإنجيل بعض الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبيّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بيّن لهم بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها. وقيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبيّن لهم أمر دينهم. ومذهب أبي عبيدة أن البعض بمعنى الكـل؛ ومنـه قـولـه تعـالـى: ﴿ يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ ﴾ [غافر: ٢٨]. وأنشد الأخفش قول لبيد:

تـراك أمكنـــة إذا لـــم أرضهـــا
أو تعتلـق بعـض النفـوس حمـامهـا

والمـوت لا يعتلـق بعـض النفـوس دون بعـض. ويقـال للمنية: عَلُوق وعَلاّقة. قال المفضل البكري:

وســائلــة بثَعْلَبَــة بــن سَيْــر
وقــد عَلِقــت بثعلبــة العلُــوقُ

وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] يعني ما أحل في الإنجيل مما كان محرّماً في التوراة؛ كلحم الإبل والشحم من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت. ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ أي أتقوا الشرك، ولا تعبدوا إلا الله وحده؛ وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلهاً أو ابن إله. ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أي عبادة الله صراط مستقيم، وما سواه معوّج لا يؤدّي سالكه إلى الحق.

سيد قطب ج ٥ ص ٣١٩٩ ـ ٣٢٠١

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

فعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من الخوارق التي أجراها الله على يديه، أو من الكلمات والتوجيهات إلى الطريق القويم. وقال لقومه: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ ﴾. ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير؛ واطمأن إلى خطواته في الطريق على اتزان وعلى نور. وجاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه. وقد اختلفوا في كثير من شريعة موسى ـ عليه السلام ـ وانقسموا فرقاً وشيعاً. ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به من عند الله. وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها ولا لبس ولا غموض: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ﴾... ولم يقل: إنه إله، ولم يقل: إنه ابن الله. ولم يشر من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع. وقال لهم: إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا اعوجاج، ولا زلل فيه ولا ضلال. ولكن الذين جاءوا من بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين أحزاباً، اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٦٥].

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل؛ وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل تحت حكم الرومان؛ وقد طال انتظارهم له، فلما جاءهم نكروه وشاقوه، وهموا أن يصلبوه!

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلا كثيرة، أهمها أربع فرق أو طوائف.

طائفة الصدوقيين نسبة إلى «صدوق» وإليه وإلى أسرته ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان. وحسب الشريعة لا بد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى. فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل. وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين في شكليات العبادة وطقوسها، ينكرون «البدع» في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية ويستمتعون بملاذ الحياة؛ ولا يعترفون بأن هناك قيامة!

وطائفة الفريسيين، وكانوا على شقاق مع الصدوقيين. ينكرون عليهم تشددهم في الطقوس والشكليات، وجحدهم للبعث والحساب. والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة. وكان المسيح ـ عليه السلام ـ ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشقة اللسان!

وطائفة السامريين، وكانوا خليطاً من اليهود والأشوريين، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم المعروفة بالكتب الموسوية، وتنفي ما عداها مما أضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة. مما يعتقد غيرهم بقداسته.

وطائفة الآسين أو الأسينيين. وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتقشف، كما يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم.

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية، وبلبلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل، الراضخين لضغط الامبراطورية الرومانية المستذلين المكبوتين، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع.

فلما أن جاء المسيح ـ عليه السلام ـ بالتوحيد الذي أعلنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾. وجاء معه بشريعة التسامح والتهذيب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس...

وإن الإنسان ـ وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح ـ عليه السلام ـ وغيرها في بابها ـ ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين في زماننا هذا. فهو طابع واحد مكرر. لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين، الذين يراهم الناس في كل حين!

ثم ذهب المسيح عليه السلام إلى ربه، فاختلف أتباعه من بعده. اختلفوا شيعاً وأحزاباً. بعضها يؤلهه. وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته. وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح ابن مريم. وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام. وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين.

٣٥ ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾

(سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٨١)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٥	ص ٦٠ ـ ٦٢	أبو حيان الاندلسي	ج ٨	ص ٢٧ ـ ٣٠
الزمخشري	ج ٣	ص ٤٩٧	ابن كثير	ج ٤	ص ١٣٥ ـ ١٣٦
الرازي	ج ٢٧	ص ٢٢٨ ـ ٢٣١	الجلالان		ص ٦٥٥
الطبرسي	ج ٢٥	ص ٩٩ ـ ١٠٢	الشوكاني	ج ٤	ص ٥٦٥ ـ ٥٦٨
ابن عربي	ج ٢	ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦	الآلوسي	ج ٢٥	ص ٩٦ ـ ٩٧
البيضاوي	ج ٥	ص ٦٤	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٢٨٨
الخازن	ج ٦	ص ١٤١ ـ ١٤٢	الطباطبائي	ج ١٨	ص ١٢٤ ـ ١٢٨
البغوي	ج ٤	ص ١٣١	جوهري	ج ٢٠	ص ١٥٠ ـ ٢٦١
الماوردي	ج ٥	ص ١٢٤٠ ـ ١٢٤١	المراغي	ج ٢٥	ص ١١٢ ـ ١١٧
القرطبي	ج ١٦	ص ١١٩ ـ ١٢٠	سيد قطب	ج ٥	ص ٣١٩٥ ـ ٣٢٠٤

الطبري ج ٢٥ ص ٦٠ ـ ٦٢

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ فقال بعضهم معنى ذلك: قل يا محمد إن كان للرحمن ولد في قولكم وزعمكم أيها المشركون، فأنا أوّل المؤمنين بالله في تكذيبكم، والجاحدين ما قلتم من أن له ولداً. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو. . . عن مجاهد ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ ﴾ كما تقولون ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ المؤمنين بالله، فقولوا ما شئتم. حدثنا ابن عبد الأعلى. . . عن مجاهد في قوله ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ قال قل إن كان لله ولد في قولكم فأنا أوّل من عبد الله ووحده وكذبكم. وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل ما كان للرحمن ولد، فأنا أوّل العابدين له بذلك. ذكر من قال ذلك: حدثني علي. . . عن ابن عباس قوله ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أوّل الشاهدين. وقال آخرون: بل معنى ذلك نفي، ومعنى إن الجحد، وتأويل ذلك: ما كان ذلك ولا ينبغي أن يكون. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر. . . عن قتادة قوله ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ قال قتادة: وهذه كلمة من كلام العرب ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ ﴾ أي إن ذلك لم يكن، ولا ينبغي. حدثني يونس. . . عن ابن زيد في قوله ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ قال: هذا الانكاف [التنزيه] ما كان للرحمن ولد، نكف الله أن يكون له ولد، وإن مثل ما إنما هي: ما كان للرحمن ولد، ليس للرحمن ولد، مثل قوله ﴿ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [ابراهيم: ٤٦] إنما هي: ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، فالذي أنزل الله من كتابه وقضاه من قضائه أثبت من الجبال، و «إن» هي «ما» إن كان ما كان تقول العرب: إن كان، وما كان الذي تقول: وفي قوله ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ أوّل من يعبد الله بالإيمان والتصديق أنه ليس للرحمن ولد على هذا أعبد الله. حدثني ابن عبد الرحيم البرقي. قال: حدثنا عمرو بن أبي سلمة، قال: سألت ابن محمد، عن قول الله ﴿ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ ﴾ قال: ما كان. حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، قال: حدثنا عمرو، قال: سألت زيد بن أسلم، عن قول الله ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ ﴾ قال: هذا قول العرب معروف، إن كان: ما كان، إن كان هذا الأمر قط، ثم قال: وقوله وإن كان: ما كان. وقال آخرون: معنى «إن» في هذا الموضع معنى المجازاة، قالوا: وتأويل الكلام: لو كان للرحمن ولد، كنت أوّل من عبده بذلك. وذكر من قال ذلك: حدثنا محمد. . . عن السدّي ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ قال: لو كان له ولد كنت أوّل من عبده بأن

له ولداً، ولكن لا ولد له. وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، فأنا أوّل الآنفين ذلك، ووجهوا معنى العابدين إلى المنكرين الآبين، من قول العرب: قد عبِد فلان من هذا الأمر إذا أَنِف منه وغضب وأباه، فهو يعبَد عَبداً، كما قال الشاعر:

ألا هَوِيَتْ أُمُّ الوَلِيدِ وأَصْبَحَتْ
لِمَا أَبْصَرَتْ فِي الرأسِ مِنِّي تَعَبَّدُ

وكما قال الآخر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الوُدِّ يَصْرِمْ خَلِيلَهُ
وَيَعْبَدْ عَلَيْهِ لا مَحَالَةَ ظَالِمَا

وقد حدثني يونس بن عبد الأعلى... عن بعجة بن زيد الجهني، أن امرأة منهم دخلت على زوجها، وهو رجل منهم أيضاً، فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن تُرجم، فدخل عليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] قال: فوالله ما عبد عثمان أن بعث إليها تردّ. قال يونس، قال ابن وهب: عبد: استنكف.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى ﴿إِن﴾ الشرط الذي يقتضي الجزاء على ما ذكرناه عن السدّي، وذلك أن «إن» لا تعدو في هذا الموضع أحد معنيين: إما أن يكون الحرف الذي هو بمعنى الشرط الذي يطلب الجزاء، أو تكون بمعنى الجحد، وهب إذا وجهت إلى الجحد لم يكن للكلام كبير معنى، لأنه يصير بمعنى: قل ما كان للرحمن ولد، وإذا صار بذلك المعنى أوهم أهل الجهل من أهل الشرك بالله أنه إنما نفى بذلك عن الله عزّ وجلّ أن يكون له ولد قبل بعض الأوقات، ثم أحدث له الولد بعد أن لم يكن، مع أنه لو كان ذلك معناه لقدر الذين أمر الله نبيّه محمداً ﷺ أن يقول لهم: ما كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين، أن يقولوا له صدقت، وهو كما قلت، ونحن لم نزعم أنه لم يزل له ولد، وإنما قلنا: لم يكن له ولد، ثم خلق الجنّ فصاهرهم، فحدث له منهم ولد، كما أخبر الله عنهم أنهم كانوا يقولونه، ولم يكن الله تعالى ذكره ليحتجّ لنبيه ﷺ وعلى مكذّبيه من الحجة بما يقدرون على الطعن فيه، وإذ كان في توجيهنا «إن» إلى معنى الجحد ما ذكرنا، فالذي هو أشبه المعنيين بها الشرط. وإذ كان ذلك كذلك، فبينة صحة ما نقول من أن معنى الكلام: قل يا محمد لمشركي قومك الزاعمين أن الملائكة بنات الله: إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل عابديه بذلك منكم، ولكنه لا ولد له، فأنا أعبده بأنه لا ولد له، ولا ينبغي أن يكون له.

وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه لم يكن على وجه الشكّ، ولكن على وجه الإلطاف في الكلام وحُسن الخطاب، كما قال جلّ ثناؤه ﴿قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وقد علم أن الحق معه، وأن مخالفيه في الضلال المبين.

الرازي ج ٢٧ ص ٢٢٨ ـ ٢٣١

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي ﴿وُلْدٌ﴾ بضم الواو وإسكان اللام والباقون بفتحهما ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قرأ نافع ﴿فَأَنَا۠﴾ بفتحة طويلة على النون والباقون بلا تطويل.

المسألة الثانية: اعلم أن الناس ظنوا أن قوله ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لو أجريناه على ظاهره فإنه يقتضي وقوع الشك في إثبات ولد لله تعالى، وذلك محال فلا جرم افتقروا إلى تأويل الآية، وعندي أنه ليس الأمر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر، وتقريره أن قوله ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على إحداهما حرف الشرط، وعلى الأخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعهما قضية واحدة، ومثاله هذه الآية فإن قوله ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية مركبة من قضيتين: (إحداهما): قوله ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، (والثانية): قوله ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ثم أدخل حرف الشرط، وهو لفظة إن على القضية الأولى، وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية

الثانية، فحصل من مجموعهما قضية الأولى واحدة، وهو القضية الشرطية، إذا عرفت هذا فنقول القضية الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء، وليس فيها إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلاً، أو بكون الجزاء حقاً أو باطلاً، بل نقول القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيتين أو من قضيتين باطلتين، أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل، فأما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال.

ولنبين أمثال هذه الأقسام الأربعة، فإذا قلنا إن كان الإنسان حيواناً فالإنسان جسم فهذه شرطية حقة وهي مركبة من قضيتين حقيتين، إحداهما قولنا الإنسان حيوان، والثانية قولنا الإنسان جسم، وإذا قلنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج، ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان، وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام إحداهما للآخر حقاً، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تفيد إلا مجرد الاستلزام، وإذا قلنا إن كان الإنسان حجراً فهو جسم، فهذا جسم، فهذا أيضاً حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الإنسان حجر، ومن جزء حق وهو قولنا الإنسان جسم، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق، فإنا فرضنا كون الإنسان حجراً وجب كونه جسماً فهذا شرط باطل يستلزم جزءاً حقاً.

وأما القسم الرابع: وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل، فهذا محال، لأن هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزماً للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزماً للحق وذلك ليس بمحال، إذا عرفت هذا الأصل فلنرجع إلى الآية فنقول قوله ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل لأن قولنا كان للرحمن ولد باطل، وقولنا ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لذلك الولد باطل أيضاً إلا أنا بينا أن كون كل واحد منهما باطلاً لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً كما ضربنا من المثال في قولنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين، فثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره، ويكون المراد منه أنه إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد، فإن السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده، وقد بينا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بإثبات ولد أم لا . . .

وأما في الآية التي نحن في تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة إن وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، بل هذه الكلمة تفيد الشك في أنه هل حصل الشرط أم لا، وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن، قلنا الفرق الذي ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءيها صادقتين أو كاذبتين على ما قررناه أما قوله إن لفظة إن تفيد حصول الشرط هل حصل أم لا، قلنا هذا ممنوع فإن حرف إن حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع، فاللفظ لا دلالة فيه عليه البتة، فظهر من المباحث التي لخصناها أن الكلام ههنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه وأنه لا حاجة فيه البتة إلى التأويل، والمعنى أنه تعالى قال ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لذلك الولد وأنا أول الخادمين له، والمقصود من هذا الكلام بيان أني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، فإن بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقراً به معترفاً بوجوب خدمته، إلا أنه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة، فكيف أقول به؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه، فكيف أقول به وكيف أعترف بوجوده؟ وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به البتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر، فهذا ما عندي في هذا الموضع. ونقل عن السدي من المفسرين أنه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن، ولا حاجة إلى التأويل، والتقرير الذي ذكرناه يدل على أن الذي قاله هو الحق، أما القائلون بأنه لا بدّ من التأويل فقد ذكروا وجوهاً: (الأول): قال الواحدي كثرت الوجوه في

تفسير هذه الآية، والأقوى أن يقال المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أي الموحدين لله المكذبين لقولكم بإضافة الولد إليه، ولقائل أن يقول إما أن يكون تقدير الكلام: إن يثبت للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول المنكرين له، أو يكون التقدير إن يثبت لكم ادعاء أن للرحمن ولداً فأنا أول المنكرين له، والأول باطل لأن ثبوت الشيء في نفسه لا يقتضي كون الرسول منكراً له، لأن قوله إن كان الشيء ثابتاً في نفسه فأنا أول المنكرين يقتضي إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول، والثاني أيضاً باطل لأنهم سواء أثبتوا لله ولداً أو لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكراً لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثراً في كون الرسول منكراً للولد.

الوجه الثاني: قالوا معناه ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد إذا اشتدت أنفته فهو عبد وعابد، وقرأ بعضهم عبدين.

واعلم أن السؤال المذكور قائم ههنا لأنه إن كان المراد إن كان للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول الآنفين من الإقرار به، فهذا يقتضي الإصرار على الجهل والكذب، وإن كان المراد إن كان للرحمن ولد في زعمكم واعتقادكم فأنا أول الآنفين، فهذا التعليق فاسد لأن هذه الأنفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزاً.

والوجه الثالث: قال بعضهم إن كلمة «إن» ههنا هي النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له.

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة، وقد بينا أنه لا ضرورة البتة فلم يجز المصير إليها والله أعلم.

ابن كثير ج ٤ ص ١٣٥ ـ ١٣٦

يقول تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك لأني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً كما قال عزّ وجلّ ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أي الآنفين ومنهم سفيان الثوري والبخاري حكاه فقال: ويقال أول العابدين الجاحدين من عبد يعبد، وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه... عن بعجة بن بدر الجهني أن امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضاً فولدت له في ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] وقال عزّ وجلّ ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] قال فوالله ما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها ترد، قال يونس: قال ابن وهب: عبد: استنكف. وقال الشاعر:

متى ما يشأ ذو الود يصرم خليله
ويعبد عليه لا محالة ظالما

وهذا القول فيه نظر لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل اللهم إلا أن يقال إن «إن» ليست شرطاً وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة... عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأنا أول الشاهدين، وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر ﴿كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أي فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وكذا قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وقال مجاهد ﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ أي أول من عبده ووحده وكذبكم، وقال البخاري ﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾

الآنفين، وهما لغتان رجل عابد، وعبد، والأول أقرب على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع، وقال السدّي ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ يقول لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً ولكن لا ولد له، وهو اختيار ابن جرير ورد قول من زعم أن «إن» نافية. . .

٣٦

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾

(سورة الحديد، رقم ٥٧، الآية ٢٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٧	ص ١٣٧ ـ ١٤٠	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩
الزمخشري	ج ٤	ص ٦٧ ـ ٦٨	ابن كثير	ج ٤	ص ٣١٥ ـ ٣١٧
الرازي	ج ٢٩	ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦	الجلالان		ص ٧٢٣
الطبرسي	ج ٢٧	ص ١٥٨ ـ ١٦٣	الشوكاني	ج ٥	ص ١٧٧ ـ ١٨٠
ابن عربي	ج ٢	ص ٦٠٧ ـ ٦٠٨	الآلوسي	ج ٢٧	ص ١٦٤ ـ ١٦٧
البيضاوي	ج ٥	ص ١٢٠	القاسمي	ج ١٦	ص ٥٦٩٧ ـ ٥٧٠٠
الخازن	ج٧	ص ٣٨ ـ ٤٠	الطباطبائي	ج ١٩	ص ١٧٠ ـ ١٧٦
البغوي	ج ٤	ص ٢٧٣ ـ ٢٧٥	جوهري	ج ٢٤	ص ٩٠ ـ ١٢٨
الماوردي	ج ٥	ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥	المراغي	ج٢٧	ص ١٨٣ ـ ١٨٦
القرطبي	ج ١٧	ص ٢٦٢ ـ ٢٦٦	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٤٨٧ ـ ٣٤٩٧

الطبري ج ٢٧ ص ١٣٧ ـ ١٤٠

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ثم أتبعنا على آثارهم برسلنا الذين أرسلناهم بالبينات على آثار نوح وإبراهيم برسلنا، وأتبعنا بعيسى ابن مريم ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يعني: الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته ﴿رَأْفَةً﴾ وهو أشدّ الرحمة ﴿وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يقول: أحدثوها ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ما افترضنا تلك الرهبانية عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يقول: لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. واختلف أهل التأويل في الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها، لم يقوموا، بها ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذي بعث به عيسى، فتنصروا وتهوّدوا. وقال آخرون: بل هم قوم جاؤا من بعد الذين ابتدعوها، فلم يرعوها حق رعايتها لأنهم كانوا كفاراً، لكنهم قالوا نفعل كالذي كانوا يفعلون من ذلك أوّليا، فهم الذين وصف الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها. وبنحو الذي قلنا في تأويل هذه الأحرف إلى الموضع الذي ذكرنا أن أهل التأويل فيه مختلفون في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني بشر... عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ فهاتان من الله، والرهبانية ابتدعها القوم من أنفسهم، ولم تكتب عليهم ولكن ابتغوا بذلك وأرادوا رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، ذكر لنا أنهم رفضوا النساء، واتخذوا الصوامع. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ قال لم تكتب عليهم، ابتدعوها ابتغاء رضوان الله حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فلم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تطوّعاً، فما رعوها حق رعايتها. ذكر من قال: الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها كانوا غير الذين ابتدعوها، ولكنهم كانوا المريدي الاقتداء بهم. حدثنا الحسين بن الحريث [أبو عمار المروزي]... عن ابن عباس، قال: كانت ملوك بعد عيسى بدّلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم

مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، فقيل لملكهم: ما نجد شيئاً أشدّ علينا من شتم يشتمناه هؤلاء أنهم يقرؤون ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] هؤلاء الآيات مع ما يعيبوننا به في قراءتهم، فادعهم فليقرؤا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمنا به، قال: فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك فدعونا؛ قال: فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نرد عليكم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض، ونهيم ونشرب كما تشرب الوحوش، فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونحترث البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمرّ بكم. وليس أحد من أولئك إلا وله حميم فيهم. قال: ففعلوا ذلك فأنزل الله جل ثناؤه ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ الآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم؛ قال: فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق إلا قليل، انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وجاء صاحب الدار من داره، وآمنوا به وصدّقوه، فقال الله جل ثناؤه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ قال: أجرين لإيمانهم بعيسى، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل وإيمانهم، بمحمد ﷺ، وتصديقهم به. قال ﴿ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ ﴾ القرآن، وأتباعهم النبي ﷺ؛ وقال: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ . . . حدثنا يحيى ابن أبي طالب عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين فرقة، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم. فرقة من الثلاث وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ابن مريم، صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، فأقاموا بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، ونشرتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولا بالمقام بين ظهراني قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى، صلوات الله عليه، فلحقوا بالبراري والجبال، فترهبوا فيها فهو قول الله عز وجل ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ قال ما رعاها الذين من بعدهم حق رعايتها ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ قال: وهم الذين آمنوا بي، وصدّقوني. قال ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ قال: فهم الذين جحدوني وكذبوني». حدثنا ابن حميد. . . عن ابن عباس ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا ﴾ قال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك، وفني من فني منهم، يقولون نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، وهم في شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم. ذكر من قال ذلك: الذين لم يرعوها حق رعايتها: الذين ابتدعوها. حدثني محمد بن سعد. . . عن ابن عباس، قوله ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ . . . إلى قوله ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ يقول: ما أطاعوني فيها، وتكلموا فيها بمعصية الله، وذلك أن الله عز وجل كتب عليهم القتال قبل أن يبعث محمد ﷺ، فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبق منهم إلا قليل، وكثر أهل الشرك وذهب الرسل وقهروا، اعتزلوا في الغيران، فلم يزل بهم ذلك حتى كفرت طائفة منهم، وتركوا أمر الله عز وجل ودينه، وأخذوا بالبدعة وبالنصرانية باليهودية، فلم يرعوها حق رعايتها، وثبتت طائفة على دين عيسى ابن مريم، صلوات الله عليه، حين جاءهم بالبينات، وبعث الله عز وجل محمداً رسولاً ﷺ، وهم كذلك فذلك قوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ . . . إلى ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . حدثت عن الحسن. . . عن الضحاك يقول في قوله ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ كان الله عز وجل كتب عليهم القتال قبل أن يبعث محمداً ﷺ، فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبق منهم إلا القليل، وكثر أهل الشرك،

وانقطعت الرسل، اعتزلوا الناس، فصاروا في الغيران، فلم يزالوا كذلك حتى غيرت طائفة منهم، فتركوا دين الله وأمره وعهده الذي عهده إليهم، وأخذوا بالبدع فابتدعوا النصرانية واليهودية، فقال الله عز وجل لهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ وثبتت طائفة منهم على دين عيسى صلوات الله، عليه حتى بعث الله محمداً ﷺ، فآمنوا به. حدثني يعقوب بن إبراهيم... عن أبي أمامة الباهلي يقول: إن الله كتب عليكم صيام رمضان، ولم يكتب عليكم قيامه، وإنما القيام شيء ابتدعتموه، وأن قوماً ابتدعوا بدعة لم يكتبها الله عليهم، ابتغوا بها رضوان الله، فلم يرعوها حق رعايتها فعابهم الله بتركها، فقال ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: أن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، بعض الطوائف التي ابتدعتها، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر أنه آتي الذين آمنوا منهم أجرهم؛ قال: فدلّ بذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها، فلو لم يكن منهم من كان كذلك لم يكن مستحق الأجر الذي قال جل ثناؤه ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ إلا أن الذين لم يرعوها حق رعايتها ممكن أن يكونوا كانوا على عهد الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا كانوا بعدهم، لأن الذين هم من أبنائهم إذا لم يكونوا رعوها، فجائز في كلام العرب أن يقال: لم يرعها القوم على العموم، والمراد منهم البعض الحاضر، وقد مضى نظير ذلك في مواضع كثيرة من هذا الكتاب. وقوله ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فأعطيا الذين آمنوا بالله ورسله من هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية ثوابهم على ابتغائهم رضوان الله، وإيمانهم به وبرسوله في الآخرة، وكثير منهم أهل معاص، وخروج عن طاعته، والإيمان به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني يونس... عن ابن زيد ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ قال: الذين رعوا ذلك الحق.

الزمخشري ج ٤ ص ٦٧ ـ ٦٨

وقرىء رآفة على فعالة: أي وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم، ونحوه في صفة أصحاب الرسول الله ﷺ ـ رحماء بينهم ـ والرهبانية: ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة، وذلك أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى فقاتلوهم ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية، ومعناها: الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشي. وقرىء ورهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان وانتصابهما بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني وأحدثوها من عند أنفسهم ونذروها ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع: أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحلّ نكثه ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يريد أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ الذين لم يحافظوا على نذرهم. ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وابتدعوها صفة لها في محل النصب: أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم، بمعنى وفقناهم للتراحم بينهم، ولابتداع الرهبانية واستحداثها ما كتبناها عليهم إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه، فما رعوها جميعاً حق رعايتها ولكن بعضهم، فآتينا المؤمنين المراعين منهم الرهبانية أجرهم ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهم الذين لم يرعوها.

الرازي ج ٢٩ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: معنى قفاه أتبعه بعد أن مضى، والمراد أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى عليه السلام فأرسله الله تعالى بعدهم وآتاه الإنجيل.

المسألة الثانية: قال ابن جني قرأ الحسن ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ بفتح الهمزة، ثم قال هذا مثال لا نظير له، لأنه افعيل وهو عندهم من نجلت الشيء إذا استخرجته، لأنه يستخرج به الأحكام، والتوراة فوعلة من وَرَى الزند يرى إذا أخرج النار، ومثله الفرقان وهو فعلان من فرقت بين الشيئين، فعلى هذا لا يجوز فتح الهمزة لأنه لا نظير له، وغالب الظن أنه ما قرأه إلا عن سماع وله وجهان. أحدهما: إنه شاذ كما حكى بعضهم في البرطيل. وثانيهما: إنه ظن الإنجيل أعجمياً فحرف مثاله تنبيهاً على كونه أعجمياً.

قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق لله تعالى وكسب للعبد، قالوا لأنه تعالى حكم بأن هذه الأشياء مجعولة لله تعالى، وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية، قال القاضي المراد بذلك أنه تعالى لطف بهم حتى قويت دواعيهم إلى الرهبانية، التي هي تحمل الكلفة الزائدة على ما يجب من الخلوة واللباس الخشن (والجواب) أن هذا ترك للظاهر من غير دليل، على أنا وإن سلمنا ذلك فهو يحصل مقصودنا أيضاً، وذلك لأن حال الاستواء يمتنع حصول الرجحان وإلا فقد حصل الرجحان عند الاستواء والجمع بينهما متناقض، وإذا كان الحصول عند الاستواء ممتنعاً، كان عند المرجوحية أولى أن يصير ممتنعاً، وإذا امتنع المرجوح وجب الراجح ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض.

المسألة الثانية: قال مقاتل: المراد من الرأفة والرحمة هو أنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعض، كما وصف الله أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله ﴿رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩].

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرىء رآفة على فعالة.

المسألة الرابعة: الرهبانية معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان. وهو الخائف فعلان من رهب، كخشيان من خشي، وقرىء: ورهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان، وهو جمع راهب كراكب وركبان، والمراد من الرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة ومتحملين كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن، والاعتزال عن النساء والتعبد في الغيران والكهوف، عن ابن عباس أن في أيام الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام غير الملوك التوراة والإنجيل، فساح قوم في الأرض ولبسوا الصوف، وروى ابن مسعود أنه عليه السلام، قال «يا ابن مسعود! أما علمت أن بني إسرائيل تفرقوا سبعين فرقة. كلها في النار إلا ثلاث فرق، فرقة آمنت بعيسى عليه السلام، وقاتلوا أعداء الله في نصرته حتى قتلوا، وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرين، فلبسوا العباء، وخرجوا إلى القفار والفيافي وهو قوله ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ﴾ إلى آخر الآية».

المسألة الخامسة: لم يعن الله تعالى بابتدعوها طريقة الذم، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولذلك قال تعالى ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾.

المسألة السادسة: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ﴾ منصوبة بفعل مضمر، يفسره الظاهر، تقديره: ابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وقال أبو علي الفارسي: الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا، لأن ما يبتدعونه هم لا يجوز أن يكون مجعولاً لله تعالى، وأقول هذا الكلام إنما يتم لو ثبت امتناع مقدور بين قادرين، ومن أين يليق بأبي علي أن يخوض في أمثال هذه الأشياء.

ثم قال تعالى ﴿ مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أي لم نفرضها نحن عليهم.

أما قوله ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ ففيه قولان: أحدهما: إنه استثناء منقطع. أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله. الثاني: إنه استثناء متصل، والمعنى أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى، والمراد أنها ليست واجبة، فإن المقصود من فعل الواجب، دفع العقاب وتحصيل رضا الله، أما المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب، بل المقصود منه ليس إلا تحصيل مرضاة الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ ففيه أقوال: أحدها: إن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية مارعوها حق رعايتها، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد، وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام فآمنوا به فهو قوله ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾. وثانيها: إنا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله تعالى، ثم أنهم أتوا بتلك الأفعال، لكن لا لهذا الوجه. بل لوجه آخر، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة. وثالثها: إنا لما كتبناها عليهم تركوها، فيكون ذلك ذماً لهم من حيث أنهم تركوا الواجب. ورابعها: إن الذين لم يرعوها حق رعايتها هم الذين أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا به...

البيضاوي ج ٥ ص ١٢٠

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ أي أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلا إليهم أو من عاصرهما من الرسل لا للذرية فإن الرسل الملقي بهم من الذرية ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ ﴾ وقرىء بفتح الهمزة وأمره أهون من أمر البرطيل لأنه أعجمي ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ﴾ وقرىء رآفة على فعالة ﴿ وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها أو رهبانية مبتدعة على أنها من المجعولات وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس منسوبة إلى الرهبان وهو المبالغ في الخوف من رهب كالخشيان من خشي وقرئت بالضم كأنها منسوبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان ﴿ مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾ ما فرضناهم عليهم ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله وقيل متصل فإن ما كتبناها عليهم بمعنى ما تعبدناهم بها وهو كما ينفي الإيجاب المقصود منه دفع العقاب ينفي الندب المقصود منه مجرد حصول مرضاة الله وهو يخالف قوله ابتدعوها إلا أن يقال ابتدعوها ثم ندبوا إليها أو ابتدعوها بمعنى استجدثوها وأتوا بها أوّلاً أنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ أي فما رعوها جميعاً ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ ﴾ بضم التثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة ولكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها ﴿ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ بالإيمان الصحيح ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ وحافظوا حقوقها ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من المتسمين بأتباعه ﴿ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ خارجون عن حال الاتباع.

الخازن ج ٧ ص ٣٨ ـ ٤٠

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنا ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا ﴾ والمعنى بعثنا رسولاً بعد رسول إلي أن انتهت الرسالة إلى عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ ﴾ أي على دينه ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ يعني أنهم كانوا متوادين بعضهم لبعض ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ ليس هذا عطفاً على ما قبله والمعنى أنهم جاءوا بها من قبل أنفسهم وهي ترهبهم في الجبال والكهوف والغيران والديرة فروا من الفتنة وحملوا أنفسهم المشاق في العبادة الزائدة وترك النكاح واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس

مع التقلل من ذلك ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾. أي ما فرضناها نحن عليهم. . . فذلك قوله تعالى ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى ﷺ وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال دخلت على رسول الله ﷺ فقال يا ابن مسعود «اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهن: فرقة وازت الملوك وقاتلوهم على دين عيسى فأخذوهم وقتلوهم، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا أن يقيموا بين ظهرانيهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل فيهم ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» قال ﷺ «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» وعنه قال كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال لي «يا ابن أم عبد هل تدري من أين أخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ قلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن ظهرنا لهؤلاء فتنونا ولم يبق أحد يدعو إليه تعالى فتعالوا لنتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا عيسى به ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية ـ ورهبانية ابتدعوها ـ إلى ـ فآتينا الذين آمنوا منهم ـ أي من الذين ثبتوا عليها أجرهم ثم قال النبي ﷺ «يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت الله ورسوله أعلم قال الهجرة والصلاة والجهاد والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع» وروى عن أنس عن النبي ﷺ قال «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وعن ابن عباس قال «كانت ملوك بعد عيسى عليه الصلاة والسلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم جماعة مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقيل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلتوهم أو دخلوا فيما نحن فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها فقالوا ما تريدون إلى ذلك دعونا نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة منهم ابنوا لنا أسطواناً ثم ارفعونا فيه ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وطائفة قالت دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا وقالت طائفة منهم ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول ولا نرد عليكم ولا نمر عليكم وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم قال ففعلوا ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى وخلف قوم من بعدهم ممن غيروا الكتاب فجعل الرجل يقول نكون في مكان فلان نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدروا بهم فذلك قول الله عز وجل ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ يعني ابتدعها الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعني الآخرين الذين جاءوا من بعدهم ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ابتدعوها ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم الذين جاءوا من بعدهم فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب دير من ديره فآمنوا به وصدقوه فقال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] أجرين بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل وبإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم له وقال ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨]. القرآن وأتباعهم النبي ﷺ وقال ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩] الذين يتشبهون بكم ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]. الآية أخرجه النسائي موقوفاً على ابن عباس وقال قوم انقطع الكلام عند قوله ورحمة ثم قال ورهبانية ابتدعوها وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ يعني الملة والطاعة حق رعايتها كناية عن غير مذكور ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ وهم أهل الرأفة والرحمة ﴿وَكَثِيرٌ

﴿مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ وهم الذين غيروا وبدلوا وابتدعوا الرهبانية ويكون معنى قوله ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ على هذا التأويل ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ ولكن ابتغاء رضوان الله وابتغاء رضوان الله أتباع ما أمر به دون الترهب لأنه لم يأمر به.

القرطبي ج ١٧ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٦

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي على آثار الذرية. وقيل: على آثار نوح وإبراهيم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه. وتقدّم اشتقاقه في أوّل سورة (آل عمران).

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ على دينه يعني الحواريين وأتباعهم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي مودّةً فكان يواد بعضهم بعضاً. وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرّفوا الكلِم عن مواضعه. والرأفة اللين، والرحمة الشفقة. وقيل: الرأفة تخفيف الكَلّ، والرحمة تحمُّل الثقل. وقيل: الرأفة أشد الرحمة. وتم الكلام. ثم قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي من قبل أنفسهم. والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل؛ قال أبو علي: وابتدعوها رهبانيةً ابتدعوها. وقال الزجاج: أي ابتدعوها رهبانية؛ كما تقول رأيت زيداً وعمراً كلّمت. وقيل: إنه معطوف على الرأفة والرحمة؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيّروا وابتدعوا فيها. قال الماوردي: وفيها قراءتان؛ إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرَّهب. الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرُّهبان كالرُّضوانية من الرُّضوان؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع، وذلك أن ملوكهم غيّروا وبَدلوا وبقي نفر قليل فترهّبوا وتبتّلوا. قال الضحاك: إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ارتكبوا المحارم ثلثمائة سنة، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوهم، فقال قوم بقوا بعدهم: نحن إذا نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع...

في قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى، فقال أناس لملكهم: لو قتلت هذه الطائفة. فقال المؤمنون: نحن نكفيكم أنفسنا. فطائفة قالت: ابنوا لنا اسطوانة ارفعونا فيها، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم. وقالت طائفة: دعونا نهيم في الأرض ونسيح، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية، فإذا قدرتم علينا فاقتلونا. وطائفة قالت إبنوا لنا في الفيافي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا تروننا. وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا، فمضى أولئك على منهاج عيسى، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غيّر الكتاب فقالوا: نسيح ونتعبّد كما تعبد أولئك، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان مَن تقدّم من الذين اقتدوا بهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ الآية. يقول: «ابتدعها هؤلاء الصالحون» ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ المتأخرون ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يعني الذين ابتدعوها أوّلاً ورَعوها ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ يعني المتأخرين، فلما بعث الله محمداً ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل، جاءوا من الكهوف والصَّوامع والغِيران فآمنوا بمحمد ﷺ.

الثالثة: وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة، فينبغي لمن ابتدع خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية. وعن أبي أمامة الباهلي ـ واسمه صُدَى بن عجلان ـ قال: أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم: إنما كتب عليكم الصيام، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه، فإن ناساً من بني إسرائيل ابتدعوا بِدعاً لم يكتبها الله عليهم ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوها

حق رعايتها، فعابهم الله بتركها فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

الرابعة: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيّر الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف» مستوفًى والحمدلله. وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سَرِيّة من سراياه فقال: مَرَّ رجلٌ بغار فيه شيء من ماء، فحدث نفسه بأن يقيم في ذلك الغار، فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل ويتخلّى عن الدنيا. قال: لو أني أتيت النبيّ ﷺ فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبيّ الله! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا. قال: فقال النبي ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لغَدْوة أو رَوْحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم في الصف الأول خير من صلاته ستين سنة». وروى الكوفيون عن أبن مسعود، قال قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدري أيّ الناس أعلم» قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصراً في العمل وإن كان يزحف على آسته هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبيّ الأميّ الذي وعدنا عيسى ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ـ وتلا ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الآية ـ أتدري ما رهبانية أمتي الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على التلاع يابن مسعود أختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فنجا منهم فرقة وهلك سائرها، واختلف من كان من قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة، فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرها فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ـ عليه السلام ـ حتى قتلوا، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهراني قومهم فدعوهم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم، فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهراني قومهم، فيدعوهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ ـ الآية ـ فمن آمن بي وأتبعني وصدّقني فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون، يعني الذي تهوّدوا وتنصروا. وقيل: هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ، فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون. وفي الآية تسلية للنبيّ ﷺ؛ أي إن الأولين أصروا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر. والله أعلم.

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩

لما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة أفرد منهم في هذه الآية نوحاً وإبراهيم عليهما السلام تشريفاً لهما بالذكر، أما نوح فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض، وأما إبراهيم فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء عليهم السلام، وهو معظم في كل الشرائع، ثم ذكر أشرف ما حصل لذريتهما وذلك النبوة وهي التي بها هدى الناس من الضلال والكتاب وهي الكتب الأربعة: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وهي جميعها في ذرية إبراهيم عليه السلام وإبراهيم من ذرية نوح، فصدق أنها في ذريتهما وفي مصحف عبد الله والنبية مكتوبة بالياء عوض الواو. وقال ابن عباس: والكتاب الخط بالقلم، والظاهر أن الضمير في منهم عائد على الذرية. وقيل: يعود على المرسل إليهم لدلالة ذكر الإرسال والمرسلين عليهم، ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العلل بذلك انقسموا إلى مهتد وفاسق،

وأخبر بالفسق عن الكثير منهم. ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: اتبعنا وجعلناهم يقفون من تقدم ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: آثار الذرية ﴿بِرُسُلِنَا﴾ وهم الرسل الذين جاؤوا بعد الذرية ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى﴾ ذكره تشريفاً له ولانتشار أمته، ونسبه لأمه على العادة في الأخبار عنه، وتقدمت قراءة الحسن ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ بفتح الهمزة في أول سورة آل عمران. قال أبو الفتح: وهو مثال لا نظير له، انتهى. وهي لفظة أعجمية فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلم العرب. وقال الزمخشري: أمره أهون من أمر البرطيل يعني أنه بفتح الباء، وكأنه عربي، وأما الإنجيل فأعجمي. وقرىء رآفة على وزن فعالة، وجعلنا يحتمل أن يكون المعنى وخلقنا. كقوله ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ويحتمل أن يكون بمعنى صيرنا فيكون في قلوب في موضع المفعول الثاني لجعلنا. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ معطوف على ما قبله فهي داخلة في الجمل. ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ جملة في موضع الصفة لرهبانية، وخصت الرهبانية بالابتداع، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها بخلاف الرهبانية، فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتكسب. قال قتادة الرأفة والرحمة من الله، والرهبانية هم ابتدعوها، والرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن واتخاذ الصوامع، وجعل أبو علي الفارسي: ورهبانية مقتطعة من العطف على ما قبلها من رأفة ورحمة، فانتصب عنده ورهبانية على إضمار فعل يفسره ما بعده، فهو من باب الاشتغال، أي: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، واتبعه الزمخشري، قال: وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونذورها، انتهى. وهذا إعراب المعتزلة، وكان أبو عليّ معتزلياً وهم يقولون ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد، فالرأفة والرحمة من خلق الله، والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة له، وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعة العربية، لأن مثل هذا هو مما يجوز فيه الرفع بالابتداء، ولا يجوز الابتداء هنا بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ لأنها نكرة لا مسوغ لها من المسوغات للابتداء بالنكرة. وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم افترقوا ثلاث فرق. ففرقة قاتلت الملوك على الدين فغلبت وقتلت وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبينونه، ولم تقاتل فأخذها الملوك ينشرونهم بالمناشير فقتلوا. وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنَت الصوامع والديارات، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت، والرهبانية الفعلة المنسوبة إلى الرهبان، وهو الخائف بني فعلان من رهب كالخشيان من خشي وقرىء ﴿وَرُهْبَانِيَّةً﴾ بالضم. قال الزمشخري: كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان، انتهى. والأولى أن يكون منسوباً إلى رهبان، وغير بضم الراء لأن النسب باب تغيير، ولو كان منسوباً إلى رهبان الجمع لرد إلى مفرده، فكان يقال راهبية إلا أن كان قد صار كالعلم فإنه ينسب إليه على لفظه كالأنصار، والظاهر أن ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء متصل من ما هو مفعول من أجله، وصار المعنى أنه تعالى كتبها عليهم ابتغاء مرضاته، وهذا قول مجاهد، ويكون كتب بمعنى قضى. وقال قتادة وجماعة: المعنى لم يفرضها عليهم، ولكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى، فالاستثناء على هذا منقطع، أي: لكن ابتدعوها لابتغاء رضوان الله تعالى والظاهر أن الضمير في (رعوها) عائد على ما عاد عليه في ابتدعوها، وهو ضمير الذين اتبعوه، أي: لم يرعوها كما يجب على الناذر رعاية نذره، لأنه عهد مع الله لا يحل نكثه: وقال نحوه ابن زيد، قال: لم يدوموا على ذلك، ولا وفوه حقه، بل غيروا وبدلوا، وعلى تقدير أن فيهم من رعى يكون المعنى: فما رعوها بأجمعهم. وقال ابن عباس وغيره: الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم. وقال الضحاك وغيره: الضمير للأخلاف الذين جاؤوا بعد المبتدعين لها. ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهم أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وهم الذين لم يرعوها.

٣٧ ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٞ مُّبِينٞ ﴾

(سورة الصف، رقم ٦١، الآية ٦)

مصادر تفاسير الآية

التفسير	الجزء	الصفحة	التفسير	الجزء	الصفحة
الطبري	ج ٢٨	ص ٥٧	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٦٠ ـ ٢٦٤
الزمخشري	ج ٤	ص ٩٨ ـ ٩٩	ابن كثير	ج ٤	ص ٣٥٩ ـ ٣٦١
الرازي	ج ٢٩	ص ٣١٢ ـ ٣١٣	الجلالان		ص ٧٣٨ ـ ٧٣٩
الطبرسي	ج ٢٨	ص ٦٠ ـ ٦٢	الشوكاني	ج ٥	ص ٢١٩ ـ ٢٢١
ابن عربي	ج ٢	ص ٦٣٦ ـ ٦٣٨	الآلوسي	ج ٢٨	ص ٨٤ ـ ٨٩
البيضاوي	ج ٥	ص ١٣١	القاسمي	ج ١٦	ص ٥٧٨٦ ـ ٥٧٨٧
الخازن	ج ٧	ص ٨٤ ـ ٨٥	الطباطبائي	ج ١٩	ص ٢٤٧ ـ ٢٥٧
البغوي	ج ٤	ص ٣٠٨	جوهري	ج ٢٤	ص ١٦٩ ـ ١٧٣
الماوردي	ج ٥	ص ٥٢٩	المراغي	ج ٢٨	ص ٨٤ ـ ٨٥
القرطبي	ج ١٨	ص ٨٣ ـ ٨٤	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٥٤٩ ـ ٣٥٦١

الطبري ج ٢٨ ص ٥٧

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٞ مُّبِينٞ ﴾ يقول تعالى ذكره: واذكر أيضاً يا محمد ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ لقومه من بني إسرائيل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ التي أنزلت على موسى ﴿ وَمُبَشِّرًۢا ﴾ أبشركم ﴿ بِرَسُولٖ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ حدثني يونس... عن عرباض بن سارية، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني عند الله مكتوب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، والرؤيا التي رأت أمي، وكذلك أمهات النبيين، يرين أنها رأت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام. فلما جاءهم بالبينات يقول فلما جاءهم أحمد بالبينات، وهي الدلالات التي آتاه الله حججاً على نبوته قالوا هذا سحر مبين، يقول: بين ما أتى به غير أنه ساحر.

الزمخشري ج ٤ ص ٩٨ ـ ٩٩

قيل إنما قال يا بني إسرائيل، ولم يقل يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه، والمعنى: أرسلت إليكم في حال تصديقي، ما تقدمني (من التوراة)، وفي حال تبشيري (برسول يأتي من بعدي) يعني أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر. وقرىء من بعدي بسكون الياء وفتحها، والخليل وسيبويه يختاران الفتح. وعن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل. فإن قلت: بم انتصب مصدقاً ومبشراً أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم؟ قلت: بل بمعنى الإرسال لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئاً، لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها، ولكن بما فيها من معنى الفعل، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل؟ وقرىء هذا ساحر مبين. وأيّ الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه إفتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق هذا سحر لأن السحر كذب وتمويه.

الرازي ج ٢٩ ص ٣١٢ ـ ٣١٣

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ . . .

قوله ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي اذكروا إني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ومصدقاً بالتوراة وبكتب الله وبأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ يصدق بالتوراة على مثل تصديقي، فكأنه قيل له: ما اسمه؟ فقال اسمه أحمد، فقوله ﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ جملتان في موضع الجر لأنهما صفتان للنكرة التي هي رسول، وفي ﴿بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ﴾ قراءتان تحريك الياء بالفتح على الأصل، وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء ساكنين وإسكانها، كما في قوله تعالى ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ [نوح: ٢٨] فمن أسكن في قوله ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ﴾ حذف الياء والسين من اسمه، قال المبرد وأبو علي، وقوله تعالى ﴿أَحْمَدُ﴾ يحتمل معنيين. أحدهما: المبالغة في الفاعل، يعني أنه أكثر حمداً من غيره. وثانيهما: المبالغة من المفعول، يعني أنه يحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر ما يحمد غيره.

ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل في عدة مواضع. أولها: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: «وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم الفار قليط حتى يكون معكم إلى الأبد، والفارقليط وهو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ «وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي، ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم»، ثم ذكر بعد ذلك بقليل «وإني خبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون»، وثانيها: ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا «ولكن أقول لكم حقاً يقيناً انطلاقي عنكم خير لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويمنحهم ويوقفهم على الخطيئة والبر والدين». وثالثها: ذكر بعد ذلك بقليل هكذا «فإن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تقدرون على قبوله والاحتفاظ له، ولكن إذا جاء روح الحق إليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه» هذا ما في الإنجيل، فإن قيل المراد بفارقليط إذا جاء يرشدهم إلى الحق ويعلمهم الشريعة، هو عيسى يجيء بعد الصلب؟ نقول ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصليب ما ذكر شيئاً من الشريعة، وما علمهم شيئاً من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلاً، مثل أنه قال «أنا المسيح فلا تظنوني ميتاً، بل أنا ناج عند الله ناظر إليكم، وإني ما أوحي بعد ذلك إليكم» فهذا تمام الكلام، وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ قيل هو عيسى، وقيل هو محمد، ويدل على أن الذي جاءهم بالبينات جاءهم بالمعجزات والبينات التي تبين أن الذي جاء به من عند الله، وقوله تعالى ﴿هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ساحر مبين.

الطبرسي ج ٢٨ ص ٦٠ ـ ٦٢

. . . قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم عطف سبحانه بقصة عيسى، عليه السلام، على قصة موسى فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر إذ قال عيسى ابن مريم لقومه الذين بعث إليهم ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ المنزلة على موسى ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني نبينا محمداً ﷺ كما قال الشاعر:

صلى الإله ومن يحف بعرشه
والطيبون على المبارك أحمد

. . . وصحت الرواية عن الزهري عن محمد بن جبير بن المطعم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لي أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي» أورده البخاري في الصحيح. وقد تضمنت الآية أن عيسى بشر قومه بمحمد ﷺ وبنبوته، وأخبرهم برسالته، وفي هذه البشرى معجزة لعيسى، عليه السلام، عند ظهور محمد ﷺ وأمر لأمته أن يؤمنوا به عند مجيئه ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أحمد ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالدلالات الظاهرة والمعجزات الباهرة ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر.

الخازن ج ٧ ص ٨٤ ـ ٨٥

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي مقر معترف بأحكام التوراة، وكتب الله وانبيائه جميعا ممن تقدم ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ أي يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل ما اسمه فقال: (اسمه أحمد) عن أبي موسى قال: «أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يأتوا النجاشي» وذكر الحديث وفيه قال سمعت النجاشي يقول أشهد أن محمداً رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه» أخرجه أبو داود عن عبدالله بن سلام قال: مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه، فقال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي عن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى ﷺ: يا روح الله هل بعدنا من أمة قال نعم. يأتي أمة حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم في الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل (ق) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وقد سماه الله تعالى رؤوفاً رحيماً»، وأحمد يحتمل معنيين أحدهما أنه مبالغة من الفاعل، ومعناه أن الأنبياء كلهم حمادون لله عزّ وجلّ، وهو أكثر حمداً لله من غيره والثاني أنه مبالغة من المفعول، ومعناه أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يحمد بها من غيره ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل هو عيسى ﷺ وقيل هو محمد ﷺ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر.

القرطبي ج ١٨ ص ٨٣ ـ ٨٤

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر لهم هذه القصة أيضاً. وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، ولم يقل «يا قوم» كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي بالإنجيل. ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. لأن في التوراة صفتي، وأني لم أتيكم بشيء يخالف التوراة فتنفروا عني ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ مصدقاً «ومبشراً» نصب على الحال؛ والعامل فيها معنى الإرسال. و«إليكم» صلة الرسول. ﴿يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ بفتح الياء، وهي قراءة السّلمِي وزر بن حبيش، وأبي بكر عن عاصم. واختاره أبو حاتم لأنه اسم؛ مثل الكاف من بعدك. والتاء من قمت. الباقون بالإسكان. وقرىء «من بعدي اسمه أحمد» بحذف الياء من اللفظ. و«أحمد» اسم نبينا ﷺ. وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل؛ فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. . . والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمداً. وأما محمد فمنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى محمود؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمَّد هو الذي حُمِد بعد مرة. كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة. وكذلك الممدح ونحو ذلك، فاسم محمد مطابق

لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يُسمِّي به نفسه. فهذا عَلَمٌ من أعلام نبوّته، إذ كان اسمه صادقاً عليه؛ فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ. ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمِد ربَّه فنبّأه وشرّفه؛ فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: «اسمه أحمد». وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له. فلما وجد وبعث كان محمداً بالفعل. وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته. وروي أن النبي ﷺ قال: اسمي في التوراة أحيد لأني أحِدّ أمتي عن النار، واسمي في الزبور الماحي محا الله بي عبدة الأوثان، واسمي في الإنجيل أحمد واسمي في القرآن محمد لأني محمود في أهل السماء والأرض». وفي الصحيح «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي وأنا العاقب». وقد تقدم. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قيل عيسى. وقيل محمد صلى الله عليهما وسلم. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ الكسائي وحمزة «ساحر» نعتاً للرجل. وروى أنها قراءة ابن مسعود. الباقون «سحر» نعتاً لما جاء به الرسول.

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣

وهناك قال ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لأنه من بني إسرائيل وهنا قال عيسى ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب، وإن كانت أمه منهم، و﴿مُّصَدِّقًا﴾ ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾ حالان، والعامل رسول، أي: مرسل ويأتي و(اسمه) جملتان في موضع الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية، ولمن تأخر من النبي المذكور، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته. وروي أن الحواريين قالوا: يا رسول الله هل من بعدنا من أمة: قال نعم، أمة أحمد ـ ﷺ ـ حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم بالقليل من العمل، وأحمد علم منقول من المضارع للمتكلم، أو من أحمد أفعل التفضيل، وقال حسان:

صَلَّى الإِلَٰهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ
وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارَكِ أَحْمَدِ

وقال القشيري: بشر كل نبي قومه بنبينا محمد ـ ﷺ ـ والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الوضع لأنه آخر نبي قبل نبينا ـ ﷺ ـ فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام، والظاهر أن الضمير المرفوع في جاءهم يعود على عيسى، لأنه المحدث عنه. وقيل: يعود على أحمد لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد ـ ﷺ ـ وذلك على سبيل الإخبار للمؤمنين، أي: فلما جاء المبشر به هؤلاء الكفار بالمعجزات الواضحة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقرأ الجمهور (سحر) أي: ما جاء من البينات. وقرأ عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب (ساحر) أي: هذا الحال ساحر.

ابن كثير ج ٤ ص ٣٥٩ ـ ٣٦١

وقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال. . . عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن لي أسماء أنا محمد وأنا

أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»، ورواه مسلم من حديث الزهري به نحوه.

وقال أبو داود الطيالسي. . . عن أبي موسى قال سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر والمقفي ونبي الرحمة والتوبة والملحمة»، ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به، وقد قال الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه. وقال محمد بن إسحاق حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول أخبرنا عن نفسك قال «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام» وهذا إسناد جيد، وروي له شواهد من وجوه أخر فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي. . . عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»، وقال أحمد أيضاً حدثنا أبو النضر. . . عن أبي أمامة قال: قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك. قال «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»، وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن بن موسى. . . عن عبد الله بن مسعود قال بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود، وجعفر وعبد الله بن رواحة، وعثمان بن مظعون وأبو موسى فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد بهدية فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا قال فأين هم قالا: هم في أرضك فابعث إليهم فبعث إليهم فقال جعفر أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه فسلم ولم يسجد فقالوا له ما لك لا تسجد للملك. قال إنا لا نسجد إلا لله عزّ وجلّ قال وما ذاك. قال إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عزّ وجلّ وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه. قال نقول كما قال الله عزّ وجلّ هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسها بشر ولم يعترضها ولد، قال فرفع عوداً من الأرض ثم قال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ثم تعجل عبدالله بن مسعود حتى أدرك بدراً، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته، وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضي الله عنهما، وموضع ذلك كتاب السيرة والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازاته إذا بعث، وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم، ولهذا قالوا أخبرنا عن بدء أمرك يعني في الأرض، قال: «دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ابن مريم ورؤيا أمي التي رأت» أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص فذكره صلوات الله وسلامه عليه. وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قال ابن جريج وابن جرير ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أحمد أي المبشر به في الأعصار المتقادمة المنوه بذكره في القرون السالفة. لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

الشوكاني ج ٥ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ معطوف على ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ ﴾ معمول لعامله، أو معمول لعامل مقدّر معطوف على عامل الظرف الأوّل ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ . . . . والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال، والمعنى: إني أرسلت إليكم حال كوني مصدّقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً بمن يأتي بعدي، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكذيبي، وأحمد اسم نبينا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهو علم منقول من الصفة، وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمداً لله من غيره، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والسلمي وزرّ بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم ﴿ مِن بَعْدِي ﴾ بفتح الباء. وقرأ الباقون بإسكانها ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر، وقيل المراد محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أي لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، والأوّل أولى. قرأ الجمهور «سحر»، وقرأ حمزة والكسائي «ساحر».

الآلوسي ج ٢٨ ص ٨٤ ـ ٨٩

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ إما معطوف على إذ الأولى معمول لعاملها، وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ولعله عليه السلام لم يقل «يا قومي» كما قال موسى عليه السلام بل قال: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قبل الأب فيهم، أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم في أنه من قوم موسى عليه السلام هضماً لنفسه بأنه لا اتباع له ولا قوم، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وقيل: إن الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التعظيم، وقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل عليه السلام.

﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ أي مرسل منه تعالى إليكم حال كوني مصدقاً، فنصب ﴿ مُّصَدِّقًا ﴾ على الحال من الضمير المستتر في ﴿ رَسُولُ ﴾ وهو العامل فيه، و﴿ إِلَيْكُم ﴾ متعلق به، وهو ظرف لغو لا ضمير فيه ليكون صاحب حال، وذكر هذا الحال لأنه من أقوى الدواعي إلى تصديقهم إياه عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي ﴾ معطوف على ﴿ مُّصَدِّقًا ﴾؛ وهو داع أيضاً إلى تصديقه عليه السلام من حيث أن البشارة بهذا الرسول ﷺ واقعة في التوراة كقوله تعالى في الفصل العشرين من السفر الخامس: منها أقبل الله من سينا وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه، وقوله سبحانه في الفصل الحادي عشر من هذا السفر: يا موسى إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمره فيه، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه إلى غير ذلك، ويتضمن كلامه عليه السلام أن دينه التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام جميعاً من تقدم ومن تأخر، وجملة ﴿ يَأْتِي ﴾ إلخ في موضع الصفة ـ لرسول ـ وكذا جملة قوله تعالى: ﴿ اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ هذا الاسم الجليل علم لنبينا محمد ﷺ، وعليه قول حسان:

صلى الإله ومن يحف بعرشه ... والطيبون على المبارك أحمد

وصح من رواية مالك. والبخاري. ومسلم. والدارمي. والترمذي. والنسائي عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب» والعاقب الذي ليس بعده نبي وهو منقول من المضارع للمتكلم. أو من أفعل التفضيل من الحامدية، وجوز أن يكون من المحمودية بناء على أنه قد سمع أحمد اسم تفضيل منها

نحو العود أحمد، وإلا فأفعل من المبني للمفعول ليس بقياسي، وقرىء ﴿مِنۢ بَعْدِى﴾ بفتح الياء، هذا وبشارته عليه السلام بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم مما نطق به القرآن المعجز، فإنكار النصارى ذلك ضرب من الهذيان، وقولهم: لو وقعت لذكرت في الإنجيل الملازمة فيه ممنوعة، وإذا سلمت قلنا: بوقوعها في الإنجيل إلا أن جامعيه بعد رفع عيسى عليه السلام أهملوها اكتفاء بما في التوراة، ومزامير داود عليه السلام، وكتب أشعياء، وحبقوق، وأرمياء، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أن علماء النصارى بعد ـ حباً لدينهم أو لأمر ما غير ذلك ـ أسقطوها كذا قيل، وأنا أقول: الأناجيل التي عند النصارى أربعة: إنجيل متى من الاثني عشر الحواريين جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى عليه السلام بثماني سنين، وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحاً، وإنجيل مرقص وهو من السبعين جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع بإثنتي عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحاً، وإنجيل لوقا وهو من السبعين أيضاً جمعه بالاسكندرية باللغة اليونانية، وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحاً، وإنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح جمعه بمدينة إفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة، وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحاً وهي مختلفة، وفيها ما يشهد الانصاف بأنه ليس كلام الله عزّ وجلّ، ولا كلام عيسى عليه السلام كقصة صلبه الذي يزعمونه ودفنه ورفعه من قبره إلى السماء فما هي إلا كتواريخ وتراجم فيها شرح بعض أحوال عيسى عليه السلام ولادة ورفعاً ونحو ذلك، وبعض كلمات له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلفة في بعض الأكابر والصالحين فلا يضر إهمالها بعض الأحوال، والكلمات التي نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام في المهد وبشارته بنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم على أن في إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف وسلك الصراط السوي وما تعسف. ففي الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح: إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء، وقال يوحنا أيضاً: قال المسيح: من يحبني يحفظ كلمتي وأبي يحبه وإليه يأتي وعنده يتخذ المنزلة كلمتكم بهذا لأني لست عندكم بمقيم، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم أستودعكم سلامي لا تقلق قلوبكم ولا تجزع فإني منطلق وعائد إليكم، لو كنتم تحبوني كنتم تفرحون بمضيي إلى الأب، وقال أيضاً: إن خيراً لكم أن أنطلق لأبي لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للأب، وقال أيضاً: إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه ولست أدعكم أيتاماً لأني سآتيكم من قريب، والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد، وتعين إرادته صلى الله تعالى عليه وسلم من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه، وقد فسره بعض النصارى بالحماد، وبعضهم بالحامد فيكون في مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد، وفسره بعضهم بالمخلص لقول عيسى عليه السلام: فالله يرسل مخلصاً آخر فلا يكون ما ذكر بشارة به ﷺ بعنوان الحمد لكنه بشارته به صلى الله تعالى عليه وسلم بعنوان التخليص، فيستدل به على ثبوت رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن لم يستدل به على ما في الآية هنا، وزعم بعضهم أن الفارقليط إشارة إلى ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ فعلوا الآيات والعجائب، ولا يخفى أن وصفه بآخر يأبى ذلك إذ لم يتقدم لهم غيره ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة.

﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مشيرين إلى ما جاء به عليه السلام، فالتذكير بهذا الاعتبار، وقيل: مشيرين إليه عليه السلام وتسميته سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة عبد الله.

وطلحة. والأعمش. وابن وثاب ـ هذا ساحر ـ وكون فاعل ﴿جَآءَهُم﴾ ضمير عيسى عليه السلام هو الظاهر لأنه المحدث عنه، وقيل: هو ضمير (أحمد) عليه الصلاة والسلام لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أي فلما جاء أحمد هؤلاء الكفار بالبينات ﴿قَالُوٓاْ﴾ ألخ.

المراغي ج ١٠ ص ٨٤ ـ ٨٥

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ أي وداعياً إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذي جاءت البشارة به في التوراة. فقد جاء في الفصل العشرين من السِّفْر الخامس منها: أقبل الله من سيدنا، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه الربوات الأطهار عن يمينه. «سينا مهبط الوحي على موسى، وساعير مهبط الوحي على عيسى، وفاران جبال مكة مهبط الوحي على محمد ﷺ».

وفيها في الفصل الحادي عشر من هذا السفر: يا موسى إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما آمره به، والـذي لا يقبل قوله ذلك النبي الذي يتكلم باسمي، أنا أنتقم منه ومن سبطه.

وكذلك جاء في الإنجيل ما هو بشارة به ـ ففي إنجيل يوحنا في الفصل الخامس عشر. قال يسوع المسيح: إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء.

وفيه أيضاً: قال المسيح من يحفظ كلمتي يحبني، وأبي يحبه، وعنده يتخذ المنزلة، كلمتكم بهذا لأني لست عندكم بمقيم، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم، أستودعكم سلامي، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع، فإني منطلق وعائد إليكم، لو كنتم تحبوني تفرحون بمضيٍّ إلى الأب.

وفيه أيضاً: إن خيراً لكم أن أنطلق لأبي لأني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يوبخ العالَم على خطيئته، وإن لي كلاماً كثيراً أريد قوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب.

(والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد، فسره بعضهم بالحمَّاد وبعضهم بالحامد، ففي مدلوله إشارة إلى اسمه عليه السلام أحمد) كما لا يخفى على من كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي فحين جاءهم أحمد المبشَّرُ به بالأدلة الواضحة، والمعجزات الباهرة، فاجئوه بالتكذيب والإعراض عنه استكباراً وعناداً وقالوا: إن ما جئت به ما هو إلا ترّهات وأباطيل، وسحر واضح لا شك فيه.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣٨

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾

(سورة الصف، رقم ٦١، الآية ١٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٨	ص ٥٩ ـ ٦١	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٦٠ ـ ٢٦١
الزمخشري	ج ٤	ص ١٠١	ابن كثير	ج ٤	ص ٣٦١ ـ ٣٦٢
الرازي	ج ٣٠	ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧	الجلالان		ص ٧٣٠
الطبرسي	ج ٩	ص ٣٥٧	الشوكاني	ج ٥	ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤
ابن عربي	ج ٢	ص ٦٣٩ ـ ٦٤٠	الآلوسي	ج ٢٨	ص ٩٠ ـ ٩٢
البيضاوي	ج ٤	ص ١٣٢	القاسمي	ج ١٦	ص ١٥٤ ـ ١٥٥
الخازن	ج ٤	ص ٢٦٤	الطباطبائي	ج ١٩	ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢
البَغوي	ج ٤	ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩	جوهري	ج ٢٤	ص ١٧٠ ـ ١٧١
الماوردي	ج ٥	ص ٥٣١	المراغي	ج ٢٨	ص ٨٨ ـ ٩٢
القرطبي	ج ١٨	ص ٨٩ ـ ٩٠	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٥٦٠ ـ ٣٥٦١

الطبري ج ٢٨ ص ٥٩ ـ ٦١

وقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة «كونوا أنصاراً لله» بتنوين الأنصار، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بإضافة الأنصار إلى الله. والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب ومعنى الكلام يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله كونوا أنصاراً لله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله يعني من أنصاري منكم إلى نصرة الله لي. وكان قتادة يقول في ذلك ما حدثني به بشر... عن قتادة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ قال: «قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه. وذكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلاً من الأنصار، وذكر لنا أن بعضهم قال هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يسلموا. ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم؛ قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبي الله قال: لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، ففعلوا، ففعل الله». حدثنا ابن عبد الأعلى... عن معمر، قال: تلا قتادة ﴿ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله جاءه، سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة، فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه، قالوا ولم يسمّ حي من السماء اسماً لم يكن لهم قبل ذلك غيرهم. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة أن الحواريين كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ قال: من يتبعني إلى الله. حدثنا ابن حميد... عن سعيد بن جبير قال: سأل ابن عباس عن الحواريين قال: سموا لبياض ثيابهم كانوا صيادي السمك. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله: الحواريون: هم الغسالون بالنبطية، يقال للغسال حواري. وقد تقدم بياننا في معنى الحواري بشواهده واختلاف المختلفين فيه قبل فيما مضى، فأغنى عن

إعادته. وقوله: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ﴾ الله يقول: قالوا: نحن أنصار الله على ما بعث به أنبياءه من الحق. وقوله ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يقول جل ثناؤه: فآمنت طائفة من بني إسرائيل بعيسى، وكفرت طائفة منهم به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني أبو السائب... عن ابن عباس، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، قال: فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي قال: فقام شاب من أحدثهم سناً، قال: فقال: أنا، فقال له: إجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا قال: نعم أنت ذاك، قال: فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء، قال وجاء: الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه، فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله، ما شاء الله، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمد ﷺ، فآمنت طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة، يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين في إظهار محمد على دينهم على دين الكفار، فأصبحوا ظاهرين وقوله ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ يقول: فقوّينا الذين آمنوا من الطائفتين من بني إسرائيل على عدوّهم الذين كفروا منهم بمحمد ﷺ لتصديقه إياهم أن عيسى عبدالله ورسوله، وتكذيبه من قال هو إله، ومن قال هو ابن الله تعالى ذكره، فأصبحوا ظاهرين، فأصبحت الطائفة المؤمنون ظاهرين على عدوّهم الكافرين منهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبدالله الهلالي... عن مجاهد ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ قال: قوّينا. حدثنا ابن حميد... عن إبراهيم ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ قال لما بعث الله محمداً، ونزل تصديق من آمن بعيسى، أصبحت حجة من آمن ظاهرة. جرير... عن ابراهيم، في قوله ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ قال: أيدوا بمحمد ﷺ، فصدّقهم، وأخبر بحجتهم. حدثني يعقوب بن إبراهيم... عن ابراهيم، في قوله ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ قال: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ كلمة الله وروحه. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قوله ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ من آمن مع عيسى ﷺ.

ابن عربي ج ٢ ص ٦٣٩ ـ ٦٤٠

الحواريون هم الذين خلصوا عن ظلمة النفوس، وسواد الهيئات الطبيعية بالوصول إلى مقام القلب، وتنوّروا بنور الفطرة الأصلية، فابيضت وجوههم الحقيقية بالتصفية ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي، من معي متوجهاً إلى نصرة الله بالسلوك في صفاته ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ الصافون ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ننصره، بإظهار كمالات صفاته في مطاهرنا، فسلكوا في صفاته، وأظهروا أنوارها، حتى بلغوا الكمال القلبي، والتكميل بالتأثير.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ﴾، بهم وبتأثير صحبتهم، لقبول استعداداتهم ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ لاحتجاجهم بصفاتهم ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بالتأييد الفوري ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عليهم بالحجج النيرة، والبراهين الواضحة. والله تعالى أعلم.

القرطبي ج ١٨ ص ٨٩ ـ ٩٠

أكّد أمر الجهاد؛ أي كونوا حواريّ نبيّكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حواريّ عيسى على من خالفهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع «أنصاراً لله» بالتنوين. قالوا: لأن معناه اثبتوا وكونوا أعواناً لله بالسيف على أعدائه. وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ بلا تنوين؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى. واختاره أبو عُبيد لقوله: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ ولم ينوّن؛ ومعناه كونوا أنصاراً لدين الله. ثم قيل: في الكلام إضمار؛ أي قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله؛ أي كونوا أنصاراً كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصاراً وكانوا حواريّين. والحوَاريُّون خواصّ الرسل. قال مَعْمَر: كان ذلك بحمد الله؛ أي نصروه وهم سبعون رجلاً، وهم الذين بايعوه ليلة العَقَبة. وقيل: هم من قريش. وسمّاهم قتادة: أبا بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير وسعد بن مالك وأبا عبيدة ـ واسمه عامر ـ وعثمان بن مَظْعُون وحمزة بن عبدالمطلب؛ ولم يذكر سعيداً فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ وهم أصفياؤه اثنا عشر رجلاً، وقد مضت أسماؤهم في «آل عمران»، وهم أوّل من آمن به من بني إسرائيل، قال ابن عباس. وقال مقاتل: قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القَصّارون فاسألهم النُّصرة، فأتاهم عيسى وقال: من أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن ننصرك. فصدّقوه ونصروه. ومعنى ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من أنصاري مع الله، كما تقول: الذَّوْد إلى الذَّوْد إبل، أي مع الذَّوْد. وقيل: أي من أنصاري فيما يقرّب إلى الله. وقد مضى هذا في «آل عمران». ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدّم في «آل عمران» بيانه. ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين. قال ابن عباس: أيد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار. وقال مجاهد: أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى. وقيل أيّدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين، من قال كان الله فارتفع، ومن قال كان ابن الله فرفعه الله إليه؛ لأن عيسى ابن مريم لم يقاتل أحداً ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال. وقال زيد بن عليّ وقتادة: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان؛ لأنهم قالوا فيما روي: ألستم تعلمون أن عيسى كان ينام والله لا ينام، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل!. وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام. قال ابن إسحاق: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريين والأتباع بطرس وبولس إلى رُومِيَة، واندرابيس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس. وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق. وفيلبس إلى قُرْطاجَنّة وهي أفريقية. ويحنّس إلى دقسوس قرية أهل الكهف. ويعقوبس إلى أورِيشَلم وهي بيت المقدس. وأبن تلما إلى العرابية وهي أرض الحجاز. وسيمن إلى أرض البربر. ويهودا وبردس إلى الإسكندرية وما حولها. فأيدهم الله بالحجة. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي عالين؛ من قولك: ظهرت على الحائط أي عَلَوْت عليه. [والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب].

ابن كثير ج ٤ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أي من معيني في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أي نحن أنصارك على ما أرسلت به، ومؤازروك على ذلك ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين،

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج «من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» حتى قيض الله عزّ وجلّ له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقوله تعالى ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل منهم إنه ابن الله، وقائل إنه ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ومن قائل إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء.

وقوله تعالى ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي عليهم وذلك ببعثه محمد ﷺ كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير... رحمه الله...

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة، وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سننه عن أبي كريب عن محمد بن العلاء عن أبي معاوية بمثله سواء فأمّة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح والله أعلم. آخر تفسير سورة الصف ولله الحمد والمنّة.

الشوكاني ج ٥ ص ٢٢٣

... وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة، وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن سعد عن عبدالله بن أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم للنفر الذين لقوه بالعقبة «أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم». وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنقباء «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا نعم». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قال: فقوينا الذين آمنوا، وأخرج ابن أبي حاتم عنه فأيدنا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته على عدوّهم فأصبحوا اليوم ظاهرين.

الآلوسي ج ١٤ ص ٩٠ ـ ٩٢

... ثم قوله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ بيان لما قبله على طريق الاستئناف فكيف يصح عطف ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [ابراهيم: ١١] عليه؟ وأجيب بما خلاصته أن قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأمته كما تقرر في أصول الفقه، وإذا فسر بآمنوا وبشر دل على تجارته عليه الصلاة والسلام الرابحة وتجارتهم الصالحة، وقدم ﴿ءَامَنُواْ﴾ لأنه فاتحة الكل، ثم لو سلم فلا مانع من العطف على جواب السائل بما لا يكون جواباً إذا ناسبه فيكون جواباً للسؤال، وزيادة كيف وهو داخل فيه؟ كأنهم قالوا: دلنا يا ربنا فقيل: آمنوا يكن لكم كذا، وبشرهم يا محمد

بثبوته لهم، وفيه من إقامة الظاهر مقام المضمر، وتنويع الخطاب ما لا يخفى نبل موقعه، واختاره صاحب الكشاف فقال: إن هذا الوجه من وجه العطف على قل، ووجه العطف على فبشر لخلوهما عن الفوائد المذكورة يعني ما تضمنه الجواب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ أي نصرة دينه سبحانه وعونة رسوله عليه الصلاة والسلام، وقرأ الأعرج، وعيسى، وأبو عمرو، والحرميان ـ أنصاراً لله ـ بالتنوين، وهو للتبعيض فالمعنى كونوا بعض أنصاره عزّ وجلّ.

وقرأ ابن مسعود ـ على ما في الكشاف ـ كونوا أنتم أنصار الله، وفي موضح الأهوازي، والكواشي ـ أنتم ـ دون (كونوا) ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من جندي متوجهاً إلى نصرة الله تعالى ليطابق قوله سبحانه: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وقيل: (إلى) بمعنى مع (ونحن أنصار الله) بتقدير نحن أنصار نبي الله فيحصل التطابق، والأول أولى، والإضافة في (أنصاري) إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لأنهما لما اشتركا في نصرة الله عزّ وجلّ كان بينهما ملابسة تصحح إضافة أحدهما للآخر والإضافة في ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى، إذ المراد قل لهم ذلك كما قال عيسى، وقال أبو حيان: هو على معنى قلنا لكم ما قال عيسى.

وقال الزمخشري: هو على معنى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وخلاصته على ما قيل: إن ما مصدرية وهي مع صلتها ظرف أي كونوا أنصار الله وقت قولي لكم ككون الحواريين أنصاره وقت قول عيسى، ثم قيل: كونوا أنصاره كوقت قول عيسى هذه المقالة، وجيء بحديث سؤاله عن الناصر وجوابهم فهو نظير كاليوم في قولهم: كاليوم رجل أي كرجل رأيته اليوم فحذف الموصوف مع صفته، واكتفى بالظرف عنهما لدلالته على الفعل الدال على موصوفه، وهذا من توسعاتهم في الظروف، وقد جعلت الآية من الاحتباك، والأصل كونوا أنصار الله حين قال لكم النبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كما كان الحواريون أنصار الله حين قال لهم عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فحذف من كل منهما ما دل عليه المذكور في الآخر، وهو لا يخلو عن حسن، و ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ أصفياؤه عليه السلام، والعدول عن ضميرهم إلى الظاهر للاعتناء بشأنهم، وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً فرقهم ـ على ما في البحر ـ عيسى عليه السلام في البلاد، فمنهم من أرسله إلى رومية، ومنهم من أرسله إلى بابل، ومنهم من أرسله إلى إفريقية، ومنهم من أرسله إلى أفسس، ومنهم من أرسله إلى بيت المقدس، ومنهم من أرسله إلى الحجاز، ومنهم من أرسله إلى أرض البربر وما حولها، وتعيين المرسل إلى كل فيه، ولست على ثقة من صحة ذلك ولا من ضبط أسمائهم، وقد ذكرها السيوطي أيضاً في الاتقان فليلتمس ضبط ذلك من مظانه، واشتقاق الحواريين من الحور ـ وهو البياض ـ وسموا بذلك لأنهم كانوا قصارين، وقيل: للبسهم البياض، وقيل: لنقاء ظاهرهم وباطنهم، وزعم بعضهم أن ما قيل: من أنهم كانوا قصارين إشارة إلى أنهم كانوا يطهرون نفوس الناس فإفادتهم الدين والعلم، وما قيل: من أنهم كانوا صيادين إشارة إلى أنهم كانوا يصطادون نفوس الناس من الحيرة ويقودونهم إلى الحق...

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي بعيسى عليه السلام ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم الذين كفروا ﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين؛ قال زيد بن علي، وقتادة: بالحجة والبرهان، وقيل: إن عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء قالت طائفة من قومه: إنه الله سبحانه، وقالت أخرى: إنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ رفعه الله عزّ وجلّ إليه، وقالت طائفة: إنه عبد الله ورسوله فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فظهرت المؤمنة على الكافرين، وروي ذلك عن ابن عباس، وقيل اقتتل المؤمنون والكفرة بعد رفعه عليه السلام، فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف، والمشهور أن القتال ليس من شريعته عليه السلام، وقيل: المراد ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام وكفرت أخرى به صلى الله تعالى عليه وسلم فأيدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين. وهو خلاف الظاهر. والله تعالى أعلم.

٣٩

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾

(سورة التحريم، رقم ٦٦، الآية ١٢)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٨	ص ١١٠	ابو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٩٣ ـ ٢٩٦
الزمخشري	ج ٤	ص ١٣٢ ـ ١٣٣	ابن كثير	ج ٤	ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤
الرازي	ج ٣٠	ص ٥٠ ـ ٥١	الجلالان		ص ٧٥٣
الطبرسي	ج ٢٨	ص ١٢٥ ـ ١٣٠	الشوكاني	ج ٥	ص ٢٥٥ ـ ٢٥٧
ابن عربي	ج ٢	ص ٦٦٩ ـ ٦٧١	الآلوسي	ج ٢٨	ص ١٦٤ ـ ١٦٥
البيضاوي	ج ٥	ص ١٤٠	القاسمي	ج ١٦	ص ٥٨٦٩ ـ ٥٨٧٣
الخازن	ج ٧	ص ١٢٣	الطباطبائي	ج ١٩	ص ٣٤٢ ـ ٣٤٧
البغوي	ج ٤	ص ٣٣٩	جوهري	ج ٢٤	ص ١٩٧ ـ ٢٠١
الماوردي	ج ٦	ص ٤٨	المراغي	ج ٢٨	ص ١٦٧ ـ ١٧٠
القرطبي	ج ١٨	ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٦٠٩ ـ ٣٦٢٢

الطبري ج ٢٨ ص ١١٠

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يقول: التي منعت جيب درعها جبريل عليه السلام. وكل ما كان في الدرع من خرق أو فتق، فإنه يسمى فرجاً، وكذلك كل صدع وشق في حائط، أو فرج سقف فهو فرج. وقوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ يقول: فنفخنا فيه في جيب درعها، وذلك فرجها، من روحنا من جبريل، وهو الروح. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ فنفخنا في جيبها من روحنا ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ يقول: آمنت بعيسى، وهو كلمة الله ﴿ وَكُتُبِهِۦ ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ يقول: وكانت من القوم المطيعين. كما حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ من المطيعين.

الزمخشري ج ٤ ص ١٣٢

﴿ فِيهِ ﴾ في الفرج، وقرأ ابن مسعود فيها كما قرىء في سورة الأنبياء، والضمير للجملة وقد مرّ لي في هذا الظرف كلام، ومن بدع التفاسير أن الفرج هو جيب الدرع، ومعنى أحصنته: منعته جبريل وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييبا لأنفسهن ﴿ وَصَدَّقَتْ ﴾ قرىء بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعني وصفتها بالصدق وهو معنى التصديق بعينه. فإن قلت: فما كلمات الله وكتبه؟ قلت: يجوز أن يراد بكلماته صحفه التي أنزلها على إدريس وغيره سماها كلمات لقصرها، وبكتبه الكتب الأربعة، وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره، وقرىء بكلمة الله وكتابه أي بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل فإن قلت: لم قيل ﴿ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ على التذكير؟ قلت: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكوره على إناثه ومن للتبعيض. ويجوز أن يكون لابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما. وعن النبي ﷺ «كمل من الرجال كثير

ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد؛ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وأما ما روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ كيف سمى الله المسلمة: تعني مريم ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضاً لها، قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح واعلة واسم امرأة لوط واهلة، فحديث أثر الصنعة عليه ظاهر بيِّن. ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمى آسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين. وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمارة تتم عليه، وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً».

الرازي ج ٣٠ ص ٥٠ ـ ٥١

ثم قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أحصنت أي عن الفواحش لأنها قذفت بالزنا. والفرج حمل على حقيقته، قال ابن عباس نفخ جبريل في جيب الدرع ومده بأصبعيه ونفخ فيه، وكل ما في الدرع من خرق ونحوه فإنه يقع عليه اسم الفرج، وقيل ﴿أَحْصَنَتْ﴾ تكلفت في عفتها، والمحصنة العفيفة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي فرج ثوبها، وقيل خلقنا فيه ما يظهر به الحياة في الأبدان. وقوله ﴿فِيهِ﴾ أي في عيسى، ومن قرأ فيها أي في نفس عيسى والنفث مؤنث، وأما التشبيه بالنفخ فذلك أن الروح إذا خلق فيه انتشر في تمام الجسد كالريح إذا نفخت في شيء، وقيل بالنفخ لسرعة دخوله فيه نحو الريح ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ قال مقاتل يعني بعيسى، ويدل عليه قراءة الحسن بكلمة ربها وسمى عيسى، كلمة الله في مواضع من القرآن. وجمعت تلك الكلمة هنا، وقال أبو علي الفارسي الكلمات الشرائع التي شرع لها دون القول، فكأن المعنى صدقت الشرائع وأخذت بها وصدقت الكتب فلم تكذب والشرائع سميت بكلمات كما في قوله تعالى ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله تعالى ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ قرىء بالتخفيف والتشديد على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعني وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه، وقرىء كلمة وكلمات، وكتبه وكتابه، والمراد بالكتاب هو الكثرة والشياع أيضاً. قوله تعالى ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ الطائعين قاله ابن عباس، وقال عطاء من المصلين، وفي الآية مباحث.

البحث الأول: ما كلمات الله وكتبه؟ نقول المراد بكلمات الله الصحف المنزلة على إدريس وغيره، وبكتبه الكتب الأربعة، وأن يراد جميع ما كلم الله تعالى ملائكته وما كتبه في اللوح المحفوظ وغيره، وقرىء «بكلمة الله وكتابه» أي بعيسى وكتابه وهو الإنجيل، فإن قيل من القانتين على التذكير، نقول: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكوره على إناثه، ومن للتبعيض، قاله في الكشاف، وقيل من القانتين، لأن المراد هو القوم، وأنه عام، ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣] أي كوني من المقيمين على طاعة الله تعالى، ولأنها من أعقاب هرون أخي موسى عليهما السلام. . .

ومنها العلم بأن إحصان المرأة وعفتها مفيدة غاية الإفادة، كما أفاد مريم بنت عمران، كما أخبر الله تعالى فقال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] ومنها التنبيه على أن التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب، وإلى الثواب بغير حساب، وأن الرجوع إلى الحضرة الأزلية لازم في كل باب، وإليه المرجع والمآب، جلت قدرته وعلت كلمته، لا إله إلا هو وإليه المصير، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه وسلم.

ابن عربي ج ٢ ص ٦٦٩ - ٦٧١

وإن المعتبر في استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح، والاعتقاد الحق، كإحصان مريم، وتصديقها بكلمات ربها، وطاعتها المعدّة إياها لقبول نفخ روح الله فيها، وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التي لا تفي بطاعة الروح والقلب، ولا يحسن معاشرتهما، ولا تطيعهما بامتثال أوامرهما ونواهيهما، ولا تحفظ أسرارهما، وتبيح مخالفتهما، وتسير بسير الإباحة، باستراق كلمة التوحيد، والطغيان بانتحال الكمال داخلة في نار الحرمان، وجحيم الهجران مع المحجوبين، ولا تغني هداية الروح أو القلب عنها شيئاً من الإغناء في باب العذاب، وإن أغنت عنها في باب الخلود.

وإن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمّارة الفرعونية الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق، الذي قويت قوة محبة الله لصفائه، وضعفت قوة قهره للنفس والشيطان لعجزه، وضعفه، لا يبقى في العذاب مخلّداً، ويخلص إلى النجاة، ويبقى في النعم سرمداً. وأن تعذب بمجاورتها حيناً، وتألم بأفعالها برهة.

وإن النفس المتزينة بفضيلة العفة المشار إليها بأحصان الفرج هي القابلة لفيض روح القدس، الحاملة بعيسى القلب، المتنوّرة بنور الروح، المصدقة بكلمات الرب، من العقائد الحكمية، والشرائع الإلهية المطيعة لله، مطلقاً علماً، وعملاً سراً وجهراً. المنخرطة في سلك التوحيد جمعاً وتفصيلاً، باطناً وظاهراً. والله تعالى أعلم.

الشوكاني ج ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ أي واذكر مريم. وقيل: هو معطوف على امرأة فرعون. والمعنى: وضرب الله مَثَلاً لمريم بنت عمران وصبّرها على أذى اليهود. ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عن الفواحش. وقال المفسرون: إنه أراد بالفرج هنا الجيب؛ لأنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جَيْبها ولم ينفخ في فرجها. وهي في قراءة أُبَيّ «فنفخنا في جَيْبها من رُوحِنا». وكل خرق في الثوب يسمى جَيْباً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]. ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جَيبها. ومعنى ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أرسلنا جبريل فنفخ في جيبها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى. وقد مضى في آخر سورة «النساء» بيانه مستوفًى والحمد لله. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ قراءة العامة ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ بالتشديد. وقرأ حُميد والأموي ﴿وَصَدَقَتْ﴾ بالتخفيف. ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] وقال مقاتل: يعني بالكلمات عيسى وأنه نبيّ وعيسى كلمة الله. وقد تقدم. وقرأ الحسن وأبو العالية «بِكَلِمَةِ رَبِّهَا وكِتَابِهِ». وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم «وكُتُبِهِ» جمعاً. وعن أبي رجاء ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ مخفف التاء. والباقون «بِكِتَابِهِ» على التوحيد. والكتاب يراد به الجنس؛ فيكون في معنى كل كتاب أنزله الله تعالى. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي من المطيعين. وقيل: من المصلّين بين المغرب والعشاء. وإنما لم يقل من القانتات؛ لأنه أراد وكانت من القوم القانتين. ويجوز أن يرجع هذا إلى أهل بيتها؛ فإنهم كانوا مطيعين لله. وعن مُعاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال لخديجة وهي تجود بنفسها: «أتكرهين ما قد نزل بك ولقد جعل الله في الكره خيراً فإذا قدمت على ضَرّاتك فأقرئيهن مني السلام مريم بنْت عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة - أو قال حكيمة - بنت عمران أخت موسى بن عمران». فقالت: بالرفاء والبنين يا رسول الله. وروى قتادة عن أنس عن رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خُوَيلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم». وقد مضى في «آل عمران» الكلام في هذا مستوى والحمد لله.

الشوكاني ج ٥ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧

﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ معطوف على امرأة فرعون: أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران: أي حالها وصفتها، وقيل إن الناصب لمريم فعل مقدّر: أي واذكر مريم، والمقصود من ذكرها أن الله سبحانه جمع كفا بين كرامة الدنيا والآخرة واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أي عن الفواحش، وقد تقدّم تفسير هذا في سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب لقوله ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ وذلك أن جبريل نفخ في جيب درعها فحبلت بعيسى ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ يعني شرائعه التي شرعها لعباده، وقيل المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها ـ إنما أنا رسول ربك ـ الآية. وقال مقاتل: يعني بالكلمات عيسى. قرأ الجمهور «وصدّقت» بالتشديد، وقرأ حمزة الأموي ويعقوب وقتادة وأبو مجلز وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. وقرأ الجمهور «بكلمات» بالجمع، وقرأ الحسن ومجاهد والجحدري «بكلمة» بالإفراد. وقرأ الجمهور «وكتابه» بالإفراد، وقرأ أهل البصرة وحفص «كتبه» بالجمع، والمراد على قراءة الجمهور الجنس فيكون في معنى الجمع، وهي الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. وقال عطاء: من المصلين، كانت تصلي بين المغرب والعشاء، ويجوز أن يراد بالقانتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة، وقال: من القانتين ولم يقل من القانتات لتغليب الذكور على الإناث. . .

الآلوسي ج١٤ ص ١٦٤ ـ ١٦٥

وقوله تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾ عطف على (امرأة فرعون) أي وضرب مثلاً للذين آمنوا حالتها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء مع كون أكثر قومها كفاراً، وجمع في التمثيل بين من لها زوج ومن لا زوج لها تسلية للأرامل وتطييباً لقلوبهن على ما قيل، وهو من بدع التفاسير كما في الكشاف، وقرأ السختياني ـ ابنه ـ بسكون الهاء وصلا أجراه مجرى الوقف ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ صانته ومنعته من الرجال، وقيل: منعته عن دنس المعصية.

والفرج ما بين الرجلين وكني به عن السبوءة، وكثر حتى صار كالصريح، ومنه ما هنا عند الأكثرين ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ ﴾ النافخ رسوله تعالى وهو جبريل عليه السلام فالإسناد مجازي، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي فنفخ رسولنا، وضمير (فيه) للفرج، واشتهر أن جبريل عليه السلام نفخ في جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج.

وروى ذلك عن قتادة، وقال الفراء: ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها وهو محتمل لأن الفرج معناه في اللغة كل فرجة بين الشيئين، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج، وهذا أبلغ في الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها فهي للنفس أمنع، وفي مجمع البيان عن الفراء أن المراد منعت جيب درعها عن جبريل عليه السلام، وكان ذلك على ما قيل: قولها ﴿ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٨] وأفاد كلام البعض أن أحصنت فرجها على ما نقل أولاً عن الفراء كناية عن العفة نحو قولهم: هو نقي الجيب طاهر الذيل.

وجوز في ضمير (فيه) رجوعه إلى الحمل، وهو عيسى عليه السلام المشعر به الكلام، وقرأ عبد الله ـ فيها ـ كما في الأنبياء، فالضمير لمريم، والإضافة في قوله تعالى: ﴿ مِن رُّوحِنَا ﴾ للتشريف، والمراد من روح خلقناه بلا توسط أصل، وقيل: لأدنى ملابسة وليس بذاك ﴿ وَصَدَّقَتْ ﴾ آمنت ﴿ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ بصحفه عز وجل المنزلة على إدريس عليه السلام. وغيره، وسماها سبحانه كلمات لقصرها ﴿ وَكُتُبِهِۦ ﴾ بجميع كتبه والمراد بها ما عدا الصحف مما فيه طول، أو التوراة، والإنجيل،

والزبور، وعد المصحف من ذلك وإيمانها به ولم يكن منزلاً بعد كالإيمان بالنبي الموعود عليه الصلاة والسلام فقد كان ﷺ مذكوراً بكتابه في الكتب الثلاث، وتفسير الكلمات والكتب بذلك هو ما اختاره جمع، وجوز غير واحد أن يراد بالكلمات ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام، وبالكتب ما عرف فيها مما يشمل الصحف وغيرها، وقيل: جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره، وأن يراد بالكلمات وعده تعالى ووعيده أو ذلك وأمره عز وجل ونهيه سبحانه، وبالكتب أحد الأوجه السابقة، وإرادة كلامه تعالى القديم القائم بذاته سبحانه من الكلمات بعيد جداً، وقرأ يعقوب، وأبو مجلز، وقتادة، وعصمة عن عاصم (صدقت) بالتخفيف، ويرجع إلى معنى المشدد؛ وفي البحر أي كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى وما أظهره الله تعالى لها من الكرامات، وفيه قصور لا يخفى.

وقرأ الحسن ومجاهد، والجحدري - بكلمة - على التوحيد فاحتمل أن يكون اسم جنس، وأن يكون عبارة عن كلمة التوحيد، وأن يكون عبارة عن عيسى عليه السلام فقد أطلق عليه السلام أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم، وقد مر شرح ذلك، وقرأ غير واحد من السبعة - وكتابه - على الإفراد فاحتمل أن يراد به الجنس وأن يراد به الإنجيل لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى عليه السلام، وقرأ أبو رجاء، ﴿وَكُتْبِهِۦ﴾ بسكون التاء على ما قال ابن عطية، وبه. وبفتح الكاف على أنه مصدر أقيم مقام الاسم على ما قال صاحب اللوامح. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي من عداد المواظبين على الطاعة - فمن - للتبعيض، والتذكير للتغليب، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم فهو أبلغ من قولنا: وكانت من القانتات، أو قانتة، وقيل: ﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية، والمراد كانت من نسل القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى عليهما السلام، ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع تابع لأصله ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] وهي على ما في بعض الأخبار سيدة النساء ومن أكملهن، روى أحمد في مسنده: سيدة نساء أهل الجنة مريم. ثم فاطمة. ثم خديجة، ثم آسية. ثم عائشة، وفي الصحيح «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وخص الثريد - وهو خبز يجعل في مرق وعليه لحم - كما قيل:

إذا ما الخبز تأدمه بلحم
فذاك أمانة اللّه الثريد

لا اللحم فقط كما قيل لأن العرب لا يؤثرون عليه شيئاً حتى سموه بحبوحة الجنة، والسر فيه على ما قال الطيبي: إن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في المريء فضرب به مثلاً ليؤذن بأنها رضي الله تعالى عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل والتحبب للبعل فهي تصلح للبعل والتحدث والاستئناس بها والإصغاء إليها، وحسبك أنها عقلت من النبي ﷺ ما لم يعقل غيرها من النساء وروت ما لم يرو مثلها من الرجال، وعلى مزيد فضلها في هذه السورة الكريمة من عتابها وعتاب صاحبتها حفصة رضي الله تعالى عنهما ما لا يخفى، ثم لا يخفى أن فاطمة رضي الله تعالى عنها من حيث البضعية لا يعد لها في الفضل أحد، وتمام الكلام في ذلك في محله.

وجاء في بعض الآثار أن مريم، وآسية زوجا رسول الله ﷺ في الجنة، أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى عليه السلام». وزعم نبوتها كزعم نبوة غيرها من النساء كهاجر وسارة غير صحيح لاشتراط الذكورة في النبوة على الصحيح خلافاً للأشعري، وقد نبه على هذا الزعم العلامة ابن قاسم في الآيات البينات وهو غريب فليحفظ، والله تعالى أعلم.

٤٠ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾

(سورة الجن، رقم ٧٢، الآية ٣ ـ ٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٩	ص ٦٤ ـ ٦٧	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٣٤٥ ـ ٣٥٠
الزمخشري	ج ٤	ص ١٦٧	ابن كثير	ج ٤	ص ٤٢٨
الرازي	ج ٣٠	ص ١٥٤ ـ ١٥٥	الجلالان		ص ٧٧٠
الطبرسي	ج ٢٩	ص ٧٦ ـ ٨٣	الشوكاني	ج ٥	ص ٣٠٢ ـ ٣٠٧
ابن عربي	ج ٢	ص ٧١١ ـ ٧١٢	الآلوسي	ج ٢٩	ص ١٠٤ ـ ١٠٦
البيضاوي	ج ٥	ص ١٥٤	القاسمي	ج ١٦	ص ٥٩٤٥ ـ ٥٩٤٦
الخازن	ج ٧	ص ١٥٨ ـ ١٥٩	الطباطبائي	ج ٢٠	ص ٣٧ ـ ٤٨
البغوي	ج ٤	ص ٣٧٠	جوهري	ج ٢٤	ص ٢٧٤ ـ ٢٨٤
الماوردي	ج ٦	ص ١١٠	المراغي	ج ٢٩	ص ٩٢ ـ ٩٧
القرطبي	ج ١٩	ص ١ ـ ٩	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٧١٩ ـ ٣٧٣٩

الطبري ج ٢٩ ص ٦٤ ـ ٦٧

وقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣] اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً، وآمنا بأنه تعالى أمر ربنا وسلطانه وقدرته.

ذكر من قال ذلك:

حدثني علي... عن ابن عباس، في قوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ يقول: فعله وأمره وقدرته.

حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس، قوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ يقول: تعالى أمر ربنا.

حدثنا محمد بن بشار... عن قتادة في هذه الآية ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: أمر ربنا.

حدثنا ابن بشار... عن السدي ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: أمر ربنا.

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ قال: تعالى أمره أن يتخذ ـ ولا يكون الذي قالوا ـ صاحبة ولا ولداً، وقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] قال: لا يكون ذلك منه.

وقال آخرون: عني بذلك جلال ربنا وذكره.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن عبد الأعلى... عن عكرمة، في قوله ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: جلال ربنا.

حدثني محمد بن عمارة... عن مجاهد في قوله ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: جلال ربنا.

حدثنا ابن حميد... عن عكرمة ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾: جلال ربنا.

حدثنا بشر... عن قتادة، قوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾: أي تعالى جلاله وعظمته وأمره.

حدثنا ابن عبدالأعلى... عن قتادة في قوله تعالى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: تعالى أمر ربنا، تعالت عظمته.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تعالى غنى ربنا.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن عبدالأعلى... عن الحسن، في قوله تعالى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: غنى ربنا.

حدثنا ابن حميد... عن الحسن ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: غنى ربنا.

حدثني يعقوب عن إبراهيم... عن الحسن، في قوله ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: غنى ربنا.

حدثنا الحسن بن عرفة... عن الحسن وعكرمة في

قوله الله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال أحدهما: غناه، وقال الآخر: عظمته.

وقال آخرون: عُني بذلك الجدّ هو أبو الأب، قالوا: ذلك كان من كلام جهلة الجنّ.

ذكر من قال ذلك:

حدثني أبو السائب... عن أبي جعفر، ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: كان كلاماً من جهلة الجنّ.

وقال آخرون: عُني بذلك: ذِكْره.

حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد، في قول الله ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: ذكره.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: عُني بذلك: تعالت عظمة ربنا وقُدرته وسلطانه.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن للجدّ في كلام العرب معنيين: أحدهما الجدّ الذي هو أبو الأب، أو أبو الأم، وذلك غير جائز أن يوصف به هؤلاء النفر الذين وصفهم الله بهذه الصفة، وذلك أنهم قد قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢] ومن وصف الله بأن له ولداً أو جداً هو أبو أب أو أبو أم، فلا شك أنه من المشركين. والمعنى الآخر: الجَدّ الذي بمعنى الحظّ؛ يقال: فلان ذو جدّ في هذا الأمر: إذا كان له حظّ فيه، وهو الذي يُقال له بالفارسية البَخْت، وهذا المعنى الذي قصده هؤلاء النفر من الجنّ بقيلهم ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ إن شاء الله. وإنما عَنَوا أن حظوته من المُلك والسلطان والقدرة والعظمة عالية، فلا يكون له صاحبة ولا ولد، لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطّره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد، فقال النفر من الجنّ: علا مُلك ربنا وسُلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطّرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وِقاع شيء يكون منه ولد.

وقد بين عن صحة ما قلنا في ذلك إخبار الله عنهم أنهم إنما نزّهوا الله عن اتخاذ الصاحبة والولد بقوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ يقال منه: رجل جدّي وجديد ومجدود: أي ذو حظّ فيما هو فيه؛ ومنه قول حاتم الطائي:

اغْـزُوا بنـي ثُعَـلٍ فـالغَـزْوُ جَـدُّكُـمُ
عُـدُّوا الـرَّوَابـي وَلا تَبْكُـوا لِمَـنْ قُتِـلا

وقال آخر:

يُـرَقِّـعُ جَـدُّكَ إنّـي امْـرُؤٌ
سَقَتْنِـي إلَيْـكَ الأعـادِي سِجـالا

وقوله ﴿ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً﴾ يعني زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾.

واختلفت القرّاء في قراءة قوله ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ﴾ فقرأه أبو جعفر القارىء وستة أحرف أُخر بالفتح، منها: «أنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ - وأنَّ المَساجد لله - وأنَّهُ كان يَقولُ سَفِيهُنا - وأنَّهُ كانَ رِجال مِنَ الإنْس - وأنَّه لَمَّا قام عبدالله يدعوه - وأن لو استقاموا على الطريقة» وكان نافع يكسرها إلا ثلاثة أحرف: أحدها ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ [الجن: ١] والثانية ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [الجن: ١٦] والثالثة ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]. وأما قرّاء الكوفة غير عاصم، فإنهم يفتحون جميع ما في آخر سورة النجم وأوّل سورة الجنّ إلا قوله ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا﴾[الجن: ١]، وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ [الجن: ٢٠] وما بعده إلى آخر السورة، وأنهم يكسرون ذلك غير قوله ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨] وأما عاصم فإنه كان يكسر جميعها إلا قوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فإنه كان يفتحها، وأما أبو عمرو، فإنه كان يكسر جميعها إلا قوله ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦] فإنه كان يفتح هذه وما بعدها، فأما الذين فتحوا جميعها إلا في موضع القول، كقوله ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا﴾ [الجن: ١] وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ [الجن: ٢٠] ونحو ذلك، فإنهم عطفوا أن في كلّ السورة على قوله فآمنا به، وآمنا بكل ذلك، ففتحوها بوقوع الإيمان عليها. وكان الفرّاء يقول: لا يمنعنك أن تجد الإيمان يقبح في بعض ذلك من الفتح، وأن الذي يقبح مع ظهور الإيمان قد يحسن فيه فعل مضارع للإيمان، فوجب فتح أنّ كما قالت العرب:

إذا مـا الغـانيـاتُ بَـرَزْنَ يَـوْمـاً
وزَجَّجْـنَ الْحَـواجِـب والعُيُـونَـا

فنصيب العيون لإتباعها الحواجب، وهي لا تزجج، وإنما

تكحل، فأضمر لها الكحل، كذلك يضمر في الموضع الذي لا يحسن فيه آمنا صدّقنا وآمنا وشهدنا. قال: وبقول النصب قوله ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦] فينبغي لمن كسر أن يحذف «أن» من «لو» لأن «أن» إذ خُففت لم تكن حكاية. ألا ترى أنك تقول: أقول لو فعلت لفعلت، ولا تدخل «أن»، وأما الذين كسروها كلهم وهم في ذلك يقولون ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [الجن: ١٦] فكأنهم أضمروا يميناً مع «لو» وقطعوها عن النسق على أوّل الكلام، فقالوا: والله لو استقاموا؛ قال: والعرب تدخل «أن» في هذا الموضع مع اليمين وتحذفها، قال الشاعر:

فَأُقْسِمُ لَوْ شَيْءٌ أَتانا رَسُولُهُ سِواكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعا

قالوا: وأنشدنا آخر:

أمَا واللّهِ أنْ لَوْ كُنْتَ حُرّاً وَمَا بِالْحُرّ أنْتَ وَلا العَتِيقِ

وأدخل «أن» من كسرها كلها، ونصب ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فإنه خصّ ذلك بالوحي، وجعل ﴿وَأَلَّوِ﴾ مضمرة فيها اليمين على ما وصفت. وأما نافع فإن ما فتح من ذلك فإنه ردّه على قوله ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وما كسره فإنه جعله من قول الجنّ، وأحبّ ذلك إليّ أن أقرأ به الفتح فيما كان وحياً، والكسر فيما كان من قول الجنّ، لأن ذلك أفصحها في العربية، وأبينها في المعنى، وإن كان للقراءات الأخر وجوه غير مدفوعة صحتها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٤ ـ ٦].

يقول عزّ وجلّ مخبراً عن قيل النفر من الجنّ الذين استمعوا القرآن ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وهو إبليس.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ وهو إبليس.

حدثنا ابن حميد... عن مجاهد ﴿سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قال إبليس؛ ثم قال سفيان: سمعت أن الرجل إذا سجد جلس إبليس يبكي يقول: يا ويله أمر بالسجود فعصى، فله النار، وأمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة.

حدثني ابن عبدالأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، قال: تلا قتادة ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٤ ـ ٥] فقال: عصاه والله سفيه الجنّ، كما عصاه سفيه الإنس.

وأما الشطط من القول، فإنه كان تعدّياً.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثني يونس، قال: ثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قال: ظلماً.

الرازي ج ٣٠ ص ١٥٤ ـ ١٥٥

فقالوا ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في الجد قولان: **الأول**): الجدّ في اللغة العظمة يقال جدّ فلان أي عظم ومنه الحديث «كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد فينا» أي جد قدره وعظم، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها والولد للتكثر به والاستئناس، وهذه من سمات الحدوث وهو سبحانه منزّه عن كل نقص.

القول الثاني: الجد الغني ومنه الحديث «لا ينفع ذا الجد منك الجد» قال أبو عبيدة أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وكذلك الحديث الآخر «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء وإذا أصحاب الجد محبوسون» يعني أصحاب الغنى في الدنيا، فيكون المعنى وأنه تعالى غني عن الاحتياج إلى الصاحبة والاستئناس بالولد.

وعندي فيه **قول ثالث**: وهو أن جد الإنسان أصله الذي منه وجوده فجعل الجد مجازاً عن الأصل، فقوله تعالى

﴿ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ معناه تعالى أصل ربنا وأصله حقيقته المخصوصة التي لنفس تلك الحقيقة من حيث إنها هي تكون واجبة الوجود فيصير المعنى أن حقيقته المخصوصة متعالية عن جميع جهات التعلق بالغير لأن الواجب لذاته يجب أن يكون واجب الوجود من جميع جهاته، وما كان كذلك استحال أن يكون له صاحبة وولد.

المسألة الثانية: قرىء جداً ربنا بالنصب على التميز وجدّ ربنا بالكسر أي صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد، وكأن هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن تنبهوا لفساد ما عليه كفرة الجن فرجعوا أولاً عن الشرك وثانياً عن دين النصارى. النوع الثالث مما ذكره الجن قوله تعالى ﴿ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في الصوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه.

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو جانب الإثبات، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه، وإثبات الشريك والصاحبة والولد. وكلا الأمرين شطط ومذموم.

الطبرسي ج ٢٩ ص ٧٦ ـ ٨١

. . . ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ الاختيار كسر إن لأنه من قول الجن لقومهم وهو معطوف على قوله ﴿ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ﴾ أي وقالوا ﴿ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا ﴾ وقال الفراء: من فتح فتقديره فآمنا به وآمنا بأنه تعالى جدّ ربنا، وكذلك كل ما كان بعده ففتح أن بوقوع الإيمان عليه، والمعنى تعالى جلال ربنا وعظمته عن اتخاذ الصاحبة والولد، عن الحسن ومجاهد، وقيل معناه تعالت صفات الله التي هي له خصوصاً، وهي الصفات العالية التي ليست للمخلوقين عن أبي مسلم. وقيل معناه جد ربنا صفاته، فلا يجوز عليه صفات الأجسام والأعراض، عن الجبائي. وقيل تعالت قدرة ربنا، عن ابن عباس. وقيل تعالى ذكره، عن مجاهد. وقيل فعله وأمره، عن الضحاك. وقيل علا ملك ربنا، عن الأخفش. وقيل تعالت آلاؤه ونعمه على الخلق، عن القرظي، والجميع يرجع إلى معنى واحد وهو العظمة والجلال على ما تقدم ذكرهما، ومنه قول أنس بن مالك «كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد في أعيننا» أي عظم، وقال الربيع بن أنس أنه قال ليس لله تعالى جد وإنما قالته الجن بجهالة فحكاه سبحانه كما قالت، وروي ذلك عن أبي جعفر الباقر (ع) وأبي عبدالله (ع) ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ أي جاهلنا ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ أرادوا بسفيههم إبليس عن مجاهد وقتادة، والشطط السرف في ظلم النفس والخروج عن الحق فاعترفوا بأن إبليس كان يخرج عن الحد في إغواء الخلق ودعائهم إلى الضلال، وقيل شططاً أي قولاً بعيداً من الحق وهو الكذب في التوحيد والعدل.

ابن عربي ج ٢ ص ٧١١ ـ ٧١٢

﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ ﴾ عظمة ﴿ رَبِّنَا ﴾ من أن نتصوّره مدركة فتكيفه، فيدخل تحت جنس فيتخذ ﴿ صَٰحِبَةً ﴾ من صنف تحته، أو ﴿ وَلَدًا ﴾ من نوع يماثله ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ الذي هو الوهم ﴿ عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾ بأن كان يتوهّمه في جهة، ويجعله من جنس الموجودات المحفوفة باللواحق المادية فيماثل المخلوقات صنفاً، أو نوعاً.

البيضاوي ج ٥ ص ١٥٤

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأه ابن كثير والبصريان بالكسر على أنه من جملة المحكي بعد القول وكذا ما بعده إلا قوله وأن لو استقاموا وأن المساجد وإنه لما قام فإنها من جملة الموحى به ووافقهم نافع وأبو بكر إلا في قوله وإنه لما قام على أنه استئناف أو مقول وفتح الباقون الكل إلا ما صدر بالفاء على أن ما كان من قولهم فمعطوف على محل الجار والمجرور في به كأنه قيل صدقناه وصدقنا ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ . . .

وقوله ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيان لذلك وقرىء جداً على التمييز وجد ربنا بالكسر أي صدق ربوبيته كأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك واتخاذ الصاحبة والولد. ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليس أو مرده الجن ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قولا ذا شطط لفرط ما أشط فيه وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله.

الخازن ج ٧ ص ١٥٧ ـ ١٥٩

يقال: فلان ذو جَدّ في هذا الأمر إذا كان له حظ فيه، وهو الذي يقال له بالفارسية (البخت). والمعنى: أن حظوته من الملك والسلطان، والقدرة العظيمة عالية، فلا تكون له صاحبة ولا ولد، لأن الصاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى ومنه الجد» لا ينفع ذا الغنى غناه وقال ابن عباس عظمت قدرة ربنا وقيل أمر ربنا وقيل فعله وقيل آلاؤه ونعماؤه على خلقه وقيل علا ملك ربنا ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ . . .

القرطبي ج ١٩ ص ١ ـ ٩

قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ كان علقمة ويحيى والأعمش وحمزة والكسائيّ وابن عامر وخلَف وحفص والسّلمي ينصبون «أنَّ» في جميع السورة في اثني عشر موضعاً، وهو: «أنه تعالى جد ربنا». . . وجاز ذلك وهو مضمر مجرور لكثرة حرف الجار مع «أنّ». وقيل: المعنى أي وصدّقنا أنه جدّ ربنا. وقرأ الباقون كلّها بالكسر وهو الصواب، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ الجد في اللغة: العظمة والجلال؛ ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد في عيوننا؛ أي عظُم وجل. فمعنى: «جد ربنا» أي عظمته وجلاله؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة. وعن مجاهد أيضاً: ذكره. وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضاً: غناه. ومنه قيل للحظ جد، ورجل مجدود أي محظوظ، وفي الحديث: (ولا ينفع الجد منك الجد) قال أبو عبيدة والخليل: أي ذا الغنى، منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة. وقال ابن عباس: قدرته. الضحاك: فعله. وقال القُرظيّ والضحاك أيضاً: آلاؤه ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة والأخفش: ملكه وسلطانه. وقال السديّ: أمره. وقال سعيد بن جُبير: «وأنه تعالى جد ربنا» أي تعالى ربنا. وقيل: إنهم عَنَوا بذلك الجد الذي هو أب الأب، ويكون هذا من قول الجنّ. وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر الصادق والربيع: ليس لله تعالى جد، وإنما قالته الجن للجهالة، فلم يؤاخذوا به. وقال القشيريّ: ويجوز إطلاق لفظ الجدّ في حق الله تعالى؛ إذ لو لم يجز لما ذكر في القرآن، غير أنه لفظ موهم، فتجنُّبُه أولى. وقراءة عِكرمة «جد» بكسر الجيم: على ضد الهزل. وكذلك قرأ أبو حَيوة ومحمد بن السَّمَيْقع. ويروى عن ابن السَّمَيقع أيضاً وأبي الأشهب «جد ربنا»، وهو الجدوى والمنفعة. وقرأ عكرمة أيضاً «جَداً» بالتنوين «رَبُّنا» بالرفع على أنه مرفوع، بـ«تعالى»، و«جَداً» منصوب على التمييز. وعن عكرمة أيضاً «جَدٌ» بالتنوين والرفع «رَبُّنا» بالرفع على تقدير: تعالى جَدٌّ جَدُّ ربُّنا؛ فحذف الثاني بدل من الأوّل فجدّ وأقيم المضاف إليه مقامه. ومعنى الآية: وأنه تعالى جلال ربّنا أن يتخذ صاحبة وولداً للاستئناس بهما والحاجة إليهما، والرّب يتعالى عن الأنداد والنظراء. قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ الهاء في «أنه» للأمر أو

الحديث، وفي «كان» اسمها، وما بعدها الخبر. ويجوز أن تكون «كان» زائدة. والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج وقتادة. ورواه أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ. وقيل: المشركون من الجن: قال قتادة: عصاه سفيه الجن كما عصاه سفيه الإنس. والشطط والاشتطاط: الغلوّ في الكفر. وقال أبو مالك: هو الجوّر. الكلبيّ: هو الكذب. وأصله البعد فيعبّر عن الجور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق؛ قال الشاعر:

بأية حال حكّموا فيك فاشتطُّوا
وما ذاكَ إلا حيثُ يَمَّمَكَ الوَخْطُ

ابن كثير ج ٤ ص ٤٢٨

وقوله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي فعله وأمره وقدرته. وقال الضحاك عن ابن عباس جد الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، وروي عن مجاهد وعكرمة جلال ربنا، وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره، وقال السدي: تعالى آمر ربنا، وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره، وقال سعيد بن جبير ﴿تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالى ربنا، فأما ما رواه ابن أبي حاتم... عن ابن عباس قال: الجد، أب ولو علمت الجن أن في الإنس جد ما قالوا تعالى جد ربنا، فهذا إسناد جيد، ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام، ولعله قد سقط شيء والله أعلم. وقوله تعالى ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا، وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد.

الشوكاني ج ٥ ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥

يقال جدّ في عيني: أي عظم، فالمعنى: ارتفع عظمة ربنا وجلاله، وبه قال عكرمة ومجاهد. وقال الحسن: المراد تعالى غناه، ومنه قيل للحظ جدّ، ورجل مجدود: أي محظوظ، وفي الحديث «ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ» قال أبو عبيد والخليل: أي لا ينفع ذا الغنى منك الغنى: أي إنما تنفعه الطاعة، وقال القرطبي والضحاك: جدّه آلاؤه ونعمه على خلقه، وقال أبو عبيدة والأخفش: ملكه وسلطانه، وقال السديّ: أمره، وقال سعيد بن جبير ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي تعالى ربنا، وقيل جدّه قدرته، وقال محمد بن علي بن الحسين، وابنه جعفر الصادق، والربيع بن أنس: ليس لله جدّ، وإنما قالته الجنّ للجهالة. قرأ الجمهور «جدّ» بفتح الجيم، وقرأ عكرمة، وأبو حيوة، ومحمد بن السميفع بكسر الجيم، وهو ضدّ الهزل، وقرأ أبو الأشهب «جدي ربنا» أي جدواه ومنفعته. وروي عن عكرمة أيضاً أنه قرأ بتنوين «جدّ»، ورفع «ربنا» على أنه بدل من جدّ، ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه. قال الزجاج... وكأن الجن نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذي ينسبون إلى الله الصاحبة والولد، ونزّهوا الله سبحانه عنهما.

الآلوسي ج ١٥ ص ١٠٤ ـ ١٠٦

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ اختلفوا قراءة في أن هذه وما بعدها إلى ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ١٤] وتلك اثنتا عشرة، فقرأها ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وحفص بفتح الهمزة فيهن، ووافقهم أبو جعفر في ثلاثة ما هنا، وأنه كان يقول، وإنه كان رجال، وقرأ الباقون بكسرها في الجميع، واتفقوا على الفتح في أنه استمع، وأن المساجد لأن ذلك لا يصح أن يكون من قول الجن بل هو مما أوحى بخلاف الباقي، فإنه يصح أن يكون من قولهم، ومما أوحى، واختلفوا في أنه لما قام فقرأ نافع، وأبو بكر بكسر الهمزة، والباقون بفتحها كذا فصله بعض الأجلة، وهو المعول عليه، ووجه الكسر في أن هذه وما

بعدها إلى ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ ظاهر كالكسر في ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ [الجن: ١] لظهور عطف الجمل على المحكي بعد القول ووضوح اندراجها تحته وأما وجه الفتح ففيه خفاء، ولذا اختلف فيه، فقال الفراء، والزجاج، والزمخشري: هو العطف على محل الجار والمجرور في آمنا به كأنه قيل صدقناه. وصدقنا أنه تعالى جد ربنا، وأنه كان يقول سفيهنا، وكذلك البواقي، ويكفي في إظهاره المحل إظهار مع المرادف، وليس من العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار الممنوع عند البصريين في شيء، وإن قيل به هنا بناء على مذهب الكوفيين المجوزيين له، ولو قيل إنه بتقدير الجار لا طرد حذفه قبل أن، وإن لكان سديداً كما في الكشاف، وضعف مكي العطف على ما في حيز آمنا، فقال فيه سعد في المعنى لأنهم لم يخبروا أنهم آمنوا بأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به، ولا أنهم آمنوا بأنه كان رجال إنما حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا ذلك مخبرين عن أنفسهم لأصحابهم، وأجيب عن الذاهبين إليه بأن الإيمان والتصديق يحسن في بعض تلك المعطوفات بلا شبهة، فيمضي في البواقي ويحمل على المعنى على حد قوله «وزججن الحواجب والعيونا» فيخرج على ما خرج عليه أمثاله، فيؤول صدقنا بما يشمل الجميع، أو يقدر مع كل ما يناسبه، وقال أبو حاتم: هو العطف على نائب فاعل أوحى، أعني أنه استمع كما في أن المساجد، على أن الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنه قيل: قل أوحى إلي كيت وكيت، وهذه العبارات، وتعقب بأن حكاية عباراتهم تقتضي أن تكون أن في كلامهم مفتوحة الهمزة، ولا يظهر ذلك إلا أن يكون في كلامهم يقتضي الفتح، كاسمعوا، أو اعلموا، أو نخبركم، لكنه أسقط وقت الحكاية، ولا يظهر لإسقاطه وجه على تقدير الظهور، فالفتح ليس لأجل العطف فإن النائب عن الفاعل عليه مجموع كل جملة على إرادة اللفظ دون المنسبك من أن وما بعدها، وإلا لما صح أن يقال الموحى كيت وكيت وهذه العبارات، فإن كانت إن في كلامهم مكسورة الهمزة، وصحت دعوى أن الحكاية اقتضت فتحها مع صحة إرادة هذه العبارات معه، فذاك وإلا فالأمر كما ترى، فافهم وتأمل، والجد العظمة والجلال، يقال جد في عيني أي عظم، وجل أي، وصدقنا أن الشأن ارتفع عظمة وجلال ربنا، أي عظمت عظمته عزّ وجلّ، وفيه من المبالغة ما لا يخفى، وقال أبو عبيدة والأخفش: الملك والسلطان، وقيل الغني: وهو مروي عن أنس والحسن في الآية، والأول مروي عن الجمهور، والجد على جميع هذه الأوجه مستعار من الجد الذي هو البخت، وقوله عزّ وجلّ ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ عليها تفسير للجملة، وبيان لحكمها، ولذا لم يعطف عليها، فالمراد وصفه عزّ وجلّ بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته، أو لسلطانه، وتعالى وكأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقده كفرة الجن من تشبيهه سبحانه بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد، فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه. وقرأ حميد بن قيس «جُد» بضم الجيم، قال: في البحر ومعناه العظيم، حكاه سيبويه، وإضافته إلى ربنا من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى تعالى ربنا العظيم، وقرأ عكرمة «جد» منوناً مرفوعاً ربنا بالرفع، وخرج على أن الجد بمعنى العظيم أيضاً، وربنا خبر مبتدأ محذوف، أي هو ربنا، أو بدل من جد، وقرأ أيضاً جداً منوناً منصوباً على أنه تميز محول عن الفاعل، وقرأ هو أيضاً، وقتادة جداً بكسر الجيم والتنوين والنصب، ربنا بالرفع، قال: ابن عطية: نصب جداً على الحال، والمعنى تعالى ربنا حقيقة ومتمكناً، وقال غيره: هو صفة لمصدر محذوف: أي تعالياً جداً وقرأ ابن السميفع «جداً» ربنا، أي جدواه ونفعه سبحانه وكان المراد بذلك الغنى فلا تغفل.

القاسمي ج ١٦ ص ٣٠٥ ـ ٣٠٦

اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد. فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه الولد ... وة الباعثة إلى

اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد. فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه، الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه ولد.

٤١ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

(سورة الإخلاص، رقم ١١٢، الآية ١ ـ ٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٣٠	ص ٢٢١ ـ ٢٢٤	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩
الزمخشري	ج ٤	ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩	ابن كثير	ج ٤	ص ٥٦٥ ـ ٥٧١
الرازي	ج ٣٢	ص ١٧٤ ـ ١٨٥	الجلالان		ص ٨٢٦
الطبرسي	ج ٣٠	ص ٢٧٤ ـ ٢٨٣	الشوكاني	ج ٥	ص ٥١٥ ـ ٥١٨
ابن عربي	ج ٢	ص ٨٦٩ ـ ٨٧٠	الآلوسي	ج ٣٠	ص ٣٤٥ ـ ٣٥٦
البيضاوي	ج ٥	ص ١٩٩ ـ ٢٠٠	القاسمي	ج ١٧	ص ٢٩٠ ـ ٢٩٩
الخازن	ج ٧	ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢	الطباطبائي	ج ٢٠	ص ٣٨٧ ـ ٣٩٢
البغوي	ج ٤	ص ٥١٤ ـ ٥١٥	جوهري	ج ٢٥	ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧
الماوردي	ج ٦	ص ٣٦٩ ـ ٣٧٢	المراغي	ج ٣٠	ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦
القرطبي	ج ٢٠	ص ٢٤٤ ـ ٢٥٠	سيد قطب	ج ٦	ص ٤٠٠٢ ـ ٤٠٠٥

الطبري ج ٣٠ ص ٢٢١ ـ ٢٢٤

القول في تأويل قوله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ذكر أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب رب العزة، فأنزل الله هذه السورة جواباً لهم، وقال بعضهم بل نزلت من أجل أن اليهود سألوه، فقالوا له هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله، فأنزلت جواباً لهم. ذكر من قال: أنزلت جواباً للمشركين الذين سألوه أن ينسب لهم الرب تبارك وتعالى. حدثنا أحمد بن منيع المروزي ومحمود بن خداش الطالقاني. . . عن أبيّ بن كعب قال: قال المشركون للنبي ﷺ أنسب لنا ربك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ حدثنا ابن حميد. . . عن عكرمة قال: إن المشركين قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن ربك، صف لنا ربك ما هو، ومن أيّ شيء هو، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة. حدثنا ابن حميد. . . عن أبي العالية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال: قال ذلك قادة الأحزاب: أنسب لنا ربك، فأتاه جبريل بهذه. حدثني محمد بن عوف. . . عن جابر قال: قال المشركون: انسب لنا ربك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ذكر من قال: نزل ذلك من أجل مسألة اليهود. حدثنا ابن حميد محمد بن سعيد قال: أتى رهط من اليهود النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه، فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال: يقول الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فلما تلا عليهم النبي ﷺ قالوا: صف لنا ربك كيف خلقه، وكيف عضده، وكيف ذراعه، فغضب النبي ﷺ أشدّ من غضبه الأول، وساورهم غضباً، فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته، وأتاه بجواب ما سألوه عنه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] حدثنا ابن حميد. . . عن قتادة قال: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا أنسب لنا ربك، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختم السورة. فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا: قل يا محمد لهؤلاء السائليك عن نسب ربك وصفته ومن خلقه: الرب الذي سألتموني عنه، هو الله الذي له عبادة كل شيء، لا تنبغي العبادة إلا له، ولا تصلح لشيء سواه. واختلف أهل العربية في الرافع ﴿أَحَدٌ﴾ فقال بعضهم: الرافع له الله،

وهو عماد بمنزلة الهاء في قوله ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩] وقال آخر منهم: بل هو مرفوع، وإن كان نكرة بالاستئناف، كقوله: هذا بعلي شيخ، وقال: هو الله جواب لكلام قوم قالوا له: ما الذي تعبد؟ فقال هو الله، ثم قيل له: فما هو؟ قال هو أحد. وقال آخرون: أحد بمعنى واحد، وأنكر أن يكون العماد مستأنفاً به، حتى يكون قبله حرف من حروف الشك وأخواتها، وكان وذواتها، أو إن وما أشبهها. وهذا القول الثاني هو أشبه بمذاهب العربية. واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الأمصار ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ بتنوين أحد سوى نصر بن عاصم، وعبد الله بن أبي اسحق، فإنه روي عنهما ترك التنوين أحد الله، وكأن من قرأ ذلك كذلك، قال: نون الإعراب إذا استقبلتها الألف واللام أو ساكن من الحروف حذفت أحياناً، كما قال الشاعر:

كيف نومي على الفراش ولما
تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي
عن خدام العقيلة العذراء

يريد عن خدام العقيلة. والصواب في ذلك عندنا: التنوين، لمعنيين أحدهما: أفصح اللغتين، وأشهر الكلامين وأجودهما عند العرب. والثاني: إجماع الحجة من قراء الأمصار على اختيار التنوين فيه، ففي ذلك مكتفى عن الاستشهاد على صحته بغيره. وقد بينا معنى قوله أحد فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ يقول تعالى ذكره: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاّ له الصمد. واختلف أهل التأويل في معنى الصمد، فقال بعضهم: هو الذي ليس بأجوف، ولا يأكل ولا يشرب: ذكر من قال ذلك: حدثنا عبدالرحمن بن الأسود... عن ابن عباس قال: الصمد الذي ليس بأجوف. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد قال: الصمد المصمت الذي لا جوف له. حدثنا أبو كريب... عن مجاهد مثله سواء. حدثني الحرث... عن مجاهد قال الصمد المصمت الذي ليس له جوف. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد قال: الصمد الذي لا جوف له.

حدثنا أبو كريب قال: حدثنا وكيع، وحدثنا ابن حميد... عن مجاهد مثله. حدثنا ابن بشار... عن الحسن قال: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا الربيع بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة، قال: أرسلني مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن الصمد، فقال: الذي لا جوف له. حدثنا ابن بشار عن الشعبي قال: الصمد الذي لا يطعم الطعام. حدثنا يعقوب... عن الشعبي أنه قال: الصمد الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب. حدثنا أبو كريب وابن بشار... عن الضحاك قال: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا أبو كريب عن عامر قال: الصمد الذي لا يأكل الطعام. حدثنا ابن بشار وزيد بن الأخرم... عن سعيد بن المسيب قال: الصمد الذي لا حشوة له. حدثت عن الحسين... سمعت الضحاك يقول في قوله: الصمد الذي لا جوف له. حدثني العباس بن أبي طالب... عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: لا أعلمه إلا قد رفعه، قال: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا ابن عبد الأعلى... سمعت الحسن يقول: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن عكرمة قال: الصمد الذي لا جوف له. وقال آخرون: هو الذي لا يخرج منه شيء، ذكر من قال ذلك: حدثني يعقوب... سمعت عكرمة قال في قوله: الصمد الذي لم يخرج منه شيء، ولم يلد ولم يولد. حدثنا ابن بشار... عن عكرمة قال: الصمد الذي لا يخرج منه شيء. وقال آخرون: هو الذي لم يلد ولم يولد. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد... عن أبي العالية قال: الصمد الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا سيموت، فأخبرهم تعالى ذكره أنه لا يورث، ولا يموت. حدثنا أحمد بن منيع ومحمود بن خداش قالا ثنا أبو سعيد الصنعاني قال: قال المشركون للنبي ﷺ أنسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل ثناؤه لا يموت ولا يورث، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ولم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء. حدثنا

أبو كريب... عن محمد بن كعب الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وقال آخرون: هو السيد الذي قد انتهى سؤدده ذكر من قال ذلك: حدثني أبو السائب... عن شقيق قال: الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده. حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الأعلى... عن أبي وائل قال: الصمد السيد الذي قد انتهى سؤدده، ولم يقل أبو كريب وابن عبد الأعلى سؤدده. حدثنا ابن حميد... عن أبي وائل مثله. حدثنا علي... عن ابن عباس في قوله ﴿ ٱلصَّمَدُ ﴾ يقول السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه العظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف، والسؤدد وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلاّ له. وقال آخرون بل هو الباقي الذي لا يفنى. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة في قوله ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ قال: كان الحسن وقتادة يقولان: الباقي بعد خلقه، قال: هذه سورة خالصة ليس فيها ذكر شيء من أمر الدنيا والآخرة. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة قال: الصمد الدائم. قال أبو جعفر: الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه الذي لا أحد فوقه، وكذلك تسمى أشرافها، ومنه قول الشاعر:

ألا بكر الناعي بِخَيْري بني أسد
بعمرو بن مسعود بالسيد الصمد

وقال الزبرقان: ولا رهينة إلا سيد صمد. فإذا كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بتأويل الكلمة المعنى المعروف من كلام من نزل القرآن بلسانه، ولو كان حديث ابن بريدة، عن أبيه صحيحاً كان أولى الأقوال بالصحة، لأن رسول الله ﷺ أعلم بما عنى الله جل ثناؤه، وبما أنزل عليه، وقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ يقول: ليس بفان، لأنه لا شيء يلد إلا وهو فان بائد، ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ يقول: وليس بمحدث لم يكن فكان، لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه تعالى ذكره قديم لم يزل، ودائم لم يبد ولا يزول ولا يفنى. وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبيه، ولا مثل. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد... عن أبي العالية قوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء. حدثنا بشر عن عمرو بن غيلان الثقفي، وكان أمير البصرة عن كعب قال: إن الله تعالى ذكره أسس السموات السبع والأرضين السبع، على هذه السورة ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾، وإن الله لم يكافئه أحد من خلقه. حدثني علي... عن ابن عباس ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قال ليس كمثله شيء، فسبحان الله الواحد القهار. حدثني الحرث... عن ابن جريج ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا ﴾ مثل. وقال آخرون: معنى ذلك أنه لم يكن له صاحبة. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار... عن مجاهد قوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قال: صاحبة. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد مثله. حدثنا أبو كريب... عن مجاهد مثله. حدثنا ابن حميد... عن مجاهد ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قال: صاحبة. حدثنا أبو كريب... عن مجاهد ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قال: صاحبة. حدثنا أبو السائب... عن مجاهد مثله. والكفؤ والكفيء والكفاء في كلام العرب واحد، وهو المثل والشبه، ومنه قول نابغة بني ذبيان.

لا تقذفني بركن لا كفاء له
ولو تأثّفك الأعداء بالرِّفد

يعني: لا كفاء له: لا مثل له. واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ كُفُوًا ﴾ فقرأ ذلك عامة قراء البصرة ﴿ كُفُوًا ﴾ بضم الكاف والفاء وقرأه بعض قراء الكوفة بتسكين الفاء وهمزها كفئاً. والصواب من القول في ذلك أن يقال إنهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان، فبأيتهما قرأ القارىء فمصيب.

الزمخشري ج ٤ ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩

﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، و ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الشأن كقولك: هو زيد منطلق، كأنه قيل: الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له. فإن قلت: ما محل هو؟ قلت: الرفع على الابتداء والخبر الجملة. فإن قلت: فالجملة الواقعة خبر لا بد فيها من راجع إلى المبتدأ فأين الراجع؟ قلت: حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى، وذلك أن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الشأن الذي هو عبارة عنه، وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإن زيداً والجملة يدلان على معنيين مختلفين، فلا بد مما يصل بينهما... وأحد بدل من قوله الله، أو على هو أحد وهو بمعنى واحد، وأصله وحد. وقرأ عبد الله وأبيّ: هو الله أحد بغير قل، وفي قراءة النبي ﷺ الله أحد بغير قل هو، وقال «من قرأ الله أحد كان بعدل القرآن»، وقرأ الأعمش؛ قل هو الله الواحد، وقرىء أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف، ونحوه: «ولا ذاكر الله إلا قليلاً» والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين، و ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده... والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم ﴿لَمْ يَلِدْ﴾... وقد دل على هذا المعنى بقوله ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾، [الأنعام: ١٠١] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم، وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد: أي لم يماثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفياً للصاحبة، سألوه أن يصفه لهم، فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته، فقوله ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها، وفي طيّ ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام، وفي ذلك وصفه بأنه حيّ سميع بصير، وقوله ﴿أَحَدٌ﴾ وصف بالوحدانية ونفي الشركاء، وقوله ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه، وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه فهو غني، وفي كونه غنياً مع كونه عالماً أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح، وعلمه بغناه عنه، وقوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وصف بالقدم والأولية، وقوله ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ نفي للشبه والمجانسة، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ تقرير لذلك، وبت للحكم به. فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر، ولا يقدم. وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدماً في أفصح كلام وأعربه؟ قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو، وهذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقدم وأحراه. وقرىء «كُفُؤاً» بضم الكاف والفاء، وبضم الكاف وكسرها [كِفْئاً] مع سكون الفاء. فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على قصر متنها وتقارب طرفيها؟ قلت: لأمر ما يسودّ من يسوّد، وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده، وكفى دليلاً من اعترف بفضلها وصدّق بقول رسول الله ﷺ فيها: إن علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضع بضعته، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته، وما يجوز عليه، وما لا يجوز، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم، واستيلائه على قصب السبق دونه، ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه، وقلة تعظيمه له، وخلوّه من خشيته، وبعده من النظر لعاقبته.

اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك، العاملين لك، القائلين بعدلك، وتوحيدك، الخائفين من وعيدك، وتسمى سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين. وروى أبيّ، وأنس عن النبي ﷺ: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله، ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة عن رسول الله ﷺ: «أنه سمع رجلاً يقرأ قل هو أحد فقال: وجبت، قيل يا رسول الله وما وجبت؟ قال: وجبت له الجنة».

الرازي ج ص ١٧٤ ـ ١٨٥

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قبل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصول:

الفصل الأول: روى أبي، قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة قل هو الله أحد، فكأنما قرأ ثلث القرآن، وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله، وآمن بالله»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة أعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأعطى من الأجر مثل مائة شهيد»، وروي «أنه كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام إذ أقبل أبو ذر الغفاري، فقال جبريل: هذا أبو ذر قد أقبل، فقال عليه الصلاة والسلام: أو تعرفونه؟ قال هو أشهر عندنا منه عندكم، فقال عليه الصلاة والسلام بماذا نال هذه الفضيلة؟ قال لصغره في نفسه وكثرة قراءته قل هل هو الله أحد» وروى أنس قال «كنا في تبوك فطلعت الشمس مالها شعاع وضياء وما رأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك فعجب كلنا، فنزل جبريل وقال إن الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية، فهل لك أن تصلي عليه ثم ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال وصار الرسول عليها الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه فصلى هو وأصحابه عليه، ثم قال: بم بلغ ما بلغ؟ فقال جبريل كان يحب سورة الإخلاص، وروى «أنه دخل المسجد فسمع رجلاً يدعو ويقول أسألك يا الله يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال غفر لك غفر لك غفر لك ثلاث مرات» وعن سهل بن سعد «جاء رجل إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقر فقال إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك، واقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقاًحتى أفاض على جيرانه» وعن أنس «أن رجلاً كان يقرأ في جميع صلاته ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فسأله الرسول عن ذلك فقال يا رسول الله إني أحبها، فقال حبك إياها يدخلك الجنة» وقيل من قرأها في المنام: أعطى التوحيد وقلة العيال وكثرة الذكر لله، وكان مستجاب الدعوة.

الفصل الثاني: في سبب نزولها وفيه وجوه: الأول: أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحاك إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا شققت عصانا وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها، فقال عليه الصلاة والسلام لست بفقير، ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته، فأرسلوه ثانية وقالوا قل له بين لنا جنس معبودك: أمن ذهب أو فضة، فأنزل الله هذه السورة، فقالوا له ثلثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ [الصافات: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [الصافات: ٤] فأرسلوه أخرى، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] الثاني: أنها نزلت بسبب سؤال اليهود روى عكرمة عن ابن عباس، أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف، فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكنه، وقال اخفض جناحك يا محمد، فنزل: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما تلاه عليهم قالوا صف لنا ربك كيف عضده، وكيف ذراعه؟ فغضب أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] الثالث: أنها نزلت بسبب سؤال النصارى، روى عطاء عن ابن عباس، قال قدم وفد نجران، فقالوا صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالوا هو واحد، وأنت واحد، فقال ليس كمثله شيء، قالوا زدنا من الصفة، فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فقالوا وما الصمد؟ فقال الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا زدنا فنزل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ كما ولدت مريم ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما ولد عيسى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يريد نظيراً من خلقه.

الفصل الثالث: في أساميها، اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد لما ذكرناه فأحدها: سورة التفريد. وثانيها: سورة التجريد. وثالثها: سورة التوحيد. ورابعها: سورة الإخلاص لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال، ولأن من اعتقده كان مخلصاً في دين الله، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار، ولأن ما قبله خلص في ذم أبي لهب فكان جزاء من قرأه أن لا يجمع بينه وبين أبي لهب. وخامسها: سورة النجاة لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا، وعن النار في الآخرة. وسادسها: سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة. وسابعها: سورة النسبة لما روينا أنه ورد جواباً لسؤال من قال انسب لنا ربك، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بني سليم «يا أخا بني سليم استوص بنسبة الله خيراً» وهو من لطيف المباني، لأنهم لما قالوا انسب لنا ربك، فقال نسبة الله هذا والمحافظة على الأنساب من شأن العرب، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص، فنسبة الله في هذه السورة أولى بالمحافظة عليها. وثامنها: سورة المعرفة لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة، روى جابر أن رجلاً صلّى فقرأ قل هو الله أحد فقال النبي عليه الصلاة والسلام إن هذا عبد عرف ربه فسميت سورة المعرفة لذلك. وتاسعها: سورة الجمال قال عليه الصلاة والسلام «إن الله جميل يحب الجمال» فسألوه عن ذلك فقال أحد صمد لم يلد ولم يولد لأنه إذا لم يكن واحداً عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه. وعاشرها: سورة المقشقشة، يقال تقشيش المريض مما به، فمن عرف هذا حصل له البرء من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة: ١٠]. الحادي عشر: المعوذة، روى أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها وباللتين بعدها، ثم قال «تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها». والثاني عشر: سورة الصمد لأنها مختصة بذكره تعالى. الثالث عشر: سورة الأساس، قال عليه الصلاة والسلام «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد» ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ ﴾ [مريم: ٩٠] فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. الرابع عشر: سورة المانعة روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبيه حين عرج به أعطيتك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران: الخامس عشر: سورة المحضر لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت. السادس عشر: المنفرة لأن الشيطان ينفر عند قراءتها. السابع عشر: البراءة لأنه روي أنه عليه السلام رأى رجل يقرأ هذه السورة، فقال أما هذا فقد برىء من الشرك، وقال عليه السلام من قرأ سورة قل هو الله أحد مائة مرة في صلاة أو في غيرها كتبت له براءة من النار. الثامن عشر: سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد فقراءة السورة كالوسمة تذكرك ما تتغافل عنه مما أنت محتاج إليه. التاسع عشر: سورة النور قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [النور: ٣٥] فهو المنور للسموات والأرض، والسورة تنور قلبك وقال عليه السلام «إن لكل شيء نور ونور القرآن قل هو الله أحد» ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الحدقة، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان. العشرون: سورة الأمان قال عليه السلام «إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي».

الفصل الرابع: في فضائل هذه السورة وهي من وجوه: الأول: اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعلَّ الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وأما سورة ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١] فهي

معادلة لربع القرآن، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة، وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في بعض الأسامي فهما المقشقشتان والمبرئتان، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى، إلا أن ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به. الوجه الثاني: وهو أن ليلة القدر لكونها صدقاً للقرآن كانت خيراً من ألف شهر فالقرآن كله صدف والدر هو قوله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة. الوجه الثالث: وهو أن الدليل العقلي دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستنيراً بنور جلال الله وكبريائه، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة، فكانت هذه السورة أعظم السور، فإن قيل فصفات الله أيضاً مذكورة في سائر السور، قلنا لكن هذه السورة لها خاصية وهي أنها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة للعقول فيكون ذكر جلال الله حاضراً أبداً بهذا السبب، فلا جرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل. وليرجع الآن إلى التفسير. قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه، ولا كان القبر سجناً على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه، ثم إن معرفة الله تعالى مما يريدها الهوى والعقل، فصارت جنة مطلقة، وبيان ما قلنا أن العقل يريد أميناًتودع عنده الحسنات، والشهوة تريد غنياً يطلب منه المستلِذات، بل العقل كالإنسان الذي له همة عالية فلا ينقاد إلا لمولاه، والهوى كالمنتجع الذي إذا سمع حضور غني، فإنه ينشط للانتجاع إليه، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المتربصة، فلما عرفاه كما أراده عالماً وغنياً تعلقا بذيله، فقال العقل: لا أشكر أحداً سواك، وقالت الشهوة: لا أسأل أحداً إلا إياك، ثم جاءت الشبهة فقالت: يا عقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلاً؟ ويا شهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا باباً آخر؟ فبقي العقل متحيراً وتنغصت عليه تلك الراحة، فأراد أن يسافر في عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين فكأن الحق سبحانه قال: كيف أنغص على عبدي لذة الاشتعال بخدمتي وشكري، فبعث الله رسوله وقال: لا تقله من عند نفسك، بل قل هو الذي عرفته صادقاً يقول لي: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فعرفك الوحدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل، وتحقيقه أن المطالب على ثلاثة أقسام قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته كالعلم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ما علم بالعقل جواز وقوعه، وقسم ثالث يمكن الوصول إليه بالعقل والسمع معاً، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرئي إلى غيرهما، وقد استقصينا في تقرير دلائل الوحدانية فيتفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

المسألة الثانية: اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] من قل وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل في سورة ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد:١] وأما في هذه السورة فقد اختلفوا، فالقراءة المشهورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ أبي وابن مسعود بغير قل هكذا ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ النبي ﷺ، بدون قل هو هكذا ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فمن أثبت قل قال: السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكى كل ما يقال له، ومن حذفه قال: لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام.

المسألة الثالثة: أعلم أن في إعراب هذه الآية وجوهاً: أحدها: أن هو كناية عن اسم الله، فيكون قوله: (الله) مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ، ويجوز في قوله ﴿أَحَدٌ﴾ ما يجوز في قولك: زيد أخوك قائم. الثاني: أن هو كناية عن الشأن، وعلى هذا التقرير يكون الله مرتفعاً بالابتداء وأحد خبره، والجملة تكون خبراً عن هو، والتقدير الشأن والحديث: هو أن الله أحد، ونظيره قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] إلا أن هي جاءت على التأنيث، لأن في التفسير: اسماً مؤنثاً، وعلى هذا جاء ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ [الحج: ٤٦] أما إذا لم يكن في التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة، كقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٧٤]. والثالث: قال الزجاج: تقدير هذه الآية أن هذا الذي سألتم عنه هو الله أحد.

المسألة الرابعة: في أحد وجهان: أحدهما: إنه بمعنى واحد، قال الخليل: يجوز أن يقال أحد اثنان وأصل أحد وحد إلا أنه قلبت الواو همزة للتخفيف وأكثر ما يفعلون هذا بالواو المضمومة، والمكسورة كقولهم وجوه وأوجوه وسادة وأسادة. والقول الثاني: إن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى لا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال: رجل واحد أي فردّ به بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء. ثم ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً: أحدها: إن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه. وثانيها: أنك إذا قلت فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد، فإنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لا يجوز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان. وثالثها: أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي، تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداًوتقول في النفي ما رأيت أحداً فيفيد العموم.

المسألة الخامسة: اختلف القراء في قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فقراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا أحدن الله، وهو القياس الذي لا إشكال فيه، وذلك لأن التنوين من أحد ساكن ولام المعرفة من الله ساكنة، ولما التقى ساكنان حرك الأول منهما بالكسر، وعن أبي عمرو، أحد الله بغير تنوين، وذلك أن النون شابهت حروف اللين في أنها تزاد كما يزدن فلما شابهتها أجريت مجراها في أن حذفت ساكنة لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والواو والياء لذلك نحو غزا القوم ويغزو القوم، ويرمي القوم، ولهذا حذفت النون الساكنة في الفعل نحوَ (لم يك) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ [هود: ١٧] فكذا ههنا حذفت في أحد الله لالتقاء الساكنين كما حذفت هذه الحروف.

وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] وروى أيضاً عن أبي عمرو (أحدْ الله) وقال: أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلا على السكون، قال أبو علي قد تجري الفواصل في الإدراج مجراها في الوقف وعلى هذا قال من قال ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا. رَبَّنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ. نَارٌ﴾ [القارعة: ١٠] فكذلك (أحد الله) لما كان أكثر القراء فيما حكاه أبو عمرو على الوقف أجراه في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم، وقرأ الأعمش ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإن قيل لماذا؟ قيل أحد على النكرة، قال الماوردي فيه وجهان: أحدهما: حذف لام التعريف على نية اضمارها والتقدير قل هو الله الأحد. والثاني: أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم.

المسألة السادسة: اعلم أن قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألفاظ ثلاثة وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين. فالمقام الأول: مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده، وأما ما عداه فممكن لذاته والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدوماً، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق سبحانه، وقوله: (هو) إشارة مطلقة والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين، فلا جرم كان قولنا هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه فلم يفتقرو

في تلك الإشارة إلى مميز، لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان، وقد بينا أن هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط، فلهذا السبب كانت لفظة (هو) كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء، المقام الثاني: وهو مقام أصحاب اليمين وهو دون المقام الأول، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً، فحصلت كثرة في الموجودات فلا جرم لم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحق، بل لا بد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق: فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة الله بلفظة هو، فقيل لأجلهم هو الله، لأن الله هو الموجود الذي يفتقر إليه ما عداه، ويستغني هو عن كل ما عداه، والمقام الثالث: وهو مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وأدونها، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد وأن يكون الإله أكثر من واحد فقرن لفظ الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطالاً لمقالاتهم فقيل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وههنا بحث آخر أشرف وأعلى مما ذكرناه وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية، أما الإضافية فكقولنا عالم، قادر مريد خلاق، وأما السلبية فكقولنا ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات وثانياً على النوع الثاني منها، وقولنا الله يدل على مجامع الصفات الإضافية، وقولنا: أحد يدل على مجامع الصفات السلبية، فكان قولنا: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تاماً في إفادة العرفان الذي يليق بالعقول البشرية، وإنما قلنا إن لفظ الله يدل على مجامع الصفات الإضافية، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالايجاد والإبداع والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات. وهذه مجامع الصفات الإضافة، وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحدية، وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التركيب، وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته، فكل مركب فهو ممكن لذاته، فالإلّه الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً، فهو في نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحدية، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره، وكل ما كان كذلك فهو منقسم، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهاد، ويجب أن لا يكون حالاً في شيء، لأنه مع محله لا يكون أحداً، ولا يكون محلاً لشيء، لأنه مع حاله لا يكون أحداً، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً البتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجبا الوجود لاشتركا في الوجوب ولتمايزا في التعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة فكل واحد منهما مركب، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً (فإن قيل) كيف يعقل كون الشيء أحداً، فإن كل حقيقة توصف بالأحدية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحدية ومجموعهما فذاك ثالث ثلاثة لا أحد. الجواب: أن الأحدية لازمة لتلك الحقيقة فالمحكوم عليه بالأحدية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحدية، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب وتمام الكلام في هذا الباب مذكور في تفسير قوله ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ وجهين: الأول: إنه فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج، قال الشاعر:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال أيضاً:

علوته بحسامي ثم قلت له
خذها حذيف فأنت السيد الصمد

والدليل على صحة هذا التفسير ما روى ابن عباس: «أنه لما نزلت هذه الآية قالوا ما الصمد؟ قال عليه السلام هو السيد الذي يصمد إليه في الحوائج» وقال الليث صمدت صمد هذا الأمر أي قصدت قصده. والقول الثاني: إن الصمد هو الذي لا جوف له ومنه يقال لسداد القارورة الصماد، وشيء مصمد أي صلب ليس فيه رخاوة، وقال قتادة، وعلى هذا التفسير: الدال فيه مبدلة من التاء وهو المصمت، وقال بعض المتأخرين من أهل اللغة الصمد هو الأملس من الحجز الذي لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء، واعلم أنه قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحداً ينافي [كونه] جسماً فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة وتعالى الله عن ذلك، فإذن يجب أن يحمل ذلك على مجازه، وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ممتنع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته، فهذا ما يتعلق بالبحث اللغوي في هذه الآية.

وأما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه، بعضها يليق بالوجه الأول وهو كونه تعالى سيداً مرجوعاً إليه في دفع الحاجات، وهو إشارة إلى الصفات الإضافية، وبعضها بالوجه الثاني وهو كونه تعالى واجب الوجود في ذاته وفي صفاته ممتنع التغير فيهما وهو إشارة إلى الصفات السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعاً للوجهين.

أما النوع الأول: فذكروا فيه وجوهاً: الأول: الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن كونه سيداً مرجوعاً إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك. الثاني: الصمد هو الحليم لأن كونه سيداً يقتضي الحلم والكرم. الثالث: وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده. الرابع: قال الأصم الصمد هو الخالق للأشياء، وذلك لأن كونه سيداً يقتضي ذلك. الخامس: قال السدي الصمد هو المقصود في الرغائب، المستغاث به عند المصائب. السادس: قال الحسين بن الفضل البجلي: الصمد هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه. السابع: أنه السيد المعظم. الثامن: أنه الفرد الماجد لا يقضي في أمر دونه.

وأما النوع الثاني: وهو الإشارة إلى الصفات السلبية فذكروا فيه وجوها: الأول: الصمد هو الغني على ما قال: ﴿ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحديد: ٢٤]. الثاني: الصمد الذي ليس فوقه أحد لقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٨] ولا يخاف من فوقه، ولا يرجو من دونه ترفع الحوائج إليه. الثالث: قال قتادة لا يأكل ولا يشرب ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام: ١٤] الرابع: قال قتادة الباقي بعد فناء خلقه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦]. الخامس: قال الحسن البصري: الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش ولا كرسي، ولا جني ولا إنسي وهو الآن كما كان. السادس: قال أبي بن كعب: الذي لا يموت ولا يورث وله ميراث السموات والأرض. السابع: قال يمان وأبو مالك: الذي لا ينام ولا يسهو. الثامن: قال ابن كيسان: هو الذي لا يوصف بصفة أحد. التاسع: قال مقاتل بن حيان: هو الذي لا عيب فيه. العاشر: قال الربيع بن أنس: هو الذي لا تعتريه الآفات. الحادي عشر: قال سعيد بن جبير: إنه الكامل في جميع صفاته، وفي جميع أفعاله. الثاني عشر: قال جعفر الصادق: إنه الذي يغلب ولا يغلب. الثالث عشر: قال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد. الرابع عشر: قال أبو بكر الوراق: إنه الذي أيس الخلائق من الاطلاع على كيفيته. الخامس عشر: هو الذي لا تدركه الأبصار. السادس عشر: قال أبو العالية ومحمد القرظي: هو الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا وسيموت. السابع عشر: قال ابن عباس: إنه الكبير الذي ليس فوقه أحد. الثامن عشر: أنه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات، وعن أن يكون مورداً للتغيرات والتبدلات، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآنات والجهات.

وأما الوجه الثالث: وهو أن يحمل لفظ الصمد على الكل وهو محتمل، لأنه بحسب دلالته على الوجوب الذاتي يدل على جميع السلوب، وبحسب دلالته على كونه مبدأ للكل يدل على جميع النعوت الإلّهية.

المسألة الثانية: قوله ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله، وإذا كان الصمد مفسراً بالمصمود إليه في الحوائج، أو بما لا يقبل التغير في ذاته لزم أن لا يكون في الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى، فهذه الآية تدل على أنه لا إلّه سوى الواحد، فقوله: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى أنه ليس في ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد. وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: لم جاء أحد منكراً، وجاء الصمد معرفاً؟ الجواب: الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم، فإذا ما لا يكون منقسماً لا يكون خاطراً ببال أكثر الخلق، وأما الصمد فهو الذي يكون مصموداً إليه في الحوائج، وهذا كان معلوماً للعرب بل لأكثر الخلق على ما قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق، لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف.

السؤال الثاني: ما الفائدة في تكرير لفظة الله في قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾؟ الجواب: لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يردا، إما نكرتين أو معرفتين، وقد بينا أن ذلك غير جائز، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منكراً ولفظ الصمد معرفاً.

قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فيه سؤالات:

السؤال الأول: لم قدم قوله ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ على قوله: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ مع أن في الشاهد يكون أولاً مولوداً، ثم يكون والداً؟ الجواب: إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد. لأنهم ادعوا أن له ولداً، وذلك لأن مشركي العرب قالوا (الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزير ابن الله)، وقالت النصارى المسيح ابن الله) ولم يدع أحد أن له والداً فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال: ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ كأنه قيل الدليل على امتناع الولدية! إتفاقنا على أنه ما كان ولد لغيره. السؤال الثاني: لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ولم يقل لن يلد؟ الجواب: إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جواباً عن قولهم ولد الله والدليل عليه قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٢] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك في الماضي، لا جرم وردت الآية على وفق قولهم.

السؤال الثالث: لم قال ههنا ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ وقال في الفرقان ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الفرقان: ٢]؟ الجواب: أن الولد يكون على وجهين: أحدهما: أن يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقي والثاني: أن لا يكون متولداً منه ولكنه يتخذه ولداً ويسميه هذا الاسم، وإن لم يكن ولداً له في الحقيقة، والنصارى فريقان: منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة، ومنهم من قال إن الله اتخذه ولداً تشريفاً له، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً له، فقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ فيه إشارة إلى نفي الوالد في الحقيقة، وقوله: ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ [الإسراء: ١١١] إشارة إلى نفي القسم الثاني، ولهذا قال: ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الإسراء: ١١١] لأن الإنسان قد يتخذ ولداً ليكون ناصراً ومعيناً له على الأمر المطلوب، ولذلك قال في سورة أخرى ﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ [يونس: ٦٨] وإشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة.

السؤال الرابع: نفى كونه تعالى والداً ومولوداً، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا؟ الجواب: نفى كونه تعالى والداً مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعض ولا منقسم، ونفى كونه تعالى مولوداً مستفاد من العلم بأنه تعالى قديم، والعلم بكل واحد من هذين الأصلين متقدم

على العلم بالنبوة والقرآن، فلا يمكن أن يكونا مستفادين من الدلائل السمعية. بقي أن يقال فلما لم يكن استفادتهما من السمع، فما الفائدة في ذكرهما في هذه السورة؟ قلنا: قد بينا أن المراد من كونه أحداً كونه سبحانه في ذاته وماهيته منزهاً عن جميع أنحاء التراكيب، وكونه تعالى صمداً معناه كونه واجباً لذاته ممتنع التغير في ذاته وجميع صفاته، وإذا كان كذلك فالأحدية والصمدية يوجبان نفي الولدية والمولودية، فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الوالدية والمولودية، لا جرم ذكر هذين الحكمين، فالمقصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفائهما.

السؤال الخامس: هل في قوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فائدة أزيد من نفي الولدية ونفي المولودية؟ قلنا: فيه فوائد كثيرة، وذلك لأن قوله ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إشارة إلى كونه تعالى في ذاته وماهيته منزهاً عن التركيب، وقوله ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ إشارة إلى نفي الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان، وبين الفلاسفة، إلا أن من بعد هذا الموضع حصل الاختلاف بين أرباب الملل وبين الفلاسفة، فإن الفلاسفة قالوا: إنه يتولد عن واجب الوجود عقل، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك، وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهي إلى العقل الذي هو مدبر ما تحت كرة القمر، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذي هو تحته، ويكون العقل الذي هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التي فوقه، فالحق سبحانه وتعالى نفى الوالدية أولاً، كأنه قيل إنه لم يلد العقول والنفوس، ثم قال: والشيء الذي هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولوداً من شيء آخر، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذي هو الحق سبحانه.

قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فيه سؤالان:

السؤال الأول: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله ورد مقدماً في أفصح الكلام؟ والجواب: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الله، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف، وتقديم الأهم أولى، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم.

السؤال الثاني: كيف القراءة في هذه الآية؟. الجواب: قرىء ﴿كُفُوًا﴾ بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء، والأصل هو الضم ثم يخفف مثل طنب وطنب وعنق وعنق، وقال أبو عبيدة يقال كفو وكفء وكفاء كله بمعنى واحد وهو المثل، وللمفسرين فيه أقاويل: أحدها: قال كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عديل، ومنه المكافأة في الجزاء لأنه يعطيه ما يساوي ما أعطاه. وثانيها: قال مجاهد: لم يكن صاحبة كأنه سبحانه وتعالى قال: لم يكن أحد كفؤاً له فيصاهره، رداً على من حكى الله عنه قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨] فتفسير هذه الآية كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾. وثالثها وهو: التحقيق أنه تعالى بين لما بين أنه هو المصمود إليه في قضاء الحوائج ونفي الوسائط من البين بقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ على ما بيناه، فحينئذ ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يكون مساوياً له في شيء من صفات الجلال والعظمة، أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هي هي، وأما سائر الحقائق، فإنها قابلة للعدم، وأما العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضروري ولا باستدلالي ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ولا يكون في معرض الغلط والزلل وعلوم المحدثات كذلك، وأما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان!. واعلم أن هذه السورة أربع آيات، وفي ترتيبها أنواع من الفوائد:

الفائدة الأولى: أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد، والصمد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً و ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ على أنه غني على الإطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشيء أصلاً، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر، بل

بمحض الإحسان وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات.

الفائدة الثانية: نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ ونفى النقص والمغلوبية بلفظ الصمد، ونفى المعلولية والعلية بلم يلد ولم يولد، ونفى الأضداد والأنداد بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة، والنصارى في التثليث، والصابئين في الأفلاك والنجوم، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات، والثالثة تبطل مذهب اليهود في عزيز، والنصارى في المسيح، والمشركين في أن الملائكة بنات الله، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء له وشركاء.

الفائدة الرابعة: أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا: إنه أبتر لا ولد له، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿قُلْ﴾ حتى تكون ذاباً عني، وفي سورة ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ [الكوثر: ١] أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الطبرسي ج ٣ ص ٢٧٤ ـ ٢٨٣

المعنى

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هذا أمر من الله عز اسمه لنبيه ﷺ أن يقول لجميع المكلفين هو الله الذي تحق له العبادة، قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله عز وجل ومعناه الذي سألتم تبيين نسبته هو الله أحد أي واحد، ويجوز أن يكون المعنى الله أحد لا شريك له ولا نظير، وقيل معناه واحد ليس كمثله شيء... عن ابن عباس، وقيل واحد في الإلّهية والقدم، وقيل واحد في صفة ذاته لا يشركه في وجوب صفاته أحد، فإنه يجب أن يكون موجوداً عالماً قادراً حياً، ولا يكون ذلك واجباً لغيره، وقيل واحد في أفعاله لأن أفعاله كلها إحسان لم يفعلها لجر نفع، ولا لدفع ضرر، فاختص بالوحدة من هذا الوجه إذ لا يشركه فيه سواه، واحد في أنه لا يستحق العبادة سواه لأنه قادر على أصول النعم من الحياة، والقدرة والشهوة، وغير ذلك مما لا تكون النعمة نعمة إلا به، ولا يقدر على شيء من ذلك غيره فهو أحد من هذه الوجوه الثلاثة. وقيل: إنما قال أحد ولم يقل واحد لأن الواحد يدخل في الحساب ويضم إليه آخر، وأما الأحد فهو الذي لا يتجزأ ولا ينقسم في ذاته ولا في معنى صفاته، ويجوز أن يفعل للواحد ثانياً ولا يجوز أن يجعل للأحد ثانياً، لأن الأحد يستوعب جنسه بخلاف الواحد، ألا ترى أنك لو قلت: فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقاومه اثنان، ولما قلت: لا يقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان، ولا أكثر فهو أبلغ، وقال أبو جعفر الباقر (ع) في معنى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل أظهر ما أوحينا إليك، وما نبأناك به بتأليف الحروف التي قرأناها عليك ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد، وهو اسم مكنى مشار إلى غائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أن قولك: هذا إشارة إلى الشاهد عند الحواس، وذلك أن الكفار نبهوا عن آلهتهم بحرف إشارة إلى المشاهد المدرك فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة بالأبصار، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذى تدعو إليه حتى نراه وندركه، ولا نأله فيه، فأنزل الله سبحانه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فالهاء تثبيت للثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار، ولمس الحواس، وأنه يتعالى عن ذلك بل هو مدرك الأبصار ومبدع الحواس، وحدثني أبي عن أبيه عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: رأيت الخضر في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له علمني شيئاً انتصر به على الأعداء، فقال: قل يا هو يا من لا هو إلا هو، فلما أصبحت قصصت على رسول الله ﷺ فقال: يا علي علمت الاسم الأعظم فكان على لساني يوم بدر، قال: وقرأ (ع) يوم بدر ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما فرغ قال: يا هو يا من لا

هو إلا هو اغفر لي، وانصرني على القوم الكافرين، وكان يقول ذلك يوم صفين وهو يطارد، فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: اسم الله الأعظم، وعماد التوحيد لا إله إلا هو، ثم قرأ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وآخر الحشر، ثم نزل فصلى أربع ركعات قبل الزوال، قال: وقال أمير المؤمنين (ع): الله معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق، ويؤله إليه الله المستور عن إدراك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات، وقال الباقر (ع): الله معناه المعبود الذي أله الخلق عن إدراك ماهيته، والإحاطة بكيفيته، وتقول العرب أله الرجل إذا تحير في الشيء، فلم يحط به علماً، ووله إذا فزع إلى شيء، قال: والأحد الفرد المتفرد، والأحد الواحد بمعنى واحد، وهو المتفرد، الذي لا نظير له، والتوحيد الإقرار بالوحدة، وهو الانفراد، والواحد المباين الذي لا ينبعث من شيء، ولا يتحد بشيء، ومن ثم قالوا: إن بناء العدد من الواحد، وليس الواحد من العدد لأن العدد، لا يقع على الواحد بل يقع على الاثنين، فمعنى قوله ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي المعبود يأله الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيته، فردٌ بألهيته متعال عن صفات خلقه. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال الباقر (ع): حدثني أبي زين العابدين (ع) عن أبيه الحسين بن علي (ع) أنه قال: الصمد الذي قد انتهى سؤدده، والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال، والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد الذي لا ينام. وأقول أن المعنى في هذه الثلاثة أنه سبحانه الحي الذي لا يحتاج إلى الطعام والشراب والنوم، قال الباقر (ع): والصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه آمر ولا ناه، قال: وكان محمد بن الحنفية يقول: الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره، وقال غيره: الصمد المتعالي عن الكون والفساد، والصمد الذي لا يوصف بالنظائر قال: وسئل علي بن الحسين زين العابدين (ع) عن الصمد فقال: الصمد الذي لا شريك له، ولا يؤوده حفظ شيء ولا يغرب عنه شيء، وقال أبو البختري: وهب بن وهب القرشي، قال زيد بن علي (ع): الصمد الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون... قال وهب بن وهب: وحدثني الصادق جعفر بن محمد(ع) عن أبيه الباقر (ع) عن أبيه (ع): أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي (ع) يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تكلموا فيه، بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، وإن الله سبحانه قد فسر الصمد فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ﴿لَمْ يَلِدْ﴾لم يخرج منه شيء كثيف كالولد، ولا سائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا ينبعث منه البدوات: كالسنة والنوم والخطرة والغم والحزن والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والسآمة والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولد منه شيء كثيف، أو لطيف ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، والنار من الحجر، لا بل هو الله الصمد الذي لا من شيء، ولا في شيء، ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها، ومنشيء الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. قال وهب بن وهب: سمعت الصادق (ع) يقول: قدم وفد من فلسطين على الباقر (ع) فسألوه عن مسائل، فأجابهم عنها. ثم سألوه عن الصمد، فقال: تفسيره فيه، الصمد خمسة أحرف «فالألف» دليل على آنيته، وهو قوله عز وجل شهد الله أنه لا إلّه إلا هو، وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس، «واللام» دليل على إلهيته بأنه هو الله، والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان، ولا يقعان في السمع، ويظهر أن في الكتابة دليلان على إلهيته بلطفه خافية، لا يدرك بالحواس ولا يقع في لسان واصف، ولا أذن سامع، لأن تفسير الإله هو الله الذي أله الخلق عن

درك ماهيته وكيفيته بحس أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام، وخالق الحواس، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة، فهو دليل على أن الله سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، وإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه، كما أن لام الصمد لا يتبين، ولا يدخل في حاسة من حواسه الخمس، فلما نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف، فمتى تفكر العبد في ماهية الباري وكيفيته أله وتحير، ولم تحط فكرته بشيء يتصور له، لأنه تعالى خالق الصور، وإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عز وجل خالقهم، ومركب أرواحهم في أجسادهم. وأما «الصاد» فدليل على أنه سبحانه صادق، وقوله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى اتباع الصدق بالصدق، ووعدنا بالصدق، وأراد الصدق. وأما «الميم» فدليل على ملكه، وأنه الملك الحق المبين لم يزل، ولا يزال، ولا يزول ملكه. وأما «الدال» فدليل على دوام ملكه، وأنه دائم تعالى عن الكون والزوال، بل هو الله عز وجل مكون الكائنات الذي كان بتكوينه كل كائن. ثم قال (ع) لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله حمله لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرائع من الصمد، وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين (ع) حمله لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء، أو يقول على المنبر سلوني قبل أن تفقدوني، فإن بين الجوانح مني علماً جماً هاه هاه ألا لا أجد من يحمله إلا وإن عليكم من الله الحجة البالغة، فلا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وعن عبد خير قال: سأل رجل علياً (ع) عن تفسير هذه السورة فقال: قل هو الله أحد بلا تأويل، عدد الصمد بلا تبعيض، بدد لم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم يولد فيكون إلهاً مشاركاً، ولم يكن له من خلقه كفواً أحد.

ابن عربي ج ٢ ص ٨٦٩ - ٨٧٠

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قل أمر من عين الجمع، وارد على مظهر التفصيل، هو عبارة عن الحقيقة الأحدية الصرفة. أي، الذات من حيث هي بلا اعتبار صفة لا يعرفها إلا هو، والله بدل منه. وهو اسم الذات مع جميع الصفات دلّ بالإبدال على أن صفاته تعالى ليست بزائدة على ذاته، بل هي عين الذات لا فرق إلا بالاعتبار العقلي.

ولهذا سمّيت سورة الإخلاص، لأن الإخلاص تمحيص الحقيقة الأحدية عن شائبة الكثرة. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه» لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. وإياه عنيَ من قال: «صفاته تعالى لا هو ولا غيره» أي، لا هو باعتبار العقل، ولا غيره بحسب الحقيقة، وأحد خبر المبتدأ.

والفرق بين الأحد والواحد أن الأحد هو الذات وحدها، بلا اعتبار كثرة فيها. أي، الحقيقة المحضة التي هي منبع العين الكافوري، بل العين الكافوري نفسه، وهو الوجود من حيث هو وجود بلا قيد عموم وخصوص، وشرط عروض، ولا عروض.

والواحد هو الذات مع اعتبار كثرة الصفات، وهي الحضرة الاسمائية لكون الاسم هو الذات مع الصفة، فعبَّر عن الحقيقة المحضة الغير المعلومة إلا له بهو. وأبدل عنها الذات مع جميع الصفات دلالة على أنها عين الذات وحدها في الحقيقة، وأخبر عنها بالأحدية ليدل على أن الكثرة الاعتبارية ليست بشيء في الحقيقة، وما أبطلت أحديته، وما أثّرت في وحدته. بل الحضرة الواحدية هي بعينها الحضرة الأحدية بحسب الحقيقة، كتوهّم القطرات في البحر مثلاً...

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي، الذات في الحضرة الواحدية بحسب اعتبار الأسماء هو السند المطلق لكل الأشياء، لافتقار كل ممكن إليه وكونه به، فهو الغني المطلق المحتاج إليه كل شيء، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨] ولما كان كل ما سواه موجوداً بوجوده ليس بشيء في نفسه، لأن الإمكان اللازم للماهية لا يقتضي الوجود، فلا يجانسه ولا يماثله شيء في الوجود.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إذ معلولاته ليست موجودة معه، بل به، فهي به هي وبنفسها ليست شيئاً، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾

لصمديته المطلقة، فلم يكن محتاجاً في الوجود إلى شيء. ولما كانت هويته الأحدية غير قابلة للكثرة والانقسام، ولم يكن مقارنة الوحدة الذاتية لغيرها، إذ ما عدا الوجود المطلق ليس إلا العدم المحض، فلا يكافئه أحد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ إذ لا يكافىء العدم الصرف الوجود المحض. ولهذا سمّيت سورة الأساس، إذ أساس الدين على التوحيد، بل أساس الوجود.

وعن أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: أُسِّست السماوات السبع، والأرضون السبع على: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وهو معنى صمديته.

البيضاوي ج ٥ ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير للشأن كقولك هو زيد منطلق، وارتفاعه بالابتداء وخبره الجملة، ولا حاجة إلى العائد لأنها هي هو، أو لما سئل عنه، أي الذي سألتموني عنه هو الله إذ روي أن قريشاً قالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي تدّعونا إليه، فنزلت وأحد بدل أو خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال، كما دل الله على جميع صفات الكمال، إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعداد وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة، وخواصها كوجوب الوجود، والقدرة الذاتية، والحكمة التامة المقتضية للألوهية، وقرىء هو الله بلا قل مع الاتفاق على أنه لا بد منه في قل يا أيها الكافرون، ولا يجوز في تبت، ولعل ذاك لأن سورة الكافرون مشاقة الرسول، أو موادعته لهم، وتبت معاتبة عمه فلا يناسب أن تكون منه، وأما هذا فتوحيد يقول به تارة، ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى. ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾. . . من صمد إليه إذا قصد، وهو الموصوف به على الاطلاق، فإنه يستغنى عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته، وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته، وتكرير لفظة الله للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى، أو الدليل عليها ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لم يجانس، ولم يفتقر إلى ما يعينه، أو يخلف عنه لامتناع الحاجة، والفناء عليه. ولعلَّ الاقتصار على لفظ الماضي لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله، أو المسيح ابن الله، أو ليطابق قوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء، ولا يسبقه عدم ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ولم يكن أحد يكافئه، أو يماثله من صاحبة، أو غيرها. وكان أصله أن يؤخر الظرف لأنه صلة كفواً، لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديماً للأهم، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في كفواً، أو خبراً، ويكون كفواً حالاً من أحد، ولعل ربط الجمل الثلاث بالعطف لأن المراد منها نفي أقسام الأمثال، فهي كجملة واحدة منبهة عليها بالجمل. وقرأ حمزة ويعقوب ونافع في رواية كفؤاً بالتخفيف، وحفص كفواً بالحركة، وقلب الهمزة واواً، ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الإلّهية، والرد على من ألحد فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن، فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد، والأحكام، والقصص، ومن عدلها بكله اعتبر المقصود بالذات من ذلك.

الخازن ج ٧ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢

بسم اللّه الرحمن الرحيم

قوله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عن أبي بن كعب «أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسب لنا ربك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، والصمد الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت، ولا يورث، ولم يكن له كفواً أحد. قال لم يكن له شبيه، ولا عديل، وليس كمثله شيء، أخرجه الترمذي، وقال وقد روي عن أبي العالية أن النبي ﷺ ذكر آلهتهم، فقالوا انسب لنا ربك فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾،

وذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وهذا أصح. وقال ابن عباس أن عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلام تدعونا يا محمد، قال: إلى الله، قال: صفه لنا أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب، فنزلت هذه السورة وأهلك الله أربد بالصاعقة، وعامر بالطاعون، وقد تقدم ذكرهما في سورة الرعد. وقيل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: صف لنا ربك لعلّنا نؤمن بك، فإن الله تعالى أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو، وهل يأكل ويشرب، وممن ورث الربوبية، ولمن يورثها، فأنزل الله هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني الذي سألتموني عنه هو الله الواحد في الألوهية والربوبية، الموصوف بصفات الكمال والعظمة، المنفرد عن الشبه والمثل والنظير، وقيل لا يوصف أحد بالأحدية غير الله تعالى، فلا يقال رجل أحد، ودرهم أحد، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها، فلا يشركه فيها أحد، والفرق بين الواحد والأحد أن الواحد يدخل في الأحد، ولا ينعكس، وقيل إن الواحد يستعمل في الإثبات، والأحد في النفي، تقول في الإثبات: رأيت رجلاً واحداً، وفي النفي ما رأيت أحداً، فتفيد العموم، وقيل الواحد هو المنفرد بالذات فلا يضاهيه أحد، والأحد هو المنفرد بالمعنى فلا يشاركه فيه أحد ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ . . . فإن فسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام، ويتعالى الله جل وعز عن صفات الجسمية، وقيل وجه هذا القول إن الصمد الذي ليس بأجوف معناه هو الذي لا يأكل ولا يشرب، وهو الغني عن كل شيء فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال، والقصد بقوله الله الصمد التنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا له الإلهية، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقيل الصمد الذي ليس بأجوف شيئان أحدهما دون الإنسان، وهو سائر الجمادات الصلبة، والثاني أشرف من الإنسان وأعلى منه، وهو الباريء جل وعز، وقال أبي ابن كعب: الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأن من يولد سيموت، ومن يموت يورث منه، وروى البخاري في أفراده عن أبي وائل شقيق ابن سلمة قال: الصمد هو السيد الذي انتهى سؤدده، وهي رواية عن ابن عباس أيضاً قال: هو السيد الذي كمل فيه جميع أوصاف السؤدد، وقيل هو السيد المقصود في جميع الحوائج، المرغوب إليه في الرغائب، المستعان به عند المصائب، وتفريج الكرب، وقيل هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وتلك دالة على أنه المتناهي في السؤدد والشرف والعلو والعظمة والكمال والكرم والإحسان، وقيل الصمد الدائم الباقي بعد فناء خلقه، وقيل الصمد الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي، وقيل هو الذي لا تعتريه الآفات، ولا تغيره الأوقات، وقيل هو الذي لا عيب فيه، وقيل الصمد هو الأول الذي ليس له زوال والآخر الذي ليس لملكه انتقال، والأولى أن يحمل لفظ الصمد على كل ما قيل فيه لأنه محتمل له فعلي هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله تعالى العظيم، القادر على كل شيء، وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به له الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. قوله عز وجل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك أن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله فكذبهم الله عز وجل، ونفى عن نفسه ما قالوا بقوله لم يلد يعني كما ولد عيسى وعزير، ولم يولد معناه أن من ولد كان له والد فنفى عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه، ومن كان كذلك فهو الذي لم يكن له كفواً أحد أي ليس له من خلقه مثل ولا نظير ولا شبيه فنفى عنه بقوله ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ . . . عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «قال الله عز وجل كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» والله سبحانه وتعالى أعلم.

القرطبي ج ٢٠ ص ٢٤٤ ـ ٢٥٠

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ . . . وأصل «أَحَدٌ» وَحَدٌ؛ قُلِبت الواو همزة.

ومنه قول النابغة:

كأن رحلي وقد زال النهار بنا
بذي الجَليلِ على مُسْتأنِسٍ وَحَدِ

وقد تقدم في سورة «البقرة» الفرق بين واحِد وأَحَدٍ، وفي كتاب «الأَسْنَى، في شرح أسماء الله الحسنى» أيضاً مُسْتَوفًى. والحمدُ لله. و«أحد» مرفوع، على معنى: هو أحدٌ. وقيل: المعنى: قل: الأمرُ والشأن: الله أحَد. وقيل: «أحَد» بدل من قوله: «الله». وقرأ جماعة «أَحَدُ الله» بلا تنوين، طلباً للخفة، وفراراً مِن التقاء الساكنين؛ ومنه قول الشاعر:

فألفيته غير مستعتب
ولا ذاكر الله إلاّ قليلا

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ . . .

عَلَوتُهُ بحُسام ثُمَّ قُلْتُ لهُ
خُذْها حُذَيفَ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقال السديّ: إنه: المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب. وقال الحسين بن الفضل: إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مقاتل: إنه: الكامل الذي لا عيب فيه؛ ومنه قول الزبرقان:

سِيروا جميعاً بِنِصفِ الليلِ واعتمِدوا
ولا رَهِينَةَ إلاَّ سَيِّدٌ صَمَدُ

وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جبير: الصمد: المُصْمَتُ الّذي لا جَوْف له؛ قال الشاعر:

شِهابُ حُرُوبٍ لا تَزالُ جِيادُه
عَوابِسَ يَعْلُكْنَ الشكِيمَ المُصَمَّدا

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مبيَّنة في الصَّمَد، في (كتاب الأسنَى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق؛ وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابي. وقد أسقط مِن هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ «الله الواحدُ الصَّمَدُ» في الصلاة، والناس يستمعون، فأَسْقَط: «قُلْ هو»، وزعم أنه ليس من القرآن. وغيَّر لفظَ «أَحَدٍ» وأدعى أن هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل والمحال؛ فأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّك، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم من صُفْر؟ فقال الله عزّ وجلّ رداً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. ففي «هُوَ» دلالة على موضع الردّ، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسول الله ﷺ. وروى الترمذي عن أُبيّ بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انْسُبْ لنا ربك؛ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾. والصَّمَد: الذي لم يلد ولم يُولَد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورَث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ . . . ورُوِي عن أبي العالية: إن النبيّ ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا: انْسُب لنا رَبّك. قال: فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أُبيّ بن كعب، وهذا أصح؛ قاله الترمذيّ.

قلت: ففي هذا الحديث إثبات لفظ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وتفسير الصَّمَد، وقد تقدَّم. وعن عكرمة نحوه. وقال ابن عباس: «لَم يَلِدْ» كما وَلَدَتْ مريمَ، ولم يُولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيرٌ. وهو رد على النصارى، وعلى من قال: عُزَيرٌ ابن الله. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ . . وفيه تقديم وتأخير؛ تقديره: ولم يكن له كفواً أحد؛ فقدّم خبر كان على اسمها، لينساقَ أواخرُ الآي على نظم واحد. وقرِيء «كُفُواً» بضم الفاء وسكونها. وقد تقدم في «البقرة» أن كل اسم على ثلاث أحرف أوله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان؛ إلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] لِعِلة تقدّمت. وقرأ حفص «كفواً» مضموم الفاء غير مهموز. وكلها لغات فصيحة.

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة؛ وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح البخاريّ عن أبي سعيد الخُدْريّ: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردّدها؛ فلما أصبح جاء إلى النبيّ ﷺ، فذكر ذلك له، كان الرجل يَتَقالُّها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن». وعنه قال النبيّ ﷺ لأصحابه: «أيعجِز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة» فشَقّ ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن» خرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه. وخرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أحشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد مَنْ حَشَد؛ ثم خرج نبيّ الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله. ثم خرج فقال: «إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن» قال بعض العلماء: إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو «الصَّمَد»، فإنه لا يوجد في غيرها من السور. وكذلك «أحد». وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثاً، ثلثاً منه أحكام، وثلثاً منه وعد ووعيد، وثلثاً منه أسماء وصفات؛ وقد جمعت ﴿قل هو الله أحد﴾ [أحد] الأثلاث، وهو الأسماء والصّفات. ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم، من حديث أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ، قال: «إن الله عزّ وجلّ جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزء من أجزاء القرآن». وهذا نص؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص، والله أعلم.

الثانية: روى مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلُوهُ لأي شيء يصنع ذلك»؟ فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحِبُّ أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله عزّ وجلّ يحبه». وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قُباء، وكان كلما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها، افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها؛ وكان يضع ذلك في كل ركعة؛ فكلمه أصحابه، فقال: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها وإن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتم؛ وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمّهم غيره؛ فلما أتاهم النبيّ ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك مما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة»؟ فقال: يا رسول الله، إني أحبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن حُبّها أدْخلَكَ الجنة» قال: حديث حسن غريب صحيح. قال ابن العربيّ: «فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة. وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه، إماماً من جملة الثمانية والعشرين إماماً، كان يصلي فيه التراويح في رمضان بالأتراك؛ فيقرأ في كل ركعة «الحمد لله» و«قل هو الله أحد» حتى يتم التراويح؛ تخفيفاً عليه، ورغبة في فضلها وليس من السنة ختم القرآن في رمضان».

قلت: هذا نص قولِ مالك، قال مالك: وليس ختم القرآن في المساجد بسنة.

الثانية ـ روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: أقبلت مع النبيّ ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». قال هذا حديث حسن صحيح. قال الترمذي: حدّثنا محمد بن مرزوق البصريّ عن أنس ابن مالك عن النبيّ ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، مُحِيَ عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين». وبهذا الإسناد عن النبيّ ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة، فإذا كان يومَ القيامة يقول الرب: يا عبدي، ادخل على يمينك الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس. وفي مسند أبي محمد الدارميّ، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة» قال: وحدثنا عبدالله بن يزيد قال حدّثنا حيوة قال: أخبرني

أبو عَقيل: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بُنِي له قصر في الجنة. ومن قرأها عشرين بني له بها قصران في الجنة. ومن قرأها ثلاثين مرة بُنِيَ له بها ثلاثة قصور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب: والله يا رسول الله إذاً لَنُكْثِرَنَّ قصورنا؛ فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك» قال أبو محمد: أبو عقيل زُهرة بن معبد، وزعموا أنه كان من الأبدال. وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ قُلْ هو الله أحدٌ في مرضه الذي يموت فيه، لم يَفْتَن في قَبره. وأمِن من ضغطةِ القبر. وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرد به نصر بن حماد البَجَليّ. وذكر أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال سمعت مالك بن أنس يقول: إذا نُقِس بالناقوس اشتد غضب الرحمن، فتنزل الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرؤون ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يسكُن غضبه عزّ وجلّ. وخَرّج من حديث محمد بن خالد الجَنَدِيّ... عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «من دخل يوم الجمعة المسجد، فصلّى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة فذلك مائتا مرة في أربع ركعات، لم يَمُت حتى يرى منزله في الجنة أو يُرَى له». وقال أبو عمر مولى جرير بن عبدالله البجليّ، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حين يدخل منزله، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزِل وعن الجيران». وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة بورِك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة بنى الله له اثني عشر قصراً في الجنة، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مائة مرة كفّر الله عنه ذنوب خمسين سنة، ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له». وعن سهل به سعد الساعديّ قال: شكا رجل إلى رسول الله ﷺ الفقر وضيق المعيشة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا دخلتَ البيت فسلِّمْ إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلم عليّ، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة واحدة ففعل الرجل فأدرّ الله عليه الرزق، حتى أفاض عليه جيرانه. وقال أنس: كنا مع رسول الله ﷺ بتَبُوكَ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك، فأتى جبريل، فقال له رسول الله ﷺ: «يا جبريل، ما لي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط»؟ فقال: «ذلك لأن معاوية بن معاوية الليثي توفي بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألف ملك يُصلُّون عليه». قال: «ومِمَّ ذلك»؟ قال: «كان يكثر قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ آناء الليل وآناء النهار، وفي ممشاه وقيامه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلي عليه»؟ قال: «نعم» فصلى عليه، ثم رجع. ذكره الثعلبي، والله أعلم.

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٥٢٧ ـ ٥٢٩

هذه السورة مكية في قول عبد الله، والحسن، وعكرمة، وعطاء، ومجاهد وقتادة، مدنية في قول ابن عباس، ومحمد بن كعب، وأبي العالية والضحاك، ولما تقدم فيما قبلها عداوة أقرب الناس إلى الرسول ﷺ، وهو عمه أبو لهب، وما كان يقاسي من عباد الأصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد، رادة على عباد الأوثان، والقائلين بالثنوية، وبالتثليث، وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد. وعن ابن عباس أن اليهود قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فنزلت. وعن أبي العالية: قال قادة الأحزاب انسب لنا ربك، فنزلت، فإن صح هذا السبب كان هو ضميراً عائداً على الرب، أي «قل هو الله»، أي ربي الله، ويكون مبتدأ

وخبراً وأحد خبر ثان. وقال الزمخشري: وأحد بدل من قوله الله، أو على هو أحد. انتهى، وإن لم يصح السبب فهو ضمير الأمر، والشأن مبتدأ، والجملة بعده مبتدأ وخبر في موضع خبر هو وأحد بمعنى واحد، أي فرد من جميع جهات الوحدانية، أي في ذاته وصفاته لا يتجزأ، وهمزة أحد هذا بدل من واو، وإبدال الهمزة مفتوحة من الواو قليل من ذلك امرأة إناة يريدون، وناة لأنه من الونى وهو الفتور، كما أن أحداً من الوحدة. وقال ثعلب: بين واحد وأحد فرق، الواحد يدخله العدد والجمع والإثنان والأحد لا يدخله، يقال: الله أحد ولا يقال زيد أحد لأن الله خصوصية له الأحد، وزيد تكون منه حالات. انتهى. وما ذكر من أن أحداً لا يدخله ما ذكر منقوض بالعدد. وقرأ إبان بن عثمان، وزيد بن علي، ونصر بن عاصم، وابن سيرين، والحسن، وابن أبي اسحق، وأبو السمال، وأبو عمر، وفي رواية يونس، ومحبوب، والأصمعي، واللؤلؤي، وعبيد، وهرون عنه «أحد الله» بحذف التنوين لالتقائه مع لام التعريف، وهو موجود في كلام العرب، وأكثر ما يوجد في الشعر نحو قوله: «ولا ذاكر الله إلا قليلاً»، ونحو قوله: عمرو الذي هشم الثريد لقومه». ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ مبتدأ وخبر، والأفصح أن تكون هذه جملاً مستقلة بالإخبار على سبيل الاستئناف كما تقول: زيد العالم، زيد الشجاع. وقيل: الصمد صفة والخبر في الجملة بعده، وتقدم شرح الصمد في المفردات. وقال الشعبي، ويمان بن رياب هو الذي لا يأكل ولا يشرب. وقال أبيّ بن كعب يفسره ما بعده، وهو قوله لم يلد ولم يولد. وقال الحسن الصمد المصمت الذي لا جوف له. ومنه قوله:

شهـــــاب حـــــروب لا تـــــزال جيـــــاده
عـــــوابـــــس يعلكـــــن الشكيـــــم المصمـــــدا

وفي كتاب التحرير أقوال غير هذه لا تساعد عليها اللغة. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم، قال الزمخشريّ ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. ودل على هذا المعنى بقوله: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾[الأنعام: ١٠١] ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده، وليس بجسم ولم يكافئه أحد يقال له كفو بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء، وبضم الكاف مع ضم الفاء. وقرأ حمزة وحفص بضم الكاف، وإسكان الفاء. وهمز حمزة. وأبدلها حفص واواً، وباقي السبعة بضمهما والهمز، وسهل الهمزة الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع، وفي رواية عن نافع أيضاً كفا من غير همز نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة. وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس «كفاء» بكسر الكاف وفتح الفاء والمد كما قال النابغة: «لا تقذفنّي بركن لا كفاء له». الأعلم: لا كفاء له لا مثل له. وقال مكي: سيبويه يختار أن يكون الظرف خبراً إذا قدمه، وقد خطأه المبرد بهذه الآية، لأنه قدم الظرف ولم يجعله خبراً، والجواب أن سيبويه لم يمنع إلغاء الظرف إذا تقدم إنما أجاز أن يكون خبراً، وأن لا يكون خبراً. ويجوز أن يكون حالاً من النكرة وهي «أحد» لما تقدم نعتها عليها نصب على الحال، فيكون «له» الخبر على مذهب سيبويه واختياره، ولا يكون للمبرد حجة على هذا القول. انتهى. وخرجه ابن عطية أيضاً على الحال. وقال الزمخشري. «فإن قلت» الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر، ولا يقدم، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدماً في أفصح الكلام وأعربه؟ (قلت:) هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء، وأعناه، وأحقه بالتقديم، وأحراه. انتهى. وهذه الجملة ليست من هذا الباب وذلك أن قوله ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ ليس الجار والمجرور فيه تاماً، إنما ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لـ «كان»، بل هو متعلق بكفواً، وقدم عليه فالتقدير، ولم يكن أحد كفواً له أي مكافئه فهو في معنى المفعول، متعلق بـ «كفواً» وتقدم على «كفواً» للاهتمام به إذ فيه ضمير الباري تعالى. وتوسط الخبر، وإن كان الأصل التأخر، لأن تأخر الاسم

هو فاصله فحسن ذلك. وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعـراب مكـي وغيـره أن لـه الخبـر، «وكفـواً» حـال مـن «أحد» لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبراً، وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه. وسيبويه إنما تكلم في هذا الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً، ويصلح أن يكون غير خبر. قال سيبويه: وتقول ما كـان فيها أحد خير منك، وما كان أحد مثلك فيها، وليس أحد فيها خير منك إذا جعلت فيها مستقراً، ولم تجعله على قولك: فيها زيد قائم، أجريت الصفة على الاسم فإن جعلته على فيها زيد قائم ثم نصبت، فتقول: ما كان فيها أحد خيراً منك. وما كان أحد خيراً منك فيها إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلما أخرت الملغي كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقراً فكلما قدمته كان أحسن. والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير قال تعالى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾. وقال الشاعر: «مادام فيهن فصيل حيـاً» انتهى. وما نقلناه ملخصاً، وهو بألفاظ سيبويه فأنت ترى كلامه وتمثيله بالظرف الذي يصلح أن يكون خبراً، ومعنى قوله «مستقراً» أي: خبراً للمبتدأ ولـ «كان» (فإن قلت:) فقد مثل بالآية الكريمة، (قلت:) هذا الذي أوقع مكياً، والزمخشري، وغيرهما فيما وقعوا فيه، وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام وهو في قوله: «ما دام فيهن فصيل حياً»، أجرى فضله لا خبراً كما أن «له» في الآية فضلـه فجعـل الظرف القـابـل أن يكـون خبـراً كـالظـرف الناقص في كونـه لم يستعمل خبراً، ولا يشك من له ذهن صحيح إنه لا ينعقد كلام من قوله «ولم يكن لـه أحد» بل لو تأخر «كفواً» وارتفع على الصفة وجعل لـه خبراً لم ينعقد منه كلام، بـل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا علـى الخبر الذي هو كفواً»، و «له» متعلق به، والمعنى ولم يكن لم أحد مكافئه، وقد جاء في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة، ومنها «أنها تعدل ثلث القـرآن». وقد تكلـم العلمـاء علـى ذلـك، وليـس هـذا مـوضعـه والله الموفق.

ابن كثير ج ٤ ص ٥٦٥ ـ ٥٧١

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغاني... عن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبيّ ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وكذا رواه الترمذي، وابن جرير، عن أحمد بن منيع زاد ابن جرير، ومحمود بن خداش عن أبي سعيد محمد بن ميسر به زاد ابن جرير، والترمذي قال: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عزّ وجلّ لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ولم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء. ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد محمد بن ميسر به، ثم رواه الترمذي... عن أبي العالية فذكره مرسلاً، ولم يذكر حدثنا، ثم قال الترمذي، وهذا أصح من حديث أبي سعيد.

... قال الحافظ أبو يعلى الموصلي... عن جابر رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: أنسب لنا ربك، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها إسناد متقارب، وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف عن سريج فذكره، وقد أرسله غير واحد من السلف. وروى عبيد بن إسحق العطار... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. قال الطبراني، ورواه الفريابي وغيره عن قيس عن أبي عاصم عن أبي وائل مرسلاً، ثم روى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفي... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لكل شيء نسبة، ونسبة الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ والصمد ليس بأجوف.

... قـال البخـاري... عـن ابـن أبـي هـلال: أن أبـا الرجال محمد بن عبد الرحمن، حدثه عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن وكانت في حجر عائشة زوج النبي ﷺ عن عائشة رضي الله عنها أن النبيّ ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

أَحَـدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال «سلوه لأي شيء يصنع ذلك»، فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن وأنـا أحـب أن أقـرأ بهـا، فقـال النبـيّ ﷺ «أخبـروه أن الله تعالى يحبه» هكذا رواه في كتاب التوحيد، ومنهم من يسقط ذكر محمدا الذهلي، ويجعله من روايته عن أحمد ابن صالح، وقد رواه مسلم والنسائي أيضاً من حديث عبدالله بن وهب. . . عن سعيد بن أبي هلال . . .

. . . قال البخاري في كتاب الصلاة، وقال عبيدالله عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه، فقالوا إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال ما أنا بتاركها إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبيّ ﷺ أخبروه الخبر فقال: يا فلان «ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة»، قال إني أحبها، قال «حبك إياها أدخلك الجنة» هكذا رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به. وقد رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه. . . عبيـدالله بـن عمـر، فـذكـر بـإسنـاده مثلـه سـواء، ثـم قـال الترمذي غريب من حديث عن عبيد الله عن ثابت. قال وروى مبارك بـن فضالة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ قال: «إن حبك إياها أدخلك الجنة»، وهذا الذي علقه الترمذي قد رواه الإمام أحمد في مسنده متصلاً، فقال حدثنا أبو النضر حدثنا مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس رضي الله عنـه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ «حبك إياها أدخلك الجنة». قال البخاري: حدثنا إسماعيل. . . عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبيّ ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالّها فقال النبيّ ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، زاد إسماعيل بن جعفر عن أبي سعيد قال: أخبرني أخي قتادة بن النعمان عن النبيّ ﷺ، وقد رواه البخاري أيضاً عن عبد الله بن يوسف والقعنبي، ورواه أبو داود عن القعنبي والنسائي عن قتيبة، كلهم عن مالك به، وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائي من طريقين عن إسماعيل بن جعفر عن مالك به. . . . قال البخاري حدثنا عمر بن حفص. . . عـن أبـي سعيـد رضـي الله عنـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ لأصحابه «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»، فشق ذلك عليهم، وقالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»، تفرد بإخراجه البخاري من حديث إبراهيم بن يزيد النخعي، والضحاك بن شرحبيل الهمداني المشرقي، كلاهما عن أبي سعيد، قال الفربري: سمعت أبا جعفر محمد بن أبي حاتم وراق أبي عبدالله قال: قال أبو عبدالله البخاري عن إبراهيم مرسل، وعن الضحاك مسند.

. . . قال الإمام أحمد. . . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ فـذكـر ذلـك للنبـي ﷺ، فقـال: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل نصف القرآن ـ أو ثلثه ـ . . . قال الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو أن أبا أيوب الأنصـاري كـان فـي مجلـس، وهـو يقـول: ألا يستطيـع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة؟ فقالوا: وهل يستطيع ذلك أحد؟ قال فإنَّ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾ ثلث القرآن، قال فجاء النبيّ ﷺ وهو يسمع أبا أيوب فقال «صدق أبو أيوب».

. . . قال أبو عيسى الترمذي. . . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ﴾، ثم دخل فقال بعضنا لبعـض قـال رسـول الله ﷺ: «فـإنـي سـأقـرأ عليكـم ثلـث القرآن» إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: «إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا

وإنها تعدل ثلث القرآن». وهكذا رواه مسلم في صحيحه عن محمد ابن بشار به. وقال الترمذي حسن صحيح غريب واسم أبي حازم سلمان.

... قال الإمام أحمد... عن أبي أيوب عن النبيّ ﷺ، قال: «يعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن»، هذا حديث تساعي الإسناد للإمام أحمد، ورواه الترمذي، والنسائي، كلاهما عن محمد بن بشار بندارزاد الترمذي، وقتيبة كلاهما عن عبدالرحمن بن مهدي به فصار لهما عشارياً، وفي رواية الترمذي عن امرأة أبي أيوب عن أبي أيوب به، وحسنه ثم قال وفي الباب عن أبي الدرداء، وأبي سعيد، وقتادة بن النعمان، وأبي هريرة، وأنس، وابن عمر، وأبي مسعود، وهذا حديث حسن، ولا نعلم أحداً روى هذا الحديث أحسن من رواية زائدة، وتابعه على روايته إسرائيل والفضيل بن عياض. وقد روى شعبة وغير واحد من الثقات هذا الحديث عن منصور واضطربوا فيه.

... قال أحمد... عن أبيّ بن كعب، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بقل هو الله أحد فكأنما قرأ بثلث القرآن»، ورواه النسائي في اليوم والليلة من حديث هشيم عن حصين عن ابن أبي ليلى به. ولم يقع في روايته هلال بن يساف.

... قال الإمام أحمد... عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، وهكذا رواه ابن ماجه عن علي بن محمد الطنافسي عن وكيع به. ورواه النسائي في اليوم والليلة من طرق أخر عن عمرو بن ميمون مرفوعاً وموقوفاً.

... قال الإمام أحمد... عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟» قالوا نعم يا رسول الله نحن أضعف من ذلك وأعجز، قال «فإن الله جزء القرآن ثلاثة أجزاء، فقال هو الله أحد ثلث القرآن»، ورواه مسلم والنسائي من حديث قتادة به.

... قال الإمام أحمد... عن حميد بن عبد الرحمن هو ابن عوف عن أمه، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: قال رسول الله ﷺ «قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن» وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة...

... قال الإمام مالك بن أنس... عن عبيد بن حنين قال سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبيّ ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت ـ قلت وما وجبت؟ قال ـ الجنة» ورواه الترمذي والنسائي من حديث مالك، وقال الترمذي حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك، وتقدم حديث «حبك إياها أدخلك الجنة»... قال الحافظ أبو يعلى الموصلي... عن أنس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ قل هو الله أحد، ثلاث مرات في ليلة فإنها تعدل ثلث القرآن» هذا إسناد ضعيف وأجود منه.

... قال عبدالله بن الإمام أحمد... عن معاذ بن عبدالله بن حبيب عن أبيه قال: أصابنا عطش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ، بنا فخرج فأخذ بيدي فقال: «قل»، فسكت، قال: «قل»، قلت ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين»، ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث ابن أبي ذئب به. وقال الترمذي حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقد رواه النسائي من طريق أخرى عن معاذ بن عبد الله ابن حبيب عن أبيه عن عقبة بن عامر، فذكره ولفظه «تكفك كل شيء»... قال الإمام أحمد.... عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله واحداً أحداً صمداً لم يتخذ صاحبة، ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد عشر مرات كتب الله له أربعين ألف ألف حسنة»، تفرد به أحمد، والخليل بن مرة ضعفه البخاري وغيره بمرة...

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

قد تقدم ذكر سبب نزولها، وقال عكرمة لما قالت اليهود نحن نعبد عزير ابن الله، وقالت النصارى نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس نحن نعبد الشمس

والقمر، وقالت المشركون نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾...

وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ السيد، وقال الحسن وقتادة هو الباقي بعد خلقه، وقال الحسن أيضاً ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له، وقال عكرمة ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم، وقال الربيع بن أنس هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو تفسير جيد وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أبيّ بن كعب في ذلك وهو صريح فيه، وقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعكرمة أيضاً، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك والسدي ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له. قال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ المصمت الذي لا جوف له، وقال الشعبي هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب. وقال عبدالله بن بريدة أيضاً ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ نور يتلألأ، روى ذلك كله وحكاه ابن أبي حاتم، والبيهقي، والطبراني، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده، وقال حدثني العباس بن أبي طالب... عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: لا أعلم إلا قد رفعه قال «الصمد الذي لا جوف له» وهذا غريب جداً، والصحيح أنه موقوف على عبدالله ابن بريدة.

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد، وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجلّ هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك. وقوله تعالى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي ليس له ولد، ولا صاحبة. قال مجاهد ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ يعني لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يسامه، أو قريب يدانيه تعالى وتقدس وتنزه. قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا . لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا . تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا . وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا . لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] وقال تعالى ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩] وفي الصحيح صحيح البخاري «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»، وقال البخاري... عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «قال الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد»، ورواه أيضاً من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله تفرد بهما من هذين الوجهين. آخر تفسير سورة الإخلاص، ولله الحمد والمنة.

الشوكاني ج ٥ ص ٥١٥ - ٥١٨

قوله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، والله مبتدأ ثان، وأحد خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو، والخبر أحد. ويجوز أن يكون الله خبراً أوّل، وأحد خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف: أي هو أحد. ويجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم،

والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه، والأوّل أولى. قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله، والمعنى: إن سألتم تبيين نسبته هو الله أحد، قيل وهمزة أحد بدل من الواو وأصله واحد. وقال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد، ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري: أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد، ولا درهم أحد؛ كما يقال رجل واحد ودرهم واحد، قيل والواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد، وأحد لا يدخل فيه. وردّ عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد، وهذا كما ترى، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل. قرأ الجمهور ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بإثبات قل. وقرأ عبدالله بن مسعود وأبي ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ بدون قل. وقرأ الأعمش «قل هو الله والواحد» وقرأ الجمهور بتنوين أحد، وهو الأصل. وقرأ زيد بن عليّ، وإبان بن عثمان، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السماك، وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للخفة كما في قول الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريد لقومه
ورجال مكة مسنتون عجاف

وقيل إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين. ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأوّل منهما بالكسر ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والصمد خبره. . .

وقيل معنى الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول. وقيل معنى الصمد ما ذكره بعده من أنه الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾. وقيل هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقيل هو المقصود في الرغائب والمستعان به في المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأوّل. وقيل هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقيل هو الكامل الذي لا عيب فيه. وقال الحسن، وعكرمة، والضحاك، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبدالله ابن بريدة، وعطاء، وعطية العوفي، والسديّ: الصمد هو المصمت الذي لا جوف له، ومنه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده
عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وهذا لا ينافي القول الأوّل لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأوّل أهل اللغة والجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

علوته بحسامي ثم قلت له
خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال الزبرقان بن بدر:

سيروا جميعاً بنصف الليل واعتمدوا
ولا رهينة إلا سيد صمد

وتكرير الاسم الجليل لإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، وقيل إن الصمد صفة للاسم الشريف والخبر هو ما بعده، والأوّل أولى لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾. . . وقالت اليهود: عزير ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله فأكذبهم الله فقال ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قال الرازي: قدّم ذكر نفي الولد مع أن الولد مقدّم للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات الله، واليهود: عزير ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ولم يدّع أحد أن له والداً، فلهذا السبب بدأ بالأهمّ فقال ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ كإنه قيل الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي، ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل لأنه ورد جواباً عن قولهم: ولد الله كما حكى الله عنهم بقوله ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١ـ ١٥٢] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى، وردت الآية لدفع

قولهم هذا ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ولا يماثله، ولا يشاركه في شيء، وأخر اسم كان لرعاية الفواصل، وقوله «له» متعلق بقوله «كفواً» قدم عليه لرعاية الاهتمام، لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته. وقيل إنه في محل نصب على الحال، والأوّل أولى. وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر، وههنا لم يجعل خبراً مع تقدّمه، وقد ردّ على المبرد بوجهين: أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوّزه. والثاني أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال وحكى في الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربيّ الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقرّ، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أوّل كلام سيبويه ولم ينظر إلى آخره، فإنه قال في آخر كلامه: والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربيّ جيد كثير انتهى. قرأ الجمهور «كفواً» بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعرج، وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء، وروى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واواً وصلاً ووقفا، وقرأ نافع في رواية عنه «كفأ» بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مدّ، وقرأ سليمان بن عليّ بن عبدالله بن العباس كذلك مع المدّ، وأنشد قول النابغة: «لا تقذفني بركن لا كفاء له». والكفاء في لغة العرب النظير، يقول هذا كفؤك: أي نظيرك، والاسم الكفاءة بالفتح.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والمحاملي في أماليه، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن بريد لا أعلمه إلا رفعه. . . وقال: أو ما سمعت النائحة وهي تقول:

لقد بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكان لا يطعم عند القتال، وقد روي عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج، وأنه أنشد البيت واستدلّ به على هذا المعنى، وهو أظهر في المدح وأدخل في الشرف، وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغنيّ الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفو وليس كمثله شيء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ هو السيد الذي قد انتهى سؤدده فلا شيء أسود منه. . .

الآلوسي ج ١٥ ص ٣٤٠ ـ ٣٥٦

و. . . أخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام منهم كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله تعالى السورة، وكون السائلين اليهود مروي عن الضحاك، وابن جبير، وقتادة، ومقاتل، وهو ظاهر في أن السورة مدنية، وجاز رجوع الضمير إلى ذلك للعلم به من السؤال وجرى ذكره فيه وهو عليه مبتدأ والاسم الجليل خبره وأحد خبر بعد خبر. . .

وقال مكي أصل أحد واحد، فأبدلوا الواو همزة، فاجتمع ألفان لأن الهمزة تشبه الألف، فحذفت إحداهما تخفيفاً وفرق ثعلب بين أحد وواحد بأن أحداً لا يبنى عليه العدد ابتداء، فلا يقال أحد وإثنان كما يقال واحد وإثنان، ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد، ولذلك اختص به سبحانه، وفرق بعضهم بينهما أيضاً بأن الأحد في النفي نص في العموم بخلاف الواحد، فإنه محتمل للعموم وغيره، فيقال ما في الدار أحد، ولا يقال بل إثنان، ويجوز أن يقال ما في الدار واحد بل إثنان، ونقل عن

بعض الحنفية إنه قال في التفرقة بينهما أن الأحدية لا تحتمل الجزئية، والعددية بحال والواحدية تحتملها لأنه يقال مائة واحدة، وألف واحد، ولا يقال مائة أحد إلا ألف أحد، وبنى على ذلك مسألة الإمام محمد بن الحسن التي ذكرها في الجامع الكبير إذا كان لرجل أربع نسوة فقال والله لا أقرب واحدة منكن صار مولياً منهن جميعاً، ولم يجز أن يقرب واحدة منهن إلا بكفارة، ولو قال والله لا أقرب احداكن لم يصر مولياً إلا من إحداهن والبيان إليه، وفرق الخطابي بأن الأحدية لتفرد الذات والواحدية لنفي المشاركة في الصفات، ونقل عن المحققين التفرقة بعكس ذلك ولما لم ينفك في شأنه تعالى أحد الأمرين من الآخر قيل الواحد الأحد في حكم اسم واحد، وفسر الأحد هنا ابن عباس وأبو عبيدة كما قال الجوزي بالواحد وأيد بقراءة الأعمش قل هو الله الواحد، وفسر بما لا يتجزأ ولا ينقسم. . .

وقوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ مبتدأ وخبر، وقيل الصمد نعت والخبر ما بعده وليس بشيء. والصمد قال ابن الأنباري لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السؤدد ويصمد إليه أي يقصده كل شيء. . .

وعن قتادة هو الباقي بعد خلقه، ونحوه قول معمر هو الدائم، وقول مرة الهمداني هو الذي لا يبلى ولا يفنى، وعنه أيضاً هو الذي يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمة ولا راد لقضائه. . .

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو لا بدّ أن يكون بصيغة الماضي، ونفي المولودية عنه سبحانه لاقتضائها المادة فيلزم التركيب المنافي للغنى المطلق، والأحدية الحقيقية، أو لاقتضائها سبق العدم ولو بالذات أو لاقتضائها المجانسة المستحيلة على واجب الوجود، وقدم نفي الولادة لأنه الأهم لأن طائفة من الكفار توهموا خلافه بخلاف نفي المولودية، أو لكثرة متوهمي خلاف الأول دون خلاف الثاني بناء على أن النصارى يلزمهم بواسطة دعوى الاتحاد القول بالولادة والمولودية فيمن يعتقدونه إلهاً، وذلك على ما تضمنته كتبهم أنهم يقولون الأب هو الأقنوم الأول من الثالوث، والابن هو الثاني الصادر منه صدوراً أزلياً مساوياً بالأزلية له، وروح القدس هو الثالث الصادر عنهما كذلك، والطبيعة الإلهية واحدة، وهي لكل من الثلاثة، وكل منها متحد معها، ومع ذلك هم ثلاثة جواهر لا جوهر واحد، فالأب ليس هو الابن، والابن ليس هو الأب، وروح القدس ليس هو الأب، ولا الابن، وهما ليسا روح القدس، ومع ذا هم إله واحد اذ لهم لاهوت واحد وطبيعة واحدة وجوهر واحد، وكل منهم متحد مع اللاهوت، وإن كان بينهم تمايز، والأول هو الوجود الواجب الجوهري، والثاني هو العقل الجوهري، ويقال له العلم، والثالث هو الإرادة الجوهرية، ويقال لها المحبة، فالله ثلاثة أقانيم جوهرية، وهي على كل تمايزها تمايزاً حقيقياً، وقد يطلقون عليه إضافياً أي بإضافة بعضها إلى بعض جوهر وطبيعة واحدة هو الله، وليس يوحد فيه غيره، بل كل ما هو داخل فيه عين ذاته، ويقولون إن فيه تعالى عما يقولون أربع إضافات: أولاها فاعلية التعقيل في الأقنوم الأول، وثانيتها مفعولية التعقل في الأقنوم الثاني الذي هو صورة عقل الأب، ثالثتها فاعلية الانبثاق في الأقنوم الأول، والثاني اللذين لهما الإرادة، رابعتها مفعولية هذا الانبثاق في الأقنوم الثالث الذي هو حب الإرادة الإلهية، التي هي للأقنوم الأول، والثاني، وزعموا أن التعبير بالفاعلية والمفعولية في الأقانيم الإلهية على سبيل التوسع، وليست الفاعلية في الأب نحو الابن إلا الأبوة، وفيه وفي الابن نحو روح القدس ليست إلا بدء صدوره منهما، وليست المفعولية في الابن وروح القدس إلا النبوة في الابن والانبثاق في الروح، ويقولون كل ذلك مما يجب الإيمان به، وإن كان فوق الطور البشري، ويزعمون أن لتلك الأقانيم أسماء تلقوها من الحواريين، فالأقنوم الأول في الطبع الإلهي يدعى أباً، والثاني ابناً وكلمة وحكمة ونوراً وضياء وشعاعاً، والثالث روح القدس ومغرياً، وهو معنى قولهم باليونانية اراكليط، وقالوا في بيان وجه الإطلاق أن ذلك لأن الأقنوم الأول بمنزلة ينبوع، ومبدأ أعطى الأقنوم

الثاني الصادر عنه بفعل يقتضي شبه فاعله، وهو فعل العقل طبيعته وجوهره كله حتى أن الأقنوم الثاني الذي هو صورة الأول الجوهرية الإلهية مساو له كمال المساواة، وحد الإيلاد، وهو صدور حي من حي بآلة ومبدأ مقارن يقتضي شبه طبيعته، وهنا كذلك، بل أبلغ لأن للثاني الطبيعة الإلهية نفسها فلا بدع إذا سمي الأول أباً، والثاني ابناً، وإنما قيل للثاني كلمة لأن الإيلاد ليس على نحو إيلاد الحيوان والنبات، بل بفعل العقل، أي يتصور الأب لاهوته وفهمه ذاته، ولا شك أن تلك الصورة كلمة لأنها مفهومية العقل ونطقه، وقيل لها حكمة لأنه كان مولوداً من الأب بفعل عقله الإلهي الذي هو حكمة، وقيل له نور وشعاع وضياء لأنه حيث كان حكمة كان به معرفة حقائق الأشياء وانكشافها كالمذكورات، وقيل للثالث روح قدس لأنه صادر من الأب والابن بفعل الإرادة التي هي واحدة، والابن ومنبثق منهما بفعل هو كهيجان الإرادة بالحب نحو محبوبها، فهو حب الله، والله نفسه هو الروح الصرف، والتقدس عينه، ولكل من الأول والثاني وجه لأن يدعى روحاً لمكان الاتحاد، لكن لما دعي الأول باسم يدل على رتبته وإضافته إلى الثاني، والثاني كذلك اختص الثالث بالاسم المشاع، ولم يدع ابناً وإن كان له طبيعة الأب وجوهره كالابن لأنه لم يصدر من الأب بفعل يقتضي شبه فاعله يعني بفعل العقل، بل صدر منه فعل الإرادة، فالثاني من الأول كهابيل من آدم، والثالث كحواء منه، والكل حقيقة واحدة، لكن يقال لهابيل ابن، ولا يقال لها بنت، وقيل له مغزى لأنه كان عتيداً لأن يأتي الحواريين، فيغريهم لفقد المسيح عليه السلام، وأما الفاعلية والمفعولية فلأنهما غير موجودين حقيقة، والأبوة والنبوة ههنا لا تقتضيهما كما في المحدثات، ولذا لا يقال هنا للأب علة وسبب لابنه، وإن قيل هناك فالثلاثة متساوية في الجوهر، والذات، واستحقاق العبادة، والفضل من كل وجه، ثم إنهم زعموا تجسد الأقنوم الثاني، وهو الكلمة واتحاده بإشرف أجزاء البتول من الدم بقوة روح القدس، فكان المسيح عليه السلام المركب من الناسوت، والكلمة، والكلمة مع اتحادها لم تخرج عن بساطتها، ولم تتغير لأنها الحد الذي ينتهي إليه الاتحاد فلا مانع في جهتها من الاتحاد، وكذا لا مانع في جانب الناسوت منه، فلا يتعاصى الله تعالى شيء زعموا أن المسيح عليه السلام كان إلهاً تاماً، وإنساناً تاماً ذا طبيعتين ومشيئتين قائمتين بإقنوم إلهي، وهو أقنوم الكلمة، ومن ثم تحمل عليه الصفات الإلهية والبشرية معاً لكن من حيثيتين ثم إنهم زادوا في الطنبور رنة، وقالوا إن المسيح أطعم يوماً الحواريين خبزاً، وسقاهم خمراً، فقال: أكلتم لحمي، وشربتم دمي، فاتحدتم معي، وأنا متحد مع الأب إلى رنات اخر هي أشهر من أن تذكر، ويعلم مما ذكرنا أنه لا فرق عندهم بين أن يقال أن الله تعالى هو المسيح، وبين أن يقال إن المسيح ابنه، وبين أن يقال إنه سبحانه ثالث ثلاثة، ولذا جاء في التنزيل كل من هذه الأقوال منسوباً إليهم، ولا حاجة إلى جعل كل قوم لقوم منهم كما قال غير واحد من المفسرين والمتكلمين ثم لا يخفى منافاة ما ذكروه للأحدية والصمدية، وقولهم إن الأقانيم مع كونها ثلاث جواهر متمايزة تمايزاً حقيقياً جوهر واحد لبداهة بطلانه لا يسمن، ولا يغنى، وما يذكرونه من المثال لإيضاح ذلك فهو عن الإيضاح بمعزل وبعيد عن المقصود بألف ألف منزل وكنا ذكرنا في ضمن هذا الكتاب ما يتعلق ببعض عقائدهم مع رده إلا أنه كان قبل النظر في كتبهم، وقد اعتمدنا فيه ما ذكره المتكلمون عنهم، واليوم لنا عزم على تأليف رسالة تتضمن تحرير اعتقاداتهم في الواجب تعالى، وذكر شبههم العقلية والنقلية التي يستندون إليها، ويعولون في التثليث عليها حسبما وقفنا عليه في كتبهم مع ردها على أكمل وجه إن شاء الله تعالى، ونسأل الله تعالى التوفيق لذلك، وأن يسلك سبحانه بنا في جميع أمورنا أقوم المسالك فهو سبحانه الجواد الأجود الذي لم يجبه من توجه إليه بالرد. ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي لم يكافئه أحد، ولم يماثله، ولم يشاكله من صاحبة وغيرها، وقيل هو نفي للكفاءة المعتبرة بين الأزواج وهو كما ترى، وله صلة كفواً على ما ذهب إليه المبرد وغيره والأصل أن يؤخر إلا أنه قدم للاهتمام لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته عزّ وجلّ، وللاهتمام أيضاً قدم الخبر مع

ما فيه من رعاية الفواصل. . .

لا يتولد عنه غيره لأنه غير متولد عن غيره، وبين أنه تعالى وإن كان إلهاً لجميع الموجودات فياضاً للوجود عليها فلا يجوز أن يفيض الوجود على مثله، كما لم يكن وجوده من غيره، ثم عقب ذلك ببيان أنه ليس في الوجود، ما يساويه في قوة الوجود فمن أول السورة إلى الصمد في بيان ماهيته تعالى، ولوازم ماهيته ووحدة حقيقته، وإنه غير مركب أصلاً ومن قوله تعالى لم يلد إلى أحد في بيان أنه ليس ما يساويه من نوعه ولا من جنسه لا بأن يكون سبحانه متولداً، ولا بأن يكون متولداً عنه، ولا بأن يكون موازيا في الوجود وبهذا المبلغ يحصل تمام معرفة ذاته عزّ وجلّ. . .

القاسمي ج ١٧ ص ٢٩٠ ـ ٢٩٩

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذي لا يرتاب فيه، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن. قال أبو السعود: ومدار وضعه موضعه، مع عدم سبق ذكره، الإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد، وإليه يشير كل مشير، وإليه يعود كل ضمير «الله أحد»، أي واحد في الألوهية والربوبية. قال الزمخشري: (أَحَدٌ) بمعنى واحد. وقال ابن الأثير: (الأحد) في أسمائه تعالى، الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر. والهمزة فيه بدل من الواو. وأصله (وحد) لأنه من الوحدة. وفي (المصباح): يكون (أحد) مرادفاً (لواحد) في موضعين سماعاً:

أحدهما: وصف اسم البارىء تعالى، فيقال هو الواحد وهو الأحد، لاختصاصه بالأحدية. فلا يشركه فيها غيره. ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى. فلا يقال (رجل أحد) ولا (درهم أحد) ونحو ذلك.

والموضع الثاني: أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال. فيقال أحد وعشرون، وواحد وعشرون. وفي غير هذين يقع الفرق بينهما في الاستعمال، بأن (الأحد) لنفي ما يذكر معه، فلا يستعمل إلا في الجحد، لما فيه من العموم، ونحو ما قام أحد. أو مضافاً نحو (ما قام أحد الثلاثة). و(الواحد) اسم لمفتتح العدد. ويستعمل في الإثبات، مضافاً وغير مضاف. فيقال (جاءني واحد من القوم). انتهى.

وقال الأزهريّ: الواحد من صفات الله تعالى، معناه أنه لا ثاني له. ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد. فأما (أحد) فلا ينعت به غير الله تعالى، لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه.

قال الإمام: ونكّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد، لا بأنه لا واحد سواه. فإن الوحدة تكون لكل واحد. تقول (لا أحد في الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها. والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعدد في ذاته. فأراد نفي ذلك بأنه أحد. وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من المجوس، وما يعتقده القائلون بالثلاثة، منهم ومن غيرهم.

وسيأتي لابن تيمية كلام آخر في سر إيثاره بالتنكير ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي الذي يصمد إليه في الحوائج، ويقصد إليه في الرغائب. إذ ينتهي إليه منتهى السؤدد، قاله الغزاليّ في (المقصد الأسنى). وهكذا قال ابن جرير: الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه، الذي لا أحد فوقه، وكذلك تسمى أشرافها. ومنه قول الشاعر:

ألا بَكَرَ النَّاعي بخَيْرَيْ بني أَسَدْ
بعَمْرِو بن مسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

قال الشهاب: فهو (فَعَلَ) بمعنى مفعول. وصمد بمعنى قصد. فيتعدى بنفسه وباللام وإلى. وقال ابن تيمية رحمه الله: وفي الصمد للسلف أقوال متعددة، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب. . .

ثم توسع رحمه الله في مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه، إلى أين قال:

وإنما أدخل اللام في (الصمد)، ولم يدخلها في (أحد) لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف. ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده. وإنما يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة

وفي العدد المطلق. وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين، كما تقدم، فلم يقل صمد بل قال ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه. فإنه المستوجب لغايته على الكمال. والمخلوق، وإن كان صمداً من بعض الوجوه، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه. فإنه يقبل التفرق والتجزئة. وهو أيضاً محتاج إلى غيره. فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه، فليس أحد يصمد إليه كل شيء، ولا يصمد هو إلى شيء، إلا الله. وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم وينفصل بعضه من بعض. والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه.

وقال أبو السعود: وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل من استحقاق الألوهية. وتعرية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى. بيّن أولاً ألوهيته عزّ وجلّ المستتبعة لكافة نعوت الكمال، ثم أحديّته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه. وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها. ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتيّ عما سواه، وافتقار جميع المخلوقات إليه، في وجودها وبقائها وسائر أحوالها، تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح. ثم صرح ببعض ما يندرج فيما تقدم، بقوله سبحانه «لم يلد» تنصيصاً على إبطال زعم المفترين في حق الملائكة والمسيح. ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي. أي لم يصدر عنه ولد، لأنه لا يجانسه شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. كما نطق به قوله تعالى ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾ [الأنعام: ١٠١] ولا يفتقر ما يعنيه أو يخلفه، لاستحالة الحاجة والفناء عليه، سبحانه. انتهى.

وقال ابن تيمية: وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة، كل أفرادها. سواء سموها حسية أو عقلية، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة، والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها، هل هي جواهر أو أعراض؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة. وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم، الذين جعلوا له بنين وبنات، قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وقال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١ ـ ١٥٢] وكانوا يقولون: الملائكة بنات الله. كما يزعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة، وهي متولدة عن الله، فقال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] والآيات في هذا كثيرة...

فهو سبحانه منزه عن ذلك ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي ولم يكن أحد يكافئه، أي يماثله من صاحبة أو غيرها. وقال الإمام: الكفؤ معناه المكافىء والمماثل في العمل والقدرة. وهو نفي لما يعتقده بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً. فقد نفى بهذه السورة.

المراغي ج ١٠ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٦

هذه السورة تضمنت أهمّ الأركان التي قامت عليها رسالة النبيّ ﷺ، وهي توحيد الله وتنزيهه، وتقرير الحدود العامة للأعمال، ببيان الصالحات وما يقابلها، وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب، وقد ورد في الخبر: «إنها تعدل ثلث القرآن» لأن من عرف معناها، وتدبر ما جاء فيها حق التدبر، علم أن ما جاء في الدين من التوحيد والتنزيه تفصيل لما أجمل فيها...

وأثر عن ابن عباس أنه قال: لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد ما وُلد عيسى وعُزَير، وهو ردّ على النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، وعلى اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله...

سيد قطب ج ٦ ص ٤٠٠٢ ـ ٤٠٠٥

. . . فإن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. . هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. . وقد تضمنت السورة ـ من ثم ـ أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة. . .

إنها أحدية الوجود. . فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي ـ من ثم ـ أحدية الفاعلية. فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فاعلاً في شيء، في هذا الوجود أصلاً. وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً. .

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود ـ إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً!

ـ فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي. ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية. فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة. . . فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهاق. يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة. وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها ـ وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله. لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب. ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت. . وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني. ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. . ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ١٢٦]. . ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. . وغيرها كثير. . .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود!

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبتهم إلى بعيد! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوّماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله. وأن لا وجود إلا وجوده. وأن لا فاعلية إلا فاعليته. . . ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق!.

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده. الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته.

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة. في السراء والضراء. في النعماء والبأساء. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟!

ومنهج للتلقي عن الله وحده. تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد. فالتلقي لا يكون إلا عن الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير.

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده . . ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة. سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود!

ومنهج يربط ـ مع هذا ـ بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب. فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها . . فكلها خارجة من يد الله؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيع طليق . . . الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية . . . ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ولا الكراهية ولا الهروب . . . إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها . . . ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما. كما أسلفنا.

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير. ولكن الإسلام لا يريده. لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص. إنه طريق أشق، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان. أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه . . . وهذا هو الانطلاق. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية. وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم . . .

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب. لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب.

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات.

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء. وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة. فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة . .

ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد. وأنه لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد . . ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح:

«الله الصمد» . . ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه. والله ـ سبحانه ـ هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد. وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات. وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد . . .

وهذا كذلك يتحقق بأنه «أحد» ولكن هذا توكيد وتفصيل . . . وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله ـ بزعمهم ـ ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض. وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان!!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه. وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه ـ في صلاة الفجر ـ بالقراءة بهاتين السورتين . . وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه . . .

المصادر

١ ـ الآلوسي، محمود شكري. **روح المعاني**. القاهرة: إدارة الطباعة المنيرة. ٣٠ ج. توفي ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م.

٢ ـ ابن عربي، محيى الدين. **تفسير القرآن الكريم**. بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٨. جزءان. توفي ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م.

٣ ـ ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل. **تفسير القرآن العظيم**. القاهرة: دار الفكر. ٤ أجزاء. توفي ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م.

٤ ـ أبو حيان الأندلسي: **التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط**. الرياض: مطابع النصر الحديث. ٧ ج. توفي ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م.

٥ ـ البغوي، أبو محمد الحسين الفراء. **معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن**. توفي ٥١٦هـ/ ١١٢٢م.

٦ ـ البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**. بيروت: مؤسسة شعبان. ٥ ج. توفي ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م.

٧ ـ جوهري، طنطاوي. **الجوهر في تفسير القرآن العظيم**. القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣١. ٢٥ ج. من علماء القرن العشرين.

٨ ـ الخازن، علاء الدين علي بن محمد البغدادي. **تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل**. القاهرة: البابي الحلبي، ١٩٥٥. وبهامشه تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل للحسين بن محمد الفراء البغوي. ٧ أجزاء. توفي ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م.

٩ ـ الرازي: فخر الدين أبو عبد الله محمد. **التفسير الكبير**. طهران: دار الكتب العلمية. ٣٢ ج. توفي ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م.

١٠ ـ الزمخشري: أبو القاسم جار الله. **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. وبهامشه كتاب **الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال** للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي: ٤ أجزاء.

١١ ـ الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**. دار الفكر للطباعة والنشر. الطبعة الثالثة. ١٩٧٣. ٥ أجزاء. توفي ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م.

١٢ ـ الطباطبائي، محمد حسين، **الميزان في تفسير القرآن**. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١ ـ ١٩٨٥. ٢١ ج.

١٣ ـ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن. **مجمع البيان في تفسير القرآن**. بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٦١. ٣٠ ج. توفي ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م.

١٤ ـ الطبري، أبو محمد بن جرير. **جامع البيان في تفسير القرآن**. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٨. وبهامشه تفسير **غرائب القرآن** لنظام الدين الحسين بن محمد القمي النيسابوري. ٣٠ ج. توفي ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

١٥ ـ عبد الباقي، محمد فؤاد. **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٤. «عيسى» ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥؛ «مريم» ص ٦٦٥؛ «المسيح» ص ٦٦٦.

١٦ ـ عبده، محمد. **تفسير القرآن الحكيم**. القاهرة: مطبعة المنار، ١٩١٧ ـ ١٩٣٤. المشتهر باسم **تفسير المنار**. ١٢ ج. توفي سنة ١٩٠٥.

١٧ ـ القاسمي، جمال الدين. **تفسير القاسمي المسمى محاسن التنزيل**. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٧. ١٧ ج. توفي سنة ١٩١٤.

١٨ ـ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**. القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧. (مصور عن طبعة دار الكتب). ٢٠ ج. توفي ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م.

١٩ ـ سيد قطب. **في ظلال القرآن**. القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٨. ٦ أجزاء. توفي سنة ١٩٦٦.

٢٠ ـ الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. **تفسير الماوردي**. توفي ٤٥٠هـ/١٠٥٨م.
٢١ ـ المحلي: جلال الدين، وجلال الدين السيوطي. **تفسير الجلالين**. دمشق: دار القلم. توفي المحلي ٨٦٤هـ/١٤٥٩م. توفي السيوطي ٩١١هـ/١٥٠٥م.
٢٢ ـ المراغي، أحمد مصطفى. **تفسير المراغي**. القاهرة: البابي الحلبي، ١٩٤٧. ٣٠ ج. من علماء القرن العشرين.